

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم



الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية

المجلد الرابع

الأمة العربية : الضعف والتحدي

(من أواسط القرن الخامس هـ إلى بدايات القرن العاشر هـ /
أواسط القرن الحادي عشر م إلى بدايات القرن السادس عشر م)

القسم الأول

الوطن العربي في مواجهة الأخطار الخارجية
(447 - 656 هـ / 1055 - 1258 م)

تونس 1429هـ / 2008م



إن الآراء والأفكار التي تنشر بأسماء كتابها
لا تحمل بالضرورة وجهة نظر المنظمة

الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية

المجلد الرابع : الأمة العربية – الضعف والتحدي

القسم الأول : الوطن العربي في مواجهة الأخطار الخارجية

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم – تونس 2008 (664 صفحة)

ISBN (978-9973-15-244-2)

يصدر الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية بدعم وتمويل
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

طبع بمطبعة جامعة الدول العربية - المعادى

تقديم المدير العام

التاريخ جزء من كيان كل أمة، منه تنطلق لتعيش حاضرها وتواجه غدها. لكن التاريخ ، في نظر أمتنا العربية ، أكثر من ذلك: فهو أحد القواسم المشتركة التي تؤسس لوحدتنا الثقافية، وتؤكد انتماءنا لفضاء حضاري واحد من خلال ترابط المصير على امتداد قرون من الزمن.

من هذا المنطلق القومي بدت للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ضرورة إعداد هذا الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية الذي يسعدني أن أضع مجلده الرابع - بقسميه الأول والثاني - بين يدي القارئ؛ استكمالاً لعمل موسوعي طويل النفس أردناه إسهامًا جديًّا من المنظمة في توفير المرجع العلمي الموضوعي في مادة ندرت فيها المراجع التي تتناول تاريخ العرب من وجهة نظر قومية شاملة، وبأسلوب تحليلي رصين.

فقد عملنا في هذا المرجع من منطلق الإيمان العميق بوحدة الأمة العربية عبر العصور؛ وذلك بإظهار وحدة التيارات التاريخية والحضارية وترابط الأقطار العربية في مختلف مراحل التاريخ. كما حرصنا على إبراز الجانب الإنساني في تاريخ العرب، مركزين على الإنجازات الحضارية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية لأمتنا وما قدمته من إسهامات فاعلة في مسيرة الحضارة الكونية، مع التركيز على الجوانب المشتركة في هذا العطاء وعلى كل ما يؤكد عناصر وحدة الأمة العربية.

وبصدور "الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية"، ومن قبله "الكتاب المرجع في جغرافية وطن عربي دون حدود"، تكون المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم قد قطعت أشواطًا مهمة في المسيرة التي رسمتها من أجل إنتاج الكتب المرجعية المتخصصة التي تعرف بالوطن العربي في مختلف جوانبه وتؤكد على مظاهر وحدته، فضلاً عن أنها توفر المادة العلمية المرجعية لواضعي المقررات والكتب المدرسية في الوطن العربي؛ بما يحقق التقارب بين أبناء الأمة في مختلف الأقطار العربية.

ولم يكن لمثل هذه المشروعات الكبرى أن تشهد النور لولا حماسة عدد من أبناء هذه الأمة. ولا بد لي في هذا الصدد، من توجيه شكر حار إلى الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى وقائدها العقيد معمر القذافي على ما قدمته للمنظمة من دعم مادي ومعنوي؛ مكن هذا الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية من أن ينتقل من طور المشروع إلى طور الفعل والإنجاز.

ويمتد الشكر مستحقًا إلى النخبة البارزة من العلماء والباحثين العرب الذين أسهموا في هذا العمل القومي الجليل بفكرهم وخبرتهم حتى يصدر على هذا النحو العلمي المشرف، وكذلك إلى اللجنة العلمية للمشروع وأمانتها للجهد المبذول في التخطيط؛ والمتابعة، بما حقق نجاح المشروع.

إنني إذ أقدم هذا العمل لأبناء أمتنا العربية، فإنني أرجو أن يكون عملاً نافعًا يسهم في بناء فكر أبناء هذه الأمة ويعرفهم بماضيهم من أجل مستقبل هم فاعلوه.

وعلى الله قصد السبيل...

المدير العام

د. المنجي بوسنينة

مقدمة المجلد الرابع

يتناول القسم الأول من المجلد الرابع "الوطن العربي في مواجهة الأخطار الخارجية (447-656هـ / 1055- 1258م)" عددًا من المواضيع الهامة مثل الأوضاع السياسية والعسكرية والمؤسسات الإدارية والاجتماعية والاقتصادية خلال عهدي الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية (الفصلان الأول والثاني).

كما يدرس الغزو المغولي والتوغل الصليبي من جهة وطرق مواجهتهما من قِبَل السلاجقة والزنكيين والأيوبيين في كل من العراق ومصر والشام من جهة أخرى (الفصل الثالث).

وفي الوقت نفسه يهتم هذا القسم بتطور الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في الجزيرة العربية والمغرب والأندلس (الفصل الرابع) ، مع التأكيد على أهمية الهجرة الهلالية وآثارها ببلاد المغرب ثم ظهور حركتي المرابطين والموحّدين وما ترتب عليهما من توحيد بلاد المغرب والأندلس والقضاء على الطوائف والتصدي للغزو الأوروبي الصليبي (الإسبان والنورمان وحلفائهم) (الفصل الخامس).

والله وصالح الأمة العربية من وراء القصد...

رؤساء التحرير

المشرف العام: الأستاذ الدكتور المنجي بوسنينة

المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

المشاركون في التأليف

(وفق ترتيب الأبحاث)

1 - أ.د. عبد المنعم رشاد (العراق) جامعة الموصل.
2 - أ.د. سهيل بن علي زكار (سوريا) جامعة دمشق.
3 - أ.د. نهى فضل الله حميد (سوريا) جامعة دمشق.
4 - أ.د. أحمد عبد الرزاق أحمد (مصر) جامعة عين شمس.
5 - أ.د. أمينة محمد بيطار (السعودية) جامعة الملك سعود.
6 - أ.د. زبيدة محمد عطا (مصر) جامعة حلوان.
7 - أ.د. عبد الرحمن شجاع (اليمن) جامعة صنعاء.
8 - أ.د. محمد عبده السروري (اليمن) جامعة صنعاء.
9 - أ.د. إدريس الحرير (ليبيا) جامعة قاريونس.
10 - أ.د. إبراهيم حركات (المغرب) جامعة الرباط.
11 - أ.د. راضي دغفوس (تونس) جامعة تونس.
12 - أ.د. إبراهيم القادري بوتشيش (المغرب) جامعة المولى إسماعيل.
13 - أ.د. عبد الحميد حاجيات (الجزائر) جامعة تلمسان.
14 - أ.د. علي عبد القادر (تونس) جامعة تونس.
15 - أ.د. سعيد علي حامد (ليبيا) مصلحة الآثار - طرابلس.

اللجنة العلمية

لمشروع الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية

أ.د. أحمد يوسف أحمد محمد
أستاذ العلاقات الدولية ومدير معهد البحوث والدراسات العربية - مصر

أ.د. إدريس الحرير
"نائب رئيس اللجنة العلمية"
أستاذ التاريخ بجامعة قاريونس - ليبيا

أ.د. أبو القاسم سعد الله
أستاذ التاريخ بجامعة الجزائر - الجزائر

أ.د. بهجة كامل عبد اللطيف
أستاذ التاريخ بكلية الآداب - جامعة بغداد - العراق

أ.د. خيرية قاسمية
"مقررة اللجنة العلمية"
أستاذ التاريخ بجامعة دمشق - سوريا

أ.د. راضي دغفوس
أستاذ التاريخ بكلية 9 أبريل - تونس

أ.د. رءوف عباس حامد
أستاذ بكلية الآداب - جامعة القاهرة - مصر

أ.د. عبد الرحمن الطيب الأنصاري
"رئيس اللجنة العلمية"
رئيس قسم الآثار والمتاحف - جامعة الملك سعود - السعودية

أ.د. محمد إبراهيم أبو سليم
أستاذ التاريخ المعاصر - دار الوثائق- السودان

أ.د. يوسف عبد الله
أستاذ التاريخ - جامعة صنعاء - اليمن

أ.د. يونان لبيب رزق
أستاذ التاريخ ورئيس قسم الدراسات التاريخية بمعهد البحوث والدراسات العربية - مصر

الفصل الأول - الخلافة العباسية والسلاجقة
(447-567هـ / 1055-1171م)

أولاً : الأوضاع السياسية والعسكرية .

ثانيًا : المؤسسات الإدارية .

ثالثًا : الغزو المغولي ونهاية الخلافة (656هـ / 1258م) .

أولاً : الأوضاع السياسية والعسكرية

العصر الأول : عصر التبعية للسلاجقة

(447 - 552هـ / 1055 - 1157م)

السلاجقة مجموعة من القبائل التركية المعروفة بالأغوز أو الغز. وقد هاجرت من أقصى التركستان خلال القرن الثاني والثالث والرابع للهجرة، واتجهت غربا، واستقرت في بلاد ما وراء النهر وخراسان. وقد ظهر اسم السلاجقة- نسبة إلى رئيسها سلجوق بن رقاق - في أواخر القرن الرابع للهجرة/ العاشر الميلادي.

سكنت هذه القبائل في المرتفعات القريبة من بحيرة خوارزم - الأرال - ثم تجولت بالقرب من السواحل الشرقية لبحر قزوين (بحر الخرز). وكانت منازل السلاجقة تتركز في الشتاء حول (تور) بالقرب من بخارى، وتتجمع في الصيف حول (سغر) بالقرب من سمرقند. كان السلاجقة بدوا لا يستقرون في مكان واحد. وقد غلبت عليهم طبيعتهم البدوية حتى نهاية حكمهم، واستعانوا بالموظفين الإيرانيين في إدارة شؤون دولتهم عندما أسسوها. وبعد ضعف الدولة الغزنوية وتفككها، ورث السلاجقة أجزاءها الخراسانية بعد انتصارهم الحاسم على السلطان الغزنوي مسعود ابن محمود في معركة الراندقان الحاسمة.

بدأت العلاقة بين الخلافة العباسية والسلاجقة بحدود سنة (432هـ/1040م)، إذ أرسل السلاجقة رسالة إلى الخليفة القائم بينوا فيها أنهم في خدمته وخدمة الإسلام، وأنهم سند لأمير المؤمنين، فسرّ الخليفة بذلك وتبادل الوفود والخلع والهدايا معهم. واعترف الخليفة بقيام دولتهم، وزاد ذلك من تحسن العلاقة بين الطرفين، خاصة وأنهم كانوا ينظرون إلى الخليفة العباسي على أنه الرئيس الأعلى للمسلمين.

في هذا الوقت عاش العراق والخلافة العباسية مرحلة صعبة بسبب التدهور الاقتصادي وما رافقه من اضطرابات اجتماعية كثيرة، وعدم قدرة البويهيين على السيطرة على الأمور، فبدأت دولتهم بالتفكك والضعف، ودفع ذلك الخليفة العباسي القائم بأمر الله إلى محاولة التخلص من سيطرتهم المقيتة والعمل على إحياء الخلافة العباسية واستعادة الخليفة لسلطته، ممّا جعله يستنجد بالسلاجقة. وكان هؤلاء ينتظرون هذه الفرصة بلهفة واضحة لاحتلال العراق والقضاء على السيطرة البويهية، فسار طغرل بك زعيمهم في المحرم من سنة (447هـ/1055م) نحو العراق، وفي يوم 25 رمضان 447هـ/18 ديسمبر/ كانون الأول من سنة 1055م، دخل طغرل بك بغداد، وتليت الخطبة باسمه، ولقب بالسلطان "ركن الدين أبو طالب طغرل بك محمد بن ميكائيل يمين أمير المؤمنين"، وبذلك بدأ الحكم السلجوقي في العراق.

إلا أن سلوك السلاجقة لم يختلف كثيرا عن سابقيهم البويهيين، لهذا فإن أهل بغداد لم يرحبوا بهم خاصة بعد أن نزلوا في بيوت الناس، مما أثار غضب سكان الرصافة - بغداد الشرقية فثاروا

عليهم، فنشب القتال بين الطرفين وذهب ضحيته الكثير من الناس بسيوف السلاجقة، حتى إن الخليفة هدد بترك بغداد ما لم يوقف السلاجقة تعدياتهم واضطهادهم للناس. وانتشر السلاجقة في سواد بغداد، وأسرفوا بالنهب والاستيلاء على الأموال .

كان العراق يواجه مشاكل عديدة عند مجيء السلاجقة وخاصة الخطر الفاطمي، الذي انحاز إليه عدد من القيادات العراقية المحلية كأمراء الموصل العقيليين وأمراء الحلة من بني مزيد والقائد التركي البساسيري، بسبب كثرة الأموال التي وزعها هؤلاء على الأمراء من أجل الدعوة لهم في العراق. ولم ينه دخول السلاجقة المشكلة لأنهم سرعان ما تعرضوا لمخاطر كبيرة بسبب ثورة قام بها أخو السلطان طغرل غير الشقيق، إبراهيم ينال، مما دفع طغرل إلى مغادرة بغداد والالتحاق بالمتحالفين ضدَ الخلافة، وتمت السيطرة على بغداد، ودُعِيَ للخليفة الفاطمي على جميع منابر العراق ولمدة سنة كاملة (450هـ/1058م)، وأخِذ الخليفة القائم أسيرا وأودع رهينة عند أحد شيوخ البدو بالقرب من عانة خلال هذه السنة. إلا أن المشروع الفاطمي أحبط بسبب كثرة تكاليفه التي أفلست ميزانية المستنصر الفاطمي، ولاسيما أنّ نيات خُلفاء الفاطميين في العراق كانت الاستفادة المالية أكثر مما كانت مبدئية، مما جعل هذا المشروع يفشل وتتخلى عنه القاهرة.

وبعث الخليفة القائم برسالة استنجاد إلى طغرل بك جاء فيها: "بحق الله أدرك الإسلام، فقد ساد العدو اللعين وأخذ ينشر مذهب القرامطة". وبعد انتصار السلطان عاد إلى العراق، وأنقذ الخليفة، وأعاده إلى الحكم، وعدَّ نفسه صاحب فضل على الخلافة العباسية ومنقذها من الخطر الفاطمي بقضائه على المتمرد البساسيري سنة (450هـ/1058م).

لم تخل العلاقة بين السلاطين السلاجقة والخلافة العباسية من مشاكل ومواجهات حتمتها طبيعة السلاجقة البدوية وطموحات الخلفاء الاستقلالية. فبعد أن حسمت الخلافات بين الخليفة وطغرل بك عاد هذا الأخير يطلب ابنة الخليفة ليتزوجها. وهذا أمر لم يكن له مثيل من قبل، وهو زواج الموالي بالفتيات العباسيات.وقد امتنع الخليفة وحاول التسويف، إلا أن طغرل بك هدده حتى رضخ ووافق على تزويج ابنته من السلطان البالغ 70 سنة من العمر. وقال ابن الأثير عن هذا الزواج: "وهذا ما لم يجر للخلفاء مثله، فإن بني بويه مع تحكمهم ومخالفتهم لعقائد الخلفاء لم يطمعوا في مثل هذا ولا ساموهم فعله".

وفي المحرّم من سنة 455هـ/ يناير/ كانون الثاني 1063م وصل السلطان بغداد حيث زفت إليه ابنة الخليفة. وقد امتعض أهل بغداد من قدوم السلطان إليهم مع جيشه حيث نزل الأتراك في دور الناس وأخرجوهم منها وأوقدوا أخشاب الدور بسبب شدة البرد، كما أساءوا التصرف مع حرم الناس واعتدوا على بعض حمامات النساء، فهب أهل بغداد للدفاع عن شرفهم، إلا أنّ الجيش السلجوقي حسم الموقف لصالح الأتراك، لهذا كان أهل بغداد يتبرمون وينزعجون من مجيء السلاطين إلى مدينتهم. وغادر السلطان بغداد يوم الأحد 12 ربيع الأول من سنة (455هـ/1063م) وكان مريضا فتوفي في مدينة الري يوم الجمعة 8 رمضان من السنة نفسها. وعند وصول الأنباء إلى بغداد استعد الخليفة لمواجهة كل الاحتمالات وخاصة الشغب وفقدان الأمن، لعدم وجود قوة رادعة في بغداد، كما قام ضامن بغداد ببناء سور على قصر عيسى، وجمعت الغلات الزراعية وخزنت خوفا من حدوث المجاعة والنهب، وكتب إلى زعماء الموصل من

العقيليين وأصحاب الحلة وكذلك القبائل الكردية الجاوانية للقدوم إلى بغداد، كما استعد الخليفة للحصار. وقد حدث ما توقعته الخلافة، فقد انتشر البدو، وقطعوا الطرقات، وعمدوا إلى السلب والنهب. كما أن مسلم ابن قريش حاكم الموصل أساء التصرف في بغداد حيث احتل دار المملكة، المقر الرسمي للسلطان السلجوقي، وحاصر دار الخلافة ونهب جزءا منها، كما تعرض لأملاك الخليفة الخاصة ولأصحاب الأراضي وقرر عليهم مالاً ونهب من امتنع عن الدفع. لذلك تعطلت الزراعة، ونهبت أطراف بغداد، واستاق النهابون من عقرقوف الكثير من الجواميس. ويظهر أن العيارين قد لعبوا دورا بارزا في الدفاع عن بغداد حيث حملوا السلاح لحماية الناس، وكثر عددهم بسبب ذلك.

وبعد أن استقرت السلطنة لألب أرسلان (455-465هـ/ 1063- 1072م) - ابن أخ طغرل بك، خفت حدة المشاكل في العراق وأخذ الهدوء يعود إليه، خاصة وأن السلطان الجديد لم يأت إلى العراق، كما أنه أرسل ابنة الخليفة إلى أهلها، وهذا ما ساعد على عودة الحياة الطبيعية إلى بغداد، لأن الناس كانوا يخشون قدوم السلطان خوفا من عبث جنوده وتعدياتهم وكذلك بسبب ارتفاع أسعار السلع. كان هذا السلطان منشغلا بحروبه في خراسان وما وراء النهر وآسيا الصغرى، مما جعله لا يفكر في زيارة بغداد خوفا من التورط بمشاكل العراق الداخلية، كما تساهل في الإبقاء على الإمارات المحلية في العراق شرط الخضوع لسلطته. وقد انتعشت الأحوال الاقتصادية في العراق وحصل الخليفة القائم على فرصة لتركيز حكمه وممارسة صلاحيات أكبر، فنراه مثلا يصر على عزل شحنة بغداد - أي الحاكم العسكري السلجوقي - اتيكين السليماني لأنه قتل أحد مماليك الخليفة. وعلى الرغم من شدة اهتمام الوزير نظام الملك بهذا الشخص فإنه عزله بسبب إصرار الخليفة وأرسل بدلا منه شحنة آخر.

واعتبارًا من سنة (463هـ/ 1070م) أصبحت دار الضرب في بغداد بيد وكلاء الخليفة الذي أراد إصلاح النقد لكثرة البهرج (الدنانير التي يكثر فيها المعدن الرخيص: النحاس) في أيدي الناس من السكة السلطانية، فضرب دينارا سمي الأميري ذكر اسم ولي العهد عليه ومنع من التعامل بسواه. وتوثقت العلاقات بين الخليفة والسلطان بتزويج ولي العهد - المقتدي بأمر الله - من ابنة السلطان في عام (464هـ/ 1071م).

توفي السلطان ألب أرسلان مقتولا بالقرب من سمرقند في أواخر شهر ربيع الأول من سنة 465هـ/ يناير/ كانون الثاني 1072م. وتولى السلطنة من بعده ابنه ملكشاه. وبعد ورود خبر وفاة السلطان إلى بغداد حدثت بعض الفتن الاجتماعية وتدخل الشحنة في الأمر ولم يكن حياديا بل انحاز إلى أهل الكرخ مما جعل هذه الفتن تستمر لمدة من الزمن.

وفي شباط من سنة (466هـ/ 1072م) غرقت بغداد نتيجة زيادة غير طبيعية في نهر دجلة وهطول الأمطار الغزيرة، وقد غرق الجانب الشرقي من بغداد بأكمله حتى إن الخليفة اضطر إلى مغادرة داره محمولا على ظهر أحد الخدم الذي عبر به إلى الجانب الغربي، الذي نجا معظمه من الغرق. وتلف نتيجة هذا الفيضان الكثير من أموال الناس، وانهدمت دور كثيرة، فكانت كارثة أصابت سكان بغداد بالأذى. وقد مرض الخليفة القائم نتيجة ما أصابه من تعب وإرهاق وبرد، وعاوده المرض إلى أن توفي في 13 شعبان من سنة 467هـ/ 3 نيسان/

أبريل 1074م. وبوفاته أصبح حفيده عبد الله المقتدي بأمر الله خليفة. ولما شاع خبر مرض الخليفة اضطربت أحوال الناس "وخيف من العيارين، وكانوا يقامرون ويقترضون على موت الخليفة لينهبوا".

وحدثت مشاكل اقتصادية في سنة (467هـ/1077م) بسبب نقصان ماء الفرات مما أدى إلى تعطيل الزراعة حتى إن فلاحين كثيرين تركوا أراضيهم الزراعية الواقعة على نهر الملك وجلوا بعوائلهم إلى واسط وطريق خراسان.

وفي سنة (469هـ/1076م) حدث وباء شديد في بغداد وامتد إلى واسط والجزيرة والشام، ومات من جرائه خلق كثير. ويظهر أن الخليفة أراد، عن طريق إزالة المواخير ودور الفساد احتسابا لوجه الله، أن يرفع البلاء عن الناس، ولكن الشحنة السلجوقي رفض عرض الخليفة بتعويضه ألف دينار عن إزالة هذه المواخير لأنها كانت إقطاعه، ووارده منها ألف وثمانمائة دينار، فكوتب الوزير نظام الملك بالموضوع، فعوض الشحنة من عنده وكوتب بإزالتها فأزيلت.

حاول الخليفة المقتدي بأمر الله أن يسير وفق سياسة أبيه في تقوية مركز الخلافة والعمل بشكل مستقل عن تدخل السلطان ووزيره. وقد جابهته الكثير من المعضلات، فالمدرسة النظامية التي أسسها نظام الملك في بغداد كانت مثار العديد من الفتن والمشاكل التي كان يخلقها مدرسوها من الشافعية والأشعرية، إذ أن الحنابلة كانوا لا يرضون بهؤلاء، لهذا كانت المدرسة بؤرة للفتن والمشاكل، وتكررت في العديد من السنوات في 463هـ/1070م و467هـ/1074م و475هـ/1082م، مما جعل السلطة السلجوقية تضع اللوم على الخليفة ووزيره ابن جهير المعروف بمناوءته للسلاجقة، لهذا نرى السلطان يؤكد على ضرورة عزل هذا الوزير، حتى قام الشحنة السلجوقي كوهرائين بمحاصرة دار الخلافة، وتدخل الوزير والسلطان وألحّا على الخليفة بعزل وزيره، وقد استجاب الخليفة لهم وعزله وعين ابنه عميد الدولة ابن جهير في الوزارة، وقام فخر الدولة بالذهاب إلى أصفهان حيث استرضى الوزير نظام الملك وتزوج بابنته مما جعل السلطة السلجوقية ترضى عن الوزير، إلا أن الخليفة صرف عميد الدولة عن الوزارة وعين أبا شجاع محمد بن الحسين نائبا في الوزارة، ونتيجة لطلب نظام الملك المُلح اضطر الخليفة إلى إعادة عميد الدولة ابن جهير.

وقد بقيت علاقة الخليفة مع بني جهير متوترة. وفي نهاية شهر صفر (467هـ/1074م) عزل الخليفة عميد الدولة عن الوزارة، وأمر بني جهير جميعهم بمغادرة بغداد، فغادروها إلى السلطان الذي قام بعقد ضمان ولاية ديار بكر لفخر الدولة، وخلع عليه خلعاً نفيسة، وسيّر معه العساكر، وأمره أن يقصد هذه الولاية ويأخذها من بني مروان.

عاد أبو شجاع إلى الوزارة، واتبع سياسة متشددة مع السلاجقة ووكلائهم في العراق، مما أدى إلى تبرم هؤلاء والإلحاح بعزله، فعزل في سنة (484هـ/1091م)، واضطر الخليفة إلى إعادة عميد الدولة ابن جهير إلى الوزارة بسبب ضغط الوزير السلجوقي والسلطان، اللذيْن كانا في بغداد آنذاك. وقد زاد نظام الملك في تكريم هذا الوزير فزاره في بيته لتهنئته بالوزارة.

وبدأت العلاقة بين السلطان والخليفة تتلبد بالغيوم لأكثر من سبب، فالسلطان أراد أن يكون ابن بنته-زوجة الخليفة - وليا للعهد، إلا أن الخليفة لم ترقه الفكرة، حتى إن ملكشاه في زيارته الثالثة لبغداد عام (485هـ/1092م) كان يقصد بالخليفة

شرًا حيث طلب بعد وصوله مباشرة من الخليفة مغادرة بغداد واختيار أي من المدن لإقامته، وانزعج الخليفة من ذلك وطلب إمهاله شهرا، فأجابه السلطان: "لا يمكن أن تؤخر ساعة واحدة". وأخيرا تم الاتفاق على إمهاله عشرة أيام، إلا أنّ السلطان مرض مرضا مفاجئا وتوفي في منتصف شوال سنة 485هـ/ 19 نوفمبر/ تشرين الثاني 1092م وبذلك تخلص الخليفة من هذه المحنة.

كانت هذه السنة سنة شؤم على السلاجقة. ففي العاشر من رمضان/ الرابع عشر من أكتوبر/ تشرين الأول اغتيل الوزير السلجوقي نظام الملك علي يد الإسماعيلية. وتوفي ملكشاه بعده بـ 35 يوماً فقط. وبذلك فقدت الإمبراطورية السلجوقية شخصيتين قويتين لهما من الحنكة السياسية والخبرة الإدارية والعسكرية ما مكنهما من إيصال هذه الإمبراطورية إلى أوج قوتها واتساعها. وبعد اختفائهما عن المسرح السياسي بدأت مرحلة من الضعف والانقسام والتنازع على السلطة، فالسلطان مات وعمره لا يتجاوز الثماني والثلاثين سنة، مخلفا أولادا صغار السن. وقد أدى هذا إلى انقسام دولته الواسعة بين الطموحين من إخوته وأولاده الصغار الذين أيدتهم أمهاتهم الطموحات من اجل الحصول على السلطنة، وأدى هذا الانقسام إلى اضطراب الأحوال السياسية والإدارية والاقتصادية في عموم أرجاء الممتلكات السلجوقية، وكان على كل من المتنازعين على السلطة من أجل أن يثبت مركزه، أن يصطنع الأعوان والمؤيدين من الحكام المحليين عن طريق إغداق الأموال والإقطاعات عليهم، وبذلك كان هؤلاء يضعفون أنفسهم ماديا، وأدى بالأعوان إلى الانحياز إلى من يدفع أكثر ويتنازل لهم عن النفوذ السياسي. كان هؤلاء السلاجقة ذوي الطبيعة البدوية، دائمي الحروب والمعارك فيما بينهم، ممّا جعل غالبيتهم تموت مبكرا تاركة أولادها الصغار تحت رعاية أوصياء - أتابكة. وهؤلاء الأتابكة كانوا من الرؤساء الأقوياء الذين كان يعتقد أنهم قادرون على رعاية مصالح هؤلاء الأمراء الصغار، وحماية حقوقهم. إلا أن الأتابكة كانوا، بمرور الوقت، يحصلون على السلطة الفعلية في الأقاليم التي يحكمونها باسم الأمراء السلاجقة .

ويصف ابن الأثير هذا الوضع بقوله: "فصارت الأموال منهوبة، والدماء مسفوكة، والبلاد مخربة، والقرى محرقة، والسلطنة مطموعا فيها محكوما عليها، وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قاهرين، وكان الأمراء الأكابر يؤثرون ذلك ويختارونه ليدوم تحكمهم وانبساطهم ودلالهم ...".

وقد عانى العراق من الحكم السلجوقي ومن فقدان الأمن لعدم وجود قوة رادعة لدى الخلفاء، لأن السلاجقة منعوهم من استخدام الجند للحماية مما جعل البلد يتعرض لعبث بعض القبائل، كقبيلة خفاجة التي عبثت بطرق المواصلات فانقطعت التجارة وقوافل الحج حتى أنه في سنة (486هـ/1063م) انقطع الحج من العراق لاضطراب أحواله بسبب مثل هذه الأخطار التي تعرضت لها طرق المواصلات. وفي سنة (489هـ/ 1099م) هاجمت هذه القبيلة ولاية صدقة بن مزيد-أمير الحلة-، وبعد جهود كبيرة استطاع صدقة أن يطردهم ويقتل عددا منهم.

كانت أسباب المواجهة بين الخلفاء والسلاطين كثيرة، فالسلاجقة يريدون السيطرة الكاملة على مقاليد الخلافة، بينما حاول الخلفاء التحرر من هذه السيطرة. وأخذت المواجهات تظهر وخاصة في عهد ملكشاه، فالخليفة المقتدي بأمر الله رفض تعيين ابنه من زوجته السلجوقية لصغر سنه،

وأردف ذلك بطرد جميع الغلمان الأتراك الذين كانوا بمعية هذه الزوجة إلى خارج حريم دار الخلافة، فأخرجوا عن آخرهم وعلى أقبح صورة ليلا بسبب اعتداء أحدهم على أحد المواطنين ببغداد. وأخيرا أمر الخليفة بإقامة سور للحريم في بغداد الشرقية ليقيها شر هجمات الطامعين ولحماية الأحياء السكنية من الغرق وليعزز خططه في التحرر. إلا أن السلاجقة فطنوا لما كان يرمي إليه، فمنعوا من إكمال بناء السور.

واستمر الخلفاء بمواجهة السلطة السلجوقية محاولين إضعافها والتخلص منها، وكان الخليفة المسترشد بالله (512-529هـ/1118-1134م) من أبرز هؤلاء في مجال مجاهدة السلاجقة والتصدي لهم. فقد بنى سوراً حول بغداد ليحمي العاصمة من شر تعديات الأتراك. وقد بدأ بإنشاء هذا السور سنة (517هـ/ 1123م) وأنفق عليه من ماله الخاص، وجعل العمل به تطوعا، وأصبح هذا السور رمز قوة واستقلال الخلافة، وهو ما أدى إلى زيادة حقد السلاجقة على الخليفة، واتبع المسترشد معهم سياسة الاحتواء والتشتيت بين المتنافسين على السلطنة من الأمراء ولاسيما بعد وفاة السلطان محمود سنة (525هـ/ 1130م) حيث أصبح كل الأمراء يسعون للحصول على سلطنة العراق، فاغتنم الخليفة هذه الفرصة لإضعافهم جميعا، بأن استجاب لكل من طلب الخطبة منهم، وفي الوقت نفسه أبلغهم بأن الحكم والخطبة تعود إلى السلطان الأكبر (سنجر). وكان هدف الخليفة زرع الفتنة بينهم وزيادة تنافسهم على رئاسة البيت السلجوقي، وأدى هذا إلى زيادة التخاصم والتناحر بينهم ثم دخولهم في حروب من أجل الحصول على لقب السلطنة والاعتراف به في بغداد.

وقد أحس السلطان سنجر بهذا الخطر وشعر بأن الخليفة كان يريد إشعال نار الفتنة بين السلاجقة، ويظهر هذا من رسالة أرسلها إلى ابن أخيه محمود يحذره فيها من التعاون مع الخليفة ضده، قال فيها: "والخليفة قد عزم على أن يمكر بي وبك، فإذا اتفقتما علي فرغ مني وعاد إليك، فلا تلتفت إليه". وقام الخليفة بتشكيل جيش من مختلف الفئات وخاصة من أهل بغداد بلغ تعداده خمسة عشر ألف فارس من أجل حماية أمن سكان عاصمته وسلامتهم، وبذلك بنى جبهة داخلية متراصة، وتقرب من علماء الدين ومن عامة الناس، وكان يباشر الأمور بنفسه. وقد حاول هذا الخليفة تقوية مركزه فقضى على تمرد دبيس بن صدقة وأعاد واسط والموصل إلى سيطرة الخلافة، وكان السلاجقة يحقدون عليه لاكثر من سبب، فقد أزال نفوذهم من العراق، كما حاول الإساءة إلى زوجة أبيه السلجوقية وصادر إقطاعها وطرد خدامها وأخذ خيولها، فأخبرت أخاها سنجر بالأمر، فغضب لذلك وأخبرها برسالة أنه سينتقم من الخليفة الذي فضح أخلاق السلاجقة.

وقد دبت الفتنة بين السلاجقة عند وفاة السلطان محمود وخاصة بين ابنه داود وعمه مسعود، وانتهت بانتصار مسعود وسيطرته على همدان فأخذ يتعرض للعراق، إلا أن طموحات أخيه طغرل شغلته عن قصد العراق. فلما توفي طغرل سنة (529هـ/1134م) تفرق أمراؤه ولجأ عدد منهم إلى بغداد، فرحب بهم الخليفة واستخدمهم في جيشه. وقد حسَن هؤلاء الأمراء للخليفة محاربة مسعود وهونوا عليه أمره، وكان الخليفة يخشى من مسعود وتطلعاته في السيطرة على العراق، لهذا قام في نهاية هذه السنة بالتهيؤ لمحاربة مسعود. وعند التقاء الجيشين "مال الجنس إلى الجنس فمال الترك إلى الترك، وأسلموا حرمة الإسلام المصونة إلى

التهتك"، ووقع الخليفة وعدد كبير من أصحابه في الأسر، وغنم جيش مسعود غنائم كثيرة، وأرسل مسعود شحنة من قبله إلى بغداد فانزعج أهلها وبدأت الفتن والحروب بين السلاجقة وأهل بغداد الذين حزنوا لأسر خليفتهم . وقام الشحنة بقبض جميع أملاك الخليفة واخذ غلاتها ،وثار جماعة من عامة بغداد فكسروا المنبر والشباك ومنعوا الخطبة، وخرجوا إلى الأسواق يحثون التراب على رؤوسهم ويبكون ويصيحون، وخرجت النساء حاسرات في الأسواق يلطمن، واقتتل أصحاب الشحنة وعامة بغداد فقتل من العامة ما يزيد على مائة وخمسين.

أما الخليفة فقد ترك وحيدا في خيمته في معسكر مسعود على مقربة من مراغة، وهناك هجم عليه جماعة أرسلها سنجر عم مسعود لقتله، وقيل إنهم من الباطنية "فعرف بقرائن الأحوال أن سنجر سيّر الباطنية لقتله، وما أشنع وأفظع ما أقدم عليه من فعله!". تمت عملية الاغتيال في يوم الخميس الثامن عشر من ذي القعدة سنة (529هـ/1134م)، ولما انتهى هذا الخبر إلى بغداد قام ولده وولي عهده بتحصين بغداد والتأهب لدفع من يقصدها بسوء، وقد بويع له في يوم السبت السابع والعشرين من ذي القعدة من السنة ولقب بالراشد بالله، وجلس في منصب الخلافة في ذي الحجة سنة (529هـ/1134م)، إلا أن مسعود لم يبايع هذا الخليفة لأنه خشي من طموحاته ومن تطلعه إلى التخلص من السيطرة السلجوقية، لهذا قال "لا أريد أن يجلس - في الخلافة- إلاّ من لا يداخل نفسه في غير أمور الدين ولا يجيز ولا يتخذ ولا يجمع ولا يخرج علي ولا على أهل بيتي". لكنه أوعز إلى الشحنة بالبيعة للخليفة الجديد، وسار الخليفة الجديد الراشد بالله على هدي سياسة أبيه، فلما طالبه رسول السلطان مسعود بالأموال (طالب بأكثر من مليون ونصف مليون دينار) رفض دفعها، بل هدد باستخدام القوة ضد السلاجقة، وحاول إعادة إعمار السور، كما قطع الخطبة لمسعود ودعا لداود بن محمود. وأخيرا وصل مسعود إلى بغداد وحاول استمالة قلوب الناس إليه فمنع النهب، وعزل الخليفة الراشد بحجة أنه خالف ما اتفق عليه مع السلطان من عدم تجنيد المخالف للسلطان، وأظهر وثيقة بخط الخليفة يتعهد بهذا، ويقول فيها "إنني متى جندت أو خرجت فقد خلعت نفسي من الأمر، فشهد الشهود أن هذا خط الخليفة ".

غادر الراشد بغداد بصحبة زنكي إلى الموصل خشية من مسعود،وقد تجددت الحروب بين الراشد ومسعود إلى أن قام الباطنية باغتيال الراشد سنة (532هـ/ 1137م) بالقرب من أصفهان، وبويع للخليفة المقتفي بأمر الله في أواخر سنة (1135/530)، وقام السلطان مسعود بعد البيعة لهذا الخليفة بمصادرة جميع ما كان في دار الخلافة من "خيل وبغال وأثاث وذهب وفضة وزوالي وستور وسرادق وحصر ومساند". كان هم السلاجقة هو الحصول على المال بأي شكل كان، فقد جاء أصحاب السلطان إلى صاحب المخزن يطالبونه بما استقر عليهم "فأدخلهم إلى دار الخلافة ودخل إلى حجر المسترشد والراشد وأظهر نساءهما وسراريهما وأمرهن بالكلام وإظهار ما عندهن من المال ... فأخذا تلك الليلة ما قدروا عليه من حلي ومتاع". هكذا استباح السلاجقة حرمة الخلافة، وهذا ما شجع الخلفاء على العمل الجاد للتخلص من سيطرة هؤلاء .

كانت سياسة السلاجقة منصبة على تجريد الخليفة من إمكانيات مقاومتهم، فسيطروا على كافة موارد الخليفة - على ضآلتها- ولم يبق له إلا العقار الخاص، وهي المنشآت الملحقة بدار الخلافة وقسم

منها كان أسواقا تؤجر وهذه أيضا لم تسلم من الاعتداء. وفي السنوات الأولى من خلافة المقتفي كثر تواجد السلطان مسعود في بغداد، فثقل وجوده على الخليفة وعلى الناس لتدخله في شؤون الخلافة وتعديات جنوده على الناس. وأراد أن يسيطر على الخلافة عن طريق المصاهرة، فزوج أخته من الخليفة، كما تزوج هو من ابنة الخليفة. ومع وجوده فإن الأمن في بغداد كان هشا حتى إنه في سنة (536هـ/1141م) ظهر العيارون بشكل علني، وأخذوا يكتسحون دور الناس والأسواق والحمامات في وضح النهار، وكل جماعة من هؤلاء العيارين احتموا بأمير من أمراء السلاجقة، حتى إن الناس لبست السلاح دفاعا عن نفسها، وكان وزير السلطان يحميهم ويجتمعون في داره، فساد الهرج والمرج الحياة الاقتصادية في بغداد، بل إن ابن عم السلطان ابن قاورت كان أحد زعماء العيارين. وفي سنة (538هـ/1143م) أمر السلطان بصلب هذا العيار وصلب معه ثلاثة من أصحابه، فسكن الحال قليلا. هكذا عاشت بغداد والخلافة العباسية فوضى متواصلة وسوء أوضاع اقتصادية، مع فقدان الأمن، وقد صاحب ذلك ضعف واضح في السلطنة السلجوقية. ففي سنة (543هـ/1148م) وصل التأزم في العلاقة بين مسعود وإدارته أن عصوا عليه وهاجموا بغداد، فلما راسل الخليفة السلطان طالبا منه المعونة بعد أن هرب شحنته من بغداد وعدم قدرة الخليفة عن الدفاع عن بغداد لأنه أعطى عهدا للسلطان بعدم تجنيد الجند للحرب فأحله السلطان من عهده، فقام المقتفي باتخاذ جيش استطاع أن يدافع به عن بغداد ضد تحديات العساكر السلجوقية، والتي حاولت استرضاء الخليفة بذلك، وأعاد الخليفة بناء السور ليمنع التعديات على عاصمته مستقبلا. وفي السنوات الأربع الأخيرة من حكم السلطان مسعود ضعفت السلطنة السلجوقية ضعفا واضحا لكثرة حروب السلاجقة مع بعضهم بعضاً وتجزؤ إمبراطوريتهم وتفككها نتيجة الصراعات الدامية التي خاضوها فيما بينهم، وملَّ الناس منهم مما أتاح الفرصة للخلافة العباسية أن تأخذ زمام المبادرة وتعيد إحياء قوتها العسكرية خاصة وأن الخليفة حظي بوزير في غاية الإخلاص والمثابرة هو ابن هبيرة.

وعندما توفي السلطان مسعود سنة (547هـ/1152م) زاد ضعف السلاجقة حتى أن ابن الأثير قال عن وفاته: "وماتت معه سعادة البيت السلجوقي فلم يقم له بعده راية يعتد بها ولا يلتفت إليها". وقال أبو شامة عن وفاة هذا السلطان: "فأزال الله يده ويد أتباعه عن العراق، وأورثنا أرضهم وديارهم، فتبارك الله رب العالمين مجيب دعوة الداعين".

وقد زاد الضعف بمرور الوقت وخاصة بعد النزاع على السلطنة بين أولاده وإخوته والأتابكة، وصار السلاطين ألعوبة في أيدي الأمراء وقواد الجيش وأتابكة أذربيجان خاصة. ويصفهم ابن العبري بقوله: "فكأنما سُلّ طين السلاطين من جفن الجفا، وجبلت جبلتهم من الإغفال والإغفاء، فالرحم عندهم مقطوعة، والعزة في خدمتهم بالذل مشفوعة، والاغترار بهم غرر، وصفوهم كدر،يقسمون ويحنثون، ويبرمون وينكثون ".

وبعد وفاة مسعود حدث الصراع على السلطنة بين ولدي أخيه محمود،محمد وملكشاه، انتصر فيها محمد وطلب أن يخطب له في بغداد، إلا أن الخليفة رفض ذلك فقرر السلطان الجديد أن يفرض نفسه بالقوة على الخلافة، فاستعدّ وقدم إلى العراق وانضاف له جيش من الموصل ووصل أطراف بغداد في أواخر سنة (551هـ/1156م).

أما الخليفة فقد استعد للحصار والمقاومة استعدادا واضحا، فأمر سكان الجانب الغربي الانتقال إلى الجانب الشرقي حيث توجد أسوار قوية للدفاع عنها، ووزع السلاح، وأمر بعمل العرادات والمجانيق، كما شحن المخازن بأنواع المؤن والأغذية، وجند كل القادرين على حمل السلاح من أهل بغداد، فضلا عمّا لديه من جند نظامي، كما هيأ الناس نفسيا للحصار، وسمح للوعاظ بالجلوس للوعظ بعد أن منعهم لأكثر من سنة ونصف. أما عدد جيش محمد فقد زاد على الثلاثين ألفا، فلما وصلوا نهبوا الجانب الغربي، وبدأ الحصار الفعلي يوم الاثنين العشرين من المحرم سنة (552هـ/1156م)، وكان الهجوم الأقوى يوم 16صفر من هذه السنة. إلا أن المقاومة كانت شديدة، وقد بذل الخليفة كل ما لديه للناس مؤنا أو آلات قتال، حتى قيل إن (زجاج الخاص) عمل في هذه النوبة ثمانية عشر ألف قارورة نفط، سوى ما كان لديهم منها، وقد وصلت الأنباء إلى الترك أن همدان استولى عليها ملك شاه منافس السلطان محمد، كما حدث خلاف بين محمد وقائد قوات الموصل زين الدين علي كجك - نائب الأتابك - الذي ملّ من طول الحصار ومن المقاومة الشديدة من أهل بغداد والتي لم يكن يتوقعها، فرحل بقواته تاركا محمد لوحده مما جعل هذا يرفع الحصار ويغادر هو أيضا في يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من ربيع الآخر. وقد انتقم أهل بغداد من السلاجقة فنهبوا دار السلطنة ولم يبق فيها شيء، واحتفلوا احتفالا شيقا بالنصر. وفي هذه السنة أيضا فقد السلاجقة ركنا مهما من أركان قوتهم هو السلطان سنجر الذي مات بعد حكم دام زهاء أربعين سنة، ولما وصل خبر موته إلى بغداد قطع ذكر اسمه من الخطبة ولم يجلس له في الديوان للعزاء.

بهذه الصورة زال الخطر عن الخلافة، وأصبح المقتفي لأمر الله الأول خليفة يحكم مستقلا عن السيطرة السلجوقية، وأخذت الخلافة تستعيد عافيتها. فلما توفي المقتفي سنة (555هـ/1160م) ترك دولة مستقلة قوية لا يتحكم فيها أحد، كما أخذت تستعيد نفوذها في العراق وفي العالم الإسلامي. وقد توافرت العديدُ من العوامل المساعدة على ذلك، فضعف السلطنة السلجوقية وانهيارها، ثم بروز صلاح الدين الأيوبي وقضاؤه على الدولة الفاطمية سنة (567هـ/ 1171م) وإعادة الخطبة والسكة للعباسيين، كلها أمور كانت تصب في صالح الخلافة العباسية التي بدأت تنتعش وتستعيد قوتها ونفوذها.

العصر الثاني : عصر الانتعاش
(552 - 640هـ / 1157 - 1242م)

كان عهد كل من الخليفتين المستنجد بالله والمستضيء بأمر الله (555-575هـ/1160-1179م) فترة انتقالية بين الخوف من السلاجقة وتعدياتهم العسكرية وبين قوة الخلافة واستقلالها الكامل في عهد الخليفة الناصر لدين الله (575-622هـ/1179-1225م) الذي استطاع أن يعيد الاعتبار والمهابة إلى الخلافة العباسية بسعيه الحثيث إلى تقوية مركزها الداخلي، وتوسيع رقعة المناطق الخاضعة للخلافة بصورة مباشرة، كما أصبح تدخله في شؤون الأمراء والملوك المسلمين أمرا واضحا وذلك لاحتياجهم إليه للحصول على التقليد بالحكم أو للتوسط لإنهاء نزاعاتهم المتواصلة أو من أجل التبرك بالاتصال به.

حدثت آخر الفتن في العراق على يد الأمير قطب الدين قايماز، (أمير تركي كان مقدم الجيش في عهد المستنجد)، وفي عهد المستضيء أصبح هذا الأمير ذا نفوذ واسع حتى أنه فرض سنة (567هـ/1172م) عزل الوزير عضد الدين بن رئيس الرؤساء. فلما أراد الخليفة إعادة هذا الوزير إلى منصبه سنة (569هـ/ 1173هـ) منع قطب الدين ذلك وأغلق أبواب دار الخلافة وأصبحت كالمحاصرة حتى أجاب الخليفة إلى ترك وزارته، عند ذلك طلب إخراج عضد الدين من بغداد، فأمر بالخروج منها فالتجأ إلى الشيخ صدر الدين عبد الرحيم بن إسماعيل فأخذه إلى رباطه وأجاره.

وفي سنة (570هـ/1175م) تجددت المشاغبات لقيام الأمير تنامش- والد زوجة قيماز بإرسال جند إلى بلد الغراف فقاموا بنهب الناس والاعتداء عليهم، فجاء هؤلاء إلى بغداد إلا أن السلطة لم تحفل بهم، لذا قاموا بالاستغاثة بجامع القصر في شوال، ومنعوا الخطيب، وفاتت الصلاة أكثر الناس، وأنكر الخليفة ما جري إلا أن قايماز وتنامش لم يحفلا بذلك، وزادت تعديات قطب الدين وحاول أذية ابن العطار - صاحب المخزن، وكان الخليفة يعتني به، فلما هرب هذا إلى دار الخلافة قام قايماز مع بقية الأمراء بالتظاهر بالشغب والعصيان وأحرقوا دار ابن العطار وتوجهوا إلى دار الخليفة، عند ذلك صعد الخليفة إلى سطح داره وظهر للعامة وأمر خادما فصاح واستغاث وقال للعامة: "مال قطب الدين لكم ودمه لي "فقصد الخلق دار قطب الدين للنهب، عند ذلك هرب هذا الأمير وأعوانه من بغداد، وأخذ العامة من داره أموالا لا تعد ولا تحصى، وتبعه تنامش وجماعة من الأمراء، فنهبت دورهم أيضا، وأخذت أموالهم، وأحرق كثير منها. وقد هرب هؤلاء إلى الحلة ثم اتجهوا نحو الموصل فلحقه ومن معه العطش في الطريق، فهلك العديد منهم، ومات قطب الدين قايماز قبيل وصوله إلى الموصل، أما تنامش فقد أعيد من الموصل إلى بغداد ولم يعاد إلى الخدمة إلى أن مات.

وبمجيء الناصر لدين الله إلى الخلافة سنة (575هـ/1179م) دبت حياة جديدة في أوصال الخلافة، فقد اهتم هذا الخليفة بالجيش وبالقوة العسكرية التي أصبحت درع الخليفة ويده الضاربة لردع الأعداء، والأداة الفاعلة في حماية الأمن

والاستقرار الداخلي. ومنذ بداية خلافته الطويلة استطاع أن يوسّع رقعة المناطق الخاضعة لبغداد، فسيطر على تكريت وهيت وحديثة وداقوق والأحواز والبصرة. وفي سنة (591هـ/ 1194م) استحوذ جيش الخليفة على بلاد الري وأصبهان وهمدان.

واستخدم الناصر الأسلوب الديبلوماسي الهادئ والرصين في معالجة الكثير من الأمور، فعندما طلب آخر السلاطين السلاجقة طغرل الثالث من الخليفة سنة (583هـ/ 1187م) أن يخطب له بالسلطنة في بغداد،قام الخليفة بهدم دار السلطنة ومحا أثرها لأنها كانت رمزا للتسلط على العراق. ثم راسل الجيش لمحاربته، كما حرّض الخوارزميين عليه حتى استطاعوا قتله سنة (590هـ/1193م)، وبذلك ارتاح الخليفة من خطر محدق أعاد إلى الذاكرة ما فعله أسلافه السلاطين سابقا بالعراق وأهله، وأقطع الخليفة بلاد طغرل للخوارزميين.

إلا أنّ متاعب الناصر لم تنته، فقد حلّ الخوارزميون محلّ السلاجقة في التصدي للخلافة ولطموحاتها في بلاد إيران، كما أنهم تطلعوا إلى أن يحلوا محل السلاجقة في التحكم بالخلافة ووضعها تحت هيمنتهم ،لهذه الغاية أرسل خوارزم شاه محمد رسالة إلى بغداد يطالب فيها بلقب السلطنة وبإعمار دار السلطنة سنة (611هـ/1214م) والخطبة له في بغداد، مؤكدا في رسالته على أنه لا يقل عن السلاجقة قوة واقتدارا، فأجيب رسوله بأن ظرفا معينا أدى إلى سيادة السلاجقة على بغداد والعراق والخلافة "وإلا فليس يحتم أن يكون مع الزمان على أكتاف الخلافة متحكم يأمر وينهى كيف شاء بما سر وساء". وحاول الناصر أن يجد له أعواناً في المشرق ضد طموحات الخوارزمية، فراسل ملك الغور شهاب الدين ومنحه لقب "سلطان" ولقب "قسيم أمير المؤمنين"، وهذا اللقب هو من أهم وأعظم الألقاب التي كان يمنحها الخليفة حتى اعتبر رمزا للسلطنة السلجوقية. وبذلك ضمن هذه القوة الإسلامية إلى جانبه، كما اتصل بالإسماعيلية في شمال إيران وزعيمهم الحسن الثالث، وأقنعه بالعودة إلى الإسلام الحنيف، وقد وافق على ذلك من أجل إيقاف تعديات الخوارزميين على أتباعه المنتشرين في شمال ووسط إيران.

لم تجد المراسلات نفعا في إقناع الخليفة بمنح علاء الدين محمد لقب السلطنة، لهذا قام سنة (614هـ/ 1218م) بالزحف باتجاه العراق من خوارزم، واستولى على معظم أرجاء إيران، وأراد دخول العراق حتى يسيطر على الخلافة بحدّ السيف، ولكن بعد مغادرته همدان بيومين سقط الثلج عليه وعلى جنده بكثافة شديدة مما جعل دوابهم تهلك من البرد، كما هاجمهم الأكراد فعاد خوارزمشاه إلى خراسان شبه مهزوم، فلما وصل نيسابور أمر الخطيب بترك الخطبة للخليفة الناصر بدعوى أنه مات وكذلك فعل في مرو وبلخ وبخارى وسرخس.

كانت هذه آخر مغامرات محمد خوارزمشاه، لأنه بعد هذه الواقعة انشغل بمشاكله مع المغول الذين استطاعوا ان يكتسحوا إمبراطوريته بسهولة ويسر، ولم يستطع محمد أن يثبت لهم في أي موقعة حربية، فقد كان يهرب أمامهم دون قتال ومات شريدا فريدا خائفا في جزيرة في بحر قزوين لجأ إليها خوفا ورعبا من المغول، وقد سيطر أولاده على مختلف أرجاء إيران خاصة ابنه جلال الدين منكبرتي الذي أصبح غصة في حلق الخليفة وأمراء الشام والجزيرة لكثرة حروبه ونهبه للبلاد، فقد أصبح كقاطع طريق لا يرحم ويتخذ كافة الذرائع لتحقيق أهدافه، حتى أنه اتهم الخليفة الناصر بأنه راسل المغول يحرضهم على غزو بلاد أبيه علاء الدين عندما قام هذا بالتوجه نحو العراق، وكانت

استعدادات الخليفة كبيرة لمواجهة المخاطر، ويقال إنه أنفق أكثر من مليون دينار على جنده ودفاعاته العسكرية.

كانت علاقة الناصر بالإمارات المنفصلة عن الخلافة العباسية علاقات سلمية، وأراد أن تستمرّ وتقوى بمرور الوقت، لهذا كان يكثر من إرسال الوفود والسفراء. فقد اعتاد أن يرسل سنويا مندوبين عنه إلى جميع الحكام المسلمين ومعهم كتب تقليدهم بحكم بلادهم،من أجل إعطائهم الصفة الشرعية في الحكم، مقابل أن تكون الخطبة والسكة باسمه. ومع هذه الكتب هدايا رمزية كالخلع أو سراويل الفتوة.

كما كان يرسل مندوبيه إلى هؤلاء الأمراء إذا حدثت نزاعات بينهم لإقرار السلم والتدخل بشكل فاعل كحكم ووسيط للتوفيق بينهم، إلا أنه كان ينزعج من الأقوياء والطموحين منهم إذا ما أرادوا أن يزيدوا من قوتهم ونفوذهم. فعندما سيطر الملك العادل الأيوبي على سنجار تدخل الناصر من أجل أن يتخلى عنها، لأنه كان يرى في العادل جارا قويا مزعجا له في العراق لهذا أرسل يطلب منه تركها لحاكمها السابق الزنكي. وفي سنة (615هـ/1218م) سار الملك الأشرف الأيوبي باتجاه أربيل، فمنعه الخليفة من ذلك لخوفه من ازدياد نفوذ الأيوبيين في شمال العراق، فاستجاب الأشرف وعاد إلى سنجار.

كما قام الناصر بتأسيس جهاز استخبارات متطور ليعرف أحوال البلاد الإسلامية. كما استغل نظام الفتوة والذي يعنى بتربية الحمام المناسيب - أو حمام البطاقة- لنقل الأخبار، فكانت الأنباء تصله تباعا وبأسرع الطرق، وكان يستثمر ذلك في إعطاء الانطباع بأنه يعرف الغيب.ولهذا كان الرسل يخفون ما يحملون من رسائل وهدايا وغيرها، إلا أن الخليفة كثيرا ما كان يكشف ذلك ويخبر الرسول بما يحمل من هدايا وتحف وأخبار. ويقول عنه ابن الطقطقي: "وكثرت جواسيسه وأصحاب أخباره عند السلاطين وفي أطراف البلاد، وله في مثل هذه قصص غريبة".

وكان من مصادر معلومات الناصر حراس الدروب الذين كانوا يبكرون بكتابة مطالعة إلى الخليفة، بما تجدد في دروبهم من اجتماع الأصدقاء على نزهة أو سماع أو غير ذلك، وكتبوا بكل شيء يحدث مهما كان صغير القدر، لهذا كان الناس في ضيق شديد من ذلك، فضلا عن تجوله في أطراف بغداد متنكرا ليطلع على أخبارها ليلا ونهارا أو ليعرف حقيقة ما يجري بعيدا عما يصله من أخبار عن الطريق الرسمي.

كما استخدم الناصر الفتوة لتقوية مركزه الداخلي وليقضي على الخلافات المذهبية التي كانت تهدد الأمن الداخلي ومن أجل ربط الحكام المسلمين بشخصه، فانضم إلى هذا التنظيم سنة (578هـ/1182م) حيث لبس سراويل الفتوة من شيخها عبد الجبار وبقي عضوا بسيطا إلى سنة (604هـ/1207م) حيث شاهد الخلافات الكثيرة بين الفتيان، وعدم قدرته على الاستفادة من التنظيم بصيغته تلك، لهذا قام بإعادة تنظيم الفتوة سنة (604هـ/1207م) وأصبح الناصر رئيسا عليها. وكان يجب أن تتوفر فيمن ينضم إلى الفتوة شروط كثيرة أبرزها التدين والمروءة، فتلازم الشريعة والفتوة أمر واضح، وكان شعار الفتيان هو "لا فتى إلا علي ولا سيف إلا ذو الفقار". فعليّ هو مؤسس الفتوة، والناصر أصبح وريث الإمام علي في رئاسة هذا التنظيم، كما كان الناصر وريث الخلفاء العباسيين العظماء.

وبهذه الطريقة ربط الناصر فتوته بالدين والشريعة. وفي سنة (607هـ/1210م) "شرب

ملوك الأطراف كأس الفتوة - من الماء والملح - للخليفة الناصر، ولبسوا سراويل الفتوة، فوردت عليهم الرسل بذلك ليكون انتماؤهم له، وأمر كل ملك أن يسقي رعيته ويلبسهم لتنتمي كل رعية إلى ملكها ففعلوا ذلك، وأحضر كل ملك قضاة مملكته وفقهاءها وأمراءها وأكابرها وألبسهم، وسقاهم كأس الفتوة. وكان الخليفة الناصر مغرما بهذا الأمر، وأمر الملوك أيضا أن تنتسب إليه في رمي البندق وتجعله قدوتها فيه. والرمي بالبندق هو أفضل التمرينات الرياضية التي يمارسها الفتيان لتعليمهم إصابة الهدف وتقوية أبدانهم. والبندق كرات من الطين يرمى بها بالمزاريق والأنابيب بضغط الهواء على مؤخرة الأنبوب أو بأقواس الجرخ بما يشبه أنابيب البنادق، فلما اخترع البارود صاروا يرمون البندق به من تلك الأنابيب، وسموا هذه الآلة البندقية نسبة إليه، كما عني بتربية الحمام وتدريبه على الطيران الطويل لنقل الرسائل بين مختلف أرجاء دولته.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا لجأ الناصر إلى الفتوة، ولم يلجأ إلى الجهاد مثلا كوسيلة لتوحيد المسلمين، علما بأن الجهاد هو أحد الأركان المهمة في الإسلام، وقد اتخذه كل من نور الدين وصلاح الدين وسيلة وغاية لتوحيد المسلمين ضد الصليبيين؟ ولكن ما هي نسبة نجاحهما في التوحيد؟ الجواب أنهما لم ينجحا النجاح المطلوب في توحيد المسلمين وبقيت الخلافات قائمة بينهم على اختلاف طوائفهم، لهذا كان عليه أن يجرب شيئا جديدا وفكرة مبتكرة لتحقيق التوحيد المطلوب، فاختار الفتوة ليربط بين الماضي العظيم للأمة ومتطلبات الوقت الذي يعيشه، وهي فكرة تستطيع أن توحد المسلمين كافة: شيعة وسنة، أغنياء وفقراء، أشرافاً وعوامً، وقد أثمرت جهوده إذ انتشرت الفتوة انتشارا واسعا في مختلف أنحاء العالم الإسلامي وانضم إليها الكثير من الحكام المسلمين.

وأراد الناصر أن يؤكد أن لا تعارض بين الفتوة والشريعة، لهذا فإنه في سنة (607هـ/1210م) قام بأخذ الإجازة في رواية الحديث من مجموعة كبيرة من علماء الحديث في العراق كان عددهم اثنين وثلاثين شيخا من جميع المدارس السنية وخاصة الحنابلة، وقام بتأليف كتاب سُمِّيَ "روح العارفين" روى فيه سبعين حديثا مع سلاسل إسناد كاملة إلى الرسول ﷺ ، وقام بإجازة أربعة شيوخ من كبار المحدثين - يمثلون المذاهب الأربعة - لقراءة هذه الأحاديث لتلامذتهم. وفي سنة (612هـ/1215م) أرسل الناصر كتابه الذي ألفه - روح العارفين- إلى الشام ومصر وغيرهما ليسمع.

وكلف الناصر أربعة من شيوخ الحنابلة لرواية الحديث لابنه وولي عهده الظاهر، وأعطاهم الإجازة عن نفسه لفعل ذلك، كما أذن لابنه الظاهر برواية مسند الإمام أحمد بن حنبل عنه بالإجازة، وسمح لأربعة من الحنابلة بالدخول إليه للسماع وكانوا من كبار المحدثين.

واستخدم الحديث من أجل التقريب بين الفئات المسلمة وإزالة النزاعات والخلافات الطائفية. ففي سنة (608هـ/1211م) أمر الخليفة أن يروى مسند أحمد بن حنبل في ضريح موسى بن جعفر - موسى الكاظم - بإجازة منه، وبذلك أراد أن يقوي مركزه بين المسلمين بوصفه محدثا وحاميا للشريعة مثلما يذهب الشيعة إلى أنّ الإمام هو الحامي والمفسر والمجتهد في الأمور الشرعية، وكلها محاولات لتقوية مكانته في العالم الإسلامي.

ونظرا للعلاقة المتينة بين الفتوة والصوفية، اهتم الناصر بالمتصوفة فقام بتأسيس العديد من الربط لشيوخ هذه الحركة لتكون مراكزهم ليعيشوا

فيها ويمارسوا أعمالهم ونشاطاتهم الدينية. وأصبحت الربط محلات لمعيشة الفقراء من طلاب العلم الزائرين لبغداد، وخصص الخليفة لها المبالغ الكافية للصرف عليها، كما استخدم كبار الصوفية كرسل وسفراء ومبعوثين له إلى أمراء الأطراف، مستغلا سمعتهم الحسنة بين الناس حتى يقوموا بأداء ما يكلفون به من مهام تخص سياسة وأهداف الخلافة مثل الصوفي المشهور شهاب الدين السهروردي الذي كان سفيرا ومبعوثا إلى بلاد الشام لمرات عديدة. وأصبح السهروردي رئيسا للصوفية في بغداد، وصنف العديد من الكتب كان أشهرها "عوارف المعارف" وكتاب "رشف النصائح الإمامية وكشف الفضائح اليونانية" اعتمد فيها على أحاديث رواها الناصر لدين الله.

بهذه الصورة ربط الناصر علماء الدين بشخصه من أجل أن يوجه جزءا من نشاطهم للترويج لسياسته، ونجح في جعل مؤسساتهم الدينية، الربط والمساجد، أماكن لرفض الفلسفة الإغريقية والتصدي لها. والكتب التي ألفت له كانت ردا مباشرا على الإسماعيلية وأفكارهم الفلسفية ومعتقداتهم الدينية، لأن الإسماعيلية فضلوا هذه الفلسفة وطوروها لأغراضهم الخاصة. وقد نجحت حملته ضد الإسماعيلية ومعتقداتهم، إذ أدت بزعيمهم الروحي الأكبر الحسن الثالث - سيد الموت- إلى العودة إلى الإسلام الحنيف سنة (608هـ/ 1211م). وسواء أكان الحسن الثالث صادقاً في عمله هذا أم غير صادق، فإنه أعلن خضوعه للخليفة وتبعيته له، واستقبل الناصر هذه العودة بسرور لأن تبعية الحسن هذه أعطته حليفا في المشرق مكنه من التصدي لمطامع الخوارزميين.

وبعد وفاة الناصر سنة (622هـ/ 1225م) سار خلفاؤه على نهجه في سياسة التوفيق والاهتمام بالفتوة وبمراسلة ملوك الأطراف وعلى الأخص المستنصر (623-640هـ/ 1226-1242م) الذي بنى المدرسة المستنصرية للمذاهب السنية الأربعة. كما أمر الخليفة بوضع أربعة أماكن للمذاهب الأربعة في جامع القصر للتحديث والخطبة والوعظ بعد صلاة الجمعة. وأسس عددا من الربط ودور الضيافة، مثلما فعل أبوه، كما تعاطف مع الشيعة فزاد المراقد المقدسة للأئمة، وعين عارضاً للجيش منهم، وعين ابن العلقمي ليكون أستاذ الدار سنة (629هـ/1231م)، وكان هذا مسؤولاً عن بناء المستنصرية .

لبس المستنصر سراويل الفتوة في مشهد الإمام علي على يد نقيب الفتيان جلال الدين عبد الله بن المختار العلوي، ومارس الجانب الرياضي من الفتوة كرمي البندق والركض للمسافات الطويلة، ومنح سراويل الفتوة إلى عدد من أعيان بغداد وإلى العديد من الحكام المسلمين.

وفي عهد الخليفة المستنصر لم تعد الخلافة تواجه أخطارا من الحكام المسلمين بل أخذت تواجه أعداء من الكفرة -المغول- لهذا فإن الخليفة اهتم بإعلان الجهاد وممارسته بغية تقوية دولته من أجل التصدي لهذا العدو الجديد، فقام بأخذ فتوى من علماء الدين والشيوخ بأنّ مجاهدة الكفار الأولى بالاهتمام من قوافل الحج. وأمر الفقهاء والشيوخ بالاستعداد العسكري وبممارسة الرمي والتدريب من أجل المشاركة الفعلية بالجهاد.

كانت مدة حكم هذا الخليفة هادئة نعمت فيها بغداد بالاستقرار، ولم يكن هناك ما يقلق الأمن. فقد حاول أن يتتبع خطوات جده الناصر في كثير من نشاطاته السياسية، وكان جلال الدين منكوبرتي ابن محمد خوارزمشاه أكبر المنافسين للخليفة خاصة وأنه سيطر على غرب إيران من كرمان جنوبا إلى

اذربيجان وأرمينيا شمالا. كان جلال الدين يحتاج إلى الدعم المعنوي من الخلافة، لهذا كان قد طالب بأن يمنح لقب سلطان لهذا الغرض، إلا أن الخلفاء رفضوا طلبه. فقد قام المستنصر بمراسلته من أجل أن لا يتدخل في شؤون الإمارات المجاورة للعراق كإمارة الموصل واربل وإمارة الأتراك الايفاوية وكذلك حاكم منطقة الجبال، وعليه أن يعتبرهم أتباعاً للديوان، كما طلب الخليفة أن تعاد الخطبة باسمه في كافة ممتلكات الدولة الخوارزمية لأن الخطبة توقفت باسم الخلفاء منذ عهد أبيه محمد خوارزمشاه، وقد وافق جلال الدين على مطاليب الخليفة وأرسل موافقته بذلك .

وقد استقبل رسول جلال الدين بحفاوة بالغة وأعطى الكثير من الهدايا إلى سيده مع سراويل الفتوة ملقبا جلال الدين (بالجناب العالي الشاهنشاهي). وبسبب كثرة اعتداءاته على ولايات الأيوبيين وسلاجقة الروم قام هؤلاء بالتصدي له وطرده من مدينة اخلاط إلى تبريز، وفيها وصلته الأنباء بتقدم المغول نحوه، فشعر بالخطر، فأرسل إلى الخليفة وإلى الأشرف وإلى حاكم سلاجقة الروم ينذرهم بتقدم المغول وبوجوب مساعدته والوقوف إلى جانبه لأنه، كما وصف نفسه، "كالسد بينهم وبين المغول". إلا أنهم لم يهتموا بطلبه لتجاربهم المريرة معه سابقا، وسرعان ما وصل المغول، وبعد معركة قصيرة خسر جلال الدين المعركة وهرب من وجه المغول ليموت بعدها بقليل شريدا طريدا في شوال سنة 628هـ/ آب 1231م.

بدأ المغول بهجمات منظمة ودورية على العراق من قواعدهم في أذربيجان عبر ولاية اربل، لهذا قام الخليفة بالسيطرة على هذه الولاية حتى يمنع تسرب المغول عبر أراضيها. كانت غاية المغول من هذه الهجمات الحصول على الغنائم وإدخال الرعب في قلوب الناس ولمعرفة مدى الاستعدادات العسكرية لأعدائهم تكرر هذا الهجوم في السنوات. 630هـ/1232م و632هـ/ 1234م 633هـ/1235م. ومن أجل أن يتصدى الخليفة بشكل فعال لهجمات المغول، أرسل الأموال إلى الملك الكامل - الحاكم الأيوبي لبلاد الشام - ليجمع جندا، فأرسل له الكامل ثلاثة آلاف جندي، كما استخدم الخليفة زهاء الأربعة آلاف فارس من جنود جلال الدين منكوبرتي. ومن أجل توفير النفقات للأغراض الدفاعية لمواجهة المغول، حصل الخليفة على فتوى بجواز إيقاف قوافل الحج اعتباراً من سنة (634هـ/1236م) وحتى وفاته.

كان عصر المستنصر بالله عصرا هادئا في بغداد والعراق، فانتعشت العلوم وازدهر التعليم، ولاسيما بعد فتح المدرسة المستنصرية وغيرها من المدارس. كما أبقى علاقته بالشيعة طيبة وجيدة عن طريق الفتوة وزيارة المراقد المقدسة لديهم، وكانت علاقته بالسنة قوية أيضا.

العصر الثالث : عصر الانـهيار والسقوط
(640 - 656هـ / 1242 - 1258م)

تـوفي المستنـصر سـنة (640هـ/1242م) وخلفـه ابنـه المستعـصم (640-656هـ / 1242-1258م). وقد وصف هذا الخليفة بالضعف والتردد على الرغم من أنه حاول أن يتبع سياسة أسلافه في قيادة الخلافة، إلا أن الواقع هو أن الظروف المحيطة بالخلافة لم تعد ملائمة لـه لنجاح السياسة التي سار عليها أسلافه ونجحوا بها، لأن التفكك أصاب العالم الإسـلامي، وتـردي الأوضـاع الـسياسية كـان ظـاهرا ولاسيما بعد إحاطة الأعداء بالعالم الإسلامي شرقا وغربـا، فالـصليبيون مـن ناحيـة والمغـول بإمبراطوريتهم الفتية والقوية من ناحية أخرى.

وتـابع الخليفـة سياسـة أسـلافه فـي تقريـب الشيعة، فعين ابن العلقمي وزيرا له منذ سنة (642هـ/1244م)، وبقـي فـي الـوزارة حتـى سقوط بغداد بيد المغول، كما زار أضرحتهم المقدسة وبنفس الوقت عين أستاذا دار من الحنابلـة هو محيـي الـدين بـن الجـودي الـذي لعـب دورا كبيـرا فـي حمـل رسـائل المستعـصم إلـى الأيـوبيين فـي بـلاد الـشام ومـصر وكذلك إلى سلاجقة الروم، كما لبس الخليفة سراويل الفتوة في ضريح سلمان الفارسي - الذي كان رئيسا مـن رؤسـاء الفتـوة - ومـارس الخليفـة الاعتنـاء بالحمام وبالجانب الرياضي من الفتوة.

واجه هذا الخليفة بعد توليه السلطة مباشرة خطرا حقيقيا داخل بغداد، ففي شعبان من سنة 640هـ/شباط 1243م طالب مماليك أبيـه وجده بزيـادة فـي مرتبـاتهم، إلا أن طلـبهم رفـض، لـهذا انـسحبوا مـن بغداد وعـسكروا خـارج أسـوارها وأصـبحوا خطـرا جـسيما علـى سـكان العاصـمة. وبعـد تـدخل بعـض المتدينين انحسمت المشكلة بعد عصيان دام سبعة أيـام، دون أن يحـصل الجنـد علـى أيـة زيـادة. كمـا أن هجمات المغول استمرت خلال مدة حكم المستعصم، ففـي سـنة (642-643هـ/1245م) تكبـدوا خـسارة فادحـة وانسحبوا من العـراق، وتكرر الهجوم سنة (647هـ/ 1249م) علـى خـانقين، وسـاروا منهـا إلـى داقوق، وقتلوا العديد من الناس، وأخذوا الكثير من الأسرى والغنائم، واتخذ الخليفة الاستعدادات للدفاع عن العراق.

وكانت بغداد والخلافة معرضـة لخطر مـاحق مـن المغـول، ومـع ذلـك نلاحظ قيـام عـدد كبيـر مـن الجنود في سنة (650هـ/1252م) بمغادرة بغداد إلـى بـلاد الـشام لأن مرتبـاتهم توقـف صـرفها مـن قبـل الخلافـة. ويبـدو أنّ سـبب ذلـك هـو ضـعف المـوارد المالية للخلافة، الأمـر الـذي أدى إلـى انخفاض كبير في عدد الجند.

وكـان للكـوارث الطبيعيـة أثرهـا البـالغ علـى ضـعف الاقتـصاد وتـدهوره، فقد تكـررت الفيـضانات في العراق في الـسنوات (641هـ/1243م و645هـ/1247م و646هـ/1248م و652هـ/1254م و653هـ/1255م و654هـ/1256م)، وكـان الفيـضان الأخيـر أسـوأ الفيـضانات فـي تـاريخ بغـداد والعـراق، فقـد غرقت المدينة بجانبيها الشرقي والغربي، وكـان مـن نتيجتــه أن تـدمرت الكثيـر مـن الأبنيـة الخاصـة والعامة، واستخدمت القوارب في التنقل بين أطراف بغداد، كما دمرت هذه الفيضانات الكثير من أشجار

النخيل ومن المخزونات الغذائية في بغداد والعراق، وأدى هذا إلى ارتفاع الأسعار بشكل كبير، كما أدت إلى فقدان الأمن وعدم قدرة الخلافة على السيطرة على الأوضاع الداخلية، حتى أن النزاعات الطائفية عادت مجددا، وفقدت الدولة سيطرتها على الأوضاع تماما حتى أنّ رسل المغول جاءت إلى بغداد سنة (655هـ/1257م) وقاموا علنا دون خوف بمنح الفرمانات (وثائق أمان) لبعض الناس، ولم تتمكن الدولة من اتخاذ أي إجراء ضدهم.

هذه الأوضاع، ولا شك، كان لها أبلغ الأثر في ضعف قدرة الدولة المالية، ولهذا خفضت من عدد جنودها على الرغم من اتهام بعض المؤرخين بأنّ ابن العلقمي - الوزير الشيعي - كان وراء هذا التخفيض ليسمح للمغول باحتلال بغداد، في حين نسب القسم الآخر من المؤرخين الأمر إلى الخليفة في حبه لجمع المال وادخاره، إلا أن ابن خلدون شرح الوضع شرحا دقيقاً بقوله: "وضاقت الأحوال على المستعصم، فأسقط أهل الجند وفرض أرزاق الباقين على البياعات والأسواق وفي المعايش، فاضطرب الناس، وضاقت الأحوال، وعظم الهرج ببغداد ووقعت الفتن". وأخيرا جاءت الضربة القاضية من المغول سنة (656هـ/1258م)، عندما تقدم هولاكو بجيوشه باتجاه بغداد وحاصرها. وعلى الرغم من المقاومة الضارية التي أبداها أهل بغداد وجندها مما أدى بالحصار للاستمرار أكثر من شهر، فإنّ أجزاء من سور العاصمة دمر مما دفع بالمغول إلى الاستظهار على أحد بوابات بغداد الشرقية، مما أدى بالخليفة إلى التفاوض لتسليم المدينة. وفي يوم 4 صفر من سنة 656هـ/ 10 فبراير/ شباط 1258م استسلمت بغداد للمغول، وأخذ الخليفة وأفراد حاشيته أسرى ثم قتلوا جميعا، فضلا عن مقتل أعداد كبيرة من السكان.

ثانياً : المؤسسات الإدارية

1 - رموز الإدارة السلجوقية :

بعد سيطرة السلاجقة على العراق تم تعيين موظفين اثنين فقط ليسيطرا على الأمور الإدارية هما العميد والشحنة:

- **العميد:** وهو منصب ولقب كان يحمله كبار الموظفين في الإدارة السامانية والغزنوية وورثه السلاجقة وأصبح يعني الحاكم المدني (المحافظ أو الوالي)، وعُيّن أول عميد في العراق عند دخول السلاجقة وقتل في ثورة البساسيري سنة (450هـ / 1058م)، وانتهى تواجد العمداء في العراق بنهاية حكم ملكشاه سنة (485هـ / 1092م).

- **الشحنة:** وهو الحاكم العسكري المسؤول عن الأمن والاستقرار وملاحقة الخارجين عن القانون ومعاقبة المسيئين، وقد عُيّن أول شحنة بعد دخول السلاجقة بغداد مباشرة. وشكل الشحنة كابوساً على الخليفة لأنه كان المراقب على أعماله وكان مسؤولاً عن تنفيذ أوامر السلطنة السلجوقية، وله صلاحيات واسعة، وحدث أول اصطدام بين الخلافة والشحنة سنة (464هـ / 1072م) عندما عُيّن تكين السليماني شحنة، فقد أساء هذا إلى الخلافة لأن ابنه قتل أحد المماليك التابعين للخليفة، مما أدى بالخليفة إلى الغضب وألح على استبداله بشحنة آخر، فوافقت السلطة السلجوقية على ذلك وبقيت السلطنة السلجوقية تُعيّن أشخاصاً في هذا المنصب في العراق إلى نهاية السيطرة السلجوقية، أي بحدود منتصف القرن السادس للهجرة.

2 - المؤسسات الإدارية العباسية :

على الرغم من أن ثروة الدولة العباسية وسعتها قد تقلصتا كثيرًا في هذه المرحلة، حيث لم تعد الخلافة تسيطر إلا على العراق (السواد)، وعلى الأهواز فقط ؛ فإن جهازها الإداري بقيَ كما كان عليه تقريباً في القرن الثالث الهجري / القرن التاسع الميلادي. أما التغييرات الطفيفة التي حدثت في الإدارة فقد كانت مُنصبة على المسميات أكثر مما تعلّقت بطبيعة عمل هذه الدواوين ووظائفها. وكانت أبرز المؤسسات ذات الصلة بالشؤون المالية أساساً هي :

- الوزارة:

الوزير هو رئيس الجهاز الإداري ومسؤول عن كافة الجوانب الإدارية والمالية للخلافة. وعند سيطرة البويهيّين على الخلافة العباسية تدهور منصب الوزير التابع للخلافة، لانتقال الإدارة بكاملها إلى أيدي البويهيين، وأصبح الوزير تابعاً لهم، ولم يعد للخليفة سوى كاتب يشرف على موارده المالية الشخصية فحسب، ولم يستطع الخلفاء أن يعينوا وزيراً لمدة قرن من الزمن، إلى أن استطاع الخليفة القائم (422-467هـ / 1031-1075م) تعيين وزير له بعض الصلاحيات، وبعد ذلك أخذ الخلفاء بتعيين وزراء لهم حتى نهاية الخلافة العباسية.

ويمكن تقسيم هذه المرحلة إلى قسمين:

الأول منذ تعيين أول وزير في أواخر العهد البويهي

سنة (438هـ / 1046م) وحتى نهاية الحكم السلجوقي سنة (552هـ / 1157م)، والمرحلة الثانية هي مرحلة استقلال الخلافة العباسية وإعادة انتعاشها من (552هـ / 1157م) وحتى الغزو المغولي سنة (656هـ / 1258م) .

- المرحلة الأولى:

(438 - 552هـ / 1046 - 1157م)

مارس العديد من الوزراء العباسيين صلاحياتهم كاملة في هذه المرحلة، التي تركزت على إدارة الشؤون المالية للخلافة وأمر الأجناد وسياستها على ما ينبغي لها، والنظر في جميع الدواوين، واستعراض حساباتها وأعمالها، وتوجيه ما فسد منها وإصلاحه.

وقد خصص للوزير راتب سنوي، فقد كان راتب ابن هبيرة وزير الخليفة المقتفي "مائة ألف دينار"، أما الراتب السنوي للوزير السلجوقي فقد كان منذ ولاية نظام الملك الذي استوزره الب أرسلان هو عشر واردات الدولة السلجوقية .

وقد تأثر العباسيون بالسلاطين السلاجقة، فأخذوا يغدقون الألقاب على وزرائهم، فابن جهير لقب (فخر الدولة)، ولقب وزير المسترشد الحسن ابن صدقة بألقاب عديدة منها (جلال الدين سيد الوزراء، صدر المشرق والمغرب). وكان السلاجقة ووزراؤهم يتدخلون في بعض الأحيان في تعيين بعض الوزراء أو عزلهم إذا ما كانت مواقفهم غير ودية تجاه السلطة السلجوقية، فالوزير فخر الدولة أبو نصر محمد بن جهير وزير الخليفة القائم عزل عن الوزارة بسبب سوء علاقته بالوزير السلجوقي نظام الملك ثم أعيد إلى الوزارة.

ومن أبرز سمات هذا العصر ظهور عائلات احتكرت الوزارة، حيث تولى عدد من أفرادها هذا المنصب بالتعاقب أو بعد فترات من الزمن، فمثلاً تولت أسرة آل جهير هذا المنصب وأولهم فخر الدولة ابن جهير وهو من أصل بغدادي تنقل في الأعمال وفي البلاد واستوزره الخليفة القائم بأمر الله ونهض بالوزارة وأمورها أحسن نهوض، وقد عزل بناء على إلحاح السلطان السلجوقي ثم أعيد إلى منصبه، وهو الذي أخذ البيعة للخليفة المقتدي بأمر الله (467 - 487هـ / 1074 - 1094م)، وكانت مدة وزارته للقائم والمقتدي خمس عشرة سنة وشهراً، ومات في سنة (483هـ / 1090م)، وأصبح عميد الدولة ابن فخر الدولة وزيرًا بعد أبيه، وكانت علاقته بنظام الملك جيدة. عزل عن الوزارة سنة (493هـ / 1099م)، وتوفي في نفس السنة بالسجن، وبقيت الوزارة بيد آل جهير إلى سنة (507هـ / 1114م)، كما استوزر الخليفة المقتفي (530 - 555هـ / 1134 - 1160م) نظام الدين أبا نصر المظفر بن محمد ابن جهير، وكان محدثاً ولم تطل أيامه فعزل.

وكانت أسرة آل صدقه من الأسر التي تولت الوزارة للخليفة المسترشد (512 - 529هـ /1118 - 1134م)، وكان أول من استوزر من هذه الأسرة هو الحسن بن علي ابن صدقه الذي لقبه الخليفة المسترشد بـ "جلال الدين سيد الوزراء، صدر الشرق والغرب ظهير أمير المؤمنين". وكان من أبرز وزراء هذه المرحلة عون الدين أبو المظفر يحيى بن هبيرة الذي وزر للمقتفي للمدة من سنة (544 إلى سنة 560 / 1149- 1164م)، وكان من أصل متواضع ووصل نتيجة تحصيله العلوم إلى مرتبة الوزارة. وقد تقلد هذا المنصب ومكث فيه إلى أن توفي، وكان راتبه السنوي مائة ألف دينار، ولعب دورًا كبيرًا في تخليص العراق والخلافة العباسية من السيطرة السلجوقية. وقد بنى هذا

الوزير مدرسة للحنابلة بباب البصرة وفيها دفن عند وفاته. وبعد وفاته تولى ابنه محمد نيابة الوزارة لوقت قصير. وفضلاً عن واجبات الوزير الإدارية المعتادة، كان عليه واجبات اجتماعية أيضًا، منها الخروج لاستقبال السلاطين السلاجقة عند قدومهم إلى بغداد وتوديعهم عند المغادرة كما كانوا يجلسون للعزاء عند وفاة أحد السلاطين أو الخلفاء أو أحد أقاربهم.

كما تولى الوزير ابن هبيرة مهام عسكرية عديدة، فقد قام بتتبع أمراء مخالفين للخليفة وإلقاء القبض عليهم، كما كان يستعرض الجيش ويقوده في ساحات القتال - خاصة في الدفاع عن بغداد عندما حاصرها السلطان محمد، وأشرف أيضا على تحصين بغداد وإعادة بناء أسوارها.

والصلة بين الوزارة والكتابة وثيقة بشكل واضح، فالوزير هو "كاتب الكتاب" وكان أحد رموز الوزارة هو الدواة - رمز الكتابة - ، وغلقها بأمر من الخليفة علامة على عزل الوزير أو طرده من وظيفته.

المرحلة الثانية :

(560 - 656هـ / 1164 - 1258م)

رسخت قدم الوزارة في هذه المرحلة، ولم تعد تحت تأثير السلطة السلجوقية التي كانت تتدخل في تعيين الوزراء العباسيين أو عزلهم استنادًا إلى مصالحها الذاتية وموقف الوزراء منها، لهذا تطورت مراسيم التقليد في هذه الحقبة كما تطورت الألقاب واستخدام لقب (نائب وزير) بشكل واضح بدلاً من الوزير الكامل في الإدارة. وعلى الرغم من أن المؤسسات الإدارية في هذا العصر هي استمرار للمؤسسات الإدارية في العصور المتقدمة، فإنَ هناك متغيرات في الصيغ والمصطلحات المستخدمة وليس في طبيعة هذه المؤسسات وعملها. فقد كان المتولي يُدعى وزيراً، ولكنه لقب في هذه المرحلة بـ "نائب وزير، أو نائب في الوزارة، أو نائب عن ديوان المجلس" إضافة إلى الوزير، وكان يمارس صلاحيات الوزير نفسها دون أن يتمتع باللقب وخلع المنصب، واحتل نائب الوزير غرفة خاصة في ديوان الوزارة.

وعندما عُيّن القمي نائب وزير سنة (606هـ / 1204م) في عهد الناصر، فإن المرسوم الذي صدر عن الخليفة بهذه المناسبة أعطاه مكانة خاصة ومركزًا كبيرًا، فقد وصفه المرسوم بما يلي: "محمد ابن برز القمي نائبنا في البلاد والعباد، فمن أطاعه فقد أطاعنا، ومن أطاعنا فقد أطاع الله، ومن أطاع الله أدخله الجنة، ومن عصاه فقد عصانا، ومن عصانا فقد عصا الله، ومن عصا الله أدخله النار". وخلال حكم الناصر الطويل (575-622هـ / 1179 - 1225م) عيّن وزيرين مع ثلاثة عشر نائب وزير، اثنان منهما ترقيا إلى وزير كامل، وتمتع نواب الوزراء بصلاحيات محدودة ومكانة غير مرموقة. وفي وصف ابن جبير الذي زار بغداد سنة (580هـ / 1184م) "ليس للخليفة اليوم وزير إنما له خديم يعرف بنائب الوزارة يحضر الديوان المحتوي على أموال الخلافة وبين يديه الكتب فينفذ الأمور". ومن المعروف أن الناصر لم يعتمد كثيرًا على وزرائه بل تولى الأمور بنفسه، فقد كان يشرف على كل كبيرة وصغيرة، ولهذا كانت الوزارة في عهده وزارة تنفيذ لا أكثر.

أما في عهد المستنصر بالله (624 - 640هـ / 1226 - 1242م) فإنّ الفوارق بين الوزير ونائب وزير اختفت تماماً، لهذا فإنه عند تعيينه ابن الناقد سنة (629هـ / 1232م) أشارت بعض الروايات إلى أنه عيّن نائب وزير في حين أشارت روايات أخرى

إلى أنه عيّن وزيرًا. وخلال المدة بين عودة الوزارة العباسية إلى نهاية عصر الناصر بين عامي 438 - 622هـ / 1046 - 1225م، حافظت الوزارة على مكانتها تجاه أمراء الجند. فقد كان منصب الوزير أعلى من منصب أي أمير في الجيش العباسي، ولهذا لم يبرز أي أمير خلال هذه الفترة بما يهدد الوزارة أو الخلافة أن يفرض إرادته العسكرية عليهما إلا نادرًا، إلا أنّ الوضع تغير في عهد الخليفة المستنصر بالله (623 - 640هـ / 1225 - 1241م) حيث انتقلت القوة بشكل تدريجي إلى أمراء الأجناد، حيث نجد أن الأميرين الكبيرين الدويدار الكبير والصغير لم يحضرا عملية تنصيب الوزير ابن العلقي سنة (642هـ / 1244م). فعند جلوس هذا الوزير في سدة الوزارة استدعى كافة أرباب الدولة والزعماء "ما عدا الدويدار الكبير والصغير فإنهما لم يحضرا عنده جريًا على عادتهما على من كان قبله". هذا وقد لعب الصراع بين الأمير الدويدار الصغير والوزير ابن العلقي دورًا بارزًا في إضعاف الخلافة واضمحلال قدرتها على مواجهة التحدي المغولي فيما بعد.

- الديــوان :

الديوان هو المركز الرئيس للإدارة. وقد دعي بالديوان العزيز، وكان يرأسه الوزير أو نائب الوزير، ما يقابل (ديوان الإنشاء) ويقصد به أيضًا ديوان الزمام لأنه تحول من ديوان الرقابة وتدقيق الحسابات إلى أن أصبح ديواناً للخراج. وفي هذا العصر فإن تسميتيْ (الديوان وديوان الزمام) وردتا بشكل متبادل طلباً للاختصار ليدلا على الشيء نفســه.

كان هذا الديوان مسؤولاً عن تقديرات الواردات والنفقات الحكومية، وكان في الماضي يدعى (بالديوان) فقط ، إلا أنه في الإدارة السلجوقية أصبح اسمه (ديوان الزمام والاستيفاء) مختصاً بالمالية والحسابات.

ويدعى رئيس هذا الديوان عند العباسيين "صاحب ديوان الزمام أو صدر ديوان الزمام". ويرى الدوري أن هذا الديوان انقسم إلى قسمين، الأول هو الديوان الرئيس ويرأسه صدر أو صاحب، والثاني يراقب عمل الديوان الرئيس ويرأسه مشرف. ويبدو أن صاحب هذا الديوان يأتي بالمكانة الإدارية بعد الوزير مباشرة، وهذا الديوان مسؤول عن جمع الضرائب، وكثيرًا ما كان الصدر أو الصاحب يقوم شخصيًا بجمع الضرائب. ومن واجبات هذا الديوان تهيئة قافلة الحج والإنفاق على تنظيف آبار الماء لقوافل الحج. ويقوم أيضًا بتعيين وعزل أمير الحج، كما كان يشرف على صدقات الخليفة التي ترسل برفقة قافلة الحج العراقي. وكان لكل مقاطعة مهمة من مقاطعات الخلافة العباسية ديوان يشرف على وارداتها مستقل عن الديوان الرئيس، ويشرف على كل منها صدر أو صاحب، فأصبح لنهر عيسى ونهر الملك وهيت والأنبار ديوان مفرد مستقل، وكان لواسط أيضًا ديوان مفرد يرأسه صدر، وكان للأهواز مثل هذا الديوان، كما أن اربل بعد أن ضمت إلى الخلافة العباسية أصبح لها ديوان يرأسه صدر، أما المقاطعات الأقل شأناً فقد كانت تدار من قِبَل ناظر يعاونه مشرف.

- المخزن (بيت المال):

المخزن أو المخزن المعمور (كما أطلق عليه ابن الساعي) حلّ محل بيت المال. وتسمية المخزن تشير إلى أنّ الواردات لم تعد نقدًا كالسابق بل أصبحت نقدًا وعيناً من مختلف السلع، ولهذا فإنّ هذه التسمية دقيقة لهذه المؤسسة. ويرأس هذا

الديوان صدر أو صاحب الإيراد. وقد أخذ هذا الديوان بعض صلاحيات ديوان النفقات الذي لم يعد موجودًا.

كان من واجبات صاحب المخزن الصرف على الأمور الدينية: عمارة الحرم الشريف في المدينة، والإنفاق على الفقراء من الناس، كما كان مسؤولاً عن إنشاء دور الضيافة والإنفاق عليها. وكان الإنفاق على الاحتفال بقدوم زوار مرموقين إلى بغداد يتم من هذا الديوان أيضًا، وكذلك فإن الخلع التي يمنحها الخليفة للمناسبات كافة كانت تخرج من المخزن، فقد كان هناك خياط يقوم بهذا العمل.

ويبدو أن وظيفة صاحب المخزن مهمة. فإنه في سنة (604هـ / 1197م) فوض الخليفة جميع الأعمال والنظر في الدواوين كافة إلى صاحب المخزن - أبو القاسم الحسن بن علي بن الناقد - الذي أصبح نائباً في الوزارة. ويظهر أنّ هذه الوظيفة كانت مربحة أيضاً، لأن أحدهم دفع مالاً حتى يعيَّن صدرًا في المخزن. وكان يعاون صاحبَ المخزن نائب ومشرف.

واشتمل عمل المخزن على جباية المكوس، الضرائب غير الشرعية المفروضة على المنتجات الزراعية والصناعية وكذلك الضرائب المفروضة على المبيعات. وقد ألغى الخليفة الناصر هذه الضريبة سنة (604هـ / 1208م) على الرغم من أن كمية المتحصل منها كانت تزيد على 200 ألف دينار. وكان المخزن يشرف على دور ضرب، وكانت العملة المستخدمة في العراق الدنانير الذهبية والدراهم الفضية، إلا أن الذهب كان يستخدم بصورة أكبر من الفضة، فكان الدينار وأجزاؤه وقراضته - القطع المثلومة من الدينار - يستخدم في الاستعمال اليومي للسكان، وسبب ذلك هو الشحة في الفضة وارتفاع أسعارها لقلة الموجود منها في العراق.

وكان ذهب دنانير الناصر بصورة عامة أقل نقاوة من الدنانير العباسية في عصورها الزاهية. فمن النماذج التي تم فحصها نجد أن نقاوة هذه الدنانير تراوحت بين 90 - 93 % ، كما تفاوتت أوزان هذه الدنانير ما بين 1,32 و 18,38 غراماً، وكان من نتائج الهدوء والاستقرار في عهد المستنصر أن جلبت كميات كبيرة من الفضة إلى العراق، مما زاد في مخزون الدولة منها، لذا حاول الخليفة إصلاح الدرهم الفضي، فأصدر درهماً جديدًا بنوعية أفضل من الدراهم السابقة والموجودة في الاستعمال، وجعل سعر صرفه كل عشرة بدينار واحد، كما أن دنانير المستعصم كانت أفضل حالاً من دنانير الناصر وأكثر نقاوة.

وفي عهد الخليفة المستعصم كثرت الدراهم بأيدي الناس وقلّ الذهب وامتنع الناس من التعامل بهذه الدراهم لكثرة البهرج حتى بيعت كل اثني عشر درهماً بدينار، فأمر الخليفة بضرب دراهم جيدة يتعامل بها الناس، وحاول جعل سعر تبادلها كل عشرة بدينار، فامتنع الناس عن أخذها لتضرر مصالحهم، فاضطر الخليفة إلى جعل سعر تبادلها كل اثني عشر درهما بدينار فاستقرت الأحوال بذلك.

- ديوان المواريث الحشرية:

كانت التركات التي لا وارث لها مصدرًا آخر من مصادر واردات الخلافة، وكان يشرف عليها هذا الديوان. وحدد القلقشندي المواريث الحشرية بقوله "وهي مال من يموت وليس له وارث خاص بقرابة أو نكاح أو ولاء أو الباقي بعد الفرض من مال من يموت وله وارث ذو فرض لا يستغرق جميع المال ولا عاصب له." وقد اختلف الفقهاء حول هذا الموضوع، فمنهم من أجاز إعطاء المال لجميع

أقارب المتوفي، قريبين كانوا أم بعيدين بالنسب، والرأي الآخر أن ترث الدولة أموال من لا وارث مباشراً له، وقد جبيت المواريث الحشرية اعتبارًا من عهد الخليفة المعتمد (256 - 279هـ / 869 - 892م)، وكان يرأس هذا الديوان ناظر يجب أن يكون من الشهود العدول، وكان على هذا الناظر أن تكون لديه قائمة بالأغنياء الذين لا ورثة مباشرين لهم. وعندما يصل نبأ وفاة أحدهم فعلى الناظر أن يذهب ليجمع مخلفاته المالية. وكان من واجبات هذا الناظر إحصاء المتوفين في بغداد وإرساله إلى الديوان، وفي بعض الأحيان كان هذا الناظر يجمع الأموال قبل وفاة أصحابها - إن كانوا مرضى. ويبدو أن وارد هذا الديوان كان كبيراً نسبيًا. وفي سنة (602هـ / 1205م) حصل هذا الديوان على 2600 دينار من شخص كان ظاهر الفقر. ففي سنة (653هـ / 1255م) مرض صانع حمام ببغداد كان يظهر الفقر ولم يكن له وارث، فحضر ناظر التركات عنده وطلب منه مفتاح صندوقه وفتحه فوجد فيه سبعة أرطال ذهباً واثنيْ عشر رطلاً من الفضة، فأخذ الجميع. ولفترة قصيرة هي فترة حكم الظاهر - لمدة تسعة أشهر فقط - عُيِّن ناظرًا حنبلياً في هذا الديوان، فأخذ بتوريث ذوي الأرحام مما أضر بمصلحة الدولة، إلا أنه سرعان ما عزل بعد وفاة الخليفة الظاهر، وعادت الدولة تأخذ التركات الحشرية إلى ما بعد السيطرة المغولية حتى ألغاها الصاحب عطا ملك الجويني صاحب ديوان العراق.

- ديوان الجوالي :

وهو الديوان المسؤول عن تقدير ضريبة الجزية وجمعها من أهل الذمة، وكان يشرف على هذا الديوان ناظر من علماء الدين أو الفقهاء أو الشهود العدول. وكانت الجزية تجبى في الأول من المحرم من السنة الهجرية، ولم تكن المبالغ التي يحصل عليها هذا الديوان كبيرة لأن أهل الذمة كانوا يستطيعون أن يتهربوا من دفع الجزية بشتى السبل لنفوذهم في الحياة العامة وخدمتهم لأعيان الدولة. ولهذا فإن محيي الدين بن الجوزي عزل عن هذا الديوان سنة (626هـ / 1228م) وعُيّن بدلاً منه الشافعي ابن فضلان وأمر بتطبيق الشرع في جمع الجزية، ولهذا فإن ابن فضلان زاد الضريبة على مَنْ كان يدفع أقل من دينار؛ فاستنادًا إلى المذهب الشافعي لا يجوز جباية أقل من دينار من الذهب عمَّن كان فقيرًا، وإذا كان المعني متوسط الحال فيقع عليه ديناران، أما إذا كان غنيًّا فيقع عليه أربعة دنانير. ويبدو أن هذه الضريبة كانت تجبى ذهباً.

- ديوان المقاطعات:

وهي المقاطعات التابعة للخلافة، وهو ديوان جديد يرأسه ناظر ويعاونه كاتب. والمقاطعات هي الأراضي التي أعيدت إلى الخراج في عهد المستنجد. وكانت سابقاً تدفع ضرائب قليلة، فلما عادت إلى الخراج زادت الضرائب على أصحابها. وقد أنشأ هذا الديوان لإدارة هذه الأراضي والإشراف عليها وجباية ضرائبها.

أ.د. عبد المنعم رشاد محمد
جامعة الموصل

المصادر والمراجع

أولاً - المخطوطات :

- ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم، ت 807هـ / 1404م : تاريخ ابن الفرات، مخطوطة الفاتيكان رقم 26 .

ثانياً - المصادر العربية :

- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي ابن أبي الكرم، ت 630هـ/1232م : الكامل في التاريخ، ج9، بيروت، 1966م.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، ت 597هـ/1200م : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر أباد، 1359هـ.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، ت 808هـ / 1405م : تاريخ ابن خلدون المسمى بالعبر وديوان المبتدأ والخبر، القاهرة، 1867م.
- ابن خلكان، شمس الدين أحمد، ت 681هـ / 1281م : وفيات الأعيان، بولاق، 1867م.
- ابن الساعي، علي بن أنجب الخازن، ت 674هـ / 1275م : الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، تحقيق مصطفى جواد، بغداد، 1934م.
- ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا، ت 709هـ / 1309م : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، القاهرة، (د.ت).
- ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج بن هارون ت 685هـ / 1286م : مختصر تاريخ الدول، تحقيق أنطوان صالحاني، بيروت، 1890م.
- ابن العماد الحنبلي، أبو الفرج عبد الحي، ت 1089هـ / 1679م : شذرات الذهب في خبر من ذهب، بيروت، (د.ت).
- ابن الفوطي، عبد الرزاق بن أحمد (منسوب)، ت 723 هـ / 1323م : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق مصطفى جواد، بغداد، 1932م.
- ابن القلانسي، أبو يعلي حمزة بن أسد، ت 555هـ / 1160م : ذيل تاريخ دمشق، بيروت، 1908م.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر، ت 774هـ / 1372م : البداية والنهاية، القاهرة، 1932م.
- ابن المعمار، محمد بن أبي المكارم، ت 642هـ / 1244م : كتاب الفتوة، تحقيق مصطفى جواد والهلالي، بغداد، 1958م.
- أبو شامة، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن ابن إسماعيل المقدسي، ت 665هـ / 1266م : الذيل، تحقيق محمد زاهد الكوثري، القاهرة، 1947م.
- أبو شامة، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن ابن إسماعيل المقدسي، ت 665هـ / 1266م : الروضتين في أخبار الدولتين، القاهرة، 1870م.
- الأصفهاني، عماد الدين محمد بن محمد، ت 597هـ / 1200م : تاريخ دولة آل سلجوق، بيروت، 1978م.
- البيهقي، أبو الفضيل محمد بن حسين، ت 470هـ : تاريخ البيهقي، ترجمه إلى العربية يحيى الخشاب وصادق نشأت، القاهرة، 1956م.

- الثعالبي، عبد الملك بن محمد، ت 429هـ / 1037م : تحفة الوزراء، تحقيق حبيب الراوي وابتسام الصفار، بغداد، 1977م.
- الحسيني، صدر الدين ناصر بن علي، ت 622هـ / 1225م : أخبار الدولة السلجوقية، لاهور، 1933م.
- الراوندي، محمد بن علي، ت ق7هـ / 13م : راحة الصدور وآية السرور، نقله إلى العربية د. إبراهيم الشواربي وزملاؤه ، القاهرة، 1960م.
- سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزادغلي، ت 654هـ / 1256م : مرآة الزمان، ج8، حيدر أباد الدكن، 1951م.
- السخاوي، محمد بن عبد الرحمن، ت 902هـ / 1496م : تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات، القاهرة، 1937م.
- الطوسي، نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن، ت 672هـ / 1273م : كيفية واقعة بغداد، تحقيق محمد قزويني، ذيل تاريخ جهان كشا، لندن، 1937م.
- المقريزي، أحمد ابن علي، ت 845هـ / 1441م : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق د.محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة، 1971م.
- المقريزي، أحمد ابن علي، ت 845هـ / 1441م : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، تصحيح محمد مصطفى زيادة، الجزء 1/ قسم1،طبعة2، 1956م.
- النسوي، محمد بن أحمد شهاب الدين، ت 639هـ / 1241م : سيرة جلال الدين منكبرتي، تحقيق هوداس، باريس، 1891م.
- اليافعي، عفيف الدين أبو محمد، عبد الله بن أسعد، ت 768هـ / 1366م : مرآة الجنان وعبرة اليقطان، حيدر أباد الدكن، 1921م.

ثالثاً - المراجع العربية والمعربة:

- أمين، حسين : تاريخ العراق في العهد السلجوقي، بغداد، 1965م.
- الباشا، حسن : الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، القاهرة، 1957م.
- بارتولد و. : تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد سليمان، القاهرة، 1958م.
- بهار، محمد تقي: سبك شناسي، طبع طهران، 1321هـ.
- حسنين، عبد النعيم: سلاجقة إيران والعراق، القاهرة، 1959م.
- الدوري، عبد العزيز: تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، بغداد، 1945م.
- الكرملي، أنستاس ماري : النقود العربية وعلم النميات، القاهرة، 1939م.
- عفيفي، أبو العلاء : الملامتية والصوفية وأهل الفتوة، القاهرة، 1945م.

رابعاً - المراجع الأجنبية :

- Blochet. E. : Histoire d'Egypte de Makrizi. (Leroux, Paris) (extrait) de la Revue de la l'Orient Tomes VI- VII- XI, 1908.
- Cahen, Cl. : The Seljukids, vol 1.
- Ehrenkreutz. A. S. : Monitory history of the Near East in the

- Lambton, ann. K. S. : "une liste des" Autorités du Calife Al-Nasir, Arabica VI, 1959.
- Lewis, B. : "the ismailites and the assassins" in-A.history of the crusoder, Pensylvania, 1955.
- H.Retter, : "Autographs in Turkish libraries" oriens, VI, 1953.
- Somogyi, J. De : Adh-Dhahali's "Tarikh al-Islam as an authority on the Mongol invasion of the Caliphate "J.R.A.S", 1936.

Middle Ages J. E. S. H. O. (may), 1959.
- I. Kafesoglo : Sultan Malikshah Devririnda Buyuk Selcutlu Imperatorglo Istanbul, 1953.
- Lambton, A : Contribution to the study of solguj institution (Phd. Thesis, London university, 1939.
- Lambton, ann. K. S. : Land lord and peasant in Persia Oxford, 1953.



قصر الخلافة العباسية ببغداد (1179م)

ثالثًا : الغزو المغولي ونهاية الخلافة
(656هـ / 1258م)

تمهيد :

يعدّ تأسيس الإمبراطورية المغولية المترامية الأطراف في القرن 7هـ / 13م على يد الخان الأعظم جنكيز خان Jenghis Khan، من أهم مواضيع التاريخ وأكثرها مساساً بتاريخ العرب والإسلام. فقد كانت غاراتهم ذات تأثير كبير على البلاد الواقعة غرب آسيا وجنوب أوروبة، التي اجتاحوها وأنزلوا بها من الخراب ما يفوق حد التصور.

لقد كانت بلاد فارس أول منطقة إسلامية وقعت في قبضة المغول 618هـ / 1221م بعد القضاء على السلطنة الخوارزمية. واستمر توسع المغول في عهد خلفائه، الذين صمموا على بسط سيطرتهم لتشمل آسيا الغربية. ولتحقيق هدفهم بعث منكوخان Mongke Khan شقيقه هولاكو Hulagu 650هـ / 1252م، قائداً لغزو الأراضي الإسلامية، فقضى على الإسماعيلية، وتمكن من السيطرة على بغداد وإنهاء الخلافة العباسية 656هـ / 1258م، وكانت هذه أعظم كارثة حلّت في دولة الإسلام؛ فالخلافة كانت رمزاً ولو ظاهرياً لوحدة المسلمين، والقضاء عليها أحدث صدمة صاعقة لهم.

البحث في سقوط الخلافة العباسية من المواضيع الهامة والشائكة في تاريخنا العربي، لأنه حصل في مرحلة من أشد المراحل التي مرت في التاريخ العربي رعباً وتهديداً، حيث حصرت المنطقة العربية بين فكي كماشة، غربية متمثلة بالصليبيين، وشرقية حرّكها المغول، وفي الوقت ذاته عانى الحكام المسلمون من حالة من الفوضى أفقدتهم التوازن، وبالتالي القدرة على الاتحاد والوقوف في وجه المعتدين، من ناحية؛ ونظراً لما ينطوي عليه من تفاصيل للأحداث اختلفت المصادر في تقديم المعلومات حولها، من ناحية أخرى.

سيقدم البحث فكرة عن الأوضاع التي سادت عشية سقوط بغداد، وأحداث الغزو، ويسلط الضوء على النتائج المترتبة على إنهاء الخلافة التي كانت مركزاً هاماً للحضارة العربية الإسلامية.

أوضاع الخلافة العباسية في بغداد قبيل الغزو المغولي :

1 - وضع بغداد العام: تألفت المدينة من قسمين:

بغداد الشرقية الجديدة: حيث أقام الخليفة وحكومته (حريم دار الخلافة) ويفصلها سور عن محلات العامة التي كانت تعاني التهدم الناتج عن الإهمال، وبغداد القديمة (الرصافة) التي أصبحت قليلة الأهمية، وإلى الشرق منها توضعت محلة دار الروم حيث سكن النصارى.

بغداد الغربية: وكانت قد تلاشت أيضاً، لكنها استمرت مأهولة، وأهم أقسامها: محلة باب البصرة، مركز السنة، ومحلة الكرخ حيث استقر الشيعة. وكان يصل بين القسمين جسران اثنان (انظر المصور).

2 - الأوضاع الداخلية: الأوضاع السياسية:

في هذه الحقبة كانت الخلافة قد وصلت إلى درجة كبيرة من الضعف لأنها عانت من تسلط العناصر الإسلامية على سلطة الخلافة بعد توقف

العباسيين عن تعيين العرب في مناصب الجيش والحكم، مما أدى إلى وصول خلفاء ضعاف ليس لديهم قوة حقيقية أو معرفة بشؤون الحكم إلى منصب الخلافة. وقد أجمعت المصادر على أن الخلفاء المتأخرين انصرفوا إلى حياة اللهو ولم يقوموا بأية أعمال تذكر فيما يتعلق بتطوير الدولة؛ علماً أنهم ظلوا متمسكين بمظهر القدسية، وحاولوا المحافظة على مناصبهم، حيث كان الخليفة يشعر دائماً أنه مهدد بإزاحته بسبب تسلط القادة والوزراء على البلاط، وتدخل الجواري والنساء في الحكم، مما أدى إلى يأس العامة واستهتارهم بالدولة . وقد حكم في هذه المرحلة أربعة من الخلفاء:

الناصر (575 - 622هـ / 1179 - 1225م):
الذي حاول استعادة هيبة الخلافة والتخلص من سلطة السلاجقة، لكنه لم يتخذ أية إجراءات لمواجهة المغول الذين هددوا السلطنة الخوارزمية في أيامه.

الظاهر (622 - 623هـ / 1225 - 1226م):
حاول إصلاح الدولة والتخلص من الفساد فيها، لكنه لم يصل إلى بغيته لأنه لم يحكم سوى سنة واحدة.

المستنصر (623 - 640هـ / 1226 - 1242م):
تمكن من القضاء على محاولات الخوارزميين للسيطرة على الخلافة، وتابع مسيرة الإصلاح التي بدأها الظاهر.

المستعصم (640 - 656هـ / 1242 - 1258م):
سقطت الخلافة في عهده، لأنه لم يكن مدركاً لأهمية الأحداث داخل البلاد وخارجها، فقد كان ضعيفاً، وسيطر على الحكم كبار رجالات الدولة.

أدى ضعف السلطة المركزية إلى انفصال الأقاليم، لدرجة أنّ نفوذ الخلافة الفعلي لم يتجاوز إقليم العراق وخوزستان، وأحياناً بغداد وحدها.

لم يكن المستعصم يملك من السلطة سوى الاسم، وتحكّم بالخلافة كل من: علاء الدين الطبرسي، الدوادار الكبير، والدوادار الصغير، وشرف الدين إقبال الشرابي (قائد الجيش)، والوزير ابن العلقمي؛ لم يكن هؤلاء مخلصين للخليفة، وكلٌّ منهم كان يفكر بطريقة للإطاحة به، ويضمر العداء للآخرين.

كان الدوادار الصغير قد دبر مؤامرة للتخلص من المستعصم وتولية أحد أفراد البيت العباسي سنة 653هـ / 1255م، غير أن الوزير كشفه، وأخبر الخليفة الذي أخطأ في معالجة الموقف؛ فبدلاً من إجراء التحقيق ومعاقبة المخطئ، قرّب الدوادار، وذكر اسمه في الخطبة، وتخلى عن الوزير، وبالتالي فسح مجال العداوة بينهما، وعجز عن السيطرة على زمام الأمور، في الوقت الذي بدأ فيه المغول إرسال تهديداتهم، والخلافة بأمس الحاجة إلى التماسك والقوة.

الوضع العسكري :

لم تكن الأمور العسكرية أفضل من السياسية، فبعد سيطرة السلاجقة على الخلافة دب الانحطاط في الجيش، بسبب توقف الفتوحات وإهمال الثغور من جهة، وتقصدهم إضعافه حتى لا يهدد وجودهم من جهة أخرى، ولهذا قلت مهامه وانحصرت في القضاء على الفتن الداخلية، وفي حالات الطوارئ كان الخليفة يستعين ببعض الفرق من الأيوبيين والمرتزقة، وظهرت بوضوح نتائج التوقف عن الاعتماد على العرب في بناء القوة العسكرية لحماية الخلافة.

وقد أجمعت المصادر أن المستعصم كان شحيحاً ويفتقد الخبرة؛ ولهذا سرح الجند، ليتخلص من دفع رواتبهم، ومن أبقي منهم لم يدفع لهم رواتبهم من الخزينة، وإنما تمت جبايتها من الأسواق - علماً أن تعدادهم لم يتجاوز 60 ألفاً وفي تقديرات

أخرى 20 ألفاً - وهذا ما دفع الكثير من الجند إلى ترك بغداد والتوجه إلى بلاد الشام، بعد انقطاع أرزاقهم واضطرارهم للعمل في الأسواق دون جدوى .

الأوضاع الاجتماعية :

أثرت في المجتمع الإسلامي مجموعة من العوامل سببت إضعافه وسهولة السيطرة عليه، أهمها:

- الكوارث الطبيعية: (زلازل، فيضانات، غرق، قحط، جراد) التي كانت تؤدي إلى الغلاء، المسبب لسوء التغذية التي كانت تودي بحياة الكثير من الناس.

- الفساد : الذي تجسد بالظلم في القضاء والأحكام، والإسراف في الحفلات التي كانت تتم في البلاط، في الوقت الذي نجد فيه الجنود يثورون لقطع أرزاقهم، والعامة يحدثون الشغب نتيجة لتدني مستوى معيشتهم، والتفاوت الكبير بينهم وبين المتولين للسلطة.

- الفتن المستمرة، ومنها :

الفتن بين السنة والشيعة: التي كانت تؤدي إلى سقوط القتلى ووقوع النهب في المنازل والأسواق، والتي كان آخرها فتنة الكرخ سنة 655هـ / 1257م، الذي خربه جنود الخلافة بقيادة أبي بكر بن المستعصم.

وقد جعل كثير من المؤرخين هذه الفتنة السبب المباشر لزوال الخلافة، من خلال ما رووه عن مراسلة الوزير ابن العلقمي لهولاكو سراً، وتعاونه مع المغول للقضاء على الخلافة، انتقاماً لما حلّ بالشيعة في الكرخ، وطمعاً في إقامة خلافة شيعية تحت سيطرة المغول؛ خصوصاً أنهم كانوا أدنى مكانة من السنة واستبعدوا من المناصب الحكومية.

الاضطرابات المستمرة بين أهل الأسواق والأحياء المختلفة في المدينة، مما زاد في سوء أحوال العامة - أكثرية الشعب - التي عانت من ثقل الضرائب، وتدهور الاقتصاد، وازدياد الفوارق الطبقية. ويجمل ابن خلدون ذلك فيقول: "كانت الفتنة ببغداد لا تزال متصلة بين الشيعة وأهل السنة وبين الحنابلة وسائر أهل المذاهب، وبين العيارين والدعار والمفسدين".

هذه الأوضاع أدت إلى فقدان الأمن وانتشار اللصوص والانحلال الأخلاقي وعدم مراعاة العبادات؛ حتى طريق الحج تحكم به قطاع الطرق وحكام الولايات وتعرض الحجاج للنهب والقتل؛ بسبب غياب السلطة وانتهاك القوانين، إلا أنه ومنذ زمن الظاهر كان هناك تيار إصلاحي معاكس اتبع سياسة العدل وتحسين الأوضاع، وسار المستنصر على هديه بمساندة من العلماء، الذين تمتعوا بالقدرة على تعبئة الروح المعنوية للأمة، وقد تمكن بعض الأفراد العاديين من معالجة بعض المخالفات الأخلاقية.

أهل الذمة: كانوا يلقون معاملة حسنة، ويمتعوا بالحرية في العمل ومزاولة طقوسهم الدينية، وإنشاء المدارس ودور العبادة.

الناحية العمرانية :

انعكس سوء الأوضاع الداخلية وتزايد الأخطار الخارجية (الخلافات مع الخوارزميين، ظهور الخطر المغولي) على الحالة العمرانية، فمنطقة العراق التي شغلتها الخلافة زراعية بالدرجة الأولى، ولهذا تأثرت الزراعة بشكل كبير، لأن الخلفاء أهملوا العناية بأنظمة الري وشق الطرق والقنوات والمرافق الأخرى، فأصبحت الزراعة عرضة للفيضانات فتضرر الأهالي

والمزارعون، وزاد السوء إثقالهم بالضرائب، والرسوم، والمصادرات، ورفع الخراج، وحل المقاطعات وإعادتها إلى الخراج. وعانت التجارة أيضاً من الكساد نتيجة للمعاملة السيئة للتجار، مما جعلهم يتجنبون القدوم إلى العراق.

العمارة: لم يُعْنَ الخلفاء بتشييد المباني والقصور كأسلافهم، نتيجة للعوامل التي سبق ذكرها، لهذا فإننا لا نكاد نعثر على مبان تستحق الذكر في هذه الحقبة.

الناحية الثقافية:

ازدهرت الحياة الثقافية في العالم الإسلامي بشكل عام، وفي بغداد بشكل خاص، حيث انتشرت المراكز العلمية، وكانت تعج بالعلماء وطلاب العلم، ينهلون المعرفة من المدارس والمكتبات، التي تمتعت برعاية الخلفاء وذوي الشأن في الدولة والمجتمع، الذين اهتموا بتقريب العلماء، وبناء المدارس التي رصدوا لها أوقافا كافية لتأمين متطلباتها، وشجعوا انعقاد مجالس المناظرات العلمية بحضورهم وبمجالسة العلماء ومناقشتهم.

وكان التدريس يتم أيضاً في المساجد والربط والزوايا، حيث تعقد جلسات تحفيظ القرآن الكريم والحديث، وتدرس العلوم المختلفة، مما ساعد على ظهور علماء كثر رفدوا الثقافة الإسلامية بكم وافر من المؤلفات في مختلف فروع المعرفة؛ إلا أنه بشكل عام اتصفت هذه المرحلة بتأخر الزراعة، وكساد التجارة، وتراجع فن العمارة.

3 - الأوضاع الخارجية :

كانت الخلافة لا تزال تتمتع بمركز ممتاز في العالم الإسلامي؛ من حيث احترام وجود الخلفاء من قبل الحكام المسلمين، الذين كانوا يخطبون لهم على منابرهم، ويتلقون الخلع والتقاليد والتشريفات المرسلة إليهم من بغداد في مصر وبلاد الشام ومكة وفارس والمشرق، واتصفت علاقات الخلافة بالخصوصية مع كل من القوى المعاصرة في هذه المرحلة:

السلطنة الخوارزمية: وتتوضع في البلاد التي تمتد من العراق حتى تركستان، وكان سلاطينها يتطلعون للسيطرة على الخلافة، ولكن هاجمها المغول بقيادة جنكيزخان، ولم يصمد سلطانها علاء الدين خوارزمشاه، ففرَّ أمامهم وتوفي عام 617هـ / 1219 - 1220م، ولم تنجح محاولات ابنه جلال الدين منكبرتي في صدهم، فلاحقوه إلى أن قضي عليه سنة 628هـ / 1231م، وبنهايته زالت دولتهم، وتبقى في فارس بعض الأتابكة المتنافسين .

الإسماعيلية: كانوا يقيمون في القلاع والحصون الواقعة في إقليم قهستان وفارس وهمذان وأصفهان، وبعض القلاع في بلاد الشام، وقد كانوا من القوى الهامة في العالم الإسلامي، ولكن علاقاتهم مع جيرانهم ومع الخلافة كانت سيئة، وربما كانت سبباً في استعداء المغول عليهم من قبل بعض الخلفاء. وقد خرب جلال الدين الكثير من قلاعهم.

الأيوبيون: كان الأمراء الأيوبيّون يحكمون الجزيرة والشام، وكانوا في تنازع مستمر فيما بينهم، مع اعترافهم بسيادة الخليفة، وتوليهم لمهمة الوقوف في وجه الصليبيين، حيث كانوا يتناسون خلافاتهم ويتكاتفون لصد العدو عند ازدياد الخطر، وكان الزعيم في بلاد الشام الملك الناصر يوسف، والملك الكامل في الجزيرة.

بدر الدين لؤلؤ: حاكم إمارة الموصل، حيث استولى على السلطة فيها بعد وفاة آخر الحكام

الزنكيين عام 631هـ / 1233م.

الأراتقة: كانت ماردين آخر مركز لهذه السلالة، ومتوليها الملك السعيد.

المماليك: استولى المماليك البحرية على الحكم في مصر، ولكنهم كانوا يعانون عدم الاستقرار، بسبب النزاعات بينهم، وكان المسمى للحكم الملك المنصور.

الدولة الرسولية: في اليمن، والأئمة الزيدية: في صنعاء.

سلاجقة الروم: تمكن المغول من اجتياح آسيا الصغرى، وحولّوها إلى قاعدة لهم منذ سنة 640هـ / 1243م بعد معركة كوسة طاغ (kosa dagh) وأبقوا على حكامها، عز الدين كيكاوس وركن الدين قليج أرسلان، اللذيْن وافقا على تأدية الجزية وإرسال الإمدادات للمغول.

الصليبيون: تمركزوا في الشريط الساحلي لبلاد الشام، وكانوا في حالة ضعف وتمزق، بسبب الخلافات بينهم، وانقطاع الإمدادات الأوروبية عنهم.

مملكة أرمينية الصغرى: توضعت في كيليكية ويحكمها هيثوم، الذي تحالف مع المغول منذ بداية وصول حملاتهم للمنطقة، وصاهر حاكم أنطاكية (الصليبي) بوهيموند السادس Bohemond VI للحفاظ على مملكته.

القبيلة الذهبية: قامت في منطقة القبجاق، وكان حاكمها بركة خان (بيركي) Berke حفيد جوجي بن جنكيز خان، الذي كان أول حاكم مغولي يعتنق الإسلام عشية الغزو المغولي لبغداد، وكان لا يزال يرتبط بعلاقات وثيقة مع الإمبراطورية المغولية، ولهذا كانت بعض فرق جيشه تشارك مع هولاكو في الغزو.

من خلال ما سبق، نلاحظ أن الخلافة العباسية نجحت فقط في الاحتفاظ بالنفوذ المعنوي على القوى الإسلامية، التي افتقدت الوحدة، والحاكم الذي يجمعها فيوفر القوة الضرورية، التي كان العالم الإسلامي بأمس الحاجة إليها لصد الأعداء، وهكذا لم يجد المستعصم من يدعمه ضد الخطر المغولي، الذي هدد بلاده دون أن يكون قد استعد له الاستعداد الكافي .

الغزو المغولي وأحداثه :

1 - المغول وظهورهم في المشرق العربي الإسلامي:

التتار أو المغول : هم تلك القبائل التي كانت تستوطن على ضفاف نهر أورخون وحول بحيرة البايكال في شرق آسيا (حيث تقوم جمهورية منغوليا حالياً)، وقد كانت تعيش حياة بدائية على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي، وتفتقد الاستقرار سياسياً، حيث كانت الزعامة تنتقل من زعيم إلى آخر، وفقاً لقوة هذا الزعيم الذي يمكنه الثبات والتحكم بزمام الأمور.

وقد صبغت طبيعة المنطقة الصحراوية السكان بصبغتها القاسية، فالمجتمع يسوده منطق القوة، وكل يبحث عن الأقوى لينضم إليه للحفاظ على وجوده. لهذا كانت هذه القبائل متناحرة ومتقاتلة لأبسط الأسباب، وشكل الغزو أساس حياتهم، فعانى منهم جيرانهم، خصوصاً بعد أن تمكن جنكيز خان من توحيدهم وتأسيس إمبراطوريته واتخاذ قراقورم Karakorm عاصمة لها، فهاجموا إمبراطورية كين Kin الصينية في بكين شرقاً، ثم وجهوا حملاتهم غرباً، وسيطروا على قبائل وسط آسيا، والإيغوريين Uigurs، والدولة الخوارزمية.

2 - بدايات ظهور المغول في أراضي الخلافة:

بدأت الغارات الأولى التي أوصلت المغول إلى ديار الخلافة، بدأت سنة 617هـ / 1220م وهم يلاحقون جلال الدين، أثناء تراجعه من بلاد فارس، بعد فشله في التحالف مع الحكام المسلمين لصدهم.

وعندما قضي على جلال الدين، أصبح الطريق مفتوحاً أمامهم للإغارة على أرض الخلافة، فراحوا ينهبون ويخربون، بهدف معرفة مدى قوة المنطقة الدفاعية، التي ثبت لهم ضعفها الناتج عن الخلافات المستمرة بين أمرائها، وعدم استجابتهم لجلال الدين، الذي انهارت بمقتله عام 628هـ / 1331م القوة الإسلامية الوحيدة التي وقفت في وجههم. وأخذوا يشنون الغارات السنوية على العراق، وعانت الخلافة من هذه الغزوات، فقد هاجموا أربيل سنة 634هـ / 1236م، ووصلوا إلى سامراء سنة 635هـ/ 1236م، فاستنفر الخليفة المستنصر وأعلن الجهاد ووصلته نجدة من الملك الكامل.

بعد عام 638هـ/1240م غير المغول مخططاتهم ولم تقتصر أعمالهم على الإغارة والنهب، وإنما بدأوا بالعمل على التمركز فيها، وأرسل أوكتاي خان الرسائل لحكامها بهذا الخصوص، وباشروا الهجوم وسيطروا سنة 641هـ / 1243م على أجزاء من بلاد سلاجقة الروم وجعلوها قواعد لشن هجماتهم .

وتلاحقت غزواتهم بعد موت أوكتاي خان وخلال حكم كيوك خان Gukuk، حيث تقدموا باتجاه بغداد ودخلوا شهرزور عام 642هـ/ 1246م ونهبوها، وفي السنة التالية وصلوا بعقوبا، فتصدى لهم جيش الخلافة بقيادة الدوادار، وفي الهجمات التي شنوها سنة 647هـ /1249م أغاروا على دقوقا وقتلوا حاكمها، وهاجم قسم منهم بغداد وقتلوا الكثير من أهلها ونهبوا أرزاقهم.

بعد انتخاب منكوخان سنة 649هـ / 1251م كثفت الغارات المغولية من جديد؛ ففي عام 650هـ / 1252م تعرضت أراضي الخلافة الشمالية والجزيرة الفراتية، لهجوم شامل تأذت منه الأرواح والأملاك في ديار بكر وميافارقين وراس العين وسروج، ونهبت قافلة تجارية متوجهة إلى بغداد، مما اضطر حكام المنطقة إلى التوجه إلى منكوخان، فاجتمع عنده معظمهم حاملين الهدايا والنفائس لاسترضائه، وكل منهم يأمل أن يصل معه إلى اتفاق يحفظ له أملاكه مقابل بعض التنازلات.

3 - توجه هولاكو إلى المشرق للقضاء على الإسماعيلية :

بعد أن استقرت أحوال الإمبراطورية المغولية الداخلية، وجّه منكوخان اهتمامه لتوسيع ممتلكاته، وأوكل لأخيه الأصغر هولاكو مهمة التوجه إلى غرب آسيا بهدف توطيد سلطة المغول في إيران، والقضاء على الإسماعيلية، وفرض سلطانه على الخلافة ثم المتابعة للسيطرة على بلاد الشام ومصر عقب اكتساح بلاد الروم والأرمن.

وأصدر منكوخان الأوامر إلى حكام الأقاليم التي ستمر فيها الحملة، بالعمل على تسهيل عبور الجيش، وتأمين كافة متطلباته، لضمان سيرها المنظم ونجاحها .

قاد هولاكو حملته ووصل إلى سمرقند سنة 653هـ / 1255م، ثم انتقل إلى كيش، حيث قدم عدد من أعيان خراسان للترحيب به حاملين الهدايا معربين عن الطاعة لأن الرعب ملأ قلوبهم بسبب تخاذلهم وتفرقهم. ومن كيش أرسل إلى الخليفة

العباسي وحكام المشرق الإسلامي طالباً منهم إرسال الإمدادات الحربية والمادية، للقضاء على الإسماعيلية.

بعد انقضاء فصل الشتاء بدأ بتنفيذ خطته في السيطرة على قلاع الإسماعيلية، التي وقعت في قبضته واحدة بعد الأخرى، وتمكن من أسر آخر حكامهم ركن الدين خورشاه، واحتل عاصمتهم قلعة الموت 654هـ / 1256م، وأصبح جاهزاً لتحقيق هدفه الثاني في القضاء على الخلافة، فتوجه إلى همذان ومن هناك بدأت مراسلاته مع الخليفة المستعصم.

4 - المفاوضات بين هولاكو والخلافة:

أرسل هولاكو رسالته الأولى من همذان سنة 655هـ / 1257م إلى الخليفة والتي يلومه فيها على عدم إرساله المدد العسكري لمحاربة الإسماعيلية، ويأمره بتجريد حصون بغداد وأسوارها من وسائل الدفاع، ويدعوه للحضور لمقابلته لتسليم المدينة بعد أن يتنازل لابنه أبي بكر عن السلطة، ويخبره إذا لم يرغب بالقدوم بنفسه بأن يرسل الوزير، أو سليمان شاه [رئيس قبائل التركمان] أو الدوادار الصغير للمفاوضة، ويهدده إذا لم ينفذ بنود الرسالة بأنه سيحلّ به العقاب الشديد.

عندما استلم الخليفة الرسالة، أجرى الخليفة مشاوراته مع زعماء دولته، فنصحوه بألاّ لا يكترث لها، وحذروه أن هولاكو يريد أن يهيئ بغداد ليغزوها وهي خالية من القوة الدفاعية ولا يريد المفاوضة والاتفاق. لهذا رد الخليفة برسالة أرسلها مع شرف الدين ابن الجوزي [محتسب بغداد] وبدر الدين محمود وزنكي النخجواني تتضمن رداً شديداً حاول صياغته بلغة مرنه مظهراً له بأنه قوي، ويناصره الملايين من المسلمين ويقول له: إن بغداد لم يقصدها غاز من قبل ونجح في إزالة الخلافة، وينصحه بالتخلي عن الغرور والعودة إلى بلاده، لأنه مستعد لمحاربته والانتصار عليه.

هذا الرد أغضب هولاكو وجعله يصمم على احتلال بغداد، ومع ذلك أرسل له رسالة ثانية يخبره بأنه سيبقيه في منصبه إذا اعترف بالتبعية للمغول ودفع ضرائب سنوية.

كان رد الخليفة أن اعترافه بالتبعية لهم لا يجوز شرعاً، ولكنه مستعد لدفع الأموال مقابل رجوعه من حيث أتى، وأعيد سفراء هولاكو، الذين هوجموا من أهالي بغداد، مما زاد غضب هولاكو عندما علم بذلك. وعندما وصل رسل الخليفة وعرف رده، أعادهم بعد أن حمّلهم إنذاراً نهائياً عنيف اللهجة، أفقد المستعصم رباطة جأشه، فقام بجمع رجال دولته واستشارهم في كيفية معالجة الوضع الجديد فكانت آراؤهم مختلفة :

- الوزير أشار عليه أن يرسل الهدايا إلى هولاكو ويعتذر إليه، ويذكر اسمه في الخطبة وينقشه على السكة، معتقداً أن هذا يجعله يتراجع عن قصده، ولا يتعرض للخليفة بسوء.
- الدوادار الصغير كان رأيه: يجب على الخليفة المقاومة، ووجه الاتهام للوزير بالتواطؤ مع هولاكو، واتهمه بأنه يتبادل المراسلات معه، ومن الأفضل أن يوزع المال على الشعب ويجهز الجيش للدفاع.

وقد وجد رأي الوزير الاستحسان لدى الخليفة وأوشك أن ينفذه، لكن الدوادار تمكن من إقناعه بالموافقة على القتال؛ رغم سوء ظروف الخلافة العسكرية والداخلية، والتي لا تسمح بتنظيم مقاومة جدية بالسرعة المطلوبة. فضلاً عن أن الزعماء والأمراء المسلمين لم يستجيبوا لدعوته،

نظراً لأنه لدى كل منهم ما يكفي من المشاكل التي تمنعه من مساندته، مع العلم أن الأتابكة في فارس كانوا قد أعلنوا الخضوع لهولاكو منذ وصوله إلى المنطقة.

رغم كل هذا نجد الخليفة يحاول جمع جيش من الفرس والترك المرتزقة، لكنه لم يؤد لهم أرزاقهم. وخلال خمسة أشهر لم يستعدّ كما يجب بسبب بخله في صرف الأموال من ناحية، ومن ناحية أخرى قيل إنه كان ينتظر مساعدة إلهية، وعندما كان ينبه إلى الخطر المحدق به، وأنه يجب عليه إما مداراة المغول والدخول في طاعتهم، أو حشد العساكر ومبادرتهم إلى تخوم خراسان بعيداً عن العراق؛ كان يقول: "أنا بغداد تكفيني ولا يستكثرونها عليَّ إذا نزلت لهم عن باقي البلاد، ولا أيضاً يهجمون عليَّ بها وهي بيتي ودار مقامي" - علماً أن بغداد كانت شهيرة بمناعة استحكاماتها وقوة تحصيناتها، وكان باستطاعة المستعصم أن يحشد جيشاً ضخماً يزيد عدد خيالته وحدهم عن 120 ألف فارس، لكن على ما يبدو إن الوزير أثار شكوك الخليفة في قدرته على المقاومة، ونصحه بتخفيض عدد أفراد الجيش وتوفير الأموال لدفعها إتاوة للمغول حتى يتراجعوا عن مهاجمته، وهكذا فإنه لم يقم بعمل يستحق الذكر للمواجهة وبالتالي حصد نتيجة إهماله وسوء تقديره.

ومن جهته قام هولاكو باستشارة أركان دولته وكل واحد كان يبدي رأيه حسب وجهة نظره، ثم استشار المنجمين فيما يتعلق بأحكام النجوم، فكان رأي الفلكي السني حسام الدين - المتعاطف مع الخليفة ويحرص على عدم غزو بغداد - أن هذه الحملة إذا تمت سوف تحدث خللاً في نظام الكون وتتوالى المصائب، وحذر هولاكو من الكارثة.

أما اللامات (الرهبان الشامانيون) والأمراء، فكان رأيهم أن التوجه إلى بغداد هو الصواب.

وعندما استشار نصير الدين الطوسي - الذي كان يكره الخليفة ويتمنى إسقاطه - طمأنه بأنه لا يوجد أية عقبات تحول دون الغزو، وعمل على تفنيد أقوال الفلكي حسام الدين، وأقر خطته وشجعه على تنفيذها.

5 - الهجوم على بغداد وفرض الحصار:

بعد أن تلقى رد الخليفة، بدأ هولاكو بتطبيق خطة الهجوم التي وزع فيها قواته البالغ عددها 200 ألف جندي بحيث تحيط بالمدينة، وعمل على استمالة سكان الجبال المتاخمة للعراق، وتلقى المساعدات من أتابكة فارس وحاكم الموصل، وانضمت إليه فرق من الكرج ومغول القبجاق. بدأ هولاكو الهجوم مستفيداً من كل الإمكانيات ، فأصدر أوامره إلى جيوش بايجونويان Baigu Noyan وجرماغون Churmagun التي كانت في بلاد الروم بأن تسير إلى الموصل عن طريق أربيل وتعسكر في الجانب الغربي من المدينة وتنتظر أوامره. أما من جهة الشرق فقد رتب في الميمنة : الأمراء بلغا (boulga) وتوتار (toutair) وقولي (kouli) أحفاد جوجي بن جنكيز خان مع سونجاق (soundjak) وبوقارتيمور (Boukatimour)، وأركيو (Arkiou)، وعلى الميسرة: قوات كتبغا وقدسون وإيلكانويان (Ilka Noyan) التي زحفت من لورستان وبيات وتكريت وخوزستان. وفي أوائل المحرم عام 655هـ / 1257- 1258م سار هو في قلب الجيش عن طريق كرمنشاه وحلوان يرافقه الأمراء والكتاب ونصير الدين الطوسي وعطا ملك الجويني.

عندما وصل إلى منطقة أسد آباد، أرسل يستقدم الخليفة إليه من جديد، لكنه ماطل وأرسل

ابن الجوزي ثانية برسالة تحمل طابع التهديد والوعيد والتوسل والالتماس، طالباً منه التراجع مقابل بذل الأموال له، إلا أن هولاكو أصر على متابعة الزحف، لأنه ظن أن الخليفة يريد كسب الوقت للتحضير للمقاومة، ثم استدعى قادة الجيش المتمركز غربي بغداد وأبلغهم خطة القتال. في هذه الأثناء ألقى جنود المغول القبض على بعض طلائع الجيش العباسي، وجعلوهم مرشدين لهم بعد أن منحوهم الأمان، وعسكر هولاكو في حلوان، وتولى بايجو قيادة الجيش في الجهة الغربية وعبر نهر الدجيل ووصل إلى نهر عيسى، وقد كان جيش الخلافة بقيادة الدوادار معسكراً في بعقوبة، واشتبك الجيشان عند الأنبار، فهزم المغول لكنهم عندما أصبحوا في البشرية ناحية الدجيل فتحوا مياه نهر بشير على المنطقة الواقعة خلف جيش الخلافة وانقضوا عليه وحققوا انتصارهم، وقتل قادة الجيش مع 12 ألف من جنودهم غرقاً، لكن الدوادار تمكن من النجاة وتوجه إلى بغداد، عندها تقدم بايجو واستولى على الجانب الغربي من المدينة، أما هولاكو فقد نزل في الجهة الشرقية مقابل برج العجمي [برج كبير في الجانب الشرقي من بغداد] وطوقت بغداد بالجيش المغولي .

كان إيلكا نويان وفربا (Ferba) على بوابة كلواذي [اليوم الباب الشرقي]، وتمركز قولي وبولغا وتوتار وشيرامون (Shiramoun) وأرقيو (Arkiou) في مواجهة بوابة سوق السلطان، ووقف بوقاتيمور في جهة القلعة، وصوبت المجانيق لتضرب برج العجمي فأحدثوا فيه ثغرة، وأقاموا أسواراً موازية لأسوار بغداد، وحفروا خندقاً بجانب المدينة ووراء هذه الأسوار، وأنشئت قواعد للمجانيق وقاذفات النفط، وبدأوا برمي المدينة.

6 - المفاوضات أثناء الحصار :

عندما شُدد الحصار وتهدم برج العجمي، أرسل الخليفة الوزير والبطريق إلى هولاكو قائلاً: بأنه ينفذ ما طلبه منه، لكن هولاكو رد عليه بأن هذا كان طلبه عندما كان في همذان، وهو الآن على أبواب بغداد، وأنه يجب أن يرسل سليمان شاه والوزير والدوادار.

في اليوم الثاني خرج الوزير وصاحب الديوان مع جمع من العلماء والأعيان، لكن هولاكو أعادهم، واستمرت الحرب ستة أيام قام هولاكو خلالها بمحاولة للتأثير على السكان عن طريق المناشير التي ألقيت داخل بغداد رمياً بالنبال، والتي تعدهم بمنح الأمان لكل من يتوقف عن حرب المغول، وتنصحهم بالاستسلام وتحذرهم من قوة الجيش وكثرته. كذلك تم الاتصال بين الحامية التركية في بغداد والفرق التركية المشاركة في جيش هولاكو، فقرر أفرادها التخلي عن حرب الإخوة - بين أتراك وأتراك - وتمكن المغول من السيطرة على الأسوار الشرقية، وأقاموا جسرين على نهر دجلة في أعلى بغداد وأسفلها، ونصبوا المجانيق، وعينوا الحراس لمنع من يحاول الهرب عن طريق النهر، وقطعوا طريق المدائن والبصرة وأحكم الحصار تماماً.

استناداً إلى تطور الأحداث هذا أصبح من الممكن تقدير النتائج السلبية للمعركة، فتدهورت الروح المعنوية لعامة أهل بغداد مما دفعهم إلى إرسال شرف الدين المراغي وشهاب الدين الزنجاني، ليأخذا لهم الأمان.

عندما رأى الخليفة إخفاق المقاومة؛ تأكد أنه لا مفر من الاستسلام، فأرسل فخر الدين الدامغاني (صاحب الديوان) ونجم الدين بن درنوس (حاجبه

الخاص) ومعهم قليل من التحف إلى هولاكو الذي لم يعر ذلك أي اهتمام، ثم خرج للقاء هولاكو أبو الفضل عبد الرحمن ابن الخليفة الأوسط مع مجموعة من كبار الدولة حاملين الأموال الكثيرة، فلم تقبل منهم، ثم ذهب إليه أبو بكر الابن الأكبر ومعه الوزير ابن العلقمي وجماعة من المقربين ولكن دون فائدة. عندها أرسل هولاكو مع رسل الخليفة نصير الدين الطوسي ومعه يرليغ (أمر سلطاني) وبايزة (عهد) وقالوا: إن بإمكان الخليفة القدوم إذا أراد، فتوجه الخليفة للقاء هولاكو، ولكن تضاربت الروايات حول الكيفية التي تم بها ذلك؛ فالطوسي ورشيد الدين يذكران أنه خرج برفقة حاشيته في 4 صفر عام 656هـ / 10 شباط عام 1258م بعد أن يئس من الانتصار، وسلم نفسه دون شروط، ثم أرسل هولاكو إلى الدوادار وسليمان شاه يأمرهم بالخروج إليه مع أتباعهم لأنه يريد إرسالهم إلى بلاد الشام ومصر، ولكن عندما خرجوا تم تقسيمهم ألوفاً ومئات وعشرات وقتلوا جميعاً، وأرسلت رؤوس الدوادار وسليمان شاه وتاج الدين ابن الدوادار الكبير إلى الموصل، وعلقت على سورها.

أما غيرهم من المؤرخين فقد ذكروا أن الوزير ابن العلقمي عندما توجه إلى هولاكو اتفق معه على إخراج الخليفة واستسلامه، وعاد ليخبر الخليفة أن هولاكو يرغب أن يزوج ابنته من ابنه أبي بكر وعليه أن يخرج لحضور العقد مع الأعيان ورجال الدولة.

وفي رواية ثالثة أن هولاكو وافق على المصالحة مع الخليفة على أن يأخذ نصف الخراج من أرض العراق، وخرج الخليفة ومعه أمراء الدولة والأعيان، وعندما اقتربوا من مقر هولاكو، قتلهم جميعاً عدا الخليفة و 17 شخصاً من مقربيه ليدلوهم على مواضع الأموال. عندما التقى هولاكو بالخليفة أنبه لأنه لم يبادر إلى الاعتراف بسلطته والتوجه إليه، وأمره أن يصدر أوامره لأهالي بغداد لوقف الجهاد والخروج من المدينة ليتم إحصاؤهم، ولما نفذوا أوامره كان نصيبهم القتل.

7 - اجتياح المدينة :

انتهى أمر المقاومة وسمح هولاكو لجنده باجتياح بغداد في 7 صفر عام 656هـ / 13 شباط 1258م فمدوا جسراً على دجلة، وهدمت الأسوار، وردمت الخنادق، واندفع جند المغول مطلقين العنان لهمجيتهم في القتل والنهب والسلب والتخريب، ونهبت دار الخلافة ودمرت القصور والمساجد والأضرحة بغية الحصول على قبابها الذهبية، ونبشت قبور الأولياء والأئمة، والخلفاء في الرصافة، والتهمت النيران الكثير من الأبنية، وقضي في وقت قصير جداً على كنوز الخلافة العباسية الثقافية والأدبية والفنية، التي تجمعت طوال خمسة قرون في. وغرقت شوارع المدينة بالدماء، إذ قتل أهلها بمذابح جماعية لم تفرق بين النساء والأطفال والرجال، ولم ينجُ من القتل إلا من تخفى في الأقبية والقنوات والأنفاق ومواقد الحمامات والآبار، أو من كان صغيراً وأخذ أسيراً.

واختلفت المصادر في تقدير عدد القتلى حيث تراوحت التقديرات بين مليون و800 ألف نسمة، على أن المؤرخين المعاصرين يعتقدون أن في هذه الأرقام شيئا من المبالغة.

استمر اجتياح المدينة 40 يوماً ثم نودي بالأمان، فظهر من كان قد تخفى، فلم يكن بالإمكان التعرف عليهم لشدة معاناتهم وسوء حالهم، وقد تعرض هؤلاء للوباء الشديد الذي انتشر في المدينة نتيجة للعفونة والفساد في الهواء فمات معظمهم.

لا بدّ من التنويه أن النصارى لم يتعرضوا للأذى وذلك لأنهم انحازوا لهولاكو وحظوا برعاية زوجته دقوز خاتون، واحتموا بالكنائس والأديرة ودور بعض الأعيان الذين منحوا الأمان.

8 - نهاية الخليفة العبّاسي :

بعد يومين من بدء اجتياح المدينة 9 صفر / 15 شباط دخل هولاكو إليها وتوجه إلى قصر الخليفة، واستدعى الخليفة وطلب منه أن يقوم بواجب الضيافة تجاهه، فكسر الأقفال - لأنه ولشدة ارتباكه نسي أين المفاتيح - ووزعت الجواهر والثياب والأموال على الحاضرين، ثم طلب هولاكو النفائس المدفونة في مواضع سرية، فسلمها له أيضاً. وعندما رآها وبَخه لعدم بذله الأموال لتحصين دولته والدفاع عنها.

في 14 صفر / 20 شباط غادر هولاكو بغداد تجنباً للوباء الذي انتشر فيها، وأقام في قريتي وقف وجلابة واستدعى الخليفة وأمر بقتله.

اختلفت روايات المصادر حول الطريقة التي اتبعت في التخلص منه، ولا زالت مسألة قتله يكتنفها الغموض، حيث ذكر أنه قتل بالسيف، أو لف في بساط ورفس حتى مات، وقال بعضهم بل مزق إرباً، وقيل إنه أغرق في دجلة، أو أعدم مخنوقاً بين الزرابي، ويذكر ماركو بولو أنه سجن في برج كان مملوءاً بالكنوز دون طعام إلى أن توفي، لكن على الأرجح أنه وضع في جولق (كيس من الخيش) وديس بالأرجل أو وضع في طريق الخيول ومات رفساً، ثم دفن في مكان مجهول على عادة المغول، وقتل بعده ولديه أحمد وعبد الرحمن ومجموعة من أقاربهم وقادة الدولة الذين كانوا خرجوا معه عند بوابة كلواذي.

وبذلك قضي على الخلافة العباسية التي دامت أكثر من خمسة قرون (524) سنة 132 - 656هـ/ 750 - 1258م، واستولى هولاكو على ثروات العباسيين، التي كدسها حول خيمته، ثم نقلها إلى أذربيجان، حيث وضعها في قلعة شها على بحيرة أرومية بعد أن أرسل قسماً منها إلى منكوخان.

بعد أن اطمأن هولاكو لفرض سيطرته التامة على العراق غادر مع جنوده - الذين حزنوا لمغادرة المدينة لاعتقادهم أنه لازال بها الكثير من التحف والغنائم - إلى همذان في 30 صفر عام 656هـ / 8 آذار عام 1258م، تاركاً في بغداد 3000 فارس مغولي بقيادة إلكانويان وقرابوقا، وعيَّن الأمير علي بهادر (استو) شحنة لبغداد، وأعاد ابن العلقمي وزيراً فيها، وعيَّن فخر الدين الدامغاني في منصب صاحب الديوان، ونجم الدين أحمد عمران واليًّا على أعمال شرقي بغداد، وابن الدرنوس مشرفاً على الأوزان والحرف، وأمرهم أن يعمروا بغداد ويعيدوا إليها النظام.

9 - الأسباب التي أدت إلى سقوط بغداد:

إن الأسباب التي ساهمت في إنهاء الخلافة العباسية عديدة وهي تتعلق :

(أ) أوضاع الخلافة والعالم الإسلامي:

- انعدام الشعور بالمسؤولية لدى الخلفاء المتأخرين، وانغماسهم في اللهو.
- الفساد السياسي (الخلافات بين الوزير والدوادار، التنافس بين القادة، انتشار الرشوة) .
- اضطراب أحوال الخلافة الداخلية (تدهور اقتصادي، انقسام مذهبي، إهمال الجيش والدفاع عن الثغور... إلخ) .
- موقف المسيحين والأرمن الذين انضموا إلى لمغول ونفّذوا العديد من المهام.

- فقدان القيادة الإسلامية الموحدة، وتخاذل الحكام المسلمين الذين ساندوا هولاكو.

- يرجع البعض الهزيمة العباسية إلى القضاء والقدر؛ في حين ذكر آخرون أن الحملة تمت بتحريض من الفرس الذين لم ينسوا عداءهم القديم للعرب .

(ب) الأسباب التي مكنت المغول من الانتصار :

- الخطة المدروسة التي اتبعها هولاكو، وقوة عصبية جيشه وتماسكه وتفوقه العددي، واعتماده على مستشارين مسلمين، وعلى الكشافة والجواسيس.

- مهارتهم في القتال والفروسية واستخدام الأسلحة، واتباعهم أسلوب الحرب الخاطفة. والاستفادة من الخلافات الطائفية والاهتمام بالطرق والمواصلات.

- القسوة التي غلبت على طباعهم حيث كانوا يقتلون الأرض والإنسان لأنهم يفتقدون القيم الروحية والأخلاقية.

- استخدامهم أساليب نفسية في القتال (الصيحات، الرايات، الإرهاب بإرسال الإنذارات والتهديدات ورؤوس القتلى إلى المناطق التي يقصدونها، منح الأمان لحلفائهم والمستسلمين لهم).

- قتل الأسرى، أو الاستفادة منهم في الأعمال الشاقة (تنصيب أدوات الحصار، شق الطرق).

- انتفاء حاجتهم للتموين والمدد، لأنهم لا يأكلون سوى لحوم قطعانهم (أغنام، أبقار، خيول) المرافقة لهم، وكانت خيولهم تأكل ما تجده ولا تحتاج للأعلاف.

10 - أصداء انتصار هولاكو بين الحكام المسلمين :

أصاب سقوط بغداد وقتل الخليفة جميع المسلمين بالحسرة، وملأ الرعب قلوبهم نتيجة الفظائع التي ارتكبها المغول، وهذا ما جعل الحكام يسارعون إلى هولاكو لتقديم فروض الطاعة، حاملين له الهدايا لاتقاء شره، فوصل إلى معسكره كل من :

حاكم الموصل بدر الدين لؤلؤ، حاكم أربيل تاج الدين بن صلايا، وحكام سلاجقة الروم عز الدين وركن الدين، وأتابك فارس المظفر، أما حاكم حلب الملك الناصر، فقد بعث ابنه العزيز ملتمساً مساعدة هولاكو ضد المماليك، لأنه كان على عداء معهم.

حاكم القبيلة الذهبية بركة خان كان معارضاً للحملة وحاول التدخل لمنعها لكنه لم ينجح، كما أنه لم يستطع أن يمنع فرق جيشه من المساهمة فيها، وقد تأثر لسوء المعاملة التي لقيها الخليفة وبغداد من هولاكو، إضافة إلى غضبه من نقل السلطة في القوقاز، التي كانت من أملاكه إلى هولاكو بأمر من منكوخان، ومقتل خمسة آلاف جندي من عساكر القبيلة الذهبية التي تقاتل إلى جانب هولاكو في مدينة بخارى في ظروف غامضة، مما أسفر عن قيام الحرب بينهما، وعن إصدار الأوامر لفرقه العسكرية بالانفصال عن هولاكو والانضمام إلى المماليك.

الزعماء المحليون في باقي مناطق العراق (الحلة، البصرة، واسط) أعلنوا الخضوع لهولاكو، وجمعوا الأموال وحضروا يسترضونه.

نتائج سقوط الخلافة :

1 - النتائج السياسية :

يمكن إجمال النتائج السياسية التي ترتبت على نجاح المغول في إسقاط الخلافة بما يلي:

1 - هز سقوط بغداد على يد المغول العالم الإسلامي عامة، والعربي بشكل خاص، فلأول مرة يخلو منصب الخلافة من الخليفة، وهذا ما أصاب الوحدة السياسية الصورية للمسلمين بضربة قاصمة، وبدأ التنافس بين الزعامات الإسلامية على مركز الخلافة، الذي بقي شاغراً حوالي ثلاث سنوات.

2 - بدأ هولاكو يستعد للتوجه للسيطرة على بلاد الشام، بعد أن أصبح الطريق مفتوحاً أمامه.

3 - ملأ الرعب والفزع قلوب الحكام المسلمين، لأن أخبار وحشية المغول كانت تسبقهم دائماً إلى البلاد التي لم يصلوا إليها فيسارع الأمراء والحكام إلى الاستسلام لهم واسترضائهم، معلنين الخضوع بشكل مخز.

4 - كان للمغول دور هام في ظهور المماليك وما حققوه من انتصار في معركة عين جالوت عام (658هـ / 1260م)، ثم اتخاذهم لقضية خلو منصب الخلافة كذريعة لإحياء الخلافة، واعتبار أنفسهم أمراء للمؤمنين وخلفاء للخلفاء العباسيين .

5 - أصبحت مصر مركز الثقل السياسي بعد إحياء الخلافة العباسية في القاهرة، والمبايعة المتبادلة بين أحد أفراد البيت العباسي (أبو القاسم المستنصر بالله) وزعيم المماليك الظاهر بيبرس، التي أكسبت الصفة الشرعية لحكم المماليك، بالإضافة إلى تحملهم مسؤولية الجهاد لتطهير بلاد الإسلام من الأعداء، حيث أوقفوا تقدم الغزو المغولي، وأنهوا الاحتلال الصليبي لبلاد الشام.

6 - فوز المماليك بمعركة عين جالوت، وإعادة إحياء الخلافة أوصد الباب في وجه بقايا الحكام الأيوبيين الذين فشلوا في لم شملهم والتصدي للغزاة، وبذلك صار الخلفاء سنداً لدولة المماليك إلى حين سقوطها على يد العثمانيين سنة 923هـ / 1517م.

7 - فقدت الخلافة جوهرها وبقي فقط مظهرها التقليدي، حيث اقتصرت مهام الخلفاء على التوقيع وإعطاء التفويض بالحكم للسلطان، وعلى الظهور في الأعياد والمناسبات، وأحياناً يخرج الخليفة مع الجيوش ليباركها، ويحث الجنود على القتال.

8 - أصبحت مصر حاجزاً لا يخترق أمام المغول ومركزاً للعقيدة الإسلامية، واحتفظت بسيادتها على فلسطين وسوريا اللتين أصبحتا حربة متقدمة للدفاع عن وادي النيل.

9 - تمزقت الوحدة السياسية التي كانت تشمل العالم الإسلامي باسم الخلافة، وتشكلت مجموعة من الوحدات الإسلامية السياسية التي لا تدين بالولاء إلا لقوتها الخاصة.

10 - في آسيا الصغرى دمر الغزو المغولي تدريجياً نظام السلاجقة لصالح التركمان وسرعان ما تسبب هؤلاء في سقوط الإمبراطورية البيزنطية، غير أن نشاطهم على الجبهة الجنوبية كان يتسم بالاعتدال حتى ضد كيليكية، حيث تمت الضربة القاضية على مملكة أرمينية الصغرى على يد المماليك في القرن 7هـ/14م.

11 - قدم المغول خدمة غير مقصودة لدولة المماليك الناشئة بقضائهم على الأسر الحاكمة الصغيرة المستقلة في بلاد الشام، مما سهل ضمها لسلطتهم.

12 - شجع انتصار المغول الغرب الأوروبي

علـى زيـادة الحمـلات الـصليبية علـى المـشرق الإسلامي.

13 - إن سـقوط بغـداد الـذي تـلا سـقوط القسطنطينية في أيدي اللاتين بحوالي نصف القرن، قضى على ما كان معروفاً من قديم الزمان من التوازن بين بيزنطة والخلافة؛ والذي أدى إلى ازدهار حضارة الشرق زمناً طويلاً، حيث فقد الشرق السيطرة على مقدراته المدنية.

14 - آل التوسع المغولي إلى تأسيس أربع دول تابعة للخان الأعظم وهي: دولة الصين، دولة آسيا الوسطى، الدولة الإيلخانية [أي الخان التابع] في إيران، ودولة القبيلة الذهبية في وادي القبجاق.

15 - تأسست إيلخانية فارس، التي تولي الحكم فيها هولاكو وأبناؤه، وجعل لها عاصمتين: تبريز ومراغة، وقام ببناء قصر حصين وضع فيه الأموال والكنوز التي حصل عليها من بغداد وقلاع الإسماعيلية، وأصبحت بغداد التي لم تعد أبداً إلى ما كانت عليه - حيث أنها لم تصل بعد 40 سنة إلى عشر حجمها السابق - تابعة لهذه الدولة، التي ساهمت في فصل منطقة شرق دجلة، حيث انتشرت معالم الحضارة الفارسية.

16 - حاكم القبيلة الذهبية، ولأسباب سبق ذكرها، نجده يأمر جنوده بالانسحاب من جيش هولاكو والتوجه للانضمام للمماليك في مصر. وقد ترتب على موقفه هذا الكثير من النتائج الهامة:

(أ) خرق الوحدة المغولية لأول مرة، بأن عقد اتفاقاً مع دولة أجنبية، ثم حذف اسم الخان الأعظم عن النقود 658هـ / 1260م.

(ب) ساهم من خلال أعماله الحربية ضد هولاكو في القوقاز في منع الأخير من إرسال حملات جديدة إلى بلاد الشام.

(جـ) عقد معاهدة تجارية مع بيزنطة، وفي هذا خدمة كبيرة للسلطان المملوكي، لتثبيت سلطته في وادي النيل، حيث ضمن لهم استيراد الرقيق من سواحل البحر الأسود.

(د) عدّ نفسه تابعاً للخليفة العباسي في القاهرة، ولهذا أهميته الكبيرة من الناحية الفكرية (الأيديولوجية)، والدينية.

إضافة إلى ما سبق هناك مجموعة من الآثار السياسية ذات الصبغة الإدارية، التي كان الانتصار المغولي سبباً لها، فقد زالت بعض الوظائف والمناصب أو فقدت أهميتها، أو حصل عليها تغييرات جديدة وزادت صلاحياتها، وحيث أن البلاد التي احتلها المغول احتفظت بالكثير من النظم والوظائف الإدارية العباسية، مع أنها أصبحت جزءاً من إمبراطورية المغول، فبالإمكان ملاحظة ما يلي :

- زوال منصب الخليفة أدى إلى زوال وظائف البلاط القائمة على خدمته.

- ألغيت الدواوين واستبقي ديوان الوزير الذي كان يسمى "الديوان" وكذلك ديوان الزمام (الذي يدير الشؤون المالية)، ثم أدمج الديوانان معاً في ديوان واحد وصار اسم رئيسه "صاحب الديوان". واكتسب هذا المنصب أهميته وقوته خاصة بعد أن تولاه علاء الدين عطا ملك الجويني المعين من قبل هولاكو.

- اكتسب منصب "كاتب السلة" (سكرتير مجلس الوزراء) أهمية كبيرة، وكان يطلق عليه اسم "كاتب العراق".

- ازدادت أهمية منصب "المشرف" (المراقب، المساعد)، وعين مشرفاً على صاحب ديوان بغداد، ومشرفاً للعراق.

- بقي منصب "قاضي القضاة"، وهو من الوظائف الدينية.

- أصبح مدرسو المدارس الدينية المرشحين

لتولي مناصب القضاة؛ بحكم اشتغالهم بالشريعة الإسلامية.

- "الحسبة" ومتوليها: "المحتسب" صار في هذه المرحلة مستقلاً عن القضاء على الأغلب، ومهمته مراقبة النظام العام، والصنائع، ومنع الغش والاحتكار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- وضعت جميع الأوقاف الإسلامية تحت إشراف نصير الدين الطوسي، الذي أصبح مسئولاً عن أوقاف الجوامع، والمساجد، والربط، والزوايا، والمدارس.

- بقيت الوظيفتان الدينيتان: "نقابة الطالبين" ولاحقاً "نقابة العباسيين" وكانت مهامها اجتماعية وسياسية.

- استمر وجود وظيفة "مشيخة الشيوخ" حيث يشرف متوليها على شؤون الربط، والخوانق، ومن يقيم بها من الصوفية والفقراء. ومن الوظائف المدنية الأخرى :

"الصدر"، وهو رئيس أحد الدواوين الكبيرة.

"الناظر"، ومهمته الإشراف على الأمور المالية، وبعض المهام الإدارية. وكانت أهم الوظائف العسكرية اثنتان:

"الشحنة"، الذي كان بمثابة القائد العام للقوات المسلحة وتقع عليه مهمة الحفاظ على الأمن العام والنظام.

"نائب الشرطة" وهو المسئول عن المحافظة على أمن بغداد في الأحوال العادية، أما إذا حدث أمر خطير يهدد السلامة العامة، فعندئذ يتدخل الشحنة.

2 - النتائج الدينية :

1 - لقد كان للخليفة نفوذه الديني البعيد الأثر في نفوس المسلمين جميعاً، فعلى الرغم مما كانت تعانيه الخلافة من وهن وفقدان لأي سلطان سياسي، ظلت تمتلك قدراً كبيراً من الهيبة والمكانة الروحية والأدبية في نظر المسلمين الذين صعقوا لزوال الخلافة، حيث تحسس المسلمون هول هذه الكارثة بعد أن أصبح العالم الإسلامي لأول مرة دون زعيم وإمام روحي منذ قيام دولة الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة .

2 - أصبحت مصر مركزاً للعقيدة الإسلامية، خصوصاً بعد إعادة إحياء الخلافة في القاهرة.

3 - إن غزو بغداد بقيادة هولاكو وقتل الخليفة، سبّب حزنَ المسلمين، خاصة السنة منهم، فقد اعتبروها أكبر نازلة ألمت بمقام الخلافة وبآل البيت، وأقيمت المآتم في كل مكان.

4 - أدى سقوط الخلافة إلى تغير في الأوضاع الدينية في المشرق، فقد حظي المسيحيون والأرمن بعناية هولاكو، بتأثير من زوجته المسيحية دقوز خاتون، حيث تولوا المهام والمناصب الكبرى بفضلها، وسمح لهم ببناء كنائسهم وتنظيم مواكبهم علماً أن الغزاة لم يتّعرضوا لهم بسوء، أو بالنهب، لأن البطريق (الجاثليق) قام أثناء حصار بغداد بجمع رعاياه في كنيسة السوق الثالث، حتى أن الكثيرين من أغنياء المسلمين نقلوا أموالهم إلى دار البطريق طمعاً بالنجاة، ولكنهم قتلوا. ولكنهم قتلوا. وقد انتظر المسيحيون في سورية وفلسطين وآسية الصغرى قدوم المغول بفارغ الصبر، ليحققوا أملهم بتحسين أوضاعهم، وقد لعبوا دوراً مهماً في السقوط السريع لكثير من المدن والمعاقل في شمال بلاد مابين النهرين في يد المغول.

5 - أثناء نهب بغداد لم يتعرض المغول للشيعة، الذين كانوا يقيمون في جنوب العراق بشكل أساسي، فقد تم استثناؤهم أيضاً من النهب، لأن نصير الدين الطوسي كان يتكلم باسمهم ويدافع

عنهم، وقاموا باختيار نقيب للأشراف ليكون ممثلاً لهم أمام السلطات المغولية، وأعادوا بناء مساجدهم، وعقدوا احتفالاتهم ومواكبهم الدينية العامة.

6 - جاء الغزو المغولي فألغى الأساس الديني للدولة، وجعل الأديان ومن ضمنها الوثنية، طوائف متساوية أمام السلطان الإيلخاني، واستمر الحال كذلك حتى مجيء غازان إلى العرش، واعتناقه الإسلام بشكل رسمي في 694هـ / 1294م، علماً أن عداء المغول للمسلمين خف تدريجياً بسبب اعتناق مغول القبجاق والخزر وتركستان للإسلام.

7 - أما المسيحية فقد انحسرت عن بلاد ما بين النهرين وآسيا الصغرى بسبب انهيار الجماعات الزراعية التي كانت المسيحية في ذاك الوقت الدين السائد بها والتي تعرضت للهجوم من المغول الرحل، الذين لم يتعودوا على الجمع بين الاقتصاد الزراعي والرعوي المعروف بالنسبة إليهم.

8 - لم يرد ما يشير إلى أن اليهود عوملوا معاملة خاصة، بل يبدو أنه أصابهم ما حلّ بالمسلمين من القتل خلال استباحة بغداد، وتوجد إشارات قليلة تدل على وجودهم في أكثر مدن العراق في السنوات التالية.

9 - إن عدم اكتراث المغولي سهّل تغلغل المبشرين في أعقاب التجار، وتنظيم الأساقفة في البلاد التي احتلها الكفار (المغول) لعدة قرون، ونتج عن ذلك اتصال أفضل مع الطوائف المسيحية الشرقية.

10 - اتجه الفكر الديني الإسلامي - نتيجة لتكاثر الكوارث والنوائب - نحو التصوف؛ فازداد الإيمان بالأقطاب والأبدال وشيوخ الوقت وكراماتهم الغيبية، وظهرت في القرنين التاليين أعداد كبيرة من الفرق الصوفية كان لبعضها دور واسع في نشر الإسلام في إفريقيا وأقاصي آسيا.

11 - انتقال الكثير من المسلمين إلى أراضي الإمبراطورية المغولية في الشرق، وهم من المواطنين الذين هجروا لكونهم من أصحاب الحرف والفنون، أو على شكل تجار، وشكلوا جاليات إسلامية لها مكانتها، عملت على نشر الدين الإسلامي هناك.

3 - النتائج الاقتصادية :

تسبب المغول في تعطيل المرافق الاقتصادية (الزراعية والصناعية والتجارية) لاتباعهم سياسة الدمار الشامل، التي نفذوها في كل مدينة وفي كل شبر من الأرض العربية الإسلامية، مما أدى إلى تأخر البلاد اقتصادياً حيث ترافق النهب والتخريب بفقدان الأمن، والضرائب والغرامات، التي فرضت على المواطنين. إضافة إلى ما سبق، نجد أن اتخاذ هولاكو لمدينة تبريز ثم السلطانية قاعدة لحكم المغول أدى إلى تركز العناية في مناطق إيران وإهمال أمر العراق الذي تولى الإشراف عليه ولاة من قبله، كانوا على الأغلب يفتقدون الخبرة في النواحي السياسية والاقتصادية، عدا الخلافات التي كانت تنشب بينهم نتيجة للتنافس والتآمر، والتي انعكست على الأوضاع الاقتصادية.

فيما يخص الضرائب: فقد كانت ثقيلة إلى حد أن الضمناء كانوا يعجزون عن دفعها، وكانت كيفية وتخضع من حيث الكمية والنوعية ووقت الجباية، لإرادة الحاكم، أو الضامن لها، أو الجابي. وقد تنوعت الضرائب فشملت:

- الجزية، وكانت تفرض على أهل الذمة فقط أيام العباسيين؛ إلا أن المغول فرضوها على الجميع.
- ضريبة نقل إرث الميت الذي لا وارث له إلى بيت المال، والضريبة على التركات، وعلى البيوت، والعقارات، والمبيعات، وعلى المراعي (القبجور).

- ضريبة التمغات (مجموعة ضرائب كانت تفرض على التجارة الداخلية).

- ضرائب على الغزل وأماكن بيع الخمر ومحلات الفاحشة.

- ضريبة المساعدات والقروض التي كانت تفرض بشكل مفاجئ وتجبى بشكل قسري.

- ضريبة حصة الحكومة من غش النقود ومصادرة الموظفين .

- ما كان يفرض على أصحاب الدور من تأمين وتموين إقامة الجنود.

الزراعة : بالنسبة للأراضي بقيت الملكيات الفردية، واستمر وجود الأراضي الوقفية التي فرض عليها بعض الضرائب، وصار هناك الأراضي الديوانية التي أصبحت لسلاطين المغول يمنحونها لخاصتهم ولأقاربهم وخاصتهم، عدا عن الأملاك الخاصة بالسلاطين أنفسهم.

- نتج عن إهمال نظام الري، وعدم تنظيف الأنهار أو فتح قنوات جديدة إغراق الكثير من الأراضي الزراعية.

- هاجم المغول الرحل فلاحي الجماعات الزراعية في آسيا مما أدى إلى انهيارها.

- ساعد ضعف سيطرة الحكام وازدياد الخلافات بينهم على عودة القبائل البدوية إلى النشاط وقطع الطرق التجارية والإضرار بالاقتصاد الزراعي، فقلت المحاصيل وارتفعت أسعار المنتجات الزراعية، وعانت الزراعة أيضاً نقص الأيدي العاملة.

الصناعة : تأثرت الصناعة بشكل سلبي ولدرجة كبيرة، بسبب خسارة الأيدي الماهرة التي سببها اجتياح بغداد والقتل والتهجير والضرائب. أما في المدن التي استسلمت دون قتال، فقد سلم الكثير من صناعها المهرة وساهموا في إعادة ازدهار الصناعة، حيث عادت للوجود صناعة الزجاج، والأسلحة، والثياب الحريرية (الكمخا)، والستائر والبسط، والأقمشة المختلفة، والورق، والصياغة، والحلي، واللؤلؤ، وصك النقود.

التجارة : عانت التجارة من عدة مشكلات تمثلت في :

- موقف القبائل البدوية العربية والكردية، التي كانت تقطع الطرق وتنهب التجار، حتى أن أدلة القوافل وافقوا على التواطؤ معهم على نهب المسافرين والتجار.

- الخلاف بين دولتي المغول والمماليك، نظراً للحروب الجارية بين الطرفين، مما أثر على العلاقات التجارية بين بلاد ما بين النهرين والشام، إلا أنها لم تنقطع بشكل كامل.

- عدم توحيد النقد في الإمبراطورية المغولية، ومضايقة الدولة للأغنياء طمعاً بمالهم.

- خلق الاحتلال المغولي توجيهاً جديداً للتجارة، حيث ازدادت العلاقات مع إيران وتركستان والصين؛ باعتبار أن الدولة الإيلخانية تتبع للإمبراطورية المغولية، في الوقت الذي تحولت فيه طرق التجارة عن بغداد وعن بلاد الشام، لعدم توفر مقومات الأمن، مما أدى إلى إفقار البلاد وبالتالي إحداث أزمة اقتصادية.

- عانت التجارة من الضرائب الثقيلة التي فرضت على التجار مما دفعهم إلى إقفال الأسواق هرباً من الدفع.

- ذهب الكثير من المسلمين إلى أراضي الإمبراطورية المغولية على شكل تجار، وعاشوا في تجمعات لها كيانها ومكانتها الاجتماعية والاقتصادية.

- إن الغزو المغولي أثر تأثيراً سلبياً على القسم الأكبر من بلاد الشام، ولم يستطع النهوض الاقتصادي المحدود في الدولة المملوكية في القرنين 8-9هـ / 14-15م أن يعوض تخلف البلدان

العربيـة الإسـلامية عن أوربـا التـي أخـذت تـستخدم أفضليات وضعها الاقتصادي بما يلحق بهم الخسارة.

4 - النتائج الاجتماعية :

نتيجـة للتطـورات المعقـدة التـي مـر بهـا المجتمع العراقي في عهد بني العباس خصوصاً بعد ضعف سلطة الخليفة، واستيلاء العناصر الإسلامية على الحكم واختلاط مختلف الأجناس والقوميات ثقافياً ودموياً، زال الشعور بالتفوق الذي كان يحس به العربي إزاء العناصر الأخرى والقرشي إزاء بقية العرب، وضعفت أهمية النسب في عناصر القيادة الاجتماعية والسياسية. وقد تميز المجتمع بانفتاحه ولم يكن هناك تمايز طبقي، غير أن قادة المجتمع كانوا يتألفون من الهاشميين، والأمراء، والمماليك، وفئة العائلات الكبيرة غير الهاشمية والتي عرفت بالفضل والعلم ... إلخ.

أما في الحقبة التي أعقبت الغزو، فقد تغيرت تركيبة المجتمع نتيجة لظهور الأمراء المغول كفئة صغيرة ومسيطرة، إلى جانبها طبقة الحكام الأعاجم، والعلويّون، وطبقة العائلات القديمة التي مارست الحكم أيام العباسين واستمرت في هذه المرحلة، وطبقة من عوائل جديدة شاركت في حكم البلاد، وعباسيون وعلماء دين وأغنياء.

أما العامة فكانت طبقة متميزة في العصر العباسي لها حرفها وأعمالها المهنية وأعرافها وأخلاقها، وكان الفرد يملك إمكانية شق طريقه وفقاً لكفاءته نظراً لانعدام الحواجز الطبقية. ونتيجة لضعف السلطة انتشرت حركة الشطار والعيارين وكثر اللصوص، وبرز في المجتمع الإسلامي اتجاهان :

- اتجاه أخلاقي معتدل يقوده العلماء متمثلاً في التصوف.

- اتجاه لاأخلاقي متمثل بالأوباش الذين انغمسوا في حياة فاسدة.

وعلى أية حال، مال العامة إلى العباسيين الذين رعوهم، ولهذا بقي حنينهم للحكم العباسي بعد سيطرة المغول الذين فرضوا عليهم الضرائب المرهقة وعاملوهم بتعسف؛ إضافة إلى التغيرات التي حدثت في بنية المجتمع، والتي يمكن إجمالها بالملامح الآتية :

- اختلطت العناصر العربية بغيرها (الترك، الفرس، البربر، وغيرهم) وتكون من الجميع مجتمع إسلامي خليط العناصر، توحده العقيدة الدينية، ويتكلم معظمه اللغة العربية.

- خلال الغزو قتل سكان المدن بلا استثناء عدا الحرفيّين الذين يلزمون الغزاة، حيث اقتيدوا أسرى وهجّروا إلى عاصمة المغول لاستخدامهم هناك، وقد قدّر عدد القتلى بحوالي المليون، والذين ظلوا أحياء جمعوا وتم إحصاؤهم، وفرضت عليهم الضرائب.

- انتشر العديد من الأمراض والأوبئة، وكان يلجأ بالدرجة الأولى إلى الفصد والحجامة والإسهال، فالطب غير قادر على معالجة الأمراض وكشف أسبابها.

- كانت المجاعات متكررة في تاريخ العراق منذ القرن 4هـ / 10م، بسبب الجفاف والفيضانات والاضطرابات السياسية، التي كانت تؤدي إلى نقص أو تلف محاصيل الحبوب مادة الغذاء الرئيسية، وينتج عن ذلك ارتفاع أسعار الخبز والأغذية الأخرى، وجاء الغزو استمراراً لما كان يحصل سابقاً، إضافة إلى تناقص في الزرع (بسبب القتل الذي قلل اليد العاملة)، واضطر الفقراء إلى بيع أولادهم نظراً لسوء الحالة الاقتصادية التي عانت: الإهمال، وارتفاع الضرائب، وانعدام المتاجرة بين الأقاليم .

- عمد المغول إلى ترب الرصافة، ونبشت قبور الخلفاء، وأحرقت تلك الأماكن، وأبرزت العظام والرؤوس، وبلغ من قسوة هؤلاء البرابرة أنهم كانوا يقومون بشق أجواف الناس أحياء وأموات بحثاً عما قد يكونون ابتلعوه من الجواهر، وانتهكت أعراض النساء، وكان هذا منتهى الهمجية التي هزت النفوس وأصابتها بالذعر بعد أن شاهد الناس الفظائع التي ارتكبها هولاكو في بغداد من قتل وتعذيب، وبدأ الكلام عن أسطورة المغول الذين لا يهزمون. كلّ هذا أثر على السكان خلال السنوات الأولى التي أعقبت سقوط بغداد لدرجة قضت على أي رغبة في الثورة على الغزاة رغم كونهم غرباء ووثنيين، وبغداد كانت تعتبر قاعدة الإسلام.

5 - النتائج العلمية والثقافية والحضارية:

بفضل المراكز العلمية المنتشرة في كل أرجاء الخلافة، التي وفرت ظروفاً جيدة للتعلم والاطلاع (المدارس، المكتبات، مستلزمات الإقامة للعلماء والمدرسين والطلاب) من الأوقاف المخصصة لهذه المؤسسات، ازدهرت العلوم بكل فروعها بشكل رائع، ولكن الغزو أصاب الحياة الثقافية - الأدبية والعلمية - بالانحطاط. وتبدّى ذلك بملامح متعددة :

- انقسمت البلاد الإسلامية رغم وحدة العقيدة إلى ثلاث مجموعات ثقافية لغوية، حيث أن النهضة التي عرفتها اللغة الفارسية في العهد السلجوقي انتهت في الأيام المغولية، بإزاحة اللغة العربية من إيران، وحصرها في المجال الديني، وعادت اللغة الفارسية لغة العمل والسياسة والأدب، وسادت اللغة التركية فيما وراء النهر، ونشأت في الأناضول مجموعة لغوية تركية هي نواة التركية الحالية. أما المناطق الباقية فقد سادت فيها اللغة العربية، وإن ظلت البربرية لغة المنزل في بعض بقاع المغرب.

- رغم كل هذه التنوعات ظل العالم الإسلامي عالماً واحداً من خلال وحدة الدين والثقافة والنظم.

- تسارع انهيار العراق وقطيعته مع إيران من جهة، ومعظم الأقاليم الإسلامية من جهة أخرى، وهو تطور كان قد بدأ في عهد السلاجقة، وصار الانحطاط والقطيعة أمراً مبرماً في هذه المرحلة، ولم تعد بغداد مركز الحضارة وإنما القاهرة، وانحطت الحالة الأدبية تماماً، إذ أتلف المغول الكتب، وقتلوا الأدباء وشتتوا من نجا منهم، كما أنهم بعد أن استقر لهم الأمر في بغداد لم يكن يهمهم ازدهار الأدب العربي، وذلك يفسر لنا كيف تنحّت بغداد عن مركز الصدارة الأدبية، وخلفتها في ذلك القاهرة، التي أصبحت في أيام المماليك مقراً للعلماء والأدباء الذين هاجروا إليها، فتعززت حركة الاندماج الثقافي، التي كانت قد بدأت في مصر زمن الأيوبيين، وتحولت القاهرة إلى مركز للعروبة والإسلام، وتمكنت تحت قيادة المماليك من قهر المغول وإنقاذ المشرق الإسلامي، وساعدت في نقل آراء الشرق إلى الغرب، وكانت من العوامل التي ساهمت في إطلاق النهضة في أوروبا.

- أصاب الحركة العلمية الجمود بسبب تضرر مؤسساتها (الدينية والثقافية والاجتماعية)، ومقتل وهجرة العلماء نتيجة للغزو الهمجي، فقد كانت هذه المؤسسات ذات تأثير كبير في المجتمع، وتقوم بعدة وظائف:

- كانت مكاناً لإقامة الشعائر الدينية وتدارس أحوال المسلمين الخاصة والعامة، ومراكز للتعليم، وكذلك كملاجئ للعجزة، والفقراء، واليتامى، وأدت وظيفة الفنادق للغرباء والمسافرين، حيث أمنت احتياجاتهم من الأوقاف التي كانت تخصص لها. وبعد الغزو أهملت الكثير من المساجد والمدارس

والربط، ما أدى إلى الانحلال الفكري لدى المسلمين، وانحصر العلم في الفقه والحديث، وأهملوا العلوم العلمية وسائر صنوف المعرفة.

- ألحق التلف بكثير من مكتبات وكتب بغداد، نتيجة للحصار وما رافقه من الرمي بالمنجنيق، والحرائق، والهمجية التي أبداها المغول في العبث بقصور العباسيين والمساجد، وخزائن الكتب؛ إلا أن المصادر تزودنا بمعلومات متفاوتة في هذا المجال، حيث نلاحظ أن الرواة اتفقوا على بشاعة أيام الاجتياح، لكنهم اختلفوا في ذكر واقعة إتلاف الكتب التي تضمها خزائن ومكتبات بغداد العامة والخاصة، فمنهم مَنْ :

1 - أنكر الإتلاف كابن الفوطي : ففي كتابه تلخيص مجمع الآداب ذكر بأنه قد تم تولية أمر خزائن الكتب في بغداد بعد سقوطها لثلاثة أشخاص هم: ابن أبي الحديد، وأخوه موفق الدين، وابن الساعي، وذلك بأمر من الطوسي مستشار هولاكو، وهذا يشعرنا ببقاء خزائن بغداد على حالها وأنها كانت بتصرف الطوسي، الذي قام بنقل الكثير من كتب بغداد وغيرها من المدن إلى مكتبة مرصد مراغة.

2 - ومن المصادر مَنْ تجاهل الإشارة إلى ذلك (رشيد الدين، اليونيني، أبي الفدا، وغيرهم من المتأخرين أمثال: الذهبي، ابن العماد ...) علماً أنها تحدثت عن أعمال القتل والنهب والاستيلاء على قصور الخلفاء وكنوزهم .

3 - وهناك أخيراً المصادر التي ذكرت بشكل مؤكد بأن الكتب رميت في النهر لدرجة أنها شكلت جسراً يمر عليه الناس، وأن ماء النهر صار لونه أسود من مداد الكتابة، وأنّ المغول بنوا اسطبلات الخيول وطوالات المعالف بكتب العلماء (ابن خلدون، القلقشندي، ابن الساعي، ابن تغري بردي...). وهذا ليس بمستغرب من المغول، فوفقاً لرواية الجويني عن سقوط بخارى زمن جنكيز خان، قام المغول بإفراغ صناديق المصاحف على أرض الجامع وداسوها ثم صفوا منها أوعية للأعلاف.

ويخبرنا ابن الفوطي أن مجتمع بغداد عاش أزمة حقيقية، ونتيجة لقلة المؤن صار أهالي الحلة والكوفة والمسيب، يجلبون الخبز والأطعمة ويبتاعون بأثمانها الكتب النفسية.

على أي حال من المرجح أن الكثير من الكتب تعرض للتلف وفقد نتيجة للفوضى التي سادت أثناء الحصار وما تلاه من اجتياح ونهب.

لقد كان الغزو المغولي مروعاً بوحشيته، أدخل الحزن إلى أعماق الجميع، وقد تبدّى ذلك بشكل مميز لدى الشعراء، الذين عبروا عن هذه المأساة في قصائدهم وأشعارهم واصفين الواقع المؤلم. وكان للشعر دلالات معنوية وفنية، يمكن من خلالها تمييز اتجاهين فيه:

الأول : مقاوم عمل على رصد أسباب الهزيمة ونادى بالصمود، وحث على الجهاد، وتغنى بالشجاعة، وفرح بالنصر على التتار (في عين جالوت).

الثاني: آثر الصمت وتعلل بالأماني وعاش على ذكريات الماضي يندب حظ أمته العاثر.

ويعدّ الشعر وثيقة تاريخية ومصدراً هاماً عن الغزو المغولي على الصعيدين الحربي والأدبي، لأنه عبر بصدق عن حب الوطن، والإحساس بالمسؤولية، والرغبة في طرد العدو، واستعادة الحق.

هذا ولم يكن هذا الشعور مقصوراً على شعراء العرب، فقد شاركهم في هذا الميدان شعراء الفرس، الذين لم يستطيعوا إخفاء تأثرهم لهول هذه الفاجعة في قصائدهم.

وبالإجمال يمكن الاستنتاج أن إهمال بغداد من الناحية الثقافية والعلمية، وإنشاء الطوسي للمرصد

الفلكي في مراغة، وافتتاح مدارس ومعاهد لمختلف العلوم، واستدعاء العلماء من كل البلاد الإسلامية، وتأمين إقامتهم؛ بعد أن جمع الكثير من الكتب التي نظمت في مكتبات لطالبي العلم، أسهم في افتتاح مركز حضاري في الشرق برعاية المغول، الذين لم يدخلوا معهم أي جديد للحضارة العربية الإسلامية لأنهم لا يستطيعون أن يعطوا إلا القسوة والظلم، ولم يلبث الإسلام والمسلمون أن قهروا غزاتهم من الناحية الحضارية بعد حقبة قصيرة من الزمن.

الخاتمة :

إن سقوط بغداد ونكبتها على يد المغول لا يمكن اعتباره حدثاً مفاجئاً، باغت به المغول الخلافة العباسية. فقد كان لموجة الضعف التي سرت في الخلافة منذ أيام المعتصم، نتيجة سيطرة العناصر التركية والبويهية والسلجوقية - بالتتالي - آثارها المدمرة، رغم تمكن الخلفاء الذين حكموا بين عام 551هـ وعام 656هـ / 1156 - 1258م من استعادة السلطة لوقت قصير، أعقبه زوال الخلافة على يد المغول، الذي حذر من خطره المؤرخون والوعاظ وأمراء الأطراف والعامة، واستغاثوا منبهين الخلفاء إلى حجم الخطر، الذي يهددهم بعد انهيار السلطنة الخوارزمية.

ويرى بعض الباحثين أن خلاص الخلافة في هذه الحقبة كان يتوقف على أمرين: إما أن تفقد الدولة المغولية قابليتها على الاندفاع والتوسع، نتيجة للانقسامات والخلافات الداخلية، وإما أن تتحد الجبهة الإسلامية لتقف في وجه الغزو المداهم، مستغلين عودة جنكيز خان بعد هجمات الموجة الأولى، وكلا الاحتمالين لم يحصل. وكانت نهاية الخلافة العباسية التي عانت بنتيجتها الحضارة الإسلامية من التدمير والانحطاط؛ إلا أن المجتمع الإسلامي كعادته برهن على تمتعه بالقدرة على المقاومة والحيوية التي مكنته من اجتياز هذه النكبة والمحافظة على استمرارية حضارته، لكنه دفع ثمناً باهظاً، تمثل في خراب المدن وملايين القتلى، وسحق القوة والقدرة على الإبداع. إن حملة المغول حملة همجية ليس لها لا قواعد إنسانية ولا أنظمة تخفف من ويلات الحرب، إنها خراب ودمار.

وفي الختام يمكن القول إن حملات المغول على بلاد الحضارة الإسلامية، تعدّ من أهم الأحداث في العصور الوسطى، وستبقى مثالاً لأحداث واسعة الأبعاد في التاريخ، ونموذجاً للأطماع الاستعمارية في امتلاك الأرض العربية الإسلامية، التي احتضنت أرقى الحضارات الإنسانية، ولا تختلف كثيراً عن الحملات الهمجية التي تشنها أمريكا والصهاينة في وقتنا الحاضر، بهدف القضاء على العروبة والإسلام، والهيمنة على مقدرات المشرق العربي بأسره، وإفناء شعبه. على أن أبناء الأمة العربية تحالفوا ضد العدو من قبل وتمكنوا من دحره، وسيبقى الأمل بأن يتكاتفوا لتفادي الخطر الراهن، لأن في أمتنا العريقة مكامن قوة لا تنضب، وهي تمتلك القدرة على مواجهة الغزاة ومقاومتهم، مهما تعددت أساليبهم وكانت شراستهم وشدة بطشهم.

أ.د. نهى فضل الله عبد الحميد
جامعة دمشق

المصادر والمراجع

أولاً - المصادر العربية :

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، ت 808هـ / 1405م : تاريخ ابن خلدون، ج3، ج5، ضبط : خليل شحادة، مراجعة : د. سهيل زكار، بيروت، 1988م.
- ابن شداد، عز الدين محمد بن إبراهيم، ت 684هـ / 1285م : الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: يحي عبارة، دمشق، 1978م.
- ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا، ت 700هـ / 1300م : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، بيروت، (د.ت).
- ابن العبري، غريغوريوس بن هارون الملطي، ت 685هـ / 1286م : تاريخ مختصر الدول، تصحيح: الأب أنطون صالحاني اليسوعي، بيروت، 1983م.
- بولو ماركو، ت 723هـ/1323م : رحلات ماركو بولو، ج1، ترجمة: عبد العزيز جاويد، القاهرة، 1995م.
- الجويني، عطا ملك، ت 681هـ/1282م : تاريخ فاتح العالم - جهانكشاي، ج2، ترجمة : د. محمد التونجي، دار الملاح، دمشق، 1985م.
- الديار بكري، الإمام حسين بن محمد، ت 996هـ / 1587م : تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، ج2، بيروت، (د.ت).
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، ت 911هـ / 1505م : تاريخ الخلفاء، مصر، 2001م.
- الطوسي، نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن، ت 672هـ/1273م : ذيل كتاب تاريخ فاتح العالم - جهانكشاي – للجويني (كيفية واقعة بغداد)، ج2، ترجمة: د. محمد التونجي، دمشق، 1985م.
- العيني، بدر الدين بن أحمد، ت 855هـ / 1451م : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج1، تحقيق: د.محمد محمد أمين، القاهرة، 1987م.
- الغساني، الملك الأشرف إسماعيل بن العباس، ت 803هـ / 1400م : العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، تحقيق: شاكر محمود عبد المنعم، بغداد، 1975م.
- ابن الفوطي، كمال الدين البغدادي عبد الرزاق ابن أحمد، ت 723هـ/1323م : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، دار الفكر، بيروت، 1978م.
- النويري، شهاب الدين أحمد، ت 732هـ / 1332م : نهاية الأرب في فنون الأدب، ج27، تحقيق: د. سعيد عبد الفتاح عاشور، مراجعة: د. مصطفى زيادة و د. فؤاد عبد المعطي الصياد، القاهرة، 1985م.
- الهمذاني، رشيد الدين فضل الله، ت 718هـ / 1318م : جامع التواريخ، م2، ج1، (الإيلخانيين)، تحقيق: محمد صادق نشأت، موسى الهنداوي، فؤاد عبد المعطي الصياد، راجعه، يحيى الخشاب عن طبعة كاترمير، القاهرة، 1960م.
- اليافعي، عبد الله بن أسعد، ت 768هـ/1366م : مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث

الزمان، ج4، تحقيق: عبد الله الجبوري، بيروت، 1984م.
- اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد، ت 726هـ / 1325م : ذيل مرآة الزمان، ج1، حيدر آباد، 1954م.

ثانياً - المراجع العربية والمعربة :

- الأعسم، عبد المنعم : هل أتلف المغول حقاً مكتبة بغداد؟، مجلّة العربي، العدد 484، الكويت، 1999م.
- بدر ، مصطفى، طه : محنة الإسلام الكبرى، مصر، 1999م.
- بولشاكوف آ. غ . : المدينة العربية في القرون الوسطى، دراسات في تاريخ الثقافة العربية / القرون 5 - 15، ترجمة: د.أيمن أبو شعر، موسكو، 1989م.
- جرار مأمون فريز : أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي من القرن السابع إلى القرن التاسع للهجرة، عمان، 1983م.
- حافظ أحمد حمدي: الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، (د.م)، 1950.
- حسن شبر: خلفاء بني العباس والمغول أسقطوا بغداد، بيروت، 2001م.
- الخالدي، اسماعيل عبد العزيز : العالم الإسلامي والغزو المغولي، بإشراف: د. أحمد محمد العسال ود. عبد الستار فتح الله سعيد، الكويت، 1984.
- خصباك، جعفر حسين : العراق في عهد المغول الإيلخانيين (656 - 736هـ / 1258 - 1335م)، بغداد، 1958م.
- خليل قاسم غريري: الغزو المغولي وأثره في الشعر العربي، مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية، المجلد، 20، العدد1، ص13 - 81، دمشق، 2004م.
- الرمزي م.م : تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار، أورنبورغ، (د.ت).
- شبولر ، برتولد : العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة: أ. خالد اسعد علي، راجعه وقدم له: د. سهيل زكار، دمشق، 1982.
- شبولر ، برتولد : المغول، ترجمة: يوسف شلب الشام، دمشق، 1989م.
- الصياد، فؤاد عبد المعطي : المغول في التاريخ، بيروت1980م.
- عباس إقبال : تاريخ المغول منذ حملة جنكيز خان حتى قيام الدولة التيمورية، ترجمة: عبد الوهاب علوب، المجمع الثقافي العربي، أبو ظبي، 2000م.
- العريني ، السيد الباز : المغول، بيروت، 1980.
- عباس العزاوي: تأريخ العراق بين الاحتلالين (حكومة المغول 656هـ / 1258م - 738هـ / 1338م)، 1935م.
- كاهن ، كلود : الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة: أحمد الشيخ، القاهرة، 1995م.
- لي سترنج كي : بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة: بشير فرنسيس، وكوركيس عواد، بغداد، 1954م.
- فاسيلي فلاديميروفتش بارتولد: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ترجمة من الروسية: صلاح الدين عثمان هاشم، إشراف: قسم التراث العربي بالمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1981م.

الملاحق

- رسالة هولاكو الأولى :

يقول هولاكو في هذه الرسالة:

"لا بدّ أنه قد وصل إلى سمعك على لسان الخاص والعام ما حدث للعالم على أيدي الجيوش المغولية منذ جنكيز خان، وعلمت أية مذلة لحقت بأسر الخوارزميين والسلاجقة وملوك الديلم والأتابكة وغيرهم ممن كانوا أرباب العظمة وأصحاب الشوكة، ومع ذلك لم يغلق باب بغداد فقط في وجه أية طائفة من تلك الطوائف التي تولت هنا السيادة. فكيف يغلق هذا الباب في وجوهنا رغم ما لنا من قدرة وسلطان؟ ! . . وقد نصحناك قبل هذا . والآن نقول لك: تجنب الحقد والخصام والضغينة، ولا تحاول أن تقف في سبيلنا لأنك ستتعب نفسك عبثاً . ومع هذا فقد مضى ما مضى، فعليك أن تهدم الحصون وتطم الخنادق، وتسلم ابنك المملكة، ثم تتوجه لمقابلتنا . وإذا كنت لا تريد ذلك، فأرسل إلينا الوزير وسليمان شاه والدواتدار، ليوصلوا رسالتنا إليك بغير زيادة ولا نقصان، فإذا أطعت أمرنا، فلا حقد ولا ضغينة، وتبقى لك ولايتك وجيشك ورعيتك. وأما إذا لم تنتصح، وسلكت طريق الخلاف والجدال، فأعدّ جيشك، وعيّن جبهة للقتال فإننا مستعدون لمحاربتك. واعلم أنني إذا غضبت عليك، وقدت الجيش إلى بغداد، فسوف لا تنجو مني، ولو صعدت إلى السماء، أو اختفيت في باطن الأرض" .

"فإذا أردت أن تحفظ رأسك وأسرتك، فاستمع لنصحي بمسمع العقل والذكاء، وإلا فسأرى كيف تكون إرادة الله" .

- جواب الخليفة على رسالة هولاكو الأولى :

فرد الخليفة بالرفض على هذا التحذير الرسمي من المغول، وعارض إمبراطوريتهم بالسيادة الروحية للخلافة الإسلامية فقال :

"أيها الشاب الحدث ! . الذي لم يخبر الأيام بعد، والذي يتمنى قصر العمر، والذي أغرته إقبال الأيام ومساعدة الظروف، فتخيل نفسه مسيطراً على العالم، وحسب أن أمره قضاء مبرم، وأمر محكم . لماذا تطلب مني شيئاً لن تجده عندي؟ ! . . ألا يعلم الأمير أنه من الشرق إلى الغرب، ومن الملوك إلى الشحاذين، ومن الشيوخ إلى الشباب ممن يؤمنون بالله ويعتنقون الأديان، كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لي؟ ! . . إنني عندما أشير بجمع الشتات، سأبدأ بحسم إيران، ثم أتوجه منها إلى بلاد توران، وأضع كل شخص في موضعه، وعندئذ سيصير وجه الأرض مملوءاً بالقلق والاضطراب" .

"غير أني لا أود الحقد والخصام، ولا أن أشتري ضرر الناس وإيذاءهم . كما أنني لا أبغي من وراء تردد الجيوش، أن تلهج ألسنة الرعية بالمدح والقدح، خصوصاً وأنني مع الخاقان وهولاكو خان قلب واحد ولسان واحد" .

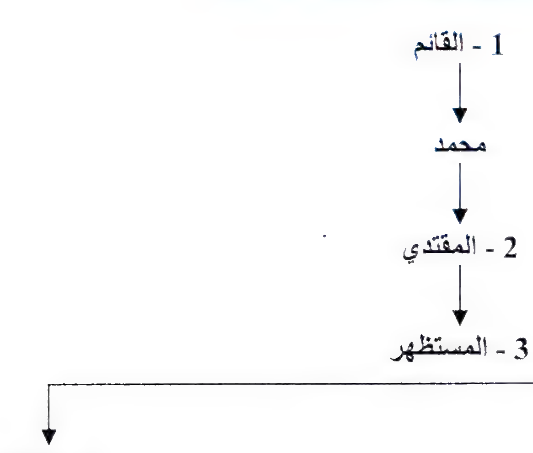
"فإذا كنت مثلي تزرع بذور المحبة، فما شأنك بخنادق رعيتي وحصونهم ؟ ! . . أسلك طريق الود، وعد إلى خراسان. وإن كنت تريد الحرب والقتال فلا تتوان لحظة ولا تعتذر، فإن لي ألوفاً مؤلفة من الفرسان والرجال على أهبة الاستعداد للقتال" .

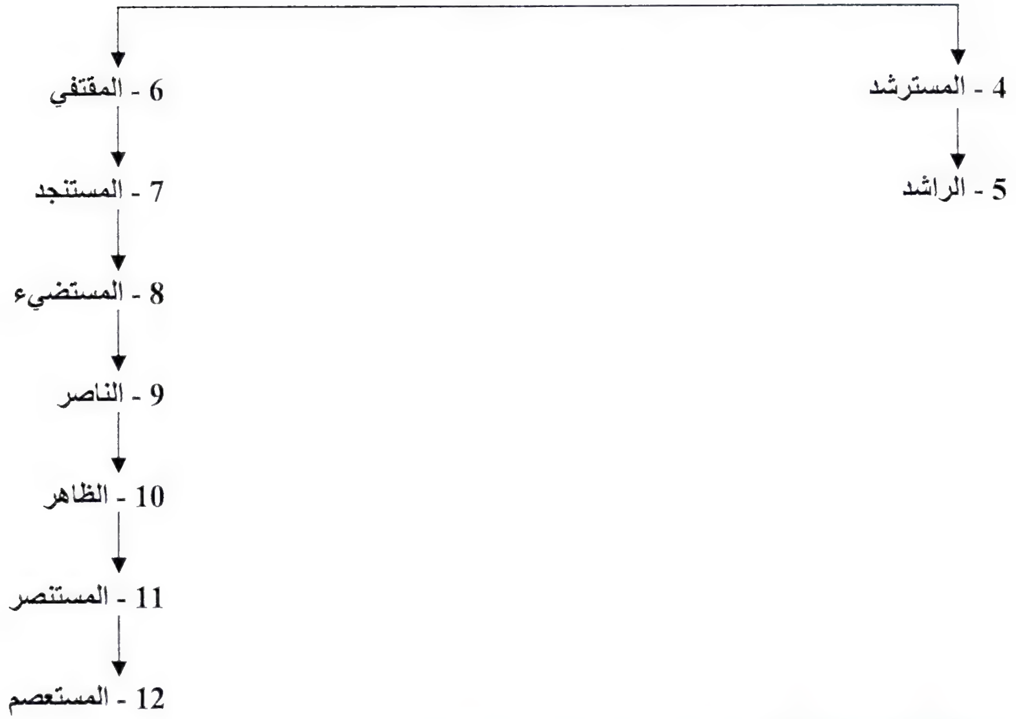
- رسالة هولاكو الثانية :

وجاءت في لهجة شديدة عنيفة إذ يقول:

"لقد فتنك حبّ الجاه والمال، والعجب والغرور بالدولة الفانية؛ بحيث أنه لم يعد يؤثر فيك نصح الناصحين بالخير، وإنّ في أذنيك وقراً فلا تسمع نصح المشفقين. ولقد انحرفت عن طريق آبائك وأجدادك، وإذن فعليك أن تكون مستعداً للحرب والقتال، فإني متوجه إلى بغداد بجيش كالنمل والجراد. ولو جرى سير الفلك على شاكلة أخرى، فتلك هي مشيئة الله العظيم".

الخلفاء العباسيون
منذ العصر السلجوقي حتى سقوط بغداد

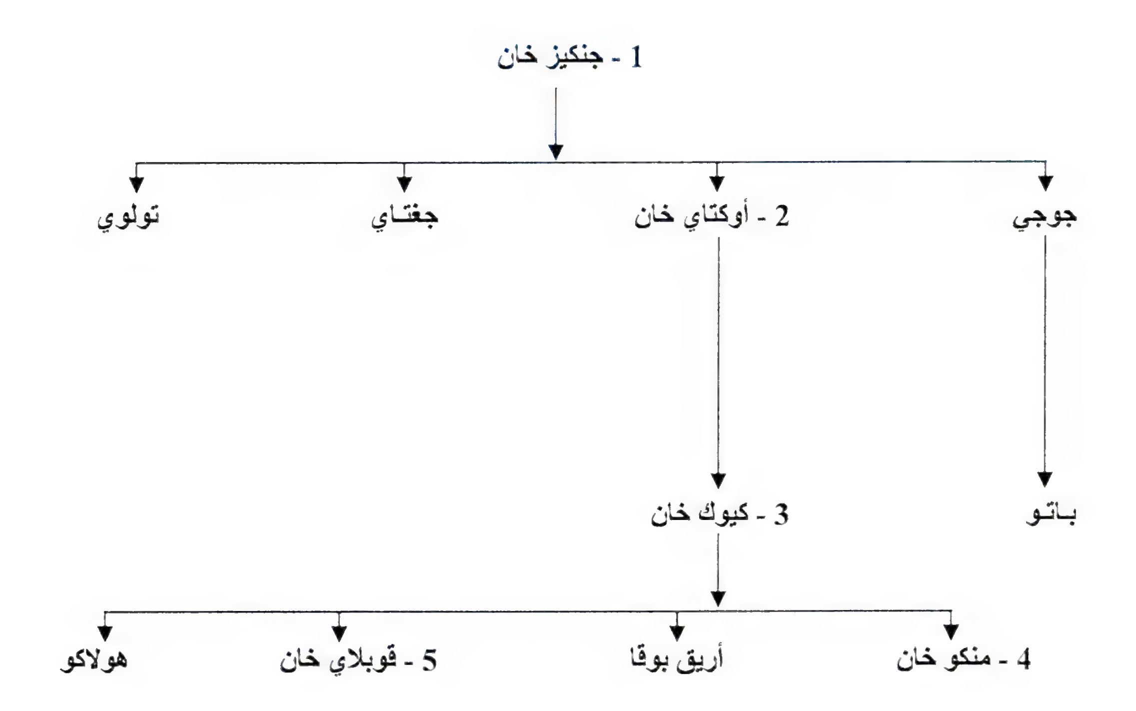




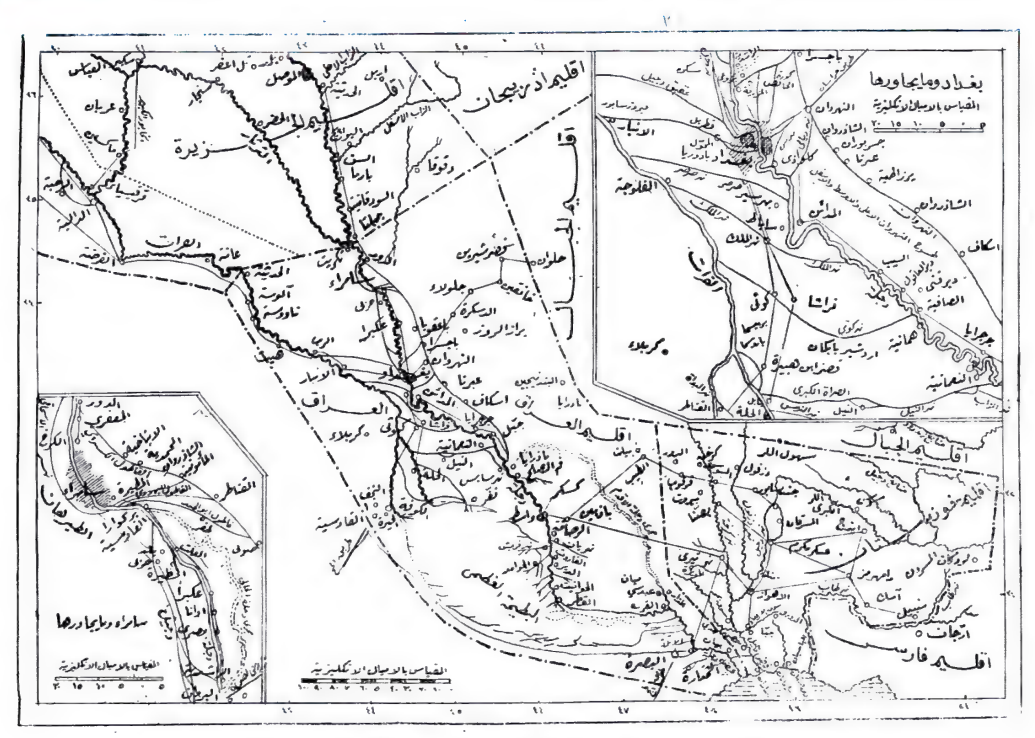
---

1 - القائم بأمر الله، أبو جعفر عبد الله بن القادر: 422 - 467هـ / 1031 - 1075 م .
2 - المقتدى بأمر الله، أبو القاسم عبد الله بن محمد بن القائم : 467 - 487 / 1075 - 1094 م .
3 - المستظهر بالله ، أبو العباس أحمد بن المقتدى : 487 - 512هـ / 1094 - 1118م .
4 - المسترشد بالله، أبو منصور الفضل بن المستظهر : 512 - 529هـ / 118 - 1135م .
5 - الراشد، أبو جعفر المنصور بن المسترشد : 529 - 530هـ / 1135 - 1136 م .
6 - المقتفي لأمر الله، أبو عبد الله محمد بن المستظهر : 530 - 555هـ / 1136 - 1160م .
7 - المستنجد بالله، أبو المظفر يوسف بن المقتفي : 555 - 566هـ / 1160 - 1170 م .
8 - المستضيء بأمر الله، أبو محمد الحسن بن المستنجد : 566 - 575 هـ / 1170 - 1180م .
9 - الناصر لدين الله، أبو العباس أحمد بن المستضيء : 575 - 622 هـ / 1180 - 1225 م .
10- الظاهر بأمر الله ، أبو نصر محمد بن الناصر : 622 - 623 هـ / 1225 - 1226 م .
11- المستنصر بالله ، أبو جعفر المنصور بن الظاهر : 623 - 640 هـ / 1226 - 1242م .
12- المستعصم بالله ، أبو أحمد عبد الله بن المستنصر : 640 - 656هـ / 1242 - 1258 م .

خانات المغول منذ جنكيز خان حتى قوبلاي

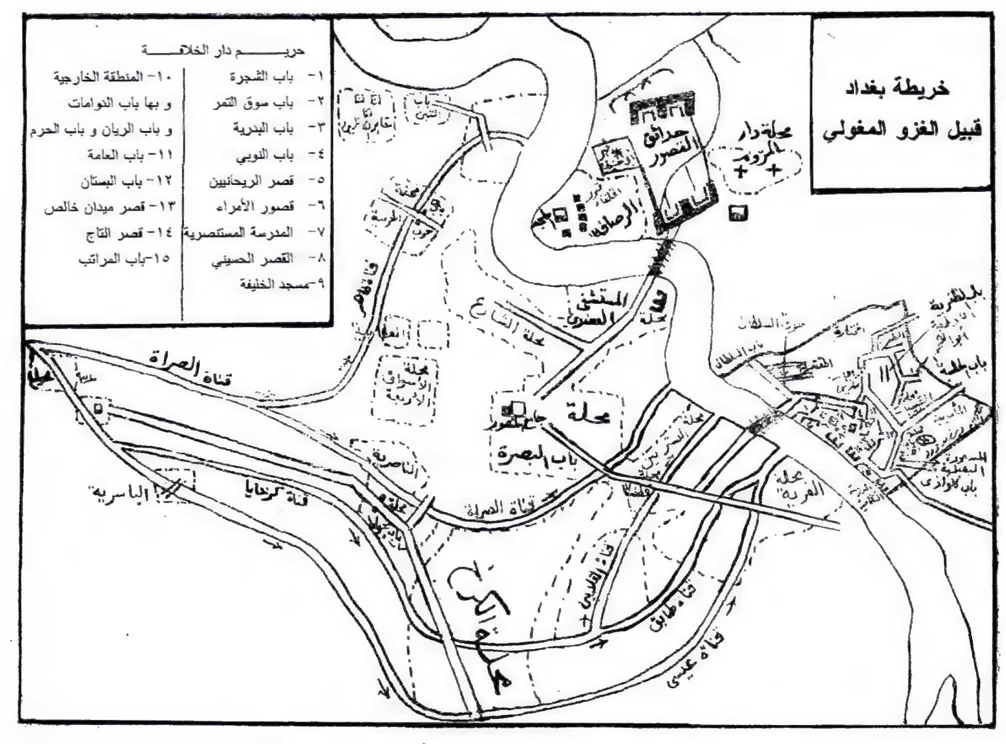


1 - جنكيز خان : 603 - 624 هـ / 1206 - 1227 م .
2 - أوكتاي خان : 626 - 639 هـ / 1229 - 1241 م.
3 - كيوك خان : 644 - 646 هـ / 1246 - 1248 م .
4 - منكو خان : 649 - 658 هـ / 1251 - 1259 م .
5 - قوبلاي خان : 659 - 695 هـ / 1260 - 1295 م .

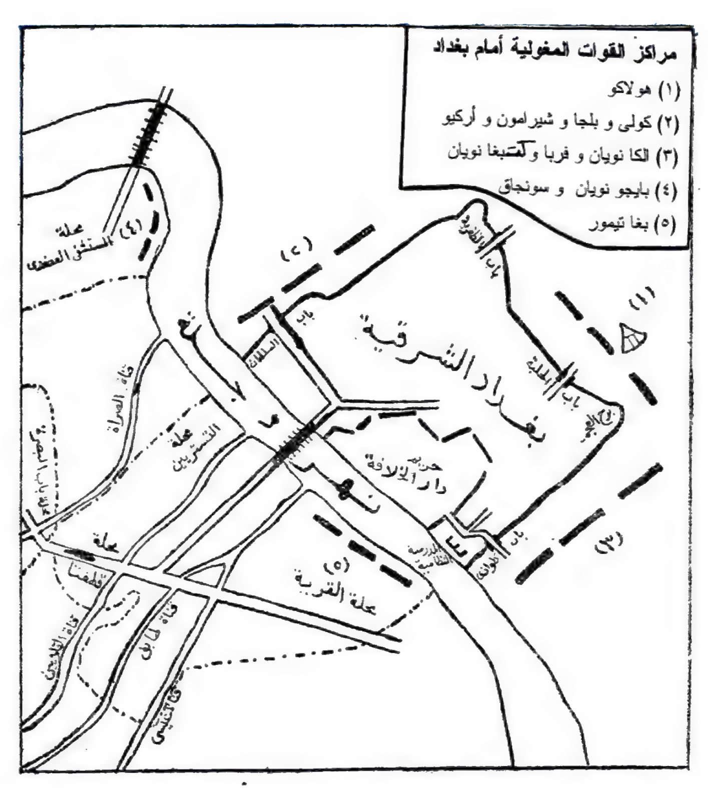


إقليما العراق وخوزستان مع قسم من أقاليم الجزيرة

المصور رقم - 1 - لوسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، مقابل صفحة 40



المصور - 2 - / بدر مصطفى: محنة الإسلام، ص126



المصور - 3 - / بدر مصطفى: محنة الإسلام، ص108



هولاكو - حفيد جنكيز خان
(خنزير المغول)
(614 - 663هـ / 1217 - 1264م)

الفصل الثاني - الخـلافة الفاطمية

(362 - 567هـ / 972 - 1171م)

أولاً : الخلافة الفاطمية في مصر والشام .

ثانيًا : العلاقات الخارجية .

أولاً : الخـلافة الفاطمية في مصر والشام

ظهور الخلافة الفاطمية في المغرب :

ينسب الفاطميون إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ ، وزوجة عليّ بن أبى طالب عن طريق جعفر الصادق، وولده إسماعيل، وهم بذلك من الشيعة الإسماعيلية .

ولقد اختلف المؤرخون في وقت ظهور الشيعة كفرقة دينية سياسية، إذ ذكر النوبختي أحد كتاب القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي "أنهم فرقة عليّ ابن أبي طالب، المسمون بشيعة عليّ، وأنهم ظهروا في زمان النبي ﷺ وبعده وعرفوا بانقطاعهم لعليّ والقول بإمامته". على حين أشار ابن النديم في كتابه الفهرست أن هذه التسمية ظهرت للمرة الأولى عندما حارب عليّ طلحة والزبير، اللذيْن أبيَا إلا الطلب بدم الخليفة عثمان بن عفان واتهما عليًا به، فتسمى مَنْ اتبع عليًا في قتالهما بالشيعة، وكان عليّ يقول: شيعتي.

والحق أنّ عليًا كان يطمع في الخلافة منذ اللحظة الأولى التي تلت وفاة الرسول ﷺ ، ولكن المنصب فاته باختيار أبي بكر الصديق رضي الله عنه لمنصب الخلافة لِما له من مميزات، لعل أهمها أن النبي ﷺ كان قد أنابه في الصلاة بالمسلمين عندما أعجزه مرض الموت عن القيام بتلك المهمة.

وكان من الطبيعي ألا يرضى عليّ بذلك، وشايعه في موقفه كثيرون، مما أفضى إلى حدوث الانقسام بين المسلمين. ولكن بفضل سياسة أبي بكر، وحزم عمر، ظلت جذور الانقسام مكبوتة لا تقوى على الانطلاق إلا في عصر عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي أدت سياسته إلى نوع من القلق، تطور فيما بعد إلى الفتنة التي أودت بحياته وأدت إلى مقتله. وتولى معاوية زعامة المعارضة تحت زعم المطالبة بثأر عثمان والانتقام من قتلته ومن حُماة هؤلاء القتلة، إلا أن هذه الحجة التي اتخذها معاوية شعاراً ليثير بها شعور المسلمين على عليّ بن أبي طالب وأتباعه، لم تكن إلا شعاراً وهميًا اختفى وراءه الصراع السياسي القديم الذي كان على أشده بين بني أميه وبني هاشم قبل الإسلام. من أجل السيادة. ولما ظهر محمد ﷺ كان بنو أمية بطبيعة الحال من أشد الناس عداوة له. وكان أبو سفيان يمثل قمة المعارضة لبني هاشم، وانتهى الصراع في مرحلته الأولى بانتصار محمد ﷺ وانتقال السيادة رغماً عن بني أمية إلى بني هاشم لانتساب الرسول ﷺ إليهم .

وآلم بني أمية أن ينال بنو هاشم هذا الشرف، بيد أنهم سكنوا على مضض وخاصة بعد دخولهم في الإسلام إلى أن وُلي عثمان بن عفان رضي الله عنه الخلافة وكان من كبار رجال بني أمية، عندئذ استيقظت عوامل الخلاف من جديد والتف رجال بني أمية حوله يوجهون سياسته كما يريدون حتى ثارت الفتنة التي أودت بحياته، ولم يرض معاوية ابن أبي سفيان عن اختيار عليّ بن أبي طالب خليفة عقب مقتل عثمان، وقاد المعارضة في عنف وإصرار شديدين مستعملاً كل ما أوتي من مكر ودهاء. فظهر في الدولة حزبان كبيران: حزب عثمان وعلى رأسه قريبه معاوية وهم يمثلون بنو أمية، وحزب عليّ بن أبي طالب، رأس

بني هاشم الأعداء القدامى لبني أمية، وقد عرفوا بالمتشيعين لعليّ. وقد انضم إلى هذا الحزب كل المتذمرين من العرب وغيرهم، ومن الموالي بوجه خاص، ووضع رجال هذا الحزب لأنفسهم مبدأ خاصاً، وفلسفوا هذا المبدأ فلسفة تأثروا فيها إلى حد بعيد بنظريات الحكم عند الفرس التي كانت تؤمن بحق الملك المقدس، وحجر الزاوية في هذا المبدأ هو عقيدتهم في الإمامة. وأسسوا هذه العقيدة على حديث نبوي ذكروا فيه أن الرسول ﷺ عند أوبته من حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة / 632م قام بالقرب من غدير خم، وهو مكان بين مكة والمدينة، خاطباً في الحجاج بقوله: "ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم"، قالوا "بلى يا رسول الله"، قال: "من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله".

وقد استنتجت الشيعة من هذا الحديث بأنه يتضمن مبايعة ضمنية من الرسول محمد ﷺ لعليّ، وأنَ عليًّا خليفة الرسول أوصى له بالإمامة من بعده، وأن الإمامة يجب أن تنتقل من عليّ إلى أولاده الواحد بعد الآخر إلى يوم الدين .

وقد انتهى الصراع بين الحزبين في موقعة صفين بالتحكيم عند أذرح بين الشام والعراق في رمضان سنة 38هـ / فبراير 659م، وظهر الخوارج بزعامة عبد الله ابن وهب الراسبي الذين قتلوا عليًّا ؓ في شهر رمضان سنة 40هـ / يناير 661م.

ولا شك في أن تلك النهاية المؤلمة التي انتهت بها حياة عليّ بن أبي طالب ونجاح خصمه عن طريق الخديعة والعنف في الوصول إلى منصب الخلافة وتأسيس الدولة الأموية، كلّ ذلك زاد من شعور العطف على أهل البيت ووقوف أتباع الشيعة إلى جانب أولاد عليّ يحرضونهم على المناداة بحقهم في الخلافة، فرشحوا أوّلاً الحسن بن عليّ ليلي أمر المسلمين بعد مقتل أبيه، ولكن الحسن كان رجلاً بعيد النظر، ورأى أن أهل الشام ومصر والحجاز واليمن، قلوبهم مع معاوية، ورأى كذلك أن أهل العراق الذين تقاعسوا عن نصرة أبيه لا يمكن أن يعاونوه ضدّ معاوية، لذلك قنع بمسالمة معاوية وتنازل عن حقه في الخلافة حقناً لدماء المسلمين، واستقر في مدينة الرسول حيث توفي هناك سنة 50هـ / 670م.

نجح معاوية في أن يستميل الناس ويصطفيهم لنفسه ولأسرته حتى تمكن من أن يخمد دعوة الشيعة ويسكتها مؤقتاً، وأخذ البيعة لابنه يزيد قبل موته، وبهذا استن للخلافة نظاماً جديداً وحوّلها من الشورى إلى الوراثة، ولذلك تجددت الفتنة بمجرد ولاية يزيد الخلافة وثارت أهم المدن الإسلامية وخاصة مكة والكوفة، وأرسل شيعة الكوفة يطلبون حضور الحسين بن عليّ إليهم، ويحرضونه على المطالبة بالخلافة فهو أحق بها من يزيد بن معاوية، وأحسنَ الحسين الظن بأهل الكوفة وسارع بالسير إليهم، غير أنهم تخلفوا عن نصرته وتقدم عبيد الله ابن زياد، عامل يزيد على العراق، لمقاتلته. ولم يستطع الحسين أن يصمد أمامه بجيشه القليل، فهزم هزيمة نكراء وقتل قتلة شنيعة في موقعة كربلاء سنة 61هـ / 680م بعد أن قاسى كثيراً من شدة العطش، وبعد أن قتل كل رجاله، وحمل رأسه بعد ذلك إلى يزيد.

وجاءت كارثة كربلاء لتزيد من مضاعفة شعور العطف على آل البيت، فقد أصبح الحسين أباً للشهداء، وأصبحت كربلاء رمزاً للاستشهاد، وهبَّ الشيعة في كلّ مكان يطالبون بثأر الحسين. ولهذا نرى أن النزاع بين الأمويين والعلويين قد اشتد واحتدم بعد مقتل الحسين. وزاد اضطهاد الخلافة الأموية للشيعة، وأعلنت سبَّ عليّ ولعنه في الخطب على منابر المساجد، واختاروا له اسم أبي تراب،

وحقّروا الشيعة وسمّوهم الترابية.

وقد استفاد بنو العباس، وهم فرع آخر من البيت الهاشمي، من هذه الحالة، ومكروا بالشيعة العلوية، وجعلوا الدعوة للخلافة عامة شاملة، وخاصة أنهم هم أيضاً من أبناء البيت النبوي. أليس العباس عم الرسول ﷺ ، فلم إذن تكون الدعوة للفرع العلوي من سلالة علي بن أبي طالب ولا تكون للفرع العباسي من سلالة العباس؟ ونجح العباسيون في الدعوة لأنفسهم سراً تحت شعار الدعوة للرضا من آل محمد، وهو شعار واسع عريض يشمل بني العباس وبني عليّ جميعاً. واشتد ساعد الدعوة السرية للعباسيين عندما نهض بها أبو مسلم الخرساني، حتى انتهى الأمر بسقوط الخلافة الأموية سنة 132هـ / 750م وقيام الخلافة العباسية.

وأخيراً أفاق العلويون وأدركوا أن بني العباس قد خدعوهم عندما جعلوا الدعوة للرضا من آل محمد، دون تحديد لاسم أو فرع. ولم يرض العلويون عن تلك النتيجة الفاشلة التي آلت إليها جهودهم. وبدءوا صفحة جديدة من النضال لانتزاع حقهم في الخلافة من أقربائهم بني العباس. ولما كان العلويون لا يقوون على المقاومة المسلحة في ذلك الدور، فقد اعتمدوا أساساً على الحيلة والدعوة السرية، ولم يتركوا فرصة إلا اغتنموها للثورة المسلحة ضد العباسيين، حيناً في الحجاز وأحياناً في جنوب العراق. وفي هذه الثورات المسلحة سقط شهداء جدد من زعماء العلويين في باخمرا وفخ وغيرهما من المواقع. واتصفت الموقعة الأخيرة بالذات قرب مكة سنة 169هـ / 785م بالعنف. وهكذا فعل العباسيون بالعلويين أضعاف ما فعل بهم الأمويون، وأطلقوا عليهم لقب الطالبيين، وأظهروا أن أبا طالب مات كافراً، كما لعنوا عليًا ثم تتبعوا الذراري العلوية وقتلوهم، ولكن الشيعة ثابروا وكان قد كثر عددهم لكثرة أفراد آل عليّ، وصارت كل فرقة تدعو إلى إمام منهم حتى بلغت فرقهم ثلاثمائة فرقة. وكانت أهم هذه الفرق في العصر العباسي، الفرقة التي قالت بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن عليّ زين العابدين، بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب. وكانت تؤمن مثل غيرها من الفرق الشيعة إيماناً لا حد له بوصاية النبي ﷺ عند غدير خم لتبقى الإمامة في بيت عليّ إلى يوم الدين، وكانت عقيدتها: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي ولي الله". بيد أنها تميزت عن غيرها بأن الإمامة تكون بالنص أو التنصيص، وهو يعني ضرورة تعيين الإمام الحالي لخلفه، وأن الإمامة تكون في الأعقاب ولا ترجع القهقرى، فلا تنتقل من أخ إلى أخيه، بل من الأب إلى الابن. وعلى هذا فإن موت إسماعيل سنة 145هـ / 762م في حياة أبيه جعفر الصادق جعل النص ينتقل إلى ابنه محمد وليس إلى أخي إسماعيل المعروف بموسى الكاظم. ولذلك عرفت بالإسماعيلية كما عرفت أيضاً بالسبعية باعتبار أن إسماعيل يمثل الإمام السابع منذ عليّ. وأمام اضطهاد العباسيين، اضطرت هذه الفرقة إلى الدعوة السرية، تقية وصيانة لأشخاص الأئمة.

ومنذ أن تستر محمد بن إسماعيل أرسلت الفرقة الإسماعيلية دعاتها إلى كل مكان مثل البحرين ومصر واليمن والهند والمغرب ، وقد كتب لها الفوز في الأخيرة حيث استطاعوا إنشاء خلافتهم هناك بعد أن قام بالدعوة لها في المغرب أبو عبد الله الشيعي الصنعاني ونجح في أن يتغلب على الأغالبة ويدخل دار ملكهم في رقادة سنة 296هـ / 909م، واستنقذ الإمام عبيد الله المهدي الذي كان قد قبض عليه هو ومن معه في سجلماسة في جنوب المغرب وسار به إلى أن نزل في رقادة في 29 ربيع الآخر سنة 297هـ / 15 يناير 910م، وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين،

وأقام خلافته التي اشتهرت بالعلوية والفاطمية نسبة إلى فاطمة الزهراء، وكذا بالعبيدية نسبة إلى عبيد الله .

سيطرة الفاطميين على مصر وتهديد القرامطة:

ولما استقر حكم الفاطميين في بلاد المغرب، عملوا على الاستيلاء على مصر حتى يمكنهم من هناك مدّ سيطرتهم على بلاد المشرق ، وظلوا أكثر من نصف قرن يتحينون الفرصة حتى واتتهم أخيراً في خلافة المعز الذي انتهز فرصة موت كافور وأخذ يستعدّ لغزو مصر ، فأمر بحفر الآبار على طول الطريق إليها، وإعداد الجيش الذي عقد لواءه لجوهر الصقلي، كما بعث إلى دعاته بالبلاد المصرية أعلاماً وأمرهم أن يوزعوها على الجند الذين يؤيدون بيعته لينشروها إذا ما اقتربت عساكره من مصر.

ولقد ساعد على نجاح هذه الحملة أمور كثيرة لعلّ أهمها ضعف الخلافة العباسية صاحبة السيادة على مصر والتي استطاعت أن تصدّ الحملات الفاطمية السابقة، وكذا ضعف الدولة الإخشيدية صاحبة السلطان الفعلي فيها. أما الخلافة العباسية فقد بدأت عوامل الضعف تتسلل إلى كيانها في العصر العباسي الثاني واستبد الأتراك بشئون الحكم حتى أصبح الخلفاء كالدمى في أيديهم يحركونهم كيف شاءوا حتى عرفوا في المصادر التاريخية بالمستضعفين وانطبق عليهم قول الشاعر :

خليفة في قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما تقول الببغا

واجترأ كلّ طموح راغب في السلطة إلى الثورة على الخلافة، فقامت حركة الزنج في إقليم البصرة والجزء الجنوبي الغربي من فارس، ثم تلتها حركة القرامطة الذين ملكوا بادية الشام وجنوبه، بل وهددوا حدود مصر الشرقية وعاثوا في الجزيرة العربية فساداً، واستلبوا الحجر الأسود حيث بقي معهم مدة اثنين وعشرين عاماً ، ولم يردّوه إلا بعد أن دفع لهم الخليفة العباسي مبلغاً كبيراً من المال، وصاحب هذه الحركات المسلحة انفصال الأطراف وقيام دول مستقلة فيها.

ففي الشرق قامت الدولة الطاهرية والصفارية والسامانية، وفي الغرب قامت الدولتان الطولونية والإخشيدية، وفي قلب الخلافة نفسها في العراق قامت دول ملكت زمام الحكم في أيديها، ففي الشمال قامت الدولة الحمدانية في الموصل وحلب، وفى العاصمة بغداد قامت الدولة البويهية في سنة 344هـ / 945م واستبدت بأمور الخلافة جميعاً .

في هذه الظروف خرج جوهر من القيروان بعد أن ودّعه الخليفة المعز في ربيع الآخر سنة 358هـ / فبراير 969م متجهاً إلى مصر على رأس جيش يزيد على مائه ألف جندي، وهو عدد لم تشهده مصر منذ عهد الإسكندر الأكبر، بدليل أن أحد المصريين وصفه عند رؤيته له بأنه "مثل جمع عرفات كثرة وعدة". كما صاحب الجيش أسطول بحري ليقضي على أي اعتداء من قبل الروم الذين كانوا قد بدأوا يطمعون في استعادة مصر من جديد. ووصل جوهر إلى الإسكندرية ودخلها دون قتال، فلما وصلت الأنباء إلى الفسطاط، اضطرب أهلها وتملكهم الذعر واتفقوا مع الوزير جعفر بن الفرات أن يرسل في طلب الصلح والأمان، فأرسل وفدا على رأسه الشريف أبو جعفر مسلم بن عبيد الله، وتمت المفاوضات بالفعل في تروجة قرب الإسكندرية، وكتب جوهر للمصريين أمانا تعهد فيه بحمايتهم والجهاد عنهم، واحترام ملتهم، ونشر الأمن، وتأمين طرق الحج، والعناية بالحالة الاقتصادية للبلاد عن طريق إصلاح السكة، كما تعهد بترميم المساجد

وتزيينها بالفراش والإيقاد.

وكما يحدث عادة في التاريخ في مثل هذه المواقف، لا بدّ أن يرتفع صوت المعارضة؛ فظهر انقسام بين الناس والجند ما بين مؤيد للفاطميين يرى فتح أبواب البلاد لهم، ومعارض يرى ضرورة مقاومة جوهر وجنوده والعمل على طردهم من البلاد، وكان يتزعمهم رجل يدعي فاتك الملقب بـ"الأستاذ"، الذي قال "ما بيننا وبين جوهر إلا السيف". وقاد المعارضة من أتباع الدولة العباسية والإخشيدية، الذين قطعوا جسور الجيزة وانتظروا جوهر وجيشه بمنية شلقان، شرقي القناطر الخيرية، إلا أن جوهر استطاع التغلب عليهم، واضطرت المقاومة الإخشيدية والكافورية إلى الهروب إلى الشام، وشاع الذعر ثانية بين الناس في الفسطاط، وطلبوا إلى الشريف أبي جعفر مسلم أن يسأل جوهر إعادة الأمان، ففعل وأعيد الأمان وهدأت النفوس، وخرج الوزير جعفر بن الفرات ومعه الأشراف ووجوه البلد يوم السابع عشر من شعبان سنة 358هـ / الثالث من يوليو 969م لمقابلة جوهر وتهنئته بسلامة الوصول ونجاح الفتح.

ولما دخل جوهر مصر وجاز بالفسطاط أناخ حيث موضع القاهرة الآن. وكان مناخه في منطقة رملية تقع في الشمال الشرقي من مدينة القطائع، ولم يكن بها سوى بستان الإخشيد، المعروف بالكافوري، ودير للنصارى، يعرف بدير العظام، في المكان الذي يشغله الآن الجامع الأقمر، وحصن صغير يعرف بقصر الشوك، بُني على أنقاضه أحد القصور الفاطمية الذي سمي أيضاً بقصر الشوك .

في هذه البقعة اختط جوهر في نفس الليلة موقع القصر الذي قرر أن يستقبل فيه المعز تنفيذاً لأوامره، وبنى سورا خارجياً من اللبن، لكنه اكتشف في صباح اليوم التالي تعرجات غير معتدلة، فلم تعجبه، بيد أنه تركها على حالها واستمر في البناء حتى أكمله. كما حفر خندقاً من الجهة الشمالية ليمنع اقتحام القرامطة لهذا الحصن الذي أطلق عليه اسم "المنصورية" تقرباً إلى خليفته المعز بإحياء ذكرى والده المنصور بنصر الله. وظلت هذه المدينة أو الحصن تعرف بهذا الاسم حتى قدم المعز لدين الله إلى مصر بعد أربع سنوات من الفتح، فسماها القاهرة. وقد رُوي بعد ذلك أن المعز قال لجوهر عند خروجه لفتح مصر أمام مجمع من شيوخ كتامة: "والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر، ولتدخلن إلى مصر بالأردية من غير حرب، ولتنزلن في خرابات ابن طولون، وتبني مدينة تسمى القاهرة، تقهر الدنيا".

كذلك رأى جوهر ألا يفاجئ السنيين في مساجدهم بشعائر المذهب الفاطمي الشيعي خشية إغضاب المصريين، ومن ثم فقد عوّل على بناء مسجد يكون رمزاً لسيادة الفاطميين على مصر. وشرع في بناء الجامع الأزهر في 24 جمادى الأول سنة 359هـ / مارس الأولى 970م، وانتهى من تأسيسه وأقيمت فيه أول جمعة في 7 رمضان سنة 361هـ / يونيو 972م.

وباستكمال الفتح ووضع أساس القاهرة، وبناء القصر لنزول الخليفة، وتشييد الجامع، أرسل جوهر إلى المعز يدعوه للقدوم إلى مصر مقر ملكه الجديد، فغادر المعز شمال إفريقيا ودخل مصر في 7 رمضان سنة 362هـ / يونيو 972م، حاملاً معه توابيت آبائه الثلاثة : المهدي والقائم، والمنصور، الذين تولوا الخلافة، دلالة على عزمه النهائي على نقل مقر الخلافة الفاطمية إلى مصر، ونزل بالقصر الشرقي حيث توافدت عليه هناك جموع الناس مهنئين، فتقبل منهم ما قدّموا من هدايا وتحف، وأمر بإطلاق جميع من اعتقلهم جوهر من الإخشيديين، ثم

تسلم المعز من قائده جوهر دواوين مصر. وبذلك يكون جوهر قد أشرف على شئون البلاد أربع سنين تقريباً.

بيد أن هذا النصر سرعان ما تعرض لتهديد القرامطة أصحاب الدعوة الإسماعيلية في البحرين الذين سبق لهم الاعتراف والخضوع للفاطميين بعد أن تبدل موقفهم عقب وفاة زعيمهم أبي طاهر سليمان وصاروا فريقاً مناهضاً للفاطميين يتزعمه أبناء أبي سعيد الجنابي مؤسس دولتهم، ربما بسبب ظهور البويهيين في العراق، وهم من الشيعة أيضا، وكشروا نهائياً عن أنيابهم للفاطميين في أيام الحسن بن أحمد بن أبي سعيد المعروف بـ"الأعصم" أو "الأعظم" الذي أمر بقتل سابور أبي طاهر والإيقاع بأتباعه وتولى بنفسه حكم القرامطة وأطلق على أنصاره "السادة الراجعين إلى الحق"، بمعنى أنهم لم يعودوا من شيعة الفاطميين، وخرج في جمع هائل من أعراب البحرين ومعهم بنو هلال وبنو سليم للاستيلاء على مصر تحت تحريض العباسيين وذلك بعد أن نقل الفاطميون إليها خلافتهم، ونجح الأعصم في طرد الجيش الفاطمي من بلاد الشام وقتل قائده جعفر بن فلاح الكتامي بدمشق سنة 360هـ / 971م، وأمر بلعن الخليفة المعز لدين الله، وأظهر التشكيك في نسب الفاطميين إلى بيت علي وفاطمة، وتقدم إلى مصر واستولى على الفرما وسار إلى القاهرة في أوائل سنة 361هـ / 972م ففرق جوهر، قائد المعز،السلاح على المصريين مما اضطره إلى الانسحاب من مصر، خاصة بعد أن وصلته أنباء الثورة التي اشتعلت ضده في البحرين، وإن بقي القرامطة في دمشق، لذا أسرع الخليفة المعز بإرسال المدد إلى جوهر، ولم يلبث أن قدم بنفسه إلى مصر في رمضان سنة 362هـ / يونيو 972م، حيث سعى عن طريق الدبلوماسية أن يمنع الحسن الأعصم من غزو مصر للمرة الثانية، وبعث إليه بكتاب يوضح فيه أن أبا سعيد وأبا طاهر كانا يدينان بالطاعة والولاء للأئمة للفاطميين، وأن أصل الدعوة الفاطمية واحدة، وليس من السياسة في شيء الانضمام إلى أعداء الفاطميين، ودعاه إلى الدخول في طاعته. بيد أن الأعصم القرمطي كان مصراً على القتال لإخراج الفاطميين من مصر، وقدمها عام 363هـ / 974م في صحبة العديد من عرب الشام من قبائل الطائيين، فبعث إليه الخليفة المعز بابنه عبد الله، كما بعث في ذات الوقت إلى حسان بن الجراح زعيم الطائيين لإغرائه على ترك مساندة الأعصم القرمطي. وأرسل إليه مائة ألف دينار مصنوعة من النحاس، وجعلها في أسفل الأكياس، بعد أن وضع في أعلاها الدنانير الذهبية الخالصة. فانسحب حسان بن الجراح زعيم الطائيين، مما قوّى جيش المعز على الأعصم القرمطي الذي انسحب من جديد إلى بلاد الشام، وبذا توقف خطر القرمطة على مصر، وخلصت تماماً للفاطميين.

سيطرة الفاطميين على بلاد الشام:

كانت السيطرة على بلاد الشام تمثل دائماً أولوية استراتيجية لكل نظام يتولى حكم مصر، لذلك وضع الفاطميون نصب أعينهم ضرورة توحيد كل من مصر وبلاد الشام، لملاصقتها للديار المصرية ولأنها كانت ميداناً للجهاد ضد أعداء الإسلام لوجود الثغور على حدودها الشمالية التي تلامس أرض الروم أو الدولة البيزنطية عدوة الإسلام الأولى، وأيضاً لأهمية الساحل الشمالي في أي سيطرة بحرية.

والدارس لهذه الفترة التاريخية سوف يلاحظ

بوضوح مدى الصعاب التي واجهت الخلافة الفاطمية في بلاد الشام، التي جاء أغلبها من عرب الشام من طائيين وكلبيين الذين تحالفوا مع القرامطة عند غزوهم لبلاد الشام سنة 359هـ / 970م، بل عاون أهل الشام القرامطة على غزو مصر أيضاً، لذا سارع جوهر بإرسال جعفر بن فلاح الكتامي على رأس جيش إلى بلاد الشام، واستطاع فتح الرملة ودمشق وأقام الدعوة بهما للخليفة المعز في سنة 359هـ/ 970م وأتم فتح بلاد الشام في العام التالي، ودخلت قواته في مواجهة مع البيزنطيين في أنطاكية، كما اعترف بقايا الحمدانيين في شمال الشام وبلاد الجزيرة بالخلافة الفاطمية بحيث صار الأذان "بحي علي خير العمل" يطلق من على كل مآذن مصر وبلاد الشام في نهاية عام 360هـ/971م.

بيد أن موقعة دمشق ومقتل جعفر بن فلاح الكتامي وإعلان أفتكين التركي صاحب دمشق تذلله وخضوعه للإمبراطور البيزنطي تزيمسكس، جعل الخليفة العزيز يصر على ضرورة القضاء على العناصر المقاومة للفاطميين في بلاد الشام، فخرج بنفسه لقتال أفتكين في سنة 368هـ / 979م وهزمه ونجح في توطيد سيطرة الفاطميين في جنوب الشام حتى دمشق، ثم وجه همّه للقضاء على بقايا الحمدانيين، فبعث في سنة 382هـ / 992م بالقائد التركي منجوتكين إلى حلب على رأس العسكر المصري، فاستنجد الحمدانيون بالبيزنطيين فأسرع الإمبراطور باسيل الثاني الذي خلف تزيمسكس إلى دخول الشام في جيش عدته مائة ألف يساعده أسطول كبير مما اضطر القائد الفاطمي إلى الانسحاب من بلاد الشام.

وبعد وفاة العزيز واعتلاء الحاكم بأمر الله عرش الخلافة الفاطمية عقدت هدنة مع البيزنطيين لمدة عشر سنوات في عام 391هـ/ 1001م، كان من أهم شروطها أن يتمتع البيزنطيون في الدولة الفاطمية بالحرية الدينية ويسمح لهم بتجديد كنائسهم. بيد أنّ هدم باسيل لجامع المسلمين في القسطنطينية، جعل الخليفة الحاكم يصدر أمره بهدم كنيسة القيامة في بيت المقدس سنة 400هـ/1009م مما دفع باسيل إمبراطور الدولة البيزنطية إلى قطع العلاقات التجارية مع مصر والشام، ثم عاد إلى التودد إلى الخلافة الفاطمية الأمر الذي هيأ الفرصة للخليفة الحاكم للسيطرة من جديد على بلاد الشام سيطرة تامة، واستولى على حلب التي فشل أبوه العزيز في الاستيلاء عليها، وزال بذلك ملك بني حمدان عنها، وكتب سجلاً لأهلها يعفيهم من المكوس.

وبعد اختفاء الخليفة الحاكم اندلعت في بلاد الشام ثورة عارمة للاستقلال عن نفوذ الفاطميين في مصر، إلا أن القائد الفاطمي أنوشتكين الذي اشتهر بـ "الدزبري" تمكن من القضاء على الخارجين من عرب الشام في ربيع الآخر سنة 420هـ / 1029م في موضع يعرف بالأقحوانة، وخضع الشام بجميع أجزائه للفاطميين على يد الدزبري في أوائل حكم الخليفة المستنصر، مما جعل إمبراطور الدولة البيزنطية ميخائيل الرابع يسعى إلى عودة السلام مع الفاطميين، فعقد هدنة مع المستنصر في عام 429هـ / 1038م وجددت مرة ثانية في سنة 439هـ / 1047م. إلا أن سعي بيزنطة إلى التقرب من الترك السلاجقة في العراق، وإلغاء الخطبة للخليفة المستنصر في جامع القسطنطينية في عهد الإمبراطور ميخائيل السادس وإعلانها للخليفة العباسي القائم بدلاً منه أفضى إلى إفساد العلاقة بين الفاطميين والبيزنطيين واستمرار العداء بينهما حتى مجيء الصليبيين.

السياسية الداخلية للفاطميين في مصر والشام :

بدأ الفاطميون حكمهم في مصر والشام بداية طيبة، إذ عملوا على استمالة المصريين وغيرهم بشتىَ الطرق؛ من ذلك أنهم لم يسمحوا للمغاربة بالسكن في مدينة الفسطاط، وكان منادي جوهر ينادي كل عشيّة بألا يبقي أحد منهم في المدينة، وتم أيضاً جلد بعض المغاربة الذين ضايقوا المصريين. هذا، ومن المعروف أن المغاربة قد أثاروا بعض المضايقات عقب وصول المعز إلى مصر، ولكن الخليفة أقر سكانهم خارج مصر وجعلهم بالقاهرة التي شيدها جوهر، ولما نزل بعضهم في دور المصريين، أنكر المعز ذلك، بل ونقلهم بعيداً إلى عين شمس، ويقال إنه ركب بنفسه إليها حتى يشاهد المواضع التي ينزلون فيها. ومع هذا فمن الصعب القول بأن الفاطميين عملوا دائماً على تدليل الشعب المصري والشامي، بل كانوا يحكمونه كما جرت العادة بذلك في العصور الوسطى.

والمتأمل لتاريخ الدولة الفاطمية يمكنه أن يميز بسهولة بين عصرين يتسم كل منهما بسمات وصفات خاصة. ففي العصر الأول الذي يمتد حوالي قرن من الزمن، وينتهي في النصف الأول من حكم الخليفة المستنصر حوالي سنة 457هـ / 1064م، نجد أن الخلافة بذلت أقصى ما تستطيع لتنظيم شئون مصر والشام الداخلية، فنشرت الأمن في ربوعهما، ووضعت النظم الإدارية الدقيقة، واهتمت بالجيش والأسطول، ونمّت الزراعة، ونهضت بالتجارة، وشجعت العلوم والفنون. كما امتاز خلفاء هذه الفترة الأولى بقوة الشخصية، ولذا كانت السلطة مركزة في أيديهم، ولم يكن للوزراء سوى المكانة الثانية. وقد استطاع هؤلاء الخلفاء الأوائل مدّ نفوذهم الخارجي إلى اليمن والحجاز والمغرب وصقلية والشام، بل وخطب لهم في الموصل وبغداد في بعض الأوقات. ولا عجب في هذا، فقد كان أولهم المعز لدين الله الذي عرف بجبار الشيعة، وقيل إنه كان على درجة عالية من الذكاء وإجادة اللغات المتعددة كاللاتينية واليونانية والسودانية. والحق أن المعز هذا اهتم بشئون مصر المالية اهتماماً شديداً، كما منع النداء بزيادة النيل كما جرت به العادة قديماً منعاً للبلبلة، وأمر بأن يكتب بذلك إليه وإلى قائده جوهر حتى إذا تم الفيضان ووصل إلى أقصاه أعلن ذلك للناس. ويفهم من المصادر التاريخية أنه شارك في الاحتفال بوفاء النيل. كما عهد المعز بالإشراف على شئون مصر المالية إلى كل من يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن، فقاما بواجبهما خير قيام، وبذا زادت إيرادات الدولة زيادة ملحوظة في وقت قصير. وأمر أيضاً بإصلاح السكة، إذ ضرب الدينار المعزي الذي له المكانة الأولى في المعاملات التجارية وفضّل على الدينار الراضي الذي أتضع حاله وقلت قيمته وطرد من السوق شيئاً فشيئاً. وتخلص المعز كذلك من تهديد القرامطة الذين هددوا مصر براً وبحراً كما نوهنا من قبل. والحق أن المعز أدرك أيضا، منذ الوهلة الأولى، ما قد تتعرض له مصر من خطر الهجوم عليها من ناحية البحر، لذلك نراه يعنى بالأسطول عناية كبيرة، فشيد دارا جديدة لصناعة السفن في المقس أمدت الأسطول بستمائة سفينة حربية لم يرَ مثلها من قبل .

ومات المعز في سنة 365هـ / 976م بعد أن ترك دولة موطدة مترامية الأطراف، وخلفه ابنه العزيز بالله (365 - 386هـ / 976 - 996م) وكان سمحاً كريماً وامتدت الخلافة في عهده من المحيط الأطلسي غرباً إلى الخليج العربي شرقاً، ومن أقصى الشام شمالاً إلى بلاد النوبة واليمن جنوباً، وخاف

منه إمبراطور الدولة البيزنطية الذي بعث إليه بالرسل والهدايا طالباً الصلح والهدنة، وقد أجابه العزيز بشروط منها إطلاق الأسرى في مملكته وأن يخطب له في جامع القسطنطينية كل جمعة .

وهكذا بلغت مصر في عهده الذروة، وفاقت الخلافة العباسية قوة ونفوذاً وبدأت تهدد ما بقي في أيدي العباسيين من أملاك.

كذلك عرف العزيز بالتسامح مع أهل الذمة الذين نعموا في عهده بالحرية التامة في أداء شعائر دينهم وترميم كنائسهم، بل وبناء كنائس جديدة. ولا غرو في ذلك فقد كانت زوجته مسيحية ،ولذا فقد عين أخويها بطريركين ملكانيين في الإسكندرية والقدس.

وفي عهد العزيز نمت أيضا ثروة البلاد، فعاش الناس في رفاهية كما عاش الخليفة حياة كلها بذخ وترف، فاقتنى كثيراً من التحف وجوارح الصيد، وشيّد لنفسه قصراً جديداً عرف بالقصر الغربي وذلك في مقابل القصر الشرقي الكبير الذي بناه جوهر للمعز من قبل، وصار يفصل بين القصرين ميدان متسع يستخدم لعرض الجند، وإليه يرجع الفضل أيضا في تحويل الجامع الأزهر إلى جامعة بمعنى الكلمة. ففي سنة 378هـ / 988م استأذنه الوزير يعقوب بن كلس في أن يعين به جماعة من الفقهاء للدرس والقراءة في أوقات منتظمة مستمرة، على أن تعقد حلقاتهم بالأزهر كل يوم جمعة، وكان عددهم خمسة وثلاثين فقيها، وقد رتب لهم العزيز أرزاقا وجرايات شهرية، وبنى لهم دارا لسكناهم بجوار الجامع الأزهر. كما بدأ أيضاً بناء جامعه الكبير الذي أتمه فيما بعد ابنه الحاكم الذي عرف به أيضا. كذلك رأى العزيز أن الجيش القوي هو السياج الطبيعي لحماية هذه الدولة الكبيرة المترامية الأطراف، فصرف همه للعناية بالجيش حيث أدخل فيه عناصر جديدة من الترك والديلم وأخذ يعتمد عليهم ويقربهم على حساب العناصر الأخرى من المغاربة التي كانت العنصر الأكبر في الجيش مما أوجد التحاسد بينهم، فدبت بين الترك والمغاربة عوامل الشقاق والنزاع مما أدى إلى قيام الفتن والحروب بينهم فجر ذلك الخراب والدمار على الدولة.

وقد بدأ ذلك واضحاً في خلافة الحاكم الذي خلف أباه العزيز في شهر رمضان سنة 386هـ / أكتوبر 996م، فقد انتهز المغاربة صغر سن الحاكم، الذي بويع بالخلافة وهو في الحادية عشرة من عمره، ففرضوا عليه تولية شيخهم أبي محمد بن عمار الواسطة وهي أشبه بالوزارة، ولقب بأمين الدولة، الذي أصبح الحاكم الفعلي للبلاد، وقرّب أبناء جنسه من المغاربة، وحط من شأن الأتراك والديلم أي المشارقة، وأساء معاملتهم فهرب كثير منهم إلى الشام ثم اجتمع شمل هؤلاء الترك تحت زعامة أبي الفتوح برجوان الذي كان وصياً على الحاكم والذي قام بتنحية ابن عمار وتولي السلطة بدلاً منه، وظل برجوان هذا مطلق السلطان حتى قتله الحاكم غيلة في سنة 390هـ / 1000م بعد أن أنفذ إليه من ينبهه بقوله "أن الوزغة - أي الحية الصغيرة، وكان برجوان قد أطلقه على الحاكم - صارت تنيناً كبيراً". وباشر الأمور بنفسه حيث أخذ يتصرف تصرفاً مطلقاً في كافة الأمور مع حداثة سنه، وكانت له أهداف في أن يكون الخليفة المثالي في الخُلق والحكم مما جعل سيرته فريدة في زمانها، واتهمه بعض المؤرخين بالشذوذ وعدم اتزان الفكر، ونعتوا عهده بالقسوة والعنف وكثرة سفك الدماء وذلك رغم زهده وتقشفه الذي تجلى في رفضه للنعيم الذي تركه له أبوه وجده، إذ أخرج من قصره جماعة من حظاياه وأعتق سائر مماليكه من الإناث والذكور، كما أخذ من والدته وإخوته وخواصه أملاكهم وعقاراتهم محتذيا بذلك

الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي جعل زوجته تترك جواهرها لبيت مال المسلمين.

كذلك أبطل ما كان يستعمل برسمه من الثياب، ولبسَ الملابس الخشنة من الصوف، وكان لون ثيابه البياض شعار الفاطميين، ثم أصبح السواد مع عمامة زرقاء، ثم جعلها أيضا سوداء زيادة في التقشف، وصار يركب من غير زينة أو أبهة، بل صار يركب الحمير بدلا من الخيل مخالفاً عادة آبائه السابقين. ونهى عن تقبيل الأرض بين يديه وكذا تقبيل اليد، والانحناء بالسجود إلى الأرض، وقد اعتبر ذلك من صنيع الروم. وأمر بألاّ يصلي أحد عليه في مكاتباته كما جرت به العادة من قبل.

وقد قلبت كل هذه الأمور الأوضاع المتعارف عليها مما جعله في نظر بعض المؤرخين ملتاث العقل غير متزن التفكير خاصة وقد لجأ إلى استخدام القتل كوسيلة من وسائل الحكم لسحق كل من يشك في ولائه ولإصلاح اعوجاج الدولة بعد أن فسدت شئونها، مما جعل اسمه يخيف أي شخص. وشبهوه بالأسد الضاري الذي يطلب فريسة، وقد ساعده على ذلك أن منظره كان رهيباً ، فعيناه واسعتان إذا نظر إلى الإنسان ارتعد منه لعظم هيبته، وكان صوته جهيراً مخوفاً ،حتى قيل إن عدد من قتلهم بلغوا العشرة آلاف إنسان، وأرجعوا ذلك إلى أنه كان يعبد كوكب زحل والمريخ، ولاسيما أن الأخير يرمز للحرب، وأنه كان يسفك الدماء تقرباً لهما. وجدير بالذكر هنا أن معظم من قتلهم الحاكم لم يكونوا من ضعفاء الناس وإنما من أكابر رجال الدولة، مما يؤكد أن القتل عنده لم يكن إلا وسيلة من وسائل الحكم. ويبدو أن سياسته هذه أثمرت، بدليل أن الناس أصبحوا في عهده آمنين على أموالهم فكان التجار يتركون حوانيتهم مفتوحة ولا يخافون عليها.

كذلك أخذ هذا الخليفة الذي على عاتقه أن يقوم بالحسبة؛ فكان يصدر عدة أوامر من وقت إلى آخر بمنع تناول أو بيع بعض المأكولات، التي كان يترتب عليها مضار صحية وأمراض في عصره، فمنع الناس من أكل وبيع الملوخيا، والجرجير، والقرع والمتوكلية - وهي نبات للحساء، والدلينس - وهو نوع من الصدف لعله أم منخول - ، والترمس العفن. وقد أثارت مثل هذه الأوامر سخرية عدد من المؤرخين، فرموه باضطراب الذهن، كما فسرها البعض على أنها تعصب مذهبي.

ومن الواجبات الأخلاقية التي عمل الحاكم على حمايتها وأثارت حوله الكثير من الجدل، تصرفاته إزاء شرب الخمر، إذ منع شربه وصنعه وتتبع السكارى، وأمر بقطع كروم الجيزة، وديس العنب في الطرقات تحت أرجل البقر، وغرق بعضه في النيل، كما كسر جرار العسل ودنانها.

كذلك حاول وضع حدّ لسفور النساء منعاً للفتنة ما يدل على حمية نادرة، لا تقف عند نسائه، وإنما تشمل أيضاً نساء رعاياه. إلا أن أعداءه شوهوا حقيقة تصرفه نحو النساء، وأرجعوها إلى عقدة في نفسه ناشئة عن شغفه بالنكاح، مما يجعله يميل إلى تعذيبهن. ومن الأشياء التي أخذت على الحاكم أيضاً سياسته إزاء أهل الذمة الذين كانوا قد اشتد بأسهم بين المسلمين منذ أن تمكنوا في أيام أبيه العزيز، مما اضطره إلى الرجوع إلى الشروط العمرية وإلزامهم بالتميز عن المسلمين بعلامات خاصة عرفت بالغيار. بل وزاد الشروط العمرية واتخذ نحوهم قوانين صارمة لم تعرف من قبل، وأصدر سجلاً إلى وَالِيه على القدس يأمره بهدم كنيسة القيامة بسبب قيام ملك الروم بهدم جامع القسطنطينية.

ورغم هذا فإنه في آخر سنة من حكمه عدل عما زاده على الشروط العمرية واكتفى من أهل الذمة بلبس الغيار فقط، وهي العلامة المميزة لهم. وأصدر

بذلك عدة سجلات يأمر فيها بإعادة بناء كنيسة القيامة، وإن قيل إن ابنه الظاهر هو الذي وافق على ترميمها بعد المعاهدة التي وقعت بينه وبين قسطنطين الثامن ملك الروم. ولعل أيضاً حفيده الخليفة المستنصر هو الذي فعل ذلك في مقابل ما عرضه عليه رومانوس ملك الروم من إطلاق سراح خمسة آلاف أسير نصراني.

ومن الأشياء التي رمي بها الحاكم أيضاً ادعاؤه الألوهية مع أن الحاكم لم يدّع الألوهية إطلاقاً وذلك بالاعتماد على أوثق المصادر التاريخية، فضلاً عن أنه لم يصلنا نص واحد يشير إلى أن الحاكم نفسه قال إنه هو الإله، بل عظم الأمر عليه لتجاسرهم على هذه الدعوى بألوهيته.

وقد ترتب على كل هذه الأمور تجرّؤ الخلافتين السنيتين العباسية والأموية في الأندلس على مهاجمة الدولة الفاطمية، فقد جمع الخليفة القادر بالله عدداً من علماء بغداد وقضاتها، وكتبوا محضراً طعنوا فيه في النسب الفاطمي، وأعلنوا فيه أن الحاكم وسلفه "أدعياء خوارج لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب" وإنما هم "كفار فساق زنادقة، ملحدون معطلون، وللإسلام جاحدون"، وأرسلت نسخ منه إلى مختلف الأقاليم الإسلامية فكان له صدى قوي.

أما الخلافة الأموية بالأندلس فقد اتخذ هجومها شكلاً أكثر إيجابية وخطراً، إذ خرج في الصحراء الغربية خارجي اسمه الوليد بن هشام المعروف بأبي ركوة وادعى انتسابه إلى بني أمية، وقاد جيشاً كبيراً هاجم به حدود مصر الغربية، فأرسل إليه الحاكم جيشاً لمقابلته فهزم الجيش، فأرسل إليه آخر تتبعه في الصعيد حتى قبض عليه في بلاد النوبة وأرسله إلى القاهرة وقتله.

ورغم فشل هاتين الحركتين فإنهما أثرتا دون شك في الخلافة الفاطمية، إذ أضاعتا ما كان لها من هيبة قديمة، وبدأ الكل يجترئون عليها، وتطور الأمر إلى أن قام النزاع في الداخل بين عناصر الجيش من مغاربة وأتراك وسودان، ولم تهدأ الفتنة إلا بعد أن قتل عددا كبيرا من قادة الجيش.

يضاف إلى هذا ما أقدم عليه الخليفة الحاكم نفسه من محاولة تغيير أصل هام من أصول المذهب الإسماعيلي، وذلك أن نظام الوراثة عند الشيعة الإسماعيلية يقضي أن تكون الإمامة في نسل علي بن أبي طالب دون غيرهم، وأن تنتقل دائماً من الأب، لأنهم كانوا يعتقدون أن للإمامة صفات وعلوماً خاصة تنتقل بالوراثة كما تنتقل الصفات الخلقية تماماً. وقد التزم الفاطميون منذ إنشاء دولتهم بهذا النظام، ولكن الخليفة الحاكم حاول مخالفة هذا المبدأ فأوصى بولاية العهد لابن عمه عبد الرحيم بن إلياس، وأصدر أوامره بأن يضرب اسمه إلى جانب اسم الخليفة على السكة وأن ينقش على الطراز. وكادت هذه المحاولة أن تفضي إلى انقسام خطير بين الشيعة الإسماعيلية لولا أن الحاكم قتل في شوال سنة 411هـ / فبراير 1021م وقضت أخته ست الملك على هذه المحاولة، فأرسلت إلى عبد الرحيم من قبض عليه وقتله، وأجلست علي بن الحاكم الذي تلقب بالظاهر لإعزاز دين الله على عرش الخلافة. وهكذا خلف الحاكم ابنه الظاهر علي وكان صبياً في السادسة عشرة من عمره، فقامت بالوصاية عليه عمته ست الملك، فلما ماتت انصرف الخليفة إلى اللهو والتف حوله نفر من الرجال سيطروا على الأمور دون غيرهم من كبار المسئولين حتى الوزراء، فساءت الحالة الداخلية، وتفشى الغلاء في سنة 415هـ/ 1024م، واضطرب الأمن حتى أنَّ أحدا من مصر لم يحجّ في هذه السنة، وبلغ الجوع بالناس إلى درجة أن عبيد القصر هجموا على سماط عيد

النحر الذي مُدّ في القصر ونهبوه، كما هاجم العبيد والعامة الأهالي فأغلق الناس دورهم وحفروا دونها الخنادق.

ومع هذا فيحمد للظاهر أنه عمل على تحسين العلاقات بين مصر والدولة البيزنطية بعد أن كانت قد بلغت من السوء مبلغاً كبيراً في عهد أبيه، فجدد الهدنة مع صاحب الروم في سنة 418هـ / 1027م بشروط من أهمها إعادة فتح جامع القسطنطينية وأن يخطب فيه للظاهر في مقابل السماح بإعادة بناء كنيسة القيامة بالقدس كما سبق أن أشرنا من قبل.

ولما مات الظاهر خلفه ابنه المستنصر بالله في سنة 427هـ / 1036م، وكان عمره سبع سنين، وقد حكم المستنصر ستين عاماً (427 - 487هـ / 1036 - 1094م) وهو بذلك أطول خلفاء الفاطميين حكما. وقد تميزت السنوات الأولى من حكمه بالرخاء والثروة، ويتضح ذلك من كتابات الرحالة الفارسي ناصر خسرو الذي زار مصر سنة 439هـ / 1047م، ووصف نظمها ومدنها وغناها وثروتها وحضارتها، وصف المعجب بما رأى وشاهد فيها.

والحق أن مصر بدأت في النصف الأول من حكم الخليفة المستنصر ترنو بأبصارها ثانية نحو العراق وبغداد، ويبدو أن الخلافة العباسية قد شعرت ببوادر الخطر فأصدرت في سنة 444هـ / 1052م محضراً ثانياً شبيهاً بالمحضر الأول الذي صدر في عهد الحاكم للطعن في نسب الخلفاء الفاطميين، ووقع عليه كبار العلماء والقضاة في بغداد، وأرسلت نسخ منه إلى الأقاليم الإسلامية.

بيد أن الخليفة المستنصر استطاع أن يرد على ذلك بقوة وعنف. ففي سنة 448هـ / 1056م خرج على الخليفة العباسي أحد قواده، وهو أبو الحارث البساسيري، وانضم للخليفة المستنصر الذي أمده بالسلاح والأموال، فتقدم في سنة 450هـ / 1058م ودخل بغداد ففر منها الخليفة القائم بأمر الله العباسي، وأرسل البساسيرى البردة والقضيب والمنبر والشباك، وخطب للخليفة المستنصر بالله الفاطمي على منابر بغداد نحو أربعين أسبوعاً، كما حذت مدن العراق الأخرى حذو بغداد، فخطب للمستنصر في هذه السنة على منابر البصرة وواسط وأعمالهما.

وهكذا بلغت الخلافة الفاطمية في النصف الأول من حكم المستنصر أوج عظمتها، لكنّ عوامل الضعف بدأت تسري في كيانها في النصف الثاني من حكم هذا الخليفة، إذ استطاع طغرل بك السلجوقي دخول بغداد وقتل البساسيري في ذي الحجة سنة 451هـ / 1060م وأعاد الخليفة القائم العباسي إلى عرشه من جديد . كذلك أفضى النزاع الذي وقع بين اليازوري، وزير الخليفة المستنصر وبين المعز بن باديس، عامل الفاطميين على المغرب إلى تغيير الخطبة باسم الخليفة العباسي ببغداد، ولعن الفاطميين وسبّهم على المنابر بأبشع الألفاظ حوالي سنة 440هـ / 1048م أو بعدها بقليل، وبذا قضي على كل صلة بين الفاطميين والمغرب بعد مرور مائة وخمس وأربعين سنة من دخولهم وإقامتهم الخلافة هناك.

يضاف إلى هذا المجاعات التي انتابت مصر إبان هذه الفترة والتي كانت تنتج غالباً من تقصير النيل عن ارتفاعه مما يترتب عليه ترك الأرض بدون زراعة وبالتالي قلة الأقوات وارتفاع الأسعار. ولقد شهد عصر المستنصر عدة مجاعات في سنوات 444هـ / 1052م، وفي 446هـ / 1054م، وفي 447هـ / 1055م وفي 448هـ /1056م، وفي 450هـ / 1058م، أثناء وزارة اليازوري الذي عمد إلى الحلول الوقتية في علاجها بقصد التقرب من الخليفة.

وتعدّ مجاعة سنة 457هـ / 1065م من أطول

وأبشع المجاعات التي تعرضت لها البلاد، إذ امتدت سبع سنين حتى 464هـ / 1071م وعرفت بالشدة المستنصرية، ووصلت آثارها إلى العراق والحجاز وبلاد ما وراء النهر. وقد عانى الأهالي خلالها الأمرّين، فعدمت الأقوات وارتفعت الأسعار، واضطر الناس إلى أكل الميتة من القطط والكلاب، ثم انقلبوا يأكلون بعضهم بعضاً بعد بيع رغيف الخبز كبيع الطرف بأربعة عشر ديناراً وقيل أربعة عشر درهماً، وبيع إردب القمح بمائتي دينار، واضطر الخليفة المستنصر من جديد إلى بيع كلّ ما كان في قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره وصار يجلس على حصير وقد تعطلت دواوينه، وذهب وقاره.

وقد ترتب على هذه المجاعة أيضاً أن منعت مصر ما كانت ترسله إلى الحجاز من غلال ومؤن، فقطعت الخطبة للمستنصر في سنة 462هـ / 1069م، وان كانت قد أعيدت للمستنصر ثانية في سنة 469هـ / 1076م. وهكذا توالى انفصال أجزاء الدولة، كما دخل النورمان صقلية في سنة 484هـ / 1091م واستولوا عليها فخرجت بذلك عن حكم الفاطميين، بعد أن ظلت جزءاً من أملاكهم منذ أن قامت دولتهم في سنة 297هـ / 910م.

وفي سنة 466هـ /1073م تفاقم الحال واضطربت الأمور اضطراباً شديداً وعجز المستنصر عن مواجهة الموقف فاستدعى بدر الجمالي وإلى عكا الذي سارع بدوره إلى تلبية نداء الخليفة ودخل مصر على رأس جيش من الأرمن، واستطاع بعد مجهود مضن أن يعيد الأمن والنظام، وأن يضرب على أيدي المفسدين. ويعدّ هذا الحادث في حد ذاته بداية دور جديد في تاريخ الخلافة الفاطمية وهو دور اتسم باضمحلال سلطة الخلافة ونفوذها وظهور نفوذ الوزراء العظماء الذين سيطروا على مقاليد الأمور في الدولة، الذي اصطلح على تسميته بعصر "وزراء التفويض" أو العصر الفاطمي الثاني بعد انتهاء العصر الأول الذي عرف أيضاً في المصطلح التاريخي بعصر "وزراء التنفيذ" وكان الوزراء فيه من أرباب الأقلام من العلماء والفقهاء. أما بدر الجمالي فقد كان من أرباب السيوف أي العسكريين، ولعلّ خير ما يوضح ذلك لقبه الخاص وهو "السيد الأجل أمير الجيوش" ذلك اللقب الذي ظل يتلقب به بعده وزراء التفويض في العصر الفاطمي الثاني، إذ كانوا جميعاً رجال سيف.

وفي هذا العصر ظهر أيضاً تولي أبناء الوزراء الوزارة بعد آبائهم، فتولى شاهنشاه بعد أبيه بدر الجمالي، حيث وزر للمنتصر ثم للمستعلي (487 - 495هـ / 1094 - 1101م) ثم للآمر بأحكام الله (495 - 524هـ / 1101 - 1130م). وقد زيد في ألقابه الأفضل، الذي اشتهر به حتى أصبح يعرف بـ"الأفضل شاهنشاه"، ومن المعروف أن هذا اللقب أضيف كذلك للوزراء من بعده.

ودراسة الألقاب التي تلقب بها الوزراء إبان العصر الفاطمي الثاني توضح لنا مدى تزايد سلطان الوزراء تباعاً، وكان ذلك يصاحبه بالضرورة نزول الخط البياني إلى أسفل معلنا تدهور سلطات الخليفة تدريجياً وبالتالي تدهور الخلافة الفاطمية برمتها. فمنذ عهد الخليفة الحافظ لدين الله (524 - 544هـ / 1130 - 1149م) لقب الوزير بلقب الملك، وكان أول من لقب به رضوان بن ولخشي الذي لقب بالسيد الأجل الملك الأفضل، ولقب به كذلك من أتى بعده من الوزراء مثل طلائع بن رزيك الذي عرف بالملك الصالح، وابنه رزيك بن طلائع، الذي لقب بالملك العادل والناصر، وضرغام، وشاور وشيركوه، الذين عرف كل منهم بالملك المنصور، وأخيراً صلاح الدين الذي تلقب بالملك الناصر.

والحق أن كل هذه الألقاب تكشف لنا عن قوة

ونفوذ وزراء العصر الفاطمي الثاني الذي شيدت لهم دار خاصة في القاهرة بجوار قصر الخليفة، ليباشر فيها الوزير شئون الحكم والإدارة عرفت بدار الوزارة الكبرى. وقد ساعد على ازدياد قوة الوزراء واستقلالهم بأمور الحكم صغر سن الخلفاء، فقد تولى الخليفة الآمر والفائز وعمر كل منهما خمس سنوات، بل إن الفائز مات وهو في الحادية عشرة من عمره وكذلك ولي العاضد الخلافة وهو في الحادية عشرة من عمره .

ولعل السبب الرئيسي في تولي الخلفاء الفاطميين وهم في هذه السن المبكرة، هو نظام الوراثة عند الشيعة الإسماعيلية الذي كان يقضي بأن تكون الإمامة أو الخلافة في نسل علي بن أبي طالب دون غيرهم، وأن تنتقل دائماً من الأب إلى الابن كما أشرنا من قبل، وهم بذلك يختلفون عن الأمويين والعباسيين الذين كانوا يبيحون أن تنتقل الخلافة أحياناً إلى الأخ أو إلى ابن العم أو إلى أكبر أفراد الأسرة سناً لأنهم كانوا يشترطون في الخلافة شروطاً أخرى كثيرة من أهمها أن يكون بالغاً، عاقلاً، سليم الحواس. ومع ذلك فهناك من يقول بأنه كان لنظام الوراثة عند الفاطميين فوائد كثيرة من أهمها أنه كان عاملاً من عوامل استقرار الدولة، لأنه جنّب الأسرة والدولة، إلى حد كبير، عوامل المنافسة والنزاع والتخاصم على العرش.

وكان من الشروط الهامة لصحة الإمام عند الشيعة الإسماعيلية، الوصية أو ما يسمى بالنص أو التنصيص، أي أن ينص الإمام السابق على الإمام اللاحق من أولاده، فهم يعتبرون النص بمثابة أمر تعيين صادر عن الإمام السابق. وكان يشترط في النص عندهم أن يصدر عن الإمام وقت نقلته، أي عند موته. بمعنى أنه إذا صدر عن الإمام أكثر من نص لأكثر من ولد من أولاده، فإنه لا يؤخذ إلا بالنص الأخير، الذي صدر عنه وقت نقلته وانتقاله إلى الدار الآخرة، لأنه في رأيهم يَجُبّ كل النصوص الأخرى السابقة.

والواقع أن الفاطميين عملوا على احترام هذا النظام الوراثي إلا في حالات ثلاث: الأولى عندما حاول الخليفة الحاكم بأمر الله أن يحرم ابنه الظاهر، فعهد بولاية العهد لابن عمه عبد الرحيم بن إلياس كما ذكر سابقاً، غير أن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح، فقد قتل الحاكم وسعت أخته ستّ الملك حتى أقامت ابنه الظاهر لإعزاز دين الله على عرش الخلافة في سنة 411هـ / 1021م.

والحالة الثانية عندما توفي الآمر بأحكام الله سنة 424هـ / 1130م وتولى الخلافة بعده ابن عمه الحافظ لدين الله.

أما الحالة الثالثة فقد حدثت عقب وفاة الخليفة الفائز بنصر الله في سنة 555هـ / 1160م، وتولى الخلافة بعده ابن عمه العاضد لدين الله، الذي يعدّ آخر الخلفاء الفاطميين.

والحق أنه في كل مرة خولف فيها نظام الوراثة، كان يحدث انقسام مذهبي يترتب عليه هزات عنيفة في الدولة، ساعدت فيما بعد على إضعافها وتدهورها. وحسبنا دليلاً على ذلك ما حدث عقب وفاة الخليفة المستنصر في سنة 487هـ / 1094م من خلاف بصدد تحديد النص، إذ قال نزار الابن الأكبر بأن النص والوصية له، على حين ذكر الوزير الأفضل شاهنشاه بأن النص والوصية للابن الأصغر أبي القاسم أحمد، وانتهى النزاع بهزيمة نزار وتولية أبي القاسم الذي تلقب بالمستعلي، وانقسم الإسماعيلية إلى نزارية ومستعلية، وقد ناصبت النزارية (الحشيشة) التي نجح دعاتها في إقامة ملك لهم في الشام، الفواطم في مصر العداء، وانتهزت كل فرصة ممكنة للكيد لهم والإضرار بهم .

ولقد كان إبعاد نزار وتولية أخيه المستعلي بمثابة انقلاب سياسي قام به الوزير الأفضل شاهنشاه، محافظة منه على السلطان القوي الذي كان يتمتع به منذ أواخر عهد الخليفة المستنصر بالله، إذ من المعروف أن نزار كان عند موت أبيه شابا مكتمل الرجولة، بيد أن العلاقات بينه وبين الأفضل لم تكن طيبة أثناء حياة المستنصر، بل على العكس كان يشوبها دائماً الكراهية المتبادلة.

وهكذا واصل الوزراء إبّان هذه الفترة استبدادهم بالخلفاء وبشئون الحكم، حتى بات منصب الوزارة محط أنظار قواد الجيش وكبار رجال الدولة، فقامت بين بعضهم والبعض الآخر منافسات دامية في سبيل الوصول إلى هذا المنصب. ويعدّ النزاع الذي قام بين شاور وزير العاضد آخر الخلفاء الفاطميين، وضرغام صاحب الباب، آخر حلقة من حلقات هذه المنافسة. وقد انتهى الصراع بين الرجلين بانتصار ضرغام وتوليه الوزارة، وفرار شاور إلى الشام.

وكانت الشام قد انسلخت عن ملك الفاطميين واقتسم ملكها قوتان: قوة نور الدين محمود بن زنكي في الداخل، وقوة الصليبيين في الساحل وفي فلسطين. وقد لجأ شاور إلى القوة الإسلامية، أي إلى نور الدين في سنة 559هـ / 1164م وسأله أن يرسل معه جيشاً إلى مصر ليساعده في نضاله ضد خصمه ضرغام وفي إعادته إلى منصب الوزراء، وعرض أن يدفع له مقابل هذا ثلث إيرادات مصر سنوياً، وأن يمنح جنده الإقطاعات، وأن يدين له بالولاء إن عادت إليه مقاليد الحكم والوزراء.

ورحب نور الدين بشاور وأكرم ضيافته، ولكنه تردد في أول الأمر في إجابته إلى مطلبه ، بيد أنه لم يلبث أن وافق تحت إلحاح قائده أسد الدين شيركوه الذي كان يرغب في الذهاب إلى مصر على رأس هذه الحملة. ولعلّ نور الدين رأى في موافقته على طلب شاور، تحقيقا لخطته التي كان يهدف من ورائها إلى توحيد الجبهة الإسلامية توطئة لمقاومة الخطر الصليبي والقضاء عليه.

وأرسل نور الدين مع شاور جيشاً بقيادة أسد الدين شيركوه الذي صحب معه ابن أخيه يوسف صلاح الدين، الذي لم يكن قد تجاوز خمسة وعشرين عاماً والذي لم يكن متحمساً للمغامرة في مصر، فقد نسب إليه أنه قال: "خرجت مع عمي كارهاً وأنا كمن يقاد إلى المذبح". ويبدو أيضاً أن شاور لم يكن يرغب في حضور شيركوه وصلاح الدين ، ولكنه أسقط في يده. وعلم ضرغام بخروج هذا الجيش وقرب وصوله أو إحرازه للنصر، فأرسل ضرغام يستنجد بالقوة الثانية في الشام ونعني بها الصليبيين.

ووصل أسد الدين شيركوه إلى مصر وانتصر على جيش ضرغام بعد قتال عنيف اشترك فيه طوائف الجند الفاطمي من مصريين وسودانيين، وتفرق عن ضرغام قواده وأعوانه، ثم قبض عليه وقتل، وأعيد شاور نتيجة لهذا النصر إلى دست الوزراء وتلقب بالملك المنصور، وكتب له العاضد سجلاً بتوليه الوزارة ذكر فيه أنه"ما اختاره إلا لحنكته في السياسة والتدبير، كما قلد ابنه المعروف بالكامل الوزراء نيابة عن أبيه.

غير أن شاور كان خلقه الغدر والخيانة، فلم يلبث أن حنث بوعده ورفض أن يدفع لشيركوه وجيشه المقيم بظاهر القاهرة المبلغ المتفق عليه، بل طلب إليه الانسحاب بجيشه والعودة إلى الشام. وآلم شيركوه مسلك شاور، وأبى أن يتسمع له وأسرع إلى بلبيس بناءً على إشارة صلاح الدين وتحصن بأسوارها. وهنا فعل شاور ما فعله ضرغام من قبل، إذا لجأ إلى الفرنجة، وأرسل يستنجد بعموري ملك بيت المقدس، ووعده بمال كثير، ورحب عموري المسمى بأملريك بالدعوة، وأسرع بالخروج بجيشه،

لأنه كان يخشى أن يملك نور الدين مصر فتصبح قوى الصليبيين وأملاكهم في الشام محاصرة بقوى نور الدين من الشمال والجنوب.

اتجه عموري بجيشه في سنة 559هـ/1164م نحو مصر، وحاصر أسد الدين شيركوه في بلبيس شهوراً ثلاثة، وأحس نور الدين بما يهدد جيشه في مصر من خطر فبدأ يضغط على أملاك الصليبيين في الشام مما جعل عموري يفكر جدياً في الانسحاب. واتفق أخيراً مع شيركوه على أن ينسحبا معاً في وقت واحد من مصر.

سقوط الخلافة الفاطمية :

خرجت القوتان من مصر ولكن لتعودا إليها ثانية وثالثة وكل منهما يحاول أن يستولي على مصر للقضاء على القوة الأخرى، فقد رأى شيركوه ضعف حالها ووصفها بأنها بلاد بغير رجال، وأخذ يحرّض نور الدين من جديد لإرساله على رأس حملة ثانية. وخرج بالفعل في سنة 562هـ / 1167م، يصحبه للمرة الثانية ابن أخيه صلاح الدين، ودخل مصر عن طريق ساحل البحر الأحمر من ناحية الصعيد، ونزل بالجيزة حتى لا يحاصر ببلبيس مرة أخرى. عندئذ أرسل شاور يستنجد بالفرنجة ويعدهم بالمال، فأتاه عموري إلى الجيزة وأرسل رسله إلى قصر الخليفة العاضد للاتفاق على المبلغ الذي سيدفع لقاء طرد شيركوه من البلاد، فحاربهم شيركوه وهزمهم ونجا عموري بحياته بمعجزة. وسار شيركوه عقب ذلك إلى الإسكندرية التي رفض أهلها وأعيانها أن يسلموها إلى شاور عميل الصليبيين وسلموها إلى شيركوه الذي تركها لصلاح الدين وسار هو إلى الصعيد.

فأسرع شاور تسانده مراكب الصليبيين إلى حصارها حوالي أربعة أشهر. ولكن صلاح الدين كافح عنها كفاحاً شديداً، وعبثاً حاول شاور استمالة أهل الإسكندرية على أن يسلموه صلاح الدين في مقابل رفع الضرائب عنهم، بيد أنهم رفضوا تسليم المسلمين للفرنج على حسب قولهم، عندئذ سعى شاور إلى الصلح وقبله شيركوه لسوء موقف جيشه وليخرج الصليبيين من مصر بأي ثمن، وقبل ترك مصر مقابل مبلغ من المال، على أن يخرج الصليبيون أيضاً الذين اشترطوا منحهم مبلغاً من المال وأن يكون لهم بأبواب القاهرة حامية. ووافق شاور على هذا العرض، وخرجت القوتان.

بيد أن الصليبيين صمموا هذه المرة على سباق جيش نور الدين في الوصول إلى مصر لاحتلالها، وأسرع عموري بالوصول إلى الريف المصري شرقي الدلتا المعروف بالحوف الشرقي في سنة 564هـ / 1168م، وقتل الرجال والنساء والشيوخ في بلبيس مما جعل شاور يرتعد من الفرنجة، وجمع جاليتهم في مصر وقاتل منهم جماعة كبيرة وحفر خندقاً وبنى حصنا، ثم أحرق الفسطاط وهجّر أهلها إلى القاهرة بعد أن وزع عليها عشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل. ووصلت الأنباء إلى نور الدين فأسرع بإرسال شيركوه ومعه صلاح الدين على رأس حملة ثالثة، وقيل إنه كان ينوي أن يخرج بنفسه على رأسها. فلما سمع الصليبيون بخروج جيش نور الدين قبلوا الصلح مع شاور الذي عرض عليهم مائة ألف دينار على أن يرد إليهم بقية مليون دينار أخرى فيما بعد. ورحل الفرنجة عن مصر بعد أن اقترب جيش نور الدين من القاهرة، وقتل شاور لغدره وخيانته واستعانته بالصليبيين المرة بعد الأخرى على يد شيركوه بعد أن أخذ إقراره من الخليفة العاضد بأنه هو الذي أوصى بقتله لخيانته. ولم يجد الخليفة بين رجاله من

يصلح للوزارة فاختار أسد الدين شيركوه ليكون وزيره وتلقب بـ "السيد الأجل، الملك المنصور، سلطان الجيوش" لسيطرته على جيش الفاطميين وجيش نور الدين. ولكن شيركوه لم يمكث في الوزارة أكثر من شهرين ومات بعدها، وقيل أيضاً إن العاضد سمّه، واختير صلاح الدين مكانه، وتلقب بالملك الناصر في 25 جمادى الآخر سنة 564هـ / 26 مارس 1169م، وكتب له العاضد سجلّ الوزارة بخط يده، وألبسه خلعة الوزارة أمام جمع عظيم من موظفي الدولة.

كان موقف صلاح الدين منذ ولي الوزارة موقفاً غريباً، فهو وزير لخليفة مصر العاضد الشيعي المذهب وفي الوقت نفسه قائد لجيش نور الدين صاحب الشام السني المذهب، وهذا يعني أنه كان موزّع الولاء، ومع ذلك فقد اتبع سياسة الحكمة والتؤدة إزاء الرجلين.

وكان نور الدين يودّ أن يبادر صلاح الدين بالقضاء على الدولة الفاطمية، وقطع الخطبة عن آخر خلفائها العاضد والخطبة للخليفة العباسي المستنجد بالله، وذلك لكراهية نور الدين للشيعة، ورغبة منه تلبية مطالب الخليفة العباسي، فقد كان دائم الإلحاح عليه بأن يسارع بإقامة الخطبة له على منابر مصر. بيد أن صلاح الدين كان أعرف من نور الدين بأحوال مصر، ولهذا آثر التمهل حتى يمكنه تمهيد الطريق قبل أن يضرب ضربته الأخيرة، خاصة وقد شعر بأن أعيان مصر يميلون صراحة إلى الخلافة الفاطمية، وأنّ المذهب الشيعي قد انتشر بينهم انتشاراً هائلاً بل "إنه خالط من المصريين اللحم والدم" على حسب تعبير القاضي الفاضل .

بدأ صلاح الدين بالخطوات التمهيدية لتقليم أظافر الخليفة العاضد وقواد جيشه ورجال قصره، فأبعد هؤلاء القواد عن القاهرة واستولى على إقطاعاتهم ومنحها لقواده هو ليضمن ولاءهم وإخلاصهم، ثم أرسل إلى نور الدين يستأذنه في أن يرسل إليه أباه نجم الدين أيوب، الذي كان بعد وصوله خير عضد ونصيح لابنه صلاح الدين وذلك لما كان يتمتع به من مكر ودهاء وخبرة طويلة.

كذلك عمل على محاربة الدعوة الفاطمية وساعده على ذلك أنه كان له الإشراف على القضاء والدعوة معاً، فعزل قضاة مصر الشيعة وقطع أرزاقهم، وعين صدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعي قاضياً للقضاة .كما شرد الدعاة وألغى مجالس دعوتهم، وأزال أصول المذهب الشيعي مثل الأذان "بحي على خير العمل" بدلاً من الآذان "بحي على الفلاح"، وحذف من على العملة والطراز العبارات الشيعية مثل "عليّ وليّ الله " ومنع صلاة الجمعة بالجامع الأزهر. ولتنفيذ ذلك أخذ في تعميم إنشاء المدارس في مصر مقتدياً في ذلك بنور الدين، الذي أكثر من بناء المدارس في الشام لمحاربة المذهب الشيعي والدعوة للمذهب السني وتدريسه. وكانت أول مدرسة أنشأها صلاح الدين في مصر هي المدرسة الناصرية التي شيدت في الفسطاط لتدريس المذهب الشافعي. وهكذا "اشتهر مذهب الشافعية واندثر مذهب الإسماعيلية بالكلية وانمحى أثره. ولم يبقَ أحد من أهل البلاد يمكنه التظاهر به" على حد تعبير المؤرخ ابن واصل.

وتدلنا هذه العبارة الأخيرة على مدى أهمية الخطوات التي قام بها صلاح الدين في حرص وحذر للتمهيد لتحقيق رغبة الخليفة العباسي ونور الدين لقطع الخطبة عن العاضد آخر الخلفاء الفاطميين. ولما تم لصلاح الدين إضعاف جانب الخلافة الفاطمية لم يتردد في إلغائها بمصر وذلك في أول جمعة من المحرم سنة 567هـ / العاشر من سبتمبر 1171م، وأعاد الخطبة من جديد للخلافة العباسية وللخليفة

المستضيء بنور الله الذي كان تولى بعد أبيه المستنجد بالله في 566هـ / 1170م، بعد انقطاع دام حوالي قرنين من الزمن.

وتروي المصادر التاريخية روايات متعددة بصدد قطع الخطبة عن الخليفة العاضد، منها أن صلاح الدين لما خطب لبني العباس اغتم ومات، وقيل أيضاً إنه كان في يده خاتم فيه سم فتناوله ومات، وروي كذلك أن الطبيب الذي كان يعالجه لما رأى رغبة صلاح الدين في عزله امتنع عن مداواته، كما زعمت بعض مصادر الفرنجة أن توران شاه أخا صلاح الدين هو الذي تولى قتل العاضد بنفسه.

خلاصة القول إن الدولة الفاطمية انتهت بعد أن حكمت مصر وبلاد الشام قرابة قرنين من الزمان كانت مصر والشام في خلالهما دولة مستقلة واسعة مترامية الأطراف ذات حضارة مجيدة مزدهرة. وجدير بالملاحظة أيضاً أن هذه الدولة كانت لا تعرف وسطاً، فهي إما في قمة المجد والشموخ أو في حضيض الضعف والمهانة، وتتسع رقعتها تارة حتى تمتدّ من أقصى المغرب إلى العراق، ثم نراها تنكمش على نفسها في مصر محاولة الدفاع عن كيانها ضد الطامعين فيها. ونجدها تارة غنية كأغنى ما تكون الدول، تبهر العالم بثرائها وكنوزها، ونراها وقد خيم عليها الفقر وحطمتها المجاعة حتى لا يجد خليفتها ما يأكله. ونراها دولة نشرت لواء التسامح الديني، حتى وجد الكل على اختلاف عقائدهم الأمن والأمان، ونراها في وقت آخر كأشدّ ما تكون تعصباً واضطهاداً لغير شيعتها.

ثبت بأسماء خلفاء الدولة الفاطمية

1	المعز أبو تميم معد 341هـ / 952م
2	العزيز أبو منصور نزار 365هـ /975م
3	الحاكم أبو علي المنصور 386هـ/996م
4	الظاهر أبو الحسن علي 411هـ/1021 م
5	المستنصر أبو تميم معد 427هـ/1036م
6	المستعلي أبو القاسم أحمد 487هـ/1094م
7	الآمر علي منصور 495هـ/1101 م
8	الحافظ أبو ميمون عبد المجيد 524هـ/1130م
9	الظافر أبو منصور إسماعيل 544هـ/1149م
10	الفائز أبو محمد عبد الله 549هـ/1154
11	العاضد أبو محمد عبد الله 555هـ /1160م

أ.د. أحمد عبد الرزاق أحمد
جامعة القاهرة

المصادر والمراجع

أولاً - المخطوطات :

- الأنبا ميخائيل، ذيل سير الآباء البطاركة، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 6434ح.
- العيني، بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى، ت 762هـ / 1418م: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية تحت رقم 2578 تاريخ .
- أبو حنيفة، النعمان بن محمد بن منصور المعروف بالقاضي النعمان، ت 362هـ / 972م : شرح الأخبار، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 7062 ح .

ثانياً - المصادر العربية :

- ابن الأثير، علي بن محمد، ت 630هـ / 1232م : الكامل في التاريخ، ليدن ، 1866 ؛ بولاق، 1874.
- ابن إياس، أبو البركات محمد بن أحمد، ت 930هـ / 1253م : بدائع الزهور في وقائع الدهور، القاهرة، 1960، طبعة بول كالة ومحمد مصطفى، القاهرة، 1963.
- ابن أيبك الدوادار، أبو بكر عبد الله، ت 734هـ / 1334م : كنز الدرر وجامع الغرر، الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق صلاح المنجد ، القاهرة، 1961.
- ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف ابن عبد الله، ت 874هـ / 1469م : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، 1930 - 1972.
- ابن حجر، شهاب الدين أبو الفضل احمد بن علي، ت 852هـ / 1448م : الإصابة في أخبار الصحابة، القاهرة، 1328هـ.
- ابن حزم ، أبو محمد علي بن محمد بن صالح الظاهري، ت 456هـ / 1063م : الفصل في الملل والأهواء والنحل، القاهرة، 1910.
- ابن الحسين، بازيار العزيز بالله الفاطمي، ت ق 4هـ / 10م : كتاب البيزرة، تحقيق محمد كرد علي، دمشق، 1952.
- ابن حماد، ابن حماد الصنهاجي محمد ابن علي ابن حماد بن عيسى، ت 628هـ / 1231م : أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق Vonderheyden، الجزائر ، باريس، 1927.
- ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله، ت 776هـ/1374م : أعمال الأعلام، تحقيق العبادي والكتاني، الدار البيضاء، 1964.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، ت 808هـ / 1405م : المقدمة، بيروت، (د.ت).
- ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس احمد بن محمد، ت 680هـ/1281م : وفيات الأعيان، بولاق، 1299هـ.
- ابن شداد ، أبو عبد الله عز الدين محمد بن علي، ت 684هـ : الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق دومنيك سورديل، دمشق، 1953.
- ابن طاهر الأزدي ، جمال الدين أبو الحسن علي بن ظاهر، ت 613هـ/ 1216م : أخبار الدول

المنقطعة، القاهرة، 1972.

- ابن الطقطقي، فخر الدين محمد بن علي بن طباطبا، ت 709هـ/1309م : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، بيروت، 1960.
- ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد، ت 1089هـ / 1678م : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، القاهرة، 1350 - 1353هـ.
- ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله، ت 660هـ/ 1261م : زبدة الحلب في تاريخ حلب، نشر كانار، الجزائر، 1934.
- ابن عذاري، أبو عبد الله محمد المراكشي، ت 695هـ/1295م : البيان المغرب في أخبار المغرب، تحقيق ليفي بروفنسال وكولان، ليدن1948؛ وبيروت 1950.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، ت 276هـ / 889م : الإمامة والسياسة، ليدن، 1937.
- ابن القطان الكتامي، علي بن محمد ابن عبد الملك، ت 628هـ / 1230م : جزء من كتاب نظم الجمان في أخبار الزمان، تحقيق محمود مكي، الرباط، 1964.
- ابن ميسر، محمد بن علي بن يوسف، ت 677هـ / 1278م : أخبار مصر، تحقيق هنري ماسيه، القاهرة، 1919 ؛ تحقيق أيمن فؤاد سيد، القاهرة، 1981.
- ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق الوراق، ت 438هـ / 1047م : الفهرست، تحقيق فلوجل، ليبزج، 1871 - 1872.
- ابن واصل، جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سالم الحموي، ت 697هـ/ 1297م : مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، 1953 - 1958.
- أبو شامة، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن ابن إسماعيل، ت 665هـ/ 1266م : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، نشر عبد الله بن السعود ، القاهرة، 1287 - 1288هـ.
- البغدادي، أبو منصور عبد القادر بن طاهر، ت 429هـ / 1037م : الفرق بين الفرق وبيان الفرق الناجية، القاهرة، 1910.
- السيوطي، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن ابن الكمالي، ت 911هـ/ 1505م : تاريخ الخلفاء، بيروت، 1969؛ القاهرة، 1327هـ.
- القلقشندى، أحمد بن علي، ت 821هـ / 1418م : صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة، 1914 - 1928.
- الكرماني، حميد الدين أحمد بن عبد الله (حجة العارفين)، ت 412هـ/ 1021م : الرسالة الواعظة، تحقيق كامل حسين، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة، المجلد الرابع عشر، الجزء الأول، مايو 1952.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد حجة الإسلام، ت 505هـ / 1111م : فضائح الباطنية ، ليدن، 1916.
- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد، ت 450هـ / 1058م : الأحكام السلطانية، القاهرة، 1298هـ.
- مجهول : العيون والحدائق في أخبار الحقائق، ليدن، 1869م.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، ت 845هـ / 1441م : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، نشر جمال الدين الشيال، القاهرة، 1948.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، ت 845هـ / 1441م : إغاثة الأمة بكشف الغمة، نشر محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، القاهرة، 1940.

- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، ت 845هـ / 1441م : السلوك في معرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عاشور، القاهرة، 1934-1972.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، ت 845هـ / 1441م : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مصر، 1270هـ.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، ت 845هـ / 1441م : النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم، القاهرة، 1937.
- المؤيد في الدين، داعي الدعاة الفاطمي، ت 470هـ / 1077م : سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة، ترجمة حياته بقلمه، تقديم وتحقيق كامل حسين، القاهرة، 1949.
- خسرو ناصر، ت 476هـ / 1083م : سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة، 1945.
- النعمان، أبو حنيفة النعمان بن محمد ابن منصور المعروف القاضي النعمان، ت 362هـ / 972م : دعائم الإسلام، تحقيق آصف بن علي فيظى، القاهرة، 1951 - 1960.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، ت 733هـ / 1332م : نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة، 1923 - 1943.
- الأنطاكي يحيى بن سعيد، ت 458هـ / 1065م : تاريخ أو كتاب أوتيخا، تحقيق شيخو، بيروت، 1909.

ثالثاً - المراجع العربية والمعربة :

- أبو سيف، فتحي : المشرق الإسلامي بين التبعية والاستقلال، الطاهريون، القاهرة، 1978.
- أحمد، عبد الرازق أحمد : الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، القاهرة، 1990.
- أحمد، عبد الرازق أحمد : الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، العلوم العقلية، القاهرة، 1991.
- أحمد، عبد الرازق أحمد : دراسات تاريخية، القاهرة، 1982.
- أحمد، عبد الرازق أحمد : عمارة الأزهر الشريف وما حوله من الآثار، كتاب الأزهر الشريف في عيده الألفي، القاهرة، 1983.
- الباشا ، حسن : الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، القاهرة، 1957.
- الباشا ، حسن : الفنون والوظائف على الآثار العربية، القاهرة، 1966-1967.
- حسن ، إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي، القاهرة، 1946.
- حسن ، إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص، القاهرة، 1932.
- حسن، زكي محمد : كنوز الفاطميين، القاهرة، 1937.
- حسين، كامل : طائفة الإسماعيلية، تاريخها، نظمها، عقائدها، القاهرة، 1959.
- رستم، أسد : الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، بيروت، 1955.
- سالم، السيد عبد العزيز : دراسات في تاريخ العرب، تاريخ الدولة العربية، الإسكندرية، (د.ت).
- سرور، محمد جمال الدين : الحياة السياسة في الدولة العربية الإسلامية، القاهرة، 1966.
- سرور، محمد جمال الدين : الدولة الفاطمية في

مصر، القاهرة، 1979.
- سعداوي ، نظير : التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين، القاهرة، 1957.
- سلطان، عبد المنعم : المجتمع المصري في العصر الفاطمي، القاهرة، 1985.
- سيد، أيمن فؤاد : الدولة الفاطمية في مصر، تفسير جديد، القاهرة، 1992.
- الشيال، جمال الدين : تاريخ مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي، القاهرة، 1967.
- الشيال، جمال الدين : مصر في العصر الفاطمي، تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الثاني، (د.ت).
- العدوي، إبراهيم أحمد : مصر الإسلامية درع العروبة ورباط الإسلام، القاهرة، 1992م.
- عبد الوهاب، حسن : تاريخ المساجد الأثرية التي صلى فيها فريضة الجمعة صاحب الجلالة الملك الصالح فاروق الأول، القاهرة، 1946.
- العش، يوسف : الدولة الأموية، دمشق، 1985.
- الغطاء، آل كاشف : أصل الشيعة وأصولها، القاهرة، 1958.
- عنان ، محمد عبد الله : الحاكم بأمر الله، القاهرة، 1959.
- فرغلي، أبو الحمد محمود : التصوير الإسلامي نشأته وموقف الإسلام منه ومدارسه، القاهرة، 1991.
- قاسم، عبده قاسم : أهل الذمة في مصر العصور الوسطى، القاهرة، 1977.
- كاشف ، سيدة إسماعيل : مصر في عصر الإخشيديين، القاهرة، 1970.
- ماجد ، عبد المنعم : الإمام المستنصر بالله الفاطمي، القاهرة، 1960.
- ماجد ، عبد المنعم : الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه، القاهرة، 1959.
- ماجد ، عبد المنعم : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، التاريخ السياسي، الإسكندرية، 1968.
- ماجد ، عبد المنعم : الناصر صلاح يوسف الأيوبي، بيروت، 1967.
- ماجد ، عبد المنعم : نظم الفاطميين في مصر، القاهرة، 1973.
- المناوي، محمد حمدي : مصر في ظل الإسلام من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي، القاهرة، 1970.
- مؤنس، حسين : تاريخ مصر من الفتح العربي إلى أن دخلها الفاطميون، تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الثاني، القاهرة، (د.ت).
- الهمداني، حسين : بحث تاريخي في رسائل إخوان الصفا وعقائد الإسماعيلية، بومباي، 1935.

رابعاً - المراجع الأجنبية :

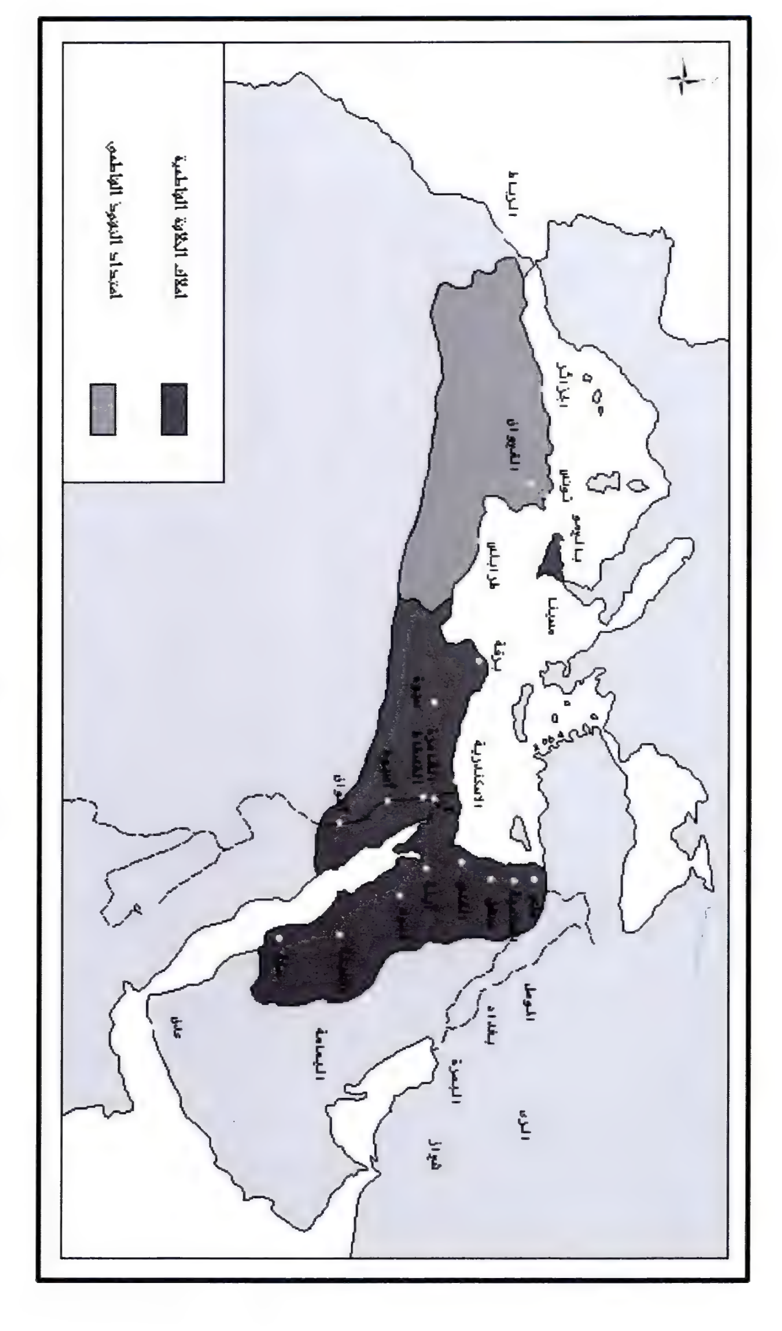
- Ashtor, E., : A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages, London, 1976.
- Ashtor, E., : Histoire des prix et des salaires dans l'orient médiéval, Paris, 1969.
- Beshir, B. I. : "Fatimid Military Organization", Der Islam LV, 1978.
- Beshir, B.I. : "New Light on Nubian Fatimid Relations", Arabica XXII, 1975.

- Bianquis, Th., : Damas et la Syrie sous la domination Fatimide 359-468/ 969 - 1076, Damas – IFD, 1986.
- Bianquis, Th., : "Al-Hakim bi amr Allah ou la folie de l'unité chez un souverain Fatimide" IFD, 1986.
- Bianquis, Th., : "La prise du pouvoir par les Fatimides en Egypte", Annales Islamologiques, XI, 1972.
- Blachère, R., : "La fondation du Caire et la renaissance de l'humanisme Arabo-Islamique au IV siècle", CIHC.
- Canard, M.,: "L'impérialisme des Fatimides et leur propagande", AIEO, 1974.
- Canard, M.,: Creswell, K.A.C., The Muslim Architeccture of Egypt, I. Iklshids and Fatimids, Oxford, 1952.
- Dachraoui, F., : Le califat fatimide au Maghreb 296-362 / 909-973, Histoire, Politique et Institutions, Tunis, 1981.
- Daftary, E., : The Isma'ilis Their History and Doctrines, Cambridge, 1990.
- Goeja De, : Mémoire sur les Carmathes du Bahrayn et les Fatimides, Leyde, 1886.
- A Mediterranean Society : The Jewish Communities, Goitein, S. D. of the Arab World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza.
  I. Economic Foundations.
  II . The Community.
  III .The Family.
  IV. Daily Life.
  VI. The Individual .,University of California Press, 1967-1989.
- Hautecoeur, L. et Wiet, G., : Les mosquées du Caire,Le Caire, 1932.
- Lamm C.J, : Fatimid Woodword, BIE, XVIII, 1963.
- Lane-Poole, : S., A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1925-1936.
- Lev, Y., : "Army , Regime and Society in Fatimid Egypt 358-487 / 968-1094" IJMES 19, 1987.
- Lev, Y., : "The Fatimid Conquest of Egypt - Military, Political and Social Aspects", Isr. Or. St. IX, 1979.
- Lev, Y., : "The Fatimids and Egypt 301-358 / 914-969", Arabica XXXV, 1988.
- Lev, Y., : "Fatimids Policy Towards Damascus (358/968 - 386/996). Military, Political and Social Aspects", Jerusalem Studies in Arabic and Islam III, 1981-1982.
- Lewis, B., : "An Interpretation of Fatimid History", CIHC, DDR, 1973.

- Mann, J., : The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid Caliphs,Oxford, 1920.
- Massignon, : Fatima bint al-Husayn et l'origine du nom dynastique Fatimide. Akten des XXIV, Intern Orientalisten Kongresses Munich, 1957.
- Quatremère, E., : Mémoires géographiques et historiques sur l'Egypte, Paris. 1936, "Mémoires historiques sur la dynastie des khalifes fatimites", JA 3 série II, 1811.

Quatremère, E., : Recueil des historiens des croisades, Hist. Occ., Paris, 1844 .

- Quatremère, E., : Répertoire Chronologique d'épigraphie arabe Le Caire, 1931-1982.
- Schlumberger, G., : Campagnes du Roi Maury 1er de Jérusalem en Egypte au XII siècle, Paris, 1906.
- Sacy, S. De., : Recherches sur l'initiation a la secte ismaélienne, JA, 1824.
- Zananiri, : L'Egypte et l'équilibre du Levant au Moyen Age, Marseille, 1933.



الخلافة الفاطمية في مصر والشام

ثانياً : العلاقات الخارجية

لم تكن الخلافة الفاطمية بمعزل عن الدول التي قامت في أرجاء العالم الإسلامي، ولا مع الدول المجاورة الأخرى، بل كانت لها علاقات مع هذه الدول جميعاً، سواء أكانت هذه العلاقة سلمية أم علاقات عسكرية. فقد كانت الخلافة الفاطمية (297 - 567هـ / 910 - 1171م) تحاول مدّ سيطرتها ونشر مذهبها في المناطق الخاضعة للخلافة العباسية (132 - 656هـ / 749 - 1258م)، حتى تزيد من المناطق الإسلامية التابعة لها، ومن عدد أنصارها. وكان الخلفاء الفاطميون قادرين على بلوغ أغراضهم بالسياسة، كقدرتهم على بلوغها بالقوة العسكرية، وذلك لما اشتهروا به من حنكة سياسية، ولما اشتهروا به من صفات وأخلاق مثل مظاهر الكرم، كتقديم الهدايا النفيسة، والجوائز الكبيرة، هذا إضافة إلى الإحسان إلى الفقراء.

كان العالم الإسلامي في فترة حكم الخلافة الفاطمية يُحكَم من قبل حكومات متعددة تحت مظلة الخلافة العباسية، أو تحت مظلة الخلافة الفاطمية، ولم يؤد انقسام الدولة الإسلامية، وتعدد حكوماتها إلى انقطاع الصلة بين أقاليمها وولاياتها. بل كان مجموع الأقاليم والدويلات يؤلف دولة واحدة هي مملكة الإسلام، وقامت بينها وحدة لا تتقيد بالحدود السياسية المحدثة. فقد كان المسلم يتمتع في جميع أنحاء المملكة الإسلامية بنفس الحقوق التي يتمتع بها في منطقة استقراره، فلا يتعرض أحد لحريته الشخصية، ويستطيع أن يتنقل بين أطراف الأقطار الإسلامية بأمان، من دون رعايا دار الحرب، مثل رعايا الدولة البيزنطية وغيرها. فهؤلاء لا يستطيعون دخول أراضي الخلافة الإسلامية إلا بإذن، ويسمون مستأمنين - مفردها مستأمن - وإذا دخلوها دون أمان فلا يمكن حمايتهم، وتتعرض حياتهم للخطر.

وينتج عن هذا أن وحدة الشعب العربي والإسلامي كانت موجودة ومصانة على الرغم من تعدد الحكومات. وكان بإمكان أي عالم أو تاجر أو عامل أو غيرهم الانتقال من أجل علمه أو تجارته أو عمله من مكان إلى آخر ، ولا يطلب منه سوى إبراز ما يثبت أنه من رعايا الخلافة الإسلامية، وذلك خشية من أن يستغل الأعداء هذه الوحدة، فيدخلوا إلى أراضي الخلافة كعيون لدولهم (جواسيس) دون إذن من المسلمين، وذلك بغاية كشف عوراتهم. وقد يضر دخولهم دون إذن بمصالح العرب والمسلمين. هذا وقد كانت علاقات الخلافة الفاطمية مع الدول الإسلامية وغير الإسلامية على نوعين: علاقات سلمية، وعلاقات عدائية عسكرية. وسنبحث هذين النوعين من العلاقات بالتتابع :

أنواع العلاقات بين الفاطميين والدول المعاصرة :

أولاً - العلاقات السلمية :

1 - العلاقات السلمية مع الدول الإسلامية :

ساد بين الخلافة العباسية، ومثيلتها الفاطمية نوع من العلاقات السلمية، واستقبلت كل خلافة رسل الخلافة الأخرى بكل مظاهر الاحترام. فقد أرسل

الخليفة الفاطمي العزيز بالله (365 - 386هـ / 975 - 996م) إلى بغداد سنة (369هـ / 979 - 980م) رسولاً لمقابلة الخليفة العباسي الطائع لأمر الله (363 - 381هـ / 974 - 991م). وكان يحمل كتاباً إلى عضد الدولة البويهي (338 - 372 هـ / 949 - 982م)، فاستُقبل في بغداد استقبالاً حافلاً. فقد اصطف الجند على جانبي الطريق، وأخذ القواد وكبار رجال الدولة أماكنهم كل على حسب مكانته، على حين جلس الخليفة الطائع وراء الستر، على عرش مرتفع، وعلى كتفيه بردة الرسول ﷺ، وبيده قضيب المُلك، ويحيط به مئات الحراس ممتشقين سيوفهم، مرتدين أبهى حللهم. وقد جاء في الرسالة ذكر أكيد للمودة بين الطرفين.

كما كان الفاطميون يستقبلون الرسل من كل أنحاء العالم من مسلمين وغيرهم استقبالاً حافلاً، وكان لهم رسوم ثابتة في استقبال رسل الدول الأخرى، تظهر مكانة الخلافة الفاطمية، وبذخها. فإذا وصل رسول دولة من الدول أو ضيف كبير تلقاه مندوب خاص من القصر الفاطمي، فينزله في المكان المعدّ له في دار الضيافة، ويقيم له من يقوم بخدمته من رجال القصر، ويرتب له ما يحتاج إليه، ولا يمكّن أحداً من الاجتماع به قبل أن يجتمع بالخليفة.

وقد كان لمثول رسل الملوك بين يدي الخليفة مراسم عديدة يطلعه عليها رجال القصر قبل دخوله على الخليفة، فمتى وصل إلى باب القصر، ترجل وسار في دهاليز القصر العديدة، في تعاريج كثيرة بين صفين من الجنود على الجانبين. فيدخل الرسول على الخليفة في قاعة واسعة، فيستقبله الخليفة وهو جالس على سرير الملك، وحواليه الوزير وكبار رجال الحاشية في أبهة وجلالة طالما أبهرتا أعين الزوار .

حاول الفاطميون نشر دعوتهم سلمياً، وكثيراً ما نجحوا في ذلك. فقد عمل الفاطميون منذ أن استقرت الخلافة الفاطمية لعبيد الله المهدي (297 - 322هـ / 909 - 934م) في المغرب، نشر دعوتهم بين أهالي العراق، وتقريبهم منهم. ومما ساعدهم على ذلك ضعف سلطة الخلفاء العباسيين التي تجلت منذ بداية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، بسبب استفحال نفوذ القادة الأتراك، واستقلال الأمراء بولاياتهم، ومن ثم استبداد البويهيين بأمور الخلافة، الذين كانوا يرون إخراج الخلافة من العباسيين والبيعة للمعز لدين الله الفاطمي (341 - 365هـ / 952 - 975م) ولم يمنعهم من ذلك إلا خوفهم على مركزهم السياسي الذي تمتعوا به في خلافة العباسيين.

وقد تبدّى نجاح الفاطميين في دعوتهم من انضمام أبي كاليجار البويهي (440هـ / 1048م) إلى دعوتهم، وإخلاصه للفاطميين، وتأييده لهم. وعلى العموم فقد أثمرت الدعوة الفاطمية في العراق، ودعا أبو الدرداء محمد بن المسيب بن رافع بن مقلد العقيلي (ت 286هـ / 996 - 997م) للخليفة العزيز بالله سنة (382هـ / 992 - 993م).

كذلك فإنه في سنة (401هـ / 1010 - 1011م) خطب قرواش بن المقلد العقيلي الملقب "معتمد الدولة" (ت 445هـ / 1052 - 1053م) للخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي (386-411هـ / 996 - 1020م) وخلع طاعة الخليفة العباسي القادر بالله (381 - 422هـ / 991 - 1031م). ولم يقتصر في دعوته على الموصل، وإنما أقامها في كل المدن التابعة له مثل الأنبار، والمدائن، والكوفة، كما أحل اسم الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله في الخطبة محل الخليفة العباسي.

حاولت الخلافة الفاطمية الدعوة لنفسها في منطقة عُمان، مستغلة بعض الاضطرابات التي سادت

بها، وأرسل الخليفة المستنصر بالله (427 - 487هـ / 1035 - 1094م) الدعاة إليها، فتمكنوا من جذب أنصار كثيرين فيها إلى دعوتهم. ولاشك في أن الخلافة الفاطمية كانت ترمي من وراء بث الدعوة في عُمان إلى تحقيق سياستها، في بسط سلطانها على أقطار جزيرة العرب، ليتيسر لها بذلك إضعاف الخلافة العباسية.

وعلى الرغم من حرص الخلفاء العباسيين والفاطميين على بسط سيادتهم على الأراضي المقدسة في الحجاز، فإن التنافس بينهم لتحقيق هذه الغاية، لم يقرن بمظاهر العنف، بل وجه كل منهم اهتمامه إلى إقامة الدعوة له بالطرق السلمية .

ولا شك في أن حرص الفاطميين على نشر نفوذهم ونجاحهم في هذا السبيل، قد أدّيا إلى احترام العالم الإسلامي وتقديره لهم. فقد برهنوا على قدرتهم على درء الأخطار عن تلك البلاد، بعد أن صدوا القرامطة عن مكة، ووجهوا اهتمامهم إلى العمل على حماية الأراضي المقدسة، وتأمين المسلمين القاطنين فيها والواردين إليها، على أرواحهم وأموالهم.

وكان أمراء مكة والمدينة يعملون على اكتساب صداقة الفاطميين والتقرب إليهم ما داموا يرعون حقوقهم في الإمارة، ويمدونهم بما يحتاجون إليه من الأموال والغلال.

كما عمد الفاطميون إلى نشر دعوتهم في اليمن بالطرق السلمية في فترة مبكرة، وقبل تأسيس دولتهم، وذلك حين أرسلوا إليها داعيتهم ابن حوشب، ومعه علي بن الفضل اليماني وذلك منذ سنة (268هـ / 978م) فنجحا في مهمتهما.

كما أتيحت الفرصة لدعاة الفاطميين لمواصلة جهودهم في نشر دعوتهم في مشرق الخلافة الإسلامية، وصادفوا كثيراً من النجاح في بلاد السامانيين.

قامت علاقات ودية بين القرامطة في بلاد البحرين والفاطميين في المغرب، منذ أن أرسل عبيد الله المهدي إلى أمير القرامطة أبي طاهر سليمان بن الحسن بن بهرام (ت 332هـ / 944م) كتاباً بتوليته، وحرص القرامطة طوال النصف الأول من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي على الاحتفاظ بعلاقتهم الودية مع الفاطميين ببلاد المغرب، كما سمحوا لهم بالتدخل في تعيين أمرائهم، وأعادوا الحجر الأسود من الأحساء إلى مكانه في الكعبة سنة (339هـ / 951م) إجابة لطلب المنصور الفاطمي (334 - 341هـ / 945 - 952م) بعد أن ذهبت جهود الخلافة العباسية مع أبي طاهر سليمان بشأن استرداده هباءً. فقد رفض ردّ الحجر الأسود إلى مكانه مقابل خمسين ألف دينار من الذهب، وفي هذا دليل واضح على مدى خضوع القرامطة في بلاد البحرين لسلطان الفاطميين.

وكان لاتحاد القرامطة مع الفاطميين في الوقوف في وجه العباسيين، ومحاولة نشر النفوذ الفاطمي، أثر كبير في صعود نجم الفاطميين في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، حين بدأ أمر العباسيين في الضعف، فبسط الفاطميون سلطانهم على مصر وبلاد الشام وكثير من أرجاء جزيرة العرب.

حاول الخلفاء الفاطميون أن يكسبوا رعايا الخلافة العباسية سلمياً إلى جانبهم، ولذلك فإنهم اهتموا بتقديم خدمات اقتصادية ومالية لهم. ففي سنة (427هـ / 1035 - 1036م) بعث الخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله (411 - 427هـ / 1020 - 1035م) مالاً إلى الخلافة العباسية، وأراد أن ينفق هذا المال على نهر بالكوفة، فقبل السكان تلك المعونة، وكذلك الفقهاء والخليفة.

لم تنقطع صلة الفاطميين بالمتاجرة مع

المناطق التابعة للخلافة العباسية، على الرغم من العداء السياسي الذي كان بين العباسيين والفاطميين. فقد ظل تجار العراق يفدون إلى مصر، حتى لقد أنشئت لتجار العراق وكالة خاصة للمبيت في مصر. وكان تجار الفاطميين يحملون منسوجات الصعيد، ودمياط، وتنيس إلى أسواق العراق، وفارس، والمشرق. وكان بعض التجار المصريين يقيمون في بخارى. حتى إن الجغرافي المقدسي شاهد بعضهم فيها .

وكانت العلاقات بين الفاطميين والنوبة ودية إلى حد كبير. فقد كان ملوك النوبة يرسلون الهدايا إلى الخلفاء الفاطميين، ويعقدون معهم المعاهدات . ويحمل التجار الفاطميون إلى بلاد النوبة أدوات الزينة، ويجلبون الرقيق، وكانت مراكب الأحباش تصل إلى عيذاب محملة بالبضائع من الحبشة وزنجبار وغير ذلك.

وكانت برقة تصدر الذبائح والصوف والعسل والقطران إلى مصر. وكانت منتوجات بلاد السودان وغانا وحوض السنغال والنيجر تحملها القوافل من سجلماسة إلى واحات مصر، فتحمل التبر وبعض السلع التي ينتجها إقليم الواحات.

لم تنقطع علاقة الفاطميين بالمغرب العربي بعد انتقال مركز حكمهم إلى مصر؛ فقد ظلت العلاقات الاقتصادية قائمة. وكانت سفن المغاربة تقلع إلى موانئ مصر تحمل الحجاج المغاربة، وتقوم بنفس الوقت بالأعمال التجارية، فتشتري المواد التي مصدرها مصر، وأخرى من التي تتاجر بها مصر تجارة عبور، سواء أكانت هذه المواد من الجزيرة العربية أم الحبشة أم الهند. وكانت مصر تستورد بعض حاجاتها من الجوز واللوز والفستق من الشام، وتستورد الزيت من مدينة صفاقس بشكل خاص. ولم تقتصر تجارة المغرب على مصر، بل تاجرت مع الشام التي كانت تابعة للفاطميين. فقد كان التجار المغاربة يصلون إلى دمشق للقصد نفسه.

وكما كانت سفن الفاطميين ترد على موانئ المغرب، فإنها كانت تبحر إلى موانئ الأندلس. فقد كانت الأسواق الأندلسية تقوم بدور الوسيط بين الفاطميين من ناحية، والبلاد الأوربية كالبرتغال وفرنسا وغيرها. كما كان تجار مصر يتاجرون مع أسواق الأندلس، بالقمح والشعير، وبالجواهر والياقوت.

وكانت العلاقات التجارية بين الخلافة الفاطمية وصقلية دائمة، علماً بأن هذه الجزيرة كانت تابعة للفاطميين. وساعد على هذه العلاقات موقعها المتوسط بين الشرق والغرب، ذلك لأن أكثر السفن المبحرة من مصر إلى إيطاليا، وجنوبي فرنسا تمر بمدن صقلية لتبيع ما تحمله من منتوجات مصر، أو تشتري قمح صقلية، وفاكهتها ومعادنها. كما كانت صقلية تنتج نوعاً من الأقمشة الكتانية الرقيقة، وثياباً فاخرة، تفوق ما كانت تنتجه مصر نفسها، حتى لقد ذكر ناصر خسرو أن القطعة الواحدة من هذا القماش تباع في أسواق مصر بعشرة دنانير مغربية. ولم تنقطع هذه العلاقات بعد استيلاء النرمانديين على الجزيرة سنة (483هـ / 1090م)، فكان تجار صقلية يعاملون معاملة ممتازة، كما عقد الخليفة الفاطمي معاهدة تجارية مع روجر النرماندي صاحب صقلية الجديد.

2 - العلاقات السلمية مع الدول غير الإسلامية :

(أ) العلاقات السلمية مع البيزنطيين :

أما عن علاقات الفاطميين مع الدول غير الإسلامية، فقد كانت إما علاقات سلمية، كتلك التي سادت بين الخلافة الفاطمية، وكل من مدن إيطاليا

التجارية، أو علاقات عدائية عسكرية إضافة إلى علاقات يسودها بين الحين والآخر العلاقات السلمية سواء أكانت تجارية، أم معاهدات تعقد ليسود الهدوء بين الطرفين. ففي عهد الخليفة العزيز بالله الفاطمي، وفي سنة (377هـ / 987م)، وصل وفد بيزنطي من قبل الإمبراطور بازيل الثاني (349 - 416هـ / 960 - 1025م) يحمل هدية للخليفة الفاطمي، ويطلب منه عقد صلح بين الطرفين، وقد تم عقده على شروط منها :

1 - إطلاق سراح الأسرى المسلمين عند البيزنطيين .

2 - الدعاء للخليفة الفاطمي في جامع القسطنطينية في خطبة الجمعة .

3 - أن تضع الحرب أوزارها بين البيزنطيين والفاطميين لمدة سبع سنوات.

كما تم عقد صلح في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (386 - 411هـ / 996 - 1020م) والإمبراطور بازيل، وذلك سنة (392هـ / 1001م)، وبدأ عصر سلام بين الدولتين، ومن بنوده :

1 - أن تظل الهدنة لمدة عشر سنوات .

2 - يتمتع المسيحيون في الدولة الفاطمية بالحرية الدينية، ويسمح لهم بتجديد كنائسهم وإعادة بنائها.

3 - يتعهد الإمبراطور بازيل بإمداد مصر بما تحتاج إليه من الحبوب.

ثم ما لبث أن عقدت معاهدة أخرى سنة (418هـ / 1027م)، بين الإمبراطور قسطنطين الثامن (416 - 419هـ / 1025 - 1028م)، والخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله (411 -427هـ / 1020 - 1035م)، وقد جاء في هذه المعاهدة :

1 - السماح للإمبراطور البيزنطي بإعادة بناء كنيسة القيامة في بيت المقدس .

2 - السماح لكافة المسيحيين بإعادة بناء الكنائس التي هدمها الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله .

3 - أن يعين الإمبراطور بطريقاً في بيت المقدس .

4 - ألا يقوم الفاطميون بمهاجمة مدينة حلب .

5 - ألا يمد الفاطميون المساعدة لأعداء الدولة البيزنطية .

6 - أن يعيد الإمبراطور قسطنين الثامن بناء جامع القسطنطينية.

7 - أن يعمل الإمبراطور البيزنطي على ذكر اسم الخليفة الفاطمي في الخطبة في جامع القسطنطينية،والمساجد الواقعة داخلها.

8 - أن يطلق سراح الأسرى المسلمين.

9 - ألا يُقدِّم الإمبراطور المساعدة لحسان بن مفرج بن الجراح الطائي صاحب الرملة الذي خرج على الخليفة الفاطمي.

10 - أن يسحب الإمبراطور طلبه بالاستعاضة عن شيزر، بأفامية.

تحسنت العلاقات بين الفاطميين والبيزنطيين، في أوائل خلافة المستنصر بالله الفاطمي (427 - 487هـ / 1035 - 1094م)، الذي عقد هدنة مع الإمبراطور ميخائيل الرابع، سنة (429هـ / 1037م)، وسمح له بإتمام إصلاح كنيسة القيامة، على أن يطلق سراح خمسة آلاف أسير مسلم.

حافظ قسطنطين التاسع (434 -447هـ / 1042 - 1055م)على العلاقة الطيبة بينه وبين الخليفة المستنصر بالله الفاطمي (427 -487هـ / 1035 - 1094م). ففي سنة (437هـ / 1045م)، أرسل هدية كبيرة من الذهب للخليفة الفاطمي. وحين حلت المجاعة في مصر سنة (443هـ / 1059م)، أرسل المستنصر الفاطمي إلى قسطنطين التاسع، يطلب منه أن يمده بأربعمائة ألف إردب من القمح،

ولكن الإمبراطورة تيودورا (447 - 448هـ / 1055 - 1056م) التي حلت مكانه، اشترطت على المستنصر مقابل ذلك أن يمدها بالجنود إذا ما اعتدى معتدٍ على بلادها. فرفض المستنصر ذلك فتوقف وصول الإمدادات.

كان النشاط التجاري بين الدولة البيزنطية والخلافة الفاطمية في ازدياد. فقد كان البيزنطيون يشترون من الخلافة الفاطمية الملح المستخرج من وادي النطرون. وزاد عدد السفن البيزنطية التي أخذت ترسو في موانئ مصر. كما أخذت سفن الفاطميين تصل بالمتاجرات إلى الموانئ البيزنطية، هذا إضافة إلى القوافل التجارية التي كانت تمر بالطرق البرية عن طريق بلاد الشام مارة بحلب.

وكانت هذه العلاقات التجارية النشطة تقوم بين البيزنطيين والفاطميين، على الرغم من العلاقات العدائية التي كانت تنشب بينهما أحياناً. وقد نشطت هذه العلاقات بسبب حاجة كل دولة من هاتين الدولتين إلى بضائع الدولة الأخرى. فقد كان بالفسطاط حي يقيم فيه تجار البيزنطيين، وكان لهم حق التجول في مصر. هذا وقد كانت الدولة البيزنطية في حاجة إلى صناعات الفاطميين، وخاصة تلك التي تنتجها مصانع تنيس ودمياط، والتي كان الأباطرة يقبلون عليها لتزيين قصورهم. وكانت المنسوجات المصرية الفاخرة مطلوبة بشكل كبير في القسطنطينية حتى إن ناصر خسرو سمع بأن الإمبراطور البيزنطي عرض على الخليفة الفاطمي مئة مدينة مقابل حصوله على مدينة تنيس. وإضافة إلى ذلك، فقد كانت السفن الفاطمية تحمل المتاجرات من مدينة طرابلس الشام التي كانت تحت حكمهم إلى البيزنطيين وصقلية والمغرب.

وإذا كانت الدولة البيزنطية بحاجة إلى بضائع ومنتوجات الفاطميين، فإن الفاطميين كانوا بحاجة إلى الفراء المجلوب من روسية، كما كان الفاطميون في أوقات الشدة والضيق الاقتصادي بحاجة إلى بعض الغلال من البيزنطيين وخاصة القمح. كذلك كان للفاطميين علاقات تجارية مع قبرص التابعة للبيزنطيين، وكانوا يستوردون منها الشمع والعسل والفاكهة، ويبيعون فيها منتوجات تنيس ودمياط.

وتسامح الفاطميون دينياً مع الرعايا البيزنطيين، فقد سمحوا لهم بالمجيء إلى كنيسة القيامة في القدس للحج، وكانوا يَقْدمون ويتعبدون دون عائق، وفيهم اليهود والنصارى، فيزورون كنيسة القيامة والكنيس اليهودي وبيت لحم، ويقدّمون القرابين، وقد يبقى منهم مجاورون فيها.

(ب) العلاقات السلمية مع المدن التجارية الإيطالية :

- العلاقات السلمية مع أمالفي :

ارتبطت الخلافة الفاطمية بعلاقات تجارية مع أوربة والمشرق، من ذلك ارتباطها مع المدن التجارية الإيطالية. فقد ارتبطت مدينة أمالفي بعلاقات تجارية مع الخلافة الفاطمية سواء في مصر أو في الشام، وحصل تجارها على حي خاص في مدينة أنطاكية الشامية، كما كان لهم فنادق كثيرة في مدينة الإسكندرية. وكانت أمالفي تستورد المنسوجات الحريرية، وخاصة منسوجات مصر التي كانت من أكثر السلع رواجاً في أوربا، وخاصة في أسواق روما، لأنها كانت جيدة. ولم تكن العلاقات بين أمالفي والفاطميين تجارية فقط، بل كان بينهما تعاون صناعي. إذ استعان أهالي أمالفي بمهرة الصناع الفاطميين بصناعة الفسيفساء لتزيين قصورهم بالفسيفساء . وكانت هناك علاقات أخرى، فقد حصلت أمالفي من الفاطميين على إذن خاص بالسماح لسكانها بالحج إلى بيت المقدس، وكانت

سفنهم تحمل الحجاج إلى ثغر يافا، حيث يذهبون إلى بيت المقدس.

- العلاقات السلمية مع جنوة :

كان لأهالي جنوة علاقات تجارية مع الخلافة الفاطمية، فقد كان لأهالي جنوة جالية اقتصادية في الإسكندرية، كما كان لأهالي أمالفي. وكانت السفن الجنوية تأخذ طريقها إلى موانئ مصر والشام، فيشترون من مصر الفلفل، وجوز الطيب، والقرنفل، والشب، والنطرون، وهي السلعة التي كان الفاطميون يحتكرون تجارتها. كما كان الحجاج يأتون من مدينة جنوة إلى القدس. وكانت تحملهم سفن جنوة إلى ثغر يافا.

- العلاقات السلمية مع بيزا :

حرصت مدينة بيزا على علاقات سلمية مع الفاطميين، فقد أرسلت سنة (549هـ / 1154م) إلى بلاط الخليفة الظافر (544 - 549هـ / 1149 - 1154م)، سفيراً لتسوية بعض المشاكل الناجمة عن اعتداء بعض تجار مدينة بيزا على زملائهم من رعايا الخلافة الفاطمية. واستقبلت الخلافة الفاطمية سفير بيزا استقبالاً حافلاً، لأن الدولة الفاطمية كانت ترى الإبقاء على العلاقات الاقتصادية، وخاصة التجارة الفاطمية الرابحة معها.

- العلاقات السلمية مع البندقية :

كانت مدينة البندقية تصدر الأخشاب إلى الخلافة الفاطمية، على الرغم من أن هذه الأخشاب كانت تستخدم في صناعة السفن الحربية. وقد اعترضت الدولة البيزنطية على تجارة البندقية بالأخشاب مع الخلافة الفاطمية، وقدمت احتجاجاً لحاكم البندقية، خشية أن يقوى أسطول الفاطميين ويسيطر على البحار. وقد اضطرت البندقية إلى أن تتخذ حلاً وسطاً ترضي فيه البيزنطيين، دون أن توقف تجارتها مع الفاطميين، فسمحت لتجارها بالمتاجرة مع الفاطميين بخشب اللبخ والسنديان، على أن لا يجاوز طول اللوح الواحد خمسة أقدام. كما كانت البندقية تتاجر مع مصر بالمصنوعات الخشبية. وقد سمحت الخلافة الفاطمية لتجار البندقية بالمتاجرة مع الهند عن طريقها، بعد أن كانت تشتري البضائع الهندية من مصر، وكذلك مع غيرها من دول شرقي آسيا، وأخذت البندقية تنقل هذه لبضائع إلى أسواق أوربا.

(جـ) علاقات الفاطميين السلمية مع دول الشرق الأقصى :

كان للدولة الفاطمية علاقات اقتصادية مع الشرق الأقصى عموماً كالصين والملايو وجزر الهند الشرقية. فقد كانت مصر تستورد من الشرق الأقصى التوابل والعطور والأفاويه، فتستهلك بعضها في الأسواق المحلية، ويصدر الباقي ليباع في أسواق أوربا، ويجني الفاطميون من وراء ذلك أرباحاً طائلة. كما كانت تستورد من نفس المناطق الفلفل والقرفة بكميات كبيرة، ولكثرتها فقد كانت تترك في أسواق عيذاب- حيث تحمل من السفن- دون حراسة.

واستورد الفاطميون العود الصيني والكافور من الصين وساحل زنجبار، والعطر والند والمسك والعود والتوابل من جزر الهند الشرقية وبلاد الملايو، حتى امتلأت بها خزائن التوابل في مصر. كما استوردت التوابل من ساحل ملبار، والعنبر من جزر الهند الشرقية وخاصة جاوة. كما استوردت الكافور من ساحل زنجبار، وخشب الساج من شبه جزيرة الملايو. وقد ملك الفاطميون عدداً كبيراً من المراكب، فكان في تنيس وحدها ألف مركب تتاجر مع

الهند وغيرها، وكانت المراكب تحمل البضائع من الهند إلى أراضي الخلافة الفاطمية، ومنها إلى الدول الأخرى.

وهكذا فقد كان للخلافة الفاطمية علاقات سلمية مع الدول المختلفة في ذلك الوقت، فقد كان الفاطميون يستقبلون السفراء استقبالاً حافلاً، كما كان سفراؤهم يستقبلون بنفس الطريقة. وقد عقد الفاطميون المعاهدات السلمية مع الدولة البيزنطية، كما كانت التجارات بين الخلافة الفاطمية والدول الأخرى نشطة.

ثانياً - العلاقات العدائية العسكرية :

أما عن علاقات الفاطميين العدائية، فيمكن أن نقسمها إلى علاقات مع الدول الإسلامية، وعلاقات مع الدول غير الإسلامية .

1 - علاقات الفاطميين العدائية مع الدول الإسلامية :

- علاقة الفاطميين العدائية مع الخلافة العباسية :

أما عن علاقة الفاطميين مع الخلافة العباسية والدويلات التابعة لها، فيمكن القول بأن الفاطميين ركزوا جهودهم من أجل القضاء على الخلافة العباسية، فتمكنوا من ضم مصر وبلاد الشام إليهم. وكان نجاح الفاطميين في ذلك بسبب ضعف سلطة الخلفاء العباسيين، واستقلال الأمراء بولاياتهم واستبداد البويهيين بأمور الخلافة. وقد تمكن الفاطميون من الدعوة لأنفسهم في الأراضي التابعة للخلافة العباسية، وتعاظم النفوذ الفاطمي فيها حتى وصل إلى درجة السيطرة على بغداد، وعزل الخليفة العباسي القائم بأمر الله (422-467هـ / 1031 - 1075م)، وإخراجه من بغداد، والدعوة للخليفة الفاطمي المستنصر بالله على منابر بغداد نفسها. ويعزى نجاح الفاطميين هذا إلى تسلط البويهيين على الخلافة العباسية، وازدياد ثورات الجند، ونفوذ القادة الأتراك .

ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما قام به القائد التركي أبو الحارث أرسلان البساسيري [مقدم الأتراك في بغداد]، الذي استبدّ بالسلطة في بغداد، وتجاوز ذلك بأن راسل الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، وأعلن دخوله في طاعته، فأيده المستنصر الفاطمي، وأمده بالمال والخيل والسلاح. وقد ضحى بهذه الإمدادات، على الرغم مما كانت تعانيه مصر من أزمة اقتصادية وغلاء.

كان من أثر الإمدادات التي وصلت إلى البساسيري، أن انتصر هو وأعوانه على جيوش قريش ابن بدران (444 - 453هـ / 1052 - 1062م) صاحب الموصل، وعلى جيش السلطان طغرلبك في موقعة سنجار سنة (448هـ / 1056م)، وتلا ذلك نجاح آخر حققه إثر خروج طغر لبك من العراق لقتال أخيه إبراهيم ينال، إذ أنه استغل فرصة انشغال طغر لبك بإخماد هذه الثورة، فزحف إلى بغداد واستولى عليها في (8 ذي القعدة سنة 450هـ / 28 كانون أول ديسمبر 1058م) دون مقاومة تذكر، ودعا فيها للخليفة الفاطمي المستنصر بالله، وقبض على الخليفة العباسي القائم بأمر الله، وفرض عليه أن يوقع عهداً يعترف فيه، بأنه لا حقّ لبني العباس، ولا له في الخلافة. وظل هذا العهد محفوظاً بقصر الخلافة حتى استولى صلاح الدين الأيوبي سنة (567هـ / 1171 - 1172م) على محتوياته. كما أرسل البساسيري للخليفة المستنصر بالله ثوب الخليفة العباسي وعمامته وشباكه الذي يجلس فيه، وغير ذلك من الأموال والتحف، وأقيمت الاحتفالات بهذه المناسبة.

ولما تم لطغرلبك القضاء على حركة أخيه إبراهيم ينال، عاد إلى العراق، فقضى على حركة البساسيري، وأعاد الخليفة القائم بأمر الله إلى بغداد في (11ذي القعدة سنة 451هـ/20 كانون أول ديسمبر 1059م)، وأعاد الخطبة له، وقطع الخطبة للخليفة الفاطمي المستنصر بالله.

وجه السلاجقة - بعد أن قبضوا على زمام الأمور في بغداد - اهتمامهم إلى مناهضة النفوذ الفاطمي، فعملوا على إعادة الدعوة للخليفة العباسي القائم بأمر الله، وللسلطان السلجوقي ألب أرسلان الذي خلف عمه طغرلبك (455 - 465هـ / 1063 - 1072م) في مكة سنة (464هـ / 1072م)، ثم عملوا على استعادة بلاد الشام، وحرصوا على تعقب الفاطميين في مصر نفسها.

لم تكن الظروف مهيأة في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي للخلافة الفاطمية لتستعيد مكانتها في العراق، فقد ضعف أمرها، وأصبحت مهددة بالزوال من جراء النزاع الذي نشأ حول الوصول إلى عرش الخلافة الفاطمية، بعد وفاة الخليفة المستنصر بالله الفاطمي (487هـ / 1094م). كما فقدت الدعوة الفاطمية في أوائل القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي في اليمن والحجاز مكانتها السياسية، ولم يبق لها إلا النفوذ الروحي. وأخذت الدولة الفاطمية بالضعف حتى تمكن صلاح الدين الأيوبي من القضاء عليها.

- علاقة الفاطميين العدائية مع بلاد الشام :

حرص الفاطميون على مد نفوذهم على بلاد الشام بعد أن تمت لهم السيطرة على مصر، وذلك لأسباب متعددة، وتمكنوا من جعل وسط وجنوب بلاد الشام تابعاً لهم، وذلك منذ سنة (359هـ / 969م)، وأبعدوا الإخشيديين عنها. حدث ذلك على الرغم من موقف أهالي الشام المتشدد من الفاطميين وحكمهم. ولذلك قامت الحركات المناهضة ضد الفاطميين، وتمثلت بفئة الأحداث، وثورة أفتكين التركي، ومن ثم ثورة قسام التراب وغير ذلك. هذا إضافة إلى تحالف بعض الحركات مع القرامطة ضد الفاطميين في الشام. ومع ذلك فقد تمكن الفاطميون في نهاية خلافة العزيز بالله الفاطمي، ومن جاء بعده من جعل الدويلات الإسلامية التي كانت تحكم شمالي بلاد الشام أمثال الحمدانيين والمرداسيين والعقيليين من الدعوة للفاطميين، في أغلب فترات حكمهم.

ارتبط نفوذ الفاطميين في بلاد الشام بقوتهم العسكرية، ذلك لأن ضعف قوتهم العسكرية، كان يؤدي إلى قيام الأمراء المحليين بتوطيد استقلالهم الذاتي، كما فعل بنو الجراح في فلسطين، وبنو مرداس في حلب. وقد أثار هؤلاء الاضطرابات في وجه الفاطميين، وجعلوا حكمهم غير مستقر، مما أتاح الفرصة أمام السلاجقة ليظهروا على مسرح السياسة في بلاد الشام، ويقضوا على النفوذ الفاطمي فيها. ذلك لأن السلاجقة وجهوا اهتمامهم، بعد أن أستأثروا بالنفوذ في العراق، إلى استعادة ما فقدته الدولة العباسية من البلاد، وإعادة الدعوة العباسية في المناطق التي دعت للفاطميين. فقد تمكن اتسز التركماني من الاستيلاء على بلاد الشام، وكان استيلاؤه على دمشق سنة (467هـ / 1074 - 1075م). كما حاول - كسلفه الحسن بن أحمد الأعصم - الاستيلاء على مصر، إلا أن اتسز فشل في سنة (469هـ / 1076م) أيضاً في تحقيق هدفه، وخسر ولاء عدد من مدن بلاد الشام، ثم ما لبث تتش بن ألب أرسلان السلجوقي أن قدم إلى بلاد الشام، وجعلها تابعة لسلطته، وتم له دخول دمشق سنة (471هـ / 1078م). وبذلك سيطر السلاجقة على معظم مدن الشام الداخلية، على حين أن

سواحل بلاد الشام بقيت خاضعة للفاطميين بسبب قوة أسطول الفاطميين، وضعف القوة البحرية عند السلاجقة.

ومما لاشك فيه أن الخلافة الفاطمية لم تكن في أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي في حالة تساعدها على استعادة مكانتها في بلاد الشام. فقد دب الضعف فيها بسبب المنازعات المذهبية من جهة، والسياسية من جهة أخرى، إضافة إلى المشاكل الاقتصادية.

- علاقات الفاطميين مع الحجاز :

أما عن العلاقات مع الحجاز، فيمكن القول بأن كلاً من الفاطميين والعباسيين كانوا مهتمين ببسط نفوذهم على الحجاز، ليكسبوا خلافتهم قوة أمام العالم الإسلامي، ويضعفوا من شأن الخلافة الأخرى، ذلك لأن من استطاع بسط نفوذه على الحرمين يكون أمير المؤمنين الفعلي. وقد ساعد هذا النزاع، العلويين في الحجاز من الفوز بالغنيمة، فاستقل أمراء الأشراف من بني الحسن فيها، واستقل السادة من بني الحسين في المدينة. وكان هؤلاء يدعون للفاطميين أحياناً، وللخلافة العباسية في بعض الفترات وذلك حسب الظروف والأحوال.

بدأ نفوذ الفاطميين في الحجاز، منذ أن دعا حسن بن جعفر الحسني على منابر مكة للمعز لدين الله الفاطمي سنة (358هـ / 969م)، وتبع ذلك إقامة الخطبة للمعز بالمدينة المنورة، وعمل المعز على تثبيت سلطته على هاتين المدينتين بالأموال التي صار يرسلها إليهما. وكانت هذه الخطبة تنقطع فيهما بين الحين والآخر للفاطميين، ويدعى للعباسيين، لأسباب متعددة. وفي خلافة المستنصر بالله الفاطمي انقطعت الخطبة للفاطميين في الحجاز، مما اضطر الخليفة المستنصر بالله الفاطمي إلى الاستعانة بعلي ابن محمد الصليحي داعيته باليمن سنة (955هـ / 1063م)، لإعادة نفوذ الفاطميين عليها، وللقضاء على الدعوة العباسية فيها.

تأثرت السيادة الفاطمية على مكة بالأحداث الداخلية التي أصابت مصر في عهد المستنصر بالله الفاطمي، وخاصة الأوضاع الاقتصادية، وانشغال الخلفاء الفاطميين بتوطيد سلطتهم في مصر، وازدياد نفوذ الوزراء، واستئثارهم بالسلطة دون الخلفاء. ولكن انتماء أمراء مكة والمدينة إلى البيت العلوي، كان له أثر كبير في حرص هؤلاء الأمراء على التقرب من الخلفاء الفاطميين، واكتساب رضاهم، طالما كان الفاطميون يتمكنون من مدهم بالأموال اللازمة لتثبيت سلطتهم. وكثيراً ما حدث هذا على الرغم من الجهود التي كان يبذلها الخلفاء العباسيون لاستمالتهم إليهم، وصرفهم عن الخلافة الفاطمية في مصر.

- علاقة الفاطميين مع البحرين :

كانت علاقة البحرين وحكامها مع الخلافة الفاطمية سلمية في بداية الأمر، وكان القرامطة والفاطميون متحدين. فقد كان القرامطة دعاة للفاطميين ويدينون بمذهبهم. وقد ترتب على اتحادهم هذا وقوف القرامطة حكام البحرين موقفاً عدائياً إزاء العباسيين. وقام القرامطة بالتعاون مع الفاطميين كلما أرسلوا حملة لإخضاع مصر لسلطتهم، وذلك بإرسال جيوشهم إلى العراق لقتال جيوش الخلافة العباسية وإشغالها في العراق، وفسح المجال أمام الفاطميين لتحقيق غايتهم في ضمّ مصر. وقد تم ذلك منذ عهد الخليفة عبد الله المهدي (297 - 322هـ / 909 - 934م).

كان الفاطميون يتدخلون في تعيين أمراء القرامطة في البحرين، وأوامرهم نافذة عليهم. ولكن

المصالح السياسية قلبت هذه العلاقات رأساً على عقب. فمنذ استولى الجيش الفاطمي على دمشق، وانقطعت عن القرامطة الأتاوة التي كانوا يحصلون عليها من بلاد الشام في عهد الإخشيديين، ساءت العلاقة بين الطرفين، وطالب أمير القرامطة الحسن بن أحمد بن أبي سعيد القرمطي الملقب بالأعصم - الذي اتبع مع الفاطميين سياسة جديدة، تخالف سياسة من سبقه من أمراء القرامطة - الفاطميين الذين ضموا بلاد الشام إليهم، بالأتاوة التي كان الإخشيديون يدفعونها لهم. ولما رفض الفاطميون ذلك، قرر الحسن الأعصم الوقوف منهم موقف العداء، وقتالهم وإجلاءهم عن بلاد الشام بالقوة، فوقع العداء السافر بين الطرفين، وانقلبت الموازين. فبعد أن كان القرامطة حلفاء الفاطميين التقليديين، تحالفوا مع البويهيين الذين كانوا يستأثرون بالسلطة في بغداد، وحصلوا على السلاح والمال من طرفهم للوقوف في وجه الفاطميين، وكذلك تمكنوا من الحصول على معونات مالية من الحمدانيين في الموصل، ولكل طرف غايته من هذه المساعدة.

هذا وقد تمكنت هذه القوى المتحالفة من هزيمة جعفر بن فلاح قائد الفاطميين في بلاد الشام في ناحية الدكة على مقربة من دمشق. واستولى القرامطة على دمشق، وأخرجوا الفاطميين منها، وذلك سنة (360هـ / 970م)، وتابعوا انتصاراتهم في بقية أنحاء بلاد الشام، حيث أعادوا بذلك الدعوة للخليفة العباسي في مساجد دمشق، وأسقطوا الدعوة للخليفة الفاطمي. وجّه القرامطة بعد ذلك جيوشهم إلى مصر سنة (361هـ / 971م)، فوقف قائد الفاطميين جوهر الصقلي في وجههم، وهزم القرامطة شر هزيمة. وتبع انتصار الفاطميين أمام أبواب القاهرة استعادة سيطرتهم على دمشق.

وما لبث الحسن الأعصم أن أعاد الكرة ثانية، فدخل دمشق، وتابع طريقه لحصار القاهرة سنة (363هـ / 974م) بعد أن دعم قوته بالتحالف مع بعض القبائل العربية في الشام أمثال قبيلة طيء بقيادة حسان بن الجراح. ولكنه ما لبث أن انهزم ثانية أمام أبواب القاهرة .

لم ييأس الحسن الأعصم من هزيمة الفاطميين، إذ ما لبث أن وجد حليفاً له في افتكين التركي، فانضم إليه وعملا متضامنين على الوقوف في وجه الخلافة الفاطمية. ولقوة هذا التحالف الجديد، وتمكنه من استعادة بلاد الشام، وإخراجها عن طاعة الفاطميين، اضطر الخليفة العزيز بالله إلى الخروج بنفسه لقتال المتحالفين، فتمكن من هزيمتهم.

وبعد أن استعاد الفاطميون بلاد الشام، بدؤوا يعملون على إضعاف شأن القرامطة بإثارة النزاع بينهم. وقد استمر ذلك طيلة حكم الحسن الأعصم. وبعد وفاته عاد القرامطة إلى سياستهم الودية مع الفاطميين، وقادوا الحملات ضد العباسيين لصالح الفاطميين.

- علاقة الفاطميين مع اليمن وعمان:

بدأت علاقات الفاطميين مع اليمن منذ منتصف القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي على يد دعاتهم. وبعد وفاتهم بقي للدعوة الفاطمية في بلاد اليمن أنصار كثيرون، ولكن المنافسة بين خلفاء الدعاة الأوائل، على رئاسة الدعوة، وخروج بعضهم على الفاطميين أدى إلى انقسامها، ومع ذلك فقد بقي منهم بقية بايعوا للخليفة المعز لدين الله الفاطمي حين ضم مصر إلى دولته. كما انضم أمراء بني يعفر في اليمن للفاطميين، ودعوا للخليفة العزيز بالله، واستمر الحال على ذلك حتى توفي المعز لدين الله سنة (386هـ / 996م).

استمرت الدعوة الفاطمية في اليمن نشطة في خلافة الحاكم بأمر الله (386 - 411هـ / 996 - 1020م)، والظاهر لإعزاز دين الله (411 - 427هـ / 1020 - 1035م)، وأوائل خلافة المستنصر بالله (427 - 487هـ / 1035 - 1094م)، حيث ظهر علي بن محمد الصليحي - الذي نشأ فقيهاً صالحاً وعظمت شهرته، وذاع صيته بين الناس - فقام بنشر الدعوة الفاطمية في جميع أرجاء اليمن، وتمكن من ضم زبيد إلى حوزته. وكتب إلى المستنصر بالله الفاطمي سنة (453هـ / 1061م)، يستأذنه في إظهار دعوته، فأيده المستنصر، وتمكن بهذا التأييد من بسط سلطانه على بلاد اليمن، واتخذ صنعاء مقراً له، فعادت للدعوة الإسماعيلية مكانتها في البلاد.

كان الصليحي يحكم اليمن على أنه نائب عن الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، وتوثقت الصلة بينهما، ووثق المستنصر بالله بالصليحي، فعهد إليه بإقرار الأمور في مكة، وأنعم عليه بلقب عمدة الخلافة. وحين توفي سنة (459هـ / 1067م)، تولى بعده ابنه المكرم أحمد، الذي اضطر إلى قتال سعيد الأحول بن نجاح، فاستولى على زبيد حتى استعادها. وأشرك معه زوجته السيدة الحرة بنت أحمد بن محمد في حكم اليمن، وعهد إليها بالقيام بأمر الدعوة، وانصرف لحياته، فأولاها الخليفة ثقته لإخلاصها.

توفي المكرم فحكمت السيدة الحرة البلاد نيابة عن ابنها عبد المستنصر، فواجهت منافسة داعي الفاطميين سبأ بن أحمد، ولما لم يجد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله وسيلة للإصلاح بينهما، اقترح زواج السيدة الحرة من سبأ بن أحمد، فقبلت تنفيذاً لأوامر المستنصر ، التي كانت نافذة حتى في المسائل الخاصة. وكانت السيدة الحرة مخلصة في ولائها، على الرغم من الضعف الذي أصاب الخليفة الفاطمي وتقلص نفوذه.

وأيد الفاطميون خلافة المستعلي (487 - 495هـ / 1094 - 1101م)، على الرغم من الخلاف حول هذه الخلافة بين المستعلية والنزارية، فلم يتأثر دعاة الإسماعيلية في بلاد اليمن بهذا النزاع في مصر حول الخلافة. ولم تلق فرقة النزارية التي اتخذت من بلاد المشرق مركزاً لها بزعامة الحسن الصباح مكاناً لها في اليمن. ولا شك أن تأييد السيدة الحرة للمستعلي ساعد على عدم دخول النزارية إلى اليمن.

دعمت الخلافة الفاطمية السيدة الحرة ضد الثورات التي نشبت ضدها، مما ساعد على احتفاظ الفاطميين بسيادتهم على بلاد اليمن. كما كلّفت السيدة الحرة بتنظيم الدعوة الإسماعيلية في الهند وعمان، وتعيين دعاة من قبلها لنشر الدعوة في هذه البلاد .

لم تعترف السيدة الحرة بوصول الخليفة الحافظ لعرش الخلافة، بل دعمت ولي عهد الآمر المعروف بالطيب. وأخذت تدعم الدعوة الطيبية في اليمن، والحجاز. وأمام محاولات الحافظ لنشر دعوته فيها، انقسم الولاء في اليمن للفاطميين بين الطيبية والحافظية.

ضعفت الدعوة الطيبية في اليمن بوفاة السيدة الحرة سنة (532هـ / 1138م)، ذلك لأنه لم يخلف هذه السيدة من بين الصليحيين شخصية قوية، فتطلع آل زريع إلى بسط سلطانهم على قلاع الصليحيين، وما لبث آل زريع أن ضعفوا على الرغم من ولائهم للفاطميين حتى سنة (560هـ / 1165م).

زال نفوذ الفاطميين من اليمن بعد أن استطاع صلاح الدين الأيوبي بسط سلطانه عليها، سنة (569هـ / 1173 - 1174م)، على يد أخيه شمس الدولة توران شاه، وانتقلت بذلك السيادة على اليمن إلى الأيوبيين.

- علاقات الفاطميين مع الأندلس :

حاول الفاطميون بسط نفوذهم على الأندلس منذ الفترة الأولى، فقد بعث الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي (297-322هـ / 909-934م) بدعاته إلى الأندلس لنشر الدعوة الفاطمية فيها، لكن جهوده لم تكلل بالنجاح، بسبب موقف الأمويين بالأندلس من انتشار هذه الدعوة، والوقوف في وجهها. وكان من أشد المناهضين لانتشار الدعوة الفاطمية في الأندلس الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر (300-350هـ / 912-961م) الذي أخذ بإعداد قوة بحرية بلغ عدد قطعها مئتي مركب. هذا إضافة إلى أنه حاول تأليب بعض قبائل المغرب على الفاطميين، وإيجاد محط قدم له في المغرب باستيلائه على مدينة سبتة.

قوي العداء بين الدولة الفاطمية والأموية في الأندلس في خلافة المعز لدين الله، ونشبت صدامات بحرية بينهما، ومع ذلك فقد حاول الخليفة الأموي الناصر الموادعة والصلح مراراً، ولكن المعز الفاطمي أعرض عن ذلك، فجهز الناصر جيشاً إلى المغرب أوقع الهزيمة بالفاطميين، فقام الفاطميون بهجوم مضاد، تمكنوا عن طريقه من استرداد معظم المدن التي استولى عليها الخليفة الناصر، عدا سبتة، وطنجة. وأعيدت الكرة في عهد الحَكَم المستنصر الأموي (350-366هـ / 961-976م). ولم يتوقف العداء بين الطرفين حتى وفاة الخليفة المعز لدين الله الفاطمي سنة (365هـ/976م)، ولم يشوه هذا الهدوء الذي ساد بينهما إلا ثورة أبي ركوة - من ذرية هشام بن عبد الملك بن مروان - الذي دعا لخلافة عمه هشام المؤيد الأموي (366-399هـ / 976-1009م) بالأندلس، وثار على الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي حتى تمكن هذا الخليفة من القضاء عليه سنة (396هـ / 1006م).

بعد أن تم للفاطميين ضم مصر إلى أملاكهم، وانتقل الخليفة الفاطمي المعز لدين الله إليها، عهد بولاية المغرب إلى بلكين بن زيري ابن مناد الصنهاجي (361-373هـ / 971 - 983م)، وذلك منذ سنة (361هـ / 971م)، فأحسن بلكين معاملة أهالي البلاد، وبقي مطيعاً للفاطميين. ولما خلفه ابنه الفتح المنصور (373-386هـ / 983-996م)، عمل على الاستقلال عن الفاطميين، فانتقم الخليفة العزيز بالله منه بإثارة قبائل كتامة على أمراء بني زيري، ثم ما لبث أن غير سياسته، وآثر سياسة التودد إلى الفتح المنصور.

لم تستمر هذه السياسة في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، الذي شعر بأن نصير الدولة باديس (386-406هـ / 996-1015م) يعمل على الاستقلال عن الفاطميين، فحاول الوقوف في وجههم، لكنه ما لبث أن آثر سياسة أبيه بالتودد لهم.

استمر نفوذ الفاطميين في إفريقية، حتى تولى المعز بن باديس الصنهاجي (406-453هـ / 1015-1061م) الحكم في المنطقة، فانحرف عن مذهب الفاطميين، وحمل جميع أهل المغرب على التمسك بمذهب الإمام مالك، ثم ما لبث أن أعلن سنة (440هـ / 1048م) خروجه عن طاعة الخليفة المستنصر بالله، وحذف اسمه من الخطبة والسكة والطرز، وخطب للخليفة العباسي القائم بأمر الله.

أراد الخليفة الفاطمي المستنصر لدين الله، أن ينتقم مما فعله المعز بن باديس، فاستعان بقبائل بني هلال الذين كانوا في صعيد مصر - وكانوا يسببون الكثير من المشاكل بسبب الخلافات فيما بينهم - في محاربة بني زيري، فالتقوا بجيوش المعز بن باديس في (ذي الحجة سنة 443هـ / نيسان أبريل 1052م)

وهزموه بفضل تعاون العرب الذين كانوا مع المعز بن باديس معهم. وتمكن بنو هلال من دخول القيروان وعاثوا فيها فساداً، وخربوا عمرانها، ونقل بنو زيري حكمهم إلى المهدية. وظلت الخطبة تقام في المغرب للعباسيين، حتى قيام دولة الموحدين، وكان خروج المغرب عن طاعة الفاطميين بسبب ما عانته الخلافة الفاطمية من الصعاب، فلم يعد بإمكانها الاحتفاظ بسيادتها على بلاد المغرب.

- علاقات الفاطميين مع صقلية :

تبعت جزيرة صقلية للفاطميين بعد تأسيس دولتهم في المغرب مباشرة. وكان الأغالبة قد تمكنوا من جعل الجزيرة تحت حكمهم منذ أن تم فتحها على يد أسد بن الفرات فيما بين سنتي (212-214هـ / 827-829م).

لم تستقر أحوال صقلية منذ خضوعها للفاطميين، فكثيراً ما كانت المنازعات تقع بين سكانها من المسلمين، فيعملون على عزل ولاتهم، وتعيين آخرين. ومع ذلك فقد كانت هذه الجزيرة ذات أهمية بالنسبة للفاطميين، فقد جعلوها قاعدة لأسطولهم في البحر الأبيض المتوسط، ولصد الحملات التي كان البيزنطيون يوجهونها نحو شمال إفريقيا.

حدثت في جزيرة صقلية بعض التجاوزات، وجرى خلاف بين الحسن الكلبي والي الجزيرة للفاطميين وأهالي الجزيرة، أدى إلى استنجاد مسيحيي صقلية بالإمبراطور قسطنطين السابع، الذي أسرع بجيوشه لنجدتهم، واشتبكت جيوشه مع جيوش الحسن الكلبي، الذي تمكن من هزيمة البيزنطيين، مما دفع بالإمبراطور قسطنطين إلى طلب الصلح.

لم تنعم جزيرة صقلية بالاستقرار من جراء تهديد البيزنطيين لها في عهد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله (341-365هـ / 952-975م) وذلك بسبب موقف الإمبراطور البيزنطي نقفور فوكاس (352-359هـ / 963-969م)، ومحاولاته الاستيلاء على الجزيرة. ومع ذلك فقد استمرت الحروب سجالاً بين الطرفين، على الرغم من الأعداد الكبيرة للجيوش البيزنطية التي كانت تهاجم الجزيرة. وقد تمكن الفاطميون في عهده من تحقيق النصر على البيزنطيين مرتين، وذلك في معركتي رمطة والمجاز.

دفعت الظروف العامة ورغبة الإمبراطور أوتو الأكبر في توحيد إيطاليا، والقضاء على النفوذ البيزنطي والفاطمي فيها، إلى أن يعمد الإمبراطور البيزنطي نقفور فوكاس إلى محالفة الخليفة المعز لدين الله الفاطمي، ليحتفظ بالبقية الباقية من أملاكه في إيطاليا.

وقد أفاد هذا الاتفاق الخليفة الفاطمي المعز لدين الله، فلم يعد يخشى خطر الغارات البيزنطية على بلاده في المغرب، في الوقت الذي بعث فيه بجيشه لضم مصر إلى أملاكه سنة (358هـ / 969م)، ومن ثم إلى بلاد الشام. كما عمل على تنظيم حكمه في جزيرة صقلية وتقويته، وأقصى الأسرة الكلبية عن حكمها حتى لا يكونوا مصدر قلق له، خشية استقلالهم بها، وبرر عمله هذا بأنه يريد اصطحاب رجال هذه الأسرة معه إلى القاهرة. ولكن أمور الجزيرة لم تستقر بعد زوال حكم الكلبيين منها، مما أدى بالمعز إلى إعادتهم ثانية إلى الحكم.

بدأ نفوذ الفاطميين في الضعف في جزيرة صقلية تدريجياً بعد وفاة الخليفة المعز لدين الله، وقد يكون ذلك بسبب سياسة الإمبراطور البيزنطي يوحنا تزيمكس (359-366هـ / 969-976م)، الذي أراد أن يتحالف مع أوتو الأول لإلحاق الهزيمة بالفاطميين، الذين استولوا على مصر والشام.

واقتصرت علاقات البيزنطيين مع جزيرة صقلية منذ نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي على إرسال الولاة إلى الجزيرة لإدارة شؤونها. وحدث انقسام في صفوف المسلمين فيها بعد ذلك، مما شجع البيزنطيين على غزوها في عهد الإمبراطور ميخائيل الرابع (426-433هـ / 1034-1041م)، الذي أنفذ إليها حملتين، كانت الأولى سنة (429هـ / 1037م)، ولكنها لم تحرز نجاحاً، وكانت الثانية سنة (430هـ / 1038م)، التي استطاعت أن تستولي على مسينا، ومعظم البلاد الواقعة على الساحل الشرقي للجزيرة. وبقيت مدن الجزيرة تتداولها أيدي البيزنطيين والفاطميين، مما أضعف الطرفين، ومهد السبيل أمام النرمانديين لغزوها على يد روجر بن تنكرد النورماندي، والاستيلاء على جميع أرجائها سنة (484هـ / 1091م). وبذلك فقد الفاطميون هذه الجزيرة الهامة في موقعها، وأفقدهم ذلك ما كان لهم من نفوذ في البحر الأبيض المتوسط .

عمد الفاطميون أثناء تبعية جزيرة صقلية لسلطتهم إلى القيام بالعديد من الإصلاحات فيها، ونشروا ألوية العدل، واهتموا بحفر الترع وتنمية الزراعة، فزادت ثروة سكانها، وعمت فيها الخيرات، وافتنّ أهلها بضروب الترف والنعيم. كما ساد التسامح الديني فيها بين المسلمين والنصارى، وتمتع كل منهم بحريته الدينية، والقيام بشعائر عقيدته، ولم يرهق الفاطميون أهل الذمة بأخذ ضرائب ثقيلة منهم، بل اكتفوا بأخذ جزية بسيطة مقدارها ديناران سنوياً من أغنيائهم فقط، ودينار واحد من أصحاب الحرف والصناعات، وذلك مقابل حمايتهم، وإعفائهم من الخدمة العسكرية. وقد قدر النصارى للمسلمين ذلك، وأحبوا التشبه بهم في لباسهم وحشمتهم، فقد تشبهت نساء النصارى بنساء المسلمين، فانتقبن النقب الملونة، وانتعلن الأخفاف المذهبة، ولبسن الحرير الموشى بالذهب، وتزيّنَّ بكل ما تتزين به المسلمات .

2 - علاقات الفاطميين العدائية مع الدول غير الإسلامية :

كان للدولة الفاطمية علاقات مع دول متعددة غير إسلامية، مثل مدن إيطاليا التجارية، ولكن علاقات هذه المدن مع الفاطميين غلب عليها الطابع السلمي التجاري، كما كانت لها علاقات سلمية وعدائية عسكرية مع الإمبراطورية البيزنطية، إضافة إلى علاقاتها مع الصليبيين الذين قدموا في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي إلى بلاد الشام، وتمكنوا من احتلال مدينة بيت المقدس، وسواحل بلاد الشام، التي كانت تحكم من قبل الفاطميين. كما عمدوا إلى القيام بحملات عسكرية على مصر بغية احتلالها ففشلوا، وسنتابع العلاقات العدائية العسكرية التي سادت بين الفاطميين، وبين هذه الأطراف .

(أ) العلاقات بين الدولة الفاطمية والإمبراطورية البيزنطية :

حرص الفاطميون - منذ أن كانت دولتهم مقتصرة على بلاد المغرب - على الاستيلاء على بعض القواعد البحرية الهامة لتثبيت سيادتهم على البحار. وقد أدى ذلك إلى اصطدامهم بالبيزنطيين على الرغم من انشغال بيزنطة - في ذلك الوقت - بقتال البلغار، ولذلك فإنها عمدت إلى مهادنة الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي (297-322هـ / 909-934م)، ودفعت له جزية سنوية مقدارها اثنان وعشرون ألف قطعة من الذهب. وعلى الرغم من هذه المعاهدة، فقد استمرت الحملات العسكرية بين

الطرفين، التي أسفرت عن نجاح الأسطول الفاطمي في الاستيلاء على بعض المواقع في قلورية، وعلى جزيرة سردانية، وجزيرة كورسيكا، فضم الفاطميون بذلك إلى دولتهم جزراً وسواحل لها قيمتها الكبيرة.

ومع ما حققته الدولة الفاطمية من النجاح في البحر الأبيض المتوسط، فإن شغلها الشاغل كان في التوسع باتجاه الشرق، وضم مصر والشام إلى أملاكها، ليكون ذلك فاتحة للقضاء على الخلافة العباسية، وتوحيد العالم الإسلامي تحت سلطتها، فتمكنت من ضم مصر إلى أملاكها سنة (358هـ / 969م)، ثم تبع ذلك استيلاؤها على وسط وجنوبي بلاد الشام سنة (359هـ / 970م). فانتقلت بذلك المواجهة بين الفاطميين والبيزنطيين إلى منطقة الحدود الجديدة، أي إلى شمالي بلاد الشام.

قلق البيزنطيون من ازدياد نفوذ الفاطميين في بلاد الشام، وشعروا أن حدودهم أصبحت مهددة من قبل الفاطميين. فقد سبق للبيزنطيين أن وقعوا في صدام مع القوات الفاطمية في صقلية، وخبروا ما لها من بأس ومهارة في القتال، فكان ظهور الفاطميين على مسرح الأحداث في الشام في هذه الفترة، ينذر بتهديد المصالح البيزنطية.

وكان البيزنطيون قد احتلوا أنطاكية، واتخذوها قاعدة لانطلاقهم داخل الأراضي الشامية. وأراد الفاطميون استعادة ما كان البيزنطيون قد احتلوه من مناطق في بلاد الشام، فعمدوا إلى اتخاذ دمشق قاعدة يوجهون منها ضرباتهم إلى البيزنطيين، لاستعادة المناطق التي احتلها البيزنطيون، ولتظهر الخلافة الفاطمية بمظهر حامية الإسلام وبلادهم، من دون الخلافة العباسية. ولذلك فإنهم حاولوا استرداد أنطاكية، ولكنها استعصت عليهم، وباءت جهودهم بالفشل. ويعود السبب في ذلك إلى أن البيزنطيين لم يكونوا راغبين في أن تصبح دولة قوية كالدولة الفاطمية على حدودهم، تقوم لهم مقام الند. وحرصوا كل الحرص على أن لا تقع أنطاكية في أيديهم، وكذلك غيرها من مدن شمالي الشام كحلب، وسارعوا إلى نجدة حلب كلما تطلع الفاطميون إلى الاستيلاء عليها.

كما واجه الفاطميون الكثير من المتاعب من أهالي بلاد الشام، والثائرين فيها، ولذلك فإن البيزنطيين استغلوا هذه المشاكل التي تعرض لها الفاطميون، فتقدم إمبراطورهم يوحنا تزيمكس سنة (366هـ / 975م) إلى بلاد الشام، فوصل إلى حمص، ومنها إلى بعلبك، وحاصر دمشق، فدفع له أهالي المدينة جزية مقابل عدم دخولها. وتمكن من دخول بيروت، وصيدا، وسلمت له طبرية وقيسارية، ثم ترك هذه المدن، وقفل عائداً إلى بلاده. وظل النزاع قائماً بين البيزنطيين والفاطميين حتى سنة (377هـ / 987م)، حينَ عقدت معاهدة بين الخليفة الفاطمي العزيز بالله، والإمبراطور البيزنطي بازيل الثاني.

لم يلتزم الفاطميون بهذه المعاهدة لأسباب متعددة، وهاجموا حلب في ولاية سعد الدولةِ الحمداني (356 - 381هـ / 967 - 991م) فاستنجد الحمدانيون ببازيل الثاني، فوقعت الحرب بين الفاطميين والبيزنطيين على ضفاف نهر العاصي، ولحقت الهزيمة بالفاطميين سنة (381هـ / 991م)، وعاد قائد الفاطميين إلى دمشق. ومن المهم أن نذكر هنا ما اقترنت به غارات البيزنطيين على بلاد الشام من النهب، والإجهاز على الأسرى، وتدمير المزروعات حتى خلت البلاد من سكانها، وانتشرت المجاعات بينهم.

لم يقبل الفاطميون بهذا الفشل أمام أبواب حلب، لذلك أرسلوا جيوشهم لحصارها ثانية، فاستنجد الحمدانيون بالبيزنطيين - كما حدث في المرة السابقة - فدخل بازيل الثاني إلى بلاد الشام،

واستولى على حصن شيزر وحمص، ثم حاصر طرابلس، ثم قفل عائداً بعد أن أصبح له نفوذ في سواحل بلاد الشام. ولم يكتف بازيل الثاني بما حققه في هذه الجولة، بل عاد ثانية إلى بلاد الشام سنة (385هـ / 995م)، بعد أن بسط سلطانه على معظم سواحل بلاد الشام.

ظل البيزنطيون ينتهزون الفرص للنيل من الفاطميين، وقدموا إلى بلاد الشام ودخلوها سنة 388هـ / 998م، فاضطر الفاطميون لقتالهم وطاردوهم حتى أبواب أنطاكية. وقد ساعدت الظروف المضطربة في كل من الدولتين على عقد هدنة بينهما.

وهكذا فإن بلاد الشام أصبحت مركزاً للصراع بين الفاطميين والبيزنطيين، فقد عمل الخليفة الحاكم بأمر الله (386-411هـ / 996-1020م) على منع البيزنطيين من التقدم جنوباً في بلاد الشام، وأعد لذلك حملتين انتصرت إحداها على البيزنطيين بحراً بالقرب سواحل فلسطين، وانتصرت الأخرى براً بالقرب من أفامية.

ولما علم الإمبراطور البيزنطي بما حل بجيوشه من الهزيمة، أرسل رسولاً من قبله لمفاوضة الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، وعقدت بينهما معاهدة مدتها عشر سنوات. وقد أثرت هذه المعاهدة على سياسة الخليفة الحاكم العدائية إزاء النصارى. ولما توفي الحاكم بأمر الله وخلفه الخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله (411 - 427هـ / 1020 - 1035م)، حاولت عمته ست الملك تحسين العلاقات مع البيزنطيين وتوطيدها، وحاولت إجراء مفاوضات معهم، ولكن المفاوضات لم تأت بنتيجة، وظلت غارات البيزنطيين تتوالى على شمال الشام حتى سنة (418هـ/1027م)، ثم دفعت ظروف الطرفين إلى عقد هدنة بينهما في نفس السنة، وكانت بين قسطنطين الثامن، والظاهر لإعزاز دين الله .

وعلى الرغم من عقد هذه المعاهدة بين البيزنطيين والفاطميين، فإن البيزنطيين استغلوا فرصة خروج القبائل العربية في بلاد الشام على الخلافة الفاطمية، وهروب حسان بن الجراح والتجاءه إليهم بعد هزيمته أمام طبرية، فدخلوا إلى بلاد الشام، وأغاروا على أفامية سنة (422هـ / 1030-1031م)، واستولوا على قلعتها، وأسروا كثيراً من أهلها.

تحسنت العلاقات بين الدولة الفاطمية والإمبراطورية البيزنطية بعد تولّي الخليفة المستنصر بالله عرش الخلافة، وعقدت معاهدة بينه وبين الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الرابع (425 - 432هـ / 1034-1041م). وتم اتفاق آخر بين الإمبراطور قسطنطين التاسع (434-446هـ / 1042 - 1054م)، والخليفة الفاطمي المستنصر بالله سنة (446هـ / 1054م)، وكان من شروطه أن يمد قسطنطين التاسع مصر بالغلال والأقوات، ولكن قسطنطين التاسع توفي قبل تنفيذ الاتفاق، وخلفته الإمبراطورة تيودورا (446-448هـ / 1054 - 1056م) التي رفضت تقديم القمح، إلا إذا تعهد الخليفة الفاطمي بمساعدتها إذا اعتدى على بلادها معتدٍ .

أدت شروط تيودورا لتقديم المعونة، إلى قيام علاقات عدائية جديدة، إذ أرسل المستنصر بالله الفاطمي حملة إلى أفامية وصلت إلى أنطاكية، لكن الهزيمة حلت بجنده سنة (447هـ / 1055م). وحاول الخليفة المستنصر بالله إرسال رسول من قبله إلى الإمبراطورة ولكنها لم تحفل به ، على حين أنها احتفلت برسول السلاجقة، وذلك لشعورها بقوتهم وضعف الفاطميين.

ومع هذا الموقف العدائي الذي بدر من

البيزنطيين تجاه الفاطميين، فإن المراسلات والمكاتبات ظلت تتردد بين الطرفين، حتى تم الاتفاق بينهما، على أن يدفع البيزنطيون جزية سنوية للفاطميين - وذلك بسبب قوة موقف وزير الفاطميين اليازوري [الحسن بن علي بن عبد الرحمن الناصر للدين] - قدرها نيّفٌ وثلاثون ألف دينار. ولكن موت الوزير اليازوري، جعلهم يتوقفون عن دفعها، وساعدهم على ذلك الضعف الذي بدأ يدب في جسد الدولة الفاطمية منذئذٍ بسبب سوء الأوضاع الاقتصادية، وكثرة الفتن.

ظل الحال العدائي قائماً بين الفاطميين والبيزنطيين، حتى كانت الحملات الصليبية، حيث أخذ البيزنطيون يشنون حملات عسكرية متعاونين مع الصليبيين. فقد أعد الإمبراطور البيزنطي مانويل كومينين أسطولاً كبيراً، غادر الدردنيل باتجاه سواحل فلسطين لمساعدة ملك بيت المقدس الصليبي عموري (آموري)، واتفق الطرفان على غزو مصر براً وبحراً عن طريق دمياط، فأقلع الأسطول البيزنطي إلى دمياط بحراً، في حين زحف الصليبيون براً باتجاهها في (صفر565 هـ / تشرين الأول أكتوبر 1169م)، وتمكن الصليبيون من إقامة معسكرهم أمام دمياط، ولم يتمكن الأسطول البيزنطي من دخول ميناء دمياط، على حين استطاع صلاح الدين الأيوبي، وزير الفاطميين في ذلك الوقت، صدَّ هذه الحملة بعد حصار لدمياط دام خمسين يوماً.

(ب) علاقات الدولة الفاطمية مع الصليبيين :

لم يدرك الفاطميون في بداية الأمر طبيعة الحملات الصليبية، وظنوا أنها أشبه بالحروب التي كان يشنها البيزنطيون من حين إلى آخر، وشغلتهم الخلافات الداخلية التي كانت تذر قرنها بين جميع حكام العالم الإسلامي، فوجد الصليبيون الفرصة سانحة أمامهم، وتمكنوا من تحقيق أهدافهم. ولم تبدأ صحوة المسلمين إلا بعد أن وطد الصليبيون أقدامهم في سواحل بلاد الشام وشماله.

كانت الدولة الفاطمية فترة وصول الحملة الصليبية الأولى في أوضاع اقتصادية سيئة، وكانت عوامل الفساد قد نخرت في جسدها، وضاعت منها معظم أملاكها في بلاد الشام على يد السلاجقة الذين ناصبوها العداء، إضافة إلى حدوث خلاف مذهبي فيها.

دفعت هذه الأوضاع بالوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي إلى إرسال سفارة إلى الصليبيين الذين كانوا يحاصرون أنطاكية، يدعوهم إلى المفاوضة، واقترح عليهم اقتسام بلاد الشام بينهم، على أن يكون شماله للصليبيين، وجنوبه للفاطميين بما فيه بيت المقدس. وقد استقبل الصليبيون هذه السفارة بالتكريم، ولم يدخلوا معها في أية مفاوضات حاسمة. وظن الأفضل بعدها أن بإمكانه تنفيذ اقتراحه، فخرج إلى بلاد الشام، مستغلاً سوء الأوضاع السياسية والعسكرية، واستيلاء الصليبيين على الرها، وحصار أنطاكية، فاستولى على بيت المقدس من السلاجقة في رمضان (491هـ / 1098م).

وما لبث الصليبيون المحاصرون لأنطاكية أن دخلوها في نفس السنة، على الرغم من استبسال حماتها في الدفاع عنها . وقد مكن الصليبيين من ذلك ضعف دويلات السلاجقة التي منها سلاجقة حلب - وأنطاكية تابعة لهم - وعدم إرسالهم جيوشاً للدفاع عنها، وحمايتها في الوقت المناسب، وبسبب تفكك العالم الإسلامي، والخلاف بين السلاجقة والفاطميين.

وبعد أن دخل الصليبيون إلى أنطاكية عملوا على قتل السكان، والنهب والسلب. وقد قدر المؤرخون عدد المسلمين الذي ذبحهم الصليبيون في

أنطاكية بعشرة آلاف نفس. ولقد كان لسقوط أنطاكية وقع كبير في نفوس المسلمين لأهمية المدينة ومكانتها عندهم.

بعد أن حقق الصليبيون أهدافهم في شمال بلاد الشام، توجهوا لاحتلال بيت المقدس، ومدن سواحل بلاد الشام ودواخلها. واتخذ الصليبيون طريقهم باتجاه سواحل بلاد الشام، مبتعدين عن المدن الداخلية الكبرى، مثل حلب ودمشق خوفاً من فشلهم، فعبروا إقليم العاصي، ومنه إلى سهل البقاع. فسقطت في أيديهم العديد من المدن الساحلية التي كانت تحت سلطة الفاطميين، وذلك لأن الفاطميين لم يتخذوا احتياطاتهم، ولم يعملوا على تقوية حامياتهم فيها.

وما لبث الصليبيون أن استولوا على بيت المقدس، ذلك لأن واليها الفاطمي اعتمد في الدفاع عنها على حاميتها، ولم تصل إليه إمدادات من الفاطميين. وكان دخول الصليبيين إليها في (23 شعبان 492هـ / 14 تموز يوليو 1099م)، فاقتحموا المسجد، وأحدثوا بداخله مذبحة وحشية رهيبة. كان لسقوط بيت المقدس، وقتل سبعين ألفاً من المسلمين صداه القوي في العالم الإسلامي، إذ كان من بين الذين استشهدوا جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم. وأدرك الفاطميون وكافة المسلمين متأخرين مدى الخطر الذي يهددهم من الحركة الصليبية، فحملوا لواء الجهاد ضدهم .

وأخذ الفاطميون يرسلون جيوشهم لقتال الصليبيين والوقوف في وجههم، وكثيراً ما خرجت جيوشهم إلى مدينة عسقلان من أجل ذلك. ولكن الصليبيين كانوا يبادرونهم إليها، ويهاجمونها بغتة وهم فيها، فتحل بهم الهزيمة. وتكررت محاولات الفاطميين لقتال الصليبيين واستعادة الأماكن التي احتلوها، ووصلت بعض جيوشهم إلى اللد والرملة ويازور من فلسطين، وهاجمت يافا، كما أنهم تعاونوا في سنة (499هـ / 1105م) مع السلاجقة لقتال الصليبيين. وعلى الرغم من ذلك فقد كانت حصيلة الحروب بين الفاطميين والصليبيين في الفترة بين (493-499هـ / 1099-1105م) توسع الصليبيين، واحتلال أرسوف، وقيسارية، وعكا، واتبعوها بعد ذلك باحتلال بيروت وصيدا، حتى إنه لم يبق من معاقل الساحل الشامي في يد الفاطميين سوى عسقلان، وصور، وطرابلس.

ثم تابع الصليبيون احتلال مدن سواحل بلاد الشام بعد أن وصلتهم إمدادات من الغرب الأوربي لتأمين طريق الحجاج، وتنشيط التجارة بين المناطق التي احتلها الصليبيون والغرب الأوربي، فاحتلوا بعض مدن فلسطين الداخلية كطبرية، وبيسان، والناصرة، ونابلس، على حين أبقوا القرى والمزارع المحيطة بتلك المدن في يد أصحابها العرب، نظراً لقلة عدد فرسان الصليبيين.

كانت حروب الفاطميين مع الصليبيين بقيادة وزيرهم الأفضل أشبه باستعراض عسكري، يعرض فيه الأفضل كل ما لديه من عناصر عسكرية وسلاح، دون أن يضع الخطط اللازمة من جهة، ودون أن يدرس المنطقة التي يجب أن يعسكر بها، أو تلك التي يقاتل بها أعداءه، ودون أن يستعلم خبر أعدائه عن طريق عيونه وجواسيسه، أو أهالي المنطقة من العرب، أو حتى أن يعمل على كتمان أخبار حملته، أو التضليل حولها، وهذا أقل الواجبات المترتبة عليه في هذه الفترة. وفوق هذا وذاك فإنه لم يكن يستخدم عامل المباغتة الذي استخدمه الصليبيون مرات متعددة في وجه الفاطميين فنجحوا. وزاد الطين بلة أنه لم يكن هناك تنسيق بين أقسام الجيش المختلفة في غالب الأحيان، بل كثيراً ما كان جيش الفاطميين يعسكر في أماكن مكشوفة أحياناً، أو قريبة من مراكز

الصليبيين في أحيان أخرى، بانتظار إمدادات برية أو بحرية، فتصل الأخبار إلى العدو الذي يعمل على مباغتة الجيش الفاطمي الكبير. وفي أثناء ذهول الجنود ومحاولة الاستعداد للمواجهة يكون الصليبيون قد فرقوا شمل الجيش الفاطمي، فيولي عناصره هاربين من الساحة.

تمكن الصليبيون بعد ذلك من السيطرة على المناطق الجنوبية من فلسطين، وتخطوا نهر الأردن للاستيلاء على حصن الشوبك سنة (509هـ / 1115م)، وبنوا في العقبة (ايلة) قلعة حصينة للتحكم في الطريق البري للقوافل بين مصر والشام، وقلعة أخرى في جزيرة فرعون للإشراف على شبه جزيرة سيناء، وثالثة جنوب مدينة صور، وذلك لعزل الفاطميين عن العالم الإسلامي في الشرق، وقطع الطريق البري عنها، ولتهديد الحجاج المسلمين وهم في طريقهم للحج. واستطاعوا بذلك تمزيق أوصال العالم الإسلامي في المنطقة، والتحكم في المسالك المؤدية إلى الحجاز.

لم يكتف الصليبيون بما حققوه في بلاد الشام، إذ لم تكن مطامعهم تتوقف عند هذا الحد، فقد فكر أول ملوكهم غودفري باحتلال مصر، كما قام خلفه بلدوين الأول في سنة (510هـ / 1116م) بحملة استطلاعية وصل بها إلى تنّيس على شاطئ بحيرة المنزلة، حيث مرض وتوفي في العريش في طريق عودته سنة (512هـ / 1118م). كما حاول بلدوين الثالث احتلال مصر من الفاطميين وهددها، فخشي الخليفة الفاطمي منه، ودفع له إتاوة قدرها ستون ألف دينار.

لم تتوقف مطامع الصليبيين باحتلال مصر، فقد عمد الملك الصليبي عموري الأول (أملريك) إلى احتلال مصر، مدّعياً توقف الفاطميين عن دفع الإتاوة، وقام بغزوها سنة (558هـ / 1163م)، لكنه لم يستطع تحقيق هدفه، وفشل كغيره ممن سبقه من الصليبيين.

وعلى الرغم من محاولات الفاطميين استرداد بعض المدن الساحلية من الصليبيين، فإنهم فشلوا. وقد أدى الضغط المتواصل من قبل الصليبيين على الخلافة الفاطمية، ومحاولتهم احتلال مصر، إلى جانب الضعف السياسي والاقتصادي الذي أصاب الفاطميين، وتنافس رجالات الدولة للوصول إلى منصب الوزارة، إلى استنجاد بعضهم بنور الدين محمود بن زنكي، واستنجاد آخرين بالصليبيين. فقد نشب نزاع بين العادل بن طلائع بن رزيك، وشاور حاكم الصعيد على منصب الوزارة، ذلك النزاع الذي انتهى بنجاح شاور وقتل العادل، وتسلّم شاور الوزارة سنة (558هـ / 1163م). ثم ما لبث التنافس أن دبّ بين شاور وضرغام صاحب الباب، فلم يجد شاور بداً من الاستنجاد بنور الدين محمود بن زنكي، ليساعده على خصمه، مقابل إغراءات كبيرة في الإقطاع والأموال والنفوذ، وزاد من حماس نور الدين محمود لمساعدته، حين أعلمه بتآمر خصمه مع الصليبيين.

وجد هذا الاستنجاد حماساً من قبل نور الدين محمود، وذلك لعدة عوامل، منها رغبته في غزو الفاطميين، والقضاء على دولتهم الضعيفة والمتخاذلة أمام الصليبيين، إضافة إلى أن وجود الدولة الفاطمية كان مصدر فرقة في العالم الإسلامي، لأنها جعلت ولاء المسلمين تتقاسمه خلافتان، الخلافة العباسية، والخلافة الفاطمية. وتعرضت الخلافة الفاطمية في عهد ملك بيت المقدس الصليبي عموري الأول (أملريك) إلى هجمات الصليبيين عليها، ولذلك أرسل نور الدين محمود الحملة الأولى إلى مصر بقيادة قائده الكردي شيركوه، ومعه ابن أخيه صلاح الدين، الذي لم يكن قد تجاوز السابعة والعشرين من

عمره. وتمكن شيركوه من أن يسبق الصليبيين في الوصول إلى دلتا مصر، ومن ثم إلى القاهرة في (رجب 559هـ / مايو أيار 1164م)، فأمكن شاور من الوصول إلى الوزارة، وقتل ضرغام.

حين وصل شاور إلى الوزارة، خشي من شيركوه ونفوذه في مصر، فأراد إبعاده، ولم يجد بداً من الاستنجاد بالصليبيين، ووعد عموري الأول بإعطائه مبلغاً من المال مقداره سبعة وعشرون ألف دينار، مقابل مساعدته في إخراج جيش نور الدين محمود من مصر، وأن يقدم هدية لفرسانهم مع نفقات العلف كاملة.

وهكذا فإن شاور تسبب في قدوم الصليبيين إلى مصر، الذين عملوا على حصار شيركوه والتضييق عليه في مصر، فما كان من نور الدين محمود إلا أن شدد هجماته على الصليبيين في الشام، فتمكن من سجن أمير أنطاكية وكونت طرابلس، مما دفع بالصليبيين في مصر إلى أن يتخذوا قراراً بالعودة إلى بلاد الشام، على أن يعود جيش نور الدين محمود بقيادة شيركوه من مصر أيضاً . فعاد في (ذي الحجة 559هـ / تشرين الأول أكتوبر 1164م).

أرسل نور الدين محمود إلى مصر حملة ثانية بقيادة شيركوه أيضاً، سنة (562هـ / 1166 - 1167م)، بعد أن استنجد به الخليفة الفاطمي العاضد، من استبداد وزيره شاور، وظلمه، وسفكه للدماء. فخاف شاور عاقبة الأمر فاستنجد بالصليبيين، وتعهد لهم بأربعمئة ألف دينار في حال بقائهم حتى طرد شيركوه، يدفع نصفها مقدماً. وجرت بين شاور متعاوناً مع الصليبيين، وبين جيوش نور الدين بقيادة شيركوه معركة البابين في الصعيد في (25 جمادى الثانية سنة 562هـ / مارس آذار 1167م)، التي انتهت بانتصار شيركوه، نظراً لما استخدمه من خطط عسكرية جيدة، وتبع ذلك دخوله إلى الإسكندرية، فترك فيها ابن أخيه صلاح الدين مع خمسمائة من رجاله، واتجه بباقي قواته إلى الصعيد ليتمم سيطرته عليه. وفي تلك الأثناء توجه عموري لحصار الإسكندرية براً وبحراً. وصبر صلاح الدين على الحصار، واستنجد بعمه شيركوه، الذي حضر بالمؤن والأموال لإنقاذ جيشه وابن أخيه، واستمر القتال نحو خمسة وسبعين يوماً، فأدرك عموري أن لا فائدة من مواصلة القتال، أمام ثبات شيركوه وجنوده، وعلمه بسوء موقف الصليبيين في الشام تحت ضغط هجمات نور الدين محمود على حصون مملكة بيت المقدس الصليبية. فأجرى مفاوضات مع شيركوه، على أن يعود هو وشيركوه إلى بلاد الشام، مقابل خمسين ألف دينار تدفع لشيركوه، وإعطائه إقطاعاً في مصر.

ترك الصليبيون بعد الحملة الثانية على مصر، موضع قدم لهم فيها، إذ تركوا حامية في مصر لمراقبة أمورها، وحصلوا على مبلغ مئة ألف دينار سنوية. وأدركوا أثناء وجودهم في مصر، ضعف الدولة الفاطمية، فطمعوا في ثرواتها، مما دفع بعموري (أملريك) إلى التحرك باتجاه مصر سنة (564هـ / تشرين الأول / أكتوبر 1168م)، فلقي مقاومة كبيرة من أهالي المدن المصرية، عاقته عن التقدم بسرعة. وقد دفع تحرك الصليبيين باتجاه مصر، إلى أن يستنجد الخليفة الفاطمي العاضد وشاور بنور الدين طالبين مساعدته، فلبى هذا الطلب بسرعة، وأرسل جيشه للمرة الثالثة إلى مصر بقيادة شيركوه، الذي ما أن وصل إلى مصر، حتى التف حوله الأهالي طالبين منه حمايتهم من الصليبيين، وتحت ضغط جيش شيركوه، ومقاومة أهالي مصر، اضطر الصليبيون إلى الانسحاب من مصر في (ربيع الثاني 564هـ / كانون الثاني يناير 1169م). فدخل شيركوه القاهرة، وتسلم الوزارة، وتخلص من

شاور، ولما توفي، تسلم ابن أخيه صلاح الدين الوزارة، وبقي وزيراً حتى تمكن من القضاء على الخلافة الفاطمية في (المحرّم 567هـ / 10 أيلول/ سبتمبر 1171م)، ودعا في القاهرة للخلافة العباسية.

الخـــاتمة :

وهكذا فقد كان للخلافة الفاطمية علاقات متعددة مع دول العالم المعروفة في ذلك الوقت، وكانت هذه العلاقات، علاقات سلمية وعلاقات عدائية عسكرية. وقد تجاوزت علاقاتها السلمية العالم الإسلامي المعاصر، إلى الدول غير الإسلامية، وخاصة الإمبراطورية البيزنطية والمدن التجارية الإيطالية، مثل جنوة، وبيزا، والبندقية، وأمالفي. وتمثلت هذه العلاقات بالمبادلات التجارية، ذلك لأن الدولة الفاطمية كانت دولة ذات مركز تجاري هام، تفد إليها السفن من كافة مناطق العالم المعروف، وتخرج هذه السفن محملة بالبضائع، سواء أكانت من منتجات مصر الخاصة، أم من المنتجات التي تستوردها لتتاجر بها تجارة عبور. هذا إضافة إلى عقد المعاهدات مع الدول المعاصرة. وكانت بنود هذه المعاهدات تتضمن أموراً عديدة، مثل سيادة السلم، والمبادلات التجارية، وإقامة المساجد والكنائس، أو إصلاحها، والسماح للمسيحيين بزيارة الأماكن المقدسة والمجاورة فيها، وإقامة الفنادق وغيرها .

ساعدت فترات السلم التي سادت في الدولة الفاطمية على نشر مذهب دولتهم في أماكن متعددة، وصلت إلى أقصى أرجاء العالم الإسلامي، ووصلت دعوتهم إلى الذروة حين دعا البساسيري للخليفة المستنصر بالله الفاطمي في بغداد نفسها.

ومع جنوح الفاطميين للسلم في فترات كثيرة، فإنهم اضطروا إلى خوض الكثير من الحروب مع الدول الإسلامية التي ناوأتهم، ووقفت في وجه محاولاتهم لتوسيع حدودهم باتجاه الشرق والغرب، هذا إضافة إلى وقوفهم في وجه مطامع البيزنطيين الذين حاولوا احتلال بلاد الشام وصقلية وغيرها، والوقوف في وجه مطامع الصليبيين أيضاً، الذين أسسوا الإمارات في بلاد الشام، وحاولوا السيطرة على مصر أكثر من مرة، فوقف الفاطميون لهم بالمرصاد، وتمكنوا من صدهم عن مصر .

وكانت الدولة الفاطمية دولة لها مكانتها المتميزة بين دول العالم المعاصرة، ولها علاقاتها المتنوعة معها، طوال الفترة التي عاشتها فيما بين سنتي (297 - 567هـ / 909 - 1171م) .

أ.د. أمينة محمد علي بيطار
جامعة الملك سعود

المصادر والمراجع

المخطوطات :

- الأزدي، ابن ظافر، ت 623هـ / 1226م : الدول المنقطعة، أو أخبار الزمان في تاريخ بني العباس، مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية رقم (890 تاريخ) .
- الدوادار، بيبرس، ت 725هـ / 1324م : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، مخطوطة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة تحت أرقام 24026-24027.
- سبط بن الجوزي، يوسف بن قز أوغلي، ت 654هـ / 1256م : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، مخطوطة مصورة في دار الكتب المصرية، رقم (551 تاريخ) .

أولاً - المصادر العربية :

- ابن الأثير، علي بن محمد، ت 630هـ/ 1232م : الكامل في التاريخ، راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق، بيروت، 1987م.
- ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد، ت 614هـ / 1217م : رحلة ابن جبير ، بيروت، 1979م.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، ت 597هـ / 1200م : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تح : محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، بيروت، 1992م.
- ابن حزم، أبو محمد علي بن محمد، ت 456هـ / 1063م : جمهرة أنساب العرب، تح : عبد السلام هارون، القاهرة، 1962م.
- ابن حماد، أبو عبد الله محمد بن علي، ت بعد 617هـ / 1220م : أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ، الجزائر - باريس، 1927م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، ت 808هـ / 1405م : العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، 1971م.
- ابن خلكان، أحمد بن محمد، ت 681هـ / 1282م : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح : إحسان عباس، بيروت، 1978م.
- ابن سنان ثابت، منصور بن قرة الحراني، ت 365هـ / 975م ؛ عمر بن أحمد بن حية الله العقيلي، ت 660هـ/1261م : تاريخ أخبار القرامطة، جمع سهيل زكار، دمشق، (د.ت).
- ابن شداد، بهاء الدين، ت 632هـ / 234م : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، أو سيرة صلاح الدين، تح : الشيال، القاهرة، 1964م.
- ابن الشحنة، أبو الفضل محمد بن محمد، ت 890هـ / 1485م : الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، بيروت، 1909م.
- ابن عذاري، أبو عبد الله محمد المراكشي، ت 695هـ / 1295م : البيان المغرب في أخبار المغرب، نشر دوزي، باريس، 1930م.
- ابن قاضي شهبة، ت 851هـ / 1447م : الكواكب الدرية في السيرة النورية، تح: محمود زايد، بيروت، 1971م.
- القرطبي، عريب بن سعد، ت366هـ / 976م : صلة تاريخ الطبري، القاهرة، 1323هـ .

- ابن القلانسي، حمزة بن أسد التميمي، ت 555هـ / 1160م : ذيل تاريخ دمشق، تح: سهيل زكار، دمشق، 1983م.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر، ت 774هـ/1374م : البداية والنهاية في التاريخ، بيروت، 1993م.
- ابن المجاور، أبو الفتح بن محمد بن مسعود، ت بعد سنة 626هـ / 1228م : صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تاريخ المستبصر، راجعه ووضع هوامشه ممدوح حسن محمد، القاهرة، 1996م.
- ابن ميسر، محمد بن علي، ت 677هـ/1278م : تاريخ مصر، تصحيح هنري ماسيه، القاهرة، 1919م.
- ابن النديم، محمد بن إسحاق، ت 383هـ/ 993م : الفهرست، القاهرة، 1348هـ.
- ابن واصل، محمد بن سالم، ت 697هـ/1297م : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، القاهرة 1957م.
- ابن الوردي، عمر بن مظفر، ت 749هـ/1348م : تاريخ ابن الوردي، القاهرة، 1285هـ.
- ابن إياس، أبو البركات محمد بن أحمد، ت 930هـ / 1523م : بدائع الزهور في وقائع الدهور، القاهرة، 1311-1312هـ.
- أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل، ت 665 هـ / 1266م : تاريخ الروضتين في أخبار الدولتين ، بيروت، (د.ت).
- أبو الفداء، إسماعيل بن علي، ت 732هـ / 1331م : المختصر في أخبار البشر، علق عليه ووضع حواشيه : محمود ديوب ، بيروت، 1997م.
- أبو المحاسن، جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي، ت 874هـ / 469م : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة، 1952م.
- الأنطاكي، يحيى بن سعيد، ت 458هـ / 1226م : تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي، بيروت، 1909م.
- البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز، ت 487هـ / 1094م : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، باريس، 1911م.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر البصري، ت 255هـ / 868م : التبصر بالتجارة ، نشر حسن حسني عبد الوهاب، القاهرة، 1934م.
- الحمادي اليمني، محمد بن مالك، ت أواسط القرن الخامس / أواسط القرن الحادي عشر : كشف أسرار الباطنية، وأخبار القرامطة، القاهرة، 1939م.
- الحنبلي، أحمد بن إبراهيم، ت 876هـ/1417م : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تح: ناظم رشيد، العراق، 1978م.
- خسرو، ناصر، ت 476هـ / 1083م : سفرنامة، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة، 1993م.
- الدواداري، أبو بكر عبد الله بن أيبك، ت بعد سنة 836هـ / 1423م : الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية، تح: صلاح المنجد، القاهرة، 1961.
- الذهبي، الحافظ محمد بن أحمد، ت 748 هـ / 1347م : دول الإسلام، حيدر آباد الدكن، 1365هـ.
- الروذراوري، أبو شجاع محمد بن الحسين، ت 488 هـ / 1095م : ذيل تجارب الأمم، تصحيح هـ. ف. أمدروز ، القاهرة، 1334هـ.
- الروذراوري، أبو شجاع محمد بن الحسين، ت 488 هـ / 1095م : السجلات المستنصرية : سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر

بالله أمير المؤمنين إلى دعاة اليمن وغيرهم، نشر وتحقيق: عبد المنعم ماجد رقم (54) ص.ص 176-179 ورقم (63) ص 205 ، 1954م

- الشيرازي، المؤيد في الدين هبة الله ، ت 470هـ / 1077م : سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة، نشر محمد كامل حسين، القاهرة، 1949م.
- الصوري، وليم، ت581هـ / 1185م : تاريخ الحروب الصليبية، الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، دمشق، 1990م.
- الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد، ت 832هـ / 1428م : العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تح: محمد حامد الفقي، القاهرة، 1960م.
- مسكويه، أحمد بن محمد، ت 421هـ / 1030م : تجارب الأمم وتعاقب الهمم، القاهرة، 1333هـ.
- المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد، ت 387هـ / 997م : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن 1877هـ.
- المقري، أحمد بن محمد، ت1041هـ/ 1631م : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، القاهرة، 1279هـ.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، ت 845هـ/ 1441م : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تح: جمال الدين الشيال، القاهرة، 1967م.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، ت 845هـ/ 1441م : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، بيروت(د.ت) .
- النويري، أحمد بن عبد الوهاب، ت 733هـ / 1332م : نهاية الأرب في فنون الأدب، تح : أحمد كمال زكي، القاهرة، 1980م.
- اليمني، عمارة أبو الحسن نجم، ت 569هـ / 1173م : النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية، باريس، 1897م.
- اليمني، عمارة أبو الحسن نجم، ت 569هـ / 1173م : تاريخ اليمن وعليه المختصر المنقول من كتاب العبر لابن خلدون، لندن، 1309هـ.

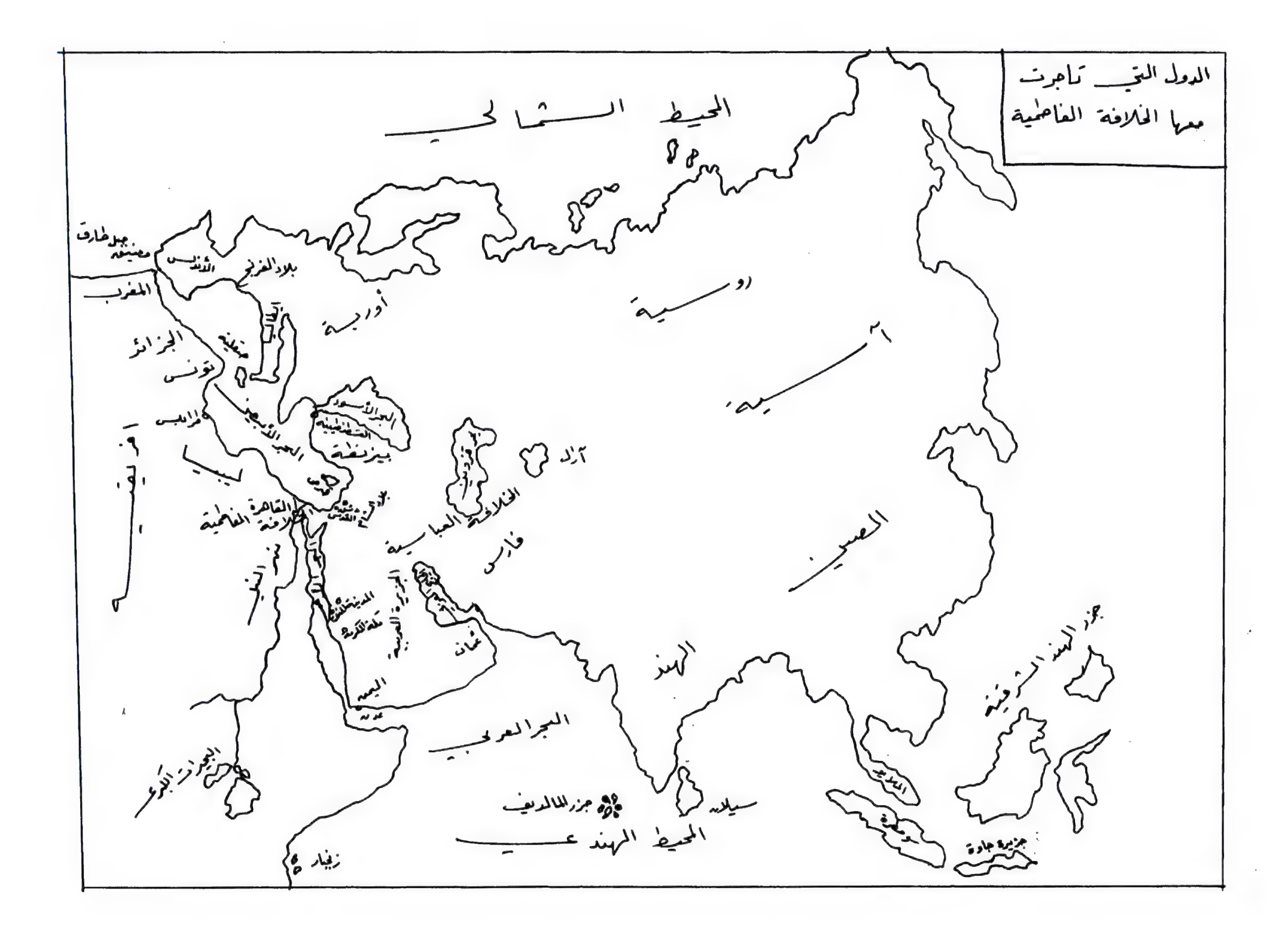
ثانياً - المراجع العربية والمعربة :

- البراوي ، راشد : حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، القاهرة، 1948م.
- بيطار، أمينة : تاريخ العصر العباسي، دمشق، 1991-1992م.
- بيطار، أمينة : موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين حتى أواخر القرن الخامس الهجري، دمشق، 1980م.
- بيطار، أمينة : تاريخ العصر الأيوبي، دمشق 1981-1982م.
- تدمري، عمر عبد السلام : تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، طرابلس، (د.ت).
- توفيق، عمر كمال : العدوان الصليبي، الإمبراطور تزيمكس وسياسته الشرقية (د.م)، 1966م.
- حتى ، فيليب : تاريخ العرب، ترجمة أدوارد جرجي، وجبرائيل جبور، بيروت، 1975م .
- حسن ، حسن إبراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب، القاهرة، 1964م.
- حسن إبراهيم حسن ، وطه أشرف : عبيد الله المهدي، إمام الشيعة الإسماعيلية، ومؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب، القاهرة، 1947م.

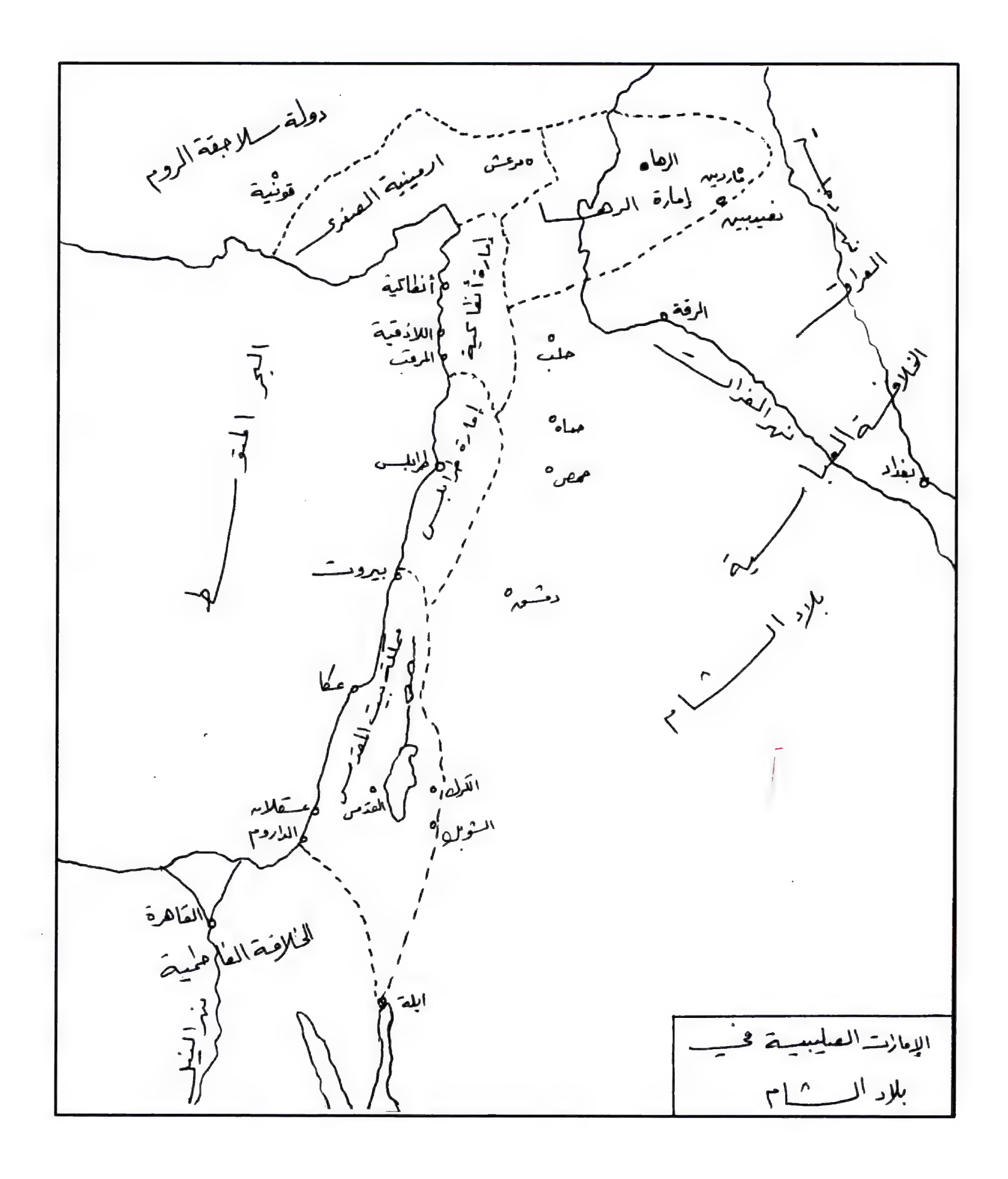
- رنسيمان، ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، بيروت، 1967م.
- الزيلعي، أحمد عمر : مكة وعلاقاتها الخارجية (301-487هـ) الرياض، 1981م.
- سرور، محمد جمال الدين : تاريخ الدولة الفاطمية، القاهرة، 1995م.
- سرور، محمد جمال الدين : النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، القاهرة، 1964م.
- سرور، محمد جمال الدين : سياسة الفاطميين الخارجية، القاهرة، 1967م.
- الطباخ، محمد راغب : إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، حلب، 1942م.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية ، القاهرة، 1971م.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، بيروت 1972م.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح : تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، بيروت، 1976م.
- العدوي، إبراهيم أحمد : الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، القاهرة، (د.ت).
- العريني، السيد الباز : الدولة البيزنطية ، بيروت، 1982م.
- عمران ، محمود سعيد : معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية (مدخل لدراسة التاريخ السياسي والحربي)، بيروت، 1981م.
- عنان ، محمد عبد الله : مصر الإسلامية وتاريخ الخطط، القاهرة، 1350هـ.
- ماجد، عبد المنعم : نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ، القاهرة، 1973م.
- محمود، حسن سليمان : الملكة أروى سيدة ملوك اليمن، القاهرة، 1955م.
- المعاضيدي، خاشع : دولة بني عقيل في الموصل من سنة (380- 489هـ) بغداد، 1968م.
- المناوي، محمد حمدي : الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، القاهرة، (د.ت).
- ميتز، آدم : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، أو عصر النهضة في الإسلام، ترجمة : محمد عبد الهادي أبو ريدة، بيروت - دار الكتاب العربي، القاهرة، 1967م.
- الهداني، حسين - ومحمود، حسن سليمان : الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن (268 - 626هـ) القاهرة، 1955م.

ثالثاً- المراجع الأجنبية

- Amari(Michel) : Biblioteca Arabo-Sicula., 2 vols (Rome-1857-1881), 1857-1881.
- Amari(Michel) : Bulletin of School of oriental Studies (letters of AL-Mustansir Billah). vol V11., P2., Encyclopedia of Islam, 1934.
- Heyd (W) : Histoire du Commerce du Levant au Moyen-Age, Leipzig, 1923.
- Lane Poole : The History of Egypt in the Middle Ages., London, 1901.
- Lane Poole : Saladin and The fall of The Kingdom of Jerusalem., Beirut, 1964.
- Wiet (G) : L'Egypte arabe, in Histoire de la nation égyptienne, Paris, 1937.



الدول التي تاجرت معها الخلافة الفاطمية
المحيط الشمالي
أوربة
روسية
آسية
الصين
الهند
فارس
الخلافة العباسية
الجزيرة العربية
عمان
اليمن
البحر العربي
جزر المالديف
المحيط الهندي
سيلان
زنجبار
جزيرة جاوة
جزر الهند الشرقية
بيزنطة
البحر الأسود
ليبيا
تونس
الجزائر
المغرب
الأندلس
بلاد الفرنج
صقلية
جبل طارق
القاهرة
الدولة الفاطمية
نهر النيل
البحيرات الكبرى
آرال



دولة سلاجقة الروم
قونية
ارمينية الصغرى
مرعش
الرها
ماردين
إمارة الرها
نصيبين
الرقة
نهر الفرات
نهر دجلة
العراق
الخلافة العباسية
بغداد
أنطاكية
إمارة أنطاكية
اللاذقية
المرقب
حلب
حماه
حمص
طرابلس
إمارة طرابلس
البحر المتوسط
بيروت
دمشق
بلاد الشام
عكا
مملكة بيت المقدس
القدس
الكرك
الشوبك
عسقلان
الداروم
القاهرة
الخلافة الفاطمية
نهر النيل
ايلة
الإمارات الصليبية في
بلاد الشام



جامع الأزهر بالقاهرة



صحن جامع الأزهر بالقاهرة



مسجد الأقمر بالقاهرة

الفصل الثالث - بلاد الشام ومصر
والمواجهة مع الصليبيين

أولاً : الحالة السياسية في الشام ومصر (السلاجقة - الزنكيون - الأيوبيون) .

ثانيًا : المواجهة مع الصليبيين .

ثالثاً : المؤسسات : القضاء - الوزارة - الجيش - الإقطاع - الضرائب - الإدارة) .

رابعاً : الحياة الاقتصادية والاجتماعية .

أولاً : الحالة السياسية في الشام ومصر
(السلاجقة - الزنكيون - الأيوبيون)

مقدمة عامة :

هناك ارتباط تاريخي وجغرافي بين مصر والشام؛ فالشام تمثل بعدًا استراتيجيًا أمنيا لمصر، وهو نفس الأمر الذي تمثله مصر للشام. فمنظور واستراتيجية الأمن المصري عبر تاريخ مصر من جذورها الفرعونية امتدادًا للعصر الإسلامي بما شمله من دول إسلامية مستقلة في إطار الخلافة العباسية كالطولونية والإخشيدية إلى خلافة فاطمية إلى أيوبيين ومماليك، كان يرى خط دفاعه الأول في العمق السوري. فهذه النظرية كانت تفرض ثقلها ومغناطيسيتها بصرف النظر عن الفئة الحاكمة أو القيادة التي قد تذهب أو تأتي من الخارج أو الداخل.

كان العامل الجغرافي هو العامل الأوّل الذي حدد هذا التوجه نحو العمق السوري. وقد أكّد الدكتور جمال حمدان في كتابه "شخصية مصر" على ما يمثله هذا التوجه من أهمية، فيذكر أنَّ الموقع الجغرافي هو البيئة الطبيعية المحلية. فمصر واحة فيضية حول نهر، وقد تجانست وتوحدت سياسيًا، وكان طبيعيًا أن يغري ثراؤها وخصبها البعض، ولهذا أصبحت أرض التخوم بالنسبة لمصر أرض معركة، وهنا أدركت مصر أن حدودها الطبيعية تبدأ خارجها في فلسطين. وأغلب معارك مصر الحاسمة الدفاعية إنما تمت على أرض الشام ابتداء من مجدو تحتمس وانتهاء إلى حطين صلاح الدين.

هذا الوضع المتميز أكد على الارتباط التاريخي والمصيري بين الشام ومصر، فكان الفتح الإسلامي بداية لفترة جديدة في تاريخ مصر والشام، وأصبحت مصر فترة الحكم الأموي تابعة لسوريا أول مرة في تاريخها، حين كانت دمشق عاصمة للأمويين. ومع انتقال الخلافة العباسية إلى بغداد ثم ظهور الدولة المستقلة في إطار الخلافة كالدولتين الطولونية والإخشيدية حرص كل منهما على بعد سياسي وجغرافي في الشام بغرض تواجد حماية أمنية لدولتيْهما في مصر، فلم تكن الحدود بين القطرين يومًا ما حدًّا منيعًا وفاصلاً.

على يد الفاطميين عادت مصر للتوسع الإقليمي في مجالها الآسيوي التقليدي، وكان نفوذ مصر السياسي والاستراتيجي في عهد الفاطميين والأيوبيين يشمل الشام كله أو جنوبه الفلسطيني، وكانت الضرورة السياسية والحربية تقضي على الفاطميين، بعد أن تم لهم فتح مصر، أن يولوا وجهتهم تجاه الشام وخصوصًا أنّ من يحتل دمشق يستطيع أن يتخذها مركزًا يوجه منها حملاته إلى العراق. كذلك كانت هناك رغبة لتأمين حدود مصر من الشمال الشرقي ولمواجهة البيزنطيين والقرامطة.

ثم ظهرت قوة جديدة في المنطقة متمثله في دولة فتية وضعت نصب أعينها القضاء على النفوذ الفاطمي في الشام ومصر، وهي دولة السلاجقة التي سيطرت على الخلافة العباسية. وبوصف السلاجقة أتباعاً للخلافة العباسية وسنة فإنّهم قد تبنوا نظرية الدفاع عن الخلافة ضد أعدائها من الفاطميين

والبيزنطيين، واتخذ الصراع مع الفاطميين أرض الشام ميدانًا له، وخلق جوًا من عدم الاستقرار أضعف الجبهة الإسلامية أمام الغزو الذي جاء من الغرب المسيحي متمثلاً في الصليبيات التي وجدت موطئ أقدام لها في الشام، وكونت إماراتها الأربع في الشام بل أصبحت مصر مطمعا لها منذ عهد جودفروا دي بوايون أول حكام الصليبيين في بيت المقدس. فوقوع مصر في قبضة الصليبيين سيثبت أقدامهم في الشام، وهو نفس المنظور الذي أدركه قادة حركة الجهاد التي نبعت من شمال العراق على يد الأراتقة ثم الزنكيين. فالاستيلاء على مصر يضع الصليبيين بين شقي رحى بين دمشق والقاهرة، ومهد لهذا حالة الضعف التي أمست عليها الدولة الفاطمية في العصر الفاطمي الثاني.

وجاء مولد الدولة الأيوبية في الشرق الإسلامي في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ليعبر عن رد فعل إسلامي على إحدى النتائج الهامة التي تمخضت عنها الحركة الصليبية في الجانب السياسي. فالأوضاع السياسية بين البلدان الإسلامية في الشرق تعرضت لتغيرات وتطورات سريعة منذ وصول الصليبيين، وأهم هذه التغيرات ما طرأ على الخريطة السياسية لبلاد الشام ومصر من تبديل وتغيير بعد أن قضى الصليبيون على كثير من الإمارات الصغيرة التي كانت قائمة في بلاد الشام من جهة، وبعد قيام حركة الجهاد الإسلامي، ثم قيام دولة بني أيوب لتحل محل الدولة الفاطمية في مصر وتبسط نفوذها على معظم بلاد الشام في إطار وحدة تجمع بين البلدين تجاه الصليبيين من جهة أخرى. فحركة الجهاد هي إفراز طبيعي لحقيقة واحتياج تطلبته ظروف العالم الإسلامي وشرعية قيام الزنكيين والأيوبيين، استمدت جذورها من قيامها بالجهاد والتصدي للصليبيين.

الحالة السياسية في الشام ومصر:

لو نظرنا إلى خريطة توزيع القوى في بلاد الشام عند قدوم الصليبيين لوجدنا على المسرح التاريخي قوى عديدة متصارعة رافضة لبعضها البعض بينها خلافات سياسية ومذهبية، ومصالح متضاربة. وهذه الوضعية هي التي سهلت للحركة الصليبية وضع أوتادها في الشام لما يقرب من مائتي عام وجعلها تهدد مصر أكثر من مرة. فعلى الساحة السياسية في مصر والشام، وجدت قوى سياسية متعددة خلافة فاطمية في مصر لها امتداد استراتيجي في الشام، وعلى أرض الشام امتد نفوذ خلافة أخرى هي الخلافة العباسية، وسلاجقة يتبعونها، انقسموا إلى عدة أسر حاكمة، وإمارات وقبائل عربية وتركمانية اعتادت نقل ولائها بين أكثر من جانب للاحتفاظ بكيانها.

(أ) الفاطميون :

وأولى تلك القوى المؤثرة في المنطقة هي الدولة الفاطمية، وينتسب الفاطميون إلى الشيعة الإسماعيلية، وقد أقاموا دولتهم في المغرب الإسلامي في عهد عبيد الله المهدي (297هـ / 909م) ثم انتقلت إلى مصر في عهد المعز لدين الله الفاطمي (359هـ / 969م). وكان الفاطميون يدركون أهمية مصر السياسية والاقتصادية والجغرافية، فامتلاكها سوف يفتح الطريق لغزو سوريا والحجاز ومن ثم الطريق إلى إخضاع بغداد، وقد حرص الفاطميون منذ البداية على الاتجاه للشام، وتأمين حدودهم من ناحية الشمال الشرقي والوقوف في وجه الروم والقرامطة. ولقد أكد هذا جوهر الصقلي قائد الفاطميين في أول خطاب له للمصريين في شعبان سنة (358هـ / 969م) عندما أشار إلى خطر القرامطة الذين اجتاحوا بلاد الشام،

وأوقعوا الهزيمة بقوات الإخشيديين سنة (357هـ / 967 م) وأخذوا في تهديد مصر. وقد وصل النفوذ الفاطمي إلى بيت المقدس والرملة ودمشق، ولكن عاد الخطر البيزنطي يهدد الشام في عصر الصحوة البيزنطية على يد نقفور الثاني فوكاس Nicephorus Phocas (352 - 359هـ / 963 - 969م) وحنا تزمسكيس John Tzimiskes (359 - 366هـ / 969 - 976م)، إذ تقدموا إلى حدود سوريا الشمالية واستولوا على أنطاكية وحاصروا حلب، واضطر الحمدانيون إلى عقد صلح مع بيزنطة (360هـ / 970م) ودفعت حلب جزية لهم. ولقد عزز الفاطميون أوضاعهم في جنوب سوريا، أما شمالها الغربي فقد ظل تحت سلطة بيزنطة.

وقد اهتم الفاطميون بالحفاظ على الموانئ البحرية كموانع طبيعية دفاعية في مواجهة الهجوم البيزنطي المحتمل. وبالرغم من جهود الفاطميين في الحفاظ على وضعهم في الشام فإنه بعد مئة عام من التواجد هناك لم تستطع الخلافة الفاطمية إقامة سيطرة دائمة مستقرة

ويمثل عهد المستنصر مرحلة فاصلة في تاريخ الفاطميين. فبالرغم من أن هذا الخليفة بويع له على منابر بغداد على يد أرسلان البساسيري قائد الحرس البويهي الشيعي، فإنّ عهده شاهد الشدة العظمى أو المستنصرية التي كشفت عن ضعف الإدارة الفاطمية، وتحكم الجند الأتراك، حتى اضطر الخليفة إلى بيع كنوز الخلافة وإرسال أهل بيته إلى الشام. ومما زاد من اضطراب أمور الفاطميين في الشام، ظهور عنصر فتيّ قدّر له أن يسيطر على مقدرات الخلافة العباسية بعد التخلص من البويهيين، هم الأتراك السلاجقة الذين وضعوا نصب أعينهم مواجهة الفاطميين والقضاء على نفوذهم في الشام ومصر. وبالفعل أرسلوا قواتهم إلى الشام فاستطاعت أخذ الرملة، وبيت المقدس، ودمشق، بل فكروا في غزو مصر، وعسكر جيشهم في الدلتا خمسين يومًا، ولكن هزمهم بدر الجمالي وزير الخليفة الفاطمي.

وبعد وفاة المستنصر ازدادت الحالة الداخلية في مصر سوءًا، فقد نشب نزاع بين الأخوين نزار والمستعلي، وكان الوزير الأفضل بن بدر الجمالي في جانب ابن أخته المستعلي، وانتهى الأمر بقتل نزار، وظهرت طائفة نادت بإمامته وهي النزارية أو الباطنية التي لعبت دورًا هامًا في أحداث الحروب الصليبية.

(ب) الإمارات العربية:

وإلى جانب الفاطميين تواجدت على أرض الشام إمارات عربية وتركمانية وكردية، وفي سبيل الحفاظ على كيانها بين القوى المتصارعة قامت بنقل ولائها بين هذا وذاك وفقًا لمصلحتها، مما زاد من حدة الخلاف، وتفتيت القوى. فهناك بنو عمار في طرابلس (أسرة عربية استقلت عن الفاطميين من 462هـ / 1069م)، ثم إمارة خلف بن ملاعب في حمص ثم أفامية حيث أعاده الفاطميون إلى أفامية بعد طرده على يد السلاجقة، وكانت قبائل كلاب منتشرة في شمال الشام، وبنو كلب بوسطه، وبنو طيء في شرق الأردن، وكان لبني منقذ إمارة في شيزر، بالإضافة إلى بيت تركماني وهم بنو أرتق الذين حكموا بيت المقدس إلى أن استعادها الفاطميون (493هـ / 1098م)، وانتشر أبناء الأسرة في مدن الشام وشمال العراق، وأحد أبناء الأسرة وهو سقمان كانت له إمارة في حصن كيفا ويعود إليهم الفضل في بعث بواكير حركة الجهاد. كذلك كانت هناك أسرة كردية هي أسرة بني مروان

في إقليم الجزيرة وديار بكر حيث تحكموا في الطرق الممتدة من بغداد والشرق من جهة وسوريا والأناضول من جهة أخرى، وقضى عليها الأمير السلجوقي تتش (478هـ / 1095م)، كذلك قضى على إمارة بني مرداس في حلب، وهم بطون من قبيلة كلاب (472هـ / 1079م). ونفس الأمر بالنسبة للعقيليين الذين ينتسبون لـ (عامر بن صعصعة) وانتشر نفوذهم في الجزيرة والموصل وشمال سوريا حيث انتهى أمرهم في (489هـ / 1095م). وترددت في المصادر أسماء قبائل بني نمير وبني شيبان وبني طيء وعلم .

(جـ) السلاجقة :

إلى جانب القوى السابقة تواجدت خلافة عباسية وأتباعها من حكام سلاجقة وأتابكيات. وكان ظهور السلاجقة نقطة تحول هامة في تاريخ العالم الإسلامي. فقد كان العالم الإسلامي يعاني، في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، من مشاكل داخلية وخارجية، تتمثل في الصراع بين الخلافتين الفاطمية الشيعية والعباسية السنية، ثم ما طرأ على دولة العباسيين من ضعف نتيجة لسيطرة الفرس البويهيين عليهم، إلى جانب توسع بيزنطة على حساب المسلمين في الشام. واستطاع السلاجقة بقواهم الفتية أن يبعثوا في العالم الإسلامي والحضارة الإسلامية مظهرًا وحياة جديدين .

والسلاجقة فرع من القبائل الغزية التي اتجهت إلى الأراضي الإسلامية حيث سيطروا على الوادي الأدنى لسيحون. ولقد ورد اسمهم في المصادر التركية وعند محمود الكشغري "سالجوك Seltchuük". وذكر الكشغري أن رئيس الأسرة يسمى سوباشي "قائد جيش"، وأشار عدد كبير من المصادر الإسلامية إلى أن التسمية نسبة إلى جدهم سلجوق بن دقاق، الذي وحَد تلك القبائل، ثم قام بالهجرة بها إلى أراضي المسلمين. ويبدو أن علاقته بالمسلمين الذين كانوا يسكنون نهر سيحون كانت وطيدة، فاعتنق الإسلام على المذهب السني بعد خروجهم من منطقة القيرغيز في تركستان إلى بلاد ما وراء النهر. وكان السلاجقة يتميزون عن غيرهم من القبائل الغزية بأنّهم أكثر نظامًا وتشكيلاً. وفي البداية انضم السلاجقة إلى جانب السامانيين. وبعد انهيار الدولة السامانية، دخلوا في مرحلة جديدة باتصالهم بالغزنويين. ولقد استطاع طغرل بك بن ميكائيل السلجوقي الانتصار عليهم 431هـ / 1040م وأعلن نفسه واليًا على خراسان. وقد أرسل إلى الخليفة العباسي القائم بأمر الله (422 - 467هـ / 1030 - 1074م) يطلب تقليدًا، فدعاه الخليفة إلى الحضور لبغداد. وقد اتسعت الرقعة التي سيطر عليها السلاجقة، فاتجهوا إلى إيران الغربية واستولوا على قزوين وأبهر وهمذان وأذربيجان، ثم اتجهوا إلى كرمان وأصفهان وبخارى، وبذلك يكون السلاجقة قد سيطروا على إيران الجنوبية والشرقية وتطرقوا إلى إقليم الجزيرة، ثم وصلوا إلى حدود بيزنطة. ولقد دخل طغرل بك بغداد (445هـ / 1055م) وقبض على الملك الرحيم أبو النصر خسرو آخر أمراء البويهيين، وقضى على فتنة المظفر أبو الخير أرسلان البساسيري، أحد أتباع الملك الرحيم والذي حاول القضاء على الخلافة العباسية، وإدخال بغداد تحت لواء الخلافة الفاطمية. وقد اتخذ طغرل لقب سلطان الإسلام، وأصبح يلي الخليفة في المنزلة، وأصبحت إيران والعراق تؤلفان وحدة واحدة تدينان بالزعامة الروحية للخليفة والدنيوية للسلطان السلجوقي. ولإضفاء الشرعية على حكم السلاجقة وبصفتهم حماة الخلافة وسنيين متحمسين، كان عليهم الجهاد

ضد أعداء الدولة العباسية: الفاطميين والبيزنطيين.

وقد توالى على السلطنة السلجوقية ثلاثة من السلاطين الأقوياء: طغرل بك (429 - 456هـ / 1063 - 1083م)، والسلطان ألب أرسلان (456 - 465هـ / 1063 - 1072م)، والسلطان ملكشاه (465 - 485هـ / 1072 - 1092م)، واستطاع السلاجقة إنزال الهزيمة الساحقة ببيزنطة في معركة هامة هي ملاذكرد (مانزكرت) عام (463هـ / 1070م) التي يعدها عدد كبير من المؤرخين مقدمة للحروب الصليبية.

السلاجقة ومانزكرت:

تحمل هذه الموقعة أهمية خاصة في تاريخ الحروب الصليبية، لأنها أثبتت أن بيزنطة لم تعد قادرة على التصدي للمسلمين. ولم تكن مقدمات تلك المعركة مفاجئة، فقد سبقها قيام السلاجقة في عهد طغرل بإغارات على أراضي بيزنطة وإن لم تتخذ شكل الاستقرار. وقد استمرت هذه السياسة في عهد ألب أرسلان الذي أغار على أرمينيا، وهاجم أطراف الدولة البيزنطية في قبادوقيا، واستولى على قيصرية، فهب الإمبراطور رومانوس الرابع ديوجنس Romanus - Diogenes (461 - 464هـ / 1068 - 1071م) للدفاع عن بلاده، ولم تلبث أن دارت بين الفريقين معركة حاسمة عند مانزكرت، وكانت غالبية الجيش البيزنطي من المرتزقة الغز والبجناك والتركمان، والفرنجة والنورمان. وعند احتدام المعركة، انضم الغز إلى السلاجقة، وأحرز ألب أرسلان انتصارًا حاسمًا، فلم يكن من المنتظر أن ينتصر جيش رومانوس الذي يفتقد إلى التجانس ووقع الإمبراطور في الأسر، وأطلق سراحه بعد أن دفع فدية كبيرة وتعهد ألا يقاتل المسلمين، وأن يطلق سراح أسراهم، وأن يرد خصوم السلطان الفارين لبيزنطة، فضلاً عن عقد هدنة لمدة خمسين سنة. ولكن عند عودة الإمبراطور البيزنطي إلى القسطنطينية، تمّ خلعه عن العرش وسمل عينيه، وإحلال ميخائيل السابع محله (464 - 465هـ / 1071 - 1072م). وتعدّ مانزكرت من أسوأ الهزائم في تاريخ بيزنطة ، فقد فقدت بيزنطة في ميدان القتال كل دليل على أنها حامية المسيحية. ويشير وليم الصوري، إلى أن هذه الهزيمة أفادت الحركة الصليبية. فقد نقلت مركز الثقل في المواجهة مع سلاجقة الروم في الأناضول. وتعود قوة السلاجقة للتركمان. ومؤسس مملكة سلاجقة الروم، هو سليمان بن قتلمش ابن بيغو، وكان أبوه قد قتل على يد ألب أرسلان، فاستغل انشغال كل من السلاجقة وبيزنطة بمشاكلهم الداخلية للتوسع في آسيا الصغرى، وفي البداية استعان به الأباطرة البيزنطيون في خلافاتهم، مما مكن له في آسيا الصغرى وخاصة بعد انهيار نظم الدفاع البيزنطية، وكان الوجود السلجوقي في آسيا هو الذريعة التي استغلتها بيزنطة لدعوة الغرب للحرب الصليبية.

أما المهمة الثانية التي اضطلع بها السلاجقة فهي الحدّ من نفوذ الفاطميين في الشام، فأخضعوا المرداسيين في حلب والذين يدينون بالولاء للفاطميين وربطوهم بالتبعية لهم. وقام القائد إتسز ابن أوق، من أتباع ألب أرسلان بالاستيلاء على الرملة وبيت المقدس ثم دمشق من أيدي الفاطميين. ولقد فكر السلاجقة في فتح مصر، ولكن هزموا على يد بدر الجمالي وزير الخليفة الفاطمي المستنصر (409هـ / 1076م). وكان سليمان بن قتلمش (478هـ / 1085م) قد استولى على أنطاكية التي كان يحكمها فيلارتيوس الأرمني، ثم اتجه سليمان إلى حلب فاستنجد أهلها بملكشاه، فأرسل

أخاه تتش، والذي كان قد تخلص من القائد اتسز، وأصبح يسيطر على الأقاليم الوسطى من الشام، وقتل سليمان في المعركة التي خاضها ضد تتش قرب حلب (479هـ / 1088م)، وترتب على ذلك خلو عرش سلاجقة الروم من شخصية قوية لأنه ترك ابنا صغيرًا هو قلج أرسلان وضعه ملكشاه تحت وصايته. ومقتل سليمان أنبت بذور الخلاف بين سلاجقة العراق والروم، وهو الخلاف الذي بدت مظاهره في الفترة التالية. ولتخوف ملكشاه من اتساع نفوذ أخيه تتش في الشام، قام بتعيين عدد من القادة في الشام، فعين قسيم الدولة أقسنقر والد عماد الدين زنكي على حلب، ومؤيد الدين ياغي سيان على أنطاكية، وأقر ارتق على بيت المقدس (والذي خلفه فيما بعد ابنه سكمان)، وقائده بوذان على الرها .

وهكذا خضعت الشام لقيادات سلجوقية عديدة، وإن كان تتش قد استطاع أن يقنع أخاه بأن يسمح له بالتوسع في الشام على حساب الفاطميين، حيث أصبح نفوذ السلاجقة يمتد على شمال الشام إلى طرابلس.

وكانت وفاة ملكشاه إيذانا باندلاع الخلافات بين السلاجقة، انتهى بتولي بركياروق (487 - 490هـ / 1094 - 1096م) العرش، ولكن لم تنته المشاكل؛ فقد ثار تتش الذي رأى أنه أحق بالسلطنة من أبناء أخيه وانضم إليه عدد من الأمراء، ولكن ما لبثوا أن تخلوا عنه لشدته عند التقائه بجيوش بركياروق في الري (488هـ / 1095م) حيث هزم، وقد ترتب على وفاته انقسام أملاكه بين ولديه رضوان الذي أخذ حلب، وأصبح يدبر أموره الأمير جناح الدولة افتكين زوج والدته، أما دمشق فتولاها ابنه دقاق وصار طغتكين أتابكاً له، وكان كل من الأخوين يضمر للآخر الكراهية والضغينة، وقام رضوان بالتخلص من أخويه الصغيرين أبي طالب وبهرام قبل دخوله حلب. وقد ناصب كلا الأخوين الآخر العداء، واستعان رضوان بالباطنية، ويذكر أبو المحاسن أنه أظهر مذهبهم وصارت لهم دار دعوة في أيامه.

هكذا كانت الأوضاع في الشام عند قدوم الصليبيين: قوى متصارعة تكنّ الكراهية لبعضها البعض، فالسلاجقة انقسموا إلى ممالك متناحرة، سلطنة السلاجقة في فارس وملكها بركياروق، الذي سيطر على الخلافة في بغداد، التي لا تملك من أمرها شيئًا، مملكة خراسان وما وراء النهر عليها أبو الحرث سنجر، مملكة حلب عليها رضوان، مملكة دمشق عليها دقاق ، ومملكة سلاجقة الروم عليها قلج أرسلان بن سليمان، وكل من هؤلاء يتوجس خيفة من الآخر ويتحين الفرص ضده، والإمارات العربية تحاول أن تحافظ على كيانها في وسط هذا الخضم من الصراعات بنقل ولائها بين هذا وذاك، والفاطميون كان لديهم مشاكلهم في الداخل، في نفس الوقت الذي اشتبكوا فيه في خلافات وعداءات مع السلاجقة في الشام، وهذا أدى بالصليبيين أن يوجهوا ضرباتهم لكل قوة منها على حدة، فلم يسعَ الجميع إلى نبذ خلافاتهم، ومواجهة الغازي الصليبي، فأدى ذلك إلى نجاح الصليبيين في تكوين كيان لهم في الشام.

ثانياً - المواجهة مع الصليبيين

أثناء انشغال القوى الإسلامية بصراعاتها تولت أمر الدولة البيزنطية أسرة كومنين (وهي أسرة من الأرستقراطية العسكرية) (474 - 581هـ / 1081 - 1175م)، وكان أول مهامها مواجهة توسع السلاجقة في آسيا الصغرى التي كانت تعدّ أغنى ولاياتها بالرجال والثروة. وقد سبق لبيزنطة أن لجأت لطلب المساعدة ضد الأتراك في عهد ميخائيل السابع والبابا جريجوري السابع في مقابل اتحاد الكنيستين عام 466هـ / 1073م، ولكن البابا انشغل بمشكلة الصراع العلماني، ويعد ألكسيوس كومنين واحداً من أقوى قادة الإمبراطورية، اتصف بالدهاء ونفاذ البصيرة، فاستخدم من الأساليب ما يكفل له القضاء على الفتن الداخلية، فوطد مركزه، وأصلح الأحوال الاقتصادية، وأعاد بناء الأسطول، وشكّل جيشًا جديدًا من المرتزقة، وإن كانت الإمبراطورية قد اضطرت إلى الاعتراف بالأمر الواقع في موقفها تجاه السلاجقة فمنح الإمبراطور البيزنطي سليمان حكم قليقية وأنطاكية وملطية، على أن يكون لبيزنطة حق الإشراف أي الاعتراف بسلطان بيزنطة وبصفة السلاجقة معاهدين، لا أتباعاً خاضعين، يقيمون في أراضٍ وافقت الإمبراطورية على التنازل عنها. ولكن بعد وفاة سليمان وتولية ابنه قلج أرسلان، اتبع الإمبراطور سياسته الشهيرة وهي "فرِّق تسد" بين الإمارات التركمانية في آسيا الصغرى ودولة السلاجقة الروم، وخاصة إمارة الدانشمند (455 - 470هـ / 1063 - 1074م)، وإمارة أزمير.

وقد فكر الإمبراطور في استعادة ما أخذه السلاجقة في آسيا الصغرى. ولإدراكه صعوبة استعادتها منفردًا، سعى لمساعدة الغرب الأوربي، فكانت الحروب الصليبية. وكان الإمبراطور يأمل من وراء المساعدة من الغرب أن يتوافر له من الجند المرتزقة ما يعينه على طرد الترك من آسيا الصغرى. فما قصده من الغرب استعادة ما بأيدي المسلمين من آسيا الصغرى ولم يرَ في الجيوش الغربية غير جند مأجور، وخاصة أن أحوال الإمبراطور كانت في وضع مطمئن.

وقد كانت هذه فيما بعد نقطة الخلاف الجوهرية بين كل من البابوية والصليبيين من جانب والإمبراطورية البيزنطية من جانب آخر. فالبابا لم يشأ أن تكون الحروب الصليبية في خدمة الدولة البيزنطيّة. وكان الهدف منها هو تقديم المساعدة لمسيحيّي الشرق وللحجاج الذين ادعت بيزنطة أنهم يعانون من سوء المعاملة وهم في طريقهم إلى بيت المقدس، كما كانت تسعى إلى توحيد الكنيستين، وتوجيه الأمراء إلى الشرق للتخفيف من المنازعات المحلية بين بعضهم البعض، ووجد فيها الفرسان الصليبيون فرصة لتحقيق طموحهم في احتلال أراضٍ جديدة. وفي مارس عام 488هـ / 1095م عقد البابا مجمعاً في بياكنزا بإيطاليا دعا إليه الأساقفة لمناقشة أمر الكنيسة وإدانة البابا المنافس له، وقد وصلت إلى المجمع سفارة من القسطنطينية معها خطاب من الإمبراطور يتضمن أن السلاجقة لا يهددون بيزنطة فقط وإنما المسيحية جمعاء، وأنه كان بإمكان بيزنطة القضاء عليهم لولا انشغالها

بالدفاع عن حدودها. ولقي الأمر استجابة من البابا، ثم تمت الدعوة في كليرمونت في نوفمبر سنة 488هـ / 1095م حيث دعا البابا المسيحيين إلى تخليص الأرض المقدسة من أيدي المسلمين. وقد لقيت الدعوة استجابة سواء من طبقة النبلاء أو المعدمين أو المدن الإيطالية، فلقد وجد كل منهم تحقيقاً لطموحاته وأحلامه: الفرسان في ظل نظام إقطاعي يقصر اللقب والإقطاع على الابن الأكبر، سيجدون في الشرق متسعاً من الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً، والكنيسة وجدت خلاصاً للخلافات بين الأمراء والتي زادت حدتها مما جعلها تضع ما يسمى بهدنة الله لوقف الصراع، كذلك فإن الحرب ستكون دعماً لموقفها في الصراع العلماني، والطبقة الدنيا من المزارعين وجدت فيه خلاصاً من نير القنية التي ربطتها بالأرض، ووجدت فيه المدن الإيطالية سوقاً تجارية جديدة، فالبندقية وضعت شعارًا لها "فلنكن بنادقة" أولاً ومسيحيين ثانيًا. وهكذا فإنّ أسباب الحروب الصليبية تعددت بين دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية، وأدت في النهاية إلى خروج حملتين: الحملة النظامية، وحملة العامة.

أما حملات العامة فكان أشهر قادتها هو بطرس الناسك، وكان في الأصل راهباً في أميان، وقام بالطواف في أقاليم فرنسا والدعوة للحرب، وانضم إليه خمسة عشر ألفًا من الطبقات الدنيا، ثم والتر المفلس Walter Sans Avoir الذي سبق بطرس بالسفر، ولقد بدءوا تحركهم قبل حملة الأمراء. وفي أثناء سيرهم قاموا بعمليات سلب ونهب في المدن التي مروا بها حيث اجتازوا الطريق الشمالي للقسطنطينية. ولقد صدم الإمبراطور لمرأى هذه الجموع من العامة، واضطر لنقلهم عبر المضايق إلى آسيا الصغرى لما قاموا به من سلب وتعدّ عند أسوار القسطنطينية، وطلب منهم انتظار قدوم حملة الأمراء، ولكنهم لم يستطيعوا الانتظار. وكان من الطبيعي ألا تصمد تلك الأشتات، فلقوا هزيمة قاسية على يد السلاجقة الذين أجهزوا على الحملة وقتل والتر المفلس، ولم ينجُ منهم إلا حوالي ثلاثة آلاف، وعاد بطرس الناسك هاربا إلى القسطنطينية عام 490هـ / 1096م.

وإذا كانت حملة الشعوب قد فشلت، فإن حملة الأمراء حققت ما أرادته بيزنطة. ففي أواخر صيف 490هـ / 1096م وصلت إلى بيزنطة مجموعة من الأمراء والقادة وجيوشهم، وكان لكل مجموعة منها طابعها، فهناك مجموعة يغلب عليها الطابع الفرنسي يقودها أمير لوترانجيا جودفروا دي بوايون Gaudefroy de Bouillon وبرفقته أخوه بلدوين البولوني وعدد من الأمراء، ثم حملة نورمانية بقيادة بوهمند النورماني، ثم مجموعة أخرى وافدة من إقليم بروفانس بقيادة ريموند الرابع أمير تولوز Raymond de Toulouse، وكان معه المندوب البابوي الأسقف ادهيمار أسقف بوي ليكون مندوباً للبابا، ثم هناك مجموعة يقودها دوق مقاطعة نورمنديا روبار Robert de Normandie وابن وليم الفاتح وستيفن كونت بلوا. وهكذا فإنّ الحملة جمعت جنسيات مختلفة وإن كان يغلب عليها الطابع الفرنسي. وقد طلب الإمبراطور منهم أن يقسموا له يمين الولاء الذي ينص على الاعتراف بالإمبراطور سيدًا أعلى لكل ما يفتحونه من أراض، وأن يسلموا لموظفي الإمبراطور كل ما يغنموه من بلاد، والتي كانت أصلا من أملاك الإمبراطورية البيزنطية قبل موقعة مانزكرت، في مقابل إمدادهم بالمؤن والانضمام إليهم عند الاحتياج لقواتهم. ولم يلق هذا استجابة من الصليبيين وخاصة جودفروا دي بوايون، فيما عدا بوهمند الذي وافق. ولكن أمام

ضغط الإمبراطور اضطروا في النهاية للاستجابة. وقد أمدهم الإمبراطور بفرقة يقودها القائد تاتيكوس Tatikos وبمؤن وبأدلاء ليدلوهم على طريقهم عبر أراضي آسيا الصغرى، واتجهت الجيوش إلى نيقية عاصمة السلاجقة وأكثر مدنها حصانة في 6 مايو 1097م (491هـ)، وكان قلج أرسلان آنذاك يحاصر ملطية، وكان اعتقاده أن الحملة لن تزيد عن غزوة مثل تلك التي واجهها مع جموع العامة. وحاصر كل من الصليبيين والبيزنطيين المدينة، ولما سمع السلطان بحقيقة الأمر، سارع في العودة إلى عاصمته، لكنه لم يستطع فعل شيئًا، بل ترك الحامية في المدينة لاتخاذ ما تراه مناسبًا، بالرغم من وجود زوجته وأولاده. وتفاوض الإمبراطور منفردًا مع الحامية التركية بعيدًا عن الصليبيين، وأخيرًا اضطرت الحامية للتسليم لبيزنطة في يونيه سنة 491هـ / 1097م في مقابل تأمينهم، ودخلت قوات الإمبراطور إلى المدينة، وكان هذا الأمر من دواعي استياء الصليبيين الذين أرادوا نهب المدينة والحصول على غنائم واعتبروها خيانة لهم.

والتقى قلج أرسلان وغازي الدانشمندي بالصليبيين في معركة في سهل ضوريليوم، وانتصر الصليبيون في يوليو 1097م (491هـ)، وانسحب السلطان من قونية واحتلها الصليبيون، وبذلك تحقق لبيزنطة ما أرادت من السيطرة على آسيا الصغرى وتحطيم قوة الأتراك. وسعى الإمبراطور لإجلائهم عن الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى، واسترد البيزنطيون الجزء الغربي من الأناضول. ولقد تم طرد الأتراك من بثينا، وأيونيا، وليديا، وفريجيا، ولم تحاول القوى الإسلامية في الشام أو العراق مساندة أقاربهم لانشغالهم بخلافاتهم وقتال بعضهم البعض، ويعدّ هذا الموقف من عوامل السقوط السريع لسلاجقة الروم بالإضافة إلى دور الأرمن ومعاضدتهم للصليبيين. ولقد استراح الصليبيون في هرقلة لعدة أيام، ثم انقسموا قسمين: قسماً يضم غالبية الجيش بقيادة جودفروا وبوهمند وريموند اتجه إلى الشمال الشرقي تجاه قيصرية، في حين اتجه بلدوين وتنكرد نحو سهول قليقية وهي من الأقاليم التي يكثر بها الأرمن، وحدث تنافس بينهما على الإقليم. ولقد استطاع بلدوين أن يؤسس أول إمارة صليبية وهى إمارة الرها التي كان يحكمها ثورس الأرمني. وبالرغم من أن ثورس رحب به وتبناه، فإن بلدوين اشترك في مؤامرة قضت على الحاكم الأرمني وكون أول إمارة صليبية. وقد أساء الصليبيون للأرمن، فقد عمل المزارعون في ظل قيود النظم الإقطاعية في الغرب.

أما الجيش الرئيس فقد اتجه بعد ذلك إلى أنطاكية في أكتوبر1097م (491هـ)، وكان يحكمها ياغي سيان أحد القادة الأتراك الذي عينه ملكشاه عليها بعد أن أخذها من أخيه تتش وظل فيها بعد وفاة ملكشاه وتتش. وكان ياغي سيان على خلاف مع رضوان صاحب حلب، في نفس الوقت الذي كان رضوان في خلاف مع شقيقه. وكانت الصراعات على أشدها في الشام بين الفاطميين والسلاجقة، وقام الصليبيون بحصار المدينة، وكانت المدينة من أقوى المدن تحصينا، وأخرج ياغي سيان السكان من الأرمن والسريان لخوفه من تعاونهم مع الصليبيين واحتفظ بعوائلهم، واستمر الحصار مدة سبعة أشهر من 21 من أكتوبر 1097م إلى 3 من يونيو 1097م (491هـ)، واستنجد ياغي سيان بالقوى الإسلامية، وكان افتقار تلك القوى للثقة فيما بينها، سببا في جعل المقاومة غير إيجابية.

وقد ظهرت شخصية بوهمند النورماني أثناء الحصار لطمعه في الاستيلاء على أنطاكية، فأخذ يحوك المؤامرات لإبعاد بيزنطة المطالب الأول

بأنطاكية، فاتهم تاتيكوس Tatikos بالتآمر مع الأتراك ضد الصليبيين مما اضطره للانسحاب. ولقد وصل عدم فهم القادة المسلمين لماهية الحروب الصليبية إلى ما قام به الأفضل بن بدر الجمالي (489 - 515هـ / 1095- 1121م) بإرسال سفارة لمفاوضة الصليبيين وهم أمام أنطاكية لاقتسام الشام، وعاد السفراء إلى مصر، ومعهم رسل الصليبيين، وكان هدفهم عقد اتفاق بحيث تكون بيت المقدس للفاطميين، على أن يسمحوا للصليبيين بزيارة الأماكن المقدسة على ألا تزيد مدة إقامتهم على شهر، وأن يكون للصليبيين أنطاكية. ولم يكن لدى الصليبيين رغبة حقيقية في التفاوض، وإنما وافقوا على الأمر للتسويف. وكان الأفضل قد أرسل جيشًا أخذ بيت المقدس (492هـ / 1098م) من سكمان بن ارتق. ولإثارة الفرقة بين المسلمين، راسل الصليبيون دقاق ليقنعوه بأنهم لن يتعرضوا له وأنهم لا يريدون إلا أملاك بيزنطة. وقد أرسل ياغي سيان يستحث القوى الإسلامية على الوقوف لجانبه، واستجاب رضوان أمير حلب وكذلك أمراء ديار بكر وأمير حماة وقوات من الأراتقة، وكان الهدف القيام بهجوم مشترك بين القوى الإسلامية المحاصرة في المدينة والقوى الإسلامية التي جاءت من الخارج فيصبح الصليبيون محصورين بين الجانبين، ولكن تسربت أخبار ذلك الاتفاق عن طريق السريان والأرمن، وانتهى الأمر بهزيمة المسلمين وانسحابهم، وأرسل ياغي سيان يستنجد ببركياروق سلطان السلاجقة وكربوغا حاكم الموصل الذي أعدّ حملة ولكنها تأخرت في الوصول، وحاول بوهمند استغلال الأوضاع والإيحاء بأن بيزنطة تخلت عنهم، وحصل على وعد من الصليبيين بأنه من حقه الانفراد بالمدينة إن كانت قواته أول من يدخل إليها ما لم يتقدم الإمبراطور لمعاونتهم. ولعبت الخيانة دورها، فقد تآمر بوهمند مع أحد قادة ياغي سيان ويدعى فيروز الأرمني الذي كان يكنّ العداء لياغي سيان. وسقطت المدينة في 3 من يوليو، ولكن ظلت القلعة صامدة، وتم حصار أنطاكية، وبدأ حصار مزدوج. ومع اشتداد المعاناة بالصليبيين ظهرت قصة العثور على الحربة التي طعن بها المسيح والتي ثبت عدم صحتها. وقد تراجع الإمبراطور عندما أبلغه بعض الفارين من الحصار لتبرير فرارهم بأن السلاجقة قد استردوا المدينة، مما أثر على نفسية الصليبيين وأفقدهم الثقة في البيزنطيين، وفي نفس الوقت كان الجيش الإسلامي ينقصه التماسك ويفتقر إلى وحدة الصف، بل حدث شقاق بين قادته، مما أدى إلى إلحاق الهزيمة بالجيش الإسلامي واضطر للتراجع. وحدث صراع بين بوهمند وريموند على المدينة، فأصر ريموند على استدعاء الإمبراطور البيزنطي للحضور لتسليمها بنفسه، على أن يقوم بمساعدتهم في الزحف على بيت المقدس. ولكن الإمبراطور اعتذر وطلب تأجيل ذلك لشهر يونيو. ومنذ ذلك الحين توقفت مساعدة بيزنطة الفعلية، ثم ساءت صورة بيزنطة بوقوع خطابات بين حكامها والفاطميين في أيدي الصليبيين، ويقال إن الإمبراطور لم يشعر بالارتياح لمتاخمة الصليبيين لحدوده، أما عن التعامل مع سكان المدينة من المسيحيين الشرقيين فقد أوصى البابا الأسقف ادهيمار بمعاملة الجالية اليونانية معاملة طيبة وخاصة أنها كبيرة العدد. ومع ذلك عزل بوهمند البطريرك الأرثوذكسي. وبعد مرور ستة أشهر تحرك الصليبيون في اتجاه بيت المقدس، ودعوا البابا للحضور لقيادة الحملة ولكنه اعتذر. وفي الوقت الذي أرسل الإمبراطور يذكر الصليبيّين باتفاقهم، أرسل رسالة للفاطميين ينفي صلته

بالحركة الصليبية بعد رفض الصليبيين تسليم أنطاكية له.

وقد حاصر الصليبيون بيت المقدس، وتحرك جيش ريموند جنوباً عند منحدرات جبل النصيرية. وبالرغم من خطورة الموقف، فإنّ القوى الإسلامية لم تلق بالاً لما يحدث، فقد اتخذت الإمارات العربية موقفاً متخاذلاً فتعهدت شيزر بعدم التعرض للصليبيين للإبقاء على كيانها، وعقد معهم أمير مصياف اتفاقية، وأرسل أمير حمص يهادنهم، ونفس الأمر فعله أمير طرابلس. وهكذا كان الموقف، فلم يتقدم أحد للدفاع إلى جانب الفاطميين ضد الصليبيين لسابق مواقفهم. وقد استولى الصليبيون على يافا ليضمنوا وصول الإمدادات التموينية عن طريق البحر، وقام حاكم بيت المقدس من قبل الفاطميين، ويدعى افتخار الدولة، بتحصين المدينة، ولكن بعد استمرار حصار المدينة ما يقرب من خمسة أسابيع، استطاع الصليبيون الاستيلاء على المدينة في (22 من شعبان 492 هـ / 15 من يوليو 1099م). وقد جرت مذابح للأهالي، فحتى أولئك الذين احتموا بالمسجد الأقصى تتبعهم الجند وأحدثوا بهم مذبحة وحشية رهيبة وصفتها المراجع الإسلامية والصليبية على حد سواء، وكانت الفئة الوحيدة التي سمح بخروجها سالمة، افتخار الدولة وجنوده الذين سمح لهم بالذهاب إلى عسقلان، وبعد أن ظلوا يقاتلون إلى أن أمنهم الفرنجة.

وكان الأمر الذي واجه الصليبيين بعد الاستيلاء على المدينة اختيار حاكم لبيت المقدس. واستقر الأمر على جودفروا دي بوايون في يوليو 1099م (493هـ)، واتخذ لقب حامي القبر المقدس. وقد شعر الفاطميون بخطر التواجد الصليبي، فقام الأفضل بن بدر الجمالي الوزير الفاطمي بإعداد حملة لمواجهة الصليبيين، لكنها منيت بالهزيمة في عسقلان في أغسطس 1099م (493هـ). كذلك استطاع ريموند سان جيل الاستيلاء على طرابلس وتكوين الإمارة الصليبية الرابعة بعد الرها وأنطاكية وبيت المقدس.

وعند وفاة جودفروا تولى أخوه بلدوين البولوني مملكة بيت المقدس وحمل لقب ملك بيت المقدس، واتجه الصليبيون للاستيلاء على مدن الساحل الشامي ليدعموا خطوط اتصالهم بأوروبا، فاستولوا على حيفا وعكا وبيروت وصيدا، وحاول الفاطميون وقف التوسع الصليبي فقاموا بإرسال عدد من الحملات في أعوام (495هـ / 1101م) و (496هـ / 1102م) و (499هـ / 1105م). وفي عام (548هـ / 1153م) فقدت الدولة الفاطمية ميناءها الأخير، ومنفذها البحري عسقلان، وأصبحت هي نفسها مطمحاً للصليبيين. لقد كان نجاح الصليبيين نتيجة لفقدان الثقة والتعاون بين المسلمين وبين حكام مصر والشام، فالخلاف والصراع أدّيا إلى دق الوتد الصليبي.

حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبين:

1 - الزنكيون :

كانت الخلافات الإسلامية هي العامل الرئيسي في نجاح الغزو الصليبي. وقد حلل المؤرخ ابن الأثير بعبارة بليغة حقيقة ما حدث للعالم الإسلامي على يد الصليبيين بقوله: "لما استطال الفرنج خذلهم الله تعالى، بما ملكوه من بلاد الإسلام. واتفق لهم اشتغال المسلمين بقتال بعضهم بعضا فتفرقت حينئذ بالمسلمين الآراء".

وبعد صدمة الغزو وتخاذل القوى الإسلامية وانهيار الروح المعنوية، نبت من اليأس احتياج حقيقي للبعث ولقيادة فعّالة. وبدأت تظهر حركة

إفاقة ودعوة للوحدة والتصدي للقوى الصليبية. بدأت الحركة في شمال العراق وعلى يد أتابكة الموصل خاصة، وانتقلت في الفترة التالية إلى شمال الشام. وكانت ممتلكات الصليبيين أجزاء متفرقة لا تربط بينها رابطة وتفصل بينها أراضٍ ومدن وبلاد إسلامية، وكانت البداية بشمال العراق لمتاخمتها لإمارة الرها الصليبية، كما أنها تربط بين جبهة المسلمين في شمال العراق والشام لقربها من مركز الخلافة. وكانت حركة الإفاقة على المستويين السياسي والشعبي. فقد بُعثت فكرة الجهاد في نفوس العامة في البلدان التابعة للخلافة العباسية، فقام العامة بإنذار الخليفة العباسي بوجوب مقاومة الغزو الصليبي بعد أن تعرضت حلب لحصار الصليبيين، فخشي المسلمون استيلاء الفرنج على بقية بلاد الشام، فسار جماعة من أهالي حلب إلى بغداد مستنصرين على الفرنج، وأخذ الفقهاء يدعون على منابرهم، وألفت الكتب، وألقيت الدروس التي تحث على الجهاد وذلك في نفس الوقت الذي وصل مندوب من الإمبراطور البيزنطي (الذي كانت علاقته قد ساءت بالصليبيين بعد رفضهم تسليمه أنطاكية) يحث الخليفة على قتال الفرنج، مما جعل أهالي حلب يطلبون من الخليفة التدخل: "أما تتقي الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية للإسلام، حتى لقد أرسل إليك في جهادهم". ولقد اضطر الخليفة المستظهر بالله أن يحث السلطان السلجوقي على إرسال الجند لمواجهة الصليبيين الذين بدأوا يهددون الوجود الإسلامي. فبدأت بواكير حركة الجهاد وإن كان حد من فعاليتها اتصال بعض المسلمين بالقوى الصليبية، فقرر السلطان السلجوقي محمد سلطان سلاجقة فارس إرسال جيش لمحاربة الصليبيين في الشام، وجعل على رأسه مودود صاحب الموصل الذي أوكل إليه السلطان السلجوقي إقليم الجزيرة والمشرق، فقام بحملات خلال السنوات 505 - 507هـ / 1111-1115م، وانضم إليه عدد من أمراء المسلمين. ورغم هزيمة بلدوين الأول وحلفائه عند الصنوبرة، فإن عوامل الفرقة عادت لتظهر بين القوات الإسلامية. وقد قتل مودود 507هـ / 1113م على يد أحد الباطنية .

ونتيجة لاضطراب الأمور في حلب بعد موت رضوان ومقتل بدر الدين لؤلؤ الوصي على حلب، استطاع الأمير نجم الدين ايلغاز بن ارتق صاحب ماردين وديار بكر أخذها. وخفت وطأة الهجوم الإسلامي على جهة الشمال.

وكانت أحوال دولة السلاجقة واختلاف حكامها أحد الأسباب التي جعلت المقاومة الإسلامية لا تؤتي ثمارها. فقد نشب خلاف بين بركياروق وأخيه محمد حول تقسيم ملك أبيهما ملكشاه انتهى بأن أخذ بركياروق اصفهان ولقب السلطنة، ومحمد أخذ أرمينيا وأذربيجان والجزيرة والموصل والشام، إلا أن سلطة كل منهما أصبحت اسميه أمام ازدياد نفوذ الأتابكة والحكام المحليين الذين دخلوا في خلاف مع بعضهم البعض. ثم توفي بركياروق وعهد لابنه الطفل. وقد ظهرت محاولة لاتخاذ موقف موحد بين مصر والشام، وهو ما كان يخشاه الصليبيون فعلا حتى لا يقعوا بين شقي الرحا. ولمواجهة الخطر الذي تتعرض له المواقع الفاطمية في الشام، حشد الأفضل جيشه في عسقلان، وأرسل أسطولا إلى صور، وحاول الاتفاق مع طغتكين أتابك دمشق الذي حضر بنفسه إلى عسقلان. وهذا التحالف بين الدماشقة السنة مع الفاطميين الشيعة كان يعدّ تهديدا للصليبيين ومملكة بيت المقدس. وقد استمرت المحاولات الإسلامية المناهضة للصليبيين، فلقد لقي روجر الأنطاكي وآلاف من الصليبيين الهزيمة على يد الأمير ايلغازى عام 513هـ / 1119م في معركة

ساحة الدم، واستطاع بلك بن بهرام، وهو ابن أخ ايلغازي، أسر الملك بلدوين الثاني ملك بيت المقدس سنة 518هـ / 1124م، وتولى مهاجمة الصليبيين إلى أن قتل. ولقد استطاع أقسنقر البرسقى أتابك الموصل أن يضم إليه حلب وهو ما عدّ فيما بعد نواة لتوحيد المسلمين في أطراف الشام والعراق وتكوين جبهة إسلامية. وكان ما يخشاه الصليبيون أن يقطع هذا الاتصال الصلة بين إمارة الرها وبين الإمارات الصليبية في الشام، وفي نفس الوقت كان أقسنقر يمثل السلطة السياسية الشرعية الكبرى وهي السلاجقة والعباسيّون بعكس القوى الأخرى المبعثرة من الإمارات الإسلامية. إلا أن البرسقي قتل على يد الباطنية في الموصل سنة 520هـ / 1126م وخلفه ابنه عز الدين مسعود ولكنه مات مسموماً، ووقعت حلب في حالة فوضى بعد وفاته لتتصارع القوى الإسلامية على امتلاكها. وخلال تلك الفترة ظهرت شخصيّة قدر لها أن تقود حركة الجهاد ضد الصليبيين وتتزعمها وتؤكد الارتباط بين الشام والعراق وأن النصر لا يتم إلا بتوحيد جبهة الإسلام وهو عماد الدين زنكي ثم ابنه نورالدين محمود، حيث كوّن عماد الدين أسرة قدّر لها أن تدمر أولى لبنات الكيان الصليبي وهي الرها، ثم سار ابنه نورالدين على الدرب، ثم أكمل المسيرة أحد قادتهم وهو صلاح الدين الأيوبي. والملاحظ أن كل دولة من تلك الدول نشأت من رحم سابقتها. فالزنكيون كانوا أتباعاً للسلاجقة، والأيوبيون أتباع للزنكين. فهي سلسلة مترابطة الحلقات، إذا تراجعت فاعلية قوة حلّ محلها جيل آخر. فهي دول كونتها قيادات حربية حكمت العالم الإسلامي، وكانت نتاج عصر وبيئة، فزنكي ابن حقبة تاريخية هامة نشأ على أرض الشام التي استباحها الصليبيون وفي بيئة أصبح الجهاد فيها مطلبا، وكان يرى أن الوحدة الإسلامية هي المطلب الأول لتطهير الأرض من الصليبيين، فالصراعات الإسلامية كانت مدخل التواجد الصليبي، وقد قال عنه ابن الأثير: "لولا أن الله تعالى منّ على المسلمين تملك أتابك بلاد الشام لملكها الفرنج إذ خلا الشام من رجل يقوم بتبصير أهله"، وإن كانت الصراعات اقتطعت جزءا من جهده. كان زنكي ابناً لقسيم الدولة أقسنقر الذي كان حليفا لبركياروق ضد تتش. وبعد مقتل أقسنقر تولي الوصاية عليه وتربيته حاكم الموصل كربوْغَا الذي كان صديقاً لوالده، وتمتع بمكانة خاصة لديه ولمن خلفه على الموصل وهو شمس الدولة جكرمش ثم جاولي اسقاو، وتوطدت علاقته بمودود أمير الموصل (502-507هـ / 1108-1113م) الذي اشترك زنكي معه في حملاته ضد الصليبيين وظل ملازما له إلى مقتله على يد الباطنية ثم التحق بخدمة الوالي جديد جيوش بك وانضم إلى البرسقي في الجهاد، كذلك دخل في معترك الصراعات السياسية الدائرة على الساحة بين الخلفاء العباسيين وسلاطين السلاجقة وبين السلاجقة وبعضهم وبعض، فدخل في الصراع بين السلطان مسعود وأخيه محمود. وحين تولى البرسقي الموصل وأمور العراق عينه على واسط، ثم أضاف إليه البصرة وأصبح من القادة المشهورين. وفي الصراع بين المسترشد والسلطان محمود انضم إلى السلطان، وبعد الصلح عين زنكي شحنة للعراق، وبعد وفاة عز الدين البرسقي تولى أمر الموصل والجزيرة وما يفتحه من بلاد الشام وأصبح أتابكا أومربّيا لولدي السلطان السلجوقي (أرسلان والخفاجي).

وكان زنكي يرى أن قتال الصليبيين يستوجب قيام جبهة إسلامية متحدة والقضاء على الخلافات الإسلامية. فالسبب وراء فشل الجهود

السابقة تفرق كلمة المسلمين واستعانتهم بالصليبيين ضد بعضهم البعض.

وقد بدأ زنكي جهوده لتوحيد القوى الإسلامية بضم المدن في منطقة الجزيرة وخاصة أن هناك العديد من المدن شبه المستقلة التي يحكمها أمراء لا يزيد ما يملكونه عن حدود مدينة واحدة، فأصبح من السهل ضمها وخاصة أنه يملك شرعية بوجود تفويض من السلطان السلجوقي. وقد سلم إليه جاولي الموصل بعد وفاة عز الدين مسعود، ثم ضم جزيرة ابن عمر ونصيبين، ثم اتجه بعد ذلك إلى حلب التي اضطربت أمورها بوفاة عز الدين وطمع فيها الفرنج، فاستطاع الاستيلاء عليها عام 522هـ / 1128م برضى أهلها، ثم تزوج من ابنة رضوان لإضفاء الشرعية على تملكه حلب، كذلك ضم المدن بين حلب والموصل كسنجار وحران.

وبعد حلب سعى إلى ضمّ دمشق، إذ لن تكتمل جبهة الشام إلا بدمشق وخاصة بعد أن أعلن أميرا حمص وشيزر خضوعهما له. وكان قد تولى أمرها بعد وفاة طغتكين سنة 522هـ / 1128م، تاج الملوك بوري.

ولكنّ دخول زنكي في الصراعات بين الخلفاء والسلاجقة عطل إتمام مشروع خلق جبهة موحّدة. فلقد حدثت خلافات في البيت السلجوقي بعد وفاة السلطان محمود، إذ تعرّض ابنه داود لثورة أعمامه سلجوق ومسعود وطغرل، وأيّد الخليفة المسترشد سلجوق حين وقف زنكي إلى جانب مسعود، كذلك رفض أهل دمشق تسليمها إليه وتزعم المقاومة أحد مماليك طغتكين وهو معين الدين أنر، فاضطر إلى عقد صلح 530هـ / 1135م وتركها مؤقتا. ولقد تحسن وضعه في العراق بعد قتل الخليفة المسترشد على يد الباطنية سنة 530هـ / 1135م وتولى الراشد وبعده المقتفي اللذيْن استعانا بزنكي.

وقام زنكي بمواجهة الصليبيين في شمال العراق والشام. والتقى بالجيوش الصليبية التي ضمت الملك فولك وريموند صاحب طرابلس الذين حاقت بهم الهزيمة عند بعرين، وعقد زنكي صلحا حصل بمقتضاه على خمسين ألف دينار وحصن بعرين.

وقد دخلت بيزنطة إلى ساحة الشام مرة أخرى في عهد الإمبراطور البيزنطي حنا الثاني كومنين (512 - 538هـ / 1118 - 1143م)، وكان أحد أهدافه طرد السلاجقة من آسيا الصغرى واسترداد قليقية من الأرمن، فضلا عن دخول أنطاكية في طاعته، فقام بحصار أنطاكية ولكن توصل الطرفان البيزنطي والصليبي إلى اتفاقية، فاعترف ريموند بسيادة بيزنطة بعد موافقة فلك ملك بيت المقدس، وتحالف الفريقان سنة 533هـ/1137م ضد زنكي والمسلمين، واتفقوا على انتزاع حلب من زنكي وإمارة بني منقذ في شيزر، وحمص من أتابكة دمشق، وإقامة إمارة تشمل تلك المدن ليصبح ريموند أميرًا عليها مقابل ترك أنطاكية للإمبراطور. وحاصر الإمبراطور حلب لكنه لم يستطيع الاستيلاء عليها وإن كان قد أخذ الأثارب وكفر طاب ومعرة النعمان. ولجأ زنكي إلى سياسة الإيقاع بين الصليبيين والبيزنطين، ونجحت سياسته تلك في تغيير موقف أمير الرها وأنطاكية عند شيزر، فانسحب الإمبراطور عائداً إلى القسطنطينية، وكان من الطبيعي أن يزيد موقف عماد الدين زنكي قوة. وكانت الخطوة التالية لاستكمال الجبهة أخذ دمشق فحاصرها. فاستعان معين الدين أنر الذي يدبر أمور صاحبها مجير الدين ابق بالصليبيين، وتعهد بدفع مبالغ من المال لخوفهم من تملك زنكي لدمشق فاضطر إلى رفع الحصار والتراجع.

أما أهم فتوح زنكي فقد كانت استيلاءه على

الرها. وقد ساعدته ظروف الصليبيين، فقد توفي فلك ملك بيت المقدس وحلّ محله صبيّ هو بلدوين الثالث تحت وصاية أمه، كذلك توفي حنا كومنين وانفصمت عرى الرابطة البيزنطية الصليبية، في نفس الوقت الذي كان يلي الرها حاكم ضعيف الشخصية هو جوسلين الذي وصفه وليم الصوري بالجبن ولم تكن له خبرة سياسية. وكانت أمه أرمينية ففضل الأرمن الأرثوذكس على الكاثوليك الصليبيين، في الوقت الذي قام زنكي بتدعيم علاقته مع السلطنة السلجوقية وعقد هدنة مع صاحب حصني كيفا. وحاصر زنكي الرها عام 539هـ / 28 من نوفمبر 1144م. واستنجد جوسلين الثاني بأمير أنطاكية وحاكم بيت المقدس، ولكن النجدة وصلت بعد سقوط المدينة. وقد عامل زنكي الأرمن والسريان معاملة طيبة.

وكان لسقوط الرها تأثير على الجانب الإسلامي والصليبي. فالمسلمون ارتفعت معنوياتهم وبعث في نفوسهم الأمل في طرد الصليبيين، وفي نفس الوقت شعر الصليبيون بالخطر الذي يتهددهم، كذلك كان لسقوطها وقع كبير على مسيحيي الغرب .

وقد تقلصت أملاك جوسلين الثاني، فلم يبقَ من إمارته سوى تل باشر وسميساط ومرعش ودلوك وعينتاب والراوندان. وقد حاول أهل الرها الثورة ولكن أخمد زنكي ثورتهم، واتجه زنكي إلى حصار قلعة جعبر التي كانت تقع داخل أراضيه ولكن قتل في عام 541هـ / 1196م على يد أحد غلمانه.

خسر العالم الإسلامي بوفاة زنكي بطلا مجاهدا، وأصبح رمزا للجهاد الإسلامي. فقد جعل من وادي الفرات منطقة إسلامية، كما ضمن للمسلمين السيطرة على طرق المواصلات التي تربط بين شمال الشام والعراق والجزيرة.

وترك عماد الدين أربعة أبناء ذكور: سيف الدين غازي، ونور الدين محمود، ونصرت الدين، وقطب الدين. ولقد قدّر لابنه نورالدين أن يتولى زعامة الحركة الإسلامية. وكان سيف الدين غازي الابن الأكبر، إلاّ أنّه توفي في عام 544هـ / 1149م. وفي عهد نورالدين تقدمت حركة الجهاد خطوات عديدة، فتمّ توحيد محور حلب ودمشق والموصل، واتجهت قواته لمصر ودخلت القاهرة تحت سيطرة الدولة النورية، وعاد محور القاهرة دمشق، وعادت مصر لتدور في فلك الخلافة العباسية وأصبحت تمثل خطرا على الصليبيات وهو المشروع الذي أتمه صلاح الدين.

تولى نورالدين حلب وساعده قادة أبيه صلاح الدين محمد الياغسياني، ومجد الدين ابن الداية، وأسد الدين شيركوه، وسيف الدين سوار. ومنذ بداية حكمه سار على سياسة أبيه الرامية إلى إيجاد جبهة قوية ومحاربة الصليبيين في نفس الآن.

وقد حاول جوسلين استعادة الرها، لكن نورالدين استطاع محاصرته واضطره للفرار. واستعاد نورالدين عدة قلاع كارتاح والأثارب .

ولتوحيد الصف الإسلامي، عقد نورالدين صلحا مع أنر صاحب دمشق وتزوج ابنته، كذلك واجهت نورالدين مشكلة الإسماعيلية الذين سعوا إلى عدم تمكين قوة إسلامية من فرض نفوذها أو توحيد المنطقة، فتحالفوا مع الصليبيين ضده. وقد انتصر عليهم في معركة أنب سنة 543هـ / 1148م.

أما التحدي الحقيقي لنور الدين فقد كان قدوم الحملة الصليبية الثانية التي استجاب لها في الغرب كل من كونراد الثالث ملك ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا. ويتساءل كلود كاهن هل كانت هناك رغبة في الشرق اللاتيني لقيام حملة صليبية ثانية؟ وفي رأيه أنه من المؤكد أنهم كانوا يرغبون في الحصول على الإمدادات، ولكن فيما يخص ما

تضمّنته من إنزال واسع يقضي أن تسلم قيادته للحكام فذلك أمر يجوز التشكيك فيه. وقد عبر كنراد الثالث آسيا الصغرى مخترقا أراضي السلاجقة، وحدث خلاف بينهم وبين البيزنطيين فتخلى عنهم أدلاؤهم وهاجمهم السلاجقة في اسكى شهر 542هـ / 1136م. والتقى كنراد في نيقية بلويس السابع ملك فرنسا الذي كان قد اضطر أن يقسم يمين الولاء للإمبراطور البيزنطي. وقد عاد كنراد إلى القسطنطينية لمرضه، في حين اتخذ لويس طريق البحر من أنطاليا إلى أنطاكية.

وقد سعى كل فريق من الصليبيين إلى استغلال الحملة لصالحه. فجوسلين حاكم الرها السابق رأى أن الحملة جاءت لاستعادة إمارته، وريموند أمير طرابلس سعى إلى أخذ بعرين، وريموند بواتييه أمير أنطاكية أراد استغلال كونه عمّ اليانور لمهاجمة حلب، في نفس الوقت الذي سعى ملك بيت المقدس لتوجيهها إلى دمشق. وعلى الرغم من علاقة حكام دمشق بالصليبيين، فإن غزوها في رأيهم سيحول دون التحالف بين شمال الشام ووسطه، وقربها من القدس سيسهل وصول إمدادات الصليبيين ويمكنهم من تكوين دولة قوية. وحاصر الصليبيون دمشق في أوائل يوليو 1148م (543هـ)، وسارع معين الدين أنر يطلب النجدة من صهره نورالدين وأخيه سيف الدين والنواب التابعين لدمشق. ويذكر كاهن: "لقد كان حصار دمشق، حيث اجتذب إليه الصليبيون، بعيدًا تماماً عن الكفاح الذي ينبغي خوضه ضد نورالدين الذي كان من ألد الأعداء، ولقد استفاد من هذا الحصار لنشر دعايته الشخصية بين الدمشقيين". فاستنجاد أنر بنور الدين وأخيه أتاح لهما الفرصة للتدخل في شئون دمشق، فاشترطا أن يكون لهما نوابهما بمدينة دمشق، فإذا انهزموا دخلت عساكرهم بإحكام إلى المدينة واهتموا بها، وإن انتصروا سيتركون له دمشق ويعودون إلى بلادهم. وكان أنر يعرف أنه لو سمح لولدي زنكي بدخول دمشق فلن يتركاها، لذلك أرسل للفرنج يقول: "ملك الشرق قد حضر، فإن رحلتم وإلا سلمت البلد إليه وحينئذ تندمون". وعرض عليهم إعطاءهم حصن بانياس مقابل رفع الحصار عام 543هـ / 1148م. وقد انتهى الأمر بفشل الحملة لعدة أسباب، منها مساعدات الزنكيين ثم حصانة المدينة بالإضافة إلى الخلاف الذي وقع بين الصليبيين الوافدين وصليبيّي الشام. وكان من نتائج هذه الحملة تدعيم موقف نورالدين وسيف الدين. كذلك ساءت العلاقة بين الصليبيين والبيزنطيين، فقد اتهم الصليبيون بيزنطة بالتخاذل عن مساعدتهم في آسيا الصغرى، كذلك أظهرت ضعف أتابكية دمشق مما سهل لنور الدين الاستيلاء عليها فيما بعد. وكان لنور الدين أطماع في شمال العراق والموصل التي يحكمها أخوه لأهميتها الاستراتيجية. وحسم الأخوان الأمر باتفاق يضع مناطق حدود فاصلة بينهما، ولكن بعد وفاة سيف الدين سنة 544هـ / 1149م حدث صراع على السلطة انتهى باستيلاء نورالدين عليها.

ولقد أكدت مكانة نورالدين انتصارُه على ريموند أمير أنطاكية وحلفائه من الحشيشة. وكان ظهور الزنكيين في شمال العراق والشام قد جعل الصليبيّين يتجهون إلى الجنوب الغربي، فاستولوا على عسقلان من الفاطميين. وبذلك فقد الفاطميون آخر وأهم معقل بحري لهم في الشام سنة 548هـ / 1153م.

وكان على نورالدين، لتوحيد الصف الإسلامي، ضمّ دمشق إليه، فهاجمها أكثر من مرة. وكان صاحبها مجير الدين ابق على اتصال بالصليبيين، ولكنها سلمت له في النهاية، وهذا ما

جعل داخل الشام من الفرات إلى بردى في قبضته. وأمام هذا استعان الصليبيون بإمبراطور بيزنطة، وكانت صاحبة أنطاكية قد تزوجت من الأمير الفرنسي رينودي شاتيون الذي عرف في المصادر الإسلامية باسم ارناط والذي اشتهر بالتهور وعدم الوفاء بالعهد، وكان من أكثر أمراء الصليبيين عداءً للمسلمين. وقد استقبل كل من أرناط وبلدوين الثالث ملك بيت المقدس الإمبراطور، ولم تحقق الحملة البيزنطية ما هو مرجو منها، لكنها بدت كمظاهرة لإظهار قوة بيزنطة. وعقد الإمبراطور اتفاقية مع نورالدين نصت على إطلاق سراح أسرى صليبيين، وقد تلا ذلك وقوع ارناط في أسر نائب نورالدين في حلب سنة 555هـ / 1160م وظل في الأسر لمدة ستة عشر عاما دون أن يحاول أحد من الصليبيين فداءه. وقد توفي بلدوين الثالث ملك بيت المقدس عام 558هـ / 1102م وخلفه أخوه عموري الذي اتصف بالمهارة السياسية والمقدرة واتجه بالحروب الصليبية وجهة جديدة إذ جعل مصر هدفاً لها لإدراكه أهمية مصر للمشروع الصليبي.

2 - الصليبيون والاتجاه لمصر:

اتجهت أنظار الصليبيين ونور الدين إلى مصر. ففكرة توحيد القوى الإسلامية المبعثرة بين النيل والفرات كانت تراود قادة الجهاد، فلم يعد الهدف وحدة الموصل ودمشق وحلب فقط بل أصبحت مصر خاتمه العقد، ومحوراً أساسياً. ولم تكن هذه نقلة جغرافية ولكنها أكدت على ارتباط مصر والشام السياسي والجغرافي. كذلك مثلت مصر للصليبيين بعداً أمنيا واقتصاديا وخاصة بالنسبة لعموري الأول الذي رأى في الوحدة بين حلب ودمشق والموصل خطرا يهدد الصليبيين، ففكر في الاتجاه إلى مصر ليدعم التواجد الصليبي في الشام.

وكانت أحوال الدولة الفاطمية قد اختلت وانهار اقتصادها تحت تأثير المجاعات المتتالية وسوء الإدارة وتعرض عدد من خلفائها خلال فترة حكم الوزراء العظام إلى القتل، فمات الخليفة الظاهر مقتولا سنة 547هـ / 1154م، وسيطر الوزير طلائع بن رزيك الأرمني الأصل على الأمور، وعين الخليفة العاضد عام 550هـ / 1160م فاستطاع التخلص من بن رزيك سنة 557هـ / 1161م. وقد خلف الوزير ابنه العادل بن رزيك فتخلص منه شاور حاكم الصعيد ووصل إلى منصب الوزارة سنة 558هـ / 1163م ولكنه استبد بالأمور وساءت سيرته فخرج عليه أبو الأشبال ضرغام بن عامر وطرده من مصر وأخذ منصب الوزارة، ولم يلبث أن لجأ هو الآخر إلى سياسة الظلم والاضطهاد فعمّ الاستياء ضده. وقد استغل عموري حالة الضعف والصراعات التي أمست فيها الدولة الفاطمية، وغزا مصرعام 558هـ / 1163م ووصل إلى بلبيس، ولكن استطاع ضرغام إرغامه على الانسحاب في الوقت الذي لجأ فيه شاور إلى نورالدين يحثه على غزو مصر وتعهد بدفع ثلث دخل البلاد له. ولكن تردد نورالدين في البداية لخوفه أن يوزع قواته بين جبهتي مصر والشام. ولكن في نفس الوقت كان يرى في مصر وكثافتها البشرية وموقعها المتوسط وما سيؤدي إليه الاستيلاء عليها من حصر الصليبيين بين جبهة في الشمال وأخرى في الجنوب ما جعله يرسل حملته الأولى لمصر عام 559هـ / 1165م بقيادة أسد الدين شيركوه وبصحبته ابن أخيه صلاح الدين الذي كان في السابعة والعشرين من عمره وبرفقتهما شاور. وفي المقابل استنجد ضرغام بالصليبيين وتعهد لهم بعقد معاهدة تصبح مصر بمقتضاها تابعة لهم. ولكن شيركوه استطاع أن يسبق الصليبيين في الوصول إلى الدلتا، وانتصر

على جيش أرسله ضرغام، وتخلى الجميع عن ضرغام وقتل. ولكن شاور لم يف لشيركوه بما تعهد به، وطلب منه مغادرة مصر، فاستعان شاور بالصليبيين، وانتهى الأمر بمغادرة كل من شيركوه والصليبيين لمصر سنة 559هـ / 1164م. ولقد التقت جيوش عموري ونور الدين على أرض مصر أربع مرات. وفي المرة الرابعة أي سنة 564هـ/1168م ثار أهل مصر على شاور لاستعانته بالصليبيين، فأحرق مدينة الفسطاط التي عسكر الصليبيون قربها، ودفع شاور لعموري مائة ألف دينار فقبلها لصعوبة الاستيلاء على القاهرة ولبلوغه أنباء عن وصول جيش شيركوه، حيث أن نورالدين كان مدركا لأهمية استيلاء الصليبيين على مصر وما تمثله من خطر على دولته وعلى الشام. وقد استطاع شيركوه الوصول إلى القاهرة، واضطر عموري للانسحاب سنة 564هـ / 1169م.

وقد استقبل الخليفة العاضد شيركوه ومنحه الوزارة ولقبه بالمنصور. وقد تخلص شيركوه من شاور وولده الكامل عام 564هـ / 1169م لقيام شاور بالتآمر عليه، ولكن ما لبث أن توفي شيركوه بعد شهرين في جمادى الآخر 569هـ / 1169م، وعندئذ خلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين.

ظهور صلاح الدين:

كان جيش نورالدين في مصر يضمّ جماعة من كبار الأمراء النورية الذين رأى كل منهم أنه أحق بتولي الوزارة، ولكن الخليفة الفاطمي العاضد اختار صلاح الدين. فقد اعتقد الخليفة أنه سيتحكم فيه لصغر سنه بعكس ما إذا تولى واحد من كبار القادة، وأن هذا سيسهل له فيما بعد التخلص من قوات نورالدين. ولكن أثبت صلاح الدين منذ البداية مقدرته، فاستمال الناس وقضى على المؤامرات التي حيكت ضده كثورة السودان التي أثارها مؤتمن الخلافة، ثم تخلص من الحرس السوداني في ذي القعدة 564هـ / 1169م ثمّ من حرس الخليفة الأرمن ومن كبار الإقطاعيين، وأحلّ محلهم جماعة من رجاله وبذلك أصبح الخليفة تحت سيطرته.

ولقد شعر عموري بمدى الخطر الذي يواجه الصليبيين من اتحاد الشام ومصر، فقرر مهاجمة مصر بالتحالف مع بيزنطة على أن يهاجمها عموري برا ويهاجمها أسطول بيزنطة بحرا. ولكن فشلت الحملة حيث أرسل نورالدين دعما عسكريا لصلاح الدين.

طلب نورالدين من صلاح الدين إسقاط الخلافة الفاطمية. فوجود خلافة شيعية تسيطر عليها قوة تتبع خلافة سنية بدا أمراً غير مقبول. ولكن تردد صلاح الدين في البداية لتخوفه من شعور سيده نورالدين نحوه، فضلا عن تخوف نورالدين من فكرة استقلال صلاح الدين بمصر. ولذلك فكر صلاح الدين في الإبقاء على الخلافة الفاطمية التي أصبحت بلا قوة ليتخذها وسيلة ضغط إذا تأزمت الأمور بينه وبين نورالدين، ولكنه اضطر في النهاية إلى حسم الأمر بناء على طلب نورالدين سنة 565هـ / 1169م. وهكذا انتهت الدولة الفاطمية، ودعي للمستضيء بأمر الله، وبهذا تمت الوحدة بين مصر والشام بقيادة أتابكية في الشام، وأحيط بحكام بيت المقدس من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، ولكن ما لبثت الوحشة أن بدت بين نورالدين وصلاح الدين. فنور الدين تخوف من سعي صلاح الدين إلى الاستقلال بمصر. ولقد بدت مظاهر الخلاف واضحة حين طالب نورالدين صلاح الدين بمحاصرة الشوبك، ولكنه تراجع بعد أن علم بقدوم نورالدين. وجمع صلاح الدين مجلساً من عائلته وتشاور فيما عليهم أن يفعلوه تجاه

نورالدين، فنصحه والده بطاعة نورالدين لأن غالبية الجيش ستنضم إلى جانب نورالدين في حالة حضوره لمواجهته. وقام صلاح الدين بالتقرب من نورالدين وإرسال الهدايا إليه، ومع ذلك احتاط بأن ضمّ اليمن إليه عام 570هـ /1174م ليتخذها مقراً له إذا اضطر لترك مصر. وقد تفجر الصراع حين دعاه نورالدين لحصار الكرك، ولكنه تراجع محتجاً بمرض أبيه، فقرر نورالدين غزو مصر ولكنه توفي سنة 570هـ / 1174م.

وبعد وفاة نورالدين تبدأ المرحلة الرئيسية في حياة صلاح الدين. فقد ترك نورالدين طفلا في الحادية عشرة من عمره وهو الصالح إسماعيل. فقام صراع بين قادته وأتابك الموصل سيف الدين غازي على اقتسام دولته والسيطرة على الأمير الطفل، واستنجد بعضهم بصلاح الدين الذي أعلن قدومه لنصرة الصالح إسماعيل، ولكن تحالف ضده أمراء نورالدين واستعانوا بالصليبيين، وحسم صلاح الدين الأمر بانتصاره عليهم في قرون حماة وتل سلطان. وقد حاول الحشيشية اغتياله، وأخيراً وصل صلاح الدين إلى الاتفاق مع الحلبيين أن تبقى حلب للصالح إسماعيل وبلاد الشام من مدينة حماة وما يليها جنوبا بالإضافة إلى مصر لصلاح الدين. وقد استطاع صلاح الدين خلال سنة 579هـ / 1183م أخذ حلب من صاحبها عماد الدين زنكي الثاني في مقابل منحه سنجار والخابور ونصيبين وسروج. كذلك رضي صاحب الموصل عز الدين مسعود أن يكون تابعا لصلاح الدين في عام 582هـ / 1186م. فصلاح الدين كان قد وضع نصب عينيْه كسابقه توحيد الجهة الإسلامية، ثم تم التفرغ لقتال الصليبيين.

وكانت أهم إنجازات صلاح الدين في ميدان الصليبيات هي تغير الخريطة السياسية لصالح القوى الإسلامية. وقد قام بتأمين مصر قبل خروجه لقتال الصليبيين، فأحاط القاهرة والفسطاط والعسكر والقطائع بسور، وحصّن القاهرة بأبراج، كما أمر ببناء قلعة على جبل المقطم لتكون مركزاً للحكم لتحميه من الثورات الداخلية للبقايا الفاطمية أو من الهجوم الصليبي، واهتم بتحصين دمياط وتنيس.

صلاح الدين والحروب الصليبية:

لم يكن أمر الجهاد غريباً على صلاح الدين. فلقد نشأ في رحاب نورالدين في دمشق حيث كانت حركة الجهاد على أشدها، وتشربت نفسه من البداية حبّ الجهاد، وبعد أن اطمأن للجبهة الإسلامية بدأ استكمال مسيرة سابقه، وكان يعلم أن تواجده على الساحة السياسية وشرعيته يتأتيان من نضاله ضد الصليبيين. وكانت أحوال الصليبيين قد ساءت بعد وفاة عموري الأول حيث لعبت مشكلة الوراثة دورًا خطيرًا، فقد خلفه ابنه بلدوين الرابع وكان مريضا بالجذام، وتولى الوصاية عليه ريموند أمير طرابلس، وكانت أخته سبيلا قد تزوجت وليم مونتفران ثم توفي بعد أن أنجبت منه بلدوين الخامس، ثم تزوجت من جاي لوزجنان سنة 580هـ / 1185م الذي أصبح وصيا على مملكة بيت المقدس. وعند وفاة ابنها بلدوين الخامس أصبح جاي ملكا مما أثار غضب ريموند أمير طرابلس الذي كان يطمع في أن يلي الأمر. وانقسم الصليبيون قسمين: حزب جاي الذي يريد الحرب، وحزب ريموند الذي يفضل سياسة سلمية. ولقد راسل ريموند صلاح الدين.

وقد زادت أحوال الصليبيين سوءا بعد أن أفرج عن أرناط من الأسر عام 573هـ / 1177م، وتزوج أرملة صاحب الأردن والكرك والشوبك، واستمرّ في سياسته تجاه المسلمين، فانتهك الهدنة

بين المسلمين والصليبيين، وتعرض للقوافل التجارية القادمة من مصر والشام. بل وصل به الأمر إلى محاولة مهاجمة الأماكن المقدسة في مكة والمدينة المنورة أكثر من مرة أولها سنة 577هـ / 1181م، فأوغل إلى تيماء أولاها إرسال صلاح الدين ابن أخيه الذي سارع إلى غزو الأردن. كذلك أراد غزو الحرمين عام 578هـ/1182م فاستولى على أيلة ثم اتجه إلى عيذاب ثم اتجه إلى شاطئ الحجاز. ويذكر المقريزي أنه صار على مسيرة يوم واحد من المدينة. ولقد أرسل صلاح الدين أسطولاً بقيادة حسام الدين لؤلؤ متولي الأسطول المصري وأدرك سفن الصليبيين، وهُزم الصليبيّون وفرّ أرناط، ولكنه عاد واعتدى على قافلة للمسلمين متجهة من القاهرة إلى دمشق عام 582هـ / 1186م رغم وجود هدنة، فاستولى على كل ما فيها وأسر المسافرين. وحين أرسل صلاح الدين إلى جاي ليأمر ارناط بإعادة ما سلب والإفراج عن الأسرى، رفض وردّ ردًا عنيفاً ؛ فقرر صلاح الدين الخروج لقتال الصليبيين، وكان ريموند قد طلب مساعدة صلاح الدين ضد جاي لوزجنان. وقد التقى المسلمون الصليبيين قرب صفورية في عام 583هـ / 1187م حيث حقق المسلمون نصرا على قوات الصليبيين الذين قتل عدد كبير منهم، وأدّى هذا إلى تغيير ريموند لموقفه ووقوفه إلى جانب جاي لوزجنان، وقام صلاح الدين بمهاجمة طبرية التابعة لريموند بعد نقضه للاتفاق. وكان هدف صلاح الدين أن يدفع الصليبيين إلى الزحف وترك مواقعهم في صفورية. وكان الجو حارا والطريق صعبا مع ندرة الماء، في حين كان صلاح الدين ينعم بالماء الوفير غربيّ طبرية عند قرية حطين. وحين وصلوا عند قرون حطين، وكان العطش قد أضعف أمرهم، أشعل المسلمون النار في الأعشاب التي على الهضبة، فزاد الدخان واللهب من مشاكلهم. وقد أحاط صلاح الدين بالصليبيين وحلت بهم الهزيمة سنة 583هـ / 1187م، وأسر ملك بيت المقدس ومائة وخمسين من الفرسان من بينهم أرناط ومقدم الداوية والعديد من الأمراء، ولم ينجُ إلا الأمير ريموند الذي استطاع الفرار إلى صور. وقد أمّن صلاح الدين الأسرى فيما عدا أرناط الذي قتله لما ارتكبه من جرائم وخيانة للعهد.

ولقد تبع ذلك استيلاء صلاح الدين على الساحل الشامي، فاستولى على عكّا سنة 583هـ / 1187م كما استولى على معاقل هامة مثل الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف ثم يافا وصرفند وصيدا وبيروت...إلخ، وسيطر على جنوب الشام، وسمح للصليبيين بحرية الاختيار بين البقاء في المدن المفتوحة أو الخروج، فاتجهوا إلى صور، ولذلك استعصى عليه الاستيلاء عليها. واستولى على عسقلان التي كان الصليبيون قد اتخذوها قاعدة لتهديد مصر. وكان هدف صلاح الدين من الاستيلاء على المدن الساحلية قبل الاتجاه إلى بيت المقدس تأمين الساحل خوفا من وصول إمدادات صليبية من البحر. وبعد ذلك اتجه صلاح الدين إلى بيت المقدس سنة 583هـ / 1187م وعرض على أهلها تسليم المدينة في مقابل تأمينهم على أرواحهم وأموالهم والخروج سالمين من المدينة. وكان عدد الصليبيين ما يقرب من ستين ألفاً، وكان باليان دي أبلين قد دخل إلى المدينة لأخذ زوجته ماريا كومنين، فالتفت حوله الصليبيون وطلبوا منه البقاء معهم. ورفضوا الاستسلام، فأقسم أن يفتحها بحد السيف. ولقد أدرك باليان عدم جدوى المقاومة وخاصة أن عدد النساء والأطفال فاق عدد الرجال بكثير. ولكن الصليبيّين هددوه بأنه إذا فتحت المدينة قسرًا فسيقومون بحرقها وتدمير قبة الصخرة

والمسجد الأقصى وقتل أسرى المسلمين، فوافق صلاح الدين على أن يغادروا المدينة مقابل فداء عشرة دنانير للرجل وخمس للمرأة وديناران للطفل. ودفع باليان ثلاثين ألف دينار فداءً للصليبيين، وتسامح صلاح الدين مع الفقراء الذين عجزوا عن دفع الفدية، وأطلق رجال الكنيسة وزوجات الأمراء. وقد قارن المؤرخون بين ما فعله صلاح الدين من تسامح بما فعله الصليبيون من مذابح في الحملة الأولى. وقد اختار الصليبيون كونراد دي مونتفرات كزعيم لهم في صور، وهي آخر ما بقي من بيت المقدس. وتلا سقوط بيت المقدس قيام صلاح الدين بمهاجمة البقايا الصليبية في الشام، فلم يبق من طرابلس إلا عاصمتها طرابلس وأنطرطوس وحصن الأكراد وعدد من الحصون، كذلك هاجم أنطاكية وفتح العديد من مدنها: كاللاذقية وصهيون وبغراس ودربساك، وبذلك انهار الكيان الصليبي.

الحملة الصليبية الثالثة : كان لسقوط بيت المقدس دويّ كبير في الغرب الأوربي، وكان كونراد دي مونتفرات المحرك الأول لتكوين الحملة بعد أخذه لصور. وقد أرسل البابا جريجوري الثامن كتباً إلى ملك انجلترا وملك فرنسا وإمبراطور ألمانيا، ووعد المسيحيين بغفران كامل لخطاياهم إذا شاركوا في الحملة، فشارك في الحملة ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا، وفيليب أغسطس ملك فرنسا، وفردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا، وبصحبته ابنه أمير سوابيا. وقد اختلف موقف بيزنطة من الحملة عن الحملات السابقة، فإسحاق انجليوس كان على صلة تحالف بصلاح الدين وبينهما مراسلات سنة 585هـ / 1189م، ولم ير جدوى في التحالف مع الصليبيين. واختار فردريك بربروسا الطريق البري عبر البلقان وآسيا الصغرى، فدخل أراضي السلاجقة. وكان قلج أرسلان قد تعهد لفردريك بربروسا بإرشاده عبر آسيا الصغرى وإن كان ابنه قطب الدين ملكشاه الثاني وقف ضد فردريك. ولقد غرق فردريك في أحد أنهار آسيا الصغرى مما أثر على مصير قواته، فعاد بعضهم إلى الغرب وبعضهم ذهب إلى أنطاكية، وأبحر ريتشارد ملك انجلترا وفيليب ملك فرنسا عام 586هـ / 1195م إلى الشرق وإن كان فيليب سبق ريتشارد، وحاصرا مدينة عكّا إذ أن صلاح الدين أفرج عن جاي لوزجنان سنة 584هـ / 1198م بعد أن تعهد بألاّ يشارك في حرب ضده، ولكن فور إطلاق سراحه ذهب إلى صور ليعود لزعامة الصليبيين، ولكن كونراد دي مونتفرات لم يسمح له بدخول المدينة، فقام جاي بحصار عكّا وكان من الممكن أن ينهي صلاح الدين الحصار لولا وصول الحملة الصليبية الثالثة. وبوصول فيليب وريتشارد ساء موقف حامية عكّا واضطر المسلمون إلى عقد اتفاقية للسماح لحامية عكّا بالخروج سالمة مع تقديم فدية وتحرير ألفين وخمسمائة من أسرى الصليبيين وردّ صليب الصليبيّين. وقد حدث خلاف بين الصليبيين بعد سقوط عكا، وعاد فيليب أغسطس إلى الغرب عام 587هـ / 1191م متعللا بالمرض، وبذلك اقتصر استكمال الحملة على ريتشارد قلب الأسد.

ولقد جرت عدة معارك بين الجانبين؛ فهاجم الصليبيون الشاطئ وفلسطين، وأخذوا يافا. وفي معركة أرسوف سنة 587هـ / 1191م كاد صلاح الدين أن ينتصر، ولكن تحولت المعركة لصالح الصليبيين. ولقد استمر صلاح الدين في الدفاع عن داخل فلسطين، ولم تنجح محاولات ريتشارد لأخذ بيت المقدس، وقتل كونراد على يد الباطنية، ولم ترجح الحرب كفة على أخرى، وكانت أحوال أوربا تتطلب عودة ريتشارد بعد أن ثار عليه أخوه وتآمر عليه مع فيليب أغسطس، فانتهى الأمر بعقد صلح

الرملة عام 588هـ /1192م على أن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور إلى يافا بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف وعكا، وتظل المناطق الداخلية بما فيها القدس في أيدي المسلمين مع السماح للمسيحيّين بزيارة بيت المقدس وأن تكون عسقلان خرابا والرملة واللد مناصفة، وبذلك لم تحقق الحملة غرضها الرئيسي باسترداد بيت المقدس رغم إمكانياتها. وقد توفي صلاح الدين بعدها بفترة بسيطة سنة 589هـ / مارس 1193م.

الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين وحركة الجهاد ضد الصليبيين:

كانت وفاة صلاح الدين خسارة كبرى للعالم الإسلامي. فرغم استمرار الأيوبيين في الحكم من بعده، لم تشهد الدولة شخصية بهذه المواصفات والإمكانيات السياسية والحربية. وقد حملت الدولة، منذ البداية، بذور الضعف متمثلا في الخلاف بين أفراد الأسرة الإخوة والأبناء، والصراع بينهم على السلطة. والملاحظ أن الطابع العام الذي ساد تجاه الصليبيين كان في غالبه ردّ فعل للهجمات والحملات الصليبية، وكان صلاح الدين قد قسم الدولة بين أولاده الذين نالوا المراكز الرئيسة، وحظي إخوته وأبناؤهم وكذلك بعض أفراد من البيت الزنكي بمراكز أقلّ. فابنه الأكبر الأفضل(589-592هـ/1193- 1196م) حصل على ملك دمشق ومدن الساحل وبيت المقدس وهونين وتبنين حتى الداروم، والعزيز عثمان (589 - 613هـ / 1190 - 1215م) مصر، والظاهر غازي حلب وشمال الشام، وأخذ الملك العادل سيف الدين أبو بكر الكرك والأردن والجزيرة وديار بكر، وأخذ الابن الأصغر لصلاح الدين سيف الإسلام طغتكين اليمن... وهكذا. ولقد نشب خلاف بين أبناء صلاح الدين الأفضل والعزيز، وهاجم كل منهما الآخر، وتدخل العادل في الخلاف بينهما في الوقت الذي كان يطمع في العرش ويرى أنه أحقّ من ابني أخيه. وانتهى الأمر بعزل الأفضل من دمشق وتولية العادل دمشق وأواسط الشام، وما لبث أن توفي العزيز بعد حكم دام خمس سنوات 595هـ / 1198م وتلا ذلك توحيد الدولة تحت قيادة العادل، وقام العادل كعادة الأيوبيين بتقسيم المملكة بين أولاده فجعل الكامل على مصر والمعظم عيسى على دمشق والأشرف موسى على حران. وعملية التقسيم تلك فتحت مجال الصراعات في الأسرة الأيوبية في فترة أبناء العادل وأحفاده.

ولقد امتنع العادل عن الدخول في مواجهة حاسمة مع الصليبيين لخوفه من قيام ثورات داخلية ومن قدوم حملة من الغرب. وحدثت عدة اشتباكات مع الصليبيين في عام 597هـ / 1197م وفي عهد هنري دي شامبني ثم عموري الثاني لوزنجان الذي عقد معه صلحاً سنة 598 هـ / 1198م. وقد تكررت المناوشات لوصول إمدادات من الغرب، فالإحساس بقرب وصول الحملة الرابعة جعل الطرفين لا يسعيان إلى القيام بعمل حاسم. ولقد تمّ عقد هدنة عام 601هـ/1204م واشترط الصليبيون أن تكون يافا لهم مع مناصفات جميع دخل اللد والرملة.

الحملة الصليبية الرابعة: كانت فكرة الاستيلاء على بيت المقدس وضرب مصر قائمة تلحّ على أذهان فرسان الغرب الأوروبي، وتم الإعداد للحملة الرابعة، التي شارك فيها مجموعة من الأمراء وعلى رأسهم بلدوين التاسع أمير فلاندرز وأخوه هنري وثيبوت أمير شامبني. وقد كان من المفروض أن تتوجه الحملة إلى الشام فبيت المقدس في أيدي المسلمين، أو ضدّ مصر بوصفها مقر الدولة الأيوبية، ولكن بدلاً من ذلك اتجهت إلى مدينة القسطنطينيّة تحت تأثير البنادقة الذين كانوا على

خلاف مع أسرة انجليوس التي منحت منافستها جنوة مزايا. ولقد استغلت البندقية المشاكل التي حدثت في بيزنطة بعد خلع اسحق وفرار ابنه الكسيوس إلى ألمانيا عند صهره مطالبا بمساعدة الغرب، وانتهت الحملة بالاستيلاء على القسطنطينية عام 601هـ / 1204م وتم تقسيم الإمبراطورية بين اللاتين والبنادقة وهربت الارستقراطية البيزنطية وكونت عدة إمارات وممالك قدر لإحداها استعادة القسطنطينية في عهد ميخائيل باليولوجوس Michel VIII Paléologue (660-681هـ / 1261-1282م). وقد كشفت تلك الحملة عن انحراف الهدف الصليبي. فلقد هاجمت دولة كانت تتزعم العالم المسيحي، وخلعت الحروب الصليبية خلالها غلالة الدافع الديني التي ارتدتها، بالإضافة إلى تشتيت قوى الصليبيّين بين الشام والقسطنطينية.

وقد ظلت سياسية العادل تجاه الصليبيين تفتقر للحزم رغم أنه هاجم حصن الأكراد وطرابلس عام 604هـ / 1207م ثم عقد صلحا مع طرابلس. وجدد الملك العادل الهدنة مع الوصي على مملكة بيت المقدس حنا دي برين سنة 606هـ / 1210م الذي كان قد تزوج من صاحبتها ماري، وقد حث الأهالي العادل على الجهاد حتى قطعت النساء شعورهن ليجدلنها حبالا لخيل المجاهدين، وتعرضت الشام لقدوم حملات صغرى كالحملة الهنغارية سنة 614هـ / 1217م.

<u>الحملة الخامسة</u>: رأى حنا أهمية مصر الاستراتيجية وخاصة أنها مركز ثقل الأيوبيين وركيزة لدعم الشام، وهزيمتها تعني ضمان بقاء المستوطنات الصليبية في الشام، فأرسل للبابا أنوسنت للدعوة للقيام بحملة تكون وجهتها أحد موانئ مصر. ولم تؤثر وفاة البابا على المشروع وهذا ما أشار إليه ابن واصل على لسان حنا برين: "فالمصلحة أن نقصد مصر ونملكها وحينئذ لا يبقى لنا مانع من أخذ القدس"، إذ أن خليفته البابا هنريوس الثالث دعا ملوك الغرب للاشتراك فيها. ولقد قرر حنا الهجوم على دلتا النيل عن طريق دمياط عام 610هـ / 1218م فلم تكن له قاعدة كسابقيه في عسقلان، لأن دمياط أقرب الموانئ المصرية إلى الشام. ونزلوا على الضفة الغربية من النيل في مواجهة دمياط، وكانت تحمي الميناء سلاسل حديدية، هي المآصر، تحول دون دخول السفن. وكان يحمي المدينة برج يعرف ببرج السلسلة. وقد أسرع الكامل ابن العادل وحاكم مصر ونصب معسكره في جنوبي دمياط، وطلب العادل من أولاده الضغط على الصليبيين في الشام. وقد سقط برج السلسلة بعد ثلاثة أشهر من الحصار في عام 615هـ / 1218م.

ولقد توفي العادل أثناء ذلك خلال سنة 615هـ / 1218م فخلفه الكامل في حكم مصر والمعظم في دمشق، وأقام الكامل جسرًا كبيرًا من التراب والأحجار في مدخل النهر ليسدّ به الطريق أمام أسطول الفرنجة، ولكن تم قطع الجسر وبطل مفعوله فأغرق الكامل مجموعة من المراكب وحملها بالأحجار والأثقال في النيل فمنعت سفن الصليبيين من العبور، ولكن اتخذ الصليبيون خليجا قديما أطلق عليه الخليج الأزرق. وقد وصل إمداد من الغرب على رأسه الكاردينال بلاجيوس مندوب البابا. وزاد الأمر سوءًا قيام القائد عماد الدين أحمد بن مشطوب بتدبير مؤامرة لعزل الكامل وتولية أخيه الأصغر الفائز ليتحكم في البلاد ويصبح أمر الدولة في يده، وانسحب الكامل من العادلية ليلاً وعسكر عند مدينة أشمون طناح جنوب دمياط، وانسحب في أثره الجند وانتهز الصليبيون الفرصة

ووصلوا إلى البر الشرقي فاستنجد الكامل بأخيه المعظم عيسى الذي قبض على ابن المشطوب وأخرجه من مصر. ووصلت إمدادات للصليبيين من الغرب وخصوصًا من فرنسا ومن قبرص سنة 616هـ / 1214م مما دعم مركز الصليبيين، فعرض الكامل على الصليبيين استعداده لإحياء مملكة بيت المقدس الصليبية القديمة وإعادتها إلى ما كانت عليه قبل حطين باستثناء حصني الكرك والشوبك. وقبل حنا دي بريين العرض ولكن رفضه كلّ من المندوب البابوي والاسبتار والداوية والبيازنة والجنوية لاعتقادهم بسهولة الاستيلاء على مصر، وأصروا على أخذ الحصنين. وعاد الكامل ليقدم مزيدًا من التنازلات فأصروا على الكرك والشوبك واشتطوا في مطالبهم. ومع اشتداد الهجوم الصليبي سقطت دمياط عام 616هـ / 1219م، وكان سقوط دمياط خسارة كبرى للمسلمين في الوقت الذي بات خطر المغول ملموسًا.

وقد نشبت خلافات بين حنا دي بريين والمندوب البابوي بلاجيوس، فعاد حنا إلى عكّا عام 617هـ / 1220م وقد جدد الكامل عرضه بتسليم جميع ما فتحه الفرنج في الساحل ما عدا الكرك والشوبك، ولكن بلاجيوس رفض وأصر عليهما مع دفع ثلاثمائة ألف دينار لتعمير أسوار القدس، واضطر المندوب البابوي لاستدعاء حنا للحضور بعد خمسة أشهر للزحف على القاهرة، ولكن اجتمع الإخوة الثلاثة الكامل والمعظم والأشرف لمواجهة الصليبيين. وعندما علم الكامل بوصول دعم للصليبيّين جدد عرضه، وتقدم الصليبيون وسط مثلث تحيط به المياه من ثلاث جهات هي بحيرة المنزلة شرقا وفرع دمياط غربأ والبحر الصغير جنوبأ، ووضع الكامل ألف فارس عند شرمساح ومعهم العربان ليقطعوا الطريق على الصليبيين فلا يستطيعون العودة لدمياط. واتخذ المعظم والأشرف مواقعهما بين الصليبيين وبين دمياط، وقطع المسلمون السدود والقناطر التي كانت على النيل وكان وقت فيضان فأصبحت الأرض طينية، وعجز الصليبيون وخيولهم عن اجتيازها ولم يستطيعوا العودة فقد قطع عليهم فرسانه الطريق، وطلب الصليبيون الصلح عام 618هـ / 1220م وسعوا للخروج بدون شروط وتمّ الجلاء عن دمياط 618هـ / 1221م وعاد الصليبيون إلى الغرب وحنا دي بريين إلى الشام بعد عقد هدنة لمدة ثماني سنوات (618-628هـ / 1221-1229م)، وبذلك فشلت الحملة الخامسة على مصر ولم يتحقق حلم الصليبيين وحنا دي بريين. ورغم أن فرنج الشرق لم يواجهوا أي خطر حقيقي طوال الفترة الأيوبية فإن الحملات تلك لم تقدم شيئًا للكيان الصليبي.

<u>الحملة الصليبية السادسة</u>: لم يستفد الأيوبيون من درس الحملة الخامسة وكيف أن الاتحاد بين الإخوة هو الطريق للنصر. فقد عادت الخلافات العائلية من جديد، وتعدّى المعظم حاكم دمشق على بعض المدن التابعة لأقاربه، فأرسل الكامل يطلب من المعظم ترك ما أخذه فرفض، وانضم الأشرف إلى الكامل. ومن الملاحظ أن طبيعة العلاقات في هذه الحملة بين أطرافها كانت مختلفة، ولقد سعى كل من الأخوين للاستعانة بقوى خارجية، فاستنجد المعظم بالسلطان جلال الدين منكبرتي سلطان الخوارزمية الذي كان قد تعرض لهجوم جنكيزخان، في حين استعان الكامل بالإمبراطور فردريك الثاني. وكان حنا دي بريين قد راسل الإمبراطور وعرض عليه زواج ابنته على أن يتم الزواج في الشام سنة 622هـ / 1225م. كذلك تعهد بإيداع مبلغ قدره مائة ألف أوقية من الذهب في خزائن البابا ضماناً لقيامه بالحملة الصليبية، ولكن

لم ينفذ الإمبراطور كلا الوعدين، وأرسل فاستدعى عروسه وتزوجها في صقلية. ويعدّ الإمبراطور فردريك شخصية متعددة الجوانب والمواهب؛ فأمه من صقلية، وأبوه ألماني يجيد العديد من اللغات، وكان محبّاً للرياضيات والعلم، (مائلاً للمسلمين) كما ذكر المؤرخون، ولم يكن هناك دافع لديه للدخول في حرب ضد المسلمين. وكان على علاقة طيبة بالكامل وبينهما مراسلات ودية، بل كانت خلافاته مع البابوية لتضارب المصالح. ولما وصلت رسالة الكامل أعاد الجواب مع سفارة بقبول إعطائه بيت المقدس في مقابل معونته ضدّ أخيه المعظم. ولقد أصر البابا على خروج الإمبراطور في حملة صليبية، واضطر الإمبراطور إلى الخروج على رأس أسطوله ولكنه عاد بعد أيام لميناء برنديزي لمرضه مما أثار غضب البابا فأصدر قرار حرمان ضده سنة 625هـ / 1227م. وقد أبحرت فرقتان من أسطوله للشام فاضطر الإمبراطور للخروج معتمدًا على وعود صديقه الكامل لتسلم بيت المقدس، فأبحر من صقلية قاصدًا عكّا، وكان الكامل في وضع حرج فلا يستطيع تنفيذ اتفاقه. فالمعظم عيسى الذي كان على خلاف معه توفي ولا يوجد مبرر لتنفيذ وعده. ولقد أرسل الإمبراطور عدة مكاتبات يطلب من السلطان تنفيذ وعده، وفي نفس الوقت قام الإمبراطور بتجديد استحكامات يافا، وراسل عددا من حكام الأيوبيين. ولقد أرسل البابا إلى الكامل يحرّضه على عدم إعطاء الإمبراطور بيت المقدس حتى لا يدعم سلطته في الغرب الأوربي. وقد أصدر البابا قرار حرمان ثانياً عام 628هـ / 1228م ضد الإمبراطور، وأشاعت البابوية موت فردريك. وأمام هذا الموقف أرسل فردريك يستعطف الإمبراطور في خطابات ويصف نفسه بمملوك وعتيق السلطان وأن استعادة القدس لا تهمه إلا لمجرد رفع رأسه بين ملوك أوربا، وانتهى الأمر بعقد اتفاقية وهو ما عرف بصلح يافا عام 626هـ / 1229م ونص على تسليم القدس بشرط أن يظل بيت المقدس على ما هو عليه من الخراب ولا يجدّد سوره وأن تظل قبة الصخرة والمسجد الأقصى بأيدي المسلمين ولا يدخلها الفرنج إلا للزيارة، وأن تكون جميع القرى للمسلمين وعليها حاكم مسلم يكون مقره مدينة البيرة فيما عدا بعض القرى من عكّا إلى القدس.

ولقد استعظم المسلمون ما حدث وثار الرأي العام الإسلامي وعمّه الأسى، وبرّر الكامل ما فعله لخوفه من أقاربه والخوارزمية من جهة ومن قيام الإمبراطور بالدخول في حرب ضدّه من جهة أخرى فيصبح بين شقي رحى، كذلك لم يرحب الفرنج بالصلح لأن الإمبراطور صادر ضده قرار حرمان من البابوية، كذلك استاءوا من ترك الأماكن الإسلامية المقدسة للمسلمين وأرادوا أن يأخذوها حربا لا سلما، ولكن الإمبراطور لم يأبه لهم. وحين رفض البطريرك تتويجه توّج نفسه في كنيسة القيامة. ولقد أبحر الإمبراطور عائدًا إلى الغرب واضطر البابا لرفع قرار الحرمان.

ولقد تلا الحملة السادسة دخول الصليبيين في فترة ضعف، ورغم ذلك لم يسع الأيوبيون لاستعادة المدينة غير المحصنة لدخولهم في صراعات، فتحالفوا مع السلاجقة ضد الخوارزمية، ثم تحالفوا ضد السلاجقة، وبعد ذلك تحالفوا ضد الكامل الذي استطاع القضاء على الفتنة لكنه توفي سنة 735هـ / 1238م.

ولقد اشتدت، كالمعتاد، الخلافات بين الأيوبيين بعد وفاة الكامل. وكان العادل الثاني قد خلف أباه، واستولى الصالح نجم الدين أيوب على دمشق عام 636هـ / 1239م ودخل في صراع مع أخيه العادل على الحكم، وانتهى الأمر بعزل العادل

الثاني وتولي الصالح نجم الدين أيوب سنة 637هـ / 1240م. وكانت قد وصلت أثناء حكم العادل الثاني حملة صليبية صغيرة للشام أغلبها من الفرنسيين بقيادة ثيبوت الرابع أمير شامبني Thibaut IV ولم تحقق نجاحًا، بل إن الناصر داود استطاع استعادة بيت المقدس بدعوى أن الصليبيين نقضوا اتفاقهم الذي عقدوه مع المسلمين من قبل بعدم تحصين المدينة، ثم وصلت حملة إنجليزية بقيادة ريتشارد كورنول (638 - 639هـ / 1240-1241م) انتهت بعقد صلح مع الملك الصالح باعترافه بملكية الصليبيين لبيت المقدس وإقليم الجليل وعسقلان وعدد من المدن، ونشب نزاع بين الصالح أيوب والصالح إسماعيل، وتحالف الأيوبيّون في الشام مع الصليبيين، واستعان الصالح أيوب بالخوارزمية فانضم إليه عشرة آلاف منهم واستعادوا بيت المقدس عام 643هـ/ 1244م وحدثت معركة فاصلة وحلت بالصليبيين والمتحالفين معهم من المسلمين هزيمة في معركة غزة الثانية سنة 643هـ/1244م حتى شبهت بحطين، وضمت القدس والخليل وبيت جبريل لمصر، وكانت آخر مرة تطأها أقدام صليبية وظلت هكذا إلى العصر الحديث عند قدوم الجيوش الأوربية ثم الصهاينة .

ولقد ساءت أوضاع الصليبيين في الشام ودخلوا في طور ضعف وخاصة لعدم وجود شخصية قوية تدير أمورهم، وذلك في الوقت الذي ظهرت بوادر الحملة الصليبية السابعة.

<u>الحملة الصليبية السابعة</u>: تعدّ الحملة الصليبية السابعة آخر الحملات الكبرى والتي اتخذت مصر هدفاً لها وفق المخطط الصليبي الذي أصبح ينظر لمصر والشام كارتباط استراتيجي وأن طريق كل منهما يؤدي إلى الآخر. فسقوط مصر يعني سهولة سقوط معاقل الشام الأيوبية. وكانت الحملة تحت قيادة لويس التاسع ملك فرنسا الذي اشتهر بتقواه حتى أطلق عليه لقب القديس لويس Saint Louis. ولقد تربى تربية دينية ونذر بعد فترة مرضه، القيام بحملة صليبية وصلت أخبارها إلى الصالح عن طريق فردريك الثاني حفاظًا لما كان له مع أبيه من علاقة صداقة. ولقد أخذ لويس التاسع يجهز للحملة ثلاث سنوات، وتولت أمه الوصاية على فرنسا. ولقد خرجت الحملة سنة 646هـ / 1248م، وكان تعدادها مائة وخمسين ألف صليبي وثمانمائة سفينة، واتجهت إلى قبرص. ظل لويس التاسع في قبرص سبعة أشهر تقريبًا حاول فيها الاتصال بالمغول للقيام بعمل مشترك ولكن لم ينجح التحالف بينهما. وقرر لويس الاتجاه إلى دمياط. وكان الأيوبيون في تلك الأثناء مشغولين بصراعاتهم، وذهب الملك الصالح بنفسه إلى الشام لإرجاع حمص من الصليبيّين، وأرسل لويس رسالة للسلطان مليئة بالتهديد. وكان السلطان قد وصل لمصر وهو مريض، ونزل عند أشمون طناح لمتابعة الحرب. وقد استطاعت القوات الصليبية الانتصار على قوات الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ الذي فرّ هو وعرب كنانة المدافعين عن المدينة، وتبعهم أهالي المدينة. وقد خلت المدينة من المدافعين وفات الفارين تحطيم الجسر فدخلها الصليبيون سنة 646هـ / 1249م. وقد اشتد المرض على السلطان فحمل إلى المنصورة حيث توفي، وكان على لويس أن يزحف للقاهرة ولكنه وقع في خطأ الحملة الخامسة فانتظر في دمياط خمسة أشهر، وفي الوقت الذي وصلت إمدادات للصليبيين شرع في الزحف على القاهرة. وقد قامت شجرة الدر زوجة الملك الصالح وهي جارية أرمينية أو تركية الأصل، بإخفاء خبر وفاة زوجها وقامت بتصريف أمور الدولة وأرسلت إلى ابنه

تورانشاه في حصن حيفا الأمير فارس الدين أقطاي، ولم يعرف بأمر وفاة السلطان إلا عدد محدود كالأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ والطواشي جمال الدين محسن، وكانت المناشير والكتب تصدر عن خادم يقلد خطه ولكن مع الوقت تسربت أنباء وفاة الصالح أيوب للصليبيين الذين ساروا على الضفة الشرقية لدمياط ووصلوا إلى نقطة تفرع بحر أشمون من فرع دمياط وعبروا مخاصة سلمون عن طريق الخيانة. والتقى الصليبيون بجيش فخر الدين، وما لبث أن قتل فخر الدين واندفع أخو لويس روبرت دي ارتوا إلى المنصورة مع مجموعة من الفرسان، ولم ينتظروا تجمع الجيش الصليبي ولقوا هزيمة على يد المماليك وقائدهم بيبرس البندقداري، وقتل المئات من الصليبيين. ولقد وصل أثناء ذلك تورانشاه مما رفع الروح المعنوية للمصريين. وحاول لويس التراجع وأرسل يعرض الجلاء في مقابل بيت المقدس وبعض الساحل، ولكن رفض تورانشاه. وبدأ الصليبيون في التراجع نحو دمياط. وقد سقط لويس التاسع مريضًا وحمل لقرية شرمساح، وحدث الهجوم المصري عند فارسكور، وحلت الهزيمة بلويس ووقع في الأسر، وسيق إلى محبسه في بيت ابن لقمان ووكل به الطواشي صبيح المعظمي. ولقد طالبه المماليك بالممتلكات الصليبية في الشام ولكنه اعتذر بأنه ليس لديه سلطان عليهم، وطولب بدفع فدية بثمانمائة ألف دينار، وعقدت معاهدة لمدة عشر سنوات في مقابل تسليم دمياط ودفع نصف الفدية، ولكن لم يلبث أن قتل تورانشاه على يد المماليك سنة 648هـ / 1250م قبل تنفيذ المعاهدة وأتمتها شجر الدر. وكان تورانشاه أساء إلى زوجة أبيه وهدد المماليك فتخلصوا منه بالقتل في حفل أقيم في فارسكور، وبنهايته انتهت الدولة الأيوبية وإن كان بعض المؤرخين يرى أن شجرة الدر تنتمي إلى الأيوبيين ويجعلها نهاية للحكم الأيوبي لزواجها من الصالح، والبعض يرى أنها بداية للحكم المملوكي وفقاً لجنسها. ولقد تنازلت عن الحكم لعز الدين أيبك التركماني عام 648هـ / 1250م وتزوّجته لعدم موافقة الخليفة على توليتها.

ولقد تم تسليم دمياط في نفس السنة 648هـ / 1250م في مقابل إطلاق سراح لويس وإطلاق الصليبيين أسرى المسلمين لديهم على أن يدفعوا فدية كبيرة مقابل أسراهم وتسليم نصفها قبل خروج لويس وتسليم النصف الثاني عند وصوله لعكا.

ورغم ما لقيه لويس التاسع في مصر فإنه حاول القيام بحملة صليبية على تونس للوصول إلى الشرق عن طريق الالتفاف على الغرب وهو في الستينات من عمره، وباءت حملته بالفشل وتوفي أثناءها .

خاتمة :

كشفت الحروب الصليبية عن واقع العالم العربي الإسلامي آنذاك، وعن آفة كانت تنخر في كيان دوله وهي الفرقة والصراع بين الأطراف الإسلامية متمثلة في المؤسسات الحاكمة سواء كانت إمارات صغرى، أو أتابكيات، أو دولة سلجوقية ذات أفرع في الشام وآسيا الصغرى، أو خلافة عباسية، أو فاطمية. فهذا التشرذم والصراع اللذان سادا المنطقة قبيل الحروب الصليبية وأثناء الحملة الصليبية الأولى مهّد لنجاح الحروب الصليبية في إيجاد إماراتها الاستيطانية ووضع أوتادها على الأرض العربية لمدة قرنين من الزمان. وزاد الأمر سوءًا تحالف بعض القوى العربية مع الغازي الصليبي دون فهم حقيقي لماهية الحروب الصليبية كما فعل الفاطميون أثناء الحملة الأولى

وتناسوا أن الشام هي العمق الاستراتيجي لمصر، وأن الخطوة التالية للغازي ستكون التوجه بأنظاره لمصر وهو ما حدث فعلاً بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ثم المعاقل الفاطمية وتوجههم، منذ عهد أول ملوكهم، إلى مصر وخروج بلدوين الأول بحملة ووفاته في العريش. فأمن الشام ومصر مرتهن بوحدة مصير.

ولقد تلا تواجد الكيان الصليبي المتمثل في إماراته الثلاث ومملكة بيت المقدس تضخيم لصورة الصليب المنتصر وتداعي الروح المعنوية بين العامة والخاصة، ولكنه أدى في نفس الوقت إلى شعور المسلمين بالحاجة إلى قيادة واعية تقود العالم العربي الإسلامي وتوحّده وتقضي على الفرقة العربية؛ فنشأت زعامات جديدة نبعت من طبيعة وواقع الفترة، فهي وليدة احتياجات العصر. فعماد الدين ونور الدين زنكي ثم صلاح الدين كان الجهاد ضد الصليبيين هو بطاقة المرور والشرعية لتواجد دولهم. ورغم أن إمارات السلاجقة تحملت، في البداية، العبء الأكبر في المواجهة الصليبية الأولى فإنّ الفرقة والخلاف وعجزها عن الاتحاد والتآلف مع غيرها من القوى أدّت إلى فشل جهودها العسكرية. وكان المنظور الذي اعتنقه عماد الدين واعتقد أنه السبيل الأكثر فاعلية لمواجهة الصليبيين هو توحيد الجبهة الإسلامية؛ فلن يتحقق نصر وخلفية المقاتلين معرضة لضربات من قوى إسلامية تسعى إلى تحقيق مآربها ومصالحها الشخصية بالتحالف مع العدو أو التآمر لكسب وقتي، وهذا ما يفسر مقتل عدد من قادة الجهاد الأوائل في شمال العراق كالأمير مودود، وايلغازي على يد الباطنية، وهذا ما دفع عماد الدين إلى إيجاد وحدة شملت الموصل وحلب أدرك الصليبيون أنفسهم خطرها وحققت نصرها بسقوط الرها وأصبحت خطرًا على الصليبيين في شمال الشام.

ورؤى الوحدة العربية الإسلامية هي نفس الرؤى التي اعتنقها نورالدين محمود ثم صلاح الدين الأيوبي الذي ضمت دولته مصر والشام وامتدت من الفرات شرقا إلى النيل غربا. وإذا كان صلاح الدين قد قضى الاثنى عشر عاماً الأخيرة في الجهاد ضد الصليبيين فمن هنا اكتسب شرعيته وشرعية دولته أمام العالم الإسلامي، حيث وظف إمكانية دولته لتحرير الأرض. ورغم أن الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين كان طابعها الأساسي أميل إلى المهادنة وخاصة في عهود العادل والكامل أو على الأقل كانت جهودها جهودا دفاعية في مواجهة الحملات الصليبية، وإذا كانت حملة لويس السابع على مصر تعدّ آخر الحملات ذات الثقل في الشرق الإسلامي وكان هدف لويس إسقاط الحكم الأيوبي في مصر وما يترتب عليه من تداعي القوى الإسلامية في الشام ولكن باءت حملته بالفشل، وإن كان قد قام بحملة ثانية بعد أن تجاوز الستينات من العمر اتخذت مجالاً ومسارًا لها خارج النطاق المعروف للحروب الصليبية وهو محور الشام ومصر وتوجهت إلى تونس لاتخاذ استراتيجية جديدة وهي الالتفاف من الغرب للوصول إلى الشرق، ورغم أن الحروب الصليبية لم تنته بنهاية الحكم الأيوبي، فقد جاء سقوط الأيوبيين نتيجة لظهور قوة بديلة أثبتت أنها قادرة على القيام بالدور التاريخي في الدفاع عن العالم الإسلامي وهي دولة المماليك. وهذه الدولة آمنت بفكرة الوحدة بين مصر والشام واستراتيجية الدفاع عنهما، وإن كان ميزان القوى في المنطقة قد اختلف. فالكيان الصليبي أصبح هشًا تحاصره قوة إسلامية عسكرية فتية وعانى الصليبيون مما سبق أن عانى منه المسلمون من صراعات وخلافات داخلية جعلتهم يستعينون

بالمسلمين ضدّ بعضهم البعض مما عجل بسقوطهم، بالإضافة إلى تراجع الدافع الصليبي في الغرب ولم تعد الحروب الصليبية تثير من الحماس ما كانت تثيره لدى ملوك الغرب من قبل حتى تسعى الدول إلى لمشاركة فيها بأعداد، وإنّ ما جاء من حملات خلال الفترة التالية كان محدود الحجم والتأثير يضم أشتاتاً من الصليبيين. وتساقطت البقايا الصليبية على أيدي المماليك، فسقطت أنطاكية على يد بيبرس، واستولى قلاوون على طرابلس، ثم سقطت عكّا على يد الأشرف خليل لينتهي الوجود الصليبي سنة 689هـ / 1290م في ظل دولة موحدة تضم مصر والشام .

ولقد تركت المائتا عام من التواجد الصليبي آثارها على العالم الإسلامي متمثلاً في تراجع دور الخلافة السياسي مع احتفاظها بمكانتها الدينية الهامة وازدياد نفوذ الدول ذات الكيان العسكري كالأيوبيين والمماليك واختفاء العديد من الدويلات الصغرى التي واكبت بداية الحروب الصليبية في الشام. ولقد تركت الحروب آثارها في الجوانب العسكرية والاجتماعية والاقتصادية والديموغرافية وخاصة في الشام، فزادت أهمية الإقطاع الحربي الذي بدأ مع السلاجقة ثم تطور مع الأيوبيين واكتمل مع المماليك. كما تأثرت نظم بناء القلاع وأدوات الحصار والخطط العسكرية وكذلك الكيانات السكانية وبدا الأثر السلبي واضحًا في مجال الثقافة وانشغال الجميع بأمور الحرب وإن كان مجال الدراسات التاريخية قد شاهد ازدهارا، فعكست مؤلفات تلك الفترة صورة تلك الحروب كمؤلفات ابن الأثير وأبو شامة وابن واصل وابن شداد. أما عن التواصل بين الشرق والغرب فمن المؤكد أنه لم يحدث. فطبيعة العلاقة بين طرفي نقيض - مغتصب لأرض وآخر مدافع عنها - جعلته صداماً لا حواراً.

أ.د. زبيدة محمد عطا
جامعة القاهرة

المصادر والمراجع

أولاً - المصادر العربية والمعربة :

- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن، ت 630 هـ / 1233م : الكامل في التاريخ، دار الصادر، بيروت ، ج12 ، 1969.
- ابن أيبك، أبو بكر بن عبد الله الدواداري، كان حيًّا سنة 736هـ/ 1335م : كنز الدرر وجامع الغرر؛ الجزء السابع، الدر المطلوب في أخبار دولة بني أيوب . دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1972.
- البيهقي ، أبو الفضل محمد بن الحسين، ت 471هـ / 1077م : تاريخ البيهقي، ترجمه إلى العربية: يحيى الخشاب وصادق نشأت، مكتبة الأنجلو، القاهرة، 1956.
- ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن، ت 654هـ / 1256م : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة، ج 16 ، 1972.
- توديبود ، بطرس : تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس؛ ترجمة حسين عطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1992.
- الحسيني ، ناصر بن علي، ت 622هـ / 1225م : أخبار الدولة السلجوقية، صحّحه محمد إقبال، منشورات دار بيروت، 1984.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، ت 808هـ / 1406م : تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتب العلمية، بيروت، ج 9 ، 1992.
- الراوندي، محمد بن على سليمان، بداية القرن 7هـ / القرن 13م : راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، نقله إلى العربية إبراهيم الشواربي، عبد النعيم حسنين، المجلس الأعلى للفنون والآداب ، القاهرة، 1951.
- ريمواند، اجيل : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة حسين عطية، دار المعرفة، الإسكندرية، 1989.
- الشارتري، فوشيه : تاريخ الحملة إلى القدس؛ ترجمة زياد عسيلى، دار الشروق، بيروت، 1998.
- أبو شامة، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن المقدسى، ت 665هـ / 1266م : الروضتين في أخبار الدولتين، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، 1962.
- ابن شداد، القاضي بهاء الدين : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، دار ابن خلدون، القاهرة، 1962.
- ابن العبري، جريجوريوس الملطي، ت 685هـ / 1286م : تاريخ مختصر الدول، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2001.
- ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد الحلبي، ت 660هـ / 1261م : زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، دمشق، 1951.
- أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل محمد بن عمر، ت 732هـ / 1331م : المختصر في أخبار البشر المعروف بتاريخ أبو الفدا، مكتبة المتنبي، القاهرة ، ج4 ، (د.ت).
- ابن القلانسي ، أبو يعلى حمزة ، ت 555هـ / 1160م : ذيل تاريخ دمشق، تحقيق سهيل

زكار، دمشق، 1983.
- مؤلف مجهول : أخبار سلاجقة الروم "مختصر سلجوق نامة"، ترجمة وتحقيق محمد السعيد جمال الدين، الدوحة، 1994.
- مؤلف مجهول : الحرب الصليبية الثالثة؛ صلاح الدين وريتشارد؛ ترجمة حسن حبشي، تاريخ المصريين، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ج 2 ، 2000.
- المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي، ت 845هـ / 1441م : كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار صادر، بيروت، ج 2 ، (د.ت).
- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، ت 697هـ / 1298م : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، حسنين محمد ربيع، سعيد عاشور، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ج 5 ، 1960 - 1977.
- وليم الصوري : الحروب الصليبية، ترجمة حسن حبشي، تاريخ المصريين، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1991.

ثانياً - المراجع العربية والمعربة :

- بارتولد ر. و : تاريخ الترك في آسيا الوسطى، دار الفكر، القاهرة، (د.ت).
- باركر، أرنست : الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، دار النهضة العربية ، بيروت، (د.ت).
- بوزورث، كليفورد . أ : الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة حسين علي اللبودي، مراجعة سليمان إبراهيم العسكري، عين للدراسات، الكويت، (د.ت).
- جمال الدين، محمد السعيد : الإسماعيلية في إيران، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1975.
- حمدان، جمال : شخصية مصر، دراسة في عبقرية المكان، دار الهلال، القاهرة، 1992.
- حسنين، عبد النعيم : إيران والعراق في العصر السلجوقى ، دار الكتب الإسلامية ، القاهرة ، 1984.
- خليل، عماد الدين : عماد الدين زنكي، مطبعة الزهراء، بغداد، 1980.
- زكار، سهيل : الجامع في أخبار القرامطة، دار حسان، دمشق، 1987.
- رانسمان، ستيفن : الحملات الصليبية من كليرمونت إلى أورشليم، ترجمة نورالدين خليل، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1999.
- سميث، جوناثان رايلي : الحملة الصليبية الأولى فكرة الحروب الصليبية، ترجمة فتحي الشاعر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1992.
- - سيمنوفال. أ : تاريخ مصر الفاطمية، ترجمة حسن بيومي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2001.
- الشيخ محمد مرسي : الإمارات العربية في بلاد الشام. الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، 1980.
- عاشور، سعيد : الحركة الصليبية. مكتبة الأنجلو، القاهرة، 2 ج ، 1993.
- العش، يوسف : تاريخ عصر الخلافة العباسية، دار الفكر، دمشق، 1982.
- عطا، زبيدة محمد : بلاد الترك في العصور الوسطى. دار الفكر العرب، القاهرة، (د.ت).
- قاسم، قاسم عبده : ماهية الحروب الصليبية. عالم المعرفة، الكويت، 1990.
- كاهن كلود : الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة أحمد الشيخ. سينا للنشر، القاهرة، 1995.

ثالثاً - المراجع الأجنبية :

- Bréhier Louis : Vie et mort de Byzance. Ed Albin Michel, Paris, 1992.
- Choninates "Niketas" : O. City of Byzuntium, Annals of Niketas Choninates : trans. Harry J. Magoulias, Wayne statee Univ. Michigan, 1984.
- Clari Robert : La conquête de Constantinople, Ed Gallimard, Paris, 1952.
- Clari Robert : Historiens et Chroniqueurs du Moyen Age, Editions Gallimard, Bruges, 1952.
- Comenen Anna : The Alexiad, trans E. R. A. Sewter, Penguin classic, 1988.
- Joinville Jean Sire, : Histoire de Saint Louis, in Historiens et Chroniqueurs du Moyen Age, Ed Gallimard, Bruges, 1952.
- Kinnamos John : Deeds of John and Manuel Comnenus, trans by Charles M. Brand, Columbia Univ. New York.
- Mathieu d'Edesse : Chronique de Mathieu d'Edesse, Bibliothèque Historique Armeniens. Traduction A. Durand, Paris
- Ostrogorsky Georges, : History of the Byzantine State, Trans by Husseyn. Oxford, 1954,
- Psellus Michael : The Chronographia, trans. Seweter (E.R.A.), Printed by Butler, Tanner LTd. London, 1953.
- Vryonis Speros : The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and The Process of Islamization from the Eleventh through - The Fifteenth Century. Univ. of California, Los Angeles.
- Vasiliev A : History of the Byzantine Empire., 2 Vols, University of Wisconsin, U. S, 1952.

السلاجقة(*)

(429 - 590هـ / 1038 - 1194م)

1- السلاجقة الكبار (في العراق وفارس) 429 - 590هـ / 1038 - 1194م :

1038/429	ركن الدنيا والدين طغرل الأول
1063/455	عضد الدولة ألب أرسلان
1072/465	جلال الدولة ملك شاه الأول
1092/485	ناصر الدين محمود الأول
1094/487	ركن الدين بركياروق
1105/498	معز الدين ملك شاه الثاني
1105/498	غياث الدين محمد الأول
57-1118/52-511	معز الدين سنجر (حاكماً في شمالي فارس 490-552 /1097-1157؛ ثم سلطاناً أعلى للأسرة السلجوقية بعد511/1118).

في العراق وشرقي فارس فقط :

1118/511	مغيث الدين محمد الثاني
1131/525	غياث الدين داود
1132/526	ركن الدين طرغل الثاني
1134/529	غياث الدين مسعود
1152/547	معين الدين ملك شاه الثالث
1153/548	ركن الدين محمد الثاني
1160/555	غياث الدين سليمان شاه
1161/556	معز الدين أرسلان
94/1176/90-571	ركن الدين طغرل الثالث
	الخوارزمشاهات

(*) قوائم الأسرات الحاكمة عن بوزورث: الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي.

2- سلاجقة سوريا * 471-1078/511 -1078-1117 :

1078/471	تاج الدولة توتش
1113-1095/507-488	رضوان (في حلب)
1104-1095/497-488	دقاق (في دمشق) وخلفه أتابكه تغتكين
1113/507	ألب أرسلان الأخرس (في حلب)
17-1114/11-508	سلطان شاه (في حلب)
	سلالة تغتكين والبوريون في دمشق؛ وإيلغازي الأرتقي في حلب.

3- سلاجقة كرمان * 433-1041/582-1186 :

1041/433	عماد الدين قارود
1073/465	كرمان شاه
1074/467	حسين
1074/467	ركن الدولة سلطان شاه
1085/477	محيي الدين توران شاه الأول
1097/490	بهاء الدين إيران شاه
1101/495	محي الدين أرسلان شاه الأول
1142/537	مغيث الدين محمد الأول
1156/551	محيي الدين طغرل شاه
1170/565	بهرام شاه
1175/570	أرسلان شاه
1176/572	طوران شاه الثاني
6-1183/82-579	محمد الثاني
	الاحتلال الغزّي

سلاجقة الروم *

(470 - 707هـ / 1077 - 1307م)

في الأناضول

1077/470	سليمان بن قتلميش
1086/479	فاصلة زمنية
1092/485	قيلج أرسلان الأول
1107/500	ملك شاه
1116/510	ركن الدين مسعود الأول
1156/551	عز الدين قيلج أرسلان الثاني
	(تقسيم الأراضي بين أبنائه خلال الجزء من حكمه)
1192/588	غياث الدين كيخسرو الأول، للمرة الأولى
1196/592	ركن الدين سليمان الثاني
1204/600	عز الدين قيلج أرسلان الثالث
1204/601	غياث الدين كيخسرو الأول، للمرة الثانية
1210/607	عز الدين كيكاوس الأول
1219/616	علاء الدين كيقباد
1237/634	غياث الدين كيخسرو الثاني
1246/644	عز الدين كيكاوس الثاني
1248/646	كيكاوس الثاني بالاشتراك مع أخيه ركن الدين قيلج أرسلان الرابع
1249/647	كيكاوس الثاني بالاشتراك مع قيلج أرسلان الرابع وعلاء الدين كيقباد الثاني
1257/655	قيلج أرسلان الرابع
1265/663	غياث الدين كيخسرو الثالث
1282/681	غياث الدين مسعود الثاني، للمرة الأولى
1284/683	علاء الدين كيقباد الثالث، للمرة الأولى
1284/683	مسعود الثاني، للمرة الثانية
1293/692	كيقباد الثالث، للمرة الثالثة
1294/693	مسعود الثاني، للمرة الثالثة

1301/700	كيقباد الثالث، للمرة الثالثة
1303/702	مسعود الثاني، للمرة الرابعة
1305/704	كيقباد الثالث، للمرة الرابعة
1307/707	غياث الدين مسعود الثالث
	الاحتلال المغولي

الزنكيون

(521-619هـ / 1127-1222م)

1- السلالة الرئيسية في الموصل وحلب :

1127/521	عماد الدين زنكي بن آق سنقر
1146/541	سيف الدين غازي الأول
1149/544	قطب الدين مودود
1169/564	سيف الدين غازي الثاني
1176/572	عز الدين مسعود الأول
1193/589	نور الدين أسلان شاه الأول
1211/607	عز الدين مسعود الثاني
1218/615	نور الدين أرسلان شاه الثاني
22-1219/19-616	ناصر الدين محمود
	استيلاء الوزير بدر الدين لؤلؤ على السلطة

2- السلالة الفرعية في دمشق ثم حلب :

1146/541	نور الدين محمود بن زنكي
81-1174/44-569	نور الدين إسماعيل
	تم توحيد هذا الفرع مرة أخرى مع أتابكية الموصل ،
	ثم قام صلاح الدين بغزوهم

الأيوبيون *

(564 - نهاية القرن 9هـ / 1169 - نهاية القرن 15 م)

في مصر وسوريا وديار بكر واليمن

1- في مصر :

1169/564	الملك الناصر الأول صلاح الدين
1193/589	الملك العزيز عماد الدين
1198/595	الملك المنصور ناصر الدين
1200/596	الملك العادل الأول سيف الدين
1218/615	الملك الكامل الأول ناصر الدين
1238/635	الملك العادل الثاني سيف الدين
1240/637	الملك الصالح نجم الدين أيوب
1249/647	الملك المعظم توران شاه
2-1250/50-648	الملك الأشرف الثاني مظفر الدين
	المماليك البحرية

2- في دمشق :

1186/582	الملك الأفضل نورالدين علي
1196/592	الملك العادل الأول سيف الدين
1218/615	الملك المعظم شرف الدين
1227/624	الملك الناصر صلاح الدين داوود
1229/626	الملك الاشرف الأول مظفر الدين
1237/634	الملك الصالح عماد الدين، للمرة الأولى
1238/635	الملك الكامل الأول ناصر الدين

1238/635	الملك العادل الثاني سيف الدين
1239/636	الملك الصالح نجم الدين أيوب، للمرة الأولى
1239/637	الملك الصالح عماد الدين، للمرة الثانية
1245/643	الملك الصالح نجم الدين أيوب، للمرة الثانية
1249/647	الملك المعظم توران شاه (بالإضافة إلى مصر)
60-1250/58-648	الملك الناصر الثاني صلاح الدين
1260/658	الغزو المغولي

3- في حلب :

1183/579	الملك العادل الأول سيف الدين
1186/582	الملك الظاهر غياث الدين
1216/613	الملك العزيز غياث الدين
60-1237/58-634	الملك الناصر الثاني صلاح الدين
1260/658	الغزو المغولي

4- ديار بكر (ميافارقين وجبل سنجار) :

1185/581	الملك الناصر الأول صلاح الدين
1195/591	الملك العادل الأول سيف الدين
1200/596	الملك الأوحد نجم الدين أيوب
1210/607	الملك الأشرف الأول مظفر الدين
1220/617	الملك المظفر شهاب الدين
60-1244/58-642	الملك الكامل الثاني ناصر الدين
1260/658	الغزو المغولي

5- ديار بكر (حصن كيفا وآمد) :

1232/629	الملك الصالح نجم الدين أيوب
1239/636	الملك المعظم توران شاه
1249/647	الملك الموحّد تقي الدين
1283/682	الملك الكامل الثالث محمد
؟	الملك العادل مجير الدين
؟	الملك العادل شهاب الدين
؟	الملك الصالح أبو بكر
1378/780	الملك العادل فخر الدين
؟	الملك الشرف شرف الدين
1433/836	الملك الصالح صلاح الدين
1452/856	الملك الكامل الرابع أحمد ـ الملك العادل خلف
1462/866	خليل(؟)
؟	سليمان
؟	الحسين
	الغزو الأقيونيللي

6- اليمن :

1174/569	الملك المعظم شمس الدين توران شاه
1181/577	الملك العزيز ظهير الدين تغتكين
1197/593	معز الدين إسماعيل
1202/598	الملك الناصر أيوب
1214/611	الملك المظفر سليمان
29-1215/26-612	الملك المسعود صلاح الدين
1229/626	إستيلاء الرسوليين على السلطة

الإسماعيليون أو الحشاشون

483 - 653 / 1090 - 1256 في فارس

ح 493-671/ح 1100-1273 في سوريا

الفرع الرئيسي في ألموت بجبال الالبزر الفارسية

الفرع الثانوي في سوريا

كبار السادة في ألموت :

1090/483	حسن الصباح
1124/518	كيا بُزرك - أميد
1138/532	محمد الأول
1162/557	حسن الثاني على ذكره السلام
1166/561	نور الدين محمد الثاني
1210/607	جلال الدين حسن الثالث
1221/618	علاء الدين محمد الثالث
6-1255/54-653	ركن الدين خورشاه
	الاحتلال المغولي لألموت

الأرتقيون

429 - 811هـ / 1102 - 1408م

1- فرغ "حصن كيفا" وآمد 491 - 629هـ / 1098 - 1232م :

1098/491	معين الدين سوكمن الأول
1105/498	إبراهيم
1109/502	ركن الدولة داوود
1144/539	فخر الدين قرا أرسلان
1167/562	نور الدين محمد

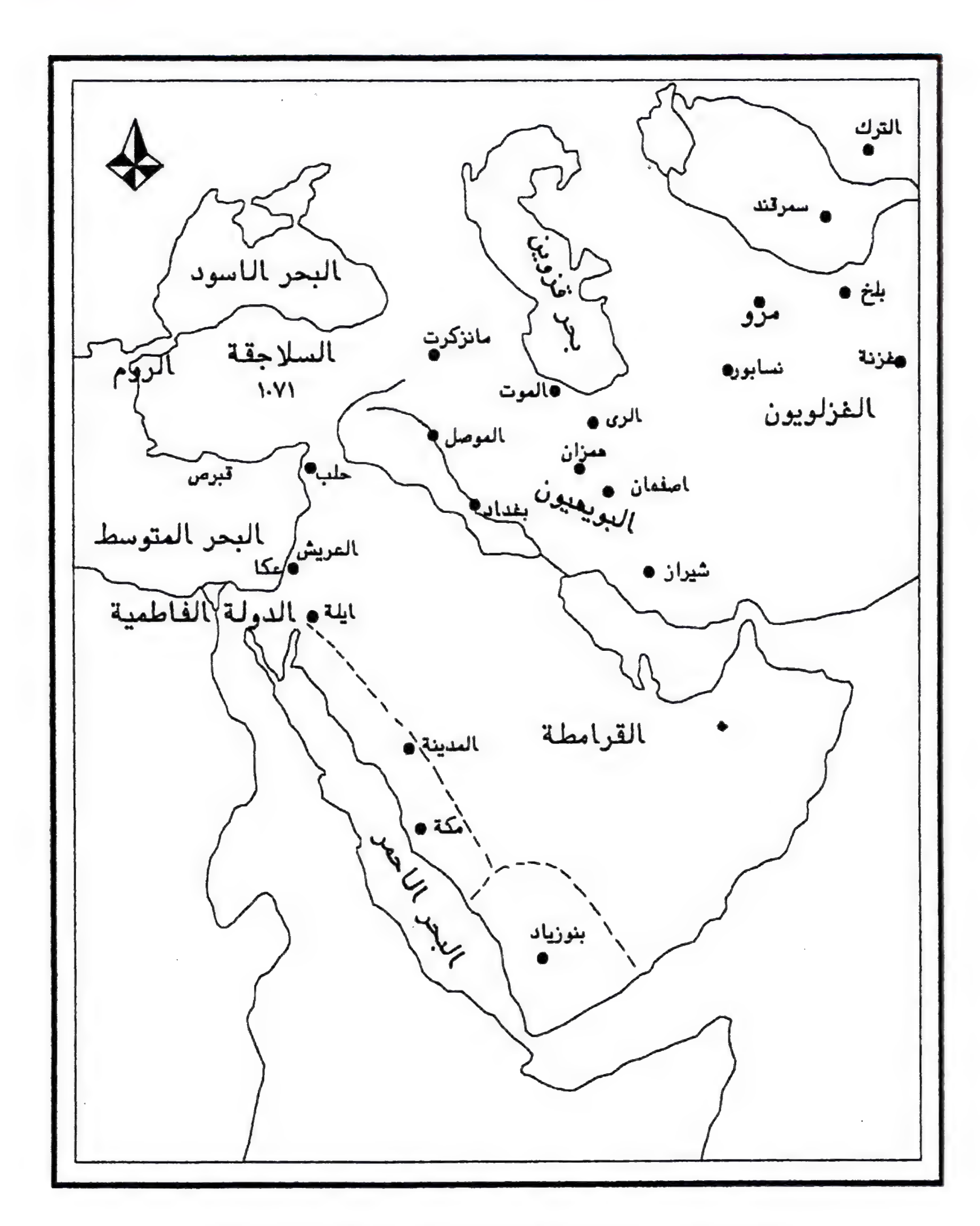
قطب الدين سوكمن الثاني	1185/581
ناصر الدين محمود	1201/597
ركن الدين مودود	1222/619
الملك المسعود	1232/629
الأيوبيون	

2- فرغ "ماردين" و"ميافارقين" 497 - 811هـ / 1104 - 1408م :

نجم الدين إيلغازي الأول	1104/497
حسام الدين تيمور تاش	1122/516
نجم الدين ألبب	1152/547
قطب الدين إيلغازب الثاني	1176/572
حسام الدين يولوك أرسلان	1184/580
ناصر الدين أرثق أرسلان	1201/597
نجم الدين غازي الأول	1239/637
قرا أرسلان المظفر	1260/658
شمس الدين داوود	1292/691
نجم الدين غازي الثاني	1294/693
عماد الدين علي ألبي	1312/712
شمس الدين صالح	1312/712
أحمد المنصور	1364/765
محمود الصالح	1368/769
داوود المظفر	1368/769
مجد الدين عيسى الظاهر	1376/778
الصالح	8-1406/11-809
القراقيونليون	

أباطرة الدولة البيزنطية

ألكسيوس الأول كومنين	1118-1081
حنا الثاني كومنين	1143-1118
مانويل الأول كومنين	1180-1143
ألكسيوس الثاني كومنين	1183-1180
أندرونيق الأول كومنين	1185-1183
إسحق الثاني أنجليوس	1195-1185
ألكسيوس الثالث أنجيلوس	1203-1195
إسحق الثاني - ألكسيوس الرابع	1204-1203
الكسيوس الخامس	1024
تيودور الأول لاسكارس	1222-1024
حنا الثالث دوقاس	1254-1222
تيودور الثاني لاسكارس	1258-1254
حنا الرابع لاسكارس	1261-1258
ميخائيل الثامن باليولوجس	1282-1261
ميخائيل الثامن باليولوجس	1328-1282
أندرونيق الثاني باليولوجس	1341-1328
أندرونيق الثالث باليولوجس	1391-1341
حنا الخامس باليولوجس	1354-1347
حنا السادس	1390
حنا السابع	1425-1391
مانويل الثاني باليولوجس	1448-1425
حنا الثامن باليولوجس	1453-1449
قسطنطين الحادي عشر باليولوجس	



شكل (1) الدويلات الإسلامية في الشرق الأدنى في القرن الحادي عشر

المصدر / سعيد عاشور - الحركة الصليبية - 1993 - ص 67



شكل (2) الشرق الأدنى زمن الحروب الصليبية

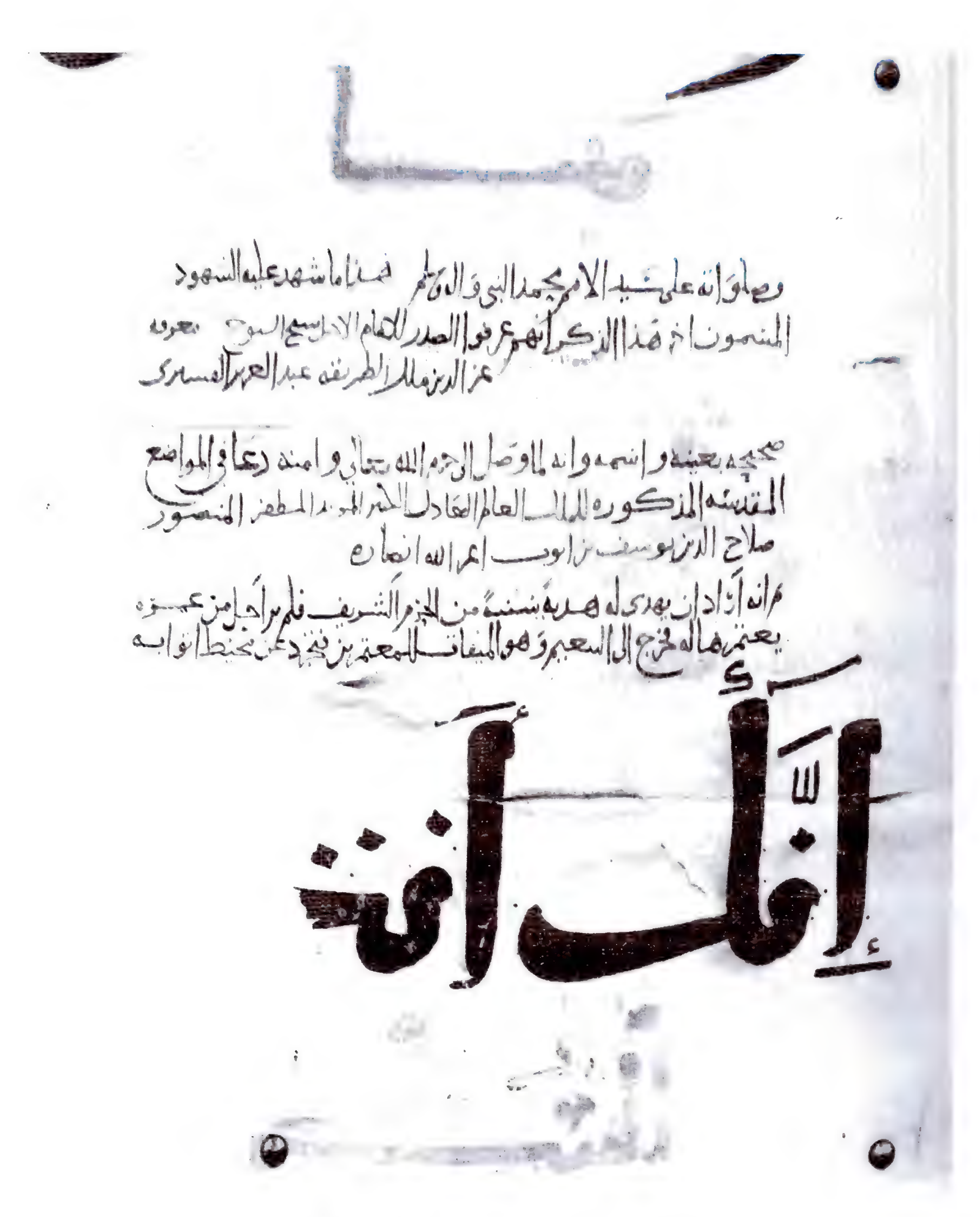
المصدر / سعيد عاشور - الحركة الصليبية - 1993 - ص 83



ضريح صلاح الدين الأيوبي بدمشق



صورة لصلاح الدين الأيوبي



وصلواته على سيدنا الأمي محمد النبي وآله وسلم هذا ما شهد عليه الشهود
المسمون آخر هذا الذكر أنهم عرفوا الصدر الكامل الأجل السيد [illegible] معرفة
عز الدين ملك الطريقة عبد العزيز [illegible]
صحيحة بعينه واسمه وأنه لما وصل إلى حرم الله تعالى وأمنه دعا في المواضع
المقدسة المذكورة للملك العالم العادل الأجل المؤيد المظفر المنصور
صلاح الدين يوسف بن أيوب أعز الله أنصاره
وأنه أراد أن يهدي له هدية سنية من الحرم الشريف فلم ير أجل من عمرة
يعتمر بها له فخرج إلى التنعيم وهو الميقات المعتمر [illegible]

إنك أنت

شهادة حج صلاح الدين الأيوبي (القرن الثاني عشر)
من كتاب J.P.Mouton, Saladin



صورة من الحروب الصليبية (الحرب الثالثة) J.P Mouton, Saladin



حصار القسطنطينية في القرن 12م J.P Mouton

ثالثاً : المؤسسات

1 - المؤسسات في الخلافة الفاطمية

مقـدمة :

مر تاريخ الخلافة الفاطمية بطورين هما: الطور المغربي، والطور المصري. ومرّ كلّ طور منهما بعدة مراحل، وأدار الخلفاء شؤون الدولة مباشرة بالاستعانة ببعض الموظفين في الطور المغربي. لكن بعد الاستيلاء على مصر في عام 358هـ / 969م، وتأسيس مدينة القاهرة، ثم إخفاق الجيوش الفاطمية في الاستيلاء على بلاد الشام، وتهديد القرامطة للكيان الفاطمي الجديد, اضطر الخليفة المعز لدين الله إلى القدوم إلى مصر، والاستقرار بها، ومع ذلك لم يتمكن المعزّ من حسم قضية الصراع مع القرامطة والاستيلاء على بلاد الشام، وترك ذلك لابنه العزيز.

وكان جوهر عندما استولى على مصر وجد فيها نظاماً إدارياً فيه عدد من الموظفين على رأسهم وزير اسمه جعفر بن الفرات، فاحتفظ بهؤلاء الإداريين مع أنه باشر الأمور بنفسه محدثاً تبدلات كبيرة. وعندما قدم المعز لدين الله عام 362هـ / 972م استعفاه الوزير جعفر بن الفرات فأعفاه، كما أنه أعفى القائد جوهر الصقلي من معظم مهامه، واستعان بيعقوب بن كلس.

وبنى جوهر عند الاستيلاء على مصر نواة مدينة القاهرة. وصارت القاهرة طوال العصر الفاطمي مدينة حكم وإدارة للفاطميين. ويلاحظ أن الغالبية المطلقة من الإداريين الفاطميين مع عناصر الجيش كانوا من غير المصريين. وكان جوهر قد أسس الأزهر، ومثل القاهرة كان جميع الذين عملوا في الأزهر من غير المصريين، من أتباع المذهب الإسماعيلي. ولم تصبح القاهرة للمصريين إلا بعد القضاء على الدولة الفاطمية، وبناء قلعة الجبل من قبل صلاح الدين واتخاذها مقراً للسلطة والإدارة، فمنذ ذلك الحين شرع المصريون بسُكنى القاهرة، وبدؤوا يسهمون في الحياة الفكرية والسياسية. وعلى هذا صار الأزهر في العصر المملوكي داراً مصرية الجوهر للفكر الإسلامي السني.

ومنحت إخفاقات جوهر العسكرية والسياسية المعز لدين الله ثم ابنه العزيز، الفرصة لإقامة إدارة مدنية فاطمية، وإلغاء تسلط قائد الجيوش. وأسّس الإدارة المدنية يعقوب بن كلس الذي كان من رجال الإدارة والمال اليهود في العراق، وقد هجر بلاد العراق، وجاء إلى بلاد الشام حيث عمل لمدة من الزمن في الرملة، ثم غادرها إلى مصر حيث اتصل بكافور الإخشيدي، فولاّه إحدى الوظائف، وكلفه بمهام نجح فيها أيما نجاح، فأعجب به كافور إعجاباً كبيراً حتى أنه سمع يقول: "أي وزير بين جنبيه لو كان مسلماً"، فما كان من يعقوب إلا أن مضى في اليوم التالي إلى المسجد، فأعلن إسلامه، فاستوزره كافور، وبعد وفاة كافور توجّه إلى إفريقية حيث اتصل بالخليفة المعز لدين الله، وقدّم له المساعدات من أجل الاستيلاء على مصر، وبعد العودة إلى مصر وضع يعقوب أسس الإدارة الفاطمية في

القاهرة، وزاد على ذلك بتأليف كتاب في الفقه الإسماعيلي بقي معتمداً لمدة قرنين. وفي أيام العزيز استوزره هذا الخليفة، فكان أول وزير في تاريخ الخلافة الفاطمية. هذا ولدى العودة إلى وثائق الجنيزة القاهرية تبين أنّ يعقوب قد حافظ على يهوديته سرًا، وتظاهر بالإسلام، ومن بعد يعقوب كان جلّ الوزراء من أهل الذمة.

(أ) الوزارة :

تأسست الخلافة الفاطمية على الدعوة الإسماعيلية. وقد منحت هذه الدعوة الإمام مطلق الصلاحيات في العقيدة والحكم والسياسة، والأمور العسكرية، وتوجيه الدعوة والقضاء. ومنذ البدايات استعان الخلفاء ببعض الإداريين، والفقهاء والقادة العسكريين. ومنذ بداية المرحلة المصرية نشأت - كما رأينا - مؤسسة الوزارة، التي ألحقت بها عدة إدارات، وبذلك صار الحال في الخلافة الفاطمية: إمام، داعي دعاة، وزير، قاضي، وأمير للجيوش، وهكذا استمرت الأمور حتى أيام الخليفة المستنصر (427 - 487هـ / 1036 - 1094م) حين تعرضت الخلافة إلى عدد من الأزمات الداخلية الحادة والمشاكل القاسية في بلاد الشام، ومع ذلك وصلت إلى ذروة توسعها ثم هوت بسرعة كبيرة جداً، كما أن جذوة الدعوة الإسماعيلية خبت وواجهت تحديات نهضة مضادة جديدة قادتها المدرسة النظامية بشكل رئيسي. وبناء عليه جرت عدة محاولات انقلابية داخل القاهرة نجحت واحدة منها عام 466هـ / 1074م حين تمكن أحد القادة العسكريين من أصل أرمني واسمه بدر الجمالي، من الاستيلاء على مقاليد الأمور في القاهرة، وتأسيس أسرة حاكمة تسلطت على الخليفة والخلافة، وسنت بدعة جديدة هي احتكار السلطة من قبل الوزير، استناداً لاعتماده على القوة العسكرية أو على الجند.

ومكث بدر الجمالي في الوزارة إحدى وعشرين سنة وأشهراً، وخلفه ابنه الأفضل في سنة 487هـ / 1094م، وبقي الأفضل يشغل منصبه حتى اغتيل في سنة 495هـ / 1102م. ففي أيام الأفضل توفي الخليفة المستنصر، ففرض الأفضل تنصيب الابن الأصغر للمستنصر الذي عرف بالمستعلي، وحال بين نزار - الابن الأكبر للمستنصر - وبين تولي الخلافة مما أدى إلى انشقاق الدعوة الإسماعيلية إلى فرعين هما: المستعلية، والنزارية. وبقايا المستعلية موجودون الآن في اليمن والهند ويعرفون باسم البهرة، أما النزارية فعرفوا في بلاد الشام باسم الحشيشة. وقد مارس هؤلاء أعمال الاغتيال الطقوسي ضدّ خصومهم، وكان لهم دور خطير أيام الحروب الصليبية.

وعايش الأفضل الحملة الصليبية الأولى، وتحالف في البداية مع الصليبيين، وأعاد الاستيلاء على القدس عام 492هـ / 1098م، ثم خاض عدة معارك مخفقة ضدهم. وبعد اغتياله شغل منصب الوزارة في القاهرة ستة عشر وزيراً كان آخرهم صلاح الدين الأيوبي حتى سنة 567هـ / 1172م.

ومن المهم التعرف إلى هؤلاء الوزراء، وإلى ألقاب بعضهم بشكل خاص، فقد عرف بدر الجمال بـ"السيد الأجل، أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الإسلام، كافي قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين أبو النجم بدر المستنصري". فهو على هذا بات انطلاقاً من كونه أمير الجيوش الوزير، والمسؤول عن القضاء، وعن الدعوة الإسماعيلية. أما الأفضل فكان يعرف بـ: "السيد الأجل الأفضل، سيف الإمام، جلال الإسلام، شرف الأنام، ناصر الدين، خليل أمير المؤمنين، أبو القاسم شاهنشاه بن بدر الجمالي"، والشاهنشاه هو لقب

يحمله في العادة الأباطرة.

واستلم الوزارة بعد الأفضل المأمون البطائحي من 515هـ / 1271م حتى 519هـ / 1125م، وكان عراقي الأصل، وقيل بأنه كان من الشيعة الإمامية ولم يكن إسماعيلياً، واهتم المأمون بمراقبة الأمور الداخلية عن طريق الجواسيس، واشتهر بسفك الدماء، حيث نسب إليه الإقدام على قتل أكثر من مائة إنسان من أسرة بدر الجمالي. وقد اعتقله الخليفة الآمر سنة 519هـ / 1125م، وأبقاه في السجن نحواً من ثلاث سنوات إثرها أعدمه الخليفة مع إخوته الخمسة. وبعد اعتقاله بقي الخليفة الآمر من دون وزير حتى سنة 524هـ / 1130م، حيث اغتيل في هذا العام من قبل الحشيشة، فكان آخر الخلفاء الأئمة الفاطميين في مصر، ذلك أن الذين حكموا من بعده كانوا خلفاء فقط، وقد اعتمد في أواخر حياته على ثلاثة موظفين كبار، كانوا: جعفر ابن عبد المنعم بن أبي قيراط، مع أبي يعقوب إبراهيم، وكان سامرياً، وأخيراً الراهب أبي نجاح ابن فنا.

وكلف بالخلافة بعد الآمر الحافظ لدين الله (525-544هـ / 1131-1149م)، وأراد هذا الخليفة تعيين هزار الملوك جوامرد وزيراً فأخفق، فأرغمه الجند على أن يسند الوزارة إلى أبي علي أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي الملقب بكتيفات، وكان وحده الذي بقي حياً من أسرة بدر الجمالي، وقد بقي في الوزارة حتى سنة 526هـ / 1129م, ذلك أنه ألقى القبض على الخليفة الحافظ وسجنه، وأراد إلغاء الخلافة الفاطمية فتعرض للقتل، فتسلم الوزارة بعده يانس الأرمني، وكان من كبار موظفي دار الخلافة، ثم ما لبث الخليفة بعد أشهر أن تدبر قتله سماً، فبقي الحافظ من دون وزير حتى سنة 529هـ / 1135م، ووقتها أسند الوزارة إلى أرمني لم يدخل الإسلام اسمه بهرام، وتسلط الآن الأرمن على أنحاء مصر فكان لذلك ردات فعل، أثمرت بطرده من الوزارة من قبل رضوان بن الولخشي في سنة 531هـ / 1137م، وكان سنياً مالكي المذهب، من أمراء الجيش الفاطمي، وقف ضد تدفق الأرمن على مصر، وحاول بهرام التخلص منه فأخفق، ولم يكن الخليفة راضياً عن إبعاد بهرام، وقبل مكرهاً بوزارة رضوان، ثم أثار ضده علي بن السلار وكان من كبار أمراء الجيش، وهرب رضوان سنة 533هـ / 1139م، ثم حاول مجدداً العودة فأخفق وقتل.

وبقي الخليفة من دون وزير رسمي حتى سنة 544هـ / 1149م حين استوزر سليم بن محمد ابن مصال اللكي، وكان أصله من ليبيا، وقد مكث في الوزارة بضعة أشهر فقط، حتى غلبه علي بن اسحق بن السلار وكان كردي الأصل، وقد ولي الوزارة في سنة 544هـ / 1149م نفسها، ومن جديد حمل من الألقاب: "شرف الإسلام، كافل القضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين العادل المظفر أبو الحسن علي بن اسحق بن السلار"، وكان الخليفة حينئذ هو الظافر (544-549هـ / 1149-1154م)، ومكث ابن السلار في الوزارة حتى قتله ابن زوجته عباس بن أبي الفتوح سنة 548هـ / 1153م، وفي أيام عباس اضطربت أحوال الدولة الفاطمية كثيراً، وشارك في أحداثها أسامة ابن منقذ، كما كان للصليبيين دورهم، وقد قتل نصر ابن عباس الخليفة الظافر، وفتك ببعض أمراء القصر، وكان ذلك سنة 549هـ / 1154م، واضطربت الأمور كثيراً، حتى ولي الخلافة الفائز (549-555هـ / 1154-1160م) وولي الوزارة طلائع بن رزيك، وكان من أصل أرمني، أسلم وتشيع حسب المذهب الإمامي، وكان أديباً شاعراً حاول أن يتعاون مع نور الدين ضد الصليبيين، وسعى إلى

إعادة ضبط أمور الدولة وإدارتها، وفي أيامه مات الخليفة الفائز، واختير العاضد ليلي الوزارة على الرغم من صغر سنه. وهنا ضيق ابن رزيك على أهل القصر فاغتالوه فيه سنة 556هـ / 1161م، ومع ذلك ولي الوزارة ابنه رزيك بن الصالح، وبقي في منصبه حتى ثار به شاور السعدي سنة 558هـ / 1163م، وكان عربياً يلي منطقة الصعيد، وهو أول عربي يلي الوزارة منذ أن استبد بها بدر الجمالي، وفي سنة 558هـ نفسها ثار به ضرغام بن عامر، وكان من أمراء الجيش، فهرب شاور إلى بلاد الشام، واتصل بنور الدين، فأرسل معه جيشاً بقيادة أسد الدين شيركوه، ثم انقلب ضد شيركوه، وتحالف مع الصليبيين، مما دفع نور الدين إلى إرسال حملتين تاليتين، تمكن بأخراهما من إنقاذ مصر. وفي سنة 564هـ / 1169م تدبر صلاح الدين قتله، فولي الوزارة شيركوه، حيث بقي شهرين وعدة أيام، ثم مات، فخلفه صلاح الدين.

ولاشك أن استمرار الأحوال المضطربة أضعف مصر كثيراً، وهذا يعلل إخفاق القوات الفاطمية أمام الصليبيين. ثم لأن جميع الوزراء كانوا من غير المصريين، كما أن الخلفاء لم يكونوا - ولم يصبحوا - لا بل القاهرة لم تكن للمصريين، سهل على صلاح الدين بخطبة واحدة أن يزيل حكماً عاش في القاهرة أكثر من قرنين. ومنذ أيام استبداد بدر الجمالي بالسلطة اتخذ للوزارة داراً خاصة، وظهرت أبهة دار الوزارة أو بالحري دار الملك الفعلي أيام الأفضل بن بدر الجمالي، وكانت الثروات التي توفرت بين يدي الأفضل هائلة، بقي الخليفة الآمر حوالي الشهرين وهو مشرف شخصياً على نقل ثرواته من داره إلى دار الخلافة، وكان من ذلك أكثر من اثني عشر "مليون" من الدنانير الذهبية، مع كميات من المجوهرات والأشياء المصنعة من الذهب والملابس والأقمشة، وكانت ثيابه الشخصية تعلق على مسامير من ذهب، أما ملابسه الداخلية فكانت توضع على تمثال من العنبر لتكسب الرائحة الطيبة قبل أن يرتديها، والحديث طويل جداً عما خلفه من ثروات. ولا بدّ هنا من سؤال حول مقدار موارد مصر آنذاك، وحول مقدار الظلم الاجتماعي والاقتصادي الذي لحق بالمصريين، لذلك لم يدافع أحد منهم عن الخلافة الفاطمية أو حاول إعادتها، ولو جاز استخدام كلمة "لو" في التاريخ، لقال الإنسان لو أن الأموال أنفقت في سبيل الجهاد ضد الصليبيين هل كان بإمكانهم البقاء في القدس قرابة القرن، لأنه بفضل طاقات مصر الجبارة استطاع صلاح الدين أن يحقق نجاحاته الكبرى التي تتوجت في معركة حطين، وتحرير القدس، والصمود أمام الحملة الصليبية الثالثة.

وكان على الوزير من أصحاب السيوف أن يداوم يومين من كل أسبوع في دار الخلافة، في مكان خاص به، حيث يجلس أمام قاضي القضاة مع اثنين من الشهود, ويجلس إلى جانب الوزير الذي يتولى كتابة التواقيع - أي الأوامر والتوجيهات - ووجود قاضي القضاة مع الوزير كان معناه التزام الأوامر والنواهي بأحكام الشريعة، وكان يصاحب الوزير، صاحب ديوان المال والخازن، وقائد الجيوش، مع أعوان كل واحد منهم ونوابه.

وكان الراتب الرسمي للوزير في الشهر الواحد عالياً جداً، بلغ خمسة آلاف دينار، ولكل واحد من أولاده وإخوته رواتب خاصة مع علاوات وإقطاعات كبيرة، هذا رسمياً، ولكن فعلياً كان الوزير يتصرف بجميع موارد الدولة، ويكدس الثروات الهائلة، كما فعل الأفضل بن بدر الجمالي.

وكان قصر الخلافة واسعاً جداً، فيه دهاليز وممرات كثيرة وقاعات واسعة لمختلف الأغراض،

حتى أن بعضها استخدم بمثابة سجون أو مستودعات. وكانت له عدة أبواب، خصص كل منها لغرض. وكانت الحياة في القصر طقوسية، لما أحيط به الإمام من قداسة وصلت إلى حد العبادة. وكان أهم أبواب القصر باب الذهب، حيث اعتاد أن يجلس عنده صاحب الباب، الذي كان يشغل أعلى الوظائف، وينافس في سلطانه الوزير أحياناً. وصاحب الباب، وإن شابه الحاجب لدى الأمويين والعباسيين، يمتلك رمزاً دينياً إسماعيلياً، وأورد وليم الصوري وصفاً لصاحب الباب والوزير، ولقصر الخلافة في أواخر حياة الدولة الفاطمية، وجاء ذلك بمناسبة دخول وفد صليبي مع الوزير شاور إلى داخل القصر، "فقد سار رجال الوفد أولاً خلال دهاليز ضيقة كانت بلا إنارة على الإطلاق، وسار أمامهم حشد ضخم وصاخب من المرافقين المسلحين بالسيوف، ووجدوا عند كل مدخل جماعة من الزنوج المسلمين الذين أظهروا تبجيلهم للسلطان (الوزير) بتحيات متكررة رددوها بحماسة.

وتوجهوا بعد تجاوزهم الحرس الأول والثاني إلى ساحة ضخمة وواسعة مفتوحة نحو السماء، وبذلك سمحت بدخول أشعة الشمس بحرية، وكانت هناك ردهات مدعومة بأعمدة رخامية مغطاة بتصاميم بارزة، وذات سقوف مزخرفة ومطلية بالذهب، وأرضيات مرصوفة بأحجار ملونة متنوعة، وسادت الأبهة الملكية في كل بقعة من ذلك بأسره، وكانت المادة والصنعة أنيقتين إلى درجة أن عيون جميع الذين رأوها فتنت بشكل لا إرادي بالجمال النادر، ولم تسأم من رؤيتها أبداً، وكانت هناك أحواض للسمك مبنية من الرخام ومملوءة بمياه صافية، كما كان هناك طيور من أنواع كثيرة غير معروفة بالنسبة لمنطقتنا من العالم، وكانت هذه الطيور أكبر من الطيور التي نعرفها، فقد كانت أشكالها غريبة وألوانها فريدة، وتغريدها مختلفاً، وكان يختلف طعام كل طير تبعاً لصنفه وكان موائماً لنوعه.

وقادهم مقدم الخصيان [الطواشي] من هذا الفناء إلى موقع أبعد حيث رأوا أبنية فاقت في أناقتها تلك التي تمت مشاهدتها للتو، تماماً مثلما بدت الأبنية الأخيرة أكثر روعة من الأبنية المألوفة والعادية، ووجدت هنا كمية من الحيوانات بقدر ما تحب اليد اللعوب للرسام أو مخيلة الشاعر أن تصور، أو كما يرى الذهن في أحلام الليل مخلوقات كهذه غالباً ما توجد في بلدان الشرق والجنوب، إلا أنها لم تشاهد في الغرب، ونادراً ما سمع عنها هناك.

وبعد المرور خلال العديد من الدهاليز الملتوية، والطرق المعوجة التي يمكن لعجائبها أن تؤخر حتى أكثر الرجال انشغالاً في تأملها، وصلوا إلى القصر نفسه، ووجد هنا أيضاً كتلة كبيرة من الجند المسلحين، وحشود من الأتباع والمرافقين أوحت أعدادها وأسهمت في التعبير عن العظمة الفريدة لسيدها، وقدم المظهر نفسه للموقع برهاناً قاطعاً على كثرة كنوز الملك وغناه المنقطع النظير.

ولدى الوصول أذن لهم بالدخول إلى القسم الداخلي من القصر، حيث أظهر السلطان التوقير العادي هنا لسيده حسب العادة، بالسجود له مرتين على الأرض، والوقوف بتواضع أمامه، وأظهر نحوه تقديساً لائقاً بالإله، ونوعاً من التوقير المذل، ثم انحنى للمرة الثالثة نحو الأرض ووضع سيفه الذي كان يتدلى من رقبته، وسحبت بعد ذلك الستائر المطرزة باللآلئ والذهب بسرعة رائعة، فقد كانت متدلية تخفي العرش، وبدا الخليفة بوجه مكشوف، وقدم مظهراً فخماً وهو جالس على عرش من الذهب ومحاط ببعض مستشاريه وخصيانه، وتقدم

السلطان منه بكل توقير، وطبع بتواضع قبلة على قدم الملك الجالس.. ".

وهذه في الحقيقة صورة مرعبة ومدهشة.

ولقد حق لصلاح الدين الخوف من دخول القصر عندما عزم على إلغاء الخلافة الفاطمية، ثم إنه بعدما ألغى هذه الخلافة جمع ثروة كبيرة من بيع محتويات هذا القصر، ولاسيما مكتبته التي قيل إنها حوت أكثر من مليون مجلد، وقد استمر بيعها عشر سنوات. وبكى عمارة اليمني ما لحق بقصر الخلافة وأتى على ذكر أهم نشاطاته، من ذلك قوله:

مررت بالقصر والأركان خالية
من الوفود وكانت قبلة القِبَل

فملت عنها بوجهي خوف منتقد
من الأعادي موجه الود لم يمل

أسلت من أسف دمعي غداة خلت
رحابكم وغدت مهجورة السبل

أبكي على مأثرات من مكارمكم
حال الزمان عليها وهي لم تحل

دار الضيافة كانت أنس وافدكم
واليوم أوحش من رسم ومن طلل

وفطرة الصوم إن أضحت مكارمكم
تشكو من الدهر حيفا غير محتمل

وكسوة الناس في الفصلين قد درست
ورث منها جديد عندهم وبلي

وموسم كان في يوم الخليج لكم
يأتي تجملكم فيه على الجمل

وأول العام والعيدين كم لكم
فيهن من وبل جود ليس بالوشل

والأرض تهتز في يوم الغدير كما
يهتز ما بين قصريكم من الأسل

والخيل تعرض في وشي وفي شية
مثل العرايس في حلي وفي حلل

ولا حملتم قرى الأضياف من سعة الـ
أطباق إلا على الأكتاف والعجل

وما خصصتم ببر أهل ملتكم
حتى عممتم به الأقصى من الملل

كانت رواتبكم للإنس والجن
والضيف المقيم وللطاري من الرسل

ثم الطراز بتنيس الذي عظمت
منه الصلات لأهل الأرض والدول

(ب) القضاء :

عرفت الدولة الفاطمية منصب القاضي منذ تأسيسها في إفريقية، وكان القاضي النعمان من أوائل الذين تسلموا هذا المنصب، كما أنه صنف في الفقه الإسماعيلي، وظل منصب القضاء محصوراً بأسرته لمدة طويلة من المرحلة المصرية، لكن في مرحلة الوزراء أرباب السيوف حمل الوزير لقب قاضي القضاة، وبهذا صار هو المشرف على القضاء، وصار هو الذي يعين من يمارس وظيفة قاضي القضاة, وفي كثير من الأحيان قام هو مع صاحب الباب بمهام ديوان المظالم، أو قضاء المظالم، وصار قاضي القضاة يتولى تعيين قضاة الأقاليم وسواهم. ومنذ أيام الأفضل بن بدر الجمالي لم يعد القضاء وقفاً على المذهب الإسماعيلي، بل صار هناك أربعة قضاة: واحد للشافعية، وآخر للمالكية، وثالث للإسماعيلية، ورابع للشيعة الإمامية.

وأكثر من هذا صار للمسيحيين قضاة من الأقباط. وكان قاضي القضاة "أجلّ أرباب العمائم رتبة، وتارة يكون داعي الدعاة، وتارة تفرد الدعوة عنه، ويجلس في يومي الثلاثاء والسبت بزيادة جامع عمرو بن العاص، وله طراحة ومسند حرير والشهود حوله، وله خمسة من الحجاب، اثنان منهم

بين يديه، واثنان على باب المقصورة، وواحد ينفذ الخصوم إليه. وله أربعة من الموقعين، ودواته بين يديه على كرسي محلى بفضة يحمل إليه من الخزائن، ولها عامل بجار سلطاني في كل شهر، ويخرج إليه من إصطبل الخليفة بغلة شهباء، وهي مختصة به دون غيره، ويكون عليها سرج محلى ثقيل ورادفتان من فضة، ومكان الجلد حرير.

وتخلع عليه الخلع المذهبة، فيسير بغير طبل ولا بوق، إلا أن يضاف إليه الدعوة فإنه يسير حينئذ بالطبل والبوق، فإن ذلك من رسوم الداعي مع البنود. فإن كان إنما خلع عليه لوظيفة القضاء فقط، فإنه يسير بالقرى رجالاً حوله وبين يديه المؤذنون يعلنون بذكر الخليفة، والخليفة والوزير، إن كان ثمة وزير صاحب سيف، ويركب معه يومئذ نواب الباب والحجاب ولا يجلس أحد فوقه البتة، ولا يمكنه حضور جنازة ولا عقد نكاح إلا بإذن، ولا يقوم لأحد من الناس إذا كان في مجلس الحكم، ولا ينشئ عدالة إلا بإذن، فلا تثبت إذا أذن له في إنشائها لأحد حتى يزكيه عشرون عدلاً من عدول البلد بين مصر والقاهرة، ويرضاه الشهود كلهم، فإن كان في الدولة وزير سيف لا يخاطب حينئذ من يتولى الحكم بقاضي القضاة، فإنه من نعوت الوزير" .

ويصعد القاضي إلى القصر في يومي الخميس والاثنين بكرة للسلام على الخليفة، وله النواب، وإليه النظر في دار الضرب لتحرير العيار، ولا يصرف القاضي إلا بمنحة، وكان الراتب الشهري لقاضي القضاة مائة دينار. ويرجح أن الفوضى السياسية والصراعات بين المذاهب قد أثرت على أحوال القضاة.

وسلفت الإشارة إلى أن قاضي القضاة كان كثيراً ما يجمع مع وظيفته وظيفة داعي الدعاة، وهي مرتبة جاءت بعد مرتبة قاضي القضاة، لكنها كانت عظيمة الأهمية لدى الإسماعيلية، اشترط أن يكون صاحبها إسماعيلياً ضليعاً بالمذهب، إذ هو الذي يشرف على دعاة الإسماعيلية في كل مكان، ويتولى تدريبهم في القاهرة، وكان يأخذ العهد على المنتمين الجدد إلى المذهب، وكان له اثنا عشر نقيباً، وإليه كان يحضر فقهاء الإسماعيلية في دار العلم، وكان يقرأ عليهم كل اثنين وخميس بعض النصوص الموافق عليها من الخليفة، وكان له مكان خاص في القصر، حيث كان يجلس على كرسي خاص، ويتلو النصوص أولاً على الرجال ثم على النساء، وكان هو الذي يتولى جباية "مال النجوى" ومقدار هذا ثلاثة دراهم وثلث الدرهم على كل إسماعيلي، أو أكثر، وكانت الأموال التي يدفعها المؤمنون الإسماعيلية إلى الإمام من عوامل الثراء الهائل للدولة الفاطمية. ثم إن الطبيعة الفلسفية لمحاضرات الدعوة رفعت دوماً من السوية الثقافية، ودفعت إلى الاهتمام بالعربية وبكثير من العلوم. غير أن تأثير ذلك على المصريين لم يكن موجوداً، فقد كانت أشبه بسلع تعدّ للتصدير الخارجي، لذلك عندما تعطلت الأسواق الخارجية مع تأسيس النظامية وقيام السلطنة السلجوقية، انتكس الفكر الإسماعيلي، وخبا بريقه، وتتابعت الأزمات الداخلية في القاهرة، وأخفق أواخر الخلفاء في تحويل أنفسهم إلى أسرة مصرية، فكان أن سهل على قوة خارجية إزالة الدولة والأسرة بخطبة خطيب جمعة.

(جـ) الإقطاع :

كان إقطاع الأراضي في الإسلام على نوعين: الإقطاع المدني ثم الإقطاع العسكري. والإقطاع المدني هو منح السلطات لواحد من الناس قطعة أرض للاستغلال لمدة محددة، أو للتملك.

وغالباً ما تكون الأرض المقطعة من الأراضي الموات، وكانت هذه الأراضي تدفع ضريبة الخراج أو العشر أو الضريبتين معاً، وكان هذا النوع موجوداً في مصر قبل استيلاء الفاطميين عليها، ثم استمر حتى قام الأفضل بن بدر الجمالي بحلّ جميع الإقطاعات، وأعاد مسح الأراضي وتوزيعها، وصار الإقطاع يمنح لمدة ثلاثين سنة مع شيء من التساهل. كما كان من عادة الخلفاء الفاطميين تأجير بعض الأراضي إلى المتنفذين، مقابل دفع الخراج عنها، وكان هؤلاء بدورهم يؤجرونها للفلاحين والزارعين مقابل نسبه معينة من المحاصيل. وفي أيام الوزير طلائع بن رزيك، قام هذا الوزير ببيع الإقطاعات إلى الأمراء مقابل أسعار، وتوجب على المقطعين دفع ضرائب محددة، عن كل فدان مبلغ دينارين وربع دينار. وكانت تصدر مراسيم عن ديوان الإنشاء بمنح الإقطاعات. ويختلف هذا الإقطاع على الرغم من أن المنح كانت لمدنيين أو عسكريين، عن الإقطاع العسكري الذي ظهر أيام البويهيين، ثم تطور أيام السلاجقة، وجرى تطبيقه بعد ذلك في مصر منذ العصر الأيوبي. ففي الإقطاع العسكري كانت قطع من الأرضين يجري إقطاعها مقابل خدمات عسكرية مع عدد من العسكريين.

(د) ديوان الإنشاء :

قبل استبداد بدر الجمالي بالسلطة، كان الخلفاء الفاطميون على الرغم من إحداث الوزارة، وتوفر وزراء أكفاء، يتدخلون في كثير من شؤون السلطة. لكن في عصر الوزراء من أصحاب السيوف لم يكن هؤلاء - في الغالب - من أهل الثقافة، لا بل قيل بأن بعضهم لم يتقن العربية، ولهذا ارتفع شأن كتاب ديوان الإنشاء، وكاد بعضهم يصل إلى مرتبة الوزارة. فالقاضي الفاضل الذي كان وراء نجاحات إدارة صلاح الدين طوال عهده كان من كتاب ديوان الإنشاء، وكان مثل غيره عالي الثقافة، متقناً لصنعة اللغة الديوانية، التي باتت سمة من سمات العصر.

قال المقريزي: "كان متولي ديوان الإنشاء يخاطب بالأجل، ويقال له كاتب الدست، وهو الذي يتسلم الكتب الواردة ويعرضها على الخليفة من يده، ثم يأمر بتنزيلها والجواب عنها، والخليفة يستشيره في أكثر أموره ولا يحجب عنه شيء متى جاء، وهذا أمر لا يصل إليه غيره، وربما بات عنده. وجاريه في كل شهر مائة وعشرين ديناراً، مع الكسوة والرسوم، ولا يدخل إلى ديوانه ولا يجتمع بكتابه إلا الخواص، وله حاجب من الأمراء وفراشون، ومرتبة هائلة، ومخاد ومسند، ودواة بغير كرسي، وهي من أنفس الدوي، ولها أستاذ من خدام الخليفة برسم حملها ".

وعمل في ديوان الإنشاء عدد من الكتاب البارعين تولى كل واحد منهم عملاً من الأعمال، وكان على رجال الديوان معرفة أصول المخاطبات الخارجية وأيضاً الداخلية، وألقاب الملوك والحكام. ومن المفترض أنه وجد في الديوان من أتقن غير العربية، وبشكل خاص الإغريقية واللاتينية والأرمنية. وكانت الشروط التي توجب أن يتحلى بها كل عامل في ديوان الإنشاء: التقوى، وعدم قبول الرشاوي، واحترام النفس وتماسكها، وصفاء الذهن، وقوة الذاكرة، والأمانة والإخلاص، والذوق الرفيع، واللطف والتهذيب، وعلو الهمة والنشاط والإتقان مع عدم الإهمال، مع القدرة على تحميل الألفاظ المتوجب تحميلها إياه، والتمكن من علوم العربية، ومعرفة التواريخ والسير.

وكان ديوان الإنشاء يتولى تنسيق سير المعاملات بين مختلف دواوين الدولة، وذلك

بالتعاون مع ديوان البريد. وكان للمتولي لديوان الإنشاء نائب هو الذي كان يقوم بتلخيص الكتب الواردة، وجاء بعده كاتب الإنشاء "وهو أجل الكتاب المستخدمين في هذا الديوان، لأنه يتولى الإنشاء من نفسه"، وبما أنه كان يتكلم بلسان الدولة، كان كلامه أبرع، وكان في النفوس أوقع" وهو الذي ينشئ التقليدات والكتب في الحوادث الكبار، والمهمات العظام التي يتلى ما يكتب فيها على فروق المنابر ورؤوس الأشهاد، ويحتاج منه إلى قوة الجدل، وإقامة الحجج، وشدة المعارضة، وأن تكون ألفاظه قوالب معانيه، وأن يحل من الفصاحة بحيث يجلو الحق في معرض الباطل، ويكسو الباطل شعار الحق، ويمدح المذموم ويزينه، ويذم المحمود ويشينه، ويصرف عنان القول كيف شاء، ويطيل في موضع الإطالة، ويختصر في مكان الاختصار".

ومع أن الإسماعيلية آمنوا بأن الإمامة نور ينتقل بالأصلاب، وأن الإمام كان ملهماً معصوماً، فقد احتاج الأئمة والخلفاء إلى من يتولى تربيتهم وتعليمهم، قال المقريزي: "ولا بد للخليفة من جليس يذاكره ما يحتاج إلى علمه من كتاب الله، وتجويد الخط، ومعرفة الأحاديث، وسير الخلفاء، ونحو ذلك، يجتمع به أكثر أيام الأسبوع، وبرسمه أستاذ محنك يحضر ثالثهما، فيقرأ ملخص السير، ويكرر عليه ذكر مكارم الأخلاق، ورتبته عظيمة تلحق برتبة كاتب الدست، ويكون صحبته دواة محلاة، فإذا فرغ من المجالسة ألقى في الدواة كاغدة فيها عشرة دنانير، وقرطاساً فيه ثلاثة مثاقيل ند مثلث خاص ليتبخر به عند دخوله على الخليفة".

وفي الحقيقة امتلكت الخلافة الفاطمية شبكة إدارية كبيرة تعددت فيها الدواوين المختصة، ومن هذه الدواوين: ديوان التحقيق، وكان يتولى الإشراف على آلية الدواوين كلها وديوان الرواتب، فيه أسماء جميع العاملين في الدولة مع مقدار رواتبهم "وكاتبه يجلس بطراحة، وتحت يده عشرة كتاب، وترد إليه التعريفات من سائر الأعمال باستمرار ما هو مستمر، ومباشرة من يستجد، وموت من مات ليوجب استحقاقه".

واحتل الأشراف مكانة عالية في النظام الفاطمي. وكان للأشراف نقيبهم، وللنقيب "اثنا عشر نقيباً"، ويخلع عليه فيسير بالطبل والبوق والبنود مثل الأمراء، وله ديوان، ومشارف وعامل ونائب، وجاريه في الشهر عشرون ديناراً، ولمشارف ديوانه عشرة دنانير، ولنائبه في النقابة ثمانية دنانير، وللعامل خمسة دنانير .

وكان لدى الفاطميين وظيفة يقال لها النيابة، صار اسمها فيما بعد وظيفة المهمندار، وتشبه في نظمنا الحديثة "دوائر المراسم والعلاقات العامة"، فقد كان المتولي للنيابة "يتلقى الرسل الواردين من الملوك، وكانت خدمة جليلة لمتوليها نائب، ومن خواصه أنه ينعت أبداً كل من يليها بغذي الملك، وله النظر في دار الضيافة... وكان له في الشهر خمسون ديناراً، وفي كل يوم نصف قنطار خبز مع بقية الرسوم".

واهتم الفاطميون بوظيفة الحسبة، وكان "للمحتسب عدة نواب بالقاهرة ومصر (الفسطاط) وسائر الأعمال، ويجلس بجامع القاهرة ومصر يوماً بعد يوم، ويطوف نوابه على أرباب المعايش، ويخلع على المحتسب، ويقرأ سجله على منبر جامع عمرو بن العاص".

وأنشأ الفاطميون ديواناً للمظالم واهتموا به كثيراً، وهو إن ارتبط بالقضاء إلا أنه استقل عن القضاء، وكان من المفترض أن يترأس جلساته الخليفة مع بعض القضاة، لكن هذا لم يكن عليه الحال في الخلافة الفاطمية، ولذلك عرف رئيس هذا

الديوان باسم "صاحب المظالم"، وغالباً ما كانت جلسات هذا الديوان تعقد عند باب الذهب، وكانت الشكاوي تجمع من قبل بعض الموظفين ويجري عرضها يومياً، ذلك أن هذا الديوان عرف عدة وظائف وتوفرت فيه سجلات خاصة، وكان معظم الذين يتشكون إلى هذا الديوان يأتون من الأقاليم والأرياف البعيدة، يرفعون ظلاماتهم ضدّ عمال الجباية والولاة والقادة العسكريين، وتوفر تعاون بين هذا الديوان وديوان الإنشاء الذي كان يتولى صياغة ملابسات القضايا والقرارات حولها لرفعها إلى الخليفة للتصديق عليها.

وكان ديوان المال يتمتع بمكانة عالية في الإدارة الفاطمية، لأن المال عصب الملك، ومن ملك المال ملك السلطان. وتنوعت موارد المال من الضرائب على التجار، ومن خراج الأراضي، والمكوس، وإيجارات العقارات في القاهرة التي عدت ملكاً للدولة، والجوالي (الجزية). وتوجب أن يكون المتولي لهذا الديوان ماهراً وأميناً، وكذلك العاملون فيه. وتولى هذا الديوان مع الجباية أحياناً بعض أعمال الإنفاق على منشئات الدولة، والجسور، والمستودعات، والخيول والبغال والحمير، والجمال وتجهيزاتها، كما أن هذا الديوان هو الذي أشرف على ضرب العملة والتدقيق في حسابات الدولة. وكان يتبع لهذا الديوان ديوان الخراج، وكان هذا الديوان مع ديوان المال ينسّقان مع ديوان الإنشاء من خلال ديوان البريد، الذي تمتع بمكانة رفيعة، وبصاحب الباب.

(هـ) الجيش :

اعتمد المعز لدين الله الفاطمي على الجيش في الاستيلاء على مصر، وتكوّن هذا الجيش من القوات البرية والقوات البحرية، وكان قوام القوات البرية من عناصر القبائل المغربية: كتامة، ومصمودة، وزويلة، وصنهاجة، ولواته. وأسند المعز القيادة العامة إلى جوهر الصقلبي (السلافي)، وكان يعاون جوهر وتحت إمرته عدد من القادة من أمراء القبائل ومقدميها، واستولى هذا الجيش دون صعوبة على مصر، لكنه أخفق وهزم مراراً في بلاد الشام، مما دفع العزيز بن المعز إلى تجنيد عناصر من الترك والديلم، وبعد ذلك من السودان. وأخذ الجيش يتحول إلى جيش إمبراطوري فيه جميع صنوف الأسلحة، من فرسان رماحة، وفرسان رماة، وفرسان سيافة إلى غير ذلك، ورجاله حملة حراب، أو حملة قسيّ، أو حملة سيوف... وهكذا، وذلك بالإضافة إلى الأسلحة الجماعية من هجومية ودفاعية، ومنذ أيام بدر الجمالي كثرت العناصر الأرمنية في الجيش الفاطمي بشكل ملحوظ، وسكنت القوات العسكرية في القاهرة، لأن جوهر أنشأ القاهرة معسكراً خاصاً، وزع مناطقه (حاراته) على مجموعات الجند حسب انتمائها القبلي والإقليمي والعرقي، ولتعدد أصول الجيش مع تنوع أسلحته، كان هناك تنافس كبير بين وحداته.

وكانت أهم المراتب في الجيش هي: الأمراء، وكانت لهم رتبهم المختلفة تميزوا بها بعلامات أثناء الاحتفالات والأعياد الرسمية، وكان هؤلاء يلبسون أطواقاً في رقابهم لذلك عرفوا بالأمراء المطوقين. وكان كل واحد منهم يقود ألفاً من الجنود، وجاء بعد هؤلاء أصحاب القضب، وكان هؤلاء يركبون في مواكب الخليفة، ويحملون رماحاً فضية، وكان كل واحد منهم يقود مائة من الجنود. وجاء بعدهم أدوان الأمراء، وكان كل واحد منهم أمير خمسة أو عشرة جنود. وكانت قيادة الجيش تسند إلى قائد صار يعرف بأمير الجيوش. ومنذ أيام بدر الجمالي صار الوزراء هم أمراء الجيوش، ومن

أهم قطع الجيش كان حرس الخلفاء والوزراء، وكان أهم هؤلاء الأساتذة المحنكون، وكان معهم صبيان الخاص، وصبيان الحجر.

وبلغ تعداد الجيش الفاطمي أحياناً أكثر من مائة ألف، ثلثهم أو أكثر من السودان. وقد انخفض هذا العدد في أيام طلائع بن رزيك إلى أربعين ألف فارس، وثلاثين ألف راجل، ومع ذلك كانت الكفاءة القتالية لهذه الأعداد متدنية، وذلك على الرغم من جودة التسليح والدخل.

وامتلك الفاطميون أسطولاً جيداً اهتم به الخلفاء، ومع ذلك عانى هذا الأسطول من مشكلة الأخشاب ولذلك جاء أدنى قوة من الأساطيل الأوربية أيام الحروب الصليبية، فأخفق في الدفاع عن السواحل الشامية. وكان للأسطول الفاطمي قائد عام، كما كان لكل سفينة قائدها. كما أن السفن لم تكن على نوع واحد، فمنها ما كان للشحن، ومنها ما كان للقتال، ومنها ما كان لنقل العساكر والخيول والعتاد، وقد ورث صلاح الدين هذا الأسطول الذي تمكن من أداء بعض المهام الناجحة.

واهتم الفاطميون كثيراً بتطوير الأسلحة، ولاسيما الأسلحة النارية (النفوط)، لأن النفط كان ينبع في كثير من مناطق الوطن العربي، فيجري جمعه، ومن ثم مزجه ببعض المواد، ومن ثم صنع عدة أنواع من الأسلحة الحارقة، منها ما كان يرمى بالنشاب، أو بالمجانيق، أو باليد على أوعية زجاجية مليئة بمواد تشتعل عند ارتطامها بأي جسم أو مكان أو هدف. كما اعتاد الفاطميون على إفراغ بيوض النعام وحشوها بالمواد الحارقة، واستخدامها مثل قنابل يدوية. هذا وتوفرت أسلحة نارية للقتال البحري، ولإحراق سفن الأعداء، وآلات زحفه لاسيما الأبراج. واستفاد الأيوبيون من التراث الفاطمي، وطوروه كثيراً، ومثلهم فعل المماليك.

وامتلك الفاطميون خزائن للسلاح والمعدات، والأعتدة، كما اهتموا بالأعلام والبنود، ووصلوا إلى توحيد زي الجنود من السراويل والبرانس، وكانت هناك خزائن لألبسة الجنود، وكان لون الراية العظمى عند الفاطميين البياض، وجرت العادة أن يتولى الخليفة عقد الراية لقائد الحملة العسكرية المرسلة، وكان ذلك يجري في دار الخلافة.

وكان للجيش ديوان خاص، حوى سجلات خاصة بأسماء القادة والعساكر. وكانت التقارير ترسل إلى هذا الديوان حول كل ما تعلق بسيرة كل قائد وأفعاله وأوضاعه ومشاكله، وكان ديوان الجيش هو الذي يشرف على النفقة على الجنود ويتولى إعداد الجيوش وتجهيزها، وكان يرأس هذا الديوان موظف مدني من أرباب الأقلام يسمى "متولي ديوان الجيش" وكان متصلاً بالخليفة مباشرة، واهتم الفاطميون برواتب الجند، وأجزلوا لهم الأعطيات، لكن ما أن تدخل الجند بالسياسة، حتى دخلت السياسة إلى الجيش ففتتته ومزقته، فكانت الانقلابات المتوالية حتى حدث الانهيار.

وعلى العموم إن المتمعن بتاريخ الخلافة الفاطمية، يرى أن هذه الخلافة تأسست على أساس دعوي ومذهبي متميز، لكن ما أن وصل الفاطميون إلى السلطة بشخص المهدي حتى تخلوا عن التطبيق العقائدي ومارسوا سلطة لم تقلّ طغياناً واستبداداً عن غيرها من سلطات التاريخ الإسلامي، ولذلك جاء نجاح الفاطميين في المغرب بعد تأسيس دولتهم سياسياً وليس عقائدياً، وعندما انتقلت الخلافة الفاطمية إلى مصر، عاشت إدارتها في القاهرة بمعزل عن المصريين، يماثلها من هذا الباب الحكم الكلاسيكي لمصر الذي دام قرابة الألف عام، ثم انقشع مع الفتح الإسلامي لمصر، ومثل هذا زال الحكم الفاطمي بخطبة خطيب. وبعدما أنشأ صلاح

الدين قلعته، ونقل السلطة إليها، تبدلت أوضاع القاهرة فاندمجت مع الفسطاط ونشط فيها المصريون، وبعد أمد قصير أعيد افتتاح الأزهر، حيث نشط فيه المصريون مع عدد آخر من مسلمي الشام وغير الشام، فكان أن قدر له القيام بدوره العظيم والذي ما يزال قائماً، وعلى هذا يبقى تاريخ الخلافة الفاطمية على أهميته تاريخاً هامشياً لأنه لم يرتبط بالشرعية التي أجمعت عليها الغالبية العظمى من الأمة الإسلامية، ولم يعتمد على جمهور المسلمين في المغرب أولاً ثم في مصر والشام وسواهما ثانياً. وللطبيعة الخاصة لتاريخ الفاطميين، امتازوا بإدارة خاصة، هي وإن تشابهت بعض جوانبها مع إدارات دول المغرب، خاصة الأغالبة، ثم إدارات مصر الإسلامية، فإنها بقيت تتمتع بشخصية خاصة، ولعل من أسباب ذلك طبيعة القاهرة أيام الفاطميين، وربما أكثر أن الغالبية العظمى من وزراء الفاطميين كانوا من أهل الذمة، ولم يشتهر أحد بين الوزراء الفاطميين كان من أصل مصري، لا بل لم يعرف، ولعل هذا يسوغ دراسة تاريخ الإدارة عند الفاطميين منفرداً، ومع ذلك لا ينكر أن الإدارة الأيوبية ورثت أشياء كثيرة عن الإدارة الفاطمية، ولنتذكر هنا أن مؤسس الإدارة الأيوبية، القاضي الفاضل، كان بالأصل من كتاب الدولة الفاطمية.

2 - المؤسسات في الدول البورية والزنكية والأيوبية

مقدمة :

كانت أهم الدول الإسلامية التي تولت مسؤولية التصدي للصليبيين والجهاد في سبيل اقتلاعهم من بلاد الشام والجزيرة هي: البورية في دمشق، والزنكية الأتابكية في الموصل وحلب ودمشق، والأيوبية في بلاد الشام ومصر، ومثلها سلطنة المماليك. فقد دافعت الدولة البورية عن دمشق وحالت دون سقوطها للصليبيين حتى دخلها نور الدين ووحّدها مع حلب. وفي ظل الدولة الزنكية حررت مدينة الرها، وتوحدت بلاد الشام، ونقلت الوحدة إلى مصر. وفي عصر الدولة الأيوبية كانت معركة حطين وتحرير مدينة القدس ثم الوقوف أمام الحملات: الثالثة، والخامسة، والسادسة، والسابعة. وفي أيام المماليك الأوائل جرى تحرير أنطاكية ثم طرابلس، وأخيراً عكا عام 1229م، حيث طويت صفحة الاحتلال الصليبي.

وعاش أهل الشام بشكل خاص خلال قرني الحروب الصليبية في حالة حروب مستمرة مما كان له أبعد الآثار على أحوالهم السياسية، والاجتماعية، والثقافية، والعسكرية، والاقتصادية، مع جميع أوجه الحياة. وفي ظل الأوضاع الاستثنائية يصعب الحديث عن حياة هادئة طبيعية فيها إدارات مدنية متطورة مستقرة ومعافاة، مع اقتصاد يعتمد على الزراعة والحرف والتجارة بشكل انسيابي مستقر، ومع ذلك كانت هناك بعض المؤسسات الإدارية الموروثة، التي كانت تنتعش أحياناً ثم تختفي حتى تكاد تزول من الوجود، مثل الوزارة. ففي ظل الحكام العسكريين باشر هؤلاء كل شيء بأنفسهم، اعتماداً على بعض الموظفين الكبار، لأن هؤلاء الحكام أمضوا معظم أوقاتهم في جبهات القتال، وليس في إحدى الحواضر. يضاف إلى هذا أن السلطة رست في عصر الحروب الصليبية في القلاع والحصون، وكان كل صاحب حصن أو قلعة سيد دويلة صغيرة خاصة به، وعلى هذا انعدمت المركزية في الدولة الواحدة، ورسّخ هذا الواقع، لا بل زاده تعقيداً الإقطاع العسكري.

(أ) الإقطاع العسكري :

جاء الإقطاع العسكري إلى الوجود بعد استيلاء الديلم على مقاليد السلطة في الدولة العباسية. ويعزو بعضهم اعتماد هذا النظام، إلى اختفاء الطبقة البرجوازية التجارية للخلافة العباسية، وتناقص السيولة المالية، لذلك اضطر الديلم إلى ربط أعطيات الجند وخدماتهم بالأرض، وقد عزا ذلك بعضهم إلى الطبيعة القبلية للديلم، لكن هذا لا يكفي، حيث لا بدّ من سؤال: هل اخترع الديلم نظام الإقطاع العسكري، أم أنهم بعثوه إلى الوجود من التراث الإيراني القديم، ولاسيما الساساني منه ؟

لقد عرف الساسانيون أنظمة الإقطاع العسكري، وكانوا قد ورثوها عن الأخمينيين. ويرجّح أن الأخمينيين قد أخذوا أنظمة الإقطاع العسكري عن البابليين، حيث ورد ذكر هذه الأنظمة في قانون حمورابي في المواد 26-31. ومنذ القرن الرابع هـ / العاشر م حدث بعث للأنظمة الفارسية

القديمة في ميادين السلطة والإدارة، وتوافق ذلك مع تفتت الدولة العباسية وعجزها المالي، لذلك تم اللجوء إلى نظام الإقطاع العسكري، وقد بين ذلك نظام الملك في كتابه "سياسة نامة" بقوله: "لقد كان من عادة الملوك القدماء ألا يقطعوا الجيش شيئاً، بل يدفعون لكل منهم، بحسب درجته، عطاءه من الخزينة نقداً أربع مرات سنوياً، فكان الجند في يسر ورخاء دائماً"، وعند قيام السلطنة أسس نظم هذه السلطنة وإدارتها وفق الموروث الفارسي وزيران كبيران هما الكُنْدري وزير طغرل بك، ثم الوزير نظام الملك، الذي يعدّ واحداً من أعظم الشخصيات الإدارية والفكرية والسياسية في التاريخ الإسلامي، وإليه يعزى تطوير نظام الإقطاع العسكري، ويمكن التعرف إلى بعض ذلك في كتاب: "سياسة نامة " المنسوب إليه.

ونظام الإقطاع العسكري الإسلامي يختلف عن نظام الإقطاع الذي عرفته أوربا الغربية في العصور الوسطى، حيث بقي سكان الأراضي المقطعة أحراراً. يقول نظام الملك: "ليعلم المستقطعون أن لا شأن لهم على الرعايا سوى تحصيل الأموال المستحقة عليهم بالحسنى، على أن يكونوا بعد ذلك آمنين على أنفسهم وأموالهم ونسائهم، وضياعهم وما يملكون، دون أن يكون لأصحاب الإقطاعات عليهم من سبيل", وأوصى نظام الملك باستبدال "العمال والمستقطعين كل سنتين أو ثلاث، قبل أن يثبتوا أقدامهم، ويحصنوا أنفسهم، أو يصبحوا مبعث قلق، وحتى يحسنوا معاملة الناس وتظل الولاية عامرة". ويفهم من كلام نظام الملك أن نظام الإقطاع هو الوسيلة التي كان يمكن بوساطتها إنشاء جيش من مختلف الشعوب، لأن "اتخاذ الجيش من جنس واحد مدعاة لظهور الأخطار والتخريب والفساد، وعدم الجدية والبلاء في الحرب".

وجلب السلاجقة نظام الإقطاع العسكري معهم إلى بلاد الشام، ومن بلاد الشام انتقل إلى مصر. فصلاح الدين هو أول من أدخل الإقطاع العسكري إلى مصر، إذ صارت "أراضي مصر كلها تقطع لسلطان وأمرائه وأجناده". وكان صلاح الدين قد قام بتصفية جيوش الخلافة الفاطمية "من العبيد السود، والأمراء المصريين والعربان والأرمن وغيرهم، واستجد عسكراً من الأكراد والأتراك خاصة ".

ويستدل من بعض المصادر أن الزنكيين كانوا يورثون الإقطاعات من الآباء إلى الأبناء، وإذا صدف وكان الوريث قاصراً، كانوا يكلفون من يقوم برعاية الميراث حتى يشب الوارث ويصبح قادراً على إدارة إقطاعه وتأدية الخدمة العسكرية المتوجبة عليه تجاهه، لكن صلاح الدين لم يطبق مبدأ التوريث في مصر.

وبموجب نظام الإقطاع، صار على كل مقطع تقديم عدد محدد من العساكر - حسب مساحة إقطاعه - وتجهيزهم بالسلاح والعتاد وبأسباب العيش، وعاش الجند في العصر الزنكي والأيوبي في ظل نظام الإقطاع حياة فيها أكثر من الكفاية، ومع ذلك انعكس هذا النظام سلباً على صلاح الدين أثناء تصديه للحملة الثالثة وإثر وفاته. وعلى الرغم من ذلك تطور نظام الإقطاع العسكري كثيراً في العصر المملوكي، وصار لتوزيع الإقطاعات على الجند رسوم خاصة، وهذا سوف يكون موضوع بحث مستقل.

(ب) الجيش :

أقيم نظام الإقطاع العسكري في سبيل الإنفاق على الجيوش. وعندما تأسست السلطنة السلجوقية

جاء ذلك اعتماداً على القبائل التركمانية، ومع ذلك اختص كل سلطان منذ البداية بقوة خاصة به، وغالباً ما كان ذلك من الغلمان عن طريق الشراء. وذكر نظام الملك في كتابه سياسة نامة أن السلاطين أخذوا يفضلون بعد تأسيس السلطنة عدم الاعتماد فقط على التركمان حتى في الحرس الخاص. وبناء عليه قال: "إن اتخاذ الجيش من جنس واحد مدعاة لظهور الأخطار والتخريب والفساد، وعدم الجدية والبلاء في الحرب، لذلك ينبغي أن يؤسس الجيش من كل جنس وملة، وأن يرابط بالقصر ألف رجل من الديلم وخراسان، يحتفظ بالموجود منهم ثم يهيأ الباقي بعد ذلك"، وذهب نظام الملك إلى الترخيص بتجنيد عناصر أخرى حتى وإن كانت غير إسلامية .

والمستعرض لأخبار اجتياح الغزو لبلاد الشام يصعب عليه الحديث عن جيش أو جيوش بل الأمر اعتمد على عصابات قبلية مسلحة، حتى جيش السلطان ألب أرسلان الذي خاض به معركة مناز كرد كانت طبيعته قبلية، مجموعات تتجمع وقت الحاجة ثم تتفرق.

وتنبه نظام الملك إلى هذه المسألة الخطيرة، وأوصى بمعالجتها فقال: "على الرغم من النفرة والملالة من التركمان وكثرة عددهم، فإن لهم حقاً ثابتاً على الدولة إذ أسهموا في خدمتها إبّان قيامها، وتحملوا في سبيلها المتاعب والمشاق، فضلاً عن أنهم من ذوي القربى، لذا ينبغي اختيار ألف من أبنائهم وتربيتهم وتنشئتهم على سبيل غلمان من غلمان القصر، لأنهم في اشتغالهم المستمر فيه يتعلمون آداب السلاح والخدمة، ويحتكون بالناس فتلين قلوبهم، ويخدمون كغلمان، وتزول من نفوسهم وطباعهم ما وقر فيها من نفرة، وكلما دعت الحاجة يركب خمسة أو عشرة آلاف منهم بلباس الغلمان وأسلحتهم لأداء المهمة التي يندبون لها، كل هذا لئلا يظلوا دون نصيب في هذه الدولة، وليكونوا سعداء فرحين فيها، وليكسب الملك الحمد والثناء" .

وأخذ بهذه القاعدة حكام السلاجقة، ولاسيما زنكي، ومع ذلك لم يكن في الغلمان كفاية لسد جميع الحاجات، لذلك عمد إلى تجنيد عناصر من التركمان، ومن القبائل العربية، لا بل حتى من الفلاحين، كما أنه وسع اعتماده على الأكراد، فأدخل في خدمته كلاً من أيوب وشيركوه، هذا وقد قتل زنكي غيلة على يد عدد من غلمانه.

واعتمد نور الدين كثيراً على الأكراد. فعندما انتشر خبر مقتل زنكي أخذه شيركوه وساق به إلى حلب، وفي دولة نور الدين بقي شيركوه الأول بين القادة العسكريين، وعليه اعتمد في حملاته إلى مصر، ومع ذلك جند نور الدين مجموعات أخرى من التركمان وسواهم، حتى بات جيشه يتألف من قطع حملت كل منها اسم قائدها، وكانت أكبر مجموعة تركمانية عرفت بالياروقية، كان زنكي قد أقطعها بعض ريف حلب، ونظراً لأن جيش نور الدين قد تألف من عدة مجموعات متنافسة، لم يستطع ابنه الصالح إسماعيل البقاء في الملك واستولى صلاح الدين بجيشه الجديد على ميراث نور الدين ثم خاض بعد ذلك بنجاح معركة حطين، وصمد في وجه الحملة الصليبية الثالثة.

وكان صلاح الدين عندما تسلم الوزارة في القاهرة عقب وفاة عمه شيركوه قد تخلى عنه قادة العساكر التركمان، وعادوا إلى بلاد الشام، وبذلك واتته الفرصة لتكوين جيش خاص به بلغ تعداده حسب رواية المقريزي اثني عشر ألف مقاتل من الفرسان. ثم ذكر المقريزي مرة أخرى نقلاً عن القاضي الفاضل أن صلاح الدين استعرض قواته في الثامن من المحرم سنة 567هـ / 11 أيلول 1171م

"وكانت العدة الحاضرة مائة وسبعة وأربعين طلباً، والغائب منها عشرون طلباً ... والطلب بلغة الغُزّ، هو الأمير المقدم الذي له علم معقود وبوق مضروب، وعدة من مائتي فارس إلى مائة فارس إلى سبعين فارساً" وعلى هذا بلغ العدد الآن أربعة عشر ألف فارس. وفي سنة 577هـ / 1181م أعاد صلاح الدين استعراض قواته، فبلغت حوالي الثمانية آلاف فارس، وسبب ذلك كان إرسال بعض القوات في مهام توسعية خارجية في اليمن، ونحو ليبيا، وأيضاً إلى بلاد الشام. ومما لاشك فيه أن هذه القوات احتاجت إلى نفقات كبيرة جداً، ثم إن جيش صلاح الدين لم يتألف من الفرسان فقط، بل كان هناك الرجالة، وهؤلاء بالعادة أكبر بكثير عدداً من الفرسان، ثم إن الفرسان لا يكونون بالعادة لوحدهم بل يكون لكل واحد منهم عدد من الأتباع. فقد ذكر المقريزي، أنه عند وفاة صلاح الدين "لم يبق بمصر مع ابنه الملك العزيز عثمان سوى ثمانية آلاف فارس وخمسمائة فارس، إلا أن فيهم من له عشرة أتباع وفيهم من له عشرون، وفيهم من له أكثر من ذلك إلى مائة تبع لرجل واحد".

وبعدما استولى صلاح الدين على بلاد الشام، وأخضع لإرادته منطقة الجزيرة ازدادت قواته عدداً، لكن من المؤكد أنه لم يحضر إلى الشام جميع قواته، بل احتفظ بمصر بعدد كبير منها، وعندما خاض صلاح الدين معركة حطين لم يتجاوز تعداد قواته ما بين فرسان ورجالة ومتطوعة الخمسة والعشرين ألفاً.

وبعد صلاح الدين تمزقت دولته، ونشبت بينها الحروب، مما أرغم معظم الأيوبيين على شراء الغلمان، لاسيما من أصل تركي، وفعل ذلك بشكل خاص متميز الصالح أيوب (637-647هـ / 1240-1249م). ففي أيام الصالح تأصل نظام المماليك، وبعد وفاته بأمد قصير تسلم المماليك السلطة، وأقاموا سلطنتهم.

ومع أن عصر الحروب الصليبية شهد تطوراً كبيراً في التسليح والتدريب، فقد ظل السلاح الرئيسي لدى الفرسان المسلمين القوس العادي، وأحياناً القوس الزيار أو العقار، ومعه السيف أو الدبوس، كما كانت هناك أسلحة جماعية متنوعة، والمكتبة العربية حافلة بالمؤلفات العسكرية المهمة التي تحتاج إلى تحقيق ودراسة.

وعرف الأمراء الأدنى مرتبة، أو الذين احتلوا المرتبة الثانية بعد أمراء المئات باسم "أمراء الطبلخاناه"، وكان كل واحد من هؤلاء يقود ما لا يقلّ عن أربعين فارساً، لأن بعضهم قد قاد أحياناً سبعين فارساً وربما ثمانين، وقاد هؤلاء عدداً أقل من ألف من الرجالة، وشغلوا وظائف عالية، وشابه هؤلاء أمراء القضب في العصر الفاطمي، وجاء من بعدهم أمراء العشرينات ثم أمراء العشرات، وليس لهؤلاء مثل أمراء الطبلخاناه عدد محدد، وكان السلطان ينعم بالخلع على الأمراء، واختلفت الخلع حسب الرتبة باللون والقماش والزينة والنوعية، ومثل ذلك تعلق الأمر بخيولهم وزينتها. ومع أن المماليك كانوا يتعهدون عند تخرج أحدهم بالوفاء والإخلاص للسلطان، فإنهم غالباً ما خرقوا هذه العهود، وتمردوا على سادتهم، أو قتلوهم للوصول إلى السلطة.

وكان للجيش الأيوبي رواديف مثلما كان للجيش الزنكي من قبل من متطوعة أهل الشام، وبعض المجاهدين من البلدان العربية والإسلامية، ومع المتطوعة رجال القبائل (العربان) وكانوا إما من الفرسان، أو النجابة، وما يزال التاريخ العسكري الإسلامي، أيام الحروب الصليبية، يحتاج إلى بحث معمق. ففي عصر المواجهة مع أوربا

الصليبية، كانت معركة ساحة الدم، ثم معركة حطين، وتحرير القدس والصمود في وجه الحملة الثالثة، وبعد هذا معارك غزة ولاسيما معركة الحربية وتحرير القدس مجدداً أيام الصالح أيوب.

وبديهي امتلك الزنكيون والأيوبيون دواوين للجند أو للجيش، ذلك أن ديوان الجند هو أقدم الدواوين العربية تأسيساً، وأطولها عمراً وتطوراً، وكان ديوان الجيش مركز توزيع الاقطاعات جميعاً، كما كان مسؤولاً عن الإنفاق العام على الجيش، وعلى التعبئة والعتاد، والسلاح، والمؤن، والحاميات والحصون والقلاع. وقد توجب على العاملين فيه إثبات أصحاب الإقطاعات على اختلاف مراتبهم وطبقاتهم مع جميع أفراد الجيش السلطاني وجيوش الأمراء، وتواريخ إمرتهم، طبعاً حسب الشهور القمرية، واسم الذي انتقل إليه عنه الإقطاع، وعدد الجنود الذين هم في إقطاعيته، وهنا كتبت هذه المعلومات رمزاً لا صراحة، من باب السرية والحذر، ولهذا تجنب الديوان الإفصاح عن مقدار أي إقطاع إلا بموجب مرسوم سلطاني، وتولى موظفون مختصون آخرون إثبات الإقطاعات في كل إقليم من الأقاليم، ومقدار القرى وأحوالها. ومع هذه الجريدة، كانت هناك جريدة أخرى، ورد فيها أسماء الجنود غير المقطعين الذين كانوا يتقاضون أجورهم نقداً، وكان رئيس الجيش يطلب من العاملين في ديوانه كل سنة نسخة عن قوانين ري البلاد وتبيان الحقول ما زاد عنها زراعة وما نقص، وكان هذا الديوان يتابع الأحوال الزراعية في الإقطاعات ويراقبها، ويقوم بمراجعة أحوالها كل ثلاث سنوات، كما كان هذا الديوان يتولى حساب التفاوت الإقطاعي متابعة لتبدلات أحوال المقطع من انتقال في المراتب إلى غير ما ذلك، مثل الوفاة والتركة والميراث. وكان الديوان يتعامل بوحدة نقدية اعتبارية عرفت باسم "الدينار الجيشي"، وتفاوتت قيمة هذا الدينار الفعلية، لكن غالباً لم تتجاوز ربع قيمة الدينار الحقيقي.

وطبعاً منذ أيام صلاح الدين، صار ديوان الجيش يتألف من قسمين، قسم اختص بمصر، والثاني ببلاد الشام. وتولى ديوان الجيش الإنفاق على بناء القلاع وترميم الأسوار، أو بناء أسوار جديدة، أو معسكرات جديدة تحولت إلى مدن، مثل حالة المنصورة في مصر، والعادلية والصالحية.

وبما أن صلاح الدين قد ورث أسطولاً صغيراً عن الفاطميين، فقد أنشأ ديواناً خاصاً به سماه "ديوان الأسطول" وأفرد لهذا الديوان إقطاعات كبيرة، وكتب إلى عمال الشام ومصر بوجوب تلبية طلبات ديوان الأسطول، واستفاد صلاح الدين من أسطوله في البحر الأحمر، حين أحبط محاولة أرناط صاحب الكرك في غزو المدينة المنورة ومكة المكرمة، كما استفاد منه أثناء حصار عكا من قبل الحملة الصليبية الثالثة. ومثلما كان هناك دينار اسمه الدينار الجيشي، كان هناك أيضاً دينار باسم "دينار الأسطول". هذا وكان للأسطول دوره في مواجهة الحملتين الصليبيتين الخامسة والسابعة، وعانت الصناعة البحرية دوماً من مسألة نقص الأخشاب.

(جـ) الوزارة :

المستعرض لتاريخ تأسيس السلطنة السلجوقية، وعهود حكم سلاطينها الثلاثة الكبار الأوائل: طغرلبك، ألب أرسلان، ملكشاه، يرى بأن حكم السلطنة ونجاحاتها ووحدتها ارتبط باسم وزيرين هما: أبو نصر الكندري، ونظام الملك. وعلى هذا الأساس استردت الوزارة مكانتها، وقامت بأهم أدوارها، وباغتيال نظام الملك بدأت السلطنة

تواجه المشاكل، وما لبثت أن تفتت إلى دولة متنازعة .

وعرفت الدول التي أقامها التركمان في بلاد الشام، ومن بعدهم الدولة الأيوبية، واعتمدت نظام الوزارة، وارتبطت مكانة الوزير ودوره بشخصية رئيس الدولة أو سلطانها، وبشخصية الوزير هو نفسه. ومن الممكن التعرف إلى ذلك من خلال دراسة بعض أهم الوزراء، ونبدأ أولاً مع الدولة البورية في دمشق.

في دمشق عرفت الأسرة البورية نظام الوزارة، وكانت مؤسسة مدنية، لكن هذه المؤسسة نافستها مؤسسة أخرى شبه مدنية، هي مؤسسة رئاسة المدينة، وجاءت هذه المؤسسة نتيجة لوجود منظمة الأحداث في دمشق واستردادها لبعض أدوارها، وأهم من تسلم هذه المؤسسة أسرة آل الصوفي، وهي أسرة انحدرت من قبيلة كلاب، وكانت تسكن بلدة سرمين التابعة لحلب، وهاجرت إلى دمشق، حيث ارتفع شأنها كثيراً، حتى أنها نافست الأسرة البورية نفسها. ومن الممكن النظر إلى ما قام به آل الصوفي على أنه كان محاولة دمشقية للحفاظ على مكانتها ودورها السياسي، وعدم التخلي عنه للقلعة الناشئة حديثاً، والتي صارت مقراً للأسرة البورية التي كانت تركمانية الأصل.

ولم تتنافس مؤسسة رئاسة المدينة مع القلعة فقط، ولكنها تنافست أيضاً مع الوزارة، واشتد ذلك بعد وفاة ظهير الدين طغتكين، ومثل الوزارة الوزير أبو علي طاهر بن سعد المزدقاني، وكان رئيس المدينة أبو الذواد المفرج بن الحسن الصوفي، ولكي يمتن المزدقاني من موقفه سمح لأتباع الدعوة الإسماعيلية الجديدة (الحشيشية) بقيادة بهرام الداعي بالقدوم من حلب وسكنى دمشق، وسلمهم بلدة بانياس (الجولان)، وهكذا شكلت سلطة المزدقاني قوة مرعبة في دمشق، واستمر ذلك من حوالي سنة 520هـ / 1126م حتى سنة 523هـ / 1129م، حيث قام تاج الملوك بوري بن طغتكين بالفتك بوزيره المزدقاني في قلعة دمشق، ورمى جثته خارج باب الحديد، أي الباب الرئيسي للقلعة، وجاء هذا الحادث بمثابة إشارة إلى أهل دمشق، خاصة الأحداث منهم، حيث ثاروا بجميع الإسماعيلية الحشيشية وأفنوهم قتلاً بمختلف الطرق، ونجا بعض الحشيشية فوصلوا مرعوبين إلى بانياس، فاجتمعوا بإخوانهم هناك، حيث قرروا الاستعانة بالمملكة اللاتينية في القدس، وسلموا إلى الصليبيين مدينة بانياس مع قلعتها، وزحفت القوات الصليبية حتى أهواز دمشق، ثم انسحبت عائدة.

وبعد هذه الأحداث كلف تاج الملوك بوري رئيس المدينة المفرج بن الحسن الصوفي بالوزارة، فجمع بذلك بين الرئاسة والوزارة، وبقي في منصبه حتى سنة 530هـ / 1136م، حيث قام محمود بن بوري صاحب دمشق بقتل الوزير ابن الصوفي، واعتقال أفراد أسرته، وبعد أيام سمح لأفراد أسرته بمغادرة دمشق إلى صلخد، وبذلك زالت رئاسة المدينة، وبعد هذا لم تعرف أوضاع الأسرة البورية الاستقرار، وحاول أفراد من أسرة الصوفي في دمشق ومن صلخد العودة إلى الرئاسة والوزارة، ونشطوا بشكل قوي قبيل سقوط دمشق لنور الدين سنة 549هـ / 1154م، حيث وحد الشام الشمالي مع الشام الجنوبي، وبدأ مرحلة تاريخية جديدة .

وقبل الحديث عن الوزارة في أيام نور الدين، لا بدّ من وقفة مع هذا الموضوع أيام حكم زنكي والد نور الدين:

في الحقيقة قام حكم زنكي بناء على تحالف ثلاثي، بينه وبين القاضي علي بن الشهرزوري،

ونصير الدين جقر، ودعم هذا التحالف صلاح الدين الياغسياني. فالشهروزي وجقر اتفقا مع زنكي في بغداد على تقاسم السلطة، وسعيا لدى السلطنة والخلافة في بغداد حتى صدر أمر تعيينه والياً على الموصل، وكان جقر دوما نائب زنكي عسكرياً، في حين انفرد الشهروزي بالقضاء. وكان الياغسياني الأول بين القادة العسكريين لدى زنكي، ومع هذا وعلى الرغم من شخصية زنكي القوية المتحكمة في كل شيء، فإنه لم يتخل عن مؤسسة الوزارة، واستوزر أكثر من وزير، كان أهمهم وأوسعهم شهرة أيام زنكي ومن بعده الوزير جمال الدين محمد بن علي بن منصور، وقد ظهر دوره إثر اغتيال زنكي، بالمحافظة على ملك أولاده للموصل، وقامت شهرته على كرمه، وكثرة صداقاته، وأعماله في مكة والمدينة. وقد توفي في سنة 559هـ / 1164م، وحملت جنازته إلى بغداد ومنها إلى مكة حيث دفن فيها.

أما نور الدين فكان أبرز الذين استوزرهم ابن القيسراني أبو البقاء موفق الدين خالد بن محمد ابن نصر بن صغير (ت 588هـ / 1192م)، وكان بدأ حياته في حلب ناسخاً بخط جيد ومجلداً للكتب، تعرف عليه نور الدين، وخدمه ورقاه "وتقدم عنده، ونفق عليه، وولي وزارته، وجمع في ولايته بين الإنشاء والاستيفاء" وأتقن التعامل مع نور الدين. وحين فترت العلاقات ما بين نور الدين وصلاح الدين، أرسله نور الدين إلى مصر ليقوم بوضع كشف حساب، حول ما أنفقه صلاح الدين مع أوجه الإنفاق وكميات الموارد، لكن نور الدين توفي قبل إكمال هذه المهمة.

وبعد نور الدين وطوال أيام صلاح الدين، تولى تدبير دولته القاضي الفاضل، ثم صار القاضي يستنيب عنه العماد الأصفهاني الكاتب، الذي لازم صلاح الدين طوال وجوده في بلاد الشام، وحضر معه جلّ معاركه، وتولى كتابة رسائله ومناشيره، وكان بارعاً جداً، لكنه أسرف كثيراً في الصناعة اللفظية. وفيما بعد انضم إلى صلاح الدين أبو المحاسن بن شداد يوسف بن رافع، حيث تقلد وظيفة قاضي العسكر، ولازم السلطان بشكل دائم، ولذلك جاء كتابه الذي كتبه فيما بعد عن حياة صلاح الدين "المحاسن اليوسفية" من أهم المصادر، وأكثرها مصداقية. والمهم أنه يصعب الحديث عن دور وزير لصلاح الدين. ومع أن القاضي الفاضل كان الرجل الإداري الأول لدولة صلاح الدين، لم يطلق عليه صلاح الدين لقب وزير، واختلفت الأوضاع بعد وفاة صلاح الدين حيث تمزقت دولته إلى مجموعة دول، في كل واحدة منها وزير، أو ربما وزيران أولهما مقيم في حاضرة الدولة وكان من أرباب السيوف، وثانيهما، يبقى بصحبة السلطان في أسفاره، وكان من أرباب الأقلام. وكان دور بعض الوزراء سلبياً مضراً كما حدث في دمشق مع الأفضل علي بن صلاح الدين. ولعلّ أشهر وزراء العادل أبو بكر ثم ابنه الكامل محمد بن شكر - الصاحب صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر- وكانت له دالة كبيرة على العادل وقد تحكم بدولة العادل، ذلك أنه "كان ذا سطوة وجبروت كبير، وتمكن من الملك واستولى عليه وعظم قدره - أعني الصاحب صفي الدين ابن شكر-، وصادر أكابر الدواوين، واستصفى أموالهم"، وشملت المصادرة عدداً من القضاة وصاحبي ديوان الجيش والمال، فهرب كثيرون منه إلى بلاد الشام، كما أنه صادر بعض التجار وسواهم "والملك العادل لا يعارضه في شيء، حتى قيل إن ذلك كله برضاه وإرادته، وكان صفي الدين بن شكر المشار إليه كثير التغاضب على السلطان الملك العادل، ويمت بخدم

عنده ... وكان الملك العادل يحتمله على أخلاقه، وفي آخر الأمر حلف أنه ما بقي يخدمه، فأخرجه من الديار المصرية في شهور سنة تسع وستمائة (1212م)، فخرج بجميع أمواله وحرمه وأولاده وغلمانه، وقيل كانت تحت ثقله ثمانون جملاً"، وذهب ابن شكر إلى مدينة آمد حيث بقي فيها حتى ما بعد وفاة العادل، إذ استدعاه الملك الكامل ابن العادل سنة 616هـ / 1219م، وعندما وصل إلى القاهرة استقبله، وعرض عليه مشاكله المالية والسياسية والعسكرية فتعهد له بحلها جميعاً، فاستوزره "وشرع في مصادرة أرباب الأموال من التجار والكتاب وقرر التبرع على الأملاك، وأحدث حوادث كثيرة وحصل أموالاً عظيمة"، ومكث ابن شكر في الوزارة حتى سنة 622هـ / 1225م حيث توفي في هذه السنة، وإثر وفاته اعتقل الكامل أولاده وصادر جميع أمواله وأملاكه.

(د) القضـــاء :

للقضاء تاريخ طويل وعريق في تاريخ العرب والإسلام، وتقدمت بنا الإشارة إلى الاتفاق الذي عقد بين زنكي من جانب وكمال الدين ابن الشهرزوري وجقر من الجانب الآخر، وولي الشهرزوري في دولة عماد الدين القضاء، كما أسهم في كثير من نشاطات الدولة الزنكية، وكان من أتباع المذهب الحنفي، لأن التركمان آثروا هذا المذهب دون غيره من مذاهب أهل السنة، وبقي ابن الشهرزوري مع عماد الدين زنكي حتى وفاته، وبعد ذلك مكث في الموصل، لكن ما لبث أن عزل من منصبه. وعندما علم نور الدين بذلك استدعاه وكلفه بالقضاء، وبقي مع نور الدين حتى وفاته في دمشق، وبعد وفاة نور الدين عندما اختلف أمراء جيشه حول السلطة والوصاية على الصالح إسماعيل بن نور الدين، نصحهم بعدم تجاهل صلاح الدين، لكن لم يأخذوا برأيه، وانتقلوا بالصالح إسماعيل إلى حلب، فقدم صلاح إلى دمشق واستولى عليها، وهنا كلف ابن الشهرزوري بالقضاء، فبقي يشغل وظيفته هذه حتى عام وفاته في 572هـ / 1176م.

وكان الأيوبيون من أتباع المذهب الشافعي، ولذلك عهد صلاح الدين بالقضاء إلى أبي سعد عبد الله بن محمد بن أبي عصرون (492-577هـ / 1099-1181م) وكان قد تعاون من قبل مع صلاح الدين في مصر إثر إسقاط الخلافة الفاطمية، وقد تخلى عن القضاء بعد تقدمه بالسن وبعدما فقد بصره، فأسند صلاح الدين القضاء إلى ابنه محيي الدين محمد بن عبد الله، غير أن هذا القاضي لم يمكث في منصبه سوى عقد من الزمن، حيث عزله السلطان لأنه كان شبه عسكري، له مداخلات مع الجنود واتخذ لنفسه الخيول والغلمان، ويفيد هذا أن القضاء صار وراثياً، وصار يدير على متسلمه الكثير من المال، ولعل ذلك جاء عن طريق الرشوة، أو استغلال الأوقاف، لأنها كانت تسند في كثير من الأحيان إلى قاضي القضاة. وحين عزل السلطان ابن أبي عصرون كلف بالقضاء محيي الدين ابن الزنكي، وكان صاحب مكانة علمية رفيعة، وهو الذي حضر سنة 583هـ / 1187م فتح القدس مع صلاح الدين، وألقى خطبة الفتح وهي مشهورة .

وفي مصر ولي قضاء القضاة فقيه شافعي، كان يعاونه نائب قاضي قضاة حنبلي، وجاء هذا مقدمة لاتخاذ قضاة أربعة يمثلون مذاهب أهل السنة والجماعة، ثم مع الأيام صار القضاء اختصاصاً متوارثاً داخل بعض الأسر، التي باتت تعرف بالعلم والفقه والتدريس، وفي كثير من الأحيان كان بعض القضاة يعمدون إلى الانتقال من مذهب إلى مذهب.

واشترط فيمن يرشح لمنصب قاضي القضاة أن يكون عالماً فقيهاً، له فطرة سليمة، ونباهة وقدرة على المحاكمة والاستنباط، والخبرة والسن، وحسن السمعة والاستقامة، مع الذكورة، والحرية، والإسلام والعدالة، وسلامة السمع والبصر. وكان يصدر عن الخليفة مرسوم تقليد قاضي القضاة أو عن السلطان، وإثر ذلك كان يتلقى خلعة وبغلة، وفي دمشق كان المعين قاضياً للقضاة يلبس الخلعة في الجامع الأموي، ثم يسير في موكب حافل في المدينة، ومن ثم كان يباشر أعماله في دار العدل النورية التي أنشأها نور الدين محمود.

وكان القاضي يتولى البت بجميع المسائل والخلافات، ويترافع أمامه جميع المسلمين من أعلاهم إلى أدناهم، كما كان يتولى أحياناً الفصل ببعض قضايا أهل الذمة، وكان يوكل إليه أحياناً النظر في المظالم، وبحكم منصبه كان جسراً من الجسور بين الرعية والسلطان، وكان أحياناً يتوسط عند السلطان، أو يفتي له ويكون أداة ضغط على الرعية، وقد يجمع التدريس والخطابة والنظر في بعض الأوقاف إلى جانب القضاء، وكان يدعو إلى الجهاد، وقد يرافق في بعض حملات الجهاد، فعندما حاصر صلاح الدين القدس لتحريرها كان بصحبته عدد كبير من القضاة والفقهاء.

وتميز القضاة بألبسة خاصة، وكانوا يركبون البغال النفيسة، ويتقاضون رواتب عالية، وكان لقاضي القضاة نوابه وأعوانه، وأهمهم كاتب القاضي، وكان "من حقه أن يعرف مدلولات الألفاظ العربية واللغوية، وأن يكون حسن الفهم عن اللافظين من عوام الواقفين والمقرين وغيرهم" وتلاه حاجب القاضي، الذي "كان من حقه الاستئذان على ذوي الحاجات ورفع الأمور إلى القاضي حسبما ذكر الفقهاء"، وكان هناك نقيب القاضي وكان "من حقه تنبيه القاضي على الشهود وتنبيه الشهود على القاضي". ومع هؤلاء كان يوجد أمناء القاضي، وكان عليهم الحفاظ على أموال الأيتام والغائبين، وكان في كل محكمة جماعة من الرجال عرفوا باسم وكلاء دار القاضي، وشابه هؤلاء رجال المحاماة في أيامنا، ولذلك مدحهم قوم فقالوا: "هم أناس نصبوا أنفسهم لخلاص حقوق الخلق"، وذمهم آخرون فقالوا: "هم أناس فضل عليهم الفضول فباعوه لغيرهم"، ووجد مع كل مجلس قضاء مجموعة من الشهود الذين نسميهم في أيامنا بشهود أو كتاب العدل، وكانوا يعرفون في الغرب الإسلامي باسم الموثقين، وكانت إجراءات المحاكمة تتم حسب الشريعة بالمساواة بين الخصوم وتصدر الأحكام وجاهياً، ويجري تسجيلها في سجلات خاصة، وكانت الدولة تتكفل تنفيذ الأحكام القضائية.

(هـ) الحسبة :

ارتبطت مؤسسة الحسبة بالقضاء، وهي مرتبة قديمة وأصيلة في تاريخ الإسلام، كانت مهامها مراقبة الأسواق ومختلف أوجه النشاط العامة في كل مدينة، بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. ومنذ العصر الزنكي ازداد الاهتمام بالحسبة، وفي العصر الأيوبي منذ أيام صلاح الدين، كثرت المؤلفات بالحسبة، ومن أهم المؤلفات "كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة " لعبد الرحمن بن نصر الشيزري (ت 589هـ / 1193م)، والنظر في هذا الكتاب يمكّن الناظر من التعرف إلى أهمية مؤسسة الحسبة التي تولت الإشراف على الحياة الاجتماعية، فقد كان المحتسب مع أعوانه يشرف على مراقبة الخبازين والأساكفة، والأطباء، والبياطرة، والمؤدبين، والسقائين والغسالين، وعلى الحمامات، لا بل كان يتردد على مجالس القضاة للمراقبة ولمنع

القضاة من الجلوس في المساجد، واحتفظت الحسبة بمركزها خلال العصر المملوكي، وقد وصلنا من هذا العصر عدة كتب أهمها "نهاية الرتبة في طلب الحسبة" لابن بسام المحتسب، وهو مشابه ليس فقط بالعنوان، بل حتى بالنص لكتاب الشيزري، وكتاب "الحسبة " لابن تيمية الحراني، و"كتاب معالم القربة في أحكام الحسبة" لابن الأخوة القرشي محمد بن محمد .

ومنذ العصر الأيوبي تطورت الإدارة من جميع الجوانب، مستفيدة من الميراث العباسي، والتجربة الفارسية الجديدة، والميراث الفاطمي، واتسمت الإدارة في عصر المواجهة مع الصليبيين بالكفاءة إلى حد ما، وطبعاً كانت هناك تجاوزات، مع بعض الخلل، وكان هناك دوماً سعي وراء المال لسداد نفقات الجيوش وأعمال الجهاد، واختلفت الأحوال من سلطان إلى آخر، ومن أمير إلى آخر بالنسبة للاستقامة والجباية والإنفاق، فقد ضرب نور الدين مثلاً أعلى في العفاف والزهد والاستقامة والعدل، ومثله كان صلاح الدين إلى أبعد الحدود، خاصة في العقد الأخير من حياته، لكن هذا تبدل فيما بعد، وكانت هناك دوماً أزمات مالية، وزيادات في الضرائب والمكوس، مع أعمال مصادرة، وعاش السلاطين وسواهم من أهل السلطة حياة ترف، واهتموا بأعمال بناء المدارس، والزوايا، والمساجد، والمنشئات الحربية، والترب.

خاتمة :

في عرض موجز وسريع لأهم المناصب والوظائف والدواوين، نجد أولاً:

السلطان: وكان يفترض أن يكون هو الخليفة، ولكن منذ قيام سلطنة السلاجقة جرى انتزاع هذا اللقب مع صلاحياته من الخليفة، وظل الخلفاء مجرد أسماء يمنحون الشرعية، بلا سلطات، وكانت الخلافة العباسية قد سقطت في بغداد على أيدي المغول، فأعاد بعثها في مصر الظاهر بيبرس، ولعلّه حين فعل ذلك لم يكن يبحث عن الشرعية فقط، وإنما - وهو التركي الأصل - استلهم القاعدة التركية في السلطة، في أن يكون هناك خاقان يملك ولا يحكم، وبيك يقود الجيش ويحكم. وقد أشرنا من قبل إلى أن السلطان كان يقود الجيش، وينظر في الإقطاعات، ويقوم بأعباء السلطة كلها لوحده.

وكان لكل سلطان نائب أو أتابك، أو أكثر من نائب وأتابك، فطغتكين صاحب دمشق كانت مرتبته هي الأتابكية، كما أن زنكي أيضاً كان يحمل مرتبة أتابك، وكان جقر يمثل النائب الأول لزنكي، ومن بعده كان صلاح الدين الياغسياني.

وفي أيام نور الدين شغل شيركوه بشكل فعلي منصب النائب له، وكان صلاح الدين نائب عمه في مصر، وفي أيام صلاح الدين كان أخوه العادل الشخصية الأولى بعده، وقد جمع ثروات هائلة، ولذلك تمكن من انتزاع الملك من أولاد صلاح الدين. وتطور منصب الأتابكية في العصر المملوكي كثيراً، وغالباً ما كان الأتابك يعزل السلطان أو يغتاله ويلي مكانه، مثلما فعل الظاهر بيبرس مع قطز، ومثل ذلك فعل كثير من رجالات المماليك.

وسلف الحديث عن الوزارة ومكانتها، وكان بعد الوزارة من بين أعلى الوظائف وظيفة الدوادار (أي حافظ الدواة)، وهو كان أشبه الناس بالحاجب أيام الأمويين والعباسيين الأوائل، يأذن للناس بالدخول على السلطان، وإليه يرفع شكاويهم ومطالبهم ومظالمهم ويذكّره فيما نسيه وانشغل عنه. وجاء بعد الدوادار الخازندار، وكان المسؤول المالي للسلطان لاسيما في شؤون الدفع والصرف،

ومن بعده جاء الأستاذ دار، فقد كان المسؤول عن القصر السلطاني، كما كان المتحدث في إقطاعات الأمراء مع الدواوين، وقد توجب عليه "أن يرفق بأهل القرى، ويؤدي أمانة الله تعالى التي علقها في رقبته، كما عليه أن يؤدّي حقّ الأمير". وكان لدواوين الدولة مَنْ يشرف عليها جميعاً، ويقرر العقوبات على المقصرين والمخالفين.

وكان للسلطان كاتب لأسراره "وهو الذي أيضاً يتولى شرح جميع القضايا للسلطان ويفهمه إياها، وأوصى الفقهاء كاتب السر على عدم المساعدة على الظلم وقطع الأرزاق".

وورث الأيوبيون عن الفاطميين وظيفة المهمندار، الذي كان يستقبل الرسل والقاصدين وشيوخ القبائل وسواهم. واهتم المسلمون في تاريخهم بالبريد كثيراً، وتطور البريد أيام نور الدين حيث أكثر من استخدام الحمام الهوادي، وأوصى رجل البريد دوماً بالرفق بدواب البريد، وأن لا يدل على عورات المسلمين، فقد كان أشبه بمسؤول أمني للسلطان.

وكان للجيش قاضيه وناظره، وعارضه، وسلاحداره، وكان للسلطان جمقدار يحمل دبوسه، وطبردار يحمل سلاح السلطان بين يديه، وجوكاندار، فقد كان نور الدين مغرماً بلعب الكرة "البولو" وكذلك صلاح الدين. وكانت هذه الرياضة هي الرياضة المفضلة لدى السلاطين.

وصار للسلطان حامل لنعله لقبه "البشمقدار" وحامل علم، وأمير شكار "مسؤول عن طيور السلطان والكلاب المعدة للصيد، كما صار للسلطان سقاة يقدمون إليه الماء والأشربة الأخرى، وعاش في قصور السلاطين مجموعة من العبيد الخصيان، الذين عرف واحدهم بلقب "الطواشي". وقد واتى الحظ بعض هؤلاء فتسلموا بعض المسؤوليات الجسام، فكافور الإخشيدي كان من هؤلاء، وقراقوش كان من أبرز الشخصيات أيام صلاح الدين، كما أن لويس التاسع، أوكلت حراسته إلى الطواشي صبيح بعد وقوعه في الأسر في معركة المنصورة.

ونظراً لاتساع أرجاء دولة زنكي ثم نور الدين من بعده والأيوبيين، استخدموا الولاة. وأسندت مهام الدولة إلى عدد من الأمراء تفاوتت وظائفهم ومراكزهم، ومع الجيش كانت هناك قوات تولت مهام الشرطة. ونظراً لمكانة الأوقاف، فقد صار في كل نيابة ومدينة ناظر للأوقاف كلها أو بعضها.

ومنذ أيام نور الدين تعاظم الاهتمام بالتعليم وبإنشاء المدارس، وبالعلماء والمتصوفة، كما اهتم صلاح الدين بمشايخ القبائل العربية. وفي الحقيقة كانت شعب الإدارات كبيرة وكثيرة ومعقدة، كما كان للزنكيين والأيوبيين والناس أعيادهم ومواسم احتفالات كبيرة كلها جديرة بالدراسة.

أ. د. سهيل زكار
جامعة دمشق

المصادر والمراجع

أولاً - المصادر العربية :

- ابن الأثير، أبو الحسن علي الجزري، ت 630هـ/ 1233م : الكامل في التاريخ، طبعة ليدن والقاهرة ، 1348.
- ابن الأثير، أبو الحسن علي الجزري، ت 630هـ/ 1233م : التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، في الموسوعة الشاملة.
- ابن الأثير ، إسماعيل الحلبي : عبرة أولي الأبصار في ملوك الأمصار، المتحف البريطاني رقم 334، رسالة ماجستير تحت إشراف سهيل زكار، جامعة دمشق.
- ابن بسام ، المحتسب (القرن 6هـ / 12م) : نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق حسام الدين السامرائي، بغداد، 1968.
- الإصطخري ، إبراهيم بن محمد، ت309 هـ / 921م : المسالك و الممالك، القاهرة، 1961.
- الأصفهاني ، محمد بن محمد العماد الكاتب : تاريخ دولة آل سلجوق، هذبه الفتح البنداري، القاهرة، 1900.
- الأصفهاني ، محمد بن محمد العماد الكاتب : خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق شكري فيصل، دمشق، 1955- 1964.
- الفتح القسي : الموسوعة الشاملة.
- البرق الشامي : مخطوطة المغرب.
- ابن أيبك الدواداري ، أبو بكر بن عبد الله (كان حيًّا سنة 736هـ / 1335م) : الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة، 1961.
- البغدادي ، عبد القادر بن محمد بن الوليد ، ت 429 هـ / 1037م : الحرز والمنعة في بيان أمر المهدي والمتعة، تحقيق سهيل زكار، بيروت، 1988.
- البكري ، عبيد الله بن عبد العزيز ، ت 487هـ / 1094م : معجم ما استعجم، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة، 1945.
- البنداري ، الفتح بن علي : سنا البرق الشامي، القاهرة، 1979.
- ابن تغري بردي ، أبو المحاسن ، ت 654هـ / 1256م : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، 1929-1936.
- ابن جنغل ، محمد بن علي : تاريخ ابن جنغل، المتحف الريطاني، DR 5912 .
- ابن الجوزي ، عبد الرحمن ، ت 597هـ / 1200م : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق سهيل زكار، بيروت، 1995.
- الجواليقي ، أبو منصور موهوب بن أحمد : المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة، 1361هـ.
- الحسيني، أبو الحسن علي بن أبي الفوارس : أخبار الدولة السلجوقية (زبدة التواريخ)، تحقيق محمد إقبال، لاهور، الهند، 1933.
- الحموي ، ياقوت الرومي ، ت 626هـ / 1229م : القاهرة، 1907- 1927.
- الحموي ، ياقوت الرومي ، ت 626هـ / 1229م : معجم البلدان، بيروت، 1968.

- الحنبلي ، أحمد بن إبراهيم : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، بغداد، 1978.
- ابن حوقل، أبو القاسم عبد الله بن عبد الله ، ت بعد سنة 367هـ / 977م : صورة الأرض، ليدن، 1939.
- ابن خرداذبه ، أبو القاسم عبد الله ، ت 300 هـ / 912م : المسالك والممالك، ليدن، 1889.
- خسرو ، ناصر المروزي ، ت 481هـ / 1087م : سفر نامه، نقله إلى العربية يحيى الخشاب، بيروت 1983.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، ت 808هـ / 1405م : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، 1958.
- ابن خلكان، أحمد بن محمد ، ت 681هـ / 1282م : وفيات الأعيان، القاهرة، 1310هـ.
- الخوارزمي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد ، ت 387هـ / 997م : مفاتيح العلوم، القاهرة، 1342هـ.
- ابن أبي الدم ، إبراهيم بن عبد الله ، ت 642هـ / 1244م : تاريخ ابن أبي الدم، انظر ما يتعلق بالحروب الصليبية في الموسوعة الشامية.
- الذهبي ، محمد بن أحمد ، ت 749هـ / 1348م : تاريخ الإسلام، المتحف البريطاني، 50 -49 OR.
- الذهبي ، محمد بن أحمد ، ت 749هـ / 1348م : العبر في تاريخ من غبر، تحقيق فؤاد السيد، الكويت، 1961.
- الذهبي ، محمد بن أحمد ، ت 749هـ / 1348م : دول الإسلام، حيدر آباد، 1919.
- الراوندي ، محمد بن علي بن سليمان (بداية القرن 7هـ / 13م) : راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، القاهرة، 1960.
- ابن رسته ، أبو علي أحمد بن عمر ، ت حوالي 390هـ / 1000م : الأعلاق النفيسة، ليدن، 1891.
- الزبيدي ، المرتضى : ترويح القلوب في ذكر الملوك من بني أيوب، دمشق، 1971.
- سبط بن الجوزي ، أبو المظفر ، ت 654هـ / 1256م : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، الحوادث الخاصة بتاريخ السلاجقة بين السنوات 1056 و 1086م، تحقيق علي سويم، أنقرة، 1968.
- السبكي ، تاج الدين عبد الوهاب ، ت 771هـ / 1370م : معيد النعم ومبيد النقم، بيروت، 1983.
- ابن شاكر ، محمد الكتبي الداراني ، ت 764هـ / 1362م : فوات الوفيات، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1951.
- أبو شامة ، عبد الرحمن بن سليمان ، ت 665هـ / 1266م : الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، 1962.
- ابن شداد ، محمد بن علي الحلبي : الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، القسم الخاص بحلب، 1953.
- ابن شداد ، محمد بن علي الحلبي : الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، القسم الخاص بدمشق، 1956.
- الشيزري ، عبد الرحمن بن نصر ، ت 589هـ / 1193 م : كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة، بيروت، 1969.
- الصيرفي ، علي بن منجب ، ت 542هـ / 1147م : الإشارة إلى من نال الوزارة، القاهرة، 1923.

- ابن طولون ، محمد بن علي ، ت 953هـ / 1546م : الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام، دمشق، 1956.
- ابن طولون ، محمد بن علي ، ت 953هـ / 1546م : إعلام الورى بمن ولي نائبا بدمشق الشام الكبرى، دمشق، 1964.
- ابن العديم ، جمال الدين عمر بن أحمد ، ت 660هـ / 1261م : بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار. دمشق، 1988.
- ابن العديم ، جمال الدين عمر بن أحمد ، ت 660هـ / 1261م : زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، دمشق، 1997.
- ابن عساكر ، علي بن الحسن ، ت 571هـ / 1175م : تاريخ مدينة دمشق، طبعة دار الفكر، بيروت.
- عمارة اليمني ، نجم الدين أبو محمد بن الحسن، ت 569هـ / 1174م : النكت المصرية في أخبار الوزراء المصرية. القاهرة، 1991.
- ابن العميد ، الشيخ المكين جرجس ، ت 672هـ / 1273م : أخبار المسلمين، ليدن، 1925.
- ابن العميد ، الشيخ المكين جرجس ، ت 672هـ / 1273م : أخبار الأيوبيين، دمشق، 1958.
- الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد ، ت 505هـ / 1111م : التبر المسبوك في نصيحة الملوك، القاهرة، 1968.
- الفردوسي ، أبو القاسم : الشاهنامة، ترجمة الفتح بن علي البنداري وحققها عبد الوهاب عزام، القاهرة، 1932.
- القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود ، ت 683هـ / 1283م : آثار البلاد و أخبار العباد، بيروت، 1960.
- ابن القلانسي ، أبو يعلى حمزة ، ت 555هـ / 1160 : ذيل تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، دمشق، 1983.
- مسكويه ، أحمد بن علي ، ت 420هـ / 1029م : تجارب الأمم، طهران، 2000.
- المقريزي ، أحمد بن علي ، ت 845هـ / 1441م : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، طبعة بولاق، القاهرة، ج3.
- المقريزي ، أحمد بن علي ، ت 845هـ / 1441م : خطط المقريزي، القاهرة، 1906- 1908.
- الملطي ، عبد الباسط بن خليل بن شاهين ، ت 920هـ / 1514م : نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1987.
- ابن مماتي ، شرف الدين أبو المكارم ، ت 606هـ / 1209م : قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، القاهرة، 1943.
- ابن ميسر ، تاج الدين محمد علي بن يوسف ، ت 677هـ / 1278م : المنتقى من أخبار مصر، انتقاء المقريزي، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، 1981.
- ابن الوردي ، عمر : تتمة المختصر في أخبار البشر، القاهرة ، 1868.
- ابن واصل، محمد بن سالم الحموي، ت 697هـ/ 1298م : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، م1، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، 1953.
- وليم الصوري : تاريخ، ترجمة سهيل زكار. بيروت، 1990.

ثانياً - المراجع العربية والمعربة :

- أمين ، حسين : تاريخ العراق في العصر السلجوقي، بغداد، 1965.
- التميمي ، رفيق : الحروب الصليبية، القدس، 1945.
- جب ، هاملتون : دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة عربية. بيروت، 1964.
- حسنين ، محمد ربيع : النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، القاهرة، 1964.
- خليل ، عماد الدين : نور الدين زنكي، بيروت، 1971.
- الزركلي ، خير الدين : الأعلام، القاهرة.
- زكار ، سهيل : الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، دمشق، 1993-2003.
- زكار ، سهيل : مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، (د.ت).
- زكار ، سهيل : المدفعية عند العرب، بيروت، 1983.
- زكار ، سهيل : حطين والفتح الصلاحي للقدس، بيروت، 2002.
- أبو زيد ، سهام مصطفى : الحسبة في مصر الإسلامية، القاهرة، 1986.
- سالم ، عبد العزيز : طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، الإسكندرية، 1967.
- سرور ، محمد جمال الدين : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق، القاهرة، 1964.
- شبارو ، عصام محمد : قاضي القضاة في الإسلام. بيروت، 1988.
- الضابط ، شاكر صابر : موجز تاريخ التركمان في العراق، بغداد، 1960.
- طلس ، محمد أسعد : الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب، دمشق، 1956.
- عاشور ، سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية، القاهرة، 1963.
- العبادي ، أحمد مختار : دولة المماليك الأولى، بيروت، 1969.
- عبد السيد ، حكيم أمين : دولة المماليك الثانية، القاهرة، 1967.
- العريني ، السيد الباز : الحروب الصليبية، القاهرة، 1962.
- غرايبة ، عبد الكريم : العرب والأتراك، دمشق، 1961.
- فيشل ، ولتر : اليهود في الحياة الاقتصادية والسياسية الإسلامية في العصور الوسطى، ترجمة سهيل زكار.
- قاسم ، عبده قاسم : الأيوبيون والمماليك، القاهرة، 1996.
- كريستنسن ، آرثر : إيران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة، 1957.
- لويس ، برنارد : الدعوة الإسماعيلية الجديدة، ترجمة سهيل زكار، بيروت، 1970.
- مجلة المورد العراقية : العدد الرابع ، من المجلد الثاني عشر الفكر العسكري عند العرب (ص79-420)، 1983.
- المناوي ، محمد حمدي : الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، القاهرة.

ثالثاً - المراجع الأجنبية :

- Atiya Aziz : The Crusades, London, 1962.
- Bosworth C. E. : The Islamic dynasties; Edinburg, 1967.
- Cahen C. : Mouvements populaires et autonomisme urbain dans l'Asie Musulmane du Moyen Age, Arabica, Vol. V, pp 225- 250, 1958.
- Cahen C. : Cambridge Medieval History Vol. IV.
- Cahen C. : Cambridge History of Islam, Cambridge, 1970.
- Encyclopédie de l'Islam, Nouvelle édition, Brill, Leyden.
- Rabia H. M. : Financial system of Egypt, Oxford, 1972.



القلعة ـ القاهرة

رابعاً : الحياة الاجتماعية والاقتصادية

ألقت الأحداث السياسية والعسكرية لهذه الفترة، وهي فترة المواجهة بين الصليبيين والعالم العربي الإسلامي في مصر والشام، بظلالها على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لكليهما. فإذا كان هناك بعد استراتيجي سياسي يربط بين مصر والشام أدركه كل من حكم مصر أو قدم لها غازيا فقد أدركته أيضًا القوى التي قامت في الشام آنذاك سواء كانت إسلامية أو صليبية.

مع قدوم الصليبيين واحتلالهم لأجزاء من الشام توجهت أنظارهم لمصر. ورغم أن الحملات كانت موجهة أصلاً للشام ولاسترداد القبر المقدس وهو شعارها المعلن، فقد أصبحت مصر أيضًا مسرحا لغزواتها وأطماعها. ولقد ازداد تطلع تلك القوى إلى مصر مع حالة الضعف التي أمست عليها في العصر الفاطمي الثاني، وبدأ الصراع عليها بين الزنكيين الذين تزعموا حركة الجهاد خاصة في عهد نور الدين وبين الصليبيين في فترة حكم عموري الأول، وقد أثارت اهتمام الجانبين بما لها من أهمية استراتيجية واقتصادية. وقد استطاعت جيوش نور الدين بقيادة قائده شيركوه الحدّ من الخطر الصليبي على مصر، لكنها أوضحت مدى الضعف الذي تردت فيه الخلافة الفاطمية. وقد استطاع صلاح الدين قائد نور الدين أن يلي الوزارة بعد عمّه ويسيطر على مقدرات الخلافة الفاطمية، وانتهى الأمر بإعلان نهايتها في عام 567هـ / 1171م. ومع قيام الدولة الأيوبية التي اتخذت من مصر عاصمة لها وامتدّ نفوذها إلى أجزاء عديدة من الشام، كان عليها مواجهة الصليبيين وتزعم حركة الجهاد وأصبحت مصر مركزا للمقاومة. وقد كان لدولة الأيوبيين طابعها وأهدافها التي تختلف عن طبيعة سابقتها الفاطمية، فهي دولة ذات طابع حربي شغلت أغلب فتراتها بمدافعة الصليبيين وغلب على منشآتها الطابع الحربي ووجهت غالبية ميزانيتها لاقتصاد الحرب.

كل هذه الأحداث تركت بصماتها الواضحة وأثرت في الحياة الاجتماعية والاقتصادية لكل من مصر والشام وإن كانت طبيعة التركيبة الاجتماعية والاقتصادية لكل من هذين القطرين قد اختلفت في نقاط عدة والتقت في بعضها، وخاصة في الفترة الأيوبية وفيما يتعلق بالاقتصاد. وفترة المواجهة الصليبية في مصر تواكب بداية فترة التراجع الفاطمي سياسيًا واقتصاديًا، متمثلة في الشدة العظمى ثم فقدان دورها وأملاكها في الشام على يد الصليبيين وانحصارها في حدودها المصرية، ثم تحولها إلى مطمع لكل من الزنكيين والصليبيين، ثم ما تلاها من قيام الدولة الأيوبية. كل هذه الأحداث أدخلت تغيرات جذرية على طبيعة الحقبة. كان المجتمع المصري في الفترة الفاطمية مجتمعًا له تكوينة خاصة تنبع من طبيعة تنظيمه الديني والسياسي، فله طبقاته وعاداته وتقاليده، وهو مجتمع دخل على الشعب بمذهب جديد وجيش ضم أعراقاً مختلفة من مغاربة وترك وتركمان وديلم وصقالبة ثم سودان وأرمن. وهذه التركيبة كان يزداد نفوذها بارتفاع شأن بعض عناصرها وتراجع دور بعضها اجتماعيًا وسياسيًا أو انحساره وما

ترتب على ذلك من تغيرات جذرية في بعض مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية. وهذا التباين يبدو واضحًا بين فترتين: الأولى من عهد المستنصر إلى سقوط الخلافة الفاطمية، والثانية من عهد صلاح الدين إلى نهاية دولته سنة 640هـ / 1250م.

الفترة الأولى: حين دخل جيش الفتح الفاطمي لمصر كان أهلها من المصريين يشملون أقباطا ومسلمين سنة، وصحب الفاطميون معهم عناصر عرقية عديدة كونت طبقة مميزة من القادة والجنود، وتشمل تلك المغاربة من قبائل كتامة وزويلة وصنهاجة ولواتة بالإضافة إلى الصقالبة (السلاف) والروم، ثم أضيف إليهم الأتراك والديلم في عهد العزيز ثم السودان الذين ازدادت أعدادهم في عهد المستنصر لأن والدته كانت جارية سوداء. واستُكثر من الأرمن في عهد بدر الجمالي ثم عهد الحافظ حين عين بهرام الأرمني في الوزارة وحمل لقب سيف الإسلام وتاج الخلافة وهو مسيحي وذلك عام 529هـ / 1135م. ويصف ناصر خسرو الذي زار مصر في عهد المستنصر (427 - 487هـ / 1036 - 1094م) خروج الجيش في احتفالية فتح الخليج: "يخرج جيش السلطان كله فرقة فرقة وفوجا فوجا، ولكل جماعة اسم وكنية": فرقة الكتامين من القيروان وعددهم عشرون ألف فارس، الباطليون من رجال المغرب خمسة عشر ألف فارس، المصامدة عشرون ألفاً، المشارقة ترك وعجم أصلهم ليس عربيّاً عشرة آلاف، عبيد الشراء ثلاثون ألف رجل، البدو من أهل الحجاز خمسون ألفا، الأستاذيون كلهم خدم بيض وسود وهم ثلاثون ألف فرقة، السرائيون جاءوا من كل ولاية عشرة آلاف، الزنوج ثلاثون ألفاً"، وفي فقرة أخرى ذكر أن أركان الدولة من الخدم والعبيد السود أو الروم، وكانت الطائفة الجيوشية أغلبها من الأرمن وأسكنهم بدر الجمالي جنوب الفسطاط حيث بنوا عدداً من الكنائس. ولم يكن بدر الجمالي أول أرمني يتولى الوزارة، فلقد سبقه في تولى الوزارة أرمني آخر هو الوزير أبو الفتح يانس وتلاه آخر هو بهرام الأرمني. كذلك تولى الصقالبة والسودان وظائف إدارية كبرى. وكان لكل طائفة حيها ومكانها المخصص لها في مدينة الفاطميين وعاصمتهم الجديدة القاهرة، التي ظلت قاصرة على الخليفة وقواده وجنده من أرباب السيوف بالإضافة إلى كبار رجال الدولة من أرباب الأقلام وهؤلاء يكوّنون طبقة اجتماعية مميزة، بعكس الفسطاط العاصمة القديمة التي ظلت تموج بأهل البلاد ومركزاً للنشاط التجاري. ويقول أندريه ريمون: كانت القاهرة مثل جميع المدن التي سبق تأسيسها قد أعدت لإيواء فرق الجيش الفاطمي التي كانت تتصف في الأغلب بالصفة القبلية في أحياء مغلقة نسبيا يمكن الوصول إليها عن طريق أبواب سرية تمّ الفصل بينها عن طريق مساحات الأحياء العشرين، وتراجعت أعداد الشيعة مع الأيوبيين ومع عودة المذهب السني وما تبعه من تغير في أنماط الثقافة والعادات والاحتفالات، فاختفت أعياد واحتفالات فاطمية وحلت محلها أخرى، وظهرت المدارس السنية، وكثرت خانقاوات الصوفية التي كان لها تأثير على فكر الجميع في تلك الحقبة حيث وجدت دولة ذات طابع عسكري نتيجة لما تعرضت له من هجمات صليبية لم تتح لها أن تعيش ترف سابقتها الاجتماعي، بل شمل التغيير عاصمة الفاطميين القاهرة، وكما قال العلامة المقريزي تحولت من عاصمة تضم الخليفة وخواصه من عسكر وأرباب أقلام إلى عاصمة مفتوحة للمصريين على يد صلاح الدين، وفقدت الفسطاط العاصمة التجارية الأولى لمصر في العصر الفاطمي مكانتها بعد إحراقها على

يد شاور لمنع عموري من التقدم إلى مصر لتحل محلها القاهرة. وفي المجال الاقتصادي ظلت الزراعة محور الحياة ولكن تحولت إلى نظام الإقطاع العسكري الذي أخذه الأيوبيون عن السلاجقة حيث أقطع صلاح الدين الإقطاعات إلى أقاربه وفرسانه واستمر هذا النظام مع خلفائه.

وإذا كان هناك اختلاف بين مصر والشام في التركيبة الاجتماعية وخاصة في فترة العصر الفاطمي الثاني في مصر، فإن هناك بعض أوجه الترابط الاقتصادي في ظل الأيوبيين مع استمرار اختلاف التركيبة الاجتماعية نظراً لظروف الشام الجغرافية والسياسية. فللشام تكوينة اجتماعية خاصة. فهناك فئات عرقية وطائفية متنوّعة نتيجة لكونها مقراً لصراعات بين قوى إسلامية عديدة قبيل وأثناء الحروب الصليبية من قبائل عربية وأتراك سلاجقة وتركمان وديلم وأكراد، وطوائف دينية متعددة، فهناك مسلمون سنة ومسلمون شيعة وإسماعيلية ودروز وباطنية ومسيحيون ملكانية ويعاقبة وموارون ويهود قرائيون وربانيون وسامريون، ثم أضيف إليهم كيان صليبي سيطر على جزء من أراضي الشام وكانت له تقسيماته الاجتماعية والاقتصادية القائمة على أساس الإقطاع الأوروبي. ورغم العداء والصراع الحربي وجوّ المعارك دائم الاشتعال فقد كانت هناك علاقات اقتصادية ربطت بين الجانب الإسلامي في الشام ومصر وبين الجانب الصليبي ممّا أثار استغراب ودهشة الرحالة ابن جبير. فالأراضي الإسلامية في الشام في عهد صلاح الدين انحصرت في المناطق الداخلية، والصليبيون سيطروا على أغلب الساحل فأصبحت موانيهم مجالا لتصدير المنتج الإسلامي. وفي نفس الوقت تركت حروب صلاح الدين تأثيرها على الكيان الصليبي اجتماعيا واقتصاديا.

أولاً - في مصر :

1 - المجتمع :

اختلفت التركيبة الاجتماعية المصرية في تعدديتها من فترة إلى أخرى، وحملت أحياء القاهرة أسماء لها دلالاتها: حي زويلة يضم القادمين من القيروان والمهدية، وحيّ كتامه يأوي البربر، وحيّ الديلم من القادمين من بحر قزوين وإيران، وأقامت فرق السودان في معسكر خارج باب زويلة. وبعض هذه العناصر ضعف سلطانها من العصر الأول ولكن استمر تواجدها كالصقالبة بعد برجوان، والذين كانوا يقيمون في حارة معروفة باسمه في القاهرة، التي ظلت قاصرة على هذه الطبقة المميزة إلى قدوم بدر الجمالي في عهد المستنصر بعد الشدة العظمى فسمح بسكناها، ولكن الحقيقة أنها كانت للفئات العليا أو أصحاب السلطان كما حددهم المقريزي: "القاهرة منزل سكنى للخليفة وحرمه وجُنده وخواصه ومعقل قتال يُختفى بها ويُلتجأ إليها وأنها ما برحت هكذا حتى كانت الشدة العظمى في خلافة المستنصر ثم قدم أمير الجيوش بدر الجمالي وسكن القاهرة وهي باب دائرة خاوية على عروشها غير عامرة، فأباح للناس من العسكريّة والمحليّة والأرمن وكلّ من وصلت قدرته إلى عمارة بأن يعمر ما شاء من القاهرة"، ولكنه في نفس الفقرة يذكر "حينئذ سكنها أصحاب السلطان إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية" إلى أن جاء صلاح الدين وجعلها مدينة متاحة للجميع، فانتقل إليها الأهالي وخاصة بعد حريق الفسطاط.

الطبقة العليا ضمت الخليفة وأهل بيته وأمراءه ووزراءه وكبار رجال دولته من أرباب الأقلام والسيوف وفرق جيشه، وكلهم تركزوا في العاصمة الجديدة.

وهناك طبقة أخرى تمثل شريحة لها تأثيرها الاقتصادي وهي "طبقة البرجوازية" من التجار، وقد حوت مجموعات من التجار المسلمين والأقباط واليهود. فأوراق الجنيزة تشير إلى تاجر يهودي كان يشتغل بتجارة المجوهرات وكانت له وكالة في القاهرة وأخرى، وهي الأساسية في الفسطاط. وكان يتاجر في 84 نوعاً من التجارة كالكتان والتوابل، وله علاقات بتجار المغرب. وأشار ناصر خسرو إلى تاجر مسيحي كان يملك من المراكب والأموال ما لم يمكن حصره. وفي هذه الفترة وخاصة في خلافة المستنصر ظهر التجار الكارمية الذين عملوا في تجارة البحر الأحمر والمحيط الهندي، وكان عدد منهم من المصريين. فالطبقة المترفة التي مثلت شريحة عليا كانت تحتاج إلى مواد الترف ونوعيات عديدة من المتاجر.

وكوّن رجال الدين طبقة لها أهميتها، فكان للقائمين بالدعوة الشيعية ودعاتهم مكانة كبيرة. ومنذ عهد الحاكم صارت طبقة الدعاة وراثية، وكان يعقد في قصر الخليفة اجتماعات منظمة للإسماعيلية، فقد كان نشر المذهب الإسماعيلي بين الشعب المصري من أجلّ اهتماماتهم، ثم رجال الدين المحليين وظل عدد كبير يحتفظ بعقيدته السنية وكان التعيين في الوظائف الدينية العليا عن طريق الخلفاء ومن الشيعة، وكانت هناك فئة من صغار رجال الدين كخدم المساجد والأضرحة. ويرى البعض أن العلماء أو أرباب العمائم لا يمثلون طبقة خاصة قائمة بذاتها، فهم شخصيات متنوعة تتجاوز الأوضاع الطبقية والتقسيمات الاجتماعية.

وهناك "طبقة وسطى" تشمل متوسطي الحال من التجار كتجار التجزئة وكبار الحرفيين أصحاب وأسطوات الصنعة، ثم طبقة دنيا تشمل غالبية المصريين ومنها المزارعون الذين عانوا كثيراً خلال هذه الفترة، وخاصة لكثرة انخفاض مستوى النيل وما تلاه من قحط ومجاعات، ثم صغار الحرفيين سواء العاملين في دار الطرز الحكومية والمنشآت التابعة للدولة أو في مصانع خاصة، بالإضافة إلى صغار الباعة والباعة الجائلين. وكُتب الرحالة تعطي صورة واقعية لنشاط صغار التجار والحرفيين في الأسواق.

كان التمايز بين الطبقات واضحاً. فيقول ناصر خسرو: لا يركب الخيل إلا الجند والعسكر فلا يركبها التجار أو القرويون أو أصحاب الحرف ويركبها العلماء. هذه الفئات هي التي كونت المجتمع المصري في الحقبة التي تمتد من بداية فترتنا إلى نهاية الدولة الفاطمية، وهو مجتمع ظلت فيه القاهرة المعزية قاصرة على طبقة مميزة من السكان تمثل شريحة عليا. وحتى حين فتحها بدر الجمالي للإقامة فإنه قد قصرها على أرباب السلطة. وظلت الفسطاط هي العاصمة للعامة وللتجارة إلى أن احترقت في عهد العاضد على يد شاور. تركيبة الدولة الفاطمية تلك كانت أحد عوامل ضعفها بالإضافة إلى الصراعات الدائمة بين طوائف جندها الذين استقروا في أحيائها ودخلوا في صراعات على السلطة وبثّ الفتن الدائمة بين المغاربة والأتراك والسودان، وتدخل الخلفاء لصالح فريق كما حدث في الصراع بين السودان الذين تؤيدهم أم الخليفة المستنصر والديلم والأتراك، ثم الصراع بين الخلفاء ووزرائهم والمجاعات والأوبئة وعدم قدرة الفاطميين على تحويل الشعب إلى المذهب الشيعي، ثم موقفهم من الحروب الصليبية كل هذا أفقدهم الرابطة الحقيقية بجموع الشعب مما جعل المؤرخين يصفون سقوط الدولة بأنه تم بدون أي معارضة شعبية "فلم ينتطح فيه عنزان".

ومع تولي صلاح الدين الوزارة للعاضد

وأثناء تبعيته لنور الدين ثم بعد إقامته للدولة الأيوبية تم تغيير هذه التركيبة الاجتماعية. وقد بدأ صلاح الدين في التخلص من أغلب العناصر التي تكوّن جيش الخلافة وبدأها بالسودان حيث قام مؤتمن الخلافة بمكاتبة الفرنج 504هـ / 1178م والتآمر ضد صلاح الدين ولكن كشفت المؤامرة وقتل مؤتمن الخلافة فثار الجند السودان وكان عددهم خمسين ألف فتمكن من القضاء عليهم، وأحرق الحارة المنصورية المخصصة لهم على باب زويلة، وتتبع بقاياهم في الصعيد، وأدخل تعديلات على الجيش وأحلّ قادته وأقاربه محلهم، وتخلص بعد ذلك من حرس الخليفة الأرمن وأشعل النار في ثكناتهم وقبض عليهم حتى لا يعطيهم فرصة للقيام بما قام به السودان، ولم يبق أمام صلاح الدين إلا كبار المقطعين وملاك الأراضي الذين دفعهم الحرص على أملاكهم إلى مساندة الأوضاع القائمة فتخلص من هؤلاء وأحل محلهم في إقطاعاتهم جماعة من رجاله الوافدين معه صحبة جيش نور الدين. ولقد حل الأكراد محل العناصر السابقة وانتشروا في جيش صلاح الدين في مصر والشام، بعد إسقاطه الخلافة الفاطمية بناء على طلب نور الدين سنة 567هـ / 1171م وتلا ذلك وفاة العاضد.

تم تغير اجتماعي جذري على مستويين: الأول اختفاء الطبقة العليا بغالبية مكوناتها. فقد انتهت الخلافة الفاطمية التي وصفها ناصر خسرو "القصر السلطاني فيه اثنا عشر ألف خادم مأمور ويعيش فيه ثلاثون ألف آدمي وأركان دولة من الخدم من العبيد السودان والروم". قام صلاح الدين بالاستيلاء على قصور الخلافة، وجعل بهاء الدين قراقوش يتحوط على ما فيها، وأباح القاهرة لسكنى المصريين وكان بعضهم قد بدأ ينتقل إليها بعد حريق شاور. وأبلغ تعبير عن ذلك في عبارة المقريزي: "باستيلاء السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي في سنة سبع وستين وخمسمائة، فنقلها عما كانت عليه من الصيانة، وجعلها مبتذلة لسكن العامة والجمهور، وحط من مقدار قصور الخلافة، وأسكن في بعضها، وتهدم البعض، وأزيلت معالمه وتغيرت معاهده فصارت خططا وحارات وشوارع ومسالك وأزقة، ونزل السلطان منها في دار الوزارة الكبرى حتى تثبت قلعة الجبل". أسكن أباه في قصر اللؤلؤة على الخليج، وصادر دور أتباع الفاطميين وحصل عليها قواده، أما أفراد البيت الفاطمي وعددهم مائة وثلاثون شخصاً وخمسة وسبعون طفلاً فنقلهم إلى دار المظفر بحارة برجوان وفرّق بين النساء والرجال حتى لا يتناسلوا ليكون ذلك أسرع لانقراضهم "تسلم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب القصر بما فيه من الخزائن والدواوين وغيرها من الأموال والنفائس، وكانت عظيمة الوصف. واستعرض من فيه من الجواري فأطلق مَنْ كان حرًّا ووهب واستخدم باقيهم وأطلق البيع في كل جديد وعتيق، فاستمر البيع فيما وجد بالقصر عشر سنين، وأخلى القصور من سكانها وأغلق أبوابها". فالطبقة العليا من خليفة وأرباب سيوف من أعراق منوعة اختفت وحلت محلها فئة جديدة جعلت من القاهرة عاصمة حقيقية يسكنها سكّانها المحليّون. وقد رفض صلاح الدين كل ما يربطه بالفترة السابقة، فرفض الإقامة في القصور الفاطمية، وأقام في دار الوزارة، وأمر بإنشاء قلعة الجبل التي ستصبح مقرا لحكام بني أيوب ومن تلاهم.

أما التغيير الرئيس الآخر فتمثل في إلغاء المذهب الشيعي وإعادة المذهب السني وهو ما لم يلق أيّ معارضة على المستوى الشعبي، فلم تنجح الدولة الفاطمية رغم محاولتها المستمرة في تغيير

مذهب الشعب، ولم يحرص على المذهب إلا فئة قليلة أو من كانت تربطه بالدولة مصالح أو مناصب. وإلغاء المذهب لم يكن حدثا فقط على المستوى الديني المذهبي بل تبعه تغير في العديد من مظاهر الحياة الاجتماعية، وبدأ بإلغاء مجالس الدعوة من القصر والجامع الأزهر، وأبطل من الأذان "حي على خير العمل"، ودعا للخليفة العباسي على المنابر، وكان من الطبيعي أن يستتبعه تغيير في القضاة وفي أرباب الأقلام من الشيعة الذين يتولون وظائف إدارية، وعزل جميع القضاة الإسماعيلية وفوض القضاء في مصر إلى القاضي صدر الدين أبي القاسم عبد الملك الشافعي، وأصبح القاضي الفاضل رئيساً لديوان الإنشاء. وكان صلاح الدين يميل إلى المذهب الأشعري، ولدعم المذهب السني قام بإنشاء المدارس هو وأقاربه وأمراؤه بهدف إزالة ما تبقى من فكر شيعي. ولقد اشترى تقي الدين شاهنشاه منازل العز أحد قصور الفاطميين بالفسطاط وجعلها مدرسة للشافعية. وهناك أكثر من مدرسة بناها صلاح الدين كالناصرية والمدرسة القمحية إلى جانب إقامة خانقوات الصوفية وأشهرها خانقاه سعيد السعداء وكانت في الأصل داراً لأحد خدام الخليفة المستنصر وسكنها شاور لفترة، ثم حولها صلاح الدين لخانقاه لفقراء الصوفية الواردين من بلاد من العالم الإسلامي، والتصوف لم يكن ظاهرة دينية فقط بل كانت له آثاره الاجتماعية، ووفد على مصر متصوفة من بلاد المغرب والأندلس.

حلت "طبقات" اجتماعية جديدة محل "الطبقات" السابقة. فهناك تباين في المجتمع وتكوينه وأفكاره ومعتقداته بين الفترتين. فالدولة الفاطمية كانت دولة تعتمد على الخليفة الإمام، أما دولة صلاح الدين فتستمد الشرعية الدينية من الخلافة العباسية، دولة عاشت حياة اجتماعية مترفة امتازت بالثراء والبذخ وكانت لها أعيادها واحتفالاتها ومنشآتها الاجتماعية في مقابل دولة ذات طابع حربي انعكس حتى على منشآتها. فصلاح الدين لم يقطن في قصر الخلافة بل أنشأ لإقامته قلعة الجبل وإن لم يسكنها فعلا لأنه لم يقم في مصر إلا ثمانية أعوام، أما بقية حياته فقد قضاها في الجهاد في الشام ولذلك أقام قلعة حربية لحمايته من الصليبيين وفلول الفاطميين.

لقد ولدت هذه الدولة في ذروة الحروب الصليبية ومع ازدياد نفوذ مملكة بيت المقدس وتطلعها للاستيلاء على مصر، وانشغل حُكامُها في أغلب فترات حكمهم بأمر الحروب التي أصبحت مصر مسرحا لها؛ فلم تكن هناك فرص سانحة كثيرة ليحيوا حياة مترفة. وحتى إذا توافر الوقت أحياناً فإن المال كان يصعب توفيره، فكان عليهم إعداد الجيوش وتحصين القلاع وبناء السفن، فكان ذلك كفيلاً باستنفاد أغلب دخل الدولة. وعند وفاة السلطان صلاح الدين لم يترك في خزائنه سوى سبعة وأربعين درهما من الفضة وغرام واحد من الذهب، ولكن الحياة الاجتماعية في مجمل الفترة التي لم تتعدَ الثمانين عاماً لم تكن مجدبة أو خالية من وسائل الترفيه.

الطبقة الاجتماعية الجديدة كانت تتكون من السلطان الذي أصبح مقره قلعة الجبل وغالبية جنده من الأكراد والأتراك. ولقد استكثر الصالح أيوب من العناصر التركية وأنشأ فرقة المماليك البحرية التي قدر لها أن تتولى الحكم بعد قضائهم على تورانشاه آخر ملوك بني أيوب. ولقد طبقت الدولة نظام الإقطاع الحربي بل وحلّ بعض رجال السيف من العسكر في محل أرباب القلم في بعض الوظائف كوظائف جباية الخراج، وتدنت قيمة بعض الوظائف

فأصبح الوزير وزير تنفيذ لا تفويض. واستحدث صلاح الدين وظائف كنائب السلطنة، الذي حل محل الوزير. ولقد اختفي منصب الوزارة في بعض الفترات، وهناك موظفون كان عملهم يتعلق بالبلاط والبعض بالدواوين كديوان الجيش وبيت المال، وبعضهم تولى وظائف ذات صبغة إدارية كوالي القاهرة، والآخر وظيفة دينية كقاضي القضاة والمحتسب.

فئة العلماء كانت لها مكانتها وازدادت أعدادها مع انتشار المدارس واهتمام الأيوبيين بالحركة العلمية. فقد حرص جميع السلاطين وأقرباؤهم وأمراؤهم وقادتهم على إنشاء المدارس. ويعدد المقريزي تلك المدارس وأسماء أولئك العلماء والفقهاء الذين كانوا فئات منهم أرباب الأقلام أصحاب المناصب الإدارية ومنهم صغار رجال الدين.

وظلت التكوينة الطبقية للفئات الأخرى كما هي. فمازال كبار التجار وتجار الكارم يمارسون نشاطهم. وارتباط مصر بالشام سهل عملية التبادل التجاري، ولكن النشاط التجاري كان يتأثر بفترات القحط التي أصابت مصر نتيجة انخفاض النيل والحملات الصليبية التي وجهت إليها. ومن المؤكد أن الاختلاف بين طبيعة الدولتين: تلك التي تحتاج إلى أدوات الترف ولها طابع حضاري مميز، وتلك ذات الطابع الحربي؛ أثر على كبار التجار. ولكن من واقع كتابات الرحالة فإن أسواق القاهرة التي أصبحت مركزا للثقل التجاري كانت تحوي الكثير من البضائع والثروات.

أما الطبقة الوسطى والدنيا فلم يحدث تغير جوهري في تكوينهما، ولكن نظام الإقطاع الحربي كان له تأثيره على الفلاح ولذلك تدخلت الدولة لحمايته.

الطوائف الدينية:

في الفترة الأولى كان المصريون منقسمين بين سنة، وهم غالبية الشعب، وأقلية شيعية تفرعت منها عدة مذاهب عن المذهب الإسماعيلي كالدروز الذين يؤمنون بألوهية الحاكم بأمر الله وكان أشهر دعاتهم محمد ابن إسماعيل الدورزي الذي قتل سنة 408هـ / 1017م. وكانت الدعوة يطلق عليها تسمية الموحدين. ولقد انتقلت بعد ذلك إلى الشام رغم أنها لم تلق استجابة من رجال الدعوة الإسماعيلية في مصر. ثم نجد طائفة المستعليين النزارية أو الباطنية، وتنسب الأولى للمستعلي ابن المستنصر وتنسب الثانية إلى نزار الابن الأكبر للمستنصر وقام بالدعوة إليها الحسن بن الصباح وأقامت مراكز لها في فهوستان وفي الشام في مناطق الكهب ومصياف والقدموس وحاولوا اغتيال صلاح الدين فيما بعد. ثم ظهر انقسام جديد في الدعوة فظهرت الطيبية نسبة إلى الإمام الطيب بن الآمر، والحافظية نسبة إلى الحافظ عبد المجيد ويؤيد هذه الدعوة الإسماعيلية المستعلية. ولقد قام الباطنية باغتيال الخليفة الآمر لأحكام الله 524هـ / 1139م. ومعتنقو المذهب الشيعي كانوا من رجال القصر، ومن يلوذ بهم مع قلة انتسبت إلى المذهب من المصريين السنة، ولكن غالبية المصريين تمسكوا بمذهبهم السني.

أهل الذمة وتشمل المسيحيين واليهود. ولقد كان العصر الفاطمي عصراً ذهبياً لأهل الذمة. وكما ذكر المؤرخون اليهود، فالفاطميون لم يكونوا يثقون بالسنة ففضلوا استعمال أهل الذمة الذين لا تمتد طموحاتهم بعيدا. وكانت غالبية مسيحيي مصر من اليعاقبة وإن كان هناك قليل من الملكانية. وكانت

زوجة الخليفة العزيز مسيحية ملكانية، وتولى المسيحيون العديد من الوظائف ومن بينها الوزارة وعمالة الدواوين وحكام الأقاليم والكتاب وعمال الخراج والجهابذة، وأشار ناصر خسرو لتاجر من مياسير المسيحيين طلبت الدولة منه عند نقص المحاصيل تقديم المساعدة فكان رده "أسعد الله السلطان والوزير أن لديّ غلة تمكن من إطعام مصر ستة أشهر".

تمتع اليهود بمكانة مميزة وكان منهم أطباء الخلفاء، وأكثر من يهودي كانت له مكانة مميزة. فيعقوب بن كلس أحد كبار الدعاة كان يهوديا وأسلم وكذلك الوزير الفلاحي، وعائلة التستري ذكرها ابن ميسر في كتابه تاريخ مصر والسيوطي في حسن المحاضرة والمقريزى في السلوك والخطط. والأسرة من مدينة تستر. واشتغل بنو سهل التستري في التجارة. وكانت أم الخليفة المستنصر جارية سوداء في بيته وتولى نظارة الخاص لأم الخليفة، وابن عوكل كان من كبار التجار ويتاجر في أربعة وثمانين نوعاً من البضائع، ونهراي بن نسيم وأبو ذكرى جودة كوهين وغيرهم كثيرون ورد ذكرهم في الجنيزة وتولى بعضهم منصب وكيل التجار. ولقد ذكر تولي اثنين من اليهود كممثلين للتجار: الأول في العصر الفاطمي في الفسطاط، والثاني في عهد الأيوبيين. وكان أبو ذكرى جودة بن موسى كوهين أشهر من تولى المنصب. وكان اليهود منقسمين إلى ربانيين وقرائين. والتغيرات التي دخلت على التكوين الطائفي هو اختفاء دور المؤسسات الشيعية واتخاذ الدولة الجديدة موقفا من المذهب ومؤيديه وإقامة المدارس وسعيها لطمس كل ما يتصل بالدولة الفاطمية السابقة من مذاهب وفرق. وإذا كانت قد لقيت نجاحا في مصر تجاه الفرق الشيعية فقد ظل الدروز موجودين في الشام.

ولعب الباطنية دوراً خطيراً في الشام أثناء الحروب الصليبية، وحاولوا اغتيال صلاح الدين، وكاد يقضي عليهم لولا شفاعة خاله، حيث هدد الباطنية بتتبع أفراد البيت الأيوبي.

أما بالنسبة لأهل الذمة فقد اتسم العصر الأيوبي بالتسامح وإن كان أقل مدى من العصر السابق، إلا أنه لم يمنع المسيحيين من ممارسة شعائرهم ومن تجديد كنائسهم بل وتشييد كنائس جديدة. وفي البداية منعهم صلاح الدين من تولي الوظائف المالية، ولكن بعد ذلك سمح لهم بممارسة الأعمال الكتابية والإدارية وما كانوا يشغلون من قبل من أعمال.

كذلك تمتع اليهود بالتسامح، وليس أدل على ذلك من موسى بن ميمون أشهر الشخصيات اليهودية في عهد صلاح الدين والذي كان طبيباً في بلاطه، وتمتع برعاية السلطان وأبنائه، وأصبح الطبيب الخاص للملك الأفضل نور الدين بن صلاح الدين. ولقد تزوج موسى أخت أبي المعالي اليهودي وكان كاتبا عند أم الملك الأفضل، وتزوج أبو المعالي أخت موسى، وكانت له عيادته الخاصة لعلاج المرضى من المسلمين واليهود، كما ذكر: "سَكَنِي مصري وسكن الملك بالقاهرة وبينهما نحو مسافتين أقابل الملك في ساعات الصباح" ويضيف أنه عندما يعود إلى بيته يجد على المقاعد خلقاً كثيراً من المسلمين واليهود منهم الوجيه ومنهم القاضي والشرطي.

الحياة الاجتماعية في مدينة القاهرة:

اختلفت مظاهر الحياة والأنشطة الاجتماعية بين دولة اهتمت بمظاهر الحضارة وعاشت حياة الترف ودولة ذات طابع حربي. وأول ما نلاحظه التباين بين قاهرة المعز وقاهرة صلاح الدين. وهذه

المدينة نشأت مدينة أرستقراطية عاش الخليفة وأتباعه وجنده في حدودها التي اختلفت بين الفريقين، حيث اتسع مداها مع صلاح الدين وخلفائه. وكان داخل سور القاهرة قصران رئيسيًا "كان داخل سور القاهرة يشتمل على قصرين وجامع، يقال لأحد القصرين القصر الكبير الشرقي وهو منزل مسكن الخليفة ومحل حرمه وموضع جلوسه ودخول العساكر وأهل الدولة وفيه الدواوين وبيت المال وخزائن السلاح، وكانت مقبرة الفاطميين يقال لها مقبرة الزعفران ولكن مركز الحياة كان في الفسطاط التي بُهر ناصر خسرو بما فيها فذكر منازل تتكون من أربع عشرة طبقة، وسمع عن شخص أقام حديقة في سطح منزله وأن هناك منازل تتسع لثلاثمائة وخمسين شخصاً وهناك شوارع وأسواق تضاء فيها القناديل طوال اليوم وأن مسجد عمرو كان يوقد فيه أكثر من سبعمائة قنديل في ليالي المواسم. والمسجد في وسط السوق وشماله سوق القناديل. وتحدث عن البضائع المنوعة التي ترد إليه من جميع جهات الأرض، والبغال الفارهة التي يركبها التجار، ومقدار الثراء الذي يتمتع به تجارها. فدكاكين البزازين والصرافين وغيرهم مملوءة بالذهب والجواهر، وأنه لو تحدث عن الأموال التي يملكها بعض المصريين لما صدقه الناس في فارس. هذا الوصف ينطبق على طبقة معينة من التجار وليس على العامة. فهو يذكر أن الخيل لا يركبها إلا الجند والعلماء ولا يركبها التجار والقرويون. ولقد استمرت المدينة مركزا للتجارة ثم أحرقت على يد شاور خوفا من تقدم عموري ملك الصليبيين، فأحرقها شاور بعشرين ألف قارورة نفط، فأخذ الناس أموالهم وانتقلوا إلى القاهرة. ويقول المقريزى إن المدينة في غالبيتها تحولت إلى كيمان وتلاشى أمرها واختصر أهلها، وإن شيركوه طلب منهم العودة لتعمير المدينة ولكنهم كانوا في حالة من الفاقة، ولقد أدخلها صلاح الدين في نطاق القاهرة وتم تخريب جزء كبير منها في المجاعة التي حدثت أيام العادل، ولكن أتيحت فرصة لإحيائها في أيام الصالح نجم الدين أيوب حين أقيمت الدور والأسواق نتيجة لبنائه قلعة الروضة.

أما القاهرة فقد اتسع نطاقها البشري في أيام بدر الجمالي ولكن كان سكّانها من الصفوة. أما في عهد الأيوبيين فقد جعلها صلاح الدين مدينة مفتوحة أمام المصريين. وهناك فرق بين القاهرة التي رآها ناصر خسرو وبين تلك التي رآها ابن جبير، والمقريزى يرى القاهرة أكثر عمارة واحتراما وحشمة من الفسطاط لأن بها أجل مدارس وأضخم خانات وأعظم آثار لسكن الأمراء، لأنها المخصوصة بالسلطنة لقرب قلعة الجبل منها. وقلعة الجبل أحد منشآت الأيوبيين، وأصبحت مقرا لحكامها، وازداد عمرانها خلال فترات عديدة. ولقد رأى ابن جبير الأسرى الصليبيين وهم يعملون فيها، وشاهد بناء سور حول المدينتين غير المحصنتين على حد قول عماد الدين الأصفهاني يمتد من شاطئ النيل إلى الشاطئ الآخر. ويروي الرحالة عبد اللطيف البغدادي كيف تم هدم عدد من الأهرامات لاستخدام حجارتها، وكان قد زارها أثناء الشدة التي حدثت في عهد العادل بسبب انخفاض الفيضان. ويصف ما آل إليه الأمر حتى عدمت الأقوات وأكلت الميتة والحيوانات بل والبشر حيث لم يرتفع مستوى النيل عن 12 ذراعاً. ويصف المصريين بالذكاء الوقاد وسرعة الحركة ويرجعها إلى حرارة بلدهم، ولذا كان أهل الصعيد في نظره أكثر خشونة وأحد أمزجة والغالب عليهم السمرة، وأن ساكني الفسطاط إلى دمياط أرطب أبدانا والغالب عليهم البياض. وأعجب بمباني المدينة فيرى أنها هندسة بارعة

وقلما يتركون مكانا خالياً من مصلحة، ودورهم أفيح وغالب سكناهم في الأعالي، ويجعلون منافذ منازلهم تلقاء الشمال والرياح الطيبة، وأسواقهم وشوارعهم واسعة، وأبنيتهم شاهقة، ويبنون بالحجر والطوب الأحمر. ولقد أعجب ابن جبير بالبيمارستان الذي أقامه السلطان صلاح الدين والخدمات التي تقدم، فتحدث عن الأطباء وخزائن العقاقير ووجود أماكن للنساء وللرجال وموضع لمرضى الأمراض العقلية. وقد جُعِل قيّم للمارستان مسئول عنه. ولقد تغيرت معالم بين القصرين، وأصبحت القاهرة مليئة بالحوانيت والبشر، وأصبح السير في أسواقها صعباً.

أما عن الأعياد والاحتفالات فقد اختلفت نوعيتها وطبيعتها من فترة إلى أخرى؛ فقد احتفل الفاطميون بأعياد عديدة إسلامية ومسيحية، فالأعياد الإسلامية تمثلت في موسم رأس السنة الهجرية، وموسم عاشوراء، ومولد النبي، ومولد علي بن أبي طالب، ومولد الحسين، ومولد فاطمة الزهراء، ومولد الخليفة القائم في الحكم، وليلة أول رجب، وليلة أول شعبان ونصفه، وغرة رمضان، وسماط رمضان، وليلة الختم، وموسم عيد الفطر، وعيد النحر، بالإضافة إلى عيد الغدير، وموسم فتح الخليج. كذلك احتفلوا بالأعياد المسيحية كعيد النيروز المسيحي، ويوم الغطاس، ويوم الميلاد، وخميس العهد.

ولقد امتازت الاحتفالات الفاطمية بالبذخ؛ فعلى سبيل المثال في موسم أول العام كان يركب الخليفة في موكب فخم ويفرق الدنانير. وكان هناك سماط للأعيان وأرباب الخدمة من أرباب السيوف والأقلام، وكان يرسل "إلى جميع الأمراء وأرباب الرتب والخدمة لكل واحد طبق حلوى بوسطه صرة ذهب". وفي وصف موائد السحور وسماط عيد الفطر يصفّ السماط على طوله بأحد عشر طبقا في كل طبق واحدٌ وعشرون ثنيّا سمينا مشويا في كل عين الدجاج والفراريج وفراخ الحمام ثلاثمائة وخمسون طائراً فيكون كقامة الرجل الطويل". لكن من الواضح أن هذا كان يخص الصفوة من الأعيان والعلماء والفقهاء. فقبل عيد الفطر بيوم كان يحمل السماط ويمشون في الشوارع وحوله الخيالة السودان والطبالون ويجتمع الناس لمشاهدته، وفي إحدى سنوات القحط قام العامة بالاستيلاء على ما فيه من طعام ونادوا بأحقيتهم به. ولقد تفاوت المستوى بين الخاصة والعامة سواء في العصر الفاطمي أو الأيوبي. وإذا نظرنا في القائمة التي يقدمها عبد اللطيف البغدادي لنوعيات طعام العامة والخاصة وجدنا تبايناً شديداً. فعلية القوم وأواسطهم يتناولون خبز الخشنكاه وهو خبز من الدقيق يحشى بالسكر واللوز والدجاج المضاف إليه البندق والفستق والخشخاش والورد، ويطلق عليه الفستقية والبندقية والخشخاشية أو الوردية، ويتحدث عن خراف محشوة بالأفاويه واللحم محاطة بالفطائر. أما العامة فقلما يعرفون شيئاً من ذلك، فطعامهم الصبر والصحناه "الملوحة" والدلنيس والخبز والنيدة، وشرابهم البوظة وهو نبيذ يتخذ من القمح، وفي الريف يأكلون الفأر المتولد في الغيطان عند انحطاط النيل ويسمونه سماني الغيط، وفي دمياط يكثر السمك ويطبخ بكل ما يطبخ به اللحم من الرز والسمان والمفوهات وغير ذلك.

كذلك احتفل الفاطميون بالأعياد المسيحية مثل عيد النيروز القبطي، وكانت تعطل فيه الأسواق، ويفرق فيه الخليفة الكساوي على أهل دولته وأولادهم ونسائهم. ولقد هاجم القاضي الفاضل رئيس ديوان إنشاء صلاح الدين ما كان يحدث من تبذل بين العامة في ذلك الاحتفال. كذلك

احتفل الفاطميون بالغطاس المسيحي وكانوا يؤجرون الدور التي على الخليج ويغطس في النيل آلاف من المسيحيين والمسلمين، وكانوا يعتقدون أن ذلك أمانٌ من المرض. وكان الناس يشترون الفواكه والضأن، ويفرق الخليفة على أرباب السيوف والأقلام النارنج والليمون وأطناب القصب والسمك البوري. وقد تعددت المتنزهات والمناظر الخاصة بالخلفاء مثل قصر التاج وقبة الهواء ودار الملك ومنازل العز والروضة. وكان الخليفة يركب للمتنزهات كل يوم سبت وثلاثاء، ومع قدوم الأيوبيين تغير كثير من العادات والمعالم الاحتفالية فألغيت أعياد الشيعة بل تحول يوم حزن عاشوراء إلى يوم يوسع فيه الناس على أولادهم، ولم يعد يقام سماط الحزن. وبدت مظاهر الاحتفال بالمناسبات المختلفة ليس بها البذخ السابق، أما القصور والمتنزهات فقد جرى مصادرتها وبيعها، فأعطى الناصر صلاح الدين جزءاً من القصر الكبير لأمرائه، وأسكن أباه نجم الدين في القصر اللؤلؤة، وأسكن الأمير أبا الهيجاء والأمير موسك القصر الغربي، وحول بعض القصور إلى مدارس.

ومن مظاهر الحياة الاجتماعية التي كان يرتادها الخاصة والعامة وكانت لها أهميتها في العصرين الفاطمي والأيوبي ووصفها كل من جاء من الرحالة لمصر الحمامات، وتحدثوا عن استعمال الماء الساخن والبارد. يقول عبد اللطيف البغدادي: "لم أشاهد في البلاد أنقى منها وصفا ولا أتم حكمة ولا منظراً ومخبراً". وحتى في الحمام كان هناك تفرقة بين الخاصة والعامة؛ ففي المسلخ مقاصير لأرباب التخصص حتى لا يختلطوا بالعوام. وقد بدا التفاوت الطبقي واضحاً في طبقة المزارعين التي هي عماد الزراعة والإنتاج، وقد تأثرت الطبقة الوسطى، وخاصة التجار، بما كان يحدث على الساحة السياسية وخاصة ما تمَ من حرق للفسطاط عند نهاية الدولة الفاطمية، ثم الحملات الصليبية وتأثيرها على حركة التجارة في العصر الأيوبي.

ولكن رغم ذلك فقد احتفظت هذه الطبقة بقدر لا بأس به من الثراء نتيجة ما وفرته الدولة الأيوبية من نوع من الاستقرار ولإعادة الرابط السياسي بين الشام ومصر. وقد شهدت تلك الفترة إنشاء المدارس والخانقوات على يد صلاح الدين وقادته وأعيان دولته.

2 - الاقتصاد في مصر:

إذا كانت الأوضاع السياسية والمواجهة مع الصليبيين قد تركت آثارها على المجتمع، فإن التأثير كان أكثر وضوحا في المجال الاقتصادي. فأخطار الحرب وإعداد الجيش وتحصين المدن مع الأيوبيين قد استنفد جزءاً كبيراً من دخل الدولة. وإذا كان النفوذ المصري في الشام قد تراجع مع فقدان مصر ممتلكاتها في الشام تباعا مع قدوم الصليبيين ثم حرمانها من عسقلان مينائها الرئيسي في الشام في عام 548هـ / 1153م، فقد عادت الرابطة مع صلاح الدين الذي كرس أغلب فترات حياته للجهاد ضد الصليبيين واستطاع أن يهدد الكيان الصليبي ويستعيد بيت المقدس. ورغم حدة الصراع واستمراريته فقد كانت هناك علاقات تجارية بين المسلمين والصليبيين وخاصة في الشام. أما عن طبيعة الحياة الاقتصادية خلال تلك الفترة فلقد ظلت للزراعة مكانتها. فالزراعة هي الحرفة الرئيسية لجموع عديدة من الشعب. وقد دخلت تعديلات عديدة على ملكية الأرض الزراعية ووضعية الفلاح. كذلك ارتبطت الصناعة بطبيعة المنتج الذي تحتاج إليه كل فترة مع وجود ثوابت في الصناعات وإن اختلفت النوعية بين دولة تحتاج إلى

أدوات ترف وتهتم بالمظهر الحضاري ودولة كان عليها أن تواجه الحروب الصليبية وتحتاج إلى إعداد جيش وتحصين.

(أ) الزراعة :

هي المحور الرئيسي للحياة في مصر. وكان النيل وفيضانه هو عصب الحياة الذي يتحكم في اقتصاديات مصر، فإذا زاد عن المعدل أو نقص هدّد البلاد بالقحط ثم المجاعة. ففي حالة نقصه يتعذر ري جميع الأراضي وما يتبع ذلك من نقص محصول فحدوث مجاعة. أما إذا كان فيضانه عاليا فيؤدي إلى إغراق الأراضي وإتلاف الزرع. وكان وصوله لمعدل ستة عشر ذراعا يعدّ تمام الخراج وخصبا للبلاد، أما إذا زاد عن ثمانية عشر فإنه يهدد بإغراق الأرض، وإذا نقص عن ثلاثة عشر استسقى الناس بمصر، وكما قيل "هو ابتداء التفريط المقابل للإفراط". وقد اعتقد الخليفة المستنصر أن المسئول عن عدم وصول مياه النيل هو ملك الحبشة بمنعه لفيضانه، فأرسل له هدية للسماح بوصول الفيضان. وكانت هناك ثلاث طرق للري، وهو ري الحياض وهي تقسيم الأرض الزراعية إلى أحواض يغمرها ماء الفيضان ويمكث فوقها مدة كافية، ثم الأراضي المنخفضة التي لا تحتاج إلى آلات لرفع المياه لمنسوب الأرض وتزرع تلك الأرض طوال العام، وتلك التي تعتمد على ري صناعي حين يكون منسوب المياه منخفضاً فتستعمل القواديس والشواديف. ويذكر المقريزي أنواعاً من الأرض كالباق وتصلح لزراعة القمح وهي أعلاها قيمة وسعراً، والشراقي التي ظمئت فلما رويت صارت صالحة للزراعة وأنجب زرعها، والبرايب وسعرها دون الباق لضعف الأرض وهي لا تصلح لزراعة القمح والشعير لكنها صالحة لزراعة القرط والقطاني والسقماهية. وهناك أرض السلايخ والشتونية والمستبحر والسباخ والوسخ. وكان الاهتمام بتنظيم أمور الري مسئولية الدولة. وذكر ابن عبد الحكم أن فريضة مصر بحفر خليجها وإقامة جسورها وبناء قناطرها وقطع جزائرها. وكانت الجسور على قسمين: سلطانية وبلدية. والجسور السلطانية هي عامة النفع في حفظ النيل على البلاد ولها رسوم موظفة على الأعمال الشرقية والأعمال العربية، وكان يتولاها أولا متقبلو الأراضي. وكان مقدار ما يصرفونه يحسب لهم من قيمة القبالات على الأرض، ثم أصبحت تحت إشراف مستخدم من الديوان يصرف عليها فيما يخص نفعها خاصة في ناحية من النواحي ويتولى إقامتها المقطعون والفلاحون من أصل مال الناحية وخراجها. وقد اهتم الفاطميون بمقاييس النيل ليعرفوا مقدار ارتفاع النيل ولتحصيل الخراج، وقام بدر الجمالي في عام 485هـ / 1002م بإصلاح المقياس الذي أقامه الخليفة المتوكل في جزيرة الروضة، وتم افتتاح قناة في الشرقية أطلق عليها قناة أبى منجا "اليهودي" في وزارة الأفضل بن بدر الجمالي. واستمر الاهتمام بالنيل وجسوره في العهد الأيوبي، فأمر صلاح الدين بهاء الدين قراقوش بالاهتمام بالخلجان والجسور. وانقسمت الدورة الزراعية إلى شتوية وصيفية وخريفية، وكانت الزراعة تسير وفقاً للشهور القبطية.

أما عن ملكية الأرض فقد اختلفت الفترة الفاطمية عن الفترة الأيوبية. فالدولة الفاطمية لم تطبق النظام الذي سار عليه السلاجقة والأيوبيون فيما بعد وهو نظام الإقطاع الحربي، بل كانت الملكية الزراعية إما أراضي حكومة مثل الأراضي العامة والخاصة بالدولة، وإما أراضي يمتلكها المقطعون أو الأعيان. وكانت أراضي الحكومة تعطى للمتقبلين

فيتولون إيجارها وجمع خراجها، وكانوا بالتالي يتولون إيجارها للمزارعين من نفس القرية فيتولون زراعتها وعمارتها حسب شروط العقد، وكانت تؤجر عن طريق المزاد وتعطى الأرض لمدة معينة. أما ضياع المقطعين في إقطاع التمليك فكان يمنح للمقربين من الخلفاء الفاطميين ومن حاشية السلطان أو من جنده، فيقومون بتأجيرها أو زراعتها ومن الممكن بيعها وشراؤها، وغالباً ما كانوا يقيمون في العاصمة ويعينون وكلاء لهم لإدارتها أو القيام بتأجيرها وعرض المنصرف والدخل على صاحب الضيعة، وهناك إقطاع استغلال لا يزيد عن نظام الالتزام وفيه تمنح الأرض للأمراء والجند مقابل أن يدفع مبلغ من المال يطلق عليه الضمانة، وكان هناك نظام المزارعة والإيجار وهي شركة في الزرع بين المزارع والمالك، أما الإيجار فنظير مبلغ معلوم. ولقد ساءت أحوال الإقطاعات في العصر الفاطمي الثاني، ففي عام 501هـ - 1107 / 1108م تضرر المقطعون من قلة متحصلهم وزيادة مخصصات إقطاعات الأمراء. وقد رفع الأمر إلى أبي عبد الله فاتك البطائحي فطلب من الأفضل ابن بدر الجمالي حلّ الإقطاعات جميعها وإعادة روكها ومسحها وتوزيعها، وأن هذا سيعود بالفائدة على المقطعين والديوان، فأجابه إلى ذلك وحلّ الإقطاعات وراكها ووزعها وفقاً لمزايدة وكتب بها مستندات، وجعلها في أيدي أصحابها لمدة ثلاثين سنة. وعادة ما كانت إعادة توزيع الإقطاعات تحدث في أثناء الفتن والخلافات كما حدث في عهد الآمر بأحكام الله. وقد بدأ التفسخ في النظام منذ النصف الثاني من عهد المستنصر، وكان من مظاهره إطالة وتجديد مدة الإقطاع، وتم تحويل نظام الالتزام إلى ملكية تقليدية بشكل سريع. ولم تكن الإقطاعات قاصرة على الأمراء ورجال الدولة، فقد منحت للقضاة، ومنح المستنصر امرأة مغنية قطعة أرض عرفت بأرض الطبالة وقد قامت بعد ذلك بتأجيرها. واستطاع الفلاحون المستقلون أن يكونوا مُلاكا. وفي بردية تعود إلى سنة 448هـ / 1056م في منتصف عهد المستنصر يقوم فلاح يدعى تادرس في قرية في الفيوم بشراء قطعة أرض من فلاح أجير يدعى أبو سريع، وصارت الأرض ملكا لتادرس يستطيع أن يبيعها، وحقوق الفلاح على الأرض كانت أوسع من حقوق الملتزمين.

أما الأيوبيون فقد طبقوا نظام الإقطاع الحربي نظراً لطبيعة الفترة وتواصل الهجمات الصليبية والحاجة إلى إعداد جيش دائم الاستعداد، وكان قرار تعيين شيركوه عمَ صلاح الدين كوزير للخليفة الفاطمي يتضمن أن منح الإقطاعات من اختصاص الوزير. وقام شيركوه بمنح إقطاعات أثناء وزارته، وفي 577هـ / 1181م قام بإقطاع البلاد والتوقيع بها للأجناد. وقسم السلطان صلاح الدين دولته على أسس إقطاعية. وظل نظام الإقطاع الحربي قائماً طوال عصر الأيوبيّين، فقد قام الصالح نجم الدين أيوب بتوزيع الإقطاعات على أهل بيته والخوارزمية مقابل ما أدوه من خدمات حربية، ثم وزع الإقطاعات الحربية على فرقته من المماليك البحرية. وكان الإقطاع يرتبط بالوظائف العسكرية. وكان عليهم أن يؤدوا خدمات إقطاعية منها ما هو مالي مثل ضرائب الزكاة والجوالي وغيرهما، ومنها ما هو على شكل خدمات مدنية مثل رعاية الأمن في الإقطاع والعناية بمرافق الزراعة وصيانة الجسور. وكان على المقطع أن يقدم عدداً من الجنود. أما عن وضعية الفلاح في العصر الفاطمي كعامل في أرض مقطع أو أراض حكومية أو كمالك صغير، فقد كان على الفلاحين أن يقوموا بضيافة الموظفين وتقديم الطعام والشراب إليهم في حالة زيارتهم للقرية. وإن

تباين المستوى بين الطبقات في العصر الفاطمي قد أدى إلى استغلال الفلاحين من قبل المقطعين. وفي العصر الأيوبي ارتبط تطبيق الإقطاع الحربي بالخراج، وكان على المزارع أن يسدد الضريبة السنوية المفروضة عليه، ويقوم بفلاحة الأرض في حين يقوم المقطع باستقطاع النسبة المطلوبة منه ودفعها للخزانة. وكان من المنتظر أن يمثل هذا النظام ضغطا على الفلاح ويحوّله إلى فلاح قرار، ولكن الدولة الأيوبية حرصت على حماية الفلاحين، وكان التوقيع الخاص بالإقطاع يأمر بمعاملة الفلاح بالمعروف والعدل وعدم أخذ رشوة، وحدد الإيجارات والجبايات للسيد الإقطاعي وحد من نفوذ المقطع.

وبالنسبة للمحاصيل فقد تعددت وتنوعت وفقاً لطبيعة الأرض ووسيلة الريّ، فكانت الغلال أهم الحاصلات؛ فزرع القمح في الدلتا والصعيد، وزرع الشعير والعدس والفول والكتان والقرط والقطاني، وقامت على زراعة القصب صناعة السكر، وأقيمت مطابخ لصناعته في الفسطاط والقاهرة بالإضافة إلى زراعات الفاكهة والخضر والنباتات الزهرية، فوجد الخوخ والبطيخ والرمان والأترج والموز والليمون...إلخ.

وبالإضافة إلى أشجار السنط والنخيل، تميزت مصر أيضا بثروتها الحيوانية.

(ب) الصناعة :

مارس أهل مصر العديد من الحرف والصناعات وقد تأثرت هي الأخرى بطبيعة العصر، وكان النسيج أشهر ما تنتجه الأيدي المصرية. وفي العصر الفاطمي ازدهرت صناعة النسيج تلبية لاحتياجات البلاط الفاطمي بموظفيه وجنده وأعيانه، فامتاز بالرقة وكثرة التوشية وغلاء نوعية نسيجه وخيوطه. وفي العصر الأيوبي استمر النسيج كحرفة هامة وإن تغيرت نوعية المنتج، فكانت المصانع إلى جانب نسيج الصفوة والذي لم يكن بثراء سابقه، وتركز الإنتاج على ما يحتاجه الجيش من ملابس وخيام وأعلام وأشرعة سفن وصناعات مرتبطة بالحرب كصناعة السيوف.

كانت الفسطاط هي المركز الصناعي والتجاري الرئيسي إلى عهد صلاح الدين حين انتقل مركز الثقل إلى القاهرة. ولقد سميت أحياء ودروب بأسماء الحرف وأصحابها، وكان لكل حرفة عريف يرأس الصناعة، وكانت هناك مصانع تتبع الدولة في العصر الفاطمي، كدار الطراز وهي خاصة بالنسيج، وهناك دار طراز للخاصة وأخرى للعامة وهما من المصانع الحكومية وإن اختصت الأولى بالخليفة ورجال بلاطه وخاصته في حين كانت الثانية تعمل لحساب البلاط وأفراد الشعب ولكنها تتبع بيت المال إذ اهتمت الدولة بالصناعات وتحسين المنتج، وإن كان العصر الفاطمي الثاني بما ساده من عدم استقرار قد شاهد تراجعاً نسبياً، وكانت هناك مصانع خاصة يعمل فيها حرفيون. ووثائق الجنيزة تشير إلى عقود خاصة بحرفيين ومشاركة في صناعة ومصانع، بل هناك مشاركات بين مسلمين ويهود ومسيحيين، وعمل عدد كبير من المسيحيين والنساء في صناعة النسيج، وعمل اليهود في صياغة الذهب وصناعة السكر والصباغة، وكان الصناع في حرفة واحدة يجتمعون عادة في سوق واحد فسويقة أمير الجيوش مثلا كانت بها حوانيت الرفائين والحياكين ويسكنها البزازون بالإضافة إلى أنه يباع فيها سائر الثياب المخيطة، وفي الحرف الصغرى أحياناً يكون الصانع هو البائع، والعاملون في الصناعة لهم أسماء وفق درجة خبرتهم؛ فالعريف هو رئيس الحرفة يعينه

المحتسب، وكان الذي لا يعمل في دكان خاص به يطلق عليه صبي أو غلام والبعض يطلق عليه أجير، والصبي يعدّ صانعاً تحت التمرين، والعامل غير الماهر يسمى رقاصاً أو ركاضا أو صبيان المأموريات، وينفي المؤرخون وجود نقابات حرفية آنذاك بل هناك تجمع لأبناء طائفة واحدة من أجل الحفاظ على مستواهم ووضع قواعد لمن هم تحت التدريب وحماية أفراد الطائفة من المنافسات الخارجية .

وكانت هناك مصانع للسكر ويطلق عليها مطابخ، ومصانع للنسيج والزجاج والفخار. ولكن الغالب كانت المصانع الصغيرة "الورش"، وبعض تلك الورش كان في المنازل حيث اشتغلت النساء بالنسيج على الأنوال.

أما عن أهم الصناعات فقد تصدرت صناعة النسيج قائمة الصناعات وازداد الإقبال عليها في العصر الفاطمي لسد احتياجات الطبقة المترفة والوسطى. وفي العهد الأيوبي كان هناك احتياج لسد متطلبات الجيش بالإضافة إلى الاحتياجات العامة، وكان الكتان الخامة الأساسية التي اشتهرت بها مصر وكانت تصدّر كخام وكنسيج إلى جانب المصنوعات الصوفية والحريرية. ويشير بعض المؤرخين إلى أن إنتاج الحرير أصبحت له أفضلية في العصر الأيوبي، بالإضافة إلى القطن وإن كان استعماله على مستوى أدنى ومحدود. وقد اشتهرت مدن معينة بصناعة النسيج كدبيق وشطا وتنيس بل حملت المنسوجات أسماء تلك المدن كالدبيقي. ويذكر ناصر خسرو "في تنيس القصب الملون من عمامات ووقارات ومما يلبس النساء، ولا تنسج مثل هذا القصب في جهة غير تنيس، والأبيض ينسج في دمياط، وما ينسج منه في مصانع السلطان لا يباع ولا يعطى لأحد". وكان هناك نسيج يسمى البوقلمون يتغير لونه وفق ساعات النهار، والمدينة تدفع عن صناعتها ألف دينار يوميا، فهناك نوع من البوقلمون خاص بالسلطان يدفع ثمنه ولا يجعله فرضاً أو سخرة على العمال. ولقد رأى ناصر خسرو رباطا يسمّى رباط الوزير بالفسطاط في الدور الأسفل منه الخياطون والأعلى الرفاؤون، ومقدم الخياطين يطلق عليه صاحب المقص ولأصحابه مكان لخياطهم، والتفصيل على مقدار الأوامر. وكانت هناك دور طراز في كل من تنيس ودمياط والإسكندرية تصنع الدبيق الملون والديباج والقسلاطون رجالية ونسائية، وانتشرت المناسج اليدوية في منازل تنيس. وقد تعرضت هذه المدينة لهجوم الفرنج أكثر من مرة في العصر الأيوبي في عهد العادل والكامل. وإلى جانب النسيج هناك صناعة الفخار، ويوصف فخارها بأنه شفاف ولطيف ويطلى بألوان تجعله يشبه البقلمون، كما اشتهر الخزف ذو البريق بالإضافة إلى صناعات البلور التي بلغت درجة من الروعة، واشتهرت بمطابخ السكر وهي المصانع التي يصنع فيها. وحازت الفسطاط شهرة في هذا المجال، كذلك انتشرت مطابخه في القاهرة بعد ذلك بالإضافة إلى مطابخه في الوجه البحري. وصنع السكر على شكل حلوى أقماع وسباع وقطط، واشتهرت مدينة قوص بصناعته، وكان بمدينة قِفْط معاصر للقصب ومطابخ لصناعته، مع وجود معاصر سلطانية للقصب. وقد احتكر الأيوبيون بعد ذلك صناعة عصر قصب السكر، وتحتم على المشتغلين في هذه الصناعة بمصر العصر في معاصرها المنتشرة في أنحاء البلاد. ومن الصناعات الهامة صناعة عصر الزيوت من بذور الفجل واللفت ومن السمسم والزيتون، وإن كان يتم استيراد مقادير من زيت الزيتون الجيد. وكانت أهم مراكز صناعته في درب

المعاصر في الفسطاط، وقد قامت صناعة الصابون على إنتاجها من الزيوت، كذلك استخرجوا دهن البلسان ويستخدم في الأغراض الطبية واشتغل بتجارته عدد من الأقباط.

واستحوذت صناعة الأسلحة على اهتمام الدولتين؛ فكانت هناك خزائن السلاح الفاطمية وزادت أهميتها مع الأيوبيين. ومن الصناعات التي اشتهرت بها مصر صناعة الزجاج. ويرى بعض الباحثين أن نهاية القرن الثاني عشر الميلادي تعتبر بداية العصر الذهبي لهذه الصناعة، وأجمل صورها في الزجاج المذهب والمموه بالمينا، والزجاج المطلي. ويرجع الفضل في ذلك إلى العمّال الشوام. كذلك ازدهرت صناعة التحف المعدنية نتيجة لهجرة الحرفيين إلى مصر والشام بسبب عدم الاستقرار في العراق والمشرق خلال تلك الفترة، وعمل بعضهم لحساب الأمراء الأيوبيين وبرعوا في صناعة التكفيت (إضافة النحاس والبرونز للذهب والفضة). أما عن الحرف فكانت حرفة البناء من أهم حرف الفترة، وبلغت درجة عالية من الإتقان. وإذا كان الفاطميون قد أكثروا من المنشآت الحضارية كالقصور والقناطر إلى جانب المنشآت الدينية، فإنّ الأيوبيين غلب على عمائرهم الطابع الحربي كقلعة الجبل والحصون والمنشآت الدينية والعلمية والمدارس والخانقوات. وقد استخدم صلاح الدين الأيوبي الصليبيين في بناء القلعة.

(جـ) التجـارة:

انتعشت التجارة الداخلية والخارجية خلال هذه الفترة فيما عدا فترات الأزمات والقحط والحملات الصليبية، وإن كان المعدل تراجع مع العصر الفاطمي الثاني بسبب حالة عدم الاستقرار السياسي وكان في الدولة الأيوبية أفضل حالاً على غير ما هو متوقع بسبب انغماس مصر وحكامها من الأيوبيين في الصراع ضدّ الصليبيّين. ففي فترات الهدنة قامت علاقات تجارية بين الجانبين إما عن طريق مصر مباشرة أو عن طريق الشام، ولعبت المدن الإيطالية بيزا وجنوة والبندقية وأمالفي دوراً رئيسياً في تجارة مصر، فظهر تجارهم في موانئ الإسكندرية ودمياط لشراء منتجات الصناعة المصرية ومنتجات الشرق الأقصى والمحيط الهندي. وتتضح الصورة في رسالة أرسلها صلاح الدين وأوردتها المصادر الإسلامية: "من هؤلاء الجيوش البنادقة والبياشنة والجنوية، كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم ولا تطفأ حرارة شرهم وتارة يكونون سفراء يحتكمون على الإسلام في الأموال المجلوبة، وتقصر عنهم يد الأحكام المرهوبة، وما معهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله".

كانت الفسطاط هي مركز التجارة كما كانت مركزا للصناعة وظلت العاصمة التجارية إلى نهاية العصر الفاطمي الثاني. ومع صلاح الدين انتقل النشاط التجاري إلى القاهرة بعد حرق الفسطاط. يقول الدمشقي في كتابه عن أنواع التجارة إن التجارة أنواع: التاجر الخازن الذي يقوم بالتخزين، والراكض الذي يقوم بالرحلات، والمجهز الذي يقوم بالتصدير. وقد وجدت في مصر جميع تلك الفئات؛ فهناك تجار كبار لهم وكالات تجارية في الفسطاط ثم في القاهرة، وتجار صغار يتحركون من مدينة صغيرة إلى أخرى وإلى الريف المصري، وهناك التجار الذين لديهم صلات تجارية بأرجاء العالم ويصدرون ويستوردون ولهم وكلاؤهم في الخارج.

وكانت الغالبية من صغار التجار أصحاب التجارات المحلية، وهناك تجارة جملة وتجارة تجزئة. وتجّار التجزئة يسمون بالسوقة أو الباعة، فهناك تجار صغار يبيعون الملابس والأواني للفقراء ورأس مالهم محدود، وآخرون متخصصون في بيع سلعة معينة أو في بيع سلع عديدة منوعة، وهؤلاء عادة من كبار التجار. كذلك ظهر تجار كارمية من المصريين. ويرجع ابن أيبك الدودار ظهورهم إلى عهد المستنصر الفاطمي، وكانوا في البداية يسافرون إلى آسيا وهرمز والصين وسمرقند، وفي إفريقيا إلى السنغال قبل التخصص في تجارة التوابل. ولقد احتكروا تجارة الحجاز والمحيط الهندي وخصوصاً التوابل والمتاجر الشرقية،وكانت أهم البضائع بعد التوابل اللؤلؤ والمرجان والبخور والنباتات الطبية والحرير الهندي والطلاء والسكر والأرز والمسك، وكان لهم فنادقهم في عدن وزبيد والفسطاط والإسكندرية. ولقد أصبحت تجارة الكارم في عدد من الأسرات تتوارث العمل بالتجارة، منها عائلة ابن كويك والخروبي والدماميني وغيره. وفي العصر الأيوبي كان التاجر عبد الله بن عبد الجبار الأموي العثماني السكندري من تجار الكارم المعروفين، وكان بزازاً ثم اشتغل بتجارة الكارم.

- التجارة الداخلية :

كانت الفسطاط العاصمة التجارية لمصر في العصر الفاطمي وخلال فترة المواجهة الصليبية إلى احتراقها عند نهاية هذا العصر. ولقد أفاض الرحالة وأوراق الجنيزة في ذكر حركة التجارة الداخلية والخارجية لمصر، وتحدثوا عن أسواق الفسطاط التي انتشرت فيها الوكالات الكبرى، وكانت إحداها يملكها يهوديّ يدعى ابن عوكل كان له منزل في القاهرة والآخر هو وكالة كبرى في الفسطاط، وتجارة الوكالة الرئيسية كانت الجواهر واللؤلؤ بالإضافة إلى 84 نوعاً من البضائع منها الكتان والأعشاب الطبية والتوابل وله أرشيف تجارى من 370هـ / 980م إلى 469هـ / 1067م ولديه موظفون يهود ومسلمون يعملون في تلك الوكالة. وقد عملت أيضاً أعداد من المسيحيين بالتجارة، وأشار ناصر خسرو إلى تاجر مسيحي ثري. وقد ازدانت أسواق الفسطاط بالبضائع المنوعة والمختلفة، كسوق القناديل وما فيه من بضائع رفيعة الصناعة من البلور وأنواع التجارة القادمة من أنحاء العالم، فأنياب فيل من زنجبار، وجلد بقر من الحبشة، ومحال البقالة والعطارة وبائعي الخردوات. وكانت الأطعمة تباع في أوعية من خزف أو زجاج. وكان تجار المواد الغذائية ينقلون البضائع من الداخل والريف إلى أسواق عواصم المدن، وأعداد المراكب التي تقف في مينائها تفوق في رأيه أعداد تلك التي تقف في البصرة وبغداد مجتمعة. وفي الفسطاط كانت تبدأ طرق القوافل الواصلة إلى الحجاز وإلى سوريا والمغرب، وهي المصدر الرئيسي للمصنوعات التي تصل إليها على ظهور المراكب عبر النيل. وكانت التجارة الداخلية تحت الرقابة الحكومية وخاصة تجارة المواد الغذائية التي ترد إليها عن طريق النيل أيضاً. وتخضع الأسواق لمتابعة المحتسب. وظلت الفسطاط محافظة على مكانتها التجارية إلى أن أحرقت على يد شاور. ورغم انتعاشها في نهاية العصر الأيوبي حين أقام الملك الصالح أيوب قصور الروضة لمماليكه فإنها لم تعد إلى سابق عهدها. وقد أشار ابن جبير الذي زارها في عهد صلاح الدين إلى آثار الحريق والخراب الذي أصابها في دولة العبيديين. ويذكر

المقريزي العديد من الأسواق في الفسطاط والقاهرة بعضها أقيم في زمن الفاطميين واستمر للعصرين الأيوبي والمملوكي، وبعضها تغيرت طبيعة ونوعية تجارته، وبعضها اندثر، والبعض استحدث زمن الأيوبيين، ومن تلك الأسواق سوق باب الزهومة في القاهرة، وكان أحد أبواب القصر. وكان موضع السوق في الدولة الفاطمية سوق الصيارفة ويقابله سوق السيوفية، وسوق الشماعين من الجامع الأقمر إلى سوق الدجاجين وكان يعرف في الدولة الفاطمية بسوق القمحانيين. ولقد بنى المأمون البطائحي للخليفة الآمر بأحكام الله تحت الجامع الأقمر دكاكين ومخازن من جهة باب الفتوح. وسوق باب الفتوح عمّر عند سكن قراقوش في حارة بهاء الدين التي تحمل اسمه، وسوق أمير الجيوش أقيم على رأس حارة برجوان واستمرّ خلال العصرين الأيوبي والمملوكي بمسمّى سوق برجوان. وفي عهد الناصر صلاح الدين، سميت أسواق بأسماء قادته مثل سوق البلشون خارج باب الفتوح نسبة إلى سابق الدين سنقر البلشون أحد مماليك صلاح الدين، وسويقة المسعودي نسبة إلى الأمير صارم قايماز المسعودي، وكان واليا على القاهرة. وتخصصت بعض أسواق القاهرة في تجارات معينة، وتعددت البضائع بين إنتاج محلي ومجلوب من جميع أنحاء العالم، فوجدت بضائع مغربية وسورية إلى جانب منتجات الهند. وقد انتشرت الفنادق لإقامة التجار عبر المدن المصرية، ولم تكن الأسواق قاصرة على العاصمة، فكان لكل مدينة سوقها الدائم بالإضافة إلى أسواق تعقد في يوم معين وخاصة في الريف، واشتهرت أسواق قِفط والمنيا وأسيوط وتحدث عنها الرحالة، وكان للإسكندرية أهميتها على الصعيد التجاري الداخلي والخارجي.

- التجارة الخارجية:

اتخذت التجارة الخارجية مسارات عدة، وكان للفاطميّين ثم للأيوبيّين علاقات متعددة مع الغرب والشرق الإسلامي على السواء وكذلك مع أوربا. وكانت تأتي إلى مصر متاجر المحيط الهندي وشرق آسيا وبضائعها بالإضافة إلى العلاقة التجارية مع الصليبيين عن طريق الشام والتي لم تتوقف إلا أثناء الحملات؛ فكانت بضائع المتاجر المصرية في العهد الأيوبي تجد طريقها إلى الشام ويقوم التجار الشوام بالمتاجرة في فترة الهدنة مع الصليبيين الذين يسيطرون على المنافذ البحرية، بالإضافة إلى نشاط تجار المدن الإيطالية بيزا وجنوة والبندقية مع مصر.

وقد شارك في هذا النشاط تجار مصريون مسلمون ومسيحيون ويهود، وتجار من الشام، وتجار الكارميّة من مختلف الجنسيات. ولقد وصل بعض التجار إلى المناصب السياسية العليا كالتاجر اليهودي أبي سعد التستري وأخيه أبي نصر هارون. وكانت أم الخليفة المستنصر جارية لأبي سعد وتولى أمر ديوانها، وكان نهراي بن نسيم تاجراً يهودياً عراقي الأصل يقيم بين مصر والمغرب ويعمل بتجارة المنسوجات وخاصة الكتان مع نوعيات أخرى من البضائع وتصل تجارته إلى تونس وسوريا وأوربا وصقلية، ثم نجد التجار الكارمية الذين احتكروا تجارة المحيط الهندي وكانت منهم أسرات ورثت العمل بالتجارة. ولقد تملك عدد من التجار والقضاة وكبار موظفي الدولة وبعض قادة الجند سفنا؛ فناصر الدولة الحمداني القائد لقوات الأتراك في عهد المستنصر كانت لديه هو وأخوه سفنٌ تجارية. وفي القرن الخامس الهجري / الثاني عشر الميلادي تملك التاجر أبو العباس الحجازي

لأسطول تجاري وقضى أربعين سنة في الصين ثم استقر في مصر، وكان لـه سبعة أولاد يعيشون في الهند والصين وأثيوبيا وسيلان وجزر أندونيسيا، وكانوا يرسلون البضائع لأبيهم في مصر. وتاجر آخر يدعى اسحق النيسابوري وكان واحدا من كبار تجار الإسكندرية، وكان من أصول فارسية، وكان يتاجر في الحناء ومواد الصباغة والزجاج والحرير والمرجان والعنبر. وكانت لمصر علاقات بإفريقيا والمغرب، فجلب التجّار منهما الفواكه والجلود وزيت الزيتون، ومن برقة جاءوا بالصوف والعسل والقطران. وكانت هناك عدة طرق تربط مصر بالمغرب منها طريق القوافل ثم طريق أحواض نهري السنغال والنيجر، وكان طريق المقرة إلى سجلماسة هو الطريق الوحيد الذي يأتي من خلاله الذهب والعاج. وتوطدت العلاقات مع الشام وخاصة في عهد الأيوبيين، وكان الوزير الأفضل بن بدر الجمالي قد قام باعتقال تجار إيطاليا المتواجدين في الفسطاط ووضعهم في السجن لاشتراك مواطنيهم مع الصليبيين في اغتصاب المدن الساحلية في سوريا وفلسطين وإن كان التجار قد عادوا بعد ذلك للمتاجرة مع مصر، وقام التجار الإيطاليون بنشاط تجاري مكثف في مصر والشام مع المسلمين والصليبيين على حد سواء، وكانوا يجلبون بضائع الغرب ويستوردون بضائع الشرق وخاصة منتجات المحيط الهندي والشرق الأقصى من توابل، وبرعوا فيما يسمى بتجارة الترانزيت، وكان لهم فندقهم في القاهرة. واستوردت الجلود والحرير من الأندلس، والعسل والشمع من قبرص وكريت، وجلبوا الجوخ من بيزنطة. وكانت لتجارة المحيط الهندي أهمية خاصة في العصرين الفاطمي والأيوبي، وكان للطريق التجاري من عدن وجدة واصلا إلى موانئ البحر الأبيض عن طريق البحر الأحمر ثم الصحراء ومنها إلى النيل ومن ثم إلى شواطئ البحر الأبيض أهميته الخاصة. وكان الميناء الرئيسي في عهد الفاطميين هو ميناء القلزم وبعد ذلك أصبح ميناء عيذاب. ويرى برنارد لويس أن الدولة الفاطمية سعت إلى إضعاف الخلافة العباسية عن طريق تحويل التجار بعيداً عن الخليج الفارسي والسيطرة على الأماكن الأكثر أهمية في هذا الطريق. وقد احتكر الفاطميون بعض السلع كالحديد والأخشاب والقطران، وكانت توضع تحت تصرف ديوان خاص يسمى ديوان المتجر وهو المسئول عن حفظها وبيعها، وكان مكانه في مدينة الإسكندرية. وكانت للحكومة الأولوية فيما يتعلق بشراء البضائع. ولقد استمر نظام الاحتكار مع الأيوبيين، فقد احتكر الأيوبيون أشجار السنط لأخشابها، وقد انتشرت في البهنسا وأخميم وقوص، وكان الأهالي يدفعون رسوما مقابل الانتفاع بأخشابها. كذلك كان هناك احتكار لبعض المعادن كالشب والنطرون والزمرد فلا تباع إلا في المتجر السلطاني. ولقد انتعشت التجارة في زمن الأيوبيين فيما خلا فترات الحملات على مصر، وكانت هناك تجارة مع الصليبيين في فترة الهدنة عن طريق الشام. وقد تغاضت المدن الإيطالية عن كثير من قرارات البابوية التي تدعو إلى منع الاتجار مع المسلمين، وتم تجديد المعاهدات التجارية بين الجانبين في زمن السلطان العادل الأيوبي. كذلك أدت سياسة التسامح التي اتبعها العادل والكامل إلى اتجاه كثير من الأوروبيين بسفنهم نحو الشواطئ المصرية، وشهدت الإسكندرية نشاطاً واسعاً نتيجة الامتيازات التي منحها سلاطين الأيوبيين لتجار المدن الإيطالية حيث وجدت في ميناء الإسكندرية في سنة 583هـ / 1187م، سبع وثلاثون سفينة تجارية إيطالية.

أما عن المكوس فالرحالة ابن جبير يعكس

صورة واضحة للإجراءات الخاصة بالمكوس التجارية سواء في الإسكندرية أو مناطق المكس في طريق القوافل وداخل مصر وفي عيذاب. ولقد أثارت استياءه طريقة معاملة الجباة وموظفي المكوس. أما عن الإجراء المتبع فرجال المكس يسجّلون جميع ما أحضره التجار ويكتبون أسماءهم وصفاتهم وأسماء بلادهم، وكان يسأل كل واحد عمّا معه من سلع أو نقود ليؤدي الزكاة دون النظر إلى ما حال عليه الحول أو لم يحل، وذكر أن أكثر القادمين لم يكن معهم إلا زاد طريقهم وألزموا بأداء الزكاة وأمِروا بأن ينزلوا بضائعهم وما معهم ويسلم للديوان، ثم قاموا بتفتيش ذاتي للأفراد فأدخلوا أيديهم إلى أوساطهم وجعلوهم يحلفون على صدق أقوالهم. ولقد ترتب على تلك العمليات ضياع بضائع كثيرة. وكان هناك رسم يفرض على القوافل والحجاج، فقام السلطان صلاح الدين بإلغائه. وكانت هناك مناطق تفتيش في أخميم وقوص والمنيا فيتعرض المكلفون بالمكس لمراكب المسافرين ويكررون عملية التفتيش بحثا عن الدراهم والدنانير. ويرى ابن جبير التفريق بين التجار والغرباء المنقطعين أي من لا يحملون بضاعة أو تجارة. ومن مظاهر التعسف الواضح أنهم كانوا يحضرون عصى طويلة لها أسنان تسمى مسال يخترقون بها جميع ما يحمله المسافرون مما يترتب عليه الإضرار بموجوداتهم. وكانت لقوص أهمية خاصة، فإنها ملتقى الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنود ومن الحبشة والتجار المغاربة والمصريين. ولقد نشطت حركة القوافل في هذه المنطقة سواء الخاصة بالحج أو تجارة المحيط الهندي وخاصة ميناء عيذاب حيث لا يمكن إحصاء الصادر والوارد من القوافل من كثرتها. ولقد رفع صلاح الدين المكوس التي فرضها الفاطميون هناك.

ثانيا : في الشام:

كانت لبلاد الشام طبيعة ديموغرافية خاصة، إذ تعددت فيها الأجناس بين عرب وأكراد وتركمان وترك وسكان محليين ثم الطوائف الدينية بتعدديتها. وتركت خصائص البيئة الجغرافية تأثيرها على حياة الأفراد الاجتماعية والاقتصادية وأنشطة السكان، ولم تكن هناك سلطة سياسية موحدة تجمع هذه التعددية الإثنية بل هناك وحدات سياسية عديدة من أتابكيات وإمارات عربية وسلجوقية وتركمانية وخلافة فاطمية لها امتداد على بعض أراضي الشام ومع الحروب الصليبية اختفت بعض الوحدات السياسية وقامت أخرى وظهر كيان صليبي أقام إمارات ذات طابع إقطاعي واقتصادي واجتماعي له هو الآخر خصائصه. ورغم الصراعات التي قامت بين الجانب الإسلامي والجانب الصليبي فلقد نشأت علاقة ذات طابع خاص بين الجانبين في فترات الهدنة وقام نشاط تجاري ملموس رصده الرحالة .

المجتمع :

كان مجتمع بلاد الشام عند قدوم الحملات الصليبية يتكون من فئات عرقية وطائفية متعددة بالإضافة إلى التواجد الفاطمي على أرض الشام ونفوذ عباسي يدين له بالولاء عدد من الوحدات السياسية من الخلافة الفاطمية التي فقدت أقاليمها في فلسطين نتيجة للغزو السلجوقي في الربع الأخير من القرن الحادي عشر الميلادي وظلت تسيطر على بعض المدن الساحلية. وقبل قدوم الفرنج بأشهر قليلة، نجح الفاطميون في استعادة مدينة القدس سنة 443هـ / 1098م. وإلى جانب الفاطميين وجدت على أرض الشام إمارات عربية وتركمانية وكردية، وفي سبيل الحفاظ على كيانها بين القوتين

المتصارعتين قامت بنقل ولائها بين هذا وذاك وفقاً لمصلحتها مما زاد من حدة الخلاف وتفتيت القوى، فهناك قبائل وأسر عربية كبني عمار في طرابلس، وإمارة خلف بن ملاعب في حمص وأفامية، وقبائل كلاب المنتشرة في الشمال، وبني كلب بوسطه، وبني طيء في شرق الأردن، وبني منقذ في شيزر، ثم طوائف التركمان، فقد حكم بيت بنوارتق في بيت المقدس إلى أن استعاده الفاطميون، وانتشر أبناء الأسرة في مدن الشام وشمال العراق، وأحد أبناء الأسرة كانت له إمارة في حصن كيفا، وأسرة كردية هي أسرة بنى مروان في إقليم الجزيرة وديار بكر، وبنو مرداس في حلب، بطون من كلاب قضى عليهم الأمير السلجوقي تنش عام 478هـ/1095م، والعقيليون في شمال سوريا. وهناك عدد من القبائل الأخرى كقبيلة ثعلبة البدوية بفرعيها الرئيسيَين بني ضرغام وبني رزيق، وكانت تقيم على حدود مصر وتعاونت مع الفرنجة عند قدومهم، بالإضافة إلى السلاجقة الأتراك الذين أقاموا إمارات لهم على أرض الشام. ومع قدوم الصليبيين وجدت بعض القبائل البدوية على الحدود الشمالية الشرقية للمملكة اللاتينية، وعدد قليل من القبائل البدوية عاش داخل حدود المملكة اللاتينية ودفع رسوما لها. ولقد جاءت بعض الإثنيات كالأكراد مع صلاح الدين، وكانت الأغلبية الساحقة عند قدوم الصليبيين إلى بلاد الشام من المسلمين وانقسموا إلى سنة وشيعة، وكان سكان المناطق الشرقية والجنوبية في طبرية والجليل ونابلس وعمان في منطقة ما وراء الأردن من المسلمين الشيعة ومن السنة في الشمال، وفي الجنوب عاش الدروز في أماكن منعزلة في لبنان، وهم أحد الطوائف التي آمنت بألوهية الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي. والمنطقة القريبة من قلعة الشقيف وبانياس وأراضي المراعي المجاورة لوادي الطعيم كانت منطقة تمركز طائفة النصيرية والدروز وطوائف أخرى. ولقد أشار بنيامين التطيلي إلى سكنى الدروز في المنطقة التي تمتد من جبل حرمون إلى شاطئ صيدا. كذلك وجدت الباطنية وهي طائفة شيعية أخرى تؤمن بإمامة نزار بن المستنصر الأكبر وحملت أسماء الباطنية والحشيشية والنزارية في مناطق الكهف والقدموس ومصياف، وكان لها دورها في أحداث الحروب الصليبية. وهذا بالإضافة إلى أهل الذمة من مسيحيين ويهود. ولقد شكل اليعاقبة العنصر الأساسي بين طوائف المسيحيين الشرقيين المحليين، ثم النساطرة الذين شكلوا أعداداً أقل، ولقد عمل الفريقان في الأنشطة الصناعية والتجارية. ثم نجد السريان. ويرى يوشع براور أن اسم السريان كان يطلق من قبل على المسيحيين الشرقيين الذين اتبعوا المذهب الأرثوذكسي واستخدموا اللغة اليونانية في طقوسهم الدينية واللغة العربية في حياتهم اليومية واستخدموا اللغة السريانية ذات اللهجة الآرامية في طقوسهم وشعائرهم، ثم المارون ولعبوا دوراً في تاريخ المملكة اللاتينية وتعاونوا معهم، وعاشوا في جبال لبنان، وكانت المسيحية منتشرة في أقاليم ريفية خارج المدن وفي عدد من القرى في المنطقة الريفية المحصورة بين بيت لحم ومدينة بيت المقدس .

أما اليهود فقد انقسموا إلى ربانيين وقرائيين وسامرة، وتواجدت أعداد منهم في عدد من مدن الشام كدمشق وحلب. وفي وثائق الجنيزة أسماء لحارات سكنها اليهود في دمشق ووثائق تتعلق بمنازل وتجارة تخص اليهود في الشام بالإضافة إلى كتابات الرحالة كبنيامين التطيلي وبنخيا حيث أشاروا إلى التواجد اليهودي في خلال الحروب الصليبية، وإن كان يُلاحظ التضارب بين الرحالة

بخصوص أعداد اليهود في كل مدينة حتى مِن بين من زار المكان في نفس الفترة الزمنية كبنيامين وبتاخيا. فبينما ذكر بنيامين أنه في بيت المقدس مائتا يهودي يعملون بالصباغة ويقيمون في حي مجاور لبرج داود، ذكر بتاخيا الذي زارها بعد ذلك بأقل من عشر سنوات أن هناك صباغا واحدا يقيم ويعمل في بيت المقدس. والأعداد التي أوردها بنيامين في مدن تخضع للصليبيين بها مبالغة؛ ففي عصر الحروب الصليبية تراجعت أعداد اليهود ومع ذلك فإحصائياته فاقت أعدادهم في الفترة السابقة للحروب الصليبية، وذكر بنيامين أن في دمشق ثلاثة آلاف يهودي وبتاخيا ذكر عشرة آلاف لذا لا نستطيع وضع إحصاء دقيق.

ومع استيلاء الصليبيين على أجزاء من الشام وإقامة مملكتهم وإماراتهم انقسم المجتمع إلى مجتمعين: إسلامي وصليبي لكل منهما عاداته وتقاليده وتكوينه. ونلاحظ أن القوى الرئيسية التي ظهرت على الساحة الإسلامية واستطاعت أن توحد أجزاء من الشام تحت سيطرتها كالزنكيين ثم الأيوبيين كان لها تأثيرها على المجتمع واقتصاده.

(أ) المجتمع الإسلامي :

انقسم إلى ثلاث فئات، عليا شملت الحكام رجال الدولة ومعاونيهم من الوزراء والحجاب وكبار رجال الدواوين وقادة الجيش والتحق بتلك الطائفة العلماء والفقهاء. ويشير ابن العديم إلى أهمية ومكانة هذه الطبقة. فعند وفاة نور الدين محمود زنكي "أحضر المقدمين والأعيان بحلب والفقهاء والأمراء"؛ ثم طائفة التجار وكانت أحوالها يعتريها التغيير وفقا لظروف المنطقة والصراعات القائمة، وإن كانت هذه الفترة قد شهدت نشاطا تجاريا رغم استمرار الصراع.

وتعددت أسماء التجار بين ثنايا المصادر الإسلامية، ومن وصف القوافل وما تحمله من متاجر نستطيع أن نكوّن فكرة عن حجم التجارة وثروة بعض التجار. ففي وصف قافلة زمن صلاح الدين أنها تتردد بين مصر والشام و"كانت غزيرة الأموال كثيرة الرجال ومعها جماعة من الأجناد". ولقد كانت الأسواق في دمشق عامرة بالبضائع، واشتغل بعض الفقهاء بالتجارة لكثرة ما تحققه من أرباح مثل أبي حرب عيسى بن زيد بن محمد الخجندي الحلبي، الذي كان له خمسمائة جمل عليها أصناف التجارات، وكان له مماليك وخدم. ولقد جرت الإشارة إلى فئة الأعيان. وفي فترة الحروب الصليبية استمر النشاط التجاري بين الصليبيين والمسلمين مما أثار دهشة ابن جبير: "قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج وسبيهم يدخل للمسلمين" مما أدى إلى ثراء فئة التجار.

أما العامة فشملت عناصر الفلاحين وصغار الحرفيين وصغار التجار وجماعات الشطار والأحداث والعياريين .

الفئة العليا : من قادة وأمراء حصلت على الإقطاعات ونالت الكثير من الغنائم من نتاج الحملات ودعمت الحروب أهميتها ومكانتها السياسية، كذلك حظي الفقهاء والعلماء سواء في فترة الزنكيين أو الأيوبيين بمكانة مميزة. ولقد استعان نور الدين بالفقهاء والعلماء في المدارس التي أنشأها، ونفس الأمر بالنسبة إلى صلاح الدين وخلفائه، فقد أحاطوا أنفسهم بالكتاب والعلماء والفقهاء. وحين دخل صلاح الدين بيت المقدس بعد استعادتها أحضر معه الفقهاء والعلماء والصوفية.

وكان لطوائف الصوفية تأثيرها على المجتمع وفكره خلال هذه الفترة، فيذكر ابن العديم

أن نور الدين كان يكاتب زهادها والمنقطعين عن الدنيا للدعاء له عند الخروج للغزو.

أما العامة فهي الطبقة التي عانت من ويلات الحرب الصليبية، وشملت صغار الحرفيين الذين عملوا في الصناعات المختلفة. وقد شارك المسلمون والمسيحيون واليهود في هذا النشاط، وهناك إشارات في وثائق الجنيزة إلى سوق اليهود في دمشق، ووجدت مخازن ومحلات لصالح المعبد اليهودي، وفي رملة تملك يهودي مصنعاً للقطن وكوّن ثروة. ولقد انخرط اليهود في عدد من الحرف كالصباغة والحياكة وصناعة الأحذية وبعضهم اهتم بعلوم الطب فجرت الإشارة إلى أطباء يهود وإن كان هؤلاء أقرب إلى الطبقة الوسطى.

ولقد أفرزت فترة الاضطراب والصراع فئات معينة كالفتوة، ثم الشطار والعيارين، وهي تعبر عن صورة من صور الصراع الطبقي والديني الذي ساد. ويشير ابن جبير إلى طائفة تعرف بالنبوية وهم سنيون يدينون بالفتوة وبأمور الرجولة كلها، وكل من ألحقوه بهم لخصلة يرونها منه يحزمونه السراويل ويلحقونه بهم، ولا يرون أن يستعدي أحد منهم في نازلة تنزل به، وإذا أقسم أحدهم بالفتوة برّ بقسمه" وكانوا يحاربون الباطنية. أما العيارون والشطار فقد انتشروا في بلاد الشام خلال الحروب الصليبية وقاموا بقطع الطرق على التجار من أجل نهب بضائعهم وأموالهم، وارتبطوا بالمناطق ذات الأهمية التجارية، ووصفوا أحياناً بالحرامية. ولقد اتخذ العياريون في بعض الأحيان شكل مجموعات استخدمتهم السلطة أحياناً كما حدث في أيام رضوان حاكم حلب؛ فقد عين رضوان عند قدوم الصليبيين شخصاً يسمى المجن رئيساً لحلب، وكان في الأصل من جملة اللصوص والشطار وقطاع الطريق الدّعّار فاستتابه قسيم الدولة اقسنقر وولاه رئاسة حلب لشهامته وكفايته ومعرفته بالمفسدين وانتهى أمره بالقتل. وفي عهد رضوان أيضاً في عام 505هـ / 1111م جرت الإشارة إلى كثرة اللصوص، "فكثرت اللصوص من الضعفاء وخاف الأعيان على أموالهم" بل استعان بهم أيضاً رضوان "وبث رضوان الحرامية". ولقد ثار العامة عدة مرات نتيجة غلاء الأسعار أو القحط كما حدث في عام 630هـ / 1232م. وفي عهد الملك العزيز الأيوبي في حلب ارتفعت الأسعار حين احتبس الغيث، فثارت العامة على المحتسب وهاجموا داره ونهبوها. أما الفلاحون فقد كانوا أكثر الناس تأثرا بالصراعات الحربية سواء بين المسلمين والصليبيين أو بين الحكام المسلمين، فقد جرى الاعتداء على أراضيهم والاستيلاء عليها وخضعت أعداد منهم للصليبيين نتيجة لبقائهم في أراض اغتصبها هؤلاء الصليبيّون أو نتيجة لوقوعهم في الأسر، بالإضافة إلى أنّ تطبيق النظام الإقطاعي أضعف من مكانتهم ووضعهم الاجتماعي. وفي الصراع بين ياغي سيان ورضوان صاحب حلب نجد أنّ جند ياغي سيان الأرمن عند عودتهم قتلوا الفلاحين، كذلك جرت الإشارة إلى طرد الفلاحين من العمق وأنطاكية على يد الصليبيين. ولقد نظر إليهم كفئة دونية، وتدنت أحوالهم لانتشار الأمية وللمعاناة الصحية حيث تركزت البيمارستانات في المدن.

أما عن مظاهر الحياة الاجتماعية في تلك الفترة فإنه رغم الحروب بين المسلمين بعضهم وبعض وبين الصليبيين فقد أقيمت المنشآت الاجتماعية وتعددت بين حمامات عامة وبيمارستانات وعمائر ومدارس وأسواق، وفي حالة تعرض أيّ منها للدمار نتيجة للحروب والزلازل كان يُعاد إعماره. ففي عهد نور الدين 565هـ / 1169م حدثت زلازل واحترق جامع حلب

وما يجاوره من أسواق فاهتم بإعادة إعماره وأعاد الأسواق إلى ما كانت عليه. ولم يكن الإعمار قاصراً على الحكام بل امتد إلى أمرائهم وقوادهم ونسائهم وأثريائهم، فأقاموا المدارس وجددوها وأوقفوا عليها الأوقاف. ويشير ابن العديم إلى منشآتهم ومدى الاهتمام بالعمارة في عهد نور الدين: "صار على ظاهر حلب من العمارة والمساكن أكثر من المدينة ثم الحاضر السليماني وخارج باب الأربعين". كذلك كثر الإعمار في عهد صلاح الدين وخلفائه، فتعددت البيمارستانات التي أقيمت في مدن الشام كحماة التي كان فيها بيمارستان وثلاث مدارس، وحمص كان بها مارستان ومدرسة، وفي دمشق مارستان قديم وحديث ويصرف عليه جراية نحو خمسة عشر ديناراً"، وكان له قومة لديهم كشوف بأسماء المرضى والنفقات التي يحتاجونها من الأدوية والأغذية والأطباء يتفقدون المرضى يومياً. كذلك كان هناك مكان للمجانين، وكثرت الأربطة والخانقوات الخاصة بالصوفية التي يصفها ابن جبير بأنها قصور مزخرفة. وقد أوقفت الأوقاف على هذه الأماكن، فرباط المغاربة المالكية وقف عليه بساتين وطواحين وحمام ودكانان، كذلك أقيمت مدارس لتعلم الصبيان في مدن عديدة وبعضها الحق بمساجد، وأقيمت مرافق للغرباء وخاصة من الفقهاء وطلاب العلم. ولقد رأى ابن جبير في دمشق مائة حمام فيها وفي أرباضها وأربعين داراً للوضوء يجري فيها كلها". ولقد دأب أهل البلاد على التقرب إلى الله بفداء أسرى المسلمين وتعظيمهم للحاج، فكان أهل دمشق يخرجون إلى ركب الحج ليتبركوا به ويخرجون للحجّاج الأطعمة والدراهم، ولهم مبادرة لإكرام الغرباء وخاصة أهل بادية الشام. وكان لأهل الشام عاداتهم في أفراحهم وجنائزهم، فكانوا يمشون أمام الجنائز بقراء القرآن ثم يصلى على الميت في الجامع قبالة المقصورة، ويجلسون وأمامهم ربعات القرآن، وكان نقباء الجنازات حين يصل أي شخص من الأعيان أو من ذوي المكانة يعلنون عن وصوله مع إضافة الألقاب كسيد العلماء أو شريف الملة، ويقوم كل بالوعظ ثم يختمون بالتعزية، واعتادوا أن يستعملوا الألقاب والتبجيل في تعاملهم ومخاطبتهم الآخرين. أما عن وضع المرأة فإن النساء من الخواتين من زوجات الأمراء والحكام والأعيان كانت لهنّ مكانتهنّ وساهمن في إعمار المساجد والمدارس. ومن أشهر الشخصيات خاتون ابنة الملك العادل وزوجة الملك الظاهر صاحب حلب، ولقد أفرزت الحروب الصليبية ظاهرة جديدة وهي كثرة الجواري الفرنجيات لدى المسلمين وتزوج البعض منهن، فجرت الإشارة إلى امرأة إفرنجية زارت أختها زوجة التاجر المسلم، كذلك كثر عدد الأرامل. ولقد أشار عدد من المؤرخين إلى أن الدولة قامت بتزويجهن، ويبدو أنهنّ كن من الكثرة إلى حدّ أنّ الدولة قامت بتزويجهن في عهد نور الدين.

(ب) المجتمع الصليبي :

كان الاستيطان اللاتيني هو أول المحاولات الأوربية التي مهدت لتأسيس مملكة استيطانية في هذه المنطقة، ولم تستمر تلك المحاولة إلا فترة الحروب الصليبية، أي ما يقرب من مائتي عام. ولم يحاول الصليبيون طرد السكان المحليين كما لم يحاولوا الاندماج الاجتماعي مع سكان منطقة الشرق العربي. وكان على قمة المجتمع الصليبي النبلاء، والوثائق تشير إلى قائمة بأسماء حائزي الإقطاعات الأولى من النبلاء، فنجد عدداً كبيراً من الأصول العرقية، وكل إمارة كانت في الغالب تتبع السمة الجنسية لأصحابها. وكانت طبقة النبلاء

تتكون من رجال وفرسان اعتمدت مهنتهم على الشجاعة الفردية. وتلك الطبقة مشطورة إلى كبار ملاك وصغار فرسان جعلوا نظامهم الإقطاعي يتواءم ويتكيف مع ظروف المنطقة. ولقد كان كبار الملاك عنصراً متغيراً لمدة تزيد عن قرن، فقد كان ملوك بيت المقدس يمنحون إقطاعاً لشخص وبعد سنوات يؤول لملك بيت المقدس الذي يمنحه لآخر. ولقد أصبحت القرى التي استولوا عليها تعرف باسم المحارب الصليبي الذي امتلكها. ولقد طبقوا نظام الإقطاع الأوربي؛ فالملك الصليبي هو السيد الإقطاعي الأعلى، ولم يمنح الملك الصليبي الإقطاعات السيادية الحقيقية لأفصاله من الفرسان إلا في نهاية العقد الأول من القرن الثاني عشر الميلادي. وعلى الرغم من أن الدومين الملكي ما يزال جوهريا، فإن شطراً كبيراً من الأرض قسم إلى إقطاعات يمتلكها السادة الإقطاعيون، ويمكن للسيد الإقطاعي أن يقطع جزءاً من أملاكه الإقطاعية لأحد أفصاله مقابل تأدية الخدمة العسكرية. ولم يكن صغار الفرسان في الغالب أكثر من أتباع. وقد تقاضى المقطعون أحياناً رواتب، وكان هذا إجراء خاصا بمنطقة الشرق العربي وابتكاراً صليبياً إلى حد كبير. ومع الوقت أصبحت طبقة النبلاء مغلقة على أفرادها وعلى عائلات من ملاك الأرض. وفي نهاية الفترة الصليبية لم يكن هناك أكثر من ست أو عشر عائلات تنتسب إلى طبقة كبار النبلاء، وكانت أسرة أبلين من أشهر العائلات الفرنجية التي تشمل الأسر الحاكمة في أنطاكية وطرابلس وبيت المقدس وأسرة لوزجنان في قبرص. وكانت الأغلبية الساحقة من صغار المحاربين تتقاضى مرتبات مالية، وكان الإقطاع العادي، سواء نقديا أو في شكل أرض، يدرّ على صاحبه إيراداً ماليا يتراوح بين 450 - 500 بزنت ذهبي.

فئة "البرجوازية" :

كانت فئة أدنى من فئة النبلاء، وتمثلها فئة العامة من الصليبيين. وإذا كان الفرسان في الحملة الصليبية الأولى يمثلون نواة طبقة الفرسان، فإن المحاربين من المشاة من غير النبلاء كانوا نواة المستوطنين الذين استقروا في الشرق العربي أثناء الحملة. ونظراً لاختلاف عناصرهم العرقية فإنهم تبعوا باروناتهم. وبما أن إطلاق كلمة البرجوازية على عامة الصليبيين يخالف المفهوم المتعارف عليه للكلمة، فإن يوشع براور رأى أن استخدام الصليبيين لمصطلح البرجوازية وإطلاقه على طبقة العامة هو تعبير مُضلل، فإن طبقة العامة الفرنجية كانت من أصول ريفية من الفلاحين في شمال فرنسا ومن ألمانيا ومن إيطاليا، وربما شاركت بعض العناصر السكانية الحضرية من جنوب فرنسا وتحولوا في الشرق لبرجوازية. وكانت البرجوازية اسماً جديداً في الشرق اللاتيني. وكانت هذه الكلمة تطلق على هؤلاء الأفراد الذين لا ينتمون إلى طبقة النبلاء ولم يكونوا أقنانا ولكن في الغالب تتضمن هذه الكلمة الوضع الاجتماعي الجديد والحر للمستوطنين الصليبيين، وأصبح البرجوازيون يمتلكون ممتلكات من أرض المدينة ومن الأراضي الزراعية المحيطة بها وفي معظم القرى، ولم تكن هذه الظاهرة معروفة في أوربا، وحتى إن وجدت فقد كانت استثناء، والأغلبية البرجوازية تمتعت بمكانة اجتماعية مميزة إذا ما قورنت بأصولها أو مساكنها أو منازلها الأولى. وتمّت الاستعانة بهم في الوظائف الإدارية كوكلاء الدومين، ومحاسبين موظفي الجمارك وشرطة المدن، ولم يلعبوا دوراً هاماً في التجارة العالمية، لكن امتلكوا محلات تجارية ومصانع تعمل بالخامات المحلية ومن أجل

الاستهلاك المحلي، وبالتالي لم يحرز البورجوازيون ثروات ضخمة. وسمح الملك بلدوين الثاني (512 - 525هـ / 1118-1131م) بتنظيم أمورهم من خلال المحاكم البورجوازية تحت إدارة الفيكونتات. ووُجد بعض البورجوازيين من سكان الشام المسيحيين في المستعمرات الصليبية، كما وُجدت برجوازية بيزنطية صغيرة في المدن التي تأثرت بالصبغة البيزنطية كأنطاكية.

ثالثاً : القوميونات الوطنية الأوربية:

كانت هذه القوميونات تشمل الإيطاليين البروفنساليين والإسبان، وتعكس الوجه القانوني لهذه القوميونات الاستعمارية والاستيطانية في الشرق العربي. وكانت القوميونات مراكز حضارية تمتعت باستقلال ذاتي وتشكل طبقة متميزة عن البرجوازية والنبلاء، وهي بمثابة نقابات وهيئات عاشت فوق تربة عربية واكتسبت قوتها ونفوذها في ضوء حقيقة أن أعضاء هذه القوميونات، لم يصبحوا مواطنين في هذه المملكة فلم يطبق عليها قانون المملكة العام وخلقوا لأنفسهم استقلالاً ذاتيًا، وكانوا أكثر حرصاً على المال من أي طبقة في المجتمع، واعتبرتهم المملكة اللاتينية بمثابة مستوطنة على تراب الشرق. واحتكرت القوميونات الإيطالية والأوربية التجارة الخارجية الواسعة للمملكة الصليبية. وبالإضافة إلى هؤلاء وجد جيل جديد باسم البولاني، وهو اسم أطلق على الأبناء الذين يولدون من أب صليبي ومن أم من بلاد الشام.

العلاقة بين المجتمع الإسلامي والصليبي:

عكس كتاب أسامة بن منقذ صورة للعلاقات بين المجتمعين الصليبي والإسلامي بالإضافة إلى ما كتبه الرحالة، وكان المجتمع الإسلامي متفوقاً حضاريًا إذا ما قورن بالمجتمع الأوربي والمناطق التي جاء منها الصليبيون.

ولقد أثار دهشة ابن جبير ما رآه من علاقات بين الجانبين: "من أعجب ما يحدث أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم، وهو الأمر ذاته الذي أكده ابن واصل: "ذهب جماعة من المسلمين إلى يافا في طلب التجارة ووصل خلق عظيم من الفرنج إلى القدس للحج". واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكا كذلك". وكانت هناك عمليات صيد مشتركة تتم في بعض الأحيان بين الجانبين باستعمال البزاة والصقور". ولقد تأثر الصليبيون بالأسلوب والعادات والتقاليد الاجتماعية لدى المسلمين، فأخذوا طريقة المسلمين في الاحتفال بالأعياد والاستعانة بالجوقات الموسيقية والمزامير والقيثار، وتأثروا بعادات الطعام فأحدهم أخبر أسامة أنه أحضر طباخة مصرية لا يأكل إلا من أكلها وآخر لا يأكل الخنزير، ودخل إلى طعامهم التوابل، وارتدى بعضهم الثياب الشرقية المصنوعة من الحرير والقطن والصوف واستخدموا العطور، وتصميم المدن الصليبية من حيث الأسواق والمنازل جاء وفق النمط الإسلامي، ولم يضف الصليبيون أحياء جديدة إلا في بعض المدن التي أقاموا بها، وسكنوا منازل المسلمين بعد طردهم منها، والقصر الصليبي كان تقليدا للقصر الشرقي مثل القصر الصليبي في بيروت حيث امتزجت العناصر المعمارية الإسلامية والبيزنطية، أما العمارة الصليبية العسكرية والدينية فكانت بمنأى عن التأثير الشرقي.

ويذكر براور أن بعض أبناء الطبقات الدنيا في المجتمع الصليبي فرضوا على زوجاتهم ارتداء

الحجاب، ودخلت بعض مفردات اللغة العربية مثل المخمل Camelt والموسلين Muslin والقافلة Caravan. أما الاتصالات الثقافية والفكرية فكانت محدودة، فالمملكة اللاتينية في الشرق لم تصبح مركزاً لنشاط ثقافي وفكري، ومعظم الاحتكاك كان على مستوى الحضارة المادية، ولم يستطع حتى المتحمسون دينياً من الصليبيين إنكار أفضلية الشرق.

الاقتصاد :

كان الاهتمام بالنشاط الاقتصادي من جانب القوى الإسلامية كبيراً، فهو الذي يمول الجانب العسكري في عملية المواجهة مع الصليبيين، واحتاجت المنطقة إلى اقتصاد قوي لتستطيع دعم وضعها الداخلي في نفس الوقت الذي تتأهب فيه للدخول في صراعات ضد الإمارات الصليبية، وكان الازدهار في المجال التجاري واضحاً. أما على الجانب الزراعي فكان الأمر مختلفا، فالأرض كانت في حالة مدّ وجزر نتيجة للصراع الدائم على أرض الشام التي كانت تنتقل بين الجانبين، وقد أحدث الاحتلال الصليبي خللا في الممتلكات الزراعية لسكان الشام في المناطق التي تم غزوها. وقد هرب ملاك بعض الأراضي التي اغتصبها الصليبيون وبعضهم طرد وبعضهم خضع لسيطرة الصليبيين، ومع ذلك فقد احتفظ الفلاحون بكثافة سكانية في قرى الشام. أما الصناعة فغالبيتها كانت امتداداً للصناعات القديمة التي كانت موجودة في الشام.

(أ) الزراعة :

امتازت الشام بتنوع التضاريس من سواحل وسهول ووديان وجبال. وقد ساهم هذا في تنوع المحاصيل الزراعية تبعاً لاختلاف نوعية التربة وعمليات الري، فكانت محاصيل سواحل غزة ويافا صالحة لنمو محاصيل المناطق تحت الحارة بينما وادي الأردن كان صالحاً لزراعة محاصيل المناطق الحارة. وتعددت الزراعات والمحاصيل فزرعت الغلال كالقمح والشعير والعدس كذلك زرع القطن والزيتون والسمسم والفاكهة والخضروات بأنواعها، وفي الفترة السابقة للحروب ألغت الدولة الفاطمية إقطاعات التملك القديمة فيما خضع لها من أراض، وعهدت للمنتفعين بجباية الخراج، وألغت الإقطاع العسكري فكان رجال الإدارة والعسكريون يحصلون على رواتب وأعطيات، أما السلاجقة فاتجهوا إلى الإقطاع العسكري وطبقه الزنكيون. ولقد وزع عماد الدين الإقطاعات على جنده لكسب ولائهم نتيجة ما ساد في هذه الفترة من صراعات داخلية بين الحكام المسلمين وبينهم وبين الصليبيين، وورث الإقطاع في عهد نور الدين وإن كانت هناك إقطاعات غير حربية ولكنها محدودة، وكان الأهالي والفلاحون يدفعون جزية سنوية للحكومة وللمقطعين، واتسع الأمر ليشمل مناطق عديدة في بلاد الشام والجزيرة، وهو نفس ما طبقه الأيوبيون. ولقد تقدمت الزراعة في عهد نور الدين حتى لم تبق مزرعة في جبل ولا واد إلا وفيها سكان ولها مغل، واحتوت دمشق على العديد من الضياع وكل ضيعة احتوت على عدد يتراوح بين ألفين وألف رجل. ولقد تعرض الفلاحون لمشاكل عديدة نتيجة للحروب وفقدان الأرض والتوطين في مناطق أخرى، وشارك المسيحيون الشرقيون في الشام في عملية الزراعة في الجانب الصليبي كالموارنة في طرابلس، بالإضافة إلى الفلاحين المسلمين الذين ظلوا في القرى الصليبية". وكان الفلاحون المسلمون في الضياع الصليبية يؤدون نصف الغلة للصليبيين وجزية على كل رأس دينار وخمسة

قراريط ولهم على الثمر والشجر ضريبة، وفي إحدى ضياع عكا الصليبية كان ناظر الضيعة من المسلمين ومعين من قبل الفرنج.

وبالنسبة للصليبيين طبق نظام الإقطاع الحربي ولكن الإقطاع كان إما انتفاعاً بالأرض أو نقداً. وكان الفلاح في أدنى درجات السلم الاجتماعي. ولم تكن الزراعة في البداية من الأعمال المحببة للصليبيين وإن كانت أعداد من الفرنجة عملت كمزارعين بعد ذلك، في الريف المحيط بالمدينة وفي القرى الجديدة التي تم تشييدها بدلاً من القرى المحلية التي هجرها سكانها، وكانت أكبر حجما من المحلية، فالمحلية كانت بها اثنتا عشرة عائلة والأخرى ما يقرب من مائة وخمسين أسرة. ولقد اقتسم الصليبيون مع المسلمين نتاج بعض الأراضي في منطقة مجاورة لبنياس وهونين، وكانت بانياس في يد الفرنج فاسترجعها نور الدين، وهونين يملكها الفرنج "لهم في ذلك حد يعرف بحد المقاسمة هم يتشاطرون الغلة على استواء، ومواشيهم مختلطة".

وكان إنتاج الحبوب في المناطق الصليبية لا يكفيهم مما دفعهم لاستيراد الحبوب من المناطق الإسلامية المجاورة. ولقد اختفت بعض الزراعات وحلت محلها زراعة القمح والشعير للحاجة إليهما. وقد تدهور الإنتاج الزراعي للريف الصليبي بعد انتصار صلاح الدين في عام 583هـ / 1187م وتقلصت مستعمراتهم الزراعية، فاعتمدوا على الاستيراد من المسلمين ومن أوربا، أما الأراضي الزراعية الخاصة بالجانب الإسلامي فكانت أفضل مع استعادة المسلمين لكثير من ضياعهم في العهد الأيوبي، ولقد عاد ذلك على الدولة بالنفع المادي من جراء جباية الخراج ودخول الحاصلات في عملية التبادل التجاري، ومع نور الدين تحسنت الزراعة وتعدى التقدم الكم إلى النوع واستمر في عهد الأيوبيين.

(ب) الصناعة :

اشتهرت بلاد الشام بعدد من الصناعات كان أهمها صناعة النسيج وخاصة المنسوجات الكتانية والقطنية ونسيج البروكار والملابس الحريرية والصوفية بالإضافة إلى صناعة الصباغة التي تخصص فيها اليهود، كذلك اشتهرت صناعة الزجاج واشتهر صناعهم بالزجاج المذهب والمموه بالمينا وخاصة في حلب ودمشق، كما اشتهروا بالصناعات المعدنية وتوجد آنية نحاسية مكفتة بالفضة قوام زخرفتها رسوم آدمية وحيوانية تحمل اسم السلطان الملك الناصر يوسف صاحب دمشق، كذلك اشتهرت صناعة السلاح وخاصة السيوف الدمشقية التي كانت تعرف بارتفاع أثمانها، وقامت صناعات على المنتجات الزراعية التي اشتهرت بها الشام كأشجار الزيتون التي تزخر بها ضياع الشام. كذلك استخرج الزيت من السمسم، واشتهرت صناعة السكر ومطابخه. ومن الصناعات التي لاقت رواجاً صناعة الحلي لتلبي احتياجات الطبقة العليا، وذكر المؤرخون أن في دمشق مائة حرفة. وزخرت أوراق الجنيزة بالإشارة إلى مشاركات صناعية في عدد من الحرف. وقد أشارت المصادر إلى فئات الزرادين والنحاسين والحدادين وصانعي السيوف، وكانت لكل منهم طوائفهم التي تتولى شئونهم. ووجد في حلب سوق للزجاجين وآخر للطحانين. وأقام صلاح الدين في حلب سوقين نقل إليهما الحريريين والنحاسين.

وبالنسبة للصليبيين فقد وجد الصليبيون عند دخولهم لأراضي المسلمين صناعات قائمة فأبقوا عليها، وطوال قرنين من الزمان وضع الصليبيون

احتياجات ومتطلبات السوق الأوربية في الاعتبار. ولقد تكيف اقتصاد الشام الصليبي مع اقتصاد الغرب الأوربي، وقام الصليبيون بتصدير قائم على الصناعات والحرف في المناطق التابعة لهم، فاهتموا بصناعة المنسوجات، وكان في طرابلس أربعمائة ألف نول لنسج الأقمشة الحريرية والصوفية، وامتازت أنطاكية بالصناعات الحريرية، وصور بالحرير الأبيض. وكان الصناع الشوام المهرة في مجال الصناعة من المحليين ويمثلون مصدراً هاماً من مصادر الدخل للحي البندقي في صور، وزرعت أشجار التوت بالقرب من بيروت، والقطن يزرع في سهول عكا وطبرية وقامت عليه صناعة وكذلك الصباغة. وأشار بتاخيا وبنيامين التطيلي إلى عمال الصباغة اليهود في الشام، واستخرجت مواد الصباغة من نبات الفوة ونبات النيلة، واستخرجوا زيت البلسم وصدّروه. ولقد وجد الصليبيون وخاصة البنادقة عند قدومهم للشام صناعة زجاج متقدمة، فأنشأ البنادقه مصنعاً للزجاج قلدوا فيه صناعات العمال الشوام، وصنعوا مرايا زجاجية. وصنعت في أنطاكية أوانٍ وشمعدانات زجاجية بالإضافة إلى الأواني المستخدمة يومياً، واهتم الصليبيون بالصناعات القائمة على منتجات زراعية كاستخراج الزيت من الزيتون والسمسم، وكان يزرع في صور وعكا وبيت المقدس وصدّره البنادقة إلى الخارج. وتركزت معاصر الزيتون في القرى المحيطة بالمدن. واحتكر الصليبيون صناعة الصابون، وكان محظوراً على أصحاب مصانع الصابون العمل إلا بموافقة الملك. كذلك قام الصليبيون باستخراج النبيذ من الكروم من أجل استهلاكه واستخدامه في الشعائر الدينية، واشتهرت بيت لحم ومدن الساحل ونابلس بصناعة وتصدير النبيذ. واستخدم الحديد في صناعات الأسلحة قبل وبعد الاستيلاء الصليبي. واشتهرت قيسارية بالصناعات النحاسية وإنتاج الأواني وعمل الموازيين والمكاييل.

كذلك حازت صناعة السكر اهتمام الصليبيين، وتركزت في مناطق حول صور وطبرية. وكان السكر يصدّر إلى أوروبا في شكل شراب أو سكر. أو في شكل فطائر محشوة بالسكر. وهناك خاصية انفردت بها الأماكن الدينية كالقدس وهي الصناعات الصدفية الدينية، مثل المسابح والصلبان. ومع ذلك لم يقم الصليبيون بتطوير صناعات جديدة، ولكن دخل تحسين على بعض الصناعات. والعديد من تلك الصناعات قام على أيدي العمال الشوام .

(جـ) التجـارة:

أفرز الغزو الصليبي لمنطقة الشرق العربي الإسلامي بشكل مباشر نمطاً جديداً من العلاقات التجارية، تلك العلاقات التي بدأت بين هذه المنطقة وأوروبا في القرن الحادي عشر الميلادي، والتي لعب تجار المدن الإيطالية دوراً رئيسياً فيها، وهذا لا يعني تغيراً جذرياً في منطقة الشرق الأوسط، فقد ظلت علاقات مصر التجارية مع بلاد الشام والعراق عبر طريق القوافل، والإفراز الهام هو وجود علاقات تجارية تربط بين الجانبين الإسلامي والصليبي. وقد تعهد كل من الطرفين بحماية القوافل التجارية التي تصل إلى أسواق كل منهما مقابل دفع التجار رسوم مرور. وكان "اختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكّا كذلك، وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يعترض، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم الآمنة على غاية، وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم، والاتفاق

بينهم والاعتدال في جميع الأحوال". وكان المسلمون يدفعون ضريبة مقدارها دينار وقيراط صوري على الرأس، وكان التجار يدفعون عند عكا ضريبة على التجارة مقدارها قيراط على الدينار.

ولقد فتحت السبل للتجارة مع الزنكيين والأيوبيين، وكانت التجارة موزعة على ثلاثة محاور أولها الكيان الصليبي، والثاني التجارة مع الشرق الإسلامي بما فيه التجارة القادمة من مصر، ثم التجارة الأوربية والتي لعبت فيها المدن الإيطالية دوراً هاماً، وجزء كبير منها تم عن طريق التجار الإيطاليين في الشام وأعضاء القوميونات الصليبية.

كانت دمشق أهم المدن التجارية؛ فبعد توسع الدولة الزنكية على حساب الكيانات المحلية وإقصائها عن مصادر ثروتها الاقتصادية ولاسيما المحطات التجارية وخطوط التجارة، وبعد القضاء على أتابكية دمشق على يد نور الدين سنة 549هـ / 1154م تلا ذلك ازدهار المدينة اقتصاديا. ولقد اشتهرت كل من دمشق وحلب بأسواقها الكبرى التي حوت مختلف منتجات المدن الإسلامية، بالإضافة إلى منتجات جنوب شرق آسيا كالتوابل، والمتاجر الأوربية التي يجلبها التجار الإيطاليون. ويقع السوق في منتصف المدينة الإسلامية، والحوانيت إما أن تتخذ شكلاً دائرياً أو تكون متراصة على جانب. وبالنسبة لسوق دمشق فكان مسقوفاً وبه العديد من قياسر التجار، وكانت كل منها تختص ببضاعة معينة. وقد كان لكل مدينة في الشام سوق أو أكثر. وكانت الأسواق الصليبية تعني الكثير للتجار الأوربيين وتنتهي عندها رحلة المتاجر التي يحضرها التجار المسلمون والإيطاليون عن طريق البحر عبر الموانئ، وكان سوق المملكة الصليبية في بيت المقدس يعدّ السوق الرئيسي باعتبارها مركزا لتجارة العبور (الترانزيت) ومركزاً ماليا للتجار الأوربيين يساعد على عملية تدفق المعادن النفيسة والعملات المتداولة ويرجع ذلك إلى أنّ المدن الإيطالية وتجارها من البنادقة والجنوية والبيازنة والأمالفين قد تمتعوا بالإعفاءات التجارية من رسوم الميناء وضرائب الأسواق، ولقد أدى هذا إلى اقتطاع جزء من دخل المملكة الصليبية ولكن أدى في الوقت نفسه إلى تركيز تجارتهم في موانيها وتحقيق مستوى اقتصادي طيب لها. وكانت الأسواق الصليبية تنقسم إلى أسواق ملكية تابعة لملك بيت المقدس وكذلك الأسواق الإقطاعية التابعة للكونتات والأمراء والأسواق الإيطالية داخل القوميونات الإيطالية، وتخصصت أسواق الملك وأمرائه في بيع وشراء المواد الغذائية والسلع الضرورية لحياة السكان الصليبيين بالإضافة إلى بعض سلع جانبية، أما الإيطاليون فقد اهتموا بالسلع التجارية والتي يتم استيرادها من أسواق المدن الإسلامية. وقد شجّع الصليبيون التجار الشوام على ارتياد أسواقهم، وكانت طرق القوافل تخرج من دمشق عن طريق الجولان إلى سهول الجليل إلى عكا عبر الطريق السفلي، وهناك طرق من دمشق وأنطاكية حيث ميناء السويدية وبالتالي كانت منطقة حدود بين الأراضي الإسلامية والممتلكات الصليبية. وقد اتخذ ابن جبير طريق دمشق بانياس تبنين عكّا. أما المدن الصليبية التي تمتعت بأهمية تجارية فبالإضافة إلى عكا كانت هناك صور واستخدمت في مينائها قوارب وسفن كبار، وطرابلس وبيروت وإن كانتا أقل في أهميتهما التجارية، ويافا كانت تأتي لها سفن الحجاج المسيحيين القادمة من الغرب. وكانت جموع المستهلكين في المناطق الإسلامية الداخلية وفي المملكة الصليبية هي التي تقرر حجم وطبيعة التجارة وفقا لاحتياجاتها. وعلى الرغم من أهمية التجارة للسلطات الإسلامية والصليبية فإن حالة

الحرب بين الطرفين كانت أحياناً تعوق حركة التجارة فتصبح الرحلات التجارية البرية محفوفة بالمخاطر. وقد تعطلت التجارة بالفعل خلال فترات متعددة .

وبالنسبة للأسواق الصليبية فقد تخصصت أسواق في بيع وشراء نوع معين من البضائع والمنتجات، أي أنها كانت أسواقا نوعية بالإضافة إلى أنها أقيمت وفقا للأصل العرقي أو الديني للتجار، وعلى ذلك فإن التركيب السياسي للمدينة كان مسئولاً عن تعدد المراكز التجارية بها ووجدت هذه المراكز التجارية وفقاً لتعدد القوى السياسية والاجتماعية، وهناك سجل تجاري موثق يرجع إلى الربع الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي يتضمن واردات تأتي إلى أوربا من بلاد الشام، وأصدرت البندقية قانونا بحريا يتعلق بتنظيم حجم ووزن البضائع والمتاجر وفقا لحمولة السفينة، وشملت السلع القطن وغزل القطن والصوف وقصب السكر والعرقسوس والفلفل والزنجبيل وجوزة الطيب والقرنفل والأرز والصمغ وحب الهان والمر والصبر والبخور والمواد العطرية والكافور وخشب الصندل والأهليلج والنشا والنيلة المستخدمة في الصباغة والشب والزجاج والزاج والحرير الخام والأقمشة الحريرية وقماش البقرم المستخدم في تجليد الكتب والكتان والخملة (نسج من وبر الجمل) والكمون واليانسون والقرفة، وفي قائمة ثانية شملت سلع التصدير لأوربا السمك المملح المجلوب من مصر ومن الإنتاج المحلى للمنطقة الصليبية الدواجن والديك الرومي والزيتون والهليون والتفاح والكمثرى والسفرجل بالإضافة إلى خيوط غزل من دمشق والعاج والأواني الخزفية المحلية وسروج الخيل والبصل والبلح والسمسم والمسك. والملاحظ أن الأنواع تلك تشمل منتجات وبضائع من الشام ومصر والعالم الإسلامي ومنتجات المحيط الهندي وشرق آسيا، بالإضافة إلى المصنوعات التي تنتجها الإمارات الصليبية، وفي المقابل نسمع عن واردات منسوجات فخمة غالية الثمن كأقمشة فيرونا وأقمشة أفنيون المطرزة بالإضافة إلى الغراء والقصدير والأخشاب والجلود التي تصدر من أوربا إلى موانئ الشرق العربي وإلى المناطق الصليبية في بلاد الشام والمناطق الإسلامية بها على السواء، كذلك صدرت السيوف الأوربية لبلاد الشام بالإضافة إلى اللؤلؤ والذهب من جنوب فرنسا. وتركز النشاط التجاري في الميناء والأسواق، وفي كلا الجانبين كان التجار يدفعون الرسوم الجمركية وتودع متاجرهم في مستودعات، وكان موظفو الجمارك في الموانئ الصليبية من المسلمين الوطنيين الذين يعرفون اللغة العربية، وكان رئيس الجمرك هو الذي يعين الموظفين في الأسواق. كانت هناك رسوم بوابات وضرائب للسوق، وكان المحتسب في الجانب الإسلامي يمارس سلطة الإشراف على الأسواق ومراقبة الموازين والمكاييل وهو نفس الأمر بالنسبة للسوق الصليبي. وكانت ضرائب السوق أولها على المتاجر والثاني نظير استخدام المقاييس، وفي الجانب الصليبي كان هناك موظف يدعى الفيكونت يساعده المحتسب يمارسان نفس الأعمال بخصوص مراقبة الأسواق، واحتاج الصليبيون لنوع من العملات يقبلها المسلمون فاستعملوا في البداية العملة البيزنطية وقلدوا الدينار الفاطمي. ويرى بعض المؤرخين أنه لم تكن هناك عملة صليبية إلى عهد بلدوين الثالث (538 - 559هـ / 1143 - 1163) فكان الدينار الصوري والبيزنت الصليبي عليه كلمات إسلامية شبيهة بالمسجلة على الدينار الإسلامي. ثم أضيفت عبارات مسيحية نتيجة لضغط البابوية آنذاك، واستعملوا الدراهم الأيوبية وتم تقليدها، واستعملت في التجارة

مع المسلمين. وضربوا دنانير فضية وأنصاف الدنانير وعرفت باسم أوبل. وكانت هناك منطقة مخصصة للصيارفة قرب الأسواق .

خاتمة :

كانت فترة المواجهة الصليبية مع الشرق الإسلامي في مصر والشام فترة حافلة بأحداثها السياسية والعسكرية التي تركت تأثيرها الواضح على مجتمعها واقتصادها، كانت ذات طبيعة خاصة ظهرت فيها قوى على الساحة السياسية المصرية والشامية واختفت قوى. كل هذا أثر في تركيبتها الاجتماعية ونشاط سكانها، بالإضافة إلى خصائص البيئة أو ديموغرافية المكان فقد اختلفت البيئة ونوعيات السكان والمكوّن الاجتماعي، ولكن كان هناك تواصل فيما يتعلق بالجانب الاقتصادي وخاصة في الفترة الأيوبية. ورغم الصراع بين الجانبين، الإسلامي والصليبي فإن التجارة أخذت مسارها بين الجانبين، فالمسلمون في الشام سيطروا على المناطق الداخلية والصليبيون على السواحل، وأخذت تجارة مصر والشام طريقها إلى الموانئ الصليبية، ولعب التجار الإيطاليون دوراً هاماً في عملية التبادل التجاري والوساطة التجارية، وخرجت القوافل من دمشق إلى عكا ولم يكن يوقف مسيرتها إلا اشتعال نار الصراع.

أ. د. زبيدة محمد عطا
جامعة القاهرة

المصادر والمراجع

أولاً - المصادر العربية :

- ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن على بن أبي الكرم ، ت 630هـ / 1233م : الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1979.
- ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني ، ت 614هـ / 1217م : رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، 1964.
- البغدادي، عبد اللطيف : رحلة عبد اللطيف البغدادي في مصر أو كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998.
- الأسدي ، محمد خير الدين : أحياء حلب وأسواقها؛ تحقيق عبد الفتاح رواسي قلعة جي ، دار قتيبة، دمشق، 1990.
- ابن الشحنة ، أبو الفضل محمد ، ت 890هـ / 1485م : الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تقديم عبد الله محمد الدرويش، دار الكتاب العربي، عالم التراث، دمشق، 1984.
- أبو شامة ، المقدسي الدمشقي شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن ، ت 665هـ / 1266م : تراجم رجال القرنين السادس والسابع، المعروف بالذيل على الروضتين، تحقيق محمد زاهد بن محسن الكوثري، مراجعة السيد عزت العطار الحسيني، دار الجيل، بيروت، 1974.
- الشهرستانى ، الإمام أبو الفتح عبد الكريم ، ت 548هـ / 1153م : كتاب الملل والنحل، دار الصاعد، بيروت (د.ت).
- القلقشندي ، أبو العباس أحمد ، ت 821هـ / 1418م : صبح الأعشى. الهيئة العامة لقصور الثقافة، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب الخديوية، القاهرة، 2004.
- المقريزي ، تقي الدين حمد بن علي ، ت845هـ / 1441م : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار صادر، بيروت، (د.ت).
- ناصر خسرو المروزي ، ت 481هـ / 1087م : سفرنامة، ترجمة يحي الخشاب، الألف كتاب، القاهرة، 1953.
- ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم ، ت 697هـ / 1297م : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، حسنين محمد ربيع، سعيد عبد الفتاح عاشور مركز تحقيق التراث، القاهرة، 1957 - 1975.

ثانياً - المراجع العربية و المعربة :

- إبراهيم ، شحاتة عيسى : القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة، 1999.
- أحمد ، رمضان أحمد : حضارة الدولة العباسية، الجهاز المركزي للكتب الجامعية، القاهرة، 1978.
- بريجز وآخرون : تراث الإسلام، ترجمة زكي محمد حسن، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1936.
- براور ، يوشع : الاستيطان الصليبي في فلسطين مملكة بيت المقدس اللاتينية؛ ترجمة عبد الحافظ عبد الخالق البنا، عين للدراسات

والبحوث، القاهرة، 2001.

- حسن ، حسني عبد الوهاب : مصر وأمن البحر الأحمر في عصر الحروب الصليبية، اللجنة المصرية لتضامن الشعوب الإفريقية الآسيوية، القاهرة (بحث ضمن ندوة العلاقات المصرية اليمنية بالقاهرة)، 1990.
- خليل ، عماد الدين : عماد الدين زنكي، الزهراء، الحديثة، بغداد، 1985.
- دفتري ، فرهاد : خرافات الحشاشين وأساطير الإسماعيلية، ترجمة سيف الدين الفقير، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، 1996.
- ريمون ، أندريه : تاريخ حاضرة؛ ترجمة لطيف فرج، دار الفكر للدراسات، القاهرة، 1994.
- سبانو ، أحمد غسان : مملكة حماة الأيوبية، دار قتيبة، دمشق، 1984.
- سيمينوفا ، ل. أ. : تاريخ مصر الفاطمية؛ أبحاث ودراسات، ترجمة وتحقيق حسن بيومي، المجلس الأعلى للثقافة،القاهرة، 2001.
- الطحاوي ، حاتم عبد الرحمن : الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، 1999.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح : الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، 1993.
- عامر ، فاطمة مصطفى : تاريخ أهل الذمة في مصر الإسلامية؛ من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000.
- عطا ، زبيدة محمد : اليهود في العالم العربي، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، 2003-2004.
- عطية ، حسين محمد : طبائع الفرنج في الحملات الصليبية في ضوء المصادر اللاتينية، القاهرة، 1992.
- على ، السيد علي : المرأة المصرية والشامية في عصر الحروب الصليبية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002.
- مؤنس ، محمد أحمد عوض : في الصراع الإسلامي الصليبي، السياسة الخارجية للدولة النورية (541 - 569هـ / 1146 - 1174م)، دار عين للدراسات والبحوث، القاهرة، 1998.
- مؤنس ، محمد أحمد عوض : الرحالة الأوربيون في مملكة بيت المقدس الصليبية (1099 - 1187م) مكتبة مدبولي، القاهرة، 1992.

ثالثاً - المراجع الأجنبية :

- ADLER E.N. : Jewish travellers, George Rowtledge Broodway House, London, 1930.
- RABIE Hassanein : The financial system of Egypt, Oxford, Univ. Press, London, 1972.
- LANE-POOLE S. : History of Egypt in the Middle Ages. Methuen. Co. LTd. London, 1936.
- STILLMAN Norman : The Eleventh century Merchant house of Ibn Awakle, *"Journal of the Economic and social History of Orient" vol. XVI,* 1973.

الفصل الرابع - الجزيرة العربية

أولاً : الحياة السياسية - الكيانات المستقلة في الجزيرة العربية .

ثانيًا : الحياة الاقتصادية والاجتماعية .

أولاً : الحياة السياسية
(الكيانات المستقلة في الجزيرة العربية)

1 - الحالة السياسية :

(التجزّؤ) ، هذه الكلمة الخطيرة التي أوجدت الكيانات المختلفة والمتخالفة صارت ظاهرة في وسط المجتمع الإسلامي من مطلع القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي. وتتمثل هذه الظاهرة في بروز كيانات سياسية منفصلة عن الدولة (الأم) تحت أيّ مسمّى، وأيّ مسوغ، مما أدى مع مرور الزمان إلى إضفاء الشرعية على هذه المِزَق السياسية (الكثير لحقوا بهم واتخذوا السبيل نفسه).

ورغم أن كلاً من الخلافة الأموية والخلافة العباسية في مطلع عهدها لم تكن تسمح بوجود هذه الظاهرة، مدعومتيْن بالسند الشرعي المتمثل بالأحاديث النبوية التي تنص على عدم مشروعية قيام تجمعات وكيانات سياسية منفصلة عن الدولة، فإن ظروفاً جديدة أحاطت بالأمة والدولة فبدأت تتداعى هذه السياجات التي كانت تحميهما من التمزيق والتجزيئ.

إن هذه الظاهرة أدت إلى ظهور دراسات وأبحاث في العصر الحديث تقوم - قاصدة أو غافلة - على اعتماد التجزيئ السياسي للأمة الإسلامية واستتبعه التجزيئ الحضاري، مما أدى إلى إعطاء صورة مشوهة عن تاريخ الأمة الإسلامية وحضارتها.

وظاهرة التجزيئ هذه، حينما بدأت بالتسلل، لم تأت فجأة وإنما ساعدتها عوامل دفعت بها إلى الانتشار والاتساع. ولن نحصي هذه العوامل ولكننا نشير إلى أبرزها:

العامل الأول : سياسة الخلافة (العباسية) حيث فرطت في الحق الواجب عليها في المحافظة على وحدة الأمة وسمحت بتمزيق أوصال جسم الأمة السياسي. وتبدأ هذه السياسة من يوم أن سمحت الخلافة العباسية للكيان الأموي في الأندلس بالبقاء بل والتعايش معه، فكانت هذه بادرة خطيرة صار لها ما بعدها، حيث بدأت هذه الإمارة أول ما قامت مرتبطة بالعباسيين، ولم تفلح الدولة في إقامة جسور الربط بين الإمارة الأندلسية ودولتهم الأم، مما دفع بالزعامة الجديدة في هذه الأطراف أن تعلن تمردها على الدولة. ورغم محاولات العباسيين المتقطعة إلاّ أنها لم تكن محاولة جادة - كما نحسب - لأنها لم تقم على توجّه (استراتيجي) وفكري، وإنما هي محاولات متراخية خاصة عندما وجدوا عزم قادة هذه الإمارة على المضي في خطتهم لفصل بلاد الأندلس عن جسم الدولة، ولم يكن أمام الخلافة العباسية إلاّ أن تهادنهم وتسكت عنهم. وقد تفاقم الوضع شيئاً فشيئاً حتى تجرأت إمارة الأندلس على إعلان خلافة أموية منافسة للخلافة العباسية في الوقت الذي كانت قد ظهرت خلافة ثالثة في المغرب باسم العلويين (العبيديين - الفاطميين).

ثم خطت الخلافة العباسية خطوة ثانية لا تقل

خطورة عن سابقتها حيث أعطت، عن رضاً وطواعية، لبعض الزعامات الحق في أن تقيم كيانات سياسية مرتبطة اسمياً بالدولة الأم، بحجة تولي الدفاع أو الاحتفاظ بالمناطق التي تحت أيديهم، رافعة راية التبعية للخلافة العباسية رغم أنها تبعية اسمية فقط. وقد بدأ هذا من عهد هارون الرشيد (170-193هـ / 786-809م) الذي أعطى التوجيهات للأغالبة عام 183هـ / 799م أن يقيموا كياناً سياسياً في إفريقية للمحافظة على غرب الدولة الإسلامية، سواء من الأمويين في الأندلس أو من الأدارسة الذين قاموا في المغرب الأقصى سنة 172هـ / 788م.

وهذا التصرف فتح الباب أمام الخلفاء بعد ذلك للسماح لكيانات أخرى بالظهور تحت هذه الحجة مثل اليعفريين وبني نجاح في اليمن، وطاهر بن الحسين بخراسان في سنة207هـ / 822م، وأحمد بن طولون في مصر عام 254هـ / 868م، والسامانيين على أنقاض الصفارية ... إلخ .

العامل الثاني : التوجهات المذهبية.. قامت تحركات مذهبية في وسط المجتمع الإسلامي كانت منطلقاتها أول ما بدأت ترمي - من وجهة نظرها - إلى تغيير الحكام بحكام يتمتعون بصفات أحسن وأتقى - بحسب رؤيتهم - وقد تمثلت هذه التحركات بمصادمات عنيفة، ومثّل هذا التوجه الخوارج والعلويّون الأوائل .. ولم تكن قد برزت بعد النزعة إلى قيام كيانات سياسية مذهبية منفصلة.

وفي مطلع الخلافة العباسية، وفي الوقت الذي قام فيه كيان منفصل عنها في الأندلس مستسلمة لمبدأ قيامه، نجدها تغض الطرف عن أقصى المغرب الأقصى وتدعه ينفصل عنها بروح مذهبية مناوئة للخلافة العباسية، حيث قامت دولة الأدارسة في البداية على استحياء، ومع هذا لم تبذل الجهود الكافية لإزالة هذا التجزيئ المبكر، بل كما لاحظنا زادت الدولة الطين بلة بالسماح للأغالبة أن يكون لهم كيان خاص بهم ضمن خطتهم السياسية غير الموفقة .

ورغم أن التوجهات المذهبية الأولى كانت تتحرك بحذر لإقامة كيانات منفصلة عن الدولة (الأم) فإن عوامل عدة دفعتها في القرن الثالث الهجري وما بعده إلى أن تقيم كيانات منافسة للخلافة العباسية وتظهر نفسها على أنها (الند) أو (البديل) لها. وكانت الشارة المرفوعة على هذه التوجهات المذهبية إما (إسماعيلية) (باطنية) (قرمطية) وإما (زيدية) (علوية).

وقد ماج المجتمع الإسلامي في القرنين الثالث والرابع الهجريين بالعديد من الصراعات المذهبية في مناطق عدة من دار الإسلام في المشرق الإسلامي، وجزيرة العرب، وبلاد الشام، والمغرب بأبعاده الجغرافية كلها.

ولم تكن الخلافة العباسية قادرة على سد هذه الشقوق في جسم الدولة لعدة عوامل ليس هذا هو مجال الحديث عنها.

ولم يأت القرن الخامس الهجري إلاّ والكيانات المنفصلة عن الخلافة العباسية (الأم) أصبحت تعدّ كيانات لها شرعية البقاء، وكأن وجودها أمر طبيعي لا مجال للشك في شرعيته .

العامل الثالث : السياسة الإدارية للخلافة العباسية. لم تكن الخلافة العباسية في أول نشأتها تسمح لأي شخصية أو أي قوة أن تهز كيان الدولة، وكانت تبطش بقوة لإزالة ما يعكر سيادة الدولة ومركزيتها، ولا تتوانى عن أن تبدأ بالأقربين المناوئين قبل الأباعد ، وبهذه السياسة ظلت الدولة قوية، ولكنها - رغم قوتها - بدأت تتخذ سياسة إدارية توفيقية ولم توفق فيها، منها ما فعله هارون الرشيد من تقسيم الأجزاء الإدارية للدولة على

أولاده بغض النظر عن خلفية هذه السياسة. والمهم أن هذه السياسة الإدارية جرّت على الدولة آثاراً سيئة.

ومما زاد من توسيع الفتق على الراتق أن الدولة صارت مهملة لأطرافها الإدارية ولم تولها اهتماماً موازياً لاهتمامها بمركز الخلافة، فتفلتت الأطراف واحدة تلو الأخرى.

ثم جاءت ثالثة الأثافي وهي السماح بوجود (ازدواجية السلطة)، حيث صارت سلطة الخليفة في المرتبة الثانية بعد سلطة الأمراء والقادة المتغلبين على دار الخلافة، فقد بدأت سلسلة من (الحِزَم) القيادية المتغلبة التي ترعى مصالحها قبل مصلحة الخلافة بدءاً بالعنصر العسكري التركي، ثم العنصر البويهي الفارسي، ثم السلجوقي ... إلخ. ولم تكن هذه العناصر تفكر كثيراً في الإبقاء على هيبة الخلافة، ومن ثم لم تعطها من الصلاحيات ما يعيد إليها سلطانها.

العامل الرابع : غياب الوعي الداعي إلى توحيد الأمة وتجميع شتاتها.. وكان هذا الغياب نابعاً :

إما من تواري رجال العلم والفكر وراء مكتباتهم قراءة وكتابة وتعليماً، وربما اكتفوا بالعلوم والمعارف غير المصادمة ولم يتعرضوا لمثل هذه القضايا الكبيرة في الأمة.

وإما توارياً وراء التبعية المذهبية الضيقة.

وإما إيثاراً للبقاء في الصفوف الخلفية لهذه الأوضاع دعماً لها سواء لكسب خاص أو للرضا بالشعار القائل (ما لا يدرك كله لا يترك جله).

وإما إيثاراً للسلامة خوفاً من الاتصال بالحكام وزهداً بالسلطة. ومن ثم انفردت القيادات العسكرية أو ذات المصالح (الفئوية) - إن صح هذا التعبير - بالتصرف بطلاقة كافية وهي تعلم أو تجهل خطورة ما تصنع، ولم تجد من يقف أمامها ليصدها عما تفعله في جسم الأمة من آثار سيئة.

وليس من الإنصاف أن ننكر بعض الأصوات التي كانت ترتفع هنا وهناك لإيقاف هذا الحاكم أو ذاك على أخطائه، ولكنها أصوات ضعيفة أو محدودة بأخطاء جزئية ، ولم تكن تنظر إلى هذا التجزيئ والتقطيع الرهيب لجسم الدولة.

ولهذا يشاهد الدارس للمجتمع الإسلامي تيارين: تيار رجال العلم وهم يصولون ويجولون في أروقة علومهم وقد أقاموا عوازل بينهم وبين الحكام، وتيار رجال الحكم. ورغم محاولات بعضهم القرب من سياج أروقة العلوم فإنّ محاولاتهم تلك كانت بمثابة اقتطاف بعض الثمار من هذه العلوم دون أن تكون هذه العلوم عاملاً مؤثراً في صيانة سياسة الحكم.

ورغم أننا عرضنا بعض العوامل المؤثرة في تجذّر ظاهرة التجزيئ، فإن الروح الإسلامية الداعية إلى التوحد والتجمع في إطار واحد كانت تظهر بين وقت وآخر، وتحرك بعض القادة مستعينين ببعض علماء الأمة، وقد تنجح المحاولة - ولو بصورة جزئية - هنا أو هناك، وقد تفشل لعدم الأخذ بالأدوات والوسائل الصحيحة لتحقيق هذا الهدف الكبير .

ومن خلال الرصد المتتابع لما تمّ من التحركات التمزيقية طوال القرنين الثالث والرابع لجسم الأمة الإسلامية وتقطيعه إلى أوصال متلونة، نستطيع أن نميز بوضوح ما استقر عليه الوضع في القرن الخامس الهجري وما بعده، حيث تكرست التجزئة ودبّ الضعف في جسم الأمة، وتداعت القوى المعادية للأمة الإسلامية للانقضاض على مقدراتها، وصار الصليبيون (الفرنجة) يزحفون من المغرب، والمغول الوثنيون من الشرق، حتى صارت الأمة لقمة سائغة لأعدائها، ولكن الفكر الإسلامي

كان - وما يزال - يشكل العروة الوثقى التي يتشبث بها أبناء الأمة فيخرجون من مآزق الهوى والتجزيئ إلى رحابة التوحيد والتوحد. ولهذا لاحظنا - رغم الضعف الكبير الذي لحق بالأمة - وثبات موفقة كانت مشدودة إلى عروة فكر الأمة وتصورها. فكانت هناك وثبة موفقة أفرزت معركة (ملاذكرد) ضد بيزنطة سنة 455هـ / 1063م. ورغم نشوب الحروب الصليبية بعدها فإنها انتهت بوثبة أدت إلى طرد الصليبيين من أرض الإسلام في المشرق الإسلامي، وحقق المسلمون نصراً آخر في المغرب الإسلامي في الأندلس في معركة (الأرك) عام 592هـ / 1195م.

لقد سعى بعض قادة الأمة إلى التوحد ونبذ التجزيئ، إلاَّ أنَّ محاولاتهم ظلت غير مكتملة، ويكفي هنا أن نذكّر بأنّ حقيقة التوحد هي المطلب الملح في الفكر الإسلامي كما أن التوحيد هو أصل الإسلام. ورغم العتمة والتعتيم واسوداد الأفق فإنّ هذين المعلمين ظلا بارزين في كيان الأمة: التوحيد في العقيدة، والتوحد في النظام.

وبما أن موضوعنا يتعلق بالجزيرة العربية لرصد مجموعة من الكيانات التي قامت فيها من منتصف القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) إلى منتصف القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) فإننا نقسمها إلى أربعة أقسام بحسب هويتها :

(أ) قسم ظل مرتبطاً بالخلافة العباسية .

(ب) وقسم مذهبي منفصل عن الخلافة العباسية .

(جـ) وقسم قبلي خلا له الجو فأعطى لنفسه الحق في الانفصال عن الدولة الأم .

(د) وقسم متذبذب بين ولاءات عدة.

أولاً - الكيانات التي ظلت مرتبطة بالخلافة العباسية :

لا يُعدّ هذا الارتباط وثيقاً وإنما هو ارتباط اسمي قد لا يوجد له أثر. ويتمثل هذا القسم بكيان بني نجاح في تهامة اليمن .

بنو نجاح (ملوك الحبشة باليمن) [444هـ / 1052م - 554هـ / 1159م] :

تنسب دولة بني نجاح إلى نجاح المتوفى سنة 452هـ / 1060م والذي كان عبداً للعبد مرجان الذي كان هو الآخر عبداً للحسين بن سلامة المتوفى سنة 426هـ / 1034م، وكان هذا الأخير من موالي بني زياد الذي كانت شهرته تفوق شهرة أمراء بني زياد أنفسهم. ونجاح هذا كان نوبي الأصل أو حبشياً من قوم يقال لهم (الجزل)، ولكنه تربى في وسط دولة آل زياد وصار قائداً يشار إليه بالبنان دهاءً وشجاعة. وقد تولى إمارة بلاد المهجم (أعمال شمال زبيد) وكان يرعى حقوق آل زياد وإن كانوا صغاراً، ولهذا ورثهم في دولتهم وورثها أبناؤه وأحفاده من بعده ، فقد قضى على العبيد الذين خلفهم الحسين بن سلامة ليقوموا بالوفاء لمواليهم من بني زياد ولكنهم خانوهم وغدروا بهم، وتمكن نجاح - بعد التخلص من أولئك العبيد - من الاستيلاء على زبيد سنة 432هـ / 1040م لتبدأ مرحلة مهمة من مراحل حياة نجاح من ناحية والدولة الزيادية من ناحية أخرى.

ومن غرائب الموافقات أن دولة بني نجاح بدأت بالوزارة وانتهت بالوزارة، وأن نهاية دولة بني زياد كانت على يد عبيدهم الوزراء، ونهاية دولة بني نجاح انتهت أيضاً على يد عبيدهم الوزراء.

فقد ظل نجاح حوالي اثني عشر عاماً وزيراً

للأمير الزيادي علي بن المظفر متنفذاً بالأمر كله، ماداً نفوذه إلى مناطق الجبال حتى توفي مولاه عام 444هـ / 1052م دون أن يخلف وريثاً له، وحينذاك بدأت دولة بني نجاح بصفتها الرسمية.

ولكن تمكّن نجاح - بعد أن توفي علي بن المظفر الأمير الزيادي دون أن يترك من يرثه - من أن يكون الأمير دون منافس لتنسب إليه الدولة النجاحية، أو (دولة ملوك الحبشة باليمن) .

اتخذ نجاح من مدينة المهجم عاصمة له، واستصدر مرسوماً عباسياً بأن يكون متقلداً لإمارة اليمن، أو بحسب تعبير الخزرجي "أن يكون له النظر العام في الجزيرة اليمنية"، وإن كان هذا التعبير (الجزيرة اليمنية) لا يتداول إلاّ في أوساط الإسماعيلية، ولعله أخذه من كتاب عمارة اليمني.

وترجع أسباب قيام هذه الدولة واستمرارها أكثر من قرن إلى عدة عوامل منها:

- الصراع العباسي الفاطمي (العبيدي) حيث كانت الدولة الفاطمية (العبيدية) قد مدت نفوذها على اليمن، وتمكنت من غرس دولة إسماعيلية في وسط اليمن، ودعمتها معنوياً أكثر من دعمها المادي. وكان لا بدّ من وجود عباسي أو استمرار له في اليمن بعد تضعضع دولة بني زياد المرتبطة اسمياً بالخلافة العباسية حتى لا تخلو المنطقة من النفوذ العباسي. ولهذا حرصت قيادة هذه الدولة أن تستصدر المراسيم العباسية لنجاح ومن بعده بتقليده إمارة اليمن وتفويضه إدارياً بما فيه القضاء الذي كان الخليفة العباسي نفسه هو الذي يتولى تعيينه .

- وجود الدولة الزيادية، لأن نجاحاً لم تكن بدايته إلاّ امتداداً لدولة بني زياد، فهو بهذا الاسم اعتلى، وبالتبعية لها امتد سلطانه، وبوفائه لها وثق به الناس.

- وجود شخصيات فذة في قيادة دولة بني نجاح تميزت بالشجاعة والحنكة والدهاء والمثابرة والجلد والمرونة على تغيير الخطط وعدم اليأس، والقدرة على الانتقال من حالة إلى حالة رغم خطورة وصعوبة ما يحيط بهم. ويظهر هذا الوصف-غير المبالغ فيه-عند نجاح، وسعيد الأحول، وجياش.

- وقوف أهل تهامة وكثير من الزعامات الجبلية في صف نجاح وأبنائه للتوافق المذهبي معهم؛ لأن القوة المناوئة لهم والتي تتحكم بالشق الآخر من اليمن هي قوة مذهبية (باطنية) (إسماعيلية) في معظم المناطق الجبلية، أو قوة مذهبية (شيعية زيدية) وكلاً منهما لا تدين بالولاء للخلافة العباسية، ولا تتفق معها ولا مع عموم أهل اليمن مذهبياً، وأقصد به المذهب السني.

لهذه الأسباب وغيرها تمكن نجاح من الهيمنة على الأمور، وصار وزيراً لآخر أمراء آل زياد، ولعله استصدر مرسوماً عباسياً بذلك لأنه كما يقول الخزرجي: "ركب بالمظلة، وضربت الدراهم باسمه، وكاتب أهل العراق، وبذل الطاعة لهم، ونعت بالمؤيد نصير الدين، وفوض إليه النظر العام في الجزيرة اليمنية". ويلاحظ أن (السكة) التي كانت تضرب قبل وفاة مظفر الزيادي كانت تحمل اسم الأمير الزيادي والخليفة القائم بأمر الله العباسي، والمؤيد نجاح نصير الدين.

وكانت المرحلة الأولى من مراحل تولّي نجاح تتميز بصراعه مع عبيد آل زياد. أما بعد قيام الدولة الصليحية فقد صار النزاع مريراً بين هاتين القوتين المتصارعتين على ساحة اليمن: قوة نجاح وآل نجاح، وقوة علي الصليحي وآل الصليحي. أولاهما موالية للخلافة العباسية بمذهبها السني، وثانيتهما موالية للدولة الفاطمية بمذهبها الشيعي الباطني الإسماعيلي.

فقد امتد نفوذ علي الصليحي إلى المناطق اليمنية، وتمكن من السيطرة على مدينة زبيد عام 447هـ / 1055م، ولكنه لم يستطع القضاء على نجاح الذي اتخذ من المهجم (شمال تهامة) عاصمة ومقراً له، ولهذا هابه وهادنه ووادعه وتبادلا الهدايا. ثم لجأ إلى الحيلة وتمكن من دس السم له، فتوفي عام 452هـ / 1060م.

وبما أن أولاد نجاح كانوا صغاراً فقد أوصى إلى أحد مواليه- ويسمى كهلان - أن يقوم مقامه ما أمكنه البقاء حاكماً لتهامة نيابة عن أولاده. إلا أن علي الصليحي داهمهم عام 454هـ / 1062م واستولى على تهامة كلها. وكان من المتوقع أن تنتهي دولة نجاح إلاّ أن أبناءه، رغم صغر سنهم، لم ينسوا دولة أبيهم وما فعله فيهم علي الصليحي، فهربوا إلى جزيرة (دهلك) ومن هناك بدؤوا التفكير والتدبير للعودة إلى ملك أبيهم. وكان سعيد الأحول الابن الأكبر لنجاح يخطط- كما يبدو- أن تكون له دولة في جزيرة (دهلك) ثم يتحرك منها إلى تهامة اليمن، ولكن أخاه جياشاً لم ترق له هذه الخطة فاضطر سعيد الأحول إلى العودة سراً إلى تهامة ثم تبعه جياش بعد خمس سنوات قضاها هناك يطلب العلم حتى برع في العديد منها ، بينما كان سعيد الأحول يجمع الأنصار في زبيد والمهجم. وفي حركة مفاجئة استطاع سعيد الأحول السيطرة على دار الإمارة في زبيد ويخطط كميناً لعلي الصليحي الذي كان متوجهاً إلى مكة مطمئناً إلى أن نجاحاً قد انتهى، وأن منطقة تهامة آمنة حيث انقض عليه سعيد الأحول مع العبيد الذين معه وقتله وأسر من معه وغنم مالاً جزيلاً كان يحمله الصليحي ليرسله إلى الخليفة الفاطمي في مصر، وأسر ضمن من أسر زوجة الصليحي أسماء بنت شهاب أم المكرم بن علي الصليحي التي ستكون سبباً مثيراً للمكرم ليثأر لأبيه ويخلص أمه من الأسر.

لقد ظل الصراع بعد ذلك بين كل من المكرم وسعيد الأحول بدءاً من 459هـ / 1067م العام الذي قتل فيه علي الصليحي وسيطر الأحول على زبيد. وكان صراعاً مريراً يتميز بغلبة سعيد الأحول في أغلب الأحيان، لكن في نهاية المطاف تمكن المكرم من سعيد الأحول حيث قتل في الشعر (إحدى مناطق محافظة إب جنوب صنعاء) عام 461هـ / 1069م، فسيطر المكرم على تهامة وتلاشت دولة بني نجاح مرة أخرى .

ورغم أن جياشاً وجد أن دولتهم قد انتهت فإنه لم يسلم بسهولة، فقد ظل يقاوم في أكثر من جبهة، وخاض حروباً ومغامرات من عام 461هـ / 1069م إلى أن مات سنة 498هـ / 1104م على مدى ثلاث وأربعين سنة تقريباً. فقد بدأ مختفياً مخططاً مجهزاً نفسه حوالي سبع عشرة سنة، وذلك من (461هـ / 1069م) إلى (476هـ / 1083م)، وتنقل في هذه السنوات بين تهامة وعدن والهند وذي جبلة عاصمة المكرم الصليحي إلى أن أبرم أمره وانقض على تهامة وأعلن دولة بني نجاح للمرة الثالثة في عام 477هـ / 1084م.

وقد تهيأت ظروف مناسبة لجياش ساعدته على تحقيق هذا النصر الواسع. من هذه الظروف ضعف المكرم في آخر عهده، ثم وفاته واختلاف الصليحيين من بعده، وقدرة جياش على التحرك السريع، ودهاؤه الذي جاء مفصلاً في المصادر ويكاد أن يدرج ضمن الأسطورة أكثر ممّا هو حقيقة.

وما بقي من عمر جياش قضاه في بسط نفوذه على تهامة وبعض مناطق الجبال، وتثبيت حكمه واستقراره مستعيناً بعناصر الترك الذين أدخلهم إلى دولته إلى جانب الحبشة والعرب إلى أن وافته المنية في ذي القعدة سنة 498هـ / 1104م.

لقد ظلت دولة بني نجاح بعد مؤسسها الحقيقي - جياش - الذي أرسى دعائمها وأوجد أعمالاً ومآثر عدة- لا مجال للحديث عنها هنا-كانت سبباً لبقاء واستمرار من جاء بعده من أبنائه وأحفاده. فقد ظلت الدولة قائمة حوالي ستة وخمسين عاماً، إلاّ أن الغالب عليها هو سيطرة وزراء عبيدهم على ملكهم. ولم تظهر شخصية قوية من ذرية نجاح أو جياش، فقد تناوب على الحكم من ذرية جياش ونجاح أربعة أمراء وستة وزراء من العبيد وأكبر الأمراء فاتك بن جياش (ابن الهندية)، واستمر حتى عام 503هـ / 1109م بعد نزاع بينه وبين أخويه عبد الواحد وإبراهيم، ثم منصور بن فاتك الذي قتل بالسم على يد أحد وزرائه المسمى مَنّ الله (503هـ / 1109م - 519هـ / 1125م). وقد عمل في ولايته الوزير أنيس الفاتكي من سنة 504هـ / 1110م إلى517هـ / 1123م حيث قتله منصور بخدعة، ثم الوزير مَنّ الله الفاتكي الذي استمر بقية عهد منصور بن فاتك، ثم عهد ابنه فاتك ابن منصور (من عام 517هـ / 1123م إلى عام 524هـ / 1130م) حيث قتل منّ الله الفاتكي مسموماً . ثم جاء الوزير رزيق الفاتكي في عهد فاتك بن منصور الذي لم يتمكن من إدارة شئون الدولة فاستقال وتنازل بالوزارة لمفلح الفاتكي في العام نفسه 524هـ / 1130م واستمر وزيراً حتى عام 527هـ / 1133م، وبرز في عهد مفلح صراع العبيد مع الوزير مفلح بدفع من الأمير فاتك بن منصور وأمه (الحرة عَلَم). ورغم تحركات مفلح وتحالفاته مع بعض الأمراء في المخلاف السليماني وبعض زعماء العرب فإنّه لم يوفق حيث مات في سنة 529هـ / 1135م، فتولى الوزارة إقبال الفاتكي عام 527هـ / 1133م ليقاتل مفلح الفاتكي الوزير السابق. وقد تمكن إقبال الفاتكي من السيطرة على الحكم، ورغم أنه كان تابعاً لأميره فاتك بن منصور فإنه عمل على التخلص من أميره بالسم عام 531هـ / 1137م. وبما أن فاتك لم يكن له أحد يرثه في الحكم فقد اختار أعيان الدولة ابن عم فاتك واسمه أيضاً فاتك بن محمد بن فاتك بن جياش، ولم يدم ملك الوزير إقبال حيث عزل ثم قتل سنة 531هـ / 1137م، وجاء بعده سرور الفاتكي الذي شيع الدولة النجاحية عام 554هـ / 1159م رغم أنه ظل في الوزارة أكثر من عشرين سنة وقام بأعمال عدة إلاّ أنه كالوزراء السابقين ظل في صراع مع من حوله من العبيد القادة والوزراء حتى قتل عام 551هـ / 1156م على يد دولة جديدة حلت في تهامة هي دولة بني مهدي، حيث استطاع علي مهدي في غضون أربع سنوات تقريباً أن يستولي على زبيد عام 554هـ / 1159م بعد تنازع من تبقى من قادة الدولة النجاحية.

وهكذا نصل إلى أن نسأل عن الأسباب التي أدت إلى اندثار الدولة النجاحية رغم مدتها الطويلة (حوالي 110 سنوات) والجهد المبذول من قادتها. ومهما تحرينا البحث فلن نخرج عن مجموعة من الأسباب منها ما يرجع إلى هذه الدولة نفسها، ومنها ما يرجع إلى مؤثرات حولها. فأما عواملها الداخلية فمنها:

- <u>غياب البناء المؤسسي</u> - إن صح التعبير - للدولة فكرياً وسياسياً، حيث ارتبط قيام الدولة وسقوطها بالزعامات دون وجود مؤسسة أو قوة من الأتباع المؤمنين بالفكرة التي يحملونها، ومن ثَمَ فإن الأتباع لا يتجمعون إلاّ بفعل ما يدفع لهم أو بفعل قوة الزعيم أو القائد دون وجود ولاء حقيقي يقوم على فكر معين. وبغياب جياش بدأ العقد ينفرط .

- فقدان الثقة بين القيادات والزعامات المتعاقبة أو المتعاصرة، ويظهر هذا بوضوح من خلال تتبع ما دار في عصر وزراء بني نجاح من مؤامرات وقتل بشتى صنوف الوسائل، فنصف عمر الدولة تقريباً كان عصر القوة والصراع مع القوى الخارجية، والنصف الآخر انقضى في المؤامرات والاغتيالات .

- توارى الدعم العباسي كون دولة بني نجاح يمثلون الخلافة العباسية أو هم من حيث الجانب الرسمي يتبعون الخلافة العباسية. ولعل هذه التبعية -رغم حاجة زعماء بني نجاح إليها - لم يستغلوها الاستغلال الفعال كما فعل نجاح في بداية تكوين دولته، وإنما صارت منافعهم ومصالحهم تطغى على مصلحة من يمثلونه.

وأما عوامل سقوطها الخارجية فمنها :

- وجود منافس قوي - الدولة الصليحية - قوي في الأتباع الذين يؤمنون بالمذهب الإسماعيلي، المتحمسين له، وقوي بقواعده التنظيمية التي تمده بالرجال والحماس والتضحية، وقوي في الاستناد إلى الدولة المذهبية وهي الدولة الفاطمية (العبيدية) الإسماعيلية، فهو يمثلها في اليمن ويحارب من يناوئها حيث صاحبت هذه الدولة قيام دولة بني نجاح وسقوطها .

- قيام دولة مذهبية أخرى تولت الإجهاز على الدولة النجاحية وهي دولة بني مهدي في زبيد وتهامة.

- وجود جيوب لدولة مذهبية ثالثة وهي الدولة الزيدية في جبال شمال اليمن .

- اعتماد بني نجاح على جيش مرتزق غير متجانس مع القوى الموجودة في المنطقة لا التهامية ولا الجبلية.

- رغم ارتباط بني نجاح بإمارة مكة الموالية للخلافة العباسية فإنّ هذه الأخيرة لم تقم بأي دعم لآل نجاح ليبقى لهم وجود في اليمن.

ثانياً - الكيانات المنفصلة عن الدولة العباسية بخلفية مذهبية :

وهذا القسم له أسسه المذهبية التي تجعله يتحرك من خلالها دون اضطراب، إما مدعوماً - إلى جانب الفكر السياسي والعقدي - بقوى مذهبية تسانده وتؤيده وتعينه كالدولة العبيدية (الفاطمية) التي تسعى إلى إلغاء الخلافة العباسية والتي آزرت الاتجاه الإسماعيلي - الصليحي - في اليمن.

وإما يعتمد على الجهد الذاتي - بعد الفكر العقدي والسياسي - فوجدت تحالفات وقوى تدعم موقفه كالزيدية الذين كان لهم وجود مضطرب في اليمن في مدة الدراسة.

1 - الصليحيون :

تنسب الدولة الصليحية التي دامت من سنة 439هـ / 1047م إلى سنة 532هـ / 1137م إلى علي بن محمد بن علي الصليحي المنسوب إلى قبيلة الأصلوح من بلاد حراز، ويرجع أصلهم إلى قبيلة همدان. وقد نسبت الدولة إلى علي الصليحي لأنه هو الذي أقامها عام 439هـ / 1047م على أساس الفكر المذهبي الشيعي الإسماعيلي - الباطني - بعد أن تشبع بالفكر الإسماعيلي عن طريق الدعاة الإسماعيليين في دور الستر الذي كانوا يعيشونه بعد انقضاء الدولة الإسماعيلية القرمطية في مطلع القرن الرابع الهجري بموت كل من علي بن الفضل ومنصور اليمن.

وتمكن علي الصليحي من الاتفاق مع القيادة الإسماعيلية داخل اليمن وخارجه بالتخطيط الدقيق للتغلب على الأوضاع في اليمن، مستغلاً تنقلاته بين اليمن ومكة المستمرة بصفته دليلاً للحجاج، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى استغل الاضطراب الذي

كان يعصف باليمن نتيجة لعدم وجود دولة قوية تحفظ النظام في البلاد.

وبدأت شرارة الحركة الفعلية للصليحي في يوم الأربعاء 14جمادى الأولى سنة 439هـ / 5 نوفمبر 1047م. وواضح من التصريحات التي ظهرت منه أنه كان يتحرك بناءً على توجيهات من الفاطميين (العبيديين) ممثلاً لهم المستنصر بالله المتولي للخلافة في مصر في الوقت الذي كان الصليحي يتلقى الدعم القوي من الحركة الإسماعيلية السرية داخل اليمن.

وعلى طريقة الإسماعيلية في اتخاذ الخطوات المرحلية في تحركاتهم فقد رسم علي الصليحي خطته للتمكن بإحكام حيث استولى على الجبال للتحصين، ثم قاتل من ناوأه مبتدئاً بالذي يليه والأضعف قوة. ومدّ يد المصالحة والمهادنة إلى نجاح مؤسس الدولة النجاحية في تهامة، بل قام بمراسلة الزعامات اليمنية في صنعاء وهمدان وصعدة، وقد نجحت خطته حيث استولى على صنعاء .

وبذلك بدأت تتساقط المناطق تحت سلطانه بوقائع حربية تارة، وبالاغتيال بالسم تارة أخرى كما فعل مع نجاح، فقد استولى على مناطق ما عرف باليمن الأسفل، وأزال زعاماتها التي كانت تمثل كيانات متمحورة حول ذاتها فضمها علي الصليحي إلى ملكه الواحدة تلو الأخرى.

وتمكن من التخلص من الأئمة الزيدية إما بالقتل كأبي الفتوح الديلمي، أو بالقبض عليه كالقاسم بن جعفر بن القاسم العياني، أو إلجائه للهروب من بين يديه مثل الأمير ذي الشرفين الذي تحصن في حصن شهارة.

وقد اتخذ من صنعاء عاصمة لدولته وظل يتواصل مع الخليفة الفاطمي (العبيدي) في مصر يعلمه بما تم باسمه وهو يباركه ويؤيد موقفه.

وقد دفعه نجاحه الساحق هذا إلى أن ينظر إلى خارج اليمن، حيث كانت مكة بيد السليمانيين الذين قطعوا ولاءهم عن الدولة الفاطمية سنة 453هـ / 1061م، وبعد عام تمكن - بعد الإذن من القيادة الفاطمية - من القضاء على السليمانيين في مكة وأقام الخطبة للخليفة المستنصر الفاطمي.

ولم يتول ملك اليمن من أبناء علي الصليحي إلاّ أحمد المكرم فقط بعد قتل أبيه عام 459هـ / 1063م، وكانت زوجته سيدة بنت أحمد بن جعفر بن موسى بن محمد الصليحي تشاركه في الحكم. ولما توفي جاء إلى حكم دولة الصليحي رجل ليس من نسل علي الصليحي وإنما هو من أسرته، وهو الداعي الإسماعيلي الجديد سبأ بن أحمد بن المظفر ابن علي بن محمد الذي نصبه الخليفة الفاطمي (العبيدي)، وأمره بأن يتزوج السيدة بنت أحمد، واستمر في الحكم تشاركه زوجته فيه في الوقت الذي كانت تنفلت منه أجزاء من اليمن، وتولتها زعامات جديدة كانت إسماعيلية كبني الزريعي في عدن. ولكن ما لبث سبأ أن توفي سنة 492هـ / 1098م فاستفردت السيدة بنت أحمد بالملك وطال ملكها حتى عام 532هـ / 1137م حينما توفيت عن عمر بلغ ثماني وثمانين سنة، ولضعفها تناثرت مناطق حكمها ولم يبق منها شيء.

وعلى أشلاء الدولة الصليحية قامت دولة بني زريع بعدن، ودولة بني حاتم الهمدانيين بصنعاء، وبقايا بني نجاح في زبيد، ثم بني مهدي، وظهرت الزعامات (الأئمة) الزيدية في صعدة وما حولها وحتى صنعاء، تتنافس الإمامة، حتى جاءت دولة بني أيوب على يد توران شاه سنة 569هـ / 1173م لتبدأ حقبة تاريخية جديدة في اليمن، وتنتهي بذلك الدولة الإسماعيلية الثانية في اليمن،

ولم تقم دولة إسماعيلية أخرى، وتحولت الدعوة الإسماعيلية إلى دعوة سرية.

ورغم المدة التي استغرقتها الدولة الصليحية (أكثر من قرن من الزمان)، ورغم أنها دولة مذهبية اتصفت بدقة التنظيم، وتجذير المعتقد فإنّها تضعضعت باختفاء القيادات الآسرة (علي وابنه المكرم، ثم سبأ وزوجته السيدة الحرة)، ويرجع ذلك إلى أسباب منها :

- عدم قابلية اليمن (شافعيها وزيديها) للمذهب الإسماعيلي الباطني.

- بروز القيادات القبلية في مناطق ما يعرف باليمن الأعلى كالهمدانيين (بني حاتم) .

- تحرك الأئمة الزيدية متعاونين مع أشراف جازان ضد الصليحيين مما أدى إلى سلخ صنعاء من ملك الصليحيين.

- الثأر المتأجج لدى النجاحيين ضدّ الصليحيين.

- انفصال عدن باسم أسرة بني زريع مرتبطة أولاً بالصليحيين ثم منفصلة عنها بعد ذلك.

- الممارسات المادية للدولة الصليحية رغم أعمالهم في الإنشاءات، إلاّ أن ما عرف من أن ما يجبى - مثلاً - من عدن كان يسلم لزوجة علي الصليحي مقابل مهرها، فهذا لم يكن خافياً ولم يكن ليعجب أهل اليمن.

- المظاهر الاحتفالية المذهبية الشيعية التي كانت تقام ولم تكن ليرضى الناس عنها لمخالفتها لما يعرفونه من الإسلام.

ولهذا من اللافت أن الدولة الصليحية تمركزت أكثر مدّة في (ذي جبلة)، ومع هذا لما انتهت الدولة الصليحية لم يعد للمذهب الإسماعيلي وجود هناك، وإنما انتقل إلى مناطق أخرى أبرزها في حراز ويام في نجران.

2 - بنو زريع في عدن :

لم يكن المقصود بحكم عدن هو مدينة عدن وحدها، بل كانت تمثل حاضرة المنطقة الشرقية كلها من اليمن، فتشمل - إلى جانب مدينة عدن ومينائها - كلاً من لحج وحضرموت وأحياناً تضم بعضاً من مناطق أعمال الجند. ونظرا إلى ما لمدينة عدن من أهمية عسكرية وتجارية فقد حرصت القوى المسيطرة على اليمن على مدّ سلطانها إلى هذه المنطقة والسيطرة على مدينة عدن.

وحينما استولى على الصليحي على اليمن ومنها عدن ولحج وأبين وحضرموت كان يحكم هذه المنطقة بنو معن، وقد اقتضت خطة علي الصليحي أن يبقيهم على إدارة المنطقة للاستفادة من خبرتهم، واشترط عليهم دفع مائة ألف دينار سنوياً. ولكي يضمن ولاءهم أخذ منهم (رهائن). وبعد أن زوج ابنه المكرم بالسيدة الحرة أمر بني معن بتسديد ما عليهم سنوياً من ضرائب عدن لهذه السيدة مقابل صداقها.

ولكن بني معن (عباس ثم محمد بن معن) ما فتئوا ينتهزون الفرص للتنصل من هذه التبعية، فلما قتل الصليحي عام 459هـ / 1067م وأطلق سراح الرهائن أعلن بنو معن عن انفرادهم بالحكم عن المكرم الصليحي حتى سنة 467هـ / 1075م. وعند إعادة المكرم السيطرة على مناطق اليمن عمل على السيطرة على عدن وتمكن من ذلك. ولكنه أشرك بني معن في إدارة عدن مرة أخرى، وسرعان ما دبّ الخلاف بين الطرفين، فأجبر المكرّم محمد بن معن على الانسحاب إلى (أحور) في العوالق السفلى شرقي أبين، وظل هناك خمس سنوات إلى أن انتهى نفوذ بني معن ليبدأ حكم بني الزريعي أو بني الكُرَّم لعدن .

مرّ حكم بني زريع لعدن بعدة مراحل :

الأولى : مرحلة الحكم المشترك المرتبط بالصليحيين.

فقد قام المكرم الصليحي بتعيين كل من العباس والمسعود ابني الكُرَّم الهمداني اليامي على عدن مقسماً إدارتها بين الرجلين حيث جعل العباس على جباية الأموال التجارية القادمة من البر، وجعل المسعود على جباية الأموال التجارية القادمة من البحـر.

واستمرت هذه المرحلة من عام 468هـ / 1075م حينما تسلما عدن إلى عام 532هـ / 1138م. وكانت العلاقة بين بني الكُرَّم أو الزريعي متواصلة مع السيدة الحرة الصليحية، وتعاصر في الحكم في هذه المرحلة كل من العباس المتوفى سنة 479هـ / 1086م والمسعود الذي قتل أمام زبيد عام 503هـ / 1109م، فتولى كلّ من أبي السعود بن زريع وأبو الغارت بن المسعود، وكان كل منهما يتوسع على حساب جيرانه.

الثانيـة: مرحلة الانفراد بالسلطان دون الصليحيين.

بعد أن توفي أبو الغارات عام 510هـ / 1116م خلفه ابنه محمد الذي استمر حتى توفي سنة 524هـ / 1130م، وفي هذه الأثناء استقل بنو الكُرَّم عن الصليحيين ولم تنفع محاولات هؤلاء إعادة أمراء عدن إلى سلطانهم بل منوا بالفشل الذريع خاصة بعد أن نزعت السيدة الحرة الطاعة للحافظ العبيدي وتمسكت بالدعوة الطيبية المناوئة للدعوة الحافظية، وبالتالي سارع سبأ بين أبي السعود ليرتبط بالفاطميين بصفته الداعي الإسماعيلي، وتلقى المباركة والتأييد من قبل الخلافة الفاطمية (العبيدية)، ومن ثم تبدأ مرحلة ثالثـة.

الثالثة : مرحلة الصراع بين سبأ وابن عمه علي بن أبي الغارات الذي خلف أخاه محمداً بعد موته عام (524هـ / 1140م). ولا شك أن سبب الصراع هو رغبة سبأ في أن يكون له السلطان على الواقع كما له السلطان الروحي الإسماعيلي بعد إضفائه عليه من قبل الدولة الفاطمية (العبيدية). انتهى هذا الصراع بعد سنتين من الحرب (530-532هـ / 1136-1138م) لصالح سبأ بن أبي السعود بعد أن استنجد بقبائل يمنية كثيرة منها همدان وخولان وحمير ومذحج؛ لأنه الداعي الإسماعيلي المؤيد من قبل دولة الخلافة الفاطمية (العبيدية).

الرابعة : مرحلة الانفراد بالحكم والسلطان في آل زريع الذين حكموا عدن من عام 532هـ / 1137م إلى أن انتهوا عام 569هـ / 1173م على يد الأيوبيين.

وقد حكم من أولاد سبأ ابنه علي الأعز حتى توفي عام 534هـ / 1139م فخلف ثلاثة أطفال كانت الوصاية عليهم لمولاهم أنيس الحبشي، فنازعهم عمهم محمد بن سبأ بمعونة وزير أبيه بلال بن جرير المحمدي وتولى السلطان ونال التأييد والتقليد من الخليفة الفاطمي (العبيدي) بصفته الداعي الإسماعيلي الحافظي، ولقب بعدة ألقاب منها المتوج المكين. واستطاع محمد عن طريق الأموال شراء الحصون والقلاع من الأمراء المجاورين دون قتال، ووافق الأمراء مقابل المال وكذلك لتبقى هذه المناطق تابعة للدعوة الإسماعيلية.

ولما توفي محمد سنة 550هـ / 1155م تولى بعده ابنه عمران المتوفى عام 560هـ / 1164م، إلاَّ أنه لم يصمد أمام هجمات ابن مهدي الذي سيطر على زبيد وبدأ يبسط نفوذه على مناطق الجبال، وبموت عمران انقسم ملكه إلى سلطتين: سلطة في

مدينة عدن تولاها وزيره ياسر بن بلال، وسلطة في حصن الدملوه يسكن فيها ثلاثة أطفال لعمران بكفالة أبي الدر جوهر المعظمي. فلما جاء توارن شاه بن نجم الدين باسم الدولة الأيوبية إلى عدن تمكن من إنهاء الدولة الزريعية في عدن عام 569هـ / 1173م فهرب ياسر ثم قبض عليه وأعدم عام 571هـ / 1175م.

أما حصن الدملوه فقد اشتراه بعد ذلك طغتكين الأيوبي عام 585هـ / 1189م ليصبح اليمن تحت سلطان الدولة الأيوبية.

3 - الأئمة الزيدية :

الدولة الزيدية لم تقم أيام زيد بن علي رحمه الله، ولم تقم أيضاً بعده على منهاجه وطريقته، وإنما قامت على اجتهادات رجالات نسبوا إلى الزيدية وعرفوا بالأئمة الزيدية رغم الاختلاف الواضح بين ما كان عليه زيد بن علي وما هم عليه، سواء من حيث الاجتهاد الفكري في موضوع الإمامة أو الاجتهاد الفقهي في الفروع.

ولقد استهل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ووضع الدولة الزيدية في اليمن مضطرب، وكان قد بدأ من بعد وفاة الناصر بن الهادي سنة 325هـ / 936م ثاني شخصية (إمام) زيدي حكم في اليمن في القرن الرابع الهجري. وبعد وفاته انفرط عقد الدولة الزيدية (الهادوية) الأولى في اليمن، وظلت هناك صراعات بين شخصيات زيدية تدّعي كل واحدة منها أنها أحق بالإمامة إلى أن جاء القاسم بن علي العياني المتوفى سنة 393هـ / 1003م، الذي عمل على إعادة التوحد الزيدي، وما أن توفي حتى عاد الاضطراب إلى صفوف الزيدية. ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن الدولة الزيدية الأولى انتهت حقيقة بموت الناصر، حيث لم يقم إمام من الزيدية مجمع عليه لم يخالفه أحد من أبناء المذهب نفسه.

ويرتبط الأئمة الزيدية بفكرة يدورون حولها وهي مركبة من عدة مبادئ منها:

- مبدأ الإمامة، وأنها لا تكون إلاّ فيمن تتوفر فيه شروط الإمامة، ومن أهمها ما يؤثر على مسرح الأحداث أن يخرج داعياً إلى نفسه مجرداً سيفه، هذا إلى جانب العلم والشجاعة والسخاء والاجتهاد... إلخ. فمبدأ الخروج أحد المبادئ المهمة في دراسة الزيدية لمعرفة أحداثها، فكل من رأى في نفسه شروط الإمامة خرج داعياً لنفسه ومجرداً سيفه، ولذا سفكت الدماء كثيراً .

- مبدأ الاعتراف بوجود إمامين في وقت واحد، وهذا المبدأ أعطى الشرعية لكل واحد أن يخرج دون حرج من وجود إمام قد بايعه الناس. بل جعل هذا المبدأ الأتباع يغيرون ولاءهم وتبعيتهم مرة مع هذا الإمام، ومرة ضده، بحسب قناعتهم بالإمام. ومن ثم قد نجد في وقت واحد ثلاثة أئمة في مناطق مختلفة.

- مبدأ الاحتساب أو المحتسب، فمن لم تتوفر فيه الشروط كاملة - بحسب رؤيتهم - فعليه الخروج داعياً لنفسه ومجرداً سيفه ولكنه لا يكون إماماً وإنما يكون محتسباً.

وهذا أدى إلى وجود محتسبين وأئمة في وقت واحد، وكانت تدور بينهم صراعات دامية في أكثر الأحيان.

ولو رصدنا تحركات الأئمة الزيدية في اليمن عبر قرون خمسة من مطلع القرن الخامس الهجري إلى مطلع القرن العاشر الهجري، فإننا سنجد دولاً تداولت السلطة في اليمن وعاصرها أئمة، وهؤلاء الأئمة كانت مناطق انبعاثهم وخروجهم لا تعدو المنطقة الممتدة بين نجران حتى ذمار، وهي

المنطقة الجبلية أبرزها صعدة، وهمدان، وصنعاء، ومغرب صنعاء كثلا وكوكبان، ومشرقها كخولان وسنحان. إلا أننا لن نرصد إلا تحركات الأئمة حتى منتصف القرن السابع الهجري / الثاني عشر الميلادي فقط.

أولاً : في عهد الدولة الصليحية، وبجوارها الدولة النجاحية، وخلفها بنو مهدي (437-583هـ / 1045-1188م)، لقد عاصر هذه الدول من الأئمة أو المحتسبين أكثر من ثمانية ما بين إمام ومحتسب، فمنهم من جاء من خارج اليمن مثل الإمام أبو الفتح الديلمي الذي جاء من بلاد الديلم، وخرج سنة 430هـ / 1038م، وقتل عام 444هـ / 1052م. ومنهم من دعا للإمام الزيدي القائم في بلاد الديلم كالمحسن بن الحسن الذي دعا بطاعة الإمام أبي طالب في الديلم وقتل عام 511هـ / 1117م، ومنهم من كان منحازاً في قلاع محصنة تنتهي حياته بالموت أو بالقتل، وأقوى إمام في هذه المرحلة هو أحمد بن سليمان المتوفى سنة 566هـ / 1171م الملقب بالمتوكل، وحصلت قوته من ضعف الدولتين الصليحية والنجاحية، وعدم وجود شخصية قوية منافسة. ورغم أنه استمر إماماً أكثر من ثلاثين سنة فإنّه لم يؤسس دولة بمفهوم الدولة حيث انتهى جهده بموته.

ثانياً : في عهد دولة بني أيوب في اليمن (583هـ / 1187م - 646هـ / 1248م).

وقد خلفت هذه الدولة كلاً من الصليحيين والنجاحيين وبني مهدي، ومع هذا عاصرها أئمة زيدية ومحتسبون زاد عددهم عن ستة رغم قصر المدة، وأعظم هؤلاء المنصور بالله عبد الله ابن حمزة الذي وجد الظروف مناسبة لأن يخرج عام 583هـ / 1187م ويدعو لنفسه، ويبسط سلطانه على مناطق كبيرة من اليمن، وانضم إليه بعض الأئمة المعاصرين له طوعاً أو كرهاً، وكان طموحه أبعد مدى حيث تراسل مع الخليفة العباسي الناصر بن المستضيء المتوفى سنة 622هـ / 1225م ليقنعه بأحقيته بالإمامة.

إلاّ أن صراعه الداخلي مع بعض فرق الزيدية كالمطرفية والإسماعيلية ثم مع الأيوبيين أدى إلى أن تهاوت سلطته رغم أنه ظل في الإمامة حوالي واحد وثلاثين عاماً حيث توفي عام (614هـ / 1217م)، وترك أولاداً لهم كفاءات إلاّ أنه لم يترك لهم دولة تستمر من بعده .

ثالثاً - الكيانات التي قامت على أساس قبلي :

هذا القسم من الكيانات خلا له الجوّ ومهدت له السبل فأقام لنفسه كياناً مستعيناً بالفكر المذهبي حيناً، وبإظهار الحرص على الناس حيناً آخر، بينما الخط القبلي هو المهيمن على عقليته. ويتمثل هذا اللون بالهمدانيين في صنعاء من سنة 492هـ / 1099م إلى سنة 590هـ / 1194م.

رغم أن الهمدانيين الذين حكموا صنعاء حوالي قرن من الزمان يحملون فكراً إسماعيلياً، وهم أصلاً من رجالات الدولة الصليحية الإسماعيلية، فإنّ المحرك لهم ولحروبهم هو روح قبلية ثأرية وعصبية، مع التسليم بأن قبيلة يام الهمدانية هي التي احتضنت الفكر الإسماعيلي في العصور التالية.

لقد تعاقبت ثلاث أسر همدانية يامية على حكم صنعاء في المدة بين (492 و590هـ / 1099 و1194م) وهي: آل الغشيم، وآل الغُبيب، وآل حاتم. أمّا آل الغُشَيْم، فقد حكموا من عام 492هـ / 1099م إلى عام 510هـ / 1116م، أولهم حاتم بن الغشيم المغلس الهمداني اليامي المتوفى سنة ت502هـ / 1108م، ثم ابنه عبد الله، وقد مات مسموماً (سنة

504هـ / 1110م)، فخلفه أخوه معن الذي عزل بعد أن تمردت عليه همدان بقيادة القاضي أحمد بن عمران اليامي، فعزلوا معناً لتنتهي أسرة آل الغشيم فتأتي أسرة آل القُبيب حيث تم اختيار هشام بن القُبَيْب اليامي الهمداني وولوه أمر صنعاء، وظل إلى أن مات فخلفه حماس الذي دخل في قتال مرير مع قبائل (جنب) في ذمار وعنس، مما يؤيد أن الصراع بينهم كان صراعاً قبلياً مذهبياً.

ولما مات حماس في سنة 527هـ / 1133م تنازع أولاده الإمارة وتركتهم همدان لنزاعهم واتصلوا بحاتم بن أحمد بن عمران بن المفضل اليامي الهمداني مرة أخرى لا ليختاروا زعيماً جديداً لهم بل ليكون هو نفسه السلطان القادم، وذلك عام 533هـ / 1138م .

وبهذا تبدأ سلطة الأسرة الثالثة وهي أسرة آل حاتم.

وكان حكم آل حاتم الياميين أطول مدة قضوها في الحكم أثناء الهمدانيين، وقد واجه حاتم عدواً جديداً غير العداوات القبلية، تمثل في الإمام الزيدي أحمد بن سليمان الذي أعلن نفسه إماماً عام 532هـ / 1138م، ولعله استغل ذلك النزاع الذي أعقب وفاة حماس بن القبيب ثم وفاة السيدة الحرة 532هـ / 1138م، فكان الصراع مذهبياً بين الزيدية ممثلة في أحمد بن سليمان، والإسماعيلية ممثلة في حاتم اليامي، وقد حقق أحمد بن سليمان انتصاراً ساحقاً على حاتم، ودخل صنعاء عام 545هـ / 1150م بعد أن أمنه الإمام وسمح له الإقامة في الروضة شمال صنعاء .

وكانت قبيلة همدان متذبذبة الولاء، تارة مع الإمام أحمد بن سليمان، وتارة مع حاتم اليامي حتى قبائل (حنب) كان جزء منها مع حاتم، وجزء مع أحمد بن سليمان، ورغم أن الزعامات مذهبية فإنّ التحالفات قبلية.

إلاّ أن الإمام أحمد بن سليمان وحاتم اليامي اصطلحا على أن تلغى الخطبة للإسماعيلية، ويسمح بإظهار الزيدية في صنعاء ويظل هو أميراً على صنعاء .

ورغم تجدد القتال بينهما فإنهما اتفقا مرة أخرى على الصلح إلى أن مات حاتم سنة 556هـ / 1161م، وخلفه ابنه علي، ولم تؤزاره همدان حتى تمكن من التغلب عليهم.

وقد تمكن علي بن حاتم من كسب ود الزيدية بمساعدته للمطهر بن أحمد بن سليمان ضد مناوئيه في صعدة، بينما ثار الصراع بينه وبين الإسماعيلية نتيجة اختلاف مذهبي إسماعيلي في القيادة الإسماعيلية، فقد انقسمت الدعوة الإسماعيلية إلى حافظية (نسبة إلى الحافظ الخليفة الفاطمي)، وطيبية (نسبة إلى الطيب الخليفة الفاطمي الأسبق)، وكان علي بن حاتم يتابع الحافظية مع السيدة الحرة، بينما كانت إسماعيلية حراز بزعامة الداعي حاتم الحامدي الذي كان يؤيد الدعوة الطيبية. ورغم أن علي بن حاتم سيطر على مناطق الداعي ودعاه إلى أن يظهر دينه ولا يفرق همدان، فإنّ هذا التوجه القبلي واضح لدى السلطان علي بن حاتم، بينما كان الداعي حاتم الحامدي متشبعاً بالدعوة الإسماعيلية، حريصاً عليها، ولهذا انسحب من الميدان العسكري لينكفئ على نشر الدعوة الإسماعيلية والتأليف كابنه إبراهيم حتى توفي في المحرم من سنة 596هـ / 1199م.

وهكذا خلا الجو للسلطان علي ابن حاتم اليامي الذي تنامى نفوذه وامتدّ حتى شمل أكثر المناطق الجبلية لليمن الأعلى، ولكنه سرعان ما

واجه قوة جديدة مكتسحة وهي قوة بني أيوب التي اجتاحت اليمن من الجنوب حتى شملت اليمن كلها، فقد امتدت حملات الأيوبيين على اليمن من عام 569هـ / 1174م حتى انتهت سلطة علي بن حاتم عام 590هـ / 1194م حينما رضي بالتسليم لسيف الإسلام طغتكين المتوفى سنة 593هـ / 1197م مقابل راتب شهري أو سنوي يقدر بخمسمائة دينار وقدر من الطعام، وبذلك انتهت دولة الهمدانيين في صنعاء.

ويرجع زوال دولتهم إلى مجموعة من العوامل منها :

- ما يرجع إلى ازدواجية توجهاتهم الفكرية؛ فالعقلية القبلية تحرك حملاتهم العسكرية، واعتقاداتهم الإسماعيلية التي تقوى أحياناً وتفتر أحياناً أخرى لا تعطي استقراراً عند الناس ولا اطمئناناً إلى حكامهم.

- ما يرجع إلى وجود قوى منافسة سواء أكانت الزيدية في الشمال أو قوة بني مهدي التي بدأت تزحف من الغرب.

- منها القوة ذات الصيت الحسن، وذات الأهداف العامة التي تهم الأمة الإسلامية كلها، وأعني بها قوة بني أيوب التي كانت انتصاراتها ضد الفرنجة (الصليبيين) قد دوت في جميع أرجاء دار الإسلام، والتي استرجعت هيبة الدولة العباسية فصارت مصر والشام والحجاز واليمن والعراق كله تدين للخليفة العباسي في بغداد.

- وأخيراً - كما هو واضح في كل كيان قام على أكتاف شخصيات فذة - كانت الدولة ترتبط بالرجال لا بالمؤسسات، ومن ثم انتهى الكيان الهمداني ماعدا بقاء الفكر الإسماعيلي في الفرع اليامي من همدان الذي يقطن نجران.

رابعاً - الكيانات التي تتأرجح بين ولاءات عدة :

هذه الكيانات تذبذبت في ولائها تارة للفكر المذهبي وتارة للعباسيين وثالثة للعبيديين (الفاطميين) وأخرى لرغبتها في السلطة والملك دون الالتزام بشيء.

ولعل من ينطبق عليهم هذا الوصف هم السليمانيون وبنو مهنا.

1 - السليمانيون في مكة واليمن :

ينتسب السليمانيون إلى سليمان بن داود بن حسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، وعرفوا أولاً في مكة المكرمة بصفتهم أمراء عليها، ثم حكموا تهامة اليمن فيما عرف بعد ذلك بالمخلاف السليماني، فأول من تولى منهم محمد بن سليمان في مطلع القرن الرابع الهجري، ثم انتهت إمارته بدخول القرامطة إلى مكة 316هـ / 928م، وكانت مكة المكرمة كالريشة في مهب الريح، فقد تعرضت لإمارات متناقضة، تارة تابعة للعباسيين، وتارة للقرامطة، وتارة للعلويين، وتارة للعبيديين (الفاطميين) .

وعادت إمارة بني سليمان في أواخر القرن الرابع حينما تولى إمرة مكة أبو الفتوح الحسن بن جعفر الذي عد رئيس بني سليمان، بينما هناك من ينسب السليمانيين إلى أبي الطيب ابن عم أبي الفتوح.

ومع هذا تراوح ولاء أبي الفتوح بين التوجه نحو العباسيين تارة والطاعة للعبيديين (الفاطميين) ثانية والدعاء لنفسه وخلع الطاعة للعبيديين ثالثة، وكان هذا في عهد الحاكم (ت 411هـ / 1020م)، ثم عاد إلى طاعة العبيديين إلى أن توفي عام 430هـ / 1038م.

إلاَّ أن الحاكم الفاطمي عندما تمرد أبو الفتوح ولى مكة أبا الطيب بن عبد الرحمن ابن عم أبي الفتوح عندما خلع طاعة العبيديين، وكان أبو الفتوح قد تولى مكة بعد أخيه عيسى، ولما عاد أبو الفتوح إلى طاعة الفاطميين ظل أميراً على مكة إلى أن توفي عام 430هـ / 1038م، ثم خلفه ابنه تاج المعاني شكَر الذي استمر أميراً على مكة حتى سنة 453هـ / 1061م لتأتي من بعده أسرة الهواشم فتحكم مكة المكرمة.

أما أسرة أبي الطيب، وهم سليمانيون أيضاً، فقد خرجوا إلى اليمن واستقروا في تهامة بعد استيلاء علي الصليحي على مكة.

وظلت مكة في إمارة الهواشم من عام 456هـ / 1064م إلى أن جاء حمزة بن وهاس بن سليمان الحسيني وتغلب على مكة، ولم تدم له طويلاً فقد تولاها محمد بن جعفر زعيم الهواشم، ثم جاء أبناء وأحفاد حمزة بن وهاس فبعضهم تغلب على مكة مثل عُليّ بن عيسى بن حمزة، وبعضهم سيطر على المخلاف السليماني في تهامة اليمن.

المخلاف السليماني نسبة إلى سليمان بن طرف الحكمي الذي حكم في القرن الرابع الهجري منطقة حَكَم من سعد العشيرة سكان هذا المخلاف الذي يقع شمال تهامة اليمن ويشمل جازان وعاصمته مدينة (عَثَّر).

فبعد أن فشل حمزة بن وهاس - كما رأينا عند الحديث عن السليمانيين - في السيطرة على مكة من (الهواشم) ذهب إلى تهامة اليمن وتمكن من التواصل مع النجاحيين الذين كانوا على صلة بالعباسيين ووجد له مكان قدم في تهامة. وكان له ولدان عيسى ويحيى، تولى عيسى حرض وبلاد حكم، ويحيى (عَثَر)، إلاَّ أن يحيى كان أكثر قوة حيث استطاع أن يضم المخلاف كله إليه، وخلفه ابنه غانم الذي عمل على مدّ جسور الصلة بالزيدية ممثلة بأحمد بن سليمان، وهذا يوحي بأنه بدأ يتنصل من الارتباط العباسي، وجاء بعده ابناه قاسم ووهاس، فأما وهاس فكان أميراً على حرض وقد قتل على يد عبد النبي بن مهدي.

وأما قاسم بن غانم فقد تزعم فصيلاً حسنياً سليمانياً عرف بالغوانم، فقد تولى قاسم بن غانم التصدي لابن مهدي المتوفي سنة 554هـ / 1159م، وكاتب الخليفة العباسي المستضيء المتوفى عام 575هـ / 1179م يطلب النجدة، وكلف هذا بدوره صلاح الدين الأيوبي للقيام بالمهمة فأرسل قواته وتمكن من القضاء على بني مهدي وذلك بقتل عبد النبي بن علي بن مهدي سنة 569هـ/ 1173م، وجعل قاسم بن غانم أميراً على المخلاف السليماني باسم العباسيين، مع علاقة ودودة مع أحمد بن سليمان الذي ينادي بنفسه إماماً زيدياً مناهضاً للخلافة العباسية.

وجاء بعد قاسم بن غانم في أسرة الغوانم : ابناه المرتضى الذي قتل على يد الأيوبين حينما تمرد عليهم عام 610هـ / 1213م ثم المؤيد الذي أعلن تمرده على الأيوبين مستنجداً ومتسانداً مع الإمام الزيدي المنصور عبد الله بن حمزة لمقاتلة الأيوبيين. وسرعان ما سقط المؤيد أسيراً بيد الأيوبين، ولكنهم رضوا عنه إلا أنهم قسموا الإمارة السليمانية (المخلاف السليماني) إلى إدارتين: إحداهما ظلت تحت إدارته وهذا نوع من تقليص نفوذه ولكنه لم يسكت عن ذلك بل عمل على ضم الجزء الآخر إلى إدارته فأغضب الأيوبين ولم يتجاوزوا عنه وإنما جهزوا حملة كبيرة انتهت بقتله

سنة 624هـ / 1227م لتنتهي أسرة الغوانم كلها، وصار المخلاف السليماني تحت الحكم الأيوبي المباشر قبل أن تتحول اليمن إلى حكم بني رسول بحوالي أربع سنوات.

ورغم أنّ المدة التي قضاها بنو سليمان في السلطة سواء في مكة أو في المخلاف السليماني تعدّ مدة طويلة استمرت من عام 384هـ / 994م إلى عام 624هـ / 1227م وتمتدّ قريباً من قرنين ونصف، فإنّ المصادر التي تحدثت عنهم لم تمدّنا عنهم بمعلومات وافية وواضحة، بل إنّ الغموض والاضطراب هما اللذان يلحظهما الدارس، فلم نعرف ما خلفوه من نظام ومنشآت ولا حتى مشجراً واضحاً لحكامهم، بل هي مضطربة اضطراباً واضحاً، ولهذا لم يأس عليهم أحد عندما سقطوا ويرجع ذلك إلى عدة أسباب منها :

- تذبذب ولائهم بين الذاتية والعباسية والعبيدية (الفاطمية) والزيدية.

- نشوب الصراع بين رجالات كيانهم حتى بين الأخوين، كما حصل بين عيسى ويحيى ابني حمزة بن وهاس.

- وجود قوى يعيشون في كنفها تمنع عنهم الذاتية، فإمّا هم ذائبون في دولة العبيديّين (الفاطميين)، وإما يتبعون أمراء إمارة زبيد التابعة للدولة العباسية، أو إنهم يختفون وراء قوى كبيرة كالأيوبيين الذين يمثلون الدولة العباسية .

- عدم إنشاء نظام للدولة يتمثل في مؤسسات ثابتة، ولعلّ ذلك يرجع إلى عدم الاستقرار، أو لأنهم لم يكونوا يفكرون في مثل هذا وخاصة أنهم بتحركاتهم المضطربة المتناقضة لا يجعلون الناس يثقون بهم، ولا يؤهلهم عدم الاستقرار لعمل أي شيء دائم .

2 - بنو مهنا (في المدينة المنورة) :

لقد أحسن ابن خلدون صنعاً حينما جعل لكل أسرة حكمت موضعاً من دار الإسلام عنواناً مستقلاً بذاته، فأفرد بني مهنا - أمراء المدينة المنورة - بموضوع لم يتجاوز الأربع الصفحات والنصف. ورغم أنه صاحب الفضل في هذا، فإنّ ما جاء في كتابه لا يعدّ وافياً بل يوجد اضطراب في النسب لهذه الأسرة، ولم يأت هذا الاضطراب - كما يبدو - من عند ابن خلدون وإنما من شحة المعلومات في المصادر واضطرابها.

وبنو مهنا هؤلاء يرجع نسبهم إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما، وأول ذكر لهم كان في القرن السادس الهجري في عهد صلاح الدين الأيوبي الذي استخلصه لنفسه - صداقة وصحبة - القاسم بن مهنا أول من تنسب إليه أسرة بني مهنا، والملقب بـ (فليتة الحسنى)، ولهذا عرفت أسرته أيضاً بأسرة (بني فليتة)، وقد دامت إمرته للمدينة خمساً وعشرين سنة، وخلفه ابنه جَمَّاز الذي نسبت إليه أسرة حكمت المدينة هم (الجمازة) أو(الجمامزة)، وجاء بعده ابنه قاسم بن جَمَّاز، وحكم مثل جده خمساً وعشرين سنة إلى أن قتل سنة 624هـ / 1227م.

تولى إمارة المدينة بعد قاسم حفيده شيحة بن هاشم بن قاسم في العام نفسه، ولكن عن طريق الانتزاع من الجمامزة وظل إلى أن قتل عام 647هـ / 1249م، إلاّ أن أسرة شيحة توسعت ودام حكمها وصارت هي التي تحكم المدينة حتى القرن العاشر الهجري، وكان ارتباط شيحة ببني أيوب مستمراً رغم محاولات بني رسول السيطرة على المدينة أكثر من مرّة.

والذي يلفت النظر في تاريخ هذه الأسرة أنها عرفت بآل المهنا أولاً، ثم بالجمامزة ثانياً. ولقد تناوب

الإمارة - دون اختيار منهم - أبناء أسرتين: عطية بن منصور بن جَمَّاز وجَمَّاز بن منصور بن جَمَّاز، حيث كانوا يتلقون مراسيم توليتهم وعزلهم من المماليك في مصر بحسب ما يراه السلاطين، أو عن طريق الدسائس التي كانت تحاك حول هذا الأمير أو ذاك.

ومما يحتاج إلى تنويه أن ابن خلدون يؤكد على أن مذهب هذه الأسرة الرافضة، الإمامية الاثنا عشرية، وأنهم يعتقدون عقائدهم، رغم أن بداية أمرهم كان على يد صلاح الدين، الذي عمل على إزالة الشيعة الإسماعيلية، ورغم أن ولايتهم كانت تصدر بمراسيم من الخلفاء العباسيين، ثم من السلاطين المرتبطين بالعباسيين سواء بني أيوب أو المماليك من بعدهم. ومع علمنا بأن الشيعة الإمامية لا تسعى إلى إقامة دولة باسمهم حتى يظهر المهدي محمد بن الحسن العسكري، فإنَّ أمراء المدينة هؤلاء لم تحل معتقداتهم الشيعة الاثنا عشرية دون تنافسهم على الإمارة لا من منطلق المذهب ولكن من منطلق المصلحة السلطوية فقط .

وهنالك أمر آخر لافتٌ للنظر هو أن سلاطين مصر كانوا يرضخون للأمر الواقع فيصدرون مراسيم ويرسلون الخِلع إلى أمراء المدينة تحت إلحاح الواقع الذي فرضه الأمراء على مسرح الأحداث.

شيء آخر يلمسه المتتبع لآل المهنا أن الدولة الرسولية (626-858هـ / 1229-1454م) التي قامت في اليمن حاولت مراراً ونجحت أحياناً في السيطرة على مكة والمدينة لتستأثر بها دون بني أيوب، فكان أمراء المدينة من بني مهنا يتقلبون في تبعيتهم، مرة إلى بني رسول ومرة إلى بني أيوب، وإن كانت تبعيتهم الغالبة لآل أيوب.

والسؤال الذي ينبغي أن يجاب عنه: هل كانت أسرة بني مهنا وما تفرع منها من بني فليتة أو الجمامزة تشكل دولة أم هي إمارة من الإمارات التابعة لسلاطين مصر؟

إن الدارس لا يستطيع أن يجزم بأي من الرأيين، لأن أمراء هذه الأسرة رغم طول حكمهم لم يكونوا سوى أمراء على إمارة تابعة لسلاطين مصر، يعزلونهم حينما يشاءون ويأتون بمن يريدون في الوقت الذي يقررونه، وإن كانوا لا يتجاوزون هذه الأسرة إلاَّ أن سلاطين مصر كانوا يستغلون الصراع على الإمارة بين أفراد أسرة المهنا نفسها لينصّبوا الأمير الذي يكون لهم طائعاً.

ورغم وجود بعض الأمراء ممن كان يتمرد على سلاطين مصر، فإنه سرعان ما كان يؤتى به مخفوراً ويقتاد إلى مصر ليموت في سجونها.

ولم توجد لهم مقومات الدولة، ولا هيبة لهم إلاَّ بهيبة سلاطين مصر، ولهذا لم يخلفوا ما يمكن أن يسمى هيكلاً لدولة. صحيح أنّه كان لبعضهم وزراء، إلاَّ أن وجود وزراء لا يعني وجود دولة لها هيكلها وكيانها المتميز، وقد يكون وجود الوزراء لأمراء المناطق هو أحد المظاهر الإدارية السائدة في ذلك العصر.

ومن ثم فإن كيان بني مهنا هؤلاء كان وجوده وزواله مرتبطين بسلاطين مصر.

أ.د. عبد الرحمن عبد الواحد الشجاع

جامعة صنعاء

المصادر والمراجع

أولاً - المصادر المخطوطات :

- الخزرجي ، أبو الحسن علي بن الحسن بن أبي بكر ، ت 812هـ / 1409م : العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك. المخطوط مصوراً. بدار الفكر. دمشق، (د.ت).
- مسلّم اللحجي ، ت 545هـ / 1150م : تاريخ مسلم اللحجي (ق157). مخطوط بمكتبة باريس رقم 5982- تحصلت على نسخة منه عن طريق عبد الله محمد الحبشي.
- ابن الوزير، أحمد بن عبد الله ، ت 985هـ / 1577 : تاريخ بني الوزير(ق88/ب)- مخطوط بالمكتبة الغربية بجامع صنعاء، رقم 41 تاريخ وتراجم.
- الهادي إلى الحق، يحيى بن الحسين ، ت298هـ / 910م : المجموعة الفاخرة (صورت المخطوطة بالأوفست)، مكتبة اليمن الكبرى. صنعاء، (د.ت).
- يحيى بن الحسين ، ت 1100هـ / 1688م : طبقات الزيدية الصغرى - مخطوطة مصورة في المكتبة المركزية بجامعة صنعاء .

ثانياً - المصادر المطبوعة :

- ابن الأثير ، أبو الحسن عز الدين علي بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ، ت 630هـ / 1231م : الكامل في التاريخ، بيروت، 1965.
- إدريس ، عماد الدين بن حسين القرشي ، ت 259هـ / 872م : عيون الأخبار وفنون الآثار. تحقيق مصطفى غالب، بيروت، (د.ت).
- ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم ، ت728هـ / 1327م : الخلافة والملك. تحقيق حماد سلامة. عمّان، 1988.
- الجندي ، أبو عبد الله بهاء الدين محمد بن يوسف، ت 732هـ / 1331م : السلوك في طبقات العلماء والملوك. تحقيق محمد بن علي ابن الحسين الأكوع الحوالي، صنعاء، 1989.
- ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد، ت 456هـ / 1064م : جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، 1971.
- الحمادي ، محمد بن مالك بن أبي القبائل الحمادي اليمني ، ت نحو 470هـ / 1077م : كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة. تحقيق محمد بن علي الأكوع. صنعاء، 1994.
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد بن محمد ، ت 808هـ / 1405م : تاريخ ابن خلدون (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر). دار الكتاب اللبناني، ومكتبة المدرسة . بيروت، (د.ت).
- ابن الديبع ، عبد الرحمن بن علي بن محمد ، ت 944هـ / 1537م : قرة العيون بأخبار اليمن الميمون. تحقيق محمد علي الأكوع، القاهرة، (د.ت).
- ابن دعثم ، أبو فراس : السيرة المنصورية. تحقيق عبد الغني محمد عبد العاطي. بيروت، 1993.
- الذهبي ، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ، ت 748هـ / 1374م : سير

أعلام النبلاء. أشرف على التحقيق وتخريج الأحاديث شعيب الأرنؤوط . بيروت، 1988.

- السخاوي ، شمس الدين ، ت 902هـ / 1496م : التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة . بيروت، (د.ت).
- السنجاري ، علي بن تاج الدين بن تقي الدين ، ت 1125هـ / 1713م : منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم. تحقيق جميل عبد الله محمد المصري. مكة المكرمة، 1998.
- الطبري المكي ، محمد بن علي بن فضل ، ت 1173هـ / 1759م : تاريخ مكة إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن. تحقيق محسن محمد حسن سليم. القاهرة، (د.ت).
- الطبري ، علي بن عبد القادر ، ت 1070هـ / 1659م : الأرج المسكي في التاريخ المكي وتراجم الملوك والخلفاء. تحقيق أشرف أحمد الجمال. مكة المكرمة، 1996.
- عمارة اليمني ، عمارة بن علي ، ت 569هـ / 1173م : تاريخ اليمن. المسمى (المفيد في أخبار صنعاء وزبيد وشعراء ملوكها وأعيانها وأدبائها). تحقيق محمد علي الأكوع، القاهرة، 1976.
- العرشي ، حسين بن أحمد ، ت 1329هـ / 1911م : بلوغ المرام في شرح مسك الختام. تحقيق الأب انستاس الكرملي. صنعاء، (د.ت).
- ابن عبد المجيد ، تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني ، ت 743هـ / 1342م : بهجة الزمن في تاريخ اليمن. تحقيق عبد الله محمد الحبشي ومحمد أحمد السنباني. صنعاء، 1988.
- الفاسي ، أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد ابن علي ، ت 832هـ / 1428م : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام. بيروت، (د.ت).
- الفاسي ، أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد ابن علي ، ت 832هـ / 1428م : العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين. تحقيق / فؤاد سيد. بيروت، 1986.
- ابن فهد ، عز الدين عبد العزيز بن عمر ، ت 922هـ / 1516م : غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام. تحقيق فهيم محمد شلتون، 1986.
- ابن فهد ، النجم بن عم بن فهد ، ت 885هـ / 1480م : إتحاف الورى بأخبار أم القرى . تحقيق فهيم محمد شلتون. مكة المكرمة، 1983.
- الكبسي ، محمد بن اسماعيل ، ت 1308هـ / 1890م : اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية. نشر عبد الله بن محمد بن عبد الله الكبسي أحد أحفاد المؤلف. القاهرة، (د.ت).
- با مْخرمة . أبو محمد الطيب بن عبد الله ، ت 947هـ / 1540م : قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر الجزء الثاني. تحقيق عبد الرحمن محمد جيلان صغير (رسالة ماجستير- من قسم التاريخ - كلية الآداب - صنعاء)، (د.ت).
- الهمداني ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب ، ت بين عامي 350 و 360هـ / 960 و 970م) : الإكليل ج10. تحقيق محب الدين الخطيب. القاهرة، 1368هـ.
- الوصابي ، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الحبيشي الوصابي ، ت 783هـ / 1380م : تاريخ وصاب المسمى (الاعتبار في التواريخ والآثار). تحقيق عبد الله محمد الحبيشي. صنعاء، 1979.
- اليامي ، محمد بن حاتم بن أحمد ، ت 702هـ / 1302م : السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن. تحقيق ركس سميت. لندن، 1973.

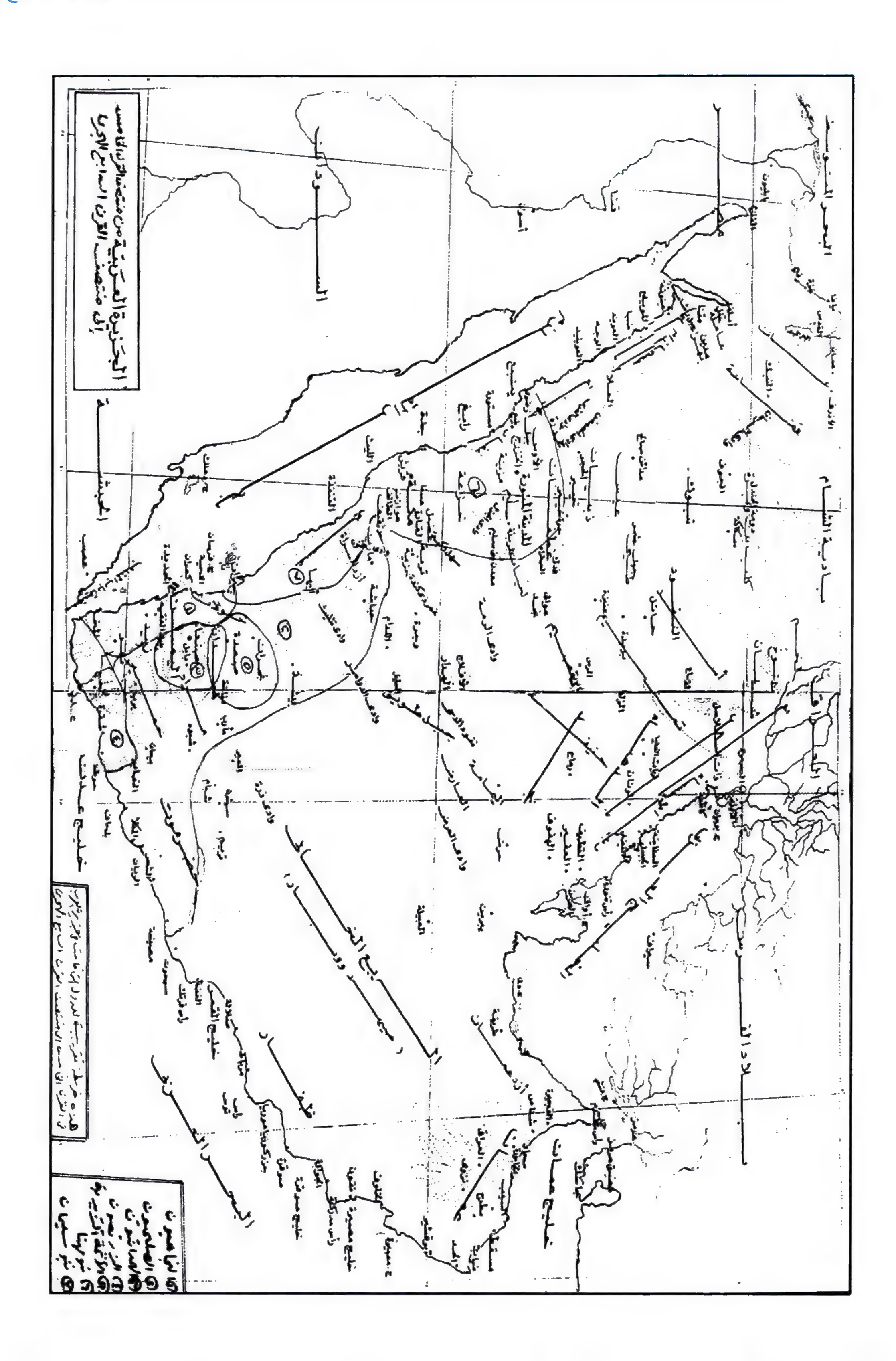
- يحيى بن الحسين : غاية الأماني في أخبار القطر اليماني. تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور. القاهرة، 1968.
- يحيى بن حمزة ، ت 745هـ / 1344م : مشكاة الأنوار الهادمة لقواعد الباطنية الأشرار. تحقيق محمد السيد الجنيد. القاهرة، (د.ت).
- ابن يعقوب ، الحسين بن أحمد : سيرة الإمام المنصور القاسم بن علي العياني. تحقيق عبد الله محمد الحبشي. صنعاء، 1996.

ثالثاً - المراجع العربية والمعربة :

- الجرافي ، عبد الله بن عبد الكريم : المقتطف من تاريخ اليمن. القاهرة، (د.ت).
- زباره ، محمد بن محمد (1380هـ / 1960م) : أئمة اليمن الجزء الأول. تعز، 1952.
- ستانلي لين بول : طبقات سلاطين الإسلام، بيروت، 1986.
- السروري ، محمد عبده : تاريخ اليمن الإسلامي منذ قيام الدولة الصليحية حتى نهاية الدولة الأيوبية. صنعاء، 2003.
- السعيد ، أحمد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة (تعريب لكتاب ستانلي بول مع الإضافات باللغة التركية - وأضاف المعرب دولاً أخرى) القاهرة، 1969.
- الشجاع ، عبد الرحمن عبد الواحد محمد : اليمن في عيون الرحالة. دمشق، 1993.
- الشريف ، مساعد بن منصور آل عبد الله الحسني : جداول أمراء مكة وحكامها منذ الفتح إلى الوقت الحاضر (8 هـ - 1420 هـ) ، نشر الشريف محمد بن مساعد آل عبد الله الحسني. مكة المكرمة، 1422هـ.
- العبادي ، أحمد مختار : في تاريخ المغرب والأندلس. بيروت، (د.ت).
- العبادي ، أحمد مختار : تاريخ المخلاف السليماني. الرياض، 1982.
- غالب ، مصطفى : أعلام الإسماعيلية. بيروت، 1964.
- الهمذاني ، حسين بن فيض الله : الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن (من سنة 268 إلى 626هـ). صنعاء، (د.ت).

رابعاً - الرسائل الجامعية :

- عارف ، أحمد عبد الله : أصول الاتفاق في القضايا الكلامية بين الزيدية والمعتزلة. (رسالة ماجستير) - قسم الفلسفة الإسلامية، كلية دار العلوم. جامعة القاهرة، 1982.
- شجاع ، عبد الرحمن عبد الواحد محمد : الحياة العلمية في اليمن في القرنين الثالث والرابع للهجرة. (رسالة الدكتوراه. تحت النشر)، (د.ت).
- نونو ، يحيى حسين : الحسبة عند الزيدية (ماجستير غير منشورة) كلية الشريعة والقانون. جامعة الأزهر، القاهرة، 1992.
- الوجيه ، محمد قايد حسن : الإسماعيلية في اليمن 268 - 569هـ / 883 - 1173م (رسالة ماجستير. جامعة المنصورة) ، 2002.



ثانياً : الحياة الاقتصادية والاجتماعية

برزت أهمية الجزيرة العربية من الناحية الاقتصادية بصورة كبيرة وخاصة منذ القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، وذلك لعدة أسباب منها تحوّل الطرق التجارية البرية في المشرق الإسلامي عبر بغداد إلى الطريق البحري عبر الجزيرة العربية، بسبب المشاكل السياسية المتتالية التي تعرضت لها الخلافة العباسية مثل ثورة الزنج والقرامطة وحركة البساسيري وضعف البويهيين والخلافة، بالإضافة إلى تواجد الصليبيين في بيت المقدس والذي منع وصول التجارة البرية من المشرق الإسلامي بانتظام إلى مصر ومنها إلى المغرب، فضلا عن أن الطريق البحري كان أكثر رخصا من الطريق البري وأكثر استيعابا لكمية الحمولة التجارية في المراكب مقارنة بالقوافل البرية، بالإضافة أيضاً إلى اهتمام حكّام الجزيرة ومصر والتجار فيهما بتنشيط التجارة البحرية عبر الجزيرة.

وسيكون تناولنا للأحوال الاقتصادية والاجتماعية في الجزيرة العربية من منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي إلى منتصف القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي بصورة مختصرة وإن كانت تعطي فكرة واضحة عنها. ونستعرض تسمية الجزيرة، وحدودها، والمناخ، وموارد المياه، والعمل الزراعي، وأنواع المحاصيل، وأهم الصناعات، بالإضافة إلى النشاط التجاري وأهم مراكزه. وسنركّز في هذا العرض على ذكر أهم مناطق الجزيرة التي ظهر فيها النشاط الزراعي والصناعي والتجاري. كما نستعرض أهم عناصر السكان وهم القبائل العربية بالإضافة إلى شرائح المجتمع العامة والخاصة.

أولاً : الأوضاع الاقتصادية

أولاً - الموقع :

تحتل الجزيرة العربية موقعاً وسطاً في العالم الإسلامي. وقد زاد من أهمية موقعها المتوسط أهميتها الدينية لوجود مكة كقبلة للمسلمين يأتون إليها سنويا للحج، فأدّى ذلك إلى بروز النشاط التجاري والديني للجزيرة عبر مراحل تاريخها الإسلامي. وسوف نستعرض هنا حدود الجزيرة وتضاريسها ومناخها وموارد المياه فيها، وذلك لأهمية هذه العوامل في الحياة الاقتصادية والاجتماعية لسكان الجزيرة العربية.

التحديد :

يذكر الجغرافيون المسلمون القدامى أنّ الجزيرة العربية يحدها البحر من ثلاث جهات هي الغرب والجنوب والشرق، ويكمل حدود الشرق البحري نهر الفرات. أما من جهة الشمال فتحدها أطراف الشام (بادية الشام). وهذا التحديد يطابق التقسيم الجغرافي للأقاليم.

التسمية:

ومن حيث التسمية يعلّل الجغرافيون القدماء تسميتها بالجزيرة العربية لكونها محاطة بالبحار والأنهار من جميع أقطارها وأطرافها، أي إنها مثل

أيَ جزيرة من جزر البحر. وهم يعتبرون خليج أمير المؤمنين ذاك الذي يمتد من البحر الأحمر عند القلزم إلى نهر النيل في الفسطاط، ومنها يمتد حتى البحر المتوسط. وتسير الحدود البحرية عبر مدن الشام حتى أطراف سوريا، ومنها تسير الحدود النهرية فتلتقي بنهر الفرات، وبذلك تصبح الأنهار والبحار محيطة بالجزيرة العربية تسمية وليس تحديدًا.

التضاريس :

يغلب على الجزيرة العربية أنها صحراوية وجبلية. فالكثير من الجغرافيين القدامى يقسمون الجزيرة العربية إلى خمسة أقاليم هي تهامة ونجد والحجاز والعروض واليمن.

المناخ :

تقع الجزيرة العربية قرب خط الاستواء من الناحية الشمالية، لذلك ترتفع فيها درجة الحرارة وخاصة في أقاليم تهامة ونجد والعروض وبعض أقاليم الحجاز واليمن. وأهم المناطق التي تشتد فيها الحرارة هي شرق الجزيرة (البحرين) بقراها ومدنها، وعُمان ومكة، بالإضافة إلى جميع مدن سواحل الجزيرة العربية مثل تهامة وصحار وعدن وجدة وغيرها. ويسود هواء معتدل الكثير من مناطق إقليم اليمن وخاصة السلسلة الجبلية الوسطى، وبعض مناطق الجزيرة مثل ظفار في عُمان، وصنعاء في اليمن، والطائف والمدينة في الحجاز وغيرها . ويعمل على تخفيف درجة الحرارة في الجزيرة العربية تغير فصول السنة وسقوط الأمطار فيها صيفاً.

وبالنسبة للرياح فإنها تعمل في بعض مناطق الجزيرة العربية على تحريك الرمال من مكان إلى آخر، منها المنطقة الواقعة بين عُمان والبحرين والتي عملت فيها الرياح على منع الناس من سلوك الطريق الموصل بينهما. وقد حاول الكثير من الناس في هذه المنطقة نصب سعف النخيل لحماية قراهم ومزارعهم. وإذا اشتدت عليهم الرياح انتقلوا إلى مناطق أخرى.

موارد المياه :

لا توجد في الجزيرة العربية أنهار كبيرة دائمة الجريان كما هو الحال في مصر والشام والعراق وغيرها. ولكنها تعتمد اعتماد كثيرا على الأمطار، بالإضافة إلى وجود موارد مياه أخرى هي الأنهار الصغيرة والعيون والينابيع والغيول والآبار والأفلاج وغيرها. وكلّ موارد المياه هذه تعتمد في تغذيتها على الأمطار التي تهطل على الجزيرة. وموعد هطول الأمطار في الحجاز وعُمان واليمن هو، في الغالب، موسم الصيف، من شهر حزيران / يونيو حتى أيلول / سبتمبر، وربما هطلت الأمطار في اليمن في أحد أشهر الصيف وأشهر الخريف. وقد يمتد هطول الأمطار في جبال اليمن إلى ستة أشهر من شهر أبريل / نيسان حتى سبتمبر / أيلول.

الوصف :

تتصف الجزيرة العربية بأنها عبارة عن صحراء قاحلة وجبال جرداء لانعدام هطول الأمطار فيها. كما تتصف بأن بها الكثير من القرى والمدن والمناطق والبلدان التي تنتشر بها أنواع المزروعات لسقوط الأمطار فيها. من ذلك اليمن وعُمان في جنوب الجزيرة، واليمامة وهجر والأحساء والقطيف والبحرين في شرق الجزيرة، بالإضافة إلى مدن وقرى كثيرة في أماكن متفرقة من الحجاز مثل الطائف والمدينة المنوّرة وخيبر

وينبع وبدر ووادي القرى وغيره. وهذا الوصف يعطينا مؤشرا واضحا عن المناطق التي يتمركز فيها السكان والمناطق الزراعية والصناعية.

ثانياً - الزراعة :

تعتبر الزراعة من أهم الأنشطة التي تحقق الاستقرار للأفراد، كما أن لها تأثيرا كبيرا في التقدم الحضاري للأمة. وقد اهتم الحكام والأفراد اهتماما كبيرا بالزراعة لأنها تشكل المصدر الرئيسي للحياة. واعتمدت الزراعة في الجزيرة العربية على النشاط البشري أكثر من العامل الطبيعي، لاعتماد الزراعة في الجزيرة على الأمطار لا على الأنهر الكبيرة.

وسوف نذكر هنا أهمَ مناطق الجزيرة التي استغل الإنسان فيها السيول وأقام السدود والآبار والبرك والأفلاج، بالإضافة إلى استغلاله الأنهار الصغيرة والعيون والغيول. وهذا الاستعراض يعطينا فكرة عن أماكن انتشار النشاط الزراعي وعن أنواع المحاصيل فيها. كما أنه يدلل على مجمل النشاط البشري والحياة الاقتصادية والاجتماعية للجزيرة العربية.

1 - أنواع ملكية الأراضي الزراعية :

ملكية الأراضي في الجزيرة العربية ملكية خاصة، وملكية للدولة، وأراضي وقف، وأراضي إقطاع، وصوافي، وضيعات، وأراضي غير مملوكة.

فالملكية الخاصة للأفراد هي الملكية الرئيسية للأراضي في الجزيرة العربية والأكثر انتشارًا، وتتوزع هذه الملكية ما بين ملاك صغار وهم الأغلبية، وملاك كبار يملكون أراضي واسعة وهم قلة، منهم على سبيل المثال الشيخ علي بن أحمد المعلم (ت 596هـ / 1199م) الذي كان يملك أراضي زراعية كثيرة في ذي جبلة وما حولها مثل المجرعة وضراس وذي أشرف وغيرها، ومنهم محمد بن أحمد المسكيني (ت 569هـ / 1173م) الذي كان يملك مع أسرته غالب أراضي السحول ونواحي من بعدان وحصن شواحط.

وبخصوص ملكية الدولة للأراضي فقد تعددت، منها ما صارت ملكاً للدولة عن طريق المصادرات والاستصفاء والشراء واستصلاح الأراضي وزراعتها.

2 - العمل الزراعي :

التسميد :

التسميد عامل مهم في إخصاب التربة الزراعية. وأجود أنواع السماد هو زبل الحمام وسرقين الطير ثم سرقين الخيل والبغال والحمير ثم الضأن والماعز والبقر. ويصير السماد جيدا إذا خلط سرقينان معا أو إذا خلط سرقين بثلاثة أمثاله من التربة. وطريقة التسميد هي أن ينثر السماد على طول الجربة ثم يحرث.

الحرث :

يعتبر الحرث من أهم العمليات الزراعية لأنه يعمل على تقليب التربة وتنقيتها من الحشائش الضارة بالزراعة. ومن الأهمية أن تحرث الأرض الزراعية عندما تجف منها المياه. وعادة ما تحرث الأرض بعد تسميدها. وتختلف حراثة الأرض بحسب نوعية التربة من الجودة والضعف والصلابة واللين وعلى حسب نوعية المحاصيل الزراعية. فمثلا الأرض التي تزرع البر (القمح) تحرث تربتها جيداً. وفي زراعة الدخن والذرة تحرث الأرض مرتين أو ثلاث مرات. وفي السمسم تحرث أربع أو خمس مرات. وقد تحرث الأرض مرة واحدة في الأراضي

الجيدة التربة ثم تبدأ عملية الزراعة بها. ويختلف زمن الحرث بحسب زمن زراعة المحاصيل الزراعية. وتحرث الأراضي بالمحراث الذي يجره ثوران أو جمل أو حمار أو غيرها.

البـذر :

يُعتبر البذر بداية العملية الزراعية للمحاصيل. ويتم البذر بحسب نوعية المحاصيل المزروعة وحسب نوعية الأرض. فالقمح (البر) يبذر والأرض ندية من المطر، ويغطى البذر بالتربة عن طريق الحرث. وبالنسبة إلى الذرّة فإنها تبذر والأرض جافة، وطريقة البذر فيها أن توضع في (أتلام) أي خطوط مستقيمة مستوية كلّ خط بجانب الآخر غير منطرح عليه. وتنثر حبوب الذرة إثر المحراث كي يغطي الحب. وإذا لم يغطها تراب المحراث يغطيها الباذر بالتربة بقدميه.

عدد مرات الزراعة :

الأراضي الجيدة التربة والتي تحتفظ بنداها أو رطوبتها لفترة طويلة، قد تزرع مرّتين أو ثلاث مرات أو أربع مرات، مثل أراضي صنعاء وذمار والسحول ومأرب وبعض أراضي تهامة. وهناك أراض لا تحتفظ برطوبتها أو نداها كثيرا، لذلك فهي تزرع لمرة واحدة مثل بعض المدرجات في اليمن.

نظام الري :

تعددت طرق ري الأراضي الزراعية في الجزيرة العربية. ومن أهمّ هذه الطرق الري بالسيول والسدود والأنهر الصغيرة والغيول والينابيع والبرك والآبار والأفلاج .

السـيول :

يُؤدي هطول الأمطار على مرتفعات وجبال جنوب الجزيرة العربية ووديانها إلى تكوين سيول. وأثناء سير هذه السيول تعمل على إنشاء مجار مائية تسمى مسايل. وتعتبر المسايل ملكا عاما لكل من يملك أراضي زراعية على جانبي مجاري السيول. وهي من المنافع العامة التي لا يجوز لأحد من الناس امتلاكها منفردا دون الآخرين. كما لا يجوز للحاكم إقطاعها أو امتلاكها أو تمليكها. والكثير من أودية الجزيرة العربية تروى عن طريق السيول، مثل وادي زبيد وسهام ورمع وسردد وغيرها.

والطرق المتبعة في ريّ الأراضي الزراعية في السيول هي أن يروي المزارعون أراضيهم ابتداء من بداية السيل الأول ثم الذي يليه كل حسب دوره حتى يروي جميع المزارعين أراضيهم، وليس لأحد الحق في حجز المياه أو يحلّ في دوره قبل غيره. وعندما يأتي سقوط المطرة الثانية يبدأ الري من حيث انتهى ري المطرة الأولى حسب دوره حتى نهاية السيل. وإذا تأخرت المطرة وبدأ ضمور زرع المطرة الأولى يبدأ سقي الأراضي من أعلى الوادي كل حسب دوره.

السـدود :

نظراً لاعتماد اليمن على الأمطار، فقد اشتهرت ببناء السدود لخزن مياه الأمطار والاستفادة منها في ري الأراضي الزراعية في الأوقات التي تقل أو تنعدم فيها الأمطار. ومعظم مناطق اليمن وجدت بها السدود. من ذلك أنه وجدت في أرض يحصب لوحدها ثمانون سدا. كما وجدت سدود في اليمن في عدة مناطق. وأشهر سدود

اليمن القديم هو سدّ مأرب. وهو عبارة عن حاجز أقيم بين جبلين في وادي أذينة في مأرب. وبعد انهيار السدّ أصبحت بعض هذه الأراضي تروى بواسطة السيول. وفي العصور الإسلامية أقام اليمنيون في عدة مناطق من اليمن سدوداً صغيرة الحجم قرب ينابيع المياه والغيول والمجاري الفرعية للسيول للاستفادة منها في ريّ أراضيهم.

الأنهر الصغيرة :

توجد الأنهر الصغيرة في العديد من مناطق الجزيرة العربية. من ذلك أنه توجد الأنهر في مدن البحرين وهجر والقطيف والأحساء والزار والخط، ونزوة بعُمان، وشبام كوكبان، وذي جبلة وصعدة وما بين ذهبان وصعدة، وفي أغلب أودية الجزيرة. كما توجد الأنهر في جزيرة أوال (البحرين حاليًا)، وسقطرى وفرسان. وطريقة الري من الأنهر تشبه طريقة الري من السيول.

العيون :

توجد العيون في الكثير من مناطق الجزيرة العربية في صنعاء والمخاء وشبام كوكبان، ووادي القرى، وبدر ووادي السر وصعدة وقرى حول الحرم. وكمثال لكثرة العيون يوجد في منطقة شاهر قرن في ملحان باليمن 99 عينا من الماء. وطريقة الري من العيون تشبه الري عن طريق السيول.

الغيول :

هي أشبه بالأنهر الصغيرة. وتوجد في صنعاء ووادي ضهر ووادي الجنات بتعز وغيل الخارد بالجوف وغيرها. وطريقة الري من الغيول تشبه طريقة الري من السيول.

الآبار :

لا تخلو قرية عامرة من قرى الجزيرة العربية من آبار نظرا لاستخدام مياه الآبار لشرب الإنسان والحيوان ثم ريّ الزراعة. ففي صنعاء توجد بئر في كل منزل، يفضلون الشرب منها على مياه العيون عندهم. وفي زبيد يوجد في كل منزل بئر، ويفضلون الشرب منها على مياه العين الجارية. كما توجد الآبار في ذمار وفي صحار، وعُمان، ونزوة، والحجر، وغلافقة وخيبر وغيرها من القرى. وطريقة الري من الآبار هي أن تنزع المياه بواسطة دلو عن طريق البقر أو الحمير أو العبيد أو غيرها إلى أحواض قرب البئر، ثم تروى الأراضي الزراعية من هذه الأحواض.

البرك :

تنتشر البرك في مناطق متعددة من الجزيرة العربية. وهي تبنى لأغراض شرب الإنسان والحيوان وري الأراضي الزراعية. وتبنى في أماكن قريبة من مياه العيون أو الينابيع أو مجاري سيول في الأراضي المراد ريها. وعادة ما تبنى البرك بالتعاون بين المزارعين كلّ على قدر ما يملك من أراض زراعية أسفل البرك.

الأفلاج :

وهي عبارة عن قناة للمياه تبنى بناء محكما يمنع تسرب المياه منها. وتغطى هذه القناة ثم يفتح غطاؤها بالقرب من القرى والمزارع للاستفادة من مياهها في الشرب وري الأراضي الزراعية. وتمتدّ هذه الأفلاج حسب قوة وكثرة المياه من بداية منابع المياه، فتمرّ بعدة قرى ومزارع حتى نهاية وصول المياه. ويكون مجرى الأفلاج الرئيسية ملكاً عاماً

لمن يقومون ببنائها، وتكون المجاري الفرعية ملكاً خاصاً لأصحاب الأراضي الزراعية.

الحصاد :

يختلف نموّ المحصول الزراعي وحصاده بحسب نوع التربة والمزروعات والمناخ. فالبر الأبيض العربي والهلبا والوسني يزرع في المناطق الجبلية الباردة والمعتدلة، ويمكث في التربة منذ زراعته حتى حصاده بعضه ثلاثة أشهر ونصف وبعضه أربعة أشهر ونصف. والذرة البيضاء والصفراء والحمراء تمكث في التربة منذ زراعتها حتى حصادها في المناطق الجبلية خمسة أشهر أو سبعة أشهر حسب الصنف.

دوس الحبوب:

بالنسبة للقمح (البر) فبعد حصاده تجفف السنابل بالشمس ثم تكوّم بحيث تكون ثمارها من أعلى مجتمعة وجذوعها من أسفل مفتوحة على شكل هرم. وبعد ثمانية أيام من تكويمه يفك ويداس بالمداس بواسطة الثيران. وتستمر عملية الدوس حتى تخليص الحب من التبن، ثم يصفى من بقايا التبن بذري الحبوب على الرياح، ثم تخزن بمخازن خاصة بالحبوب. وبالنسبة للذرة فتقطع سنابلها من عيدانها ثم تداس أو تخبط بالمخباط إذا كانت قليلة، ثم تكال وتخزن.

التقاوي :

من أجل إعداد البذر للسنة القادمة، يعمل المزارع على اختيار أحسن السنابل وأكثرها حبا وأذكاها وأجودها، ثم يضحيها حتى تنشف رطوبتها. ثم تخلص من سنابلها وتحفظ في مكان غير معرض للشمس أو الرطوبة حتى لا تسوّس. ثم تخزن ثم تخرج وتبذر عندما يحين موسم الزراعة.

أنواع المحاصيل الزراعية :

تزرع في الجزيرة العربية أنواع الحبوب وأنواع الفواكه والخضروات وأنواع الزهور والورود. وفي الجملة لا تخلو قرية من قرى اليمن والجزيرة من الأشجار والفواكه والحبوب. وسوف نستعرض هنا أهمّ أنواع المحاصيل الزراعية وأهم المناطق التي تزرع بها هذه المحاصيل.

الحبوب :

تعتبر الحبوب من المصادر الرئيسية للتغذية، لذلك انتشرت زراعتها في أنحاء الجزيرة العربية. ومن أهم الحبوب التي تزرع بها الذرة الرفيعة والشامية والبر (القمح) والشعير والسمسم والحنطة. ومن أهم المناطق التي تزرع بها هذه الحبوب جميعها أو بعضها هي السحول وذمار ورعين ومخلاف ذي جرة وخولان ومسور ومخلاف الجند (تعز) وذي جبلة، كما تزرع في صعدة والجوف ومأرب وبيحان ونجران وأبين وأودية تهامة مثل وادي فشال وزبيد وسردد ورمع وجزيرة سقطرى وفرسان وحضرموت ومهرة. كذلك تزرع أنواع الحبوب في عُمان والبحرين وضواحيها في هجر والقطيف والخط وإقليم نجد والحجاز في مناطق متعددة من المدينة المنورة وضواحيها وخيبر والطائف وضواحي مكة وتبوك وينبع وغيرها. ويزرع في صنعاء جميع أنواع البقول بالإضافة إلى أنواع الحبوب. وفي ما بين صعدة والطائف يزرع الحنطة والشعير.

النخيل :

تنتشر زراعة النخيل في مناطق متعددة في الجزيرة العربية. وتتنوع كثرتها وقلتها وجودتها من منطقة إلى أخرى.

ومن أهم المناطق التي تجود بها زراعة النخيل هي المدينة المنورة وبدر والمروة ووادي القرى والسروات، واليمامة وعمان ونجران. ومن أهم المناطق التي تكثر فيها زراعة النخيل هي المدينة المنورة وينبع وعمان والأحساء وهجر والقطيف وزبيد. ومن أهمَ المناطق التي توجد بها زراعة النخيل هي جرش ونجران وخيبر وحضرموت وإقليم نجد وأودية تهامة وغلافقة وهجر وصحار.

الفواكه :

تزرع أنواع الفواكه في أنحاء الجزيرة العربية، ومن أهم المناطق التي تزرع بها هي صنعاء وزبيد وتعز ووادي الجنان وأبين وعمان والطائف والحجاز وإقليم نجد وفيما بين صعدة والطائف من القرى. وكمثال لأصناف الفواكه المزروعة في الجزيرة نورد مثالين أحدهما فواكه صنعاء وما حولها وهي البرقوق المشمس وأنواع التفاح الحلو والحامض والممزوج وأنواع الخوخ (الفرسك) الحميري والفارسي والهندي، وأنواع الرمان- الحلو والحامض والممزوج - وأنواع الكمثرى وأنواع الإجاص وأنواع العنب التي قد تصل إلى سبعين نوعا. والسفرجل والبطيخ. بالإضافة إلى الجوز واللوز والفستق وقصب السكر. وتزرع هذه الأصناف أو بعضها في كل من تعز وزبيد وإقليم نجد وعُمان، وما بين صعدة والطائف ووادي ذؤال.

وأصناف الفواكه المزروعة في زبيد هي العنب والرمان والتين والبلس والنارجيل والقثاء والباذان والنخيل والموز والليمون والنارنج الحلو والحامض. وما يزرع في زبيد يزرع في نجد والحجاز وعُمان.

المشمومات العطرة :

ومن المزروعات ذوات الروائح الطيبة من الورود والزهور يزرع في الجزيرة العربية أنواع كثيرة منها. وكمثال يزرع في صنعاء ألوان الرياحين والورود والياسمين والنرجس وألوان السوسن. ويزرع في زبيد اللينوفر والفل الأبيض والياسمين وزهرة الكاذي والغافية (الحنون) والريحان والوزاب. وما يزرع في زبيد وصنعاء يزرع في عُمان ونجد والحجاز.

الحيوانات :

اهتم سكان الجزيرة العربية بالمراعي وتربية الحيوانات وذلك لأهمية الحيوانات في الركوب ونقل البضائع، مثل الجمال والحمير والبغال. واستخدامها للألبان واللحوم مثل الضأن والغنم والبقر. ففي الحجاز توجد الإبل والضأن والماعز، وفي اليمن يوجد الخيل والبغال والجمال والحمير والبقر والغنم. وما يوجد في اليمن والحجاز يوجد في عُمان ونجد.

ثالثاً - الصناعة :

تعتبر الصناعة إحدى مراحل تطور الحاضرة الإسلامية، لأنها عبارة عن تلبية لحاجة الناس لأنواع الملبوسات وأنواع الأواني المنزلية والأسلحة وغيرها. وهي بمثابة المؤشر الحقيقي لتطور الحياة الحضارية لأهل الجزيرة. وسوف نستعرض فيها أهم أنواع الصناعات وأهم المناطق التي وجدت بها هذه الصناعات.

مارس أهل الجزيرة العربية أنواعا متعددة من الصناعات اليدوية فظهرت في الجزيرة الكثير من الصناعات مثل صناعة السيوف والخناجر وأدوات

الفلاحة والجلود والحلي وأنواع الملبوسات. وقد وجدت الصناعات في أنحاء الجزيرة العربية، واشتهرت اليمن بالكثير من الصناعات ومن شهرتها أنه نسب إليها (السيف القاطع والدرع الحصين والحلة المصونة والدرة المكنونة). كما وصف البكري اليمن بأنها (أشرف البلدان ثيابا وسيوفا). وكان أهل الجزيرة يتعلمون الحرفة وراثيا، فالأب يعلم أولاده حرفته، فظهرت أسر متخصصة بحرفة معينة، واشتهرت باسم الحرفة التي تعمل بها مثل الحائك والنساج والصباغ والنجار والعطار والحداد وغيرها. وفي الحديث عن الصناعة نورد أنواع المواد الخام ثم أنواع الصناعات:

المواد الخام :

اعتمدت الصناعة على توفر المواد الخام التي يوجد منها في الجزيرة الذهب والفضة والحديد والعقيق والجزع والزمرد والجلود وغيرها. نذكر أهم المناطق التي وجدت بها هذه المعادن، وهي كالآتي:

الذهب :

يوجد الذهب في الحجاز قرب المدينة المنوّرة وهو المسمى معدن النقرة، وفيما بين ينبع والمروة، وفيما بين صعدة ونجران، والحلة بحجور حجة وفي صرواح قرب بيحان وفي سلوق بخدير، كما توجد في عتم وضنكان وهما أجود الذهب، وفي القفاعة من أرض بني حكم وفي أراضي بني مجيد وسبأ بمأرب. والرطل الذهب من ضنكان وقفاعة يساوي ما بين مائة دينار ومائة وستة دنانير.

الفضة:

أما الفضة فتوجد في (سلوق) وقرب بيحان. والذهب والفضة يعمل بعضه في اليمن وبعضه يصدّر إلى العراق وفارس والشام ومصر.

الحديد :

يوجد الحديد في (رغافة) بصعدة وفي عدن وودادعة بين صعدة والحجاز ونجران وبيحان والتي صنعت منها السيوف، وأخيرا في نقم وغمدان.

العقيق :

يوجد العقيق في مخلاف صنعاء وفي مقرى والهان بأنس وجبل قساس. وأجود أنواع العقيق هو البقراني الموجود بجبل انس والذي له ثلاثة ألوان: الفص الأحمر بعرقين أبيض وأسود. ثم السعواني بقرب صنعاء. وفصه أسود بعرق أبيض ويوجد منه بحجة في شهار وعيشان بالأهنوم وظليمة والجمش. كما يوجد العشاري بالقرب من صنعاء ولونه سماوي. وهناك العقيق ذو اللون الأحمر والأصفر في الهان.

الجزع :

وهو نوع من العقيق له أنواع منها الموشي والمسير، ومنها النقمي والسعواني والضصري والخولاني والجرني من عذيقة والشزب. ومن أنواع الجزع البقراني والعرواني والفارسي والحبشي والمعسل. ويعمل من الجزع الشزب ألواح وصفائح وقوائم سيوف ونصب سكاكين ومداهن وقحفة (خوذ) وغير ذلك.

اللؤلؤ:

يوجد اللؤلؤ قرب جزيرة أوال (البحرين) وهو لا مثيل له في الكبر والصفاء والاستواء في خلقها وأجزائها، ويوجد في عُمان وما والاها من المواضع وهو من النوع الجيد. كما يوجد اللؤلؤ في جزيرة سقطرى وجزيرة مصير وجزيرة خارج، ويوجد اللؤلؤ في القطيف.

معادن أخرى :

كما توجد أنواع أخرى من المعادن مثل الزمرد (الزبرجد) الذي يوجد بين العويند والحوراء، ويوجد البلور وهو الحجر الأبيض الشفاف في مواضع من اليمن والعنبر فيما بين عدن والمخا على حافة البحر وفي الشحر، والمسن في الحجاز بناحية خيبر.

النشاط الصناعي :

الصناعات المعدنية :

اشتهرت الجزيرة بصناعة السيوف والدروع والحلي والدرر، فصنعت السيوف في صنعاء وهي مشهورة بقطع اليابس والرطب. وفي (بيلمان) و(برعش). وتوصف السيوف اليمانية بالليونة وعدم الانكسار. كما صنعت السيوف في مكة والمدينة وعُمان. وصنعت النصال في صعدة وعُمان وحضرموت. وصنعت السهام قرب مكة. وفي صعدة والدروع في سلوق والسياط في ذي أصبح والأسنة في ذي يزن والرماح في شرعب والشراعة والسمهرية. وكان يصنع من الجزع الأواني الكبيرة ومن حجر يشاكل الرخام ولكنه أشد بياضا منه. وكان يصنع من العقيق والجزع قوائم للسيوف ومقابض للنصال والسكاكين والخناجر، من ذلك أن أرسل علي الصليحي حاكم اليمن هدية إلى الخليفة الفاطمي بمصر سبعين سيفا قوائمها من العقيق. كذلك صنعت في الجزيرة الحلي من الذهب والفضة وزيّن بعض الحلي بفصوص العقيق والجزع واللؤلؤ.

الصناعات الجلدية:

اشتهرت الجزيرة العربية بدباغة الجلود والصناعات الجلدية نظرا لتوفر شجر القرظ الذي يُستخدم لدباغة الجلود. وتدبغ الجلود (الأديم) في جميع إقليم اليمن والحجاز ونواحيها وعُمان. وأهم مناطق دباغة الجلود في الجزيرة الطائف وصنعاء وصعدة ونجران وجرش ومكة وزبيد. ففي مكة تدبغ جلود الجمال والبقر والغزلان. والأديم (الجلود) الطائفي لا يصنع مثله في أي قطر. ودار الصناعة في صعدة عديمة المثال. وفي اليمن تدبغ جلود البقر الجبلانية التي يبلغ الجلد منها من عشرة إلى عشرين مثقالاً. وتصنع من الأديم في صنعاء الركاء (المسب) الجيدة والأنطاع (البساط) الحسنة، والنعال المشعرة. وتصنع في اليمن من الجلود سروج للخيل والبغال والفرش النفيس، وتصنع النعال من جلود البقر المتلمعة في مخلاف فيباع النعل من جلودها بدنانير لوجود تلميع فيها مع بياض وصفرة كأحسن الوشي.

كما صنعت بعض البرود من الجلود. وكانت الجلود (الأدم) تجلب إلى اليمن لدباغتها من بلدان متعددة، وبعد دباغتها تصدّر إلى بلدان متعددة.

صناعات أخرى:

تصنع الزيوت (السليط) في المخاء وصنعاء ولحج وحيس، والعطور والزجاج في عدن، والفخار في صنعاء وذي جبلة، كما تصنع الحلويات في اليمن.

المنسوجات:

وجدت في الجزيرة العربية صناعة الملبوسات في أماكن متعددة. فاليمن اشتهرت أنها معدن العصائب (أي البرود)، كما تنسب إليها الحلة المصونة. كما اشتهرت بأنها من أشرف البلدان صناعة للثياب. فالبرود صنعت في السحول والجريب وزبيد وصنعاء. وصنعت البرود في

المعافر وعدن وشرعب، حيث يبلغ الثوب من البرد خمسمائة دينار. وصنعت الأردية في صنعاء، والأردية والعمائم في عدن. وصنعت الثياب في المعافر وفي السحول وفي عدن وزبيد وظفار والتي يصنع بها ثياب الحرير والقطن والكتان في غاية الحسن. وصنع الحرير في زبيد وحجة. وصنعت في صنعاء الحبرات (البرود) من القطن والتي لايصنع مثلها في أي قطر، ومنها تصدر إلى أنحاء البلدان. كما صنعت في اليمن ملابس الوشي والحلل اليمانية، وهي الثياب الجيدة الغليظة أو الرقيقة، وتتكون من قميص وإزار ورداء.

الأصباغ :

استخدم صناع الملبوسات أنواعاً متعددة من الأصباغ مثل اللون الأبيض والفاتح والمائل إلى الصفرة والأصفر الفاتح والسمني والأزرق. واستخدموا مادة الصباغة من عدة أشجار. ومن أهم أنواع النباتات التي تستخدم للصباغة هي (الورس) ومنه الأسود والأحمر، وهو الأجود، والأصفر. ويوجد في المذيخرة. و(العصب) ولونه أحمر، (والفوّة) ولونها أحمر أيضا. وقد انتشرت زراعة الفوّة في اليمن بشكل واسع في العهد الأيوبي سنة 615هـ/1218م حيث زرعه اليمنيون في جميع جبال اليمن لأن الجريب من الفوّة كان يغلّ ستين دينارا فيما يغلّ الجريب من الحنطة والشعير خمسة دنانير. وكان الصناع عادة ما يخلطون الأصباغ بالعطور لكي يجعلوا الملابس تفوح بالرائحة العطرية الجميلة.

رابعاً - التجـــارة :

تعتبر التجارة من المظاهر الهامة في الحياة الاقتصادية. وتبرز أهمية تجارة الجزيرة العربية في أن موقعها يتميز بعدة ميزات رئيسية منها أنها تطل على عدة بحار متصلة بالكثير من البلدان. وهذه الميزة جعلت التجارة البحرية للجزيرة أهم أنواع التجارات. ومنها أنها تتوسط قارات العالم. فهي تقع منتصف الطريق البحري الموصل بين المشرق والمغرب وأقصرها. لذلك كان لتجار الجزيرة العربية دور هام في التجارة العالمية البرية والبحرية فيما بين المشرق والمغرب عبر العصور التاريخية. كما كان لهم دورٌ بارزٌ في نشر الدين الإسلامي وحضارته في أنحاء البلدان التي تاجروا معها، وخاصة جنوب آسيا وجنوب شرق إفريقيا، وهي البلدان التي تاجروا معها أكثر من غيرها.

ومن الأهمية هنا أن نستعرض الطرق التجارية البرية والبحرية لأنها إحدى الركائز الأساسية للتجارة، ثم نوع التبادل التجاري عبر البر والبحر، وكذلك أنواع البضائع التجارية والبلدان المصدرة والمستوردة لهذه البضائع، وذلك للتعبير عن انتشار الحركة التجارية وحجمها وعلاقتها مع هذه البلدان تجاريا. ونوضح ذلك بالآتي:

التجارة الداخلية:

الطرق البرية :

للطرق البرية أهمية كبيرة لأنها تخدم أغراضا متعددة، منها يسير الحجيج إلى مكة والمدينة ويسير الجند ومؤنهم من بلد إلى آخر وتنقل الرسائل البريدية، والأموال كالخراج وأنواع الجبايات وغيرها، بالإضافة إلى نقل البضائع التجارية من بلد إلى أخرى ومن مكان إلى آخر.

وعادة ما تمرّ الطرق البرية عبر القرى من أجل التزود بالمياه والطعام والاستراحة من السفر، بالإضافة إلى توفر الأمن والاتجار وغيره. وفي حالة عدم وجود قرى في خط سير الطريق فقد جرت

العادة أنهم يبنون في كل مرحلة محطة للاستراحة من السفر ومسجدا للصلاة ويحفرون بئراً لمياه الشرب.

واهتم حكام الجزيرة العربية بإصلاح الطرق وتعبيدها، منهم القائد الحسين بن سلامة (ت 426هـ/1034م) وزير أواخر أمراء الدولة الزيادية، الذي أصلح الطريق من حضرموت إلى عدن وطول المسير عليها شهر. كما أنه أصلح الطريق من عدن إلى مكة وطول المسير عليها شهر. ومنهم على الصليحي (ت459هـ/1066م) الذي أصلح الطريق من زبيد إلى المهجم وكان ينوي إكمالها إلى مكة. ومنهم السيدة الحرة الصليحية (ت530هـ/1135م) التي عملت على تعبيد الطريق من رأس جبل سمارة إلى السياني.

خط السير :

في الغالب كان طريق أهل عُمان إلى جدة والبصرة عبر البحر. أما إذا أرادوا أن يسلكوا طريق البر إلى جده ومكة فقد كانوا يسيرون من عُمان إلى مهرة ثم حضرموت ثم إلى عدن ثم إلى جدّة أو مكة بنفس طريق أهل اليمن. أما الطريق البري تجاه اليمامة فهم لا يسلكونه لصعوبة السير فيه.

وبالنسبة لطرق اليمن البرية فلها عدة طرق رئيسية أكثرها تقطع اليمن من الجنوب إلى الشمال إلى جدة ومكة والشام ومصر والعراق. وهناك عدة طرق فرعية توصل فيما بين مدن اليمن وقراها المتعددة. فمن الطرق الرئيسية نذكر:

الطريق الجبلي:

تخترق هذه الطريق السلسلة الجبلية الوسطى لليمن وتمرّ بعدة قرى زراعية ومدن، فتبدأ من عدن ثم تسير عبر الجند وأب وذمار ثم صنعاء وصعدة. ومنها تسير طريق نحو العراق، وطريق نحو الطائف، وطريق نحو مكة، وطريق نحو جدة.

سهل تهامة :

تخترق هذه الطريق وسط سهل تهامة فتمرّ بعدة قرى زراعية ومدن، فتبدأ من عدن عبر موزع وحيس وزبيد والمهجم والكدراء وعثر ثم السيرين ثم مكة أو جدة.

الطريق المحاذي للساحل:

وهو يمرّ عبر عدة مراسي بحرية لليمن معظمها ليست بها زراعة، فتبدأ من عدن ثم المندب ثم المخاء ثم الأهواب ثم غلافقة وحلي ثم السرين ثم جدّة. ومن جدّة تسير الطريق البري إما إلى مكة ومنها إلى العراق أو اليمامة أو البحرين، أو إنها تسير إلى المدينة ومنها تسير الطريق البري إما إلى العراق أو الشام أو مصر. وهناك طريق بري من المدينة تسير إلى معدن النقرة وهي ملتقى طريق بغداد والكوفة والبصرة. وهناك طريق من المدينة إلى وادي القرى وهي ملتقى الشام ومصر.

التبادل التجاري الداخلي:

على الرغم من أن الكثير من مدن الجزيرة العربية بها الكثير من المزروعات من الحبوب والفواكه والخضروات، مثل صنعاء وتعز وزبيد والمدينة المنورة ووادي القرى والبحرين وعُمان، فإنّ هذه المدن وغيرها تستجلب بقية ما تحتاج إليه من أنواع الحبوب والفواكه والخضروات مما حولها من القرى.

وهناك مدن في الجزيرة ليس بها أي نوع من المزروعات مثل مكة المكرمة وجدّة والجار وعدن وغيرها. فهي تستورد ما تحتاج إليه من

الحبوب والفواكه والخضروات من مناطق متعددة. وكمثال لذلك تستجلب مكّة أكثر الفواكه من الطائف. كما تستورد مكة من السرو أنواع الحبوب (الأطعمة) من الحنطة وسائر الحبوب واللوبيا وغيرها. وكذلك تستورد السمن والعسل والزبيب واللوز. أي إن الميرة التي تدخل إلى مكة تجمع بين الطعام (الحبوب) والإدام والفواكه اليابسة، ويأخذ أهل السرو من مكة أنواع الملبوسات التي هم بحاجة إليها. يأخذ أهل اليمن التمر والدخن والذرة إلى الحجاز. كما تصدر اليمامة القمح إلى الحجاز وتصدر عُمان القطن إلى جدّة وغيرها من الأماكن.

التجارة الخارجية :

الطرق البحرية :

سلك تجار الجزيرة العربية في سيرهم عبر البحار طريقين إحداهما السير قرب الشواطئ والأخرى السير وسط البحر.

فالسير قرب الشواطئ كانت السفن التجارية تقوم به من عدن إلى الشحر وظفار ومسقط وصحار ثم إلى البصرة، أو تسير محاذية لشواطئ اليمن وعُمان. ثم تسير السفن محاذية لسواحل السند والهند. أو تسير محاذية لشواطئ الملايو وشواطئ الصين حتى تصل الرحلة إلى زيتون (شوان شو). وفي رحلة العودة تسير السفن من أقصى المشرق إلى الجزيرة العربية بنفس الطريق محاذية لشواطئ نفس تلك البلدان.

وبالنسبة للسير نحو إفريقيا فقد كانت السفن التجارية تسير من صحار أو مسقط أو الشحر أو عدن محاذية لسواحل عُمان واليمن، ثم محاذية لشواطئ جنوب شرق إفريقيا فتمر بمقديشو ثم كلوة حتى تصل إلى بلاد سفالة الزنج.

ومن الأسباب التي جعلت السفن التجارية تسير قرب الشواطئ هي المتاجرة فيما بين مراسي الشواطئ المتعددة. والتزود بالمياه والطعام وصغر المراكب، والهروب من قراصنة البحر وغيرها، بالإضافة إلى أن السفر قرب الشواطئ طول السنة دون توقف.

ومن الأمور الهامة التي تجب على ربان السفينة التجارية التي تسير قرب الشواطئ هي أن يعرف عوائق السير في هذه الطريق من حيث وجود خلجان داخلة في البحر أو بطون أو رؤوس خطرة كي يعمل على تجنبها، وأن يبتعد في السير عن الساحل إلى عرض البحر بالقدر الذي يجنبه خطر الاصطدام في هذه الرؤوس الخلجان.

وعن السير وسط البحر فقد كانت المراكب التجارية تسير وفقا لمواسم مشهورة ومحطات معروفة. فعندما يحين مواسم السفر نحو جنوب شرق آسيا تسير المراكب من عدن أو الشحر أو ظفار أو مسقط أو صحار في جنوب الجزيرة العربية إلى (كولم) كيلوت في سواحل المليار في الهند ثم إلى جزيرة (ملقا) ملاكه في الملايو ثم إلى سنغافورة ثم إلى الصين إلى كنتون (خانقوه) وإلى الزيتون (شوانشو) في الصين. ثم العودة من الصين عبر تلك المحطات في مواسم أخرى .

وبالنسبة للسير نحو شرق إفريقيا فقد كانت السفن التجارية تسير إليها في مواسم معروفة عبر عدة محطات، فهي تسير من عدن أو الشحر أو صحار أو مسقط إلى مقديشو في موسم ثم إلى كلوة في موسم ثانٍ، ثم إلى سفالة الزنج (جنوب موزنبيق) في موسم ثالث، ورحلة العودة من سفالة في مواسم أخرى بنفس تلك المحطات. وكان الهدف من التوقف في محطات هو التبادل التجاري والتزود بالمياه والمؤن وغيرها.

وعن الطريق البحري من مصر فقد كانت المراكب التجارية تسير محمّلة بالتجارة من القلزم أو السويس إلى غلافقة فرضة زبيد أو عدن، أو من القيصر أو عيذاب بمصر إلى غلافقة في زبيد أو عدن باليمن. كما كانت المراكب التجارية تسير من السويس أو القلزم أو القيصر أو عيذاب بمصر إلى جدة والجار وينبع في الحجاز.

كذلك كانت السفن التجارية تسير مخترقة وسط البحر دون المرور عبر محطات. من ذلك سار مركب من القُمر قرب سفالة الزنج إلى عدن سنة (626هـ / 1228م) في موسم واحد. وذلك ما أوضحه ابن المجاور في قوله: (وكانوا يطلعون من القُمر يأخذون عدن رأسا واحداً في موسم واحد).

وسافر مركب تجاري من الصين حتى سافلة الزنج جنوب شرق إفريقيا في موسم واحد دون توقف، ومن عُمان إلى الصين في موسم دون توقف.

وبخصوص زمن الرحلة التجارية البحرية من محطة إلى أخرى أو عبر عدة محطات دون توقف في حالة اعتدال الرياح فإنه يستغرق من مسقط في عُمان إلى كولم في الهند حوالي شهر. ومن مسقط إلى الزيتون (شوان شو) في الصين تستغرق الرحلة دون توقف ثلاثة أشهر. ومن كله (ملقا) في الملايو إلى الشحر في اليمن تستغرق الرحلة حوالي شهر ونصف. ومن الصين إلى سفالة الزنج في جنوب شرق إفريقيا تستغرق الرحلة دون توقف حوالي سنة.

لعبت الرياح الدور الرئيسي في سير حركة التجارة البحرية فيما بين البلدان المتعددة، لذلك ارتبطت مواقيت الإبحار بمواقيت حركة الرياح. فالريح الموسمية الجنوبية الغربية رياح تهب من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي في فصل الشتاء، وتسمى عند البحارة ريح (الصبا)، وهي الرياح الموصلة من جنوب الجزيرة وشرق وجنوب إفريقيا إلى الهند والصين. والرياح الموسمية الشمالية الشرقية رياح تهبّ من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي في فصل الصيف وتسمَى عند البحارة رياح الدبور. وهي الرياح الموصلة من الهند والصين إلى جنوب الجزيرة العربية وشرق وجنوب إفريقيا.

لذلك يجب على كل ربان سفينة أن يعرف حركة الرياح الصالحة لسفر المراكب التجارية وغير الصالحة، ومواقيت هبوب هذه الرياح واتجاهاتها، وذلك ما وضّحه ابن ماجد بقوله: "والمعلم الماهر لا يخفى عليه جميع الرياح أو موسم (أسفار) جميع الدنيا لأنها مرتبة على الأرياح". كما يجب على كل ربان سفينة تجارية أن يعرف طبيعة البحار من حيث وجود جزر وشعب مرجانية وصخور وغيرها. فالبحر الأحمر لا يسلك بالليل وإنما يسلك بالنهار لكثرة الجبال الموجودة به والتي تعلوها المياه والتي لا يهتدي إليها إلا بربان ماهر. وبحر جنوب شرق إفريقيا موجه كبير جدا يشبه الجبال الشواهق.

ولعبت أيضا النجوم دوراً بارزاً في حركة التجارة البحرية والبرية بين البلدان، وذلك في تقدير المسافة والاتجاه. فمن حيث المسافة كانوا يقيسون ارتفاع النجم الذي أمام مركبهم والذي خلف مركبهم. فإذا وجدوا أن النجم الذي أمامهم قد ارتفع مقدار أصبع وهبط الذي خلفهم بمقدار أصبع عن اليوم الأول فهذا يعني ثمانية ازاوم.

التبادل التجاري الخارجي:

الكثير من سواحل الجزيرة العربية - اليمن وعُمان والحجاز ونجد - لها تبادل تجاري بحري مع

عدة بلدان. من ذلك أنه كان لصحار ومسقط والشحر وظفار وعدن وغلافقة وجدّة والجار تبادل تجاري عن طريق البحر مع كل من العراق وفارس والسند والهند والصين. تجلب من هذه البلدان أنواع البضائع وتعود مراكبهم محملة بأنواع البضائع. كما أن لمدن عدن والشحر وظفار ومسقط وصحار تبادلاً تجارياً مع مقديشو وكلوة وسفالة الزنج، وكذلك كان لمدن غلافقة وجدّة وينبع والجار تبادل تجاري بحري مع القزم والسويس والقصير وعيذاب والنوبة والحبشة. وذلك ما سنوضحه فيما بعد.

البضائع التجارية :

(أ) الصادرات :

اشتهرت الجزيرة العربية بعدة منتجات تجارية أهمها اللؤلؤ، واللبان، والأدم (الجلود)، والعقيق، والبرود، والتمور، والسيوف، والحلي، وغيرها. ومن أهم البلدان المصدرة اليمن التي اشتهرت بأنها معدن العصائب (البرود)، والعقيق، والأدم، والرقيق، كما اشتهرت بأن بها الورس، والكندر، والخطر، والعصب. ونورد هنا أنواع الصادرات.

منتجات الأشجار :

تصدر الجزيرة العربية الكثير من المنتجات الاقتصادية للأشجار، من ذلك اللبان والكندر والعلك، يصدر من الشحر بحضرموت إلى الهند والصين وخراسان ومصر وجميع الأقطار. أمّا المقل (الدوم) والسنان (الحمر) والتمر الهندي فتصدر من حضرموت إلى جميع الآفاق. كما يصدر من زبيد التمر الهندي. (والقسط الحلو والورس) يصدر من اليمن إلى جميع البلدان. كما يصدر منها (الفوّة) (صباغ للملابس). و(شجر البان) تشتهر الحجاز بكثرة إنتاجه منها المدينة المنورة، ويصدر إلى أنحاء البلدان. (السنا الحرمي) تشتهر مكة بإنتاجه ويصدر إلى أنحاء البلدان. وتصدر سقطرى الصبر السقطري ودم الأخوين، كما تصدر الصبر حضرموت، والتمور تصدر من المدينة المنورة وخيبر وعُمان والبحرين هجر. وأهم التمور الجيدة المصدرة الصيحاني من يثرب والبردي من خيبر والمصين من عُمان. كذلك كان القطن الخليج يصدر من عُمان إلى جدة وغيرها.

الجلود :

تصدر الجلود المدبوغة من زبيد وصنعاء وصعدة ونجران وجرش والطائف إلى كلّ من العراق وخراسان وكرمان وما وراء النهر، وخوارزم وهجر، والهند وإلى أقاصي الأرض وأدانيها. ومن الصناعات الجلدية تصدر من صنعاء النعال المشعرة، والأنطاع (البساط) والصت (المسب). كما تصدر صعدة الركاء (القرب والمسب) الجيدة والأنطاع (البساط) الحسنة. وبالنسبة للحيوانات فاليمن تصدر الخيول العتاق من ظفار الحبوضي إلى الهند.

المنسوجات :

تصنع في الجزيرة العربية أنواع المنسوجات، وأهم مناطق صناعته مناطق اليمن. من ذلك تصدر صنعاء (الحبرات) وهي الثياب الموشاة أو المخططة إلى جميع الآفاق. وتصدر زبيد (البرود) وشقق الحرير، والبيرم، والسباعية الحرير الصرف والمخلوط بكتان، والملايات والجراب وفوط سوسي. كما تصدر عدن والمعافر وشرعب وحجة أنواع الثياب والبرود إلى مختلف البلدان، وتصدر اليمن الحلل اليمانية وهي الثياب الجيدة والجديدة

غليظة أو رقيقة مكونة من قميص وإزار ورداء. كما تصدر الوشي وسائر أنواع الثياب. ونتيجة لجودة صناعة الثياب في اليمن فإن (الثوب من البرد) تبلغ قيمته خمسمائة دينار.

التعدين :

اشتهرت الجزيرة العربية بصناعة الأسلحة من سيوف وخناجر ودروع وحلي وغيره. ولجودة الصناعة في اليمن ينسب إليها (السيف القاطع، والدرع الحصين، والحلة المصونة، والدرة المكنونة).

العقيق والجزع :

يستخرج العقيق من مخاليف صنعاء من مقرى والهان وجبل قساس فيعمل بعضه باليمن ويصدر بعضه إلى البصرة. ومن جودة صناعة العقيق باليمن يبلغ فيه الفص مائة دينار وأكثر. وصنعت من الجزع أواني كبيرة وعظيمة .كما يصنع من الجزع والعقيق قوائم سيوف ومقابض سكاكين وخناجر وغيرها.

اللؤلؤ :

يصدر اللؤلؤ إلى بلدان كثيرة وأهم مناطق تصدير اللؤلؤ عُمان وما حولها من أماكن، وجزر البحرين وما حولها من أماكن.

(ب) الواردات :

نظراً لانتشار دباغة الجلود في الجزيرة العربية وخاصة اليمن لوجود شجر القرظ التي تستخدم في دباغة الجلود، فهي تستورد الجلود من مكة ونجران وعُمان وحلي بن زهرة وكرمان وجنابة وفارس وبني مكرمان وزيلع ورحبتو والمنذرية وعدن. وتعمل اليمن على دباغة هذه الجلود ثم تصدرها إلى بلدان متعددة .

كما تستورد اليمن من مصر لتلبية متطلبات النقل البحري الحنطة والدقيق والسكر والأرز والصابون الرقي والأشنان والعطارة وزيت الزيتون وزيت الحار والزيتون المملح وكل ما يتعلق بالنقل إذا كان قليلاً وعسل النحل. كما تستورد اليمن من الهند الهليلج المربى والاكرار والمخاد، والمساور والأنطاع والأرز والماش مخلوط والسمسم والصابون، والقرنفل وثياب العرانية والغلمان.

وتستورد اليمن من سرنديب الياقوت بألوانه كلها والماس والدر والبلور والسنبادج الذي يعالج به الجوهر، ومن كلة الرصاص القلعي، ومن السند القسط والقنا والخيزران. وتستورد اليمن من الصين الحرير والفرند والكيمخا والمسك والعود والسروج والسمور والغضار والصليليج والدارصيني والخولنجان والحديد، ومن الواقواق الذهب والأبنوس. وتستورد اليمن من جنوب شرق إفريقيا الذهب والعاج والشمع وقشر السلحفاة وقرن الكركدن وجوز الهند والرقيق والجواري. وتستورد اليمن من زيلع أنياب الفيل وقرن الكركدن وجلود النمور والزرافات.

خامساً - أهم المراكز التجارية في الجزيرة :

ارتبطت أهمية المراكز التجارية بحسب موقعها المتميز والمواد الخام التي تجلب إليها والبضائع التجارية التي تصدرها أو تستوردها. وأهم المراكز التجارية هي: صحار ومسقط والشحر وعدن وغلافقة وجدّة والجار، بالإضافة إلى زبيد وصنعاء وصعدة ومكة المكرمة والمدينة المنورة وغيرها. ونورد أهم المراكز التجارية التي كان لها دورٌ بارزٌ في النشاط التجاري للجزيرة العربية خلال فترة الدراسة بالآتي :

صحار :

تعتبر صحار قصبة عُمان يقصدها في كلّ سنة عدد لا يحصى من تجار البلدان، فهي تجلب من اليمن جميع البضائع وتصدر إليها أنواع التجارات. كما أنها تتبادل تجاريا مع عدة بلدان منها الصين والهند والسند والعراق وغيرها. ولذلك وصفت بأنها (دهليز الصين وخزانة المشرق والعراق ومغوثة اليمن). وهي بذلك أصبحت مليئة بالتجارة والتجار من أنحاء البلدان، فصارت أعمر مدينة بعمان. إلا أن تبادلها التجاري مع الكثير من البلدان لم يدم على نشاطه الواسع، فقد تغير وضعها وانقطع التجار عنها بسبب غزو صاحب جزيرة كيش بأسطوله عليها مما أدى إلى أضرار بالتجارة والتجار وانقطاع سفر التجار عن عُمان فاتجهوا إلى عدن.

مسقط :

وبالنسبة لمسقط فهي محطة عبور المراكب التجارية الذاهبة إلى الهند والصين والعراق والحجاز والقادمة منها، فضلا عن أنها محطة لاستقبال المراكب التجارية القادمة من اليمن والذاهبة إليها.

عُمان :

من جهة عُمان بمدنها فهي أولا: مرفأ مراكب الصين. ثانيا: مرفأ مراكب الهند وفارس والعراق واليمن والحجاز وغيرها. فهي تستقبل المراكب التجارية من هذه البلدان محملة بأنواع البضائع وتعود إليها المراكب بأنواع البضائع. فمثلا كانت عُمان تستورد من سيراف أنواع الأمتعة وتحملها في قوارب لقربها منها، ثم تعمل عُمان على شحن هذه الأمتعة في سفن عظيمة وتسير بها في عمق البحر إلى الشحر ومنها إلى عدن أو جدّة أو غيرها .

الشحر :

تعدّ الشحر محطة تجارية للتبادل التجاري فيما بينها وبين الهند والصين وفارس وعُمان والعراق وعدن والحجاز وغيرها. فمثلا كان الشحر معدن السمك العظيم المجفف والمملّح ومنها يحمل إلى عدن وعُمان والعراق وأطراف اليمن.

عدن :

وبخصوص عدن فهي أهم موانئ الجزيرة العربية لما تتمتع به من موقع ملائم لرسوّ السفن التجارية ولأنها تقع في نقطة التقاء الطرق التجارية الموصلة بين المشرق والمغرب والشمال والجنوب. وتظهر أهمية عدن كميناء رئيسي هام، فهي أعظم مراسي اليمن. كما أنه ينزل بها متاع السند والهند والصين والزنج والحبشة وفارس والبصرة وجدّة والقلزم، بالإضافة إلى العراق وعُمان والبحرين ومصر والمغرب، وتعود منها مراكب هذه البلدان محملة بأنواع البضائع التجارية. أي إنها محطة لعبور التجارة فيما بين عدة بلدان، أو إنها مركز هام للتبادل التجاري بين عدة بلدان.

لذلك فهي بلد تجاري يجتمع إليها التجار السائرون في البحر، أي إنها سوق تجاري مربح فتوصف بأنها (معدن التجارات) مبارك لمن دخله، مثر لمن سكنه، فسكنها تجار الهند وتجار مصر كما سكنها تجار من عدة بلدان لما لها من نشاط تجاري ومقدار الأرباح فيها، بحيث إذا دخلها رجل بألف درهم عاد منها بألف دينار، وإذا دخلها آخر بمائة عاد بخمسمائة، وإذا دخل آخر ببضاعة الكندر عاد منها بمثله كافوراً.

جـدّة والجــار :

وعن جدّة فهي أهم المراكز التجارية في الحجاز لأنها (خزانة مكة ومطرح اليمن ومصر)، كما أنها محطة للسفن التجارية القادمة من الهند وعدن واليمن وعيذاب والقلزم وغيرها، فهي لذلك مدينة عامرة كثيرة التجارة والأموال، تحتل المركز الثاني بعد مكة من الناحية التجارية والمالية. وبالنسبة للجار فهي تعدّ من أهم موانئ المدينة المنورة، لذلك فهي (خزانة المدينة) كما أنها تعد محطة تجارية للسفن القادمة من مصر والحبشة وعدن والصين وسائر بلاد الهند.

زبيـد :

تعتبر زبيد مدينة يتجمع بها التجار من الحجاز ومصر والحبشة، ومنها يستجلب التجار أنواع التوابل وأنواع البضائع القادمة من الهند والصين وغيرهما. كما أن المراكب التجارية تسير من غلافقة بساحل زبيد إلى جدّة، وتأتي المراكب من الحبشة محملة بالرقيق إلى زبيد. وبالنسبة لصنعاء فهي (قصبة نجد اليمن) بها (تجارات مفيدة) و(متاجر كثيرة)، أما صعدة فهي مدينة تجارية يأتي إليها التجار من كل بلد، فهي مركز تجمع تجاري لتجارات كثيرة وبضائع متنوعة.

مكـّة :

تعتبر مكة المكرمة أكبر المراكز التجارية، لأنه يقدم إليها حجاج العالم الإسلامي. فهي ملتقى الصادر والوارد. كما أنه يجلب إليها أنواع الثمرات من كل مكان (فهي أكثر البلاد نعيما وفواكه ومنافع ومرافق ومتاجر). ومن أنواع البضائع التي تباع بها الذخائر النفيسة كالجواهر والياقوت، وسائر الأحجار الكريمة، وأنواع الطيب كالمسك والكافور والعنبر والعود والعقاقير والأمتعة. ومن البلدان التي تجلب إليها بضائعها الهند والحبشة والعراق واليمن وخراسان والمغرب، بالإضافة إلى مصر والشام والصين.

سادساً - النشاط التجاري في الجزيرة :

يوضح النشاط التجاري حجم التجارة واهتمام التجار والحكام بها، لأن معظم إيرادات دويلات الجزيرة العربية يأتي إليها من العمل التجاري، لأن أراضيها الزراعية أراض عشرية وليست خراجية. فاليمن رغم أنها بلد زراعي (ولها ارتفاع صالح من الأموال)، إلا أن (غالب أموالها من موجبات التجار الواصلين من الهند ومصر والحبشة). وكذلك عُمان والحجاز ونجد. ولذلك ازدهر النشاط التجاري في الجزيرة وخاصة التجارة الخارجية. وهنا نعطي صورة مختصرة عن هذا النشاط.

وبالنسبة لعدن فقد كان لها نشاط تجاري خارجي مع عدة بلدان، من ذلك أنّ المراكب العظيمة التجارية كانت تأتي إلى عدن من الهند محملة بالتجارة من كل من كنبايت وكولم، وقالقوط ومنجرة وفاكنور وهنور وسندبور وغيرها من مدن ساحل الهند. فأدى ذلك إلى أن يسكن في عدن الكثير من تجار الهند، وازداد النشاط التجاري لعدن بعد غزو صاحب جزيرة كيش بأسطوله على صحار بعُمان والذي أدّى إلى الإضرار بالتجارة والتجار بصحار، فانقطع سفر التجار عن عمان واتجهوا إلى عدن. ومن ضمن النشاط التجاري لعدن بناء ميناء (الأهواب) على ساحل زبيد سنة (532هـ / 1157م) لتكون فرضة للمراكب التجارية الواصلة من عدن إلى زبيد .

ومن ضمن الاهتمام بالنشاط التجاري لعدن هو بناؤها بعد انتصار بني زريع على صاحب جزيرة قيس (كيش) سنة 530هـ / 1135م وذلك عن طريق النزول من حصون الجبال والسكن في وادي عدن، فبنوا بها الدور الجميلة بالحجر والجص. والهدف من ذلك البناء هو زيادة النشاط التجاري بعدن وحماية التجارة والتجار بها. وعندما حكم عدن عثمان الزنجبيلي من قبل الأيوبيين اهتم بالتجارة والتجار فبنى بها قيصاريّة للتجارة سميت بالقيصارية القديمة، وهي عبارة عن أسواق ودكاكين. وفي عهد حكم المعز الأيوبي لليمن بنى في عدن بناية جميعها دكاكين سميت بالقيصارية الجديدة، ولها باب يفتح ويغلق عند الحاجة.

ازدهر النشاط التجاري في عدن ازدهاراً كبيراً خلال حكم الصليحيين والأيوبيين، فكانت ترسو في ميناء عدن سبعون مركبا تجاريا في كل عام. ووصف ابن فضل الله العمري النشاط التجاري بعدن بقوله: "ولا يخلو أسبوع بها من عدة تجار وسفن وواردين وبضائع شتى ومتاجر متنوعة. والمقيم بها في مكاسب وافرة وتجارة مربحة لا يبالي بما يغرمه بالنسبة للفائدة، ولا يفكر في سوء المقام لكثرة الأموال النامية".

جلب هذا النشاط التجاري ثروة كبيرة لدويلات اليمن. فقد بلغ مقدار دخل الدولة من الضرائب في عدن سنويا أربع خزائن هي خزانة قدوم المراكب من الهند، وخزانة دخول الفوّة إلى عدن، وخزانة خروج الخيل من عدن إلى الهند، وخزانة سفر المراكب إلى الهند ، كل خزينة مائة وخمسون ألف دينار أي إن جملة الخزائن لعشور التجارة الواردة من الهند والصادرة إليها بلغ ستمائة ألف دينار سنويا .

نشاط تجار الكارم :

خلال حكم الصليحيين والأيوبيين لليمن نشط تجار الكارم في التجارة في الشرق في سواحل الهند الغربية والصين والخليج وعدن عند مدخل البحر الأحمر ومصر. وقد كانت عدن المركز التجاري الرئيسي لنشاط تجار الكارم ونقطة انطلاقهم. فكانت سفن الكارم ترسو في ميناء عدن في طريقها إلى الهند والصين أو في طريقها إلى غلافقة وجدّة وعيذاب والقصير ومنها إلى الفسطاط بمصر. وخلال حكم وزير الزريعيين لعدن بلال بن جرير المحمدي في الفترة من (534-547هـ / 1139-1152م) كسب ثروة كبيرة من خلال عمله في التجارة ومشاركته لتجار الكارم في تجارة الهند. ومن ضمن النشاط التجاري لتجار الكارم بناء مدينة (عيذاب) في مصر سنة (450هـ / 1058م) بعد الشدّة العظمى لمصر أيام الخليفة المستنصر الفاطمي لتكون ميناءً رئيسيا لمصر على البحر الأحمر. ومن ضمن النشاط التجاري للكارم، أنهم اتخذوا من غلافقة على ساحل زبيد في اليمن (فرضة للكارم) الواصلين من ديار مصر ببضائعهم التجارية والمستوردين من غلافقة أنواع البضائع القادمة من زبيد، بالإضافة إلى ما تنتجه غلافقة نفسها من الحشيش الأخضر والخضر والزنابيل وأنواع السمك.

تأمين التجارة :

اهتم الفاطميون بتأمين طرق التجارة البحرية فأرسلوا أسطولا بحريا مكونا من خمسة مراكب ثم ثلاثة مراكب محملة بما يكفيها من السلاح، تحت إمرة والي قوص أو أمير من القاهرة، فظلت تلك المراكب تجوب فيما بين سواحل عيذاب

وسواكن وما حولهما حتى تمكنت من حماية التجارة والتجار من السراق المنتشرين في جزائر بحر القلزم.

كما اهتم الأيوبيون بتأمين التجارة. فعندما دخل سيف الإسلام طغتكين اليمن سنة (579هـ / 1183م) عمل على حماية وتأمين التجارة في المحيط الهندي من اللصوص المنتشرين في جزر البحر، فأرسل سفن الشواني التي كانت راسية بميناء عدن إلى الهند وإلى رأس الجزر، فعملت على حماية المراكب التجارية من السراق. وعندما انقطع وصول مراكب الهند إلى عدن لمدة سنة واحدة عمل الأتابك سنقر على إرسال الشواني إلى الهند فوصلت إلى قلهات سنة (602هـ / 1205م).

وبالنسبة لنفقات خروج سفن الشواني لحماية التجارة في المحيط الهندي فقد كانت تصرف من خزانة الدولة الأيوبية في اليمن إلى سنة (613هـ / 1216م) دون أن تأخذ الدولة أيّ ضريبة من التجار مقابل هذه الحماية. وبعد ذلك أخذ الأيوبيون في اليمن ضريبة الشواني من التجار. وكان مقدارها واحداً في المائة. واستمرت هذه الضريبة إلى سنة (625هـ / 1227م)، وبعد ذلك ألغى الملك المسعود الأيوبي أخذ ضريبة الشواني على التجار.

ومن ضمن الاهتمام بالتجارة كان أهل ظفار الحبوضي يهتمون بها كثيرا. فإذا وصل مركب تجاري من الهند أو غيرها احتفلوا بقدومه، وهو أن يتجه عبيد سلطان ظفار في سنابق إلى المركب مصطحبين معهم الكسوة الكاملة يقدمونها هدية لصاحب المركب أو وكيله وإلى الربان والكاتب. ثم يدعونهم إلى النزول ويركَبونهم ثلاثة خيول ويضربون أمامهم الطبول والأبواق من ساحل البحر إلى دار السلطان لاستضافتهم. أما ما في المركب من غير أولئك فأهل ظفار يبعثون إليهم الضيافات لمدة ثلاثة أيام. بعد ذلك يأكلون بدار السلطان. والهدف من هذا الاحتفال والضيافة هو استجلاب أصحاب المراكب التجارية.

سابعاً - الأسواق :

تعتبر الأسواق أهم العمليات التجارية، ففيها يتم تصريف البضائع التجارية التي تلبي احتياجات الناس عن طريق عملية الشراء والبيع. والجزيرة العربية وخاصة اليمن تعتمد اعتماداً كبيراً على العملية التجارية، لذلك وصفها العمري بقوله: "وغالب دخله مما يؤخذ من التجار والجلابة برا وبحرا". لذلك انتشرت الأسواق في مدن الجزيرة وقراها. وهناك أربعة أنواع من الأسواق هي الأسواق السنوية ثم الوقتية والأسواق الدائمة والأسبوعية والموسمية:

كانت الجزيرة العربية مشهورة منذ ما قبل الإسلام بالأسواق السنوية مثل سوق هجر وعُمان وصحار والشحر وحضرموت وعدن والجند وصنعاء ونجران وعكاظ وغيرها. وفي هذه الأسواق تتم عملية التبادل التجاري فيما بين التجار وعملية الشراء من قبل الأفراد. أي إنها كانت في الغالب أسواقاً تلبي حاجة إقليم الجزيرة العربية. ولمّا اتسع نطاق الدولة الإسلامية إلى مشارق الأرض ومغاربها اتسع نطاق العملية التجارية للجزيرة، فتلاشت الأسواق السنوية القديمة، وحلت محلها مراكز تجارية في أنحاء سواحل الجزيرة توصف بأنها محطات تجارية عالمية لارتباطها بعلاقة تجارية مع عدة بلدان مثل الصين والهند والسند وفارس والعراق والشام ومصر والحبشة وجنوب شرق إفريقيا وغيرها. أي إن هذه المراكز التجارية أصبحت أسواقاً شبه دائمة بدلاً من

السنوية، أو إنها أصبحت أسواقا وقتية تقام عندما تصل إليها البضائع التجارية البرية والبحرية من عدة بلدان.

الأسواق الدائمة:

انتشرت الأسواق الدائمة في الجزيرة العربية في الكثير من مدنها الكبيرة والصغيرة، فمن هذه المدن التي توجد بها أسواق دائمة هي الجار، وينبع، والحوراء، ووادي القرى، والسر، وصعدة، وصنعاء، وزبيد، وعدن، وصحار، ونزوة، وهجر، وغيرها. واشتهرت الأسواق الدائمة ببيع البضائع التجارية، وخلا منها بيع الخضر والفواكه يومياً.

وعن شكل الأسواق في الجزيرة فقد أخذت شكل الأسواق التخصصية مثل بقية البلدان الإسلامية. وكان السوق يسمى باسم السلعة التي تباع فيه، مثل سوق الحبوب وسوق السليط وسوق البز. فمن الأسواق التخصصية للمدن في عدن وسوق العطارين وسوق الخزف وسوق الحضر، وفي صنعاء وسوق العطارين، وسوق التبانين، وسوق اللساسين، وسوق الحطب. ومن الأسواق التخصصية في القرى سوق البز في أسامى في تهامة والذي كان يقام بعد صلاة ظهر يوم ميعاد السوق، لأن أهل القرية كانوا يجلبون منتجاتهم وبضائعهم إلى السوق لبيعها، فتستغرق عملية بيع البضائع وتحصيل أثمانها من أول النهار حتى قرب الظهر. وبعد صلاة الظهر يذهب الكثير من أهل القرية لشراء ما يحتاجون إليه من بز وقماش وغيرها من الملبوسات. من ذلك يتضح أن أهل قرية أسامي لا يملكون نقودا عند انعقاد السوق، وإنما كانوا يبيعون منتجاتهم المصنوعة والمزروعة ليشتروا بثمنها بضائع أخرى.

الأسواق الاسبوعية:

أغلب الأسواق في الجزيرة العربية تقام أسبوعيا في المدن والقرى. وكان السوق يسمى باسم اليوم الذي يعقد به السوق مثل سوق الخميس، وسوق الجمعة، وسوق الأحد، وهكذا. فمثلا كان السوق في (أثافت) شمال صنعاء يقام يوم الجمعة. وتباع في الأسواق الأسبوعية الكثير من البضائع التجارية والخضروات والفواكه، في حين أن الأسواق الدائمة لا تباع فيها الخضر والفواكه يوميا. لذلك وصف العمري اليمن بخلوها من الأسواق الدائمة واعتمادها على الأسواق الأسبوعية بقوله: "وليس باليمن (أسواق) دائمة إنما بها يوم من الجمعة تجلب فيه الأجلاب، وتخرج أرباب الصناعات والبضائع بضائعهم على اختلافها، وتقام في ذلك اليوم الأسواق ويباع ويشترى".

وبالنسبة إلى مكان انعقاد الأسواق في المدن تبنى الأسواق الدائمة في الغالب وسط المدن. أما الأسواق الأسبوعية والموسمية فتقام في أطراف المدن. وفي القرى تقام الأسواق الأسبوعية في منطقة متوسطة بين مجموعة من القرى، بحيث يتمكن الشخص من الذهاب إلى السوق والعودة منه في نفس اليوم، وأحياناً قد يسافر بعض التجار إلى أسواق بعيدة بهدف التجارة ويستغرق الذهاب إليها والعودة منها عدة أيام.

الأسواق الموسمية :

وعن الأسواق الموسمية فقد كان يعقد في مكة المكرمة سوقان موسميّان هما سوق موسم الحج وسوق موسم عمرة رجب. فسوق موسم الحج يعتبر من أهم أسواق مكة المكرمة الموسمية لأنه يعقد في شهر ذي الحجة موسم الحج الذي يجتمع

فيه الناس من أنحاء العالم الإسلامي. وإلى هذا السوق في مكة يجلب أنواع الثمرات من كل مكان، لذلك وصف ابن جبير سوقها بقوله: "حتى حللنا بهذه البلاد المباركة فألقيناها تغص بالنعم والفواكه، كالتين والعنب والرمان والسفرجل والخوخ والأترج والجوز والمقل والبطيخ والقثاء والخيار إلى جميع البقول كلها" بالإضافة إلى أنواع العطور والأحجار الكريمة والأمتعة وغيرها.

وعمرة رجب كان أهل مكة يحتفلون بموسمها ويعقدون سوقاً يكون سنوياً، فيحضر السوق جمع كبير من أهل مكة ومن السر ومن اليمن من بجيلة وزهران وغامد. وهؤلاء يجلبون إلى مكة سائر الحبوب مثل الحنطة والشعير والسويق والذرة والدخن والسمن والعسل والزيت واللوز وغيرها، فتقام سوق كبيرة في مكة تؤدي إلى رخص الأسعار بها.

تدخل الحكام في الأسواق التجارية:

عندما تدخل رجال الدولة في التجارة في الأسواق أدى ذلك إلى الإضرار بالتجار وارتفعت الأسعار. من ذلك عندما دخل نور الدين عمر بن رسول عدن سنة (624هـ / 1227م) عرض (الفوّ) على كل من كان في عدن بسعر البهار مائتي دينار وثمانين ملكي. وباعها بزيادة أربعة دنانير. وفي سنة (625هـ / 1228م) أخذ جميع فلفل التجار وجميع الخف والنحاس بسعر البهار الفلفل أربعين دينارا وعرضه على أهل الكارم بسعر ستين ديناراً بربح عشرين ديناراً. وأخذ الصفر (النحاس) من أهل الكارم بسعر البهار ستين دينارا وباعه لأصحاب الخف بثمانين دينارا بربح عشرين ديناراً، كما عمل على التطفيف في المكيال، فأخذ البهار بهاراً وربعاً وباع البهار بهاراً إلا ربعاً. عدا ما كان يأخذ من هذه التجارة العشور التجارية وأنواع الضرائب.

ثامناً - وسائل المعاملات التجارية :

العملة :

تعتبر العملة أبرز مقومات العملية التجارية، فهي تسهل المعاملات التجارية وازديادها وازدهارها بين البلد الواحد وبين البلدان المختلفة. وقد ضربت العملة من عدة أنواع من المعادن مثل الذهب والفضة والنحاس والبرنز وغيرها. إلا أن أكثر المعادن شهرة في ضرب العملة هما الذهب والفضة لما يحملان من صفات مثل عدم التآكل والتصدية وطول العمر، ولأن هذين المعدنين يحملان قيمتهما في نفسهما. فالدينار الذهب قيمته في وزنه وكذلك الفضة. لذلك تعاملت الكثير من البلدان بنقود البلدان الأخرى. فمثلا الدينار المصري تعامل به أهل الحجاز واليمن وغيرهما. وبالنسبة لصنف العملة التي تضرب فقد كان الدينار يضرب من الذهب والدرهم من الفضة. ومن النحاس الفلس والجوز والدوس وغيرها.

الدينار :

ضرب في الجزيرة العربية الدينار الذهب بأوزان متعددة حسب الأزمنة والبلدان منها الدينار الكامل ذهبا ويسمى الدينار الكبير أو المثقال. ويزن الدينار مثقالاً من الذهب أي (265,4) من الغرامات. أو (72) حبة من الشعير. وقد يساوي المثقال (4,45) غراماً أو (24) قيراطاً. ومن الدينار ضرب عدة دنانير أصغر منه، مثلاً ضرب ثلثا الدينار ونصف الدينار وثلث الدينار وربع الدينار ويسمى الدينار الصغير.

وتختلف نقود أهل الجزيرة من منطقة إلى أخرى. فعملة صنعاء ومكة المكرمة وعثر الدينار المطوق. ويساوي ثلثيْ المثقال. ويتعامل به التجار بالعدّ. وأفضل هذه العملة دنانير عثر لأنها قد تزيد عن غيرها بدريهم لجودة صناعة الذهب بعثر ونقاوته. كما يتعامل بالدينار عدن وعُمان وقيمته في عدن سبعة دراهم. وفي عُمان ثلاثون درهماً. وفيهما يتعامل به التجار بالوزن وليس بالعدّ، وذلك لاختلاف وزن كل دينار من حيث الضرب والوزن والزمن والمكان الذي ضرب به.

كذلك يتعامل أهل مكة المكرمة بالدينار الذهب المصري. وضربوا بمكة دينارا على عيار الدينار المصري. ومن حيث المساواة فالدينار المصري يساوي أربعة دنانير ونصفاً من دينار اليمن المسمّى الملكي نسبة إلى الملك المكرم. وبالنسبة للدرهم فهو يساوي 18 درهماً يمنيّاً و 24 درهماً علويّاً. أما الدينار اليمني الملكي فيساوي أربعة دراهم يمنية.

الدرهم :

وعن الدرهم فقد ضرب في الجزيرة العربية بأوزان متعددة حسب الأزمنة والبلدان والحكومات. فضرب بها الدرهم الكبير المسمى الدرهم الكامل والذي يساوي 13 قيراطاً، كما ضرب ثلث الدرهم ونصف الدرهم وربع الدرهم ويسمى الدرهم الصغير. وقد كانت الدراهم في الجزيرة تضرب على وزن الدراهم العباسية، من ذلك ضرب الملك سيف الإسلام طغتكين (ت 593هـ / 1197م) في اليمن درهماً وزنه أربعة قراريط وحبّة. أما الدرهم الكبير فقد ضربه في اليمن الملك المعزّ إسماعيل (ت 598هـ/ 1202م)، وأول من ضربه في مكة المكرمة الملك المسعود يوسف بن محمد الأيوبي (ت 626هـ / 1229م) على وزن درهم اليمن الكبير.

كذلك ضربت الدراهم مجزأة وكل عدة دراهم تساوي دينارا ذهبا مطوقا. من ذلك كان الدينار في صنعاء يساوي ستة دراهم ويسمى الدراهم السدسية. وفي عدن سبعة دراهم وفي ذمار ثمانية دراهم وفي زبيد 12 درهماً وفي اليمن 18 درهماً وفي مكة 24 درهماً وفي صعدة 24 درهماً وفي عُمان 30 درهماً. كذلك ضربت في صنعاء دراهم أكثر صغرا حيث بلغ الدينار منها ما بين الستين إلى المائة. كما بلغ الدينار منها 120 درهماً، وسميت هذه الأجزاء الصغيرة بالدراهم أيضا نظراً لأنها مصنوعة من الفضة. والهدف من ذلك هو تسهيل المعاملات التجارية الفردية للسلع الصغيرة، وهذا ما يدلّ على أن الدراهم الصغيرة هذه حلت محلّ الفلوس والجوز والدوس والدانق وغيره.

عملات أخرى :

وهناك عملات أخرى صغيرة الحجم والقيمة والوزن تعامل بها تجار الجزيرة العربية، من ذلك تعامل أهل عُمان بالطسوة وأهل اليمن بالدانق وبالجوز وبالفلس والدوس. فكل درهم يساوي ثلاث جوز. وكل جائز ثمانية فلوس وكل فلس أربع دوس وكل درهم يساوي 24 فلساً.

ضربت العملة في عدة مدن في الجزيرة إما لأنها عواصم ودويلات أو أقاليم أو لتوفر معدن الذهب بها. من ذلك أنه ضربت العملة في مكة المكرمة وصنعاء وزبيد وعدن وذي جبلة وصعدة وعثر وغيرها. كما نسبت العملة إلى الشخص الذي يضربها، من ذلك (دينار سعيدي) نسبة إلى سعيد الأحول النجاحي، (ودينار ملكي) نسبه إلى الملك المكرم الصليحي، و(دينار علوي) نسبه إلى الهادي يحيى بن الحسين صاحب صعدة. وقد تنسب إلى

البلد مثل (دينار عثري) نسبة إلى بلدة عثر، (ودينار مصري) نسبة إلى مصر، (ودينار مكي) نسبة إلى مكة المكرمة، وقد ينسب إلى لونه مثل الدينار الأحمر.

وعن الكتابة على العملة يكتب بها على حسب حجمها ووزنها. وأهم ما يكتب فيها في الحجم الكبير عبارات التوحيد. وكمثال في الوجه الوسط: لا إله إلا الله لا شريك له. وفي الظهر الوسط: محمد رسول الله. وفي الدور الوجه: أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله. وفي الدور ظهر: اسم البلد الذي ضربت به العملة واسم الحاكم الذي أمر بضربها، وسنة الضرب، ووزن العملة، بالإضافة إلى اسم الخليفة العباسي أو الفاطمي وغير ذلك. والهدف من ذلك ضمان تداول العملة وخلوها من التزييف.

تاسعاً ـ المقاييس والمكاييل والموازين :

تعدّ المقاييس والمكاييل والموازين من أهم العوامل المؤثرة في التجارة والحياة الاقتصادية. وقد تنوع استخدامها في الجزيرة العربية من منطقة إلى أخرى. فكل منطقة لها موازينها ومكاييلها. فبعض مناطق الجزيرة تتفق في موازينها مع موازين الخلافة الإسلامية. من ذلك أنّ رطل اليمن يساوي رطل بغداد. وفي بعض مناطقها تختلف موازينها مع المناطق الأخرى. من ذلك معيار سنجة زبيد أقل من سنجة عدن بشيء يسير. وهناك محاولة من الدويلات لتوحيد المكاييل. فمثلا عمل الأيوبيون في اليمن سنة (625هـ / 1227م) على توحيد ذلك: (وغير جميع مكاييل اليمن ووضعوه على عيار زبدي الجندي). واختلفت معايير الموازين ونوعها من سلعة إلى أخرى، وذلك بحسب نوع السلعة من حيث الصلابة والسيولة والعدّ، وسميت بأسماء الوعاء الذي يحتويها. فمثلا السمن يُقاس بالجمنة والشيرج يُقاس بالجرة. وهما الوعاءان اللذان يحفظ بهما السمن والشيرج لسيولتهما. وللعدّ الكورجة وتساوي عشرين قطعة، والشدة وتساوي 120 برداً.

(أ) المقاييس :

تستخدم الجزيرة العربية وخاصة اليمن لقياس مساحات الأراضي الزراعية (المعاد) والقصبة وتساوي أربعة أذرع بالحديد. أما المعاد فيساوي ثمانين قصبة. كذلك استخدم الذراع الحديدي واليدوي لقياس الألواح وشقق الثياب وغيره. أما في مكة ففي سنة (622هـ / 1224م) زيد في الذراع المكي ليساوي الذراع المصري.

(ب) المكاييل :

كما تستخدم الجزيرة العربية لكيل الغلال وسائر أنواع الحبوب عدة مكاييل مثل المدّ، والصاع، والزبدي، والوساق، والربيعة. فالمد يساوي 32 ثمناً، والثمن 32 زبدياً، والزيدي منَ، والمنَ رطلان. والرطل 130 درهماً، والدرهم 13 قيراطاً. والقيراط في الوزن يساوي من ثلاث إلى أربع حبات قمح، والوساق يساوي 60 صاعاً، والصاع يساوي أربعة أمداد. كما أن الصاع ربيعة ثم أصبح أربع ربيعات. والربيعة 18 أوقية، والأوقية 21 درهماً. واستخدم الصاع في اليمن والحجاز وتباع به الحنطة وسائر الحبوب.

(جـ) الموازين :

ومن حيث الموازين تستخدم الجزيرة عدة سنجات مثل الرطل، والمن، والبهار، والفراسلة، والكيلجة وغيرها. وتختلف الموازين من مكان إلى

آخر. فالرطل يستخدم في مكة المكرمة ويثرب واليمن. ورطل مكة يساوي منًا، ورطل يثرب يساوي مائتي درهم. أي إن رطل مكة رطلان بغداديّان. ورطل يثرب أكثر من رطل ونصف بغدادي، أما رطل اليمن فيساوي رطلاً بغدادياً. أي إنه يزن 130 درهماً، كما أن الرطل يساوي ستّ أواق.

المنّ :

تنوع وزن المنّ وسعره كما تنوعت السلعة التي توزن به. ويختلف مقدار المنّ من مكان إلى آخر. والمن يساوي رطلين ويستخدم في اليمن وفي عُمان ومكة. إلا أنّ رطل مكة يسمّى منًا مما يدلّ على أنّه يساوي رطلين بغدادي. ويوزن به الحرير واللحم وغيره. ومنّ اليمن يساوي 320 درهماً ويباع به الثياب والسكر والعسل وجميع الحوائج وغيرها. ومن اللحم يساوي 400 درهم ويباع به اللحم والسمسم والهريسة والمجبنة وغيرها، ومن السمن يساوي 800 درهم ويباع به السمن والزيت والخل والشيرج.

الفراسلة :

وتساوي عشرين رطلاً أو عشرة أمنان. ويوزن بها الكافور والزعفران والقرنفل.

المدلة :

وتساوي عشرة أرطال ويوزن بها العصارة والقطن والعدس والشيذر. والأوقية وتساوي 21 درهماً، والكيلجة وكل كيلجة 109 أمنان.

وهناك موازين أخرى مثل (البيعة) وتساوي مائة منّ، و(الحمل) ويساوي بيعتين ونصف أي 250 منًا. والشدة وتساوي 120 بردة. كما توجد عدة معايير أخرى من ذلك (القطعة) والقفة والكورجة. فتكال الذرة بالقفة، وتعدّ الثياب بالقطعة. والعشرون قطعة تساوي كورجة، والقفيز. وهناك سلع تقاس بعدة معايير مثل السمن يوزن بالرطل وبالمن ويقاس بالظرف الذي يُعبّأ به. والحرير يوزن بالمنّ ويقاس بالذراع ويعدّ بالقطعة، كما أن الربيعة مكيال ووزن فهي تساوي ثماني عشرة أوقية.

عاشراً - الموارد المالية :

تعتبر أراضي الجزيرة العربية: الحجاز ومكة والمدينة واليمن وعُمان وأرض العرب كلها أراض عشرية. والأموال التي تؤخذ منها هي عشور الأراضي الزراعية وعشور التجارة، بالإضافة إلى الضرائب والمكوس والرسوم وغيرها.

وعن أموال الأراضي الزراعية فقد كان المقبوض من العشور في الجزيرة والمرتفعة إلى الخلافة العباسية هي من اليمن ستمائة ألف دينار، ومن الحرمين الشريفين مائة ألف دينار، ومن اليمامة والبحرين خمسمائة ألف دينار، ومن عُمان ثلاثمائة ألف دينار.

ومنذ منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي سيطر على اليمن الصليحيون الإسماعيلية الموالون للخلافة الفاطمية بمصر، فتغير وضع اليمن المالي وتوقف دفع الأموال إلى الخلافة العباسية، فتولى حكم زبيد أسعد ابن شهاب، فكان مقدار ارتفاع جباية تهامة المرفوع منها إلى الصليحيين بصنعاء في كلّ سنة ألف ألف دينار خارجاً عن أرزاق الجند الموجودين بها وغيرها من المصروفات. ويبدو أن هذه المبالغ تشمل أموال الأراضي الزراعية وعشور التجارة وغيرها. وعن بقيّة مناطق اليمن توضّح لنا

المصادر مقدارها، ولكن يمكن اعتبار الأرقام السابقة مؤشراً على ارتفاع الثمن.

العشور التجارية :

أهمَ مناطق جباية العشور التجارية هي مراسي الجزيرة العربية المتعددة. فبالنسبة إلى العشور التجارية لعُمان كمثال، بلغت عشور مركب أحد التجار القادمين إليها سنة (317هـ / 929م) ستمائة ألف دينار عدا ما سامح به الناس بمبلغ مائة ألف دينار. وعن بقية مراسي الجزيرة لم تحدد لنا المصادر مقدار عشورها التجارية.

وبخصوص عدن فقد كانت جباية العشور التجارية عن المراكب التجارية الواصلة إلى دولة بني زياد مائتي ألف دينار عثري. وفي عهد حكم السلطان محمد بن سبا الزريعي لعدن سنة (450هـ / 1058م) بلغ مقدار ضمان عشور المراكب التجارية مائة ألف ألف وأربعة عشر ألف دينار مرابيطية، وهي أضعاف عشور بني زياد.

وفي أثناء حكم الأيوبيين لعدن، بلغت العشور التجارية التي يتحصلون عليها من عدن للتجارة القادمة من الهند والصادرة إليها فقط ستمائة ألف دينار. وهي جملة أربع خزائن كلّ خزينة مائة وخمسون ألف دينار، عدا العشور التجارية للمراكب القادمة من الصين وفارس وغيرهما من البلدان.

وكانت عشور المراكب التجارية لعدن خلال حكم الزريعيين والأيوبيين لها مبالغ كبيرة. من ذلك أن مركبا تجاريا وصل إلى عدن بلغ وزن عشوره ثمانين ألف دينار. وهناك الكثير من المراكب التجارية القادمة إلى عدن من عدة بلدان عليها عشور تجارية لم تحدد المصادر قيمتها، حيث كان يصل إلى عدن سنويا ما بين ثمانين إلى تسعين مركباً تجارياً، وقد يصل إلى خزانة الدولة ثلث أموال التجار.

كانت العشور التجارية تؤخذ على حسب وزن السلعة ونوعها ومقدار ثمنها من حيث الغلاء والرخص. من ذلك مثلا أنه كان يؤخذ في عدن عن بهار الفلفل والانكزة ثمانية دنانير، وعن بهار الهيل سبعة دنانير، وعن بهار الزيت سبعة دنانير. أما بالنسبة لبهار التمرهندي فيؤخذ عنه ثلاث جوز، وعن الثوب الظفاري ربع دينار وجائز، وعن السوسي ربع جائز. وقد أورد ابن المجاور مقدار عشور عدة سلع.

الضرائب والمكوس والرسوم :

انتشرت المراصد في أنحاء الجزيرة العربية مثل البحرين وهجر والأحساء والقطيف وجدّة وعثر وزبيد وغلافقة وغيرها. وغالبا ما كانت المراصد تأخذ عن كل حمل من البضائع ضرائب أو مكوسا أو رسوماً. وتختلف مبالغها من مكان إلى آخر. فمثلا أخذ مكس في (الخوخة) عن كل حمل سدسه، وفي موزع عن كل حمل ثمنه. وهكذا أخذ الأيوبيون من عدن رسوم دار الوكالة من الدينار قيراطا وعن الدلالة وضرائب الشواني واحداً في المئة، وهي السفن التي كانت تذهب لحماية التجار في المحيط الهندي. وفي القرين ما بين مكة وجدّة كان الأمير هاشم يأخذ من القوافل التجارية على كل حمل ديناراً علويّاً.

موارد النخيل :

ظلّ محصول نخيل زبيد يتدرج في الارتفاع بسبب زيادة الزراعة وزيادة فرض الجباية. ففي أثناء حكم النجاحيين وبني مهدي، كان ضمان نخيل زبيد سبعين ألف دينار سنويا، وكان يدفع عينا (أي

تمراً) وليس نقداً. وعندما حكم طغتكين الأيوبي اليمن (ت 593هـ / 1179م) بلغ محصول نخيل زبيد تسعين ألف دينار غير ما يحمل إلى خزانة الدولة ورجالها من التمور العينية، أي إن محصول النخيل العيني والنقدي بلغ منها في عهد طغتكين مائة وثلاثين ألف دينار. كما بلغ محصول النخيل في زبيد في عهد بني أيوب مائة ألف دينار غير ما يحمل إلى خزانة الدولة من التمور العينية. وفي سنة (624هـ/ 6221م) بلغ محصول نخيل زبيد مائة وعشرة آلاف دينار نقدا سنويا غير ما يحمل إلى خزانة الدولة من التمور العينية.

الموارد الصناعية :

شمل الضمان معظم الصناعات في اليمن. من ذلك أنه في صناعة زبيد بلغ ضمان دباغة الجلود والصناعات الجلدية بها في عهد الدولة النجاحية وبني مهدي والأيوبيين ثلاثة عشر ألف دينار سنويا. وبلغ ضمان ضريبة سك العملة فيها ثلاثة عشر ألف دينار. كما بلغ ضمان صناعة النبيذ فيها اثني عشر ألف دينار سنويًا.

موارد الضمان :

أكثر استخدام جباية الأموال في اليمن عن طريق الضمان. وهو عبارة عن التزام شخص ما مسبقاً بدفع مبلغ مالي محدد للدولة لما ضمن عنه. ثم يتولى الضامن تحصيل الأموال التي التزم بها. وبهذه الطريقة قد يحصل الاستغلال والظلم. وشمل الضمان الزراعة والصناعة والتجارة وغيرها.

ففي الزراعة ضمن الشيخ علي بن أحمد المعلم أراضي في مخلاف جعفر (اب) من المصابيح إلى ضربة عمر في عهد طغتكين الأيوبي وابنه المعز إسماعيل بمبلغ خمسين ألف دينار.

وبالنسبة للتجارة في (عدن) كان ضمان القبان (الميزان) عشرين ألف دينار سنويا، وضمان سوق الخضر والجواري والرطب واللحم وجميع الدواب أحد عشر ألف دينار سنويا، وفي (العارة) كان ضمان العشر من التجارة الصادرة من عدن إلى زبيد والواردة منهما ومن سنابق الصيادين ومراكب الزيالع القادمة من الحبشه ألفا ومائتي دينار سنويًا. وألغي هذا الضمان سنة (620هـ / 1222م) ثم أعيد سنة (624هـ / 1226م) بزيادة مقدار الضمان إلى ألف وسبعمائة دينار سنويا.

وفي زبيد كان الضمان على سنابق الصيادين والجالة والخضر والبقول التي تباع مع الغلال وكل ما يدخل باب زبيد سنويا تسعين ألف دينار ملكي صليحي. كما كان ضمان سوق السمك فيها كل يوم ثلاثة عشر ديناراً ملكيا، أي إن جملة ضمان سوق السمك في زبيد في السنة أربعة آلاف وسبعمائة وخمسين دينارا. ومن ضمن المقاطعة أو الضمان بلغ خراج عُمان ثمانين ألف دينار.

ثانياً : الأحوال الاجتماعية

عناصر السكان :

معظم سكان الجزيرة العربية من القبائل العربية العدنانية والقحطانية، منهم من سكن البادية أو القرى، ومنهم من سكن الحضر أو المدن، بالإضافة إلى جماعات من العرب (بدو رحل) يتنقلون من مكان إلى آخر، ومعظم عملهم رعي الإبل. وإلى جانب القبائل العربية سكن في الجزيرة لأغراض التجارة جماعات من الفرس والأحباش والهنود والغز (السلاجقة والأكراد والترك) وغيرها.

القبائل العربية :

الظاهرة العامة التي تميزت بها الجزيرة العربية أن الأوطان منسوبة للسكان أي إن مناطقها سميت بأسماء قبائلها. فهي تتكون من ربيعة ومضر في الشمال، وقحطان وكهلان في الجنوب وما تفرع منها من قبائل. وكمثال لمن سكن في الجزيرة من القبائل نجد في اليمامة أنّ معظم من سكن فيها بنو حنيفه وبعض مضر بالإضافة إلى بني سحيم وبني ثمامة وبني عجل وغيرهم. وفي عُمان معظم من سكن بها الأزد من بن جديد. وما بين عُمان والشحر سكنت بطون من سائر الأزد ومن كندة وطيء. وفي الشحر سكن بنو مهرة، وفي حضرموت سكن قبائل من كندة وتجيب والسكاسك والسكون. وسكن في الحجاز بنو هذيل ومضر وبجيلة. وفي السرو سكنت قبائل غامد وزهران وبجيلة.

وبالنسبة لليمن فحمير سكنت فيما بين عدن وصنعاء. ومن أهم البطون التي استوطنت في وسط الهضبة الجبلية ذو أصبح ولحج والمعافر والسحول وذو الكلاع ورعين ويحصب. وفي شرق الهضبة أبين ويافع ورداع وردمان والأوازع وذمار. وفي غرب الهضبة بنو مجيد وشرعب ووصاب وجبلان ريمة والهان وحراز. أما كهلان، ومن أهم بطونها همدان، فقد سكنت هضبة شمال صنعاء حتى صعدة. فشرق الهضبة كان لبكيل وغربها لحاشد. ومن بطون همدان التي سكنت تلك المنطقة أرحب ونهم وعذر وحجور وقدم ويام وشاكر وغيرها. ومن أهم بطون كهلان مذحج وسكنت في شرق ذمار وأهم قبائلها سعد العشيرة وجعفي ومراد والنخع وجنب وصداء ورهاء وعنس.

وقد خالطت القبائل بعضها البعض وتداخلت مساكنها. فمثلا لذلك سكن في حضرموت إلى جانب كندة قوم من حمير. وفي الجند سكن إلى جانب حمير قوم من كندة. وفي المعافر سكن قوم من همدان، وقوم من السكاسك من كندة. وفي نجران سكن قوم من همدان في شرقها وقوم من مذحج في شمالها، بالإضافة إلى قبائل من حمير ومن كهلان.

لم تكن هذه القبائل على وفاق سياسي مع نفسها ومع غيرها في الغالب، وكان الصراع محتدما فيما بين القبائل المتعددة. فمثلا لذلك في بداية القرن الخامس الهجري كانت اليمن مقسمة بين بعض قبائلها، من ذلك حكم من حمير بنو الكرندي أولا منطقة السوا ثم الدملوة ثم توسعوا وحكموا صبر وذخر فوصل حكمهم إلى العدين. ولذلك أصبحوا يحكمون مخلاف المعافر ومخلاف الجند ومخلاف عنه (العدين). وبنو التبعي وبنو وائل توسعوا في المناطق التي كان يحكمها بنو أصبح، فأصبحت المناطق الشمالية والشرقية لمنطقة أب تحت حكم بني التبعي والمناطق الغربية لذي جبلة تحت حكم بني وائل وأهم مناطقهم مخلاف وحاظه. كذلك توسع الصليحيون وهم من همدان من مسار بحراز نحو صنعاء على حساب بني الضحاك ثم توسعوا وسيطروا على اليمن كله.

وهناك عدة قبائل لم تدخل ضمن حكم الحجاز أو اليمن بل ظلت تحكم نفسها بنفسها. فمثلا كان أهل مناطق السرو والتي تتكون من قبائل وفخوذ من العرب لا يخضعون لدويلات اليمن والحجاز وإنما كانوا يخضعون لحكم مشائخهم وزعماء قبائلهم. ومن ذلك أيضا أهل المناطق الواقعة ما بين الطائف وصعدة والتي تتكون من قرى متقاربة وهي ما بين الصغير والكبير. ويُقيم في كل قرية فخذ من فخوذ العرب وبطن من بطون البدو. فقد كانت كل قرية تحكم بواسطة شيخ من مشائخها كبير القدر والسن ويتصف بالعقل والفطنة وله الطاعة على الجميع. فإذا حكم الشيخ بحكم على أحد من أفراد

قريتــه لا يجــوز مخالفــة حكمــه أو عــصيانه أو مراجعته. ومن ناحية أخرى فإن سكّان هذه القرى المتعددة لا يخضعون لسلطان الدويلات في اليمن والحجاز كما أنهم لا يؤدون الخراج أو عشور أراضيهم وأيضا لا تفرض عليهم أي ضريبة أو رسوم أو غيرها، وإنما كل واحد منهم على هوى نفسه. ولذلك ظل القتال والصراع مستمرا فيما بينهم وتغلب بعضهم على أموال بعض.

العناصر الأخرى :

استقرت في الجزيرة العربية لأغراض التجارة أو غيره عناصر متعددة، من ذلك أنه سكن في عدن عرب مجمعة من الحضارم وأهل ذبحان وعرب من الإسكندرية ومصر. ومن العناصر غير العربية سكن في عدن جماعة من الفرس ومقديشو (الصومال) وزيالع وحبوش وهنود وغيرهم. كما سكن بعض هذه العناصر لأغراض التجارة أيضا في كل من هجر والأحساء وصحار مسقط وعُمان وزبيد وغلافقة وجدّة وغيرها. كما استقر في الجزيرة العربية لأغراض علمية وسياسية جماعات من (الغز) السلاجقة والأكراد والأتراك والأرمن وغيرهم.

وبالنسبة إلى أهل الذمة، فقد سكن جماعات من النصارى في نجران وسقطرى، كما سكن جماعات من اليهود في اليمن في كلّ من نجران وصعدة وذي جبلة والجند وعدن. وعمل أهل الذمة في زراعة الأراضي منهم نصارى ويهود نجران. كما عمل أهل الذمة في التجارة والصناعة. ففي مجال التجارة عمل اليهود في عدن وبلغوا مكانة كبيرة فيها. من ذلك أن مضمون اليهودي كان وكيل تجار عدن ورئيسا ليهود اليمن. كما عمل اليهود في صناعة الفضة والذهب في عدن.

وعن الرقيق فقد انتشر جلبه إلى اليمن وتصديره منها. من ذلك أنه كان يجلب الغلمان والجواري من الهند. كما كان يدخل اليمن في كل سنة ألف رقيق وخمسمائة وصيف وخمسمائة وصيفة من الحبشة والنوبة. وامتلأت قصور الأمراء والأثرياء بالرقيق والجواري والوصيفات. من ذلك أنه كان في قصور الأمير فاتك النجاحي في زبيد أكثر من ألف جارية. كما كانت قصور المفضل بن أبي البركات أحد حكام الدولة الصليحية مليئة بالجواري.

ومن أشهر تجار الرقيق في زبيد الشيخ حمير بن أسعد الذي تولى وظيفة الكتابة للوزير منّ الله الفاتكي النجاحي ومنصور بن مفلح الفاتكي. وكان يقوم بجلب الرقيق من عدة أماكن ويقوم بتعليمهن مهنة الغناء والطبخ وطريقة خزن الثياب وعمل الطيب، ثم يقوم ببيعهن إلى أمراء تهامة.

ومن أشهر أسواق بيع الجواري سوق عدن حيث كانت الجارية المعدة للبيع تطيب وتعدل وتلبس ملابس مناسبة ويشد وسطها بمئزر. وطريقة بيعها هي أن يدور بها المنادي في السوق يعرضها للبيع. فإذا حضر التجار لشرائها يفحصونها فحصا جيدا لمعرفة عمرها وقوامها ورشاقتها وغير ذلك. فإذا أعجبت التاجر الجارية اشتراها، وإذا اكتشف أن بها عيبا بعد عدة أيام من شرائها أعادها إلى البائع.

التركيبة الاجتماعية :

يتكون المجتمع في الجزيرة العربية من حكام وعلماء وكبار الملاك وجند ورعايا وبدو وحضر وغيرهم. وهناك عدة تقسيمات للمجتمع ليس المهم عرضها جميعا منها ما يجعل الفقهاء فئة واحدة تنقسم إلى طوائف مثل طائفة فقهاء المالكية وطائفة فقهاء الحنفية. وبالنسبة لترتيب هذه الفئات

فإنه يعتمد على الثروة والعلم والحكم. فمن توفرت لـه إحدى هذه الصفات أو كلها فهو من أعلى السلم الاجتماعي، ومن لا تتوفر لـه هذه الصفات فهو في أسفل هذا السلم.

إن مجتمع الجزيرة العربية ليس جامدا ولكنه متحرك يسمح بالانتقال من فئة إلى أخرى بالصعود أو النزول. فمثلا الذين جلبوا للخدمة كعبيد وجند لم يظلوا على حالهم بل أصبحوا حكاما وأمراء ووزراء وتجارا وعلماء. ومن ذلك أيضا أن كلَ حكام الدولة النجاحية كانوا عبارة عن جند ووصفان جلبوا للخدمة في بيوت وجيوش الأمراء والقادة، ثم أصبحوا أمراء الدولة النجاحية ووزراءها وقادتها. وفي موضوعنا هذا سوف نقسم المجتمع إلى قسمين هما فئة العامة وفئة الخاصة.

الخاصة :

تشمل الحكام والعلماء وكبار الملاك.

الحكام :

تعددت عناصر الحكام وشرائحهم من الزعامات القبلية والأشراف والأحباش والأكراد والتركمان والأيوبيين وغيرهم. وساد فيما بين هذه الطبقات صراع كبير حول السلطة.

ومن أهم العناصر التي تولت الحكم في الجزيرة العربية الزعامات القبلية. وغالبا ما كانت هذه الزعامات تحكم مناطق قبائلها. ونادرا ما تمكنت قبيلة من الاستيلاء على مناطق واسعة. من ذلك أنه تولى حكم القرى الواقعة فيما بين الطائف وصعدة مشائخ القبائل، وكان لكلْ قرية شيخ يحكمها، وكانوا لا يدينون بالطاعة لحكام الحجاز أو اليمن. كما حكمت الزعامات القبلية نجد والبحرين وعُمان. فقد حكم عُمان، على سبيل المثال، بنو نبهان من قبيلة الأزد منهم السلطان محمد بن نبهان.

وبالنسبة إلى اليمن فقد تولى حكم مخلاف المعافر والجند وعنه (العدين) بنو الكرندي، وحكم بنو التبعي حصن خدد والشوافي (في شمال أب)، وحكم بنو وائل مخلاف احاظة، وحكم من همدان بنو زريع في عدن وبنو حاتم في صنعاء والصليحيون الذين بدأ حكمهم من حصن مسار في حراز ثم استولوا على اليمن كله.

ومن أهم العناصر التي تولت الحكم في الجزيرة الأشراف الحسينيون الذين حكموا المدينة، والحسنيون الذين حكموا مكة وينبع. وكانوا جميعا تارة يطيعون الخلافة العباسية وتارة يطيعون الخلافة الفاطمية. وكان حكام اليمن يتدخلون في إجبار أشراف مكة والمدينة على طاعة الخلافة الفاطمية إذا كانوا موالين للفاطميين مثل الصليحيين، أو إجبارهم على طاعة الخلافة العباسية إذا كانوا موالين للعباسيين مثل الرسوليين.

ومن الأشراف الذين حكموا مكة الأمير مكثر بن عيسى الهاشمي الذي خرج لاستقبال سيف الإسلام طغتكين سنة (579هـ/1184م) عندما قدم من مصر إلى الحجاز في طريقه نحو اليمن للقضاء على أحداث الفتنة بها وتولى الحكم فيها. وبعد مكثر انتقل الحكم في مكة إلى فرع آخر من الحسنين هم بنو قتادة بن إدريس عن طريق استيلاء قتادة على مكة من مكثر في رجب سنة (597هـ/1201م) بمساعدة من العباسيين والأيوبيين. وبعده تولى ابنه الحسن بن قتادة سنة (617هـ/ 1220م).

وأحيانا لم يكن أمراء مكة على وفاق سياسي مع أبناء عمومتهم وإخوانهم. من ذلك أن الأمير داود بن عيسى الذي خلف أباه في حكم مكة سنة 570هـ/1175م لم ترض عنه الخلافة العباسية

فحرضت عليه الخارجين عنه فطروده من مكة سنة 571هـ/1176م وتولى بعده أخوه مكثر بن عيسى بمساعدة صلاح الدين الأيوبي. وحاول داود استعادة نفوذه على مكة إلا أنه لم يتمكن من ذلك .

وبالنسبة للمدينة فقد حكمها الأشراف الحسينيون منهم قاسم بن مهنا الذي حكم بمساعدة من الخليفة المستضيء العباسي سنة 566هـ/1171م، ثم خلفه ابنه سالم بن قاسم سنة 588هـ/1192م، ثم خلفه ابن عمه قاسم بن جماز سنة 612هـ/ 1215م، وبعده تولى ابن عمه شيحة بن هاشم بن قاسم.

كذلك حكم الأشراف السليمانيون المخلاف السليماني منهم الشريف قاسم بن غانم الذي استقبل تورانشاه الأيوبي سنة 569هـ/1074م في حرض عندما قدم للقضاء على بني مهدي وساعده في ذلك. ثم تولى بعده ابنه المؤيد بن قاسم السليماني والذي قدَم للملك المسعود الأيوبي سنة 612هـ/1215م فروض الطاعة والولاء له، فمنحه المسعود حرض والهلبة إقطاعا له. أما صعدة فقد حكمها الأشراف الزيدية منهم الشريف الفاضل (ت 468هـ/ 1075م) والإمام أحمد بن سليمان (ت566هـ/1170م) الذي عاصر دولة بني حاتم في صنعاء، والإمام عبد الله بن حمزة (ت 614هـ/1217م) والذي عاصر حكم الأيوبيين لليمن.

ومن العناصر التي حكمت تهامة اليمن الأحباش والنوبة الذين كانوا يجلبون إلى اليمن للعمل في الجندية، منهم الأمير نجاح الذي يرجع أصله إلى الجزل من الحبشة، والذي تولى الوزارة لآخر أمراء بني زياد في سنة(426هـ/1034م) ثم أسس له دولة سنة(444هـ/1052م) وظل يحكمها إلى أن قتله علي الصليحي بواسطة جارية سنة (452هـ/1060م) تم خلفه في حكم تهامة أولاده وهم الذين أكثروا من جلب الأحباش. من ذلك استدعى جياش وسعيد الأحول سنة 459هـ/1173م خمسة آلاف حربة من الحبشة فنزلوا في ساحل المهجم ثم اتجهوا إلى المهجم فقتلوا علي الصليحي في نفس تلك السنة. وبعد ذلك أصبحت زبيد مليئة بالأحباش، من ذلك أنه عندما نزل المكرم الصليحي إليها لتخليص أمه من الأسر والثأر لأبيه وقف لمقاومته عشرون ألف رجل من الحبشة. ولما ضعف الأمراء النجاحيون من قيادة الدولة النجاحية اتفقوا مع عبيدهم أن تكون الإماره لأولاد جياش بن نجاح وتكون الوزارة لأولاد عبيدهم، وذلك منذ سنة 404هـ/ 1110م حتى سنة (554هـ/ 1159م).

العلماء :

وهم الأكثر انتشارا والأكثر مساهمة في خدمة المجتمع. وأماكن انتشارهم المدن والقرى مثل مكة والمدينة وصنعاء وزبيد وتعز وعدن ومسقط وصحار وهجر وغيرها. وبالنسبة للقرى فقد انتشروا في معظم قرى الجزيرة العربية. وأبرز العلماء في العصر الذي نتحدث عنه علماء الدين واللغة مثل الفقهاء والقضاة والمحدثين والمفسرين ورجال الحديث، بالإضافة إلى الأدباء والشعراء واللغويين. وقد تولت شريحة العلماء الكثير من وظائف الدولة مثل القضاء والمحاكم والفتوى والتدريس، بالإضافة إلى الأعمال الإدارية والكتابة مثل ديوان الإنشاء (الكتابة) والوزارة والدواوين المالية وغيرها.

ومن ضمن من تولى الأعمال الكتابية لجياش بن نجاح الوزير خلف بن أبي طاهر، كما تولى له وزارة القلم الشيخ إسماعيل بن محمد المعروف بابن النوقاء. وظل في هذا المنصب عهوداً أولاد جياش الأمير فاتك والأمير منصور. كما

تولى الأعمال الكتابية للأتابك سنقر الأيوبي كل من عز الدين الكرماني والأديب يوسف بن إبراهيم القفطي. وبالنسبة لأعمال الدواوين المالية مثل الخراج فقد تولاها للصليحيين في زبيد الشاعر الحسين بن علي بن القم وهو الذي تولى الأعمال الكتابية للسيدة الحرة الصليحية.

وبالنسبة للقضاء فهو أهم منصب يهتم بحل مشاكل المجتمع الخلافية. ووجدت عدة وظائف قضائية مثل حاكم بلد وقاضي قضاة لكل من المدينة والإقليم واليمن. وكمثال على تولي القضاء في مدينة زبيد تولى القضاء فيها بنو عقامة في عهد الدولة النجاحية والصليحية. وفي ذي جبلة تولى القضاء للصليحيَين القاضي لمك بن مالك الحمادي (ت 520هـ / 1126م)، ثم حلّ محله ابنه. وتولى قاضي قضاة من صنعاء إلى عدن القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله اليافعي (ت 552هـ / 1156م). ثم خلفه القاضي أبو الربيع سليمان بن الفضل.

وممّن تولى رئاسة طائفة فقهاء الفقيه محمد ابن القاضي عبد الله المعروف بالحفائلي والذي تولى رئاسة شريحة فقهاء المذهب الشافعي في أيام الدولة النجاحية. والفقيه محمد بن أبي بكر المدحدح الذي تولى رئاسة فقهاء المذهب الحنفي أيام ابن مهدي.

وكان للعلماء دور بارز في الحياة الاجتماعية. فقد ساهموا في مجال تدريس العلوم والإنفاق عليها، وكان لهم الفضل الأكبر في النهضة العلمية والأدبية والدينية وغيرها. وقد كانت مكة والمدينة من أهم المراكز العلمية في العالم الإسلامي، يرحلون إليهما للتفقه عن علمائهما أو تدريس من يقدم إليهما. من ذلك مثلا أبو الطيب طاهر بن يحي بن أبي الخير الذي ارتحل من اليمن إلى مكة بأولاده ونسائه هربا من فتنة ابن مهدي ومكث بها سبع سنين ثم عاد سنة (566هـ / 1170م).

وممن درّس بمكة الإمام زيد اليفاعي المعافري الذي رحل إلى مكة للمرة الثانية سنة (500هـ / 1106 م) فتولى فيها رئاسة التدريس والفتوى لمدة 12 سنة، وكان محصول أراضيه الزراعية يأتيه إلى مكة فيعطيها تجار مكة ليتاجروا له بها، فسافروا للتجارة بها إلى عدة بلدان مثل عدن وزبيد ومصر والعراق والهند، فربح من تجارة أمواله ثروة كبيرة بلغت أربعة عشر ألف مثقال صرفها في سبيل التدريس.

وفي مجال تدريس العلوم تولى رئاسة التدريس والفتوى في الملحمة في بعدان القاضي محمد بن سالم بن زيد الأصبحي البعداني (ت477هـ/ 1189م). وفي ذي أشرق الفقيه عبد الله بن عبد الرزاق بن حسن بن أزهر (ت528هـ/ 1133م)، وفي زبيد ابن عبد الله بن أبي القاسم المعروف بابن الأبّار.

وفي مجال الإنفاق على التعليم أنفق بعض العلماء على التدريس، من ذلك الإمام زيد بن عبد الله بن جعفر اليافعي المعافري الذي كان ذا مال ويسار، وكان قد وصل عدد طلابه نحو (ثلاثمائة طالب). وكان الإمام زيد يوفر لأغلبهم القوت والكسوة ويردد الحديث القائل: (يأتيكم أقوام من أقطار الأرض يطلبون العلم فاستوصوا بهم خيراً).

وممن أنفق على التعليم الإمام محمد بن الحسن بن عبدويه الذي قدم إلى عدن ثم زبيد ثم استقر في جزيرة كمران سنة 505هـ / 1111م فقصده الطلاب من أنحاء اليمن، وكان يقوم بكفاية المنقطعين للعلم من طلابه. وكانت الأموال تأتيه من التجارة، فقد بعث مواليه للتجارة إلى مكة والحبشة والهند وعدن، فبلغ ماله ستين ألف دينار.

وبخصوص الحالة المالية لشريحة العلماء فقد كانت مختلفة، فمنهم مَن كان فقيرا وهؤلاء قامت الدولة بالاستعانة بهم في التدريس والفقه وتولي المحاكم وغير ذلك فأنفقت عليهم. من ذلك أنّ الوزير النجاحي منّ الله الفاتكي منح مدارس الفقهاء الحنفيّة والشافعية ما أغناهم من الأراضي والمرافق. كما أن الوزير النجاحي سرور الفاتكي منح الفقهاء والقضاة والمتصدرين للحديث والنحو واللغة وعلم الكلام والفروع اثني عشر ألف دينار سنويا. أما الأغنياء فقد ساهموا في التدريس كما سبق ذكره.

وقد حظي العلماء بقسط وافر من الاحترام من قبل الحكام ورجال الدولة. من ذلك أنّ الحسن بن أبي عقامة كان عند الأمير جياش بن نجاح (معظماً مبجلاً يلقبه بمؤتمن الدين).

كبار الملاك :

وتشمل كبار ملاك الأراضي الزراعية وكبار التجار. ونظرا لأهمية المال فقد شكّل شريحة متميزة في المجتمع بحكم الثراء الذي جلبه لهم من أراضيهم الزراعية وعملهم التجاري. وللمال أثر فعال في المساهمة في التحصيل العلمي لشريحة العلماء، كما أنّ له الأثر الفعال في صعود بعض الزعامات القبلية إلى السلطة. وللمال أيضا أثر كبير في تقسيم المجتمع إلى فئات.

فبالنسبة لملكية الأراضي الزراعية فقد ملكها الكثير من الناس. من ذلك مثلا أنّه كان للشيخ أحمد المعلم أملاك جليلة في أماكن كثيرة في المجرعة وذي أشرق وذي جبلة وضراس. وفي الغالب كان معظم كبار ملاك الأراضي الزراعية من شريحة الحكام ومشائخ القبائل وزعمائها، كما امتلكها الكثير من شريحة العلماء.

أما كبار التجار فقد وجدوا في الكثير من المدن مثل مكة والمدينة وجدة وصنعاء وزبيد وعدن ومسقط وهجر وغيرها. وقد ساهم التجار في النشاط التجاري للجزيرة العربية. وكانت عدن أكثر جذبا للتجارة وذلك ما يوضحه ابن بطوطه بقوله: (وللتجار منهم أموالٌ عريضة وربما يكون لأحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه لا يشاركه فيه غيره لسعة ما بين يديه من الأموال ولهم في ذلك تفاخر ومباهاة).

العامة :

تعتبر هذه الفئة الأكثر أهمية في المجتمع والأكثر انتشارا وتعدادا. وتشمل الجند والرعايا والفلاحين وأرباب الحرف.

الجند :

يعدّ الجند عنصرا مهما في المجتمع بفضل القوة العسكرية التي في أيديهم.

وقد تعددت عناصر الجند في الجزيرة، وأهمّ هذه العناصر هي القبائل العربية. فالأشراف في مكة والمدينة والمخلاف السليماني وصعدة اعتمدوا على القبائل في الجندية. كما اعتمد عليهم الصليحيون وبنو زريع وبنو مهدي وبنو حاتم وبنو نبهان وغيرهم. ومن عناصر الجند الأحباش الذين جلبتهم الدولة النجاحية. كما جلب ابن نجيب الدولة الأرمن والنوبة لخدمة الصليحيّين. أما الأيوبيون فقد كانت عناصرجندهم مكونة من الأكراد والأتراك والتركمان والغز وغيرهم.

ولم تكن القبائل العربية متساوية في قبول الدخول في رسوم الجندية وكذلك الحال لدى بقية

العناصر. فقد كانت بعض القبائل تعتبر الدخول فيها عيبا وسبّاً، بينما كانت بعض القبائل لا ترى ذلك. ومن أهمّ القبائل التي قبلت الدخول في رسوم الجندية قبائل همدان، ولذلك عملت بقية القبائل على مسالمة هذه القبيلة ومنحها الجوائز والأموال، وأدى ذلك إلى تمكن قبيلة همدان بزعامة علي الصليحي من توحيد اليمن والقضاء على دويلاتها المتعدده. وتظهر أهمية شريحة الجند في أنها ساهمت في إقامة الكثير من الدويلات كما أنها ساهمت في إسقاط الكثير منها.

الرعايا :

وهم عامة الناس وأكثرهم عددا وانتشارا وأهمية. وتشمل عامة المزارعين أو الفلاحين وأرباب الحرف والصناعات وصغار التجار وصغار الموظفين والحمالين والصيادين والحراس وغيرهم.

وتظهر أهمية الرعايا في اعتماد الحكام عليهم في جباية الأموال الزراعية من خراج وزكاة وغيرهما. كما تعتمد عليهم أكثر الفئات الاجتماعية في إمدادهم بالمؤن الغذائية من حبوب وفواكه وخضروات وغيرها. كذلك يعتمد عليهم التجار في استهلاك بضائعهم وفي إمدادهم بالصناعات التي يتاجرون بها.

ساهم الرعايا في تأييد الفقهاء ضد الدولة. من ذلك أنه عندما اتفق جماعة من الفقهاء منهم محمد بن قيس الوحاظي وإبراهيم بن زيدان وعبد الله بن يحيى على الاستيلاء على حصن التعكر، وطلبوا من الرعايا مساعدتهم في ذلك العمل، وافق الرعايا على مساعدتهم تلك. فلما طلع الفقهاء حصن التعكر أوقدوا النار على رأس الحصن ليلاً إشارة إلى طلب إعانتهم، فتجمع الرعايا من كل أنحاء ذي جبلة، فلم يصبح الصباح إلا وقد تجمع على باب حصن التعكر عشرون ألف رجل من الرعايا.

حاول الصليحيون والنجاحيون كسب الرعايا إلى صفهم عندما كان الصراع محتدماً بين الجانبين حول السيطرة على تهامة اليمن. من ذلك مثلا أن سبأ الصليحي عندما كان يستولي على تهامة يعمل على جبايتها دون أن يظلم أحدا من الرعايا. كما كان يحتسب للعمال ما جباه منهم خصمه جياش بن نجاح في أشهر الخريف والصيف. وعندما كان جياش يستولي على تهامة يعمل على جبايتها دون أن يظلم أحدا من الرعايا. كما كان يحتسب للعمال ما جباه منهم خصمه سبأ الصليحي في أشهر الشتاء والربيع.

وبالنسبة لمن يفلحون الأراضي الزراعية في زبيد فقد لقوا عطف الحكام. فقد عمل سيف الإسلام طغتكين بن أيوب على العدل مع من يعمل في حراثة الأراضي الزراعية، وتعليله لذلك هو: (أن الفلاح يحرث ويسقي ويبذر ويحصد ويعزق ويذري في الهواء. ويجد مشقة عظيمة. لذلك فالواجب الرفق بهم). أما بالنسبة لأصحاب النخل فقد أمر سيف الإسلام طغتكين بالشدة، والسبب في ذلك هو أن أهل النخل يجنون الثمرة من العام إلى العام دون عناء ولا تعب. لذلك أمر بزيادة الخراج عليهم مما أدى إلى عدم مقدرتهم دفع ما فرض عليهم من خراج فهربوا فعمل على استصفاء نخلهم.

وبخصوص الحرف، فقد وجدت في الجزيرة العربية أنواع الحرف الصناعية والمهنية مثل دباغة الجلود وصناعتها، والصناعات التعدينية واستخراجها، وصناعة الملبوسات والعمل في مغاص اللؤلؤ وغير ذلك.

وكان الصناع عادة يكتبون أسماءهم على أعمالهم الحرفية الصناعية مثل الصناعات المعدنية

وصناعة المنسوجات والمهنية مثل العمارة والتجارة وغير ذلك. ويكتبون تاريخ الصنع والبلد الذي صنعت فيه. وقد يكتبون في المصنوعات المادة التي تصنع منها مثل الصوف والقطن والنحاس وغيرها.

كذلك عمل الرعايا في وظائف أخرى متعددة، فكان منهم رعاة الماشية وحمّالون وحراس ضيعات وصيّادون وغيرهم. فمثلا كان أهل عدن ما بين تجار وحمالين وصيادين للسمك. وهكذا تنوعت أعمال شريحة الرعايا.

وتظهر أهميتهم في النشاط الذي يمارسونه في نهوض المجتمع وتطوره ونقله من حالة البداوة إلى حالة التمدن وبلوغه مرحلة عالية من الثراء ورفاهية العيش والحياة المنعمة.

مظاهر الحياة الاجتماعية :

وهي تشمل أنواع الاحتفالات، ومن أهمّها الاحتفالات بالزواج والمواسم والأعياد، بالإضافة إلى أنواع التقاليد والعادات. وتعد الاحتفالات من الأمور المهمة لحياة المجتمع، لأنها تعطيه الشعور بالبهجة والمرح والسرور، كما تعطيه الشعور بالتجديد والتغيير في نمط حياته اليومية.

الزواج وإجراءاته :

الخطبة :

تعتبر الخطبة من أهم المقدمات الأساسية لبدء الزواج. وهي عادة ما تبدأ بالتعرف على الشاب وخطيبته عن طريق الوصف أو المشاهدة. ثم يبدأ التفاهم على الخطبة فيما بين الأسرتين. وإذا ما تمت الموافقة على الخطبة ووافق أهل الخطيب على مطالب أهل الخطيبة من كسوة وحلي وجهاز ومقدار المهر مقدمه ومؤجّله وغيره، تبدأ إجراءات استكمال مراسم الزواج.

وقد اختلفت إجراءات الخطبة والمهر والاحتفالات بالزواج في الجزيرة العربية من مكان إلى آخر ومن شريحة إلى أخرى ومن بادية إلى حضر ومن ريف إلى مدينة وعلى حسب حالة الأسرة من الغنى والفقر وغيره.

وفي مجال رؤية الخاطب لخطيبته كان أفراد المجتمع في العادة يعيشون معاً في الريف أو المدن، وكانوا يعرفون بعضهم بعضا، ويعرفون مستواهم المالي والاجتماعي. ويتم التفاهم للخطبة وفقا لهذه المعرفة.

وفي حالة عدم المعرفة فالخطبة تتم عن طريق معرفة الخاطب لخطيبته. فمثلا في المناطق الريفية الجبلية الواقعة ما بين ذمار وصنعاء وما حولهما، يطلب الخاطب من الأب رؤية ابنته، فيدله على السوق الذي تذهب إليه الفتاة ليتعرف على جمالها وبيعها وشرائها وقوة صبرها على تحمل المصاعب. فإذا أعجب بها تتم إجراءات الخطبة والزواج. وغالبا ما تبقى المرأة في عملها هذا طيلة حياتها. وهذا يدل على أن هذه الحالة تنطبق على الأسر الفقيرة التي لا تملك أراضي زراعية كافية لذلك تعمل المرأة في التجارة. أما الأسر التي تملك أراضي زراعية كافية فالمرأة غالبا ما تعمل في الزراعة والحصاد.

المهر :

يقدّم على حسب حالة الزوج أو الزوجة المالية والاجتماعية. فمثلا عندما طلب علي الصليحي الزواج من أسماء بنت شهاب طلب أبوها

منه مهرا كبيرا لم يكن بمقدوره توفيره، فذهب إلى حكام تهامة للاستعانة بهم فساعدوه في هذا المهر. أما بالنسبة للمهر عند الطبقات الفقيرة فقد كان قليلا ومساعدا على الزواج بحسب حالتهم، وبعضهم كانوا لا يأخذون المهر مقدما. من ذلك أنه كان من عادة نساء مدينة زبيد وما حولها من القرى عدم أخذ المهر من أزواجهن مقدما، ويعتبرن أخذ المهر عيبا كبيرا يجب عليهن عدم اتباعه. والسبب في ذلك هو أن المرأة التي تأخذ مهرها من زوجها مقدما تعتبر امرأة مطلقة. أما عدم أخذ المهر مقدما فهو دلالة على طاعة المرأة لزوجها وعدم قدرة الزوج على طلاقها لبقاء المهر عنده. كما أنه يعتبر دلالة للمرأة، فإذا لم يعجبها الزوج تركت له مهرها وطلبت الطلاق.

الزواج :

اختلف أفراد المجتمع في تجهيز العريس وتقديم الحلي والكسوة ونوع الاحتفالات على حسب حالة الزوج والزوجة المالية والاجتماعية. فما يقدمه الحكام والتجار غير ما يقدمه الفقراء. من ذلك مثلا أنّ ما قدمه القائد فرج السحرتي للعروسين على الصليحي وأسماء بنت شهاب كان أحسن جهاز يحتفل به الملوك لعقائلهم. وقدم سبأ بن أحمد الصليحي عندما تزوج أروى الصليحية ما قيمته خمسون ألف دينار من أصناف التحف والطيب والكساوي. واستمرت احتفالات أروى بهذا الزواج مدة شهر كامل أنفقت خلاله في ضيافة الجند والرعايا مبلغ مائة ألف دينار.

ومن العادات المتبعة في الزواج في جميع أعمال الجبال والبوادي والبدو في تهامة ونجد أنهم في الغالب يزوجون بناتهم دون أن يورّثوهن أيّ شيء، وهذا ينطبق على البدو الرحل في هذه المناطق والذين لا يملكون أي شيء إلا الترحال. ومنها أيضا في بوادي هذه المنطقة عند البدو الرحل أنه إذا لم تلق المرأة الثيب زوجا يعرضونها في السوق للزواج مع ما تملكه من مال ومواشي. فإذا رغب بها وبمالها أي رجل تزوج بها. ومنها أيضا في هذه المناطق (الجبال والبوادي في تهامة ونجد) الريفية أنّ الأب هو الذي يجهز ابنته، ويزوجها من ماله الخاص إذا كانت بكراً.

ومن عادات نساء زبيد أنهن يقبلن الزواج من الغرباء ولا يقبلن السفر معهم. وإذا سافر زوجها تودّعه وتنفق على أولادها في غيبته حتى يعود، ولا تطالبه بنفقة أو كسوة عن الفترة التي غابها. وإذا أقام معها تقتنع بالقليل من النفقة والكسوة.

وعند الاحتفال بالزواج في مكة وحضرموت واليمن وغيرها يخضب الرجال أيديهم وأرجلهم بالحناء، وكذلك النساء يخضبن أيديهن وأرجلهن. ويحضر الاحتفال جميع الأهل والأقارب والأصدقاء.

وليست كل المناطق على درجة واحده في السماح للفتاة الصغيرة بحضور الاحتفالات. ففي سواحل زبيد مثل الزريبة والعنبرة والهرمة والقرشية، وكذلك في القرى الشمالية لزبيد مثل الكدراء والمهجم وغيرها، لا يسمحون في العادة لبناتهم الصغيرات بالظهور في الاحتفالات إلا إذا عقد نكاحها وطلع مهرها وسلم دفعها. فبعد ذلك تظهر البنت على رؤوس الأشهاد بالضيافات والطرح والتسليم. والسبب في ذلك هو تجنيب الفتاة الخروج عن الطريق الصحيح إلى طريق غيره.

الطــــرح :

مـن عـادات الـزوج فـي الجزيـرة العربيـة استخدام (الطرح)، وهو عبارة عن مساهمة مالية في العرس بتقديم مبلغ من المال للعريس من قبل المدعوين وتقديم أنواع الحبوب للعروس من النساء المدعوات. ويقدم (الطرح) من الرجال والنساء الأغنياء والفقراء في الحجاز واليمن وحضرموت وغيرها في مواسم العرس والولادة والختان. وعادة ما تكون المبالغ المالية والعينية دينا في ذمة العروس أو العريس يجب عليهما ردها في احتفالات مماثلة. ويعتبر عدم رد (الطرح) عيبا كبيرا لأنه دين يجب الوفاء به. فإذا أخذت (الطرح) في عرس ردت في عرس مثله. وكذا الولادة والختان يرد إلى المرأة (الطرح) في ولادة مثلها أو ختان مثله.

وقد تصل مبالغ (الطرح) النقدية والعينية لبعض الناس إلى مبالغ كبيرة. من ذلك عندما تزوج الشاعر العندي بعدن سنة (505هـ/1111م) قدّم إليه الناس على اختلاف مستوى دخولهم مبالغ نقدية بلغت ألف دينار خارجا عن بقية الأصناف العينية. وطريقة تقديم (الطرح) للرجال هي أن يكتب المدعوون أسماءهم في قرطاس موضحين أمام كل اسم المبالغ التي قدموها كل على قدر حاله وسعة ماله. وقد يستفيد العريس من هذا (الطرح) في المدن مثل مكة فيفتح له بها دكانا يعيش به. وبالنسبة (لطرح) المرأة في بوادي نجد وتهامة وجبالها، فقد كانت النساء المدعوات يقدمن للعروس جرابا مليئة بالدقيق والسميد والسويق والزبيب. وقد تتحصل المرأة في هذا الطرح على نحو مائة ظرف مملوءة بأنواع الحبوب والدقيق وغيرها، وهذا ما يساعد المرأة في الإنفاق على بيتها عدة أيام وأشهر.

الاحتفالات بالمواسم والأعياد :

من الاحتفالات الشعبية الدينية أن أهل مكة يعتبرون أول رجب من كل عام عيداً لهم يحتفلون به مع أهل السرو من اليمن الذين يأتون إلى مكة في نية الجمع بين العمرة الرجبية والتجارة لأنها تعتبر عندهم بمثابة حجة. فيجلبون إليها الحنطة واللوبيا وسائر الحبوب والسمن والعسل والزبيب واللوز. ويبدأ الاحتفال منذ عشية ليلة أول رجب، وفي صباح اليوم الأول لرجب واليوم الثاني وفي يوم 27 ويوم 29 من رجب. ففي عشية ليلة رجب يخرج الكثير من أهل مكة والسرو في موكب احتفالي كبير إلى التنعيم مزينين هوادجهم وإبلهم بالكسوة بأنواع الحرير والكتان وغيره بحسب حالة الناس المالية، حاملين معهم المشاعل والأسرجة المتلألئة نوراً. ثم يعودون إلى الكعبة ويطوفون حول البيت الحرام ويسعون في الصفا والمروة ملبين مكبيرين. وعندما تثبت رؤية هلال أول رجب تضرب الطبول والأبواق و(الدبادب) إشعارا بأنها ليلة الموسم. وفي صباح أول رجب تخرج مكة عن بكرة أبيها في حشد كبير محتفلين بهذا اليوم، فيذهبون إلى الميقات ثم يعودون بنفس حالة الاحتفال ثم يطوفون بالكعبة ويسعون ملبين مكبرين. ويوم 27 من رجب يحتفل أهل مكة به احتفالا كبيرا كما احتفلوا به في أول يوم، فيخرجون إلى العمرة ويطوفون حول الكعبة ويسعون. ويوم 29 رجب يفردونه لاحتفال النساء فقط، فيحضرن من كل أنحاء مكة إلى المسجد الحرام للطواف والسعي والتضرع إلى الله في هذا اليــــوم.

ومن ضمن الاحتفالات الشعبية الدينية يحتفل أهل إقليم الجند سنويا بأول جمعة من رجب، ويسمونه موسما، لأنّ الكثير من الناس من أنحاء

متعددة من الإقليم يحضرون في هذا اليوم للصلاة في جامع الجند، وذلك لاعتقادهم أن الصلاة في هذا الجامع في أول جمعة من رجب يعادل عمرة. والسبب في ذلك أن الصحابي الجليل معاذ بن جبل ﷺ قدم إلى الجند في هذا اليوم.

كذلك يعتبر النصف من شعبان يوماً معظماً عند أهل مكة، فيحتفلون به احتفالاً كبيراً بعد صلاة العشاء. كما أنهم يبادرون إلى الإكثار من أعمال البر والصلاة خلال هذا اليوم.

وكذلك يحتفل أهل مكة بشهر رمضان احتفالاً عظيماً، فيعملون على تجديد الحصر وفرشها، وتكثير الشمع والمشاعل وغير ذلك من الآلات التي تجعل الحرم يتلألأ نوراً ويسطع ضياءً. وفيه يكثرون من العبادة بإقامة صلاة التراويح طيلة الشهر، بالإضافة إلى الإكثار من أعمال البر الأخرى. كما أنهم يزينون السقوف بين الصفا والمروة، ويضربون الطبل إلى الصباح، وينادون في السَّحر على جبل أبي قبيس إشعاراً بدخول وقت السحور.

ويحتفل أهل عدن بشهر رمضان قبل قدومه بيومين عن طريق تزيين السطوح وضرب الطبول إشعاراً بقدوم رمضان. وخلال هذا الشهر يصلون التراويح ويختمون القرآن فيه، وأيضا يجتمع جماعة من الناس عند السَّحر لقراءة القصائد إلى آخر الليل إشعارا بدخول وقت السحور، وهو أشبه بعمل المسحراتي. وعندما يقرب العيد يأخذون من الناس أجر عملهم.

وفي الاحتفالات بشهر رمضان أن الوزير النجاحي سرور الفاتكي يقيم مطبخاً في المهجم طيلة شهر رمضان يدعو كافة الناس للإفطار فيه ويبلغ مصرف مطبخه كلّ يوم ألف دينار.

ومن الاحتفالات الشعبية غير الدينية يحتفل أهل زبيد بأيام الرطب والذي يحضره الناس من أنحاء اليمن من الجبال ومن حرض إلى أبين لأخذ ما يحتاجونه من الرطب، وذلك لوجود عشر قطع مزروعة بالنخل فيها أنواع الرطب الحماري والصفاري والحضاري. ويتواصل الاحتفال شهرين أو ثلاثة أشهر.

كذلك يحتفل أهل زبيد (بسبوت النخل)، وهو الخروج إلى حدائق النخيل في كلّ سبت في أيام الرطب والبسر، وفيها يخرج كل من في مدينة زبيد من الرجال ومن النساء راكبات الجمال في المحايل. ولا يبقى بها أحد من أهلها أو الغرباء. كما يخرج معهم أهل الظرف وأهل الأسواق لبيع الفواكه والحلاوة.

المأكل والملبس :

المأكل :

تنوّعت صناعة الأطعمة في الجزيرة العربية من منطقة إلى أخرى، وذلك بحسب ما يتوفّر لكل منطقة من المنتجات الزراعية.

ففي المناطق الجبلية المعتدلة والمائلة إلى البرودة كانوا يزرعون القمح (البر) والعدس والشعير والحنطة، ولذلك كان أكثر أكلهم منه. من ذلك مثلا أنه في صنعاء كان طعامهم من البر النقي والعلس، وفي ذمار وما حولها كان أكثر أكلهم من الحنطة والحلبة واللحم والشراب صيفا وشتاء. وفي مكة كان أكلهم اللحم والخبز بالسمن.

وبالنسبة للمناطق التهامية والجبلية الحارة، فقد كانوا يكثرون من زراعة الذرة الشامية والرفيعة والدخن. ولذلك فإن أغلب أكلهم منه. من ذلك أن أهل زبيد وما حولها كانوا يأكلون الدخن والذرة، ويعملون منهما الحفوش والكبان. كما كانوا يأكلون اللحم والسمك. ويأكلون الفطير باللبن، بالإضافة إلى أنهم يأكلون الجبن والقند والموز والحليب. وعلى

العموم فإن السمك يكثر أكله في المناطق الساحلية للجزيرة العربية في كل من البحرين والمنصورة والشحر، وفي شبام حضرموت يكثر أكلهم للسمك الصغير المجفف. أما في المناطق الجبلية فكثيراً ما يأكلون اللحم بدل السمك. وفي نجد يكثرون من أكل لحم الإبل وشرب الحليب.

وتختلف طريقة الطبخ من مكان إلى آخر. فمنهم من يستخدم طريقة الشيّ للحم ومنهم من يعمد إلى سلقه. من ذلك أنه في الكثير في مناطق الجزيرة يستخدمون طريقة سلق اللحم بالماء والملح ويثرد الخبز ويقلب عليه السمن الكثير فيشرب اللحم بالمرقة. ويفرق جميع اللحم على الثريد وهذا طبخ العرب خاصة يسمّونه العربية.

وقد اختلفت الأطعمة بين فئات المجتمع حسب مراكزهم وثروتهم. فالحكّام كانوا يتناولون أفخر المأكولات. فمثلا في اليمن بلغ طول السماط (المائدة) خمسين ذراعا وبلغ عددها إلى أربعة أسمطة (موائد)، وذلك ما يوضحه العمري بقوله: "ولأكابرهم حظ من رفاهية العيش والتنعم والتفنن في المأكل، يطبخ في بيت الرجل منهم عدة ألوان". أما الفقراء فقد كان طعامهم ما تيسر. فمثلا كان أهل الحرف والصيادين والحمالين والزراع يتناولون طعاما بسيطا قد يشمل فطير دخن وقطيباً أو رغيف خبز من علس أو بر وقطعة حلاوة.

كذلك تنوع استخدام الأطعمة بحسب حاجات الناس إليها من حيث الاستقرار والسفر. ففي السفر كانوا يأكلون الخبز الطري واليابس الذي لا يتغير. ويعمل ذلك عن طريق عجن دقيق البر بالسمن أو بالسمن واللبن ثم يخبز بالأفران.

ومن عادات أهل الجزيرة العربية إكرامهم للضيف، فكان بعضهم يؤخر الغداء والعشاء من أجل انتظار وصول أي ضيف. وكان عرب الفلاة البوادي لا يتغدون إلا قرب الظهر، ولا يتعشون إلا قريباً من منتصف الليل. وإذا حضر رجل عزيز القدر ينحر له رأس إبل، أما إذا كان عابر سبيل فتذبح له شاة. كذلك كان من عادة أهل عُمان أنهم يأكلون في صحن المسجد، وذلك من أجل أن يأكل معهم من قدم من المسافرين وغيرهم.

الملابس :

اختلفت ملابس أهل الجزيرة العربية من منطقة إلى أخرى وذلك بحسب العوامل الطبيعيّة من حرارة وبرودة واعتدال. فكانت ملابس أهل الجبال في المناطق المعتدلة والباردة غير ملابس أهل تهامة الحارة. فمثلا في المناطق الباردة والمعتدلة في صنعاء وما جاورها يلبسون في الشتاء الصوف والمبطنات ودواويج الثعالب، وهو الفراء المدبوغ من جلود الثعالب. كما كانوا يلبسون في الصيف الخز والكتان والرقائق. ولكن بسبب طيب هواء صنعاء واعتداله فإن الإنسان بها بإمكانه لبس ملابس الصيف في الشتاء وملابس الشتاء في الصيف. كما لبسوا مدارع من صوف وجباباً وعمائم. ولبس أهل ذمار الملابس الكثيفة (الخام) لبرودة بلادهم. وفي صعدة لبسوا الحرير والقطن. كذلك لبس أهل الجزيرة البرود اليمانية في أنحاء الجزيرة.

وفي تهامة وغيرها لبس أهلها القمصان والأردية والأزر. ففي زبيد لبسوا الحرير والقطن، ولبسوا القلنسوة المصنوعة من خوص النخيل، وفي عدن لبسوا الكتان والعمائم والسراويل، وفي مكة المكرمة لبس أهلها النصافي النيسابوري الرفيع والذي يحزم في منتصفه، وفي نجد لبس أهلها الملابس الكثيفة (الخام). كما لبس أهل نجد العبيد والأغنياء والفقراء الأكسية الصوفية التي تسمى بثياب الهجير.

وبالنسبة إلى ملابس النساء فقد كان أكثر لبسهن في مكة واليمن وحضرموت وغيرها لباس (الفتوحي)، وهي القمصان الواسعة الأكمام وغير الضيقة على الأجسام، مع لبس السراويل، وهي تشابه ملابس بغداد وجميع بلاد العرب والتركمان.

المـــرأة :

المرأة هي أحد المقومات الأساسية للمجتمع. وهناك اختلاف بين المرأة الريفية والبدوية والمتمدنة. فالمرأة المتمدّنة غالبا ما كانت تعمل داخل المنزل الأعمال المعروفة من طبخ وكنس وغسل ملابس وتربية أطفال. أما المرأة الريفية فقد كان عليها العبء الأكبر في العمل، فهي تشارك زوجها في الأعمال الزراعية في الحقل، كما أنها تعمل لوحدها جميع أعمال المنزل. وعن المرأة الريفية أورد مسلم اللحجي قوله: "وإنما ينكح الزراع امرأة تطحن أو تعجن وتخبز وتغزل وتقوم بخدمة كثيرة لزوجها وضيفه وولدها وخدمها وغير ذلك من رقع ثوبها وغسله وتنظيف بيتها وكنسه ونحو ذلك وسواه من أعمال".

كذلك كانت المرأة الريفية تعمل بالتجارة، وكانت تحمل على ظهرها أو رأسها حملاً كبيراً يُسمَى (كاره) على قدر طاقتها، وتسير وهي محمّلة به إلى السوق الأسبوعي، وتقطع به الأودية والشعاب والسهل والجبل، وتبيع هذا الحمل المليء بالبضائع وتشتري بثمنه حوائجها. وقد تظل على هذا العمل تذهب إلى السوق أسبوعيا طول حياتها. وبالنسبة لعمل المرأة في الغزل فقد كانت النساء يَجدن العمل به في اليمن ونجد والحجاز وغيرها. من ذلك أنه في اليمن كان غزل النساء ينقسم على وجهين: أحدهما الفارسي وهو الذي يدخل الإبهام على الإصبع الوسطى من فوق الغزل. والثاني الحميري وهو الذي يخرج الإصبع الوسطى على الإبهام في الغزل. أما بالنسبة للغزل في نجد فقد كانت النساء يغزلن القطن والوبر بالقانون الغليظ. وعن النساء الجواري فقد كان عملهن في المدن في بيوت الأمراء والحكام والأغنياء، وكانت مهمتهن تجهيز الأطعمة وغسل الملابس وترتيبها بالإضافة إلى العمل في الغناء وتجهيز الطيب وغيره.

وكانت النساء يتجملن ويتزينّ فيلبسن أنواع الملابس الجميلة وأنواع اليواقيت الفاخرة ويتعطرن ويتكحلن ويسرّحن شعرهن بالسدر والطين ويضفرنه. كما كانت المرأة تتزين بالحجل والخلخال والحراف والدملج. وهكذا تنوعت حال شرائح المجتمع في الاحتفال والمأكل والملبس والتزين.

الخـــاتمة :

اختلفت ملابس أهل الجزيرة العربية من منطقة إلى أخرى وذلك بحسب العوامل الطبيعيّة من حرارة وبرودة واعتدال. فكانت ملابس أهل الجبال في المناطق المعتدلة والباردة غير ملابس أهل تهامة الحارة. فمثلا في المناطق الباردة والمعتدلة في صنعاء وما جاورها يلبسون في الشتاء الصوف والمبطنات ودواويج الثعالب، وهو الفراء المدبوغ من جلود الثعالب. كما كانوا يلبسون في الصيف الخز والكتان والرقائق. ولكن بسبب طيب هواء صنعاء واعتداله فإن الإنسان بها بإمكانه لبس ملابس الصيف في الشتاء وملابس الشتاء في الصيف. كما لبسوا مدارع من صوف وجباباً وعمائم. ولبس أهل ذمار الملابس الكثيفة (الخام) لبرودة بلادهم. وفي صعدة لبسوا الحرير والقطن. كذلك لبس أهل الجزيرة البرود اليمانية في أنحاء الجزيرة.

وفي تهامة وغيرها لبس أهلها القمصان والأردية والأزر. ففي زبيد لبسوا الحرير والقطن، ولبسوا القلنسوة المصنوعة من خوص النخيل، وفي عدن لبسوا الكتان والعمائم والسراويل، وفي مكة المكرمة لبس أهلها النصافي النيسابوري الرفيع والذي يحزم في منتصفه، وفي نجد لبس أهلها الملابس الكثيفة (الخام). كما لبس أهل نجد العبيد والأغنياء والفقراء الأكسية الصوفية التي تسمى بثياب الهجير.

وبالنسبة إلى ملابس النساء فقد كان أكثر لبسهن في مكة واليمن وحضرموت وغيرها لباس (الفتوحي)، وهي القمصان الواسعة الأكمام وغير الضيقة على الأجسام، مع لبس السراويل، وهي تشابه ملابس بغداد وجميع بلاد العرب والتركمان.

أ.د. محمد عبده محمد السروري

جامعة صنعاء

المصادر والمراجع

أولاً - المصادر :

- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ، ت 779هـ / 1377هـ : رحلة ابن بطوطة، بيروت، (د.ت).
- ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن أحمد ، ت 614هـ / 1217 م : رحلة ابن جبير، بيروت، (د.ت).
- ابن حاتم ، بدر الدين محمد بن حاتم بن أحمد اليامي ، ت 702هـ / 1302م : السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن، تحقيق ركس سمث، لندن، 1974.
- ابن خرداذبة، أبو القاسم : عبيد الله بن عبد الله ، ت 300هـ / 912م : المسالك والممالك، بيروت، 1988.
- ابن خلدون ، عبد الرحمن، ت 808هـ / 1406م : اليمن في تاريخ ابن خلدون، تحقيق محمد حسين القرح، صنعاء، 2001.
- ابن الديبع ، عبد الرحمن بن علي ، ت 944هـ / 1537م : بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد، تحقيق عبد الله الحبشي، صنعاء، 1979.
- ابن الديبع ، عبد الرحمن بن علي ، ت 944هـ / 1537م : قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد الأكوع، القاهرة، 1971.
- ابن الديبع ، عبد الرحمن بن علي ، ت 944هـ / 1537م : الفضل المزيد على بغية المستفيد، تحقيق: يوسف شلحد، بيروت، 1983.
- ابن الديبع ، عبد الرحمن بن علي ، ت 944هـ / 1537م : نشر المحاسن اليمانية في خصائص اليمن ونسب القحطانية، تحقيق أحمد راتب حموش ، دمشق، 1992.
- ابن رستة ، أبو علي أحمد بن عمر ، ت في أواخر القرن 3هـ / 9 م : الأعلاق النفسية، بيروت، (د.ت).
- ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد ، ت 290هـ/ 903م : كتاب البلدان، بيروت، 1988.
- ابن المجاور ، محمد بن مسعود بن علي ، ت 630هـ / 1232م : صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، تحقيق أوسكر لوفغرين، بيروت، 1986.
- الإدريسي ، محمد بن محمد إدريس، ت 565هـ/ 1169م : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بيروت، 1989.
- الأشرف ، عمر بن يوسف بن عمرو بن علي بن رسول ، ت 696هـ / 1297م : كتاب ملح الملاحة في معرفة الفلاحة، تحقيق محمد عبد الرحيم جازم، نشر ضمن مجلة الإكليل اليمنية، العدد الأول، السنة الثالثة، صنعاء، 1985.
- الاصطخري ، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد ، ت 340 هـ / 954م : مسالك الممالك، بيروت، وليدن، 1937.
- الأهدل ، الحسين بن عبد الرحمن بن محمد ، ت 855هـ / 1451م : تحفة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق عبد الله الحبشي، بيروت، 1986.
- الأهدل ، حسين بن أبي القاسم ، القرن العاشر هـ / 15- 16م : كشف القناع في معرفة أحكام الزرع، تحقيق عبد الله الحبشي، نشر في مجلة الإكليل اليمنية، عدد1، 1980.

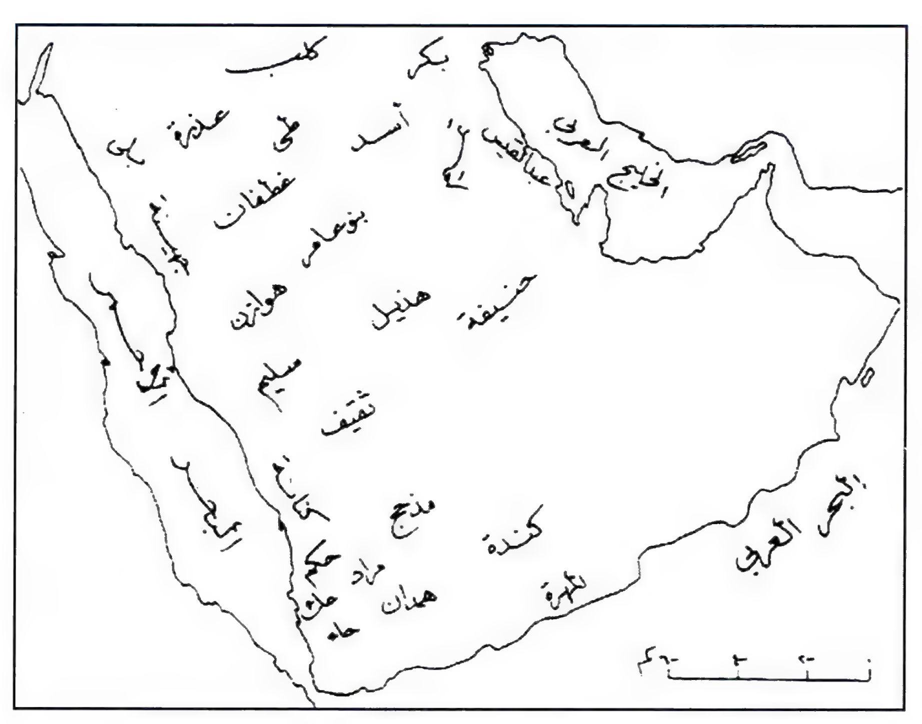
- با مخرمة ، أبو عبد الله الطيب بن عبد الله بن أحمد ، ت 947هـ / 1540م : تاريخ تعز عدن، بيروت، عمان، 1987.
- بزرك بن شهريار الناخذاة ، ت في منتصف القرن 4هـ / 10م : عجائب الهند بره وبحره وجزائره، بيروت، (د.ت) .
- البغدادي ، عبد المؤمن بن عبد الحق، ت 739هـ/ 1338م : مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق علي محمد البجاوي، بيروت، 1955.
- البكري ، أبو عبيد ، ت 496هـ / 1102م : المسالك والممالك، تونس، 1992.
- الجندي ، بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب ، ت 732هـ / 1331م : السلوك في طبقات العلماء والملوك، تحقيق محمد الأكوع، ج1، 1983.
- الحميري ، محمد بن عبد المنعم ، ت 714هـ / 1314م : الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، القاهرة، 1980.
- الخزرجي ، شمس الدين أبو الحسن علي بن الحسن ، ت 812 هـ / 1409م : العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك، مخطوط مصور، دمشق، صوره ثانية، صنعاء، 1981.
- الرازي ، أحمد بن عبد الله بن محمد ، ت بعد 460 هـ / 1067م : تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق: حسين العمري، دمشق، 1981.
- سليمان بن يحيى الثقفي ، (تاريخ وفاته غير معروفة) : سيرة الإمام أحمد بن سليمان، تحقيق عبد الغني محمد عبد العاطي، القاهرة، 2002.
- عمارة اليمني ، نجم الدين أبو محمد الحكمي ، ت 569هـ / 1173م : تاريخ اليمن المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد، تحقيق محمد الأكوع، القاهرة، 1976.
- العمري ، شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله ، ت 749هـ / 1348م : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أيمن فؤاد السيد، القاهرة، (د.ت) .
- قدامة بن جعفر أبو الفرج الكاتب ، ت 337هـ / 948م : الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمد حسين الزبيدي، بغداد، 1981.
- القلقشندي ، أبو العباس أحمد ، ت 821هـ / 1418م : صبح الأعشى في صناعة الإنشا، بيروت، 1987.
- اللحجي ، مسلم بن محمد بن جعفر ، ت 545هـ/ 1150م : تاريخ مسلم اللحجي، مخطوط لدى الباحث.
- المقدسي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد أبي بكر، ت 390هـ / 1000م : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، بيروت، 1987.
- المقريزي ، أبو العباس أحمد بن علي، ت 845هـ/ 1441م : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، القاهرة، (د.ت).
- الهمداني ، الحسن بن أحمد بن يعقوب ، ت بعد 360هـ / 970م : صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد الأكوع، بيروت، 1983.
- الهمداني ، الحسن بن أحمد بن يعقوب ، ت بعد 360هـ / 970م : الإكليل، تحقيق محمد الأكوع، القاهرة، 1963.
- الهمداني ، الحسن بن أحمد بن يعقوب ، ت بعد 360هـ / 970م : الجوهرتين العتيقتين من الصفراء والبيضاء، تحقيق كريستوفر، ترجمة يوسف عبد الله، صنعاء، 1985.

- الوصابي ، وجيه الدين عبد الرحمن بن محمد ، ت 782هـ / 1380م : تاريخ وصاب المسمى الاعتبار في التواريخ والآثار، تحقيق: عبد الله الحبشي، بيروت، 1979.
- ياقوت بن عبد الله الحموي ، ت 626هـ / 1229م : معجم البلدان، بيروت، 1984.
- يحيى بن الحسين بن المنصور بالله ، ت حوالي 1100هـ / 1688م : غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق عبد الفتاح عاشور، القاهرة، 1968.
- اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب ، ت 292هـ / 904م : البلدان، بيروت، 1988.
- المظفر يوسف بن عمر بن علي رسول الغساني، ت 696هـ / 1295م: المعتمد في الأدوية المفردة، القاهرة، 1983.

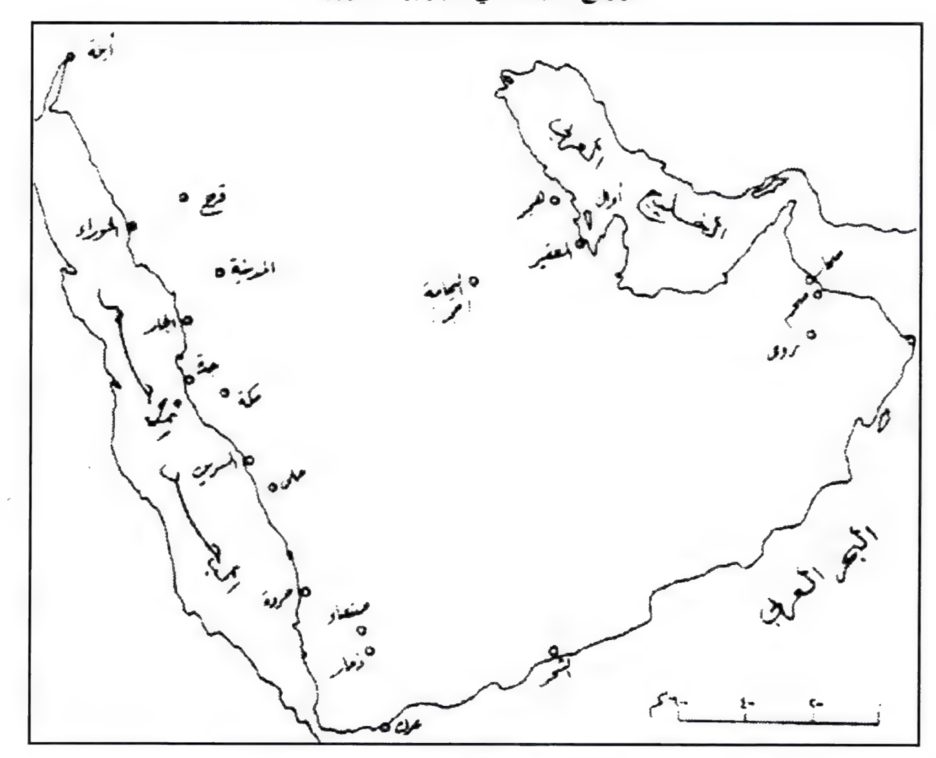
ثانياً - المراجع العربية والمعربة :

- محمد كريم إبراهيم : دراسة في أحوالها السياسية والاقتصادية، عدن، 1985.
- الهمداني سعيد الأفغاني : أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، 1993.
- الأكوع ، إسماعيل : البلدان اليمنية عند ياقوت الحموي، صنعاء، 1988.
- جواتيان : دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، ترجمة عطيه القوصي، الكويت، 1980.
- نزار الحديثي : أهل اليمن في صدر الإسلام، بيروت، (د.ت).
- حسين ، جميل حرب : الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، جدة، 1985.
- حوراني ، جورج فاضلو : العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة: يعقوب بكر، القاهرة، 1958.
- نقولا زيادة : الجغرافيا والرحلات، بيروت، 1987.
- السروري ، محمد : الحياة السياسة ومظاهر الحضارة في اليمن في عهد الدويلات المستقلة من سنة 429هـ / 626هـ، دار الأهرام، القاهرة، 1997،
- شهاب ، حسن صالح : أضواء في تاريخ اليمن البحري، بيروت، 1981.
- شهاب ، حسن صالح : عدن فرضة اليمن، مركز الدراسات اليمني ، صنعاء، 1990.
- شهاب ، حسن صالح : علوم العرب البحرية من ابن ماجد إلى القطامي، منشورات مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، عدد11، الكويت، 1984.
- عثمان ، شوقي عبد القوي : تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية 41-904هـ / 661-1498م، عالم المعرفة، الكويت، العدد 151.
- العش ، محمد أبو الفرج : المسكوكات العربية الإسلامية، الآثار في الوطن العربي ، المؤتمر التاسع، 1985.
- الغنيم ، عبد الله يوسف : جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري، الكويت، 1977.
- عصام الدين الفقي : اليمن في ظل الإسلام منذ فجره حتى قيام بني رسول، القاهرة، 1981.
- عطية القوصي : تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، القاهرة، 1976.

- متولي ، محمد : جغرافية شبه الجزيرة العربية، مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة، 1978.
- المسري ، حسين علي : تجارة العراق في العصر العباسي، ذات السلاسل، الكويت، 1982.
- دواد المندعي: تاريخ اليمن الاقتصادي من ق 4 / إلى ق6هـ ، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، 1997.
- حسين بن فيض الله الهمداني : الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، دار المختار، دمشق، 1955.

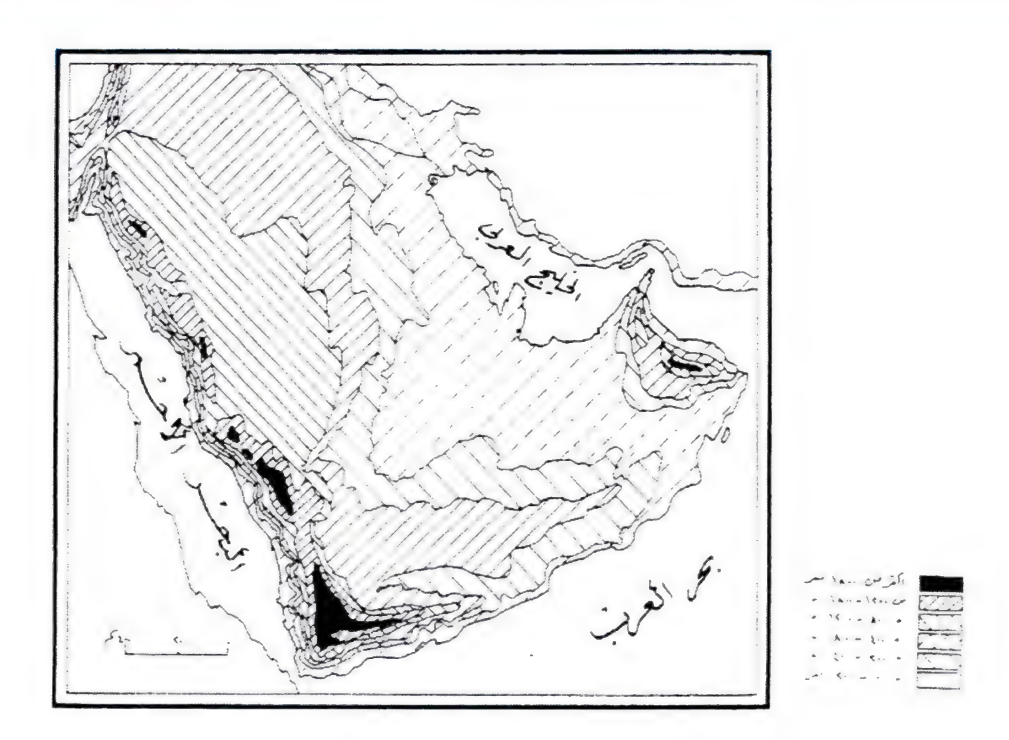


توزيع القبائل في الجزيرة العربية

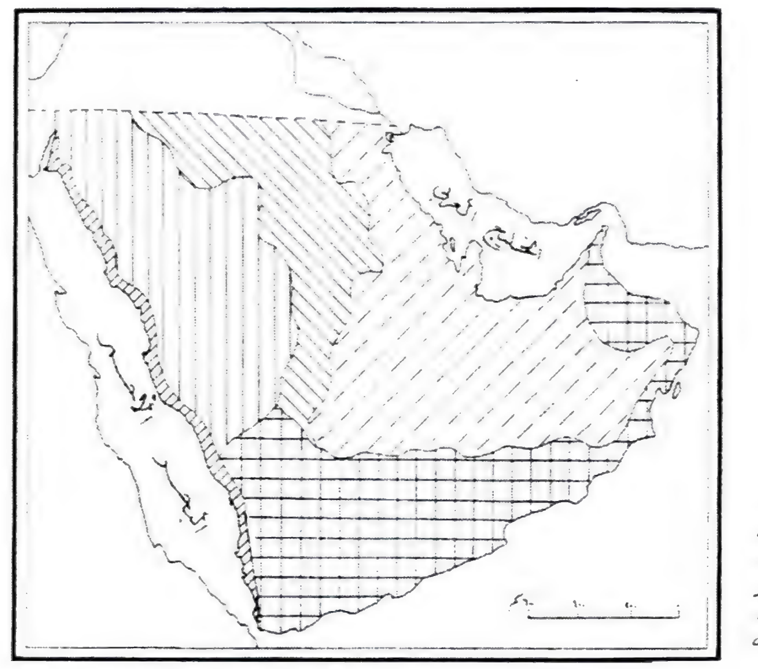


توزيع مراكز العمران كما وردت عند البكري

المصدر : عبد الله يوسف الغنيم ـ جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك ، لأبي عبيدة البكري ـ دار السلال ، ط 1 ، 1977م ، ص 129 + 142

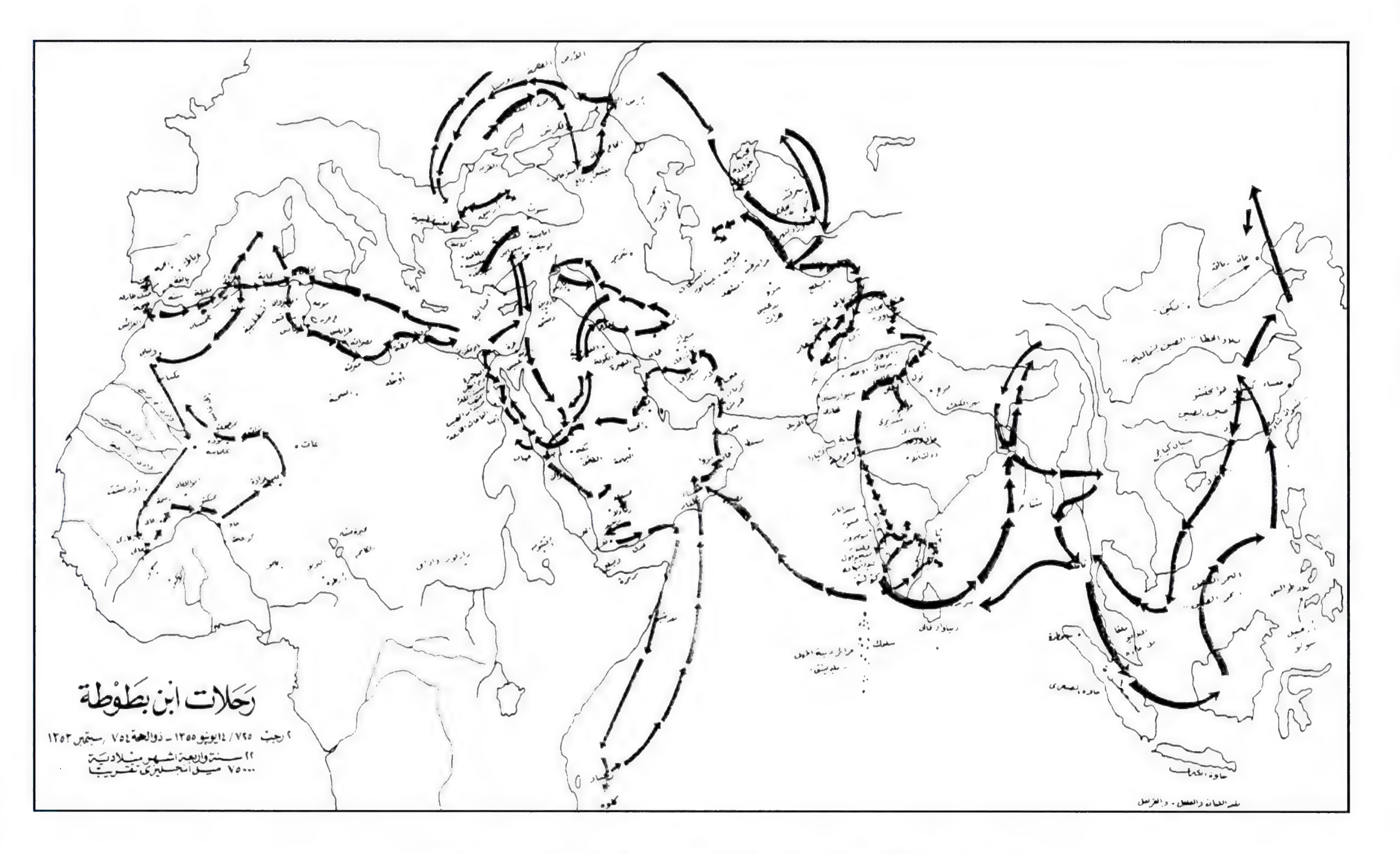


تضاريس الجزيرة العربية

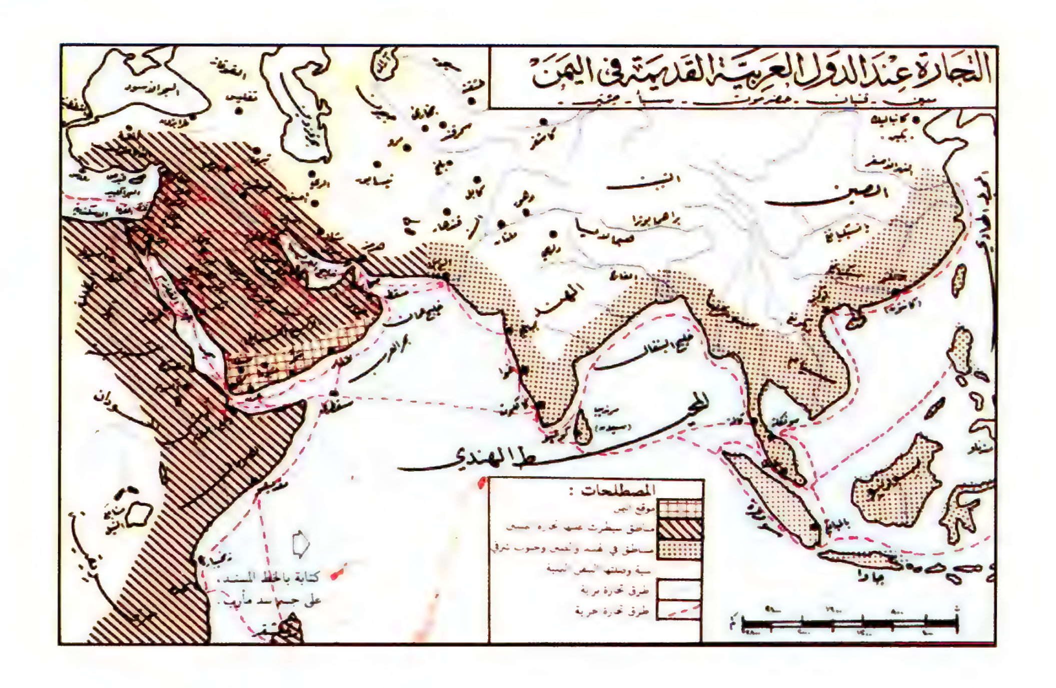


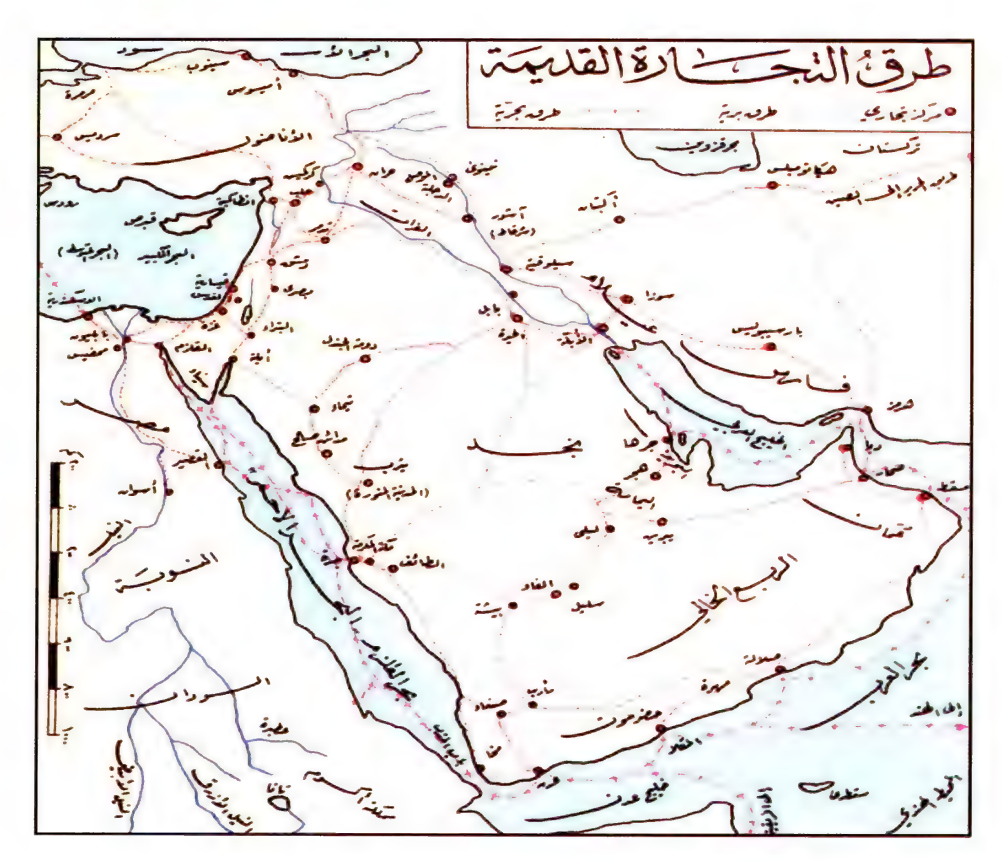
أقاليم الجزيرة العربية عند البكري

المصدر : عبد الله يوسف الغنيم - جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك ، لأبي عبيدة البكري - دار السلال ، ط 1 ، 1977م ، ص 109 + 113



المصدر : حسين مؤنس : ابن بطوطة ورحلاته – دار المعارف – القاهرة ، 1980م





المصدر : شوقي أبو خليل – أطلس التاريخ العربي الإسلامي – دار الفكر – دمشق وبيروت ، 1994 ، ص 27 + 28

الفصل الخامس - المغرب والأندلس

أولاً : الأنـدلـس :

1 - التجزئة : ملوك الطوائف .

2 - الغزو الإسباني .

3 - الحياة الاقتصادية والاجتماعية .

ثانيًا : بـلاد المغـرب :

1 - الدولة الزيرية (362-555هـ / 972-1160م) .

2 - هجرة بني هلال وبني سليم وآثارها.

3 - المرابطون (452-541هـ / 1068-1164م) .

4 - الموحّدون (524-668هـ / 1130-1169م) .

5 - الحياة الاقتصادية والاجتماعية .

6 - مراكش: الفنون والعمارة (المدنية والعسكرية) .

أولاً : الأنـدلـس

1 - التجزئة : ملوك الطـوائف

(422 - 484هـ / 1030 - 1091م)

مصطلح الطوائف أو دويلات الطوائف :

يُقصد بمصطلح الطوائف في الأندلس أولئك العمال أو الولاة أو الرؤساء الذين حكموا أقاليم الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية سنة 399هـ / 1008م. ولا يعني هذا المصطلح أن بالأندلس طوائف أو كيانات دينية كما يتبادر إلى الذهن حسب مفهوم المصطلح لغوياً، ولا ملوكاً بمعنى الكلمة وإنما كانوا عمالاً استولوا على ما كان بأيديهم من مناطق عقب انهيار السلطة المركزية في قرطبة، ولم يكونوا يقودون طوائف دينية ولا طوائف عرقية ولم يتسمّوا بلقب ملك على الرغم من أنهم اتخذوا ألقاباً مثل المقتصد والمعتمد والمستعين والمرتضي والمعتد بالله والمستظهر والمستكفي... إلخ.

وكانوا بالأصل إما وزراء سابقين أو من ذوي النفوذ أو القادة العسكريين أو قضاة أو حكاماً أو زعماء، وبسطوا نفوذهم على ما كان بأيديهم من المدن والأقاليم كل حسب قدرته.

ذكر مصطلح الطوائف أو دويلات الطوائف في ثلاث حالات من تاريخ الأندلس: المرة الأولى خلال الفترة الممتدة من عام 238هـ / 852م إلى 300هـ / 912م، وهي فترة حكم الأمراء محمد بن عبد الرحمن الأوسط (238-273هـ / 852-886م) والمنذر بن محمد (273-275هـ / 886-888م) وعبد الله بن محمد (275-300هـ / 888-912م).

وفي هذه الفترة كانت الأمور في الأندلس مضطربة إلى حدٍ كبير خاصة في عهد الأمير عبد الله بن محمد الذي كادت أن تسقط الإمارة الأموية في الأندلس في عهده بسبب كثرة الثوار عليه وعلى رأسهم عمر بن حفصون (انظر فصل الكيانات المستقلة في المغرب والأندلس).

أما المرة الثانية التي برز فيها هذا المصطلح فكانت عقب سقوط الخلافة الأموية في سنة 399هـ/ 1008م، حيث انقسمت الأندلس إلى دويلات مستقلة متنافسة ومتحاربة عرفت اصطلاحا بملوك الطوائف أو دويلات الطوائف، وبلغ عددها نحو 26 دويلة.

وفي المرة الثالثة عندما انهار حكم المرابطين انقسمت الأندلس إلى وحدات صغيرة عُرفت بعصر الطوائف كذلك، وتمّ توحيدها مرة أخرى تحت الموحّدين فيما بعد.

1- بنو جهور في قرطبة : (422-462هـ / 1030-1069م) :

مؤسس هذه الدويلة هو أبو الحزم جهور بن محمد بن عبيد الله بن يوسف ابن بخت بن أبي عبيدة الفارس (422-435هـ / 1031-1043م). وكان جدهم الأول مولى الخليفة عبد الملك بن مروان قد جاء إلى الأندلس مع الطالعة البلجية التي عبرت إلى هناك في ظروف سبق شرحها في فصل الفتوحات في المغرب العربي والأندلس. وكان جدهم

هذا من أنصار عبد الرحمن الداخل، وتولى في عهده الحجابة، وتولى كذلك أبناؤه بعده الوزارة في عهد هشام وأيام الحكم بن هشام وولده عبد الرحمن الأوسط ثم في عهد محمد بن عبد الرحمن والمنذر وعبد الله وفي عهد الناصر وأيضاً في عهد الأسرة العامرية. وهكذا تعاقب بنو جهور تولي المناصب العليا في عهد الأسرة الأموية بالأندلس حتى سقوطها عام 422هـ / 1030م.

وخلال الفوضى التي تلت سقوط الخلافة الأموية في قرطبة لعب ابن جهور دوراً بارزاً في الحفاظ على النظام والأمن في العاصمة قرطبة وحمايتها من التدمير. وقد نال بسبب هذا احترام وتقدير سكان قرطبة، وأصبح زعيمها المرموق، واختير بسبب ذلك "شيخاً للجماعة" وزعيماً للمدينة.

اتبع أبو الحزم جهور سياسة تُعدّ فريدة بالنسبة لعصره، فلم ينفرد بالسلطة عند اتخاذ القرار، لذا جمع من حوله كبار القادة والزعماء، وألزم نفسه بأن يستشيرهم في كلّ الأمور وتحدث باسمهم ولا يتخذ قراراً إلا بعد موافقتهم. وكان يقول: "ليس من شأني أن أقرر أمراً هو من اختصاص مجلس الشورى، وما أنا إلا منفذ لأمره وقراراته".

ويقول ابن عذاري: "ومتى سئل قال ليس لي عطاء ولا منع هو للجماعة وأنا أمينهم. وإذا رابه أمر أو عزم على تدبير أحضرهم وشاورهم. وإذا خوطب بكتاب لا ينظر فيه إلا أن يكون باسم الوزراء فأعطى السلطان حظه من النظر".

وهكذا كان ابن جهور يمضي كل أمر لا باسمه ولكن باسم الجماعة. "وقد عرفت هذه الدولة الفريدة في التاريخ الإسلامي باسم حكومة الجماعة في عصر سادت فيه النزعة الفردية والحكم المطلق.

وكان من أبرز مزاياها أن يستطيع الرئيس أن يتنصل من المسئولية وأن يستظل بلواء الجماعة إذا ما ساءت الأمور وأن يحرز الثناء وجميل الذكر إذا حسنت العواقب".

اتخذ أبو الوليد جهور سياسة موفقة للتعامل مع الظروف الصعبة في قرطبة، فكان من أول اهتماماته معالجة الأمور الأمنية، فقضى على الشغب وذلك بالتفاهم وإقناع الزعامات المحلية واستمالتهم ومراضاتهم لاتقاء شرهم وكسبهم إلى جانبه والاتفاق معهم على برنامج أمني لصالح مدينة قرطبة وحفظ النظام والأمن فيها. كذلك أصلح القضاء ونشر العدالة.

وفي مجال الاقتصاد اتبع أبو الوليد سياسة ذكية لإنعاش الوضع الاقتصادي في قرطبة التي كانت قد دمرتها الحرب الأهلية بعد سقوط الخلافة الأموية حيث كان قد غادرها التجار بسبب الفوضى التي شهدتها، فنراه يوزع القروض على التجار لإنعاش التجارة، ويخفض الضرائب، ويراقب الأموال العامة بحرص شديد، ويشجع المعاملات التجارية. وقد نتج عن هذه السياسة ازدهار الوضع الاقتصادي وتحسّن أحوال الناس المعيشية بسبب استقرار الأمن والأمان. وعادت قرطبة في وقت قصير إلى سابق عهدها المزدهر بعد أن كان قد غادرها التجار أثناء الحرب الأهلية التي مرت بها.

استمرت دولة قرطبة برئاسة جهور في سياستها هذه لمدة 12 عاماً، وقد جذبت إليها الكثير من القيادات السياسية التي لجأت من مدن أندلسية أخرى طلباً للأمن وللعيش في سلام. ومن هؤلاء، على سبيل المثال، عبد الله بن سابور أمير أشبونة الذي خلعه ابن الأفطس صاحب بطليوس وعبد العزيز البكري صاحب ولبة، وشلطيش الذي طرده منها ابن عبّاد أمير إشبيليه، والقاسم بن حمّود حاكم

الجزيرة الخضراء الذي خلعه منها ابن عبّاد كذلك.

وعلى الرغم من أن زعماء قرطبة وعلى رأسهم أبو الوليد جهور قد ألغوا منصب الخليفة وعزلوا آخر خليفة أموي وهو هشام الثالث الملقب بالمعتد بالله في ذي القعدة 422هـ / 30 نوفمبر 1031م والذي ذهب إلى سرقسطه حيث عاش هناك إلى آخر حياته، فإنّ هذا القرار الذي اتخذه زعماء قرطبة بزعامة ابن جهور كان كارثة على مستقبل الأندلس لأنه قضى على رمز الوحدة السياسية لهذه البلاد ومكّن عمّال الأقاليم من الاستقلال بمناطقهم ودخولهم في منافسات وحروب لتوسيع ممتلكاتهم على حساب بعضهم بعضاً.

وعندما اكتشف زعماء الأندلس أهمية منصب الخليفة كرمز لوحدة الأندلس، ادعى عدد من هؤلاء الزعماء إمّا أنّ الخليفة هشام المؤيد بالله قد كلفه بالحجابة أو أن الخليفة حيّ يرزق ويعيش في حمايته، ومن هؤلاء القاضي ابن عبّاد صاحب إشبيلية الذي عندما تعرض لتهديد من يحيى بن علي بن حمّود الذي أغار على منطقته وأراد أن يقضي على دعوى الحموديين في طلب الخلافة، اضطر إلى إحضار شخص يشبه هشام المؤيد يدعى خلف الحصري وبايعه بالخلافة ودعا الناس إلى الدخول في طاعته وبعث بذلك إلى رؤساء الأندلس. وقد أيّد ذلك كلٌ من عبد العزيز بن أبي عامر حاكم بلنسية ومجاهد العامري صاحب دانية والجزر الشرقية وأبو الوليد جهور رئيس قرطبة لنفس السبب حماية لمراكزهم . ويقال إنّ ابن جهور قد زوّر شهادات بصحة وجود هشام المؤيد على قيد الحياة بإشبيلية.

في سنة 435هـ / 1043م توفي ابن جهور وخلفه في رئاسة قرطبة ابنه أبو الوليد محمد بن جهور، فحاول في البداية أن يسير على سياسة والده، فأقر نظام والده وثبت اختيار العمّال الذين عينهم والده، وكان من ضمن هؤلاء المؤرخ الأندلسي الشهير أبو مروان بن حيّان والشاعر أبو الوليد بن زيدون. ولكن أبا الوليد سرعان ما غيّر سياسة والده الحكيمة فعيّن ابنه عبد الملك ولياً لعهده وأخذ البيعة له من القرطبيين، غير أن عبد الملك أساء السيرة، واستبد بالأمر دونهم، وسمّى نفسه بذي السيادتين المنصور بالله والظافر بالله، وصلّى في مقصورة الخلفاء، وخطب له على المنابر وهذا الشيء لم يفعله أبوه ولا جدّه من قبله. بالإضافة إلى كل هذا صاحَب أرذال القوم، واستباح أموال الناس، وسلط عليهم السفلة، وأهمل الأمور الشرعية كما يذكر لنا ابن عذاري.

في سنة 1440هـ/1048م عيّن عبد الملك بن جهور إبراهيم بن يحيى المعروف بابن السّقاء الذي كان وزيراً لأبيه بالاستمرار في عمله، وكان وزيرا قديراً فضبط الأمن والنظام وتحسنت أحوال الناس بسبب هذه السياسة. وكان المعتمد بن عبّاد حاكم إشبيلية يرقب التطورات في قرطبة ويخطط للاستيلاء عليها من بني جهور، لذلك نراه يسعى لدى عبد الملك بن جهور، الذي كان يتظاهر بصداقته له من خطر ابن السّقاء عليه. والحقيقة أن ابن عباد كان يرى استحالة سيطرته على قرطبة وابن السقاء وزير لها، ولهذا أخذ يحثّ على التخلص منه إلى أن استمع عبد الملك إلى تحريضه وتخلص منه بأن دبّر قتله سنة 455هـ/1063م. وبهذا فقدت قرطبة أهم وزرائها وأكثرهم حنكة.

بدأت أحوال قرطبة تضطرب إثر منافسة شديدة بين عبد الملك وأخيه الأكبر عبد الرحمن. وكان أبو الوليد يفضل ابنه الأصغر عبد الملك،

والأخ الأكبر يرى أحقيته بالإمارة. وأخذ كل من الأخوين في جلب الأنصار حوله مما اضطر والدهما المريض أبا الوليد إلى توزيع السلطة بينهما، فأعطى الابن الأكبر النظر في الجباية والإشراف على أهل الخدمة والتوقيع على المراسلات والنفقات، والابن الأصغر شئون الجند وكل ما يخصهم. ولكن سرعان ما انقلب الابن الأصغر على أخيه الأكبر وسجنه في بيته واستبد بالسلطة. وأخذ عبد الملك يعتمد على ابن عبّاد الذي كان يتظاهر بصداقته. وتأكيدا لذلك دعاه لزيارة إشبيلية حيث استقبله في حفل كبير.

وحدث أن حاكم طليطلة يحيى بن ذي النون "المأمون" (435-467هـ/ 1043- 1064م) كان هو الآخر طامعاً في الاستيلاء على قرطبة، فخرج بجيشه إليها. ولما شعر عبد الملك بن جهور بعدم قدرته على صدّ قوات المأمون طلب مساعدة حلفائه بني عبّاد فأرسل إليه المعتمد سنة 461هـ/1068م جيشاً بقيادة اثنين من قادته وهما خلف بن نجاح ومحمد بن مرتين، فنزلا عند موقع الربض. ولما رأى بن ذي النون ضخامة القوات العسكرية للدفاع عن قرطبة قرر الرجوع من حيث أتى. ولكن الجيش الإشبيلي كان يحمل أوامر من المعتمد بن عبّاد بالاستيلاء على قرطبة وضمها إلى ممتلكاتهم. وبالفعل فإنه بالتعاون مع بعض الناقمين على بني جهور تم الاستيلاء على قرطبة ونفي أسرة بني جهور إلى جزيرة شلطيش بالقرب من إشبيلية.

وهكذا كانت قرطبة وأسرة بني جهور أولى دويلات الطوائف التي سقطت بعد أن استمرت زهاء أربعين سنة. وعيّن المعتمد بن عبّاد ابنه سراج الدولة حاكماً عليها، ومنذ ذلك الحين أصبحت جزءاً من مملكة إشبيلية.

2- بنو عبّاد في إشبيلية (414-484هـ / 1023-1091م)

ينحدر بنو عبّاد من سلالة ملوك الحيرة اللخميين. وكان أول القادمين منهم إلى الأندلس جدهم عطاف الذي جاء مع فرقة حمص في الجيش الشامي أو ما أصبح يُعرف بالطالعة البلجية (نسبة إلى قائدها بلج بن بشر القشيري) الذي عبر إلى الأندلس بعد حصاره في سبته سنة 124هـ / 741م ونزل بقرية يومين بالقرب من بلدة طشّانة من أعمال إشبيلية.

بدأ ذكر بني عبّاد يشتهر في الأندلس عقب الفتنة التي تلت سقوط الخلافة الأموية في الأندلس؛ فقد كان جدهم أبو الوليد إسماعيل قاضياً في إشبيلية، وقد تقلب في عدة وظائف قبل انهيار الأسرة العامرية، فتولى منصب الشرطة بفضل مكانته وخلفيته الأسرية، واستطاع أن يسيطر على الوضع في إشبيلية بالتعاون مع كبار الزعماء حتى أصبح يُعرف بأنه رجل الغرب أي غرب الأندلس.

ويُعتبر القاضي أبو القاسم محمد ابن إسماعيل أول ملوك بني عبّاد في إشبيلية والمؤسس الحقيقي لدولتهم، فكان شديد الطموح إلى الرئاسة، وكان يراقب تطورات الأحداث أثناء النزاع على الخلافة في قرطبة، وأخذ يعمل في صمت لجمع الزعماء حوله ومن هؤلاء الفقيه أبو عبد الله الزبيدي والوزير أبو محمد عبد الله بن مريم. ثم لما شعر بقوته انفرد بالسلطة دونهم وتخلص من منافسيه واحداً تلو الآخر، وأعلن استقلال إشبيلية على غرار ما حدث في قرطبة، ولكنه انفرد بالحكم وجمع كل السلطات في يده.

لم تقف طموحات ابن عبّاد على حكم إشبيلية وحدها، بل أخذ يتوسع على حساب جيرانه مثل بني

الأفطس في بطليوس، وبني حمّود في مالقة، ودخل معهم في حروب طاحنة أفنت قوات واقتصاديات المسلمين وكان الأجدر بهم أن يدّخروها للدفاع عن أراضيهم ضد المدّ المسيحي القادم من شمال الأندلس.

ولما كن يحيى بن حمّود سليل الأدارسة ينافس ابن عبّاد في السيطرة على إشبيلية بحجة أنها من أملاك الحموديين وأنه أحق بالخلافة من غيره بناء على أنه علوي الأصل، اضطر ابن عبّاد الداهية أن يعلن أن الخليفة هشام المؤيد قد رجع إلى الأندلس وأنه موجود عنده. وكان السبب هو دحض دعوى الحموديين في طلب الخلافة.

ومختصر هذه القصة أن هشام الثاني المؤيد عندما أجبر على التنازل عن الخلافة لسليمان المستعين (400-403هـ / 1009-1012م) اختفى ولم يُعرف بالضبط مصيره: فمن قائل إنه قتل أو فرّ من سجنه وذهب إلى مكة للعيش هناك، وقال آخرون إنه اختفى وسيظهر في الوقت المناسب.

ولكي يكسب ابن عبّاد تأييد أنصار الأمويين ويدحض دعوى الحموديين في طلب الخلافة، ادعى أن هشاماً قد عاد وأنه عيّنه حاجباً وراسل أقاليم الأندلس بهذا الخصوص. ويورد لنا فحوى هذه القصة كل من المؤرخين ابن عذاري المراكشي ولسان الدين بن الخطيب. لكن معارضي أسطورة عودة أو رجعة هشام المؤيد وظهوره بإشبيلية عند بني عبّاد يقولون إن ابن عبّاد اختار رجلاً يدعى خلف الحصري كان يعمل مؤذناً بمسجد في قرية من قرى إشبيلية ويشبه تماماً هشام المؤيد وألبسه لباس الخلافة وأخذ له البيعة وخوطب بألقاب الخلفاء ونودي في إشبيلية أمام الناس "أن أشكروا الله على ما أنعم عليكم به. فهذا مولاكم أمير المؤمنين هشام قد صرفه الله عليكم وجعل الخلافة ببلدكم لمكانه فيكم، نقلها من قرطبة إليكم، فاشكروا الله على ذلك". وأحضر بقايا فتيان العامريين وبعض رجال القصر الخلافي وبعض جواري الخليفة السابقين وأكدوا صحة شخصية هشام أمام الناس وأكدها كذلك أبو الوليد جهور رئيس قرطبة (ربما لنفس البواعث).

ويندد ابن حزم بهذه الرواية ويقول عنها: "أخلوقة لم يقع في الدهر مثلها". وإنها لفضيحة لم يقع في العالم إلى يومنا مثلها، أن يقوم أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام في مثلها، كلهم يتسمى بإمرة أمير المؤمنين ويخطب لهم في زمن واحد، وهم خلف الحصري بإشبيلية على أنه هشام بن الحكم، ومحمد بن القاسم بن حمود في الجزيرة، ومحمد بن إدريس بن علي بن حمود بمالقة، وإدريس بن يحيى ابن حمود ببشتر".

بدأ أبو القاسم محمد بن عبّاد أولى مشاريعه في ضم مدن مجاورة لإشبيلية مثل قرمونة التي كانت تحت حكم يحيى المعتلي وتمكّن من احتلالها ووضعها تحت إدارة حليفه محمد البرزالي، ثم أعاد احتلالها من جديد وضمها إلى إشبيلية لأنه يعتبرها حصنها الشرقي، ثم احتل مدينتي استجة وأشونة لكن محمد البرزالي حاكم قرمونة طلب مساعدة إدريس المتأيد صاحب مالقة وباديس بن حبوس حاكم غرناطة اللذين وافقا على تقديم المساعدة خوفاً من ابن عبّاد ومشاريعه التوسعية على حسابهم، وتمكّن الحلفاء من هزيمة الجيش الإشبيلي وقتل قائده إسماعيل بن عبّاد سنة 431هـ / 1039م. وقد توفي أبو القاسم محمد بن عبّاد في سنة 433هـ / 1042م وخلفه ابنه أبو عمر عبّاد الذي تلقب بالمعتضد.

واصل المعتضد بن عبّاد (433-460هـ / 1042-1067م) سياسة والده التوسعية ضد إمارات

غرب الأندلس بكل عنف وقسوة، فدخل في حروب شرسة مع حاكم مدينة لبلة أبو العباس أحمد اليحصبي الذي تحالف مع ابن الأفطس صاحب بطليوس. وأدت هذه الحروب إلى الكثير من الخسائر المادية والبشرية وفي النهاية إلى سقوط لبلة في يد المعتضد بن عبّاد سنة 445هـ / 1053م. وجّه المعتضد جيوشه إلى احتلال إمارات ولبة وجزيرة شلطيش وشنتمرية الغرب وشلب. وبعد صراع عنيف مع حكام هذه الإمارات استطاع المعتضد احتلالها وضمها إلى إمارة إشبيلية عام 455هـ / 1063م. وكان ابن عبّاد قد ضم قرطبة كما مرّ سابقاً.

ولما تمكّن المعتضد من القضاء على إمارات الغرب الصغيرة اتجه إلى ضم الإمارات الصغيرة الأخرى الواقعة إلى الشرق من الوادي الكبير جنوبي الأندلس، وهي مالقة والجزيرة وغرناطة ورندة ودمر وشذونة وأزكش. واستطاع ابن عبّاد في سنة 445هـ / 1053م أن يقضي بالخديعة على ثلاثة أمراء من هؤلاء بضربة واحدة، وهم أبو نور بن أبي قرة صاحب رندة، ومحمد بن نوح الدّمري حاكم مورو، وعبدون بن خزرون صاحب أركش، وتمكّن في نهاية الأمر من ضم الجزيرة الخضراء سنة 446هـ / 1054م. وهكذا أصبحت دولة بني عبّاد في إشبيلية أكبر وأقوى دول الطوائف. وفي الوقت الذي كان المعتضد يوسع إمارة إشبيلية على حساب جيرانه المسلمين نراه يدفع الجزية لملك قشتالة فرناندو الأول ومن بعده ابنه شانجه (سانشو).

في عام 451هـ / 1059م قطع المعتضد بن عبّاد الدعوة لهشام المؤيد بعد 25 سنة من الخطبة له. وقد دعا كبار رجال دولته وعلماءها وأعلن أمامهم أن هشام المؤيد قد توفي بالفعل منذ مدة، ولكنه أجلّ إعلان ذلك بسبب الحرب التي كانت دائرة في ذلك الوقت.

ويعلّق المؤرخ المعاصر لهذه الأحداث ابن حيّان الذي استقى منه ابن عذاري هذه المعلومات قائلاً: "صارت هذه الميتة لحامل هذا الاسم الميتة الثالثة وعساها أن تكون إن شاء الله الصادقة، فكم قتل وكم مات ثم انتفض من التراب ومزّق الكفن قبل نفخة الصور". وقال أحد الشعراء في ذلك :

ذاك الذي مات مراراً ودفن

فانتفض من التراب ومزق الكفن

وكان قد تمّ إعلان وفاة هشام المؤيد سنة 399هـ / 1008م على يد محمد بن هشام المهدي ودفن بحضور العلماء والفقهاء والوزراء والشهود العدول الذين أعلنوا وفاة هشام الثاني المؤيد. ولكن تحت ضغط المؤيد بن هشام اضطر الخليفة المهدي أن يُعلن أن هشام لم يمت، وأعلن ذلك القاضي ورسول المهدي ابن ذكوان. فقال له الناس: سبحان الله يا قاضي بموت هشام بالأمس وتصلي عليه أنت وغيرك واليوم يعيش وترجع الخلافة إليه. وجعلوا يضحكون منه.

ويبدو جلياً أن المهدي لم يقتل هشام المؤيد بل سجنه، وتحت الضغط الشعبي في قرطبة اضطر إلى إحضاره للناس لكي يتجنب نقمتهم عليه. ويتضح أيضًا أن سليمان المستعين لعب نفس اللعبة مع هشام فادعى هو الآخر أنه قتله خنقاً سنة 403هـ / 1012م ودفنه سراً، وبالتالي انتشرت الشائعات بأنه لم يمت بل اختفى وسوف يعود في الوقت المناسب. ولما احتل علي بن حمود قرطبة سنة 407هـ / 1016م ولم يجد هشاماً أعلن وفاته ودعا لنفسه بالخلافة، ثمّ جاء القاضي ابن عبّاد سنة 426هـ / 1034م وأعلن وجود هشام المؤيد في إشبيلية وأنه اختاره لمنصب الحجابة وطلب من

الناس بيعته من جديد.

وسواء كان إعلان القاضي ابن عبّاد عن ظهور الخليفة وهشام المؤيد حقيقة أم تلفيقاً وأنه أخيراً توفي، فهذا يؤكد أهمية منصب الخلافة عند الأندلسيين والذين بدونه تفرقوا وحارب بعضهم بعضاً وضعفوا حتى طمعت فيهم الدويلات الإسبانية ممّا دعاهم إلى طلب مساعدة المرابطين .

توفي المعتضد في سنة 460هـ / 1067م وتولى الحكم بعده ابنه محمد الملقب بالمعتمد على الله (460-483هـ / 1067-1090م). أصبح المعتمد أشهر ملوك بني عبّاد والطوائف، وسبب شهرته صراعه الطويل مع ملوك النصارى في الأندلس ودعوته للمرابطين للاستعانة بهم ضد حركة الاسترداد الإسبانية، هذا بالإضافة إلى شهرته في ميدان الشعر والأدب والحرب والسياسة في أقوى وأكبر دول الطوائف.

خاض المعتمد سلسلة من الحروب مع ملوك الدويلات الأندلسية الأخرى حول التوسع والسيطرة، وأدى كل هذا إلى الاستعانة والاستقواء بالنصارى ضدّ الممالك الأخرى. وتولى المعتمد أثناء حياة والده المعتضد الحكم على مدينة شلب سنة 455هـ / 1063م، وكان يساعده وزيره أبو بكر بن عمّار المهري الوافد من قرية مغمورة من قرى شلب حيث نشأ وتعلم بها وبرع في الشعر والأدب الذي جعله حرفة يتكسب منها في عيشه، ثم ذهب إلى إشبيلية وهناك أعجب به المعتضد وألحقه بخدمة ابنه المعتمد. وعندما تولى المعتمد الحكم في إشبيلية ولى صديقه ورفيقه ابن عمّار على مدينة شلب ثم استدعاه وجعله وزيره. وأثبت ابن عمّار جدارة وقدرة فائقة في مشاريع المعتمد وسفاراته المختلفة للمفاوضات وحبك المؤامرات في الأندلس. وظلت العلاقة بين المعتمد ووزيره وشاعره ابن عمّار وطيدة إلى أن بدأ ابن عمّار يتغير ضد سيده ابن عبّاد عندما سيطر ابن عمّار على مدينة مرسية سنة 471هـ / 1078م بناء على أوامر من المعتمد. إلا أنه بعد سيطرته عليها أعلن انفصاله واستقلاله عن ابن عبّاد وأخذ يبث الدسائس بين أمراء هذه الناحية. إلا أن ابن رشيق أحد المغامرين، وباتفاق على ما يبدو مع ابن عبّاد، طرد ابن عمّار من مرسية.

اضطر ابن عمّار إلى الفرار والالتحاق بألفونسو السادس الذي رفض التعاون معه فذهب إلى سرقسطه لاجئا عند أميرها المقتدر بن هود. إلا أن ابن عمّار المغامر وقع أسيراً أثناء الإعداد لمؤامرة احتلال حصن شقورة سنة 477هـ/1084م، وتمكّن صاحب الحصن ويدعى ابن مبارك- من القبض عليه وتسليمه إلى ابن عبّاد مقابل أموال وخيول.

أخذ ابن عمّار أولا إلى قرطبة التي دخلها على هيئة مُزرية، ثم نُقل إلى إشبيلية إلى حيث شاهده الناس على نفس الحالة. وكما قال ابن الخطيب: خرج أميراً كبيراً وأعيد اليوم ذليلاً أسيراً.

وبالإضافة إلى تطلعات وطموحات وطمع ابن عمّار في الحصول على إمارة خاصة به في الأندلس، كانت هناك أسباب أخرى أدت إلى سوء العلاقة بينه وبين سيده المعتمد بن عبّاد، ومن هذه العوامل التنافس بينه وبين الشاعر المشهور والوزير أبي بكر بن زيدون الذي سلّم للمعتمد أبياتاً من الشعر تهجو بني عبّاد وزوجته المفضلة اعتماد الرُميكية. ومن هذه الأبيات:

ألا حيّ بالمغرب حيًّا حلالاً
أناخوا جمالاً وحازوا جَمَالا
وعرّج بيومين أمّ القرى
ونم فعسى أن تراها خيالا

لتسأل عن ساكنيها الرماد
ولم تر للنار فيها اشتعالا
تخيرتها من بنات الهجين
رميكية ما تساوي عقالا
فجاءت بكل قصير العزار
لئيم النجادين عماً وخالا
قصار القدود ولكنهم
أقاموا عليها قروناً طوالا

وقال مهدداً المعتمد وفضح ماضيه أيام الشباب:

سأكشف عرضك شيئاً فشيئاً
وأهتك سترك حالاً فحالا

أودع ابن عمّار في سجن في قصر المعتمد، وكان يستدعيه من وقت لآخر لتأنيبه وتوبيخه. وقد حاول ابن عمّار استعطاف المعتمد بأشعار في غاية الروعة، وهي كما قال ابن الخطيب: "تعالج بمرامها جراح القلوب، وتعفي على هضبات الذنوب، لولا ما فرغ عنه من القدر المكتوب، والأجل المحسوب".

ومن أشهر هذه القصائد:

سجاياك إن عافيت أندى وأسمح
وعذرك إن عاقبت أجلى وأوضحُ
وإن كان بين الخطتين مزية
فأنت إلى الأدنى من الله تجنحُ
حنانيك في أخذي برأيك لا تطع
عداي ولو أثنوا عليك وأفصحوا
ولا تلتفت قول الوشاة وزورهم
فكلّ إناء بالذي فيه يرشحُ

وعلى الرغم من محاولات ابن عمّار استعطاف ابن عبّاد بهذه القصائد فإنّ هذا لم يُجْدِ عند مليكه الذي قرر تصفيته بسبب خيانته له، وقرر قتله بيده سنة 477هـ / 1084م.

وعلى الرغم من قوة واتساع مملكة إشبيلية وشنها حروباً ضد جيرانها من دويلات الطوائف الأخرى، فإننا نرى أنّ المعتضد كان يدفع جزية لملك قشتالة منذ سنة 455هـ / 1063م، وفعل الشيء نفسه المعتمد الذي واصل دفع الجزية لألفونسو السادس الذي أرسل لقبض هذه الأموال ردريغو الملقب بالسيد الكمبيادور. كان الهدف من دفع الجزية هو تفادي الحرب مع قشتالة، ولكن هذه السياسة لم تجد وذلك لأن ألفونسو أخذ يبتزّ ملوك الطوائف ويطالب بالمزيد من الأموال. ففي سنة 475هـ / 1082م أرسل يطلب كالعادة الجزية، وكان سفيره هذه المرة يهودياً يدعى ابن شاليب الذي رفض الأموال وسبائك الذهب بحجة أنها من عيار مزيّف، وهدّد باحتلال مدن إشبيلية. فما كان من المعتمد إلا أن قبض على الوفد وصلب ابن شاليب وسجن بقية أعضائه. ورداً على هذا قام ألفونسو السادس بقيادة حملة ضخمة اجتاح بها أراضي إشبيلية، فحرق المزارع وأسر كثيراً من المسلمين وفرض حصاراً لمدة ثلاثة أيام على مدينة إشبيلية، ثم فك الحصار وزحف جنوباً حتى مدينة طريف. وكانت خطة ألفونسو هي تخريب اقتصاد ملوك الطوائف وإفقارهم وإثارة الرعب في قلوبهم وإرهاقهم بالغارات المستمرة ثم احتلال طليطلة سنة 478هـ / 1085م. وإزاء هذه التطورات لم يجد المعتمد وملوك الطوائف بداً من الاستعانة بالمرابطين لوقف عدوان ألفونسو ملك قشتالة عليهم. وتُحدثنا المصادر الأندلسية عن رسائل تهديد متبادلة بين ملك قشتاله والمعتمد بن عبّاد ورسائل لطلب النجدة من أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وجّهها ملوك الطوائف، فوافق على نجدة إخوانه المسلمين في الأندلس، وهي النجدة التي تُوّجت بانتصار المسلمين على النصارى بقيادة

ألفونسو السادس سنة 479هـ / 1086م في معركة الزلاّقة التي أنقذت وحررت الأندلس من هيمنة وغطرسة ألفونسو السادس.

استمرت دولة بني عبّاد في إشبيلية تلعب دورها في أحداث الأندلس تارة بالسياسة وأخرى بإثارة الحروب مع جيرانها والتحالف مع النصارى كسابق عهدها، مما اضطر يوسف بن تاشفين أن يغزوها ويأسر المعتمد ويرحّله إلى أغمات حيث ظل معتقلاً مع أسرته إلى أن توفي سنة 488هـ/1095. وكذلك فعل مع بقية دويلات الطوائف الأخرى كما سنرى.

3- إمارة بني الأفطس في بطليوس (413-488هـ / 1022-1094م) :

تقع هذه الإمارة إلى الشمال من إمارة بني عبّاد في إشبيلية وتفصلها عنها جبال الشارات (سييرا مورينا). وكانت هذه الإمارة تشمل رقعة واسعة تمتد إلى الغرب من إمارة طليطلة عند نهر وادي يانة حتى المحيط الأطلنطي، أي تشمل أغلب أراضي البرتغال حتى مدينة باجة في الجنوب. وكانت عاصمة هذه الإمارة مدينة بطليوس.

كان يحكم هذه المنطقة في فترة الاضطرابات التي حدثت عقب انهيار الخلافة الأموية في الأندلس (399-422هـ / 1008-1030م) أحد فتيان المنصور ابن أبي عامر وهو سابور الفارسي، وكان يساعده وزيره عبد الله بن محمد بن مسلمة الأفطس. ولما توفي سابور عام 413هـ / 1022م سيطر عبد الله على السّلطة. وينتمي أبو محمد عبد الله بن محمد إلى قبيلة مكناسة المغربية. وكان يتمتع بقدر كبير من الخبرة والدهاء في شئون الحكم والإدارة.

دخل ابن الأفطس في صراع مع جاره أبي القاسم بن عبّاد حول السيطرة على مدينة باجة، وحدثت معركة عنيفة انتهت بهزيمة قوات ابن الأفطس وأسر ابنه المدعو محمد الذي بقي أسيراً لدى محمد البرزالي حليف بني عبّاد حتى سنة 421هـ / 1030م.

وفي سنة 425 هـ / 1034م توغّل بنو عبّاد بقواتهم بقيادة اسماعيل بن عبّاد في أراضي بني الأفطس، ونصب بنو الأفطس كميناً لهذه القوات وفتكت بها وأسرت معظمها سنة 425هـ / 1034م.

وفي عام 437هـ / 1045م توفي عبد الله بن الأفطس وخلفه ابنه الذي تلقب بالمظفر. وجرت حروب وغارات كثيرة بين المظفر والمعتضد كانت أشدها خطورة المعركة التي هزمت فيها قوات المعتضد سنة 439هـ / 1047م هزيمة نكراء.

وردَ المعتضد على هذه الهزيمة بهجوم على مدينة لبلة، واستطاع إلحاق هزيمة كبيرة بقوات ابن الأفطس حيث قتل أكثر من ثلاثة آلاف من خيرة فرسانه سنة 442هـ / 1050م، وكان من بين القتلى بعض أعمام ابن الأفطس. وعاثت قوات بني عبّاد فساداً في أراضي بنى الأفطس، ولم ينقذ إمارة بني الأفطس من السقوط إلا تدخّل أبي الوليد جهور حاكم قرطبة الذي استطاع أن يعقد صلحاً بين الطرفين عام 443هـ / 1051م.

وخاض بنو الأفطس كذلك معارك كثيرة ضدّ المأمون حاكم طليطلة . وما كاد ابن الأفطس ينتهي من ذلك حتى واجه زحف النصارى على إمارته، وتوغلت قوات فرناندو حتى استولت على مدينة مليقة (لاميلجو) وبازو في شمال البرتغال الحالية. وغزا النصارى كذلك مدينة شنترين، ولكن تمّ التفاوض على صلح يدفع بموجبه ابن الأفطس خمسة آلاف دينار سنوياً.

وفي سنة 456هـ / 1064م غزا فرناندو بقوات كثيفة مدينة قلمرية بناء على مشورة وزيره

سسنندو، وحاصرها لمدة ستة أشهر، وتفاهم حاكم المدينة ويدعى رانده مع فرناندو وتركها لمصيرها، واستولى عليها النصارى واسترقوا سكانها المسلمين.

وقد حاكم ابن الأفطس رانده بتهمة الخيانة وأمر بإعدامه. ولم ينقذ إمارة ابن الأفطس إلا مرض فرناندو والنزاع الذي حدث بين ورثته والذي استمر لبضع سنوات.

وفي عام 461هـ / 1068م توفي المظفر وخلفه ولده يحيى الذي تلقب بالمنصور، ولكن سرعان ما حدث صراع بينه وبين شقيقه عمر الذي لجأ إلى المأمون حاكم طليطلة مما جعل المنصور يطلب مساعدة بني عبّاد. وكاد هذا الصراع أن يطيح بإمارة بني الأفطس لولا وفاة المنصور وسيطرة عمر على الحكم في بطليوس تحت لقب المتوكل سنة 464هـ / 1072م.

وأصبح المتوكل هذا ألمع وأشهر ملوك الطوائف بسبب علمه وحزمه وجهاده ضد النصارى. وتمتعت إمارة بني الأفطس في عهد المتوكل بالسلام والأمن والرخاء إلى بعض الوقت.

وفي سنة 472هـ / 1079م تدخّل المتوكل في شئون طليطلة بناء على طلب من سكانها بسبب تصرفات أميرها يحيى بن ذي النون الملقب بالقادر، واستولى عليها لمدة عشرة أشهر، وحصل على غنائم وفيرة من أملاك بني ذي النون.

وعندما احتل ألفونسو السادس طليطلة سنة 478هـ / 1085م أرسل يتوعّد المتوكل ويطلب منه تسليم بعض القلاع والحصون، فردّ عليه المتوكل بالرفض وأعلمه بنيته الدفاع عن بلاده مهما كلّف الأمر. وكلف المتوكل قاضيه أبا الوليد الباجي أن يقود وفداً ويطوف بالأندلس لتكوين جبهة موحدة ضد ألفونسو السادس.

وكان ألفونسو كذلك قد هدد المعتمد بن عبّاد بمثل مصير طليطلة، فاتفق المعتمد مع المتوكل على طلب المساعدة من المرابطين وحارب مع المرابطين. ولكن عندما لاحظ المتوكل رغبة المرابطين في توحيد الأندلس حالف النصارى وسلمهم ثلاث مدن وهي اشبونة (لشبونة) وشنترة وشنترين. وقد أغضب هذا القرار المسلمين في بطليوس، وطلبوا تدخّل يوسف بن تاشفين الذي أرسل قوة احتلت العاصمة وأخذت المتوكل أسيرا مع ابنيه وأموالهم سنة 488هـ/1095م. وفي الطريق إلى إشبيلية قتل المتوكل وابناه. وهكذا ضمت إمارة بطليوس إلى الدولة المرابطية نهائياً بعد حكم دام أكثر من 75 سنة كما سنرى في خاتمة هذا البحث.

4- إمارة بني ذي النون في طليطلة (422-478هـ / 1030-1085م) :

تعتبر هذه الإمارة من الناحية الاستراتيجية ذات أهمية كبيرة لأمن الأندلس، وذلك لموقعها الحربي على مشارف الأندلس الشمالية الوسطى، وكانت تُعرف بالثغر الأوسط لمتاخمة حدودها للممالك الإسبانية وباعتبارها حاجزاً للدولة الإسلامية وجناحها الشمالي ضد اعتداءات النصارى.

سيطر على هذه المنطقة خلال الفتنة التي اجتاحت الأندلس عقب سقوط الخلافة الأموية (399-422هـ/ 1008-1030م) أسرة بني ذي النون والتي يرجع أصلها إلى قبيلة هوارة، وقد ظهرت أسرة بني ذي النون على مسرح الأحداث السياسية منذ إمارة محمد بن عبد الرحمن الذي عيّن جد أسرة ذي النون سليمان حاكماً لحصن إقليش. ويذكر لنا ابن الخطيب

أنّ بني ذي النون لم تكن لهم رياسة ولا نباهة إلاّ في عهد المنصور بن أبي عامر، وفي عهده برز عبد الرحمن بن ذي النون كأحد رجال المنصور بن أبي عامر. وعندما انهارت أسرة بني عامر لحق ابن ذي النون بالثغر الأعلى أي بطليطلة حيث استولى على إقليم شنتبرية وقلعة كونكة وأخيراً زحف على طليطلة سنة 427هـ/1035م واستولى عليها، وتولى حكم طليطلة إسماعيل بن عبد الرحمن إلى أن توفي سنة 435هـ/1043م وخلفه ابنه يحيى بن إسماعيل الذي تلقب بالمأمون.

وقد اعتمد المأمون على مجموعة من الوزراء في إدارة دولته منهم أبو بكر بن الحديدي، والحاج ابن محقور، وابن لبون، وابن سعيد. وقد اتسعت إمارة طليطلة في عهد المأمون حتى مدينة بلنسية، وساد فيها الأمن والاستقرار، وعمّها الرخاء. وامتد عهد المأمون لحوالي ثلاثة وثلاثين عاماً. وقد دخل في صراعات مع كل من بني هود في سرقسطة وابن عبّاد في إشبيلية وبني جهور في قرطبة؛ تلك الصراعات العقيمة التي جرّت الكوارث على الأندلس واضطرت هؤلاء الأمراء إلى الاستعانة بالنصارى، عدوّهم المشترك، ضدّ بعضهم البعض.

وقد بدأ الصراع بين بني هود وبني ذي النون حول منطقة وادي الحجارة. وعلى الرغم من أنّ هذه المنطقة كانت تابعة لمدينة طليطلة، فإنّ بعض سكانها دخلوا في طاعة بني هود الذين أرسلوا إليها قوة استطاعت الاستيلاء عليها سنة 436هـ / 1044م، وجرت بين قوات بني ذي النون وبني هود حروب طاحنة كان النصر فيها حليف بني هود مما جعل المأمون يدخل في مفاوضات مع فرناندو الأول ملك قشتالة وتوصّل معه إلى اتفاقية ملخصها:

1- أن يدفع المأمون بن ذي النون جزية لملك قشتالة.

2- أن يعترف المأمون بسيادة فرناندو عليه.

3- أن يقدم فرناندو نظير ذلك مساعدة عسكرية للمأمون.

وبالفعل أرسل ملك قشتاله قوة عسكرية أغارت على أراضي بني هود ودمّرت محصولاتها الزراعية ونهبت الكثير منها وسبت بعض سكانها المسلمين. وفي نفس الوقت أغارت قوات طليطلة على أراضي بني هود الذين آثروا البقاء داخل حصونهم دون الاشتباك مع النصارى وحلفائهم بني ذي النون.

وفي نفس الوقت قرر المأمون عقد حلف وصداقة مع بني عبّاد في إشبيلية نظير تقديم مساعدة عسكرية ضدّ بني هود. أما ابن هود فقد اضطر هو الآخر أن يذهب إلى النصارى طلباً للعون العسكري ضدّ بني ذي النون. وبالفعل فقد عقد صفقة مع فرناندو على أن يقوم الأخير بغارة عسكرية على طليطلة نظير أموال طائلة من ابن هود. وردّ المأمون على ذلك بأن تحالف مع غارسية ملك ناثار الذي أغار على أراضي بني هود المتاخمة لحدوده، واحتل قلعة قلهرة سنة 437هـ / 1045م. وفي نفس الوقت أغار فرناندو على طليطلة وخرّب مزارعها ودمّر بعض قلاعها.

وعلى الرغم من مناشدة سكان طليطلة لابن هود بالصلح، فإنّه أغار مع قوة من حلفائه النصارى على مدينة سالم التابعة لطليطلة، وقتل المدافعين عنها. وقد انتهز النصارى هذه الفرصة وأغاروا على أراضي طليطلة مرة أخرى، ودمّروا كثيرا من ممتلكاتها ممّا جعل سكانها يطلبون الصلح من فرناندو، فردّ عليهم بطلبات كان مستحيلاً على سكان طليطلة تقديمها، فقالوا له إن لم تكفّ عنا

فإننا سندعو المرابطين إلى نصرتنا، فقال لهم: "أما استدعاؤكم البرابرة فأمر تكثرون به علينا وتهددوننا به، ولا تقدرون عليه، مع عداوتهم لكم، ونحن قد صمدنا إليكم ما نبالي من أتانا منكم، فإنما نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديماً في أول أمركم، فقد سكنتموها ما قضي لكم، فقد انتصرنا الآن عليكم برداءتكم، فارحلوا إلى عدوتكم واتركوا لنا بلادنا، فلا خير في سكناكم معنا بعد اليوم، ولن نرجع عنكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم".

واستمر التنازع بين بني هود وبني ذي النون ثلاث سنين، ولم ينته إلا بموت ابن هود سنة 438هـ / 1046م. وكانت حرباً وضيعة مكنت للنصارى من إهانة المسلمين وتخريب ديارهم. ووجّه المأمون نظره إلى مملكة بطليوس فهاجمها، ونشبت بينه وبينها سلسلة من المعارك لم تسفر عن نتائج هامة لصالح أي الطرفين، إلا أنها أنهكت قوى الدويلتين مما سهل على النصارى، فيما بعد، الاستيلاء على طليطلة.

وفي سنة 457هـ / 1064م استولى المأمون على بلنسية التي كان يحكمها صهره عبد الملك بن عبد العزيز بن أبي عامر (حفيد المنصور بن أبي عامر). وفي سنة 458هـ / 1065م توفي فرناندو وحدث نزاع بين أولاده على العرش، ولجأ أحدهم إلى طليطلة وهو ألفونسو وعاش بها تسعة أشهر لكنه اختير ملكاً بعد مقتل أخيه. وفي أثناء إقامته لاجئا في طليطلة تعرّف على أحوالها ونظام دفاعاتها ونقاط ضعفها.

وفي سنة 462هـ / 1070م حاول المأمون الاستيلاء على قرطبة والإطاحة بحكامها من بني جهور، إلا أن محاولته فشلت بسبب تدخل ابن عبّاد كما أسلفنا عند الحديث عن بني عبّاد وبني جهور. ولكن المأمون لم ييأس من ذلك ودبّر مؤامرة مع حكم بن عكاشة الذي استطاع الدخول إلى قرطبة وقتل سراج الدولة ابن عبّاد والسيطرة على المدينة. وجاء المأمون إلى قرطبة ودخلها في موكب فخم سنة 467هـ / 1074م ، إلا أنه توفي بعد ذلك بأشهر قلائل. وأخيراً استطاع المعتمد طرد بني ذي النون من قرطبة واستعادتها سنة 467هـ / 1074م.

حاول القاضي أبو الوليد الباجي بإشارة من المتوكل بن الأفطس أن يطوف بالأندلس حاثاً على جمع الكلمة ضد العدو المشترك، ولكن بدون جدوى. وغلبت الأهواء والأطماع الشخصية على المصلحة العامة.

تولى بعد المأمون حفيده يحيى بن ذي النون الملقب بالقادر والذي تخلص من وزير جده القوي ابن الحديدي الذي كان شخصية مهمة بأن قتله سنة 468هـ / 1075م. وسرعان ما أغار ابن هود على ممتلكات طليطلة وانتزع منها مدينة شنتبرية. وبسبب هذه المشاكل، اتجه القادر إلى طلب المساعدة من ملك النصارى ألفونسو السادس ملك قشتالة الذي وافق على المساعدة نظير أموال طائلة. ووافق القادر على ذلك ولكن سكان طليطلة ثاروا عليه واضطر إلى الهرب منها واللجوء إلى ألفونسو. وفي نفس الوقت التجأ سكان طليطلة إلى تولية المتوكل بن الأفطس بطليوس، وجاء القادر بجيش من النصارى وطرد المتوكل منها وعاد من جديد حاكماً لطليطلة سنة 472هـ / 1081م.

وعلى الرغم من ذلك فقد استمر ألفونسو على سياسته التدميرية لطليطلة، فعاث فساداً وتخريباً لها ولاقتصادياتها، وأخيراً أمر بحصارها واحتلالها سنة 477هـ / 1084م. وطال الحصار لتسعة أشهر ممّا اضطر أهل طليطلة إلى التفاوض بعد أن لم يتقدم أحد من ملوك الطوائف لمساعدتهم عدا عمر المتوكل صاحب بطليوس الذي حاول

مساعدتهم لكن قواته هُزمت. وتم إرسال وفد إلى ألفونسو الذي رفض مقابلتهم وأحالهم إلى وزيره المستعرب سسنندو (Sacinando) (ششنندو) الذي تربّى في إشبيلية وكان داهية وذا دراية وبراعة بشئون الأندلس وملوكها.

وعندما حاول الوفد الطليطلي أن يهدد الوزير القشتالي بأنه بالإمكان طلب مساعدة ملوك الطوائف في حالة استمرار الحصار، قال لهم الوزير إنه لا فائدة ترجى لكم من ذلك، وأمر بإحضار وفود من الطوائف التي جاءت لطلب الصلح معهم ودفع الجزية. ولما رأى وفد طليطلة أن لا فائدة ترجى من المراوغة وأنه لا أمل لهم في مساعدة ملوك الطوائف، وافقوا على الشروط الآتية:

1- أن تسلم مدينة طليطلة إلى ألفونسو السادس ؛

2- أن تسلم قصور بني ذي النون والقلاع والقناطر وحديقة الملك ؛

3- أن يغادر القادر وأعوانه وعائلته مع كافة أموالهم المدينة إلى مدينة بلنسية ؛

4- أن يُسمح لمن يريد من المسلمين مغادرة المدينة مع أموالهم ؛

5- أن يُسمح للذين يبقون في المدينة بالاحتفاظ بأموالهم وحرية شعائرهم الدينية ؛

6- أن يبقى المسجد الجامع بأيدي المسلمين وأن تجري عليهم أحكام شريعة الإسلام على يد قضاتهم ؛

7- أن يقسم الطرفان على احترام العهد، وأن يقدّم سكان المدينة رهائن دليلاً على الصدق.

غادر القادر بن ذي النون طليطلة ودخلها ألفونسو السادس في 16 / 5 / 1085م (478هـ)، وعيّن وزيره سسنندو حاكماً عليها.

وهكذا سقطت طليطلة في أيدي الإسبان بعد حكم عربي دام 370 عاماً. ومنذ ذلك التاريخ أصبحت طليطلة عاصمة مملكة قشتالة.

أهم نتائج سقوط طليطلة:

1- بدأت بسقوطها سياسة الاسترداد La Reconquista تأخذ طوراً جديداً أو حاسماً ؛

2- رفع الروح المعنوية لدى النصارى وتشجيعهم في محاربة المسلمين ؛

3- رفع مكان الملك ألفونسو مع بقية ملوك وأمراء النصارى ؛

4- وأصبح يُطلق على ألفونسو السادس لقب الإمبراطور ؛

5- كان لسقوط طليطلة أعظم الأثر في الأندلس وفي العالم الإسلامي؛ فقد ارتاع ملوك الطوائف من أن مصيرهم سيكون مثل طليطلة ؛

6- اتفاق ملوك الطوائف على طلب مساعدة المرابطين ضدّ توسع النصارى جنوباً.

وعقب استيلاء ألفونسو السادس على طليطلة ودخولها يوم الأحد الأول من شهر صفر سنة 478 / 25 مايو 1085م نزل في قصرها الذي كان يعيش فيه أيام كان لاجئاً في عهد المأمون. أما الملك يحيى القادر بن ذي النون فقد غادر المدينة صحبة كبار معاونيه إلى بلنسية حيث وعده ألفونسو بأن يجعله ملكاً عليها، ولكن المسلمين بها رفضوه. واستولى ألفونسو كذلك على الأراضي التابعة لطليطلة الواقعة شمال نهر التاجة من طلبيرة غرباً حتى وادي الحجارة وشنتبرية شرقاً.

ويصف لنا ابن بسّام خروج القادر في كلمات لاذعة فيقول: "وخرج ابن ذي النون خائباً مما تمناه، محقور الذمة، مزال الحرمة، ليس دونه باب ولا دونه حرمة ستر ولا حجاب". أما ابن الخطيب فيقول متهكماً على القادر وأهل طليطلة: "واقتضاه

الطاغية الوعد، وسلبه الله النصر والسعد، وهلكت الذمم، واستؤصلت الرّمم، ونفذ عقاب الله في أهلها جاحدي الحقوق ومتعودي العقوق، ومقيمي أسواق الشقاق والنفاق، والمثل السائد في الآفاق".

لقد كان لسقوط طليطلة دويٌ هائلٌ في الأندلس والبلاد الإسلامية، وكان نذير شؤم لملوك الطوائف. وقد عبّر الشاعر الطيلطلي محمد عبد الله العسّال عن هذا الوضع قائلاً:

شدّوا رحالكم يا أهل أندلسٍ
فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه
وأرى ثوب الجزيرة منسلاً من الوسط
ونحن بين عدوّ لا يفارقنا
كيف الحياة مع الحيات في سقط

5- بنو هود في سرقسطة (408-503هـ / 1017-1110م) :

تعتبر سرقسطة، أو الثغر الأعلى كما تُسمّى أيضا، أهمّ دويلات الطوائف وذلك لموقعها الاستراتيجي وكونها حاجزاً بين الممالك الإسبانية وبقية دول الطوائف ولوقوعها في شمال شرق الأندلس. وتشتمل هذه الدويلة على مدن منها سرقسطة وتطيلة ووشقة وبريشتر ولاردة وإفراغة وطركونة وطرطوشة.

سيطرت على هذا الإقليم في البداية أسرة عربية تسمى بني تجيب بزعامة أبي يحيى محمد بن عبد الرحمن التجيبي. وظل بنو تجيب يحكمون هذا الإقليم ويتأثرون بالوضع العام في الأندلس، فأحياناً يتآمرون على الدولة الأموية ويخرجون عنها، وأحياناً أخرى يخضعون بالقوة كما حدث في عهد الخليفة الناصر وأيام المنصور بن أبي عامر الذي قضى على مؤامرة دبّرها ضدّه عبد الرحمن التجيبي مع عبد الله بن أبي عامر المنصور. ولكن المنصور عيّن يحيى التجيبي لحكم سرقسطة حتى وفاته سنة 408هـ / 1017. وعندما توفي، خلفه ابنه المنذر ابن يحيى التجيبي الذي تسمى بالحاجب ذي الرياستين وبالمنصور.

شارك المنذر التجيبي في أحداث الفتنة التي تلت سقوط الخلافة، وتحالف مع الفتيان العامرية لاختيار عبد الرحمن بن محمد الناصر للخلافة، لكنه كان أيضًا يتعامل مع الكونت رامون أمير برشلونة وسانشو الكبير ملك نافار وابنه فرناندو الأول ملك قشتالة. ولما توفي سنة 414هـ / 1023م خلفه ابنه يحيى سنة 420هـ / 1029م وتلقب بالمظفر وحكم حتى 420هـ / 1029م وخلفه ولده المنذر الذي تلقب بمعز الدولة والذي قتل في مُؤامرة دبّرها أحد أقاربه سنة 430هـ / 1039م. ومن بعده آلت السّلطة في سرقسطة إلى سليمان بن محمد هود المستعين سنة 431هـ / 1039م المؤسس لأسرة بني هود في سرقسطة. وكغيره من ملوك وأمراء الطوائف ارتكب سليمان بن هود نفس الأخطاء، فدخل في حروب مع بني ذي النون حول وادي الحجارة الذي كان ضمن ممتلكات بني ذي النون في طليطلة. ولما تكبدت قوات طليطلة هزيمة أمام سرقسطة، اضطر المأمون أمير طليطلة إلى طلب المساعدة من الملك فرناندو الأول ملك قشتالة الذي اشترط، نظير تقديم المساعدة العسكرية، الاعتراف بطاعته وتقديم أموال له؛ ولذلك أرسل الملك القشتالي قوات دمّرت أراضي كثيرة لسرقسطة، فاضطر ابن هود إلى الاستعانة بنفس الملك القشتالي ضدّ بني ذي النون نظير تقديم أموال أيضاً، فهاجمت القوات القشتالية الأراضي التابعة لطليطلة، وردّ المأمون على ذلك بأن استنجد بالملك

غارسية ملك النافار، ولم تنته هذه المأساة إلا بوفاة ابن هود سنة 438هـ / 1046م.

ارتكب سليمان بن هود خطأ جسيماً بأن قسّم إمارة سرقسطة بين أبنائه الخمسة، مما أدى إلى الصراع بينهم والاستعانة بأمراء النصارى. وانحصر الصراع بين الأخوين أحمد المقتدر ويوسف حسام الدولة، وتمكّن المقتدر من الاستيلاء على طرطوشة. وفي عهد هذا الأمير تمكّن النورماند من الاستيلاء على ثغر بربشتر والفتك بالمسلمين فيه قتلاً وأسراً وتدميراً وتشريداً بأسلوب بشع.

ورغم أن المسلمين تمكنوا من استعادة المدينة، فإنّ حجم الكارثة كان كبيراً، وكانت كما قال عنها ابن حيّان "أعظم من أن توصف أو تتقصى". ولمّا وصلت الأخبار إلى قرطبة سنة 456هـ / 1064م اهتزت الأندلس كلها. وقد استردها المسلمون بعد تسعة أشهر من احتلال النورماند لها أي سنة 457هـ / 1065م.

ونظراً لوقوع سرقسطة بين الممالك الإسبانية الثلاث أراغون ونافار وقشتالة، فقد كانت محل أطماع هذه الممالك التي أخذت تستقطع أجزاء منها تارة وتارة أخرى تفرض عليها الجزية، فجعلت المقتدر يستعين في بعض الأحيان بجيش من النصارى المرتزقة بقيادة ردريغو دياث المعروف بالسيد الكمبيادور الذي سوف نرى الدور الخطير الذي لعبه في احتلال بعض المدن الإسلامية بالأندلس.

لقد ارتكب المقتدر نفس خطأ والده، فقسّم سرقسطة بين ولديه، وأعطى الابن الأكبر يوسف المؤتمن سرقسطة وأعمالها، والأصغر المنذر لاردة وفتشون وطرطوشة ودانية. وقد توفي المقتدر بالله سنة 474هـ / 1081م.

نشبت الحرب بين الأخوين، فاستعان المؤتمن بالسيد الكمبيادور وجيش من المرتزقة، واستعان المنذر بملك أراغون وأمير برشلونة وحدثت المعركة عند قلعة المنار بالقرب من لاردة وانجلت عن هزيمة المنذر وحلفائه. وفي سنة 478هـ / 1085م توفي المؤتمن وخلفه ابنه أحمد الملقب بالمستعين الذي واجه أطماع ألفونسو السادس الذي فرض حصاراً على سرقسطة وكادت تسقط في يده لولا تدخل المرابطين، ممّا اضطر ألفونسو إلى فك الحصار ومواجهة المرابطين في معركة الزلاّقة التي هزم فيها ألفونسو السادس وحلفاؤه سنة 479هـ / 1086م.

بدأ المستعين يحاول احتلال بلنسية منافساً لعمه المنذر والاستعانة بالنصارى، وبدأ مواجهة خطر النصارى من الشمال والمرابطين من الجنوب. وقد قتل المستعين أثناء معركة فالتيرا سنة 503هـ / 1109م وخلفه ابنه عبد الملك الذي تلقب بعماد الدولة. وفي أواخر سنة 503هـ / 1109م استولى المرابطون بقيادة محمد بن الحاج على سرقسطة، وضموها إلى حكم المرابطين، وأخرجوا منها بني هود، وأصبحت هذه الإمارة جزءاً من دولة المرابطين.

6- دولة بني مناد في غرناطة ومالقة (403-483هـ / 1013-1093م) :

يرجع بنو مناد إلى قبيلة صنهاجة الشهيرة بالمغرب الأوسط. وقد انضمت هذه القبيلة إلى الدعوة الفاطمية، وكان زعيمها المشهور زيري بن مناد من أبرز مؤيدي الفاطميين، وحارب الخوارج وأعداء الدولة الفاطمية. ولما قتل في إحدى المعارك خلفه ابنه بلكين. وعندما انتقلت الخلافة الفاطمية إلى مصر سنة 362هـ / 972م، اختار الفاطميون

بلكين لولاية إفريقية ثم من بعده ابنه المنصور وولده باديس.

وقد اصطدم مؤيدو الدولة الفاطمية بزعامة صنهاجة مع حلفاء الدولة الأموية في الأندلس بقيادة قبيلة زناته. وقد حدثت هذه المواجهات خلال عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم الثاني (المستنصر) وكذلك أيام المنصور ابن أبي عامر. وقد انتهت هذه المواجهات بانتصار الخلافة الأموية وأنصارها من زناته وهزيمة صنهاجة.

وفي عهد ولاية باديس بن المنصور على إفريقية، حدث خلاف بين أفراد أسرته أدى إلى مقتل عمّ أبيه ماكسن بن زيري بن مناد، مما اضطر إلى اللجوء إلى المنصور بن أبي عامر الذي رحّب بهم وبزعيمهم زاوي بن زيري بن مناد سنة 391هـ / 1000م وأكرمهم. وقد استفاد المنصور من هذه الفرصة النادرة في تقوية مكانته في المغرب والأندلس.

وعندما سقطت الخلافة الأموية في الأندلس لعبت القبائل المغاربية وعلى رأسها زاوي بن زيري وقومه دوراً مهماً في الأحداث أو ما يعرف بالفتنة التي حصلت في قرطبة حول منصب الخلافة، مما اضطر الخليفة سليمان المستعين أن يعمل على تفريق هذه الجماعات في مناطق مختلفة من الأندلس، واستقر زاوي بن مناد وجماعته من صنهاجة في منطقة البيرة، وأسسوا مدينة غرناطة. وعندما استقر بنو مناد في هذا الإقليم اضطروا، رغم ذلك، إلى متابعة ما يجري في قرطبة التي أدت التطورات فيها إلى استيلاء علي بن حمود على الخلافة فيها سنة 407هـ / 1016م، وقتل سليمان آخر خليفة أموي. لكنّ الفتى خيران العامري رفض الاعتراف بالخليفة الحمودي، واختار عبد الرحمن بن محمد أحد أحفاد الخليفة الناصر الأموي وسمّاه المرتضى، وانضم إليهم منذر بن يحيى التجيبي أمير سرقسطة وعدد من ولاة شرق الأندلس وساروا في حشود كثيرة لمقاتلة الحموديين، ولكنهم قرروا أولا القضاء على جيش صنهاجة في غرناطة. وحدثت بين الجانبين معركة شديدة انجلت عن مقتل الخليفة المرتضى وتشتيت أنصاره سنة 409هـ / 1019م.

ورغم انتصار زاوي بن زيري وصنهاجة فإنه رأى الرحيل والعودة إلى المغرب الأوسط، لأنه كان يخشى الانتقام من الأندلسيين وكذلك غدر الأعداء التقليديين من قبائل زناته. كذلك كان لوفاة باديس بن المنصور أمير إفريقية وتولي ولده الصغير المعزّ، ما هيأ جوّ العودة إلى موطنه الأصلي.

قرر زاوي بن مناد العودة إلى إفريقية رغم معارضة ابنه وبعض زعماء صنهاجة، وعبر المضيق سنة 410هـ / 1020م بعد أن أوصى بتعيين ابن أخيه حبّوس بن ماكسن الذي كان قائداً لحصن اشتر بوادي آش. وهكذا كانت بداية دولة بني زيري بن مناد.

قام حبوس بتنظيم دولته منذ استلام الحكم سنة 411هـ / 1020م، وقسّم الإدارة بين أقاربه وبني عمّه، وأكمل بناء غرناطة، ونظم جيشه ودخل في حلف مع بني حمود وزهير العامري صاحب المرية. وعندما قتل يحيى بن حمود (المعتلي) على يد ابن عبّاد سنة 427هـ / 1036م وخلفه ابنه إدريس المتأيد بالله، اعترف هو وزهير العامري ببيعته وانضم إليهم البرزالي حاكم قرمونة، وهاجم هؤلاء ابن عبّاد وخرّبوا كثيراً من ممتلكاته سنة 427هـ / 1036م. وعندما توفي حبوس سنة 428هـ / 1036م خلفه ولده باديس الذي تسمى بالمظفر بالله والناصر لدين الله.

أصبح باديس بن حبوس أقوى الملوك في

جنوبي الأندلس بفضل حسن إدارته، ولكنه أيضًا تورّط مثل غيره من ملوك الطوائف في محاربة جيرانه وزملائه والتحالف مع النصارى لكي ينتصر وينتقم من منافسيه من إخوانه أمراء المسلمين.

لقد واجه باديس في بداية عهده مؤامرة دبّرها ابن عمه يدير بن حباسة مع بعض شيوخ صنهاجه الناقمين على سياسته وعلى رأسهم الكاتب المشهور أبو الفتوح ثابت الجرجاني. وكان لباديس كاتب يهودي يدعى إبراهيم بن يوسف بن نغرالة يتولى جمع المال، فاتصل به المتآمرون وأبلغوه خطتهم، فتظاهر بموافقتهم على خلع باديس وإحلال يدير بن حباسة مكانه، وأبلغ مولاه بذلك. وقد تم القضاء على تلك المؤامرة، ولهذا احتل إبراهيم بن يوسف مكانة خاصة لدى باديس، وأصبح الأمير لا ينفذ أمراً إلا بمشورته.

دخل باديس في حرب مع زهير العامري حاكم المرية الذي كان أحد الفتيان العامريين والذي وصل إلى الحكم سنة 419هـ / 1028م وامتدت سيطرته على أراض حتى شاطبة وشمالاً حتى بيّاسة وقرطبة، وكانت له علاقات وطيدة مع بني حمود في مالقة وبني زيري في غرناطة. وعندما توفي حبوس ساءت العلاقة مع باديس وذلك لأن زهير قدّم الحماية لمحمد بن عبد الله الزناتي العدو اللّدود لباديس، وساءت العلاقة بين الأميرين إلى درجة أن قاد زهير قواته وهاجم غرناطة التي كانت استعدّت للقائه. وتمكنت قوات باديس من إلحاق هزيمة فادحة بقوات زهير الذي فرّ هارباً ثم قتل وتمّ القبض على عدد كبير من أنصاره الذين أمر باديس بقتل بعضهم وعفا عن ابن حزم وأبي عمر الباجي. وكانت هذه الواقعة سنة 429هـ / 1038م.

ونتج عن هذه المعركة أن استولى باديس على الجزء الغربي من إمارة المريّه ومنها مدينة جيّان وأعمالها وجزء من أراضي قرطبة. وقد ذاع صيته واستقرّ حكمه. وقد تمكن باديس مرة أخرى من إحراز نصر على بني عبّاد وقتل قائدهم اسماعيل بن المعتضد سنة 431هـ / 1039م ممّا زاد من رصيده السياسي لدى ملوك الطوائف الآخرين. وعندما تعرضت إمارة بنى حمود في مالقة لاضطرابات بسبب التصارع بين أمرائها على منصب الخلافة سنة 438هـ / 1046م، أخذ باديس بن حبوس يتدخل في الصراع الدائر بين هؤلاء الأمراء حتى حسمه لصالحه عام 449هـ / 1057م عندما زحف بقواته واستولى على مالقة وضمها إلى إمارته. وهكذا انتهت إمارة بني حمود في مالقة، وأخيراً ضم كذلك الجزيرة الخضراء سنة 446هـ / 1055م وبذلك انتهت دولة بني حمود في الأندلس نهائياً.

لكنّ الصراع مع بني عبّاد ظل على أشدّه، فنرى باديس يحرز نصراً آخر ضدّ بني عبّاد عندما هاجمت قوات إشبيلية يقودها ولدا المعتضد وهما جابر والمعتمد فلقيت هزيمة مرّوعة، لكن نجا من القتل أو الأسر ولدا ابن عبّاد، وكان ذلك سنة 458هـ / 1066م، وتمكّن باديس من السيطرة ولو لبعض الوقت على أركش التي سلمها له أميرها محمد بن خزرون. وهكذا أصبحت دولة باديس الصنهاجي تمتدّ من بسطة شرقاً حتى رندا غرباً، ومن جيّان شمالاً حتى البحر الأبيض جنوباً.

حاول أبو يحيى بن صمادح صاحب المريّة، بالاتفاق مع يوسف ابن نغرالة وزير غرناطة، الإطاحة بباديس. وكان قد تم التخلص من بلقين بن باديس بدس السّم له، ولكن مؤامرة الإطاحة بالأمير باديس تم اكتشافها وقضي على الوزير الخائن ومعاونيه، وبالتالي فشل مشروع ابن صمادح

بالاستيلاء على غرناطة.

في سنة 465هـ / 1073م توفي باديس المظفر بالله، واختار شيوخ صنهاجة حفيده عبد الله بن بلقين مكانه. وعندما علم ابن عبّاد بذلك انتهز هذه الفرصة وزحف بقواته على مدينة جيان واستولى عليها سنة 466هـ / 1074م، وتقدم نحو غرناطة لكن الوزير الغرناطي سماجة قاومه بشدة وأجبر ابن عبّاد على التراجع من حيث أتى. ولهذه الظروف أوفد الأمير عبد الله وزيره إلى ألفونسو السادس ليعقد اتفاقا معه ضد ابن عبّاد، وتم ذلك وفق شروط منها أن يؤدي الغرناطيون جزية قدرها عشرون ألف دينار نظير مساعدة عسكرية. وسار الأمير عبد الله بجيشه تسانده قوة من نصارى طليطلة أمده بها ألفونسو السادس حسب الاتفاق معه، وأغار بها على أراضي إشبيلية، واستطاع أن يسترد حصن قبرة جنوب غرب جيان. وعندما طالب ألفونسو بدفع الجزية في موعدها ولم تدفع حسب الاتفاق، زحف بقوة كبيرة على غرناطة. وقد استغلّ المعتمد بن عبّاد هذه الفرصة وأرسل وزيره ابن عمار لعقد اتفاق مع ألفونسو خلاصته أن يتعاون الطرفان لغزو غرناطة وتكون المدينة ذاتها لابن عبّاد على أن يؤول ما فيها من أموال إلى ملك قشتالة ويؤدي ابن عبّاد، إضافة إلى ذلك، خمسين ألف دينار.

ووفق الاتفاق زوّد ألفونسو السادس ابن عبّاد بقوة من جنوده، ولكن كلّ هذا لم يفده خاصة بعد أن لقي هزيمة في قرطبة على يد ابن ذي النون سنة 467هـ / 1074م. وبسبب هذا اضطر الأمير عبد الله بن بلقين إلى أن يتفاهم مع ألفونسو السادس، وتم الاتفاق على أن يدفع جزية سنوية قدرها عشرة آلاف مثقال ذهب، وأن يسلّم الملك القشتالي بعض الحصون الواقعة جنوب غربي جيان. وعندما استلمها ألفونسو باعها لابن عبّاد.

ويذكر لنا الأمير عبد الله بن بلقين في كتابه أو مذكراته أنّ ما سمعه من الكونت (ششلاند) أو سسنندو أن سياسة مليكه ألفونسو السادس نحو الأندلس تقوم على: "إنما كانت الأندلس للروم في أول الأمر، حتى غلب عليها العرب، وألحقوهم بأخس البقاع، جليقية، فهم الآن عند التمكّن طامعين بأخذ ظلاماتهم، ولا يصح ذلك إلا بضعف الحال والمطاولة، حتى إذا لم يبق مال ولا رجال، أخذناها بلا تكلف".

دخل الأمير عبد الله بن بلقين في نزاع وصراع مع شقيقه تميم بن بلقين الذي كان يحكم مالقة، وتلقب بالمنتصر بالله، وأخذ يوسّع دائرة حكمه. وتقاتل الأخوان، وتدخلت والدتهما لإيقاف النزاع، وخاف عبد الله أن يتحالف أخوه مع ابن عبّاد لذلك ترك له حكم مالقة. وعندما قتل ابن عمّار وأصبحت تهديدات ألفونسو السادس لجميع ملوك الطوائف واضحة، تمّ عقد صلح بين الأمير عبد الله بن بلقين والمعتمد بن عبّاد أمير إشبيلية، وتمت تسوية أسباب النزاع من حدود وغيرها. وعندما سقطت طليطلة في سنة 478هـ / 1085م واهتزت الأندلس الإسلامية كلها لهذا الحدث الخطير، عندها فقط استيقظ ملوك الطوائف من هول الصدمة .

لقد ظلت مملكة غرناطة في الوجود حتى غزاها يوسف بن تاشفين سنة 483هـ / 1090م وأطاح بأميرها عبد الله بن بلقين الذي كان قد عقد معاهدة سرية مع ألفونسو السادس ضدّ المرابطين، وفعل نفس الشيء مع شقيقه تميم فأرسل إلى السوس. أما عبد الله فقد سجن في أغمات حتى توفي.

7- إمارات جنوب الأندلس :

كانت تقوم بجانب دول الطوائف الكبيرة أو الرئيسية التي سبق ذكرها إمارات صغيرة تركزت في المنطقة الغربية من العدوة المغربية على الجانب الأندلسي، وكانت تتلقى دائما الدعم وقت الحاجة من الجانب المغربي وعند الضرورة تعبر إلى الجانب المغربي إذا اضطرتها الظروف إلى ذلك. وكانت هذه الإمارات تتلقى الدعم كذلك من مملكة غرناطة، ولم تكن لها مقومات دولة: كانت تعتمد على العصبية القبلية. وهذه الإمارات هي قرمونة ويسيطر عليها بنو برزال برئاسة عبد الله بن محمد البرزالي الذي ينتمي إلى قبيلة زناتة من بني يفرن التي كانت حليفة للأمويين، أما رندة فكان يحكمها بنو يفرن وهم أيضًا من زناتة، وإمارة مورور يسيطر عليها بنو دمّر وهم كذلك من فروع زناتة جاءوا من تونس. أما إمارة شذونة وأركش فيسيطر عليها بنو خزرون وهم أيضًا من زناتة.

وقد أصبحت هذه الإمارات الصغيرة محلّ نزاع بين دولتي إشبيلية وغرناطة كما مرّ بنا، وأدى ذلك الصراع إلى طلب مساعدة ألفونسو السادس وتدخّله في الصراع الدائر حولها.

8- دويلات الفتيان الصقالبة في شرق الأندلس :

كانت الدولة الأموية في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر قد استكثرت من جلب الفتيان الصقالبة واستعملهم في خدمة القصر كحرس وكخدم، وبرز منهم قادة كبار في الجيش والإدارة. وفي عهد المنصور ابن أبي عامر كذلك استخدم منهم أعدادا كبيرة استقوى بهم ضدّ أعدائه حتى تكونت منهم قوة عُرفت بالفتيان العامريين.

شارك هؤلاء الفتيان العامرية في الفتنة عقب سقوط الخلافة الأموية في قرطبة سنة 399هـ/ 1008م، وقد اضطر هؤلاء إلى مغادرة قرطبة إلى شرق الأندلس حيث كانت الأحوال أكثر أمانا لهم. ومن هؤلاء الفتيان لبيب الذي سيطر على مدينة دانية والجزائر الشرقية وقد تغلب على طرطوشة، ومظفر ومبارك اللذان سيطرا على بلنسية، ونبيل الذي حكم شاطبة، وخيران الذي تغلب على المريّه ومرسية، وأوريولا وهو أكبرهم وأكثرهم جرأة وأقواهم وقد اتخذ من المريّة قاعدة له سنة 445هـ/ 1014م.

وفي بداية 411هـ/1021م التفّ الفتيان الصقالبة العامريون حول عبدالعزيز بن عبدالرحمن المنصور بن أبي عامر ومحمد بن عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر ثم تنكروا لهما وطردوهما من بلنسية والمريّة وتولى الحكم الفتى خيران العامري الذي نظم الجيش ونشر الأمن والاستقرار، ولما توفي سنة 419هـ/1028م أوصى بأن يخلفه الفتى زهير الذي كان قد لعب دوراً مهماً في الفتنة في قرطبة. لقد شنّ هذا الفتى هجوماً فاشلاً على غرناطة سنة 428هـ/1037م انتّهى بمصرعه وتشتيت قواته وأسر كبار قواده ومنهم وزيره ابن عباس.

أمّا في بلنسية التي تغلّب عليها عبد العزيز بن أبي عامر، فقد ظلّ يحكمها إلى أن دخل معه في نزاع معه مجاهد العامري الذي كان يسيطر على جزر البليار، فأسرع عبد العزيز للقائه وترك صهره أبا الأحوص معن بن صمادح يرعى شئون المريّه لكنّ هذا انقلب عليه.

ينتمي ابن صمادح إلى أسرة عربية تُعرف ببني تجيب الذين يحكمون سرقسطة. وتحالف ابن

صمادح مع باديس حاكم غرناطة. وعندما توفي سنة 452هـ / 1060م خلفه ابنه أبو يحيى محمد بن معن بن صمادح الذي لقب نفسه المعتصم بالله والذي كان على خلاف مع خاله عبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية، وكان يشجع هذا الخلاف باديس حاكم غرناطة. وتطورت الأحداث، وطمع المعتصم في غرناطة نفسها بتشجيع من وزيرها اليهودي يوسف بن نغزالا، ودخل المعتصم في صراعات مع جيرانه وظل يحكم حتى دخل المرابطون إلى الأندلس بقصد الإطاحة بملوك الطوائف نظراً لضعفهم وقيامهم ضدّ بعضهم البعض وتحالفهم مع النصارى ضدّ المسلمين. وفي سنة 484هـ / 1091م توفي المعتصم بعد أن حكم 41 سنة، وأوصى ابنه معز الدولة أحمد بأنه عندما يسيطر المرابطون على إشبيلية عليه اللجوء إلى بني حماد وأصحاب القلعة. ولذلك غادر معزّ الدولة المريّة في سنة 484هـ / 1091م وحمل أسرته وأمواله في ثلاث سفن، ونزل في بجاية وهناك عاش حتى توفي.

أما بلنسية فكان يحكمها فتيان من الفتيان العامريين هما مبارك ومظفر. وقد قاما بتحصين المدينة ونشر الأمن فيها، ولذلك قصدها الناس وجذبت إليها الكثير من الصقالبة من فرسان وغيرهم. وقد حارب مبارك منذر التجيبي صاحب سرقسطة الذي كان يخطط للاستيلاء على بلنسية. وفي سنة 408هـ / 1017م توفي مبارك ومظفر وخلفه في الحكم الفتى لبيب العامري حاكم طرطوشة ثم شاركه في حكمها مجاهد العامري ثم ثار عليه بقية الفتيان العامريين وبايعوا حفيد مولاهم عبد العزيز بن عبد الرحمن المنصور سنة 411هـ / 1021م، وقد سيطر كذلك على المريّة. لكن مجاهد العامري الذي كان يحكم دانية والجزائر الشرقية هاجم شاطبة واضطر عبد العزيز إلى مغادرة المريّة التي تركها تحت ابن صمادح الذي سرعان ما خانه وتمرّد عليه وأعلن استقلاله بالمريّة. واستعان عبد العزيز المنصور ببعض الفرق العسكرية المرتزقة من النصارى. واستمر حكم عبد العزيز لمدة أربعين سنة، وتوفي سنة 452هـ / 1061م، وخلفه ابنه عبد الملك بإجماع رجال الدولة، ولقب بنظام الدولة.

كان عبد الملك بن عبد العزيز المنصور صهراً للمأمون بن ذي النون صاحب طليطلة، وكان يبدي تعاطفه معه لكونه صهره وزوج ابنته، فزوّده ببعض القادة العسكريين والمستشارين لمعاونته في الحكم. لكنّ العلاقة ساءت بين الرجلين عندما رفض عبد الملك طلب صهره المأمون بتقديم قوة من جنده للمشاركة في محاربة ابن عبّاد. وتمكّن المأمون من خلع صهره وأخذه مع أهله أسيراً وعيّن بدله ابن عمه أبا بكر بن محمد بن عبد العزيز سنة 456هـ / 1063م. وعندما توفي المأمون أعلن أبو بكر بن عبد العزيز استقلاله ببلنسية وعقد مصاهرة مع المؤتمن بن هود حاكم سرقسطة حيث زوج ابنته لابن المؤتمن المسمى أحمد المستعين. وعندما توفي سنة 478هـ / 1085م خلفه ابنه أبو عمرو عثمان. ولكن عندما سقطت طليطلة سنة 478هـ / 1085م طرد منها حاكمها القادر بن ذي النون الذي وعده ألفونسو السادس أن يكون حاكماً لبلنسية وزوّده بقوة من الجند بقيادة البرهانيس. وبالفعل تمكّن القادر من الاستيلاء على السلطة بدون مقاومة، وبالتالي قامت دولة بني ذي النون مرة أخرى في شرق الأندلس بعد سقوطها في طليطلة.

لكن هزيمة ألفونسو السادس على يد المرابطين في معركة الزلاقة أجبرت الجنود القشتاليين على الخروج من بلنسية. وعمّ الاضطراب في المدينة فطمع فيها كلّ من المنذر بن هود حاكم لاردة وطرطوش، والمستعين بن هود صاحب سرقسطة، الذي لبّى طلب المساعدة ولكنه كان ينوي ضمّها إلى مملكته.

وهكذا نرى أن ملوك الطوائف في الأندلس قضوا معظم أوقاتهم في حبك المؤامرات ضدّ بعضهم البعض، واستقووا بأعدائهم جميعاً ملوك النصارى من الإسبان الذين ضربوا بعضهم ببعضهم، وأفقروهم بفرض الجزية والإتاوات عليهم، وفتكوا بأبرز قادتهم ومقاتليهم الذين قتلوا في الحروب بينهم. والأهم من هذا كله هو خلق الأحقاد بين أمراء الأندلس حتى فقدوا الثقة فيما بينهم. وقد خلقت هذه الحروب الأهلية بين ملوك الطوائف جوّاً كئيباً بائساً، مما حدا بالكثير من الناس إلى مغادرة الأندلس والهجرة إلى المغرب أو المشرق العربي تاركين الأندلس وما فيها.

ولعل أصدق تعبير عن هذا الجوّ ما قاله الشاعر أبو الحسن القيرواني:

مما يزهّدني في أرض أندلس
أسماء معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها
كالهر يحكي انتفاخا صورة الأسد

وقال آخر:

الحمد لله على أنني
كضفدع في لجّة اليمّ
إن هي قالت ملأت حلقها
أو سكتت ماتت من الغمّ

وما أشبه حال الأندلس بالأمس البعيد من حال وطننا العربي اليوم. وقد قيل: "إنّ الأمور يُهتدى إليها بالأقران والأمثال". ﴿ إنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾. (الزمر: آية 21).

أ.د. إدريس الحرير
جامعة قاريونس

المصادر والمراجع

أولاً - المصادر :

- ابن الأبّار ، أبو عبد الله (ت. 658هـ / 1232م) : الحلة السيراء، ج 2، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة.
- ابن أبي زرع ، علي الأنيس (ت. 741هـ / 1340م) : المطرب بروض القرطاس، الرباط، 1973.
- ابن بسّام ، أبو الحسن علي الشنتريني (ت. 542هـ / 1147م) : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القاهرة.
- ابن بُلقين ، عبد الله (ت. 447هـ / 1055م) : كتاب التبيان، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، 1955.
- الحميري ، أبو عبد الله محمد (ت. 900هـ / 1494م) : صفة جزيرة الأندلس، بيروت، 1988.
- ابن حزم ، أبو محمد (ت. 456هـ / 1063م) : رسالة نقط العروس، نشره شوقي ضيف، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، عدد ديسمبر، 1954.
- ابن خلدون ، عبد الرحمن (ت. 808هـ / 1406م) : العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، 1959.
- ابن الخطيب ، لسان الدين (ت. 776هـ / 1374م) : أعمال الأعلام تحقيق ليفي بروفنسال، بيروت، 1956.
- ابن الخطيب ، لسان الدين (ت. 776هـ / 1374م) : الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عنان، 1967،
- ابن خلكان ، أحمد (ت. 681هـ / 1283م) : وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1977.
- ابن سعيد المغربي ، 1953-1955 : المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة.
- المراكشي ، ابن عذاري (ت. 712هـ / 1312) : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، حققه ليفي بروفنسال، بيروت، 1967.
- المراكشي ، عبد الواحد (ت. 969هـ / 1271) : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، القاهرة، 1332هـ.
- المقري ، التلمساني (ت. 1041هـ / 1631) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، القاهرة، 1302هـ .

ثانياً - المراجع العربية والمعربة :

- أدهم ، علي : المعتمد بن عبّاد، القاهرة.
- بيضون ، إبراهيم : الدولة العربية في إسبانيا، بيروت، 1980.
- دوزي ، رينهرت : نظرات في تاريخ الإسلام، عصري صدر الإسلام وملوك الطوائف في الأندلس، جبيل، 2005.
- سالم ، السيد عبد العزيز : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، بيروت، 1962.
- الطيبي ، أمين : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، تونس، 1984.

- العبادي ، أحمد مختار : في تاريخ المغرب والأندلس، بيروت، 1978.
- عزام ، عبد الوهاب : المعتمد بن عبّاد، القاهرة دار المعارف، (د.ت).
- عنان ، محمد عبد الله : دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثاني، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، القاهرة، 1997.
- مؤنس ، حسين : معالم تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة، دار المستقبل، 1996 موسوعة تاريخ الأندلس ج 2، القاهرة، 1980.

ثالثاً - المراجع الأجنبية :

- Dozy, R. A. : History of the Moslems of Spain, translated by F.G. Stokes, London, 1913.
- Dozy, R. : Histoire des musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête des Almoravides, Leyden, 1932.
- Mackay, A. : Spain in the Middle Ages, London, 1977.
- Mead, J. : The Moors in Spain and Portugal, London, 1975.
- O'Callaghan, J.F. : A History of Medieval Spain, London, 1975.
- Freeman - Grenville, : Calendriers Islamiques et Chrétiens, Garnet, France, 1995.
- Cattenoz, H.G. : Tables de concordance des Eres Chrétienne et Hégirienne, Rabat, 1954.
- Glick, Th. F. : Islamic and Christian Spain in the early Middle Ages. U.P., 1979.



المصدر : محمد عبد الله عنان - دول الطوائف - ص 117

2 - الغـزو الإسـباني للأندلس

يقـصد بـالغزو الإسـباني للأنـدلس فـي هـذا البحـث، تلـك الحـروب التـي خاضـها الإسـبان ضدّ مـسلمي الأنـدلس والتـي أخـذت تعـرف بحـروب الاسترداد La Reconquista التي كانت قد بدأت منذ الفتح العربي للأندلس سنة 92هـ / 711م حين فرّت بقايا الجيش القوطي بقيادة أحد قادتهم ويدعى بلاي (ت 120هـ / 737م) واحتمت بالمنطقة الجبلية الوعرة في شمال إسبانيا والتي تعرف بقمم أوروبا وتتكـون مـن ثلاثـة جبـال شـاهقة بها كهـف يُعـرف بكهف بـلاي أوكوفادنجا. لقد حاصر العرب لـبعض الوقت هذه الفلول، وعندما طال حصارهم تركوهم قائلين: "ثلاثون علجاً ما عسى أن يجيء منهم؟". أخذت هذه المجموعة الصغيرة تنمو ويكثر أنصارها وتتـسع الرقعـة الجغرافيـة التـي سـيطرت عليهـا، وتكونـت منهـا ممالـك مثـل أرغـون ونافـار (نبـرة) وسـيطرت علـى مـساحة واسـعة شـملت المنطقـة الشمالية الغربية من إسبانيا والتي أصبحت تعرف بمملكـة ليـون، وحـصّنت حـدودها بسلـسلة مـن الحصون والقلاع. اتحدت هذه القلاع مع بعضها في القـرن العاشـر المـيلادي تحـت زعامـة فرنـان غونزاليس، واستقلت عن مملكة ليون تحت اسم قشتالة أو قشتيلة، وهي محرّفة من كلمة Castilla أي القـلاع. وأخـذت هـذه المملكـة الـصغيرة تتوسـع علـى حـساب جيرانـها المـسلمين والمـسيحيين حتـى سيطرت على كلّ إسبانيا.

ويعرّف الإسبان حروب الاسـترداد بأنها تلك الحـروب التـي قـام بهـا المـسيحيون ضـد المـسلمين واسـتمرت حـوالي ثمانيـة قـرون أي منـذ الفـتح الإسلامي للأندلس سنة 92هـ / 711م وحتى سقوط آخر معقل للمسلمين في غرناطة 898هـ / 1492م.

ولكنّ هذه الحروب دخل عليها عامل آخر منذ منتصف القرن الحادي عشر الميلادي وهو ما يسمى بـالحروب الصليبية، لأنها تـأثرت بتوجيهات ومـساندة البابويـة التـي بـدأت فـي هـذه الآونـة تُعدّ وتقـود حروبـاً ضـد المـسلمين فـي حـوض البحـر الأبيض المتوسط خاصة في جزيرة صقلية فـي عهد البابا حنا العاشر 302-316هـ / 914-928م.

ولما كانت السلطة الإسلامية فـي عهد الـولاة وفي عهد الإمارة الأموية قوية، كانت تقوم بإرسال حمـلات عـسكرية مـن حـين إلـى آخـر لـصدّ هجمـات الإسبان من الشمال. ولكنه كلّما لاحت فرصة لهذه الممالك المسيحية في شمال إسبانيا نراها تتدخل في شـئون الأنـدلس وتقـوم بغـارات عليـه أو تقـدم المساعدات للثائرين على السلطة مثلما حدث عندما ثـار عمر بـن حفـصون الـذي قـاد تمـرداً منـذ 268-316هـ/881-928م.

وبالمقابـل نـرى المـسلمين يتـدخلون فـي النزاعات بين أمراء الإسبان في فترات مختلفة مثل عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم الثـاني وعهد الحاجب المنصور بن أبي عامر الذي قـاد 57 حملة عسكرية ضدّ هذه الممالك الإسبانية.

وعندما سقطت الخلافة الأمويـة فـي الأنـدلس 422هـ/1031م وانقسمت الأندلس إلى عدة دويلات عُرفت بملـوك الطوائـف وأخـذت تتـصارع وتتنـازع

فيما بينها حول السلطة، وجدت الممالك الإسبانية هذه فرصة سانحة وبدأت تتدخل وتضغط على المسلمين، وتمكّنت من الاستيلاء على الكثير من أراضيهم وفرض الجزية عليهم. ولولا نجدة المرابطين لسقطت الأندلس في أيدي الإسبان مبكراً.

لقد شجعت الانقسامات بين المسلمين في الأندلس الفرنجة وغيرهم من المسيحيين الأوربيين على تقديم المساعدات للإمارات والممالك الإسبانية. وكان البابا إسكندر الثاني 453-466هـ/ 1061-1073م أول من دعا الأوربيين سنة 455هـ/1063م إلى نجدة إخوانهم المسيحيين في مملكة أراغون، وبناء على تلك الدعوة تكونت حملة صليبية لمساندتهم.

تعتبر هذه الحملة فاتحة حملات رسمية إسبانية مؤيدة من البابوية وأتباعها في أوربا وبالتالي حملة صليبية. وقد توجهت هذه الحملة إلى سرقسطة مما دعا حاكمها المقتدر بن هود (438-474هـ/1046-1081م) إلى الاستعانة بملك قشتالة فردناند الأول 426-457هـ/ 1035-1065م الذي أرسل مددا عسكرياً بقيادة ابنه سانشو تمكن بواسطته من هزيمة أراغون وقتل ملكها راميرو الأول. ومن أهم نتائج هذه المعركة بروز فردناند الأول كملك قوي قاد سياسة الاسترداد.

وعقب هزيمة أراغون، دعا البابا مرة أخرى الأوربيين إلى مساعدة هذه المملكة وأعلن : أن كل من يشترك في تلك الحملة الصليبية ضدّ المسلمين سوف يمنح الغفران. وحثّ المحاربين الأوربيين والإسبان على التطوع للدفاع عن الأراضي الإسبانية وطرد المسلمين منها.

تكونت هذه الحملة من قوات إيطالية خاصة من الفرق النورماندية تحت قيادة جالرمو دي منتروبيل وغيوم دي فنيري حامل الراية البابوية وقائد جيوشها. وتوجّهت هذه القوة إلى نورمنديا حيث انضمت إليها قوات نورمندية فرنسية بقيادة روبيرت كرسبين وقوات فرنسية أخرى فبلغ عددها أربعين ألف فارس ومقاتل.

اتجهت هذه الحملة نحو الثغر الأعلى المتاخم للحدود مع الفرنجة والممالك الإسبانية مثل سرقسطة ووشقة ولاردة ثم مدينة بلنسية ووادي الحجارة. وقد عمد هؤلاء الصليبيون إلى النهب والسلب والحرق وجميع أشكال التخريب حتى وصلوا مدينة بربشتر في سنة 456هـ/ 1064م، وهي مدينة ذات موقع استراتيجي هام، وفرضوا عليها حصاراً لمدة أربعين يوماً. ورغم دفاع المسلمين المستميت فإن المدينة اضطرت إلى الاستسلام بشروط، بعد أن قطعوا عنها المياه التي كانت تصلها عن طريق قناة تحت الأرض أخبرهم بسرها أحد الخونة، إلا أن الصليبين نكثوا بعهدهم ووعدهم وارتكبوا مذابح شنيعة راح ضحيتها أعداد كبيرة من السكان وأسروا منهم أعداداً كبيرة أخرى.

كان لسقوط مدينة بربشتر صدى كبير لدى ملوك وأمراء الأندلس. وقد قام المقتدر بن هود أمير سرقسطة بطلب النجدة فاستجاب لدعوته بعض أمراء الأندلس ومنهم المعتمد بن عباد ملك إشبيلية (461-484هـ/1069-1091م) الذي أمدّه بـ 500 فارس. ولمّا اكتملت المساعدات التي بلغت ستة آلاف، شنّ المسلمون هجوما قويا على بربشتر واقتحموها (457هـ/1065م)، وأسروا وقتلوا أغلب من في المدينة من النصارى، وهكذا تم استرداد هذه المدينة وحصنها الهام.

استغلت إسبانيا النصرانية فرصة سقوط الخلافة الأموية في الأندلس وانقسام الأندلس إلى دويلات متناحرة أخذ أمراؤها يطلبون مساعدة ملوك إسبانيا ضد بعضهم البعض، واستغل ملوك النصارى

هذه الأوضاع أفضل استغلال لمصالحهم حتى جعلوا ملوك الطوائف أدوات طيّعة في أيديهم، وبلغ هذا الإذلال أقصاه على يد ألفونسو السادس كما سنرى.

غير أن سياسة الاسترداد الفعلية كان قد بدأها فردناند الأول 1035/1065م ملك قشتالة وليون المعروف في المصادر الإسلامية بفرذلند والذي بدأ بعد انتهائه من حسم الصراع بينه وبين إخوته، في غزو أراضي المسلمين سنة 449هـ/1057م، فعبر بقواته نهر دويرة ووصل شمال البرتغال الحالية التي كانت تابعة لمملكة بطليوس، فاستولى على عدد من الحصون فيها، ثم اتجه إلى مدينة بازو وفرض عليها حصاراً واقتحمها وقتل وأسر من أهلها عدداً كبيراً. ثم سار فردناند إلى مدينة مليقة (لاميجو) الواقعة شمال بازو وقتل معظم سكانها وأسرهم، ولم يهرع ابن الأفطس لنجدتها.

استغلّ فردناند النزاع الذي حدث بين المأمون حاكم طليطلة وابن هود حاكم سرقسطة حول بعض الحصون والقلاع مثل وادي الحجارة، وشمل هذا النزاع كذلك ابن عباد أمير إشبيلية. ولما استولى المأمون على مدينة وادي الحجارة وشدد الضغط على ابن هود تابع الحرب وتفاوض مع فردناند الذي بعث إليه بعض قواته نظير أن يقر بسيادته عليه وأن يؤدّي له الجزية. وقد دمّرت قوات قشتالة أراضي ابن هود المحاذية لقشتالة وخربت مزارعها. وقد اضطر ابن هود نفسه أن يفاوض فردناند، فأعطاه أموالاً كثيرة نظير إغارته على أراضي المأمون مما جعل المأمون يطلب مساعدة غريمه ملك نافار أخي فردناند. وهكذا استباح النصارى أراضي المملكتين الإسلاميتين بسبب الخلافات الوضيعة بين ابن هود وابن ذي النون وساءت أحوال المسلمين. غير أن ابن هود استمر في ضلاله وهاجم مدينة سالم وقتل المدافعين عنها من المسلمين، وهاجم النصارى أراضي طليطلة وعاثوا فيها فساداً واضطروا إلى مفاوضة فردناند بالكفّ عنهم ولكنه طلب منهم أموالا طائلة فقالوا له : لو كانت عندنا هذه الأموال لأنفقناها على البربر للدفاع عنا. فردّ عليهم فردناند:

"أما استدعاؤكم البرابرة فأمر تكثرون به علينا وتهددونا به ولا تقدرون عليه مع عداوتهم لكم. ونحن قد صمدنا إليكم ما نبالي من أتانا منكم، فإنما نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديما في أول أمركم، فقد سكنتموها ما قضي لكم، وقد انتصرنا الآن عليكم برداءتكم، فارحلوا إلى عدوتكم واتركوا لنا بلادنا فلا خير لكم في سكناكم معنا بعد اليوم، ولن نرجع عنكم، حتى يحكم الله بيننا وبينكم".

ومما لاشك فيه أن هذه الكلمة تمثل سياسة الاسترداد الإسبانية لأراضي الأندلس الإسلامية. وسنرى الملوك الإسبان يسيرون على نفس المنوال وهو تدمير الأندلس اقتصادياً وإفقار أمرائه وملوكه بفرض الجزية والمغارم عليهم، وعسكرياً بالاستيلاء على أهم مدنهم وحصونهم وقلاعهم وذلك على مراحل. وفي سنة 458هـ/1065م توفي الملك فردناند وتنازع أولاده الثلاثة على الحكم وهم سانشو ملك قشتالة وألفونسو ملك ليون وغرسية ملك جليقية. وقد استمرت هذه الحرب لعدة أعوام وانتهت بانتصار سانشو واغتصاب ملك أخويه سنة 464هـ/1071م.

وقد اضطر غرسية إلى اللجوء والاحتماء بابن عباد في إشبيلية. أما ألفونسو فهرب إلى طليطلة وطلب حماية المأمون بن ذي النون، ومكث هناك تسعة أشهر إلى أن سمع بمقتل أخيه سانشو تحت أسوار سمّورة أثناء محاولة انتزاعها من أخته أوراكا، فغادر طليطلة إلى ليون واستردّ عرشه. وقد

تمكن ألفونسو أثناء إقامته في طليطلة أن يتعرف على المدينة ويستطلع دفاعاتها ويعرف مشاكلها ومصادر قوتها وضعفها.

وعندما توفي المأمون سنة 467هـ/ 1075م وخلفه حفيده يحيى القادر 467-478هـ/1075-1085، اضطر بسبب الثورة ضدّه في طليطلة أن يتحالف مع ألفونسو السادس 457-502هـ/1065-1109م الذي ساعده في العودة إلى الحكم بعد طرده من طليطلة ولكن نظير أموال جمة وتنازله عن عدد من الحصون لألفونسو السادس.

وبهذا الأسلوب تمكن ألفونسو السادس من إخضاع كل ملوك الطوائف وإجبارهم على دفع الجزية باستثناء ملك بطليوس عمر المتوكل بن الأفطس. وقد طبّق ألفونسو السادس سياسة التخريب والتدمير للحقول والمزارع بالقرب من طليطلة على مراحل للقضاء على موارد المدينة الغذائية. وكان بالمدينة عدد من السكان النصارى الذين يناصرون ألفونسو السادس ويأملون استيلاءه على المدينة. ومنذ سنة 474هـ/1081م بدأ ألفونسو يشنّ الحملات على طليطلة لمدة أربع سنوات. وقد حاول بعض العقلاء والعلماء والفقهاء إنقاذ مدينة طليطلة من السقوط في أيدي ألفونسو، لأنهم كانوا يعلمون أهميتها بالنسبة إلى الإسلام في الأندلس. ووجّهوا نداءاتهم إلى أمراء المسلمين طلباً للمساعدة لإنقاذ المدينة. وقد قاد هذه الحركة القاضي المشهور أبو الوليد الباجي (بإيعاز من المتوكل بن الأفطس) الذي رأس وفدا من الفقهاء والعلماء طاف بهم عدة مدن وإمارات بالأندلس، ولكن جهوده لم تأت بنتيجة سوى من عمر المتوكل بن الأفطس الذي وافق على تقديم المساعدة لطليطلة وأرسل جيشاً بقيادة ابنه الفضل، ولكنّ جيشه لم يتمكن من صدّ قوات النصارى المتفوقة عليه عددا وعدّة واضطر للعودة إلى بلاده. وهكذا تركت طليطلة تواجه مصيرها.

ولما استكمل ألفونسو السادس استعداداته سنة 477هـ/1084م فرض حصارا قويّاً حول طليطلة استمر تسعة أشهر حتى أجبر حاكمها الضعيف القادر على طلب الاستسلام وفق شروط لم يتم الوفاء بها بعد خروجه منها ذليلاً مهاناً. وعين ألفونسو مستشاره سسفندو المستعرب حاكماً عليها. وهكذا عادت هذه المدينة عاصمة لقشتالة بعد حكم إسلامي دام 370 سنة، وتمّ تحويل مسجدها الجامع إلى كنيسة سنة 478هـ/1085م.

نتج عن سقوط طليطلة استيلاء النصارى على كل المناطق التي كانت تابعة لها. وقد دبّ الهلع والخوف في كل أنحاء الأندلس، وبكى الشعراء هذه الكارثة. وقد شجع سقوطها النصارى على الزحف على ما بقي من ممتلكات المسلمين، مما أدّى إلى طلب مساعدة المرابطين وحدوث معركة الزلاقة 471هـ/1086م التي تمت فيها هزيمة ألفونسو السادس ومكّنت الإسلام من أن يستمر في الأندلس لأكثر من أربعمائة سنة أخرى.

وعقب عودة يوسف بن تاشفين إلى المغرب بعد معركة الزلاقة، تنفس ألفونسو السادس الصعداء، وأفاق من صدمته، وأخذ يجمع فلول جيشه وكان قد قدم عليه عدد كبير من المتطوعين الفرنسيين والنورمان وغيرهم، وشعر بقوته من جديد، وخاض ضدّ مسلمي الأندلس عدة معارك، وحاول الاستيلاء على مدينة بلنسية وحاصرها سنة 485هـ/1092م بمساعدة سفن جنوة وبيزا، ولكنه فشل في هذه الحملة ولم يتمكن من احتلال هذه المدينة.

قاد ألفونسو السادس قواته صوب مدينة شنترين بغرب الأندلس، واستولى عليها سنة

486هـ/ 1093م. وفي سنة 501هـ/ 1108م خاض ألفونسو السادس آخر معاركه حيث أرسل جيشاً كبيراً وضع على رأسه ابنه الوحيد سانشو الذي كان صبياً في الحادية عشرة من عمره ضدّ المرابطين بقيادة تميم بن يوسف بن تاشفين، ولكنّ الجيش القشتالي هزم هزيمة منكرة في معركة اقليش وقتل الأمير سانشو مع سبعة من الأقماط (معركة الأقماط السبعة) ومعهم نحو عشرين ألفاً من النصارى، وكان ذلك يوم 1109/5/29. ومات ألفونسو السادس من أثر هذه الصدمة الكبيرة في 1109/6/29.

وفي عهد ألفونسو السادس حدثت الحروب الصليبية فكانت الحملة الأولى على فلسطين بالمشرق الإسلامي، وكان البابا أوربان الثاني 481-492هـ/ 1088-1099م قد أصدر مرسوماً يحرّم على الإسبان أن يشتركوا في الحرب الصليبية في المشرق لأن أعداء النصرانية (يقصد المسلمين) يهددونهم داخل أراضيهم ولأن لديهم في شبه الجزيرة وقوداً كافياً لإضرام نار الحرب المقدسة.

ألفونسو المحارب 498-528هـ / 1104-1134م :

ولد ألفونسو الأول (المحارب) سنة 465هـ/1073م من أمّ فرنسية هي فيليسيا دي روكي وهي أميرة فرنسية. وقد تربّى في دير القديس بطره دي سيرسا حيث تلقى تعليمه الديني والثقافي، وتشبعت طفولته وشبابه بالروح الدينية تحت حماية البابا، ولهذا نشأ متأثراً بالروح الصليبية بل بلغ به الأمر إلى أنه فكّر في الاشتراك في الحملة الصليبية الأولى التي انطلقت إلى فلسطين لتخليص قبر المسيح من أيدي المسلمين. كما أن صديقه وأمين سره استبان أسقف وشقة ذهب إلى القدس في بداية عهد الملك ألفونسو المحارب، وقد أطلق عليه هذا اللقب (المحارب) لكثرة المعارك التي خاضها ضد المسلمين والمسيحيين الذين عارضوا سياسته.

احتلال سرقسطة :

تحتل سرقسطة مكاناً هاماً لأنها كانت قاعدة بالثغر الأعلى وتفصل بين أراضي المسلمين والإسبان وتمتاز بموقعها الحصين على الضفة اليسرى لنهر ابرة ولها أسوار منيعة وعالية. وقد ظلت تحكمها أسرٌ شبه مستقلة عن الحكومة المركزية في قرطبة، وكانت آخر المعاقل الإسلامية التي سيطر عليها المرابطون 503هـ/1110م.

تمكنت مملكة أراغون أن تستقطع من سرقسطة مواقع مثل فتسون والمنارة ووشقة وبربشتر. ففي صيف سنة 478هـ/1085م حاصرها ألفونسو السادس ملك قشتالة ولم يفك الحصار عنها إلا عندما علم بزحف المرابطين إلى الأندلس. وفي سنة 484هـ/1091م أقام النصارى حصناً قوياً بالقرب منها واتخذوها نقطة انطلاق لغزوها. أخذ ألفونسو الأول (المحارب) في مهاجمتها سنة 504هـ/1111م عدة مرات لكن المرابطين تمكنوا من صدّه.

كان حصار النصارى لسرقسطة في شهر صفر 512هـ/مايو 1118م بجيش كبير بلغ عدده 50000 من الرماة والجنود والفرسان ويضم طوائف مختلفة من الفرنجة بقيادة غاستون دي بيارن وأخيه سانتولو، وكانا قد اشتركا في الحملة الصليبية الأولى في المشرق مما جعلهما يحملان روحاً صليبية وحماساً قوياً لمحاربة مسلمي الأندلس، ولذلك عُقد اجتماع كبير لغرض دعم الحرب ضد المسلمين في إسبانيا المسلمة، وتم عقد

هذا الاجتماع في مدينة تولوز وحضره أساقفة آرل وأوش ولاسكار وينبلونة وبربشتر، وتقرر فيه إرسال حملة صليبية إلى إسبانيا يقودها الكونت دي تولوز. وعليه تشكلت قوة كبيرة من البشكنس والقطلونيين والفرنجة، وكان من بينهم عدد كبير من الأساقفة ورجال الدين.

بدأ حصار سرقسطة في بداية شهر صفر 512هـ/22 مايو 1118م واستمر ستة أشهر. وقد دافع أهل هذه المدينة عن أنفسهم ودينهم دفاعاً مستميتاً حتى مات كثير منهم جوعاً. وزاد من سوء حالهم موت قائدهم وواليهم عبد الله بن مزدلي المرابطي. ورغم أنهم أخفوا خبر موته فإنّه عندما علم ألفونسو المحارب بذلك شدد في ضغطه على المدينة التي استهلكت موادها الغذائية بسبب الحصار الشديد الذي ضُرب حولها وعدم تلقيها أية إمدادات، بل وقد هُزم الجيش المرابطي الذي جاء لمحاولة فك الحصار كما تذكره المصادر الإسبانية، وارتدّ هذا الجيش عندما سمع بسقوط المدينة ولم يجازف بالدخول في معركة غير متكافئة مع جيوش ألفونسو المحارب. لذلك فقد استسلمت سرقسطة في شهر رمضان 1118/12/18م (512هـ).

وفي الحال حوّل ألفونسو السادس المسجد الجامع إلى كنيسة سميت كنيسة لاسبو أي الكنيسة العظمى، وأصبحت سرقسطة عاصمة مملكة أراغون. وواصل ألفونسو المحارب غزوه ضدّ المدن الأندلسية الإسلامية، فهاجم تطلية واستولى عليها، ثم سيطر على عدة حصون وقلاع، وأخذ قلعة أيوب ذات الأهمية الاستراتيجية. ونظراً لهذه التطورات الخطيرة قرر أمير المسلمين علي بن يوسف تجهيز جيش لصدّ زحف ألفونسو، ولكن هذا الجيش لقي هزيمة مروعة عند بلدة كتندة بالقرب من دروقة. وكان الجيش المرابطي بقيادة الأمير أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف. وقد استشهد من المسلين أعداد كثيرة. وقد هزت هذه المعركة سمعة المرابطين العسكرية، وكانت نكبة أخرى لمسلمي إسبانيا، وانسحبت فلول الجيش إلى مدينة بلنسية.

غزوة ألفونسو المحارب لشرق وجنوب الأندلس :

تقول المصادر التاريخية الأندلسية إن النصارى المعاهدين بغرناطة لما سمعوا بانتصارات ألفونسو المحارب على المسلمين قرروا دعوته لغزو شرق الأندلس وبالذات غرناطة التي بالغوا في وصف جمالها وغناها وأنهم يعانون الاضطهاد تحت الحكم الإسلامي. ولكن قد يكون هذا الادعاء عبارة عن خلق عذر لألفونسو للزحف على جنوب الأندلس واحتلاله إذا تمكن من ذلك، وربما يكون ألفونسو هو الذي طلب من النصارى المعاهدين مساعدته في غزوه لشرق وجنوب الأندلس.

غادر ألفونسو المحارب سرقسطة سنة 519هـ / 1123م في جيش قوامه 15000 مقاتل وبصحبته الكونت غاستون جي بيارن الذي ساعده في احتلال سرقسطة وكذلك عدد من رجال الدين وعلى رأسهم أسقف سرقسطة ووشقة. وكان الشكل الصليبي للحملة واضحاً. انطلق ألفونسو بقواته فاحتل لاردة وافراغة، ودمّر كثيراً من المزارع، وحرق كثيراً من القرى. ورغم قوة المقاومة المرابطية فإنها لم تستطع أن توقفه. وقد التحقت بجيش ألفونسو أعداد وفيرة من النصارى المعاهدين والذين أمدوه بمعلومات هامة عن دفاعات المسلمين وسلوك أفضل الطرق بهذه المنطقة. ومن بلنسية سار إلى جزيرة شقر فقاتلها لبعض الوقت، ثم تركها إلى دانية فأفسد مزارعها وقاتل أهلها ثم سار مخترقاً شرق الأندلس ماراً

بشاطبة وألش وأريولة حتى وصل إلى مرسية ثم إلى بيرة، فالمنصورة، فبرشانة ثم إلى مدينة بسطة محاولا فتحها، ولكنه فشل في ذلك فتركها إلى وادي آش.

ولما سمع المرابطون بحملة ألفونسو المحارب على جنوب الأندلس وزحفه نحو غرناطة وتسلل النصارى منها وانضمامهم إليه إلى درجة أن جيشه قد بلغ 50000، أمر أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين (500-537هـ / 1106-1143م) بإرسال قوات إلى الأندلس، وأمر شقيقه أبا الطاهر تميم بحشد جيوش الأندلس لصد زحف النصارى، فاجتمع للمرابطين جيش كثيف.

وعندما وصل جيش النصارى إلى شرق غرناطة قابلته قوات المرابطين واشتبكت معه في معركة عنيفة أوقفت زحفه نحو المدينة. وأخذ النصارى المعاهدون بغرناطة وغيرها بقيادة ابن القلاس يمدّون جيش ألفونسو بالمؤن. ولما عجز عن التقدم نحو غرناطة قرّر تركها والزحف نحو قرية مرسانة ثم إلى بيش ثم اتجه شمالاً إلى قلعة يحصب، وانحدر غرباً إلى قبرة واللسانة. وفي فحص الزينسول جرت معركة كان الانتصار فيها في البداية لقوات المسلمين ولكنها انتهت بهزيمة المسلمين في مارس 521هـ / 1127. بعد ذلك تقدمت قوات النصارى نحو الجنوب الشرقي وعبرت جبال سيرا نيفادا (جبل الثلج) حتى وصلت إلى الشاطئ ومن هناك اتجه ألفونسو غرباً نحو مدينة بلّش مالقة ثم رحل إلى قرية همدان حيث اصطدم مع قوات إسلامية في معركة شديدة، ثم انتقل إلى المرج ولكن كانت جيوش المسلمين تلاحقه وتدخل معه في معارك هنا وهناك، وسار بعد ذلك إلى وادي آش وكان جيشه قد أصيب بضربات قاسية وانتشر المرض بين صفوفه فقرر العودة إلى بلاده ماراً بمدن مرسية فشاطبة فبلنسية. وقد لحق به عند عودته نحو عشرة آلاف من النصارى المعاهدين الذين ساعدوه في حملته، وذلك خوفاً من انتقام المسلمين.

لم تحقق هذه الحملة أغراضها عدا اكتشاف ضعف دفاعات المسلمين وعدم استعدادهم الكامل لصدّ العدوان. وقد استغرقت هذه الحملة 15 شهراً، ووصل ألفونسو سرقسطة متعباً وقواته منهكة من طول المسير.

أما النصارى المعاهدون الذين ناصروا ألفونسو المحارب ولم يلتحقوا به في أراغون فقد قرر المرابطون معاقبتهم وذلك بترحيلهم إلى المغرب خاصة إلى مكناس وسلا وغيرها من بلاد العدوة.

وبعد توقف لمدة عامين لاستكمال الاستعداد من جديد لغزو أراضي الأندلس الإسلامية، قام ألفونسو المحارب بغزو الأراضي التي كانت لا تزال تحت حكم المسلمين شرقي سرقسطة بين نهري سنكا وسجري المتفرعين من إبرة. وكانت مدن لاردة وإفراغة ومكناسة من أهم المواقع الاستراتيجية، إضافة إلى المنطقة الممتدة على طول نهر إبرة حتى طرطوشة. وكان ألفونسو المحارب يخطط لطرد المسلمين من هذه المناطق لكي يضمن الوصول إلى مياه البحر المتوسط.

كان ألفونسو ينوي احتلال ميناء طرطوشة، ولكن قبل ذلك كان لا بدّ من طرد المرابطين من لاردة وإفراغة والأراضي الممتدة حتى مصب نهر إبرة. وعندما استكمل ألفونسو استعداداته زحف بجيش صوب بلنسية في محاولة لاحتلالها ليقطع أية إمدادات تأتي منها إلى الشمال. ولهذا جرت معركة عنيفة عرفت بالقليعة أو القلاعة بالقرب من جزيرة شقر جنوبي بلنسية في سنة 523هـ/1129م.

وقد هُزم فيها المرابطون هزيمة فادحة بسبب النزاع بين الأندلسيين والقوات المرابطية من ناحية والموقف السياسي والعسكري في بلاد المغرب نظراً لظهور حركة الموحدين هناك من ناحية أخرى.

انشغل ألفونسو المحارب بعد غزوته لبلنسية ببعض المشاكل مع زوجته الملكة أوراكا وابنها ألفونسو ريمونديس ملك قشتالة، وأيضا مع فرنسا لمساعدة بعض حلفائه هناك خاصة في الجنوب الفرنسي. وأثناء وجود ألفونسو المحارب في فرنسا قام حاكم سرقسطة غاستون دي بيارن وأسقف وشقة بحملة لردّ غزوة إسلامية عليهم، ولكنهما هزما وقتلا سنة 524هـ / 1130م بالقرب من إفراغة.

وعندما عاد ألفونسو المحارب إلى مملكته جهّز جيشاً كبيراً يساعده أسطول نهري عبر إبرة، وزحف به على مكناسة الواقعة عند ملتقى نهري سجري وإبرة فاضطرت إلى التسليم في سنة 527هـ/ 1133م، واتجه النصارى بعدها إلى إفراغة ولاردة التي تقع على ضفة نهر سنكا. ولكن هذه المدينة كانت محصنة وتقع على مرتفع طبيعي يسهل الدفاع عنه بسبب وعورة المنحدر وضيقه، وبالمقابل جهّز المرابطون قواتهم التي جاءوا بها من شرق الأندلس من بلنسية ومرسية ومن لاردة، وكان قائد المرابطين الأمير أبو زكريا يحيى بن عافية وهو من أقدر وأشهر وأخطر قادتهم ويعاونه نخبة من القادة المرابطين الآخرين وهم الزبير بن عمر اللمتوني وعبد الله بن عياض إضافة إلى والي المدينة سعد بن محمد بن مردنيش.

ضرب ألفونسو المحارب الحصار على إفراغة التي قاومت بشدة ورفضت الاستسلام قبل وصول القوات المرابطية إليها، واضطر ألفونسو إلى رفع الحصار مؤقتاً ثم الرجوع إليها. وعندما وصلت الجيوش المرابطية تحت أسوار إفراغة جرت معركة من أشد وأعنف المعارك التي شهدتها الأندلس نظراً لاستماتة الطرفين وإصرار كل منهما على النصر. وكان ألفونسو قد أحضر معه رفات بعض القديسين ليثير الحماس بين جنوده، وأمر بأن يتولى القساوسة والأساقفة والرهبان الصفوف أسوة بالقوامس (الكونتات). وتقدر المصادر الأندلسية أن قوات النصارى كانت حوالي اثنيْ عشر ألفا، بينما القوات المرابطية تقدّر بعشرة آلاف مجاهد.

ورغم إصرار النصارى على إحراز النصر، فإن المرابطين قاتلوا ببراعة وشجاعة نادرتين، وفي النهاية كان النصر في جانبهم، وخرقوا صفوف جيش ألفونسو المحارب الذي كان يقوده بنفسه. وقد فقد النصارى كبار قادتهم وأغلب جيشهم، وحلت بهم هزيمة مروعة في 23 رمضان 523هـ / 1234م، ولم ينجُ منهم سوى ألفونسو مع مجموعة قليلة من رفاقه، وتوفي بسبب هول الصدمة والفاجعة على جيشه ورفاقه في 25 يوليو 1134م.

وقد رفع هذا النصر في إفراغة من الروح المعنوية للمرابطين بصفة خاصة والمسلمين بصفة عامة، ورفع كذلك من سمعة المرابطين العسكرية، وذاع صيت يحيى بن غانية كقائد عسكري. إلا أنّ ما يشوب هذا النصر هو عدم استغلاله والزحف على سرقسطة واستعادتها.

الغزو الإسباني في عهد ألفونسو ريموندس السابع (1126-1157م) :

تولى ألفونسو السابع حكم مملكة قشتالة، وعقد حلفاً مع ملك البرتغال ألفونسو هنريكس الذي تعهد أن يكون صديقاً مخلصاً له وأن يعاونه في حروبه سواء ضدّ المسلمين أو النصارى. وقد أبرم

هذا الاتفاق في يوليو 1137م. اتجه ألفونسو السابع إلى غزو الأندلس الإسلامية فقاد قواته إلى منطقة جيان وبياسة وإبرة واندوجر وقام بتخريبها ونهبها وسبي أهلها. إلا أنّ قوة من المرابطين فتكت بقوة كبيرة أمام أعين ألفونسو الذي لم يتمكن من مساعدتها نظرا لهطول الأمطار وحدوث فيضانات، وكان ذلك سنة 1138م. ورجع الملك ألفونسو وهو في حالة غضب شديد إلى طليطلة، وحاول الانتقام من قورية بفرض حصار عليها، ولكنه لم يتمكن من اقتحامها.

خرج ألفونسو السابع في 534هـ / 1139م لغزو حصن أورليا (حصن أرنبة) بالقرب من طليطلة، وتمكن من احتلاله. وفي سنة 536هـ / 1142م سيطر كذلك على قلعة قورية، وفي سنة 538هـ / 1143م هزمت قوات قشتالية قوات المرابطين التي كانت بقيادة والي إشبيلية وقرطبة هزيمة ساحقة. ورد المرابطون على هذا الغزو بهجوم على القشتاليين، وتمكنوا من هزيمتهم وقتل القائد القشتالي المسمّى نويو، فاضطر ألفونسو السابع إلى أن يقود قوة بنفسه ويهاجم أراضي إشبيلية وقرطبة وأحرق مزارعها ووصل إلى غرناطة والمرية.

ووجه ألفونسو ريموندس (السابع) ضربة قوية أخرى للمسلمين في الأندلس وذلك باحتلال ميناء المرية بقوات برية وبحرية اشتركت في تجهيزها ممالك إسبانيا المسيحية: قشتالة ونافار وأراغون ومعها جنوة وبيزا، وكان هذا في سنة 542هـ / 1147م. وقد ظل هذا الميناء في أيدي القشتاليين حتى حرّره الموحدون في سنة 552هـ / 1157م.

وفي نفس الوقت قامت قوات صليبية من قطالونيا وأراغون وبيزة وجنوة بقيادة الكونت رامون برنجير الرابع أمير لشبونة باحتلال ميناء طرطوشة في آخر سنة 543هـ / 1148م ثم مدينة لاردة وكذلك إفراغة ولاردة سنة 544هـ / 1149م.

كانت آخر الحملات التي قادها ألفونسو السابع تلك التي شنّها على المرية التي كان قد حررها الموحدون من سيطرة القشتاليين سنة 552هـ / 1157م. ولكنّ هذه الحملة باءت بالفشل بعد حصار سبعة أشهر، وعاد الملك إلى بلاده محبطاً نفسياً، وتوفي في طريق العودة عند بلدة مورتلة (موردال) في 21 / 8 / 1157م.

وفي أوائل القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي أصبحت في إسبانيا ثلاث ممالك فقط هي قشتالة وأراغون والبرتغال. وبدأت قشتالة وأراغون تعملان معاً لتحقيق أهدافهما القومية والدينية وهي طرد المسلمين من الأندلس. أمّا البرتغال فقد ركزت على توطيد استقلالها أولا ثم بدأت بغزو الأراضي الإسلامية الواقعة جنوبها. وبدأ ألفونسو الثامن ملك قشتالة بغزو ضواحي إشبيلية، وردّ الموحدون بهجوم قويّ أدّى إلى معركة الأرك في شهر شعبان 591هـ (1197/6/15م) انجلت عن هزيمة مروّعة للنصارى. ولكن عقب هزيمة الموحدين في معركة العقاب Las Navas de Tolosa سنة 609هـ / 1212م بدأت دولتهم في الانهيار في المغرب والأندلس، فانتهزت مملكة قشتالة المتحدة القوية هذه الفرصة تحت قيادة ملكها فرناندو الثامن 628-650هـ / 1230-1252م، وبدأت بغزو الأراضي الإسلامية، فاحتلت العديد من الحصون واستولت على مدينة إبرة في سنة 631هـ/1232م. وفي بداية سنة 632هـ / 1233م زحف فرناندو الثالث على قرطبة، وبدأ بقصبتها الشرقية، وفرض عليها حصاراً قوياً، ولم يستطع واليها تقديم نجدة لها لأنه كان مشغولاً في حرب الملك خايمي ملك

أراغون الذي هاجم بلنسية. ولهذا تقرر ترك قرطبة تواجه مصيرها المحتوم فسقطت في أيدي الإسبان رغم مقاومة أهلها الغزاة في خارج وداخل المدينة سنة 633هـ / 1236م. ورفع القشتاليون في الحال الصليب فوق مسجدها الجامع الذي حوّلوه فيما بعد إلى كنيسة، ولا يزال كذلك إلى اليوم.

استغلّ فرناندو الثالث ظروف الحرب الأهلية بين المسلمين في شرق الأندلس، فاستولى على مدينة مرسية 640هـ / 1243، ثم توجه إلى إمارة غرناطة واحتل عدّة حصون وقلاع تابعة لها، وحاصر جيّان 643هـ / 1245م ممّا اضطر ابن الأحمر إلى عقد صلح معه وقبول الحماية تحت الملك القشتالي. وهكذا أصبح فرناندو أقوى ملوك إسبانيا في هذه الفترة، وأصبحت الأندلس الجنوبية تحت حمايته ورحمته.

ولهذا أخذ فرناندو الثالث يستعدّ لغزو إشبيلية. ففي سنة 644هـ / 1247م أرسل قواته إلى هناك فسيطرت على أغلب الحصون، وأرسل كذلك أسطولا في مياه الوادي الكبير ليمنع وصول الإمدادات إلى المدينة من جهة البحر. ودافع أهل إشبيلية عن مدينتهم دفاعاً مستميتاً رغم إحكام الحصار عليهم، مما اضطر فرناندو إلى حشد قوات إضافية في العام التالي، هذا بالإضافة إلى نجدات أخرى جاءته من أراغون والبرتغال، وكان منهم عدد كبير من الرهبان بل وجاءته مساعدة ودعم عسكري من حليفه المسلم ابن الأحمر أمير غرناطة. وقد اضطرت المدينة، بسبب طول الحصار ونفاد الإمكانات القتالية والتموينية، إلى التسليم؛ ودخلها النصارى في رمضان 646هـ (23 / 12 / 1248)، وعلى الفور حولوا مسجدها الجامع إلى كنيسة مثلما فعلوا من قبل في طليطلة وقرطبة وفي المدن الأخرى التي احتلوها. وهكذا سقطت أغلب القواعد الإسلامية الرئيسية في أيدي النصارى.

توفي فرناندو الثالث في شهر مايو 1252 بعد حكم دام 35 سنة، ودفن في إشبيلية التي أصبحت عاصمة لمملكة قشتالة، وأضفيت صفة القداسة على فرناندو الثالث الذي أصبح يعرف بالقديس فرناندو تقديراً لدوره في احتلال الأراضي الإسلامية في الأندلس.

كان لسقوط إشبيلية ردود فعل قوية لدى البرتغاليين الذين تشجع ملكهم ألفونسو الثالث وبدأ غزو قواعد الغرب الإسلامي الهامة مثل شلب وطبيرة وشنتمرية الغرب. ولم تأت سنة 650هـ / 1252م حتى كانت ولاية الغرب الإسلامية قد وقعت في أيدي البرتغاليين.

وقد لحقت مملكة أراغون بركب الغزو للأندلس الإسلامي بعد أن استقر الحكم للملك خايمي الأول 610-675هـ/1213-1276م الذي بادر بغزو جزر البليار القريبة من شواطئ أراغون سنة 626هـ/ 1229م، فأرسل حملة بحرية قوية، وكانت جزر ميورقة وبقية الجزر الأخرى تابعة لإمارة بلنسية. ورغم دفاع المسلمين عن هذه الجزيرة دفاعاً قوياً فإنهم اضطروا في النهاية إلى التسليم سنة 627هـ/1229م، وبعدها توجه الملك خايمي إلى غزو بلنسية بجيش كبير سنة 635هـ/1238م، وحاول أمير هذه المدينة طلب المساعدة من تونس التي أرسلت مؤناً وبعض الإمدادات في عدة سفن ولكنها لم تنجح في توصيلها نظراً للحصار القوي المفروض على بلنسية، واضطرت المدينة إلى التسليم بشروط تأمين أهلها على مغادرتها، وكان سقوطها في 17 صفر 636هـ/ 28 سبتمبر 1238م.

تابع خايمي غزواته فاستولى على دانية ولقنت 641هـ / 1244م، وشاطبة وأريولة 644هـ / 1246م، وأجلى جميع السكان المسلمين عن

الأراضي التي فتحها، فذهب الكثير منهم إلى غرناطة وبعضهم إلى إفريقية. وقد ركز الملك خايمي على إصلاح شئون مملكته الداخلية إلى أن توفي سنة 1274م، ولقب بالفاتح نظراً لاستيلائه على أراضي المسلمين بالأندلس.

ورغم الضربات التي وجهتها دولة بني مرين بالتعاون مع مملكة غرناطة لنصارى مملكة قشتالة، إذ غزا سلطان بني مرين أبو يوسف يعقوب المنصور 656هـ / 1258م الأندلس أربع مرات هزم فيها النصارى وأوقف زحفهم نحو غرناطة وتوالت دفعات عديدة من المتطوعين المغاربة لمساعدة إخوانهم الأندلسيين، فإنه عندما تولى عرش غرناطة نصر بن محمد الفقيه وكان شاباً في الثالثة والعشرين من عمره وليس له خبرة في شئون الحكم والسياسة فسخط عليه أهل غرناطة وكذلك ساءت علاقته مع بني مرين، استغل القشتاليون هذه الظروف وأرسل ملكهم فرناندو الرابع سنة 709هـ / 1309م حملة للاستيلاء على جبل طارق لقطع الإمدادات التي تأتي من المغرب للأندلس، وكان من قبل ذلك قد استولى على طريف، وفي نفس الوقت نسّق مع الملك خايمي لكي يحاصر المرية لشغل قوات الأندلس ويتم بذلك حصار جبل طارق والمرية في وقت واحد.

لم يتمكن الملك خايمي من احتلال المرية، ورجعت قواته بعد تلقي خسائر فادحة. أما فرناندو الرابع فقد تمكن من احتلال جبل طارق في آخر سنة709هـ / مارس 1310م، وكانت ضربة قاصمة لقطع حلقة الوصل بين المغرب والأندلس. وقد استغل القشتاليون هذا الوضع وأخذوا يضغطون على غرناطة واضطر سلطانها نصر أن يتفاوض مع الملك فرناندو الرابع ويقبل الخضوع ودفع الجزية له، ولكنّ هذا الإجراء أغضب سكان غرناطة فثاروا ضده وخلعوه واختاروا أبا الوليد إسماعيل سلطاناً عليهم سنة 713هـ / 1314م.

وفي بداية عهد ألفونسو الحادي عشر 1320-1350 الذي كان تحت وصاية الدّون بيدرو (بطره) والدّون خوان، قام جيش قشتالي كبير مع فرقة انجليزية بقيادة أمير انجليزي بالهجوم على غرناطة وتصدّى لهم جيش من ألمع المقاتلين المسلمين بقيادة شيخ الغزاة أبي سعيد عثمان بن أبي العلاء، وجرت المعركة في 20 ربيع الثاني 716هـ / مايو 1318م عند هضبة البيرة بالقرب من غرناطة أسفرت عن هزيمة فادحة للقشتاليين وقتل قائديهم وعدد كبير من أشرافهم ورهبانهم وأغلبية جندهم وأسر عدد كبير كذلك والاستيلاء على غنائم كثيرة.

وعندما قُتل السلطان إسماعيل المريني 725هـ / 1325م على يد ابن عمه إسماعيل حاكم الجزيرة ، تولى بعده ابنه أبو عبد الله محمد. وفي عهد هذا الأمير حدث خلاف شديد بين الأمير الشاب وشيوخ الغزاة المغاربة وهم قادة المجاهدين وكانوا صفوة من المقاتلين المغاربة. واستغل القشتاليون هذا الموقف وغزوا ثغر بيرة وسيطروا على عدة حصون هامة أخرى.

وفي عهد السلطان أبي الحجاج يوسف بن أبي الوليد إسماعيل 733-755هـ / 1333-1354م بدأ القشتاليون يضغطون مرة أخرى على غرناطة مما اضطر السلطان إلى طلب مساعدة المرينيين في عهد سلطانهم أبي الحسن علي بن عثمان 731-749هـ / 1331-1351م الذي أرسل جيشاً بقيادة ابنه أبي مالك، فردت إسبانيا المسيحية بأن جهّزت أسطولا مشتركاً مع أراغون وقشتالة والبرتغال إلى منطقة جبل طارق بقيادة الدوق جوفري تنوريو ليحول دون الإمدادات القادمة من المغرب. وكان

البابا قد وافق وبارك هذه الحملة ضدّ مسلمي الأندلس. وقد تمكنت هذه القوة الإسبانية المتحدة من هزيمة قوات المسلمين وقتل قائدهم أبي مالك 740هـ / 1339م.

جهّز السلطان المريني وسلطان بني الأحمر في غرناطة قوة كبيرة، وقابلا قوات ألفونسو الحادي عشر على ضفاف نهر سالارو بالقرب من بلدة طريف في جمادى الأولى 741هـ / 30 أكتوبر 1340م، ونشبت بين الجانبين معركة من أشرس المعارك انتهت بهزيمة كبيرة لقوات المسلمين وتكبدهم خسائر فادحة. وقد قورنت نتائج هذه المعركة بمعركة العقاب 609هـ / 1212م التي هَزم فيها النصارى الموحدين.

وقد واصل ملك قشتالة انتصاراته فاستولى على عدد من القلاع والحصون بالقرب من غرناطة. وفي نفس الوقت حاول سلطان المغرب الانتقام لهزيمته السابقة فجهّز أسطولا وجيشاً جديداً ولكنه لقي هزيمة أخرى على يد ألفونسو الحادي عشر في 743هـ / 1342م. وعلى إثر ذلك حاصر القشتاليون الجزيرة الخضراء ثم استولوا عليها، ولم يبق بيد المسلمين غير جبل طارق الذي يربط المغرب بالأندلس.

استمر ملك قشتالة في ضغطه على المسلمين ففرض حصاراً على جبل طارق 750هـ / 1349م بقصد الاستيلاء عليه لقطع الإمدادات نهائياً عن مملكة غرناطة القادمة من المغرب. وقد استمر هذا الحصار لمدة عام، ولم ينقذ سقوطه في يد القشتاليين إلا انتشار وباء الطاعون الذي هلك بسببه ألفونسو الحادي عشر، فاضطر النصارى إلى رفع الحصار 751هـ / 1350م. أما مملكة غرناطة الإسلامية فقد دخلت في دوامة صراعات وخلافات وانقلابات متوالية أدت بالأطراف المتصارعة على الحكم إلى أن تسعى إلى كسب ود النصارى للقضاء على منافسيها. وقد استغلّ القشتاليون والأراغونيون هذا الوضع وأخذوا يساعدون هذا الطرف ضد الآخر وأحيانا يقومون بتوجيه ضربات عسكرية لأخذ بعض المواقع الإستراتيجية والهامة ومنها جبل طارق الذي سيطروا عليه نهائياً سنة 1462 في عهد الملك هنري (1454-1474م).

اتحاد مملكتي قشتالة والأراغون وأثره على طرد المسلمين من إسبانيا :

لقد مضى وقت طويل جداً لكي تتحد إسبانيا تحت راية واحدة. فبعدما كانت توجد عدة ممالك متناحرة فيما بينها، انتهى الأمر إلى أن تتقلص إلى مملكتين هما قشتالة وأراغون، ولكن بعد تضحيات جمة. وعندما توفي الملك هنري في سنة 1474م عارض النبلاء تولي ابنته الوحيدة خوانا على العرش، وعليه تقدمت إزابيلا أخته لتولي العرش وكانت متزوجة منذ سنة 1471م من ابن عمها فردناند أمير الأراغون. وقد سهّل هذا الزواج توحيد المملكتين ووضع كل إمكانياتهما العسكرية والاقتصادية لطرد المسلمين من إسبانيا.

وفي الوقت الذي اتحدت فيه إسبانيا، كانت غرناطة تحت حكم السلطان علي أبي الحسن الذي تولى حكم غرناطة سنة 1463م ولكن نازعه على السلطة أخوه أبو عبد الله محمد الزّغل الذي لجأ إلى طلب المساعدة من الملك القشتالي هنري الرابع سنة 1489م. وتمكن الزّغل من السيطرة على مالقة بتأييد عدد كبير من القادة والفرسان. وتمّ الاتفاق بين الإخوة على أن يقتسما الحكم: فالسلطان علي أبو الحسن في غرناطة، والزّغل في مالقة. وعندما طلب أبو الحسن عقد هدنة مع الملكين فردناند وإزابيلا، اشترطا عليه الاعتراف بتبعيته لهما ودفع

جزية، ولكنّ أبا الحسن رفض ذلك، ولهذا هاجم النصارى حصن لونجا واستولوا عليه، فرد أبو الحسن بهجوم خاطف واسترد بلدة الصخرة وهي قاعدة حصينة بالقرب من مدينة رندة وفتك بحاميتها في ديسمبر 1481م.

ولما حدث الخلاف حول تولية العهد للسلطان أبي الحسن، وقع صراع بين زوجتيه عائشة الحرة وثريا الرومية وفرار الأميرة عائشة مع ولديها إلى وادي آش بمساعدة أنصارها 887هـ / 1482م. فاستغل الإسبان هذه الفرصة وهاجموا مدينة الحامة الواقعة جنوب غرب غرناطة في محرم 887هـ / فبراير 1482م. وحاول السلطان أبو الحسن استرداد هذه المدينة ولكنه اضطر إلى الانسحاب تحت تهديد قوات قشتالية جاءت لنجدة المدينة، ثم هاجم القشتاليون مدينة لوشة غربي الحامة ولكن تمكن السلطان من طرد المعتدين. غير أنه سرعان ما قامت في غرناطة ثورة ضدّ السلطان أبي الحسن مما اضطره إلى الهروب والالتجاء عند أخيه أبي عبد الله محمد المعروف بالزّغل حاكم مالقة. وجلس الأمير أبو عبد الله محمد على عرش غرناطة ووادي آش، وظلت مالقة على ولائها لولده وعمّه أبي عبد الله.

كان هدف النصارى الاستيلاء على مالقة ضمن سياسة تطويق غرناطة من كل الجهات، ولذلك سيّروا إليها حملة اشتبك المسلمون معها بالقرب من مالقة وتمكنوا من هزيمتها، وكان قائد المسلمين محمد بن سعد الزّغل، وتمّ قتل وأسر العديد منهم في صفر 888هـ / مارس 1483م. وقد عرفت هذه المعركة بالشرقية.

حاول الأمير أبو عبد الله محمد أن يحذو حذو عمه الزّغل، فهاجم هو الآخر النصارى في ربيع الأول 888هـ / أبريل 1483م بالقرب من قرطبة، واستولى على عدة مواقع. وفي طريق عودته اعترضه النصارى عند قلعة اللّسانة وهزموه وقتلوا وأسروا عدداً كبيراً من جنده كان منهم الأمير أبو عبد الله محمد، فاقتادوه إلى قرطبة حيث أودع في إحدى القلاع بعد استعراضه في المدينة أمام السكان. لذلك قرر سكّان وقادة غرناطة استدعاء السلطان المخلوع أبي عبد الله أبي الحسن ليعود إلى عرشه بدل ابنه الأسير، لكن نظراً لكبر سنه تنازل عن الحكم لأخيه محمد الزّغل أمير مالقة.

أما الملكان فردناند وإزابيلا فقد استغلا ظروف اعتقال أبي عبد الله محمد فعقدا معه اتفاقاً ملخصه الاعتراف بطاعة الملكين الكاثوليكيين وأن يدفع جزية سنوية وأن يفرج عن الأسرى النصارى عنده ويقدم رهائن منهم ابنه وأبناء بعض القادة والأمراء نظير إطلاق سراحه. وعليه أطلق سراحه في سنة 888هـ / 1483 بعد أن أخذت منه كافة المواثيق واستلام الرهائن.

وبهذه الخطة استطاع القشتاليون خلق صراع داخل مملكة غرناطة وحرب بين السلطان الأسير وعمه محمد الزّغل، وقاموا بالهجوم على حصن قرطبة وعدة حصون أخرى غربي مالقة، ثم زحفوا على مدينة رندة وتمكنوا من الاستيلاء عليها سنة 890هـ / 1485م، ثم سيطروا على عدة مواقع مهمة في تلك المنطقة مما أدى إلى السيطرة على مدينة رندة ذات الأهمية العسكرية، ولذلك انهارت وسائل دفاع المنطقة الغربية وأصبحت مالقة مهددة من جهة الغرب.

وفي الوقت الذي كان فيه الملكان الكاثوليكيان يضغطان على غرناطة، نشبت حرب أهلية أخرى داخل المدينة بين مؤيدي الزغل والأمير الأسير أبي عبد الله. وفي هذه الأثناء أطلق سراح أبي عبد الله الذي ذهب إلى منطقة بلش حيث أعلن

نفسه ملكاً وأخذ يدعو للصلح مع النصارى، وهذا ما كان يسعى إليه الملكان فردناند وإزابيلا من إثارة الفتنة. وقد شغلت هذه الاضطرابات أبا عبد الله الزغل الذي بذل جهداً كبيراً لإخمادها. وكان الإسبان أثناء هذه الحرب قد استولوا على عدة حصون وقلاع حول غرناطة.

استمرت المعارك بين أنصار الأميرين عدة شهور، وخلال ذلك استولى النصارى على مدينة لوشة وعدد كبير من الحصون شمال غرب غرناطة. وانضم أبو عبد الله محمد إلى ملك قشتالة، ثم ظهر فجأة في غرناطة في شهر شوال 891هـ / 1486م وأعلن أنه عقد صلحاً مع النصارى، وأن حليفه فردناند قد أمدّه بالرجال والعدة والذخائر والمؤن والأنفاط. غير أن هذا زاد الفتنة، وشدّد عبد الله الزّغل في ضغطه على أنصار أبي عبد الله محمد وكاد يقضي عليهم، لكن النصارى أرسلوا قوة إلى مدينة بلش في ربيع الثاني 892هـ / مارس 1487 وكانت هذه المدينة تعتبر حصناً لمالقة وسقوطها يؤدي إلى سقوط مالقة نفسها، لذلك اضطر الزّغل إلى مغادرة غرناطة للدفاع عن بلش، غير أن النصارى تمكنوا من احتلالها في جمادى الأولى 892هـ / أبريل 1487م وعاد الزّغل إلى غرناطة ليجد أبا عبد الله محمد قد سبقه إلى هناك واستولى على العرش في جمادى الأولى 892هـ / 28 أبريل 1487. وعليه اضطر الزّغل وأنصاره إلى التحول إلى منطقة وادي آش، وهذا ما كان يسعى إليه النصارى من تمزيق وحدة مملكة غرناطة تمهيداً لتوجيه الضربة الأخيرة إليها.

وهكذا عاد أبو عبد الله محمد سلطاناً على غرناطة ولكنه كان مكبلاً بشروط الملكين فردناند وإزابيلا. وقد ركز النصارى على ضرب الأمير الزّغل واحتلال مالقة الميناء الوحيد الذي كان متبقياً ومن خلاله كان يمكن أن تأتي المساعدات من المغرب، لذلك زحفوا بقوات كبيرة من البر والبحر في جمادى الثاني 892هـ / يونيو 1487م وفرضوا حصاراً عليها. وتحصن المدافعون المسلمون داخل المدينة وكان بها نخبة من المقاتلين الأشداء. وكانت المدينة لا تزال تدين بالولاء للأمير الزّغل. وكان حاكمها حامد الثغري الذي قاد دفاعاً بطولياً لكنه لم يستطع الاستمرار نظراً لنفاد الغذاء، فاضطر إلى التسليم بعد ثلاثة أشهر وفق شروط الأمان على النفس والمال. ودخل النصارى مالقة في آخر شعبان 892هـ / أغسطس 1487م، ولكنّ فردناند لم يحافظ على عهد أمانه فاعتبر كل سكان المدينة المسلمين رقيقاً وعليهم افتداء أنفسهم بدفع 30 دوبلا من الذهب.

وأمر بطرد كل المسلمين من المدينة التي تم نهبها من قبل قواته، ولذلك فرّ كل من استطاع منهم إلى وادي آش وعبر إلى المغرب. وتصف المصادر الإسلامية حالة مدينة مالقة: "وكان مصابهم مصاباً عظيماً تحزن له القلوب، وتذهل له النفوس، وتبكي لمصابهم العيون".

لم يتمكن الزغل من تقديم مساعدة عسكرية لمالقة لسببين: خوفه من ابن أخيه أبي عبد الله محمد سلطان غرناطة المتحالف مع النصارى، وكذلك لأن النصارى أرسلوا قوات لمحاربته في وادي آش. وكل ما فعله هو أنه أرسل وفوداً إلى حكام المغرب وإفريقية وسلطان مصر الأشرف قايتباي يطلب مساعدتهم لصد هجوم النصارى ضدّ بلادهم، ولم تصله أية مساعدة نظراً لظروف هذه البلدان الداخلية المضطربة. أما مصر فكل ما فعلته أنها أرسلت وفداً من القساوسة من القدس ذهب إلى البابا وإلى ملك نابولي لطلب الضغط على فردناند وإزابيلا بالتخلي عن سياستهم العدوانية ضدّ مسلمي الأندلس. وقد هدد السلطان قايتباي بإيذاء

المسيحيين وأماكن عبادتهم في بلاد الشرق إذا لم يتوقف الإسبان عن نشاطاتهم المعادية للمسلمين في الأندلس. وبالفعل وصل هذا الوفد إلى الأندلس وقابل الملكين الكاثوليكيين، وكلّ ما استطاع الحصول عليه منهما مجرد وعد بحسن معاملة المسلمين. وقد قالا للوفد: "إنهما لا يستطيعان صبراً على ترك أرض الآباء والأجداد في يد الأجانب، وإن المسلمين إذا شاءوا حياة في ظل حكمهما راضين مخلصين فإنهم سوف يلقون منهما نفس ما يلقاه الرعايا الآخرون من الرعاية". وهكذا تركت الأندلس تواجه مصيرها لوحدها ولم تتلق عوناً من أية جهة خارجية أخرى.

وتنفيذاً لسياسة قطع الاتصال بين الأندلس والمغرب لمنع أية إمدادات من مسلمي المغرب، تابع النصارى استكمال الاستيلاء على النقاط الساحلية مثل المرية والمنكب. وأخذ الملك فردناند يستولي على الحصون والقلاع وتطهير منطقة مالقة من المسلمين، ثمّ زحف في ربيع سنة 893هـ / 1488م على شرق مملكة غرناطة فاستولى على بيرة والبلشين وأشكر على الرغم من أنه كان يشملها الصلح الذي عقده أبو عبد الله محمد مع النصارى، وضرب حصاراً آخر على مدينة بسطة وكانت تعتبر أمنع قاعدة شرقي غرناطة، ثم قاد قواته إلى ثغر المنكب وحاصره، وكان قائده يسمى محمد بن الحاج الذي دافع بقوة عن هذا الميناء، ولكن بعد ثلاثة أشهر اضطر إلى طلب الأمان والتسليم في شهر محرم 895هـ / ديسمبر 1489، ولم يبق من الثغور إلا المريّة التي فرض عليها النصارى حصاراً برياً وبحرياً.

وعندما استكمل النصارى فرض الحصار على مملكة غرناطة وقطع اتصالاتها مع المغرب وإفريقية، بدءوا في تنفيذ المرحلة النهائية من القضاء على المسلمين بالأندلس، فبدأ أولاً القضاء على شرق غرناطة التي كان يسيطر عليها الأمير الزغل والذي كان موجوداً في وادي آش. وشدد النصارى الحصار على مدينة بسطة وهاجموها بشدة، وكان يتولى الدفاع عنها الأمير يحيى النيّار. وقد تمكن المسلمون من ردّ عدة هجمات لقوات النصارى، ولكن بعد مضي ستة أشهر استنفدت مقومات الدفاع عن المدينة واضطر قائدها إلى طلب الاستسلام والأمان له ولقومه، وحرر وثيقة تسليم المدينة للنصارى في 25 ديسمبر1489م.

وبعد سقوط مدينة بسطة تبعتها عدة حصون وقلاع ومواقع أخرى بالاستسلام، وغادر سكانها إلى وادي آش أو إلى غرناطة أو عبروا البحر إلى المغرب، واضطرت مدينة المرية آخر ميناء لغرناطة إلى الاستسلام في ربيع الأول 895هـ / فبراير 1490م، ثمّ اضطر كذلك الأمير عبد الله الزّغل إلى الاستسلام هو الآخر في أوائل شهر صفر 895هـ / 3 ديسمبر 1489م، وعبر البحر إلى المغرب حيث نزل في وهران ثم انتقل إلى تلمسان حيث قضى بقية حياته هناك ورافقه كثير من رجالاته وأنصاره.

وبعد التخلص من الأمير عبد الله الزّغل والسيطرة على وادي آش وشرق غرناطة، رأى الملكان الكاثوليكيان أنه قد حان الوقت لاحتلال مدينة غرناطة نفسها، ولذلك أرسلوا رسولين إلى أبي عبد الله محمد يطلبان منه تسليم المدينة حسب الاتفاق السابق بينهم. غير أن الأمير عبد الله غيّر رأيه ورفض هذا الطلب تحت ضغط القادة وكافة الناس في غرناطة، وكادت تقوم الحرب بين الجانبين. وقد حدثت مصادمات بين الجانبين مما جعل الملك فردناند وإزابيلا يحشدان جيشاً ضخماً في أوائل سنة 1490م قدّره المؤرخون بحوالي ثمانين ألف مقاتل من الفرسان والمشاة مزودين

بكل ما يلزم لحصار طويل. وفي 12 جمادى الآخرة 896هـ / 23 أبريل 1491م عسكر هذا الجيش على بعد فرسخين من غرناطة، وقام بتدمير الحقول التي تزود المدينة بالمواد الغذائية. وتأكيداً وإصراراً على احتلال غرناطة بنى الملكان الكاثوليكيان مدينة سموها سانتافيه Santa Fé (شنتفي) أو الإيمان المقدس، وهذا مما يؤكد الروح الصليبية لهذه الحروب. وعندما طال الحصار وكادت المؤن تنفد واشتد بالناس الجوع والبلاء ودب اليأس في قلوبهم، انقسموا إلى فريقين: الأول مُصر على استمرار المقاومة، والآخر مع التفاوض وقبول التسليم بشروط معقولة تؤمّن أرواح الناس وأموالهم ودينهم.

وقد غلب الفريق الذي اختار التفاوض والاستسلام، وكان على رأسه الأمير أبو عبد الله. وقد مثل جانب الرفض والمقاومة فارس الأندلس العربي المشهور موسى بن أبي الغسّان الذي قال عندما رأى تغلّب جانب المستسلمين: "ليعلم ملك النصارى أن العربي قد ولد للجواد والرمح، فإذا طمح إلى سيوفنا فليكسبها وليكسبها غالية. أما أنا فخير لي قبر تحت أنقاض غرناطة، في المكان الذي أموت مدافعاً عنه، من أفخم قصور نغنمها بالخضوع لأعداء الدين". وامتطى جواده الشهير وانقض على صفوف النصارى يقاتلهم حتى أثخنوه بالجراح هو وجواده واستشهد في سبيل بلاده.

وعندما انتصر فريق سياسة التسليم والخضوع للنصارى، كلف الأمير أبو عبد الله اثنيْن من وزرائه، وهما أبو القاسم عبد الملك ويوسف بن كماشة، بالتفاوض. وبعد عدة أسابيع من المفاوضات مع النصارى انتهى الجانبان إلى وضع معاهدة للتسليم وافق عليها الملكان ووقعت في 21 محرم 897هـ / 25 نوفمبر 1491م. وقد احتوت هذه الاتفاقية على 56 مادة، وملخصها أن يتم استسلام غرناطة للنصارى وفق ترتيبات تمّ الاتفاق عليها. وبالفعل تم تسليم المدينة في 2 ربيع الثاني 897هـ / 2 يناير 1492م.

أما الأمير أبو عبد الله محمد فقد غادر غرناطة وأقام لمدة عام في بلدة أندرش التي أقطعها له النصارى، ولكن بعد عام أمر الملكان الكاثوليكيان بطرده إلى المغرب، فغادر الأندلس في بداية شهر أكتوبر 1493، وأقام لبعض الوقت في أمليلة، ثم انتقل إلى فاس حيث عاش فيها إلى أن توفي سنة 940هـ / 1537م.

ولكن الملكين الكاثوليكيين لم يحترما وعودهما ولا الاتفاقية التي وقعاها مع الأمير أبي عبد الله محمد، فسرعان ما نفذا اضطهاداً دينيا ضدّ المسلمين لم يسبق مثله في التاريخ، وأجبر المسيحيّون الكثير منهم على التنصر، وأنشئوا محاكم التفتيش المشهورة، وطردوا حوالي مليون شخص من ديارهم إلى المغرب. وقد نتج عن هذا كله مأساة عرفت بمأساة الموريسكيين كانت لها نتائج خطيرة في غرب المتوسط وعلى العلاقات بين المسلمين والنصارى لمدة طويلة، ولا تزال آثارها تتردد في أذهان المسلمين إلى اليوم.

أ.د. إدريس الحرير
جامعة قاريونس

المصادر والمراجع

أولاً - المصادر :

- ابن الأبّار أبو عبد الله محمد القضاعي، (ت. 658هـ / 1260م) : التكملة لكتاب الصلة، نشره السيد عزت العطار، القاهرة: مطبعة السعادة، 1955.
- ابن أبي زرع، أبو الحسن علي عبد الله، (ت. 726هـ / 1326م) : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ج2، حرره محمد الهاشمي الفيلالي، الرباط: المطبعة الوطنية، 1936.
- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي، (ت. 630هـ / 1232م) : الكامل في التاريخ، 13 جزءاً، بيروت، 1965.
- الإدريسي، أبو عبد الله محمد، (ت. 548هـ / 1154م) : صفة المغرب والسودان ومصر والأندلس. نشره دوزي ودي خويه، ليدن: بريل، 1864.
- ابن بسّام، أبو الحسن علي (ت. 542هـ / 1147م) : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أربعة أقسام، تحقيق إحسان عباس، ط 2، بيروت، 1979.
- ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك، (ت. 578هـ / 1182م) : كتاب الصلة، القاهرة الدار المصرية، 1966.
- البكري، أبو عبيد بن عبد العزيز، (ت. 487هـ / 1094م) : جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك، حققه عبد الرحمن الحجي، ط 1، بيروت، 1968.
- الحميري، أبو عبد الله محمد، (ت. 866هـ / 1461م) : صفة جزيرة الأندلس، حققه ليفي بروفنسال، القاهرة، 1937.
- ابن حيّان القرطبي، أبو مروان بن خلف (ت. 479هـ / 1076م) : المقتبس من أنباء أهل الأندلس، حققه محمود علي مكي، القاهرة: مطابع الأهرام، 1971.
- ابن الخطيب، لسان الدين محمد، (ت. 776هـ / 1374م) : أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، حققه ليفي بروفنسال، بيروت، 1956.
- ابن الخطيب، لسان الدين محمد، (ت. 776هـ / 1374م) : الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عنان، القاهرة، 1973.
- ابن خلدون ، عبد الرحمن ، (ت. 808 هـ / 1406م) : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1968.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين، (ت.681هـ / 1287م) : وفيات الأعيان وأنباء الزمان، حققه إحسان عباس، بيروت، 1968.
- ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي (ت. 685هـ / 1286م) : المغرب في حلى المغرب، حققه شوقي ضيف، القاهرة: دار المعارف، 1964.
- السّلاوي، أبو العباس أحمد الناصري، (ت. 1297هـ / 1897م) : الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، حققه جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، 1954.
- ابن عذاري المراكشي، (ت. 712هـ / 1312م) :

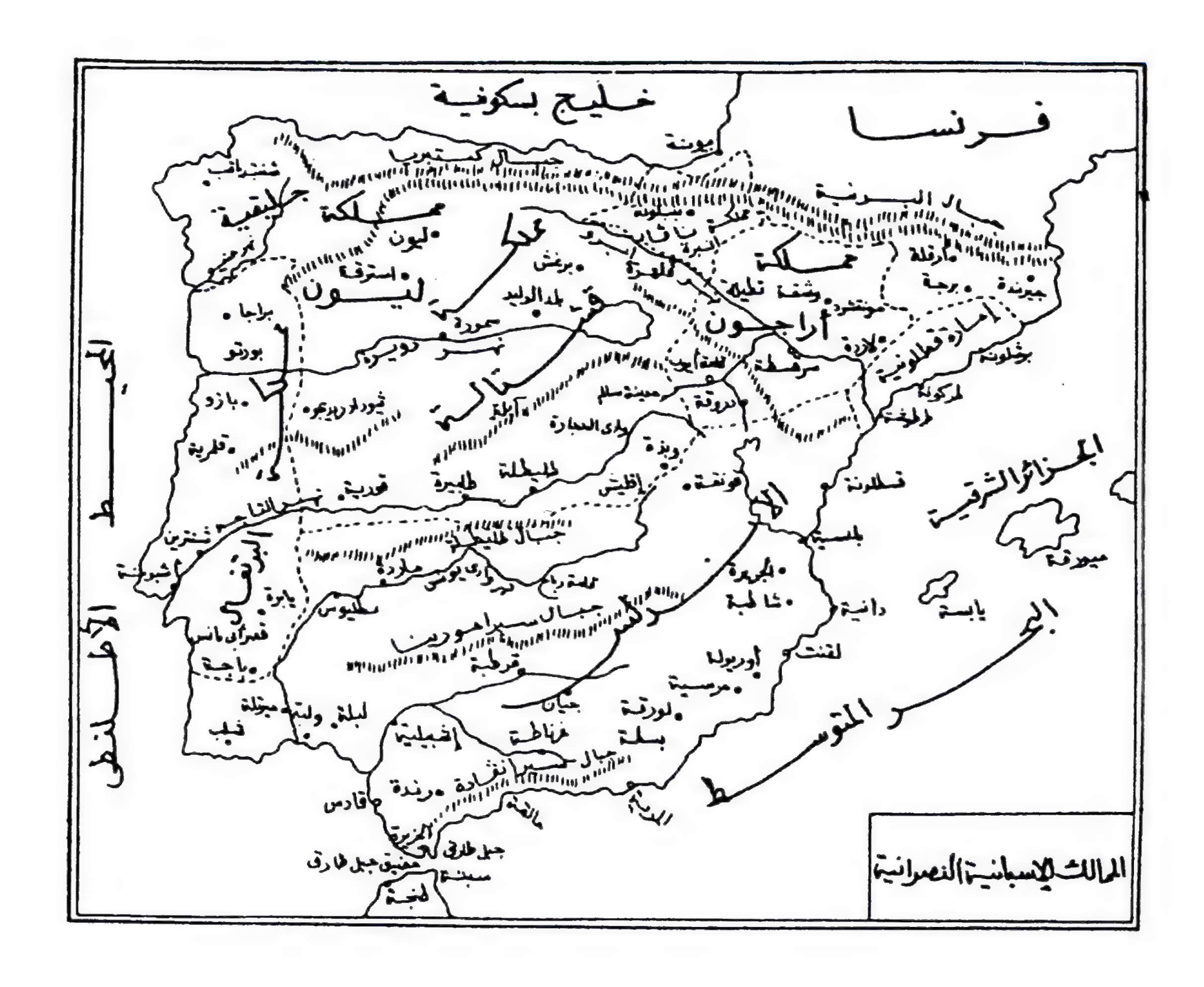
البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، حققه ج كولان وليفي بروفنسال، ط 2، بيروت، 1980.
- ابن الكردبوس، أبو مروان عبد الملك (عاش في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي) : تاريخ الأندلس، حققه أحمد العبادي، مدريد، 1971.
- مجهول : نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، نشر معهد فرانكو، 1940.
- المراكشي، عبد الواحد محيى الدين (ت 621هـ/ 1224م) : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، القاهرة، 1914
- المقري، أحمد بن علي التلمساني، (ت. 1041هـ / 1631م) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، حققه إحسان عباس، بيروت، 1968.

ثانياً - المراجع العربية والمعربة :

- أشباخ، يوسف : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، تح محمد عنان، ج 1 القاهرة: لجنة التأليف والترجمة، 1940.
- بشتاوي، عادل سعيد : الأمة الأندلسية الشهيدة، بيروت: المؤسسة العربية، 2000.
- الخادم، سمير علي : الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، بيروت: مؤسسة دار الريحاني، 1989.
- دوزي، رينهرت : نظرات في تاريخ الإسلام، بيروت: دار بيبليون، 2005.
- سالم، سحر عبد العزيز : تاريخ بطليوس الإسلامية أوغرب الأندلس في العصر الإسلامي، ج2، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1961.
- صالح، نادية مرسي : العلاقات الإسلامية المسيحية في إسبانيا، عهد الملك ألفونسو الأول، القاهرة: مؤسسة عين للدراسات، 2000.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح : الحروب الصليبية ج 1، 2 القاهرة، 1963.
- العبادي، أحمد مختار : في تاريخ المغرب والأندلس، بيروت: دار النهضة، 1978
- عنان، محمد عبد الله : دولة الإسلام في الأندلس، دول الطوائف، القاهرة: الخانجي، 1997.
- عنان، محمد عبد الله : دولة الإسلام في الأندلس ، عصر المرابطين، القاهرة: الخانجي، 1995.
- عنان، محمد عبد الله : دولة الإسلام في الأندلس، عصر الموحدين، القاهرة: الخانجي، 1995.
- عنان، محمد عبد الله : دولة الإسلام في الأندلس، نهاية الأندلس، القاهرة: الخانجي، 1997.
- النشّار، محمد محمود : دراسات في تاريخ الحروب الصليبية والأندلس، القاهرة: عين للدراسات، 2003.
- النشّار، محمد محمود : علاقة مملكتي قشتالة وأراغون بسلطنة المماليك 658-741هـ / 1260-1341م ط 1 القاهرة عين للدراسات، 1977.
- اليوسف، عبد القادر : علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر، بيروت، 1969.

ثالثاً ـ المراجع الأجنبية :

- Atiya, A.S. : Egypt and Aragon, Leipzig, 1938.
- Atiya, A.S. : The Crusade in the later days London, 1938.
- Chaytor, H.J. : A History of Aragon and Catalonia, London, 1948.
- Dozy, R. : Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête des Almoravides, Leyden, 1932.
- Glick, F. : Islamic and Christian Spain in the early Middle Ages U.P., 1979.
- Jackson, G. : The Making of Medieval Spain, California, 1970.
- Mackay, A. : Spain in the Middle Ages, London, 1977.
- Mead, J. : The Moors in Spain and Portugal, London, 1975.
- O'Callaghan, J. F. : A History of Medieval Spain, London, 1975.
- Payna, S. G. : A History of Spain and Portugal, Wisconsin Press, 1943.
- Shneidman, J. L. : The rise of the Aragonese, Catalan Empire (1200-1350) vol. 1, New York, 1970.
- Watt M. : A History of Islamic Spain, Edinburgh the University Press, 1965.



المصدر : محمد النشار، علاقة مملكتي قشتالة وأراغون بسلطنة المماليك، ص 301

3 - الحياة الاقتصادية والاجتماعية

تمتدّ الحقبة المشار إليها بين سنة 443هـ / 1051م وسنة 555هـ / 1160م، أي إن نهايتها تعادل، تقريباً، سنة وفاة العاهل الموحّدي عبد المؤمن الكومي. فهذا من حيث الزمن. أما من حيث الرقعة المحورية للأحداث، فهي الأندلس التي شهدت تقلصا تفاقم في عصر الطوائف بفقدان عدد من المدن والمراكز خصوصا فيما بين 456هـ / 1064م و 489هـ / 1096م، ومن أهمها: وادي الحجارة، ومجريط، وقلمرية، وطليطلة، ووشقة.

وفي سنة 511هـ / 1117م سقطت تطيلة، وفي السنة بعدها سقطت سرقسطة، وعند انهيار الحكم المرابطي انقض البرتغال على كل من لشبونة وشنترين، والأرغونيون على طرطوشة، فيما بين (542-543هـ / 1147-1148م).

فضياع هذه المراكز وغيرها في هذه الفترة بالذات، اضطر مئات الأسر إلى النزوح إلى جهات أخرى، داخل الأندلس وحتى خارجها قبل أن تستفحل حركة الاسترداد منذ القرن 12م. غير أن معظم المناطق الخصبة ظلت بيد الأندلس كما هو الشأن في عدد كبير من الموانئ ومراكز المواد الخام كالخشب والمعادن، وبذلك فالاقتصاد الأندلسي لم يشهد تراجعا كليا في مقدراته، بل إن المهارات الأندلسية تفتقت عن المزيد من العطاء في عدة ميادين.

أولاً - الحياة الاقتصادية :

الفلاحة :

تميزت مناطق أحواض الأودية بكثافة إنتاجها وتنوعه، على الرغم من أنها ظلت مهددة باستمرار، من جانب الممالك المسيحية. لكن حماية الأرض في زمن المرابطين ظلت منيعة إلى حين ظهور الدولة الموحدية التي كان عليها أن تواجه صراعات طويلة داخل التراب الإيبري وخارجه.

وكما كان الشأن في العصر الأموي، فهناك أراضي الخواص، وأراض وقفية، وأخرى تابعة للدولة يشرف عليها موظفون ماليون. ويقطع الجند أراضي لاستغلالها والتعيش منها، حيث توجد الحصون والقلاع التي على الجند حمايتها شأن المناطق المحيطة بها. وهذا النظام عرفته دول كثيرة منذ العصر القديم. وقد دعا ابن حزم إلى أن تتكفل الدولة القائمة، بتشجيع السكان على العمل الزراعي وتمليكهم أراضي يتولون تدبيرها. ونقل عنه ابن الأزرق في بدائع السلك قوله: "... يأخذ السلطان الناس بالعمارة وكثرة الغراس، ويقطعهم إقطاعات في الأرض الموات، ويجعل لكل أحد ملك ما عمره، ويعينه على ذلك، لترخص الأسعار، ويعيش الناس والحيوان، ويعظم الأجر، ويكثر الأغنياء، وما تجب فيه الزكاة".

وكان التقسيم المناخي للأندلس منذ العصر القديم يجعل من هذه البلاد قسمين:

1- شرقي يمتدّ بين تدمير (منطقة مرسية) وسرقسطة، وتصب أوديته بالبحر الرومي (الأبيض المتوسط)، وهو يمطر بالريح الشرقية ويساعد على نمو النباتات.

2- غربي تنحدر جباله باتجاه الغرب، وأوديته تصب بالمحيط الأطلسي أو بحر الظلمات كما كان يعرف لدى الجغرافيين العرب والمسلمين. وإذا استحكمت الريح الغربية كثر مطره، وقحط الجانب الشرقي، والعكس بالعكس.

وغالبا ما تجمع المناطق الخصبة بين مزروعات متنوعة، لاسيما إذا توفر الماء، وربما اختصت ضيعات بالحبوب وأخرى بالمزروعات المسقية بالدواليب. ومن أهم المناطق الزراعية :

1- فحص بلاطة بين لشبونة وشنترين. وقد اشتهر بسرعة إنتاج بذور الحنطة التي تحصد بعد أربعين يوما من زرعها، ومردودها مائة مرة، وأكد ذلك كل من الإدريسي والحميري.

2- فحص قرمونة شرقي إشبيلية تميز بخصوبته، مع كثرة قراه وتجمعاته السكنية ووفرة مياهه.

3- ضواحي المرية، لاسيما منطقة بجانة القريبة منها والتي تكثر جناتها وفواكهها، وولاية الغنية بالحبوب الزراعية.

4- منطقة الشرف، التي تجاور إشبيلية على امتداد 65 كم من الشمال إلى الجنوب، و20 كم عرضا. وهي أخصب مناطق الأندلس وأغزرها إنتاجا. وتضمّ أنواعا مختلفة من المزروعات، بما في ذلك قصب السكر والقطن. وهذا بالإضافة إلى المراعي التي تمتد على عدة فراسخ، مع ما يضمه الوادي الكبير من أنواع السمك. كما تكثر الدواب والأغنام مع توفر المراعي. وكان قطن المنطقة يصدر إلى المغرب الأدنى وسجلماسة وما وراءها من إفريقيا الغربية. كما يغزر إنتاج التين والعنب الذي تفسر كثرة إنتاجه، استهلاك شطر كبير من السكان للخمر. وأشار ابن خلكان إلى الاكتفاء الذاتي لإشبيلية، من الطعام والشراب واللباس والفراش وغير ذلك. وقدرت ضياعها باثنتي عشرة ألفا حسب مؤلف نخبة الدهر الذي هو متأخر عن الحقبة. وكان الزيتون (الشرف) قيمة غذائية كبيرة، مع جودة طعمه ومقاومته للرطوبة، حتى قيل إنه كان يحتفظ بجودته بعد خزنه سنين طويلة قد تبلغ الثلاثين سنة. ويشحن الزيت إلى داخل الأندلس وخارجها. وسميت المنطقة بالشرف لإشرافها على إشبيلية.

ومن ثمار إشبيلية ذات الجنس المشترك: النارنج، والليم، والليمون، والزنبوع، وكلها من نفس الفصيلة. وكل هذه المصطلحات ظلت متداولة بفاس إلى ما بعد استقلال المغرب سنة 1956.

أما مزارع الكروم فكانت بجهات أخرى، إضافة إلى مزارع (الشرف)، مثل جيان وأبذة (Ubeda) الواقعة قرب الوادي الكبير جنوب شرقي ليناريس. وكان إنتاج سرقسطة من الفواكه يتجاوز حد الطلب، بالنظر لغزارته، حتى كان الفلاحون يحولون الفائض منها إلى سماد وكان وسق التفاح، أي ما يزيد عن قنطار، يعادل ثمنه بضعة أرطال في غير سرقسطة. أما تفاح شنترة Sintra (بالبرتغال) فقد كانت بعض حباته الضخمة يبلغ قطرها أربعة أشبار. ويوجد الزعفران بعدة جهات كضواحي بلنسية وبياسة التي يشحن زعفرانها برا وبحرا. ويعدّ زعفران طليطلة من أجود الأنواع. وهي أيضا تحفظ غلالها لسنين طويلة في مطاميرها دون أن تتغير. وهذا يعني خلوها كليا من الرطوبة. وإلى ذلك عرفت بكثرة بقرها وغنمها مع سمنها، وكانت ترعى بجبل الشارات، ويقوم الكسابون من شتى الأنحاء بتسويقها.

ويعدّ التين فاكهة شعبية اعتنى الأندلسيون بزراعتها على نطاق واسع بمدن ومناطق مختلفة، كما هو الشأن فيما بين قرطبة وإشبيلية وبمالقة وشريش.

وقد عمل الفلاحون حسب تخصصاتهم على استغلال كل الإمكانيات والمواد المتاحة، وتحسين الإنتاج نوعا وكما، حتى إنهم حاولوا أن يستغنوا قدر الإمكان عن استيراد الحرير، فعملوا على تربية دود القز وإنتاج الحرير منه. وكان بجيان وحدها ثلاثة آلاف ضيعة في هذه الفترة. ولقنت Alicante على صغرها كانت نشيطة في المجال الزراعي وتصدر الحلفاء، وتهتم بإنتاج البقول والأعناب والفواكه.

وإذا كان المجتمع الأندلسي نشيطا في مجال الإنتاج والتدبير الاقتصادي عموما، فهو أيضا مجتمع استهلاك، بحكم أن نجاح الإنتاج هو نجاح للاستهلاك، دون أن يتعارض ذلك مع ميل الأندلسيين اضطرارا إلى الادخار وحتى الاقتصاد بالنسبة للفئات الأقل دخلا. ومما يعزز ظاهرة الاستهلاك توفر الأرحاء بكثرة لطحن الحبوب. وعدد من المدن الساحلية والواقعة على ضفاف الأنهار قد تتردد حولها مراكب مجهزة بالأرحاء التي تحركها الطاقة المائية، مثل أرحاء مرسية وسرقسطة. وهذه الأخيرة كانت مراكبها تتنقل من مكان لآخر. ولا يكاد نهر يخلو من أرحاء بقدر حاجة السكان كما هو الشأن في نهر باغة فيما بين قرطبة ومالقة، وفي الوادي الكبير حول قرطبة.

وإذا كانت الجهود قد بذلت في مجال التنمية الزراعية منذ وقت مبكر من العصر الأموي، فإن تجارب علماء النبات والفلاحة بالأندلس خلال القرنين الخامس والسادس، والتي توبعت لاحقا في القرن الـ 7هـ / 13م، أعطت مثلا يكاد يكون فريدا عبر المنطقة المغاربية قاطبة، في مواكبة الخبرات العلمية وتطويرها للمهارات المتوارثة. فابن بصال الطيطلي في القرن الـ 5هـ / 11م يكتب عن تجاربه وملاحظاته التي دوّنها في كتابه (الفلاحة) والتي شملت كلا من الأندلس ومصر وسوريا وصقلية، بما في ذلك الطرق المستعملة لزراعة القطن وهي تختلف فيما بين هذه الأقطار، وعمليات تلقيح الثمار، وطرق غراسة النخيل والبقول وما إلى ذلك. وفي القرن الـ 6هـ / 12م كتب ابن العوام الإشبيلي يحيى بن محمد كتاباً في الفلاحة جمع بين التجارب النبطية القديمة وتجاربه الخاصة بالأندلس. وقد نوّه ابن خلدون بعمل ابن العوام. وفي هذا القرن أيضا كتب أبو الخير الإشبيلي بنفس العنوان حول أبواب مختلفة كالتربة وأنواعها، وتحويط البساتين، وحفظ الحبوب والفواكه، وتقنيات غراسة النخيل، ومواقع المياه، ومسائل زراعية مختلفة.

لكن وضع المزارع والبساتين لم يكن مريحا باستمرار حتى في ظل المرابطين بعد وفاة يوسف بن تاشفين، حيث تظافرت الكوارث الطبيعية والأوبئة والهجومات النصرانية على تدمير ما جهد المزارعون في إعداده للحاضر والمستقبل، من غلات زراعية وأشجار فواكه وما إلى ذلك. ومن هذه الكوارث وأعمال التدمير:

سنة 524هـ / 1130م: جمعت بين الوباء والمجاعة بسبب القحط وهجوم القشتاليين على منطقة الشرف، ثم على يابرة في السنة التالية. وتأثرت قرطبة من الوباء خاصة، وارتفعت الأسعار فيها بشكل مقلق، وأغار القشتاليون على قرى إشبيلية وقتلوا عدة أشخاص.

وفي عام 529هـ / 1134م فاجأ النصارى جيشا بقيادة تاشفين بن علي وهو بأليسانة Lucena باتجاه طليطلة للإغارة على هذه المدينة،

وفتكوا بعدد من الجند المرابطي وحصل النصارى على غنائم هذا الجيش، بالرغم من ثبات تاشفين وقليل من جنده. وقد عرف تاشفين بشجاعته وحنكته. وفي نفس السنة تسلط الجراد على حقول الأندلس واتصل محقه للمزروعات على فترات فيما بين (527هـ / 1133م و531هـ / 1137م).

وفي سنة 543هـ / 1248م حوصرت إشبيلية برا وبحرا على يد علي بن عيسى بن ميمون بعد نهاية دولة المرابطين، وعمت الفتنة الأندلس، وأقفرت الطريق بين إشبيلية وطريف، وبالتالي توقف نشاط المزارع حولها. وحتى بعد دخول الموحدين إلى مراكش فقد مرت عدة سنوات وهم يفتحون مدن الأندلس واحدة بعد أخرى، مما يدل على مدى الخسائر التي تكبدها الاقتصاد الأندلسي عموما والنشاط الفلاحي وحركة النقل خاصة.

على أن الحركة الاقتصادية تبقى في مجملها أنعم بالاستقرار والأمن قبل سنة 537هـ / 1142م منها في الحقبة اللاحقة، بل إن هذه الحركة كانت أكثر ازدهارا لأسباب أخرى أيضا:

1- مراقبة المرابطين لطريق الذهب بدءا بمناجمه إلى أماكن ترويجه مصوغا وخاما.

2- لفترة ناهزت نصف قرن ظلت سلطة المرابطين قوة رادعة ضد التوغل المسيحي، ولم تؤثر المناوشات العابرة في هذا التفوق بشكل أشد خطورة إلا بعد علي بن يوسف.

3- خلال القرن (6 / 12م) هيمنت أساطيل إيطالية ونرمانية وقطلونية على حركة النقل البحري عبر بحر الروم (الأبيض المتوسط)، ومن ثم بدأ العدّ العكسي للقوة البحرية التجارية الإسلامية وأصبحت الكفة تميل، بصفة ملموسة، إلى الأساطيل الأوروبية.

الصناعة :

تعدّ المعادن إحدى أهم المواد الخام التي تعتمد عليها الصناعات، وهي على العموم لم تتغير مواقعها الرئيسية كما عرفها العصر الأموي، لكن الذي يهم هنا هو الإطار الجغرافي للأندلس فيما بين منتصف القرن الخامس هـ / 11م ومنتصف القرن 12م، وهذه جملة من المواقع ومعادنها في هذا الإطار :

1- الذهب بساحل لشبونة، وكان البحر المحيط يقذف به تبرا في فصل الشتاء. ولم يكن هذا الذهب يسدّ حاجيات الأندلس؛ ومن ثم كان اللجوء إلى الاستيراد من السودان، لكن يفترض أن بعض المدن القديمة نشأت حول المعادن مثل قرطبة ولشبونة.

2- منطقة قرطبة كان من معادنها الزئبق بمسطاسة من فحص البلوط الذي يتوفر أيضا على الحديد ومقاطع الرخام الأبيض غربيه. ويوجد الرخام الجيد بجوار المرية كذلك. بينما يوجد الحديد بعدة جهات خصوصا شمال المنطقة، وبجانة من أعمال المرية، وهو الذي ساعد على إنشاء وتطور ترسانتها الضخمة، وفيما بين شاطبة ودانية.

3- الزئبق شمال قرطبة

4- الفضة بمنطقة تدمير وبجانة التي يوجد بها الحديد أيضا. وأشار ياقوت إلى خراب بجانة، كما يبدو من كلام الإدريسي الذي أكد أن المرية شهدت تقهقرا بعد المرابطين، أي خلال فترة من حكم الموحدين.

وهناك معادن أخرى كالنحاس والملح والرصاص، وبالطبع توجد مواد خام أخرى كالخشب وجلود الحيوان والقطن ومواد الصباغة وما إلى ذلك، مما يدخل في صناعات مختلفة وكثيرة.

ومن أهم الصناعات :

1- المنسوجات : وتمثل إحدى أكثر الصناعات ازدهارا، حيث تشمل كل ما ينسج من ثياب وملابس وزرابي وغيرها. ويبدو أن المدن الكبرى والمتوسطة كانت كلها أو معظمها تتوفر على معامل النسيج. فالمرية تصنع بها الحلل الموشاة النفيسة. وكان بها ثمانمائة طراز لطرز الحرير. وذكر الإدريسي بهذا الصدد أنواعا من المطرزات الرفيعة التي كانت تنتجها هذه المعامل، مثل الحرير والديباج والأصبهاني والجرجاني والستور المكللة والخمر وصنوف أنواع الحرير. وكانت تنافسها كل من مالقة ومرسية التي تميزت باشتمالها على كل ما تحتاج إليه العروس من جهاز. وتنتج البسط التي يشحن منها إلى الشرق. وكذلك اختصت بلنسية بالنسيج المنسوب إليها والذي يصدّر إلى أقطار المغرب. أما منطقة جيان فتزود المعامل بالحرير، بينما انفردت سرقسطة بمنسوجات السمور، وعرفت بالسرقسطية. وتصنع من وبر حيوان السمور (من دواب حوض البحر الأبيض المتوسط).

2- صناعة الحليّ: ويعدّ الذهب المحلي، والمجلوب من السودان عن طريق المغرب، المادة الخام الرئيسية في مجال الصياغة التي يشتغل بها كل من المسلمين واليهود. والأندلس غنية بالحجر النفيس الذي يدخل في الصياغة والبناء والتحف. ويوجد اللؤلؤ بلشبونة، وحجر المرقسيطة الذهبية بأبذة Ubéda. وأهم المصاغات بقرطبة وإشبيلية. وكانت توجد مواقع للذهب غير لشبونة لكنها كانت خارجة عن نفوذ المرابطين ثم الموحدين باستثناء لاردة ووادي التاج، ودخلت الفضة في المصوغات أيضاً، وهناك مناجم أخرى للفضة غير ما تقدم، وهي بالحامة ومنطقة باجة وشنترة.

3- صناعة الخشب: وتدخل في بناء السقوف، والرفوف، والأواني، والأبواب والنوافذ والأثاث المنزلي، وغير ذلك. كما أن نقش الخشب وترصيعه يعدّ من أهم سمات الفن الأندلسي المتأثر بالفن الشامي والابتكار المحلي. ويساعد على ازدهار الصناعات الخشبية كثرة الأشجار الغابيّة الصالحة، والإقبال المتزايد على الإنتاج الأندلسي. وعلى سبيل المثال، فإن الغابة المجاورة لقيحاطة، والمتصلة ببسطة، كان يصنع من خشبها الأطباق والقصاع وغيرها مما يستهلك بالأندلس ويصدر إلى أقطار المغرب.

على أن أهم الصناعات الخشبية ذات المردود الكبير بطرق مباشرة وغير مباشرة، هي صناعة السفن التجارية التي تستقطب يدا عاملة كثيرة كما هو الشأن في السفن الحربية. وإلى جانب ذلك فإن دور السفن التجارية في حركة النقل البشري والتجاري لا ينكر من حيث ضرورته وترويجه لرؤوس أموال كبيرة. وقد كان القرن 6هـ/ 12م أهم حقبة لنشاط بناء السفن في تاريخ الأندلس بعد العصر الأموي. وليس هذا فحسب، بل إن الخبرات الرئيسية في المجال البحري كانت للأندلسيين بالذات. ومنهم كان قادة الأسطول الحربي أيام المرابطين والموحدين.

وكانت غابة قلصة القريبة من لقنت Alecante تتوفر على غابة من شجر الصنوبر الذي يغطي جبالها المترامية، فيقطع الخشب ثم يؤتى به في نهر قلصة إلى أن يستقر عند حصن في طريق دانية، ثم يحمل جزء منه في المراكب إلى دانية لصناعة السفن، وجزء آخر يحمل إلى بلنسية لاستعماله في المباني.

ويدلّ هذا الاستغلال المنتج لمادة الخشب، ونقله بكل الطرق الممكنة، على ما كانت تحتله هذه

الصناعة في المجالات الاقتصادية والحياة الاجتماعية.

4- صناعة الأسلحة: استوجبت الحروب والصدامات المسلحة، الحصول باستمرار على الأسلحة بشتى أنواعها، لاسيما أسلحة تدمير الأسوار والأبراج، وأسلحة المواجهة الكثيفة. وقد استعمل الأندلسيون مختلف الأسلحة المتعارفة، بما فيها ما كانت تستعمله الممالك المسيحية، مثل أسلحة الرمي والطعن والأسلحة الوقائية. فكانوا يحاربون بالترس والرمح الطويل أو القصير، وبالمزاريق التي مهر السودان في صنعها واستعمالها، والقسي العقارة، وهي أسلحة إفرنجية من أسلحة الرمي. ومن الأسلحة الوقائية العريقة، الدرق اللمطية، نسبة إلى حيوان اللمط القريب في شكله من الجاموس، ومن جلده القوي كانت تصنع هذه الدرق. واستكثر عبد المؤمن الكومي من السهام التي كانت تصنع بجميع المناطق الموحدية، بمعدل عشرة قناطير يوميا. وتشارك مراكز عديدة في صنع الأسلحة بكل من المغرب والأندلس، كسبتة وفاس ولمطة ومراكش، وإشبيلية والمرية وغرناطة. وهناك آلات الحصار، من منجنيقات، ورعادات، وأبراج خشبية وغيرها. وقد كانت الأندلس تتوفر على مئات الحصون والمواقع الدفاعية. واتخذ الموحدون من إشبيلية مركزا لخزن الأسلحة وتوزيعها. وفي ضرب شلب Silves (من عمل إشبيلية)، سنة 587هـ / 1191م كان المقاتلون يهاجمونها برا وبحرا، وأطلقوا عليها قذائف المنجنيقات، وكان عددها أربعة عشر تضرب في وقت واحد، مما يؤكد عناية الموحدين بالأسلحة الهجومية التي شاركت الأندلس في صنعها فضلا عن تخزينها.

5- الوراقة والورق: إذا كانت الوراقة حرفة، فإن إنتاج الورق صناعة استأثرت بها بعض المدن، مثل شاطبة التي كانت تحظى بالأولوية في هذا المجال، ومدن أخرى خصوصا مالقة ومرسية. ويرتبط الورق أحيانا بصناعات وحرف أخرى كالتجليد والدباغة والزخرفة وما إلى ذلك.

وقد واجهت بعض المدن الصناعية حملات قشتالة وغيرها من الممالك المسيحية، وتأثرت الحركة الاقتصادية لذلك، خصوصا بالمرية التي سقطت في يد قشتالة لسنوات خلال فراغ السلطة بعد المرابطين. وسجل الإدريسي بشيء من التأثر خرابها وتقهقرها الاقتصادي في هذه الفترة قبل أن يسترجعها الموحدون أيام العاهل عبد المؤمن.

التجارة :

هذا القطاع هو عصب الحركة الاقتصادية بالأندلس منذ العصر الأموي الذي فتح الباب للتبادل الحرّ مع تجار الأقطار العربية والمسلمة، ودخلت في هذه الحركة عناصر يهودية من راذان الفارسية، فضلا عن تجار إيطاليا والقوقاز وغيرهم.

ولم تتوقف حركة التبادل بل اتسعت عبر المشرق والمغرب والسودان. وتتوفر مدن الأندلس على أعداد كبيرة من الفنادق لاستقبال النزلاء من الداخل والخارج. وحيث إن المجتمع الصحراوي يميل إلى العمل التجاري بحكم الضرورة، فإن المرابطين جعلوا من المرية لا ميناء عسكريا كبيرا فحسب، بل مركزا أساسيا لتجارة التبادل أيضا. ومن ثم تكاثرت فنادقها التي بلغت حسب الإدريسي 970.

وكشأن عامة المدن العربية والإسلامية التي تتنوع بها الحرف، فإن الورشات ودكاكين الحرف تتوزع بين سماطات يختص كل منها بحرفة معينه، كدكاكين الصباغة والعطارين والسراجين ...إلخ،

وتتحلق هذه السماطات حول الجامع الأكبر على غرار ما كان عليه الأمر حول الجامع الأموي بدمشق منذ القرن الهجري الأول، بينما لم تنظم السماطات المهنية بأوروبا إلا منذ القرن العاشر م.

وأهم الموانئ التجارية التي توجد ببحر الروم هي المرية ومالقة ودانية ومرسية وبلنسية، ثم الجزيرة الخضراء جنوبا، وشلب وإشبيلية ولشبونة قبل سقوطها بيد البرتغال، وهي وغيرها تناولها الشريف الإدريسي. وأشار عبد الواحد المراكشي إلى بعضها لاحقا، لأن منها ما استولت عليه الممالك الإيبيرية المسيحية.

وتعدّ بلنسية من المرافئ المهمة التي تنشط حركتها التجارية برا وبحرا، مع وقوعها على نهر يصبّ في بحر الروم على بعد حوالي خمسة كيلومترات، وتزدهر بنشاطها الزراعي وحركتها التجارية الواسعة. واشتهرت المنطقة حولها بإنتاج الزعفران، لكن المزارعين كانوا يسمّدون الأرض بالبراز الإنساني، ولذلك لم تكن بلنسية تتوفر على كنف. وهذه ظاهرة كانت معروفة بمدن أخرى مغاربية.

أما دانية فأصبحت ذات شأن منذ أوائل القرن الـ 5هـ / 11م حيث جددت ترسانتها وتقوّى أسطولها على يد مجاهد العامري، كما بسطت سلطتها على الجزر الشرقية، بل إنّ دانية أصبحت في أيام الإدريسي ميناء دائب الحركة، مقصودة من التجار عن طريق البحر، كما كان لها شأن في إشعاع المعارف العربية والإسلامية. وتطورت مرسية معماريا وتجاريا بشكل ملموس، مع أنه لم يكن لها وجود إبان الفتح الإسلامي وازداد نموها لاحقا في أيام بني الأحمر.

وتطورت الجزيرة الخضراء بدورها. وقد ازدادت مكانتها أهمية في حركة النقل التجاري والعسكري بين الأندلس والعدوة الجنوبية، منذ القرن الـ 5هـ / 11م. وخلال هذا القرن بالذات ثم الذي يليه، نشط التبادل التجاري أكثر فأكثر، بين الأندلس وبلدان البحر المتوسط وغيرها. واشترك في التبادل التجاري أفراد كثيرون من المشرق، وينتمون غالبا إلى فئة المثقفين. وهذه الفئة كانت تعزف عن الوظائف العامة لما تفرضه من قيود، أو لأن بعضها لا تسدّ ضرورات الحياة لمن يتقلدها. ومن بين هذه الفئة المثقفة: نصر بن شعيب الدمياطي من علماء العربية، ومحمد بن عبد الله بن طالب الظاهرين من العراق، ومحمد بن سليمان الخولاني من أدباء العراق، وهذا بالإضافة إلى أعداد كبيرة من المغاربيين، كما أن الأندلسيين يتنقلون تجارا وطلابا ومهاجرين.

وهكذا ربطت الأندلس علاقات دولية حقيقية، وشهدت تجارتها مع الخارج، عن طريق قطعها البحرية تطورا كبيرا. ووضعُ المرابطين يدهم على الجزر الشرقية، سمح للأسطول الأندلسي في ظلهم بأن يقترب من السيادة على غرب البحر الأبيض المتوسط، على الرغم من منافسة النرمان والإيطاليين. ولكن سيادتهم ظهرت شرق هذا البحر وتقوت في هذه الفترة بالذات.

وحيث إن المرابطين قد ألغوا المكوس والضرائب غير الشرعية، والتي كانت تتكرر أيام الطوائف من إمارة إلى أخرى، فضلا عما كان على السكان أن يؤدوه للممالك المسيحية التي تهدد باجتياح إمارات الطوائف، فإن ذلك أنعش الاقتصاد الأندلسي، سواء عبر الإنتاج المحلي أو عن طريق حركة التبادل التجاري.

ومن خلال ما تقدم عن حركة الإنتاج والتبادل، وبمراجعة بسيطة لـ(نزهة المشتاق) الذي هو أهم مصدر في هذا المجال بالنسبة للعصر،

يتضح أن من أهم صادرات الأندلس: المنسوجات والزيت وبعض الأواني، والكتب ومصنوعات مختلفة، بينما تستورد السكر وما يسدّ حاجتها من الحبوب الزراعية، والقطن والأفاويه والعطور والتحف وغيرها. ومن الواضح أن شطرا مهما من المنتجات كان يأتي من الشمال الإفريقي، لاسيما عددا من الأسلحة العسكرية.

ولا يمكن إغفال كل من الرقيق والذهب، لكن الرقيق يأتي معظمه من أحد وجهين:

1- إنّ قسما مهما من الرقيق يأتي عن طريق الأسر، وهذا ما يلجأ إليه المسيحيون والمسلمون معا.

2- إنّ شطرا آخر ليس أقل أهمية، يتمّ جلبه شراء لأغراض عسكرية تقنية في الغالب. ولايمنع هذا من وجود رقيق المتعة، وهذا كان تقليدا دوليا لا استثناء فيه. وفي كل حال، فالمجتمع الأندلسي معروف بحسه الاجتماعي وتعامله مع مختلف الشرائح بروح متفتحة.

وقد ظهر السودان بالأندلس منذ عصر الفتوح الأولى، حيث إن تجار العرب القادمين من إفريقية في هذا العصر، كانوا يتسربون إلى غانا، وهي يومئذ أعظم دولة في غرب إفريقيا. وتجدد ظهورهم بعد ذلك حتى في بعض إمارات الطوائف، حيث كانوا في جيش باديس من حبوس الصنهاجيين، وربما كانوا من تشاد أو الجنوب الليبي، لأن باديس من صنهاجة إفريقية. وشارك السودان بعدد كبير في معركة الزلاقة، وكان بينهم أربعة آلاف من الرماة والمحاربين بالسيوف. ثم ظهر السودان مرة أخرى مع المنصور الموحدي حول إشبيلية.

ومن الرقيق ما هو من الصقالبة، أي من أوروبا الشرقية، وكان بينهم مرتزقة أيضا. وكانت أسواق النخاسة لدى الجانبين، المسيحي والإسلامي، وكل يعرض ما عنده من أسرى وسبي أخذ من الطرف الآخر. ولا يتفق منظور الفقهاء بشأن الرقيق؛ فبينهم من ينظر إليه بعين الرحمة كابن رشد، ومن ينظر إليه بعين الريبة كأبي بكر المرادي، وكلاهما فقيه مرموق. وكانت فئة الصقالبة وفئة الروم الذين دخلوا الجيوش العربية عن طريق معاهدات مع دولهم في غالب الأحيان، تتمتعان بوضع متميز ماديا ومعنويا، في الوقت الذي كان فيه نظام الإقطاع بأوروبا يفرض على رقيق الأرض Serf تكاليف مادية ثقيلة وأعمالا مضنية.

الذهب والعملة :

يدخل الذهب في المصوغات النسوية وزخرفة السقوف والخشب وتحلية السيوف والمهاميز وغير ذلك. لكن أهميته في سك عملة ذات رواج واسع، تتجاوز ما للمصنوعات الأخرى وأنواع الزخرفة. وعلى ذلك فالذهب الرائج في الأندلس إما تبر محلي، أو سبائك من السودان خاصة، أو عملة تضرب في عين المكان أو في غيره من الجهات التابعة للدولة الحاكمة.

وإذا كان الدينار يسبك من الذهب، والدرهم يسك من الفضة، فإن الدينار الذهبي عرفته الأندلس قبل هذا العصر بوقت طويل، خصوصا أيام الأمويين. ووضعت دار السكة بقرطبة تحت رقابة القصر منذ سنة 316هـ / 928م.

وقد كان من الهدايا التي قدمها ابن تاشفين إلى سلفه أبي بكر بن عمر مجموعة من السيوف والمهاميز المحلاة بالذهب وثيابا رفيعة من الأندلس، ويوجد بالمكتبة العامة بتطوان دينار عثر عليه بالمرية سنة 516هـ / 122م، مما ضرب باسم

علي بن يوسف.

وتعددت دور السكة بتعدد الولاة والعمال، ومن مراكزها مالقة وغرناطة وإشبيلية وقرطبة وبلنسية. ونظرا للقيمة النقدية التي كانت للدينار المرابطي مع تأمين الاستقرار السياسي والاجتماعي، فإن الرواج التجاري قد اتسع كثيرا لصالح الأندلس، كما حظيت سكة عبد المؤمن والمنصور بتحقيق رواج مشابه.

وتثير العملة من حيث التعامل بها جملة من المشاكل لدى المجتمع المسلم خاصة، فضلا عما كان يحدثه الغش في السكة أو تزويرها. ومن ذلك على سبيل المثال مسألة ارتفاع قيمة العملة بعد إبرام عقد كانت السكة فيه أقل قيمة. وقد أفتى ابن رشد بإمضاء العقد أو تسوية الأمر بالتراضي. وإذا كان التعامل بالذهب فلا يجوز إتمام الصفقة إلا بجزء معلوم بالدراهم. ومن المسائل المعقدة ما يتعلق بالذهب المشوب بالنحاس، حيث يرى ابن رشد أنه لا تجوز الزكاة إلا ابتداء من عشرين مثقالا من الذهب، وبالتالي يجب تصفيته من النحاس، ومع هذا فلكل نقد مشكلاته في كل زمان ومكان.

الجباية والضرائب:

إذا كانت المكوس والضرائب قد أثقلت كاهل السكان في عصر إمارات الطوائف، فإن دور الفقهاء في إلغائها والرجوع إلى الزكوات والأعشار الشرعية كان أساسيا. فإن الأوضاع الضريبية كانت في زمن ملوك الطوائف، شبيهة بما كانت عليه لدى الممالك في عصر الإقطاع بأوروبا والذي وازت بدايته عصر الطوائف، واليهود قد أصبح لهم دور في المراباة والعمليات التجارية بما فيها الوساطة الدولية والداخلية.

وقد نقل مؤلف روض القرطاس عن ابن جنون أن المرابطين لم يفرضوا مكوسا أو ضرائب غير شرعية، والحقيقة أن ذلك كان على عهد يوسف بن تاشفين، ولفترة من حكم نجله علي، لأن الموحدين وجدوا السبيل إلى الطعن في المرابطين بسبب كثرة القبالات والمكوس، بالإضافة إلى أسباب أخرى، سياسية ودينية.

إن المؤرخين لا يتحدثون عن مبالغ تفصيلية للجباية الشرعية، غير أننا نعلم أن عصر المرابطين ثم الموحدين لم يخل من موارد إضافية، ربما كان في مقدمتها الأموال المصادرة من المتهمين في قضايا مالية، أو ممن أثروا من المسؤولين بوجه غير مشروع. وقد حرم مالك نهب الأسواق، باعتبار أنه لا ذنب يحلّ مال الإنسان. والأندلس لم تتخل عن المذهب المالكي رسميا وشعبيا قط. والواقع أن المصادرات المالية عرفت عبر التاريخ الإسلامي منذ أن شاطر الخليفة عمر عماله أموالهم بعد توليهم والتأكد من ثرائهم غير المشروع.

وقد صادر الموحدون ممتلكات عدد من المسؤولين السابقين بالأندلس أو لجأوا، في حالات معينة، إلى فرض ضريبة الرباعة التي هي تنازل عن ربع موارد الشخص أو ربع ممتلكاته، وأعفوا المراكز التي سبقت غيرها إلى البيعة مثل شريش وإشبيلية.

وبالرغم من الصرامة التي أبداها الموحدون في الضرب على أيدي المتسلطين والذين يرهقون السكان بالضرائب غير الشرعية، ومن يمدون أيديهم إلى بيت المال لنهبه في الأقاليم، فإن تصحيح هذا الوضع لم يتم إلا بمصادرة أموال المتهمين بهذه التصرفات، مع التحذيرات الرسمية المتتالية.

ومع هذا يظل العصر الذهبي للتاريخ الجبائي بالأندلس، من حيث تخفيف الجبايات باقتصارها على ما قررته الشريعة الإسلامية، هو فترة تناهز

أربعين عاما في ظل المرابطين. فقد حرروا الأندلس سياسيا وماليا، بعدما عانته أيام الطوائف والممالك المسيحية بإيبيريا. فقد كان ملوك النصارى إذا استولوا على مركز تركوا الفلاحين الأندلسيين حوله يواصلون استغلال أراضيهم، فإذا جمعوا غلاتهم استولى النصارى على ما شاءوا منها وألزموهم بالجزية. وكانت هذه سياسة فرديناند. فلما تولى ألفونسو السادس ضاعف الجزية، ولما تولى شانجه (Sancho) أضعف القدر الذي فرضه سلفه. وكل هذا بإضافة ما يقدم إلى جباة أمراء الطوائف بالقوة والضغط، فتناقص العمران وأقفرت المزارع من جراء هذا الحيف.

وفيما بين نهاية حكم المرابطين واستقرار السلطة الموحدية مرت فترة جديدة من الاضطرابات في أقاليم الأندلس، وكان بعض الثوار أقل رحمة بالسكان من السلطة الراحلة، خصوصا ابن مردنيش الذي قاد ثورة الشرق، وقد تجاوز قهره الضريبي للسكان كل تصور. فلما اضطر إلى المال " تحيف الرعية بكل وجه من وجوه الجور، واستكثر من القبالات، ورسم بدائع المكوس، وقرر في المواشي عددا يلزم المئين، وفرض على الأدم والبقول والحبوب، معاون ثقيلة، تقارب أصول الأثمان".

إن لجوء الموحدين إلى مصادرة الأطراف المتهمة بالفساد المالي والإداري يقابله تنازلات ضريبية لصالح أطراف بادرت بإعلان ولائها للدولة، أو رغبت الدولة في ضمان ولائها. أما المرابطون فإذا اقتصر لفترة طويلة من حكمهم، على الجباية الشرعية، فإنهم جعلوا من ذهب السودان مادة توازن تسد نقص الإيرادات، بفضل القوة الشرائية الفريدة التي تمتع بها الدينار المرابطي، مع وجود مخزون كبير منه في بيت المال.

ثانياً - الحياة الاجتماعية :

يقسم عبدُ الواحد المراكشي سكان الأندلس من حيث الخصائص الفيزيولوجية والسلوكية إلى قسمين: المستوطنون بالإقليم الخامس متأثرون بطبيعة الشمال، حيث يشتد البرد، ويطول الشتاء، وتعظم أجسام السكان، وتبيض ألوانهم، مع صلابة في أذهانهم. أما أهل الإقليم الرابع كإشبيلية ومالقة وقرطبة وألمرية ومرسية، فتربتهم أطيب، وهواؤهم أعدل، مع عذوبة مياههم. ويتميزون بجمال صورهم وفصاحتهم.

ومع اعتبار عناصر المناخ والمؤثرات الإثنية العريقة، فإن للتلاقح والتعايش المباشرين تأثيرهما العميق في تطور المجتمع الأندلسي وأنماط حياته وتواصله مع الآخرين، فما هي التركيبة الأساسية لهذا المجتمع والمتعايشين تحت سقفه؟

1- العرب : دخلت طلائعهم إلى الأندلس منذ الفتح العربي، ثم توافدوا أسرا وأفرادا، وكان بينهم عدد كبير من ذوي الأصول القحطانية والشاميّة ممن لهم خبرة في الزراعة أو فنون المعمار والصنائع.

غير أن العنصر العربي بدأ يفقد قوته ككتلة متميزة، منذ القرن 4هـ / 10م. فقد أصبح العرب أسرا لا قبائل، وليس بينها لحمة قومية. وعندما وجّه المعتمد ابن عباد إحدى مراسلاته إلى يوسف بن تاشفين سنة 479هـ / 1088م كان مما قاله: "... إنا نحن العرب في هذه الأندلس قد تلفت قبائلنا وتفرق جمعنا، وتفرقت أنسابنا بقطع المادة عنا من معيننا، فصرنا شعوبا لا قبائل، وأشتاتا لا قرابة ولا عشائر، فقلّ ناصرنا وكثر شامتنا".

وقصة دخول بني هلال وسليم إلى التراب المغاربي، منذ سنة 442هـ / 1050م معروفة في

المصادر والدراسات الحديثة، لكن الذي يهم هنا هو توطين فريق منهم بالأندلس بعد قليل من انتشارهم بالمغربين الأدنى والأوسط. وهكذا وجّه عبد المؤمن إلى زعماء العرب خطابا مفتوحا يهيب بهم إلى مد يد المعونة لاستخلاص الأندلس بعد ترامي النصارى على مدنها وحصونها وقراها، وذيّل الخطاب بقصيدة نقلها عبد الواحد المراكشي في (المعجب)، ويصف العرب ببني العم، حيث إن زناتة التي ينتمي إليها عبد المؤمن كانت ترى أنها أقرب إلى العرب نسبا كما تذكر بعض الروايات.

ووفد على عبد المؤمن إثر ذلك جمع ضخم من عرب المغربين، الأدنى والأوسط، فوزّعهم بين نواحي قرطبة وضواحي شريش، وشارك الهلاليون في بداية ولاية يوسف بن عبد المؤمن، في الحرب ضد ابن مردنيش. ودعا العاهل الجديد عرب إفريقية إلى المساهمة بالمزيد من المتطوعين لتعزيز العناصر السكانية والدفاعية، فاحتشدوا بأعداد كبيرة ببجاية، ثم توجهوا إلى الأندلس بعد أن حطوا بناحية مراكش، وكانوا زهاء عشرة آلاف فارس دون المتطوعين. وساهمت آلاف أخرى منهم لاحقا في معركة الأرك، إلى جانب عناصر مغاربية من سائر المغرب الكبير. ولا مراء في أنّ الهلاليين توزعوا فيما بين العمل العسكري وممارسة النشاط الزراعي كما حصل بالنسبة للشمال الإفريقي حيث مارسوا العمل الرعوي أيضا، مع دخول فريق كبير منهم في نزاعات مسلحة مع السلطة القائمة.

2- الأمازيغ : كانوا أكبر مجموعة بعد المولدين. وأقدم العناصر الأمازيغية هم المصامدة الوافدون من شمال المغرب، والذين قادهم طارق لفتح الأندلس، وانضم إليهم العنصر الزناتي في أيام الأمويين. وتكاثر هذا العنصر فيما بعد، في القرن الـ 8هـ / 14م. ومن جهة أخرى فإن العنصر الصنهاجي وفد من مختلف جهات الشمال الإفريقي، ونشأت إمارة صنهاجية من إمارات الطوائف بغرناطة، وأصلها من صنهاجة إفريقية، ثم انضاف عنصر المرابطين. وأغلب هذه المجموعات استوطنت أقصى الجنوب، وحول بطليوس، لكن هناك أسر توجد بمدن أو قرى حولها، كما بقرطبة والثغور البعيدة.

ويرى مؤرخ محدث فرنسي أن الأمازيغ والإسبان كانوا أكثر تلاحما من الإسبان مع العرب. والحقيقة أن الحكم المباشر للأندلس، من لدن الأمازيغ خلال القرنين الـ 6 و7هـ(12-13م) غيّر هذه النظرة التي لاتزال آثارها واضحة لدى كثير من مؤرخي الإسبان وكتابهم.

3- المولدون : وهم المنحدرون من أصول إيبرية، وقد اعتنقت أجيالهم الإسلام في ظل الحكم الإسلامي، وهم يكوّنون أكبر الكتل الاجتماعية التي يؤلفها المجتمع الإسلامي. لكن احتكاكهم العرقي والاجتماعي بنصارى شبه الجزيرة الإيبرية لم يعمق فيهم جذور الإسلام ولم ينتزعهم من أصولهم الوطنية. وليس هذا حكما شاملا لكنه يشمل أغلبية أو فريقا كبيرا. وكان للمولدين انتفاضات ضد الأنظمة المتعاقبة، ابتداء من الدولة الأموية، وكان من بينها ثورتهم في أوائل قيام الدولة الموحدية، ضد هذا النظام، سواء بشرق الأندلس أو غربها. وتزعم هذه الثورة ابن قسي، وقد سميت بثورة المريدين الذين انضم إليهم غيرهم، غير أن لجوء زعيمها إلى الاستنجاد عسكريا بألفونسو الأول البرتغالي أشاع الاضطراب في صفوف أنصاره، فسحقت الثورة سنة 545هـ / 1150م، وقتل زعيمها غيلة على يد خصومه.

4- المسيحيون: يتعايش المجتمع الأندلسي مع الأقليات المسيحية التي قد تكون كبيرة العدد،

والتي كان أسلافها قد أبرموا قديما معاهدات مع الفاتحين الذين سموهم بالنصارى المعاهدين، وسماهم الإسبان بالمستعربة Mozarabes. ويشملهم بابا الكنيسة في روما برعايته، وهو الذي يستشار في تعيين الأساقفة. ويقدم ابن الخطيب نموذجا لتعايش المجتمعين، الإسلامي والمسيحي بغرناطة، حيث يذكر أن أبا الخطار من أوائل ولاة الفتح، أنزل العرب الشاميين بغرناطة، وأقطعهم ثلث أموال المعاهدين، وأن هؤلاء استمروا يعالجون فلاحة الأرض وعمارة القرى. وكانت لهم بخارج المدينة كنيسة شهيرة تجاه باب إلبيرة. فلما تولى المرابطون أمر الأندلس، ألح الفقهاء على ابن تاشفين في هدمها، فتم ذلك سنة 492هـ / 1099م. ويؤكد أشياخ أن أساقفة الكنائس كانوا يتلقون التعليمات من البابا بتحميس النصارى لمحاربة المسلمين، ومنع عليهم وعلى غيرهم من كبار رجال الدين أن يساهموا في الحملات الصليبية بالمشرق، وأهاب بهم إلى المساهمة في الحملات ضد الوجود الإسلامي بداخل الأندلس.

وقد ساهم المعاهدون المذكورون لاحقا، في حملة ضد التراب الأندلسي، بقيادة ألفونسو بن راميرو الأرغوني، سنة 519هـ / 1125م. وانتهى الأمر بقيام علي بن يوسف، بإبعاد المتمردين إلى المغرب.

وكان المستعربة يؤدون الضرائب للسلطات القائمة، ولهم إطار جماعي لمعالجة شؤونهم الداخلية، وموظفون يحملون ألقابا لاتينية أو عربية، وأساقفتهم يستقرون بطليطلة وإشبيلية وماردة. ويعيشون في أحياء خاصة، لكنهم يحتكون بغيرهم من المواطنين، ولهم كنائس داخل المدن الإسلامية، وبعضها قائم حتى الآن.

وعندما يفتح المسيحيون منطقة فإنهم يعمرونها بسكان مسيحيين، من جليقية والبسك والبرتغال وأشتوريش Asturias وغيرها، كما يوطنون بها المستعربة. ويشرف على إعادة التعمير كل من الملوك والقساوسة والكونتات، وغيرهم من النبلاء. وكان من أهم مجموعات المستعربة مجموعة طليطلة التي تضخمت بوافدين جدد من إفريقيا، كمرتزقة الروم، بالإضافة إلى جماعات من أرغون، كما أن فريقا من المستعربة توجهوا إلى مراكز أخرى من المناطق المفتوحة.

5- **اليهود** : بفضل التسامح الذي حظوا به داخل الوسط الأندلسي فقد مارسوا عقيدتهم وحركتهم الاقتصادية بكل حرية، وهم موزعون بين شتى المدن الأندلسية.

ويشتغل اليهود بالتجارة والصنائع، وبينهم موسيقيون ومطربون، وحتى دبلوماسيون يقومون بمهمات عن أمراء الطوائف لدى الممالك المسيحية التي لديها أيضا يهود يتولون مهمات مماثلة.

ونالت شخصيات عديدة مقاما ساميا لدى أمراء الطوائف خاصة. فأسرة ابن نغرالة بلغت أسمى المناصب في بلاط حبوس بن ماكسن ونجله باديس. فتولى صمويل (إسماعيل) بن نغرالة منصب الوزارة والكتابة الخاصة، والإشراف على كل الشؤون المرتبطة ببلاط باديس، لكن ابن نغرالة استبد بأمور الدولة، وانفرد بتصريف الشؤون المالية، بالنظر للثقة التي كان يحظى بها من باديس. وكان على مستوى عال من الثقافة العربية، مشاركا في الهيأة والرياضيات. وخلفه نجله يوسف في اختصاصاته، وقيل إنه تخلص من ولي العهد تلكين بن باديس بتسميمه لأنه كان يكرهه، ثم اتهم بتدبير انقلاب فتخلص منه الصنهاجيون بقتله.

ونظراً لتنامي القوة العسكرية والسياسية لدى النصارى خلال القرن الـ 6هـ / 12م وما بعده،

فإن اليهود توثقت صلاتهم أكثر فأكثر بهؤلاء. وأخذوا يساهمون في المواجهات الحربية إلى جانب النصارى بما في ذلك معارك الحصون ومعركة الزلاقة وسائر المعارك التي خاضها الموحدون، وهو ما يفسر ردود الفعل العنيفة أو المتشددة ضدّ اليهود، من جانب السلطات المرابطية، ثم الموحدية بوجه خاص.

التجمعات السكانية :

يتجمع معظم السكان في المدن والحصون، والباقي في مساكن منعزلة بالبوادي والأماكن النائية عن العمران، فنمط الحياة الحضرية سائد لكن بتفاوت بين التجمعات حسب الظروف الاقتصادية لكل تجمع.

وتكاد كل المدن والقرى الرئيسية تتوفر على سور يحميها من الغارات الخارجية لفترة قد تطول أو تقصر. وكثير من الأرباض مسور، حيث يصبح الربض جزءا من المدينة الأصلية بعد أن كان مجرد حي أو أحياء خارج المدينة. ومع أهمية مالقة فلم يكن لربضيها الاثنين سور في عصر الإدريسي. وبالمقابل فإن المدن الرئيسية وحتى ما دونها أهمية، تجاورها قصبة يستقر بها المسؤولون الإقليميون خصوصا الذين يشرفون على شؤون الأمن مع الحامية.

وظلت مؤثرات الأمويين قائمة على نطاق واسع في التدبير الإداري والاجتماعي للمدن، فالمدينة لها عامل وقاض ومشاورون وناظر أحباس ومحتسب ودواوين محلية وصاحب شرطة وقائد حامية إلى آخر لائحة المسؤولين (جباية، دار العيار...إلخ). وهناك قاض لأحكام السوق غير المحتسب الذي له ميادين للرقابة واسعة. وقد أعجب يوسف بن عبد المؤمن لاختيار قرطبة عاصمة من لدن الأمويين، لحسن هندستها وسعة شوارعها وضخامة مبانيها، ولنهرها الجاري واعتدال هوائها واتساع مناطقها المزروعة والغابيّة، مع توسطها بين شرق الجزيرة الإيبرية وغربها. وقبيل سقوطها بلغت مساجدها 1600 وحماماتها 900. وافتخر الشقندي بأن واديها كانت تستخدمه خمسة آلاف رحى.

وإذا كانت قرطبة عاصمة المرابطين، فإنّ الموحّدين قد حوّلوا العاصمة السياسية إلى إشبيلية لقربها نسبيا من مجاز العدوة. ومجتمع قرطبة يتميز بجده ورزانته، كما أن قرطبة عاصمة المعرفة والثقافة العربية، مع كثرة خزانتها ومكتباتها، بينما اشتهر المجتمع الإشبيلي بالميل إلى الاستمتاع بالحياة. ولواديها وضفافه المخضرة تأثير في هذه النزعة التي تقترن أيضا بجو الطرب والشعر ومجالس الأنس والنزهة.

ولم تخل التنظيمات العليا من سياسة إسكانية لتعمير المناطق وحمايتها. وقد يكون يوسف بن عبد المؤمن الذي أتم عملية استقرار الدولة الموحدية في الأندلس أكثر العواهل الموحدين نشاطا في سياسة الإسكان. فبعد تهدئة أوضاع الشرق بهذه البلاد، ونهاية فتنة ابن مردنيش، عمد إلى إسكان مجموعات عربية وزناتية ببلنسية، ومجموعات من صنهاجة وهسكورة، بشاطبة ومرسية، وأسكن بلورقة وافدين من تينمل وبالمرية وبرشانة جموعا من كومية. وفي الواقع كانت هذه المجموعات دون الكفاية بكثير، نظرا لأن التوازن ظل دائما لصالح الأطراف الأقل ولاء. ثم إن الروح القتالية لم تعد كما كانت عليه زمن المرابطين. وعندما هاجم البرتغال باجة وخربوها في عهد يوسف بن عبد المؤمن، لم يتردد هذا العاهل في مد السكان والسلطة المحلية بالأموال

لإعادة تعمير المدينة.

ولم تكن المدن معزولة عن العمران، فبين المدينة والأخرى قرى ومزارع ومياه كما ذكر المقري نقلا عن ابن سعيد الذي يقارن بين مدن مصر والشام ومدن الشمال الإفريقي، وبين ما شهده في الأندلس. فلم يجد ما يشبه مدن الأندلس في مياهها وأشجارها سوى أحياء من تونس، وكل من فاس ودمشق وحماة، ونوه بشوارع الإسكندرية ومباني حلب. والمسافر يقطع في اليوم الواحد ثلاث مدن أو أربعا، أي ما يناهز ثمانية إلى عشرة كيلومترات بين المدينة والأخرى، مع وجود المواد الغذائية بوفرة في كل مكان.

وتعكس هذه الصورة نظاما أمنيا شاملا، ولكن الأمر لم يكن كذلك بعد اشتداد ضغط النصارى وتجدد الاضطرابات الداخلية.

وبالنسبة لحماية المدن من الداخل، فهناك بياتون وعسس يطوفون بالليل، ويعرفون بالدرابين، لأن المدن تنقسم إلى دروب أي أحياء لكل منها باب يغلق عليه بعد العتمة، ويتوفر كل بيات مختص بزقاق، على كلب وسلاح مع سراج. ويرتبط نظام الحراسة الليلية وفعاليته بمدى حرص الوالي وضبطه لشؤون الأمن.

وواضح أن اضطراب أحوال الأمن وتعرض المدن والقرى لغارات العدو أو احتلاله، يؤدي إلى انعدام الاستقرار الاجتماعي والنفساني، فضلا عن فقد السكان لأموالهم وأملاكهم. ومن نماذج هذا التشرد، وهي تعدّ بعشرات الألوف، أن أيوب بن محمد الغافقي الذي ترجم له ابن الأبّار في التكملة، غادر سرقسطة بعد احتلالها من لدن الأرغونيين سنة 512هـ / 1118م إلى طرطوشة حيث قضى بها عشرة أشهر، ثم غادرها ليقيم ببلنسية ستة أشهر. وظل يتنقل بين مدن الشرق حتى استقر أخيرا بغرناطة. ولم تكن هذه المحنة إلا غيضا من فيض.

وقد كان الموحدون أكثر الأنظمة المغاربية عناية بالتعمير بعد الأمويين، بينما تنافست أنظمة مغاربية أخرى في مجالات اجتماعية أخرى تهم التثقيف والاستشفاء والإيواء. وأهم إنجاز معماري من بناء الموحدين أيام العاهل عبد المؤمن هو بناء مدينة استراتيجية بجبل طارق، الذي حظي بمنشآت تدل على مهارة الخبراء الأندلسيين في مجال استنباط المياه واستغلالها ومد قنواتها في الأوعار والبسائط على السواء. وقد تم حفر عدة مواضع في سفح الجبل، فنبع منها الماء، ثم جمع بعضها إلى بعض، فتكون منها جدول يصب في صهريج ضخم جرى إلى الجنان وعموم المدينة التي حملت اسم مدينة الفتح. وقد استفادت الأنظمة المغاربية من الخبرات الأندلسية على نطاق واسع في مجالات المعمار والطب والفنون والصنائع فضلا عن المجال الثقافي.

التقاليد الدينية :

كل من المسجد والكنيسة والبيعة يعد مكانا للعبادة ومجمعا خطابيا ومعهدا للإرشاد الديني والتوجيه الثقافي والتواصل الاجتماعي. ولا يتدخل أي من هذه الثلاثة في الشؤون الخاصة بالآخرين.

ويشرف على شؤون الشعائر بالمساجد منسق يعرف بصاحب الصلاة، وهو لقب أصله عامل الصلاة الذي عرف منذ صدر الإسلام. وكانت مهمته حينئذ إدارية ودينية. وكان لصاحب الصلاة شأن في العصر الأموي بالأندلس، حيث يمكن أن تسند مهمته إلى قاضي الجماعة. وفي كل الظروف لا بدّ أن تتوفر فيه صفات الفضل والتقوى والثقافة الفقهية.

وبالرغم من وجود فئات اجتماعية تميل إلى

الاستمتاع بالحياة، وأخرى محافظة، فإن رقابة الفقهاء ظلت قوية في أوساط المجتمع المسلم وسلطته، منذ العهد الأموي إلى بداية العصر الموحدي عندما أصبحت السلطة السياسية تتولى بنفسها إدارة الشؤون الدينية من أعلى، وبالتعاون بين الحفاظ (الولاة) والفقهاء في الأقاليم. لكن فقهاء الأندلس ظلت كلمتهم مسموعة، لاسيما كبارهم.

وقد أدخل الموحدون نظام القراءة الجماعية لأحزاب القرآن جهرا وبكيفية منتظمة، مع تعميم هذه القراءة بمختلف المساجد المرتبطة بالأوقاف، وفي سائر مناطق نفوذهم. ويقرأ حزب واحد بعد صلاة الصبح وثان بين المغرب والعشاء حتى ينشغل رواد المسجد بقراءة القرآن عوض الثرثرة فيما بينهم. وقد أضاف الحفصيون طرقا أخرى من العناية بقراءة القرآن. على أنه لا يوجد فرق كبير بين العادات الدينية بين الأندلس وباقي منطقة الغرب الإسلامي.

وبالنسبة للحج خاصة، فقد ارتأى عدد من كبار الفقهاء أن الدفاع عن تراب الأندلس ومجاهدة العدو آكد من فريضة الحج، خصوصا مع مخاطر السفر التي تزايدت برا وبحرا خلال القرن الـ 6هـ / 12م وما بعده.

وقد تداول بعض المؤرخين وجود نسخة من مصحف عثمان منذ العهد الأموي حيث حفظت هذه النسخة بجامع قرطبة. فلما كانت سنة 552هـ نقل عبد المؤمن المصحف إلى مراكش، وبقي محفوظا، مع عرضه بعناية في بعض المناسبات لرواد الجامع، إلى أن ضاع في غرق الأسطول المريني بسواحل البحر الأبيض المتوسط خلال القرن 8هـ / 14م.

وقد أخذت مآسي السبي والأسر ونهب الممتلكات من جانب النصارى تؤثر بشكل حادّ في معنوية كثيرين من أهل الأندلس، كما أخذت ظاهرة الزهد والتصوف تأخذ منحى سلبيا تجاه تنامي قوة العدو وتكاثف أطراف أجنبية معه على نطاق واسع، حتى إن السلطات القائمة لاحقت زعماء حركة التصوف سواء بالأندلس أو في باقي مناطق نفوذها. وبصورة أو بأخرى فإن الموت وتقبل النهاية المحتومة أصبح الشغل الشاغل لأطراف مختلفة من المجتمع الأندلسي. وهنا تستوقفنا ظاهرة العناية بقبور الأموات في بعض المدن لاسيما بمالقة، حيث خص السكان مقبرتها برعاية فائقة. فقبورها مزخرفة، وتربتها موشاة بالأزهار، ومماشيها تكسوها خضرة الشجيرات. والأندلسي الشعبي الذي يتذوق الفن بجميع أنواعه وصيغه لم يهمل رعاية الميت في مثواه الأخير. هل كان ذلك تقليدا للمسيحيين؟ لكن المجتمع المالقي لايزال ذوّاقا للأزهار والفنون حتى يومنا هذا.

دور اللغة العربية : سادت اللغة العربية وثقافتها بشكل مدهش خلال القرن الـ 6هـ / 12م، بعد أن احتك بها المعاهدون (المستعربة) لزمن طويل. وقد فرضت اللغة العربية نفسها على المعاهدين بحكم كونها اللغة الرسمية والجارية في المعاملات داخل المجتمع الأندلسي. وكان عدد من أفراد الممالك المسيحية والأوروبية، خصوصا من فرنسا، مضطرين إلى تعلم العربية في الوسط الأندلسي، لاسيما بالنسبة للمساهمين في الحروب الصليبية في المشرق. وخلال القرن المذكور أكمل بطرس، رئيس دير كلوني Cluny أول ترجمة لاتينية للقرآن، وأخذ يكتب في الرد على الإسلام، ثم تلاه غيره من الكتاب المسيحيين، وانتشرت العربية بين الأسرى والأرقاء، فلما عادوا إلى بلادهم انضافوا إلى من أتقنوا العربية قبلهم. وعندما لجأ الخطيب أبو الحسن المالقي إلى البرتغال كان (العلج) المكلف بحراسته يعرف العربية ويكتبها ولا

يتحدث بها، وهو الذي اكتشف مراسلة إلى الموحدين يطلعهم فيها أبو الحسن المالقي على عورات البرتغال، فأدى ذلك إلى القبض عليه والحكم بإحراقه.

أما على نطاق المجتمع عموما، فقد بدأت اللهجة الدارجة تستوعب ألفاظا جديدة مع دخول العنصر الهلالي الذي أثر في المزيد من تعريب الشمال الإفريقي وتدريج العربية على نطاق البوادي بصورة خاصة، وإن كان رصيد الدارجة العربية كبيرا قبل بني هلال. وقبل أن تضمحل الدولة المرابطية كانت هناك كلمات دارجة بالأندلس ما لبثت أن انصهرت في الدارجة الهلالية طردا وعكسا. وتضمن كتاب البيذق استعمالات كثيرة من الدارجة، مثل : (فقلعت محلتنا) أي انطلق معسكرنا، ولفظ (متاع) في الإضافة، وعبارة (حتى إلى ...) أي إلى غاية ... بل امتد التأثير الهلالي إلى مالطة عن طريق المغرب الأدنى.

وواضح أن العربية الدارجة تأخذ أيضا من مصطلحات الآخرين. ومن الطريف أن باحثا فرنسيا جمع رصيدا مهما من المصطلحات الإسبانية التي تتعلق بصناعة الشواشي بالقطر التونسي وقد نقلها الموريسكيون.

أما في التعليم، فإن اللغة العربية تأتي في رأس لائحة المواد الدراسية بعد القرآن. وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك في عرضه عن العلوم (في المقدمة). وكان يعدّ عيبا أن يكون المثقف والعالم ضعيفا في معارفه اللغوية والنحوية. وخلال القرنين 5-6هـ / 11-2م حظيت الدراسات اللغوية والنحوية بإنتاج غزير من المؤلفات، معالجة وشروحا ونقدا. وهذه في الواقع أخصب حقبة بالأندلس في هذا المجال. ولذلك لا نعجب إذا لاحظنا تمسك المجتمع الأندلسي العربي بعروبته اللغوية والثقافية، بعد تفكك هذه العروبة إثنيا. وقد ذكر الإدريسي عن أهل شلب وقراها أنهم من أصول يمنية، وكلهم فصحاء عامتهم وخاصتهم، "وهم يتكلمون بالكلام العربي الصريح" كما قال. والواقع أن فصاحة الأندلسيين حتى فيما درج من اللسان، لا تزال سائدة حتى يومنا هذا في أعقابهم.

المرأة : إن كثرة الحروب والوفيات خلالها في صفوف الرجال، تعطي انطباعا عن وجود عدد كبير من النساء والفتيات يتجاوز عدد الرجال والذكور عامة. ثم إن السبي وأسواق النخاسة، مما يزيد في تكثير أعداد الجواري والرقيق، خصوصا في قصور بعض الحكام والأمراء وطبقة الأغنياء. والأندلسيات يتعرضن للسبي كنساء العدو. وقد أهدى القطلونيون لعاهل القسطنطينية سنة 454هـ / 1062م سبعة آلاف من بنات أسر بربشتر Barbastro عند استيلائهم عليها. لكن بني هود استردّوها بعد خمس سنوات وسبوا منها عشرة آلاف امرأة حسب رواية ياقوت. وقد يكون في الرقمين مبالغة بقصد التهويل. والمهم من هذا أن وضع المرأة كان أدعى إلى الإشفاق من وضع الرجل، خصوصا في أسواق النخاسة. وقد تشددت التعليمات الموحدية في هذا الجانب بشكل خاص، ونهى منشور عبد المؤمن سنة 543هـ / 1148م عن بيع النساء اللواتي يقعن في الأسر حتى تزود السلطة العليا بمعلومات عنهن، وعن طريق وقوعهن في يد الجيش، مع استئذان الحاكم والأشياخ في بيعهن. ولا يقدم لأسواق النخاسة إلا من عرف بتدينه وأمانته.

وهذه الصورة من حياة نساء الأندلس المهددة لا يمكن طيها كحقيقة ثابتة، وإن كان الأمر هكذا بالنسبة لحياة الإناث في جهات أخرى من العالم، خصوصا في ظروف الحرب والغارات العدوانية.

أما العلاقات الزوجية فإن مصادر الفقه والأدب والتاريخ، تقدم الكثير من المعلومات بهذا الصدد، وحول المرأة بوجه عام. وقد كان عقد النكاح أحيانا يصاغ بأسلوب أدبي راق دون خدش مسحته الفقهية. ومع أن إجراءات الزواج تتم عادة حسب المذهب المالكي، فإن فتح باب الاجتهاد في العصر الموحدي تجاوز هذا المذهب أحيانا للعمل بالمذهب الظاهري الحزمي الذي سوّى في الكفالة بين الرجل والمرأة، ولكنه ترك الطلاق بيد الرجل حتى ولو اشترط عقد الزواج أن يكون للزوجة حق تطليق نفسها.

وليس للمرأة دور سياسي ملحوظ، ولكنها قد تؤثر في قرارات الرجال من ذوي المسؤولية. وفيما عدا الضجة التي أحدثتها رسالة الشقندي، ذات الفكر الشعوبي، فإن دخول المرأة المسيحية إلى البيت الإسلامي لم يخلق موجة غضب داخل الأسرة المسلمة عموما. وسواء في العصر الطائفي أو المرابطي، كان الانفتاح بشأن المرأة أوسع كثيرا منه بالنسبة لعصر الموحدين. وهناك في الواقع تناقض في موقف كل من المرابطين والموحدين: أولا، لأن المجتمع الصنهاجي الذي ينتمي إليه المرابطون تتمتع فيه المرأة بشخصية قوية وهي غير محجبة. والفقهاء لم يواجهوا بالنقد سفور المرأة الصنهاجية واختلاطها بالرجال. ثانيا، لأن الموحدين الذين اقتحموا غمار العمل السياسي والتشريعي من باب الفكر الثوري لم يغيروا أي شيء من قهر المرأة في الأرياف خاصة، ولا من تخلفها الثقافي بالنسبة للرجل. على أن سلطاتهم بالأندلس لم تقطع الصلة بين مجتمع هذه البلاد وتقاليده التي تتفق في الكثير منها مع ما هو موجود بباقي الغرب الإسلامي.

اللباس : يقدّم هنري بيريس معلومات مفصلة عن أزياء عصر الطوائف، وهي تستند إلى النصوص الشعرية والمصادر المكتوبة. ويتضح من استنتاجاته أن بعض المنسوجات الرفيعة ظلت تجلب من مراكز شرقية كبغداد وأنطاكية. كما أن مراكز داخلية كانت تغطي معظم الحاجيات المحلية، وربما استقت من المشرق نماذج للمنسوجات وطورتها على نمطها الخاص.

ومن ملابس المرأة : القميص والمطرف (جاكيتة)، والحلة، والغلالة، وهي لباس داخلي، والمئزر لستر الجزء الأسفل من الجسم، والبرد، لستر الجزء الأعلى، والمشملة، وهي جبة تغطي البدن كله، والجلباب، والصدار، والسراويل، والتكة، والخمار أو البرقع للرأس، واللثام لستر الفم والذقن.

ويرتدي الرجال الظهارة، وهي لباس داخلي خفيف فوق الدثار أو الشعار. وهناك القميص والسراويل، والمعراض وهو للزينة، والغفارة وهي برنس بقباء.

واعتاد أهل شرق الأندلس أن يتركوا العمامة غالبا، أما في الغرب فقلما يتخلى عنها القضاة والفقهاء خاصة. وربما تزيى الأمراء والأجناد بزي النصارى المجاورين، واتخذوا مثل سلاحهم. ولهم أقبية من الاشكرلاط، وهو نوع من المنسوجات والأقبية على شكل ما يتخذه النصارى.

وانتشر استعمال البرنس منذ بني أمية، وقد يخالف الغفارة في شكله. واختص الفقهاء في عصر الموحدين بغفارة صفراء. وقيل في مجال تشبه المسلمين بالنصارى في أزيائهم، إن ابن مردنيش اتخذ زيهم الضيق، وتشبه بهم في ركوب البراذين واتخاذ السروج الضخمة القرابيس. وساد البياض في المناسبات الدينية، كصلاة الجمعة والأعياد. وقد لاحظ الشاعر أبو الوليد النحلي أهل المرية في بعض المناسبات وقد ساروا في الطرقات كأنهم

حمام، فاستعطف أميرها المعتصم أن يكسوه مثلهم. وقد انتقل البياض إلى العدوة المغاربية أيضا منذ العصر الأموي والفاطمي، وذلك بدلا من السواد الذي كان شعار العباسيين.

الأوضاع الصحية والأطباء:

لا يعرف على وجه الدقة أنواع الأمراض في هذا العصر ومدى انتشارها. فبالإضافة إلى الأوبئة والطواعين التي تختلف من حيث رقعة انتشارها، فإنّ من بين أخطر الأمراض ما يترتب على استعمال مياه الأودية والأنهار والسواقي التي تكثر جراثيمها وعلقها الذي يؤذي شارب مياهها، ويعالج غالبا بوسائل بدائية كاستعمال الخل وبعض النباتات الشعبية، وفتح الفم بملامسة الماء العذب، كما هو الشأن في عين ماء عذب بأحواز مرسية، يقصدها من به علق، فيفتح فاه لماء العين، الذي يجذب العلق فيسقط. وكذلك تعدّ الأمراض الناتجة عن سوء التغذية من أكثر ما يشغل المصابين والأطباء معا، بدليل كثرة المؤلفات والمذكرات الطبية التي تهم التغذية نوعا وعلاجا ووقاية، مما أنجزه أطباء هذه الحقبة.

وعلى العموم، فإن وسائل العلاج تعتمد على الطب النباتي، والأدهان، والاستشفاء بالمياه المعدنية، وتوجيهات الأطباء كتابة ومشافهة بخصوص التغذية، ثم العلاج الروحاني الذي يجلب الفئات الشعبية أكثر من غيرها. وهي أيضا تعتمد حمات المياه المعدنية التي يقصدها الجميع، وأكثرها بالشرق والجنوب، ومنها حمة رية من عمل الجزيرة الخضراء، وعدت أشرف حمات الأندلس كما قال ياقوت، وحمة بجانة التي نوّه بها الإدريسي، وأشار إلى إتقان بنائها وسخونة مائها، وتقاطر المرضى عليها حتى يشفوا من عللهم، بل إن أهل المرية يقصدونها في الربيع للنزهة أيضا، لكن الإدريسي لم يشر إلى الأمراض التي تعالجها الحمة.

وقد كثر المتعاطون للطب وهواته وعلماؤه، حتى إن في الفقهاء والأدباء من مهروا في الطب أيضا، ولكن الأطباء البارزين غالبا ما يستأثر بهم كبار المسؤولين وذوو الحيثيات. والحديث عن هذا الصنف من الأطباء قد يكون مجرد تكرار لما هو معروف، لكن لامناص من الإشارة فقط إلى أسماء بعضهم كعائلة ابن زهر، وابن رشد، وابن طفيل. ومما كتبه عبد الملك بن زهر بإشارة من عبد المؤمن الموحدي مذكرة في الأغذية من 22 ورقة، عالج فيها الأغذية حسب فصول السنة، وتناول مجموعة من الأشربة والمعاجين والأدهان، وعددا من الأوبئة (ومنه بعض النسخ بالرباط). وأشار المقري إلى شهرة هذا الموجز الصحي والإقبال عليه بالمشرق والمغرب. وتمثل هذه المذكرة مع مثيلاتها في مجالات الطب وموسوعاته لهذا العصر دليلا على أن الفئات المستنيرة والمثقفة في أوساط المجتمع الأندلسي كانت تتابع باهتمام ما ينشره الأطباء المبرزون من أبحاث قد تجمع بين تجاربهم وتجارب الطب الإغريقي. بل إن الأعمال العربية الجادة وما ترجم إليها سابقا من الإغريقية ترجمت إلى اللاتينية في القرن الـ 6هـ / 12م على يد أسقف طليطلة ريموند الذي رأس لجنة أوروبية كان من أنشط أفرادها جيرار دو كريمون Gérard De Crémone الذي أقام بطليطلة نصف قرن وترجم خلالها 70 مصنفا طبيا إلى اللاتينية (عن العربية).

وسائل الترفيه تتحدى المآسي: تتعدد هذه الوسائل وتختلف بحسب الميول والمستويات المعيشية والثقافية والظروف القائمة. ويأتي الطرب والموسيقى في مقدمة وسائل الترفيه المشتركة بين

مختلف الفئات، كل بحسب الحيثيات المشار إليها. وإشبيلية أهم مركز لاحتضان المطربين، وللإشعاع الموسيقي بوجه عام. ويذكر الشقندي في رسالته عن فضائل الأندلس، أن ما كان في إشبيلية من الشعراء والوشاحين والزجالين، لو قسم على برّ العدوة (المغرب الأقصى أو سائر المغارب) لضاق بهم. والشقندي غير مجازف في هذا، لأن طبيعة المنطقة ومياهها غذت الأدب والطرب بما يحتاجان إليه من جمال الصور الشعرية وحسن الأداء ورقة التعبير. كما يذكر عن أبذة Ubeda ما فيها "من أصناف الملاهي والرواقص (الراقصات) المشهورات بحسن الأطباع والصنعة، فإنهن أحذق خلق الله تعالى باللعب بالسيوف والدك ...".

ويرى هنري بيريس أن الموسيقى الأندلسية هي قبل كل شيء موسيقى مدن، لاتقبل الآلات الصاخبة. وعلى سبيل المثال، فالطبل الذي قد يكون مما أدخله أمازيغ زناتة أو صنهاجة، ظل محصورا في البوادي، وإذا استعمل في المدن ففي الأحياء الشعبية. وكان من بين الآلات الموسيقية الدف البسكي، والنقرة (نوع من الطبول)، والبندير، والزامر (الناي). ويعدّ العود أهم الآلات الموسيقية. وقد اشتهر عن ابن الخمارة أنه جمع بين الفلسفة والأدب والموسيقى، وأنه كان يختار خشب عوده ويصنعه، وينظم الشعر ويلحنه ويغنيه.

وتحدث ابن خلدون عن المؤثرات العميقة التي تركها زرياب في الموسيقى الأندلسية، والتي بلغت شأوا بعيدا من التطور بإشبيلية. ولما بدأ تراجعها بعد العصر الطائفي استوعبها شمال المغرب، وحافظ على بقايا مؤثرات زرياب.

وأخذت الأندلس أيضا بمؤثرات الطرق الحجازي، وكان هذا قبل ملوك الطوائف، حيث كانت الأسر الأندلسية تجلب القيان من المدينة وحتى من بغداد. أما في أيام الطوائف فقد انتشر ما يشبه المعاهد الموسيقية بقرطبة، لتخريج القيان اللواتي اشتهر ابن الكناني بتكوين عدد كبير منهن. وتكونت أجواق نسوية من هذه القيان، فقلد المسيحيون في شمال إيبريا عمل الأندلسيين في هذا المجال، وكان للرقص والراقصات سوق رائجة، وربما تخصص في هذا الميدان نساء أو رجال، غير المطربين.

وإذا كان الولاة المرابطون قد تغاضوا، إلى حدّ، عن بقاء الطرب وممارسته، فإن الموحدين أعلنوا عليه حرباً شعواء كما تدل على ذلك منشورات عواهلهم. ومن الألعاب المتعارفة، الشطرنج، والرماية، ولعبة الخراج، وهي تنانير توضع على خيل من الخشب، ويرقص بها الراقصات. وهناك ألعاب تباع في عيد النيروز، وتمثل صورا مختلفة اعتبرها ابن رشد محرمة في بعض فتاويه، وقال إنه لا يجوز بيعها ولا التجارة فيها، لكن لا يبدو أن مثل هذه الألعاب قد منع بيعها فعلا. وكان بينها ما يمثل مدنا.

أما الصيد فهو هواية الطبقة المترفة خاصة، ويشمل مجموعة من الطيور كالحجل والغرانيق والحبارى والسمانى والحمام. ومن الحيوانات التي تتخذ للصيد: الصقر والنسر والسلوقي. ويتحدث ابن الخطيب في الإحاطة، عن محمد بن عبد الملك (من سلالة الصحابي عمار بن ياسر)، الذي كان إذا ركب في صلاة الصبح رافقه دويّ الجلاجل (الأجراس) ونباح الكلاب ومناداة الصيادين، حتى أمر المنصور الموحدي باعتقاله ثم تسريحه، إذ كان يشوش على المصلين.

ويعتبر الخروج إلى النزهة في البساتين والضواحي من أهم وسائل الترفيه، بالنسبة لسواد السكان ومختلف الفئات. وربما لفتت بعض المشاهد والآثار جملة من المهتمين، كما هو الشأن في صنم

قادس المنسوب إلى هرقليوس. وكان ضخما جدا، وقد رفع على منارة بساحل قادس. ويمثل هرقليوس، وهو متوشح بردائه، ومتوجه في انتصابه نحو المغرب. وقد حطمه قائد الأسطول الأندلسي، علي بن عيسى بن ميمون عند سقوط دولة المرابطين، وكان يظن أنه يخفي داخله كنزا.

والمجتمع الأندلسي مرح بطبعه، ويتذوق النكتة والنادرة، ويعشق التنكيت، حتى إن الحجاري يرى أن للأندلسيين من ذلك ما يملأ كتبا، وما يضحك الثكلى ويسلّي المسلوب. وتأسف على أنهم لم يدونوا شيئا في هذا المجال.

ومما لاشك فيه أنّ كلّ ما يثير الضحك يدخل في بابا الترفيه الذي كانت حاجة المجتمع الأندلسي إليه شديدة في محنته وما ابتلي به عبر تاريخه. وهذه الروح المرحة لا تعني الكسل. فالمجتمع الأندلسي يكدح بكل فئاته، ويرى أن الشخص القادر على العمل، إذا تسوّل من غير عذر لا يستحق الصدقة، بل يهان ويسب. ولا يعني هذا أن التحلل الأخلاقي لم يكن له هواته ومشجعوه حتى من بعض المسؤولين، بالرغم من أنّه بين المحدثين من يرى أن اتهام عصر الطوائف خاصة، بالتحلل الأخلاقي إنما كان من عمل مؤرخين في خدمة المرابطين والموحدين. لكن، ماذا يقول الشعر الأندلسي نفسه؟ وفي ذخيرة ابن بسام وقلائد ابن خاقان ما يكفي من نماذج هذا التحلل (الطائفي) الذي أفاض فيه حتى المتأخرون، وأشهرهم المقري صاحب نفح الطيب. والواقع أن أمراء الطوائف لم يكونوا كلهم على درجة قصوى من السوء، كما أن مجتمعاتهم لم يكن فيها إلا الفضلاء.

وفي بداية الدولة الموحدية وجد عبد المؤمن أوضاعا اجتماعية متردية بالأندلس، ولاحظ إقبال الكثيرين على الخمر الذي عدّه بابا للجريمة، وأمر بتتبع أماكن بيعه، وإراقته، ودراسة الأسباب المؤدية إليه، حيث يقول منشوره بالنص: "...فاعمدوا إلى السبب الذي يؤدي إلى التمكن منها، فارعوه والحظوه". ودعا إلى تعيين مراقبين لمعامل التربيب، أي صناعة الرب، وهو نوع من الخمر يصنع من العنب. وعلى هؤلاء المراقبين أن يميزوا بين ما يجوز شربه وما لا يجوز، "وكل ما تجاوز الحلال قطع أصله وفرعه". وكان لهذا المنشور صدى كبير في المجتمع الأندلسي.

ونجد التعليمات الموحدية بشأن تغيير المنكرات تستمر بعد عبد المؤمن؛ سواء عن طريق المنشورات الرسمية أو بممارسة القوة في إراقة الخمر ومحاربة الخلاعة. وقبل الموحدين كان الفقهاء هم الذين يضعون يد الدولة على أوضاع المجتمع ويحثونها على التدخل. ومن أبرزهم أبو بكر الطرطوشي الذي كتب مذكرة بعنوان: (بدع الأمور ومحدثاتها)، وهو عالم أندلسي تأثر كثيرا لما حصل من سلبيات في أوضاع المجتمعين، الأندلسي والمغاربي، وكتب إلى يوسف بن تاشفين عدة رسائل.

ومجمل القول إن النظام الاجتماعي بالأندلس، بتعدد أعراقه ومعتقداته، وبحكم طبيعة الأرض التي يعيش عليها مجتمع هذه البلاد، لامناص من أن تتجاذبه أنماط مختلفة من العادات والتقاليد، ومن ثم فإن كل فئة متأثرة بماضيها قد ينزلق بعضها أو ينجذب إلى مؤثرات بعض الأعراق الأخرى، وهذا هو حال فئات المجتمع الأندلسي الذي يعبر عن وجوده وواقعه بصور مختلفة. وتبقى المرحلة التي شهدت نهاية إمارات الطوائف ثم حكم المرابطين وقيام الدولة الموحدية بعدهم، فترة خصبة بالأحداث والمنجزات في شتى المجالات.

فهناك نمو اقتصادي ملموس، وقد أثر في تطور الكثير من المجالات الاجتماعية، وهذا ما ينبغي توضيحه باختصار.

خاتمة :

إن تطوير طرق الزراعة وتوسيع مجالاتها وما يرتبط بها، سواء عن طريق المهارات الخاصة أو إنشاء الجنائن النموذجية التي سبق إليها الأمويون، أو بتوجيهات علماء الفلاحة الذين عاش أكثرهم في هذا العصر، جعلت الإنتاج الأندلسي مطلوبا أكثر فأكثر، على الصعيدين الداخلي والخارجي، وهذا من مصلحة المنتجين وبيت المال معا... وفي الزراعة كما في غيرها من الميادين الاقتصادية توسع رواج الحركة التجارية عن طريق اليد العاملة الكثيفة في بناء السفن والموانئ والأحياء السكنية، كما تدل على ذلك كثرة الأرباض فضلا عن الفنادق. وقد كان عدد الأرجاء كبيرا في الأودية والسواحل، وذلك يدلّ على تطور أكبر في مستوى الاستهلاك، وبالتالي في تحسن القوة الشرائية.

وحتى في المجال الصحي، وبالرغم من انعدام المارستانات حتى هذا العصر بالأندلس، فإن الأوبئة التي ابتلي بها الشمال الإفريقي وهو بجوار الأندلس، كانت أوسع انتشاراً وأسوأ أخطاراً ، كما يتضح ذلك من بيانات المصادر، مثل بيان ابن عذاري وروض القرطاس. ومن الواضح أن لتطور الوعي الشعبي بالأندلس وربما لعوامل مناخية أيضاً، دوراً في التحسن النسبي للوضع الصحي بالأندلس، مقارنة بما كان عليه بالشمال الإفريقي.

ثم إن تقليص الجبايات إلى الحدّ الشرعي وإلغاء المكوس الجائرة لفترة طويلة من هذا العصر، مع اعتماد عملة اكتسبت ثقة محلية ودولية، قوّى كثيرا من حركة التبادل الداخلي ومع الخارج، بالرغم من أن حركة النقل البحري تحوّل أكثرها لصالح أساطيل عدد من الإمارات والممالك الأوربية. وتزايد العناصر اليهودية في الوساطة التجارية يفسر هذا التحول لصالح الأطراف الأوروبية، والذي تزايدت انعكاساته السلبية خلال القرون اللاحقة.

كما أن التطور الاقتصادي برعاية المرابطين والموحدين أمدَ الثقافة العربية والدراسات العلمية بدعم قوي لم تحظ به منذ رحيل الحكم المستنصر الأموي. فالدراسات الطبية والفلاحية والنباتية وحتى الفلسفية شهدت أزهر أيامها. وفي شخصية ابن رشد (الجدّ) نجد أحد أغزر الفقهاء إطلاعاً على المذاهب، وهم قلة في العالم الإسلامي، مع كونه حظي بتقدير الحكام والمحكومين.

فهذه هي صورة المجتمع الأندلسي في إحدى مراحل التحديات التي عاشها، والتي عرفت نهضة لا تزال جذورها حية حتى الآن، ولم تكن مجرد نهضة عابرة أو هشيما كما عبر بعض المحدثين الذين يرون أن حكم المرابطين والموحدين أضر بالحضارة التي شهدتها الأندلس قبلهم. والتاريخ السياسي والثقافي للأندلس أوضح طريق لتصحيح هذا الخطأ.

أ.د. إبراهيم حركات
جامعة محمد الخامس

المصادر والمراجع

أولاً - المصادر :

- ابن الأبّار القضاعي محمد بن عبد الله (658هـ / 1210م) : التكملة لكتاب الصلة، جزءان، القاهرة، 1956.
- ابن الأبّار القضاعي محمد بن عبد الله (658هـ / 1210م) : الحلة السيراء، تحقيق د. حسين مؤنس، القاهرة، 1963.
- ابن أبي زرع الفاسي علي (قرن 8هـ / 14م) : روض القرطاس، الرباط، 1971.
- ابن الأثير الجزري علي بن محمد (630هـ / 1232م) : الكامل في التاريخ، تحقيق عبد الوهاب النجار، القاهرة، 1929.
- ابن الأزرق محمد بن علي الغرناطي (896هـ / 1491م) : بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق سامي النشار، بغداد، 1977.
- الإدريسي (الشريف) محمد بن أحمد (560هـ / 1165م) : نزهة المشتاق، بيروت، 1989.
- ابن بشكوال خلف بن عبدالملك (578هـ / 1183م) : كتاب الصلة، القاهرة، 1955.
- ابن بصال الطليطلي محمد بن إبراهيم (قرن 5هـ/ 11م) : كتاب الفلاحة، معهد مولاي الحسن، تطوان، 1955.
- البيذق أبو بكر بن علي الصنهاجي (القرن 6هـ / 12م) : أخبار المهدي بن تومرت، الرباط، 1971.
- الحميدي محمد بن فتوح (488هـ / 1095م) : جذوة المقتبس، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة، 1952.
- الحميري محمد بن عبد المنعم (750هـ / 1349م) : الروض المعطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1984.
- ابن خاقان = الفتح بن خاقان عبد الله بن محمد (528هـ / 1134م) : قلائد العقيان، القاهرة، 1902.
- ابن خرداذبه عبيد الله بن أحمد (حوالي 300هـ/ 913م) : المسالك والممالك، تحقيق دي خويه De Goeje. مطبعة برايل، 1889.
- ابن الخطيب لسان الدين محمد بن عبد الله (776هـ / 1374م) : الإحاطة في أخبار غرناطة، ثلاثة أجزاء، تحقيق محمد عبد الله عنان. منشورات مكتبة الخانجي، طبع المؤسسة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 1973.
- ابن الخطيب لسان الدين محمد بن عبد الله (776هـ / 1374م) : أعمال الأعلام / ج2، تحقيق ليفي بروفنسال، بيروت، 1956.
- ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد (808هـ / 1405م) : المقدمة، القاهرة، (د.ت).
- ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد (808هـ / 1405م) : العبر وديوان المبتدأ والخبر ... الجزء 6، بيروت، 1959.
- ابن خلكان محمد بن أحمد (681هـ / 1281م) : وفيات الأعيان، جزءان، مصر، 1881.
- أبو الخير الأندلسي الإشبيلي (القرن 6هـ / 12م): كتاب في الفلاحة، فاس، 1938.
- الدباغ عبد الرحمن بن محمد الأنصاري (697هـ/ 1297م) : معالم الإيمان، الجزء 4 (ملحق ابن ناجي)، تونس، 1978.

- الدمشقي شمس الدين محمد الأنصاري القزويني (727هـ / 1327م) : نخبة الدهر، تحقيق مرين A.Mehren، ليبزيغ، 1923.
- ابن رشد (الجد) محمد بن أحمد (520هـ / 1125م) : المسائل، تحقيق محمد الحبيب التجكاني، الدار البيضاء، 1992.
- الشقندي إسماعيل بن محمد (629هـ / 1232م): رسالة في فضائل الأندلس، في كتاب نفح الطيب، 4، 177-208، للمقري أحمد بن محمد (انظر المقري).
- ابن الشماع محمد بن أحمد (قرن 9هـ / 15م) : الأدلة البينة النورانية، تحقيق الطاهر المعموري، تونس، 1984.
- ابن صاحب الصلاة عبد الملك بن محمد الباجي (594هـ / 1198م) : المنّ بالإمامة، تحقيق عبد الهادي التازي، بيروت، 1987.
- ابن عذاري المراكشي أحمد بن محمد (القرن 8هـ / 14م) : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، بيروت، 1950.
- ابن عذاري المراكشي أحمد بن محمد (القرن 8هـ / 14م) : البيان المغرب، قسم الموحدين، تحقيق جماعة من الباحثين، بيروت، 1985.
- عياض بن موسى اليحصبي السبتي (544هـ / 1149م) : ترتيب المدارك، الرباط، 1984.
- ابن القطان الكتامي المراكشي حسن بن علي (منتصف القرن 7هـ / 13م) : نظم الجمان في أخبار الزمان، تحقيق د. محمود علي مكي، بيروت، 1990.
- القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي (821هـ / 1418م) : صبح الأعشى، نسخة مصورة عن المطبعة الأميرية، القاهرة، (د.ت).
- مؤلف مجهول (القرن 8هـ / 14م) : الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، تحقيق ابن أبي شنب، الجزائر، 1920.
- مؤلف مجهول (القرن 8هـ / 14م) : الحلل الموشية، الدار البيضاء، 1979.
- المرادي أبو بكر محمد بن الحسن (489 / 1096) : السياسة، تحقيق سامي النشار، الدار البيضاء، 1981.
- عبد الواحد المراكشي بن علي التميمي (647 / 1250) : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، دار الكتاب بالدار البيضاء، القاهرة، 1949.
- المقري التلمساني أحمد بن محمد (1041هـ / 1631م) : نفح الطيب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1949.
- الونشريسي أحمد بن يحيى (914هـ / 1508م) : المعيار، بيروت، 1981.
- ياقوت الحموي شهاب الدين بن عبد الله (626هـ / 1228م) : معجم البلدان، بيروت، 1376.

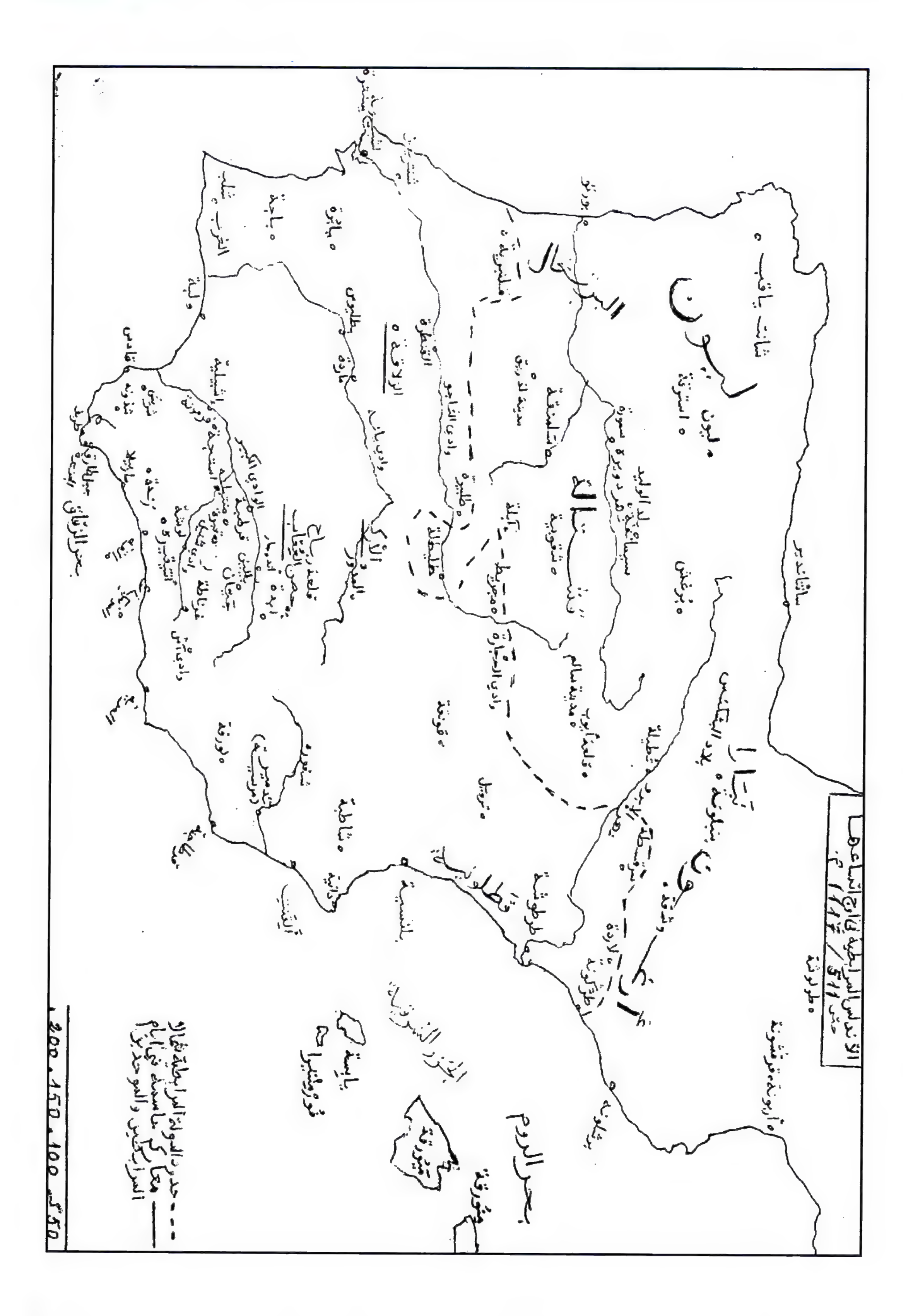
ثانياً - المراجع العربية :

- شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب، القاهرة، 1933.
- أشباخ (يوسف) ولد سنة 1801م : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة، 1958.
- عنان ، محمد عبد الله : الآثار الأندلسية الباقية، القاهرة (1381 / 1961) : دول الطوائف: القاهرة، 1960.

- لجنة موسوعة الفقه الإسلامي : معجم فقه ابن حزم الظاهري (مادة المرأة)، بيروت، (د.ت).
- لجنة موسوعة الفقه الإسلامي : مجموعة الوثائق، الجزء 1، رقم الوثيقة 88، المطبعة الملكية، الرباط، 1976.
- محمود ، حسن أحمد : قيام دولة المرابطين، القاهرة، 1957.
- مؤنس ، حسين : فجر الأندلس، القاهرة، 1959-1979.

ثالثاً - المراجع الأجنبية :

- A. Cortabarria Beltia : Les études mozarabes en Espagne, in Mélanges de l'Institut des Etudes Orientales du Caire, 1980.
- De l'Andelyn (Ch,) : Histoire Universelle, Paris, 1958.
- Guillermo Guastavino Gallent : Las monedas arabes de la Biblioteia General de Tetuan, in Tamuda, Tetuan, 1957.
- Harakat Brahim : La communauté Chrétienne et celle d'origine Chrétienne en Espagne musulmane, vues par les sources arabes, in Travaux du Colloque sur l'Occident musulman et l'Occident Chrétien, Rabat, 1995.
- Leclerc (Dr) : Histoire de la médecine arabe, 1, 71 - 116, Mouhammadiya, 1980.
- Pérès (Henri) : La poésie andalouse en arabe classique au XIème siècle. Institut d'Etudes Orientales d'Alger, Paris, 1953.
- Quillet (Aristides) : Anciclopedia autodidactica, Buenos Aires, 1939.
- Teyssier (Paul) : Le Vocabulaire d'Origine Espagnole dans l'Industrie Tunisienne de la Chéchia, in Etudes sur les Moriscos Andalous. Coordination de M. De Epalza et R. Petit. Direction Générale des Relations Culturelles, Madrid, 1973.
- UNESCO : Histoire de l'humanité, Paris, Milan, 1969.
- Vilar (Pierre) : Histoire de Espana, Librairie Espagnole, Paris, Barcelona, 1988.


الأندلس المرابطية في أوج اتساعها
حتى 511هـ / 1117م
بحر الروم

ثانياً : بـلاد المغـرب

1 - الدولة الزيريَّة

(362 - 555هـ / 972 - 1160م)

في أواخر سنة 361هـ وأوائل سنة 362هـ / 972م غادر الخليفة المعزّ لدين الله الفاطمي إفريقية (وبلاد المغرب) بصفة نهائية منتقلاً إلى مصر التي كان قد تسنّى له التغلب عليها منذ مدّة وجيزة. وولّى المعزّ على البلاد التي تركها بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي الذي بقيت بيده السلطة حتّى وفاته في سنة 373هـ / 983م، ثمّ انتقلت بعده إلى أبنائه وأحفاده بصفة وراثية تقريبا، ممّا أفرز دولة جديدة في إطار الدولة الفاطميّة هي الدولة الزيريّة أو الدولة الصنهاجية.

وفي أوائل القرن التالي (الخامس الهجري / الحادي العشر الميلادي) أي بعد بضعة عقود فقط وعلى أيدي الجيل الثاني أو الثالث من الحكّام، أصبحت الدولة الوليدة دولتين؛ إذ تمكّن أحد فروع الأسرة الزيريّة الحاكمة من أن يقتطع المناطق الغربية من مجال الزيريين ويقيم فيها أو عليها دولة جديدة موازية، "شقيقة" لكن منافسة ومعادية، هي دولة حماد بن بلكّين وبنيه أو دولة بني حمّاد. وتواصل وجود هاتين الدولتين حتى أواسط القرن التالي (السادس للهجرة / الثاني عشر للميلاد). ورغم أنّ علاقة هاتين الدولتين بالخلافة الفاطميّة قد عرفت التقلب، فإنهما تمثلان الفترة الفاطميّة غير المباشرة من تاريخ بلاد المغرب بعد الفترة المباشرة التي كان الخلفاء خلالها يقيمون بإفريقية برقادة ثمّ المهدية فالمنصوريّة.

ولقد زالت الدولتان المذكورتان في وقت متقارب (543هـ و547هـ / 1148م و1152م) سبق بقليل زوال الدولة الفاطميّة ذاتها (567هـ / 1171م) دون أن تكون أسباب الزوال هي نفسها في الحالات الثلاث.

وبالإضافة إلى الانتماء الفاطمي ووجود الدول المحليّة وتمركزها وهويّتها، فإنّ من أبرز ما يسم هذه الفترة قدوم القبائل الهلاليّة والسّليميّة إلى بلاد المغرب وانتشارها فيها وتأثيرها عليها المتّصل بكلّ ذلك.

لم يقتصر الأمر على والٍ وولاية عادية إذن، بل قامت الدولة. وبينما كانت الإمامة في الدولة الفاطميّة، رسميّا على الأقل وبصرف النظر عن الطعون، لأسرة عربيّة قرشيّة هاشميّة محمّديّة علويّة، كانت الدولة الناشئة في الإطار الفاطمي إثر رحيل الخليفة بربريّة محليّة. ومن ضمن المجموعات البربريّة العديدة الموجودة في البلاد كانت هذه الدولة لصنهاجة بالذات. فلماذا كلّ هذه الأشياء ؟

الجواب يكمن في طبيعة الدولة الفاطمية القائمة في بلاد المغرب، وفي نقل هذه الدولة مركزها نهائيا إلى المشرق ومسارها التاريخي هناك، وكذلك في هويّة الطرف المستخلف وطبيعة الاستخلاف والوضع في البلاد.

جذور الدولة الزيرية : صنهاجة في ظلّ الحكم الفاطمي :

قامت الدولة الفاطمية على كواهل السكّان المحليّين ببلاد المغرب أي البربر ذوي الكثرة الكثيرة والانتشار الجغرافي الواسع والتغلغل الزمني الكبير والتركيبة القبليّة السائدة والطاقات العسكرية والتقاليد الحربية والتوجّهات المذهبيّة المعارضة أو المناهضة غالبا، وبالتحديد قبائل كتامة. وكان ارتباط هذه القبائل بالدولة وثيقا جدّا أو لصيقا، ولهذا اصطحب المعزّ معه الكثير من أفرادها. وقد توفّر لصنهاجة جانب ممّا توفّر لكتامة وزادت عليها بأشياء منها الشخصيّة المتميّزة كما سنرى. وربّما لهذا السّبب كان المستخلف صنهاجيّا ولم يكن كتاميّا. ولقد كان لهذا المستخلف، من جهة أخرى، ملامح معيّنة في إطار ذلك رشّحته للمنصب. واستخلافه كان مباينا للولاية العادية. هذا زيادة على ما حمله التطور. ويقول ابن خلدون الذي اهتم كثيرا بتاريخ بلاد المغرب والبربر بمنهجيّة خاصة فوفّر عدّة معطيات لكن نصّه يشكو من نقائص كثيرة تعود إلى حالة المخطوطات ونوعيّة التحقيق، يقول عن الموضوع: "لمّا أخذ المعزّ في الرحلة إلى المشرق، وصرف اهتمامه إلى ما يتخلّف وراء ظهره من الممالك والعمالات، ونظر فيمن يوليه أمر إفريقيّة والمغرب ممّن له الغناء والاضطلاع، وبه الوثوق من صدق التشيّع ورسوخ القدم في دراية الدولة، فعثر اختياره على بلكّين بن زيري بن مناد، ولي الدولة منذ عهد سلفه بموجب عهد أخذه من أيدي زناتة أعدائها في الذبّ عن الدعوة والمظاهرة للدولة...". هناك حاجة إلى التولية إذا، وطلب لملامح معيّنة فيمن ستتمّ توليته، ملامح تتعلّق بالكفاءة والقدرة من جهة، وبالانتماء والولاء والطاعة من جهة أخرى، وهي أشياء تتّصل بالشخص ذاته أوّلا لكنها تتوفر أيضا بالأسرة والقوم. وقد توفّرت هذه المواصفات في بلكّين بن زيري حسب النصّ، فماذا وراء الخطوط العريضة المذكورة فيه؟

يمكن القول إنّ هناك أشياء أساسية هيكليّة وأخرى تاريخية حادثة :

فالمستخلف ينتمي إلى صنهاجة كما عرفنا، وصنهاجة تمثّل شقّا كبيرا من البربر من فرع البرانس يتّسم بكثرة العدد وتعدّد البطون والانتشار الواسع في بلاد المغرب وتنوّع أنماط العيش. فهناك أهل جبال وأهل بسائط بينهم، وأهل مدر وأهل وبر خلافا لما يعمد إليه عادة من تبسيط يجعل البرانس أهل استقرار والبتر أهل ترحّل.

ومن ضمن هذا الشقّ ينتمي بلكّين إلى فرع وطلكاتة (أو وتلكاته أو تلكاتة) الذي يحدّد ابن خلدون مواطنه بين المغرب الأوسط وإفريقية دون أن يوضّح بجلاء هل إنّ هذه المواطن تمتدّ على القطرين المذكورين المتجاورين أم إنّها تمثّل فضاء "ثالثا" انتقاليا بينهما، على أنّه يضيف إلى ذلك وفي أكثر من مرّة تحديدا أكثر دقة يعتمد المدن فيقول: "ويجاوره [أي المغرب الأوسط] من جهة المشرق بلاد صنهاجة من الجزائر إلى متيجة والمدية وما يليها إلى بجاية" (ثمّ يذكر بلاد بجاية وقسطنطينة، ثمّ إفريقيّة). ويورد في مكان آخر ما يلي: "وكان أعظم قبائل صنهاجة تلكاتة وفيهم كان الملك الأوّل وكانت مواطنهم ما بين المغرب الأوسط وإفريقيّة [...] كان أهل هذه الطبقة بنو [تلكات] بن كرت وكانت مواطنهم بالمسيلة إلى حمزة إلى الجزائر والمدية ومليانة".

والخاصيات الطبيعية والعمرانية لهذه

المنطقة يمكن أن تظهر من خلال كتب الجغرافيا مثلا. فهنالك الجبال والمرتفعات والأودية. والسكّان هم أهل مدر يمارسون الفلاحة السقويّة وتكثر لديهم الأشجار المثمرة. وتعتبر المنطقة منطقة عبور أيضا تمرّ داخلها مسالك من الغرب إلى الجنوب الشرقي خاصّة بين ساحل البحر في الشمال ووادي شلف وجبل وانشريس الموازيين له في الجنوب. وفي جوارها جنوبا وغربا هنالك فضاءات تغلب عليها البسائط وتسكنها قبائل زناتة خاصة الذين يذكرهم الإدريسي على النحو التالي: "وبين مدينة تلمسان وتاهرت يسكن بنو مرين وورتطغير وزير وورتيد وماني وأومانوا وسنجاسة وغمرة ويلومان ووركماسين وتجين وورشفان ومغراوة وبنو راشد وتمطلاس ومنان وزقارة وتيمني وكلّ هذه القبائل بطون زناتة وهم أصحاب هذه الفحوص وهم قوم رحّالة ظواعن ينتجعون من مكان إلى مكان غيره لكنّهم متحضّرون وأكثر زناتة فرسان يركبون الخيل ولهم عادية لا تؤمن ولهم معرفة بارعة وحذق وكياسة ويد جيدة في علم الكتف ولا يدرى أن أحدا من الأمم أعلم بعلم الكتف من زناتة. وهم منسوبون إلى جانا وهو أبو زناتة كلّها وهو جانا بن ضريس...".

وبالنظر إلى هذه المعطيات وكذلك إلى ما عرفه التاريخ، فكأنّ هناك تضادا بين منطقتين متجاورتين لكلّ منهما خصائصها على مستوى البيئة والسكّان ونمط العيش وحاجياتها ومصالحها أيضاً.

وتظهر صنهاجة وطلكاتة في القرن الثالث الهجري وأوائل القرن الرابع (التاسع والعاشر للميلاد) كثيرة العدد ولها هياكل قبلية وتماسك وقيادة، وهو ما يفسّر ما عرفه تاريخها في ظل الفاطميين وتأهّلها لتولّي الحكم بعدهم. وهذا الجانب الأساسي الهيكلي المتمثل في وجود المجموعة البشريّة ذات العدد والتماسك والخصال والقيادة والموقع المخصوص والجيران والمصالح ينضاف إليه جانب تاريخي حادث.

يذكر ابن خلدون ما يلي : "وكان التقدّم منهم جميعا [أي من بني ملكان بن كرت أو تلكات المذكورين سابقا] لتلكاتة، وكان كبيرهم لعهد الأغالبة مناد بن منقوش بن صنهاج الأصغر وهو صناك بن واسفان بن جبريل بن يزيد بن واسلي بن سمليل بن جعفر بن إلياس بن عثمان بن سكاد بن ملكان بن كرت ابن صنهاج الأكبر، هكذا نسبه ابن النحوي من مؤرّخي الأندلس. وذكر بعض مؤرّخي المغرب أنّ مناد بن منقوش ملك جانبا من إفريقية والمغرب الأوسط مقيما لدعوة بني العبّاس، وراجعا إلى أمر الأغالبة. وأقام أمره من بعده ابنه زيري بن مناد وكان من أعظم ملوك البربر". وإذا صحّ هذا القول فإنه فضلا عن تأكيده للمجال والزعامة يشهد بالملك الخاص ويفيد الاندراج ضمن دعوة سياسية ودينية إسلامية عامّة هي الدعوة العبّاسية وإقامة هذه الدعوة، والتبعيّة لنظام سياسيّ مغربي محلّي ينتمي إليها هو نظام الأغالبة. فهنالك تدرّج إذا من الغرب إلى الشرق أو العكس أي نحو المركز أو في اتجاه الأطراف:دولة عامّة، فإمارة تابعة، فملك خاص، هذا النظام في طرف ذاك. وهذا يساعد على فهم ما هو لاحق أي ما حصل في زمن الفاطميين.

فلقد قامت الدولة الفاطمية عن دعوة بثت في بلاد كتامة في جوار مواطن صنهاجة شرقا وضمّت بلاد الزاب وإفريقيّة ثمّ امتدّت هذه الدولة نحو الغرب فوصلت إلى تاهرت وسجلماسة (قبل أن تبلغ فاس) فطوت هكذا بلاد صنهاجة وتخطّتها. وعن علاقة هذه الكتلة القبليّة بالدولة الجديدة يواصل نفس الكاتب كلامه فيذكر موقفا معيّنا لها

منها، مع إيراد عوامل هذا الموقف والإشارة إلى تاريخ اتخاذه، فيقول متحدّثا عن زيري بن مناد: "وكانت بينه وبين مغراوة من زناتة المجاورين له من جهة المغرب الأوسط كما نذكر حروب وفتن طويلة. ولمّا استوثق الملك للشيعة بإفريقية تحيّز إليهم للولاية التي لعليّ ﷺ فيهم. وكان من أعظم أوليائهم، واستطال بهم على عدوّه من مغراوة فكانوا ظهرا له عليهم وانحرفت لذلك مغراوة وسائر زناتة عن الشيعة سائر أيامهم وتحيّزوا إلى المروانيين ملوك العدوة بالأندلس فأقاموا دعوتهم بالمغرب الأوسط والأقصى كما نذكره بعد إن شاء الله تعالى".

الموقف هو إذن التحيّز بمعنى "الانحصار في مكان دون آخر بالنسبة للأشياء" (المنجد)، والانضمام إلى طرف معيّن أو إلى موقف ما بالنسبة للأشخاص. أي عدم البقاء على الحياد أو في مقام الرعيّة العادية في الحالة الراهنة بل موالاة الفاطميين. ولعلّ عبارة "من أعظم أوليائهم" تدلّ أيضا على ذلك.

أمّا التاريخ فهو ليس دقيقا. ولئن اقتضى الكلام مرور بعض الوقت قبل التحيز المشار إليه، فإنّنا نعرف أنّ الدولة الفاطمية قد مدّت سلطاتها منذ سنة 297هـ / 909م أي في عامها الأوّل تقريبا إلى مواطن صنهاجة وبلاد تاهرت وتلمسان وسجلماسة وبدّلت الأوضاع في هذه الأرجاء ... وعلى كلّ حال لا يمكن للتاريخ المذكور أن يكون بعد عهد القائم بأمر الله (322-334هـ / 934-946م).

وفيما يخصّ العوامل التي منها استيثاق الملك بإفريقية وامتداد السلطان وشمول المواطن، هنالك ذكر لمسألة مغراوة ومسألة الولاية، ولنا أن نضيف إلى ذلك التراث الصنهاجي السابق المتمثل في الاندراج ضمن دعوة الخلافة وإقامتها والتبعية السياسية والخدمة، ولو أنّ الأمر مختلف الآن.

وفي خصوص بربر مغراوة يبدو كأنّ التناقض الذي بينهم وبين الصنهاجيين قد دفع بهؤلاء الأخيرين ربّما باكرا إلى المبادرة بموالاة الحكم الجديد استباقا لغرمائهم إليه للاستظهار به عليهم (كما يحدث عادة) وقد تسنّى لهم ذلك، ممّا جعل الطرف المقابل رغم أنّه موجود ضمن مجال الدولة الجديدة أو في امتداده يتحيّز بدوره إلى الدعوة الخلافية المنافسة ويقيمها، فصارت هنالك تحالفات واستقطاب تام، وهكذا لم يستطع الفاطميون أن يجمعوا حولهم كلّ الأطراف الموجودة ضمن مجالهم، ويعدّ هذا الأمر من مظاهر ضعف حكمهم في بلاد المغرب.

وتعطينا هذه المسألة تراكبا لعدّة مستويات من الأحداث والتاريخ:

فهنالك التناقض بين صنهاجة ومغراوة والتاريخ المحلّي أو الجهوي القديم والمتواصل، والعلاقة بين صنهاجة والفاطميين من جهة ومغراوة من جهة أخرى والتاريخ الدّولي الجديد، ثمّ العلاقة بين كلّ من صنهاجة والفاطميين من هنا ومغراوة والأمويين من هناك والتاريخ الدّولي أو العالمي الأجدّ.

أمّا الولاية التي ذكرها ابن خلدون سابقا أيضا جامعا بينها وبين ولاية مغراوة لعثمان بن عفان إذ يقول: "ولصنهاجة ولاية لعليّ بن أبي طالب كما أنّ لمغراوة ولاية لعثمان بن عفان رضي الله عنهما إلاّ أنّا لا نعرف سبب هذه الولاية ولا أصلها"، هذه الولاية الموجودة في كلمة "وليّ" و"أولياء" أيضا وذات المدلول المذهبي المرتبط بثنائية التولي والتبرّؤ الموجودة في عدّة مذاهب تقتضي منّا بعض الملاحظات: فهي لم تظهر سابقا في أيّام الأغالبة والعبّاسيين على ما يبدو. وهنالك

صنهاجيون آخرون لم يذكر هذا الأمر بالنسبة إليهم. ثمّ إن الدولة الفاطمية كان لها عقيدة ودعوة ودعاية، والدولة الأمويّة بالأندلس كذلك (ولو بدرجة أقل). ولا شكّ أنّ هذا الجانب قد استعمل في الصراع بين الدولتين، وأنّ من انحاز إلى هذا الشقّ أو ذاك قد تبنى كلّ ذلك ولو ظاهريا.

ماذا نعرف الآن عن العلاقة بعد هذا التحيّز ؟

هنالك أخبار تتعلق بثلاثة عهود من جملة أربعة حتى هذا الحين: عهد القائم بأمر الله (322-334 هـ / 934-946م) وعهد المنصور بالله (334-341هـ / 946-953م) وعهد المعزّ لدين الله (341-365هـ / 953-975م). وتهمّ هذه الأخبار زيري بن مناد (ت. 360هـ / 970م) ثمّ ابنه بلكّين ابن زيري (وقومهما بالطبع). وتمتدّ على أو إلى جملة المجال الفاطمي، لكنّها تعني خاصة المغرب الأوسط وبلاد الزاب. وهي تتّصل بالجوانب العسكرية والسياسية والإدارية والعمرانية (وتشكّل أيضا صفحة من التاريخ الفاطمي في بلاد المغرب تعرّفنا على جانب منه وتساعدنا على فهمه).

فالمناسبة الكبيرة الأولى التي ظهرت فيها نتيجة التحيّز المذكور هي ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد بين سنة 332 وسنة 336هـ / 943 و947م التي أشرفت خلالها الدولة الفاطمية على الزوال، حيث قام الصنهاجيون بدعم الفاطميين بإرسال الأمداد العسكرية والغذائية إليهم بإفريقيّة في فترة الحصار، كما عمل هؤلاء الناس ضدّ الثوار في المناطق الخلفيّة على ما يبدو، ثمّ كان لهم دور هام في النهاية أيضا بالمساهمة بقوة في التغلب على أبي يزيد في معقله الأخير غير بعيد عن مواطن صنهاجة.

وقام الصنهاجيون وعلى مدى أطول بمواجهة قوّات زناتة أعدائهم وأعداء الدولة في المغرب الأوسط، وهي مواجهة ذات صبغة رسمية وخاصة في نفس الوقت، أو هي بين الأمرين: رمى المعزّ ضمنها زعيم زناتة بقريعه زعيم صنهاجة، ولكنّه كان أيضا يسمع النتائج الإيجابية لتطوّراتها الذاتية فيسرّ.

ولقد كان الصراع طويلا ومريرا بين الجانبين لا يعرف الهوادة. مرّ بأطوار متعاقبة صورتها واضحة أحيانا في المصادر خاصّة بالنسبة لأواخر الفترة عندما دارت الحرب على زناتة ورأى زعيمها محمّد بن الخير أن يتحامل على سيفه فيذبح نفسه ... ثمّ عندما كبا بزيري بن مناد جواده فأدرك وقتل، فقام ابنه بلكّين بالثأر له ونكّل بخصومه.

ومن الأشياء "الطريفة" في هذا الصراع الوجهات البعيدة والمتضادة التي أرسلت إليها رؤوس الزعماء، حيث حمل رأس زعيم زناتة إلى القيروان بينما حمل رأس زيري إلى قرطبة. والدور العسكري الآخر الذي كان لصنهاجة هو المشاركة في الحملات العسكرية الفاطمية الكبيرة الموجّهة إلى المغرب الأقصى. ولقد كانت لهم مساهمة حاسمة مثلا في أخذ فاس أثناء حصار جوهر الكاتب لها في عهد المعزّ. يقول ابن خلدون : "و لمّا نزل جوهر فاس وبها أحمد بن بكر الجذامي وطال حصاره إياها كان لزيري في حصارها أعظم الغناء، وكان فتحها على يده، سهر ذات ليلة وصعد سورها فكان الفتح". وهذه المشاركة كأنها فتحت لصنهاجة وطلكاتة أبواب المغرب الأقصى وبدأت تعوّدهم عليه، ويشكّل ذلك نوعا من التمهيد الفعلي لما سيأتي. ويستند هذا الدور العسكري الداعم وما يقتضيه من طاقات إلى أمر آخر أساسي، سياسي وإداري هذه المرّة، يتمثّل في التولية على القوم وعلى البلاد. وكان ذلك شأن زيري بن مناد أساسا ثم ابنه بلكّين بعده. وتعود هذه التولية إلى 26 سنة

قبل وفاة الأب في سنة 360هـ / 971م حسب المصادر، أي إنّها تكون قد بدأت في زمن ثورة أبي يزيد تقريبا. وتواصلت هذه الولاية دون انقطاع (؟) بعد ذلك. وتطوّرت في الأثناء مرتقية من درجة إلى درجة حتّى وصلت إلى وضع يتّسم بالاتساع الكبير في النهاية مهّد لما هو لاحق.

يذكر ابن خلدون أنّ المنصور قد عقد لزيري بن مناد على قومه وكان هذا الأخير قد جاءه إلى بلاد الزاب على ما يبدو في أعداد من هؤلاء القوم وغيرهم وساعده على التغلّب نهائيا على أبي يزيد.

والعقد على القوم في هذه المناسبة دون أن نعرف هل إنّه تجديد لعقد سابق أم لا، هو تولية أو تأمير على هؤلاء القوم. لكن باعتبار أنّ المنتفع به كانت له الرئاسة على هؤلاء الناس سابقا كميراث، فيصبح الأمر بمثابة الاعتراف بهذا الرجل وبرئاسته والتكريس لهذه الرئاسة التي تدعّم هكذا وتدرج هي وصاحبها ضمن جهاز الدولة، وفي ذلك توظيف لهما مواز لإدماج القوم ضمن الرعية.

أصبحت لزيري بن مناد صفة رسميّة سياسية وإداريّة فاطميّة أيضا أمام قومه أو لديهم إذن، ولم يعد ذلك الزعيم النابع منهم فقط. صفتان اثنتان للرجل: تمثيل القوم وتمثيل الدولة. وخدمة هذا الطرف وخدمة ذاك. لكن هل تتّفق المصالح دوما بين الطرفين، أم يمكن أن يحدث التضارب ؟ وأي صفة تغلب على الأخرى في هذه الحالة ؟ صفة الزعيم القبلي أم صفة الوالي؟ لا شكّ أنّ زيري سيعمل من أجل توافق المصالح بضمان الاستفادة الشخصية وإفادة القوم لكن في إطار خدمة الدولة. ولعلّ الحروب ضدّ المخالفين تمكّن من ذلك.

والعقد على القوم هو عقد على مواطنهم أيضا ومن فيها من غيرهم بالتأكيد. ويذكر في هذا الصدد اتخاذ مركز جديد لهذه المواطن يزيل الغموض الذي يحيط بهذه النقطة حتى الآن.

هذا المركز هو مدينة أشير التي اختطها زيري بن مناد في عهد المنصور على ما يبدو، ربّما في أوائله في فترة ثورة أبي يزيد. وكان ذلك في مكان متّسع تتوفر فيه المياه، جديد على ما يبدو، يقع في سفح جبل تيطرا (أو تيطرى) "المنتمي" إلى سلسلة جبال الأطلس التلّي يوجد في حافتها الجنوبيّة المواجهة لمناطق الهضاب والشطوط المفضيّة إلى الأطلس الصحراوي في امتداد طولي من الغرب إلى الشرق بين الأطلسين (بالنسبة لهذه المناطق) ممّا يشكّل عنصرا أساسيا في جغرافيّة المغرب الأوسط وتاريخه ومن ورائه جغرافيّة وتاريخ كلّ بلاد المغرب. موضع يبدو في أطراف مواطن صنهاجة جنوبا لا في وسطها، بين هذه المواطن ومواطن مجموعات أخرى. وهو يوجد على طرق المواصلات أيضا. فهناك مسلكان على الأقلّ يمرّان به أحدهما يأتي من تاهرت وتلمسان والثاني من مليانة وتنس على ساحل المتوسط ويمضيان إلى المسيلة لكن ليس في خط واحد. والغاية من هذا الإحداث هي البحث عن مكان مناسب يتّسع للعدد المتزايد من الناس حول زيري بن مناد يكون مركزا لهم من جهة والتحصّن داخل المعمار الجديد وتحصين البلاد التي يوجد في أطرافها من جهة أخرى.

أما في خصوص الطابع الرسمي الدولي الفاطمي للإحداث أو على العكس من ذلك الصنهاجي الخاص فهنالك من هذا الأمر ومن ذاك. فالاختطاط والإنجاز على الأقل ينسبان إلى زيري بن مناد، بينما ينسب الأمر بالتحصين والإذن باتخاذ بعض الأنواع من المباني (القصور والمنازل والحمامات) والمساعدة الماديّة على ذلك إلى الخليفة المنصور.ويرتبط نوع المعمار بالوظيفة السياسية

والإدارية والعسكرية للمدينة وبحاجيات المقيمين فيها عموما.

وسرعان ما أصبحت أشير (أو "أشير زيري") ذات الموقع الإستراتيجي والحصانة والوظيفة السياسية والعسكرية من المدن الرئيسية في المنطقة، تدور فيها أو حولها الأحداث وتذكر عنها الأخبار. هي عاصمة جهويّة جديدة بين تاهرت والمسيلة ثم القلعة. تشكّل محطة أو خط دفاع ثانياً ضمن المجال الفاطمي ثم الصنهاجي بعد تاهرت، تصمد عادة أكثر من هذه الأخيرة.و لقد ازداد عدد سكّانها واتّسع عمرانها وارتقت حضاريا. وممّا ساعد على ذلك وفي اتصال بالموقع والوظيفة...إلخ، نقل جماعات من الناس إليها قسرا أحيانا، وكذلك انتقال أشخاص معيّنين إليها بصفة تلقائية من حين إلى آخر كالعلماء والتجار.

هذا التطور المحليّ والجهوي (الإقليمي) الذي تجسمه أشير في زمن الفاطميين والصنهاجيين يتأكّد بتطوير مدن أخرى أيضا في الجهة هي الجزائر والمديّة ومليانة التي ينسب اختطاطها (هكذا) إلى بلكّين بن زيري على عهد أبيه وبأمره.

إلى جانب منطقة أشير دون شكّ عقد المنصور لزيري بن مناد ربّما في وقت لاحق على تاهرت وأعمالها أيضا.

وإذا كانت العلاقة بين صنهاجة والفاطميين قد شهدت هذه الأحداث وهذه التطوّرات في عهد المنصور الذي عرف التغلب على الثورة ثم لم يدم طويلا بعد ذلك، فإن هذه العلاقة لم تتراجع عموما في عهد المعزّ الذي دام مدّة أطول وشهد تعزيز سلطان الدولة في بلاد المغرب وحوض المتوسّط قبل التغلب على مصر والانتقال إليها، بل تواصلت وتدعّمت. ويذكر أنّ هذا الخليفة قد عقد لزيري بن مناد على المغرب "وأقطع له ما افتتح من أقطاره". ومبدئيا الإقطاع هو غير الولاية، يختلف عنها من حيث طبيعة الصلة بين المنتفع (به) والبلاد المسندة إليه ومدى حرية تصرفه فيها واستفادته منها: فكيف التوفيق بين العقد على المغرب هكذا بصفة عامة أو مفتوحة حسب النصّ وإقطاع ما افتتح من أقطاره؟ هل إن العقد يتعلّق بما هو خاضع (عمل تاهرت مثلا) والإقطاع بما هو في أيدي الأعداء؟ إنّ الأمر الأخير، على الأقلّ، أكيد. وعلى كلّ حال هناك حثّ وحفز على الغزو ومحاربة زناتة والنفوذ الأموي. ولقد غزا زيري فعلا وتغلّب على الزناتيين وقتل زعيمهم محمّد بن الخير. وتلا ذلك نوع من الهيمنة على البلاد والارتقاء في سلّم المراتب في الدولة.

يقول ابن خلدون: "واستطال زيري وصنهاجة على بوادي المغرب، وعلت يده على جعفر بن عليّ صاحب المسيلة والزاب، وسما به في الرتب عند الخلافة وتاخمه في العمالة".

وباعتبار أن جعفر بن عليّ هذا قد ترك ولايته خوفا على نفسه على ما يبدو والتحق بزناتة والصفّ الأموي وحارب معهم صنهاجة وتغلّب عليهم وقتل زيري في المواجهة، وباعتبار أيضا أنّ بلكّين بن زيري قد قام بالثأر لأبيه وقومه عقب ذلك فإنّ المعزّ "عقد له [أي لبلكّين] على عمل أبيه بأشير وتاهرت وسائر أعمال المغرب، وضمّ إليه المسيلة والزاب وسائر عمل جعفر".

صار بلكّين يحكم قسما كبيرا جدا من بلاد المغرب يمتدّ من بلاد الزاب إلى آخر المجال غرباً في عهد المعزّ الذي عرف اتساع رقعة الدولة في أواخره خاصة. تلك هي إذن الوضعية الأخيرة لزعيم صنهاجة وقومه التي سبقت مباشرة رحيل الخليفة والتولية على البلاد.

تولية بلكّين بن زيري على إفريقية والمغرب :

نلاحظ أن المصادر التي لدينا لا تتضمّن وثيقة كتابية تتعلق بهذه التولية من شأنها أن تبيّن لنا المصطلحات المستعملة في هذه المناسبة والمجال المعني بالتولية وصلاحيات المولى وتعليمات المولّي ووصاياه ...إلخ. وفيما يخصّ مختلف هذه النقاط نجد أنفسنا مضطرين للاكتفاء بما تقدّمه لنا المصادر من إفادات (غير وثائقية).

فالكتّاب يتحدّثون عن التولية أو تولية الأمر، والولاية (ولاية فلان أو ولاية بلاد كذا)، وكذلك عن الاستعمال والاستخلاف والتفويض والتسليم والإمارة والأمير والملك والدولة... أما المجال فهو يتمثل في إفريقية والمغرب ما عدا صقلية وطرابلس حسب ابن خلدون، أو في"إفريقية وأعمالها وسائر أعمال المغرب" أو كذلك "جميع الأعمال إلاّ جزيرة صقلية [...] وطرابلس "حسب النويري.

هو مجال شاسع إذن، يجمع بين إفريقية والمغرب. يبدو مفتوحا أو عاما من جهة الغرب مع أنّ المعزّ لم يسيطر على كل المناطق الغربية رغم سعيه إلى ذلك بقوّة ومحددا بطرابلس من جهة الشرق التي تمّ استثناؤها هي وما يوجد إلى الشرق منها وعيّن عليها شخص كتامي عند المرور بها هو عبد الله بن يخلف (الكتامي)، هذا زيادة على صقليّة.

ويمكن التساؤل عن عوامل هذا التحديد أو الاستثناء في ذلك المستوى بالضبط وعن سبب اختيار رجل من كتامة لهذه المناطق. فهل سعى المعزّ من وراء ذلك إلى إحداث نوع من التوازن الإقليمي والقبلي في بلاد المغرب ؟

الصلاحيات :

يذكرها ابن خلدون كما يلي: "وأنفذ أمره [أي أمر بلكّين] في الجيش والمال وأطلق يده في الأعمال". وهي تظهر أيضا من خلال التوصيات والتعليمات والألقاب التي يوردها هذا الكتاب وغيره، إذ يقول المؤلف بأنّ المعزّ أوصى بلكّين الذي سمّاه بالمناسبة "يوسف" بدل اسمه الأصلي وكنّاه "بأبي الفتوح" ولقبه "بسيف الدولة"، "بأن لا يرفع السيف عن البربر ولا يرفع الجباية عن أهل البادية ولا يولّي أحدًا من أهل بيته"، "وعهد إليه أن يفتح أمره بغزو المغرب لحسم دائه وقطع علائق الأموية منه".

ويورد النويري من جهته الكلام التالي: "ولمّا ولّى المعزّ يوسف، ولّى أيضا أبا مضر زيادة الله بن عبد الله بن القديم نظر الدواوين بسائر كور إفريقية. وقال ليوسف عند وداعه: إنّي تركت زيادة الله بن القديم عونا لك على جميع الأموال بإفريقيّة، كبّره؟" وأوصاه وصايا كثيرة كان آخرها أن قال له: "يا يوسف، إن نسيت ما أوصيتك به فلا تنْس ثلاثة أشياء: لا ترفع الجباية عن أهل البلاد، ولا ترفع السيف عن البربر، ولا تول أحدا من إخوتك فإنّهم يرون أنّهم أحقّ بهذا الأمر منك، واستوص بأبي مضر خيراً".

ويظهر من خلال هذه المعطيات وكذلك من بعض المؤشّرات الأخرى أنّ الصلاحيات كانت تتعلق بالقيادة العسكرية والقتال من جهة، والتولية والعزل من جهة ثانية، والجباية والأموال من جهة ثالثة؛ ربّما مع بعض الحدّ بالنسبة لهذين الجانبين الأخيرين يظهر من خلال تولية ابن القديم نظر الدواوين من قبل المعزّ والتوصية به، وكذلك من خلال التوصية بعدم تولية الإخوة أو أهل البيت إذا

كان هذا الأمر الأخير صحيحا أو أصليا ولم يكن إسقاطا لاحقا ناتجا عمّا نجم عن تولية أفراد من أهل بيت الأمير كما سنرى.

أما مجال العقيدة والدعوة فإنه يبدو مستثنى، فهو لا يذكر لا ضمن الصلاحيات ولا ضمن التوصيات وما سيأتي لاحقا يؤكّد ذلك.

وفي الجملة تؤكّد التكنية بأبي الفتوح والتلقيب بسيف الدولة (المذكور سابقا) الصلاحيات السياسية والإدارية والعسكرية للمستخلف. ونلاحظ أن بلكّين كانت له ولاية شاسعة فيما مضى ومع ذلك لم يتغيّر اسمه ولم يحمل هذا اللقب إلاّ الآن، وفي ذلك دلالة على الارتقاء.

ونلاحظ من جهة أخرى الانتشار الواسع لهذا اللقب وأشباهه في المشرق آنذاك، ولا شك أن استعماله من قبل الفاطميين له دلالات.

هذا هو الوضع الأصلي؛ فهل تطوّر الأمر بعد ذلك؟ أو على الأصحّ: كيف حصل التطوّر وأدى إلى نشوء الدولة ؟

المسار خلال العقود القليلة التالية :

حافظ سيف الدولة أبو الفتوح يوسف (بلكّين) بن زيري على السلطة حتى وفاته في سنة 373هـ / 983م، وانتقل الأمر بعده إلى ابنه أبي الفتح المنصور الذي كان له ذلك أيضا (ت. 386هـ / 996م)، ثمّ صار إلى حفيده أبي مناد باديس بن المنصور حتى وفاته في سنة 406هـ / 1015م. فكان الحكم هكذا لمدّة الحياة، ينتقل من الأب إلى الابن بصفة وراثية عمليّا مع وجود ولاية العهد المسبقة على ما يبدو. لكن هنالك أيضا التقليد الرسمي من قبل الخليفة في مصر عن طريق الرسل والسجلات ولو بتأخير زمني لا بأس به أحيانا، زيادة على ارتضاء الخلافة لولي العهد أو الاعتراف به وربّما ترشيحه. فظهرت هكذا وعلى هذا النحو سلالة الولاة أو الأمراء أو الملوك الزيريين في نوع من المواصلة لما وجد سابقا في الإطار الصنهاجي.

وفيما يخصّ مكان الإقامة، شيّع بلكّين المعزّ إلى نواحي صفاقس حسب ابن خلدون أو إلى سردانية حسب النويري، وهي منتزه بقرب جلولا وفق ما كتبه البكري في مسالكه " ليس بإفريقية موضع أجمل منه فيه ثمار عظيمة وفيه من النارنج خاصة نحو ألف أصل"، "وبين مدينة القيروان ومدينة جلولا 24 ميلا".

ثم عاد بلكّين و"نزل قصر معدّ بالقيروان" حسب المصدر الأول واضطلع بالولاية، أو قصر السلطان بالمنصورية حسب المصدر الثاني.لكن هذا الأمير ما لبث أن رحل إلى الغرب. ورغم أنّه عاد من هناك لاحقا إلاّ أنه قضّى في الجملة قسما هاما من عهده الذي امتد على أكثر من 10 سنين بين المغرب الأوسط والمغرب الأقصى في محاربة زناتة والنفوذ الأموي كما عهد إليه بذلك المعزّ وخاصّة خلال حملته الطويلة (369-373هـ / 979-983م) التي قام فيها بعدّة أعمال ووصل إلى نقاط قصوى، وتوفي في أواخرها عن مرض بين سجلماسة وتلمسان.

ولقد بلغ نبأ وفاة بلكّين إلى ابنه ووليّ عهده المنصور وهو مقيم بأشير التي كان يتولّى حكمها. وإلى هذه المدينة جاءه وفد إفريقية الذي يتألف من عبد الله بن محمد الكاتب عامل هذه البلاد ومشايخ القيروان والقضاة وأصحاب الخراج للتعزية والتهنئة.

ولقد تطوّر الأمر في هذا المجال، مجال مكان الإقامة، وفي غيره أيضا مع المنصور. فكان هذا الأمير بين الإقامة بإفريقية والإقامة بأشير. ولقد بني له قصر في ناحية القيروان في سنة 376هـ /

986م نزله عند قدومه من جديد إلى هذه البلاد في سنة 377هـ / 987م.

وزاد التطور وضوحا مع باديس الذي "رحل [بعد أن صار الأمر إليه] إلى سردانية يوم الأربعاء لأربعة عشر ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة 386هـ / 996م ونزل في قصرها، وأتاه الناس من كلّ ناحية بإفريقية للتهنئة والتعزية.وأقام بسردانية أيّاما ثمّ رجع إلى قصره".

ويذكر خروج هذا الأمير أكثر من مرّة بعد ذلك من إفريقية غازيا ورجوعه إليها. ولما توفي في معسكره قرب المحمّدية / المسيلة وهو محاصر لحمّاد في "القلعة" القريبة، حمل إلى إفريقية حيث كان يوجد ابنه ووليّ عهده المعزّ.

وكان المعزّ هذا الذي لم يكن قد تجاوز تقريبا الثامنة من العمر آنذاك موجودا مع عمّته السيّدة أم ملال بالمهدية في ذلك الوقت، وإلى هناك جاءه وفد القيروان المتكوّن من العامل (عامل القيروان) منصور بن رشيق وجماعة القضاة والفقهاء والمشايخ وشيوخ صنهاجة للتهنئة والتعزية. ثم وصلت إليه العساكر العائدة من المحمّدية والتي مرت قبل ذلك بالمنصورية، وقد استعرضها المعزّ ثم سار إلى القيروان ومنطقتها.

صار الأمير يقيم بصفة متزايدة بإفريقية إذن، وأخذ يستقرّ فيها بالتدريج. وستكرّس التطوّرات اللاحقة هذا الأمر وتجعله نهائيا.

وكان محلّ هذه الإقامة في منطقة القيروان. وتذكر المنصورية أساسا في هذا المجال إلى جانب الحديث عن رقادة وسردانية أحيانا. أما المهدية فهي لا تظهر في النصوص إلاّ عند الكلام عن تولّي المعزّ بن باديس كما تقدّم.

ويتمثل الإطار المادي لهذه الإقامة في القصور سواء كانت قديمة موروثة مثل "قصر معدّ "(أي المعزّ) المسمّى أيضا "قصر سلطان"، أو جديدة محدثة مثل قصر المنصور الذي بناه له في غيابه يوسف بن عبد الله بن محمد الكاتب الذي استخلفه أبوه بالقيروان عندما صاحب الأمير إلى الغرب و"بلغ الإنفاق عليه 800 ألف دينار، ثم عمل عليه وعلى قصر بجواره كان بناه قديما شفيع الصقلبي صاحب المظلة سورا محدقا عليهما. وغرست حوله الأشجار من كل جهة". ولم تبق هذه القصور قائمة بطبيعة الحال. ولم تبق منها كذلك أطلال تذكر تنبئ عن صفتها. هنالك فقط ذكر لبعض مكوّنات هذه المباني أحيانا، إلى جانب الحديث العام عن الفخامة والترف (في الملك أو في حياة الأمير).

وكان الوسط البشري الذي يعيش فيه الأمير ذا طابع أسري عشائري زيري منادي من جهة وقبلي وطلكاتي صنهاجي من جهة أخرى. إلى جانب وجود أناس آخرين ضمنه لهم انتماءات أخرى مختلفة قبليا وعرقيا. ولهذا الوسط وظائف سياسية وإدارية وعسكرية وكذلك اجتماعية وغيرها... ويظهر عدد من أسماء الأعلام في المصادر وكذلك بعض المجموعات المتوسّطة الاتساع والجماعات الكبيرة توردها النصوص في سياق سردها للأحداث بتسميات مختلفة أحيانا، مثل الحرم والقرابة وبني مناد وجماعة بني مناد ووجوه بني مناد وأولاد زيري والأعمام أو العمومة ووجوه بني العمّ وأهل الدولة وأكابر الدولة والقواد وأيضا الوطلكاتتين وصنهاجة والعبيد.

وقد اتسم الحريم واتسمت أسرة الأمير بالاتساع منذ البداية، فيذكر أنه قد كان لبلكّين " قبل أن يستخلفه المعزّ لدين الله على المغرب قصور تشتمل على 400 جارية، فيقال إنّ البشارات تواترت عليه في يوم واحد بولادة 17 ولدا". كما ينسب نفس الكاتب - أي النويري - لابن حزم ما يلي:

"حكى الشيخ أبو محمد بن حزم في كتابه المترجم بنقط العروس أن بلكّين بن زيري كان له في موضع ألف امرأة لا يحلّ له نكاح واحدة منهنّ، كلّهن من نسل إخوته وأخواته، ومن الرجال مثل هذا العدد". والملاحظ أن هذا المعطى الأخير يوجد في مصادر أخرى أيضا. وهنالك من الكتاب من يذكر زاوي بن زيري عوضا عن بلكّين بن زيري ضمنه. لكن بما أن الرجلين أخوان فلا يتغير شيء كثير في الأمر، اللهم إلا إذا أخذنا في الاعتبار الفارق في السنّ وفي تاريخ الوفاة، فزاوي توفي بعد بلكين بكثير وفي ذلك فرصة كافية ليتّسع النسل ويتشعّب.

واتساع الحريم وكثرة النسل اللذان تظهرهما المعطيات السابقة (فنحن إزاء عشيرة كاملة أو قبيلة تقريبا، خاصة لو كانت الفترة المقصودة مبكّرة) لهما صلة بالبعد القبلي (البربري) والاجتماعي السياسي والعسكري للقوم. ونعرف عددا من أسماء بني زيري يمكن أن تقام بواسطتها أجزاء من شجرة نسب الأسرة تعوّض ما لم تقم به المصادر.ولا شكّ أنّ هنالك عقلية خاصة لدى هؤلاء الناس أصحاب النسب والزعامة القبلية والقوة والحكم في مفتتح الدولة الجديدة، قوامها نظرة معيّنة إلى النفس وإلى الآخرين، فيها شعور بالقيمة والحق...إلخ. وربّما هذا ما جعل الأمير يحرص على وجودهم قريبا منه دوما في الحلّ والترحال، لمراقبتهم، فلا يتركهم هكذا وحدهم لا في مواطن صنهاجة ولا بإفريقية. ويذكر أن باديس قد رفض أن يبتعدوا عنه...

وسنعود إلى هذه الاعتبارات لاحقاً لأنها تشكّل أحد جوانب تاريخ الدولة.

من جهة أخرى تطورت سلطة الأمير فصارت أكثر اتساعا على مستوى الامتداد الجغرافي. فمنذ سنة 367هـ / 977م أي 5 أعوام فقط بعد بداية الحكم، زال الاستثناء تقريبا مغربيا وأضيفت طرابلس وسرت وأجدابية إلى مجال بلكّين. طلب هذا الأخير ذلك من الخليفة الفاطمي الجديد نزار العزيز بالله بن معدّ المعزّ لدين الله فاستجاب لطلبه. وهنالك دون شك دلالات لكل من الطلب والموافقة. وأصبحت هذه المنطقة الواسعة ذات الموقع الإستراتيجي في مدخل بلاد المغرب معنيّة بالدولة الصنهاجية الناشئة في ذلك الوقت. غادرها صاحبها الأول الكتامي وولّى عليها الأمير الزيري من قبله. ويعلق ابن الأثير على هذا الحدث من زاوية تدعم سلطة الأمير فيقول: "واستعمل عليها يوسف عمّاله وعظم أمره حينئذ وأمّن ناحية العزيز واستبدّ بالملك وكان يظهر الطاعة مجاملة ومراقبة لا طائل وراءها".

وزادت السلطة اتساعا أيضا بتجاوز ما اشتبهنا في وجوده من حدود في مجال التولية والعزل بالعقد لأفراد البيت الزيري على البلاد كما سنرى وبما نال ابن القديم من حبس وغيره.

بقيت مسألة القيام بالدعوة أو تولية الدعاة الذين يرسلون من مصر أو تعيّنهم الخلافة ممّن يوجدون في البلاد، خارج صلاحيات الأمير. لكن لم يبق هؤلاء الناس ذاتهم فوق نفوذ هذا الحاكم، إذ تدعّم سلطانه على حسابهم هم أيضا.

كما يظهر تدعم سلطة الأمير واشتدادها من خلال العلاقة بالعمّال وبكتامة وبالخلافة ذاتها...إلخ. وتذكر أشياء عن المنصور في هذا الصدد في بداية عهده ثم لاحقا حيث ينسب إليه الموقف والقول التاليان عند استقباله الوفد القادم عليه من إفريقية وهو بأشير إثر توليه الحكم : "وأتاه عبد الله بن محمد الكاتب ومشايخ القيروان والقضاة وأصحاب الخراج، فعزّوه وهنئوه بالولاية، فأكرمهم وعظمهم وأحسن جوائزهم وأعطاهم 10 آلاف دينار فدعوا

لـه وشكروه. فقال لهم: "إنّ أبي وجدّي أخذا النـاس بالسيف قهرا، وأنـا لا آخذ النـاس إلاّ بالإحسان. ولست ممّن يولى ولا يعزل بكتاب، ولا أحمد في هذا الملك إلاّ الله ويدي. وهذا الملك مازال في يد آبائي وأجدادي ورثناه عن حِمْير". وكلام كثير في هذا المعنى ثم قال لهم: "انصرفوا في حفظ الله فإنّ قلوب أهليكم مشغولة بكم. فانصرفوا". ورغم هذا الكلام عن الإحسان فإنّ السيف والرمح أو السيوف والرماح وأوّلها رمح الأمير كانت حاضرة بقوّة في حالة عبد الله بن محمّد الكاتب هذا ذاته وابنه يوسف من جهة، والداعي أبي الفهم وكتامة من جهة أخرى. وتوجد نقاط مشتركة وربّما صلة بين الحالتين.

فيذكر أنّ أبا الفهم حسن بن نصرويه الخراساني قدم في سنة 376هـ / 986م من مصر من قبل نزار داعيا. وبعد أن وصل إلى وجهته كتامة مرورا بالقيروان التي أكرم فيها وأعطي ما طلبه، شرع في الدعوة ثم أخذ في جمع العساكر ولقي تجاوبا كبيرا من الناس. لكن هذا لا يعني أنّ أبا الفهم قد انقلب بفعله الأخير هذا ثائرا على الفاطميين، لأن الخليفة نزار أمر المنصور بأن لا يتعرض له ولا لكتامة بعد أن أعلمه هذا الأخير بما يحدث وربما استأذنه في التدخّل. وهكذا يكون العمل العسكري الذي يعدّ له أبو الفهم مسموحا به أو مبرمجا، والمستهدف من ورائه هو الأمير الزيري دون شكّ. وإذا كان نصّ النويري يكتفي بالإفادة الضمنية، فإنّ ابن الأثير يوضّح الأمر.

وكان ردّ فعل المنصور على هذه الأحداث أن منع موفدي الخليفة اللذيْن حملا إليه النهي المذكور وأغلظا له القول بالمناسبة مثل فعله هو معهما، منعهما من الالتحاق ببلاد كتامة بمفردهما ثم أخذهما هو معه إلى هناك عندما قصد هذه البلاد على رأس الجيوش وذلك حتى يشاهدا ما سيفعله ويخبرا الخلافة بما يريانه.

ولقد اجتاح المنصور البلاد ابتداء من ميلة فدمّر ونهب وهجّر قبل أن يلاقي العساكر المعادية عند مدينة سطيف وينتصر عليها ثم يظفر بالداعي فيقتله بيده ويجعل عبيده وغيرهم يأكلون لحمه.

قام المنصور بإحباط المشروع الراهن المعادي له إذن، وعاقب كتامة لاستجابتها للتجييش وربّما لمواقفها السابقة أيضا، وعمل على إضعاف هذه الكتلة مستقبلا لكي لا تبقى تشكّل عنصر قوّة وموطن خطر تعوّل عليه الخلافة. وكلّ ذلك حماية للملك.

ولقد حدثت ثورة أخرى هناك بعد مدّة وجيزة يبدو أن طبيعتها مختلفة عن الثورة السابقة على مستوى القيادة والغايات، لكن فيها بالتأكيد ردّ فعل من قبل السكان على ما حدث من قبل. ولقد تمّ قمع هذه الثورة بدورها وبشدّة. وعرفت كتامة بعد ذلك وضعا جديدا يقطع مع الوضع الممتاز الذي كان لها في زمن الفاطميين وقبله أيضا، حيث شحنت بالعمّال والعساكر وخضعت للاستخلاص الجبائي.

أما عبد الله بن محمد الكاتب الذي تتوفّر لدينا معطيات عن انتمائه الأصلي وتكوينه وبداياته المهنية، والذي صار له شأن كبير في جهاز الدولة، فإنّ الخليفة قد كتب بأن يجعل إليه أمر الدعوة أو جعله داعيا. وضمنيا هنالك أشياء عليه أن يقوم بها وعلى الأمير أن يمكّنه منها.

وأخذ عبد الله الدعوة بالفعل على المنصور في مشهد معبّر ينير جانبا من الدولة الفاطمية وكذلك من الدولة الصنهاجية. ولقد شعر عبد الله بالارتقاء وارتفاع المنزلة إثر ذلك، واعتقد أنّ صفته الجديدة تمنحه الحصانة تجاه الأمير، وأحسّ باطمئنان لم يكن موجوداً لديه رغم ما كان له من

شأن أو بسبب ذلك حيث قال بعد أن مسح بيده على رأسه: "الآن قد خلصت من القتل وأمنت على شعري وبشري".

إلاّ أنّ هذا الرجل اتّهم بإضمار الغدر، فقتله المنصور بنفسه هو وولده يوسف، وساعده في ذلك بعض الزيريين الآخرين.

يتبيّن لنا من خلال هذين الحدثين وغيرهما أيضا وجود ظاهر وباطن للعلاقة مع الخلافة؛ ويتمثل الظاهر في البيعة للخليفة وطاعته والدعاء له من طرف الأمير ومن إليه، وفي تولية هذا الأخير أو تقليده والرضا عنه من جانب الخليفة، وكذلك في التواصل بين الطرفين عن طريق الرسل والسجلات والهدايا في الاتجاهين في بعض المناسبات بالخصوص.ويقوم وزراء الأئمة الفاطميين وكتاب الأمراء الزيريين وعمّالهم بدور أساسي في هذا المجال باعتبار أنّ مهمّة الكتابة والإرسال والتلقي تعود إليهم وكذلك لسيطرتهم على جهاز الدولة وتدبيرهم لشؤون الحكم خاصة بالنسبة للوزراء (فتأثير الكتاب والعمّال على الأمراء أقلّ) نظرا لطبيعة الإدارة الفاطمية ولما يطرأ على الخلافة من عوارض. وقد تنشأ صلات خاصة بين رجال الإدارتين، فالاتصال إنّما يتمّ عن طريقهم هم أوّلا.

ونعرف العديد من الحالات التي يظهر فيها التواصل المذكور فتتضح طبيعة المناسبات وهويّة الموفدين ومضمون السجلاّت ومحتوى الهدايا. ويمكن أن نشير في هذا الصدد إلى ما يورده النويري عند تعرّضه لما حصل عقب انتقال الخلافة من العزيز بالله إلى ابنه الحاكم بأمر الله ومرور الحكم بإفريقية بشكل مواز تقريبا من المنصور إلى ابنه باديس.

أما باطن العلاقة أو الوجه الآخر لها الموجود ضمنيا باستمرار والذي يتراءى بشيء من الوضوح أحيانا، فيتمثل في استقلال الأمير بالبلاد استقلالا حقيقيا تقريبا ينبني على تكامل أركان الملك الزيري وتمسك أصحابه به وصعوبة إزالتهم عنه، هذا من جهة، وفي محاولة الخلافة من حين لآخر إنهاء هذا الحكم على ما يبدو من جهة أخرى، لكن بصفة غير مباشرة أو محدودة فقط، وذلك عن طريق استعمال الطاقات العسكرية المحليّة وخاصة كتامة إلى جانب عدد من العمال والدعاة، أو أطراف خارجية غير قوية مثل بعض الدعاة دوما وبعض القادة والعساكر الذين يفدون عن طريق برقة وطرابلس.

والجدير بالملاحظة أن بعض الهزّات التي شهدتها العلاقة تمّ تجاهلها في المراسلات الرسمية التي تلتها.

تم التركيز فيما تقدم على الأمير وسلطته، لكن تضمنت المعطيات التي أوردناها أشياء عن بعض الجهات أيضا، فماذا الآن عن صلة البلاد في عمومها بالحكم الزيري ؟

البلاد والحكم :

يمكن القول بأن جهاز الدولة الصنهاجية الناشئة قد عوّض جهاز الدولة الفاطمية بإفريقية. وفي الحقيقة هنالك قدر هام من التواصل في الأول خاصّة على مستوى المؤسسات والأشخاص وحتّى المباني؛ تواصل يرمز إليه حلول الأمير في قصر السلطان عند رجوعه من تشييع الخليفة، وتولية ابن القديم والتوصية به والوظائف المسندة إليه...إلخ. وهكذا لم تعرف البلاد خاصّة باعتبار الاستقرار التدريجي للأمير فيها فترة فراغ على مستوى السلطة بعد رحيل الخليفة عنها، مثلما لم تعرف ذلك عندما انقضى حكم الأغالبة داخلها أو حتى عندما تمّ الانتقال من عصر الولاة إلى نظام الإمارة فيها.

ونتيجة لذلك وربّما غيره أيضا، يبدو الوضع في هذه البلاد مستقرا حسب المصادر على الصعيد الأمني الواسع إلاّ ممّا يذكر عن الفتنة الغامضة بين ابن القديم وعبد الله بن محمد الكاتب في القيروان وغيرها في السنين الأولى. والأعمال التي قام بها فلفول بن سعيد بن خرزون المغراوي ومن معه من زناتة وغيرهم من البربر لأسباب مختلفة في سنة 389هـ / 998م وما تلاها في مجال يمتدّ من طبنة إلى بلاد طرابلس مرورا بتيجس وباغاية وغيرها. وقد تركّز أمر هذا الزعيم الزناتي في المناطق الجنوبية خاصة (طرابلس وقابس ونفزاوة) وكذلك الثورة بالشيعة في القيروان وغيرها في بداية عهد المعزّ. وبعض الأعمال الأخرى الأقلّ شأنا.

وبالنسبة لبلاد كتامة (ميلة وسطيف... إلخ) رأينا ما شهدته من حركات وما تعرّضت له من قمع وما اتّخذ ضدها من إجراءات قلبت الوضع فيها رأسا على عقب...

أمّا بالنسبة للمناطق الغربية من الدولة (وراء بلاد كتامة) التي عرفت وضعا هيكليا قديما يتميّز باشتمالها على مواطن صنهاجة أعوان الفاطميين (ثم أصحاب الدولة الجديدة التي خلفتهم) واحتوائها أيضا أو مجاورتها بالخصوص لمجالات القبائل الزناتية الكبيرة (في الغرب أساسا) وللنفوذ الأموي فيها، وهو وضع اقتضى في السابق تدعيم قوّة صنهاجة ودفعها نحو العمل العسكري والقيام بحملات عسكرية كبيرة من حين لآخر تنطلق من مركز الدولة، حملات تحقق نتائج سريعة وضخمة أحيانا باعتبار انسحاب زناتة أمامها نحو الغرب أو توغلها في الرمال المألوفة لديها ثم يعود الوضع حال انتهائها إلى ما كان عليه سابقا أو أكثر نظرا لمحافظة المنسحبين على قواهم وسرعة حركتهم وتمرّسهم ودربتهم التي تزداد تدعّما، هذه المناطق مازالت تعرف نفس الوضع وتحتاج إلى نفس العناية. لكن يمكن القول بأنّ الانتقال التدريجي لمركز الثقل السياسي والعسكري الصنهاجي ممثلا في الأمير ومن حوله إلى إفريقية واستقراره شيئا فشيئا فيها قد تمّ على حسابها.

فلقد اهتمّ بلكّين (362-373هـ/973-983م) كثيرا بهذه الجهات بصفة شخصية بعد توليه الحكم، ووصل إلى نقاط قصوى كما ذكرنا في مواجهة زناتة والنفوذ الأموي ومحاربة برغواطة فهزم الأمراء والحكام وقتل منهم واستولى على المدن والجهات (سجلماسة وفاس...) وفرّ الناجون منه إلى سبتة قبالة الأندلس واستنجدوا بأصحابها فأنجدوهم. وفتح بلكّين طريقا في الأوعار والصحاري إلى هذه المدينة الحصينة وأشرف عليها وعليهم. لكنه لما أدرك صعوبة التغلّب على أعدائه تركهم وانصرف إلى محاربة برغواطة فقتل ملكهم ...

لكن بعد وفاة بلكّين في أعقاب الغزوة المذكورة عادت الأوضاع إلى ما كانت عليه ورجعت كل من فاس وسجلماسة إلى أمراء زناتة.

ولقد واصل المنصور (373-386هـ / 983-996م) هذه السياسة وهذا العمل على نفس النسق تقريبا في الأوّل، فسعى إلى استرجاع ما فقد، ووصلت عساكره باكرا سنة 374هـ / 984م إلى عمق المغرب الأقصى (جهة فاس). لكن هذه العساكر لم يقدها الأمير بنفسه بل أرسلها مع أحد ولاة المناطق الغربية وهو يطوفت بن بلكّين والي أشير.

ولقد مني الصنهاجيون بهزيمة شديدة في هذه الغزوة على يدي صاحب فاس زيري ابن عطيّة المغراوي، وكانت خسائرهم كبيرة.

ونتيجة لهذا الانهزام ولعوامل أخرى أيضا دون شكّ مثل الانجذاب نحو إفريقية وشخصية

الأمير الجديد ذاتها ونظرته للأشياء وعلاقته بالخلافة وموارده المالية، ظهر توجّه آخر لدى المنصور في مجال العلاقة مع الأطراف الموجودة في الغرب يتمثل في الكفّ عن الحروب البعيدة المدى في هذا الاتجاه.

وهناك نسق آخر لهذه السياسة يتضح من خلال علاقة هذا الأمير بسعيد بن خزرون المغراوي الذي قصده بأشير في سنة 379هـ / 989م فأكرمه المنصور وقرّبه وأعطاه الأموال وولاّه على طبنة. ويذكر أن هذه العلاقة قد أحدثت ردّ فعل سلبي كاره لها لدى بعض الزيريين، فقال له المنصور:"كان أبي وجدي يستتبعانهم [أي زناتة] بالسيف، وأمّا أنا فمن رماني برمح رميته بكيس حتى تكون مودّتهم طبعا واختيارا". وتواصلت هذه الروابط حتى وفاة سعيد بن خزرون في أوّل رجب 381هـ / 991م عن مرض وهو زائر للمنصور، فعقد هذا الأخير ابنه فلفول بن سعيد الذي قدم إليه إثر ذلك على ما كان لأبيه.

غير أن العلاقات بين المنصور وأمراء زناتة في الغرب ومن ورائهم الأمويون في الأندلس لم تعرف تحوّلا نحو السلم والودّ سواء قبل انضمام سعيد أو بعده، وانضمام هذا الأخير إنّما كان في ظلّ الصراع دوما لكن على أساس التوجه الجديد الذي اتضح دون شكّ، إذ استمرت الأعمال العدائية بين الجانبين ولو أنها تبدو أضيق نطاقا ممّا مضى.

ومن فصول هذه العلاقات ما حصل عند التجاء أبي البهار بن زيري عمّ المنصور إلى هذه الأطراف كما سنرى.

أما في العهد التالي، عهد باديس (386-406هـ / 996- 1015م)، فإن أول مواجهة مع زناتة تذكرها المصادر تبدو ذات طابع دفاعي من جانب الصنهاجيين (وهجومي طبعا من الجهة الأخرى) مما يعبّر عن العلاقة وعن السياسات وربّما الموازين أيضا. فلقد تعرضت تاهرت الحدّ الغربي للمجال الصنهاجي في أغلب الأوقات ومقرّ آخر عامل يذكر في اتجاه الغرب والتي كثيرا ما تستهدف وأحيانا تسقط (وتلمسان لا تظهر مثلها في النصوص)، تعرّضت إلى الغزو في سنة 389هـ / 998م من قبل صاحب فاس زيري بن عطيّة المغراوي. وكان يليها يطوفت بن بلكّين (عمّ باديس). ولقد أعلم هذا الوالي الأمير بإفريقية وطلب منه المدد فوجّه إليه باديس (ابن الخمس عشرة سنة فهو أول أمير صبي عند الصنهاجيين بحكم نظام الحكم)، وجّه إليه جيشا مع محمّد بن أبي العرب مرّ بأشير التي كان يتولاّها حمّاد بن بلكّين، فسار معه هذا الأخير في عساكره. وتمّ اللقاء مع زيري بن عطية غربيّ تاهرت فانهزمت الجيوش الصنهاجية وفقدت العديد من عناصرها زيادة على أمتعتها حتى وصلت إلى أشير التي ألمّ بها الزناتي هي الأخرى لاحقا مرورا بتاهرت...

واستدعى هذا التطوّر الخطير خروج الأمير باديس من إفريقية على رأس حملة كبيرة هامة باعتبار ما شهدته عموما وما وصلنا عنها من معطيات تعرّفنا على البلاد في أهمّ مسالكها ومراكزها وعدد من الأطراف الموجودة فيها في نوع من المقطع الأفقي لها زيادة على الإخبار عن الأحداث والعلاقات. لكنّ تمّ الاكتفاء بإبعاد العدوّ أو على الأصحّ ابتعاده عن أشير ثم تاهرت وتوغله غربا دون مواجهة. ثمّ كانت العودة نحو الشرق. وقد يكون من أسباب هذا القفول "السريع" الأعمال التي بدأ يقوم بها فلفول ابن سعيد ومن معه في داخل المجال بعد أن خرج عن الطاعة خوفا أو طمعا.

وممّا يذكر أيضا في عهد باديس في مجال

العلاقة مع زناتة غربا ما يورده ابن خلدون في خصوص مواجهة حماد بن بلكّين لهذه الأطراف، وهي معطيات تتراءى لنا من خلالها صراعات تتسم بالطول والشدة والتفوّق الصنهاجي هذه المرة، لكن دون أن نعرف المجالات بالتحديد ولا التفاصيل. ولعلّ أخبار زناتة عند نفس المؤلف تزيل الغموض عن بعض الجوانب.

كما اتّضح من الأخبار المتقدّمة، احتاج الأمير الصنهاجي إلى تعيين البعض من أفراد أسرته على البلاد الغربية: تاهرت وأشير والمسيلة... (رغم ما ينسب للمعزّ لدين الله الفاطمي من توصيات)، وذلك مراعاة لمصالح مختلف الأطراف دون شكّ: قبائل صنهاجة والأسرة الزيرية والدولة. القبائل تقطن هناك ومنها تعبأ معظم العساكر: عدم تولية "غرباء" عليها لقيادتها وحكمها بل أناس منها تطمئنّ إليهم وتقرّ لهم بالزعامة. والأسرة يتمّ إشراك البعض من أفرادها في القيادة والحكم والانتفاع. والثغر يتم ضمان الدفاع عنه وعن الدولة على أيدي أناس يحرصون على مصلحة الحكم الزيري وبإمكانهم أن يقودوا صنهاجة.

والملاحظ أننا لا نجد ذكرا في المصادر لمثل هذا الأمر بالنسبة للجهات الأخرى من المجال.

ولقد بدأت هذه التولية باكرا وتواصلت دون توقف فيما بعد على ما يبدو. وتعلّقت بأبناء الأمراء وإخوتهم وأعمامهم لكن بنفس الأشخاص تقريبا دون تعدّد كبير (مع بعض النقل أو الانقطاع أحيانا ثم الرجوع) مما يدلّ على وجود نوع من الاختصاص. على أن الوجه الآخر لهذا الاختصاص هو بقاء أفراد آخرين عديدين هم الأغلبية في الحقيقة بمعزل عن هذه المناصب.

فلقد ولّى بلكّين ابنه المنصور على أشير، وولّى المنصور إخوته أبا البهار ويطوفت وحمّادا، وولّى باديس بدوره هذين الأخيرين.

ولقد تميّز حمّاد بطول الخدمة كما سنرى. كما تميّز بالفاعلية في الدفاع عن البلاد لكن في الشطر الثاني من مساره كوالٍ فقط، وهو الأمر الذي كان نسبيا لدى غيره من الولاة الزيريين.

على أن هنالك أمرا آخر ارتبط بتولية بني زيري على البلاد وربّما بحرمانهم من ذلك أيضا، وهو الخلاف على الأمير الذي أدّى في النهاية إلى نتائج خطيرة دائمة تتعلق بوحدة الأسرة والدولة.

الخلاف بين الزيريين وانقسام الأسرة و"اقتسام" البلاد :

بدأت ظاهرة الخلاف منذ عهد المنصور عندما خرج عليه عمّه أبو البهار بن زيري لأسباب لا نتبيّنها جيدا، إذ يكتفي ابن الأثير بالقول : "وفي هذه السنة أيضا [379هـ / 989م] خالف أبو البهار عمّ المنصور بن يوسف بلكّين صاحب إفريقية عليه، لشيء جرى عليه من المنصور لم يحمله له لعزّة نفسه". ولمّا قصد المنصور عمّه هذا الذي ربّما كان بتاهرت أو منطقتها، فرّ أمامه نحو الغرب في آخرين معه فعاد عنه الأمير بعد ملاحقة دامت مدّة (هذا بعد بداية السياسة الجديدة تجاه زناتة وفي مجال الغزو البعيد). واتصل أبو البهار بالأمويين في الأندلس على ما يبدو عن طريق بعض الأطراف المحلّية الموالية لهم دون شكّ، وربّما ارتهن ابنه عندهم أيضا فأصدروا الأوامر إلى هذه الأطراف بدعمه والتعاون معه. ويبدو أنهم قد قاموا جميعا بأعمال تنتهك المجال الصنهاجي قبل أن يعدل أبو البهار عن كلّ ذلك ويعود إلى المنصور فيرضى عنه هذا الأخير.

والحدث الثاني المعروف في مجال الخلاف يتعلّق بأولاد آخرين لزيري غير أبي البهار دون شكّ

الذي حرص على الطاعة ولزم الحذر بعد الذي حصل له. وقد جدّ هذا الخلاف عند وفاة المنصور وتولي ابنه باديس ثم أثناء عهد هذا الأخير، حيث يذكر ابن الأثير باقتضاب شديد أنّ بني زيري (هؤلاء) أرادوا أن يخالفوا على الأمير الجديد "فمنعهم أصحاب أبيه وأصحابه".

ثم نجد فيما بعد أنّ بني زيري ماكسن وزاوي ومغنين وعرما وأبناءهم، وهم هنا أيضا جماعة لها نفس الانتماء ونفس الظروف ولكنّ تركيبتها أوضح، سألوا باديس البقاء بأشير عند الوالي يطوفت بن بلكّين في أواخر حملة سنة 389هـ / 999م، لكن باديس رفض ذلك. فطلبوا منه أن يمهلهم مدّة لقضاء بعض الشؤون ثم يلتحقون به، فأذن لهم. لكن ما إن ابتعد الأمير قليلا حتى قام هؤلاء الزيريون على يطوفت المذكور وبدأ هكذا خلافهم الذي دام حتى سنة 391هـ / 1000م دون أن تتوفر لنا معطيات كثيرة عنه. ونعرف فقط أنهم قد تحالفوا لاحقا مع فلفول بن سعيد ضدّ الأمير، وأنّ باديس قد خرج إليهم لكنّه عندما علم أن معظمهم قد فارقوا حليفهم واتجهوا غربا ولم يبق معه إلاّ ماكسن ... عاد إلى إفريقية.

كما نعرف أن باديس قد عهد إلى حمّاد بن بلكّين بمحاربتهم فتمكّن هذا الأخير بعد صراعات نجهل تفصيلها من قتل عمّه ماكسن وبعض أولاده وألجأ الآخرين إلى بعض المرتفعات الساحلية واضطرّهم إلى المصالحة على الإجازة إلى الأندلس أي إلى القبول بالمنفى. وأشهر هؤلاء زاوي بن زيري الذي نشط في الجزيرة وصار له شأن في أواخر زمن العامريين وخلال "الفتنة البربرية" وبداية عصر الطوائف، ثم عاد فيما بعد إلى إفريقية في أيام المعزّ بن باديس (410هـ / 1019م) فأحسن الأمير استقباله.

والخلاف الزيري الثالث والأخير الذي شهدته العهود الصنهاجية الثلاثة الأولى هو خلاف <u>حمّاد بن بلكّين</u> (405 - 408هـ / 1014- 1017م) وقد كان حاسما في تاريخ الدولة. ولقد خالف حمّاد، مع أنه من الفرع الحاكم والحال أن المناهضة اقتصرت حتى الآن على أبناء زيري بن مناد، إخوة بلكّين، وأولادهم على ما يبدو. خالف بعد سنين عديدة من الخدمة وبعد أن قام طويلا بدعم سلطة الأمير بشكل ناجح. وخلافه هو الذي نجح أي أدى إلى نتائج ملموسة دائمة. فلماذا كلّ هذه الأشياء ؟

في الحقيقة يعود السبب في الخلاف وكذلك في النجاح إلى عوامل ذاتية وأخرى خارجية، تتمثل الأولى في الوضع الذي صار لهذا الرجل شيئا فشيئا. وتتمثل الثانية في إجراءات وأحداث أشعلت فتيل النزاع في الأول ثم قدّمت خدمة جليلة غير منتظرة لهذا الشخص فيما بعد. فلقد كان لحمّاد المسار الرسمي التالي الذي له دلالة على بعض جوانب الدولة الزيرية ويساعد أيضا على معرفة جذور الدولة الحمّادية التي ستنشأ بعد مدّة وجيزة:

- عقد له أخوه المنصور على أشير ربما في سنة 379 هـ / 989م.
- ثمّ استعمله باديس على نفس المدينة في سنة 386 هـ / 996م حسب ابن الأثير :"أقطعه إياها وأعطاه من الخيل والسلاح والعدد شيئا كثيرا فخرج إليها".
- ويذكر ابن خلدون أن حمّادا استقلّ بأشير في سنة 387هـ / 997م بعد التداول عليها هي والمسيلة مع أخيه يطوفت وعمّه أبي البهار، وهو تاريخ يورده النويري أيضا وبتدقيق أكبر كالعادة مع ذكر أشياء ممّا قدمه ابن الأثير.
- وفي سنة 389هـ / 998م كان حمّاد بأشير عاملا عليها، وقد مرّ به محمّد بن أبي العرب

متوجّها إلى تاهرت على رأس الجيوش فصاحبه في قواته. وينسب إلى هذه القوات التي لم تكن علاقتها بحمّاد جيّدة، ينسب إليها الانهزام في القتال وجرّ الهزيمة على الآخرين.

ويذكر ابن الأثير أيضا هذا الخبر ويتحدّث مرة أخرى عن الإقطاع (أقطعه إياها باديس)، ويرجع سبب سوء العلاقة بين حمّاد وعساكره إلى قلة العطاء (وأكثر جيش حماد يكرهونه لقلة عطائه).

هل حُمّل حمّاد مسؤولية هذا الإخفاق؟ وهل انعكس ذلك عليه؟ لا ندري. وعلى كلّ حال ولّى باديس الذي أقبل من إفريقية لمعالجة الوضع يطوفت على أشير وتاهرت، فترك هذا الأخير ابنه أيوبا على هذه المدينة الثانية ومعه 4000 فارس.

لكن ولاية يطوفت سرعان ما انقضت لقيام أولاد زيري عليه واضطراره إلى الفرار وظهور جبهة داخلية جديدة معادية في المنطقة كلف حماد بمقاومتها اعتمادا بالتأكيد على تولية جهوية لا شك أنها واسعة. ولقد حارب حمّاد بن بلكّين أعمامه أولاد زيري بين سنة 389هـ / 999م وسنة 391هـ/ 1001م (أو في سني 90 حسب ابن خلدون) وتغلّب عليهم كما تقدم. ويبدو أنه قد استدعي إلى عاصمة الدولة أو الحضرة من طرف الأمير بعد سيطرته على الوضع غربا للاستعانة به ظاهريا على الأقل على فلفول بن سعيد الذي تمركز بطرابلس في النهاية وتوفي في سنة 400 هـ / 1010م.

لكن عندما اختل الوضع من جديد في الجهات الغربية أعيد حماد إلى هناك فقام ببسط النفوذ الزيري عليها مجدّدا. ويذكر ابن خلدون أنّ باديس قد " دفعه لحرب زناتة سنة 95 [3] هـ / 1005م بالمغرب الأوسط من مغراوة وبني يفرن وشرط له ولاية أشير والمغرب الأوسط وكلّ بلد يفتحه وأن لا يستقدمه فعظم غناؤه فيها وأثخن في زناتة وكان مظفرا عليهم".

ونجد أنه اختط "مدينة القلعة "في سنة 398هـ / 1008م "فتمّ بناؤها وتمصيرها على راس المائة الرابعة".

وفي الجملة يذكر النويري تنامي حال حمّاد فيقول: "قال: وفي صفر 387هـ / 997م عقد أبو مناد ولاية أشير لعمّه حمّاد بن يوسف بن زيري وأعطاه خيلا كثيرة وكسا. ثم اتّسعت أعماله وعظم شأنه وكثرت عساكره واجتمعت أمواله".

بينما يلخّص ابن خلدون الأمر تقريبا ذاكرا الامتداد الجغرافي والزمني للولاية ومكان التمركز ومتاخمة زناتة والأعمال ضدها، فيكتب ما يلي: "ولم يزل حمّاد أيّام باديس هذا أميرا على الزاب والمغرب الأوسط ومتوليا حروب زناتة وكان نزوله ببلد أشير والقلعة متاخما لملوك زناتة وأحيائهم البادية بضواحي تلمسان وتاهرت".

أكثر من 20 عاما إذن متواصلة تقريبا من الولاية والحكم والقيادة والحروب في المناطق الغربية ثم الوسطى أيضا، ومدينة جديدة حصينة "خاصة" تنشأ، وأموال وعساكر وأتباع وعبيد وصنائع دون شكّ، وشبه واضح بما توفّر للجدّ زيري بن مناد وللأب بلكّين. وقد تطور وضع هذا الأخير على النحو الذي عرفناه في ظل حكم الفاطميين الراحلين، كيف سيتطور وضع ابنه حمّاد في ظل حكم ابن الأخ الصنهاجي المقيم ؟

إن وضعا ممتازا كهذا ليس من الوارد التخلي عنه بسهولة بالنسبة إلى حمّاد. كما أنه ليس من السهل كذلك القبول به باستمرار وتركه يتواصل بالنسبة للأمير (وفي ذلك الطور من عمر الدولة بالخصوص). على أن الإلغاء أيضا لن يكون يسيرا. ومن هنا جاء التدبير الملتوي والإجراء الملتبس

وما أحدثه من ردّ فعل.

يذكر أنّ باديس كتب إلى عمّه حمّادا بأن يترك (أو يسلّم) عمل تيجس وقسنطينة وقصر الإفريقي لفائدة ابنه هو المنصور، وذلك بغاية تقديم هذا الأخير والرفع من قدره وإضافة أعمال إليه يستخدم له فيها أبوه أتباعه وصنائعه بعد أن صارت ولاية العهد إليه بمبادرة من الخلافة أو مباركة على الأقل.

ونلاحظ هنا أنّه في صورة تضمّن الكتاب فعلا لاسم المستفيد من التسليم وصفته الجديدة بالتالي، يصبح ما يطلب من حمّاد كأنه هديّة من نوع خاص لا يمكن منحها لولي العهد الجديد الذي يتلقى في مثل هذه الحالات الهدايا من الجميع، وسينسب إلى حمّاد القول بأنه كان يعدّ لإرسال هديّة كبيرة لهذا الشخص فيها كذا وكذا.

ونلاحظ أيضا أن المسألة تقدم في بعض المصادر وكأنّ محاباة وليّ العهد هي الأمر الأساسي بينما الأخذ من حمّاد هو الأمر الثانوي. على أننا نجد في مصادر أخرى عكس ذلك.

ونلاحظ من جهة ثالثة أننا لا نعثر فيما لدينا من نصوص على أمر مماثل بالنسبة للعهود الزيرية السابقة، أي ولاية العهد الواضحة تماما وإسناد البلاد إلى وليّ العهد وضمّ أشخاص معيّنين إليه كما عرف التاريخ العبّاسي مثلا في المشرق.

وعلى كلّ حال، في الحالة الراهنة هناك أخذ من هذا الطرف وإعطاء للآخر. والسؤال هو عن سبب الأخذ من حمّاد بالذات: هل إنّ لديه معظم البلاد حتّى لم يبق متّسع خارج مجاله؟ أم إنّ لديه أفضل الأراضي؟ أم أيضا لأنّ عنده أكثر من اللازم؟ ويتّصل بهذا السؤال سؤال آخر: لماذا هذا "العمل" بالتحديد من ضمن بلاد حمّاد ؟ لموقعه؟ أم لمعطياته الطبيعية؟ أم لخصبه وثرائه؟...

من جهة أخرى الأخذ والإعطاء فيهما إنقاص وإضعاف مبدئيا لطرف قديم قويّ وتنفيع وتقوية لطرف جديد مستقبليّ. والمنتفعون من الإعطاء انتفاعا ماديا مباشرا (وليّ العهد وأتباعه وصنائعه) ينتفعون أيضا سياسيا ومعنويا من إضعاف مكانة حماد.

لكن هل إنّ أخذ العمل المذكور يمكن أن يغير كثيرا من وضع حمّاد؟ لا نظنّ ذلك إلاّ إذا تبعت هذه الخطوة خطوة أخرى في صورة القبول، فيصبح الأمر أسلوبا في التناول. أو إذا كان هنالك مراهنة على عدم القبول وعلى تغيّر العلاقة بين باديس وحمّاد وما ينتج عن ذلك، فالرفض يؤدي إلى الإطاحة. فيصبح الأمر هكذا اختبارا للطاعة كما تذكر المصادر أو استفزازا حقيقيا، حتى ولو أدّى الأمر إلى حدوث الفتنة أو دون التوقي من ذلك.

تنفيذيا، وجّه باديس الكتاب مع عمّه الآخر إبراهيم بن بلكّين الموجود عنده ربّما ضمن سياسة جعل الزيريين قرب الأمير، والمطلع على ما يحدث بالتأكيد، والمتعاطف مع أخيه حمّاد والراغب في الالتحاق به للمصلحة الشخصية أيضا. وقد تطوّع لحمل الرسالة لمّا استشاره باديس فيمن يوجّهها معه مغتنما هكذا الفرصة ومتعهّدا بإنجاز المهمة بسرعة ونجاح.

ولقد خرج إبراهيم بجميع ما لديه على ما يبدو، وهو كثير حسب المصادر، ممّا يدلّ على ما توفر لهذا الزيري (ومن ورائه بقية أفراد الأسرة الزيرية وخاصة أصحاب المناصب منهم) وكذلك على النوايا. ويبدو أنّ هناك من شكّ في صدق إبراهيم وإخلاصه وحذّر منه، لكنّ الأمير تركه يفعل ما يريد. وسيكون لهذا الرجل دور بارز في الخلاف في مختلف مراحله حتى أنه ليذكر في العناوين أحيانا إلى جانب حمّاد. ووجّه باديس من جهة أخرى

القائد هاشم بن جعفر في عسكر ليتسلّم العمل المذكور، وأعطاه الطبول والبنود وخرج بخزائن وعدد، وكان خروجه في 19 شوال 405هـ/1015م. وسار إبراهيم مع هاشم في الأول ثم فارقه بعد مدة متعللا بقضاء بعض الأشغال له بباجة يلتحق به بعد الفراغ منها، لكنه قصد تامديت القريبة من مجال حماد وراسل أخاه شارحا له الوضعية ومقدما له النصح دون شكّ. فجاءه هذا الأخير في 30 ألف مقاتل أو فارس.

أمّا القائد هاشم بن جعفر فيبدو أنه لم يتقدم كثيرا نحو مقصده لأنه إنما يذكر في جهة شقبنارية (وليس أبعد من ذلك) التي تلقى الأمر - بعد أن تطوّرت الأحداث دون شك - بالصعود إلى قلعتها والتحصّن بها، وهو ما فعله.

ولقد حاصر حمّاد وإبراهيم هاشما هناك بعد أن تقدّما نحو الشرق إذن (لكن لأيّ غاية بالضبط؟ لهزم العسكر المرسل ومنعه من السير إلى غايته وإظهار الحزم في مقاومة المشروع في نفس الوقت؟ أم لأكثر من ذلك أيضا؟). ودار قتال شديد بين الطرفين هو بداية الصراع المسلح في هذا الفصل الثالث من الخلاف أسفر عن انهزام هاشم نحو باجة...

وعلم باديس بما يحدث فخرج من مقرّه في 5 ذي الحجة 405 هـ / 1015م ونزل رقادة حيث وضع العطاء وقضّى العيد ثم رحل بعد ذلك يطلب حمّادا الذي كان ينسحب أمامه نحو الغرب طلبا حثيثا في حرب لا بقيا بعدها حسب ابن الأثير وغزوة هي الأخيرة له باعتبار ما سيطرأ من أحداث وما قبل الأخيرة تقريبا بالنسبة للأمراء الزيريين عموما في هذا الاتجاه. وكانت المسافة الفاصلة بين الطرفين وجيزة أحيانا لا تتعدى "المرحلة" مما لا يسمح بالتريث والتمركز الجيّد.و

مرّ باديس في طريقةهبمحطات مختلفة منها "قبر الشهيد" و"تامديت" و"دكمة" حسب النويري، وذلك قبل أن يصل إلى المحمّدية / المسيلة. وبلغه في الأثناء نبأ وفاة ابنه ووليّ عهده المنصور الذي له صلة بما يحدث كما نعرف، فجلس للعزاء به (في 5 صفر 406هـ / 1015م) دون أن ينثني عن هدفه أو ينقطع عن الطلب. وجاءه جماعة من "أقارب" حمّاد وخواصّه ورجال دولته حسب المصادر وكذلك أعداد من الجند منضمّين إليه متنصّلين من فعل عمّه، ممّا يدلّ على من يوجد حول هذا الأخير وكذلك على الخشية على النفس. كما انضمت إليه الآن ولاحقا مجموعات أخرى قبليّة معادية لحمّاد أو غير مرتبطة به. على أنّ هنالك رجالا آخرين كثيرين سيواصلون خدمة هذا العم المخالف الذي كان يرسل ويقول بأنه على الطاعة.

وأقام باديس بالمحمدية أيّاما وزحف منها إلى القلعة لكن دون أن يقاتلها. واكتفى بتخريب العمران الموجود حولها. وكانت هذه المدينة بيد إبراهيم بن بلكّين آنذاك كلفه بها أخوه حمّاد دون شكّ باعتبار أن هذا الأخير لم يلجأ إليها. وقد التحق عدد من جندها بباديس تاركين أهليهم فيها فنكّل بهم إبراهيم.

لم يلتجئ حماد إلى القلعة لأنه كان يعوّل على أشير دون شكّ ربّما لموقعها ولما لديه فيها. لكنّ هذه المدينة أغلقها في وجهه نائبه عليها مولاه خلف الجيزي مع أنه "كان عند حمّاد أقرب من الولد لا يوازيه في رتبته أحد". وكتب خلف بذلك إلى باديس تعبيرا عن الطاعة. ويكتسي هذا الحدث أهميّة خاصة حسب المصادر نظرا لقيمة المدينة. واضطر حمّاد إلى مواصلة السير نحو الغرب في اتجاه تاهرت. ولقد أدركه باديس في النهاية بعد أن مرّ هذا الأخير بأشير (أو ملكها حسب ابن خلدون)

وانتفع دون شكّ بما يوجد فيها. أدركه في مكان على وادي شلف أو شلف بني واليل بمواطن السرسو من بلاد زناتة (حيث انضمت إليه بعض القيادات والمجموعات الزناتية المعادية لحمّاد هناك). لكن كان بينهما مجرى الوادي العميق والوعر والكثير الماء. وربّما توقف حمّاد في ذلك المكان لأنه أمن أن يصل إليه ملاحقوه فيه بسهولة أو لأنه ارتضى الساحة إذ كان قد "أسند ظهره إلى جبل واطيل وهو جبل منيع صعب المرتقى". غير أن باديس عبر إليه في عساكره (فهو الطالب). ودارت المعركة بين الطرفين في يوم الجمعة غرة جمادى الأولى 406هـ / أواخر 1016م، وانهزم حمّاد بعد قتال شديد وقتلى كثيرين، وتفرق عنه أصحابه الذين انضم العديد منهم إلى باديس. وأفلت هو فيمن ثبت معه من عبيده وهم نحو 500 فارس، لكن بعد أن قتل حرمه بيده لأنه قدّر بالتأكيد أن ليس بإمكانه أخذهن معه وليس بوسعه كذلك تركهنّ هناك رغم أن خصمه هو ابن أخيه. وقد وقف عليهن هذا الأخير وهنّ قتيلات. ولم يواصل حمّاد الفرار نحو الغرب مثلما فعل حتى الآن ومثلما صنع أبو البهار بن زيري وغيره سابقا، ولعلّ ذلك لأنه رأى أن لا أمل له في النجاة في هذا الاتجاه، بل عاد نحو الشرق فوصل إلى قلعة المغيلة ثم تمكّن من الوصول إلى قلعته هو (قلعة حماد) التي يكون أخوه إبراهيم قد مكث فيها، وبالتالي لم يشارك في القتال. وكان ذلك في 7جمادى الأولى 406هـ / أواخر سنة 1016م، واستعدّ حماد للحصار مستغلا المهلة الزمنية التي أتيحت له نتيجة انشغال أصحاب باديس عنه بالغنائم في الأول ثم عدم مواصلة الملاحقة بنفس النسق فيما بعد.

ووصل باديس إلى فحص المحمدية / المسيلة، وأخذ في التمركز هناك ليشرع في حصار القلعة ويحسم أمر حمّاد، فأعطى الأموال وأمر بالبناء. وكانت أحواله مستقيمة متنامية على ما يبدو، وقد وصلت إليه عساكر جديدة عديدة من صنهاجة، بينما كانت أحوال حمّاد ورجاله تسوء ماديا ومعنويا حتى لجأ إلى مدافعة الأمير بالرسائل، وإلى ترويج أنباء زائفة بين رجاله للمحافظة على معنوياتهم وعليهم. ومما زاد على حماد حسب ابن الأثير الذي يوسّع النظرة لتشمل مجالا أكبر، الخلاف الذي جدّ في ذلك الوقت بين زناتة في بلاد طرابلس حول من يخلف ورّو بن سعيد المتوفى حديثا: ابنه أم أخوه؛ مما يجعل هؤلاء الناس غير قادرين أو غير مهيّئين لتشكيل جبهة جديدة يمكنها أن تصرف الأمير عنه. ويظهر من هذه المسألة وصول أخبار زناتة إلى حماد. وربّما وجدت أيضا اتصالات بين الطرفين. وعلى كلّ حال، حتى إذا كان ذلك قد حصل فعلا فلن تكون هذه هي المرّة الأولى التي يتم فيها التعاون بين قسم من زناتة وقسم من صنهاجة ضدّ الحكم. كما أن هنالك من زناتة من ساند هذا الحكم، لكن في إطار هيمنة الانتماء القبلي الصنهاجي لدى الزيريين ووجود معظم زناتة في المعارضة.

لكن في هذا الظرف بالذات توفي باديس بصفة مفاجئة وغير منتظرة باعتبار سنه وحالته الصحية. ألمّ به حدث الموت ليلة الأربعاء آخر ذي القعدة 406هـ / 1016م، في منتصفها، وهو في خيمته داخل معسكره تحيط به خيام كبار قادته، وكان قد استعرض عساكره في النهار. فغيّر هذا الحدث الطارئ جميع المعطيات، إذ أثر على كلا الطرفين لكن بصفة مختلفة.

فلقد عمل كبار أصحاب باديس رغم المنافسة السابقة بينهم على المحافظة على وحدة الكلمة ووحدة الصفّ وتجنّب الخلاف والفرقة في ظروف تكون فيها مثل هذه الأشياء هامّة جدا وخطيرة جدا،

وذلك بتولية أو ترئيس كرامت بن المنصور وقتيا أو ظاهريا عليهم لأنه موجود على عين المكان ولأن صنهاجة تقبل به أو تميل إليه حسب المصادر، وكلّ ذلك في انتظار العودة إلى إفريقية وتسليم الأمر إلى المعزّ بن باديس الذي يقدّم على أنه صاحب الأمر أو وارثه لكن دون أن نعرف إن كانت ولاية العهد قد حوّلت إليه رسمياً بعد وفاة أخيه المنصور أم لا باعتبار تسارع الأحداث، وهل أن وصوله من جهة أخرى إلى السلطة العليا بهذه الطريقة السريعة والمفاجئة قد سبق ارتضاء الخلافة له أم لا. وأعلم هؤلاء الأشخاص الأطراف الموالية للمعزّ بترتيبهم هذا حتى تهدأ خواطرهم لأن ظاهر الأمر أزعجهم كثيرا.

وعلى كل حال تمثل التصرف الفعلي أو الأخير في توجّه (أو توجيه) كرامت إلى أشير ليعبئ صنهاجة هناك من ناحية وقد أعطي المال والسلاح، وفي رحيل العساكر في نظام (تعبئة الزحف) بتابوت باديس إلى إفريقية من ناحية أخرى. وتم الوصول إلى المنصورية ثم إلى المهدية حيث كان يوجد المعزّ وكان الأمر قد آل إليه رسميا بعد وصول نبأ وفاة أبيه. ونلاحظ أن الأحداث ونوعية نظام الحكم قد شاءت هكذا أن يكون الأمير الجديد صبيا محتاجا إلى الاعتماد على غيره سواء من أفراد أسرته أو من غيرهم ممّا يفتح الباب أمام عدد من الأشخاص لحيازة السلطة، والفرصة قد تتاح للنساء أيضا مثل أمّ ملال عمّة المعزّ التي سلّطت عليها الأضواء وهي مع ابن أخيها بالمهدية.

وأبرز ما حدث خلال الفترة التالية حسب النويري هو :

- الثورة بالشيعة ابتداء من أواسط المحرّم 407هـ / جوان 1016م.

- تولية محمد بن حسن "أمور المعزّ وجيوشه، وكان قبل ذلك على طرابلس، وأضيف إليه قابس ونفزاوة وقصطيلية وقفصة فبعث عمّاله عليها". هذا في أواخر صفر 407هـ / جويلية 1016م.

- ختان المعز في 20 ذي الحجة 407 (الذي يكون هكذا ليس فقط" ممن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام").

- وصول الرسل من مصر في أواخر الشهر ونهاية السنة" بسجّل الحاكم إلى المعز واللقب والتشريف، وخوطب بشرف الدولة".

أما بالنسبة لحمّاد فلقد تخلص من الحصار ودخل المحمّدية ثم سار إلى أشير فاسترجعها بسرعة بعد أن هزم كرامت في ناحيتها وأخرجه نحو إفريقية التي وصل إليها هذا الأخير في النصف الثاني من المحرّم 407 دون أن يطول بُعده أو إبعاده هكذا أو يملأ الفراغ مدة طويلة غربا. واستعاد حمّاد السيطرة على المنطقة ووصل مجاله إلى حدود باغاية وغيرها التي حاصرها.

هذا التوسع المتزايد جعل الأمير الجديد المعزّ بن باديس يسير إلى عمّ أبيه حمّاد في أواخر صفر سنة 408هـ / جويلية 1017م "ليمنعه من البلاد" في جولة جديدة من الصراع المسلّح.

لكن هذه الجولة التي جاءت بعد حوالي عام من انتهاء الجولة السابقة سعى خلاله كل طرف إلى ترميم وضعه واستعادة قوته لم تدم طويلا، وليس لدينا معطيات كثيرة عنها، لا ندري لماذا. نعرف فقط أنها أدّت إلى معركة بين الطرفين إلى الغرب من باغاية انهزم فيها حمّاد وأفلت جريحا إلى القلعة بينما وقع أخوه إبراهيم في الأسر.

وربما خلافا للمتوقع لم تتواصل المطاردة غربا بل تمت العودة إلى إفريقية (بعد المرور بسطيف وقصر الطين) ووصل المعزّ إلى قصره في

آخر جمادى الأولى 408هـ / أكتوبر 1017م .

ولعل من أسباب هذه العودة المبكّرة بداية حدوث اتصالات جديّة بين الطرفين ستؤدي في النهاية إلى إبرام الصلح بينهما.

ولقد كانت المبادرة بالاتصال من طرف حمّاد على ما يبدو الذي أرسل يقرّ بالخطأ ويعتذر ويطلب العفو والصلح. فأوفد إليه المعزّ من يتأكّد من طاعته واشترط عليه في نفس الوقت على ما يبدو إيفاد ابنه القائد إليه لمزيد التيقن من الصدق دون شكّ نظرا لمنزلة الابن لدى الأب وللإبرام والالتزام مستقبلا زيادة على ربط صلة الودّ من جديد، فأكّد حمّاد طاعته لموفد الأمير واشترط من جانبه أن يحصل له أخوه إبراهيم (الذي كان قد أطلق سراحه وأكرم) على عهود ومواثيق من الأمير، وعندئذ يرسل ولده أو يفد بنفسه. ولقد تم كل ذلك ووصل القائد بن حمّاد إلى المعزّ ومعه هديّة، فأكرمه هذا الأخير وكتب له منشورا فيه أشياء معيّنة قبل بها الولد وارتضاها الأب بعد ذلك فكان الصلح أو المصالحة.

لكن هناك تباين بين المصادر فيما يخصّ هذه الأشياء المنصوص عليها في المنشور أو المحتوى المادي للصلح. فابن الأثير لا يستوفي الحديث عن البلاد التي تعلقت بها المصالحة المذكورة، والنويري يفصّل القول لكنّه لا يذكر أشير وتاهرت، وابن خلدون يقدّم قائمتين تقريبا بأسماء البلدان بينهما عناصر مشتركة.

والثابت، بصفة مبسطة ومجردة حاليا، هو إسناد المعزّ لرقعة جغرافية معيّنة أو بلاد إلى الطرف الآخر توجد في غربيّ الدولة خاصة في المناطق التي حكمها حمّاد سابقا ورفض التخلّي عنها.

والتساؤل هو هل إن المضمون المذكور كان متفقا عليه منذ الاتصالات الأولى (كذا مقابل كذا) نتيجة تفاوض غير مباشر؟ أم إنّه تحدد بدقة عند حضور القائد نتيجة عرض قدمه هذا الطرف أو طلب تقدم به الآخر تمت الموافقة عليه، ولهذا تذكر النصوص إحكام الصلح وارتضاءه في النهاية من قبل حماد والقسم عليه ؟

والتساؤل يتعلّق أيضا بالامتداد الدقيق للبلاد المسندة باعتبار التباين الموجود في المصادر: فهل إن هذه البلاد تتمثّل في كل ما كان بيد حمّاد قبل الخلاف أم لا؟ كما نتساءل عمّن أسندت إليه البلاد: حمّاد؟ أم القائد (نظرا لوجود عبارة "يعتزل العمل" في بعض النصوص)؟ أم الأب والابن معا لكي لا يحرم هذا الأخير وحتّى نجد تفسيرا لتقديم قائمتين أحيانا؟ وأخيرا ما هي طبيعة الإسناد المذكور: ولاية؟ أم إقطاع؟ أم هذا وذاك (في صورة انتفاع الأب والابن)؟

وعلى كل حال تعلّق الإسناد بمعظم البلاد التي كانت عند حماد على الأقل (إلى أقصى مدى غربا بل المجال مفتوح ومشكلة الحدود إنّما هي من الجهة الشرقية). وتتمثل السلطة المخوّلة في الولاية على أقلّ تقدير لكن بشكل دائم أو متواصل ضمنياً وبصفة تفوق شرط عدم الاستقدام المذكور سابقا.

فهناك إذا تثبيت وتكريس للوضع الذي كان موجودا قبل الخلاف بل تدعيم وتطوير له. وباعتبار اتساع المساحة ونوع السلطة يصبح الأمر بمثابة الاقتسام للخطة كما يقول ابن خلدون أو الشعبة المتفرّعة، لكن مع المحافظة على وحدة الكيان أو الدولة على المستوى النظري أو الصوري، وهو ما يعبّر عنه بالطاعة وعكسها النفاق فكأنّه قبول بالأمر الواقع إذن. ولا شكّ أنّ كل طرف قد أيقن أنه ليس بإمكانه أن يحقق أكثر من ذلك في ذلك الوقت.

هذا فيما يخصّ الصراع ثم الصلح فماذا الآن

عن واقع العلاقة لاحقا بين المعزّ بن باديس بن المنصور بن بلكّين من جهة وعمّ أبيه حمّاد بن بلكّين ومن خلفه من جهة أخرى وكذلك بلديهما ؟

يذكر أن الصلح قد استقرّ بين الجانبين وتواصل وتمّ الاستقلال بالبلاد من طرف حمّاد وبالتولية والعزل فيها دون شكّ، وسيتمّ توريث "السلطة العليا" عليها كذلك أو توريثها هي.

ولئن لم تذكر زيارات بين الجانبين على أعلى مستوى إلاّ ما ينسب إلى القائد قبل خلافته لأبيه، ولئن قلّ كذلك ذكر المراسلات بينهما حيث نعثر فقط على تعزية المعزّ للقائد (دوما) بوفاة أبيه، فإنّ العائلتين قد تصاهرتا إذ زوّج المعزّ أخته إلى عبد الله بن حمّاد، وهو زواج سياسي على ما يبدو الغاية من ورائه تقريب الشقة بين الطرفين بصفة دائمة، وهو ما يعبّر عنه ابن خلدون بالالتحام بالأصهار.

والصلح يعني أيضا انتهاء الحرب وشيوع السلم والأمن بين الجانبين، وهو ما يذكر في النصوص. وربّما كان لهذا الأمر صلة من جهة أخرى بنقص المعطيات عن دولة المعزّ بالنسبة للسنين اللاحقة باعتبار أن أخبار الصراع هي التي تشكل القسم الأكبر من المادة الإخبارية عادة. والحروب إنما كانت تدور في الغرب أساسا ضدّ المخالفين هناك وضدّ زناتة ... فلا يذكر الغزو في هذا الاتجاه خلال سنين عديدة إلاّ في مناسبتين تقريبا "جدّتا" بعد عهد حمّاد: الأولى سنة 419هـ / 1028م عندما تمّ التوجه إلى الزاب وفتح مدينة نورس وقلعة كردم من بلاد زناتة، والثانية في سنة 432هـ / 1040م لمّا حاصر المعزّ بنفسه القلعة هذه المرّة لمدة سنتين (أي حتى سنة 434هـ / 1042م) حسب المصادر لرجوع أصحابها "إلى ما كانوا عليه من النفاق". ولقد انتهى الحصار بالصلح من جديد (لكن بنفس المحتوى السابق أم بمحتوى مختلف؟).

وربما اقتضى هذا النوع من العلاقة أيضا ومن حيث المبدأ على الأقل الكفّ عن انتداب العساكر بصفة مباشرة من بلاد صنهاجة بالنسبة للمعزّ، باعتبار أن هذه البلاد أصبحت توجد الآن ضمن مجال حمّاد. وكذلك عدم وجود تدخل أو تداخل على المستوى الجبائي المالي بين الطرفين وإلاّ لما بقي للاستقلال معنى.

أما على المستوى المدني، فلعلّ حالة السلم قد سمحت باستمرار التواصل بين المجالين على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي متمثلا في حركة البضائع وحركة الناس، خاصة أن المبادلات لا تنقطع تماما في العادة حتى في أوقات الحروب.

هذا التطور الهيكلي الذي عرفته المنطقة أثر على دولة المعزّ بأن قطع صلتها المباشرة بقواعدها الأصلية في الغرب مواطن القوم صنهاجة وطلكاتة ومصدر القوة ومهد الملك، وبغير هذه القواعد أيضا. وجعل هذه الدولة هكذا أقل اتساعا من جهة وإفريقية تماما من جهة أخرى في تطابق جديد فعليّ في الأول ثم نظريّ بالخصوص فيما بعد مع إفريقية بالمعنى الضيق أو الأساسي للكلمة.

وهذا الأمر ستكون له بالتأكيد تداعيات أو انعكاسات على كلّ من الدولة والبلاد المذكورتين من حيث تركيبة الجيوش ومدى قوتها وطبيعة الأوضاع السائدة ونوع القضايا المطروحة... إلخ. من ذلك مثلا أن المعزّ قد صار لديه الآن قوات بدون عمل عسكري غربا وبدون غنائم هامة بالتالي من هذه الوجهة التي تعتبر الأهم كما عرفنا، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ استقلال حماد بقسم كبير من المجال قد حرم الأمير الزيري من مداخيل هامة. فهل إنه سيتم صرف الطاقات العسكرية "العاطلة"

نحو وجهة مغايرة وسيقع البحث عن المداخيل المفقودة في مكان آخر؟

لدينا بالنسبة لهذا المستوى من الكلام إفادة قيّمة يقدّمها لنا ابن الأثير عندما يقول: "ولمّا استقر الصلح والاتفاق سيّر المعزّ الجيوش إلى القبائل من البربر وغيرهم فإن الحروب بينهم كانت بسبب الاختلاف كثيرة والدماء مسفوكة، فلمّا رأوا عساكر السلطان رجعوا إلى السكون وترك الحرب ومن أبي قوتل، فقتل المفسدون وأصلح بين القبائل".

تصوّر لنا هذه الإفادة وضعين متعاقبين يختلف أحدهما عن الآخر: وضع أوّل يتميّز بانشغال الحكام والجيوش بالحروب ضدّ حماد (وغيره سابقا؟) في الوسط والغرب وضعف الحضور العسكري على ما يبدو في المناطق الداخلية (أو الأخرى) وتصارع الأطراف الموجودة في هذه المناطق واضطراب الأوضاع هناك وربّما ضعف الاستخلاص الجبائي أيضا. ووضع جديد يتسم بحضور عسكري أقوى وتأطير أكبر أدّى إلى الخضوع وإلى استخلاص أفضل دون شكّ. ويذكّرنا كلّ ذلك بما رأيناه سابقا فيما يتعلق ببلاد كتامة عندما شحنت بالعمال والعساكر، إلاّ أن هذه البلاد توجد الآن في المجال الحمّادي.

هذه الشؤون الداخلية تؤدي بنا مباشرة إلى مسألة أحوال إفريقية (بالمعنى المحدود للكلمة دوما) وأحوال دولة المعزّ بن باديس داخلها باعتبار التطابق الجديد المذكور سابقا حتى أواسط القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي. والمعروف أن هذا الموضوع له أهمية خاصة وهو أيضا محلّ جدل بين المؤرخين لأنه قد يرتبط به تفسير القطيعة التي حدثت بين هذه الدولة والخلافة الفاطمية بمصر والتي أدت إلى قدوم الهلاليين والسلميين: هل إنّ هذه القطيعة كانت من موقع قوة أم من موقع ضعف وحاجة؟ وكذلك تفسير النتائج الأولى لهذا القدوم أي المدى الذي بلغته المقاومة والصمود أو مدى القدرة على أكثر من ذلك، وأيضا تحديد درجة تغيّر الأمور في البلاد لأن الوضع الجديد معروف تقريبا بينما الوضع السابق يكتنفه الغموض، وبالتالي تبيّن حجم مسؤولية القادمين الجدد فيما صارت إليه أو بدت عليه إفريقية في النصف الثاني من القرن الخامس / الحادي عشر (مع العلم أن الأطراف المحلية أيضا بإمكانها أن تساهم في تبدل الأحوال مستفيدة من الظروف التي أحدثها وصول الهلاليين فتكون مسؤولية هؤلاء الناس هنا غير مباشرة).

وحول هذا الأمر نكتفي بالقول بأن هناك مؤشرات تدل على أن الأحوال كانت طيبة وأخرى تدل على العكس. ومن ضمن الصنف الأول لدينا مثلا ما يورده ابن خلدون بطريقة تجميعية تأليفية اعتمادا على مصدر سابق من المفروض أنه معاصر حيث يقول: "واستمر ملك المعز بإفريقية والقيروان، وكان أعظم ملك عرف للبربر بإفريقية وأترفه وأبذخه. نقل ابن الرقيق من أحوالهم في الولائم والهدايا والجنائز والأعطيات ما يشهد بذلك. مثل ما ذكر أن هدية صندل عامل باغاية 400 حمل من المال، وأن بعض توابيت الكبراء منهم كان [من] العود الهندي بمسامير الذهب، وأن باديس أعطى فلفول بن سعيد الزناتي 30 حملا من المال وثمانين تختا، وأن أعشار بعض أعمال الساحل بناحية صفاقس كان 50 ألف قفيز، وغير ذلك من أخبارهم".

هذه اللوحة فيها أشياء تتعلق بالحكام (بأنواعهم) خاصة من حيث توفر الأموال الطائلة (بعشرات بل مئات الأحمال) لديهم والأمتعة أيضا،

وتداول كل ذلك بينهم إهداء وإعطاء استلاما ودفعا، وعلاقاتهم ببعضهم البعض بالتالي، ونمط عيشهم، وكذلك بالمصدر الأساسي لهذه الأموال ألا وهو الجباية. لكن من الأشياء المذكورة ما هو سابق لعهد المعزّ، كما أن مردود الأعشار تطرح بالنسبة إليه مسألة مدى الانتظام، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن ثراء الفئة الحاكمة لا يدل دائما أو بالضرورة على ثراء الدولة وازدهار الاقتصاد وحسن حال الرعية مثلما يتضح من الخبر التالي الدال على الصعوبات بالخصوص، حيث يذكر النويري أن محمد بن حسن الذي كان قد ولي أمور المعزّ وجيوشه في صفر 407هـ / جويلية 1016م وأضيفت إليه آنذاك زيادة على طرابلس التي كان يليها سابقا، كل من قابس ونفزاوة وقصطيلية وقفصة (أي كل الجنوب تقريبا) فبعث عماله عليها "قد استقل بالأمور وجبي الأموال منذ فوضت إليه أمور الدولة، فلم يدخر درهما واحدا في 7 سنين مع ما ورد من الهدايا الجليلة والتقادم النفيسة. وانتهت حاله إلى أن أخذ مالا من الذخيرة فلم يردّ عوضه. وضاقت الدولة واتسعت أحواله وكثرت أبنيته التي لا تصلح إلا للملوك. وهادى الأكابر بمصر حتى وصل إليه سجل من الحضرة فضاق منه المعز "وأراده" أن يقتصر على الخدمة وله ما حصله من الأموال والأبنية فأبى فقتله" في ربيع الآخر 413هـ / جويلية 1022م، "وكتب بالحوطة على أمواله ونعمه ورجاله وقلد القاسم بن محمد بن أبي العرب سيفه وأخرج بين يديه الطبول والبنود وصرف إليه النظر في سائر إفريقية".

ولقد ثار عبد الله بن حسن أخو محمد بن حسن الذي كان عاملا على طرابلس غضبا لأخيه وتحالف مع زناتة وأدخلهم المدينة "فقتلوا كل من كان بها من صنهاجة والعسكريين" وأخذوا طرابلس، فقبض المعزّ على جميع بني محمد وحبسهم ثم ظفر بعبد الله ذاته وأمر بقتل الجميع استجابة لرغبة نساء الصنهاجيين وأولادهم الذين قتل آباؤهم بطرابلس "وكان بإفريقية في تلك السنة مجاعة شديدة لم يكن مثلها قط".

يبيّن لنا هذا النص الجيد الدال على قيمة المصدر الذي أخذ منه في تغطيته المتواصلة لتاريخ البلاد والدولة ودقة معطياته القائمة بالتأكيد على استعمال مصادر أصلية معاصرة دون شك تسجل الأحداث وتؤرخ لها، يبين الصعوبات التي عرفها عهد المعز بن باديس في بداياته بين سنة 407هـ / 1016م وسنة 413هـ / 1022م، وهي 7 أعوام كأنها سنين عجاف بالنسبة للدولة وخلاف ذلك بالنسبة للقائد والعامل العام محمد بن حسن. وينبئ هذا النص أيضا عن المؤسسات والنظم بإفريقية وصلة كبار رجال الدولة فيها بالإدارة في مصر كما رأينا سابقا، وكذلك عن مواقع كل من صنهاجة وزناتة وأوضاعهم والعلاقة بينهم، وأيضا عن قضية الجنوب وطرابلس بالخصوص ذات التاريخ المتقلب.

شهادتان مختلفتان إذن اتساعا ومضمونا، رغم أن فيهما عناصر مشتركة. ومهما كان الأمر فلا بدّ أن انحسار المجال قد قلص حجم الدولة سياسيا وعسكريا وماليا وحدّ من طاقاتها حتى لو لم تكن الأوضاع في الداخل سيئة حقا. فلم تعد دولة المعزّ تلك الدولة الشاسعة ذات الإمكانيات المالية الكبيرة والقوات العسكرية الضاربة التي تخوض الصراعات الشديدة في المناطق النائية مثلما كان الأمر في البدايات عند وراثة سلطة الدولة الفاطمية في بلاد المغرب ومشابهة هذه الدولة. صارت كيانا وسطا محصورا بين كيانين آخرين: دولة الخلافة من جهة ودولة حماد وبنيه من جهة أخرى.

وما يهمنا بالخصوص في الحقيقة هو ما حصل عند قدوم الهلاليين بالنسبة لهذه الدولة والدولة الأخرى الناشئة إلى جانبها كذلك، وتأثير هذا الأمر على كل منهما لاحقاً بالضرورة، إذ أن ما يحصل لهذه يؤثر حتما في تلك (انظر البحث التالي عن الهجرة الهلالية وآثارها) .

الدولة الزيرية والانتشار الهلالي :

بعد أن حصلت القطيعة بين الأمير الزيري المعز بن باديس (406- 454هـ / 1015 - 1062م) والخليفة الفاطمي بمصر المستنصر بالله (427- 487هـ / 1036- 1094م) ووجهت الخلافة الفاطمية قبائل بني هلال العربية البدوية نحو إفريقية لمعاقبة "العبد الآبق" وتقدمت هذه القبائل نحو البلاد في هجرة جماعية ضخمة متعاقبة الموجات، حاول المعزّ أن يستميل القادمين الجدد ويحتويهم عن طريق البعض من رؤسائهم فيتجنب هكذا ضررهم ويستفيد منهم، إلا أنه أخفق في ذلك. فعمل على التصدي لهؤلاء الأقوام بالسلاح، غير أنه فشل على هذا المستوى أيضا. وكانت معركة حيدران (443هـ / 1051م) التي عبّأ لها الأمير معظم طاقاته على ما يبدو، وحضرها بنفسه، وانهزم فيها رغم ذلك، وحطمت قواته في المواجهة الكبيرة الوحيدة بين الطرفين، لجأ هذا الأخير بعدها إلى عاصمته المنصورية محتميا بأسوارها لعدّة سنين كان التغلب الهلالي خلالها يتأكد والتضييق يشتدّ. فاضطر المعز في الختام (449هـ / 1057م) إلى ترك المنصورية والقيروان نهائيا والتحق بالمهدية على ساحل البحر وهي حصينة بموقعها وأسوارها، وبقي فيها هو ومن جاء بعده حتى زوال الدولة في سنة 543هـ / 1148م.

ولقد أدى الانتشار الهلالي في أرجاء البلاد المتّسم بالشمول والدوام والمقترن بالغلبة إلى عزل الأمير عن مختلف المناطق تقريبا أو إلى فصل هذه المناطق عنه من جهة، وإلى انقطاع التواصل العادي بين المدن والجهات فيما بينهما هي ذاتها داخل المناطق المذكورة التي تخللها المدّ الهلالي من جهة أخرى. فانحسر هكذا نفوذ الدولة. وصارت دولة المعز مقتصرة على شريط ساحلي ضيق وغير ممتد بعد أن كانت الدولة الصنهاجية أو الزيرية الأم تصل إلى المغرب الأقصى، ثم مرت بطور الاقتسام المذكور سابقا. فكأن هذه الدولة تواصل "تطورها" الخطي نحو الانحسار في انتظار النضوب والانقضاء في المهدية.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى ظهرت في المناطق التي انحسر عنها نفوذ الدولة بفعل الانتشار المذكور مشاريع كيانات سياسية مستقلة عن بعضها البعض وعن الأمير بالطبع، تتمثل خاصة في الأنظمة المدينية بكل من سوسة وصفاقس وقابس وقفصة وتونس... الخ، إلى جانب كيانات أخرى أقل شأنا في المواضع والجهات، وما تمثله القبائل الهلالية على المستوى السياسي.

ولقد حاول خلفاء المعزّ بن باديس وخاصة ابنه تميم صاحب الخصال القيادية والذي شغل عهده الطويل (454-501هـ / 1062 - 1107م) وحده كامل النصف الثاني من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي تقريبا (بعد عهد أبيه الذي ملأ النصف الأول)، حاولوا استرجاع ما فقد، إلاّ أن النجاح كان نسبيا فقط، إذ اقتصر الأمر على استعادة سوسة وصفاقس تقريبا. وذلك لأن الإمكانيات بقيت محدودة ولأن الأطراف السياسية الداخلية الأخرى كانت حريصة على استقلالها وربما بحثت أيضا وبدورها عن التوسع فضلا عن تأثير العوامل الخارجية.

وعلى هذا المستوى الأخير يبدو أن الأمراء قد حاولوا تطوير أنشطتهم البحرية في مجال الاتصالات والتبادل والقرصنة لتعويض ما فقدوه برا، إلا أنهم اصطدموا بواقع إقليمي وعالمي غير مُوَاتٍ زيادة على قلة المواد والموارد الضرورية لبناء قوة بحرية كبيرة؛ واقع يتمثل في بداية التوسع الأوروبي المتعدد العوامل والأبعاد في اتجاه الجنوب والشرق على حساب المجال الإسلامي أو دار الإسلام. ولقد تجسد ذلك بالنسبة لإفريقية في العمل الذي قامت به المدن التجارية الإيطالية ضدها في سنة 480هـ / 1087م، وخاصة في الأمر الاستراتيجي الجديد الأكثر قربا ودواما والأشد خطرا المتمثل في ظهور كيان سياسي وعسكري نصراني نرماني فتيّ توسّعي في جنوب إيطاليا مدّ نفوذه "بصفة طبيعية" والحال تلك نحو صقلية فتمكن من الاستيلاء عليها بأكملها في سنة 484هـ / 1091م رغم محاولة تميم التدخل فيها عن طريق أبنائه مع أنها لم تكن ملحقة بمجال الأمراء الزيريين في الأصل. وكان هذا الاستيلاء نهائيا وضع حدّا للتاريخ الإسلامي لهذه الجزيرة الكبيرة التي تعتبر امتدادا لإفريقية في اتجاه أوروبا (و العكس)، هذا التاريخ الذي بدأ في سنة 212 هـ / 827م بالخصوص.

وفي مرحلة لاحقة بدأ النرمان يعملون على التغلب على سواحل إفريقية حيث توجد دولة الأمير الزيري، فتسنى لهم ذلك في النهاية باستيلائهم على المهدية في سنة 543هـ / 1148م وخروج الأمير الحسن بن علي بن يحي بن تميم منها "نهائيا".

هذا عن الدولة الزيرية الأمّ أو الأصل أو الدولة الزيرية بإفريقية الآن، فماذا عن الدولة الثانية التي نشأت إلى الغرب منها ضمن المجال الصنهاجي دوما عقب الاقتسام المذكور سابقا وكانت نشأتها هي الأخرى بصفة غير رسمية أو غير معلنة (كدولة) في الأول : دولة حمّاد وبنيه أو دولة بني حمّاد ؟

دولة بني حمّاد :

حصل حماد بن بلكين على "النصف" الغربي من المجال الصنهاجي كما رأينا. وكان لهذا القسم خصائصه وقضاياه بطبيعة الحال. وأورث كلّ ذلك إلى بنيه. وتتمثل خصائص المجال الحمّادي الجديد في أنه يشتمل على جهات متميّزة بكثرة الجبال وارتفاعها بالمقارنة مع بلاد المعزّ، وسكان نسبة البربر ضمنهم أكبر، من بينهم صنهاجة من فرع وطلكاتة وغيره، وفي جهات متاخمة مجالات زناتة غربا، وكذلك في جوار المغرب الأقصى، وربما قرب أكبر من الأندلس أيضا عن طريق البحر، وكذلك في الاحتواء على "قسم أعلى" مغربيا من الطرق التجارية القادمة من بلاد السودان عبر سجلماسة وغيرها.

ولقد حصلت تطورات هامة إلى الغرب من دولة حمّاد وبنيه خلال القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي موازية تقريبا لظهور هذه الدولة، ولا شكّ أنه قد كان لها اعتبار في تاريخها، حيث سقط القطب السياسي والعسكري الأموي القوي بالأندلس منذ أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجري وحلت محله الفتنة ثم تجزّؤ البلاد إلى ممالك للطوائف. بينما ظهرت حركة سياسية ودينية إصلاحية إسلامية مالكية في غربي الصحراء الكبرى بين قبائل صنهاجة اللثام في النصف الأول من القرن الخامس إبان العقود أو العهود الأولى من الحكم الحمّادي، هي حركة المرابطين، تمكنت من جمع الناس حولها وإعطائهم هدفا مشتركا ووجهة موحدة ممّا كوّن قوة ضاربة صعدت إلى المغرب الأقصى في أواسط القرن

وتغلبت على إمارات زناتة وغيرها الموجودة فيه ووحدته تحت سلطانها في النصف الثاني من القرن واتخذت لنفسها عاصمة داخله (مراكش) ومدت نفوذها شرقا إلى "حدود" مجال بني حماد قبل أن تعبر هذه القوة إلى الأندلس وتضمها إليها هي الأخرى في النهاية، عاكسة هكذا التيار ومغيرة لاتجاه الاستقطاب بعد أن عوض القطب المغربي البربري الجديد الذي تمثله دولة المرابطين القطب السابق، فصارت الدولة الحمادية لا تحدّ بقبائل وإمارات زناتية متفرقة هي بين الحرص على ضمان مصالحها والسعي إلى خدمة مصالح الأمويين ... بل بدولة ممركزة قوية صنهاجية الانتماء هي أيضا تبسط نفوذها على الأرضية السابقة.

هذا إذن من الجهة الغربية المحيطة وعلى امتداد تاريخ الدولة. لكن قبل ذلك زمنيا وربما قبل النظر في العلاقات مع الجوار على النطاق العام، هنالك الوضع المبكر الذي عرفته الدولة الناشئة على المستوى الداخلي بالخصوص، ثم مسألة القبائل البدوية الأخرى التي جاءت من الشرق أي قبائل بني هلال. فماذا عن الأوضاع في الفترات الأولى ثم عن العلاقة بالقبائل الهلالية المذكورة؟ ما مدى تعامل بني حماد مع هذه القبائل؟ وما مدى تأثيرها هي عليهم؟

شهد زمن حماد وما تلاه تواصلا للحروب الموروثة غربا. كما شهد حدوث مشاكل داخل الأسرة الحاكمة الجديدة من أجل إرساء السلطان تشبه إلى حدّ ما عرفته الدولة الزيرية الأم في بداية حكمها حيث انتقلت السلطة بشكل دموي من فرع القائد بن حماد إلى فرع محمد بن حماد ففرع علناس بن حماد لتستقر في هذا الأخير حتى النهاية. أما قدوم الهلاليين فربّما كان بنو حماد غير معنيين به مبدئيا، إذ كان الهدف من توجيه هؤلاء الناس هو عقاب المعزّ بن باديس وتقويض ملكه وافتكاك البلاد منه، اللهم إلا إذا اعتبر هذا الأمير هو صاحب المغرب الفاطمي بأكمله. وتطرح هنا مسألة موقف الخلافة في مصر مما حدث في بلاد المغرب من خلاف وصراع واقتسام.

فهل اعتبر كل ذلك شأنا داخليا تمّ غضّ الطرف عنه؟ أم حصلت الإدانة؟ أو على العكس من ذلك تمّ الاعتراف بالحكم الجديد وإقامة علاقة مباشرة معه ؟

وقد يرتبط هذا الموقف بموقف حماد ذاته ومن جاء بعده أيضا من الفاطميين والعكس أيضا وارد (عندما يكون الموقف المحلي مرتبطا بما تذهب إليه الخلافة). لدينا في هذا الصدد إفادتان قابلتان للتحليل والنقد تتعلق الأولى بحماد والثانية بابنه القائد من بعده .

وبصرف النظر عن مدى وجود تعليمات خاصة موجهة إلى الهلاليين فيما يتعلق ببني حماد وبلادهم (خاصة في صورة وجود الإقطاع المفصّل المسبق) ومحتوى هذه التعليمات ومدى التقيد بها في الأول، نقول بأنه ربما كان من الصعب أن تبقى بلاد الحمّاديين ودولتهم بمعزل عن مدّ بشريّ ذلك هو حجمه وانتشار هلالي تلك هي طبيعته والحال هي الحال. وبالفعل لم يتسن ذلك.

وما يذكر في الأساس تقريبا هو وجود صلة أو حدوث اتصال بين قبائل الأثبج والناصر بن علناس (454-481هـ / 1062- 1088م) جعلت هذا الأمير يأتي مع القبائل المذكورة إلى الأربس وسبيبة في سنة 457هـ / 1065م غير بعيد عن القيروان إذن لمواجهة قبائل رياح. لكن المعركة التي دارت هناك في التاريخ المذكور أدت إلى انهزام الناصر وفراره نحو الغرب حتى القلعة وملاحقة الأعراب

لـه واجتياحهم لبلاده وتغلبهم عليها وعيشهم فيها في نفس الوقت. فكانت معركة سبيبة هكذا مشابهة لمعركة حيدران أو بمثابة حيدران جديدة بعد حوالي 14 سنة من الأولى لوقوعها في مدخل بلاد بني حماد تقريبا وانهزام الأمير الحمادي فيها كما رأينا وفراره إلى عاصمته وانفتاح البلاد أمام الانتشار الهلالي المتغلب العائث.

لكن معركة سبيبة هذه لم ينتج عنها على المدى المتوسط والبعيد تقوقع السلطة العليا وانحسار كبير ودائم لمجال نفوذها وتفكك للبلاد مثلما حصل في بلاد المعزّ، بل أبرم صلح "مقبول" بين الطرفين يبدو أنه قد بقي ساريا عموما. ولا شك أنه مما يسّر عقد هذا الصلح وسمح بتواصله تركيبة الطرف الهلالي المنتفع به والموجود في البلاد وكذلك حالة الحمّاديين لاحقا. فلئن عرفت بلاد بني حماد انتشار الأعراب فيها بشكل واسع ودائم (لكن غير كامل) فإنها قد حافظت على تماسكها العام وحافظت الدولة من جهتها على قدر هام من طاقاتها وإمكانياتها. ومحاولات الانفصال أو الاستبداد القليلة التي وقعت تمّ إحباطها دون صعوبات كبيرة...

ومما يعبّر عن هذا الوضع مسألة العاصمة. فلقد احتاج الحمّاديون إلى اتخاذ عاصمة جديدة شمالية على ساحل المتوسط لها حصانة طبيعية زيادة على حصانة المعمار هي بجاية التي انتقلوا إليها متخلين عن القلعة. إلا أن هذا الاتخاذ لم يأت باكرا وكذلك الشأن بالنسبة للانتقال الذي لم يكن سريعا ولا كاملا منذ البداية بل تم بالتدريج وبصفة نسبية فقط في الأول على الأقل.

ويدل وصف الكتاب للأنشطة الاقتصادية في هذه المدينة الجديدة وللمعمار الفخم المقام فيها من قبل الأمراء بعد أو إلى جانب ما اتخذوه بالقلعة وكذلك محافظة البلاد على تماسكها العام والحكام على قدر هام من إمكانياتهم كما ذكرنا، زيادة على الأقوال العامة، على أحوال الدولة الحمادية التي تبدو هكذا في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي في وضع أفضل مما كانت عليه في النصف الأول من جهة وفي حال أحسن بكثير من حال دولة إفريقية في نفس الفترة من جهة أخرى. فالانتشار الهلالي لم يجعلها تتقهقر (بسرعة) إذن بل العكس. فتكون هكذا قد انتفعت مما حدث بما في ذلك تردّي أحوال الدولة الأخرى التي تتقدم عليها الدولة الحمّادية الآن وتفوقها بعد أن نشأت منها ووازتها أو نافستها قبل ذلك.

ويتجلى هذا التغير في ميزان القوى من خلال علاقة الدولة الحمادية ببلاد إفريقية، إذ والاها عدد من مدنها ومن الكيانات الناشئة فيها من جهة مثل مدينة تونس وصاحب صفاقس... الخ وكان ذلك بطرق مختلفة، وعملت هي أحيانا على التدخل بصفة مباشرة ضدّ المهدية من جهة أخرى، وذلك بإرسال الجيوش برّا وبحرا، إنجازا لما لم يحصل سابقا أو تطويرا لما حصل فيما مضى في زمن حمّاد. ولقد تمت المصالحة من جديد بين الطرفين وجدّدت المصاهرة في وقت ما.

لكن الطرف النرماني بحرا والهلالي برا المساهمين في ضعف الدولة بإفريقية لم يسمحا بأن يصل التطور المذكور في ميزان القوى إلى أقصى مداه بأن تستوعب الدولة الأقوى الدولة الأضعف، وسقطت المهدية في أيدي النرمان وليس في يدي صاحب بجاية.

على أنّ بجاية ذاتها لن يستمر الحكم الحمادي فيها طويلا بعد سقوط المهدية، إذ انقضى هذا الحكم بعد 4 أعوام فقط أي في سنة 547هـ / 1152م. وكان انقضاؤه على أيدي أناس قادمين من المغرب الأقصى هذه المرة هم الموحّدون الذين

استولوا على مرّاكش منذ زمن قليل (541هـ / 1146م) وعوّضوا المرابطين وزاد القطب المغربي المرّاكشي قوة معهم مما جعله يصل إلى بجاية في سنة 547هـ / 1152م ويضمها، ثم يصل بعد ذلك إلى المهدية فيفتكها من النرمان في سنة 555هـ / 1160م ويؤسس لواقع جديد في المنطقة يتمثل في الدولة الموحّدية الكبرى التي أنهت العصر الفاطمي في بلاد المغرب. وسينتهي هذا العصر في المشرق ذاته بعد بضعة أعوام فقط 567هـ / 1171- 1172م على يدي صلاح الدين الأيوبي مؤسس دولة الأيوبيين والمنتمي في الأصل إلى نظام الأتابكة في الجزيرة الفراتية والشام مع عماد الدين زنكي ثم ابنه نور الدين المنتمي بدوره إلى سلطان السلاجقة من جهة وإلى الخلافة العباسية من جهة أخرى.

أ.د. علي عبد القادر
جامعة تونس

قائمة أمراء بني زيري

- بلكّين بن زيري بن مناد (362- 373هـ / 973-984م).
- المنصور بن بلكّين (373- 386هـ / 984- 996م).
- باديس بن المنصور (386- 406 هـ / 996- 1016م).
- المعزّ بن باديس (406- 454هـ / 1016-1062م).
- تميم بن المعزّ (454 -501هـ / 1062-1108م).
- يحي بن تميم (501- 509هـ / 1108-1116م).
- علي بن يحي (509-515هـ / 1116- 1121م).
- الحسن بن علي (515- 543هـ / 1121- 1148م).

قائمة أمراء بني حمّاد

- حمّاد بن بلكّين بن زيري (405- 419 هـ / 1015 - 1028م).
- القائد بن حماد (419 - 446 هـ / 1028- 1054م).
- محسن بن القائد (446- 447 هـ / 1054- 1055م) .
- بلكّين بن محمد بن حمّاد بن بلكين (447- 454 هـ / 1055- 1062م) .
- الناصر بن علناس بن حمّاد بن بلكين (454- 481 هـ / 1062- 1088م).
- المنصور بن الناصر (481 - 498هـ / 1088- 1105م).
- باديس بن المنصور (498 هـ / 1105 م).
- العزيز بن المنصور (498 - 515 أو 518هـ / 1105- 1121 أو 1124م).
- يحي بن العزيز (515 أو 518هـ - 547 هـ / ... - 1152 م).

المصادر والمراجع

أولاً - المصادر :

- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد، (ت. 630هـ / 1232م) : الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1965.
- ابن خلدون، وليّ الدين عبد الرحمان بن محمّد، (ت. 808 هـ / 1406 م) : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، 1966.
- ابن رشيق القيرواني، (ت. 456هـ / 1064 م) : أنموذج الزمان في شعراء القيروان.
- ابن عذاري، أبو عبد الله أحمد بن محمد المراكشي، (ت. بعد 712هـ) : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج سي كولان ول بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، 1980.
- الإدريسي، أبو عبد الله محمد، (ت. 560هـ / 1165م) : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الجزائر، 1983.
- البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت. 487هـ / 1094 م) : كتاب المسالك والممالك، الدار العربية للكتاب والمؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، تونس، 1992.
- العماد الأصفهاني الكاتب، عماد الدين محمد بن محمد (ت 597هـ / 1201م) : خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء المغرب والأندلس، 3، تحقيق آذرتاش آذرنوش، الدار التونسية للنشر، تونس، 1972.
- عياض، القاضي أبو الفضل عياض بن موسى (ت 544هـ / 1149م) : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق أحمد بكير محمود، 3أجزاء، دار مكتبة الفكر، طرابلس، 1965.
- المازري، الإمام أبو عبد الله محمد بن علي، (ت. 536هـ / 1141م) : فتاوي المازري، تقديم وجمع وتحقيق محمد الطاهر المعموري، الدار التونسية للنشر، تونس 1994.
- المالكي، عبد الله بن محمد (ت 453هـ / 1061م): رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهّادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تحقيق بشير البكوش، 3 أجزاء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن يحي، (ت. 733هـ / 1333 م) : نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة، الجزء 24، 1983.

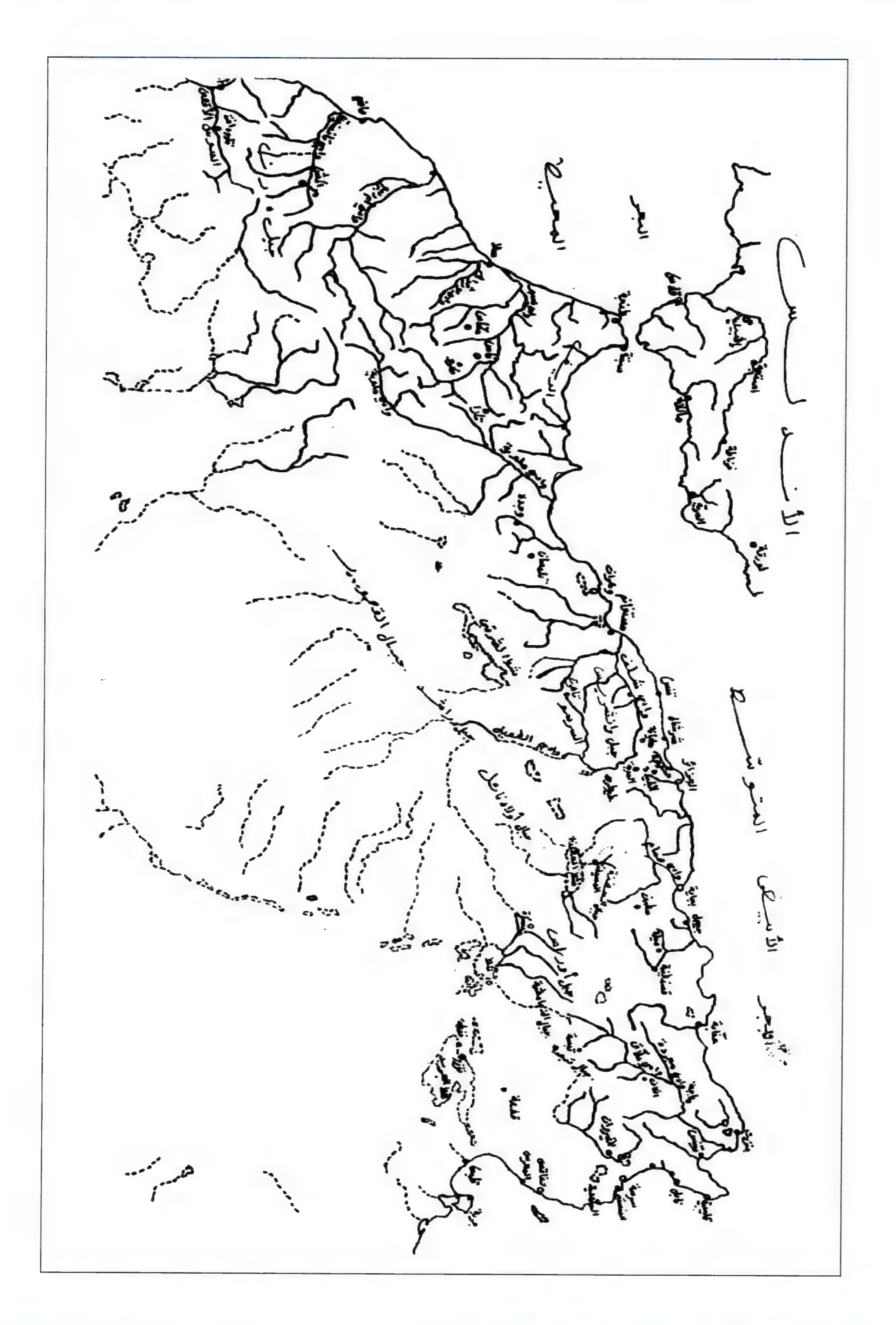
ثانياً - المراجع العربية :

- بعيزيق، محمد صالح : بجاية في العهد الحفصي، دراسة اقتصادية واجتماعية، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 2006.
- بورويبة، رشيد : الدولة الحمادية، تاريخها وحضارتها، الجزائر، 1977.
- الجيلاني، عبد الرحمن : تاريخ الجزائر العام، بيروت، 1980.
- عبد الحميد، سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي، الجزء الثالث، الإسكندرية، 1990.

- العربـي، إسـماعيل : دولـة بنـي حمـاد ملـوك القلعة، الجزائر، 1980.

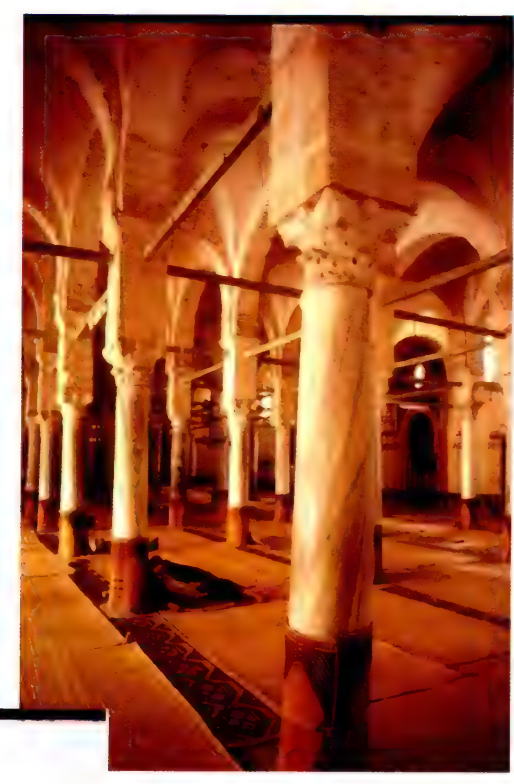
ثالثاً - المراجع المعربة والأجنبية :

- BOUYAHIA (Ch.) : La vie littéraire en Ifrikia sous les zirides. Tunis, 1972.
تعريب محمد العربي عبد الرزاق تحت عنـوان الحيـاة الأدبيـة بإفريقيـة فـي عهد بنـي زيري 2 ج، تونس، 1999.
- GOLVIN (L.) : Le Maghreb Central à l'époque des Zirides- Recherches d'archéologie et d'histoire, Paris, 1957.
- GOLVIN (L.) : Recherches archéologiques à la Qal'a des Banû Hammâd. Paris, 1965.
- IDRIS (H. Roger) : La Berbérie Orientale sous les Zirides (Xéme - XIIéme siècle) , Paris, 1962.


الأندلس
البحر الأبيض المتوسط
البحر المحيط



المدخل الزّيري لرباط سوسة



جامع صفاقس (الجزء الزَيري)



مشكاة المعز بن باديس بجامع القيروان



جامع سيدي علي عمّار بسوسة
(العصر الزيري)



السَّقف الخشبي لجامع القيروان (العصر الزّيري)



رباط قصر ابن الجعد بالمنستير (العهد الزّيري)

2 - هجرة بني هلال وبني سليم إلى المغرب وآثارها

إن مسألة هجرة قبائل بنى هلال وبني سليم من مصر إلى إفريقية في منتصف القرن الخامس الهجريّ / منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، قد شغلت بال المؤرّخين من عرب ومستشرقين منذ عدّة عقود. وقد حظي هذا الموضوع بعدّة أبحاث، غير أن أغلب المؤرّخين الغربيّين كرّسوا اهتمامهم بصفة خاصة لأسباب الهجرة وعواملها، وعالجوا المشكلة من زاوية معيّنة وهي التأكيد على الأسباب السياسية والدينية والإيديولوجيّة. ثم إنهم بالغوا بالاعتماد على بعض المصادر العربيّة ومنها بصفة خاصة تاريخ ابن خلدون في تحميل قبائل بني هلال وبني سليم كل ما لحق بإفريقية والمغرب من خراب وانحطاط في أواخر القرن الخامس للهجرة / القرن الحادي عشر للميلاد.

إنّ الإشكالية الأساسية بالنسبة للهجرة الهلالية وآثارها على إفريقية وكامل بلاد المغرب تنحصر، في نظرنا، في تحديد مراحل هذه الهجرة منذ انطلاقها أي منذ أن كانت قبائل بني هلال وبني سليم تقيم في نجد والحجاز بشبه الجزيرة العربيّة، ثم تتبّع تنقلاتها المتتالية وكيفية تسرّبها ثم تدفقها خارج الجزيرة (أي في الشّام والعراق ثم مصر) قبل وصولها إلى إفريقيّة والمغرب وهي المرحلة المغربيّة المسمّاة "بتغريبة بني هلال" في بعض الدراسات. ثم طرح الأسباب المتعلقة بدخول هذه القبائل منطقة إفريقيّة مع التّأكيد على العوامل الاقتصادية التي لم تحظ باهتمام المؤرخين وخاصة بالنسبة لمصر في عهد المستنصر وكذلك بقيّة العوامل والظروف الخاصة ببلاد المغرب وبلدان حوض البحر الأبيض المتوسط في منتصف القرن الخامس للهجرة / القرن الحادي عشرللميلاد. وأخيرا نصل إلى مراحل الهجرة وآثارها السّلبية والإيجابية على بلاد المغرب.

أولاً - ظروف الهجرة الهلاليّة إلى المغرب وأسبابها :

1 - مسار القبائل الهلاليّة من شبه الجزيرة العربيّة إلى مصر والشّام والعراق :

نريد أن نذكر، بادئ ذي بدء، أنّ بني هلال وبني سليم قبائل عربية تنتمي إلى العنصر العدناني الشمالي وبصفة أدقّ إلى الفرع المضري القيسي، وقد ذكرها ابن خلدون وأبو الفداء ضمن القبائل المسماة "العرب التابعة للعرب" وهي الطبقة الثالثة للعرب حسب التقسيم المعهود، بينما اعتبرها آخرون مثل القلقشندى من طبقة " العرب المستعربة". ومهما يكن من أمر فإن النسّابين العرب يقسّمون الأنساب إلى عدّة طبقات وفروع: الشعب ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة وأخيرا العشيرة .

ينتسب بنو هلال إلى عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان، ويكوّنون بذلك عشيرة.

أمّا بنو سليم فينتسبون إلى سليم بن منصور

ابن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان ويشكّلون إذن بطنا. وينتمي كل من هلال وسليم إلى سلالة واحدة، وقد كانوا مستقرّين في نجد والحجاز قبل أن ينتشروا في عدّة مناطق من الدولة العربيّة الإسلامية. والمتتبّع لحركاتهم يمكن له أن يقسّمها إلى ثلاث مراحل أساسيّة في المشرق:

- **المرحلة الأولى** : مرحلة الجزيرة العربيّة (نجد والحجاز) وهي تطابق النصف الأول من القرن الأوّل للهجرة / القرن السابع للميلاد. كان بنو هلال وبنو سليم يسكنون منذ ما قبل الإسلام في نجد، وهي منطقة كثيرة الأودية والهضاب مشهورة باعتدال مناخها وندرة أمطارها.

وكان بنو هلال يملكون عدّة بقاع وأودية وجبال ونقاط ماء وقرى مثل بيشة، وكانوا في أغلبهم بدوا. تمتدّ منطقة تنقلاتهم ما بين البصرة ومكّة وما بين مكّة ويثرب.

أما بنو سليم فكانوا يقيمون بعالية نجد قرب خيبر، وكانوا يملكون معادنَ وجبالا وواحات. كما نجد البعض منهم في يثرب بجوار اليهود والأوس والخزرج.

وكان بنو هلال، من ناحية أخرى، بحكم نمط عيشهم البدويّ يبحثون عن المراعي لمواشيهم وكثيرا ما كانوا يشنّون الغارات ضدّ القبائل المجاورة ويشاركون فيما يسمّى "بأيام العرب" ("كيوم الواطدة" ضدّ تميم و"يوم الفجار" ضدّ قريش وكنانة وغيرهما من الأيّام).

أمّا بنو سليم فقد كانوا يمارسون تربية الخيول، وكثيرا ما كانوا يتوجّهون إلى الأسواق لبيع ماشيتهم، كما كانوا يؤمّون يثرب بقصد بيع بعض البضائع والمنتجات، وكانت لهم علاقات تجارية مع اليهود في يثرب وقريش في مكّة، وكانوا وثنيّين مثل أغلبية القبائل العربيّة آنذاك. وعند ظهور الإسلام أظهر كل من بني هلال وبني سليم شيئا من العداوة تجاه الدين الجديد أدّى بهم إلى حدّ مقاومة المسلمين والإسهام المباشر في المعارك التي خاضتها القبائل المعادية للرسول محمد ﷺ ضدّ المسلمين، نذكر منها على سبيل المثال: غزوة الكدر(شوّال سنة 3هـ / أبريل 625م)، وغزوة الفرع من بحران (ربيع ثانٍ وجمادى أول سنة 4هـ / سبتمبر-أكتوبر 625م)، وسرية بئر معونة (صفر سنة 4هـ / يوليو 625م)، وغزوة الخندق (شوّال سنة 5هـ / فبراير- مارس 627م)، وسريّة قديد (صفر سنة 8هـ / يونيو سنة 629م) وغزوة حنين (شوّال سنة 8هـ / فبراير 630م).

وفي نفس الوقت الذي كان فيه بنو هلال وبنو سليم يعارضون المسلمين، تذكر لنا بعض المصادر أنّ بعض الجماعات من بني سليم قد آزرت النبي ﷺ مثلما حصل سنة 6هـ / 627م وشاركت في عمليّة نشر الإسلام وإدخال القبائل العربية الوثنية في الدين الجديد. فقد أسلم، حسب الطبريّ، 700 رجل من سليم إلى جانب أعداد أخرى من غفار وجهينة ومزينة.

وبعد وفاة الرسول ﷺ واندلاع حركات الردّة، لم يشارك بنو هلال في هذه الثورات خلافاً لبني سليم الذين ارتدّوا مع هوازن ولكن قمعهم طريفة بن حاجز قائد أحد الألوية التي أبرمها الخليفة أبو بكر الصديق ضدّ المرتدّين في كامل الجزيرة العربيّة.

وتفيد المصادر فيما بعد بمشاركة 400 رجل من بني سليم في حركة الانتشار الإسلامي في إفريقية وذلك في سنة 27هـ / 647م أي في عهد الخليفة عثمان بن عفان (23-35هـ / 643 - 655م)، كما نجد بني سليم وبني هلال في صفّ

الخليفة عليّ بن أبي طالب وفي صفّ العلويّين من بعده (معركة الجمل في 10 من جمادى الثاني 36هـ/ 9 من ديسمبر 656م، وحملة يسر بن أرطأة العامري على المدينة سنة 40هـ / 660م، وحركة الحسين بن علي بن أبي طالب في 10 من محرم سنة61هـ / 16 من أكتوبر 680م) ممّا يطرح قضيّة مدى انحيازهم إلى الشّيعة في القرن الأوّل للهجرة / القرن السّابع للميلاد ثم معاضدتهم فيما بعد للقرامطة الإسماعيليّين في القرن الرّابع الهجري / القرن العاشرالميلادي.

- المرحلة الثانية : من تاريخ الهلاليّة في المشرق تتعلق بانتقال قبائل بني هلال وبني سليم إلى مصر وذلك في عهد هشام بن عبد الملك في سنة 109هـ / 727م في نطاق عمليّة نقل 3000 من قيس ومن جملتهم 100 أهل بيت من بني سليم. ونقل ديوانهم إلى مصر وتوطينهم ببلبيس وبالحوف الشرقي حيث أصبحوا يعملون كجمّالين في النّشاط التّجاري الذي يربط بين الفسطاط والقلزم.

وقد تبعت هذه العمليّة نزوح العديد من المجموعات القيسيّة الأخرى التي كانت تقيم بالجزيرة العربيّة حيث شظف العيش إلى مصر، والإقامة بجوار قومها فبلغ العدد الجمليّ 5000 في عهد ولاية محمّد بن سعيد على مصر في خلافة المنصور العبّاسي.

- المرحلة الثالثة : وهي تمثّل مرحلة انتشار بني هلال وبني سليم في الشّام والعراق ومصر وذلك خلال الحقبة العبّاسيّة والفاطمية أي في ما بين القرن الثالث والقرن الخامس للهجرة / من القرن التاسع إلى القرن الحادي عشر للميلاد.

وقد تورّطت القبائل الهلاليّة أثناء العهد العبّاسي في قلاقل عديدة دفعت ببعض الخلفاء إلى مراقبتها عن كثب ومقاومتها بكل شدّة في بعض الأحيان. ومن جملة ما نقلته المصادر عن هذه القبائل البدوية مشاركتها في الغارات على المدينة ومهاجمتها لقوافل التّجار والحجّاج المتّجهة إلى مكّة، إلى جانب تنقلاتهم مع ماشيتهم في صحاري الحجاز بحثا عن المراعي مما أدّى بهم إلى حدود العراق و الشّام.

وبعدما تباطأ خلفاء بني العباس في ضربهم لوضع حدّ للشغب الذي أصبح يشكل خطرا على الاستقرار والأمن في الحجاز وتطاولا على الدّولة، كلف الخليفة الواثق قائده التركي بغا الكبير في شعبان 230هـ / أبريل 845م بالتّوجّه إلى مواطنهم وقمعهم بالقوّة، وهذا ما تمّ بالفعل. وقد انضم بنو هلال وبنو سليم إلى صفوف القرامطة ضدّ النّظام العبّاسي وساندوهم خاصّة في عمليّة الاستيلاء على مكّة في شهر ذي الحجّة 317هـ / 930م والحصول على الغنائم. وخلال القرن الرّابع هـ / القرن العاشر م تمكنوا من كسب "قوّة اقتصادية وحربيّة هامّة" بفضل الغنائم التي تحصّلوا عليها في غاراتهم على القوافل التّجارية ونهبهم للمسافرين والحجّاج.

لكنّ قيام الخلافة الفاطميّة في مصر كانت له انعكاسات سيّئة على الحركة القرمطيّة وأنصارها من العرب البدو. وفي هذا الإطار تمكّن الخليفة الفاطمي العزيز من نقل الهلاليّين والسّلميّين من الحجاز إلى صعيد مصر، وذلك سنة 368هـ / 978م. وكان الهدف الذي يرمي إليه الخليفة هو وضع حدّ لما كانوا يقومون به من أعمال نهب وسلب في الحجاز. لكنهم حافظوا على طبائعهم البدويّة في الصّعيد محدثين مزيدا من القلاقل في تلك الجهة إلى أن نقلوا مرّة أخرى في منتصف القرن الخامس الهجري / القرن الحادي عشر الميلادي إلى إفريقية، وتسمّى هذه المرحلة

"التغريبة"، وهي تهمّ خروجهم من مصر وتوجّههم إلى إفريقية. وسنرجع لدراسة هذه المرحلة بأكثر تفصيل في القسم الثاني من بحثنا.

وفي هذا النطاق أكّدت دراسات بعض المستشرقين الفرنسيّين بصفة خاصّة على أن الهجرة الهلاليّة إلى إفريقيّة جاءت نتيجة للقطيعة بين الفاطميين في مصر والزيريّين في إفريقية، فهي على حدّ تعبيرهم "عمليّة انتقام قام بها الخليفة المستنصر بالله الفاطميّ على حليفه وتابعه المعزّ ابن باديس الصنهاجيّ"، ردّا على خلعه طاعته وإقامته البيعة لمنافسه الخليفة العبّاسي. لكنّ مثل هذا التّفسير الذي يؤكّد على العوامل الدّينية (رجوع بني زيري إلى السنة بينما كانوا تابعين للشّيعة) والسّياسيّة (معاقبة حليف قطع صلته الرّسمية بسيّده) والإيديولوجيّة (الصّراع بين الشّيعة والسنة على مستوى بلدان البحر الأبيض المتوسّط) غير كافٍ في نظرنا، لأنّه أهمل عناصر أخرى منها الذي يهمّ إفريقية الزّيرية (الأوضاع التي تميّزها في النصف الأوّل من القرن الخامس هـ / القرن الحادي عشر م) والمغرب الإسلامي ثم بلدان البحر المتوسط بصفة أعمّ، وسوف نرجع إلى ذلك فيما بعد- ومنها الذي يهمّ مصر في عهد المستنصر على أساس أنّ البلاد كانت تتخبّط في أزمات متعدّدة لعل أبرزها الأزمة الاقتصادية المتمثلة في تعدّد المجاعات والأوبئة، وهو عنصر لا بدّ من تدقيقه لإظهار العلاقة الضمنيّة بين الهجرة الهلاليّة في منتصف القرن الخامس هـ / القرن الحادي عشر م والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في مصر في عهد المستنصر بالله الفاطميّ (427-478هـ / 1036-1085م).

2 - الأوضاع في مصر في عهد المستنصر بالله الفاطميّ والأسباب الاقتصادية لهجرة بني هلال وبني سليم من مصر إلى إفريقية :

لحسن حظنا لدينا مصدر تاريخيّ لم يقع استغلاله في هذا المضمار وهو كتاب "إغاثة الأمّة بكشف الغمّة" للمؤرّخ المقريزي الذي ألفه سنة 808هـ / 1405م واستعرض فيه تاريخ المجاعات التي اجتاحت مصر إلى حدّ القرن التّاسع للهجرة / القرن الخامس عشر للميلاد.

كما تعرّض إلى أسباب تلك المجاعات واقترح حلولا لمعالجتها. ومن خلال هذا المصدر المهمّ يبدو أن الحالة الاقتصادية كانت متدهورة في مصر آنذاك. وهذا التّدهور تؤكّده مصادر أخرى مثل ابن تغري بردي في تاريخه المسمّى "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" ومؤشّرات مثل انحدار وزن الدّينار المصري آنذاك وتقلبات مياه النيل في نفس الحقبة.

نشير قبل كل شيء إلى أن مصر اجتاحتها، حسب المقريزي، عدّة مجاعات في العصر الإخشيديّ نذكر منها مجاعة سنة 338هـ / 949م. وتواصلت حلقة المجاعات والأوبئة في العصر الفاطميّ: 358هـ/ 969م و378هـ / 997م و 395هـ / 1005م و 398هـ / 1008م. لكنّ أعنف المجاعات على الإطلاق حصلت في عهد المستنصر وأوّلها مجاعة سنة 444هـ / 1052م التي دامت عدة سنوات وعاصرت الهجرة الهلالية لإفريقية. وترجع هذه المجاعة إلى انخفاض مياه النيل منذ سنة 444هـ / 1052م وقلة المحاصيل في المخازن السلطانية نتيجة عاملين: انخفاض في الأسعار، وقرار السّلطان بيع ما في خزائنه من هذه المحاصيل خوفا من

بوارها. كما يؤكّد المقريزي على مضاربات السلطان وانعكاساتها على حركة الأسعار وما تؤدّي إليه من سخط الرعيّة عليه.

أما مجاعة سنة 447هـ / 1055م فسببها، حسب المقريزي، انخفاض النيل وقلة الحبوب ممّا أدّى إلى ارتفاع الأسعار واشتداد الأمر على النّاس. ويشير المؤلف إلى أن الوضع تأزّم في مصر بعد موت الوزير اليازوري فتكاثر عدد الوزراء، وأصبحت البلاد تتخبّط في أزمات وزاريّة احتدت بسبب الصراع بين الأتراك والعبيد وقصور السّلطان على إيجاد حلّ ملائم للوضع. إن عهد المستنصر بالله يتميز بالاضطراب سياسيا (انحلال السلطة وضعف النظام) واقتصاديا (المضاربات التي كان يقوم بها كل من السلطان والتجار الكبار على حساب الفلاحين الصغار والمستهلكين بصفة عامّة). وقد أدّى هذا الوضع المتأزّم إلى ارتفاع الأسعار (مثلا ثمن الخبز) وانخفاض دخل النّواحي وإقفار الأرياف وتكاثر المجاعات والأوبئة وهبوط كبير في عدد السّكان من تكاثر الوفيات.

ولعلّ مجاعة سنة 457هـ / 1065م التي تسمّيها المصادر "الشدّة الكبرى" تمثل أحسن برهان على كل هذه الصّعوبات التي عرفتها مصر في الميدان الاقتصادي والاجتماعي، خاصة أنّ هذه المجاعة استمرت سبع سنوات ولم تنته إلا بضبط الأسعار من طرف الوالي وجريان النيل.

وقد أثبتنا في دراستنا للأوضاع العامة في مصر في عهد المستنصر احتداد تلك الأزمة الاقتصادية بالاستناد إلى مؤشّرين اثنين: تطوّر وزن الدينار الذهبي في اتجاه الانحدار، ثم تقلّبات مياه النيل الفجائية وانعكاساتها على السكان، ثم ربطنا كلّ هذا بهجرة بني هلال إلى إفريقية نظرا لتزامن الأحداث. فالقبائل العربية القاطنة آنذاك في الصّعيد المصري كانت تعيش في ظروف متدهورة جدّا كما أشار إلى ذلك المقريزي في كتاب البيان. كما أن الخليفة المستنصر بالله - نظرا لاضطراب الأوضاع - قد يكون شجّع عملية انتقال بني هلال وبني سليم إلى إفريقية لتخفيف الشّدائد على السّكان في تلك المنطقة.

إن النّظرية التقليدية التي ذكرناها أعلاه والتي تفسّر الهجرة بأسباب سياسيّة وإيديولوجية بحتة غير كافية كما أشرنا إلى ذلك. ثم إن العامل السياسي الذي لا يمكن لنا التّغافل عنه قد لا يكون، في نهاية المطاف، سببا في حدّ ذاته، بل مجرّد تعلة بالنسبة للمستنصر الذي كان يتخبّط في صعوبات جمّة. فهو عامل ثانويّ إذ أن القبائل الهلاليّة، بدورها، كانت في وضع مادّي خانق في الصّعيد. وقد ذكر ابن خلدون أن الفاطميّين شجّعوا بني هلال على اجتياز النّيل والذّهاب إلى إفريقيّة على أساس أن العملية مكنت الخزانة المصرية، التي كانت خالية من الأموال حسب المقريزي، من تعويض ما كانت أسندته للعناصر الهلاليّة (بعير لكل رأس ودينار) لعبور النّيل، بل درّت عليها كذلك أموالا وفيرة كانت في أشدّ الحاجة إليها آنذاك.

3 - الأوضاع في المغرب وإفريقية قبل هجرة بني هلال :

أمّا بالنسبة للأوضاع في إفريقية والمغرب قبل الهجرة، فالمسألة طرحت كذلك من طرف بعض المؤرّخين مثل جون بونسي الذي أكّد أنّ إفريقية الزّيرية كانت، في منتصف القرن الخامس الهجري/ القرن الحادي عشر م، على حافة هاوية وأن قدوم الهلاليّين إليها هو مجرّد حافز عجّل بانهيارها. بينما كان كل من جورج مارسي وهادي روجي إدريس يدافعان على فكرة مناقضة تماما تفيد أن البلاد كانت

في أوج علاها في عهد المعزّ بن باديس الصنهاجي (442هـ / 1050م-454هـ / 1062م).

إنّ الأمر يستدعي منا طرحا جديدا لتجاوز الجدل بين المؤرّخين. وهذا الطرح يقضي بمعرفة أحوال إفريقية في النصف الأول من القرن الخامس الهجري / القرن الحادي عشر الميلادي، أي قبل الهجرة الهلاليّة والتّذكير بعلاقة الفاطميّين في مصر بأتباعهم بني زيري ثم محاولة طرح القضيّة على مستوى بلاد المغرب وبلدان المتوسّط وكذلك العالم الإسلامي بصفة عامّة للتوصل إلى تفسير مرضيّ وغير أحادي.

- بالنّسبة لإفريقيّة الزّيريّة، نذكر أن الفاطميّين عند انتقالهم إلى مصر سنة 362هـ / 972م سلّموا الإمارة إلى بلكين ابن زيري الذي ينتمي إلى قبيلة صنهاجة، وهي من القبائل البربريّة الموالية للفاطميّين في صراعهم ضدّ أعدائهم المحليين في إفريقية وفي المغرب (خاصة الخوارج أثناء ثورة صاحب الحمار وزناتة المؤيّدة لأمويّي الأندلس). وبعد وفاته سنة373هـ / 984م خلفه ابنه المنصور ومن بعده باديس. وفي سنة 406هـ / 1016م تسلّم السّلطة المعزّ بن باديس وعمره ثماني سنوات، في حين كان عمّه حمّاد قد استقل بالأمر في القسم الغربيّ من الدّولة الزّيريّة وابتنى لنفسه سنة 398هـ / 1007م قلعة حصينة أصبحت تعرف "بقلعة بني حمّاد" بجهة قسنطينة، وكوّن دولة بني حمّاد التي ستظل قائمة في المغرب الأوسط إلى منتصف القرن السّادس للهجرة / القرن الثاني عشر الميلادي (حوالي سنة 547هـ / 1152م).

وممّا تجدر الإشارة إليه أن دولة بني زيري في النّصف الأول من القرن الخامس للهجرة / القرن الحادي عشر الميلادي كانت - خلافا لما يدّعيه بعض المؤرّخين الفرنسيين، اعتمادا على روايات المصادر الإفريقيّة والمغربيّة مثل ابن عذاري وغيره، تتخبّط في عدّة صعوبات داخليّة وخارجيّة.

وقد عالج المؤرّخ الفرنسي السالف الذكر جون بونسي هذه الأزمات فأكّد على السّياسة الماليّة التي تتميّز بتفاقم الضّرائب نتيجة النّفقات الكبيرة للدّولة وإقطاع القوادّ إقطاعات شاسعة في البلاد مثل إقطاع حمّاد المغرب الأوسط. كما ذكر الأزمة التي عرفتها الدولة في عهد المعز في المدّة المتراوحة بين سنتي 406هـ / 1016م و411هـ / 1020م حيث وقع تقتيل الشّيعة بصفة كبيرة، ويرى في هذه المحنة- لا مجرد اضطهاد مذهب لآخر وثورة دينية على الشّيعة - بل مظهر "الثورة البرجوازيّة (أي طبقة التّجار والفلاحين) والشعب بإفريقيّة على الأرستقراطيّة المتواطئة مع الفاطميّين في مصر وعلى المشارقة".

إذا لا يمكن الحديث عن ازدهار الأوضاع بإفريقيّة الزّيرية في تلك الفترة بالذّات أي من سنة 407هـ / 1016م إلى سنة 442هـ / 1051م رغم أنّ بعض المصادر كما ذكرنا خاصة ابن عذاري تشير إلى الأبّهة التي عرفتها الدّولة الزّيرية في عهد المعزّ .

كان المعزّ يتلقى الوفود من السّودان وقيصر القسطنطينيّة والخليفة الفاطميّ بمصرمحملة بالهدايا الثمينة. كما أن الأمير الزّيري أقام في عدّة مناسبات (سنة 414هـ / 1023م زواج أخته وقبل ذلك سنة 413هـ / 1021م زواجه وسنة 412هـ / 1020م وفاة زوجة ناصر الدّولة) عدّة حفلات فخمة لإظهار الأبّهة وإبهار العامّة.

لكنّ هذه الصّورة المبهرة للأوضاع في إفريقية الزّيرية التي جعلت بعض المؤرّخين يتكلّمون -كما سبق أن أشرنا إلى ذلك- عن بلوغ الحضارة

الزّيرية أوجها آنذاك، تنطبق في الحقيقة على الفترة التي سبقتها أي على القرن الرابع الهجري / القرن العاشر الميلادي كما تؤكده شهادات بعض الجغرافيّين الذين زاروا إفريقيّة وتحدّثوا عن الازدهار الاقتصادي الذي يميّزها خاصة في الميدان التّجاري حيث ذكروا تبادل البضائع من ملابس ومصنوعات صوفيّة- تأتي من برقة- وزيوت والعديد من المواد الزراعية مثل اللّوز والزعفران وغيرها والجلود من إفريقيّة. كذلك يظهر من وثائق الجنيزة التي درسها المؤرّخ قويطين أنّ التّبادل التّجاري بين إفريقية ومصر كان يعتمد على تصدير الموادّ الزراعية (مثل الزّيت والصابون والقمح والجلود وغيرها) والمنتجات المصنوعة من القطن أو الكتّان وكذلك السجاد والمعادن (الذّهب والقصدير والنّحاس...). من جهتها كانت إفريقيّة تستورد من مصر التّوابل، والنّباتات الصّالحة لصنع الملابس، والنّباتات الطّبيّة، والملح، والجواهر، وبعض الموادّ الغذائية مثل السّكر، إلى جانب الكتّان وبعض المنسوجات الأخرى.

وقد كان النّشاط التّجاري بين مصر وإفريقيّة الذي تشير إليه وثائق الجنيزة بصفة خاصّة يتمّ عن طريق البرّ، أي بالقوافل في النّصف الأول من القرن الخامس الهجري / القرن الحادي عشر الميلادي قبل أن يتحوّل في النّصف الثاني من نفس القرن أي بعد الهجرة الهلالية ليصبح بحرياً.

على الصّعيد الخارجي، كان الخطر يهدّد حدود إفريقيّة في الغرب من طرف بني حمّاد وكذلك من الجنوب حيث أن محور بلاد الجريد الذي كان حلقة وصل بين المغرب والصّحراء بدأ يخرج من السّيطرة الزّيرية. ثم إنّ صقليّة التي سيطر عليها النّورمان لم يتمكّن بنو زيري من استرجاعها لحظيرتهم.

أمّا فيما يتعلق بعلاقات المعزّ بالخليفة الفاطميّ في القاهرة، فاللافت للانتباه هو أنها تأزّمت وتوتّرت بصفة تدريجيّة إلى أن تمّت القطيعة الرّسميّة سنة 440هـ / 1048م حيث أعلن المعزّ الزّيري أنه أنهى إلقاء الخطبة على المنابر باسم الفاطميّين وأمر أئمّة المساجد بالدّعاء للخليفة العبّاسي القائم بأمر الله الذي أرسل إليه اعترافا بإمارته واستقلال بلاده. كما قرّر محو أسماء الخلفاء الفاطميّين من النّقود وسكّ عملة أخرى في شعبان 441هـ / ديسمبر1049م. وقد كتب على وجهها ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (سورة آل عمران: الآية 85) وفي الوجه الآخر "لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله".

كتب الكثير من المؤرخين عن هذه القطيعة، فاعتبرها البعض قطيعة دينيّة نتيجة صراع بين المذهب المالكيّ المنتشر في إفريقيّة والمذهب الشّيعيّ الذي أقرّه الفاطميّون في البلاد بالقوّة قبل انتقالهم إلى القاهرة. بينما يرى فيها البعض الآخر "مناورة اقتصادية وماليّة رمى من ورائها المعزّ إلى ضرب السكّة باسمه وتحويل ما تبقى من رصيد الذّهب لفائدته" إذن هي عمليّة ماليّة وسياسيّة ترمي إلى الإنقاذ.

والواقع أنّ الأزمة بين بني زيري في عهد المعزّ والفاطميّين - في عهد المستنصر- لا تتعلق فقط بالتّوتر الدّيني والسّياسي الذي كنّا أشرنا إليه والذي أدّى في سنة 440هـ / 1048م إلى القطيعة الرّسمية، بل إن القضيّة يجب أن تطرح على مستوى أشمل. فبالنّسبة إلى الوضع الذي عرفته إفريقيّة الزّيرية في النصف الأوّل من القرن الخامس الهجري / القرن الحادي عشر الميلادي، فهو وليد ظروف تتجاوز النّطاق المحلي وتتميّز بظهور قوى جديدة فتيّة في المغرب الأقصى متحفزة لأخذ المشعل من يد القيروان (وهم المرابطون). ثم لا

ننسى أن الدّولة الزّيريّة فقدت وحدتها منذ بداية القرن مع قيام الحمّاديّين في المغرب الأوسط.

على المستوى المتوسّطي، فقد ظهر للعيان توازن جديد يتمثّل في ازدهار الجمهوريّات الإيطاليّة مثل جنوة والبندقية وغيرهما، وتصاعد دور النّورمان الذين هم بصدد تكوين قوّة مهمّة تتمحور حول "مملكة الصقليتين " التي أسست بعد احتلالهم لجنوب إيطاليا ولصقلية التي كانت في أيدي الزّيريّين، ثم يجب أن نذكّر بظهور بوادر الحروب الصّليبيّة عبر الحملات التّعبويّة التي كانت تقوم بها الكنيسة وبعض القوى الأخرى في الغرب المسيحيّ، وكذلك "حروب الاسترداد" الذي شرع فيها الإسبان في الأندلس على حساب المسلمين.

كلّ هذه العوامل الخارجيّة تزامنت مع الأزمات الدّاخليّة التي عرفتها إفريقية الزّيريّة في عهد المعزّ بن باديس (تقتيل الشّيعة، الصّراع ضدّ القبائل الزّناتيّة، الأزمة الماليّة، تحوّل النّشاط التّجاري). إذن لا يمكن القول إنّ هجرة بني هلال كانت نتيجة مباشرة للقطيعة مع الفاطميّين في مصر. كذلك يصعب تحميل الهلاليّين كل ما حصل من أعمال تخريب وانحطاط في إفريقيّة والمغرب، خاصة أن مصر الّتي انطلق منها بنو هلال لم تكن في أوضاع أحسن حيث أكدنا على اشتداد المجاعات والأوبئة بها في عهد المستنصر وعلى تكاثر عدد الموتى وانخفاض وزن الدينار الذّهبي وتقلّبات مياه النّيل.

بقي أن نطرح الإشكاليّة على مستوى العالم الإسلامي في إطار الصراع العباسي الفاطمي حول الخلافة، ونربط بين ما كان يحدث في إفريقيّة والمغرب في منتصف القرن الخامس الهجري / القرن الحادي عشر الميلادي وبين الأوضاع في شرق الإمبراطوريّة الإسلاميّة. وقد ذكرالمستشرق كلود كاهين ذلك في مقال مشهور أكّد فيه على "البدونة السّياسيّة " التي مسّت كامل العالم الإسلامي في القرنين الرابع والخامس للهجرة / العاشر والحادي عشر للميلاد، واعتبر أن الهلاليّين كان لهم ماضٍ بعيد في مصر وشبه الجزيرة العربيّة، ولم يذكر أي مصدر أنّهم - شأنهم شأن بقيّة البدو في الصّعيد المصريّ- تسبّبوا في انهيار البلاد التي يقيمون بها.

إجمالا: أسباب الهجرة متنوّعة منها المتعلق بصفة محليّة بإفريقيّة الزّيرية وأوضاعها في النّصف الأوّل من القرن الخامس الهجري / القرن الحادي عشر الميلادي ومنها الذي يهمّ مصر في عهد المستنصر الفاطمي حوالي منتصف القرن الخامس الهجري / القرن الحادي عشر الميلادي، كما أن معرفة الأوضاع العامّة في المغرب وفي منطقة البحر الأبيض المتوسّط والعالم الإسلامي قد أعانتنا على فهم الأبعاد الخفية لهذا الحدث الخطير الذي كانت له آثار عميقة على البلاد من مختلف الأوجه.

ما هي مراحل الهجرة وآثارها ونتائجها بالنّسبة لإفريقيّة وبلاد المغرب؟

ثانياً - مراحل الهجرة الهلاليّة إلى بلاد المغرب :

لا شكّ أنّ الهجرة الهلاليّة أو "الزّحف الهلاليّ" لم يكن من صنيع قبيلة واحدة -قبيلة بني هلال- بل هو عملية جماعيّة شاركت فيها عدّة بطون وعشائر تنتمي كلها إلى الفرع المضريّ العدنانيّ. وكانت هذه المجموعات القبليّة قد انتقلت من الجزيرة العربيّة إلى مصر حيث استقرت في منطقة الحوف الشّرقي -الصّعيد- كما أسلفنا، ثم تحوّلت إلى إفريقيّة - عبر برقة وطرابلس -

وتوزّعت في المجال الإفريقيّ والمغربيّ.

واعتمادا على ما جاء في المصادر العربيّة - سواء منها الشّرقية مثل المقريزي أو الغربيّة مثل ابن خلدون - يمكن لنا التعرّف على مختلف هذه البطون والعشائر المسمّاة بالهلالية.

يقول ابن خلدون في هذا الإطار "ونبدأ بذكر جشم لأنّهم من عداد هلال ثم نأتي بعدهم بذكر سليم لأنّهم جاءوا من بعدهم" ويضيف : "وكان فيهم من هلال كثير من فزارة وأشجع من بطون غطفان وجشم بن معاوية بن بكر من هوازن وسلول بن مرّة من صعصعة بن معاوية والمعقل من بطون اليمانيّة... إلاّ أنّهم كلّهم مندرجين في هلال والأثبج منهم خصوصا لأنّ الرّئاسة كانت عند دخولهم للأثبج فأدخلوا فيهم وصاروا مندرجين في جملتهم".

إذن القبائل الهلاليّة هي عبارة عن خليط يمثل فيه الهلاليون بمختلف فروعهم (قرّة - زغبة- الأثبج- رياح...) والسُليميّون (دباب- هيب- زغب - عوف) نسبة هامّة مع وجود بطون أخرى متنوّعة من قبائل مضريّة اندمجت فيهم (فزارة وأشجع من غطفان وجشم من هوازن).

1 - التعريف ببني هلال وبني سليم في منطقة الصّعيد :

تعرف منطقة الصّعيد "بالوجه القبليّ" أي جنوب البلاد المصريّة، وكانت تشمل عدّة مدن مثل أسوان، وقوص، وإخميم، والبهنسا. وتقسم إلى ثلاثة أقسام: الصّعيد الأعلى الذي ينتهي قرب إخميم، ثم الصّعيد الأوسط بين إخميم والبهنسا، وأخيرا الصّعيد الأقصى من البهنسا إلى الفسطاط. وكانت هذه المنطقة الجنوبيّة مؤهّلة لتربية المواشي، ولذلك استقرت فيها المجموعات الهلاليّة بعد خروجها من نجد والحجاز. ويشير المقريزي أنها كانت آهلة - في عصره (القرن الثامن الهجري/ القرن الرابع عشر للميلاد) بقبائل متعدّدة مثل بلي، وجهينة، وقريش بن كلاب، ولواتة، ومزينة، وثعلبة إلى جانب بني هلال.

ومن أهمّ الفروع الهلاليّة التي تحوّلت إلى إفريقية نذكر الأثبج - وهم أكثر بني هلال بطونا وأوفرهم عددا - وهم فرق متعدّدة منهم دريد وكرفة ومقدّم والعاصم ولطيف والضّحّاك وعياض.

أمّا زغبة فكان لهم عزّة وكثرة عند دخولهم إلى إفريقية، ومن أهمّ بطونهم نذكر يزيد والحصن ومالك وعامر وعروة.

فيما يتعلق برياح يعتبرون أعزّ قبائل هلال وأكثرهم عددا وهم أوّل من وصل إفريقيّة ومن أهمّ فروعهم مرداس - الذي ينتمي إليه القائد مؤنس بن يحيى - ثم عمرو وعلي وسعيد والأخضر.

بالنسبة إلى بني سليم الذين ينتمون - كما بيّنا - إلى الفرع المضرّي القيسيّ مثل بني هلال - فقد كانت لهم المبادرة في الدّخول إلى إفريقية، وينقسمون إلى أربعة فروع : زغب، ودباب، وهيب.

إلى جانب المجموعة الهلاليّة والسليميّة تذكر المصادر قبائل وبطوناً متعدّدة مثل جشم، وهو اسم ينطبق في الواقع على عدّة أحياء عربيّة من قرّة وعاصم ومقدّم والخلط التي تنتمي بالنسب للأثبج، وقد عرفوا بهذا الاسم - جشم - بعد نقلهم للمغرب الأقصى على أيدي الخليفة الموحّدي المنصور. وأهمّ فروع جشم ثلاثة: الخلط، وسفيان، وبنو جابر.

أمّا المعقل فهي فرقة مشكوك في نسبها، حيث أن النّسابة العرب الذين أخذ عليهم ابن خلدون يرجعونها إلى هلال بن عامر بينما يرجع مؤلف "تاريخ البربر" انتماءها لمذحج من القبائل

اليمانيّة، ويؤكّد على أنّهم دخلوا إفريقية مع الهلاليّين في عدد قليل لا يتجاوز المائتين، ومن أهمّ فروعهم: عبيد الله، وحسن، ومنصور.

2 - تنظيم الهجرة إلى إفريقية :

إنّ خروج الهلاليّين ومن تبعهم من قبائل شتّى إلى إفريقية مرورا - ببرقة وطرابلس- يدخل في نطاق ما يسمّى "بتغريبة بني هلال" التي تكوّن المرحلة الرابعة في تاريخ الهلاليّة. وقد جاء هذا الخروج نتيجة لعوامل متداخلة لكنّه لم يتمّ بأعداد كثيرة وفي دفعة ، بل إنّ العمليّة اتخذت شكل موجات متتالية تدفقت من الصّعيد المصري إلى إفريقية، ولهذا السّبب نرى من الأجدى استعمال مفهوم الهجرة لا الهجوم أو الغزو الذي أكّد عليه المستشرقون اعتمادا على ما أورده ابن خلدون بصفة خاصة.

إن المصادر العربيّة التي أرّخت لهذا الحدث المهمّ في تاريخ إفريقيّة والمغرب تؤكد على أن المهاجرين الذين اجتازوا النّيل ووصلوا إلى إفريقية لم يلبثوا أن راسلوا أقرباءهم في الصّعيد المصريّ لترغيبهم في الالتحاق بهم ومشاركتهم في استغلال خيرات البلاد والانتفاع بها عوض البقاء في منطقة يصعب فيها العيش، وهذا دليل آخر في رأينا على أنّ العمليّة تمّت بصفة مرحليّة. وتمثل سنة 442هـ / 1051م بداية وصول أوّل المهاجرين من العرب إلى إفريقيّة الزّيرية.

لم تذكر لنا المصادر مع الأسف أعداد القادمين من مصر، لكنّ بعض الدّارسين حاولوا تقييم الهجرة بصفة مختلفة وحدّدوا بعض المقاييس. وأوّل من قام بهذا التّقييم العدديّ هو المستشرق الفرنسي كارات الذي تحدّث - معتمداً على ما ذكره ابن الرقيق في رواية نقلها عنه الحسن الوزّان والجغرافي مرمول - عن مليون نسمة يضمّون خمسين ألف محارب من المعقل وبني هلال خاصّة. غير أن هذا الرقم يبدو مرتفعا كما لاحظه بعض الدارسين.

وقد أكّد المستشرق مرسيي E. Mercier أن رقم مليون نسمة يجب التخفيض فيه لعدّة أسباب، أوّلها ضيق المجال الذي كان بنو هلال يقيمون فيه بالصّعيد المصريّ والسّنوات الصّعبة التي قضّوها هناك. ثم إنّ مثل هذا العدد المرتفع لو كان صحيحا لانجرّت عنه آثار سلبيّة جدّا على المناطق التي اجتاحها بنو هلال في مسيرتهم من مصر إلى إفريقيّة، بينما تشير المصادر إلى أنّ المهاجرين وقع التّصدّي لهم في جنوب البلاد الإفريقيّة فاضطروا إلى تغيير مسالك العبور وعدم اختراق التّلّ. أما السّبب الثالث فيتعلق بعدد المقاتلين في حيدران أي ثلاثة آلاف رجل (من رياح وزغبة وعدي وجشم) يمثلون ثلث المهاجرين الهلاليّين. إنّ هذا العدد الذي ذكرته المصادر أقلّ ما يقال فيه إنّه ضعيف جدّا إذا ما كان العرب القادمون من البلاد المصريّة يعدّون بمئات الآلاف.

ويؤكد مرسيي أنّ تحديد العدد الجمليّ لمجموعة سكانيّة عربيّة يتمّ إذا قمنا بعمليّة حسابيّة كالآتي: عدد المقاتلين (3000 في حيدران) 5x3x ممّا يعطينا 45.000 وهو عدد يشمل كلّ المقاتلين من العرب. أمّا الرقم الإجماليّ فيساوي 200.000 نسمة بالنّسبة لكل المهاجرين.

إنّ معظم الدّارسين المحدثين يرفضون إذن، العدد المشار إليه سابقا، ويؤكّدون أنّ الهجرة تمّت على مراحل، وأنّ بني هلال جاءوا في موجات متتالية بحيث لا يتعدّى عددهم الجمليّ في كلّ الحالات 200.000 نسمة.

3 - التوقف في برقة وطرابلس :

بعد خروجهم من الصّعيد، توجّه الهلاليون إلى إفريقيّة مرورا ببرقة وطرابلس. و يذكر ابن خلدون أن بعض الفروع من بني سليم بقيت في برقة - منهم هيب - ومعهم مجموعات صغيرة من رواحة وفزارة ودباب في طرابلس وبعض من زغب في فزان و سارت عوف إلى إفريقية. و يرجع عدم بقاء قبائل بني هلال في برقة و طرابلس إلى أن هدفها الأساسيّ - منذ خروجها من مصر - هو المسير إلى إفريقيّة الزّيرية والسّيطرة على خيراتها واقتسام الأراضي والإقطاعات التي أسندها إليهم الفاطميّون في تلك البلاد.

وما يمكن التّأكيد عليه هو أنّ البلاد اللّيبية شاسعة تغلب عليها الصحاري وتنحصر فيها المراكز العمرانية على السّواحل. وكانت تشمل قسمين: طرابلس التي تتبع إفريقية، وبرقة الموالية لمصر. ويشير ابن الأثير في حديثه عنها أنّ "العرب لما حلّوا ببرقة وما والاها وجدوا بلادا كثيرة المرعى خالية الأهل لأن زناتة كانوا أهلها فأبادهم المعزّ فأقامت العرب بها واستوطنتها وعاشوا في أطراف البلاد".

إنّ الملاحظ هو أنّ بني سليم تأخّروا بأرض برقة، بينما واصل بنو هلال زحفهم نحو إفريقيّة. ويعلّل ابن خلدون ذلك بالصّراع الذي حصل بين القبائل من أجل استغلال البلاد.

ومن جهتنا لا بدّ أن نذكّر أنّ بني سليم كانوا تأخّروا عن بني هلال في كلّ هجراتهم: المرّة الأولى في العهد الفاطميّ عندما وقع تهجيرهم من نجد والحجاز إلى الصّعيد المصريّ، ثمّ ثانية أثناء انتقالهم من مصر إلى برقة، وأخيرا من برقة إلى إفريقيّة.

4 - الوصول إلى إفريقيّة والعلاقات بين العرب وبني زيري :

تمّ وصول الجموع الهلاليّة الأولى إلى إفريقيّة في غضون سنة 443هـ / 1052م وحصلت أوّل معركة حاسمة بينهم وبين الأمير الزّيري المعزّ بن باديس في ذي الحجّة سنة 443هـ / أبريل 1052م. وتشير المصادر إلى أنّ أول من وصل من الهلاليّين مؤنس بن يحي الرّياحيّ أمير رياح - أحد فروع بني هلال - الذي قدم إلى القيروان حيث كان يقيم المعزّ. ولعلّ قدومه كان نتيجة الدّعوة التي وجّهها إليه الأمير الصّنهاجي. وكان المعزّ يريد من استقدامه توظيف العرب القادمين من مصر لصالحه، لأنّه كان متخوّفا من جيشه المتكوّن من العناصر البربريّة الصّنهاجيّة، لا سيّما أن العلاقة بين بني زيري و صنهاجة لم تكن متينة منذ تأسيس دولة بني حمّاد في القلعة.

ويؤكّد ابن عذاري في رواية تنسب إلى ابن شرف أنّ المعزّ شاور مؤنس الرياحي في اتخاذ بني عمّه رياح جندا، فأشار عليه بأن لا يفعل ذلك، وعرّفه بقلّة اجتماع القوم على الطاعة، فألحّ عليه في ذلك إلى أن قال له المعزّ: "إنّما تريد انفرادك حسدا منك لقومك". من خلال هذه الرّواية يتبين أن الأمير الزّيري لم يتدبّر نصيحة القائد الرّياحي الذي بيّن له خطر وجود قومه في هذه المناطق الخصبة الغنية، بل اتهمه بالأنانيّة والحسد مما جعل مؤنساً يعزم على الخروج ويقبل المهمّة التي انتدب من أجلها حفاظا على مصالحه ومصالح أهله وبنيه. وقد تمكن من إقناع قومه بعد ما نادى فيهم وحشدهم ووعدهم وغبطهم ووصف لهم كرامة السّلطان والإحسان لهم، ثمّ قدم في ركب منهم لم يعهدوا نعمة ولا طالعوا حاضرة، فلما انتهوا إلى قرية تنادوا "هذه القيروان، ونهبوها من حينها".

إنّ العلاقات بين المعزّ بن باديس والهلاليّين - وعلى رأسهم القائد مؤنس بن يحيى الرّياحيّ - تطوّرت بصفة فجائية من الودّ إلى العداء، فأصبحت المواجهة العسكريّة حتميّة بين الطرفين. ومن ناحية كان الأمير الزّيريّ يريد استغلال المجموعات البدويّة لصالح دولته وذلك بتوجيه قوّتهم العسكريّة ضدّ بني عمّه الحمّاديّين في القلعة، لكنّه فشل في احتوائهم، ويرجع ذلك إلى طبيعتهم البدويّة التي ترفض الخضوع لسلطة معيّنة وإلى تركيبتهم القبليّة المتنوّعة حيث أنهم لا يكوّنون قبيلة واحدة متماسكة بل هم فروع وبطون مختلفة خرجت من منطقة يصعب فيها العيش وتوجّهت إلى بلاد جديدة تطمح في الاستحواذ عليها والسّيطرة على خيراتها. كذلك لا يمكن- من ناحية حيث نمط العيش- أنّ يحصل تعايش بين العرب البدو وسكّان البلاد الحضر. فكلّ هذه الأسباب، إذن، تفسّر في نظرنا فشل كل المحاولات السّلمية التي قام بها المعزّ بن باديس وخاصة محاولته الثانية التي جاءت مباشرة بعد نهب القرية الأولى التي وصل إليها الهلاليّون وحسبوا أنها القيروان.

يلاحظ ابن عذاري "أن المعزّ أخرج إليهم الفقهاء ومعهم مكاتبات وشروط ووصايا وأعلموهم أن السلطان قد دفع عيالاتهم لهم وأخذوا عليهم العهود والمواثيق بالرّجوع إلى الطاعة". لكن العرب "نكثوا على السّلطان واستولوا على الفساد بكل جهة ومكان" ممّا أدّى إلى الصّراع العسكريّ المباشر بين الطرفين.

5 - الصّراع العسكريّ الزّيريّ الهلاليّ :

تشير المصادر إلى أنّ المعركة الفاصلة في الصراع الزّيري الهلاليّ تمّت في غضون سنة 443هـ / 1052م وتسميّها باسم الجبل الذي بينه وبين القيروان ثلاثة أيام - بين صفاقس وقابس- وهو جبل حيدران. غير أنّ قراءة دقيقة لمختلف الرّوايات الواردة في هذه المصادر (ابن عذاري- ابن الأثير- التّجاني- ابن خلدون وغيرهم) تبيّن أنّ عدّة وقائع حصلت بين العرب البدو والمعزّ بن باديس من ناحية وبين بني هلال وبعض سكّان المدن مثل أهل القيروان من ناحية أخرى، وذلك مباشرة بعد أعمال النّهب والفساد وقطع الثمار وحصار المدن التي قام بها العرب إثر دخولهم إلى إفريقيّة.

الرّواية الأولى التي نقلها لها ابن عذاري تحت عنوان "هزيمة العرب للمعزّ" تفيد أنّ السلطان عيّد يوم الاثنين ذي الحجّة سنة 443هـ / الموافق ليوم 6 من أبريل 1052م ومشى إلى ناحية قرية تعرف بني هلال "فلمّا أتته الأخبار أنّ القوم قد قربوا منه أمر بالنّزول في أوعار وأودية. فلم يستتمّ النزول حتى حمل العرب عليه فانهزم العسكر وصبر المعزّ إلى أن وصلت رماح العرب إليه ومات من العبيد خلق عظيم".

أمّا بنو مناد وجميع صنهاجة وغيرهم من القبائل فقد فرّوا ونهب العرب مضاربهم. ودخل العرب معسكر المعزّ فنهبوه وفيه أموال وأثاث وخفّ وكراع وأمتعة وأخبية وجمال وبغال... وسلك النّاس الجبل المعروف بحيدران ورجع المعزّ بعد يومين إلى قصره وتساقط النّاس بعدها آحادا وجموعا وتخلّف عن الوصول خلق عظيم...". ويواصل ابن عذاري الحديث عن هذه الوقعة مؤكّدا على أن العرب وصلوا إلى نواحي القيروان و"جعل كل من سبق إلى قرية يسمّى نفسه لهم ويؤمّنهم..."، وأقام النّاس يومين لا يدخل إليهم داخل ولا يخرج منها خارج وخيل العرب تسرح حول القيروان في كلّ جهة ومكان. إنّ هذه الرّواية تؤرّخ للهزيمة الأولى التي مُنِي بها المعزّ بن باديس

وجيشه ضدّ العرب وذلك في اليوم الثاني لعيد الأضحى سنة 443هـ / أبريل 1052م، وهي تكاد تتناسب مع الخبر الذي نقله ابن الأثير في أحداث سنة 443هـ / 1052م إذ يشير إلى أنّ الأمير الزّيريّ جمع عساكره فكانوا ثلاثين ألف فارس ومثلها من الرّجالة، بينما كانت عدّة العرب ثلاثة آلاف فارس. فلمّا رأت العرب عساكر صنهاجة والعبيد مع المعزّ هالهم ذلك وعظم عليهم فقال لهم مؤنس بن يحيى: "ما هذا يوم فرار" فقالوا: أين نطعن هؤلاء وقد لبسوا الكزاغندات والمغافر؟ قال: في أعينهم، "فسمّي ذلك اليوم يوم العين". وقد انهزمت خلاله صنهاجة وثبت العبيد مع المعزّ، فكثر القتل فيهم فدخل الأمير الزّيري القيروان منهزما بعد أن خلف العديد من القتلى من صنهاجة، وأخذت العرب الخيل والخيام وما فيها من مال وغيره". وفي هذا اليوم يقول بعض الشعراء لعلّه علي بن رزق:

وإنّ ابن باديس لأفضل مالك
ولكن لعمري ما لديه رجال
ثلاثون ألفا منهم غلبتهم
ثلاثة آلاف إنّ ذا لمحال

إنّ ما يمكن التّوقف عنده في هذا الخبر هو العدّة العسكريّة المتباعدة للطرفين. فالمعزّ بن باديس قام بتعبئة كلّ قواه المتوفّرة في إفريقيّة، واستطاع تجميع ما لا يقلّ عن ثلاثين ألف مقاتل. ومما يذكر أن هذا الجيش الكثيف يتكوّن من عناصر متنوّعة: عشرين ألفا من مجموع ثلاثين ألف عبد كان اشتراهم المعزّ قبل ذلك بعد ما رأى تقاعد صنهاجة عن قتال زناتة وأوسع لهم في العطاء. ثمّ نجد بقايا عرب الفتح وفرقتين من ألفي فارس كان استمد فرقة من ألف فارس من ابن عمّه صاحب القلعة وفرقة ثانية من ألف فارس من زناتة بقيادة المستنصر بن خزرون المغراوي. أمّا العرب الهلاليّون فقد كان عددهم لا يتجاوز ثلاثة آلاف فارس من رياح والأثبج وبني عدي أي جزءاً فقط من مجمل المهاجرين الذين مازالوا يتوافدون على إفريقيّة.

وقد انتهت هذه الوقعة الأولى بهزيمة المعزّ ونهب معسكره وقتل العديد من جيشه.

وقد جدّت الوقعة الثانية عدة أيّام بعد ذلك، إذ يعلمنا ابن عذاري أنّ المعزّ خرج - سابع عيد الأضحى 443هـ / الموافق للعاشر من شهر أبريل 1052م - بجنوده وخرج عامّة القيروان معه فلم يتعدّ المصلى. وفي الأثناء "كان العرب قد تراجعوا في أمانهم الذي أعطوا أهل البوادي وانتهبوا جميعا وانتقل أهلها إلى القيروان". وفي السّابع عشر لذي الحجّة من نفس السنة / 17 أبريل في حين كان العرب على ثلاثة أميال من القيروان نزل السّلطان يمشي فيها ويوصى أهلها بالاحتفاظ وبالبناء وأمر أن ينتقل عامّة أهل صبرة - المنصورية - وسوقتها إلى القيروان ويخلوا الحوانيت كلّها بصبرة وأمر جميع من بالقيروان من الصّنهاجيّين وغيرهم من العسكر أن ينتقلوا إلى صبرة وينزلوا في حوانيتها وأسواقها ... ومدّ العبيد ورجال صنهاجة أيديهم إلى خشب الحوانيت وسقائفها واقتلعوها وخربت العمارة العظيمة في ساعة واحدة وبات النّاس على خوف عظيم ثم أصبحوا فعاينوا خيول العرب فأمر المعزّ ألاّ يخرج العسكر على سور صبرة .

إذن حصلت الوقعة الثانية التي يسمّيها ابن عذاري "وقعة باب تونس" (نسبة إلى أحد أبواب القيروان) مباشرة بعد تهجير أهل القيروان من صنهاجة والعسكر إلى صبرة ونقل عامّة صبرة وسوقتها إلى القيروان أي في وقت كان العرب على مقربة من العاصمة الإفريقيّة. وتؤكّد ذلك رواية

لابن شرف تفيد أنّ "الميرة انقطع عنها وتعطلت الأسواق وأمسك العرب جميع من أسروه فلم يطلقوا أحدا إلا بالفداء مثل أسرى الرّوم وأمّا الضّعفاء والمساكين أمسكوهم لخدمتهم". وقد جرت واقعة باب تونس بين العرب المسلّحين بالسّيوف والرّماح والعامّة "وفيهم من بسلاح ومنهم من بيده عصا لا يدفع بها أضعف الكلاب".

وبطبيعة الحال فقد انتصر العرب تاركين عددا من القتلى والجرحى في صفوف العامّة. ويعلّق ابن عذاري على هذا اليوم بقوله: "فكان هذا يوم مصائب وأنكاد ونوائب ولم ير النّاس مثله في سائر الأمصار فيما مضى من الأعصار".

أمّا المعركة الأخرى التي هزم فيها المعزّ للمرّة الثانية مع جيشه من صنهاجة فجرت - كما جاء في رواية أبي الصّلت التي نقلها لنا ابن عذاري وأكّدها من ناحيته ابن الأثير - في جبل حيدران.

جمع المعزّ سبعة وعشرين ألف فارس، وقدّم عليهم ابن سلبون وزكنون بن واعلان وزيري الصّنهاجيّ، وعاد إلى القيروان فانهزمت صنهاجة وقتل منها خلق كثير، فخرج إليهم بنفسه، فلمّا أشرف على بيوت العرب، وهو قبليّ جبل حيدران، نشبت الحرب بين العرب الذين كانت عدّتهم سبعة آلاف فارس (وهذا الرقم يؤكّد تزايد عددهم وتدفّقهم التّدريجيّ على إفريقيّة) وبينه. فانهزمت صنهاجة وولّى كل رجل منه منزله، وانهزمت زناتة وثبت المعزّ فيمن معه من عبيده، ثم انهزم وعاد إلى المنصوريّة. وكان عدد القتلى من صنهاجة ثلاثة آلاف وثلاثمائة، ثم أقبلت العرب حتى نزلت بمصلّى القيروان التي كان هجرها أهلها كما أسلفنا القول، ووقعت الحرب فقتل بين المنصوريّة ورقادة خلق كثير .

نلاحظ من خلال مختلف هذه الرّوايات أنّه - خلافا للمؤرخ الفرنسي روجي إدريس الذي نفى قيام أكثر من معركة بين المعزّ بن باديس وعرب بني هلال (معركة حيدران في بداية عيد الأضحى سنة 443هـ / 1052م) - حصلت على الأقلّ وقعتان تحملان نفس الاسم: الأولى سمّاها ابن الأثير "يوم العين" في اليوم الثاني من ذي الحجّة والثانية بعد مدّة لا تتجاوز نهاية نفس الشّهر. ونشير في هذا الإطار أن جورج مارسي تحدّث من جهته عن معركتين: حيدران الأولى في ذي الحجّة 443هـ / أبريل 1052م وحيدران الثانية في ذي الحجّة في السّنة التالية 444هـ / 1053م. لكن بقدر ما نتّفق معه في التّفريق بين الوقعتين، لا يمكننا قبول تاريخ الوقعة الثانية. ولا ننسى كذلك "وقعة باب تونس" ضدّ عامّة القيروان، وهي تندرج بين الوقعتين المذكورتين. وقد كان ميزان القوى في مختلف هذه الوقائع - خاصّة في وقعتي حيدران- غير متكافىء، بحيث كان جيش المعزّ يعدّ 30.000 ثمّ 27.000 مقاتل مقابل 3000 ثمّ 7000 فارس في صفوف بني هلال، فكيف نفسّر إذن انهزام المعزّ وانتصار العرب وهم قلّة ؟ يرجع ذلك إلى عدّة أسباب لعلّ أهمّها تركيبة الجيش الإفريقيّ، وتنوّع العناصر التي عبّأها المعزّ (من صنهاجة وزناتة والعبيد وبقايا عرب الفتح)، ثم عدم وجود اللّحمة بينها وافتقاد الرّوح القتاليّة لدى هذه القوّة نتيجة ما قامت به من حملات شاقة قبل ذلك ضدّ بني حمّاد في القلعة وضدّ زناتة في المغرب الأوسط. وإلى جانب هذه الأسباب، لا بدّ أن نشير إلى أن هذه القوى غير المتماسكة لم تكن لها مصالح مشتركة تدافع عنها؛ فصنهاجة يحقدون على العبيد السّود ويحرصون على الإضرار بهم بتحميلهم ثقل المعركة.

ويعلّل ابن خلدون خيانة بقايا عرب الفتح

وميلهم إلى بني هلال بحكم العصبيّة القبليّة التي تربطهم، إذ ينتمون كلهم إلى مضر من العدنانيّة. أمّا بالنّسبة إلى زناتة وصنهاجة فيذكر ابن الأثير "أنّ صنهاجة اتفقت على الهزيمة وترك المعزّ مع العبيد حتى يرى فعلهم ويقتل أكثرهم" .

وفيما يتعلق بعرب بني هلال فإنهم، رغم عددهم الضّئيل، كانوا متطلّعين، منذ خروجهم من الصّعيد المصريّ، إلى تحقيق رغباتهم في إفريقيّة سواء من ناحية الحصول على الغنائم أو السّيطرة على مجالات ومناطق واسعة في البلاد. ثم لا ننسى كذلك أنّهم اطلعوا على عورات القيروان وتعرّفوا على نقاط ضعف العدو، فتمكنوا، بالتّالي، من مباغتته وإلحاق الهزيمة به في كلّ الوقائع. يقول ابن عذاري في هذا المضمار : "شغل المعزّ بعضهم (العرب) أولا بخدمته وحمّلهم أعباء نعمته وهم في خلال ذلك يتمرّسون بجهاته ويدبون إلى حماته ويطلّون على عوراته، حتّى بان لهم شأنه وهان عليهم سلطانه فجاهروه بالعداوة...".

اندثرت قوات المعزّ، إذن، بعد الوقعة الثانية، فقرر سنة 444هـ / 1053م إنهاء الحرب بينه وبين الهلاليّين وأباح لهم دخول القيروان، بينما بقي هو صحبة جيشه في المنصوريّة، لكنّ العامّة استطالت عليهم فقتل العرب الكثير منهم. وهذا دليل إضافيّ على أنّ نمط عيش العرب لا يمكن أن يتلاءم مع طبائع وعادات سكّان القيروان. ويؤكّد ابن عذاري على سوء تقدير السّلطان الذي "قدّر أنّ العرب عائدون من حيث أتوا"، فخرج على حسب قوله "الأمر له بخلاف ظنّه"، وشرع العرب في الانتشار في إفريقيّة والسّيطرة على مختلف المدن والمناطق بها.

6 - انتشار العرب في إفريقيّة وبداية التّسرّب إلى المغرب الأوسط :

إنّ النّتيجة المباشرة لهزيمة المعزّ في صراعه ضدّ عرب بني هلال هو انتشار هؤلاء بصفة تدريجيّة في كامل إفريقيّة ثم اجتياحهم للمغرب الأوسط وتغلبهم على بني حمّاد وعلى قبائل زناتة.

تشير المصادر إلى أنّ المعزّ بن باديس لم يغادر القيروان حتى سنة 449هـ / 1057م تاريخ انتقاله إلى المهديّة واستقراره بها. وقد قام في هذه السّنة ببناء سور القيروان وسور زويلة وجعل السّور ممّا يلي صبرة كالفصيل :

حائطان متّصلان إلى صبرة وبينهما نحو نصف ميل "بحيث لا يمكن للوارد أن يدخل القيروان إلا بعد جوازه على صبرة ." لكنّه أشار على الرّعيّة بالانتقال إلى المهدية لعجزه عن حمايتهم من العرب الذين ما فتئوا أن حاصروا القيروان سنة 446هـ / 1053-1054م وضيّقوا عليها تضييقا شديدا جعل الأمير الزّيريّ يتراجع في موقفه إزاء الفاطميّين في مصر ويعلن من جديد طاعته لهم ومصاهرة بعض الأمراء الهلاليّين. وفي شعبان 449هـ / أكتوبر 1057م انتقل المعزّ إلى المهديّة في خفارة رجلين من العرب كان قد صاهرهما من قبل. بينما قام الهلاليّون في رمضان 449هـ / نوفمبر 1057م بانتهاب مدينة القيروان وتخريبها. فهرب أهلها إلى تونس وسوسة. ويقول الشاعر ابن شرف في هذا الصّدد:

ترحّل عنها قاطنوها فلا نرى
سوى سائر أو قاطن وهو سائر
انكشفت الآثار عنهم وربّما
أقيمت ستور دونهم وستائر

وقد توفي المعزّ سنة 453هـ / 1061م بعدما سلّم الأمر إلى ابنه تميم عند انتقاله إلى المهديّة واستقراره بها.

فشل المعزّ، إذن، في مواجهته العسكريّة لبني هلال، كما فشل من قبل في محاولة تطويقهم بصفة سلميّة. ويرجع ذلك إلى عدّة عوامل منها سوء تقديره لقوّتهم، وعدم فهم عيشهم وعاداتهم البدويّة، إضافة إلى تخاذل قواته، وانعدام الخصال الحربيّة عند سكّان المدن مثل أهل القيروان، وغياب طاقات عسكريّة كافية، وأخيرا ضآلة المقاومة في المدن الإفريقيّة خارج المهديّة والقيروان. وما قيام بعض المدن وانتفاضة أهلها ضدّه إلا دليل على الأوضاع الرّدينة التي كان الأمير الزّيريّ يتخبّط فيها بعد حصار العرب للقيروان وتخريبهم لها.

حصل أوّل تمرّد على المعزّ في سوسة سنة 445هـ / 1053م حين منع أهلها الأمير من جمع الجباية بدعوى الحاجة إليها لحماية مدينتهم. كما تمرّدت في نفس الوقت مدينة قفصة وتوزر ومعظم مدن قسطيلية، ثمّ انفصلت تونس سنة 450هـ / 1058م، وتلتها كلّ من صفاقس سنة 451هـ / 1059م وقابس سنة 454هـ / 1062م. وفي نفس السّياق لا بدّ من الإشارة إلى الحرب التي جرت سنة 447هـ / 1055م في مدينة المهديّة بين عبيد المعزّ وعبيد ابنه تميم وما تبعها من تقتيل الفارّين إلى القيروان من طرف العرب.

في نفس المدّة الزّمنية كان بنو هلال قد شرعوا في الانتشار في المدن الإفريقيّة. وقد أخذ مؤنس بن يحيى مدينة باجة سنة 446هـ / 1053م بينما سقطت كلّ من أبّة والأربس - جنوبي الكاف- من قبل تحت سيطرة العرب.

وفي سنة 453هـ / 1061م قتل أهل تقيوس - في قسطيلية - مائتين وخمسين رجلا من العرب. "وكان سبب ذلك أنّ العرب دخلت تقيوس متسوّقة فسمع رجل منهم رجلا من أهل القيروان يذكر المعزّ بخير ويثني عليه فقتله العربيّ وكان مقدّما في المدينة فقام عليهم أهل البلد فغزوهم وقتلوا من العرب العدد المذكور".

سيطر الهلاليّون، إذن، في مدّة وجيزة على إفريقيّة وعلى مدنها الدّاخليّة والسّاحليّة، وانحصر ملك تميم بن المعزّ في منطقة ساحليّة حول المهديّة. كما شرعوا بعد ذلك في الانتشار نحو الغرب أي في اتجاه المغرب الأوسط حيث توجد دولة بني حمّاد في القلعة وقبائل زناتة.

بالنّسبة لبني حمّاد، نشير إلى أنّهم كانوا قطعوا الخطبة للفاطميّين في عهد حمّاد (419-405هـ / 1014-1028م) أي في بداية القرن الخامس للهجرة / القرن الحادي عشر الميلادي، وبايعوا العبّاسيّين في الوقت الذي أعلن فيه المعزّ البيعة للخليفة العبّاسيّ في بغداد، وربّما عادوا إلى مبايعة الفاطميّين في القاهرة إثر هزيمة المعزّ في وقعتي حيدران خوفا من العرب الهلاليّين. لكنّ دولة بني حمّاد كانت في وضعيّة أفضل بكثير من دولة بني زيري وذلك لاعتمادها الكلّيّ على قبائل صنهاجة وللطبيعة الطبوغرافيّة للبلاد. فهذا ابن الأثير ينقل في حوادث سنة 457هـ / 1065م "أنّ العرب تمكّنت بعد رحيل المعزّ إلى المهديّة ونهبت النّاس وخرّبت البلاد فانتقل كثير من أهلها إلى بلاد بني حمّاد لكونها جبالا وعرة يمكنها الامتناع من العرب، فعُمِّرت بلادهم وكثرت أموالهم".

لكنّ هذه الفوارق الطبوغرافيّة لم تمنع العرب من التّسرّب إلى المغرب الأوسط، وقد تمّ لهم ذلك عن طريق العلاقات التي أقاموها مع بعض القوّاد في الدّولة الحمّادية وكذلك بتدخّلهم في شؤون بني حمّاد كما حصل لهم ذلك في إفريقيّة

الزّيريّة مثلا أثناء الحرب بين عبيد تميم وعبيد المعزّ في المهديّة سنة 457هـ / 1065م.

تفيد المصادر أنّ محسن بن القائد (446-447هـ / 1055-1056م) كلف جماعة من بني هلال يقودهم خليفة بن مجّن وعطيّة الشّريف بقتل ابن عمّه بلقين (446هـ / 1056م) حفيد حمّاد، لكنّ الهلاليّين فضّلا الانضمام إلى بلقين لعلاقة سابقة كانت تجمعهم. إذن تؤكّد هذه الرّواية على استغلال بني هلال للصّراعات الدّاخلية في الدّولة الحمّاديّة للتّسرب إلى المغرب الأوسط. أمّا المناسبة الأخرى التي تدخّل فيها العرب الهلاليّون فيوردها ابن الأثير بأكثر تفصيل في أحداث سنة (457هـ / 1065م) تحت عنوان"ذكر الحرب بين بني حمّاد والعرب". حصل تآلفان: من جهة نجد حاكم القلعة النّاصر بن علنّاس بن حمّاد (454-481هـ / 1062-1088م) ومعه صنهاجة وزناتة وبعض القبائل العربية (من عديّ والأثبج) ومن جهة أخرى يشمل التآلف الثّاني قبائل بني رياح وزغبة وسليم ومعهم المعزّ بن زيري الزّناتيّ. وفي أثناء سرده للحرب بين التّآلفين، يذكّر ابن الأثير بالعداء القديم والمتواصل بين بني زيري وبني حمّاد منذ بداية القرن الخامس للهجرة / القرن الحادي عشر للميلاد وتأسيس القلعة، ثم يشير إلى أنّ النّاصر "كان يذمّ تميم ابن المعزّ في مجلسه" ويعزم على المسير إليه لمحاصرته في المهديّة.

وفي هذا النّطاق قام الناصر بمحالفة صنهاجة وزناتة وبني هلال ليعينوه على محاصرة المدينة التي كان الأمير الزّيري متحصّنا بها. ويواصل ابن الأثير قائلا إنّ تميم لما علم بنوايا النّاصر اتصل بدوره ببني رياح وأقنعهم أن هدف صاحب القلعة هو الإيقاع بهم، "فقبلوا قوله وطلبوا منه المعونة فأعطاهم المال والسّلاح فتحالفوا بينهم واتفقوا على لقاء النّاصر ثم أرسلوا إلى بني هلال الذين كانوا مع هذا الأخير يقبّحون عندهم مساعدتهم له ويخوّفونهم منه إن قوي وأنّه يهلكهم بمن معه من زناتة وأنهم إنما يستمر لهم المقام والاستيلاء على البلاد إذا تمّ الحلف وضعف السلطان". فأجابهم بنو هلال إلى الموافقة على أن ينهزموا بالنّاس في أول حملة بين الطرفين ويكون لهم ثلث الغنيمة ".

"وقد اتصل المعزّ بن زيري الزّناتيّ بقومه الذين كانوا في حلف النّاصر فوعدوه أيضا أن ينهزموا". وهكذا تمّت المقابلة بين التّحالفين في سبيبة، فحملت رياح على بني هلال وحمل المعزّ على زناتة فانهزمت الطائفتان وتبعهم عساكر النّاصر منهزمين وكان مبلغ من قتل من صنهاجة وزناتة أربعة وعشرين ألفا. وغنمت العرب ما كان في المعسكر من مال و سلاح ودوابّ. و يؤكد ابن الأثير أنّ العرب تمكّنوا بعد هذه الوقعة من السّيطرة على البلاد وملكه. "إنّهم قدموها في ضيق وفقر وقلّة دوابّ فاستغنوا وكثرت دوابّهم وسلاحهم وقلّ المحامي عن البلاد".

وهكذا فإنّ هذه المعركة تشبه، من حيث الأهميّة وبالنّسبة لبني حمّاد، معركة حيدران التي انهزم فيها المعزّ بن باديس. وقد تمكّن العرب من التّسرب إلى المغرب الأوسط حيث قاموا بالعديد من أعمال النّهب والتّخريب، ثم دخلوا في صراع مرير مع قبائل زناتة التي تسكن المنطقة. وقد خلدت السّيرة الهلاليّة هذا الصّراع بين بني هلال وقبائل زناتة التي كان يقودها خليفة الزّناتي.

إنّ الصّراع حصل هذه المرّة بين الهلاليّين من ناحية وبين ائتلاف آخر يتكوّن من الزّناتيين بقيادة وزير صاحب تلمسان أبي سعدي خليفة اليفرني، وقد انهزم الائتلاف بعد عدّة معارك عنيفة وقتل أبو سعدي وتفرّقت جيوشه.

استطاع بنو هلال، إذن، في مدّة وجيزة إلحاق الهزيمة بالمعزّ ونهب القيروان، ممّا جعل الأمير ينتقل إلى المهديّة التي أصبحت مقرّ سلطانه. كما تمكّنوا بعد ذلك من التّسرّب إلى المغرب الأوسط حيث هزموا الناصر صاحب القلعة ثم قبائل زناتة. وقد شيّدت مدينة بجاية بعد ذلك بقليل لتصبح القاعدة الجديدة لبني حمّاد.

ثالثاً - آثار الهجرة في بلاد المغرب :

شملت الهجرة الهلاليّة نتائج متعدّدة في مختلف الميادين السّياسية والاجتماعية والاقتصادية، وكانت لها آثار سلبيّة وإيجابيّة في إفريقيّة بصفة خاصّة وفي كامل بلدان المغرب بصفة عامّة.

1 - الآثار السّلبية :

(أ) في الميدان السّياسي :

فقدت السّلطة المركزيّة في إفريقيّة قوّتها وتماسكها لا سيّما بعد نهب القيروان وتخريبها وانتقال مركز الثّقل نحو السّاحل إلى مدينة المهدية التي أصبحت العاصمة الجديدة لما بقي من النّفوذ الزّيري. والملاحظ أنّ هذا الحدث المهمّ بالنّسبة لدولة صنهاجة في إفريقيّة تبعه حدث مشابه في المغرب الأوسط مع تأسيس بجاية سنة 461هـ / 1067م وقيام الحمّاديّين بها.

وقد تجزّأت إفريقية من الناحية السّياسية وسيطر العرب على عدّة مناطق منها، فظهرت كيانات مدينية سواء في داخل البلاد أو في السّواحل.

- الإمارات الدّاخلية :

نذكر إلى جانب الكاف و الأربس في شمال البلاد إمارة قفصة في الجنوب وقد أسّسها بنو الرّند - وهم أسرة بربريّة من مغراوة نفزاوة - بعد استقلالهم سنة 445هـ / 1054م عن بني زيري ومصالحتهم للعرب المسيطرين في منطقة الجريد على دفع إتاوة مقابل حرّية السّفر. ويذكر ابن خلدون أنّ الحاكم عبد الله بن محمّد ابن الرند وسّع نفوذه على توزر والحامّة ونفزاوة. أمّا ابنه المعتزّ فتغلّب على مناطق أخرى منها قمّودة وجبل هوّارة وسائر بلاد قسطيلية واستمر يحكم الجهة إلى حدود سنة 554هـ / 1059م تاريخ عزله من طرف الموحّدين ونقل أسرته إلى بجاية.

- الإمارات السّاحليّة :

إنها متعدّدة وتوجد جنوب المهديّة في كل من مدينتي صفاقس وقابس وكذلك بالشّمال في بنزرت وتونس.

- إمارة بنزرت :

نشير إلى أنّه إثر تغلّب العرب على إفريقيّة اجتمع سكّان المدينة وولوا عليهم أبا رجاء الورد اللّخمي "الذي كان على رأس جماعة من الدّعار يضرب بهم على النّواحي ويفرض على القرى الإتاوات". وقد تمكّن هذا الرجل من السيطرة على الوضع ومهادنة العرب من رياح الذين كانوا متغلبين على الضّواحي ودفع لهم الإتاوة وسمّى نفسه بالأمير. وتمادت أسرة بني الورد تحكم بنزرت ومنطقتها إلى أن دخل الموحّدون إفريقيّة وسيطروا عليها في منتصف القرن السّادس للهجرة / القرن الثّاني عشر للميلاد.

- إمارة تونس :

خضعت هذه المدينة إلى بني هلال في السّنوات الأولى من زحفهم، ثم اتّفق سكّانها بعد سنة 450هـ / 1058م أن يوجّهوا أنظارهم إلى حاكم القلعة الناصر الذي ولي عليهم سنة 452هـ /

1062م بعد تردّد عبد الحقّ بن عبد العزيز بن خراسان وهو صنهاجيّ الأصل، فاستطاع أن يوطد الأمن والاستقرار ويصالح العرب على إتاوة.

وبقيت المدينة في أيدي بني خراسان الذين حافظوا عليها من الأطماع الدّاخلية والخارجيّة إلى أن استولى عليها سنة 554هـ / 1159م عبد المؤمن بن علي في نطاق عمليّة تحرير إفريقيّة من الاحتلال النّورماني وتوحيد كامل بلاد المغرب تحت النّفوذ الموحّدي.

- إمارة صفاقس :

كان الحاكم منصور البرغواطي مخلصا لأميره وسيّده المعزّ بن باديس إلى حدود سنة 450هـ / 1058م. لكن بعد حصار القيروان وسيطرة العرب عليها أعلن الثّورة على بني زيري وحالف الهلاليّين لكنّه قتل من طرف ابن عمّه حمّو بن ومليل الذي تمكّن من إرضاء العرب وتكوين جيش منهم هاجم به المهديّة سنة 456هـ / 1063م. غير أنّه هزم دون أن يستطيع الأمير الزّيري تميم ابن المعزّ استعادة صفاقس، ولم يحصل ذلك إلا فيما بعد سنة 493هـ / 1099م بحيث أصبحت المدينة تحت نفوذه فأرسل إليها سنة 508 / 1114 ابنه عليّا الذي حكمها إلى حدود استيلاء النّورمان عليها سنة 543هـ / 1148م. وفي سنة 551هـ / 1156م ثار أهل البلاد على الحاكم المنصّب عمر بن أبي الحسن الفرياني وأدّت الثّورة إلى تقتيل النّصارى وخروج كامل المنطقة السّاحليّة من أيديهم.

- إمارة قابس :

بفضل موقع هذه المدينة على الممرّ الذي يتمّ منه العبور من جنوب إفريقيّة إلى وسطها وشمالها كانت قابس محلّ اهتمام الأمراء الزيريّين من ناحية وعرضة من ناحية ثانية لأطماع كلّ الذين يهدفون إلى السّيطرة على إفريقيّة مثل بني هلال.

وكان الوالي الزّيري في منتصف القرن الخامس الهجري / القرن الحادي عشر الميلادي محمّد بن ولميّة الصّنهاجيّ. وقد صمدت المدينة أمام عرب بني هلال إلى حدود سنة 445هـ / 1053م للميلاد تاريخ عزل المعزّ بن باديس لقائدين له (إبراهيم وقاضي) وهما أخوان لهذا الوالي. وقد فرّ هذان القائدان إلى أخويهما بإعانة مؤنس بن يحيى الرّياحي، واتفق الجميع على قطع اسم المعزّ وصرف الطاعة إلى بني رياح. وتعتبر مدينة قابس من هذه الوجهة أوّل إمارة أسّسها العرب الهلاليّون في عهد بني زيري وحافظوا عليها إلى أن قضى عليهم الموحّدون. وينتمي مؤسّسو هذه الإمارة العربيّة إلى بني جامع وعلى رأسهم مكّي بن كامل بن جامع أوّل حاكم نصّبه أهل المدينة عليهم بعد ثورتهم على تميم.

وفي هذه الأثناء كان النّفوذ الزّيري قد انحصر في شريط ساحليّ حول المهديّة يمتدّ من سوسة إلى قابس. وممّا لا شكّ فيه أن هذا الضّعف السّياسيّ الذي آل إليه النّفوذ الصّنهاجي وكذلك تجزئة إفريقيّة وتقسيمها إلى إمارات عربيّة قد جعلا الأطماع الخارجيّة تتزايد على كامل البلاد. ونشير في هذا النطاق أن النّورمان الذين احتلوا صقلية سنة 484هـ / 1091م ثم جنوب إيطاليا وكوّنوا مملكة الصّقليتين" كانت أنظارهم موجّهة نحو بلدان المغرب بصفة عامّة للسّيطرة على التّجارة المتوسّطة شأنهم في ذلك شأن المدن الإيطاليّة الشّمالية (جنوة - بيزة...) التي كانت ترمي إلى توسيع علاقاتها التّجارية مع العالم الإسلاميّ وفرض هيمنتها على عدّة مناطق منها إفريقيّة والمغرب لاستغلالها من النّاحية الاقتصادية. وقد أرسلت عدّة حملات في نهاية القرن الخامس هـ / الحادي عشر م ضدّ الموانئ الإفريقية منها المهديّة

- لكنّ الخطر أصبح حقيقيّا في بداية القرن السّادس هـ / الثّاني عشر م.

وقد تمكّن النورمان سنة 530هـ / 1136م من دخول جربة ثم صفاقس (538هـ / 1143م) وقابس. وهكذا تمّ لهم فرض نوع "من الحماية الاقتصادية" على إفريقيّة وعلى الأمير الزّيري الحسن بن يحيى الذي أصبح تابعا لهم.

وفي سنة 543هـ / 1148م دخل النّورمان إلى المهديّة بقيادة جورج الأنطاكي على رأس أسطول ضخم واحتلوا المدينة وقضوا على الدّولة الزّيرية خاصّة بعد فرار الأمير الحسن إلى بجاية. وقد بقيت إفريقيّة لمدة عشر سنوات بدون سلطة مركزية إسلاميّة، لكنّ الأنظمة المدينيّة والكيانات القبليّة الهلالية التي تكوّنت إثر هروب المعزّ إلى المهدية تواصلت إلى حدود سنة 555هـ / 1160م عندما استرجع عبد المؤمن بن علي كامل المدن السّاحلية من أيدي النّورمان واستطاع بسط نفوذ الموحّدين على إفريقيّة وكامل المغرب وتكوين إمبراطوريّة شاسعة.

(ب) في الميدان السكاني:

إنّ الهجرة الهلاليّة إلى إفريقيّة أتت بجموع من العرب البدو انضافت إلى السكان المحليّين (من بربر وعرب الموجة الأولى من الانتشار). غير أنّ تحديد عدد جمليّ للمهاجرين غير ممكن كما أسلفنا. والمهمّ هو أنّ القادمين كان لهم تأثير كبير على البلاد؛ فبالرغم من أن الخسائر في الأرواح كانت غير مرتفعة-ما عدا ضحايا معركة حيدران (3300 قتيل) وسبيبة (24000 من صنهاجة وزناتة) - فقد طرأت عدّة تحوّلات على التّوزيع السّكني حيث أن كثيرا من سكّان إفريقية غادروا المواقع المعرضة للاجتياح الهلاليّ ليستقرّوا في مواضع أخرى تتوفر فيها الظروف الأمنيّة. ونذكر في هذا الإطار انتقال بعض زناتة من الجنوب التّونسي نحو جنوب المغرب الأوسط، وكذلك خروج أهالي البوادي نحو المدن أو نزوح سكّان بعض المدن المهدّدة مثل القيروان إلى مدن أخرى إمّا محصنة (مثل المهديّة) أو بعيدة عن الخطر الهلاليّ (مثل تونس). ونذكر أيضا تحول بعض سكّان إفريقيّة من حرفيّين وأهل صنائع نحو القلعة واستقرارهم بها مباشرة بعد هزيمة المعزّ وجيوشه. ولا شكّ أن هذه التّحوّلات على المستوى السكاني دعّمت التّواجد البدويّ في إفريقيّة على حساب سكّان الأرياف والبوادي، بحيث تضاءل نمط العيش الرّيفي وأصبحت العلاقة مباشرة بين نمطين متناقضين: النّمط الحضريّ في المدن الذي تدعّم في بعض الجهات الشّمالية (مثل تونس وبنزرت) أو السّاحليّة (صفاقس - المهديّة)، والنّمط الذي أتى به بنو هلال وهو نمط يعتمد على التّرحال وعلى تربية المواشي والانتقال في مجالات فسيحة كما كان شأنهم من قبل في الصّعيد المصريّ أو في نجد وفي الحجاز.

(ج) في الميدان الاقتصادي :

ومن ناحية أخرى لا يمكن أن نتكلم فقط عن أعمال النّهب والتّخريب التي قام بها بنو هلال أثناء صراعهم ضدّ بني زيري وإثر اجتياحهم لبعض المدن مثل القيروان وتحميلهم أعباء كلّ ما حصل من خراب لإفريقيّة وما ترتّب على ذلك في الميدان الاقتصادي والتّجاريّ. فكتاب ابن عذاري يكثر من الحديث عما تحمّله سكّان البوادي بعد أن رجع العرب في الأمان الذي كانوا عقدوه لهم (الخوف-الهلع-الجوع-البرد...) لكنّه يذكر في نفس الوقت أعمال النّهب الأخرى التي قام بها العبيد والعسكر في بعض المدن (مثل القيروان أثناء انتقال أهلها

إلى المنصوريّة) وكذلك أوامر المعز التي تقضي بنهب المزروعات المحيطة بالقيروان وصبرة.

وهكذا فإنّ بني هلال لا يتحمّلون كل ما ذكرته المصادر الإفريقيّة والشرقية من أعمال نهب وخراب ودمار واضطراب، لكنّ الهجرة الهلاليّة كانت لها آثار مباشرة على مختلف المجالات الاقتصادية:

- **الزّراعة :** إنّ الأمن الذي فقدته إفريقيّة إثر اجتياح الجموع الهلاليّة للبوادي ولبعض المناطق الخصبة قد أثر على الإنتاج وعلى المردود، ثم إنّ الإتاوات المفروضة على السّكان تدلّ على أنّ العمل في الحقل الفلاحيّ قد تواصل ولو بصفة مغايرة وضئيلة.

- **النّشاط الحرفيّ :** كان مركّزا في المدن حيث كانت المنتجات (من منسوجات مصنوعة من القطن والكتّان والحرير ومصنوعات معدنيّة وزجاجيّة...) مرتبطة بالاستهلاك الدّاخليّ سواء للحضر أو لأهل الأرياف وكذلك للعرب الهلاليّين الذين استقروا في البعض من هذه المدن ثم بالتّجارة التي كانت تسوق قسما منها نحو البلدان الخارجيّة ومنها مصر.

- **التجارة :** كانت الطرق التّجارية قد تغيّرت نتيجة لانعدام الأمن في السنوات الأولى للاجتياح الهلالي وخاصة الطرق البرّية. فمدينة القيروان قطعت عنها الميرة كما جاء ذلك في بعض المصادر. ومن ناحية أخرى فإنّ وثائق الجنيزة التي ذكرناها آنفا تؤكّد حصول تحوّل بين النصف الأوّل والنصف الثاني من القرن الخامس للهجرة / القرن الحادي عشر الميلادي فيما يتعلق بشحن البضائع وطرق نقلها. ففي الفترة الأولى - أي قبل وصول بني هلال إلى إفريقيّة - كانت المبادلات تتمّ عن طريق القوافل البرّية بينما أصبحت التّجارة البحريّة أكثر حجما في الحقبة الثانية نتيجة تعطل حركة المرور التّجارية من جرّاء الهجرة الهلاليّة. وممّا لا شكّ فيه أنّ تحوّل طرق التّجارة قد أضرّ بالمدن الدّاخلية التي تعتمد على النّشاط التّجاري والحرفيّ، وأحسن مثال على ذلك هو مدينة القيروان. أمّا بالنسبة للدّولة الصنهاجيّة فإنّ أمراء بني زيري- ومن جملتهم تميم ابن المعزّ - قد قاموا إثر احتلال النورمان لصقلية بتأسيس أسطول بحريّ مهمّ واصطنعوا سياسة بحريّة قوامها أعمال القرصنة والغارات في البحر الأبيض المتوسّط ضدّ المراكب الغربية بصفة خاصّة.

وقد كان لهذه الأعمال أثر كبير في قيام النورمان بردود فعل عنيفة وذلك بتوجيه ضربات ضدّ الموانى الإفريقيّة مثل المهدية وصفاقس وجربة، وتمكّنوا في النّصف الأوّل من القرن السادس للهجرة / القرن الثاني عشر للميلاد من اكتساح الشّريط السّاحلي الشّرقي لإفريقيّة وفرض نوع من "الحماية" على المدن السّاحليّة باستثناء البعض منها مثل تونس.

إجمالا، إنّ الانتشار الهلاليّ في إفريقيّة أفرز عدّة نتائج في الميدان الاقتصادي، إذ انحسرت الزّراعة وأصبحت العلاقات بين الرّيف والمدينة ضئيلة، كما أنّ النشاط الزراعي قد اقتصر دوره على توفير المواد للاستهلاك المحلي أكثر من التّصدير الخارجيّ.

(د) في الميدان الاجتماعي :

تدعّم المجتمع القبليّ البدويّ على حساب المجتمع الإفريقي الحضري. كما أنّ انعدام الأمن وانهيار الحكم المركزيّ وانقسام البلاد إلى عدّة

إمارات عربيّة أفرز كلّه هذا تكاثر أعمال النهب في الطرق وظهور الكثير من المغامرين المعروفين في المصادر "بالفسّاق والمرّاق"، وقد تمكّن بعضهم من السّيطرة على بعض القرى والمدن الصّغيرة وفرض ضرائب مجحفة على السكّان مقابل حمايتهم. لكن هل يمكن القول - كما أكّد على ذلك العديد من المستشرقين - أن انهيار "كامل الحضارة القيروانيّة"، وتدهور الأوضاع الاقتصادية في إفريقيّة، وسيطرة نمط العيش البدويّ؛ كلّ هذه الأعمال سببها بنو هلال وحدهم ؟

بطبيعة الحال، إنّ هذه النّظرة مشحونة بالفرضيات العقائدية ولا يمكننا قبولها لا سيما أنّ الدّارسين أهملوا ما أسميناه بالآثار الإيجابيّة لهجرة بني هلال خاصّة في الميدان الثّقافي.

2 - الآثار الإيجابية للهجرة الهلاليّة :

(أ) من النّاحية الثّقافية :

ساهم بنو هلال بصفة هامّة في تعريب البوادي والأرياف الإفريقيّة وتغلغل العربيّة في المناطق الدّاخلية ممّا أدّى إلى انتشار لغتهم وأفرز تجانسا كبيرا وقلّل من التّلوين العرقيّ. ثم إنّهم سهلوا للسكان البربر في إفريقية وكذلك في المغرب الأوسط بعد انتشارهم هناك عمليّة التّعرف على الثّقافة الإسلاميّة. غير أن أهمّ نتيجة للهجرة في المغرب بصفة عامة تبقى عملية الانصهار بين العنصرين البربري والعربي. وقد بدأت هذه العملية في فترة الانتشار العربي الإسلامي، لكن البدو الهلاليّين أسرعوا في تطويرها على أساس أن البربر والبدو الرحّل لهم نمط عيش متشابه وعادات وتقاليد متقاربة، وأنهم كانوا يتوقون إلى حياة فلاحيّة وحضريّة.

(ب) من الناحية الاجتماعية والاقتصادية :

لا شكّ أنّ العرب الهلاليّين أدخلوا بعض التّحسين على مستوى عيش الرّيفيين وذلك عندما وضعوا حدّا لاستغلال سكان المدن والحضر بصفة عامة لهم. ثم إن الترتيب الاجتماعي والنّشاط الاقتصادي تغيّر بحيث لم يعد العرب فقط أهل مدن يهتمون بالتّجارة ويملكون العقارات ويحتكرون الخطط الدينية، بل أصبحوا كذلك أهل ريف وبادية ومعنى ذلك أنهم تأثروا بنمط عيش العرب البدو ممّا أدّى إلى امتزاج متزايد بين سكّان إفريقية. ثمّ إنّ الاهتمام بالتّجارة الدّاخليّة تزايد مقارنة بالحقبة السابقة، كما أصبحت السواحل في إفريقية وبصفة تدريجية في كامل بلدان المغرب تلعب دورا فعالا في تاريخ المنطقة، وأحسن مثال على ذلك تقلّص دور القيروان بعد نهبها من طرف الهلاليّين وانتقال المعزّ إلى المهديّة واستقرار الحكم فيها. كما نشير كذلك إلى تراجع القلعة في المغرب الأوسط وتأسيس بجاية التي ستصبح العاصمة الجديدة للحمّاديين فيما بعد .

وبطبيعة الحال، ستلعب الأساطيل المغربيّة في الفترة اللاحقة - خاصّة في العهد الموحّدي وما بعده - دورا أكثر فعالية لحماية سواحلها والقيام بعمليّات الجهاد البحريّ في البحر الأبيض المتوسّط ضدّ النّصارى.

خاتمة :

تمثل الهجرة الهلاليّة في منتصف القرن الخامس الهجري / القرن الحادي عشر الميلادي حدثا هامّا بالنسبة لإفريقية وبلاد المغرب، حيث أنّ العرب البدو انتشروا في البلاد بصفة تدريجيّة وتمكّنوا من السيطرة على عدّة مناطق دون

الوصول إلى احتلال كامل إفريقيّة. وقد اختاروا المناطق المنبسطة خاصّة في الشرق والجنوب، بينما لجأ أهل البلاد إلى المرتفعات لمناعتها ممّا ساعد على احتداد التّباين بين المناطق الداخلية والمناطق الساحلية. ولا شكّ أنّ التوزيع السكاني في إفريقية تغير بصفة جذرية نتيجة انتشار القبائل الهلالية في البلاد، وكان من نتائجه أن استرجع العرب وظيفتهم العسكريّة والسياسية التي كان البربر من صنهاجة قد أمسكوا بها منذ انتقال الفاطميّين إلى مصر.

وفي هذا النطاق يمكن لنا أن نتساءل: إلى أيّ حدّ تمثل هذه الهجرة قطيعة من الناحية السّياسية والاقتصادية والاجتماعية والحضارية في تاريخ إفريقية خاصة؟ وبمعنى آخر: هل هي تمثل نهاية عهد تواصل منذ الفتح العربي الإسلامي في القرن الأوّل للهجرة / القرن السابع للميلاد إلى منتصف القرن الخامس الهجري / القرن الحادي عشر الميلادي وتميّز هذا العهد بقيام دول محليّة أنشأها العرب (الأغالبة) ثم البربر (الزّيريون) بعد أن حاول الفاطميّون في نهاية القرن الثالث وأثناء القرن الرابع للهجرة / القرنين التاسع والعاشر للميلاد من توحيد بلاد المغرب وتأسيس خلافة على مستوى العالم الإسلامي ؟ وهل إن هذه الهجرة تعتبر، من هذا المنظار، بداية عهد ثان في تاريخ إفريقية تميّز بتعريب أعمق للبلاد وانقسامها سياسيا قبل أن يأتي الموحّدون من الغرب ويتوصّلوا، في منتصف القرن السّادس للهجرة / القرن الثاني عشر الميلادي، إلى تحريرها من الاحتلال النورماني ثم إدماجها في إمبراطوريّة شاسعة تشمل بلاد المغرب والأندلس، لتستقلّ هذه المنطقة الإفريقية في نهاية المطاف، وتفرز الدولة الحفصية التي ستظلّ قائمة أكثر من ثلاثة قرون.

أ.د. راضي دغفوس

جامعة تونس

المصادر والمراجع

أولاً - المصادر :

- ابن أبي دينار : المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس، بيروت وتونس، 1869.
- ابن الأثير أبو الحسن علي (ت. 630هـ / 1232م) : الكامل في التاريخ، بيروت، 1965.
- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد (ت. 779هـ / 1378م) : رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت، 1975.
- ابن تغري بردي أبو المحاسن، (ت. 874هـ / 1469م) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، (د.ت).
- ابن جبير، أبو الحسين محمد، (ت. 614هـ / 1217م) : رحلة ابن جبير، طبعة بيروت، 1964.
- ابن الجوزي جمال الدين (ت. 597هـ / 1200م) : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر آباد، 1368هـ.
- ابن حزم، أبو محمد (ت. 456هـ / 1063م) : جمهرة أنساب العرب، القاهرة، 1948.
- ابن خلدون، عبد الرحمن (ت. 808هـ / 1312م) : كتاب العبر، بيروت، 1966.
- ابن عذاري، المراكشي، (ت. 712هـ / 1378م): البيان المغرب في أخبار إفريقية والمغرب، بيروت، (د.ت).
- أبو العرب (الخشني)، (ت. 333هـ / 945م) : كتاب طبقات علماء إفريقية وتونس، الجزائر، 1914.
- أبو الفداء، المؤيد عماد الدين (ت. 730هـ / 1321م) : المختصر في تاريخ البشر، المطبعة الحسينية، القاهرة، (د.ت).
- التجاني، أبو محمد عبد الله (ت. 708هـ / 1308م) : رحلة، تونس، ليبيا، 1981.
- السيوطي، جلال الدين (ت. 911هـ / 1505م) : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، القاهرة، 1905.
- الطبري، محمد بن جرير (ت. 310هـ / 922م) : تاريخ الرسل والملوك، ليدن، 1885-1889.
- القلقشندي، أبو العباس أحمد (ت. 821هـ / 1418م) : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، القاهرة، 1959.
- الكندي، أبو عمر محمد (ت. 350هـ / 961م) : كتاب الولاة، ليدن، 1972.
- المالكي، أبو بكر عبد الله (ت. 453هـ / 1061م) : رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، بيروت، 1083.
- المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله (ت. 387هـ/ 997م) : القسم المخصص للغرب الإسلامي في أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، 1906.
- المقريزي، تقي الدين أحمد (ت. 8459هـ / 1441م) : البيان والإعراب عمّن نزل مصر من الأعراب، القاهرة، 1971.
- المقريزي، تقي الدين أحمد (ت. 8459هـ / 1441م) : كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة، القاهرة، 1940.

- المقريزي، تقي الدين أحمد (ت. 8459هـ / 1441م) : كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، القاهرة، 1324هـ.
- ياقوت (الحموي)، (ت. 626هـ / 1228م) : معجم البلدان، ليبزيغ، 1866.

ثانياً - المراجع العربية والمعرّبة :

- الأنصاري (عبد القدوس)، بنو سليم : عرض لشريط تاريخي عن امتداد الإسلام والعروبة من مهدهما إلى العالم، بيروت، 1971.
- أبو النصر (عمرو) : تغريبة بني هلال ورحيلهم إلى بلاد المغرب، بيروت، (د.ت).
- التليسي (خليفة) : معجم سكان ليبيا - دار الريان، بيروت، 1991.
- جدلة (إبراهيم) : سلطة بني جامع في مدينة قابس، الكراسات التونسية، عدد 176، 1997، ص 11-20.
- دغفوس (راضي) : مراحل تاريخ الهلالية في المشرق، مجلة المؤرخ العربي عدد 11، سنة 1979، بغداد، ص 203-235.
- دغفوس (راضي) : العوامل الاقتصادية لهجرة بني هلال وبني سليم إلى إفريقية، مجلة أوراق، المعهد الإسباني العربي للثقافة، عدد 4، سنة 1981، مدريد، ص137-163.
- دغفوس (راضي) : معركة حيدران والصراع الزيري الهلالي في القرن الخامس للهجرة، الكراسات التونسية، عدد 170-179، سنة 1995، تونس، ص 13-25.
- دغفوس (راضي) : مدينة بنزرت في العهد الإسلامي الوسيط، مجلة المؤرخ العربي، عدد 54، سنة 1996، بغداد، ص 81-85.
- دي غوستيني هنريكو : سكان ليبيا، ج2 برقة، ترجمة خليفة التليسي، الدار العربية للكتاب طرابلس - تونس، 1974.
- دي غوستيني هنريكو : سكّان ليبيا، طرابلس، ترجمة خليفة التليسي - دار الثقافة بيروت، 1975.
- دي غوستيني هنريكو : سكان برقة، دراسة إثنوغرافية، طبعة 1، ترجمة إبراهيم المهدوي طرابلس، 1998.
- سالم (عبد العزيز) : تاريخ الدولة العربية، بيروت، 1971.
- سالم (عبد العزيز) : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، الإسكندرية، 1981.
- سعد زغلول (عبد الحميد) : تاريخ المغرب العربي، الإسكندرية، القاهرة، 1990.
- الشريف (محمد الهادي) : تاريخ تونس، تونس، 1980.
- العبادي (أحمد مختار) وسالم (عبد العزيز) : تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط، البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، الإسكندرية، 1993.
- قيقة (عبد الرحمن) : السيرة الهلالية، تونس، 1968.
- كحالة (عمر رضا) : معجم قبائل العرب، دمشق، 1949.
- كحالة (عمر رضا) : الندوة العالمية الأولى حول السيرة الهلالية، سيرة بني هلال، تونس، 1990.

ثالثاً - المراجع باللغات الأجنبية :

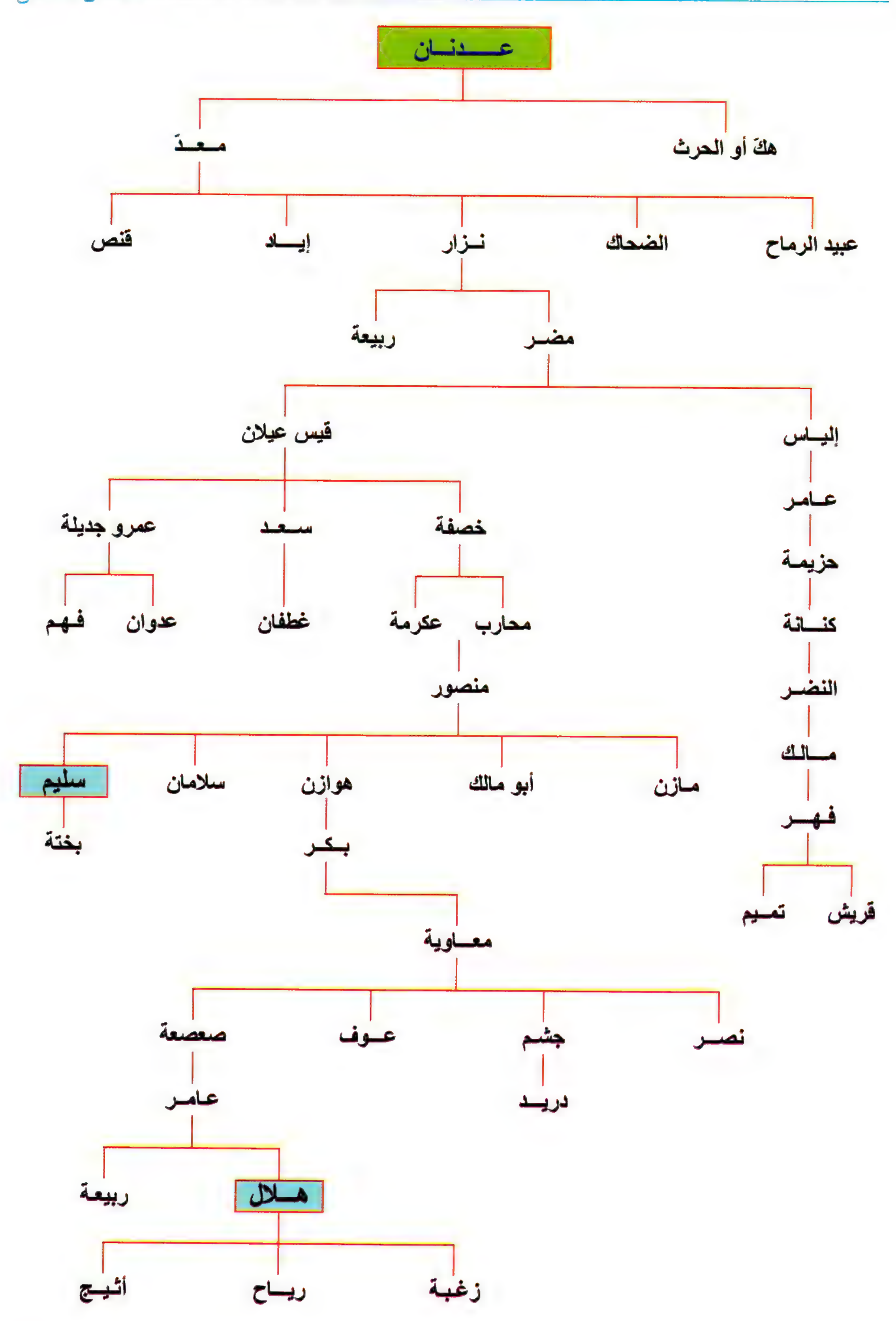
- BERQUE (Jacques) : Du nouveau sur les Banu Hilal, Studia Islamica, 1972, pp.99- 113.
- BERQUE (Jacques) : Les Hilaliens repentis, Annales .E.S.C, 1979, pp. 1325- 1353.
- BRETT (Michael) : Ibn Khaldun and the arabisation of North Africa, the Maghreb Review, jan-feb, 1979, Vol. 4, N°1, pp. 9-16.

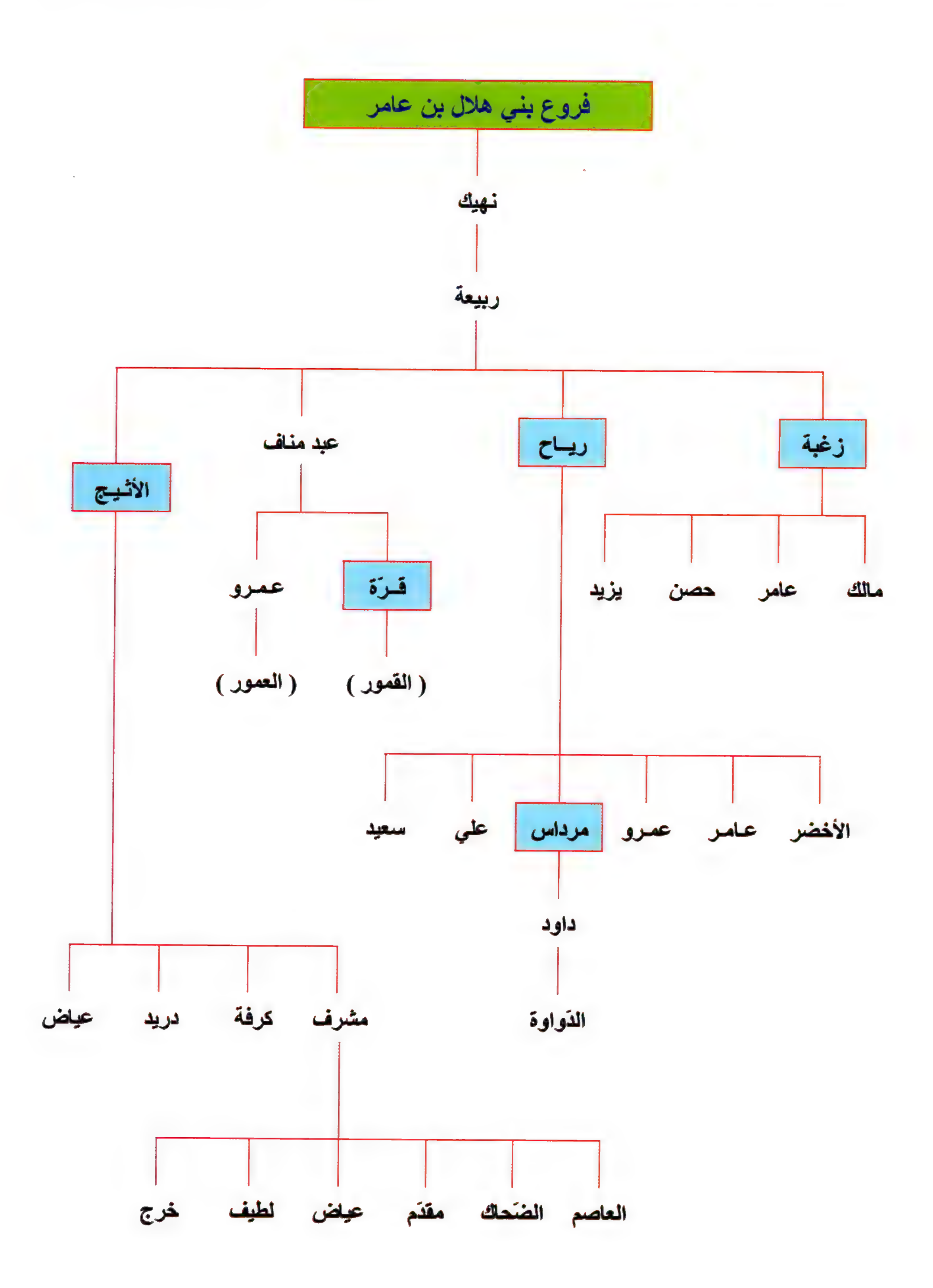
  The military interest of the Battle of Haydaran, in War, Technology and Society in the Middle East, edit V. J. Parry et M. E. Yapp, London, Oxford University Press, New York, Toronto, 1975, pp. 78- 88.

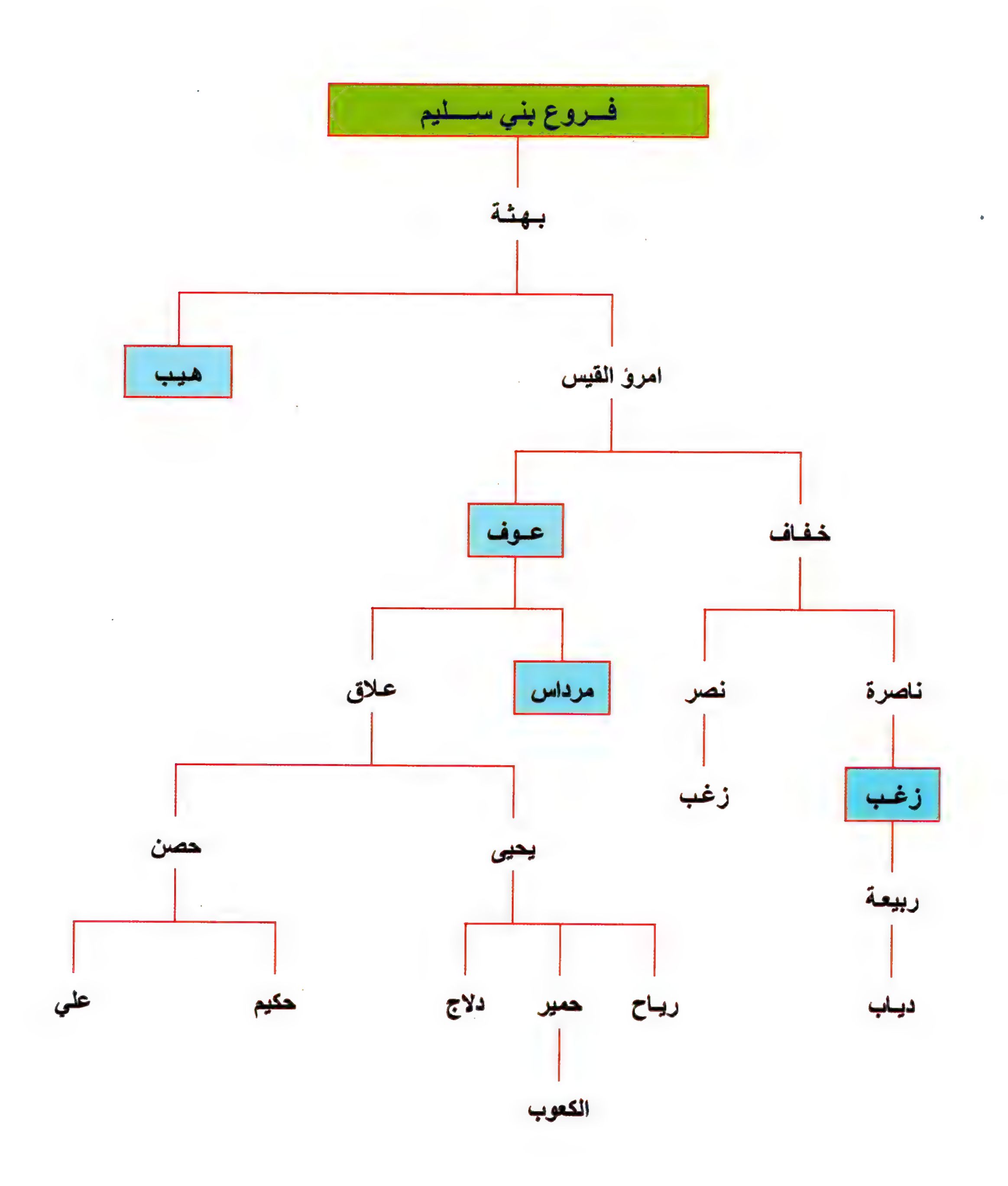
  The Zughba at Tripoli, 429 (1037-8 A.D), The Society for Libyan Studies, Sixth Annual Report, 1974, 5, pp. 41- 47
- CAHEN (Claude) : Quelques mots sur les Hilaliens et le nomadisme, JESHO, mars 1968, pp. 130-133.
- CARETTE (A) : Recherches sur l'origine et les migrations des tribus de l'Afrique Septentrionale, Paris, 1853.
- DAGHFOUS (Radhi) : De l'origine des Banù Hilàl et des Banù Sulaym, Cahiers de Tunisie, n° 91-92, 1975, pp. 41-68.
- DAGHFOUS (Radhi) : Contribution à l'étude des conditions de l'immigration des tribus arabes (Hilàl et Sulaym) en Ifriqiya, Cahiers de Tunisie n° 97-98, pp. 23-50.
- DAGHFOUS (Radhi) : Society and material culture of the Islamic World in Histoire de l'Humanité (VII-XVI), vol V, Chap 18, 1, pp. 295- 310, voir plus précisément la partie sur les migrations , p. 303.
- DAGHFOUS (Radhi) : "Tribu arabe e nomadi in Maghreb e i loro controversi rapporti con il potere politico", PROMOTEO, Rivista trimestrale di scienze e storia, anno 21, N°81, Marzo 2003, Verona, Italia, pp. 92- 99 .
- DAGHFOUS (Radhi) : Article Tunisie in E. I, II, 2000, pp. 691-699 .
- Encyclopédie de l'Islam, nouvelle édition, Leyden, Brill.
- GOLVIN (L) : 1957, Le Maghreb Central à l'époque des zirides, Recherches d'Archéologie et d'Histoire, Paris.
- GAUTIER (E.F.) : 1937, Le passé de l'Afrique du nord. Les siècles obscurs du Maghreb, Paris.
- GOITEIN (S.D) : La Tunisie du XIe siècle à la lumière des documents de la Geniza du Caire,

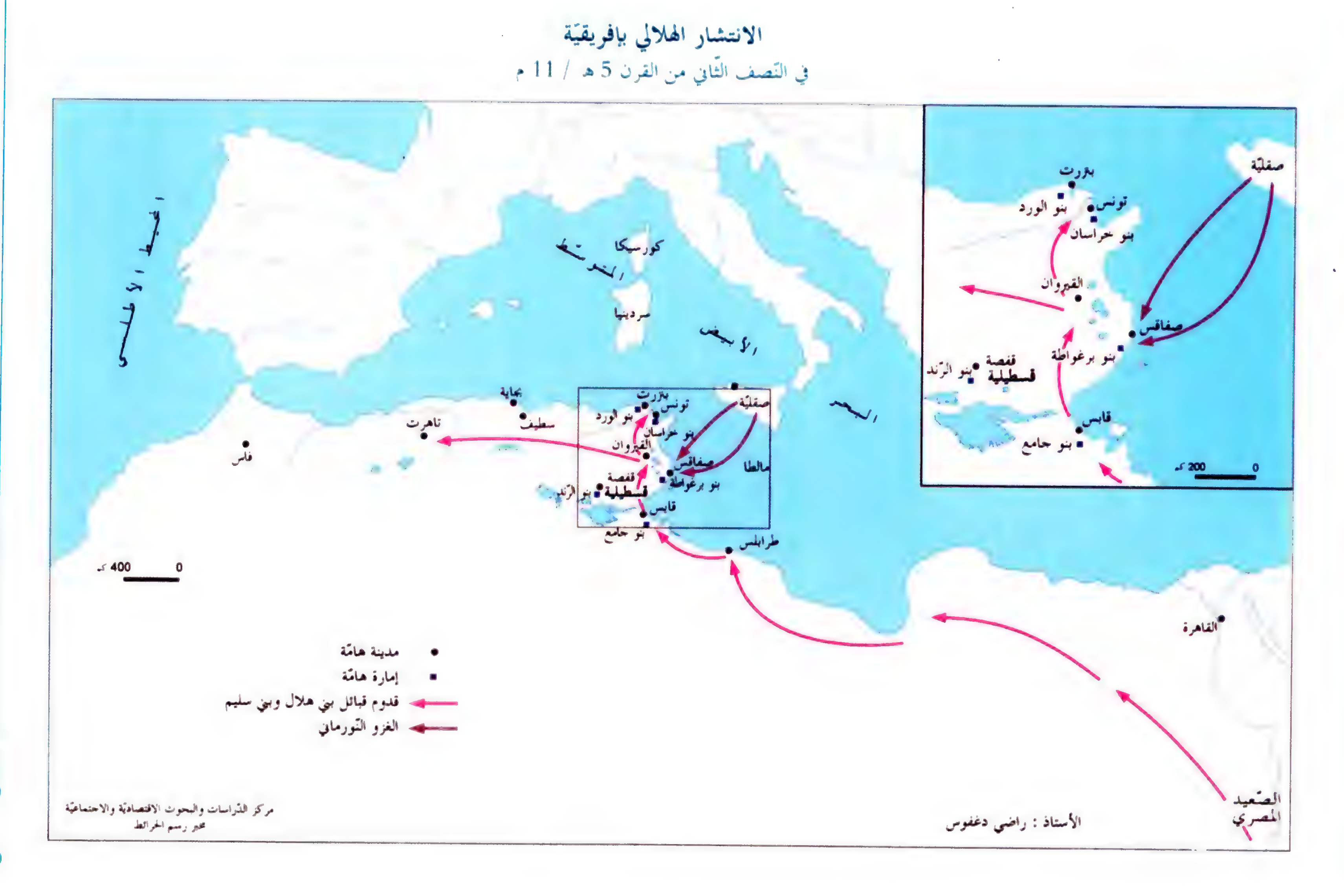
Mélanges Lévy Provençal, Paris 1962, pp. 559 et sqq.

- HEERS (Jacques) : Précis d'histoire du Moyen Age, Paris, 1968.
- IDRIS (Hady Roger) : La Berbérie orientale sous les Zirides (XIème-XIIIème siècle), Deux vol., Paris, 1972.
- IDRIS (Hady Roger) : De la réalité de la catastrophe hilalienne, Annales ESC, n° XXIII, pp. 390-393.
- IDRIS (Hady Roger) : L'invasion hilalienne et ses conséquences, Cahiers de civilisation médiévale, n° 11, 1968, pp. 353-371.
- IDRIS (Hady Roger) : Sur le retour des Zirides à l'obédience fatimide, AIEO, XI, 1953, pp. 25-39.
- JEHEL (Georges) : La Méditerranée médiévale de 350 à 1450, Paris, 1992.
- JULIEN (Charles André) : Histoire de l'Afrique du Nord, Deux Volumes, Paris, 1962.
- LAMMENS (Henri) : Le berceau de l'Islam. L'Arabie occidentale à la veille de l'Islam, Rome, 1914.
- LAROUI (Abdallah) : Histoire du Maghreb, Deux volumes, Maspéro, Paris, 1977.
- LECKER (Michael) : The Banu Sulaym A contribution to the study of early Islam, The Hebrew University of Jeruslem, 1989.
- MARÇAIS (Georges) : Les Arabes en Berbérie du XIéme au XIVéme siècle, Paris, 1913.
- MARÇAIS (William) : Comment l'Afrique du Nord a été arabisée, Annales de l'Institut des Etudes Orientales, 4, 1938,pp. 1-24; 14, 1965, pp.5-17.
- MERCIER (Emile) : Histoire de l'établissement des Arabes dans l'Afrique Septentrionale, Paris, Constantine, 1875.
- MERCIER (Emile) : Histoire de l'Afrique Septentrionale depuis les temps les plus anciens jusqu'à la conquête française, 3 volumes, Paris, 1888.
- PONCET (J) : Le mythe de la catastrophe hilalienne, Annales ESC n° 5, 1967 , pp. 1099- 1120 et n° 3, 1968 , pp. 390- 396 .
- PONCET (J) : L'évolution des genres de vie en Tunisie, Cahiers de Tunisie, n° 2, 1964, pp.315-323.
- KADDACHE (M) : L'Algérie médiévale, Alger, 1992.
- WIET (G) : L'Egypte arabe in Histoire de la nation égyptienne, Tome 4 , Paris, 1937.


عـــدنـــان
هكّ أو الحرث
مـعـدّ
عبيد الرماح
الضحاك
نــزار
إيـــاد
قنص
مضـر
ربيعة
إليـاس
قيس عيلان
عـامـر
خصفة
سـعـد
عمرو جديلة
حزيمة
محارب
عكرمة
غطفان
عدوان
فـهـم
كنـانة
منصور
النضـر
مـالـك
مـازن
أبو مالك
هوازن
سلامان
سليم
فـهـر
بخثة
بـكـر
قريش
تمـيم
معـاوية
نصـر
جشم
عـوف
صعصعة
دريـد
عـامـر
هــلال
ربيعة
زغبة
ريـاح
أثـيج


فروع بني هلال بن عامر
نهيك
ربيعة
زغبة
رياح
عبد مناف
الأثبج
مالك
عامر
حصن
يزيد
قرّة
عمرو
(القمور)
(العمور)
الأخضر
عامر
عمرو
مرداس
علي
سعيد
داود
الدّواوة
مشرف
كرفة
دريد
عياض
العاصم
الضّحاك
مقدّم
عياض
لطيف
خرج


فــروع بني ســـليم
بـهـثـة
هـيـب
امرؤ القيس
عـوف
خـفـاف
علاق
مرداس
نصر
ناصرة
زغب
زغـب
حصن
يحيى
ربيعة
علي
حكيم
دلاج
حمير
ريـاح
ديـاب
الكعوب



الانتشار الهلالي بإفريقيّة
في النّصف الثّاني من القرن 5 هـ / 11 م
المحيط الأطلسي
البحر المتوسط
كورسيكا
سردينيا
صقليّة
مالطا
بنزرت
تونس
بنو الورد
بنو خراسان
القيروان
صفاقس
بنو برغواطة
قفصة
قسطيلية
بنو الرّند
قابس
بنو جامع
طرابلس
بجاية
سطيف
تاهرت
فاس
القاهرة
الصّعيد المصري
400 كم
200 كم
مدينة هامّة
إمارة هامّة
قدوم قبائل بني هلال وبني سليم
الغزو النّورماني
الأستاذ : راضي دغفوس
مركز الدّراسات والبحوث الاقتصاديّة والاجتماعيّة
مخبر رسم الخرائط



صورة للجازية الهلالية

المصدر : سيرة بني هلال - الدار التونسية للنشر - المعهد القومي للآثار والفنون - تونس 1990



قبة بني خراسان بتونس



جامع القصر لبني خراسان (تونس)

3 - المرابطون

(452 - 541هـ / 1060 - 1146م)

أصل المرابطين ومجالهم الحيوي :

تباينت روايات المؤرخين حول أصل المرابطين بين قائل بصلبهم العربي الحميري، ومن يرجع أصلهم إلى الجنس البربري. إلا أننا نرجح الرأي الأول لإجماع المصادر عليه، ولأن المنحى المعاكس القائل بانتسابهم للأصل البربري لا يقدم قرائن قوية تدعم ما يذهب إليه.

ومهما يكن من أمر، فالغالبية العظمى من المؤرخين يتفقون على أن المرابطين مجموعة من القبائل الرحل نزحت من بلاد اليمن في تاريخ غير مضبوط، واتجهت نحو إفريقية (تونس)، حيث توقف بها قسم فاستوطنها، بينما استمر القسم الآخر يضرب في الأرض إلى أن انتهى به المقام في الصحراء المغربية المجاورة للمحيط الأطلسي. ونذكر من بين القبائل المهاجرة لمتونة ومسوفة وجدالة ولمطة وتاركة وجزولة وبنو وارث، وغيرها من القبائل الصنهاجية التي أناخت في هذا المجال الجغرافي الممتد من غدامس شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، ومن جبال درن شمالا حتى تخوم السودان جنوباً .

في هذه القفار الشاسعة ، عاش معظم أفراد هذه القبائل حياة شظف تعتمد على الرعي والترحال "لا يعرفون حرثا ولا زرعا ولا خبزا، وإنما أموالهم الأنعام"، ويتنقلون باستمرار باحثين عن أماكن الخصب لأنعامهم، بينما احترفت أقلية منهم الوساطة التجارية وخفر القوافل عبر المحطات التجارية الصحراوية المارة بأودغشت نحو سجلماسة .

ويخبرنا ابن خلدون أنهم عرفوا الديانة المجوسية وعبادة الأوثان، كما اعتنقوا حسب مؤرخ آخر الديانة النصرانية، إلى أن بدأ الإسلام يتسرب إلى ربوعهم في مطلع الفتوحات الإسلامية، لكن إسلامهم ظل سطحيا إلى حدود القرن الـ 5هـ / 11م.

أما عن أسباب تسميتهم بالمرابطين، فقد تضاربت الروايات التاريخية حولها أيضا. ففي حين يعزو بعض المؤرخين سبب إطلاق هذا الاسم عليهم إلى استلهامهم إياه من اسم الرباط الذي بناه عبد الله بن ياسين في أعالي حوض نهر السنغال منذ بداية الحركة الإصلاحية المرابطية في العقد الرابع من القرن الـ 5هـ / 11م، يرجع البعض ظهور هذا الاسم إلى المرحلة التي تلت خروج أنصار هذا الزعيم المرابطي من الرباط المذكور لقتال القبائل التي عارضت دعوته الإصلاحية، حين تمكن من كسر شوكتها في إحدى معاركه المظفرة، فأطلق عليهم لقب "المرابطين" اعتزازاً بصبرهم وجهادهم. بينما تذهب رواية أخرى إلى القول إنّ اسم "المرابطين" لم يعرف إلا بعد الانتصار الساحق الذي حققه جنود عبد الله بن ياسين على

قبائل برغواطة سنة 450هـ / 1058م.

وتقود مسالك تحليل مصطلح "المرابطين" إلى القول إنه وجد قبل هذه التواريخ المذكورة وبعدها، وإنه حمل تغيرا في دلالته تبعا للتطورات التي عرفتها الحركة المرابطية نفسها. فمنذ مرحلة ما قبل حركة عبد الله بن ياسين، أطلق لقب المرابطين على مجموعة من رواد مدرسة وجاج بن زلو اللمطي بمنطقة نفيس بالسوس الأقصى، وقد عرفت آنذاك "بدار المرابطين"، وفيها كانت تلقن أسس المذهب المالكي. وبعد توحيد الأندلس ودخول الدولة المرابطية مرحلة الترف، أصبح مصطلح "مرابط" يرمز إلى الملك والجاه. كما صار يطلق أيضا على كل من أخلص للدولة أو حقق لها انتصارات مظفرة في معارك الجهاد، وبتعبير آخر، غدا بمثابة "وسام شرف عسكري" يمنح لكل من أسدى خدمات للدولة المرابطية.

وعرف المرابطون كذلك باسم الملثمين نسبة إلى اللثام الذي كان يضعه رجالهم - دون نسائهم - على وجوههم ليقيهم حرّ الرياح والعواصف الرملية في الصحراء، أو لأن ذلك حدث بسبب ما وقع للمرابطين في إحدى حروبهم حين غاب رجال القبيلة فاضطرت النساء إلى القتال وهنّ متحجبات بلثام حتى يظهرن في هيئة الرجال، فأصبح هذا الاسم يطلق عليهم تيمنا بهذا الحدث البطولي، أو لأن اللثام كان تقليدا من تقاليدهم القبلية التي توارثها الخلف عن السلف، وهو ما تؤكده إحدى النوازل. كما عرف المرابطون باسم صنهاجة الصحراء، في حين ذهب خصومهم الموحدون إلى نعتهم بالمجسمين الذين يجسمون الذات الإلهية، وبالزراجنة وهو لقب يتضمن نفحة قدحية.

بدأ نجم المرابطين في الظهور عندها كوّنوا أول حلف صنهاجي ضم أهم قبائل صنهاجة الجنوب بزعامة أمير لمتوني يدعى يتلوتان بن تلاكاكين الذي بلغت سلطته شأوا عظيما، وحسبنا أن أكثر من عشرين مملكة من ممالك السودان أصبحت خاضعة لنفوذه تؤدي له الجزية بانتظام كما تؤكد ذلك النصوص، وبقي على رأس الحلف إلى أن توفي سنة 222هـ / 837م ، فتوارث عقبه الحكم إلى سنة 307هـ / 913م. عندئذ تصدّع الحلف الصنهاجي بسبب خلافات داخلية، وبقي كذلك مائة وعشرين سنة إلى أن أعيد تشكيل حلف ثان بزعامة محمد بن تيفات اللمطي، وهي محاولة ثانية لاسترجاع القبائل الصنهاجية دور الوساطة التجارية الذي أفلت من يدها. غير أن الزعيم الجديد لقي حتفه في إحدى المعارك مع مملكة غانة، فولي بعده صهره يحيى بن إبراهيم الجدالي الذي جمع القبائل الصنهاجية تحت سلطته في حلف صنهاجي ثالث، ثم عزم على القيام بأداء فريضة الحج حوالي سنة 427هـ / 1035م لتدعيم الحلف روحيا. وعند عودته مرّ بالقيروان، وهناك قدّر له أن يلتقي بأحد علماء المغرب وهو أبو عمران الفاسي الغفجومي. ويمكن اعتبار هذا اللقاء أول صفحة من صفحات تاريخ المرابطين، وهو ما سنعالجه بعد حين. وقبل ذلك نحاول بعجالة رسم الصورة السياسية التي كان عليها المغرب الأقصى قبيل مجيئهم، وذلك لإدراك سر النجاح الذي حققوه في اكتساحهم هذه المنطقة. ونعتمد في اختزال هذه الصورة على ما ورد عند ابن عذاري الذي عكس تلك الصورة في جملة معبّرة بقوله: "وكان أهل المغرب يتولون أمور بلادهم وأمراؤهم يتولون الإمارة بينهم، إلى أنّ تغلب كل شخص منهم على موضعه كما فعل ملوك طوائف الأندلس".

يشير هذا النص بوضوح إلى حالة التمزق التي بلغت ذروتها في المغرب الأقصى بعد سقوط

الخلافة الأموية بالأندلس، وانسحاب الدولة الفاطمية نحو الشرق. وفي ذات الوقت يعبر بجلاء عن انهيار الدولة المركزية، وما خلف ذلك من فراغ سياسي استغلته قوى قبلية مغامرة جزأت البلاد إلى دويلات سماها أحد الباحثين بالكيانات القبلية الأسروية أو "دول المدن" التي هي تشكيلات سياسية تعبر عن أقصى أشكال الانعزال والتجزئة. ففي كل مدينة قامت أسرة أو قبيلة شقت عصا الطاعة، وفرضت نفسها بحد السيف "دويلة" وسط فسيفساء من الدويلات القزمية. وكان هذا الوضع من المآخذ الشديدة التي انتقدها ابن ياسين على أشياخ المصامدة. ولاشك أن هذا الوضع السياسي المهترئ ساعد المرابطين على كسب تأييد القبائل المغربية التي وجدت في الحركة الإصلاحية المرابطية إطارا يضع حدّا لانقساماتها.

أولاً - الأصول الفكرية لنشأة دولة المرابطين :

لا يتأتى فهم نشأة دولة المرابطين بمعزل عن المشارب الفكرية التي أطرت حركتهم الإصلاحية، ونقصد بها المذهب المالكي السني؛ الأمر الذي يقتضي البحث عن جذور هذا المذهب في المغرب، حتى يمكن تأصيل الحركة الإصلاحية المرابطية، وذلك عبر شبكة العلاقات المذهبية التي كانت تربط المغرب بالمشرق .

1 - جذور المذهب المالكي - بداية ظهور أعلام المذهب بالمغرب الأقصى :

يكتنف الغموض الحلقات الأولى لدخول المذهب المالكي للمغرب الأقصى، إذ ليس لدينا سوى إشارات قليلة تشير إلى تسرّبه نحو هذه المنطقة عن طريق الأندلس خلال القرن الـ 2هـ / 8م. فابتداء من عصر الأدارسة (172هـ / 788م- 375 هـ / 985م)، تم إدخال كتاب الموطأ إلى المغرب، فكان لذلك أثره في تكوين المذهب المالكي وذيوعه في أوساط المغاربة. ولم يحاول الأدارسة، رغم اعتناقهم المذهب الشيعي الزيدي، فرضه على أهل المغرب، بل وجهوا طاقتهم الجهادية نحو مناهضة المذاهب الخارجية والبدع التي كانت سائدة منذ القرن الـ 2هـ / 8 م. وما إن حلّ القرن الـ 4هـ / 10م، حتى كانت أصول المذهب قد شملت بعض مرافق الحياة العامة.

من جهتها، لعبت إمارة نكور بشمال المغرب دورا بارزا في نشر المذهب المالكي والدفاع عنه حيث ظل بنو صالح الحميريّون متحمسين له منذ نشأة دولتهم في أواخر القرن الـ 1هـ / 7م، إلى أن قضى على دولتهم موسى بن أبي العافية سنة 320هـ / 932م. كما أن هجرة الفقهاء المالكيين من إفريقية (تونس) نحو المغرب الأقصى إثر الخراب الذي حلّ بالقيروان على أيدي القبائل الهلالية ابتداء من القرن الـ 5 هـ / 11م، ساهم في ترسيخ جذور المذهب المالكي بالمغرب، علما أن إفريقية كانت قد عرفت انتصاراً بيّناً للمذهب السني آنذاك حيث صارت القيروان قلعة للمالكية في الغرب الإسلامي.

ونتيجة لذلك ظهرت مجموعة من أعلام المذهب المالكي بالمغرب الأقصى تزخر كتب التراجم والسير بذكر أسمائهم كدرّاس بن إسماعيل (ت 357هـ / 968م) الذي كان حافظا للرأي على مذهب مالك، وقيل إنه أول من أدخل مدوّنة سحنون إلى فاس، وبه اشتهر الإمام مالك ﷺ بالمغرب، ثم أبو عبد الله بن إبراهيم الأصيلي الذي كان من حفاظ مذهب مالك، ومن أعلم الناس بالحديث وأبصرهم بعلله ورجاله، فضلا عن أعلام آخرين ممن كان لهم باع طويل في ترسيخ أسس المدرسة المالكية بالمغرب.

بيد أن أهمّ الأعلام المالكيين الذين أسهموا في تثبيت دعائم المذهب المالكي قبيل مجيء المرابطين كان أبا عمران الفاسي تلميذ شيخ الأشعرية أبي بكر الباقلاني. وتخبرنا المصادر أنه درس في الأندلس والعراق على يد كبار شيوخ المالكية، ثم عاد إلى فاس بعد أن رسخ قدمه في المذهب المالكي حتى أن أستاذه شبّه علمه بعلم مالك، وعنه أخذ الطلاب من أقطار المغرب، أهمهم وجاج بن زلو اللمطي الذي أسس بدوره مدرسة بنفيس عرفت "بدار المرابطين"، وكانت عبارة عن رباط صغير شكّل النواة الأولى لقيام الدولة المرابطية، ومنها تخرّج فقيه الدولة المرابطية وداعيتها عبد الله بن ياسين، وأبو القاسم بن عذرا الجزولي وأخوه سليمان بن حدو الذي خلف الزعيم المرابطي في مسؤولية الدعوة.

وإذا كانت نشأة دولة المرابطين تفسّر من خلال هذه الثلة من الأعلام المالكيين الذين لعبوا دورا بارزا في التمكين للمذهب المالكي، فإنها تفسر أيضا من خلال البيئة البدوية المغربية التي تشبه بيئة المدينة - المركز الأم لهذا المذهب - كما لاحظ ابن خلدون. كما تفسر كذلك بالعقلية المغربية التي تتميز بالبساطة والبعد عن التعقيد، وهو ما يتلاءم مع طابع المرابطين الصحراوي وميلهم إلى الفطرة والبساطة في كل شيء.

والحاصل أن بلاد المغرب شكلت أرضية خصبة للنمو الذاتي للمذهب المالكي، حيث أفرزت مجموعة من أقطاب المذهب الذين سيشكلون بدورهم الخيوط الأولى للمرجعية الفكرية التي سينهل منها المرابطون. غير أن إدراك هذه الأرضية الخصبة لا يتأتى إلا بربطها بالمناخ الفكري والمذهبي السائد في المشرق الإسلامي.

2 - انتشار المذهب السني بالمشرق الإسلامي خلال القرن الـ 5 هـ / 11م وأثره في تكوين دولة المرابطين :

بتفحص المناخ الفكري السائد في المشرق الإسلامي، تتضح الصحوة التي حققها المذهب السني هناك بفضل المدارس النظامية التي أنشأها الوزير السلجوقي نظام الملك. ولا غرو فقد مكنت هذه المدارس من تخريج أطر سنية من المدرسين والدعاة الأكفاء، سرعان ما شدّ العلماء المغاربة والأندلسيون الرحال إليهم من أمثال أبي علي الصدفي وأبي بكر الطرطوشي وأبي بكر بن العربي، وغيرهم ممن وجدوا المدارس النظامية في أوج إشعاعها خلال القرن الـ 5هـ / 11م، فنهلوا منها، وعادوا مغمورين بحماس منقطع النظير لنشر المذهب السني المالكي في المغرب والأندلس.

في غمرة هذا المدّ السني، بات بديهيا أن يصل تأثيره إلى المغرب والأندلس بفضل التجارة التي شكلت عاملا مهما في تسرّب المذهب المالكي. فإلقاء نظرة على المدن المغربية التي برز فيها أعلام المذهب مثل سجلماسة وفاس وأغمات وسبتة، يبين أنها كانت ترتبط تجاريا بمدينة القيروان التي كانت بدورها على صلة تجارية وثيقة مع المشرق الإسلامي .

3 - لقاء أبي عمران الفاسي بيحي بن إبراهيم الجدالي : نقطة الدفع نحو بداية تكوين دولة المرابطين على أساس المذهب السني المالكي .

في ضوء الانتشار السريع للمذهب السني مشرقا ومغربا، يمكن فهم سرّ نجاح اللقاء الذي تم بين الفقيه المالكي أبي عمران الفاسي ويحي بن

إبراهيم الجدالي زعيم صنهاجة الذي أشرنا سلفا إلى تحقيقه للوحدة الصنهاجية الثالثة، وخروجه للقيام بفريضة الحج، وهو لقاء فكري مذهبي لا يختلف اثنان في أنه شكل الانطلاقة الأولى لدولة المرابطين، بل يمكن القول إن فكرة الحج لم تكن مجرد فكرة عارضة عنّت للزعيم الصنهاجي يحيى بن إبراهيم قدر ما كانت تستهدف وضع خطة لمشروع إقامة دولة سنية في الغرب الإسلامي، دولة باركها ممثل الفكر السني الأشعري الكبير آنذاك الإمام أبو حامد الغزالي، ووصفها ابن الخطيب بأنها "أكثر الدول جريا على السنة".

على كل حال، فقد حدث هذا اللقاء عندما عاد الزعيم الصنهاجي يحيى بن إبراهيم الجدالي من رحلته الحجية. وأثناء مروره بالقيروان التي كانت آنذاك مركزا للدعوة المالكية، التقى بالفقيه المغربي أبي عمران الفاسي الذي كان يدرّس بها أصول المذهب المالكي، وفي ذات الوقت يسعى للإطاحة بالدويلات الزناتية وإقامة دولة سنية بالمغرب. لكن ما هي الدلالة الحقيقية لرحلة يحيى بن إبراهيم للحج؟ وهل كان لقاؤه بأبي عمران الفاسي محض صدفة كما ورد في المصادر ؟

إنّ حجّ يحيى بن إبراهيم كان خطوة سعى بها إلى تدعيم النهضة التي حققها الحلف الصنهاجي الثالث، ومحاولة جادة لتتويج هذه النهضة بمشروع سياسي بعيد المدى يتوج بتأسيس دولة. ولا شك أن الزعيم الجدالي لاحظ أن كل مؤسسي الدول استندوا على دعوة دينية كإدريس بن عبد الله وعبيد الله الشيعي، وجلّ قادة الدويلات الخارجية. ومعلوم أن ابن خلدون تنبه لهذه الحقيقة التاريخية، فلاحظ أثر الدعوة الدينية في لم شتات العصبية والتمهيد للمطالبة بالدولة .

وباستقراء الرواية المتداولة في المصادر التاريخية حول لقاء أبي عمران الفاسي ويحي بن إبراهيم على الرغم من اختلافها، يتضح أن الأول هو الذي بادر إلى دعوة الزعيم الجدالي للقيام بحركة إصلاحية، وأنّ هذا الأخير الذي كان يبحث بدوره عن سند ديني، لم يتوان عن الاستجابة لذلك، فأخذ يبحث عمّن يساعده في القيام بهذه المهمة، وهو ما يظهر من قول البكري: "فسأله أبو عمران عن بلده وسيرته وما ينتحلون من المذاهب فلم يجد عنده علما بشيء، إلا أنه كان حريصا على التعلم، صحيح النية واليقين، فقال له: ما يمنعكم من تعلم الشرع على وجهه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر".

مثل هذه الرواية تكشف عن مرام بعيدة الغور، ذلك أن مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الوارد فيها يحمل مغزى سياسيا عميقا، فقد اتخذته جميع الحركات السياسية مبدأ وغاية. ولا يخامرنا شك في أن هذه الأهداف السياسية بدأت في المغرب الأقصى منذ مطلع القرن الـ 5هـ / 11م، عندما كان أبو عمران مقيما بفاس، يناهض أوكار الاتجاهات البدعية والظلم والطغيان الزناتي، ويدعو إلى توحيد المغرب تحت سلطة سياسية مالكية سنية.

وإذا كانت المصادر التقليدية لا تشير إلى نشاط أبي عمران في فاس، فإن ابن الأحمر يزودنا بنص على جانب عظيم من الأهمية، يميط اللثام عن عدة حقائق، منها أن أبا عمران الفاسي كان من أقطاب المعارضة الذين ناهضوا الفوضى السياسية المستشرية في فاس وغيرها من المدن المغربية قبيل قيام الدولة المرابطية، وكذا السياسة الجبائية المجحفة التي نهجها أمراء زناتة، والظلم الاجتماعي الذي مارسوه، وأنه أخرج من فاس نتيجة موقفه المتصلب تجاههم. كما أن هذه الرواية

لا تصوّر أبا عمران رجلا غريبا عن يحيى بن إبراهيم والوفد الذي صحبه إلى الحج، بل إنها تبرز أن الزعيم الصنهاجي والوفد المرافق له قصدوا أبا عمران الفاسي "للتبرك به" نظرا لما حازه من سمعة طيبة اكتسبها من مواقفه الصلبة في مقاومة الظلم، حتى صارت الرعية تحترمه وتجعله في مرتبة الأولياء. ويكشف النص أيضا أن هذا اللقاء أسفر عن مخطط بين أبي عمران الفاسي ويحي بن إبراهيم يقضي بمقاومة الدويلات الزناتية، وتغيير الأوضاع في المغرب. وكل هذه المؤشرات تبرهن على أن حج يحيى بن إبراهيم ولقاءه بأبي عمران لم يجر بمحض الصدفة، وإنما سار وفق خطة محكمة لإنشاء دولة سنية مالكية بالغرب الإسلامي.

على كل حال فقد وضع الرجلان اللبنة الأولى لتوحيد المغرب وإنشاء دولة أساسها المذهب المالكي. ولتنفيذ هذه المهمة طلب الفقيه أبو عمران الفاسي من طلبته الموجودين في حلقة درسه أن يتطوع أحدهم للسفر إلى ديار صنهاجة الصحراء لتعليم القبائل هناك أصول الدين الإسلامي وتلقينهم مبادئ المذهب المالكي، إلا أن أحدا منهم لم يستجب لهذه الرغبة الملحة من طرف شيخهم، نظرا لبعد الشقة وشظف العيش في الصحراء كما تجمع على ذلك المصادر؛ إلا أننا نشك في هذه الرواية المحبوكة، لأننا نرى أن هذا الموقف لا يتناسب مع المكانة التي كان يكنّها هؤلاء الطلبة لشيخهم، ولا يتلاءم البتة مع ما عرف عن فقهاء المالكية من روح التضحية التي وصلت إلى حد الاستشهاد في عهد السيطرة العبيدية بالقيروان.

من ناحية ثانية كان أبو عمران رجلا متمرسا بأمور الدعوة، ثاقب الفكر، بعيد النظر، لذلك رأى أن إنجاح خطة للإطاحة بالدول الزناتية وتأسيس دولة الحق القائمة على أساس سني صحيح يتطلب وضع قيادته تحت إمرة رجل قادر على إنجاز المهمة، عارف بأحوال البلاد والعباد، متبحر في أمور الشريعة، فكان اختياره لوجاج بن زلو بأرض المغرب الأقصى يصبّ في هذا الاتجاه؛ وحسبنا أن الأخير كان من أعلام المذهب المالكي المشار إليهم بالبنان، وكان ملمّا إلماما دقيقا بأوضاع المغرب، وصاحب رباط يدرس فيه مبادئ المذهب المالكي. وعرض هذا الأخير بدوره على طلبته فكرة القيام بحركة إصلاحية في ديار الملثمين بالصحراء، فاستجاب له أحد المتحمسين للمذهب المالكي، وهو عبد الله بن ياسين، واستعد لإنجاز هذه المهمة رغم صعوبتها، وكان له من المؤهلات ما جعل شيخه يثق في نجاحه في تلك المهمة التي كلفه بها كما سنذكر بعد قليل.

وهكذا يتضح أن المرجعية الفكرية للدولة المرابطية استقت أصولها من المذهب المالكي السني، وأنه أعدّ لقيامها وفق مخطط مذهبي سني يمتد من المشرق الإسلامي إلى المغرب، ولم يكن مجرد حركة عفوية كما تصورها المصادر.

ثانيا - التطور السياسي للدولة المرابطية: من مرحلة الدعوة في صحراء صنهاجة إلى بسط سلطتها على المغرب الأقصى :

1- عبد الله بن ياسين ودوره في مرحلة الدعوة المرابطية وتحقيق الوحدة الصنهاجية :

إن اختيار الفقيه وجاج بن زلو للداعية عبد الله بن ياسين لم يكن محض صدفة، بل كان اختيارا مدروسا بعناية؛ فخطة إنشاء دولة تستدعي وضعها تحت زعامة كفأة وقادرة على إنجاحها.

وكان عبد الله بن ياسين من هذه الطينة التي اقتنع بها فقيه سوس، ولا غرو فقد توفر فيه من المؤهلات ما لم يتوفر في غيره، فهو من قبيلة جزولة الصنهاجية، كما أنه تلميذه المخلص المتحمس لنشر المذهب المالكي، فضلا عن كونه من حذاق الطلبة ومن "أهل الفضل والدين والورع". يضاف إلى ذلك حصوله على علوم كثيرة إذ درس في الأندلس سبع سنوات كانت كافية للارتشاف من حياض معرفة الفقهاء المالكيين هناك، وهي فرصة سمحت له بالاطلاع على أوضاع الأندلس والضعف الذي نخر عظام الدويلات الطائفية، ثم عاد إلى مسقط رأسه مرورا بمدن المغرب من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، فلاحظ بدع برغواطة وانقسام بلاد المصامدة وتشتت القبائل الزناتية، وانتشار الفساد وتفشي الظلم في أوساط الرعية. وترامى إلى سمعه خبر رباط وجاج بن زلو بنفيس، وتعرف على شيخه وعلى ما يحمله من دعوة إصلاحية وفق المذهب المالكي، فالتحق بالرباط المذكور ليصبح بعد ذلك عضوا من أنشط أعضائه. ولا يخامرنا الشك في أنه أطلع شيخه على التذمر الذي أصابه من جراء ما آلت إليه الأوضاع في المغرب والأندلس، وأن الشيخ أطلعه بدوره على الدعوة الإصلاحية التي كان يعدّ لها بمعية أستاذه أبي عمران الفاسي، ومن هنا جاء اختيار وجاج بن زلو لعبد الله بن ياسين، فأمره بالقيام بمهمة الدعاية للمرابطين انطلاقا من قبائل صنهاجة الجنوب المنتشرة في الصحراء، فاستجاب بحماس منقطع النظير.

حلّ عبد الله بن ياسين بديار صنهاجة في الصحراء، وكانت أول قبيلة عرّج عليها هي قبيلة لمتونة حسبما يذكره ابن الأثير، فبدأ يبث تعاليم مذهبه في أوساطها، غير أن هذه الأخيرة لم تستجب إلا لما يتماشى مع مطامعها في التوسع كالجهاد، وكل ما لا يتنافى مع عاداتها مثل الصلاة والزكاة. ورغم مظاهر الترحاب الذي قوبل به في البداية، فإن الداعية لقي معارضة لا هوادة فيها من قبل أعيان القبائل على الخصوص، ويفسر هذا الموقف بتعارض دعوة عبد الله بن ياسين مع أعراف قبائل صنهاجة الصحراء .

وانتهت المعارضة "بانقلاب" تزعمه الأعيان، كاد أن يودي بحياة عبد الله بن ياسين، فتمّ طرده من ديار لمتونة، وأصيبت الحركة الإصلاحية بانتكاسة خطيرة، خاصة بعد أن جرّد الداعية من وظيفة التصرف في الأموال. وفي هذا الصدد يقول البكري: "فعزلوه عن الرأي والمشورة، وقبضوا منه بيت مالهم، وطردوه وهدموا داره". وبعد هذه العثرة مرت الحركة المرابطية بمرحلتين :

- مرحلة التكوين المذهبي والعسكري في الرباط :

تعدّ هذه المرحلة بالغة الأهمية في مسار الحركة المرابطية. وتتضارب الروايات حول صاحب المبادرة في تأسيس الرباط بين قائلة بأنه يحيى بن إبراهيم الجدالي، ومن تنسب ذلك إلى عبد الله بن ياسين. والأرجح أن يكون هذا الأخير صاحب الفكرة، لأنه تعوّد على حياة الرباط، وأدرك أهميته في إنجاح أي مشروع سياسي. ويحتمل أن يكون ذلك من إيحاء شيخه وجاج بن زلو، إذ تذكر المصادر أنه اتصل به بعد طرده من ديار لمتونة.

ومهما يكن من أمر، فقد أقدم على بناء رباط في جزيرة منعزلة بموضع لم تحدده النصوص، مما جعل الباحثين المعاصرين يختلفون في معرفة مكانه بدقة بسبب غياب شواهد أثرية، ثم أمر أنصاره وكلّ من اقتنع بحركته الإصلاحية بالالتحاق به في هذا الرباط .

والحق أن الرباط يمثل مرحلة متقدمة في تطور الحركة الإصلاحية المرابطية التي اضطلع بها ابن ياسين، ففضلا عن قربه من مناطق الذهب، ودوره كمركز للتكوين العلمي والنظري لرجال الدعوة، أشاع الأمن والسلم في النواحي التي تمرّ منها القوافل التجارية خاصة قوافل الملح، وأصبح "حرما" يفرض على كلّ واحد احترامه. وفي الوقت نفسه صار قاعدة لتخريج أفواج المقاتلين الذين سيوحّدون قبائل صنهاجة اللثام تمهيدا للاندفاع نحو المغرب الأقصى، وهذا ما حدا ببعض الدارسين إلى اعتبار الرباط أحد المقومات الأساسية التي قامت عليها دولة المرابطين. ولا نعرف على وجه التدقيق المدة التي بقي فيها الملثمون برباطهم، والراجح أنها تراوحت بين سبع إلى اثنتي عشرة سنة كانت كافية لتكوين ما يربو على ثلاثة آلاف مرابط تكوينا مذهبيا وعسكريا، وتنصيب "إمام الحق"، والخروج من الرباط لبدء تحقيق الوحدة الصنهاجية.

- مرحلة تطبيق تعاليم عبد الله بن ياسين وتحقيق الوحدة الصنهاجية :

بدأت هذه المرحلة بخروج الملثمين من رباطهم بعد أن أصبحوا "آلة حرب" على حدّ تعبير أحد الدارسين، فتغير أسلوبها من الاعتماد على الحجة والإقناع، إلى استعمال القوة والشدة؛ وفي هذا السياق، أورد ابن أبي زرع قول عبد الله بن ياسين لأنصاره: "قد أبلغنا في الحجة وأعذرنا، وقد وجب علينا الآن جهادهم، فاغزوهم على بركة الله تعالى".

على هدي هذا التوجه الجديد، تمكّن عبد الله ابن ياسين من استئصال شأفة كل المخالفين عليه من لمتونة ومسوفة وجدالة وسائر القبائل الصنهاجية، وحصل منهم على الأموال اللازمة لمواصلة مسيرته، ولم يتورع عن استعمال الشدة .

في هذا الوقت، شهدت الدعوة المرابطية تطورا جديدا تجلى في انتقال زعامة الحلف الصنهاجي من قبيلة جدالة إلى لمتونة. فبعد وفاة يحيى بن إبراهيم الجدالي سنة 440هـ / 1048م، تم اختيار يحيى بن عمر اللمتوني في مجلس عام لمواصلة هذه المهمة، وهو اختيار منطقي لأن لمتونة كانت تعدّ أكثر القبائل قوة بفضل طاقتها البشرية، وسيتحمل هذا الزعيم الجديد مهمة استئناف الفتوحات في المغرب الأقصى.

2 - الزحف نحو توحيد المغرب الأقصى :

بعد توحيد القبائل الصنهاجية الجنوبية تحت راية الدعوة المرابطية، بدأ الشق الثاني من المشروع المرابطي، وهو توحيد المغرب الأقصى؛ وفي هذا السياق تؤكد المصادر استدعاء فقهاء سجلماسة وفي مقدمتهم وجاج بن زلو لعبد الله بن ياسين للزحف نحو المغرب بهدف وضع حدّ لطغيان زناتة واضطهاد فقهاء المالكية. ومن المنطقي أن نعتبر مثل هذا النداء مجرد تذكير للزعيم المرابطي بالوعد الذي قطعه يحيى بن إبراهيم الجدالي على أبي عمران الفاسي في لقاء القيروان للإطاحة بحكم الزناتيين وإنشاء دولة سنية مالكية، وهذا ما ينسجم مع قول صاحب كتاب مفاخر البربر: "وهما، أعني وجاج وعبد الله، كانا السبب في خروج الملثمين المعروفين بالمرابطين من الصحراء بأمر الفقيه أبي عمران الفاسي".

أما السبب الاقتصادي الذي عجّل بالمرابطين للانتقال من الصحراء نحو الشمال، فيكمن في موجة القحط والجفاف التي ألمت بديار الملثمين في

صحراء صنهاجة، فضلا عن النمو الديموغرافي الكبير الذي شهدته المنطقة. فلم يعد من المنطقي نجاح الدعوة الإصلاحية المرابطية في ظل هذه الضائقة الاقتصادية، ممّا جعل المرابطين يتطلعون نحو المغرب للتخفيف منها. وقد ربط النويري بين هذه الأزمة الاقتصادية - الديموغرافية ومحاولة المرابطين الحيلولة دون فشل دعوتهم بتوجيه أنظارهم نحو المغرب بقوله: "ثم ضاقت الصحراء بالمرابطين لشظفها وكثرتهم، فطلبوا إظهار كلمة الحق، فخرجوا إلى السوس الأقصى".

مراحل توحيد المغرب الأقصى وظهور شخصية يوسف بن تاشفين:

بصفة عامة يمكن تقسيم مراحل توحيد المغرب الأقصى عسكريا إلى ثلاثة محاور كبرى :

(أ) محور سجلماسة : أغمات الذي كان يهدف إلى السيطرة على منافذ تجارة الجنوب. والواقع أن هذه المرحلة كانت حاسمة في توطيد نفوذ المرابطين بالمغرب، لكن للأسف فإن المصادر لا تورد بشأنها سوى أخبار شحيحة تتميز باختلاف حول السنوات التي وقعت فيها المعارك، وأحيانا الأماكن التي طالتها الفتوحات المرابطية.

انطلقت الحملات العسكرية بقيادة يحيى بن عمر اللمتوني الذي خلف يحيى بن إبراهيم الجدالي، وذلك تحت إشراف عبد الله بن ياسين. وقد شملت هذه الحملات فتح درعة وسجلماسة لتعود أدراجها نحو أودغشت للقضاء على انشقاقات حدثت هناك بسبب غياب الجيوش المرابطية، ثم عادت من جديد لسجلماسة لمحق ثورة قامت هناك أيضا ضد الحامية المرابطية. وخلال ذلك لقي يحيى بن عمر حتفه سنة 448هـ / 1056م، فخلفه أخوه أبو بكر بن عمر اللمتوني الذي زحف بالجيوش المرابطية نحو السوس، فتمَ الاستيلاء على تارودانت معقل البجلية الشيعة، ثم جبل درن وبلاد كدميوة .

(ب) محور الوسط : وهو المحور العسكري الذي هدف المرابطون من خلاله إلى السيطرة على الطريقين التجاريين الساحلي والأوسط. وقد تميزت هذه المرحلة بالصعوبة وضرواة المعارك. وتركزت جهود أبي بكر بن عمر وعبد الله بن ياسين فيها على إخضاع أخطر تجمع سياسي آنذاك وهي دولة برغواطة، حتى أن عبد الله بن ياسين قدّم حياته ثمنا وهو يصارعها وذلك سنة 451هـ / 1059م. غير أن استشهاده لم ينل من عزيمة المرابطين الذين استأسدوا في قتال من اعتبروهم خارجين عن السنة، فجالوا فيهم بسنابك خيولهم ومزقوهم شرّ ممزق حتى أسلموا إسلاما جديدا".

في هذه المرحلة، لاحت شخصية جديدة في فضاء التاريخ المغربي، وهي شخصية يوسف بن تاشفين، المؤسس الحقيقي للدولة المرابطية وواضع أمجادها، بل يعدّ دون منازع من أعظم الشخصيات التي أنجبها الغرب الإسلامي. وكان يتميز بمؤهلات لم تكن تتوفر سوى في كبار بناة الدولة الإسلامية، وهي إيمانه العميق بقدرة أمته على تجاوز التحديات، وحصر مسؤوليته في نصرة الدين الإسلامي مهما كلفه ذلك من ثمن وتضحيات جسام. كما أنه كان منشداً إلى فكرة وحدة العالم الإسلامي وترابط أجزائه رغم ما أصاب هذا الأخير من انقسامات وشروخ، ناهيك عن تفانيه في خدمة العروبة وقضاياها. وكان يوسف ابن عمّ الأمير المرابطي أبي بكر بن عمر الذي استخلفه لمواصلة حلقات فتح أطراف المغرب المتبقية في انتظار عودته من مهمة كان يستهدف بها قمع تمرد وقع

في بلاد السودان سنة 453هـ / 1061م؛ لكن يوسف تمكّن، بمساعدة زينب النفزاوية زوجة الأمير أبي بكر، من استغلال غياب هذا الأخير وسلب السلطة من يده بفضل ما أوتيته زينب من ذكاء وبراعة في إعداد الخطة التي أفضت إلى تخليه عن السلطة لصالح يوسف بن تاشفين وهو مرغم على ذلك. وتواصلت المعارك تحت قيادة الأمير الجديد في اتجاه بلاد فازاز حيث تمّ الاستيلاء على لواتة ومدائن مكناسة سنة 456هـ / 1063م ثم فتح مدينة فاس للمرة الثانية سنة 462هـ / 1069م.

وتميزت هذه المرحلة بتأسيس مدينة مراكش من قبل أبي بكر بن عمر سنة 454هـ / 1062م. ويعتبر تأسيس هذا المدينة التي أصبحت عاصمة الدولة الفتية ومركزا ثقافيا بعد انتهاء الفتوحات طورا متقدما في تنامي الحركة المرابطية.

(جـ) محور الشمال والشمال الشرقي : في هذه المرحلة سعى المرابطون إلى إخضاع المغرب نهائيا، فما إن تمت السيطرة على فاس، حتى ران الأمير يوسف بن تاشفين ببصره نحو مدن الشمال، فقام بجولات موفقة في مناطق غمارة والريف والنكور ليصل إلى طنجة. وأتاح له استنجاد المعتمد ابن عباد به فرصة للحصول على أسطول بحري تمكن بواسطته من اقتحام مدينة سبتة، وإطفاء جمرة حاكمها سكوت البرغواطي سنة 477هـ / 1081م. أما في النواحي الشرقية، فقد قام بجولات عسكرية موفقة مكنته من الوصول إلى تلمسان سنة 472هـ / 1079م، ثم توغل في المغرب الأوسط حتى بلغ وهران وجبال ونشريس. وعقب ذلك استسلمت القبائل الأخرى دون أن يخوض في ذلك غمرة أو يتجشم فيه مشقة، فخلا له الجو للتفكير في ضمّ الأندلس .

ثالثاً - توحيد الأندلس ومقاومة الغزو الإسباني :

1- استنجاد الأندلسيين بالمرابطين ومعركة الزلاقة (479هـ / 1086م) :

في الوقت الذي أوشك المرابطون على الانتهاء من تمهيد المغرب الأقصى، بدأت أيادي ملوك الطوائف تمتدّ نحو يوسف بن تاشفين لوضع حدّ للتحرشات النصرانية، وبدأ صدى الاستغاثة يصل إلى المغرب، بل إن أمير إشبيلية المعتمد بن عباد هرع بنفسه إلى يوسف بن تاشفين يلتمس النجدة، وانتهى الأمر باستجابة المرابطين لدعوة الإنقاذ .

في هذه اللحظة التاريخية، كانت الأندلس تشهد أحلك صورة في تاريخها، إذ أصبحت نهبا لكل مغامر أنس من نفسه القوة، لذلك لا غرابة أن يقتسمها بعض الطامعين الحالمين بالنفوذ والسلطان، حتى صارت مجزأة إلى 23 إمارة.

ولم تتوفر هذه الإمارات الطائفية على أبسط مقومات الدولة، إذ اتسمت بأسسها الهشة، وافتقرت إلى قاعدة تضمن لها كيانا سياسيا صلبا له وجود اجتماعي مستقلّ. وفضلا عن ذلك أغرقت نفسها في صراعات دموية زادت من هشاشتها، وهو ما عبر عنه أحد المؤرخين بقوله: "وجعل الله بين أولئك الأمراء ملوك الطوائف من التحاسد والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفات والعشائر المتغايرات".

وإذا أضفنا إلى ذلك السياسة الجبائية المجحفة التي أثقلوا بها كاهل رعاياهم، مقابل ترفهم وتبذيرهم الأموال في سبيل الملذات، أدركنا كيف أصبح الرأي العام الأندلسي مهيئا لاستقبال قوة

منقذة ترفع معنوياته وتتجه به نحو تحرير الأندلس التي أصبحت لقمة سائغة للقوى النصرانية المتكالبة؛ ولا غرو فقد تهاوت المدن والقلاع الإسلامية أمام الآلة الحربية المسيحية بسهولة، فسقطت طليطلة في يد ألفونسو السادس سنة 478هـ / 1085م، بل تمكّن هذا الأخير من الاستيلاء على حوالي ربع مساحة الأندلس دون أن يجد سيفا يصده عن أطماعه. كما تمكن السيد القمبيطور Campeador من العيث فسادا في الأراضي الإسلامية بالأندلس، ونجح في الاستيلاء على بلنسية سنة 485هـ / 1092م. واتحد العالم المسيحي برمته لمواجهة القوى المرابطية، واندمجت قشتالة وليون في مملكة واحدة لتصبح قوة مرهوبة الجانب. كلّ هذه الظروف العصيبة التي كانت تمرّ بها الأندلس، جعلت أمراء الطوائف يبادرون إلى طلب النجدة من يوسف بن تاشفين.

كان من الطبيعي أن يستجيب يوسف بن تاشفين لنداء الجهاد، وهو الرجل الذي تربّى في مهاد المعارك والنخوة، وكان منهجه العام يقوم على أساس الدفاع عن بيضة الإسلام، لذلك بدأ يعدّ العدة لخوض أعظم ملحمة عسكرية في تاريخ الغرب الإسلامي، وهي معركة الزلاقة.

وقعت هذه المعركة في يوم الجمعة 12 رجب من سنة 479هـ / 23 أكتوبر 1086م، وهو التاريخ الأرجح. وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى فحص الزلاقة Sagrajas الذي دارت فيه رحاها، وهو سهل يوجد على أحد روافد وادي آنة على بعد نحو 12 كم إلى الشمال الشرقي من مدينة بطليوس.

شرع يوسف بن تاشفين في نقل جنوده من مدينة سبتة نحو الجزيرة الخضراء بعد أن كان المعتمد بن عباد قد أخلاها للجنود المرابطين، ولقي مؤازرة من أهالي الجزيرة الذين قدّموا للحملة العسكرية المؤن والأقوات. وبعد أن قام الأمير المرابطي بتحصين المدينة، اتجه صوب إشبيلية حيث التقى بحاكمها المعتمد بن عباد، ومن هناك وجّه نداء إلى كافة أمراء الأندلس لرصّ الصفوف والمشاركة الفعلية في المعركة المرتقبة، فبادر كل من أمراء غرناطة ومالقة إلى تلبية ندائه، وبعثوا إليه بالجيوش والمؤن، كما سارع عدد من المتطوعة إلى الانضمام للجيش المرابطي.

اتجهت الحملة العسكرية المرابطية بعد ذلك نحو ضواحي مدينة بطليوس حيث كان في استقبالهم أميرها المتوكل بن الأفطس الذي رحّب بمقدمهم وقدّم لهم كافة التسهيلات. وقد نهج يوسف بن تاشفين أسلوبا ناجحا في تنظيم قواته حيث قسمها إلى قسمين رئيسيين: المعسكر الأندلسي الذي نظمه على شكل خماسي كان يحتل مقدمته المعتمد بن عباد، ويحتل ميمنته المتوكل بن الأفطس، في حين كان أهل شرق الأندلس يشكلون ميسرته، وبقية أهل الأندلس في الساقة، في حين بقيت قوات المرابطين في المؤخرة استعدادا لخلق عنصر المباغتة.

وفي الوقت الذي كان المرابطون يتأهبون للانقضاض على الجيش المسيحي، بدأت أخبار تلك الاستعدادات تتسرب إلى مسامع ألفونسو السادس، فاضطر إلى رفع الحصار عن سرقسطة، وأخذ يشكل تحالفات مع الدول النصرانية الأخرى، خاصة مع ملك أرغون وجليقية وليون وبسكونية وأشتوريس، وتبنّى استراتيجية عسكرية تقوم على اختيار أرض المسلمين مكانا للمعركة.

ويلاحظ الباحث اختلافا في الإحصائيات المتعلقة بعدد الجنود المسيحيين والمسلمين على

السواء، فحسب بعض المصادر كانت قوات الطرف الأول تتراوح ما بين 50 ألف إلى مائتين وثمانمائة ألف، في حين كان عدد الجيش الإسلامي يتراوح ما بين 20 و48 ألفا، وهي أرقام تعكس - رغم تضاربها - قلة عدد الجيش المرابطي مقارنة مع الجيش المسيحي.

وقبل بداية المعركة، بدأت حرب كلامية بين الجانبين، نجح خلالها يوسف بن تاشفين في تحدي ألفونسو السادس برسالة يتوعده فيها بالهزيمة الماحقة، مما جعل هذا الأخير يستشيط غضبا ويطلب منه الاستعداد للمنازلة يوم الاثنين، وهو موعد سعى من ورائه إلى مخادعة الأمير المرابطي؛ لكن المعتمد نبّه هذا الأخير إلى مكر القائد النصراني، وطلب منه أن يكون على أهبة القتال في أي وقت. وكان حدسه صائبا إذ باغتت القوات المسيحية الجيش المرابطي يوم الجمعة 12 رجب سنة 479هـ حيث اشتبكت طلائع القشتاليين والأرغونيين تحت زعامة البرهانس مع مقدمة الجيش الأندلسي بقيادة المعتمد بن عباد، وكادت الدائرة أن تدور على الأندلسيين في بداية المعركة لولا أن يوسف بن تاشفين عمد إلى عنصر المفاجأة المضادة حين أرسل قوة من المرابطين بقيادة داود بن عائشة لمؤازرة الجيش الأندلسي المتراجع، ثم بعث قائده سير بن أبي بكر بفرقة ثانية لشدّ أزر قوات داود بن عائشة والمعتمد بن عباد، في حين سار هو مع قوة خاصة نجحت في اختراق معسكر النصارى وإضرامه بالنار، مما أجبر جيوش ألفونسو على التقهقر، وجعل فرقة الأندلسيين تتحول من خطة التراجع إلى شن هجوم كاسح أرغم النصارى على المزيد من التقهقر أمام الاندفاع البطولي لجيش المرابطين. وفي غمرة هذه النفحة البطولية تمكن أحد الجنود السودان من طعن ألفونسو في فخذه، فانهارت معنويات القوات النصرانية، وولوا الأدبار مذعورين بمن فيهم ملكهم ألفونسو السادس الذي نجا بجلده مع خمسمائة من فرسانه. وكانت خسائر قواته من الكثرة ما جعل المرابطين يقطعون رؤوس القتلى ويصنعون منها صوامع للأذان، بينما كانت خسائر المسلمين أقل بكثير. لذلك لا غرابة أن يشبّه المؤرخون هذا النصر الذي تمكّن فيه المسلمون من حصد زهرة القوى النصرانية بيوم اليرموك أو يوم القادسية، وأن يتغنى به الشعراء والأدباء ويسموه بيوم عروبة.

بيد أن الخطأ الاستراتيجي الذي وقع فيه المرابطون يكمن في عدم مطاردتهم فلول النصارى وإطفاء جمرتهم نهائيا، فلو فعلوا ذلك لتمكنوا من تقويض مملكة قشتالة واستغلال هزيمتها لاسترجاع مدن أخرى كانت قد استولت عليها. ولا يستبعد أن يكون تخاذل أمراء الطوائف وتشككهم في نوايا يوسف بن تاشفين هو ما جعل هذا الأخير يكتفي بهذا النصر المحدود. ولو أنهم أمدوه بمساعداتهم والتفوا حوله بإصرار لاستطاع أن يتقدم خطوات أخرى في تحرير الأندلس واسترداد طليطلة على الأقل.

ومع ذلك فإن هذه المعركة خلفت نتائج هامة، إذ قدمت درسا في مواجهة العرب والمسلمين للتحديات الصليبية، وقضت على أحلام ألفونسو السادس في التوسع على حساب المجال الإسلامي بالأندلس، وأنهت مهزلة الضرائب التي كان أمراء الطوائف مجبرين على أدائها لألفونسو السادس. كما أن المعركة عززت موقف المرابطين، وأعادت الهيبة للوجود الإسلامي بالأندلس، وأمدت في عمره قرونا أخرى كما يجمع على ذلك الدارسون. وفي أعقابها اتسعت حدود الدولة المرابطية التي أصبحت تمتد في قارتين .

2 - إخضاع ملوك الطوائف وضم الأندلس للسلطة المرابطية :

إذا كانت معركة الزلاقة قد حققت الأهم، وهو مقاومة الغزو الإسباني، فإنها كشفت من جهة ثانية عن الانقسامات التي كانت سائدة بين ملوك الطوائف. فبعد رجوع يوسف بن تاشفين إلى المغرب لأسباب اختلفت حولها المصادر، عادت النزاعات من جديد بين أولئك الأمراء، فكانت فرصة استغلها الإسبان للانقضاض على حصن لييط Aledo الواقع في منتصف الطريق بين مرسية ولورقة. وتأكد للأمير المرابطي هذا الانقسام إبان جوازه الثاني للأندلس سنة 481هـ / 1088م لاسترداد ذلك الحصن. ورغم الحصار المحكم الذي قام به لاسترجاعه، فقد مني بالفشل بسبب الانشقاقات التي ظهرت بين صفوف أمراء الطوائف، مما حدا به الى رفع الحصار، مدركا أن مقاومة الغزو الإسباني لا تتأتى إلا بالقضاء النهائي على هؤلاء الأمراء المتخاذلين، لذلك قرر أن يحسم داءهم خلال جوازه الثالث نحو الأندلس. ولإعطاء المشروعية الدينية لمبادرته، استصدر فتوى من فقهاء المغرب والمشرق الذين أفتوا بخلعهم لأن "الإبقاء عليهم لا يتوصل معه إلى واجب الجهاد".

ويعتبر الجواز الثالث ليوسف بن تاشفين نحو الأندلس سنة 483هـ / 1090م حدثا تاريخيا حاسما تقرر فيها مصيرها، وحسبنا أنها أصبحت منذئذ ولاية مغربية.

كانت البداية من إمارة غرناطة وأميرها آنذاك عبد الله بن بلكين الذي استسلم صاغرا، ثم زحف المرابطون نحو تميم بن بلكين أمير مالقة، ليقتحموا بعد ذلك إشبيلية، ويعزلوا صاحبها المعتمد بن عباد، ثم ابنه المأمون بقرطبة. وتوغلت خيول الملثمين في المدن الأخرى، وتمكنت من تنفيذ مهماتها العسكرية بنجاح رغم ضراوة المقاومة التي أبداها الأندلسيون، فتهاوت إماراتهم الواحدة تلو الأخرى إلى أن صارت الأندلس برمتها تحت قبضة يوسف بن تاشفين، فأصبحت منذئذ "تبعا لمراكش من بلاد العدوة"، وبذلك انتهى عهد الإمارات الطائفية، وتحققت وحدة المغرب والأندلس تحت حكم المرابطين .

3 - الدولة المرابطية من عهد الازدهار والوحدة إلى مرحلة التراجع والسقوط :

ترسخت أركان الدولة المرابطية في عهد يوسف بن تاشفين، وشب عودها، وأصبحت مهابة الجانب، وبلغت أوج اتساعها من أقصى نقطة في شمال الأندلس حتى تخوم السودان جنوباً ومدينة الجزائر شرقاً. وقد شهد عهده ازدهارا مهما عبر عنه أحد المؤرخين بقوله: "أقامت بلاد الأندلس في مدته سعيدة حميدة في رفاهية عيش وعلى أحسن حال، لم تزل موفورة محفوظة إلى حين وفاته رحمه الله". وفي ذات الآن، تمكنت دولته الفتية من السيطرة على التجارة المتوسطية وتجارة القوافل الصحراوية، ونشر الإسلام في ربوع السودان، ناهيك عن المعارك المظفرة التي نجحت في ردع التطلعات الصليبية شمال الأندلس كما أسلفنا الذكر.

ولم يرحل يوسف بن تاشفين سنة 500هـ / 1106م إلا بعد أن ثبّت دعائم دولته، وأفشل حركة الاسترداد المسيحية، وأفلح في تحرير بعض المدن الأندلسية مثل بلنسية سنة 495هـ / 1102م، إضافة إلى مدن أخرى في شرق الأندلس مثل مربيطر Murviedro والمنارة والسهلة وشنتمرية وغيرها من المدن. وبالمثل نجح في تحقيق انتصارات في عدد من المواقع الأندلسية كقنسوجرة Consuegra وقونقة Cuenca وملجون Munzon سنة 494هـ / 1101م.

وخلفه ابنه علي بن يوسف الذي واصل سياسية أبيه في الجهاد، وتقليم أظافر الخطر النصراني وردعه، فتمكّن من تحقيق نصر مؤزّر في موقعة أقليش سنة 502هـ / 1108م، وهي المعركة التي قتل فيها عدد من قادة الجيش النصراني بالإضافة إلى مصرع الأمير شانجه بن ألفونسو السادس. كما أحرز انتصارات أخرى في معركتي القلعة سنة 523هـ / 1129م، وإفراغة سنة 528هـ/ 1135م، فضلا عن معارك أخرى أبدى فيها المرابطون ضروبا من البطولة والمقاومة. بيد أن ضعف شخصية الأمير علي بن يوسف، واستسلامه لأهواء الفقهاء، وتدخل النساء في شؤون السياسة، كلّ ذلك جعل زمام الأمور يفلت من يده، ممّا أفضى إلى ظهور ثورات في المغرب والأندلس، جعلت الدولة المرابطية تتراجع عن مقاومة الإسبان وتدخل في مرحلة الانكماش. فلماذا وقع هذا التراجع في وقت كانت الدولة المرابطية لا تزال في زهرة شبابها ؟

يعزى ذلك - فيما نرى - إلى نقط الضعف التي صاحبت بناء الدولة. فالدولة المرابطية قامت على أساس عسكري يعتمد على الموارد الحربية لتدعيم كيانها، وهو ما نتج عنه اقتصاد "مزدهر" سطحيا فقط، يمكن التعبير عنه "باقتصاد المغازي" الذي يكون قويا عندما تكون الفتوحات في أوجها، لكنه اقتصاد غير قابل للاستثمار والتنمية، إذ بمجرد ما تنقطع الغزوات وعمليات الجهاد، تنقطع موارده (غنائم، صفايا، مصادرات، خراج ...إلخ) وبذلك يتراجع هذا الاقتصاد، فتنهار معه الدولة. كما أن سلطة الفقهاء لعبت دورا في هذا التطور السلبي؛ فالمصادر تجمع على ما حظوا به من سلطات واسعة حتى أن يوسف بن تاشفين كان لا يمضي رأيا دون الرجوع إليهم. وبالمثل فإن ابنه عليا، "اشتد إيثاره لأهل الفقه والدين، وكان لا يقطع أمرا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء"، مما جعل هؤلاء يشكلون "ديكتاتورية دينية" على حدّ تعبير أحد الباحثين، لذلك فإن تسلط الفقهاء يعتبر من أكبر الثغرات التي نجم عنها خلل كبير في جهاز دولة المرابطين.

ومن المساوئ الأخرى التي أدت إلى تراجع دولتهم، بقاء الموروثات القبلية ماثلة داخل أجهزة الحكم، مما نشأ عنه احتكار المناصب السياسية من طرف قبيلة لمتونة دون غيرها. فالدولة المرابطية لم تنجح في تجاوز الإطار القبلي داخل منظومة الدولة المركزية الكبرى، وهو ما أدى إلى امتعاض القبائل الأخرى التي بدأت تتربص الدوائر بالمرابطين، وتقتنص الفرص للإطاحة بهم .

يضاف إلى ذلك ترفع الجيل الثاني من الأمراء المرابطين عن بداوتهم وميلهم إلى حياة الدعة والترف، وبسط أياديهم لحاشيتهم وجندهم المرتزق، وإنفاقهم الأموال الباهظة على بلاطاتهم، مما أدى إلى نقص خطير في بيت المال.

ومما زاد الوضعية المالية سوءا، اشتداد شوكة نصارى الأندلس، الشيء الذي أجبر عليا بن يوسف على مضاعفة النفقات العسكرية. كما أن الخطر الموحدي زاد الطين بلة، إذ اشتدت الحاجة إلى بناء الحصون والأسوار، وهي مشاريع مكلفة ماديا، وحسبنا أن عليا ابن تاشفين بنى سور مراكش لدرء خطر المهدي بن تومرت بنفقة بلغت سبعين ألفا من الذهب، ناهيك عن الخسائر الجسيمة التي نجمت عن تدهور الزراعات بسبب الاعتداءات المتكررة للقوى النصرانية.

ولمواجهة إفلاس بيت المال، اشتط علي بن يوسف في فرض مغارم غير شرعية، واستقدم الجباة من إسبانيا لاستنزاف الرعايا، مما أدى إلى توقفهم عن الإنتاج.

كل هذه القرائن تبين كيف أصبحت القاعدة المادية التي قامت عليها الدولة المرابطية هشة، وبالتالي تفسر التراجع الذي بدأ ينخرها .

وعلى كل حال، فإن الثورة الموحدية استغلت هذه الوضعية، فزادت من متاعب المرابطين. وعندما توفي علي بن يوسف سنة 537هـ / 1142م، كانت الدولة المرابطية تمر بظرفية عصيبة. ولم يكن الأمير تاشفين بن علي الذي خلفه في مستوى الرجل الذي يعيد هيبة الدولة، إذ تولى الحكم بعد أن كانت هذه الأخيرة قد آلت إلى الانهيار. وفي الوقت نفسه، كان ألفونسو السابع يوجه ضرباته القاصمة للحاميات المرابطية في الأندلس. وقد حاول هذا الأمير التصدي للموحدين بمطاردتهم في تلمسان، وهناك التحق به ابنه إبراهيم، فجدد له العهد، ثم بعثه إلى مراكش للدفاع عنها؛ بيد أن قوات الموحدين بقيادة أبي حفص تمكنت من إلحاق هزيمة ماحقة بالجيش المرابطي، ففر الأمير تاشفين ناجيا بنفسه في جنح الليل نحو إحدى سفن الأسطول المرابطي الراسية بساحل البحر، غير أنه سقط وهو على ظهر فرسه من حافة عميقة لم يتنبه إليها، فوقع قتيلا سنة 539 هـ / 1144م .

وبعد وفاة الأمير تاشفين بن علي، بويع ابنه إبراهيم في نفس السنة، وكان شابا صغيرا، وبقي مدة ثم نقض بيعته عمه اسحاق بن علي، ونشب الصراع بينهما، ثم اندلعت الثورات في جل المدن الأندلسية، واستقل القضاة بحكم مدن أو نواحي أصبحت تخضع لحكمهم بعيدا عن السلطة المركزية. وفي تلك الأثناء، زحفت جحافل الموحدين على تلمسان وفاس ومكناس لتصل إلى مراكش، وتضرب عليها حصارا مريرا انتهى باقتحام المدينة بسبب خيانة أحد قادة الجيش المسيحي الموالي للمرابطين، فدخلها الموحدون غلابا سنة 541هـ / 1146م، وقبضوا على أميرها أبي إسحاق إبراهيم بن تاشفين، وفتكوا به وبمن معه من أعيان دولته، وبذلك طويت آخر صفحة من صفحات تاريخ الدولة المرابطية.

رابعاً - المؤسسات :

1- المؤسسات السياسية والعسكرية:

مؤسسة الحكم :

شكلت الإمارة قمة المؤسسات السياسية في هرم الدولة المرابطية، وكان القائم بدفة أمورها "أمير المسلمين"، وهو لقب ظهر لأول مرة في عهد يوسف بن تاشفين، وقد ورد في مختلف النصوص، مع بعض الاختلافات عند المؤرخين، فصاحب كتاب الحلل الموشية يذكر أن أشياخ القبائل وأعيان الدولة طلبوا من الأمير السالف الذكر اتخاذ لقب "أمير المؤمنين" بعد وصوله للسلطة، إلا أنه رفض ذلك تحت ذريعة أن هذا اللقب خاص بخلفاء الدولة العباسية التي كان يدين لها بالطاعة والولاء، بيد أنهم ألحوا عليه في اتخاذ لقب يتميز به، فأجابهم إلى لقب "أمير المسلمين وناصر الدين"، وذلك سنة 466هـ / 1073م، بينما تذهب نصوص أخرى إلى القول إن هذا اللقب لم يظهر إلا بعد معركة الزلاقة سنة 479هـ / 1086م. ويفسر الاقتصار على لقب "أمير المسلمين" بنبذ يوسف بن تاشفين مبدأ الاستقلال عن الخلافة الإسلامية حتى يعطي الصبغة الشرعية لحكمه، وبدافع روح الوحدة العربية - الإسلامية التي كان يؤمن بها، لذلك بعث سفارة إلى الخليفة العباسي المستظهر بالله (487هـ - 512م)، يعلن له فيها عن ولائه وطاعته لمؤسسة الخلافة، فأجابه الخليفة المذكور بظهير يقلده فيه إمارة المغرب، ويحثه على الاستقامة والجهاد.

وكانت بيعة الأمير المرابطي تعقد عادة في المسجد ضمن البيعة العامة. وتجلت اختصاصاته في تسيير دفة الحكم والإشراف على معارك الجهاد، وتعيين الولاة والعمال على أقاليم الدولة، ومراقبة الجهاز الإداري بالطواف على أقاليم الدولة لمعرفة شؤون الرعية، أو استدعاء العمال والولاة ومحاسبتهم. كما كان من مهامه أيضا إقامة الحدود على الخارجين عن القانون. وقد جمع إلى جانب السلطة الزمنية، السلطة الروحية، ولو أنها ظلت في معظم الأحيان بيد الفقهاء. وكان يحيط نفسه بثلة من الكتاب الذين احتلوا مكانة مرموقة في الدولة.

وقد وجد أيضا منصب نائب الأمير الذي غالبا ما كان يشغله الابن المرشح لولاية العهد. وكانت مسؤولياته تتمثل أساسا في النيابة عن الأمير في الأندلس، وقيادة الحروب وقمع الفتن والتمردات، فضلا عما كان يتمتع به من سلطة مطلقة في حق تنصيب الولاة وعزلهم باعتباره ممثلا للأمير .

و بحكم نظام الوراثة الذي كان يؤطرالمؤسسة الحاكمة، عرفت الإمارة أيضا منصب ولاية العهد. وفي هذا السياق تتحدث المصادر بإسهاب عن الرسوم التي كان يتم بها تعيين وليّ العهد المرابطي، حيث كان يعقد مجلس مكون من زعماء القبائل والولاة والفقهاء، ثم يصرح المجتمعون بأنهم أجمعوا على ولي العهد الذي اختاره الأمير المرابطي، فيبايعونه بالطاعة تحت شروط يحددها الأمير المذكور، وهي البيعة المعروفة بالخاصة. وقد خلف لنا أحد المؤرخين وثيقة تعيين وليّ العهد يمكن من خلالها الوقوف على الشروط والمعايير التي كانت تتبع لاختيار. ومنذ مرحلة حكم الأمير يوسف بن تاشفين أصبح اسم ولي العهد يكتب على ظهرالعملة النقدية المرابطية .

الوزارة :

اختلف الدارسون بخصوص مؤسسة الوزارة في العصر المرابطي، ففريق يرى - استنادا على رأي ابن خلدون - أن المغرب لم يعرف خلال عصر المرابطين هذه المؤسسة، وأن مصطلح "الوزير" الذي ورد في بعض النصوص الراجعة للعصر المرابطي لا يعدو أن يكون قد استعمل تجوّزا مع قبل بعض المؤرخين. بينما يرى الفريق الثاني أن مؤسسة الوزارة كانت موجودة بدليل ورودها في "رسالة الحسبة" لابن عبدون و"سراج الملوك" للطرطوشي، وهي نصوص تكشف النقاب عن المركز المتميز الذي احتله الوزير ضمن نظم المرابطين. ونحن نميل إلى ترجيح أن الوزارة كمؤسسة سياسية إدارية لم توجد في العصر المرابطي، لكن وظيفة الوزير بمفهوم الشخص المساعد للأمير وجدت فعلا، خاصة إبان المرحلة الأندلسية. وقد أوردت كتب السير والتراجم عددا من أسماء الأعلام الذين استوزرهم الأمراء المرابطون.

الولاية :

تم تقسيم المغرب والأندلس في عصر المرابطين إلى عدة أقاليم إدارية لا تعطينا حولها المصادر سوى إشارات شحيحة؛ وداخل التقسيمات الإدارية الكبرى، وجدت تقسيمات محلية أشرف عليها إما قادة عسكريون، أو شيوخ القبائل الذين كانوا مسؤولين مباشرين أمام حاكم الولاية .

وعلى رأس كل إقليم تم تنصيب عامل إقليمي ينتمي في الغالب إلى لمتونة أو صنهاجة، يليه في الرتبة الإدارية الوالي المحلي. وقد تمتع عامل الإقليم بسلطة واسعة، إذ كان ممثل الأمير وخليفته في التدبير، وإقامة رموز السلطة، دون أن نغفل نفوذ الفقهاء عليه. وجرت العادة أن يعين الوالي

بظهير أميري احتفظت المصادر بنماذج منه. بيد أن عزل الولاة واستبدالهم ظلاً نهجا تسير عليه السلطة المرابطية للحد من نفوذهم، أو الحيلولة دون الثورة عليهم. ورغم ما تمتع به الوالي من حريات، فإنه خضع لمراقبة شديدة من طرف الدولة عن طريق الأخبار بالمتابعة أو التجسس والتحري في كل القضايا.

أما زعماء الثغور فقد أقرتهم السلطة المركزية في مناطقهم، وهو ما فعله يوسف ابن تاشفين ونحا منحاه ابنه علي رغم بعض السحب العابرة التي كدّرت علاقته مع بني هود؛ ولا يراودنا شك في أن زعماء الثغور تمتعوا باستقلال ذاتي.

وفي المناطق الجبلية، منح المرابطون الرؤساء المحليين حرية واسعة، وتركوهم مسؤولين عن قبائلهم، وكلفوهم بإخماد الثورات وإقرار الأمن؛ ومما يرجح هذا القول وصية يوسف بن تاشفين لابنه علي بأن "لا يهيج جبل درن ومن ورائه من المصامدة".

مؤسسة الجيش :

بما أن الدولة المرابطية دولة تقوم على الغزو والجهاد ، فقد وضعت ضمن أولويات اهتماماتها تنظيم مؤسسة الجيش وتأهيلها؛ وحسبنا أن عدد الجنود الذين لم يكن يتجاوز عددهم سنة 453هـ، أربعين ألفا، وصل بعد سنة واحدة فقط إلى مائة ألف فارس دون المشاة. واشتدت الحاجة إلى الجيش، فتم جلب فرق من السودان ومن شمال الأندلس ممن عرفوا باسم العلوج. كما وسع يوسف بن تاشفين دائرة التجنيد بإشراك القبائل المغربية الخاضعة للمتونة كزناتة والمصامدة، فضلا عن الأغزاز الأتراك وعرب بني هلال، وطوّر تسليح الجيش، مما سمح بتكوين قادة أكفاء عملوا على ترسيخ أركان الدولة المرابطية.

واستمر خلفاء يوسف بن تاشفين في العناية بتطوير الجيش المرابطي وتسليحه، وهو ما يفهم من قول ابن عذاري وهو بصدد الحديث عن إنجازات الأمير تاشفين بن علي إنه "قلّد الأسلحة وأوسع الأرزاق واستكثر من الرماة وأركبهم هممهم". كما لم يتوان المرابطون عن إنشاء الحصون والأسوار لاتخاذها مراكز دفاعية .

وإذا تأملنا مؤسسة الجيش المرابطي اتضح أنها كانت ترتكز على القبيلة كوحدة محاربة، وهو ما ينعكس في وصف المصادر عندما تكون بصدد الحديث عن الاستعداد لمعركة من المعارك إذ تستعرض كل القبائل المشكلة للجيش المرابطي؛ بيد أن العناصر الصنهاجية مثل لمطة ومسوفة وتكنة وجدالة ظلت أهم العناصر التي يتم تجنيدها. ويبدو أن قبيلة لمتونة كانت أكثر القبائل تمثيلا في الجيش، وهو ما يتضح من خلال جدول وزع فيه أحد الباحثين القادة العسكريين المرابطين حسب انتماءاتهم القبلية، فمن بين 45 قائدا، كان 38 من لمتونة، مقابل خمسة من مسوفة واثنيْن من جدالة.

2- المؤسسات الدينية :

القضاء والحسبة :

احتلت مؤسسة القضاء مركزا متميزا في فضاء المؤسسات المرابطية، خاصة أن القضاة كانوا من الفقهاء، علما بأن هؤلاء كان لهم باع طويل في حقل السياسة واتخاذ القرارات، إذ كان يوسف بن تاشفين "يصرف الأمور إليهم، ويأخذ فيها برأيهم ويقضي على نفسه بفتياهم". وكانت خطة القضاء المؤسسة الوحيدة التي لم يجر فيها التعيين على أساس قبلي. إلا أن السلطة القضائية صارت تتدخل في السلطة الإدارية حيث أصبح

للقضاة نفوذ واسع مكنهم من تعيين أو عزل عمال الأقاليم .

وكان تحت نظر القاضي صاحب الأحكام الذي كان يفصل في المنازعات بين الناس، وكان له حق التدخل في إقامة الحدّ عليهم كما فعل عبد الحق بن معيشة بفاس حين أراق الخمر وكسر الدنان وشدد على أهل المدينة المذكورة.

أما ولاية المظالم فظلت من اختصاص الأمير ونائبه، أو قاضي الجماعة الذي يتعين عليه أن ينصف الناس من ظلم الولاة. وتم الاحتفاظ بخطة الرد لاستئناف الأحكام، بينما التجأ بعض الناس إلى استفتاء العلماء فيما يخص المشاكل التي استعصى حلها لدى القضاة المحليين.

وتدخلت السلطة في تنظيم الأسواق، فأقرت محتسبا يراقب شؤونها ويحرص على سلامة السلع وصحة الموازين والمكاييل حماية للمستهلك. وكان المحتسب يعمل تحت إمرة القاضي. وقد وصلتنا من العصر المرابطي ثلاث رسائل في الحسبة تبين كلها واجبات المحتسب، وكيفية تنظيم الأسواق، إلا أن هذه الواجبات لم يجر الالتزام بها دائما، إذ كثرت عمليات الغش والتدليس التي تصدت لها كتب النوازل. ومن المحتمل أن تكون مثل هذه الحالات ناجمة عن ترك بعض المحتسبين مهمة مراقبة الأسواق لأعوانهم دون متابعة دقيقة .

المساجد :

أولى المرابطون عناية كبيرة لتأسيس المساجد الجديدة وإصلاح القديمة؛ فمنذ أن فتح يوسف بن تاشفين مدينة فاس "أمر ببنيان المساجد في أحوازها وأزقتها وشوارعها، وأي زقاق لم يجد فيه مسجداً عاقب أهله وأجبرهم على بناء مسجد فيه". كما أنّ ابنه علي اشتهر ببناء المسجد الجامع بمراكش، فضلا عن بنائه مسجدا بمدينة مرسية وصف بأنه "عظيم متسع عجيب البناء". وجرى الاهتمام بإصلاح هذه المساجد وتوسيعها على نطاق واسع، وإن اقتضى الأمر أحيانا هدم حوانيت التجار والأماكن المجاورة من أجل ربح المساحة الكافية للمصلين.

وعلى العموم فقد احتل المسجد مكانة هامة في سياسة المرابطين، إذ كان مقرا للدعاية السياسية حيث كانت تقرأ على منابره المناشير، وفيه تعقد البيعة، وتعلن القرارات السياسة العامة. فقد ورد عند ابن عذاري أن بيعة تاشفين بن علي تمت في المسجد الجامع الكبير بمراكش، كما استغله المهدي بن تومرت فأعلن من أحد المنابر أنه الإمام المنتظر. ولا يخفى الدور الهام الذي لعبه المسجد في مجال التعليم حيث اعتبر بمثابة مدرسة تعقد فيها حلقات الدراسة ويحج إليه الطلاب لأداء فرائض العبادة والتعلم.

3 - المؤسسات الاقتصادية :

بيت المال :

اعتمد بيت المال في بداية الدعوة المرابطية على المداخيل التي يقرها الكتاب والسنة من زكاة وعشور وغنائم وجزية، رغم أن الحاجة القوية للمال جعلت الدولة المرابطية تتناقض في سياستها المالية أحيانا مع ما يقره المذهب المالكي نفسه.

لكن على العموم فقد ظل بيت المال في مرحلة التأسيس يعتمد على الغنائم والأخماس وجزية أهل الذمة، وألغى يوسف بن تاشفين ما عدا ذلك من الضرائب غير الشرعية التي كانت تفرضها قبله الدويلات الزناتية. وأنشأ في البداية مؤسسة مالية تتميز بالبساطة، وهي عبارة عن قصبة

صغيرة خصصت لخزن الأموال والسلاح، وتطورت هذه المؤسسة بعد ذلك لتصبح ديوانا لمراقبة النفقات والمداخيل. والراجح أن هذه المؤسسة عرفت فائضا في عهد يوسف بن تاشفين بفضل الغنائم والأموال التي استأثرت بها جيوشه أثناء تدويخها للإمارات الزناتية، فضلا عن غنائم معركة الزلاقة، وذخائر ملوك الطوائف الذين ما كاد الأمير المرابطي المذكور ينتهي من استنزالهم حتى "امتلأت يداه بالأموال". ولا أدل على هذا الفائض الذي عرفه بيت المال في عهده مما رددته المصادر من أنه بقي به بعد وفاته ثلاثة عشر ألف ربع من الورق، وخمسة آلاف وأربعين ربعا من دنانير الذهب المطبوعة.

بيد أن بيت المال عرف ابتداء من عهد علي بن يوسف تقلصا كبيرا بسبب دخول الجيل الثاني من المرابطين في حياة الدعة والترف التي تتطلب إنفاق الأموال الباهظة، فضلا عن اشتداد شوكة نصارى الأندلس وظهور حركة الموحدين، مما أجبر الأمير المرابطي على مضاعفة النفقات العسكرية، وهو ما أسفر عن فراغ بيت المال. فعن تأثير الحركة الموحدية على خزينة الدولة يقول ابن الأحمر متحدثا عن الموحدين: "فهزموهم أربعين هزيمة حتى فرغت أموال المسلمين على قتالهم". ولعلَ هذا النص يترجم ما عرفته مؤسسة بيت المال من عجز فادح في أواخر الدولة المرابطية، مما جعل هذه الأخيرة تمطط دائرة الابتزاز الاقتصادي من خلال فرض ضرائب غير شرعية كضريبة التعتيب والقبالة والرحاب وغيرها من المكوس الجائرة .

دور السكة والعملة :

في الوقت الذي ألف البكري كتابه حوالي 460هـ / 1071م، كانت العملة لا تزال مختلفة بين المدن المغربية. غير أن "الثورة" التي أحدثها المرابطون تجلت في سكهم عملة ذهبية، حيث أنشأ يوسف بن تاشفين دارا للسكة بمراكش سنة 464هـ/ 1075م، وضرب فيها عملة بدراهم مدورة زنة الدرهم منها درهم وربع سكة من حساب عشرين درهما للأوقية. وكان الدينار الذهبي قد ضرب قبل ذلك بدار السكة بسجلماسة باسم الأمير أبي بكر بن عمر، وابنه إبراهيم، ثم ضرب دينار ذهبي أيضا باسم يوسف بن تاشفين بلغ وزنه ما يقارب أربعة غرامات، أو ما يفوقها بقليل .

واكتسب الدينار المرابطي شهرة عالمية في التجارة الدولية، وشاعت الثقة فيه حتى وصل إلى القسطنطينية، وإلى شمال إسبانيا، فعرف هناك باسم Metical أو Metcal وهي كلها صيغ مشتقة من كلمة مثقال العربية. كما عرف في الحوليات القشتالية كذلك باسم Maravedidoro أي الدينار المرابطي من الذهب، وعثر عليه أيضا في النصوص البرتغالية. وقد قام الباحث ميسيي Messier بتحليل كيمياوي لعدد من النقود المرابطية بالنسبة للفترة المتراوحة بين 1050 و1200م، فأثبتت دراسته الدور الكبير الذي قام به المرابطون في توزيع ذهب إفريقيا الغربية في منطقة حوض البحر المتوسط.

ومن القرائن على قوة الدينار المرابطي وشيوعه في أوروبا استعماله كوحدة نقدية في أوروبا المسيحية. ففي سنة 558هـ / 1162م، وعد كونت بروفانس أن يدفع لأحد ملوك الإفرنج مبلغ 12,000 دينار مرابطي. وعثر أيضاً على دنانير مرابطية في دفاتر دير دلكمب Delcamps جنوبي مدينة تولوز وسانت رومان، فضلا عن دنانير مرابطية أخرى وجدت في قشتالة وأشتريس.

ولعل هذه الشهرة الدولية للدينار المرابطي،

هي التي جعلت أحد الباحثين يطلق عليه اسم "دولار القرون الوسطى"، بفضل ما أحدثه من انقلاب في التاريخ الاقتصادي لإفريقيا وأوروبا، إذ تم تغيير النظام النقدي في غرب أوروبا من قاعدة الفضة إلى قاعدة الذهب، وظل التعامل يتم بواسطته حتى القرن الـ 10هـ / 16م.

لكن من المحتمل أن تكون قيمته قد انخفضت في المرحلة الأخيرة من عصر المرابطين نتيجة الاضطرابات التي عرفها المغرب آنذاك، إلا أنه عاد من جديد إلى قوته بعد استقرار الأمور. ويمكن تفسير استمراريته رغم سقوط دولة المرابطين بجودة ذهب غانة الذي استمر يتدفق على أوروبا حتى العصر الموحدي. وتعدّ هذه الظاهرة الاقتصادية اللافتة للانتباه من القضايا الهامة التي ينبغي أن يتجه إليها البحث التاريخي.

الأسواق :

اعتنى المرابطون بمسألة الأسواق، فقاموا بإصلاحها وتنظيمها. ويمكن تصنيف الأسواق المرابطية في أربعة أنواع: فهناك الأسواق العسكرية التي كانت تصحب عادة الجيش في تنقلاته أثناء غزواته، والإشارات حولها لا ترد إلا بشكل باهت في المصادر التي استعملناها على الأقل. ففي سياق حديث ابن عذاري عن إحدى المعارك التي خاضها المرابطون ضد السيد القنبيطور يقول: "ولحق الجيش بالأندلس ... وأقبلت دواب الميرة من كل صقع"، مما يجعلنا نستنتج أن هذه الأسواق كانت تتحرك متتبعة سير اتجاه الجيوش الغازية.

أما الصنف الثاني فهو الأسواق الأسبوعية التي كانت تعقد في أيام معينة من الأسبوع كالأحد أو الثلاثاء والخميس والجمعة، وأحيانا ينعقد سوقان في يوم واحد بنفس المدينة.

وبالإضافة إلى الأسواق الأسبوعية، وجد صنف ثالث وهو الأسواق الموسمية، ونسوق بهذا الخصوص مثال سوق رباط أصيلة الذي يقول عنه البكري إن به "سوق جامعة ثلاث مرات في السنة"، وعبارة (جامعة) لها دلالة تفيد أن التجار كانوا يفدون عليه من كل أنحاء المغرب.

وكانت هذه الأسواق تعج بضروب السلع وأصناف المتاجر، ويتقاطر عليها التجار من كل حدب وصوب. وحسبنا دليلا على ذلك أن سوق أغمات "كان يذبح فيها أكثر من مائة ثور وألف شاة وينفد في ذلك اليوم جميع ذلك". وثمة أسواق أخرى كان يجتمع فيها تجار فاس والبصرة وسجلماسة. وبلغت بعض الأسواق من كثرة الازدحام حدا جعل الناس لا يسمعون بعضهم بعضا لكثرة الهرج والضوضاء.

أما الصنف الرابع من الأسواق، فهو الأسواق اليومية الموجودة بكيفية دائمة في كل مدينة من المدن المغربية والأندلسية، وقد تحدثت عنها كتب الحسبة بإسهاب .

وشهدت جميع هذه الأسواق تنظيما هاما إذ انفردت كل سلعة بمكان معين من السوق، ففي مراكش وجد سوق الدخان والصابون والصفر والمغازل. وعرفت فاس بدورها مثل هذا التنظيم، إذ يشير ابن القطان أثناء سرد خبر حريق شب في أحد أسواقها سنة 533هـ / 1138م إلى أن النار أصابت عقبة الخرازين وسوق الثياب والقراقين، ولم ينج من هذه الكارثة غير سوق البقالين.

ومن مظاهر تنظيم الأسواق وجود قيساريات متخصصة في بيع الأثواب وغيرها من السلع المعروضة، ولكل قيسارية أمينها الذي يرعى مصالح التجار ويمثلهم أمام السلطة.

ومن المميزات الأساسية لأسواق الأندلس وضع تسعيرة لأثمان المنتجات الاستهلاكية رعاية للمصلحة العامة. وكثيرا ما تدخلت الدولة لتحديد أسعار المنتجات الغذائية حتى لا يكون فيها غبن للتاجر أو إرهاق للمستهلك.

المؤسسات الصناعية (دور الصناعة):

تنوعت دور الصناعة في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، ويمكن إجمالها فيما يلي:

دور الصناعة الحربية التي سادت كنتيجة طبيعية لاهتمام المرابطين بمسألة الجهاد؛ فمدينة وشقة بالأندلس كانت بها دور لصناعة الدروع ، أما ألمرية فبها "دار الصناعة لإنشاء الحراريق لقتال العدو". كما كان بمدينة نول لمطة في جنوب المغرب دار مخصصة لصناعة الدرق اللمطية. ووجد بقرمونة دار صناعة كانت قد شيدت منذ هجومات النورمان في القرن الـ 3هـ / 9م، واستمرت حتى الحقبة المرابطية "مخزنا للسلاح". وثمة إشارات إلى وجود بعض دور الصناعة المخصصة لإنتاج الحديد في مدينة شلطيس.

أما دور صناعة الأخشاب، وهي صناعة ارتبطت بالسياسة العسكرية الجهادية للمرابطين كذلك، فقد وجدت في بعض المدن الأندلسية مثل طرطوشة ولقنت ودانة وبلنسية وقادس وألمرية؛ وقد أنشئت هذه الدور أساسا لبناء الأسطول المرابطي. كما اشتهرت بعض المدن المغربية في الساحل المتوسطي خاصة سبتة وطنجة بدور الصناعة المخصصة لإنشاء السفن الحربية، وقد لقيت عناية خاصة من جانب السلطة المرابطية لاستغلالها لحماية الشواطئ من القرصنة المسيحية.

دور صناعة السلع الكمالية : إلى جانب دور الصناعات الحربية، برزت أيضا دور صناعة السلع الكمالية، حيث اشتهرت دور الصناعة بألمرية بإنتاج مواد الترف مثل دار طراز الحرير والحلل والديباج وغيرها. كما وجدت بها دار لصناعة الزجاج والنحاس، فضلا عن صناعة الوشي التي طبقت شهرتها الآفاق، بينما عرفت دور الصناعة في مالقة بصناعة الفخار المذهب الذي لا نظير له، في حين ارتبط اسم مدينة بسطة بدار الطراز التي كانت تصنع البسط من الديباج، وبالمثل، وجدت بمدينة شاطبة دار لصناعة الورق الذي ظل من نصيب فئة الكتاب ورجال الدولة لارتفاع ثمنه.

دور الصناعات الاستهلاكية : كانت هذه المؤسسات الصناعية مخصصة لإنتاج المواد الغذائية مثل معاصر الزيتون، وصناعة الأسماك، ودور صناعة الأثواب، فضلا عن معاصر السكر التي انتشرت بجنوب المغرب، خاصة في مدينتي تارودانت وإيجلي، ثم العاصمة مراكش التي بلغ عدد معاصرها نحو أربعين معصرة فاقت بها كل الكميات المنتجة في منطقة السوس.

والجدير بالذكر أن دور الصناعات التي أتينا على ذكرها عرفت في المرحلة الأخيرة من حكم المرابطين كسادا أدى إلى ضعف إنتاجها بسبب الفتن والقلاقل التي عصفت بالبلاد، وكثرة المغارم التي طالت أرباب المصانع والمستخدمين.

يتضح مما تقدم أن الدولة المرابطية كانت دولة مؤسسات تنوعت ما بين المؤسسات السياسية والدينية والثقافية والاقتصادية، وقد عملت هذه المؤسسات على المحافظة على النظام العام وإعطاء الحكم المرابطي هيبته ورموز قوته .

الخلاصة العامة أن المرابطين حققوا إنجازات سياسية وحضارية شكلت معلمة هامة لا في تاريخ المغرب فحسب، بل في تاريخ الإسلام برمته، إذ تصدوا لمواجهة الضعف الذي بدأ ينخر

الخلافة الإسلامية مع مطلع القرن الـ 5هـ / 11م، وتأسيس دولة مركزية ذات مؤسسات قوية سياسيا واقتصاديا رغم ما شابها من نقائص. كما نجحوا في السيطرة على تجارة العبور التي كانت تحوي أهم بضائع التجارة الدولية وهي الذهب والعبيد، وأفلحوا في نشر الإسلام في ربوع السودان. بيد أن أهم إنجازاتهم تمثلت في الدور الوحدوي الذي لعبوه طيلة فترة حكمهم حيث تمكنوا من توحيد القبائل المغربية تحت سلطة واحدة، وربطها بدولة الخلافة دون أي نزعة للاستقلال أو الجموح نحو الانفصال. كما حققوا إنجازا كبيرا يتمثل في توحيد الأندلس وضمها إلى المغرب، ناهيك عن المعارك المظفرة التي مكنتهم من ردع الأطماع الصليبية في هذا البلد، وبذلك شكلوا قوة إنقاذ حقيقية كان العالم الإسلامي في أمسّ الحاجة إليها لمواجهة التحديات الخارجية آنذاك .

أ.د. إبراهيم القادري بوتشيش

جامعة مكناس

شجرة أمراء الدولة المرابطية ومراحل حكمهم

الأمراء المرابطون في المرحلة الصحراوية



الأمراء المرابطون في المرحلة المغربية - الأندلسية



المصادر والمراجع

أولاً - المخطوطات :

- ابن الحاج، أبو عبد الله بن الحاج الشهيد (توفي بقرطبة في 26 رمضان عام 529هـ / 1134م) : نوازل ابن الحاج ، مخ خ.ع.ر ، رقم ج 55.
- الزياني : الترجمان المعرب في دول المشرق والمغرب، مخ خ.ع.ر ، رقم د 658.
- مؤلف مجهول (عاش في العصر الغرناطي) : ذكر بلاد الأندلس وصفاتها وفضائلها وأصقاعها، مخ خ.ح ، رقم ج 85.
- مؤلف مجهول: (بداية القرن الـ 8هـ / 14م) : كتاب في الفقه المالكي، خ.ع. و.م . ر ، رقم 2198 .

ثانياً - المصادر المنشورة :

- ابن الأبّار، أبو عبد الله بن أبي بكر القضاعي (ت 658هـ / 1259م) : الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة (ط1)، 1963.
- ابن أبي زرع، أبو الحسن علي بن عبد الله (توفي حوالي سنة 741هـ / 1340م) : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، 1973.
- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد ابن عبد الكريم الجزري (ت 630هـ / 1232م) : الكامل في التاريخ، الجزء 8، بيروت، 1978.
- ابن الأحمر، إسماعيل بن يوسف (عاش في القرن الـ 8 هـ / 14م) : بيوتات فاس الكبرى، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، 1972.
- ابن بسام، أبو الحسن علي الشنتريني (ت542هـ / 1142م) : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج2، .م1، و2، تحقيق إحسان عباس، ليبيا - تونس، 1981.
- ابن بلكين، الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة (معاصر) : مذكرات الأمير عبد الله المسماة بكتاب التبيان، نشره ليفي بروفنسال، القاهرة، 1955.
- ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي، (ت 456هـ / 1063م) : رسالة التلخيص لوجوه التخليص، رسالة نشرت مع رسائل أخرى بعنوان: "الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى" تحقيق إحسان عباس، 1960.
- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد (776هـ / 1374م) : أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، القسم الثالث، تحقيق وتعليق أحمد مختار العبادي ومحمد بن إبراهيم البيضاء، 1964.
- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد (776هـ / 1374م) : أعمال الأعلام - القسم الأندلسي، تحقيق بروفنسال، بيروت، 1955.
- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد (776هـ / 1374م) : الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد بن عبد الله عنان، القاهرة، 1974.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ /

1406م) : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر أو تاريخ ابن خلدون، تحقيق خليل شحادة ، بيروت، 1981.

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد ت(808هـ / 1406م) : المقدمة، الجزءان 2 و3. تحقيق عبد الواحد، 1952.

- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت781هـ / 1379م) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، (د.ت).

- ابن دحية، أبو الخطاب عمر بن حسن بن علي ابن محمد (ت 633هـ / 1216م) : المطرب في أشعار أهل المغرب. تحقيق إبراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد وأحمد بدري، مراجعة طه حسين، القاهرة، 1955.

- ابن الزبير، أحمد بن إبراهيم بن الثقفي العاصمي الجياني (ت 708هـ / 1308م) : كتاب صلة الصلة (قطعة من المجلد الثاني) نشرها ليفي بروفنسال، الرباط، 1938.

- ابن الزيات، أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي (ت627هـ / 1229م) : التشوف إلى رجال التصوف ، تحقيق أحمد التوفيق - البيضاء، 1984.

- ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى بن عبد الملك الأندلسي (ت 685هـ / 1286م) : المغرب في حلى المغرب، الجزء الثاني ، تحقيق شوقي ضيف، سلسلة ذخائر العرب، القاهرة، (د.ت).

- ابن عبد الملك، أبو عبد الله محمد الأوسي الأنصاري (ت703هـ / 1303م) : الذيل والتكملة، السفر الخامس، القسمان الأول والثاني، تحقيق إحسان عباس، بيروت، (د.ت).

- ابن عبدون، أبو محمد عبد المجيد بن عبد الله (كان على قيد الحياة في منتصف القرن الـ 6هـ / 13م) : رسالة في القضاء الحسبة، نشرها ل. بروفنسال ضمن مطبوعات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1955.

- ابن عذاري، أبو عبد الله محمد المراكشي (عاش بعد سنة 712هـ / 1312م) : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء 4، تحقيق س. كولان وبروفنسال، بيروت، 1980.

- ابن غازي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن غازي العثماني المكناسي (ت 914هـ / 1508م) : الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، الرباط، 1952.

- ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي (ت 403هـ / 1012م) : تاريخ علماء الأندلس، ج1، القاهرة، 1966.

- ابن القاضي، أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي (ت 1025هـ / 1616م) : جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، القسمان الأول والثاني، الرباط، 1973.

- ابن القطان، أبو علي حسن بن محمد بن عبد الملك بن يحيى الكتامي (ت628هـ / 1230م) : نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان (الجزء 6 من الكتاب الأصلي)، نشره محمود علي مكي، تطوان، (د.ت).

- ابن الكردبوس، أبو مروان عبد الملك بن الكردبوس التوزري (ت 573هـ / 1177م) : تاريخ الأندلس، تحقيق أحمد مختار العبادي، المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، 1971.

- الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن إدريس (ت 560هـ / 1164م) : المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق محمد حاج

صادق، الجزائر، 1983.
- الأصفهاني، أبو عبد الله محمد بن محمد بن العماد (ت 597هـ / 1200م) : خريدة القصر وجريدة العصر، ج 2 من القسم 4، تحقيق الدسوقي وعبد العظيم، القاهرة، 1964.
- البكري، عبيد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب (ت 487هـ / 1094م) : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشره دي سلان، الجزائر، 1911.
- الحضرمي، أبو بكر بن عمر المرادي، قاضي المرابطين على الصحراء (ت489هـ / 1095م) : كتاب الإشارة في تدبير الإمارة، تحقيق سامي النشار، البيضاء، 1981.
- الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الصنهاجي (ت 710هـ / 1310م) : الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1984.
- السعدي، الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران التنبكتي (كان حيًّا سنة 1065هـ / 1654م) : تاريخ السودان، نشره هوداس وبنواست، طبعة بردين بمدينة أنجي، 1889.
- السقطي، أبو عبد الله محمد المالقي (عاش في القرن الـ 6 هـ / 13م) : رسالة في آداب الحسبة، نشرها بروفنسال، باريس، 1931.
- الطرطوشي، أبو بكر محمد بن الوليد الهري المالكي (ت520هـ / 1126م) : سراج الملوك، مصر، 1319هـ.
- عياض، القاضي، أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي (544هـ / 1149م) : ترتيب المدارك وتقريب المسالك، ج 2، تحقيق عبد القادر الصحراوي، المحمدية، (د.ت) ، ج 7-8 : تحقيق سعيد أحمد أعراب، المحمدية 1982-1983.
- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت 821هـ/ 1418م) : صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج 5، نشر المؤسسة العامة للتأليف، القاهرة، (د.ت).
- المراكشي، عبد الواحد (ت 581هـ / 1185م) : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، البيضاء، 1978.
- مؤلف مجهول (عاش في القرن الـ 6هـ / 13م) : كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، تحقيق وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، البيضاء، 1985.
- مؤلف مجهول (عاش في القرن الـ 8هـ / 14م) : كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق د. سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، مطبعة النجاح الجديدة، طبعة البيضاء 1979-1399هـ.
- مؤلف مجهول (عاش في القرن الـ 7هـ / 13م) : كتاب مفاخر البربر، نشره بروفنسال ، طبعة الرباط، 1934 .
- الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد السلاوي (ت 1315هـ / 1897م) : كتاب الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج 2، البيضاء، 1954.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (733هـ / 1232م) : نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق حسين نصار - مراجعة عبد العزيز الأهواني، القاهرة، 1983.
- ياقوت الحموي، أبو عبد الله بن عبد الله الرومي (ت 626هـ / 1228م) : معجم البلدان، بيروت، (د.ت).

ثالثاً - المراجع العربية والمعربة :

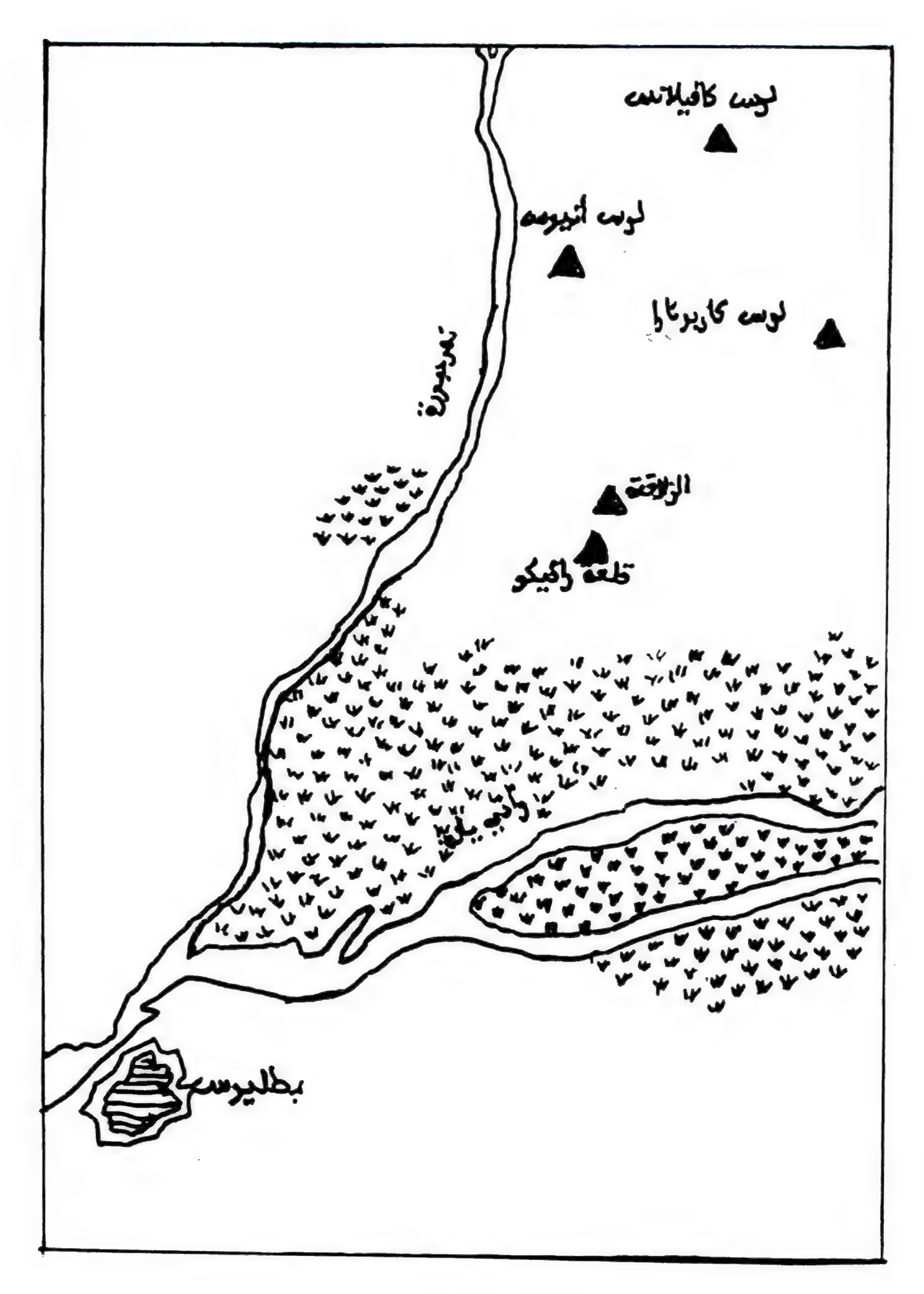
- إسماعيل، محمود عبد الرازق : مغربيات، دراسات جديدة، فاس، 1977.
- أشباخ، يوسف : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمه ووضع حواشيه محمد عبد الله عنان، القاهرة، 1958.
- أبو العزم، محمد داود : الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال إفريقيا حتى قيام دولة المرابطين، مكة، 1985.
- بروفنسال، ليفي : الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة السيد عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي، مراجعة لطفي عبد البديع، دار نهضة مصر للطبع والنشر.طبعة القاهرة، (د.ت).
- بوتشيش، إبراهيم القادري : المغرب والأندلس في عصر المرابطين : المجتمع - الذهنيات - الأولياء ، بيروت، 1993.
- جان، وجيروم طارو : أزهار البساتين في أخبار الأندلس والمغرب على عهد المرابطين والموحدين، تعريب أحمد بلفريج، ومحمد الفاسي، الرباط، 1349هـ.
- الجيدي، عمر : محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، البيضاء، 1987.
- حركات ، إبراهيم : النظام السياسي والحربي على عهد المرابطين، البيضاء، (د.ت).
- حركات ، إبراهيم : المغرب عبر التاريخ، ج1، البيضاء، 1965.
- حسن، علي حسن : الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس : عصر المرابطين والموحدين، القاهرة، 1980.
- سعدون، عباس نصر الله : دولة المرابطين في المغرب والأندلس: عهد يوسف بن تاشفين، بيروت، 1985.
- شعيرة، عبد الهادي : المرابطون - تاريخهم السياسي، القاهرة، 1969.
- الطيبي، أمين توفيق : دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، تونس، 1984.
- عنان، محمد عبد الله : عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس القسم الأول: عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية، القاهرة، 1964.
- عنان، محمد عبد الله : دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، القاهرة، 1969.
- كنون، عبد الله : النبوغ المغربي في الأدب العربي، بيروت، 1975.
- مؤنس، حسين : معالم تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة، 1980.

رابعاً - الدوريات :

- العبادي، أحمد مختار : الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين، مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية، عدد 21 سنة 1967.
- الطيبي، أمين توفيق : جوانب من النشاط الاقتصادي في المغرب في القرن الـ 6هـ / 12م من خلال رسائل جنيزة القاهرة، مجلة البحوث التاريخية، عدد 2، يونيه 1984، ص 443-488 .
- فياض، أبو دياك صالح : نظام الإدارة في المغرب والأندلس أيام المرابطين، مجلة المؤرخ العربي، العدد 35، سنة 1409- 1988 .
- مكي، علي محمود: وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، المجلدان 7-8 سنة 1959-1960 . ص 109-192 .

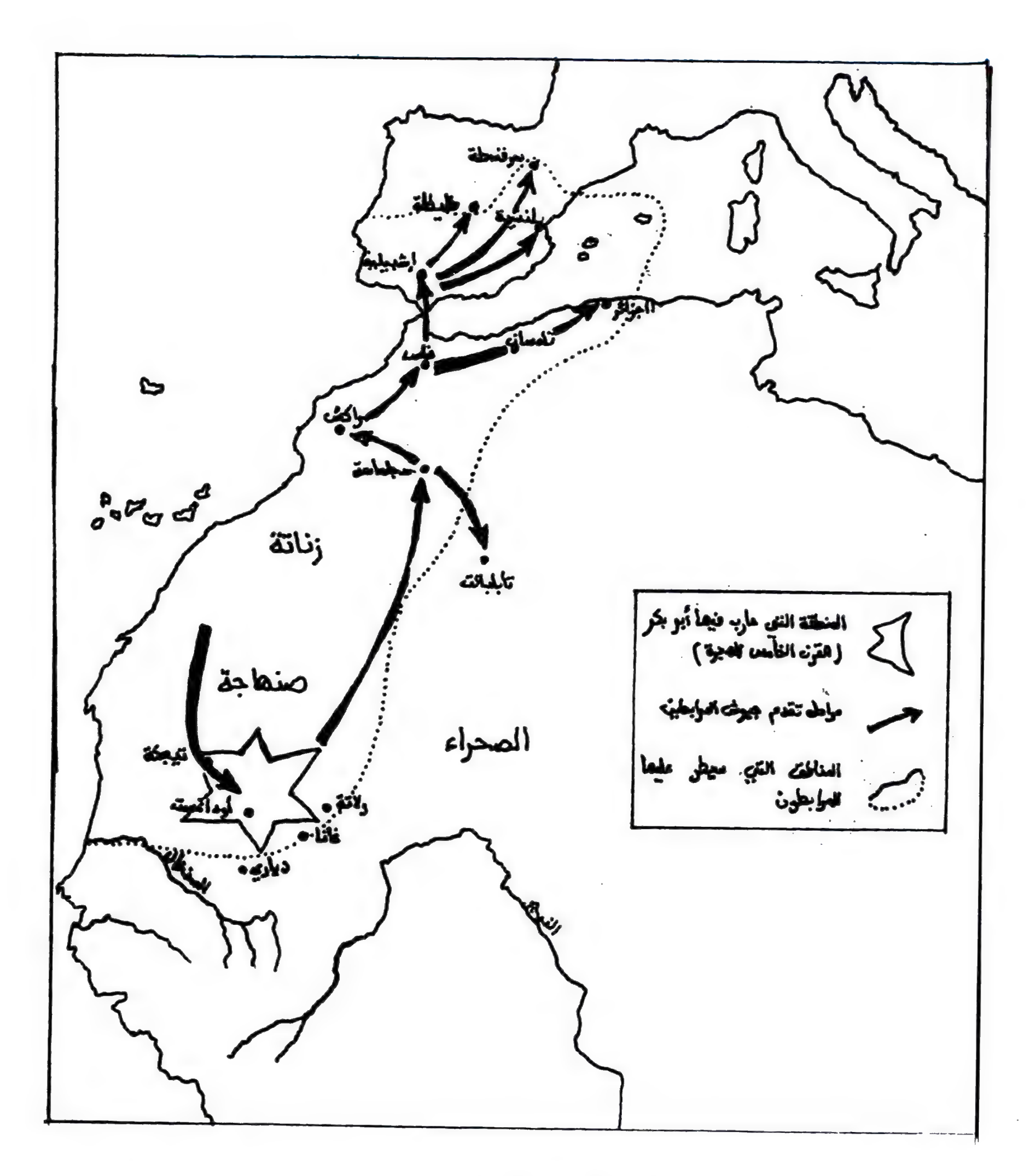
خامساً - المراجع الأجنبية :

- Bosh Villa (J) : Los Almoravides. Tetuan, 1956.
- Codera (Fransisco) : Decadenciay disparicion de los Almoravides en Espagna. Zaragoza, 1899.
- Deverdun (Gaston) : Marrakech dés origines à 1912, T : I. Rabat Editions techniques Nord - Africaines, 1959.
- Dozy (Erneiht) : Histoire des Musulmans d´Espagne jusqu´a la conquête de l´Andalousie par les Almoravides. T III, Leyden, 1932.
- Gautier (E. Felix) : Le passé de l´Afrique du Nord : les siècles obscurs, Paris , Payot, 1973.
- Godard (L) : Description et histoire du Maroc , T I, Paris – Madrid - Alger, 1860.
- Lagardere, (Vincent) : Esquisse de l´organisation militaire des Murabitun à l´époque de Yusuf ben Tachfine. R.O.M.M no 27. 1er sem . 79. pp 99-114 .
- Laroui, (Abdellah) : Histoire du Maghreb : Essai de synthèse T : 1, Paris, 1975.
- Lopez : Le Facteur économique dans la politique Africaine . R. H. 1947, pp. 178-186 .
- Marçais (Georges) : La Berbérie Musulmane et l´Orient au Moyen Age, Paris, 1946.
- Mercier : Histoire de l´Afrique Septentrionale (Berberie) depuis les temps les plus reculés jusqu´à la conquête française, T. II, Paris, Ernest, 1888.
- Messier (R.A) : The Almoravid west African gold and the Mediterranean bassin J.E.S.H.O. 17 (1974) pp 31-47 .
- Mones (Hussein) : Les Almoravides, Esquisse historique, R.I.E.I.M vol. XIV 1967-68 pp 49-91.
- Provensal, Levy : Réflexions sur l'empire almoravide au début du 12ème siècle, Alger, 1932.
- Norris : New evidence of the life of Abdullah Ben Yassin and the origin of the Almoravid movement J.A.. T XII , 27-1971 .
- Terrasse (Henri) : Histoire du Maroc des origines à l´établissement du Protectorat, Casablanca, 1946.
- Terrasse (Henri) : L´art de l´empire Almoravide : ses sources et son évolution, S.I., T.III, 1955. pp : 25-34 .
- Terrasse (Henri) : Conséquences d´une invasion berbère : le rôle des Almoravides dans l´histoire de l´Occident, Mélanges Louis Halphen , Paris, 1951.
- Villard(G) : Les Touaregs au pays du Cid : Les invasions almoravides en Espagne du 11ème au 12ème siècle. Paris.



تصميم لساحة معركة الزلاقة

المرجع: مذكرات التراث المغربي، م 2، ص 133



الدولة المرابطية في أقصى اتساعها

المرجع: مذكرات من التراث المغربي، م 2، الطابع الإسلامي، تأليف جماعي، الرباط 1984

4 - الموحّدون

(524 - 668هـ / 1130 - 1269م)

يحتلّ الموحّدون مكانة متميزة في تاريخ المغرب الإسلامي لما قاموا به من دور هامّ في فترة حرجة من فتراته.وذلك أن الأوضاع السياسية في سائر أقطاره أصبحت، في أوائل القرن الخامس هـ / الحادي عشر م، تتجه نحو التّدهور، مما أدّى إلى سقوط الخلافة الأموية بالأندلس، وقيام دويلات ملوك الطوائف بها. وشهدت بلاد إفريقية انقسام إمارة صنهاجة، التابعة لدولة الفاطميين، إلى إمارتي بني زيري شرقا، وبني حمّاد غربا. فكان لانقسام بلاد المغرب الإسلامي إلى دويلات عديدة أكبر الأثر في تشتّت قواه الدفاعية، بالإضافة إلى ما كان قائما بين بعضها من صراع وفتن، في غالب الأحيان.

غير أن ظهور دعوة المرابطين في الصحراء الغربية، وامتدادها إلى بلاد المغربين الأقصى والأوسط، ثم معظم أنحاء الأندلس، سمح بتأسيس إمبراطورية شكّلت بادرة لتوحيد أقطار المغرب الإسلامي، ومحاولة لجعلها بمثابة جبهة دفاع عن أراضي مسلمي الأندلس المهدّدة بهجمات حركة الاسترداد الإسبانية، التي أدّت، سنة 478هـ / 1085م، إلى استيلائها على مدينة طُلَيْطِلة، وجعلها عاصمة دولة قشْتالة.

(أ) نشأة حركة الموحّدين :

لقد ظهرت حركة الموحّدين بناحية السوس الأقصى، وهي منطقة جبلية تقع في الجنوب الغربي من المغرب الأقصى، بين وادي تانْسِيفْت شمالاً ووادي سُوس جنوبًا. وكانت تقطنها عناصر تنتمي إلى مجموعة قبائل المصامِدَة، وتعيش حياة الشظف والفقر في جبال تلك المنطقة بما كانت تسمح به من الزراعة والرعي. وكان المصامدة منتشرين في معظم المناطق الجبلية بالمغرب الأقصى، وينقسمون إلى ثلاثة بطون رئيسية، هي غُمارَة في جبال الريف، شمالاً، وبَرْغواطة في منطقة تامَسْنا، غربي وسط المغرب الأقصى، ومَصامِدَة السُّوس الأقصى، في الجنوب الغربي من الأطلس الكبير.

والظاهر أن مصامدة المغرب الأقصى اعتنقوا الإسلام أيام انتشاره في شمال إفريقيا إثر حركة الفتح الإسلامي. غير أن ما ينبغي أخذه بعين الاعتبار من عوامل مُعيقة مثل عائق العُزْلة في المناطق الجبلية، وعائق صعوبة انتشار اللغة العربية والثقافة الإسلامية فيها، لم يسمح لأغلبية أهاليها باستيعاب تعاليم الإسلام بما تتطلبه من التعمُّق والدِّقَّة، مِمَّا جعل معرفة أهالي هذه المناطق للإسلام سطحية، وأدّى إلى خلطها برَوَاسِب من عادات وتقاليد الديانات الوثنية القديمة. وفي هذا الصدد، يذكر ابن خلدون أن بعض رؤساء مصامدة المغرب الأقصى ادَّعوا العصمة والمهدوية أو النبوَّة، خلال عهد الأدارسة والفاطميين، في منطقتي الريف والأطلس الكبير، مثل حَاميِم المتنبي في ناحية تِطْوَان، وصالح ابن طريف في دولة

بَرْغواطة. ويمكن القول إن هذه الأوضاع كانت تشكّل، في أوائل القرن السادس للهجرة، الثاني عشر للميلاد، بيئة سياسية وثقافية واعتقادية ملائمة لنشأة حركة الموحّدين.

1 - ابن تومرت والدعوة الموحّدية :

لقد قامت دولة الموحّدين بفضل دعوة ابن تومرت، التي ظهرت سنة 515هـ / 1121م في منطقة السوس الأقصى. وقد وصفه المؤرخون بالتقوى وسعة العلم والفصاحة والعدل، وذكروا أنه كان كفئًا في مجال التنظيم ونشر الدعوة، متقشفًا في مأكله وملبسه، زاهدًا في ملذات الدنيا، قويَّ الإيمان برسالته، حريصًا على تقليد الرسول في شؤون الدعوة وكثير من أحوال حياته.

كان ابن تومرت، منذ صغره، يميل إلى العبادة والدراسة. فحفظ القرآن في قريته، ثم غادرها حوالي سنة 501 هـ / 1107 م لطلب العلم، فانتقل إلى مراكش، ومكث بها مدة قصيرة. ثم توجه إلى الأندلس، حيث أخذ بقرطبة على مشاهير علمائها، ثم سار إلى المرية، وركب البحر إلى المشرق، فتوجه إلى الإسكندرية، وأخذ بها عن أبي بكر الطُرْطوشِيّ، ثم اتجه إلى مكة لأداء فريضة الحج، وسار إلى بلاد الشام، حيث أخذ عن الإمام أبي عبد الله الحضرمي، ثم توجّه إلى بغداد، فلقي بعض تلامذة أبي حامد الغزالي، واطلع على بعض مؤلفات هذا الأخير، وبخاصة كتاب "إحياء علوم الدين" في الاعتقاد وأصول الدين، و"المستَصْفَى" في أصول الفقه. وعُنِيَ بالعلوم الدينية من اعتقاد وتفسير وحديث وغير ذلك. والظاهر أنه أدرك، أثناء رحلته إلى المشرق العربي، ما أصاب تلك البلاد من بلايا، نتيجة ضعف الخلفاء العباسيين وخطر هجمات الصليبيين. ولا يُستَبْعَد أنّ غيرته على الإسلام جعلته يفكر في إصلاح ما أدخِل فيه من بدَع، ويشعر بضرورة توحيد صفوف المسلمين، والتصدي لمواجهة العدوان الصليبي.

وبعد حوالي عشر سنوات، عاد ابن تومرت إلى بلاده، مارا بالإسكندرية ثم طرابلس فالمهدية وتونس وقسنطينة ثم بجاية، عاصمة بني حماد آنذاك، واستقر بقرية قريبة منها تدعى مَلاَّلة، حيث لقي عبد المؤمن بن علي، أشهر رفاقه. ثم واصل ابن تومرت ورفاقه سيرهم نحو الغرب، مارّين بتِلِمْسان وفاس ومُرَّاكُش، عاصمة دولة المرابطين، وهو يقوم بتغيير المنكر في كل المدن، وبالتدريس في المساجد، معرِّضًا نفسه تارة لغضب الناس والعمَّال، وأخرى للطرد.

ثم توجه ابن تومرت، صحبة رفاقه، إلى ناحية السوس الأقصى، حيث واصل مهمته الإصلاحية وسط قومه المصامدة. غير أن ما شاهده أثناء عودته من إعراض الأمراء المرابطين وولاتهم وعمَّالهم وفقهاء دولتهم، وتقاعُدِهم عن إصلاح المجتمع، وفشوِّ الجهل في البلاد، قد جعله يضيف إلى المهمة الأخلاقية التي أقدم عليها جوانب اعتقادية وتشريعية وسياسية.

2 - الحركة الموحّدية في عهد ابن تومرت :

لم يصرِّح ابن تومرت في أول الأمر بالجانب السياسي من دعوته، وإنما اقتصر على الإصلاح الديني وتعليم الناس العقيدة الإسلامية الصحيحة. ثم انتقل إلى قرية تِينْمَل، شمال السوس الأقصى، وجعلها مقرا لدعوته لحصانة موقعها. وهناك صرَّحَ بدعوته، وبايعه الناس على الطاعةِ، ونصرةِ نظريةِ التوحيد وفق آراء الأشاعرة، ومحاربةِ المرابطين، الذين سماهم المجسِّمين. وادَّعى أنه المهدي المنتظر، الذي يأتي لنشر العدل في الأرض بعد أن

مُلِئتْ جورًا، مثلما ادَّعى ذلكَ عُبَيْد الله مؤسس دولة الفاطميين، وأنه من نسل علي بن أبي طالب، وأن اسمه محمد بن عبد الله، وادَّعَى أيضًا العِصْمَةَ.

وبعد أن تمَّتْ البيعة في تينمل، سنة 515هـ/1121م، صرف ابن تومرت معظم جهوده لتنظيم حركته سياسيًا وعسكريا. فرَتَّب أتباعه حسب الدور الذي قاموا به في نشأتها، وأهميةِ منزلتهم الاجتماعية، وصنَّفهم إلى طبقات، أعلاها أهل العشرة، ويليها أهل الخمسين، ثم أهل السبعين، ثم غيرهم من الفئات.وأسند إلى كل فئة ما يناسبها من الاختصاصات. أما النشاط العسكري، فإنه اتخذ اتجاهين رئيسيين يتمثل أولهما في إخضاع قبائل المصامدة التي لم تعلن بيعتها لابن تومرت، وثانيهما يهدف إلى بعث الأتباع لمواجهة جيوش المرابطين، وشنّ الغارات على الحصون التي كانت تؤوي حامياتهم.

والظاهر أن ابن تومرت تمكَّن من إنجاح الاتجاه الأول الرامي إلى القضاء على تشتُّت المصامدة السياسي، وجمع شملهم في كيان سياسي موحَّد. وفيما يخص الاتجاه الثاني، فإن محاولات التصدي لجيوش المرابطين لم تتجاوز طابع المناوشات، ولم تُكلَّلْ بالانتصار المرجُوِّ منها. ثم كانت معركة البُحَيْرة الشهيرة، سنة 524هـ/1130م، وانتهت بهزيمة جيش الموحّدين، ومقتل قائدهم البشير الوَنْشَرِيسِيّ وعددٍ كبير من الأتباع، وجُرِحَ عبد المؤمن، فعاد كل الموحّدين إلى جبلهم.

وبعد ذلك بقليل، أصيب ابن تومرت بمرض أدَّى إلى وفاته، دون أن يعيّن خلفًا له، ودون أن يترك لأتباعه نظامًا للحكم تسير عليه حركة الموحّدين بعد وفاة صاحب الدعوة. والظاهر أن فِئَةَ أهل العشرة التي كانت مكوَّنة من أقرب الأتباع لابن تومرت، الذين منحهم ثقته وجعلهم رجال مشورته، رأوا إخفاء وفاته على غيرهم من الأتباع ريثما تسمح الظروف بإيجاد حلٍّ مُرْضٍ للجميع في شأن تعيين خليفته. ويبدو أن هذه المرحلة الانتقالية دامت حوالي ثلاث سنوات، تمكن أثناءها أهل العشرة من مواصلة الجهود من أجل بسط نفوذ الحركة الموحّدية بين القبائل المجاورة للسوس الأقصى، وانتهت باتفاقهم على تعيين عبد المؤمن بن علي الكُومِيّ خليفة للمهدي.

3 - تأسيس دولة الموحّدين :

كان عبد المؤمن يمتاز بذكائه وقوة شخصيته، ولم يكن ينتمي إلى قبيلة من قبائل تلك المناطق، مما جعل فئة المقرَّبين للمهدي يجمعون على تعيينه. فكان عليه أن يواصل المسيرة إلى الانتصار على دولة المرابطين. وقضى عبد المؤمن بضعة أعوام، استولى خلالها على المناطق الجبلية المجاورة شمالا للسوس الأقصى. وفي سنة 535هـ/1141م، بدأت حركة الموحّدين الكبرى، بقيادته، عبر مناطق المغربين الأقصى والأوسط، فامتدَّ خلالها نفوذ الموحّدين إلى مناطق الأطلس الكبير وجبال الريف.

ثم توجَّه الموحّدون نحو المغرب الأوسط. وكان عبد المؤمن يطبِّق طريقة حربية محكمة، تتمثل في خطتين رئيسيتين، أولاهما تنحصر في ملازمة الجبال والاعتصام بها، الأمر الذي كانت تقتضيه قلة الخيل وعتاد جيشه الحربي، بينما كان المرابطون يلازمون السهول لوفرة خيلهم وجنودهم وعتادهم، فكان يصعب عليهم اقتحام المواقع التي كان يعتصم بها الموحّدون. والخطة الثانية كانت تتمثل في الابتعاد عن مراكز قوة المرابطين وعن عاصمتهم، والتوغل في بلاد المغرب الأوسط، التي يصعب فيها على المرابطين تموين الجيش وتنقله.

ثم استولت عساكر الموحّدين على معظم المناطق الشرقية بالمغرب الأوسط، وعلى المناطق الساحلية بناحية وهران. كان لهذه الانتصارات، مع ما حَظِيَ به عبد المؤمن من تأييد قومه كُومِيَة، أثر ملحوظ في تدعيم جيشه. وعندئذ توجه بجيشه صوب تلمسان، مقرّ ولاة المغرب الأوسط، ونزل خارجها بالمرتفعات الواقعة جنوب المدينة، بينما نزل تاشفين بن علي، أمير المرابطين بعد وفاة أبيه، بجيشه شمال شرقيها. وفي تلك الأثناء، وصل جيش لبني حماد، أرسله الأمير يحيى بن العزيز مددًا للمرابطين بقيادة طاهر بن كباب. ويبدو أن هذا الأخير لم يحفل بقوة جيش الموحّدين، بل بعثه غروره إلى اقتحامه في الحين، ولكنه مُنِيَ بهزيمة كبرى، أدت إلى مقتله مع العديد من جنوده، وذلك سنة 539هـ / 1145م. وكان لهذا الحادث أثرٌ سَيِّئٌ في نفوس المرابطين، فتوجه الأمير تاشفين بن علي إلى وهران، حيث كان قد وصل أسطول قادم من الأندلس لمساندة جيشه في مواجهة حركة الموحّدين. وكان تاشفين عازمًا على الجواز للأندلس، إذا ما فشلت مطاردته للموحدين في تلك المناطق. لكنه لم يتمكن من تحقيق خطته هذه ولقي مصرعه ليلة 27 رمضان سنة 539هـ / 1145م، عندما غادر الحصن الذي لجأ إليه بوهران، قاصدًا شاطئ البحر، وممتطيًا فرسه، فسقطت به من أعلى جرف.

وكان لوفاة تاشفين بن علي أثر هامّ في سَيْر الأحداث بعد ذلك، إذ سرعان ما استولى الموحّدون على وهران ثم تلمسان، ثم توجهوا نحو المغرب الأقصى، وحاصروا مدينة فاس مدة تسعة أشهر ثم احتلوها، واستولوا أخيرًا على مراكش، عاصمة المرابطين، في شوال سنة 541هـ / 1147م، بعد حصار دام حوالي أحد عشر شهرًا. وبسقوط مراكش، ومقتل إسحاق بن علي بن يوسف، آخر أمراء المرابطين، انقرضت دولتهم، وتمّ تأسيس دولة الموحّدين.

(ب) دور عبد المؤمن وخلفائه في توسيع وتعزيز أركان الدولة :

1 - دولة الموحّدين في عهد عبد المؤمن :

ولم يقف طموحُ عبد المؤمن عند هذا الحد بل بقي عليه أن يعمل على إرساء الدولة الجديدة على أسس تضمن لها القوة والأمن والاستقرار. فأقام بمراكش بعض السنوات، قضاها في تنظيم شؤون الدولة، وقمع الثورات التي قامت في السوس الأقصى، وفي بلاد تامَسْنا والسهول الغربية.

والجدير بالملاحظة أن كثيرًا من مناطق المغرب الإسلامي كانت آنذاك مهددة بهجمات حركة الاسترداد الإسبانية بالأندلس، وامتداد الغزو الصليبي إلى بعض مناطق إفريقية. فكان سقوط دولة المرابطين بمراكش يقتضي تحوّل السلطة بالأندلس إلى دولة الموحّدين والحصول على بيعة أهالي سائر مناطقها. وعندئذ، أرسل عبد المؤمن العساكر إلى بلاد الأندلس، لمساعدة المسلمين بها في الدفاع عن أراضيهم، وإخضاع أمراء الأندلس الذين لم يدخلوا في طاعته. وفي سنة 546هـ / 1151م، انتقل إلى سَلا، حيث قدمت وفود الأندلس لمبايعته وتسليم الأمر إليه.

لقد كان الحفاظ على أمن دولة الموحّدين يقتضي توسيع نفوذها في اتجاه بلاد إفريقية، نظرًا لتدهور أحوال أمرائها من بني زيري وبني حمَّاد، من جرَّاءِ تغلُّبِ العرب الهلاليين على معظم مناطقها الجنوبية، وظهور خطر النصارى النرمان القادمين

من صقلية، الذين كانوا قد استولوا على المهدية، عاصمة بني زيري، سنة 543هـ / 1149م، ثم بسطوا نفوذهم على بعض سواحل إفريقية، وأصبحوا يهددون باقي نواحي إفريقية.

وفي أوائل سنة 547هـ / 1152م نهض عبد المؤمن بجيوشه متجهًا نحو المغرب الأوسط، فاستولى على مدينة الجزائر. ثم قصد إلى بجاية فملكها، وفرَّ الأمير الحَمَّادِيّ يحيى بن العزيز إلى عَنَّابَة عن طريق البحر، ثم إلى قُسَنْطِينة. ووجَّه عبد المؤمن جيشًا بقيادة ابنه عبد الله إلى قلعة بني حمَّاد، ففتحها عنوة. وأرسل جيشًا آخر إلى قسنطينة، وفيها يحيى بن العزيز الحمَّادي، فعرض الموحّدون عليه الأمان في نفسه وأهله، فأذعن لهم وسلم المدينة صلحا، وسار إلى بلاط عبد المؤمن، فرحَّب به وألحقه بحاشيته، وبذلك انقرضت دولة بني حمَّاد.

غير أن هذه الأحداث أقلقت قبائل العرب القاطنة في جنوب بلاد إفريقية، وجعلتها تخشى أن يضع عبد المؤمن حَدًّا لما كانت تتمتع به في عهد الحمَّادِيِّين من نفوذ في تلك المناطق، وما نالته آنذاك من إقطاعات. فاجتمعت قرب مدينة باجَة، وعقدت العزم على محاربته، بدعوى الدفاع عن عرش الأمير الحَمَّادِيّ يحيى بن العزيز، فتصدَّى لها عبد الله بن عبد المؤمن بما كان لديه من الجنود. وكان عبد المؤمن أثناء ذلك بمَتِّيجَة، عائدًا إلى مراكش، فتوقف عن السير وأرسل جيشه مَددًا لابنه، وتم اللقاء بين الفريقين في ناحية سَطِيف، فانهزم العرب هزيمة كبرى، وتركوا ذخائرهم ونساءهم وكثيرًا من الأسرى. ولما وصل عبد المؤمن إلى مراكش، استدعى رؤساء قبائل العرب، ووعدهم بأن يعيد لهم نساءهم وذخائرهم، فوفدوا عليه وقدموا له طاعتهم.

والظاهر أن ما حققه عبد المؤمن من انتصارات في سائر أنحاء الأندلس والمغربين الأقصى والأوسط جعله يُعْنَى بوضع أسس التنظيم السياسي للدولة الموحّدية، فاستقرَّ رأيه على تفضيل النظام الوراثي، تجنبًا للفتن التي قد تحدث بين مختلف القبائل عند وفاة الخلفاء وتعيين من يخلفهم في الحكم. فعقد لابنه عبد الله على ولاية بجاية. كما عقد لابنه أبي حفص على ولاية تلمسان. وعيَّن إلى جانب كل واحد منهما وزيرًا من أبناء الشيخ أبي حفص عمر الهنتاتي. والظاهر أن مهمة وُلاةِ الموحّدين كانت تشمل صلاحيات واسعة، تتطلبها ضرورة حفظ الأمن، ولاسيما أن خطر العدوان الصليبي كان يهدد بلاد إفريقية والمغرب الأوسط. ثم إن اهتمام عبد المؤمن بوضع أسس النظام السياسي بولايتي تلمسان وبجاية، وتحديد علاقات سلطتهما بالسلطة المركزية، قد يَنِمُّ عن طموح عبد المؤمن إلى مواصلة بسط نفوذ الحركة الموحّدية في باقي مناطق المغرب الإسلامي، واستكمال فتح بلاد إفريقية. وكان من المهامّ التي أسندها لابنه عبد الله، والي بجاية، أنه "عهد إليه أن يشنَّ الغارات على نواحي إفريقية، وأن يضيِّق على تونس ويمنع عنها المرافق التي تصل إليها عن طريقه".

وفي سنة 553هـ / 1158م، نهض والي بجاية متوجهًا إلى تونس بجيشه، وكانت المدينة تحت نفوذ النرمان، الذين أقاموا رجلا يدعى ابن خراسان عاملاً عليها من قِبَلِهم. فحاصرها الموحّدون مدة، ثم حاولوا اقتحامها، غير أن محاولتهم باءَتْ بالفشل. وبلغ عبد المؤمن خبر الهزيمة وهو بسَلا، يتأهب للجواز إلى الأندلس بجيوشه لصدِّ هجمات النصارى عليها. فقرّر السير إلى إفريقية مفضلا القضاء على الاحتلال النرماني

بها قبل استفحاله. وبدأ بالاستيلاء على تونس. ثم توجَّه إلى المهدية، معقل النرمان الرئيسي بإفريقية، فحاصرها الموحَدون بَرًّا وبحرا مدّة بضعة أشهر. وأغاروا، أثناء هذا الحصار، على المناطق التي كانت تحت سيطرة النرمان. وفي شهر محرم سنة 555هـ / 1160م، استسلم النرمان بالمهدية، فدخلها الموحَدون صلحًا. وباستيلاء عبد المؤمن على المهدية، أصبحت إفريقية كلها، وسائر بلاد شمال إفريقيا، تحت سلطة الموحّدين.

ومن نتائج هذا الانتصار أنه مكّن عبد المؤمن من التفرّغ للاهتمام بشؤون الأندلس بمزيد من الفعالية والنجاعة. وكان المسلمون بالأندلس يعانون، منذ سنوات عديدة، من هجمات ملك قشتالة ألفونسو الثامن، الذي راح يضرب الحصار حول قرطبة، مغتنما فرصة تفرقة الأندلسيين إثر انقراض دولة المرابطين. وعندئذ أرسل عبد المؤمن العساكر إلى الأندلس للدفاع عن أراضي المسلمين بها، والتصدي لغزو جيوش الإسبان، فاضطر ملك قشتالة إلى الإفراج عن قرطبة وكثير من المناطق التي كان قد احتلها. غير أن خطر هجمات النصارى على أراضي المسلمين بالأندلس كان لا يزال ينغّص عيشة هؤلاء ويهدّد أمنهم. وذلك أن حركة الاسترداد الإسبانية كانت تحمل طابعا دينيا، وكان يباركها بَابَا روما، شأنها في ذلك شأن الحروب الصليبية التي اندلعت، هي أيضا، في عهد المرابطين. ولذا، فإن ردَّ فعل الدول الإسلامية، المتمثل في التصدّي لحملات الصليبيين شرقا، وهجمات الإسبان غربًا، كان يُعَدّ جهادًا في سبيل نُصْرة الإسلام، والدفاع عن حوزته.

وفي تلك الأثناء، اندلعت ثورة محمد بن سعد المعروف بابن مَرْدَنِّيش في شرق الأندلس، وكان قد حظي بمساعدة النصارى، فساءت أحوال المسلمين في تلك المنطقة. فعزم عبد المؤمن على استئناف مواجهة الإسبان وحلفائهم بالأندلس. وأمر بحشد الجنود في سائر أنحاء الدولة، وصنع السفن في مختلف مراسي المغرب. وفي أوائل سنة 558هـ / 1163م نهض من مراكش، فقصد إلى سَلا حيث شرع يتأهب للغزو. غير أنه مرض بها، واشتد به المرض، فتوفي في جمادى الآخرة 558هـ / 1163م، بعد أن عهد بالخلافة من بعده لابنه أبي يعقوب يوسف.

2 - دولة الموحّدين في عهد أبي يعقوب يوسف:

كان يوسف بن عبد المؤمن حسن السياسة، حافظا للقرآن والحديث، متضلعًا في اللغة والطب والفلسفة. وشُغِفَ بصحبة العلماء، فاستقدم إلى مراكش الكثير منهم كابن طفيل وابن رشد.

ومن إنجازات يوسف بن عبد المؤمن السياسية القضاء على إمارة محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش، خلال فترة 565-567هـ / 1170-1172م، ثم إخضاع مدينة قفصة، وكان سكانها قد خلعوا طاعة الموحّدين، فتوجه إليها يوسف بن عبد المؤمن، سنة 575هـ / 1179م، وحاصرها واستولى عليها، ثم قفل راجعًا إلى عاصمته، ونقل كثيرًا من عرب رياح إلى المغرب الأقصى.

وكان لانتصاراته أثر كبير في الخارج، فهابه الملوك وخطبوا صلحه. وممن عقد الصلح معه، ملك صقلية النرماني، الذي عاهده على أن يحمل إليه إتاوة في كل سنة. وفي سنة 579 هـ / 1183م، عزم يوسف بن عبد المؤمن على الإجازة إلى الأندلس قصد التصدي لعدوان الإسبان بها. فاستقرَّ مدة بإشبيلية، ثم توجه إلى شَنْتَرين، فحاصرها مدة،

وكانت محصنة تحصينا محكمًا. فامتنعت عليه وقرَّرَ رفع الحصار. وعندئذ غادرت جيوشه أماكنها، ولم يبق حوله إلا القليل منهم، فاغتنم الإسبان الفرصة وخرجوا من المدينة، متوجهين نحو محلة الخليفة الموحَدي. فقتِلَ أغلب من كان يحميه من الجنود، وجُرِحَ يوسف بن عبد المؤمن، وتوفي في الطريق إلى إشبيلية، بعد ذلك بيومين أو ثلاثة، في أواخر رجب 580هـ / 1184م، فخلفه ابنه أبو يوسف يعقوب المنصور.

3 - دولة الموحّدين في عهد يعقوب المنصور :

ولد يعقوب المنصور حوالي سنه 548هـ، ويبدو أن أباه مات من غير أن يوصي بالملك لأحد من أولاده، وأن إخوته وأشياخ الموحّدين اتفقوا على توليته أمرهم. فأجاز إلى المغرب، ونزل بسلا، حيث تمَّت بيعته بالخلافة. وكان يعقوب المنصور شجاعًا، مجرِّبًا لشؤون الدولة، فصيح اللسان، حازمًا، مؤثرًا للعدل، عطوفا على الفقراء واليتامى. "وكان يحب الصالحين، ويدني مجالسهم، ويستدْنِيهِمْ من أقاصي طاعته". ويعتبر عهد يعقوب المنصور أزهى عصور دولة الموحّدين لما أنجز فيها من مشاريع عمرانية واقتصادية، ولما حظيت به من ازدهار وقوة، الأمر الذي مكنها من التغلّب على الفتن الداخلية والتصدي للغزو الخارجي بإفريقية والأندلس. وذلك أن الدولة الموحّدية مُنِيَت، في بداية عهد يعقوب المنصور، باندلاع ثورة بني غانية، التي دامت حوالي نصف قرن، وشملت أنحاء عديدة من بلاد المغرب. وكان بنو غانية ينتمون إلى أسرة الأمراء المرابطين، وكان جدُّهم محمد بن علي واليا على الجزائر الشرقية، وتوفي أيام ظهور حركة الموحّدين، فخلفه ابنه إسحاق، الذي استقلَّ بملكها إثر سقوط دولة المرابطين، وأقبل على غزو الإسبان، وملاطفة الخليفة الموحّدي بالهدايا والتحف. فانشغل عنه هذا مدة، ثم طالبه بالبيعة والدعاء في المنابر، فماطله إسحاق ابن غانية في الاستجابة، ثم توفي في أوائل سنة 579هـ / 1183م.

وتلا ذلك وفاة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن في أواخر سنة 580هـ / 1184م، فاغتنم بنو غانية فرصة انشغال الموحّدين بما كان يتوقع من تنافس الأمراء على العرش، وما قد يحدث من فتن واضطرابات في شأن تعيين الخليفة الجديد، لتنظيم حركة في اتجاه بلاد إفريقية والمغرب الأوسط. فقدم علي بن إسحاق وأخوه يحيى من جزيرة ميورقة بجيش يتألف من أربعة آلاف من المرابطين وأسطول يتركب من 32 قطعة، صوب بجاية، في صفر سنة 581هـ / 1185م. وصادف ذلك مغادرة والي بجاية أبي الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن للمدينة، قاصدًا مراكش ومعه الحامية.

وسرعان ما تمكّن بنو غانية من الاستيلاء على بجاية، ثم انتصروا على أبي الربيع، الذي عاد إلى بجاية لطردهم منها، وساروا في اتجاه الغرب مستعينين بقبائل الأعراب، فاستولوا على مدينة الجزائر ومدن أخرى بالمناطق الشرقية من المغرب الأوسط. ثم توقف زحفهم إلى الغرب، واتجهوا نحو الجنوب الشرقي، فاستولوا على قلعة بني حمَّاد. ثم حاصروا قسنطينة، وطال حصارهم لها.

وفي تلك الأثناء، أرسل يعقوب المنصور جيشًا تحت قيادة ابن عمه أبي زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن لإيقافهم وصدِّهم عما احتلوه من المدن، وأمر أسطولا بالتوجه إلى ساحل المغرب الأوسط لمساعدة الجيش. وعندما وصل خبر قدوم القوات الموحّدية، ثار السكان ضد بني غانية، وأعانوا الموحّدين على استرجاع مدينة الجزائر

وغيرها من مدن المغرب الأوسط، ثم بجاية. ولما بلغ خبر هذه الأحداث علي بن غانية وهو يحاصر قسنطينة، أفرج عن المدينة، واتجه إلى بلاد الجريد، جنوب إفريقية، فاستولى عليها، ثم احتلّ قفصة بمساعدة أهلها.

وكان بنو غانية قد عاثوا فسادًا، وخرّبوا كثيرًا من عمران أنحاء بجاية وقلعة بني حمّاد. فساءت الأحوال في بجاية، حيث قلت الموادّ الغذائية، وانتشرت الفوضى، وعمّت الأمراض والوباء. ونهج بنو غانية طريقة حربية محكمة تتمثل في استمالة عرب إفريقية إلى جانبهم لشَنّ الغارات على المدن، ثم اللجوء إلى الصحراء للنجاة من مطاردة جيوش الموحّدين. فقدم يعقوب المنصور بجيش قوي في أواخر سنة 582هـ / 1186م، واتجه إلى تونس، ثم أنهض جيشا من ستة آلاف مقاتل بقيادة السيد أبي يوسف ابن أبي حفص لمطاردة يحيى ابن غانية، فانهزم الموحّدون قرب قفصة. ثم نهض يعقوب المنصور بجيش قوي، وهزم ابن غانية وحلفاءه قرب قابس، في شعبان 583هـ / أكتوبر1187م، وواصل مطاردته، فالتجأ يحيى ابن غانية إلى الصحراء. وعندئذ عاد يعقوب المنصور إلى تونس، فعيَّن أخاه أبا زيد واليًا على إفريقية، ثم غادر تونس، في محرم 584هـ / مارس 1188م، راجعًا إلى مراكش.

ولما عاد المنصور إلى عاصمته، عُنِيَ بإصلاح شؤون الدولة. وفي تلك الأثناء ازدادت أحوال المسلمين سوءاً بالأندلس، فأمر بتجهيز الجيوش، وغادر مراكش في أواخر سنة 585هـ / أوائل سنة 1190م، متوجهًا إلى رباط الفتح. ثم ركب البحر إلى الأندلس، وشنّ بعض الحملات التي أسفرت عن فتح حصون عديدة، واسترجاع مدينة شِلْب في 25 جمادى الثانية 587هـ / 23 يوليه 1191م. ثم غادر بلاد الأندلس في رمضان 587هـ / أكتوبر 1191م، عائدًا إلى مراكش.

ثم أجاز إلى الأندلس في جمادى الآخرة سنة 591هـ / يونيو 1195م، حيث انتصر على الإسبان في معركة الأرَك الشهيرة، وشنَّ الغارات في قشتالة سنة 592هـ / 1196م، ثم سنة 593هـ / 1197م. وفي سنة 594هـ / 1198م، عقد يعقوب المنصور السلم مع ملك قشتالة، وغادر إشبيلية في فاتح جمادى الآخرة عائدًا إلى مراكش. وفي أوائل سنة 595هـ / آخر سنة 1198م، مرض يعقوب المنصور، واشتدَّ مرضه، فتوفي منه في 22 ربيع الأول سنة 595هـ / 22 يناير 1199.

4 - دولة الموحّدين في عهد الناصر:

ولي أبو عبد الله الناصر بن المنصور الخلافة وسِنُّه 18 عامًا وأشهر. كان حليمًا شجاعًا. وكان أهمّ ما يستدعي عنايته معالجة أحداث إفريقية بما كانت تقتضيه من حزم. وذلك أن يحيى ابن غانية كان قد استولى على طرابلس، وأصبح له نفوذ قوي في المناطق الجنوبية بإفريقية. ثم توجه نحو مناطق غرب إفريقية، فهزم جيش والي بجاية، قرب قسنطينة، سنة 598هـ / 1202م، ثم استولى على مدينة القيروان. وهجم على تونس، فحاصرها، ثم استولى عليها في ربيع الثاني 600هـ / 15 ديسمبر 1203م، ووقع السيد أبو زيد، والي إفريقية، في أسره، فاعتقله بقصبة تونس.

وفي تلك الأثناء، كان الموحّدون قد قاموا بحملة موفقة تجاه الجزائر الشرقية، منبع سلطة بني غانية، فاحتلوا مَيُورْقة ومِنُورْقة، واستطاعوا بذلك أن يقضوا على مصدر هامّ لقوة يحيى ابن غانية. وعندئذ، قرَّر الناصر أن ينهض بنفسه في اتجاه إفريقية، على رأس جيش قوي معزَّز بأسطول

ضخم. وعندما اقتربت قوات الموحّدين من بلاد إفريقية، غادر ابن غانية تونس، وترك ذخائره وأمواله بالمهدية. ثم سار إلى الجنوب والتجأ إلى جبل دَمَّر، جنوب قابس، واعتصم به. وهناك انهزم هزيمة شنعاء، في 12 ربيع الأول سنة 602 هـ / 17 أكتوبر 1205م، واستولى الموحّدون على جميع ذخائره وأمواله. وأنْقذَ السيد أبو زيد، والي إفريقية. ثم تابع الناصر حصار المهدية، إلى أن استسلم المحاصَرون بها، وسلّموا المدينة للناصر في 27 جمادى الأولى 602هـ / 11 يناير 1206. وبعد ذلك بشهر توجّه الناصر إلى تونس وأقام بها مدة لإصلاح شؤونها، ثم غادرها عائدًا إلى مراكش. وقبل مغادرته لتونس، عيَّن الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص واليا على إفريقية، وسوَّغه أمرها واختيار عمَّالها وجنودها، وكلفه بالقضاء على ثورة بني غانية.

ولما غادر الناصر إفريقية، عاد يحيى بن غانية إلى تحرُّكاته وعيثه، وقصد إلى شمال إفريقية. ولم يتركه عبد الواحد بن أبي حفص يتوغّل في أراضيه، فنهض إلى مواجهته، وهزمه على ضفة وادي شَبْرُو، بالقرب من تَبَسَّة، في 30 ربيع الأول سنة 604هـ / 24 أكتوبر 1207م، واستولى الموحّدون على محلة يحيى ابن غانية وذخائره. وبهذا الانتصار، ضعف شأن بني غانية بإفريقية، واقتصرت تحركاتهم على شنّ الغارات بالمغربين الأوسط والأقصى. ثم نهض عبد الواحد بن أبي حفص، والي إفريقية، صوب معتصَم بني غانية بجبل نفوسة، فلقيهم هناك، سنة 606هـ / 1209م، وهزمهم هزيمة شنعاء. وأظهر حزمه بما قام به إثر نصره من إلحاق العقاب الشديد على حلفاء ابن غانية من العرب، كما شمل من أيده من القبائل بعطفه وكرمه، فوزع عليهم الأراضي الخصبة بناحية القيروان.

ثم عُنِيَ الناصر بشؤون الأندلس. وكانت الهدنة التي عقدها يعقوب المنصور مع ملك قشتالة، قد انتهى أجلها سنة 606هـ / 1209م، فعادت جيوش الإسبان إلى شنّ الغارات على بعض أراضي المسلمين، وعندئذ، استنجد هؤلاء بالناصر. فاستجاب لطلبهم، ثم أجاز إلى الأندلس في ذي القعدة سنة 607هـ / مايو 1211م، واستقرَّ مدة بإشبيلية حيث تم جمع الجيوش وتنظيمها. ثم توجَّه بها إلى قرطبة فجيَّان وبيَّاسة، وحاصر قلعة شَلَبَطرَّة ثم استولى عليها في أوائل شهر ربيع الأول سنة 608هـ / أواخر أغسطس 1211م، وعاد إلى إشبيلية، وقد أكسبه هذا النصر مزيدًا من الغرور. أما ألفونسو الثامن، فإنه استغلَّ هذا الحادث بالتحالف مع ملكي أراغون ونبرَّة والاستنجاد بفرسان أوربا الغربية، وإضفاء طابع ديني وصليبي على مواجهته لجيش الموحّدين وعلى حركة الاسترداد التي كان يتزعمها.

وفي محرم 609 هـ / يونيو 1212م، غادر الناصر إشبيلية في اتجاه جيَّان، وسار جيش النصارى من طليطلة للقاء الموحّدين. وفي 15 صفر 609هـ / 16 يولية 1212م، وقعت معركة العقاب في بسيط تشرف عليه جبال الشارات، وكان جيش الموحّدين قد تمركز به، بينما اتجه النصارى إلى المرتفعات المشرفة على ذلك البسيط، وكانت ذات أهمية استراتيجية لا يستهان بها. فثبت الموحّدون في بداية اللقاء أمام شدة هجمات العدو وعنفها، ثم انهزموا هزيمة كبرى، ونجا الناصر مع نفر قليل. واحتل النصارى مدينتي بيَّاسة وأبدَّة، وقتلوا مَنْ وجدوه بهما من المسلمين. فكان ذلك كارثة كبرى بعد الهزيمة. ولم يتمكَّن ألفونسو الثامن من الاستيلاء على مدينة جيَّان لما انتشر في تلك

الناحية من الوباء، ولشدة الحرارة، واختلال نظام الجيوش، فعاد إلى عاصمته طليطلة.

أما الناصر، فإنه سار بعد الهزيمة إلى إشبيلية، ثم أجاز إلى المغرب، واستقر بمراكش إلى أن أصابه المرض الذي توفي منه في 10 شعبان 610هـ / 22 ديسمبر 1213. وكان قبل وفاته عهد بولاية العهد لابنه أبي يعقوب يوسف المستنصر، وأخذ له البيعة من أشياخ الموحّدين وعامّتهم.

(جـ) تدهور أوضاع دولة الموحّدين أيام خلفاء الناصر :

ولد المستنصر أبو يعقوب يوسف بن محمد الناصر سنة 594هـ / 1198م، وكان سنه ستة عشر عامًا عندما بويع بالخلافة. فانصرف عن شؤون الدولة لصغر سِنِّهِ، وقام بتدبير أمره الوزير أبو سعيد ابن جامع وبعض أشياخ الموحّدين. غير أن هؤلاء تقاعدوا عن الغزو لاسترجاع ما ضاع لهم من مدن وحصون، وعن التصدّي لغارات ألفونسو الثامن على أراضي المسلمين، بل لجؤوا إلى عقدِ هدنة مع الإسبان سنة 612هـ / 1215م، ثم تجديدها سنة 618هـ / 1221م، لاتقاء شرهم.

وفي سنة 613 هـ / 1216م، ظهر بنو مرين في ناحية فاس، فتصدّى لهم السيد أبو إبراهيم والي فاس بالحامية، فهزموه، فكان ذلك أول انتصار لبني مرين. وفي عهد المستنصر كثرت المناورات والسعايات في بلاطه، مما أدّى إلى عزل بعض رجال الدولة وتحويل بعض الولاة من ولاية إلى أخرى. فمن ذلك عزله لعمه أبي محمد عبد الله بن يعقوب المنصور عن غرناطة، سنة 619هـ/1222م، وتعيينه واليًا على شرق الأندلس بمرسية.

ثم توفي المستنصر في 12 ذي الحجة سنة 620هـ / 4 يناير 1224م، فبايعَ أشياخُ الموحّدين بمراكش أبا محمد عبد الواحد، أخا يعقوب المنصور، خلفا له. فرفض أبو محمد بن يعقوب المنصور هذه البيعة، ودعا لنفسه بمرسية، في صفر 621هـ / مارس 1225م، واتخذ لقب العادل. وبايعه إخوته أبو العلاء إدريس بقرطبة، وأبو الحسن بغرناطة، وأبو موسى بمالقة. فتوجه إلى إشبيلية. ولما بلغ النبأ إلى أشياخ الموحّدين بمراكش، رجعوا عن بيعتهم لعبد الواحد، وخلعوه ثم قتلوه، وأرسلوا بيعتهم للعادل. فولّى العادل أخاه أبا العَلاء إدريس على إشبيلية، وولّى البَيَّاسِيّ على قرطبة، وأجاز إلى سبتة، وسار إلى سلا، ثم توجه إلى مراكش فدخلها سنة 622هـ / 1225م، فاستتبَّ له الأمر بها.

غير أن الأوضاع السياسية ساءت في الأندلس حيث نقض البياسي بيعته للعادل في أوائل سنة 623هـ / 1226م، ودعا لنفسه، وتلقب بالظافر، فاغتنم النصارى فرصة اختلاف المسلمين، وأغاروا على بعض المناطق، وتحالفوا مع البياسي. وتوجه هذا الأخير إلى إشبيلية، قصد الاستيلاء عليها، فتصدى له أبو العلاء إدريس وانتصر عليه. وفي تلك الأثناء، أغار القشتاليون على أراضي المسلمين، واحتلوا مدينة بيَّاسة في ذي الحجة 623هـ / ديسمبر 1226م، وعلى عدد كبير من الحصون في ناحيتي جيَّان وقرطبة، فمهَّدوا بذلك طريق الاستيلاء على قرطبة وقواعد الأندلس الكبرى.

وعندئذ، فكَّر أبو العلاء إدريس في طلب عرش الموحّدين، وحلول مكان أخيه العادل، فحصل على بيعة إشبيلية وقرطبة وبلنسية. وتسمى بلقب المأمون. ثم طلب من أشياخ الموحّدين بمراكش خلع أخيه العادل، فأذعنوا لطلبه، ودخلوا على العادل، فطلبوا منه أن يخلع نفسه فرفض، وعندئذ قتلوه في قصره، في شوال 624هـ / سبتمبر 1227م،

وأرسلوا بيعتهم إلى المأمون. وبعد أيام أعادوا نظرهم في الأمر، وقرروا البيعة ليحيى ابن الناصر، وتسمَّى بلقب المعتصم. وكان شابا لا يتجاوز السادسة عشرة من عمره. فغضب أبو العلاء المأمون، وكان يستعدُّ للإجازة إلى المغرب من الجزيرة الخضراء، فعاد إلى إشبيلية، وأخذ يعدُّ العدَّة للاستيلاء على العرش والانتقام من مشايخ الموحَدين الذين نكثوا بيعته.

غير أن الأوضاع ازدادت سوءاً بالأندلس، وذلك أن ابن هود أعلن الثورة في المنطقة الشرقية، واستولى على مرسية، في رجب 625هـ / يونيو 1228م، بدعوة الخلافة العباسية، وكان يسعى إلى طرد الموحَدين من الأندلس، والتصدي إلى عدوان النصارى. ثم استولى على بلنسية، وذاع أمره، فبعث إليه بالطاعة كثير من المدن، كقرطبة وغرناطة ومالقة والمرية. فنهض أبو العلاء المأمون إلى مرسية، في أوائل سنة 626هـ / أوائل 1229م، لوضع حد لثورة ابن هود، إلا أن محاولته باءت بالفشل، فعاد إلى إشبيلية، ثم أجاز إلى المغرب في ذي الحجة 626هـ / أكتوبر 1229م، وسرعان ما أعلنت إشبيلية خلعها للمأمون، والطاعة لابن هود وذلك أن المأمون كان، إثر فشله أمام ابن هود، وإعلان بيعة معظم أمصار الأندلس لهذا الأخير، قد لجأ إلى التحالف مع فرناندو الثالث، ملك قشتالة، الذي قدَّم له مساعدة تشمل حوالي خمسمائة فارس، واشترط عليه أن يسلِّم له عشرة حصون في الحدود، وأن يأمر بتشييد كنيسة للنصارى بمراكش. ومما شجَّعه على الجواز إلى المغرب أنه اتصل، وهو بإشبيلية، ببيعة ولاة فاس وتلمسان وسبتة وبجاية، وكذلك بيعة أمير الخلط مقدَّم بن هلال. وأقام المأمون بسبتة أيامًا، ثم توجَّه إلى مراكش. أما يحيى المعتصم، فإنه نهض بجيش للقائه، إلا أنه انهزم، ففرَّ إلى الجنوب. ودخل المأمون إلى مراكش، حيث بايعه أشياخ الموحَدين بالخلافة. ولم يَنْسَ ما وقع من نكثهم لبيعته، فانتقم من الذين ساهموا في ذلك، وخاصة أشياخ هِنْتاتة وتِيِنْمَل، وقتل منهم حوالي مائة. وبذلك ضعف شأن مَشْيَخَة الموحّدين، وقلَّ نفوذهم. غير أن أخطر عمل قام به المأمون هو إعلانُ بطلان دعوةِ المهدي وادعائِه العصمة، وإزالة رسومه من الخطبة والسكة. فأمَرَ الناس، في سائر الأنحاء، باعتبار ذلك بدعة يجب النهي عنها. ولا شك أن هذا الإعلان، الذي كان يهدف إلى تحطيم أسس عقيدة الموحّدين، يشكل خطوة حاسمة في الصراع الذي كان قائمًا منذ سنوات بين الأسرةِ المؤمنية وأشياخ الموحّدين. وكان ولاة إفريقية من بني أبي حفص قد أعلنوا، في أوائل سنة 627هـ / 1230م، خلع طاعة بني عبد المؤمن، واتخذ أبو زكرياء يحيى الحفصي لقب الأمير. ثم استولى، في سنة 628هـ / 1231م، على قسنطينة وبجاية، فتمَّ له امتلاك إفريقية كلها.

وفي سنة 629هـ / 1232م، أعلن أبو موسى، أخو المأمون ووالي سبتة، خلع الطاعة، ودعا لنفسه بالخلافة، وثارت بعض القبائل في ناحية مكناسة. فجمع المأمون الجيوش، وتوجّه إلى مكناسة، ففرَّ الثائرون أمامه. ثم سار إلى سبتة، وحاصرها ثلاثة أشهر. وفي تلك الأثناء، استولى يحيى المعتصم على مراكش، فقتل النصارى، وأحرق الكنيسة، وأخذ ما كان في القصر من أموال وذخائر. فلما بلغ الخبر للمأمون، رفع الحصار، وعاد إلى مراكش. وفي أثناء طريقه، أصابه مرض، فتوفي فجأة في آخر ذي الحجة سنة 629هـ / أكتوبر 1232م. فكتمت زوجته الخبر، وحمل المأمون في هودج مستور، وأقيمت بيعة سِرِّية بالخلافة لابنها أبي محمد عبد الواحد الرشيد، الذي

كان في الرابعة عشرة من عمره. ولما اقترب الجيش من مراكش، اصطدم بيحيى المعتصم، فانهزم مرة أخرى ولجأ إلى الفرار. فدخل الرشيد وجيشه مراكش بعد أن أعلن تأمين سكانها.

ولما استقرَّ الرشيد في قصر الخلافة، عيَّن ابن عمه أبا محمد عبد الله بن أبي سعد بن المنصور وزيرًا، واستعان به في تسيير شؤون الدولة، إلا أنه توفي بعد ذلك بقليل. ثم استعان بصهره السيد أبي العلى. وفي سنة 631هـ / 1234م، عاد أشياخ الموحّدين إلى الطاعة، وصالحوا الرشيد على أن يعيد رسوم المهدي، وما سنَّه لهم من معتقدات وقوانين، كما أعاد إلى المشايخ ما أخِذَ منهم من أموال وديار.

ثم تعرَّض الرشيد ومستشاروه إلى ثورة عرب الخلط وقبيلة هَسْكورَة، وانهزم جيشه هزيمة كبرى بوادي تانسيفت، سنة 632هـ / 1235م، فغادر مراكش، واعتصم بالجبال الواقعة جنوبها، ثم نهض إلى مراكش، ودخلها بعد أن هزم جيش يحيى المعتصم في أواسط سنة 633هـ / فبراير 1236م. والتجأ المعتصم عند عرب المعقل، قرب تازا. فطالبوه بأن يمنحهم امتيازات هامَّة فرفض، فقتلوه في آخر رمضان 633 هـ / مايو 1236م، وبعثوا برأسه إلى الرشيد. وبوفاة يحيى المعتصم صفا الجوُّ للرشيد بمراكش، وتوطّد حكمُه بها.

وقد نتج عن أزمة الحكم، التي سادت في مختلف أقطار المغرب والأندلس، بعد وفاة المستنصر، تدهورُ أوضاع دولة الموحّدين، وعجزُها عن مواجهة الأخطار التي أصبحت تهددها. فكان للصراع القائم بين أبي العلاء إدريس المأمون وأشياخ الموحّدين أثر ملحوظ في نقض أبي زكرياء الحفصي البيعة للمأمون، في أوائل سنة 627هـ / 1230م، بعد إعلان هذا الأخير إسقاط رسوم المهدي وإبطال العصمة. ثم أعلن الأمير الحفصي انفصال الإمارة الحفصية عن خلفاء الموحّدين بمراكش عندما أمر بإسقاط الدعوة للخليفة الموحّدي في الخطبة في 7 صفر 633هـ / نوفمبر 1235م، وعندما بويع بالإمارة، ذُكِرَ اسمه في الخطبة بعد المهدي، إثر وفاة المعتصم في آخر رمضان 633هـ / مايو 1236م. وتم بذلك تأسيس دولة الحفصيين.

وفي عهد إدريس المأمون تقلص ظلُّ الموحّدين في المغرب الأوسط، ولم يبق لهم فيه نفوذ إلا في مدينة تلمسان، حيث كان واليها السيد أبو سعيد عثمان، أخو المأمون، يحاول إنقاذ الموقف بها. وكان بنو عبد الواد، قد انتهزوا فرصة ضعف الموحّدين، وما أصاب المغرب الأوسط من فوضى أيام غارات بني غانية وعيثهم في مناطقه، فبسطوا نفوذهم على منطقة تلمسان، سنة 623هـ / 1226م، تحت قيادة جابر بن يوسف. ولم يقدم بنو عبد الواد على اقتحام مدينة تلمسان آنذاك.

وشعر والي تلمسان، السيد أبو سعيد عثمان، بالخطر، فحاول أن يقضي على نفوذ بني عبد الواد قبل أن يستفحل أمرهم، وقبض على أشياخهم واعتقلهم. فشفع فيهم إبراهيم بن إسماعيل اللمْتوني، أحد رجال الحامية، فرُدَّت شفاعته. فثار ضد الوالي، وأطلق سراح أشياخ بني عبد الواد، واعتقل السيد أبا سعيد مكانهم. ويبدو أنه كان يخفي الانتصار لابن غانية. وحدث أن دعا إبراهيم هذا أشياخ بني عبد الواد لوليمة، ولكن هؤلاء لم يثقوا به، ورأوا في تلك الدعوة مكيدة تحاك ضدهم، كما كان الأمر قبل ذلك من طرف الوالي الموحّدي. فقبضوا عليه، واستولوا على تلمسان بدون حرب، في سنة 627هـ / 1230م، بدعوة إدريس المأمون. وبايعتهم نواحي تلمسان، إلا مدينة ندرومة. فتوجَّه

إليها أميرهم جابر بن يوسف وحاصرها، ولكنه قتل أثناء الحصار بسهم أصابه، سنة 629 هـ / 1232م. وخلفه في الإمارة أمراء من أسرته إلى أن آل الأمر إلى يغمراسن بن زيان، في أواخر سنة 633هـ / 1235م. ويرجع إلى هذا الأخير الفضل في إعلان تأسيس الإمارة العبد الوادية بدعوة الرشيد ابن المأمون. فأقرَّ هذا الأخير إمارة يغمراسن، وقنع منه بالدعاء له في الخطبة والسكة، وبعث إليه بالتحف والهدايا لاستئلافه، في أواسط سنة 639هـ/1242م. وتم بذلك تأسيس دولة بني عبد الواد.

وفي عهد الرشيد تواصلت هجمات النصارى على مدن المسلمين بالأندلس، فاستولوا على قرطبة سنة 633هـ / 1236م. ثم أعلن ابن الأحمر تأسيس إمارة غرناطة، في سنة 639هـ / 1242م، فقنع منه الرشيد بذكره في الخطبة. وفي المغرب الأقصى أحرز بنو مَرين على انتصارات أخرى، وبسطوا نفوذهم على مناطق كثيرة، مِمَّا جعل الرشيد يهابُهم ويفضِّل مصالحتهم. وفي 10 جمادى الآخرة سنة 640هـ / 1242م توفي الرشيد، فبويع بالخلافة أخوه أبو الحسن علي.

لقد تمت بيعة أشياخ الموحّدين لأبي الحسن علي السعيد لما كان له من خصال محمودة، من حزم وشدة، وتلقَّبَ المعتضِد بالله. وكان عهد الرشيد عهد ضعف، ظهر فيه عجزُ الموحّدين عن التغلب على الثورات والفتن، وتقلّصَ نفوذهم بإفريقية والمغرب الأوسط والأندلس، وازدادت غارات بني مرين قوة على بعض أنحاء المغرب الأقصى. وكانت تولية السعيد الخلافة في ظروف مقلقة جدا. فبدأ بانتهاج سياسة اللين والمصانعة إزاء قبائل العرب من الخلط وسفيان، وصرف عنايته إلى النصارى المنخرطين في جيش الموحّدين منذ عهد إدريس المأمون. وحاول تقوية أسطوله، فنقض جامع حسّان برباط الفتح، في سنة 641هـ / 1244م، وأمر بصنع السفن من خشبه. ولما استكمل تجهيز جيشه، قصد إلى بني مرين، ولقيهم قرب فاس في أواسط سنة 642هـ / 1245م، فهزمهم، وقتِلَ أميرهم أبو معرّف محمد بن عبد الحق في المعركة. وعاد السعيد إلى مراكش. ثم عقد مهادنة مع بني مرين.

وفي سنة 643هـ / 1246م، حشد أبو يحيى بن عبد الحق المريني الجموع من قومه وحلفائه، قصد الاستعداد لشن الغارات على أراضي الموحّدين. وفي تلك الأثناء، أرسل أهل إشبيلية بيعتهم لأبي زكرياء الحفصي. وكان هذا الأخير قد قطع البيعة للأسرة المومنية، ودعا لنفسه بالخلافة، وبسط نفوذه في سائر أنحاء إفريقية والمغرب الأوسط.وكان لبيعة يغمراسن بن زيان، أمير تلمسان، في أوائل سنة 640هـ / 1243م، أثر ملحوظ في إثارة غضب السعيد، إذ أن الأمير الحفصي نال بذلك مزيدًا من الشهرة والعظمة.

ويبدو أن بيعة أمصار الأندلس لأبي زكرياء الحفصي، في تلك الظروف، قد دعَّمت نفوذ هذا الأخير، وأيَّدت خلعه لخلفاء الأسرة المومنية بمراكش بحجة فقدان شرعيتها منذ وفاة المستنصر، لِمَا حدث في عهد إدريس المأمون من إسقاط رسوم المهدي ابن تومرت، وإبطال العصمة، وغير ذلك من المعتقدات التي وضع أسُسَها صاحبُ الدعوة الموحّدية، مما جعل أبا زكرياء الحفصي يظهر بمظهر الوارث الأمثل لخلفاء المهدي ابن تومرت. فكان على السعيد أن يبذل كل الجهود لإعادة الأمور إلى مجراها، والعمل على إعلاء شأن الخلافة الموحّدية المومنية. فنهض بجيش قوي من مراكش في ذي الحجة 645هـ / أبريل 1248م، قاصدًا إخضاعَ بني مرين ثم المغرب الأقصى

وإفريقية، ووضعَ حداً لمنافسة الحفصيين في الخلافة. فرأى بنو مرين أن يتخلوا عن مكناسة وناحيتها، واحتلها السعيد. ثم انتقل إلى فاس، وأقام بظاهرها إلى محرم 646هـ / مايو 1248م. ثم غادرها متوجهًا نحو تلمسان.

ولما بلغ تازا وصلته بيعة بني مرين، وعَرْضُ أميرهم أبي يحيى بن عبد الحق خدمته في محاربة بني عبد الواد، ثم قصد إلى تلمسان. وعندئذ غادر يغمراسن المدينة، واعتصم بقلعة تدعى تامزيزْدِكْت، جنوب مدينة وَجْدَة. وبعث ببيعته إلى السعيد، فاشترط مثول يغمراسن بين يديه، وأبَى هذا الأخيرُ تنفيذ شرطِه. فقصد إليه السعيد، وحاول اقتحام معتصَمِه، رغم ما فيه من أوْعار ومسالك ضيقة، في آخر صفر 646هـ / 23 يونيو 1248م، فانقضَّتْ فرقة من بني عبد الواد على السعيد وبعض رفاقه، وقتلوا السعيد، فحلَّتْ الهزيمة بجيشه، واستولى يغمراسن على ذخائره.

(د) انهيار دولة الموحّدين :

لقد كانت وفاة السعيد مفاجأة كبرى، وضعت حدًّا لآمال الموحّدين في استرجاع نفوذهم وقوتهم. فاتجهت الأنظار، في شأن تعيين خلف له، إلى أبي حفص عمر بن أبي إبراهيم بن يوسف ابن عبد المؤمن، الذي كان واليًا على سلا ورباط الفتح، فأخذ له البيعة أخوه أبو زيد، والي مراكش، واتخذ لقب المرتضى. وبتعيينه خرجت الخلافة من بيت يعقوب المنصور، مما أغضب كثيرًا من السادة المنتمين إليه. ولم يحظ عرب الخُلْط بثقة المرتضى لِما شاع عنهم أنهم تقاعدوا عن خوض المعركة التي دارت بين السعيد ويغمراسن، فحاول المرتضى اكتساب مودة عرب سفيان، وشُغِلَ مدة سنوات عن مواجهة الخطر الرئيسي، وهو خطر بني مرين.

وذلك أن بني مرين لم يضيعوا أية فرصة لتوسيع نفوذهم. فلم تمض أيام قلائل على اتصالهم بنبإ وفاة السعيد حتى استولوا على تازا، تخوُّفا من أن يسبقهم بنو عبد الواد إليها، فكانت أول مدينة امتلكها بنو مرين. ثم توجهوا إلى فاس، فحاصروها مدة، ثم فاوض أشياخها أبا يحيى المريني في شروط دخولهم في طاعته، ووقع الاتفاق بين الطرفين، فدخل بنو مرين مدينة فاس في ربيع الآخر 646هـ / أغسطس 1248م. ولم يتابع أبو يحيى زحفه، بل اشتغل بتنظيم شؤون إمارته الجديدة. ثم استأنف أبو يحيى المريني زحفه على أراضي الموحّدين، فأرسل المرتضى جيشا، للدفاع عن سَلا، فأقام الجيش أيامًا في ناحيتها، ثم توجه إلى ناحية مكناسة، حيث كان أبو يحيى مقيمًا بجموعه، ونشبت الحرب بين الفريقين، في محرم 650هـ / أبريل 1252م، فانهزم جيش الموحّدين.

وبعد ذلك تفرَّغ أبو يحيى المريني لإصلاح شؤون إمارته. أما الخليفة الموحّدي، فإنه انشغل بإخضاع الثورات التي اندلعت في بلاد السوس الأقصى وغيرها. وعُنِيَ كلاهما بتعزيز صفوف حلفائه، وتقوية جيوشه. ولما شعر المرتضى أنه أتم استعداده، غادر مراكش في جيش وافر، وتوجَّه نحو مدينة فاس. والتقى الفريقان قربها، في جمادى الآخرة 653هـ / أغسطس 1255م، فانهزم جيش الموحّدين شرَّ هزيمة، فعاد المرتضى إلى مراكش. واستولى أبو يحيى على ناحية دَرْعَة، ثم عاد إلى فاس، وتوفي بها في رجب 656هـ / يوليه 1258م.

وبعد وفاة أبي يحيى المريني، تَمَّ تعيين أخيه أبي يوسف يعقوب، الذي كان يحظى بثقة الأشياخ. وفي أوائل سنة 658هـ / 1260م، استولى بنو مرين على سلا، ثم تعرَّضت هذه المدينة، في 2

شوال 658هـ / 10 سبتمبر 1260م، إلى هجوم الإسبان، فقتلوا كثيرًا من أهلها، وسبوا النساء والأطفال، وخرَّبوا المساجد. ولما بلغ خبر هذا الاعتداء إلى أبي يوسف المريني بتازا، أسرع إلى سلا للدفاع عن المدينة وإجلاء النصارى عنها. فحاصرهم واستمرَّ القتال بضعة أيام، فانسحب النصارى عن طريق البحر. ومكث أبو يوسف مدة بسلا، لإصلاح ما أفسده النصارى. ثم زحف أبو يوسف المريني إلى مراكش، في سنة 662هـ / 1264م، قصد الاستيلاء عليها. ولما وصل قرب مراكش، لقيه جيش الموحّدين. فتقاتل الفريقان أيامًا عديدة، وقتِل فيها عبد الله أَنْعجُوب، ولد أبي يوسف المريني، فحزن لموته حزنا شديدًا، وبعث له المرتضى بالتعزية، وطلب منه أشياخ الموحّدين أن يرفع الحصار عن المدينة ويرحل عنها، فوافق على ذلك شريطة أن يدفع له المرتضى إتاوة كل سنة، وعاد أبو يوسف إلى فاس.

وفي محرم سنة 663هـ / أكتوبر 1265م، غادر مراكش أبو العُلى إدريس ابن عم المرتضى ويسمى أبا دَبُّوس. وكان سُعِيَ به عند المرتضى، فخشي على نفسه وفرَّ إلى فاس. فطلب من أبي يوسف المريني المساعدة بالجنود والمال لمحاربة المرتضى والاستيلاء على مراكش، والتزم أن يكون لكل منهما نصف ما يستولي عليه. فقبل أبو يوسف عرضه، وأعانه بالجند والمال. ونهض أبو دبوس بما جمعه من المقاتلة في ذي القعدة سنة 663هـ / يوليه 1265م، متوجِّهًا إلى مكناسة، ثم إلى ناحية تادلا، حيث اتصل بقبيلة هَسْكورَة، فاستقْبل بحفاوة ومكث عندهم مدة اجتمع حوله خلالها كثير من الأتباع. ثم ساءت تصرُّفات المرتضى، فالتحق كثير من أتباعه وجنوده بأبي دبوس. وأمر المرتضى جيشه بالذهاب لقتال قبيلتي حاحَة ورَجْرَاجَة، فأصبحت مراكش خالية من المقاتلين. واهتبل أبو دبوس هذه الفرصة، فزحف إليها واستولى عليها في 22 محرم سنة 665هـ / آخر أكتوبر 1266م، بعد أن فرَّ عنها المرتضى. وأرسل أبو دبّوس جماعة من الفرسان لمطاردته، فعثروا عليه خارج مدينة أزَمُّور، فأسروه ثم قتلوه أثناء سيرهم إلى مراكش بأمر من أبي دبوس، وسُجِن أبناؤه.

ولما دخل أبو دبوس مراكش، وتربع على عرش الموحّدين، بايعه الناس بالخلافة، وتلقب بلقب الواثق بالله. فصرف عنايته لبسط نفوذه في المناطق التي بقيت خاضعة لخلفاء الموحّدين جنوب وادي أم الربيع. ولم يكن مستعدا للوفاء بما التزم به لأبي يوسف المريني، فأخذ يماطله ويمنّيه بالوعود كلما طالبه بذلك. وفي أوائل سنة 666 هـ / أواخر1267م، أرسل أبو يوسف رسالة إلى أبي دبوس يطالبه فيها بتنفيذ عهده، وتسليمه نصف البلاد التي استولى عليها. فأجابه برسالة شديدة اللهجة، أشعره فيها بعزمه على إيقاف التوغل المريني في الأراضي الموحّدية، وتصميمه على استرجاع ما أمكن من عظمة دولة الموحّدين. فغضب أبو يوسف لذلك الجواب، ونهض بجيشه متجهًا نحو مراكش، وهو يفسِد كل ما وجده في طريقه من قرى ومزارع وضياع، مما سبَّب انتشار الخوف والهلع، وقلة المؤن، وارتفاع الأسعار. وحينئذ أدرك أبو دبوس أنه مُرْغم على خوض المعركة الحاسمة، فجمع الجيوش وغادر مراكش قصد لقاء أبي يوسف المريني. والتقى الفريقان في 2 محرم سنة 668 / أول سبتمبر 1269، ودارت بينهما معركة عنيفة، انهزم فيها الموحّدون، وقتِل أبو دبوس، فانقرضت بموته دولتهم.

(هـ) منجزات الموحّدين السياسية والاقتصادية والثقافية :

1 - المنجزات السياسية والعسكرية :

(1) توحيد المغرب والأندلس :

يحتلُّ عصر الموحّدين مكانة خاصة في تاريخ العرب. وذلك أن ما حدث خلاله من احتلال أراضيهم كان ناتجًا بالدرجة الأولى عن انقسامهم وتشتتهم. وقد شعر كبار ساستهم بضرورة توحيد جهودهم من أجل استرجاع قوتهم والدفاع عن بلادهم. ويمكن القول إن دعوة المهدي ابن تومرت كانت تحمل في طياتها بذور توجيه سائر فئات المجتمع إلى تعميق الاعتقاد، وإعطائه البُعْد الفكري المناسب له، وتدقيق المسائل المختلف فيها، وبخاصة مسألة توحيد ذات الله وصفاته، وتفهُّمها وفق آراء المعتزلة والأشاعرة المعتمدة على الرأي والمنطق. ثم إن اعتبار الإيمان علمًا وعملاً كان يدعو إلى الإصلاح الأخلاقي عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويرمي إلى تكوين المواطن الصالح، وتوجيه كل أفراد المجتمع إلى تحقيق الأهداف التي تعود بالخير على البلاد.

ويرجع الفضل إلى عبد المؤمن بن علي الكومي في تأسيس دولة الموحّدين، واعتبار توحيد المغرب والأندلس مطلبًا أساسيا ينبغي تحقيقه لجمع كلمة أهالي تلك المنطقة، وتمكينهم من التغلب على الفتن، والتصدِّي للغزو الأجنبي بمزيد من النجاعة والقوة. والجدير بالملاحظة أن عهد ازدهار دولة الموحّدين كان متزامنا مع جهود خلفاء ابن تومرت الرامية إلى توحيد أقطار المغرب والأندلس. فكان نشاط عبد المؤمن السياسي كله موجَّهًا نحو تحقيق هذا الهدف. وفي هذا الإطار، يعتبَر تحرير بلاد إفريقية، والقضاء على احتلال النرمان لبعض مدن سواحل إفريقية، وطردهم من مدينة المهدية، في شهر محرم سنة 555هـ / 1260م، تاريخ تحقيق توحيد بلاد المغرب والأندلس لأول مرة تحت سلطة دولة مغربية. ثم استمرَّت سياسة الموحّدين على هذا الاتجاه بعد وفاة عبد المؤمن. فكان قضاء ابنه أبي يعقوب يوسف على إمارة ابن مردنيش بالأندلس، وإخضاع ثورة قبيلة غمارة بالمغرب الأقصى، وإخماد فتنة مدينة قفصة بإفريقية، من مقتضيات الحفاظ على توحيد أقطار الدولة.

ثم سار يعقوب المنصور بن يوسف على هذا المنوال، فتصدَّى لإخماد ثورة بني غانية، التي نشأت في بجاية، وامتدت إلى بعض مناطق المغرب الأوسط وبلاد إفريقية، فعالجها بجدٍّ وحزم، وألجأ الثائرين إلى الفرار، والاعتصام بالصحراء. ثم تفرَّغ لمساعدة مسلمي الأندلس، وخاض العديد من المعارك ضد الإسبان، وذاع صيته بعد انتصاره في معركة الأرك الشهيرة.

وفي عهد الناصر أعاد بنو غانية شنَّ الغارات على بلاد إفريقية، واستولوا على معظمها، فاضطر إلى إرسال الجيوش للقضاء على الثوار، وإرغامهم على الالتجاء إلى الصحراء من جديد. غير أن الناصر فشل فشلاً ذريعًا في مواجهة حركة الاسترداد الإسبانية، وانهزم هزيمة شنعاء في معركة العِقاب، سنة 609هـ / 1212 م، وبذلك انتهى عهد الازدهار، وأصبحت دولة الموحّدين تتجه بخطى حثيثة نحو التدهور. وقد تمثل ذلك بصفة خاصة في عجز خلفاء الناصر عن مواجهة الأخطار التي أخذت تحدِّق بدولتهم من كل جهة، ومنع انفصال إفريقية والمغرب الأوسط والأندلس عنها، وانقلب توحيد المغرب والأندلس، من جديد، إلى انقسام وتشتت. وإذا كانت نشأة دول بني الأحمر والحفصيين والزيَّانيين والمرينيين تُعَدُّ فشلاً بالنسبة

للموحدين، فإن جهودهم الجبَّارة التي أدَّت إلى توحيد المغرب والأندلس، وساهمت في استمراره ما يقرب من قرن، تُعَدُّ مفخرة للأجيال السابقة، وتشجيعًا لمشاريع التوحيد المستقبلية.

(2) الجهاد ضد الإسبان :

لقد بدأ الإسبان حركة الاسترداد بعد سقوط دولة الأمويين، فاستولى القشتاليون على طليطلة في عهد المرابطين، واستمرت هجماتهم على أراضي المسلمين بالأندلس بعد ذلك. واستنجد هؤلاء بالموحّدين منذ تأسيس الدولة على يد عبد المؤمن، وكان هذا الأخير منشغلا بتنظيم شؤون دولته الفتية. فاستجاب لطلب أهل الأندلس بإرسال المدد، وتفرَّغ لمواصلة حركته في اتجاه المغرب الأوسط وإفريقية، في إطار مشروع توحيد بلاد المغرب، إلى أن استولى على المهدية، سنة 555هـ/ 1260م.

ومن نتائج هذا الانتصار أنه مكَّن عبد المؤمن من التفرُّغ للاهتمام بشؤون الأندلس بمزيد من الفعالية. وكان المسلمون بالأندلس يعانون، منذ سنوات عديدة، من هجمات ملك قشتالة ألفونسو الثامن، الذي راح يضرب الحصار حول قرطبة، مغتنمًا فرصة تفرقة الأندلسيين إثر انقراض دولة المرابطين، حيث إن كل منطقة أصبحت تحت حكم أمير، كما كان الأمر أيام ملوك الطوائف. وعندئذ أرسل عبد المؤمن العساكر إلى الأندلس للدفاع عن أراضي المسلمين بها، والتصدي لغزو جيوش الإسبان. فاضطرَّ ملك قشتالة إلى الإفراج عن قرطبة وكثير من المناطق التي كان قد احتلها. وفي سنة 546هـ / 1151م، قدم وفد الأندلسيين على عبد المؤمن وهو بسَلا، وبايعوه.

غير أن خطر هجمات النصارى على أراضي المسلمين كان لا يزال يهدد هؤلاء. وذلك أن حركة الاسترداد الإسبانية كانت تحمل طابعًا دينيا، وكان يباركها بابا روما، شأنها في ذلك شأن الحروب الصليبية التي اندلعت أيضا في عهد المرابطين. ولذا، فإن ردَّ فعل الدول الإسلامية، المتمثل في التصدي لحملات الصليبيين شرقا، وهجمات الإسبان غربًا، كان يتسِم بنفس الطابع، ويعَدُّ جهادًا في سبيل نصرة الإسلام، والدفاع عن حوزته. وفعلاً، فإن عبد المؤمن لم يتقاعد عن تلبية استنجاد الأندلسيين كلما أغارت على حصونهم ومدنهم جيوش الإسبان.

واستمرَّ جهاد الموحّدين ضد الإسبان في عهد ابنه أبي يعقوب يوسف، الذي أولى عناية خاصة لمساعدة أهل الأندلس على الدفاع عن أراضيهم، ومواجهة هجمات النصارى على حصونهم، وأجاز ثلاث مرَّات إلى الأندلس بالجيش لمواجهة هجمات العدو، وقضى ثُلثَ مدة عهده بالأندلس، وتوفي بها وهو يجاهد ضدّ الإسبان. أما يعقوب المنصور فإنه أجاز إلى الأندلس سنة 585هـ/ 1190م، ففتح حصونا عديدة واسترجع مدينة شِلْب سنة 587هـ / 1191م، وعاد إلى مراكش. وفي سنة 590هـ / 1194م، وردت عليه أنباء من إفريقية بتفاقم الوضع السياسي، وعودة بني غانية إلى شن الغارات على مناطق الجنوب، فأمر بالاستعداد لتجهيز الجيوش، وغادر مراكش متجهًا نحو بلاد إفريقية. فلما وصل إلى مكناسة، وردت عليه أخبار من الأندلس تنبئ بعودة الإسبان إلى الهجوم على أراضي المسلمين. فعدل عن مسيرته إلى إفريقية، واكتفى ببعث المدد إليها، وقرَّر تجهيز الجيوش للإجازة إلى الأندلس. وكان جوازه إليها في جمادى الثانية سنة 591 هـ / يونيو 1195م.

فتوجه يعقوب المنصور إلى إشبيلية ثم إلى قرطبة، ثم سار نحو جيش ملك قشتالة ألفونسو

الثامن، الذي كان متمركزا في محلة تسمى الأرك. وهناك وقعت المعركة الشهيرة التي انتصر فيها الموحدون انتصارًا عظيمًا على أعدائهم، في 9 شعبان 591هـ / 18 يولية 1195م. وتابع يعقوب المنصور نصره بشنّ غارات عديدة في قشتالة، ثم عاد إلى إشبيلية. وفي جمادى الأولى سنة 592هـ / 1196م، أعاد الكرَّة إلى شمال قشتالة، فأفسد فيها المزارع وخرَّب الحصون، غير أنه لم يتمكَّن من الاستيلاء على طليْطِلة. ثم قام بنفس العملية في أواسط سنة 593هـ / 1197م.

ويمكن القول إن جهاد الموحّدين بلغ أوجه في عهد يعقوب المنصور، لما ظهر فيه من تصميم منقطع النظير على بذل أقصى الجهود لإغاثة مسلمي الأندلس، والدفاع عن أراضيهم. وكان يُنتظر أن يواصل الموحّدون حركة الجهاد ضد الإسبان بعد وفاة يعقوب المنصور، وأن يوظفوا ما كانوا يملكون من وفرة الوسائل البشرية والمادية لمواجهة حركة الاسترداد الإسبانية بمزيد من الانتصار. وكان الناصر يتسِمُ بما يتطلبه الوضع من نجدة واستعداد لخوض المعارك بالأندلس للحفاظ على الأمن في أرجائها وسلامة أهلها. ولم يكن إقبال الناصر على الجهاد أقل حماسًا من تصميم ملوك إسبانيا على مواصلة الجهود لإنجاح حركة الاسترداد. غير أن تصدِّيه للعدوان الإسباني مُنِيَ بالفشل في معركة العِقاب، التي انتهت بهزيمة جيشه الجرّار، في ظروف غير ملائمة. وأهمَ عوامل هزيمة الناصر، في هذه المعركة تنحصر فيما يلي:

- لقد لقي الجنود مشقة كبرى في الحصول على المؤن اللازمة لما حصل من المسؤولين من إهمال وسوء تصرف.

- لم تمنح الجنود أرزاقها في الوقت المعتاد، مما زاد في سخطها وتبرّمها على الخليفة الناصر ووزيره.

وقد بلغ سخط بعض الجنود إلى حدّ أنهم كرهوا القتال، و"أنهم لم يسلُّوا سيفا ولا شرعوا رمحًا، ولا أخذوا في شيء من أهبة القتال، بل انهزموا لأول حملة الإفرنج عليهم، قاصدين لذلك".

- لقد اغترَّ الناصر بكثرة جنوده ووفرة عتاده، واعتقد أن النصر سيكون حليفه بدون شك، وكان مستبدًا، مستقلاً في رأيه، لا يقبل النصيحة. وكان الشيخ أبو محمد بن أبي حفص قد أشار إليه بالرجوع عن غزو الأندلس فلم يأخذ برأيه.

- لم تخضع الجيوش الإسلامية إلى قيادة موحَّدة ذات كفاءة حربية، تسهر على التنسيق بينها وحفظ نظامها، وإصدار الأوامر الكفيلة بتحقيق النصر، فكانت وَفْرَة الجيوش من أسباب الفشل، لما نتج عنها من مشاكل في التموين والتنظيم، ومن خلل في القيادة العسكرية.

ومن جهة أخرى، فمن عوامل انتصار النصارى ارتفاعُ معنوياتهم لِمَا اصطبغت به حملتهم من طابع ديني. فقد أقِيمت الصلوات في أوربا الغربية كلها، وقُرِّرَ صيام ثلاثة أيام لما تحركت جيوشهم. وكان الرهبان ورجال الدين يقومون بدَوْر هام أثناء المعركة بتحريض المقاتلين على الصبر والثبات. وقضى النصارى قسمًا من ليلة الاثنين في الدعاء والصلاة. ثم إن ملوك الإسبان كانوا متَّحِدين ومتفقين في خطتهم الحربية، وعاقدين العزم على بذل جميع الجهود لتحقيق النصر. ولم يتأثروا بتخَلِّي الفرسان الأجانب عنهم، بينما كان الناصر يعتقد أن ذلك قد أحطّ بمعنوياتهم وأن انتصار جيشه كان محققًا.

وبعد هزيمة العِقاب المشؤومة، تلاشى حماس الموحّدين لعقيدتهم، وأخذ أمراؤهم

يتنافسون على العرش، وانشغلوا بما قام بينهم من نزاع حول السلطة، وتهافتوا على الأموال والغنائم، ومنهم من تحالف مع ملوك الإسبان لبلوغ مراده، مقابل تسليم عدد من الحصون ودفع مبلغ من المال للعدو. وضعفت معنوياتهم، وذهب حزمهم واعتناؤهم بالجيوش، فلم يعودوا يقاومون جنود النصارى، ولم يقووا على إخماد الثورات القائمة في بعض المناطق.

واغتنم ولاة إفريقية من أبناء أبي حفص عمر الهنتاتي فرصة ضعف الموحّدين، فأعلنوا انفصالهم عن خلفاء الدولة الموحّدية بمراكش، وادعوا أنهم ورثة دولة الموحّدين، فتم تأسيس الدولة الحفصية بإفريقية. وطمعت بعض قبائل زناتة في الاستيلاء على الحكم بالمغرب الأوسط، فأسست إمارات بناحية شَلف وجبل وَانْشَرِيس، واحتلَّ بنو عبد الواد منطقة تِلِمْسان، وأسسوا بها الدولة الزَّيانية. ونازع بنو مرين خلفاءَ الموحّدين على السلطة في عقر دارهم مدة طويلة انتهت بسقوط دولتهم سنة 668هـ / 1269م.

ويمكن اعتبار فشل الموحّدين هذا سببًا رئيسيا من أسباب الانحطاط السياسي والحضاري بالمغرب العربي، إذ أنه أدَّى إلى عودة المغاربة إلى الانقسام والتشتت من جديد، وجعلهم منْهَمِكين في إثارة الفتن والحروب فيما بينهم، وانشغلوا بذلك عن مواجهة العدو الحقيقي، والدفاع عن أراضي المسلمين بالأندلس بما كانت تتطلبه الأوضاع من الحزم والفعالية، فتركوا الفرصة لملوك إسبانيا في الاستيلاء على معظم أمصار الأندلس، خلال فترة تدهور أوضاع دولة الموحّدين، ومحو الوجود الإسلامي بها، والقضاء على مظاهر الحضارة العربية فيها، تمهيدًا لاستكمال تحقيق حركة الاسترداد بالقضاء على مملكة غرناطة في أواخر العصر الوسيط، ولغزو سواحل شمال إفريقيا خلال العصر الحديث، مع ارتكاب أشنع أعمال القتل والسبي والنهب والتخريب.

2 - المنجزات المعمارية والاقتصادية :

لقد عُنِيَ الموحّدون بالجانب المعماري، فشيَّدوا المَباني العسكرية والدينية والمدنية، وأضفوْا عليها سِماتِ العظمَة والقوة التي امتازت بها دولتهم. فمن الإنجازات التي أمر بها عبد المؤمن، بناء وتحصين جبل الفتح بالأندلس، أثناء حركته إلى المهدية، في أواخر سنة 554هـ/1159م أو أوائل سنة 1160م، وجبل الفتح هذا هو الذي يسمى حاليا جبل طارق.

وفي عهد ابنه أبي يعقوب يوسف ازدهرت التجارة، وشمل الرخاء بلاد المغرب كلها، وكثرت الجبايات من سائر الأنحاء. فحقق الموحّدون الكثير من المنجزات المعمارية وشيّدوا المساجد والقصور، وبنوا الأسوار لتحصين المدن، وأحكموا تنظيم الدولة سياسيا وإداريا واقتصاديا، واختطَ يوسف بن عبد المؤمن مدينة الرباط.

غير أن عهد يعقوب المنصور هو الذي يمتاز بأهمية الإنجازات المعمارية، حيث إنه أمر بانطلاق أشغال بناء مدينة الرباط، التي اختطها والده، وتواصل العمل فيها طيلة عهده، فكمل تشييد الأسوار والأبواب وكثير من مباني المدينة. أما المسجد، فلم يتم بناؤه عندما توفي يعقوب المنصور، ولم يُتابَع العمل فيه أيام خلفائه. وقد وصفه عبد الواحد المراكشي قائلا:" وبنى فيها مسجدًا عظيمًا كبير المساحة، واسع الفناء جدا، لا أعلم في مساجد المغرب أكبر منه. وعمل له مئذنة في نهاية العلوّ، على هيئة منار الإسكندرية، يُصْعَدُ فيه بغير دَرَج، تَصْعَد الدوابّ بالطين والآجر

والجصّ وجميع ما يُحْتاج إليه إلى أعلاها، ولم يتم هذا المسجد إلى اليوم ".

وفي رجب سنة 581هـ / 1185م، أمر يعقوب المنصور ببَدْء أعمال بناء حومة الصالحة بمراكش، جنوبي المدينة، وتمتدّ ما بين باب أغمات شرقا وباب الشريعة غربا. فشيدت قصور عديدة للدولة ومسجد جامع. وتم الانتهاء من بناء هذه الضاحية في ربيع الأول سنة 584هـ / 1188م، فكانت تحفة فنية تحمل أجمل مميزات الفن المعماري بالمغرب الإسلامي لذلك العهد.

ومن منجزاته المعمارية بناء بيمارستان بمدينة مراكش، لعلاج المرضى الفقراء والأغنياء. ويذكر عبد الواحد المراكشي أن يعقوب المنصور أولاه فائق العناية في إتقان تشييده ووفرة تجهيزه، والسهر على حسن معاملة المرضى، وتوفير كل ما يقتضيه علاجهم من الأدوية ووسائل الراحة، "وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال، وأعدّ فيه للمرضى ثياب ليلٍ ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء، فإذا نقه المريضُ فإن كان فقيرًا أمر له عند خروجه بمالٍ يعيش به ريثما يستقلّ".

وفي المجال الاقتصادي، أمر يعقوب المنصور، في سنة 581هـ / 1185م، بالزيادة في وزن الدينار الموحّدي، فأصدرت دار السكة بفاس دينارًا جديدًا يبلغ في الوزن مقدار دينارَيْن قديمين، مما كان له أثر محمود في نموّ المعاملات التجارية، وتشجيع النشاطات الصناعية والفنية.

3 - المنجزات الثقافية :

لقد نشأت دولة المرابطين على أساس إصلاح الدين، والتمسُّك بعقيدة أهل السنة ومحاربة البدع. وفي عهدهم عَمَّ المذهب المالكي سائر أقطار المغرب الإسلامي، وتدعَّمت العلاقات بينها. غير أن دعوة المرابطين الإصلاحية سرعان ما فقدت طابعها التجديدي، حيث إن علماءها لم يتفتحوا على النظريات التي ظهرت في المشرق الإسلامي، بل تمسَّكوا بآراء أهل الحديث الآخذة بالنصوص دون الرأي، وأبطلوا نظريات المعتزلة والأشاعِرَة، ومنعوا العامَّة من الاشتغال بعلم الكلام.

وتلك هي نقاط الضعف التي استغلّها ابن تومرت، فاتخذ العقيدة سلاحًا حارب به المرابطين، واعتمد على نظرية التوحيد، التي أخذها عن المعتزلة، لإنكار آراء علماء المرابطين حول صفات الله تعالى، وسمَّاهم المجسِّمين. ثم إنه عُنِيَ كثيرًا بالأخلاق، وتشدَّدَ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وفيما يخصّ الفقه، فإنه اعتمد فيه على القرآن والحديث وذهب فيه مذهب الظاهرية، وعاب على المالكية تقليدهم لمن سبقهم من الفقهاء، واقتصارهم على دراسة كتب الفروع، وإهمالهم للقرآن والحديث في مجال التشريع. وقد تبعه في ذلك خلفاؤه، فحثُّوا العلماء على الاهتمام بالعقائد وعلوم القرآن والحديث والأصول، ونبذ كتب الفروع.

ويبدو أن عبد المؤمن وابنه أبا يعقوب يوسف انشغلا عن تطبيق هذه الآراء، بما قاما به من الجهود من أجل تأسيس الدولة الموحّدية، والتصدّي لخطر الهجمات الصليبية بإفريقية والأندلس. أما يعقوب المنصور، فإنه عُنِيَ بجعل آراء ابن تومرت في حَيِّز التطبيق، فيما يخصُّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك مما لم يتسنَّ القيام به لأبيه وجدِّه. "فأمر بإراقة المسكرات وقطعها، والتحذير بعقاب الموت على استعمالها، وأنفذ المخاطبات بذلك إلى كافة ولاته بالأمصار، فأريق منها في البلاد ما يساوي أموالاً جَمَّة". وفي عهد يعقوب المنصور، ذاع صيت الصالحين

والمتبتلين في مختلف أنحاء الدولة، وعظمت مكانتهم من الخليفة الموحّدي. "ولم يزَلْ يستدعي الصالحين من البلاد، ويكتب إليهم يسألهم الدعاء، ويَصِلُ من يقبل صِلته منهم بالصِّلات الجزيلة".

وفيما يخصّ أمر يعقوب المنصور بإحراق كتب الفروع، الذي ذكره عبد الواحد المراكشي في كتاب المُعْجِب، فيبدو أنه لا يخلو من المبالغة. وعلى كل، فإن يعقوب المنصور لم يوفَّق في تحقيق هدفه الرامي إلى محو المذهب المالكي وإزالته من المغرب مرة واحدة. وعليه، فيمكن القول إن الحركة الموحّدية شكّلت مُنطلقا لتجديدٍ ثقافي هامّ، يتمثّل أساسًا في التفتُّح على نظريات المعتزلة والأشاعرة في المجال الاعتقادي، وعلى علوم الحكمة، من فلسفة ومنطق وغير ذلك، مِمَّا أدّى إلى انتقال الحياة الثقافية بالمغرب الإسلامي من مرحلة التقليد والنقل إلى مرحلة التفتُّح والإبداع.

هذا، ويلاحظ أن العلاقات بين شعوب أقطار المغرب الإسلامي قد ازدادت تدعيمًا ونشاطا في عهد الموحّدين، ولاسِيَّما بعد توحيدها، وأن الحياة الثقافية عرفت نُمُوا هاما في بلاد شمال إفريقيا، نتيجة هجرة العديد من مسلمي الأندلس إليها، ومن بينهم عدد كبير من العلماء والأدباء والفقهاء والحرفيين، مِمَّا أحدث فيها انطلاقة نهضة ثقافية بلغت أوجها خلال القرن الثامن الهجري، الرابع عشر للميلاد، الذي شاهد نبوغ مجموعة من كبار العلماء، أشهرهم عبد الرحمن بن خلدون. وبصورة عامة يمكن القول إن الحياة الثقافية امتازت، في عهد الموحّدين، بتقدّم ملحوظ في مجال العلوم الدينية، التي احتلت الصدارة ونالت عناية خاصة. وكذلك حظيت العلوم اللسانية، وبخاصّة الشعر والكتابة الديوانية، بتشجيع خلفاء الموحّدين وولاتهم، وكان لهؤلاء نصيب وافر من العلم والأدب. وكانوا يرحبون بالعلماء والأدباء والشعراء، ويجرون عليهم الأرزاق. ومن كبار علماء ذلك العصر، الذين نالوا حظوة في بلاط الموحّدين، ابن رُشْد وابن طُفَيْل.

أ.د. عبد الحميد حاجيات

جامعة تلمسان

المصادر والمراجع

أولاً - المصـادر :

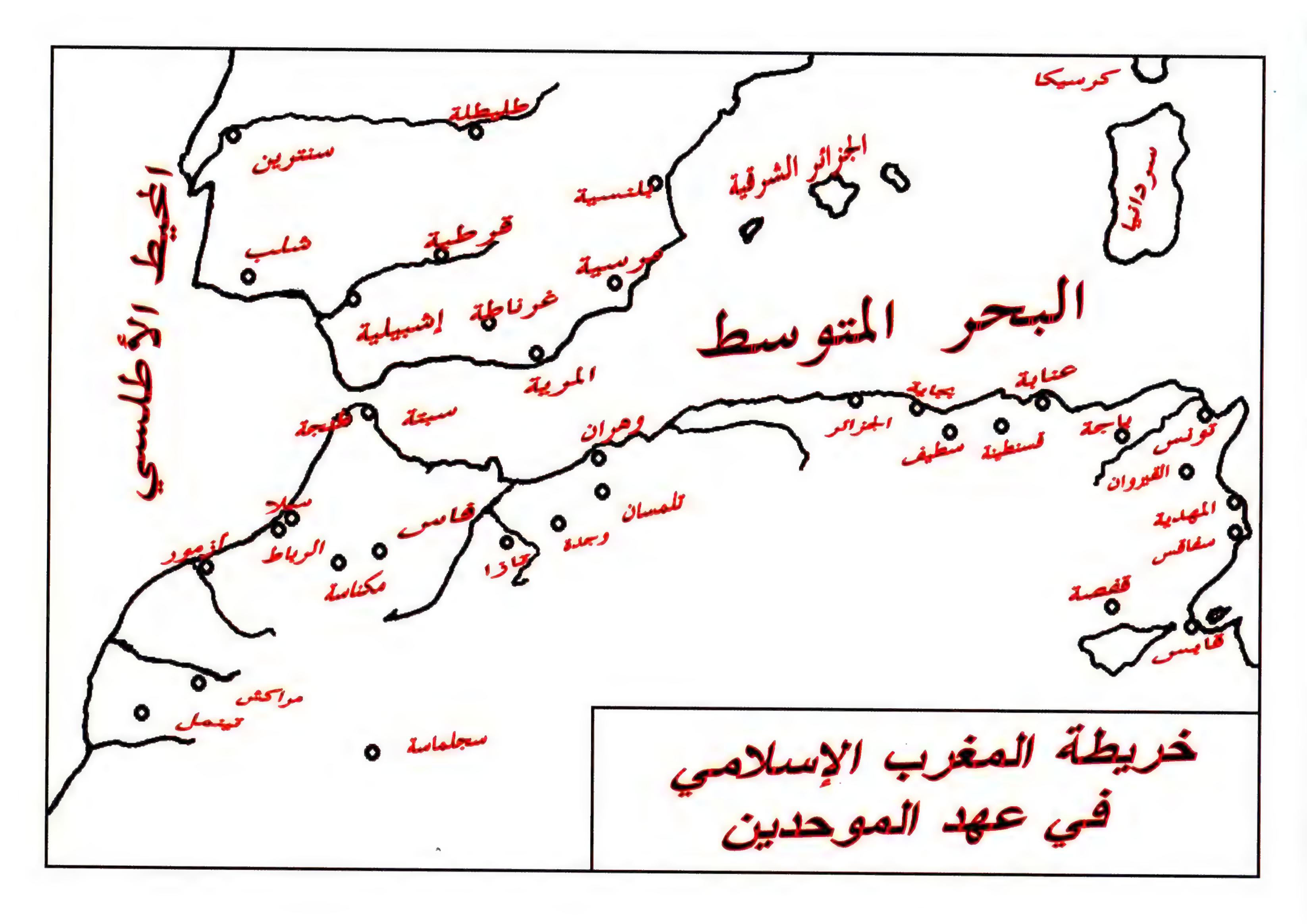
- الإدريسي أبو عبد الله محمد (ت. 560هـ / 1164م) : المغرب العربي (من كتاب نزهة المشتاق)، تحقيق حاج صادق محمد، باريس، 1983.
- ابن أبي دينار القيرواني : المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تحقيق محمد شمام، تونس، 1967.
- ابن أبي زرع أبو الحسن علي (ت. 741هـ / 1340م) : الأنيس المطرب بروض القرطاس، فاس، 1303هـ.
- ابن الأثير أبو الحسن علي (ت. 630هـ / 1232م) : الكامل في التاريخ، 12خ، القاهرة، 1965.
- ابن خلدون، عبد الرحمن (ت.808هـ / 1406م) : كتاب العبر، ج6، بيروت، 1968.
- ابن خلدون، عبد الرحمن (ت.808هـ / 1406م) : المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي، ج4، 1965-1968.
- ابن خلدون، يحيى : بغية الرواد، ج1، تحقيق عبد الحميد حاجيات، الجزائر، 1980.
- ابن صاحب الصلاة عبد الملك (ت. 594هـ / 1198م) : المن بالإمامة، السفر الثاني، تحقيق عبد الهادي التازي، بيروت، 1964.
- ابن عذاري المراكشي (ت. 712هـ / 1312م) : البيان المغرب، قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد بن تاويت ومحمد زنيبر وعبد القادر زمامة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985.
- البيذق أبو بكر (القرن 6هـ / 12م) : أخبار المهدي ابن تومرت، تحقيق عبد الحميد حاجيات، الجزائر، 1975.
- الحِمْيَري أبو عبد الله عبد المنعم (ت. 710هـ / 1310م) : الروض المعطار، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، 1937.
- الزركشي : تاريخ الدولتين الموحّدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، تونس، 1966.
- الزهري : كتاب الجغرافية، تحقيق محمد الحاج صادق، نشر في مجلة الدراسات الشرقية للمعهد الفرنسي بدمشق، سنة 1968، ص 7-312.
- عبد الواحد المراكشي (ت. 581هـ / 1185م) : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، القاهرة، 1949.
- مؤلف مجهول (ت. 783هـ / 1381م) : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق علوش، الرباط، 1936.
- مؤلف مجهول : الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، تحقيق ابن أبي شنب، الجزائر، 1920.
- المقري أبو العباس (ت. 1041هـ / 1631م) : أزهار الرياض، القاهرة، 1939-1942.
- المقري أبو العباس (ت. 1041هـ / 1631م) : نفح الطيب، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، ج10، القاهرة، 1949.
- الناصري السلاوي (ت. 1315هـ / 1897م) : الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى، الدار البيضاء، 1954.

ثانياً - المراجع العربية والمعربة :

- أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان، القاهرة، 1951.
- بورويبة رشيد : ابن تومرت، ترجمة عبد الحميد حاجيات، الجزائر، 1982.
- حاجيات ، عبد الحميد : ملاحظات حول تطور الحياة الفكرية بالجزائر في عهد الموحدين، مجلة كلية الآداب، جامعة تلمسان، عدد 1، مجلد 2، نوفمبر 2000، ص 103-111.
- العروي عبد الله : تاريخ المغرب، ترجمة ذوقان قرقوط، بيروت، 1977.
- عز الدين أحمد موسى : النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، بيروت، 1983.
- عزاوي أحمد : رسائل موحدية، تحقيق ودراسة، 1995-2001.
- علام عبد الله علي : الدعوة الموحّدية بالمغرب، القاهرة، 1964.
- عنان محمد عبد الله : عصر المرابطين والموحّدين في المغرب والأندلس، القاهرة، 1964-1965.
- كنون عبد الله : النبوغ المغربي، بيروت، 1961.
- ليفي بروفنسال إ. : حضارة العرب في الأندلس، ترجمة ذوقان قرقوط، بيروت، (د.ت).
- المنوني محمد : العلوم والآداب على عهد الموحّدين، تطوان، 1950.
- المنوني محمد : مولين محمد رشيد، عصر المنصور الموحّدي، الرباط، 1946.
- اليازجي كمال : معالم الفكر العربي في العصر الوسيط، دار العلم للملايين، بيروت، 1966.

ثالثاً - المراجع الأجنبية :

- Bel (A.) : Les Benou Ghanya derniers représentants de l'Empire almoravide et leur lutte contre l'Empire almohade, Paris, 1903.
- Bourouiba (R.) : Abd al-Mu'min, flambeau des Almohades, Alger, Ibn Tumart, Alger, 1974.
- Brunschvig (R.) : La Berbérie Orientale sous les Hafsides dès origines à la fin du XV° siècle, 2 vol., Paris, Maisonneuve, 1940-1947.
- Goldziher (I.) : Ibn Toumert et la théologie de l'Islam dans le Nord de l'Afrique au XI° siècle, préface au livre d'Ibn Toumert, traduit par Gaudefroy - Demombynes, Alger, 1923.
- Julien (Ch.-A.) : Histoire de l'Afrique du Nord, t. II, Paris, 1961.
- Laroui (A.) : Histoire du Maghreb, Paris, 1970.
- Marçais (G.) : La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age, Paris, 1946.
- Terrasse (H.) : Histoire du Maroc dès origines à l'établissement du Protectorat français, 2 vol., Casablanca, 1949-1950.



خريطة المغرب الإسلامي
في عهد الموحدين
البحر المتوسط
المحيط الأطلسي
كرسيكا
سردانيا
الجزائر الشرقية
طليطلة
سنترين
بلنسية
قرطبة
شلب
مرسية
غرناطة
إشبيلية
المرية
طنجة
سبتة
وهران
الجزائر
بجاية
عنابة
سطيف
قسنطينة
باجة
تونس
القيروان
المهدية
صفاقس
قفصة
قابس
تلمسان
وجدة
تازا
فاس
مكناسة
سلا
الرباط
أزمور
مراكش
تينمل
سجلماسة



محراب جامع توزر (العهد الموحّدي)

5 - الحياة الاقتصادية والاجتماعية

شهدت بلاد المغرب ومن ورائها الغرب الإسلامي بأكمله في الفترة التاريخيّة الممتدّة بين أواسط القرن الخامس وأواسط القرن السّابع للهجرة أحداثا سياسيّة وعسكريّة هامّة أدّت إلى تحطيم البنى السياسيّة الموجودة في هذا الفضاء أو إزالتها وإقامة بنى أخرى جديدة مكانها صيغت على أسس مختلفة.

وقد تمت هذه التغييرات على مراحل أو ضمن موجات منها المتزامن والمتعاقب والخاصّ والعام والمتشابه والمتباين. وكان لعناصر بشريّة معيّنة الدور الفاعل فيها. ونتجت عن كل ذلك أو ارتبطت به تحوّلات على المستويين الاجتماعي والاقتصادي يمكن أن تدرس، منهجيا، بمراعاة التدرّج الزمني والموقع الجغرافي والخصوص والعموم.

النّصف الشرقي من بلاد المغرب من أواسط القرن الخامس الهجري إلى أواسط القرن السّادس :

كان النّصف الشرقي من بلاد المغرب أي بلاد برقة وطرابلس (أو "البلاد الليبية") وإفريقية وشرقي المغرب الأوسط تحت حكم صنهاجة (بالخصوص) من بني زيري بن مناد الذين استخلفهم الفاطميّون على المنطقة كأمراء في أواسط القرن الرابع الهجري قبل أن تنشأ لهم دولة هناك وتنقسم إلى شطرين: دولة بني باديس من جهة، ودولة بني حمّاد من جهة أخرى.

والأمر البارز الذي عرفته هذه الرّقعة الجغرافيّة في الفترة المدروسة هو وصول بني هلال وبني سليم إليها وما قاموا به داخلها وما ترتب على كل ذلك. فمن هم هؤلاء الناس؟ ماذا فعلوا عموما؟ وماذا ترتّب على قدومهم وأعمالهم ؟.

أولاً - بنو هلال وبنو سليم أو العنصر السكاني الجديد : الهويّة والملامح الأصليّة وطبيعة القدوم :

إنّ بني هلال وبني سليم الذين حلّوا ببلاد المغرب وانتشروا فيها ابتداء من أواسط القرن الخامس للهجرة لم يأتوا إلى هذه البلاد من خارج المجال العربي الإسلامي (كما فعل الأتراك السلاجقة مثلا الذين وصلوا إلى العراق في نفس ذلك التاريخ تقريبا قادمين من خراسان والمشرق) بل كانوا من ضمن العناصر البشريّة المؤلفة لسكان هذا المجال. وهم بحكم انتمائهم إلى العرب الذين قاموا بالدور الأساسي في عملية البناء السياسي والحضاري التي انطلقت منذ ظهور الإسلام، وانحدارهم من عرب الشمال أو العرب العدنانية بالتحديد (حسب ما هو متعارف في الأنساب) الذين تنتمي إليهم قريش وينتسب إليهم الرّسول صلى الله عليه وسلّم، وإتيانهم إلى مصر ثم إلى إفريقية من الجزيرة العربيّة في الأصل التي يرجع عهدهم بها إلى بضعة عقود فقط ليسوا غرباء عن بلاد المغرب وأهلها على المستوى العام ويتّسمون بالمركزيّة من حيث النّسب والانتماء الجغرافي والشّأن التاريخي الذي

كان لقومهم. لكن "نوعيّة" هؤلاء الناس وحجم أعدادهم وطبيعة وصولهم حدّت من الجوانب المذكورة وأثرت في اتجاه معيّن.

فالهلاليون والسّليْميّون كانوا على قدر من الهامشيّة بالمقارنة مع قبائل عربيّة أخرى عند بداية التاريخ الإسلامي بحكم انتشارهم الجغرافي ونمط عيشهم. وهم لم ينخرطوا إلا جزئيّا في المشروع السياسي والاجتماعي الذي مثله الإسلام، أو لم يتمّ إدماجهم ضمن هذا المشروع؛ فتواصلت الحياة بالنسبة إليهم على المنوال السابق تقريبا حتى مغادرة الجزيرة العربية في القرن الرابع للهجرة بل حتى الانتقال إلى بلاد المغرب.

وربما أخذت الأشياء منحًى خاصا أيضا بالنسبة إليهم غير إيجابي بعد قيام الدولة الإسلاميّة "من حولهم" وما تحقق للعديد من "إخوانهم" من العرب ومن غيرهم أيضا ضمنها على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي... هذا إلى جانب محافظتهم بالطبع على خصال أصليّة كانت للعرب في البداية وشكّلت نقاط قوة لديهم.

فبنو هلال وبنو سليم كانوا يعيشون في بلاد نجد بالخصوص عند ظهور الإسلام (وفي القرون التالية كذلك). وهي منطقة تغلب عليها الصحاري بما تعنيه من ندرة مياه وقلّة نباتات. وهو أمر يجعل موارد الموضع الواحد غير كافية عادة للعيش (فيه) في استقرار، فيصبح التنقل ضروريّا لاستغلال إمكانيات فضاء أوسع. وكذلك الاعتماد على الحيوان كأساس مباشر للغذاء. والتنقل (بصيغه المختلفة) في فضاء جافٍ وقلّة الموارد والتنافس عليها وغياب ما من شأنه أن ينظم العلاقات بين المجموعات أو ضعفه، كلّ هذا يجعل المجال مفتوحا أمام الصّراع الذي يتحوّل بدوره إلى مورد من موارد الرّزق (عن طريق الإغارة والمغنم). وتطبع هذه الأشياء حياة البدو أو الأعراب بطابع خاص فيه الخشونة والشظف الغالب... الخ، وتكسبهم شدّة المراس وخصالا حربيّة أكيدة.

ولا شكّ أنّ ذلك له صلة بالهياكل التي يعيش في إطارها هؤلاء الناس اجتماعيّا وسياسيّا وبثقافتهم وقيمهم. فهم ينتظمون ضمن جماعات أساسيّة لها اتساع وتقوم على رابطة الدّم بالدرجة الأولى ويمكن أن تسمّى عموما قبائل، وتندرج بدورها في إطار مجموعات أوسع أو أعلى بناء على نفس الرّابطة مبدئيا، ويظهر ذلك في الأنساب التي تعطي الانتماء والهويّة.

ولقد كانت الحياة جماعيّة داخل هذه الوحدات من حيث مكان الإقامة والتنقل والأنشطة الاقتصاديّة والأعمال الحربيّة... فالوحدات المذكورة توفر، إذن، الإطار المادّي الطبيعي للعيش والذي هو بمثابة الامتداد للأسرة وتوفر الحاجيات الأساسية للفرد من غذاء وأمن فضلا عن توفيرها للمحيط العائلي والهوية.

وتكيّف هذه الحياة الأشخاص بالتالي، وتسبغ عليهم نوعا من التماثل والتكافؤ رغم الفوارق والتناقضات الداخلية الموجودة بينهم المرتبطة ببنية الوحدات والمنزلة داخلها وبالمنافسة. وينشأ هكذا الشعور بالانتماء المشترك والكيان الجماعي والإدراك، دون شكّ، لوحدة المصالح والمصير.

وتترجم هذه الأشياء بالالتفاف حول شيخ القبيلة أو رئيسها الذي ينتمي إلى أبرز بيوتها وأقواها رجالا ومالا والذي تتوفر فيه شخصيّا خصال السؤدد التي فيها ضمان لحسن القيادة دون وراثة آلية أو سلطة مطلقة.

كما تترجم بوحدة الموقف تجاه الخارج أي بالنعرة والحمية أو العصبية عند الحاجة؛ علما أنّ العلاقات مع الوحدات الأخرى يسودها التضامن

والتآزر "حينا" والتنافر والصّراع "حينا آخر". ويقوم التآزر على الانتماء المشترك وكذلك على المصالح، أي على عصبيّة من "درجة" أعلى أو على الحلف. ويعتبر الاجتماع ضمن كتل كبيرة لها نفس النّسب وأيضا ضمن تحالفات هامة ظاهرة بارزة في المجتمع القبلي تتدارك الانقسام الهيكلي الشّديد القائم والمتزايد الذي يوجد فيه. وهي تمكّن من مواجهة الصّراع، فهي أحد مقتضياته.

وتنزّل كل هذه الأشياء، أي الخصال الحربية والتضامن ونوعية القيادة...إلخ، منزلة القيم العليا السّامية التي تطلب ويتم الافتخار بها ويتغنى بها الشعراء.

وهناك أشياء قد تبدو "إيجابية" في حياة البدو (إلى جانب ما قد يبدو "سلبيا") مثل التشارك والتضامن والتكافؤ ونوعيّة الحكم... الخ. لكن توجد صعوبة في نقل هذه الأشياء إلى مستوى أعلى والثّبات فيه. وربما كان هذا بعض ما سعى الرّسول إلى تحقيقه من خلال الارتقاء بالنّاس من القبيلة إلى الأمة والإبقاء على أشياء قبليّة قديمة ضمن هذه الأخيرة ؛ وما دعا ابن خلدون إلى اشتراط الدعوة الدينية أيضا إلى جانب العصبية القبلية ليكون للبدو شأن هام سياسيا.

أما في خصوص علاقة القبائل البدوية بالحضر في الأطراف الشمالية للجزيرة العربيّة أساسا، وهي مناطق تماس منذ القديم بين عالمين مختلفين ومتناقضين مبدئيا رغم التّكامل الممكن بينهما: عالم الجدب والبدو الرّحل من جهة وعالم الخصب والاستقرار والمزارعين والحضر من جهة أخرى، هذه العلاقة كانت فيها مشاكل من أسبابها الطابع الجماعي لتنقلات البدو في العادة - وهم العنصر المتحرّك - وحاجياتهم الأساسية المختلفة... فهم أصحاب حيوانات يطلبون المراعي ولا يعترفون بالملكية الفردية الزراعية. ومن الأسباب أيضا خصالهم الحربية وأسلوب الأخذ لديهم أو الإغارة (إلى جانب التزوّد عن طريق التبادل) ثم العودة بعد ذلك إلى الصحراء حيث يكونون في مأمن أو على الأقل إمكانية حدوث هذا الأمر. فهم ليسوا عادة أشخاصا فرادى أو محدودي العدد يتسرّبون إلى الشبكة العمرانية القارة القائمة ويرضون بما يتوفر لهم فيها فيوظفون ويدمجون بالتدريج داخلها مثلما يحدث حاليا في محيط الواحات والمدن؛ هذا فضلا عن العوامل الإيديولوجية من الجانبين والغايات السياسية والدينية التي قد تظهر.

وكانت علاقة البدو بالحكّام تعرف بدورها المشاكل بسبب حرص هؤلاء على السّيطرة و"حاجتهم" إلى حماية الحرمين وقوافل الحجّاج وغيرها من جهة، وخاصيات أولئك (أي البدو) دوما من جهة ثانية. ولكن هنالك صيغة أخرى أيضا للعلاقة بين الطرفين تتمثل في الاستخدام السّياسي والعسكري وربما الجبائي أيضا لقسم من القبائل البدويّة الهامّة بالخصوص من قبل الدول؛ قسم يجلب ويقرّب ويستعمل ضدّ الآخرين فيصير أفراده بمثابة الأعوان الذين يقومون بعمل معيّن ويحصلون مقابله على امتيازات قد تتمثل أيضا في الإقطاعات زيادة على التسليط والإعفاءات والأموال.

ولقد وجدت هذه الأشياء في علاقة الفاطميّن بالهلاليّن في الجزيرة العربيّة ثم في مصر. فالمعروف أن قبائل بني هلال قد حرّكتها الموجة القرمطية ذات الطابع السياسي والاجتماعي الثوري والعقيدة المنتمية إلى الإسماعيلية (التي ينتمي إليها الفاطميون أيضا) وشاركوا في أعمالها في شمال الجزيرة العربيّة وأطراف العراق والشّام، وأن الفاطميين لما نقلوا مركز دولتهم إلى مصر أرادوا فرض سلطتهم على الأطراف المذكورة. وفي

هذا الإطار كان النقل إلى مصر في سنة 368هـ / 978-979م وتحديد الإقامة هناك في جنوب البلاد شرقي النيل، وقد تلا هذا التهجير انتقال تلقائي أيضا في 378 هـ / 988-989م.

وبعد إقامة بمصر دامت عدّة عقود استمرت خلالها ممارسة نمط العيش المعتاد وتواصل وجود الهياكل وازداد العدد على ما يبدو، انطلق هؤلاء الأعراب إلى إفريقية وبلاد المغرب.

والمرجّح أن هذا الانطلاق لم يكن تلقائيا بل بإيعاز من الفاطميين وتشجيع ودفع مهما كانت معلومات الهلاليين عن المغرب وتوقهم إليه. إذ يندرج الأمر أو يوضع في إطار العلاقة بين إفريقية (ومن ورائها بلاد المغرب) من جهة والدولة الفاطميّة من جهة أخرى، وبين أمير هذه البلاد والخليفة الفاطمي. فإفريقية كانت منشأ دولة الفاطميين وإقليمها المركزي قبل أن يتم التوسّع نحو الشرق وتنقل العاصمة إليه. وقد عهد بحكمها آنذاك إلى بلكين بن زيري بن مناد الذي نشأت عنه الأسرة الحاكمة الزيريّة التابعة للفاطميين. وقد قام الأمير الرابع في هذه الأسرة المعزّ بن باديس بقطع العلاقة التي كانت تربطه بالخلافة الفاطميّة ووالي الخلافة العباسية. وقد اعتبر الفاطميون هذا الصنيع بمثابة العصيان أو التمرد بل الاباق (العبد الآبق). تمرّد يقتضي العزل أو سحب التولية واستعادة البلاد من المعزّ بل العقاب أيضا. لكن لم توجّه من أجل ذلك الجيوش النظاميّة صحبة وال جديد معيّن بل جموع الهلاليين. ومن هنا الصبغة الرسمية لإرسال هؤلاء الناس، وما تذكره المصادر من إقطاعهم البلاد شفويا أو بتحرير الوثائق وهو أمر وارد في ذلك الوقت. وهذا يعطي الإحساس بالشرعية الذي ينضاف إلى المعاني الأخرى.

أما أعداد القادمين التي تمثل بدورها عنصرا هاما في المعادلة فهي مرتبطة بمدى كثرة هؤلاء الناس بمصر وبنوعية ظروفهم فيها وبدرجة حرص الفاطميين على إنجاح مخططاتهم وكذلك بالجذب الذي تمارسه التغريبة. ويبدو أن كل هذه الأشياء كانت تدفع في اتجاه كثرة المشاركة في الهجرة. لكن ليس لدينا أرقامٌ تقريبا.

وما يمكن قوله هو أن القدوم كان في شكل موجات متعاقبة استغرق وصولها وقتا؛ وأنّ الموجة الأولى كان لها من القوة ما مكّنها من التغلب على جيش المعزّ بن باديس في معركة حيدران بالخصوص. إذ أنّ محاولات هذا الأمير التفاهم مع الهلاليين باءت بالفشل أو لم تجد نفعا ووقعت المواجهة العسكريّة بين الطرفين، وتمكّن الهلاليون من الانتصار واستطاعوا "دخول إفريقيّة عنوة" لو جاز القول. وهذا الأمر أيضا له اعتباره. ولقد انتشر القادمون الجدد في البلاد وبقوا فيها وكان لذلك أثره على المستوى الاجتماعي والاقتصادي بالنسبة لهم وللسّكان السابقين والبلاد جملة. فما هو هذا الأثر؟

1 - الأثر الاجتماعي :

- بالنسبة للقادمين إن أعداد القادمين الجدد وهياكلهم الاجتماعيّة والسياسيّة ونمط عيشهم وطبيعة قدومهم والبلاد المفتوحة أمامهم إثر المعارك التي خاضوها وما نتج عن هذا الأمر على المستوى السياسي، كلها أشياء أدّت إلى انتشار بني هلال وبني سليم في اتجاه الشمال والغرب وشمولهم لرقعة واسعة من بلاد المغرب في فترة وجيزة ومنذ زمن مبكر، خاصة إذا وضعنا أيضا في الاعتبار المناطق الموجودة بين مصر وإفريقية المستهدفة أي "البلاد الليبية". فبعد الانطلاق من الصّعيد حوالي سنة 440هـ / 1018-1019م تم الوصول إلى حيدران والقيروان في سنة

443هـ / 1051-1052م وإلى بلاد بني حمّاد في السنين القليلة التالية وخوض معركة سبيبة في سنة 457هـ / 1065م. لكن من الواضح أن هذا الانتشار لم يحافظ على نسقه السريع الأول، إذ لم يتجاوز الحدّ الغربي لمجال توسع العرب في أواسط القرن السادس للهجرة أي بعد زهاء مائة عام كاملة من دخول هؤلاء الناس إلى البلاد مستوى جبل راشد في المغرب الأوسط مع تقدم أكبر نحو الغرب على ما يبدو بالنسبة لقبيلة المعقل في الجنوب. فهنالك إذن استقرار على صعيد الانتشار؛ ولا شكّ أن هذا الاستقرار له عوامله من جانب القادمين الجدد وكذلك من جانب أهل البلاد.

وكان الانتشار متفاوتا عموما من حيث الكثافة حسب الجهات. وهو أمر تحكّمت فيه الطبغرافية والعامل السّكاني المرتبط بها (وربما موارد الرزق أيضا). فقلّ وجود العرب أو انعدم في الكتل الجبلية الضخمة الآهلة بالسكان القدامى وهي هامة في المناطق الغربية مثل الأوراس وجبال جهة قسنطينة وبجاية...

ولنفس الاعتبارات السّابقة ليس هنالك إقامة في تجمّعات كبيرة عموما لا في المدن القديمة الموجودة ولا في مدن جديدة تستحدث. فالهلاليون والسليْميّون لم يقتحموا المدن القائمة بصفة عامة ولم يقيموا فيها بالخصوص إلا جزئيا، ولم يحدثوا كذلك مدنا جديدة، "واختاروا" الانبثاث في الفضاء.

ولقد تواصل وجود الهياكل والتركيبة والجماعات ذات الطبيعة القبليّة لديهم وبقيت الحياة الجماعية قائمة. فالهلاليون والسليْميّون يعيشون فيما بينهم. لكن باعتبار أنهم ليسوا وحدهم في البلاد عامة (أو لم يعودوا كذلك)، وأن هنالك سكانا سابقين على عين المكان فلقد حصل تخلل لهؤلاء السكان في شكل جماعات لا بطريقة الاختلاط الفردي. وهنالك علاقات تنشأ بالضرورة بين الطرفين نتيجة لذلك أحد وجوهها العيش على أراضي هؤلاء السكان.

وتجسّد هذا النوع من الانتشار على الأرض في شكل مجالات قبلية منها ما هو كبير وعام ومنها، دون شك، ما هو أقل اتساعا جغرافيا وبشريا؛ وهذا الصّنف ضمن ذاك في الحقيقة؛ شأن هياكل النسب. ومعطياتنا بالنسبة للفترات الأولى تتعلق خاصة بالنوع الأوّل. فنعرف مثلا أن سليما كانت في "البلاد الليبية" وأن رياحا كانت بإفريقية.

لكن لا بدّ من الإشارة هنا إلى التغييرات التي كانت تطرأ على هذه المجالات نتيجة الحركية المعتادة للجماعات الهلالية والسليْميّة التي ينضاف إليها الصّراع على المناطق الجديدة المتفاوتة من حيث القيمة والعلاقات مع الأطراف المحليّة... فلم تبق خريطة الجغرافيا القبلية هكذا ثابتة بل تطوّرت.

ومن عوامل رسم المجالات وكذلك نشوب الصّراع الحركة الماديّة أو التنقلات التي بقيت موجودة لدى بني هلال وبني سليم سواء في إطار محدود أو على نطاق واسع بين الجنوب الصحراوي والشّمال الزراعي مثلا مرورا بمناطق الواحات أو البلاد الجريدية. وترتبط هذه التنقلات بما تتطلبه الحيوانات وبما يحتاج إليه الأفراد ذاتهم على المستوى الغذائي والثقافي (الرحلة الجماعية).

فهؤلاء الناس قد حافظوا عموما على نمط العيش السّابق الذي كان لهم رغم تغيّر الإطار المادّي والبشري؛ وحالات الاستقرار أو المراكز الدائمة التي بدأت توجد مازالت محدودة.

أما الوضع المادّي والطبقي داخل الوحدات أو الجماعات الهلالية والسليْميّة فلقد شهد تحسنا، دون شك، على المستوى الأول بالمقارنة مع مرحلة الصعيد وزمن نجد. وفيما يتعلق بالمستوى الثاني

ذاته يمكن القول بأن هنالك أمرا جديدا إلى جانب التواصل القائم: أمراً له صلة بما تقدم، وهو أن بني هلال وبني سليم، باعتبار وجود السكّان المحليين "بينهم" ونوع العلاقة بين الطرفين نتيجة ملامح كل منهما، قد صاروا في الحقيقة بمثابة الأسياد الجدد للبلاد وخاصة شيوخهم.

- بالنسبة للسكّان السّابقين : أثر العنصر السكاني الجديد على السكان السابقين على مستوى العدد الجملي في البلاد والتوزيع الجغرافي والكثافة والتركيبة المحليّة والأنشطة والمراتب الاجتماعيّة... فلئن لم تذكر المصادر سقوط الكثير من القتلى من بين هؤلاء الناس من جراء التوغل في البلاد والانتشار فيها وما عرفه ذلك من مواجهات كبيرة أو محدودة وما أسفر عنه من غلبة، فإن من السّكان (بإفريقية بالخصوص) من هاجر إلى بلدان أخرى مجاورة مثل صقليّة والأندلس والمغرب الأقصى (فاس).

أما على صعيد التوزيع الداخلي والكثافة المرتبطة به فإن السّكان القدامى قد انتابتهم حركة واسعة قوامها الابتعاد عن المناطق المتضررة أمنيًا واقتصاديًا أو المهدّدة، والبحث عن أماكن أخرى يتوفر فيها قدر أكبر من الأمن وفرص أفضل للعيش أو موارد أحسن للرزق. فمن الأرياف إلى المدن، ومن المدن المستهدفة إلى المدن الحصينة، وكذلك من السّهول إلى الجبال. وعموما فمن المناطق الداخلية إلى السواحل، ومن الجنوب إلى الشمال، ومن الشرق إلى الغرب.

ولقد حصل هذا التطور منذ زمن مبكّر في بعض الأحيان وكان حادًا؛ بينما جدّ ببعض التأخير والتدرّج وبحدة أقل في أحيان أخرى. ولقد نتجت عنه خريطة جديدة للعناصر السكانيّة السابقة انتشارا أو توزيعا واختلاطا. فعرفت البسائط الداخليّة نقصا (ملأته العناصر الجديدة) ما عدا ربّما الواحات أو البعض منها، ووجد تركز في المرتفعات وخاصّة الجبال الهامّة والمدن الساحليّة الشرقيّة والشماليّة.

ولقد تواصل هذا الأمر ولم يكن ظاهرة مؤقتّة عابرة نظرا لتواصل الانتشار الهلالي والسليْمي والأوضاع السياسية وغيرها التي ولدها.

ولقد ارتبطت الحركة والوضع السّكاني الجديد بتغييرات على مستوى الأنشطة الاقتصاديّة للناس وموارد رزقهم وأسباب عيشهم وأوضاعهم الماديّة وكذلك مراتبهم الاجتماعية في الاتجاهين؛ فهنالك مثلا من تشرّد وافتقر وهنالك من ارتقى وملك.

وإلى جانب الخلط الجديد النّاجم عن الحركة، عرفت مجموعات السّكان السّابقين نوعا من الفصل بينها أو العزل وصعوبة التواصل باعتبار الانتشار الهلالي والظروف التي أوجدها. وعرف المجتمع الذي كانت تؤلفه هذه المجموعات نوعا من الانفصام أو التفكّك المتعدّد الأضلاع.

ويذكر أيضا على الصّعيد السّكاني وكنتيجة للوضع السّياسي في البلاد وفي المنطقة المتوسطيّة المتاخمة جملة وعكس الاتجاه نحو الخروج قدوم أناس من صقليّة إلى إفريقية بعد أن أخذ النرمان يضيّقون على هذه الجزيرة قبل الاستيلاء عليها بصفة كاملة في سنة 484 هـ / 1091-1092م.

كما يذكر حلول هؤلاء النرمان بسواحل البلاد في النّصف الأوّل من القرن السّادس الهجري وإقامتهم فيها بعد أن سيطروا على الكثير من المدن والمواضع على امتدادها. لكن هذه الإقامة لم تكن نهائيّة باعتبار اضطرار هؤلاء الغزاة إلى المغادرة فيما بعد. والملاحظ أن وصولهم وأعمالهم قد ساهمت في إحداث تغييرات بين السكان السابقين في المواضع المذكورة.

- أما على المستوى العام الآن: فيمكن القول إن العدد الجملي للسكان في السّاحة المدروسة قد ازداد دون شكّ. وإن القادمين الجدد، باعتبار هويتهم العربية، قد دعموا العنصر العربي (السابق) في البلاد ونشروه في الأرياف والبوادي أيضا بعد أن كان مقتصرا على المدن وضواحيها تقريبا وبإفريقية بالخصوص (وضمن هذا العنصر دعموا قبائل الشمال أكثر فأكثر ولو أن الاعتبارات القبلية قد ضعفت على ما يبدو بعد القرن الثالث للهجرة / التاسع للميلاد، وكان ذلك على حساب العناصر الأخرى البربرية خاصة التي عرفت إفريقية موجتين متتاليتين منها قادمتين من المغرب الأوسط مع الفاطميين: الموجة الكتامية ثم الموجة الصنهاجيّة. فزاد هكذا تعريب البلاد، وهو تعريب قاعدي من الأسفل أيضا وليس نخبويّا فقط. تعريب على المستوى البشري الذي يرتبط به المستوى اللغوي والثقافي. فتم بهذا تخطي خط الرجعة إن جاز القول. وحصل في الأثناء تجانس أكبر بين إفريقية والمغرب الأوسط و"البلاد الليبية" ومع ما يوجد شرقا أيضا على هذه المستويات. وساهم كل ذلك في تحديد تركيبة المجتمع للفترات اللاحقة وحتى الزمن الحالي.

كما دعم الانتشار الهلالي والسلمي نمط العيش البدوي في البلاد الذي كانت تمثله زناتة خاصة في الماضي. وفي نفس الوقت زادت الطاقات العسكرية في المنطقة وصارت لدى القبائل وفي البادية بالخصوص لا في المدن وعند الجيوش النظامية أساسا. ولئن كانت لهذه الطاقات استعمالات داخلية قبل كل شيء (في الصراعات فإنها قد عرفت أيضا الاستعمال الموجه نحو الخارج سواء على أرض المجال المدروس ضد الغزاة الطارئين عليه أو خارج هذا المجال عندما أتيحت الفرصة لذلك.

هذه التغييرات الاجتماعية وغيرها كان لها انعكاس على الصعيد الاقتصادي بقطاعاته الثلاثة. هذا إلى جانب إسهام ما هو اقتصادي في التأسيس للوضع الاجتماعي.

2 - الأثر الاقتصادي :

تأثرت الأنشطة الاقتصادية بالظروف الجديدة أي بنقص الأمن أو انعدامه وما يرتبط بذلك من تهديد بدني للأشخاص ومن استيلاء على الممتلكات أو خوف عليها... وكذلك بحركات السكّان السابقين وهوية الذين حلّوا محلّهم. لكن من جهة أخرى، هنالك حاجيات أساسية لكل من السكّان القدامى والوافدين الجدد لا بدّ من تلبيتها... ويضاف إلى هذه المعادلة أمر آخر هامّ جدا له صلة بالنقطتين السابقتين وهو أنه من طرق انتفاع العرب وقبل ذلك من وسائل تلبيتهم لحاجياتهم ومن العوامل المساعدة أيضا على تواصل الإنتاج ولو في حدود معيّنة دنيا، أن هؤلاء الناس كانوا يأخذون نصيبا من المنتوجات أو يفرضون عليها مالا. فمبدئيا لهم مصلحة إذن في تواصل وجودها. وقد يوفرون لها بعض الحماية من أجل ذلك، الحماية من أنفسهم على الأقل أو من قومهم، وهم يمثّلون هكذا نوعا من السلطة السياسية "الدائمة" الإضافية في البلاد، ويقومون بدور سياسيّ فعليّ يتمثل في الحماية والاقتطاع بعد ما حصل من تغلّب وهيمنة.

لكن نلاحظ أن هنالك أماكن استقرار وأماكن اضطراب في الجهات التي انتشر فيها العرب أو في مجالاتهم. وهذا يدل على أن "الاستقرار" المذكور ليس رهين تغلّب هؤلاء الناس على السكان القدامى فقط، بل هو مرتبط أيضا بمدى تجانس تركيبة المتغلّبين وموازين القوى بينهم وكذلك بمدى إقامة علاقات مع الأطراف المحلية والالتزام بها.

- **وفي قطاع الفلاحة :** هنالك عموما انحسار واضح للمساحات المزروعة والمغروسة لفائدة الأنشطة الرعوية. وقد عرفت البلاد، دون شك، ازديادا في عدد الحيوانات (أيضا). فكل مجموعة من الأعراب لها مبدئيا قطيعها من الأغنام والماعز والإبل، ودوابها من الخيول وغيرها، التي تعيش منها وبها أو عليها. وتستفيد هذه القطعان من غلبة أصحابها على السكان السابقين وعلى البلاد واعتمادهم على "اقتصاد" الجني والأخذ (أو الاستيلاء)، إلى جانب الرعي، عوض، أو أكثر على الأقل من الزرع والغرس والصنع. وتنتفع من جهة أخرى في إطار ذلك وزيادة على الأراضي غير المزروعة من المساحات الزراعية المتروكة أو التي تنقبض عنها الأيدي فتساهم بدورها (هكذا) في تراجعها.

ويبدو أن هذه الظاهرة قد "أصابت" جهات أكثر من أخرى. فكان وجودها أكبر في المناطق ذات الزراعات الهشّة، بينما كان أثرها أقل حدة قرب بعض المدن وفي أراضي الشمال الخصبة بإفريقية وشرقي المغرب الأوسط المختصة تقريبا في إنتاج الحبوب.

وإذا كانت المزروعات من الحبوب وغيرها بما تتطلبه من بذر فصلي أو سنوي ومن ريّ أحيانا وعناية يمكنها أن تنقطع بسرعة وتعود أيضا دون إبطاء، فإن الغراسات بوسعها ألا تزول إلا تدريجيا لكن يطول بعد ذلك زمن استرجاعها.

وتبدو خريطة المناطق الزراعية من خلال "كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" للإدريسي المطلع والمدقق الذي ألف كتابه في أواسط القرن السادس للهجرة أي عند نقطة الوصول بعد قرن من الزمان من بداية الانتشار الهلالي والسليمي وبعد استحواذ النرمان على أجزاء من البلاد وقبل الضم الموحّدي لإفريقية في 554-555هـ / 1159-1160م والذي يهتم في العديد من المرات بتدقيق الصورة بإبراز وجود العرب في أرجاء المنطقة وأعمالهم فيها وعلاقاتهم بالناس وأحوال الجهات نتيجة لذلك إلى جانب أو بعد حالها السابق، لكن الذي لا يوفر من جهة أخرى تغطية شاملة تماما "للآفاق" ولا يقدم دوما معطيات محيّنة بشكل واضح (التباس بين القديم والجديد أحيانا أو مسألة مدى حصول تغيير)؛ تبدو الخريطة على النحو التالي من "البلاد الليبية" شرقا إلى المغرب الأوسط الحمادي غربا : فهنالك تراجع للزراعات والغراسات على امتداد سواحل "البلاد الليبية" من برقة إلى طرابلس مرورا بأجدابية وسرت وغيرهما والتي انتشر فيها الأعراب وكانت لهم فيها جغرافية قبلية معينة وذلك بالتوازي مع تراجع العمران. والمعروف هو أن هذه البلاد ذات المساحات الواسعة المنبسطة لا يتوفر فيها نسيج عمراني كثيف متماسك حتى على الشريط الساحلي مثلما هو الشأن بالنسبة لإفريقية والمغرب الأوسط، بينما يبدو الوضع أفضل في واحات الصحراء التي تحتوي على مراكز عمرانية.

أما المسافة الفاصلة بين طرابلس وقابس فتبدو الصورة فيها أكثر قتامة، إذ يتحدث الكاتب عن إقفار المنازل، وما حولها دون شك، من سكانها السابقين وأنشطتهم لفائدة العرب من قبيلة مرداس ورياح ونمط عيشهم.

هذه الصورة تتغير عندما نصل إلى واحة قابس، إذ يبدو الوضع هناك عاديا تقريبا. ونفس الملاحظة تبرز وبشكل أكبر أيضا بالنسبة لواحات قفصة وقسطيلية.

وعندما ننتقل إلى ما فوق صفاقس، لأن ما بين قابس وصفاقس غير مغطى على ما يبدو، نجد

أن حمى المهدية قد زال، و"المتهمون" هم العرب الذين تلصق بهم التهمة كليًا حينا وجزئيًا حينا آخر فيما يخص مجموع البلاد منذ ذلك الزمن. وتذكر قرى كثيرة آهلة في المنطقة يمارس سكانها أنشطة فلاحية... وما عرفه حمى المهدية قد يكون شابه ما عرفته منطقة القيروان التي تصوّر في وضع بائس من حيث العمران، سكانا وسكنا وأنشطة، وهي التي كانت في وضع أفضل بكثير سابقا.

وضمن كل هذه المنطقة الوسطى وربما مجموع البلاد، تتميز أراضي قصور المنستير بما يذكر عنها وبما وجد فيها دون شك، إذ أنّ هنالك أنشطة ومنتوجات لكنّ العرب لا تتعرض لها بأي أذى ولذلك عوامله من الجانبين.

وبينما لا يتضح الوضع "الراهن" في جزيرة باشو أو جزيرة أبي شريك ولا في إقليم سطفورة (بين قرطاجنة وبنزرت)، وهي أماكن هامة جدًا فلاحيا في العادة، تبدو منطقة تونس في وضع طيب أو عادي على الأقل، وكذلك منطقة باجة، وهي جهات تنتج الحبوب أساسا ومواد تربية الماشية (لحوم وسمن...) رغم انتشار العرب هناك ودورهم وتأثيرهم.

وتذكر زراعات الحبوب وأشياء أخرى في الشريط الساحلي من طبرقة إلى بجاية. وكذلك في المناطق الوسطى الموازية لها مع وجود الانتشار العربي دوما وتأثيره. ويبدو الوضع دون ذلك حول الأوراس أو في بلاد الزاب: في باغاية وإلى الجنوب من تلك الكتلة وإلى الغرب منها حيث يوجد الانتشار والتأثير. هذه الخريطة يمكن إثراؤها وتدقيقها.

والعوامل العامة التي أثرت في الزراعة أثرت في الصناعة أيضا، زيادة على التأثيرات الممكنة لهذين القطاعين على بعضهما البعض.

- **الصناعة :** في مجال الصناعة التي تتمثل في إنتاج أشياء "جديدة" غير ما توفره الزراعة أو الطبيعة عموما لكن انطلاقا في الغالب من مواد طبيعية؛ أشياء تستجيب لحاجيات الناس وتتسم بالتنوع والاختلاف حسب أنماط العيش، وتتزايد مع مرور الزمن في اتصال بالتطور الذي يحدث؛ المقومات هي المواد الأولية أو الخامات من جهة، والعمل التقني من جهة ثانية، وإمكانية البيع والترويج وجني الأرباح من جهة ثالثة.

وكانت الصناعات تتركز في مواطن العمران خاصة وأساسا المدن باعتبار عدد السكان فيها وتطورهم وحاجياتهم. لكن هنالك أيضا حاجة للأرياف بالطبع باعتبار موادها أو منتوجاتها والطرقات الممتدة فيها... الخ.

والمدن بقيت موجودة عموما. وهي لئن تدهور حال البعض منها بصفة واضحة جدا وعرف البعض الآخر صعوبات، فإنّ قسما ثالثا شهد التدعم دون شك بازدياد عدد السكان وتنوعهم بشكل أكبر واختلاطهم. بينما عرفت الأرياف التحولات الاجتماعية والاقتصادية الكبيرة التي ذكرناها. فانطلاقا من هذه الاعتبارات، ما هو وضع الصناعة خلال الفترة المدروسة؛ أو تأثيرات الجوانب السياسية والاجتماعية وغيرها على هذا القطاع ؟

المعطيات المباشرة محدودة. لكن يبدو أن الحالات قد تنوعت فيما يخص الأوساط الصناعية والأنشطة الممارسة ضمنها والمنتوجات "المعمولة" فيها.

فإلى جانب التواصل سواء في نفس المستوى أو مع تدعم أو تراجع، هنالك أيضا الانقطاع وكذلك النشأة الجديدة في ارتباط بحالة الأسواق والعمران الذي يذكر تراجعه في أماكن عديدة والصناعة جزء منه.

وأبرز الأنشطة الصناعية والمواد المصنعة المذكورة (ولا شك أن هنالك أيضا ما لم يتم ذكره باعتبار ضرورة وجوده لحاجة الناس إليه): استخراج الزيت واقتطاع أحجار المطاحن ودباغة الجلود والنسيج والثياب واستخراج المرجان وصناعة السفن.

وربما أمكن التوقف عند مدينتين اثنتين باعتبار ما نعرفه عنهما في مجال الصناعة (كذلك) ووضع كل منهما: قابس من جهة، وبجاية من جهة أخرى.

فيذكر بالنسبة للمدينة الأولى أنه قد "كان بها فيما سلف طرز يعمل به الحرير الحسن وبها الآن مدابغ الجلود يتجهز بها منها".

والذي يفهم من مضمون هذا الكلام أن الطرز قد زال (في زمن الكاتب) وأن المدابغ موجودة وعديدة وتنتج الجلود المدبوغة بكثرة فيتجهز بها. فكأن الجلود المدبوغة قد عوضت الحرير في ارتباط بانتشار العرب ونمط العيش الذي دعموه في البلاد.

لكن إذا كان ازدياد أعداد الجلود المدبوغة واردا في اتصال بالتحولات التي تمت، ورغم أن ذلك يقتضي التجميع في المنطلق والترويج فيما بعد (الذي يذكره النص فعلا)، فهل اختفت العوامل المحلية لإنتاج منسوجات الحرير من غراسة لأشجار التوت وتربية للديدان وإعداد للخيط الخ... رغم أن قابس (كان) لديها واد دائم الجريان وواحة تتدفق حياة لا شيء يوقفها تقريبا؛ وان المدينة - الواحة قد عرفت الاستقرار والتواصل (على الأقل) مع وجود أسرتين حاكمتين متتاليتين فيها صنهاجية ثم عربية، وتمتعها بحماية العرب، واستمرار وجود اتصالات تجارية لها مع بلدان وجهات أخرى ؟

على كل حال نفس الكاتب، أي الإدريسي، يضيف بأن هنالك حريريين كثيرين بقابس من ناحية البحر في فترة التأليف دون شك.

أما بالنسبة لمدينة بجاية العاصمة الجديدة الشمالية البحرية الجبلية لدولة بني حماد، المحدثة في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري فإنّ كلّ ما يذكر عنها لدى الإدريسي يهم الفترة المدروسة باعتبار تاريخ التأليف، وهنالك معطيات عنها متكاملة لدى هذا الكاتب لاشك أنها ناتجة عن معاينة أو إخبار وثيق باعتبار تكاملها وطبيعة ما هو مذكور فيها أو تميز الوضع الموصوف، زيادة على الموقع والموضع.

فهذه المدينة لئن كان إحداثها معبّرا عن الآثار السلبية للانتشار الهلالي على البلاد عموما وخاصة على العاصمة السابقة القلعة ذات الموقع الداخلي الجنوبي المواصل للعهود السابقة، فإنّ ما يذكر عنها، أي بجاية، يعبّر أيضا عن تميّز دولة بني حماد عن دولة بني باديس والمغرب الأوسط عن إفريقية. وهو تميّز إيجابي أي وضع أفضل تساهم فيه المعطيات الطبيعية أيضا ويظهر على أكثر من مستوى. وبالنسبة للمجال الصناعي بالذات وهو الذي يهمّنا هنا، يذكر أن "الخشب في جبالها وأوديتها كثير موجود" وأنه "يجلب إليها من أقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران" وأن بها معادن الحديد الطيب موجودة ممكنة". وهذه المواد هي ما يلزم لصناعة السفن مع توفر الخبرة ووجود البحر والساحل المناسب أو الموانئ والمراسي. وهذا ما يذكر فعلا: "وبها دار صناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن والحراب". ولم يقتصر النشاط الصناعي ببجاية على هذا الميدان: "وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة". ازدهار إذا وتميّز على مستوى النصف الشرقي من بلاد المغرب سيظهر أيضا في المجال التجاري.

- التجارة : بما هي تبادل يفرضه الاختصاص والحاجيات وطلب الكسب، يتم على مختلف المستويات المحلي منها والجهوي والإقليمي والدولي، وقد يتعلق بالكثير من الأشياء أو القليل وبهذه البضاعة أو تلك، تعتبر التجارة أمرا ضروريا لا بدّ من قيامه. لكنه أمر "بإمكانه" أن يتأثر، في المقابل، من حيث الحجم ومدى الازدهار أو الكساد والمواد المتبادلة والطرق المسلوكة بعوامل مختلفة مثل مدى توفر الإنتاج ووجود الطلب وكذلك مدى استتباب الأمن وحجم التوظيف الجبائي...

ولقد بقيت التجارة قائمة فعلا في المنطقة المدروسة أثناء الفترة المعنية؛ لكنها عرفت تحولات في اتصال بالظروف الجديدة الطارئة. وهنالك في هذا الصدد معطيات أوفر نسبيا مما يتعلق بالصناعة وربما الزراعة أيضا.

والأمر البارز هو تضرر الشبكة التجارية الداخلية السابقة محطات ومسالك وأساسا القيروان والطرقات المؤدية إليها أو المنطلقة منها في اتصال بانتشار العرب وطبيعة هذا الانتشار وما عرفه العمران.

فالقيروان التي كانت القطب الأكبر في جميع بلاد المغرب على المستوى التجاري وغيره، والتي كانت "كل الطرق تؤدي إليها" تقريبا ويظهر ذلك من وصف الجغرافيين لها ومن أخبار التاريخ، صارت في وضع سيء. ويقول الإدريسي عنها :"القيروان أم أمصار وقاعدة أمصار، وكانت أعظم مدن المغرب قطرا وأكثرها بشرا وأيسرها أموالا وأوسعها أحوالا وأتقنها بناء وأنفسها همما وأربحها تجارة وأكثرها جباية وأنفقها سلعة وأنماها ربحا [...] لم يبق منها إلا أطلال دارسة وآثار طامسة. وهي الآن في وقتنا هذا على جزء منها سور تراب. وولاة أمورها العرب وهم يقبضون ما يتوفر من جباياتها. وبها أقوام قليلون تجاراتهم يسيرة ومنافعها نزرة. وفيما يذكر أهل النظر أنها عما قريب ستعود إلى ما كانت عليه من العمارة وغير ذلك".

زال إذن القطب السابق الذي كانت تمثله القيروان، فلا سكان كثيرون ولا مستوى عيش مرتفع لحفز الطلب، ولا إنتاج خاصاً هامّاً يسعى إليه، ولا أصحاب رؤوس أموال محليين متاجرين أو تجار أجانب يأتون للتبادل. والمسالك المؤدية إلى هذه المدينة ذاتها لم يعد لها من جهتها نفس النشاط أو نفس الدور، وحتى ذكرها في "كتاب نزهة المشتاق" فإنه قد جاء باهتا أو صوريا، إذ لم يبن عليها التحرير لا هي ولا المدينة. هذا مع مراعاة الطريقة المختلفة التي يتبعها الكاتب في التأليف.

ولا شك أن كل ذلك قد أثر على مواضع أخرى أيضا توجد على الطرق المذكورة. زيادة على تأثر هذه المواضع بالعوامل الأصلية ذاتها الواسعة النطاق أي انتشار الأعراب وحالة العمران. ويؤكد الوصف ذلك.

ومثلما تغير حال القيروان عاصمة إفريقية وبني باديس الداخلية وتركت إلى المهدية، تغيّر كذلك حال القلعة عاصمة بني حمّاد والمغرب الأوسط البعيدة عن البحر التي تركت بدورها إلى بجاية الجديدة بعد أن كانت هي أيضا إحدى المحطات التجارية الهامة. لكنّ أمر القلعة يبدو مختلفا عن القيروان من بعض الجوانب. فالمدينة لم تتم مغادرتها باكرا بل في زمن متأخر نسبيا، ولم يحصل ذلك دفعة واحدة بل بالتدريج (تم بناء قصور فيها بعد وصول الهلاليين). ويبدو أيضا أن الوضع لم يسُؤ كثيرا حول هذه المدينة وأن هنالك نصيبا من الاختيار فيما فعله بنو حماد من انتقال عنها وتعويض لها.

وكذلك لم تنقطع، على ما يبدو، صلة هؤلاء الحكام بالمنطقة المذكورة ولا بمعظم جهات بلادهم عكس بني باديس وإفريقية.

هذه التغييرات التي عرفتها المناطق الداخلية لا تعني أن عمليات التبادل قد انعدمت في هذه الفضاءات بين المدن والأرياف أو بين المدن ذاتها وعبر الجهات، فهذا لا يمكن أن يحصل. وهنالك شواهد على وجود هذا النشاط لكن مع صعوبات كثيرة أحيانا. شواهد ضمن فتاوي الإمام المازري مثلا الذي عاش مدة طويلة على الأقل بإفريقية وتوفي فيها في سنة 536 هـ / 1141-1142م.

وما يلفت الانتباه في هذا الصدد هو قيام العرب، على ما يبدو، بدور لا بأس به في التبادل التجاري قد يتمثل في الخفارة أي المرافقة والحماية "من النفس" والآخرين في مجال محدد مقابل مال أو غيره... وقد يتمثل هذا الدور كذلك في بيع أشياء إلى الحضر خاصة وشراء أخرى منهم وربما في التكفل بنقل البضائع لفائدة الغير.

والبيع هو نوع من التزويد وقد يصبح تزويدا حقيقيا عندما يتوفر الاختصاص والانتظام والأهمية من جهة والاضطرار أو التعويل من جهة أخرى، وهو ما تشعرنا به النصوص تقريبا في بعض الحالات.

لكن تطرح هنا مسألة مصدر الأشياء التي يجلبها العرب إلى المدن لبيعها هناك أو "صلتهم بها": هل إنها من إنتاجهم الخاص أم من إنتاج غيرهم؟ وفي هذه الحالة الأخيرة: كيف صارت إليهم؟ هل إنهم اشتروها من أصحابها ليقوموا ببيعها ؟ أم إنها نصيبهم من إنتاج السكان السابقين وفق اتفاقيات أبرمت بين الطرفين؟ أم أيضا تمت سرقتها أو غصبها؟ ربما اختلف الأمر حسب الحالات وحسب نوعية المواد المسوّقة: مواد إنتاج حيواني أو حبوب أو غيرها. وعموما هنالك ما يدلّ على ترويج الإنتاج الخاص وربما أيضا النصيب من عمل الآخرين وكذلك الغصب.

وفي الحقيقة يعتبر العرب مهيئين ماديا للقيام بدور في التجارة في شكل وساطة أو غيرها، فهم قد توفر لهم الانتشار في البلاد والغلبة عليها والتجوال فيها وإمكانية النقل بما لديهم من دواب من جهة، وهم أيضا لهم إنتاج خاص وأموال وحاجيات ولو بسيطة من جهة أخرى.

فالعرب لا يعيشون في اكتفاء ذاتي في الأرياف بمعزل عن المدن وحركة النقد، بل إن لديهم الأموال أيضا ويعرفون قيمتها ويطلبونها ويقصدون المدن للبيع والشراء فيساهمون هكذا في التبادل التجاري والاقتصاد النقدي.

هذا عن المناطق الداخلية بالخصوص.

وتدهور العمران أو تراجعه في الداخل، ما عدا في الواحات أو البعض منها وخاصة موانئ الصحراء، زيادة على الجبال، قابله ثبات أفضل له أو تدعم على السواحل. والقيروان التي تركها أميرها إلى المهدية والقلعة التي تركت إلى بجاية تقيمان الدليل على ذلك.

وهنالك نشاط تجاري قديم على الشريط الساحلي ثبت رغم التراجع أحيانا، أو تدعم بسبب التعويل عليه أحيانا أخرى، أو أيضا نشأ حديثا من أجل التعويض. نشاط يركب البحر أثناءه كثيرا وربما بصفة متزايدة. فهنالك اتجار مساحلة تقريبا بين المدن المنتمية إلى نفس العدوة والقريبة من بعضها البعض أيضا مثل قابس وصفاقس والمهدية والمنستير... الخ. واتجار عبر البحر بين، أو مع، أماكن أبعد مثل المشرق وبلاد المرابطين إسلاميا وصقلية النرمانية والمدن الإيطالية نصرانيا أو أوروبيا.

لكن هنالك جملة من الصعوبات تعترض هذه التجارة منها ما هو طبيعي ومنها ما هو تقني أو أمني أو غيره. فالبحر له أهواله في فصل الأنواء بالخصوص وبالتالي له نظامه. والسفن ليس من السهل صنعها أو امتلاكها بسبب قلة المواد الأولية والحدود التقنية... الخ. وهي أشياء تساهم فيها الخريطة الجغرافية السياسية أي حجم الكيانات ومواقعها وطاقاتها. وأمنيا، لئن أفلتت بعض السواحل الشمالية الجبلية من قبضة الهلاليين في بلاد بني حماد خاصة؛ ونقصت حدة العامل الهلالي في جوار بعض المدن الكبيرة لوجود حكام وأجناد فيها تربطهم اتفاقيات مع العرب؛ ولئن خرج البحر في حد ذاته عموما وكذلك الجزر الموجودة قبالة الساحل من دائرة عمل بني هلال وبني سليم، فإن البحار قد توجد فيها أطراف أخرى تمثل خطرا على التجارة مثل القراصنة أو القوات التابعة لكيانات نظامية قوية نصرانية أو إسلامية لها مصالحها وغاياتها أو سياساتها. وهي قد تبحث عن مجرد الغنم السريع؛ وقد تسعى إلى فرض شروط معينة تلائمها؛ أو إلى التفرد والاستبداد بالعمل على إلغاء المنافسين؛ أو كذلك إلى التوسع المجالي والاحتلال. وهنالك أمثلة على ذلك تهمّ العلاقات بين إفريقية عموما من جهة وكل من صقلية والمدن الإيطالية من جهة أخرى. وأيضا العلاقات بين بني باديس وبني حماد؛ والأمير الزيري وصاحب قابس... الخ.

وكما أشرنا إلى ذلك سابقا، تتميز بجاية عاصمة بني حماد الشمالية على المستوى التجاري أيضا بعدما تقدم من ذكر تميزها في المجال الصناعي وفي ميدان صناعة السفن بالخصوص المرتبط وثيق الارتباط بالتجارة وأساسا البحرية منها التي تطورت. تتميز بجاية بما يذكر عنها وبما وجد فيها دون شك، إذ يقول الإدريسي في خصوصها :"ومدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة الغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد والسفن إليها مقلعة وبها القوافل منحطة والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة والبضائع بها نافقة وأهلها مياسير تجار وبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلدان، وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار الشرق. وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالأموال المقنطرة [...] ومدينة بجاية قطب لكثير من البلاد".

يستفاد من هذا الكلام الذي يحتاج إلى تدقيق الزمن الذي يتعلق به بشكل أكبر باعتبار ما كان يحدث في ذلك الوقت (وقت التأليف) في بلاد المغرب والأندلس من توسع موحّدي أدرك بلاد بني حماد في سنة 547هـ / 1152-1153م (بعد أن كانت فعالياته تدور في المغرب الأقصى منذ سنة 513هـ / 1121-1122م وخاصة منذ 529-533هـ/ 1134-1139م)، يستفاد أن هنالك تجارا أجانب عديدين كبارا أيضا يأتون إلى بجاية باستمرار عن طريق البر والبحر أو في القوافل والسفن من بلاد بعيدة (كذلك) مختلفة مثل المغرب الأقصى والصحراء والمشرق، وربما غيرها أيضا. فهم بين حلول وإقامة وتصرف ومغادرة.

وإن الأمتعة والبضائع تجلب إلى هذه المدينة (من قبلهم؟) بكثرة برا وبحرا وبصفة متصلة، وهي بضائع تبدو متنوعة ومنها النفيس بالتأكيد. هذه البضائع يتم بيعها أو تبادلها هناك، أي إنها تمر من أطراف إلى أخرى في نوع من تجارة الجملة (أيضا) ربما في إطار الانتقال من فضاء إلى آخر على نطاق واسع عالمي، فلا تعبر هكذا المكان في حوزة نفس الطرف ولا تستعمل محليا فحسب. وهنالك دور لقسم من أهل بجاية في هذا المجال. دور نتج عنه يسارهم أو سمح به هذا اليسار، لكن النص لا يدققه تماما.

عرض وطلب إذن، وتبادل واسع للأموال والبضائع أو حركة تجارية نشيطة ينتفع منها أهل المكان أيضا ومن بينهم الحكام زيادة على التجار وأصحاب المهن الأخرى عن طريق الأداءات الموظفة على الأقل.

وتبدو بجاية هكذا مزدهرة حقا. وهي إلى جانب البعد المحلي بمثابة المحطة الهامة في التجارة الكبرى العالمية. ويمكن أن توضع على هذا الأساس في سياق المدن التجارية المغربية الكبيرة السابقة مثل القيروان وتاهرت وسجلماسة. لكنها تختلف الآن عن كل مدن النصف الشرقي من بلاد المغرب. وهي في وضع ربما شابه ما كان يعرفه النصف الغربي آنذاك الذي يأتيها منه قسم هام دون شك من السلع والأموال والذي توجد في أطرافه.

ثانياً - المغرب الأقصى وغربي المغرب الأوسط من أواسط القرن الخامس الهجري إلى أواسط القرن السادس (الحادي عشر والثاني عشر للميلاد):

في نفس الوقت تقريبا الذي تلقى فيه الجناح الشرقي من بلاد المغرب الذي كان شبه موحد سياسيا المدّ الهلالي والسّلَيْمي القادم من المشرق فأثر فيه التأثير السلبي عموما الذي عرفناه، شهد الجناح الغربي من هذه البلاد من جهته والذي كان على النقيض سياسيا منذ مدة طويلة ظاهرة مشابهة تمثلت في اقتحامه هو الآخر من قبل جموع بشرية جديدة قادمة من الجنوب الغربي، هذه المرة تغلبت عليه بدوره هي الأخرى واستوطنته وأثرت فيه لكن بطريقة مختلفة عما حدث شرقا، إيجابية في الجملة رغم التشابه بين المدّين في أشياء أساسية. وتمثلت هذه الجموع في المرابطين الذين ساهموا بما فعلوه في قلب الموازين في المنطقة. فمن هم هؤلاء الناس؟ ما هو الأثر الذي أحدثوه أو الذي نجم عن تغلبهم واستيطانهم وذلك بالنسبة لهم ولغيرهم وللبلاد جملة ؟

1 - المرابطون : الهوية والملامح الأصلية :

يسمَى القادمون الجدد "بالمرابطين"، لكن هذه التسمية ليست قديمة، وهي لئن دلت على الوضع الذي كان عليه هؤلاء الناس أو الصفة التي كانت لهم عند الوصول إلى البلاد (والتي كان لها تأثيرها دون شك) فإن وراءها أو قبلها أشياء أخرى سابقة يجب أن تذكر أولا، لأنها تتعلق بالهوية والملامح الأصلية التي تساعد على التعريف وتبقى دائما مؤثرة.

كان لهؤلاء الناس علاقة سابقة أو أصلية ببلاد المغرب وأهلها على مستوى الانتماء العرقي والقبلي وغيره؛ فهم من البربر أي من المغاربة في نهاية الأمر، باعتبار أن المغرب هو موطن البربر؛ وذلك بناء على أسماء المجموعات العامة بالخصوص والأنساب المتداولة التي كانت على درجة هامة من التبلور منذ زمن بعيد. وهم من صنهاجة أساسا بالتحديد التي كان لها وجود هام في بلاد المغرب في ذلك الوقت وقبله أيضا، ولها دولة أو دولتان فيها منذ القرن الرابع الهجري وأوائل القرن الخامس.

والفضاء الذي جاء منه هؤلاء الناس أي المرابطون أو الذي كانوا يعيشون فيه متصل ببلاد المغرب لكنه متميّز عنها حسب ما يفهم من المصادر. فهو يوجد بين هذه البلاد الأخيرة في الشمال وبلاد السودان في الجنوب؛ أي في الصحراء الكبرى الحالية: القسم الغربي منها بالتحديد الذي يمتد حتى البحر المحيط. فضاء شاسع، مسيرة الأسابيع العديدة من الشمال إلى

الجنوب وكذلك من الشرق إلى الغرب؛ تضاريسه متنوعة لكنها تتمثل في البسائط خاصة؛ ومناخه صحراوي تماما بحره الشديد أو قيظه وجفافه السائد المطبق؛ فالماء القليل يقتصر وجوده غالبا على آبار متباعدة بينها مفاوز معطشة أو مجابات تمتد على مسافات هامة أحيانا. وبصرف النظر عن مسألة التربة يؤثر كل ذلك بصفة مباشرة على أشكال الحياة في هذه المناطق "كما وكيفا" من غطاء نباتي وحيوانات وعمران بشري.

لكن هنالك أمر آخر هام كان يعرفه هذا الفضاء، بشري هذه المرة وليس "طبيعيا" وإن ارتبط بالموقع؛ وحادث على هذا الأساس وليس "بأزلي" رغم قدمه وتواصله الكبير؛ أمر من شأنه مبدئيا أن يخفف من انعكاسات الظروف الطبيعية المذكورة؛ يتمثل في النشاط التجاري أو القوافل التجارية التي كانت تخترق الصحراء بانتظام وتواتر على ما يبدو عبر طرق معينة تمتد في اتجاه الجنوب واتجاه الشمال أساسا ناقلة بالخصوص مادة حيوية جدا ضرورية لحياة الناس على أكثر من مستوى هي الذهب وما أدراك ما الذهب. ومهما كان حجم مشاركة أهل الصحراء في هذه التجارة أو درجة استفادتهم منها فهي "كفيلة "بأن تخرجهم من العزلة التامة والهامشية وتربطهم بالعالم الخارجي "وتدمجهم" في الدورة الاقتصادية العامة.

والمحصلة هي أنه لا توجد أنشطة زراعية تقريبا إلا بصفة موضعية ومحدودة. والنشاط الأساسي هو تربية المواشي، وخاصة الإبل المتأقلمة تماما مع الوسط الصحراوي والمفيدة جدا فيه بل الضرورية، ولهذا يتم التركيز عليها. وكانت أعدادها كبيرة تبلغ الآلاف العديدة بل عشرات الآلاف. فيذكر مثلا ابن حوقل في أواسط القرن الرابع للهجرة أن أخت ملك صنهاجة وحدها (لكنها كانت الأوفر مالا حسب قوله) كان لديها 100 راع عند كل واحد منهم 150 بعيرا.

ويعرف أهل الصحراء التنقل الدائب لكن مع وجود نقاط ارتكاز لديهم ثابتة على ما يبدو ومجالات تحرك، ونظام للترحال قد يتغير أحيانا لسبب أو لآخر فيحدث التجاوز ويعطيهم كل ذلك معرفة جيدة للمحيط ضرورية بالنسبة إليهم يمكن أن يستفيد منها غيرهم أيضا عند الحاجة من الطارئين على هذه البلاد ونعني التجار والمسافرين عامة.

ويتركز النظام الغذائي لهؤلاء الناس على اللبن بالدرجة الأولى، لبن النوق أساسا، وعلى اللحم بدرجة ثانية؛ بينما كان نصيب الحبوب ومشتقاتها محدودا جدا. وقد لاحظ ذلك الكتاب واهتموا به عبر القرون.

ويتميز الصحراويون على مستوى اللباس بحمل اللثام حتى سموا "بالملثمين" أو "بصنهاجة اللثام". ويلازم ذلك الذكور منهم على ما يبدو من حال الصغر إلى الوفاة. وقد اهتم الكتاب بهذا الأمر أيضا وقدموا له التفسيرات... والأكيد على كل حال هو أن هنالك صلة بين هذه الهيئة وبين الرياح الرملية التي تهب بكثرة في الصحراء؛ إلى جانب ارتباط اللثام بالهوية الفردية والشخصية الجماعية.

أمر آخر أيضا يذكر بالنسبة لهؤلاء الناس: فئة عمرية منهم على الأقل، من رجالهم، لهم صفات بدنية قوامها الصلابة وشدة المراس، وخصال معنوية تتمثل في الشجاعة والبسالة. وهي أشياء لها صلة بالظروف الطبيعية ونوع العيش ويمكن أن توظف في المجال العسكري أو الحربي.

على أنّ المرأة تحتلّ في هذا الوسط مكانة هامة في الأسرة والمجتمع حتى لتتعدّد الحالات التي ينسب فيها الأشخاص إلى أمهاتهم.

أما الهياكل فهي قبلية، وهنالك قبائل كبيرة خلال الفترة المدروسة هي لمتونة ومسوفة وجدالة ولمطة إلى جانب بعض القبائل الأخرى المذكورة. قبائل لها بيوت رئاسة؛ والعلاقات بينها هي علاقات تحالف وتعاون حينا وصراع وغزو واستتباع حينا آخر.

ويتم الوصول في بعض الأوقات إلى "وحدات" كبيرة لها تماسك. وتذكر المصادر ملوك صنهاجة؛ ويتكلم بعض الدارسين عن نهضات سياسية عرفها هؤلاء الناس.

ويمثل الغزو سواء في الداخل بين الصحراويين أنفسهم أو في الخارج ضدّ أهل بلاد السودان خاصة والذي كان للملثمين ماض فيه وتقاليد تظهر مثلا من خلال نظام القتال الذي يصفه أبو عبيد البكري؛ يمثل موردا آخر للرزق كالعادة ينضاف إلى ما توفره الفلاحة وتربية الماشية بالخصوص، وإلى ما يمكن أن يتأتى من التجارة التي ييسرها أهل الصحراء عادة بالخفارة والحماية وكذلك بالهداية والدلالة مقابل مال أو أداءات، أو يساهمون فيها بصفة مباشرة. وتذكر في هذا الصدد تجارة الملح الذي يؤخذ من بعض المواضع في الجنوب الغربي للمجال وتزوّد به أطراف بلاد السودان باعتبار الافتقار إليه هناك مع أنه مادة أساسية. فكان يستبدل بالذهب مثلا.

ولقد توفر لأهل الصحراء المذكورين وبالإضافة إلى ما تقدم انتماء مشترك على المستوى الديني أيضا، إذ انتشر في صفوفهم الإسلام كلهم على ما يبدو منذ زمن بعيد ولو بشكل غير معمق غالبا شأن أهل البوادي، ممّا يدعم مبدئيا الروابط الداخلية بينهم وكذلك صلتهم ببلاد المغرب، ويجعل لهم علاقة (أخرى) أيضا بالمشرق الإسلامي الذي يمرّ بهم تجاره أو يتصرفون بين ظهرانيهم ويزورونه للحج خاصة أو يتوجهون نحوه عمليا في الصلاة. فهنالك انتماء إلى ساحة دينية وثقافية أكبر إذن، واسعة جدا، تمتدّ نحو الشرق حيث العمق والمركز، يوجدون هم في طرفها الجنوبي الغربي باعتبار المحيط وما كان يسود بلاد السودان آنذاك. وهذا الأمر ربما أعطى بلادهم صفة الثغر ولوّن حروبهم مع أهل الجنوب بلون الجهاد.

وهنالك الجديد في الصحراء على المستوى السياسي والاجتماعي والديني في النصف الأول من القرن الخامس الهجري مع حركة "دعوة الحق" التي بعثها الفقيه عبد الله بن ياسين والأمير القبلي الصحراوي يحي بن إبراهيم الجدالي. وهي حركة سياسية دينية إصلاحية في إطار السنة والمذهب المالكي بالتحديد وغير ثورية بالتالي باعتبار عدم خروجها عن الخلافة العباسية القائمة بل انضوائها تحت لوائها ولو من جانب واحد أو ضمنيا في الأصل؛ تشكّلت أول ما تشكّلت أو اجتمعت مكوناتها الأولى في ساحة جغرافية مغربية صحراوية تمتد من إفريقية والقيروان إلى جنوب المغرب الأقصى إلى بلاد جدالة في الصحراء، مما يعبّر عن الصلة بين هذه الفضاءات، وانطلقت على أيدي رجال من البربر ينتمون إلى صنف الفقهاء زيادة على الأمير المذكور.

ولقد حرص الفقيه عبد الله بن ياسين عموما عبر المراحل التي مرّت بها الحركة والتبلور التدريجي الذي عرفته على تدعيم العبادة وتقويم السلوكات والمعاملات على المستوى الفردي والعام وبالنسبة لأصحابه وغيرهم من خلال التعليم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة الشفوية والقتال. وعرف عنه خاصة العمل على تطهير الأشخاص وإعطائهم بداية جديدة قوية باستصلاح ماضيهم عن طريق إقامة بعض الحدود عليهم

واقتطاع جزء من أموالهم لفائدة المجموعة ليطيب الباقي وإلزامهم صلاة القضاء.

وقام بتأليف نواة من الأصحاب في الرباط الذي لجأ إليه بعد المرحلة الأولى من الحركة ربما بلغ عدد أفرادها في النهاية 3 آلاف مرابط (المرابطون) كونت دون شك نخبة أو طليعة سياسية ودينية مؤمنة بصحة موقفها وتوجّهها ثم بدورها التاريخي في الإصلاح وشرعية عملها في إطاره، وقوّة عسكرية مدرّبة، منضبطة ومطيعة شرعت في العمل الدعويّ والجهاد العسكري فيما بعد أي في المرحلة الثالثة، واستطاعت أن تضمَّ أهل الصحراء في إطار كيان سياسي وديني موحّد فوق كيان القبيلة يوجد الفقيه ابن ياسين على رأسه صحبة الأمير.

فهنالك إذن تغييرات وتطورات في الصحراء بالمقارنة مع ما سبق على المستويات المذكورة انضافت إلى ما كان متأصلا. والمرابطون الذين اقتحموا المغرب الأقصى في أواسط القرن الخامس الهجري لم يكونوا نتيجة لذلك بربرا صنهاجيين بالخصوص وصحراويين رحّلاً لهم احتكاك بالتجارة الكبرى وتضمّهم الهياكل القبلية والديانة الإسلامية فقط، بل أيضا أصحاب كيان سياسي وديني إسلامي فتي قوي توسّعي له قيادة عليا تفرض الانضباط والطاعة وهدف أو مشروع جماعي موحد يهمّ المسلمين في المنطقة على الأقل. هذا إذا لم يكن هنالك جوانب أخرى موازية.

تلك هي إذن ملامح المرابطين في المنطلق أي عندما تقدموا نحو بلاد المغرب وألموا بها. وإلى جانب هذه الملامح يبدو أن الأعداد كانت هامة. لكن ليس لدينا معطيات دقيقة عنها. وما نعرفه هو أنها كانت كافية في النهاية للتغلب على الأطراف السياسية والعسكرية المختلفة الموجودة في المغرب الأقصى وغربي المغرب الأوسط آنذاك.

على أن الخصال بإمكانها مبدئيا أن تتدارك عدم الكثرة، هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى لم تحصل المواجهة مع الأطراف المذكورة دفعة واحدة أو في نفس الوقت بل بشكل منفصل عموما وبالتدريج؛ وكذلك لم يكن التغلب سريعا وسهلا بل طويلا وشاقا استوجب تحركات ومنازلات عديدة صعبة أحيانا استغرقت سنينا طويلة.

وعلينا أيضا أن نضع في الاعتبار أن التواصل الترابي بين المجالات الصحراوية الأولى للمرابطين من جهة وبلاد المغرب من جهة أخرى، وعدم وجود انفصال سياسي بين الفضاءين على ما يبدو، واستمرار وجود سكان وأحداث وأعمال في الصحراء مدارها داخلي أو خارجي (في اتجاه بلاد السودان)، إلى جانب ما كانت تعرفه المناطق المغربية والأندلسية، كل ذلك ربما أدى إلى تغير الأعداد بالزيادة أو النقصان في هذا الاتجاه أو ذاك في الفترات الأولى خاصة حسب الظروف والحاجيات...

وعلى كل حال فإنّ من قضايا تاريخ المرابطين مسألة أعداد العساكر لديهم ومدى كثرتها أو قلتها وهل أنها كانت "كافية" أم لا؟ ويتّصل بهذا الأمر (كما تقدم) موضوع حجم الطاقات الباقية في الصحراء والعلاقة معها عبر كل الفترة من ناحية وحاجيات كل من بلاد المغرب والأندلس وصلة المرابطين بأهاليهما من ناحية ثانية.

وإذا رجعنا إلى التغلب وكيفية حصوله وجب علينا أن نذكر أنّ الخريطة السياسية للمغرب الأقصى وغربي المغرب الأوسط كانت تتضمن العديد من الكيانات الواضحة المعالم إلى جانب عدد من الفضاءات الكبيرة أو الصغيرة التي لا يبدو فيها البناء السياسي واضحا تماما. هذه الكيانات تبدو

متفاوتة من حيث الامتداد ودرجة القوة، لكنها صغيرة عموما. وهي تتمثل مجاليا في بعض المدن الهامة والمناطق المحيطة بها بما فيها من مراكز حضرية أصغر وقرى وحصون وأرياف. هذه الكيانات كان يغلب عليها الطابع القبلي باعتبار هوية أصحابها وطبيعة القوات العسكرية فيها. وهنالك أهمية خاصة لقبائل مغراوة وبني يفرن وزناتة عموما في هذا الصدد، إذ أن هذه القبائل كان لها الحكم في غربي المغرب الأوسط وشرقي المغرب الأقصى مع توغل نحو سلا وهي المناطق السهلية والجبلية التي تمرّ بها الطريق التجارية الهامة الرابطة بين بلاد السودان وبلاد المغرب والأندلس. وهنالك صلات أساسية بين عدد من هذه الكيانات على مستوى الانتماء القبلي وهوية الحكام لكن دون وحدة ناظمة؛ إنما وجدت علاقات تعاون حينا وعلاقات عداء حينا آخر في نوع من الانعكاس للهيكلة القبلية وللعلاقات بين القبائل على المستوى الجغرافي والسياسي. وأهم هذه الكيانات من الجنوب إلى الشمال فالشرق؛ سجلماسة ودرعة معا، وأغمات، وتادلة، وبرغواطة، وقلعة فازاز، وفاس، ومكناسة، وسبتة، وطنجة، وتازا، وتسول، وتلمسان.

هذه الأطراف كلها تقريبا واجهها المرابطون وربما واجهوا غيرها أيضا. وقد استغرقت هذه المواجهة التي أسفرت عن صنع المجال المرابطي في بلاد المغرب ما يزيد عن ربع قرن، من أواسط القرن الخامس للهجرة إلى حوالي سنة 475 هـ / 1082-1083م.

وبعد بضع سنين فقط من إنجاز هذا العمل في بلاد المغرب، كان العبور إلى الأندلس للنجدة في الأول (479هـ/ 1086-1087م)، ثم تطور الأمر فيما بعد وصار استيلاء، وهكذا اكتمل التغلب المرابطي وكانت المناطق التي تم الاستيلاء عليها كثيرة وواسعة. ولقد حرص المرابطون على المحافظة عليها كلها ؛ فنشأ عن ذلك مجال موحّد ممتدّ جديد من نوعه بل طريف لم يوجد مثله حتى في الفترة الإسلامية الأولى عندما كانت بلاد المغرب والأندلس موحّدتين؛ وذلك نظرا لاشتماله على القسم الغربي من الصحراء الكبرى أيضا إلى جانب نصف بلاد المغرب تقريبا والأندلس الإسلامية؛ ونظم الكل في إطار كيان سياسي متكامل مستقل عمليا رغم الموالاة للخلافة العباسية فيما بعد.

ولقد ثبت هذا الإنجاز لعقود، فكان له تأثير على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي وغيرهما.

2 - الأثر الاجتماعي :

- بالنسبة للمرابطين : اقتضت المحافظة على المجال الجديد مواصلة الانتشار فيه أو التركز داخله بصفة دائمة، فنشأت عن ذلك فيما يتعلق بالمرابطين شبكة تتكون من مجموعات مختلفة من الناس قوامها العشرات أو المئات أو الآلاف من الأشخاص مستقرة في مواضع معينة من البلاد وفي ذلك (أي في هذا الاستقرار) تطور "أول" عرفه هؤلاء الناس، بعد، أو بالمقارنة مع حياة الصحراء القائمة أساسا على التنقل.

ولعلّ هذا التمركز قد فرّق جغرافيا بين أناس كانوا ينتمون إلى نفس المجموعات في السابق، لكنه بقي دوما يعتمد على الهياكل القبلية أيضا التي ما تزال قائمة، فنشأت عنه بالتالي خريطة جغرافية جديدة لصنهاجة اللثام على المستوى التفصيلي كذلك.

ومن ناحية أخرى بما أن التمركز المذكور إنما هو تعبير عن الكيان الفتي الناشئ، فهو قد جسّد على الأرض هيكلا اجتماعيا وسياسيا رسميا

موحدا جديدا ينتظم في إطاره المرابطون فيعطيهم صبغة نظامية ويشكل رباطا آخر بينهم. وهو أمر لم يتوفر للهلاليين والسليميين مثلا.

كان تمركز الملثمين يتم في المدن والمراكز العمرانية أساسا رغم إمكانية إنزال بعض الجماعات القبلية الهامة (منهم) في الأرياف والبوادي مما يجعلها في وضعية وسط؛ وكذلك إمكانية حصول الهجرة من الصحراء والاستيطان في المغرب بصفة تلقائية. ونجد في هذا الصدد حديثا لدى الإدريسي عن قبيلة لمطة في الفحص الواسع الموجود في أوائل الطريق بين مراكش وسلا؛ وكذلك في البرية الممتدة بين فاس ومدينة بني تاودا إلى الشمال منها.

ولقد سكن المرابطون عادة المدن والمراكز القائمة، لكنهم أنشأوا أيضا حواضر جديدة وحصونا في بعض الأحيان وخاصة مراكش انجازهم الأكبر. وهذا عنوان آخر كبير للتطور بالنسبة لهم ؛ فالصحراويون قد أصبحوا هكذا بعد "توحّشهم" حضرا بل بناة مدن.

وكانت جملة هذه التغييرات التي عرفها المرابطون متّصلة بوظيفتهم الجديدة بالطبع؛ فهم يقومون الآن "بدور" الحكام في بلاد المغرب والأندلس ويحتلون اجتماعيا المرتبة التي تتماشى مع ذلك. فمنهم الأسرة المالكة، أسرة يوسف بن تاشفين الذي تقلد السلطة العليا فكان أمير المسلمين وناصر الدين، والذي يسطر صاحب "الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية" مثلا نسبه على النحو التالي :"هو يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن تورقيت بن ورتاقطن بن منصور بن مصالة بن مانية بن ونمالى الصنهاجي الحميري".

ولقد أنجب يوسف عليّا الذي خلفه في الحكم، وأنجب كذلك أبا بكر سير وإبراهيم وأبا الطاهر تميما والمعز. وولد لعليَ: تاشفين وأبو بكر (بيكور) وأبو حفص عمر الكبير وإبراهيم وإسحاق وتميم وداود وعمر الصغير. وتولى البعض من أفراد هذه الأسرة مناصب أخرى أيضا في القيادة العسكرية والوزارة والولاية. وهي خطط "شاركهم" فيها غيرهم من المرابطين أحيانا، على أن الوظيفة الأساسية لهؤلاء الناس كانت عسكرية.

وباعتبار هذه المرتبة وهذا الدور، فتحت أمام المرابطين أبواب التملك بشكل أكبر. تملك الأراضي وتملك الأشخاص بالخصوص. حيث صار لديهم عبيد وأتباع كثيرون مثلما يحصل عادة في مثل هذه الحالات؛ بل أكثر بالتأكيد مما عرفته مرحلة الصحراء. ولا شك أنّ ملامح هؤلاء العبيد على مستوى العرق واللغة والدين والصفات أيضا قد تغيرت ولو جزئيا باعتبار العيش في الصحراء سابقا والصلة بسكانها أساسا وبأهل بلاد السودان في الجنوب في الظروف التي عرفناها؛ واقتحام الساحة المتوسطية الآن بعدوتيها المغربية وخاصة الأوروبية التي يتم الصراع مع أهلها، والصراع هو أحد مصادر الرقيق (عن طريق الأسر والسبي) إلى جانب التجارة أو النخاسة والولادة في الرق.

أما الأراضي فهي المنتزعة من أصحابها إبان التغلب بحكم قانون الحرب "والنظرة" إلى الآخرين، أو بعد ذلك نتيجة المصادرات مثلا.

من جهة أخرى، ربما يسّرت انتماءات المرابطين العرقية والثقافية والدينية وكذلك السياسة التي انتهجوها، ربما يسرت عليهم القيام بالدور المذكور سابقا أو القبول بهم فيه في الفترة الأولى على الأقل ؛ لكن ما مدى اندماج هؤلاء الناس في المجتمع الذي حلوا بين ظهرانيه وفي البيئة التي نزلوها ؟ هنالك سير في هذا الاتجاه يبدو من خلال التحضر واكتساب عادات الترف؛ لكن

هنالك أيضا حديث عن المحافظة على التميز في الأندلس وربما في بلاد المغرب كذلك بحكم الخاصيات والمرتبة؛ وهنالك نوع من الانغلاق قد يظهر من مواصلة حمل اللثام.

- بالنسبة للعناصر الأخرى (السابقة وغيرها): مثل المرابطون، منذ أن وصلوا إلى بلاد المغرب (كما تقدم) وشرعوا في التغلب عليها دون التفكير في الرجوع عنها إلى الصحراء وخاصة بعد أن استقروا بمراكش وغيرها، عنصرا سكانيا جديدا انضاف إلى الرصيد السابق.

وكان هذا الرصيد يتألف في بداية الفترة، بالنسبة للمغرب الأقصى وغربي المغرب الأوسط، من البربر أساسا؛ إذ أن تعريب هذه الجهات سكانيا بقي محدودا (جدا) بالمقارنة مع إفريقية والأندلس رغم وجود عدد من العلويين (من الأدارسة وبني سليمان) بالخصوص في كل من تلمسان وفاس أساسا منذ زمن مبكّر ورغم من استقطبتهم هذه المدينة الأخيرة أكثر من غيرها من هنا وهناك عبر الفترات.

وضمن البربر هنالك البرانس والبتر على "حد السواء". وينتشر البرانس في معظم أرجاء المغرب الأقصى. بينما يوجد البتر في عدد من مواضع هذه البلاد ومدنها أيضا رغم نمط العيش المهيمن لديهم والمواطن المعتادة بالنسبة لهم وذلك نتيجة للتطورات السياسية في الفترات الأخيرة بالخصوص.

على أن هذا الصنف من السكان، أي البتر، كان يوجد خاصة في غربي المغرب الأوسط الذي يعد موطنا تقليديا لهم في اتصال بالمعطيات الطبيعية والاقتصادية دون شك من طبغرافيا وغطاء نباتي... الخ.

وتمثل البتر قبائل زناتة (مغراوة وبنو يفرن... الخ) وكذلك أبناء عمهم مكناسة وغيرهم. بينما يمثل البرانس المصامدة في السوس الأقصى وجبل درن، وبرغواطة في السهول والهضاب الأطلسية الوسطى، وغمارة في الجبال الشمالية، وصنهاجة في الأطلس الأوسط...

وتنقسم هذه المجموعات إلى وحدات أصغر وفق الهيكلة القبلية السائدة في البلاد. وكان نمط العيش الرعوي هو المهيمن في غربي الأوسط وربما في قسم من سهول المغرب الأقصى وهضابه أيضا وذلك لدى زناتة والبتر جملة بالدرجة الأولى.

بينما يسود بقية الرقعة النمط الريفي الزراعي القروي أكثر من النمط الحضري باعتبار أن عدد المدن ليس مرتفعا وأحجامها ليست كبيرة عموما. وهنالك نسبة هامة من "الجبالية" ضمن السكان نظرا لأهمية الجبال كتضاريس وكإطار للعيش في الأقصى.

وقد كان معظم السكان على الإسلام، لكنهم ينتمون إلى مذاهب مختلفة. وقد ساهم هذا الأمر، إلى جانب التجزئة السياسية القائمة، في تغذية الصراعات بينهم والتقوقع الاجتماعي.

هذا هو إذن الرصيد السابق من شتى الجوانب تقريبا، فما الذي حمله قدوم المرابطين إلى البلاد وتغلبهم عليها وتوحيدهم لأرجائها وبقائهم فيها وحكمهم لها بالنسبة للسكان السابقين على مختلف المستويات ؟

لقد أثرت المواجهات التي تمت عند التغلب على الأعداد بصفة واضحة أحيانا. ويظهر ذلك بالنسبة لبرغواطة الذين ضعفوا على ما يبدو منذ ذلك الوقت لطول الصراع وشدته والنتيجة التي آل إليها. كما يظهر من مثال زناتة وغيرهم بفاس حيث يقول ابن خلدون: "وفي سنة 462هـ / 1069-1070م) نازل [يوسف بن تاشفين] فاس فحاصرها

مدة ثم افتتحها عنوة وقتل بها زهاء 3 آلاف من مغراوة وبني يفرن ومكناسة وقبائل زناتة حتى أعوزت مدافنهم فرادى، فاتخذت لهم الأخاديد وقبروا جماعات".

كما أثرت المواجهات والغلبة على التوزيع السكاني في بعض الأحيان، إذ أن هنالك من غادروا مواضعهم الأولى إلى مواضع أخرى جديدة مثل زناتة دوما من المغرب الأقصى إلى بلاد تلمسان.

ويمكن أن نضيف في هذا الصدد أن توحيد المرابطين للمغرب الأقصى وضمّهم لغربي الأوسط الذي وحّد بدوره وكذلك للأندلس وانخراط أناس من هذه المناطق في أجهزتهم العسكرية والإدارية مثلا ربما أعطى هؤلاء الناس الفرصة لدخول هذه المنطقة او تلك والإقامة فيها. زيادة على تيسير التنقل بين المناطق وتغيير مكان الإقامة داخلها لمن يرغب في ذلك لأغراض خاصة ؛ وعلى النقل الرسمي القسري لبعض السكان عبر هذا الفضاء في بعض الأحيان عقابا لهم أو احتياطا منهم.

ولدينا في هذا الصدد مثال من حلّ بالمغرب الأقصى من أهل الأندلس بالطريقة الأولى ثم الثانية. ونعني من اغتنم فرصة التوحيد السياسي للعدوتين والظروف الجديدة التي بدأت تعيشها الجنوبية منهما خاصة من توحيد وأمن ومركزية سياسية وبناء اقتصادي جديد... الخ، فجاء إليها وربما استقر فيها. ونعني أيضا من نقلهم الحكم المرابطي قسرا من أهل الجزيرة سواء من المسلمين وخاصة البعض من ملوك الطوائف وأشهرهم المعتمد بن عباد الذي أسكن بأغمات وعبد الله بن بلكين الذي أنزل كذلك بأغمات لاتهامهم بالتعاون مع نصارى دار الحرب ضد المرابطين.

ولقد كان تنقل السكان بين العدوتين موجودا في السابق لكنه كان يتم في اتجاه الشمال خاصة. أما الآن فهنالك حركة هامة في اتجاه الجنوب أيضا نتج عنها تدعيم العنصر الأندلسي في المغرب الأقصى (وبلاد المغرب عموما) من حيث العدد والانتشار ومدى التنوع. وتمّ الدفع بهذا العنصر إلى آفاق أبعد نحو الداخل بعد أن كان موجودا على السواحل بالخصوص. وهذا الأمر يحصل لأول مرة بهذا الشكل. وهو يقابل أو يعارض على عدة مستويات المدّ القادم من الصحراء (الاتجاه، الهوية، الصفات...).

وإلى جانب التطورات المتعلقة بالأعداد والتوزيع والعناصر، هنالك تغييرات تهم الملكية والمراتب الاجتماعية والسياسية منها ما هو "سلبي" ومنها ما هو "إيجابي". فالعديد من الأملاك فقدها أصحابها وفقدوا معها مواقعهم، ومر ذلك إلى المرابطين الذين استأثروا تقريبا بالدور السياسي والعسكري (كما تقدم). وما حصل للحكام السابقين في بلاد المغرب (والأندلس) يقيم الدليل على هذا التطور.

لكن هنالك، من جهة أخرى، من السكان من انخرط في منظومة المرابطين على هذا المستوى أو ذاك وبهذه الطريقة أو تلك، فعرف وضعه التواصل وربما تدعم. ولعل ما حصل لزينب "الساحرة" تلك المرأة البربرية النفزاوية ذات الخصال البدنية والنفسية الممتازة على ما يبدو من جمال ورئاسة يقيم الدليل على هذا الأمر على المستوى الفردي. فهي قد كانت متزوجة من لقوط بن يوسف بن علي المغراوي وقبله من يوسف بن علي بن عبد الرحمن ابن واطاس قبل أن يقترن بها الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني الذي نزل عنها ليوسف بن تاشفين. وفي هذه "الحالة" مثال عن استحياء النساء المألوف وعن القيمة الشخصية وشأن المرأة والتواصل.

وهنالك الناس الذين انتدبوا ضمن القوات المسلحة كما أشرنا إلى ذلك سابقا تحت اسم الحشم أو غيره؛ والفقهاء، فقهاء بلاد المغرب والأندلس، الذين كانت لهم علاقة خاصة بالدولة الجديدة منذ بداياتها من خلال دور كل من أبي عمران الفاسي ووجاج ابن زلو وعبد الله بن ياسين وسليمان بن عدّو والمذهب المالكي ودعوة الحق. وهي علاقة تواصلت فيما بعد وتعززت. فكان للمنتسبين إلى هذا الصنف شأن كبير لدى المرابطين كما هو معروف من حيث الوظائف الرسمية المسندة إليهم والقرب من الحكام والمرتبة الاجتماعية والأملاك والجاه. ولا يعدّ هذا الأمر جديدا على الفقهاء في الحقيقة ولا مقتصرا على الغرب الإسلامي وإنما عرف نوعا من الأوج الآن وفي هذه البلاد. ولعلّ فيما كتبه الغزالي وما تعرضت إليه كتبه ثم فيما فعله ابن تومرت دليل على ذلك.

وعموما هنالك، على ما يبدو، ازدياد على مستوى عدد السكان في النصف الغربي من بلاد المغرب مع المرابطين وخاصة في المغرب الأقصى. وهنالك تدعم للعناصر أو ثراء أكبر على مستواها. وهي عناصر لها عادة ملامحها الخاصة وقدرتها على التأثير. لكن يبقى أهمّ شيء حصل هو التوحيد على الصعيد الاجتماعي أيضا الذي انجرّ عن التوحيد السياسي فصارت كل المجموعات تكوّن مجتمعا واحدا سقطت منه الحواجز مبدئيا ووجد التواصل والتفاعل والسير نحو التجانس وكذلك التمرتب العام وتدعّم الفئات وازدياد التحضر. وهنالك دور كبير للرافدين الكبيرين الجديدين في ذلك: الرافد الجنوبي الصحراوي الذي يمثل الجذور على أكثر من مستوى، والرافد الشمالي الأندلسي الذي يمثل التطور. وتمثل هذه الفترة خطوة كبيرة تم قطعها على درب تشكّل المجتمع وبناء الحضارة في المغرب الأقصى ومرحلة هامة بالتالي في تاريخ هذه البلاد (ومن ورائها جملة بلاد المغرب والغرب الإسلامي بأسره). فهنالك نهضة جديدة أو بداية حقيقية للمغرب الأقصى ضمن العصر الوسيط والتاريخ الإسلامي.

ويؤثر كل ذلك على المستوى الاقتصادي أيضا المساهم بدوره كالعادة في التأسيس للتحولات الاجتماعية.

3 - الأثر الاقتصادي :

إنّ الأحداث المستجدّة والأوضاع السياسية والاجتماعية الناجمة عنها من توحيد داخلي للمجال في نصف بلاد المغرب تقريبا وخاصة في المغرب الأقصى وربط لهذه الرقعة بالصحراء من جهة وبالأندلس من جهة أخرى وقيام الدولة الواحدة المركزة في هذا الفضاء وما صحب ذلك على المستوى الاجتماعي من ازدياد ديمغرافي دون شك وتحركات للسكان وتحضّر بمدى أكبر وبروز لفئة حاكمة جديدة مالكة عرفت الارتقاء الحضاري، كلّ ذلك من شأنه مبدئيا أن ينعكس على الصعيد الاقتصادي بقطاعاته الثلاثة. فالتواصل بين الجماعات وعبر الجهات يصبح أيسر والتكامل يمكن أن يحدث. والدولة كجهاز سياسي وإداري وعسكري تصبح طرفا اقتصاديا أيضا بما تمتلكه وتتطلبه وربما بما تنتجه أيضا، وكذلك بالأمن الذي من المفروض أن تحققه والسياسة التي يمكن أن تنتهجها في اتصال بالجانب الاقتصادي. وازدياد السكان والتحضر والارتقاء كلها أمور تعني ازدياد الحاجيات وتنوعها، مما يحفز الإنتاج الفلاحي والصناعي وحركة التبادل. ولقد حصل كل ذلك فعلا. لكن يجب أن نميز بين ثلاث فترات عرفها المجال المدروس من أواسط القرن الخامس الهجري إلى أواسط القرن السادس. وهي

فترات تهم في الحقيقة الدولة المرابطية بالخصوص التي تشغل الساحة خلال المدة المذكورة:

فترة أولى دامت ما يزيد عن العقدين عرفت عمليات التغلب الصعبة؛ ثم فترة ثانية تتمثل في الربع الأخير من القرن الخامس الهجري وفي العقدين الأولين تقريبا من القرن السادس كان الأمن والاستقرار فيها تامين أو غالبين؛ ثم مرحلة صعبة جديدة عرفت مغربيا الصراع المركّز ضد حركة الموحّدين وانتهت بسقوط الدولة في سنة 541هـ / 1146-1147م.

ولقد أثرت هذه الفترات بالتأكيد بما عرفته على مستوى الأمن والسياسة الجبائية بالخصوص على الأنشطة الاقتصادية. ولا شك أن الفترة الجيدة هي الوسطى، رغم أن التواصل مع الصحراء كان أوضح في الأولى وأن الجباية التي كانت شرعية في البداية قد بدأت تتغير شيئا فشيئا فيما بعد أي في الفترة الثانية لتنقلب تماما في النهاية فتكثر القبالات وتفرض على كل شيء تقريبا متظافرة مع تردي الأمن ؛ مما يعبر عن الوضع المالي للدولة من جهة وعن الأوضاع في البلاد من جهة أخرى.

وعموما واعتمادا على لوحة الإدريسي خاصة وعلى أخبار الفترة يمكن القول بأن الزراعة قد توفرت لها موارد مائية لا بأس بها في المغرب الأقصى بالمقارنة مع النصف الشرقي من بلاد المغرب؛ وأن هنالك بيئات مائية حقيقية يستعمل فيها الماء للري ولتزويد المدن. ويذكر بالنسبة للعهد المرابطي بعض التطور على الأقل على مستوى استعمال المياه الظاهرة أو الباطنة في ارتباط بالنمو الحضري من جهة واستصلاح الأراضي من جهة أخرى. وأشهر "مثال" على ذلك ما حدث بمراكش المدينة الجديدة ومنطقتها.

وهنالك أوساط زراعية عديدة ومتنوعة في البلاد من الجنوب الصحراوي إلى الشمال ومن السهول والهضاب إلى الجبال زادت اتساعا خلال الفترة باعتبار الظروف الجديدة المذكورة، وفيها ما يعتمد على الري وفيها ما يكتفي بالتساقطات.

وعلى مستوى الزراعات والغراسات هنالك جهات يغلب عليها إنتاج الحبوب أو الطعام (شعير وقمح- أو حنطة- مع فول وحمص) في السهول والهضاب الوسطى بالخصوص. ويبدو أن الكميات كانت هامة مما يفسر الوسق إلى خارج البلاد كما سنرى ضمن الأنشطة التجارية. والقطاع الثاني الهام تمثله الأشجار المثمرة التي تذكر بإطناب في المصادر بالنسبة لعدة جهات مثل بلاد السوس الأقصى وجبل درن وجهة فاس، وتعدد أصنافها الكثيرة وتنعت غلاتها بأحسن النعوت. أما غراسة الزياتين فيبدو أنها كانت في بدايات تطورها في البلاد لاستعمال زيت الارقان سابقا الذي تكثر أشجاره ولترويج زيت الزيتون الأندلسي في المغرب الأقصى خلال الفترة.

وإلى جانب ذلك تذكر التوابل من الكمون والكروياء خاصة، والحناء كنبات للزينة موجود في جنوب المغرب الأقصى (سجلماسة، درعة، السوس) وفي المغرب الأوسط. كما تذكر بعض النباتات الصناعية كقصب السكر بالسوس الأقصى والقطن بتادلة وداي وسجلماسة...

ويضاف إلى كل ذلك قطاع المواشي والدواب وقد عرف تدعّم عدد الإبل، إلى جانب الأبقار والأغنام والماعز؛ وهو يوفر اللحوم والألبان والسمن والصوف والوبر والجلود. وهنالك أهمية واضحة للنحل والعسل كمادة غذائية وتجارية. أما الثروة السمكية فهي كبيرة وتبرز في النصوص خاصة بسلا وسبتة. ويمثل عدد من هذه المنتوجات أساسا للنشاط الصناعي.

- **الصناعة** : ضمن المعطيات القليلة نسبيا المتعلقة بالصناعة، هنالك ما يتصل بالمواد الأولية واستخراجها أو إنتاجها، وهنالك ما يهمّ التصنيع. وفي خصوص الأمر الأول لدينا خاصة - في المصادر- نحاس داي ومرجان سبتة من جهة وقطن تادلة وداي وغيرهما وقصب السكر بالسوس الأقصى من جهة أخرى. ويضاف إلى هذه الموادّ الأخرى التي يمكن أن توجد في الأرض أو تعطيها الزراعات وما توفره الغابات الهامة من أخشاب وكذلك ما يؤخذ من المواشي والحيوانات عامة من جلود وأصواف... الخ. كما يضاف إلى موارد المغرب في هذا المجال ما يجلب إلى هذه البلاد من الأندلس من جهة ومن بلاد السودان من جهة أخرى على الأقل، وهو الذهب على وجه الخصوص من المصدر الثاني.

وانطلاقا من هذه المواد يقوم التصنيع. ويتجلى من جملة المعطيات التي لدينا وجود صناعات غذائية يمثلها خاصة السكّر الكثير الذي يعمل في بلاد السوس الأقصى والذي ينسب إليها (السكّر السوسي) "ويعم أكثر الأرض -حسب الإدريسي- وهو يساوي السكر السليماني والطبرزد بل يشف على جميع أنواع السكر في الطيب والصفاء"، وكذلك زيت الارقان الوفير، المنتشر الاستعمال (سابقا) في المغرب الأقصى، لكن أخذ الناس يتحولون عنه شيئا فشيئا إلى زيت الزيتون الذي بدأ ينافسه.

وهنالك صناعات الغزل والنسيج وحياكة الثياب من الصوف والقطن خاصة، وهي تمثل عادة قطاعا واسعا في تلك الفترات.

وهنالك أيضا صناعات مواد الزينة والتجميل والأدوية؛ فبمدينة سبتة يوجد سوق "التفصيل" المرجان و"حكه وصنعه خرزا وثقبه وتنظيمه".

وصناعات الأواني من النحاس وغيره (ثمة سوق للصفر بمراكش).

وصناعات أدوات الركوب للإبل والخيل من سروج ولجم وأقتاب ومهاميز محلاّة أحيانا.

وصناعات الأسلحة كالدروع اللمطية بمدينة نول الصحراوية.

وصناعات السفن من مراكب وحراريق وغيرها بطنجة وقصر مصمودة مثلا.

وضرب العملة...

ولا شك أن هذه الصناعات الثابتة الوجود خلال الفترة المدروسة، لكن التي تعود جذورها إلى الفترات السابقة في الحقيقة، قد تطورت الآن بالمقارنة مع ما مضى ولو بالنسبة لقسم منها وذلك بحكم الظروف الجديدة والحاجيات (الأسطول، الأسلحة، العملة...). ولقد كانت هذه المصنوعات تمثل عنصرا من عناصر التجارة؛ ويعتبر تطورها عاملا إيجابيا مبدئيا لهذا القطاع.

- **التجارة** : تحتلّ المعطيات المتعلقة بالتجارة مرتبة وسطا من حيث الكمّ بين الإفادات الخاصة بالزراعة والأخبار المتصلة بالصناعة، فهي أقل من الأولى وأكثر من الثانية.

ويتجلى من خلال جملة المعطيات التي لدينا فيما يخص المغرب الأقصى وجود "سوق" داخلية جديدة فيه تمثل مدينة فاس قطبها الأكبر، وإلى جانبها القطب الجديد المتمثل في مراكش التي ربما دعمت في البداية على الأقل أغمات (وريكة) القريبة جدا منها قبل أن تؤثر عليها سلبيا على ما يبدو فيما بعد. كما تمثل مدينة سلا المقامة على البحر المحيط عند مصبّ نهر اسمير- بورقراق فيه قبيل المرابطين على ما يبدو لتتطور في عهدهم والتي عوضت دون شك شالة القديمة المقامة غير بعيد عنها في اتجاه الداخل على نفس المجرى، تمثل

القطب الثالث أو الرأس الآخر للمثلث.

فكأن هذه المدن الثلاث تهيكل الفضاء السياسي والاجتماعي والاقتصادي المغربي الجديد. وتعبر الثانية والثالثة منها بالخصوص الناشئة في القرن الخامس الهجري أو المتطورة فيه عن توحيد المناطق الداخلية الجنوبية والغربية وكسبها وضمها إلى المجموع الناشئ الجديد بدوره وتنشيطها، بعد الانقسام السابق والحواجز والانغلاق والصراعات التي دامت قرونا. فيصبح هكذا ما كان نقطة ضعف موطن قوة يمثل وسط المغرب الأقصى وعمقه وقلبه المحتضن لعواصمه المتتالية.

وتجاريا دوما، زيادة على ما ينتج ويستهلك محليا (إثر تبادل)، تقصد البلاد من "الخارج" بأشياء تنفق فيها ولأشياء أخرى تحمل منها إلى غيرها (سواء كانت من إنتاجها أم لا)؛ زيادة على السلع التي تكتفي بالمرور عبر هذا الفضاء. وبالطبع يمكن لأهل هذه البلاد ذاتهم أن يقوموا بهذا الدور في "التصدير والتوريد".

ولئن كان ربط المغرب الأقصى بالخارج قديما وليس جديدا، فإنه أفضل الآن بالتأكيد من حيث الشمول والكثافة باعتبار التوحيد الداخلي للبلاد والتوحيد المجالي العام والنهضة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الجديدة. وهو ربط بالأندلس من جهة، وببلاد السودان من جهة ثانية، والمغرب الأوسط المرابطي والحمادي وما وراءه شرقا من جهة ثالثة، وأوروبا النصرانية من جهة رابعة.

وكان الربط مع الأندلس يتم من خلال مراسي الساحل المتوسطي في الشمال، وكذلك، وربما بصفة متزايدة عن طريق الساحل الأطلسي في الغرب؛ وبالنسبة لهذا الأخير بواسطة السفن التجارية الأندلسية خاصة على ما يبدو، وهي من إشبيلية أساسا. ولا شك أن نشاط هذه الواجهة البحرية قد تطور في ارتباط بجملة التغييرات التي عرفتها المنطقة بأكملها.

وهنالك ذكر لدى الإدريسي لجملة من المراسي على هذه الواجهة. ويصدّر منها الطعام والمواشي خاصة؛ وهي منتوجات فلاحية من الظهير الزراعي دون شك ؛ بينما يستورد الزيت وغيره. وأكبر المراكز العمرانية والاقتصادية على الشريط المذكور مدينة سلا. هذا عن الساحل الغربي أساسا وعن الربط مع الأندلس وهو نشاط خارجي بالنسبة للمغرب الأقصى وداخلي بالنسبة لدولة المرابطين.

أما الربط مع بلاد السودان والجنوب عامة من جهة وكذلك مع المغرب الأوسط وغيره شرقا وشمالا من جهة أخرى، فكان يتم أساسا عن طريق خط تجاري هام جدا يمر شرق البلاد عموما "مراعيا" العوامل الطبيعية والعمرانية دون شك نعرف معظم محطاته والمنازل التي يمر بها ولدينا معطيات عن الهامة منها بالخصوص.

وأبرز هذه المحطات هي مدينة فاس في الوسط التي يذكر عنها أنها "قطب ومدار لمدن المغرب الأقصى"؛ وأغمات (وريكة) في الجنوب التي يذكر دور أهلها في التجارة مع بلاد السودان "فلم يكن في دولة الملثم أحد أكثر منهم أموالا ولا أوسع منهم أحوالا"؛ ومدينة تلمسان في الشرق التي تعتبر "قفل بلاد المغرب وهي على رصيف للداخل والخارج منها لا بدّ منها والاجتياز بها على كل حالة".

ولئن كانت تلمسان (هذه) هي المدخل الضروري إلى المغرب الأقصى من جهة الشرق، فإنّ عدة طرق تتفرع من هذه المدينة في الاتجاهات الأخرى: نحو وهران مثلا، وفي اتجاه تنس،وكذلك

نحو تاهرت، ومن هاتين المدينتين الأخيرتين إلى المسيلة...

وتبدو هذه المنطقة الواسعة الشرقية في وضع عادي ومتجانس من خلال لوحة الإدريسي. لكننا نعرف أن الحد بين مجال المرابطين ومجال بني حمّاد يمرّ من هناك. وكذلك الشأن مبدئيا بالنسبة للحدّ الغربي لمجال انتشار الهلاليين. ومن المفروض، على هذا الأساس، أن هنالك على الأرض ما يجسّم المرور من حوزة إلى أخرى. لكن الإدريسيّ لم يهتم بتدقيق كل ذلك كما كنا نودّ؛ مما يدعونا إلى التساؤل عن حقيقة ما وجد من جهة وعن عوامل الإغفال من جهة أخرى.

ويتصل بمسألة الحدّين المذكورين والصلات بين الدول بالتالي والأوضاع الأمنية وغيرها في البلاد مسألة التواصل التجاري مع مجال بني حماد وبجاية بالتحديد: مسالكه ومدى تيسّره وحجمه. أو بتعبير آخر: من أين كانت تمرّ القوافل التي يذكر وصولها إلى بجاية حاملة لبضائع بلاد السودان ؛ وما مدى أهميتها، وإلى أي حد كان وصولها ميسورا ؟

في الختام علينا أن نبرز من جديد تطور الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في النصف الغربي من بلاد المغرب خلال الفترة المدروسة؛ وأن نؤكد على تطور العمران وغلبة الرخاء، فحالات التراجع المذكورة محدودة في المكان والزمان، وليس هنالك التهتك الكبير والطويل الأمد للعمران وللأنشطة الاقتصادية الذي عرفه النصف الشرقي.

ويبرز هنا فضل المرابطين أو دورهم التاريخي، وما ذكرناه في البداية من انقلاب للموازين. وأكثر من ذلك، رغم أن عهد هؤلاء الناس، أي المرابطين، لم يستمر طويلا، فإن الاتجاه الذي رسموه والحركية التي افتتحوها لم تتوقف بعدهم ولم تنثن بل تواصلت واتسع نطاقها أفقيا وعموديا، ويعود ذلك دون شك إلى طبيعة التوجه الجديد وقوّته وعدم وجود عوائق كبيرة أمامه. فلقد تعلق الأمر بنهضة جماعات وجهات أثرت فيها الأحداث وحفزتها فلم تكن مستعدة بالتالي للتراجع وسارت قدما نحو الأمام. وهوية الدولة الجديدة وأعمالها في الفترة التالية وعلى نطاق كل بلاد المغرب تعبّر عن ذلك.

ثالثاً - بلاد المغرب في جملتها من أواسط القرن السادس الهجري إلى أواسط القرن السابع (القرنين 12 و 13 الميلادي):

شهدت بلاد المغرب خلال هذه الفترة تطورات سياسية واجتماعية واقتصادية جديدة كان لمجموعة بشرية معيّنة أخرى الدور الفاعل فيها هذه المرة أيضا. وتنتمي هذه المجموعة إلى الفضاء المغربي بل تقيم فيه في الحالة الراهنة، وذلك بعد المجموعة المغربية الهامشية التي مثلها المرابطون والمجموعة القادمة من خارج الفضاء المذكور التي مثلها عرب بني هلال وبني سليم. وتتكون المجموعة الجديدة من الموحّدين أو المصامدة أساسا الذين لئن شابهوا الطرفين السابقين جميعا أو الواحد منهم دون الآخر في هذا الأمر أو ذاك فإنهم قد تميزوا عنهما أيضا بأشياء.

1 - الموحّدون أو المصامدة: الهوية والملامح العامة الأصلية :

إنّ لفظة "الموحّدين" في استعمالها الأصلي لها مدلول ديني عقائدي وكذلك سياسي مشتقّ من توحيد الله أو عقيدة التوحيد عند محمد بن تومرت.

أما لفظة "المصامدة" فلها دلالة قبلية وتسمّي كتلة كبيرة من الناس.

وفي الحقيقة نحتاج إلى الجمع بين اللفظتين للإحاطة بالعنصر البشري الجديد الفاعل في المرحلة المفتتحة، لأنّ كل واحدة منهما لا تفي بالغرض بمفردها، باعتبار أن كلمة "مصامدة" أوسع من كلمة "موحدين" قبليا، وكلمة "موحدين" أوسع من كلمة "مصامدة" دينيا وسياسيا.

وفيما يخص المصامدة عموما، فإنهم يبدون في السوس الأقصى عند الإدريسي وكذلك في المراحل الستّ الفاصلة بين هذه البلاد الواقعة جنوب جبل درن، وأغمات وريكة الموجودة في السفح الشمالي لهذا الجبل .

وهم يظهرون عند ابن خلدون على مستوى النسب كجذم من أجذام البربر البرانس، وعلى مستوى الأعداد والانتشار ككتلة بشرية واسعة تغطي معظم المغرب الأقصى وتتكون من 3 مجموعات كبيرة: اثنتين منها جبلية أساسا، والأخرى سهلية هي من الشمال إلى الجنوب: غمارة في مرتفعات الريف، وبرغواطة في بسائط وسط البلاد، ثم أهل جبل درن والسوس الأقصى في الجنوب الذين ينفردون عمليا بحمل اسم "المصامدة". وهذه المجموعة الأخيرة هي المعنية بالدور التاريخي المذكور سابقا وبالدراسة بالتالي. لكن حتى على مستوى هذه المجموعة، فالموحّدون لا يتمثلون فيها كلها بل في قبائل معينة منها فقط بأكملها أو قسم منها فحسب (ربما شكلت معظمها) تبعت محمد بن تومرت ثم عبد المؤمن بن علي في زمن الحركة سواء دفعة واحدة وعن طواعية منذ البداية أو بالتدريج فيما بعد وبشيء من الاضطرار أحيانا.

هذه القبائل المصمودية هي أساسا حسب ابن خلدون وعدد من المصادر الأخرى مع بعض الفوارق أحيانا بين النصوص : هرغة قبيلة ابن تومرت، وهنتاتة قبيلة ابي حفص عمر اينتي جد الحفصيين، و"أهل تينملل"، وتينملل ستكون المركز الرسمي للحركة من 518هـ / 1124م إلى قيام الدولة، وقنفيسة، وقدميوة، وكذلك هزرجة ووريكة اللتان ربما سمّيتا "بالقبائل" مع بعض المجموعات المصمودية الأخرى مثل هزميرة وهيلانة.

هذه القبائل المصمودية هي التي استحقت (من ضمن قومها) اسم "الموحّدين" في معناه العقائدي والسياسي المبكّر، وقامت بالدور الأصلي الذي أسّس لدور لاحق ومرتبة. لكنها لم تكن وحدها تماما في ذلك وإن شكّلت هي القاعدة الأساسية، إذ تذكر معها في كل ما تقدّم بعض الجماعات الأخرى المجاورة لها في الجنوب وربما في الوسط أيضا مثل صنهاجة أو قسم منها وكذلك هسكورة؛ أو البعيدة عنها ونقصد كومية البترية النسب والموجودة في الشمال.

ومعظم الموحّدين كانوا مصامدة إذن ومن جبل درن والسوس الأقصى. ويمكن انطلاقا من المعطيات التي لدينا أن نرسم صورة للمنطقة التي ينتمون إليها ولنمط عيشهم فيها وبدرجة أقل لهياكلهم وتراثهم وذلك من أجل الإحاطة بملامحهم الأصلية.

فالمنطقة تبدو محدّدة بوضوح ومحدودة نسبيا من حيث الاتساع بالمقارنة مع فضاءات المرابطين وبلدان بني هلال وبني سليم أو محطاتهم. وهي مبدئيا أكثر قابلية للدرس بناء على ذلك.

هي محدودة لكن لها امتداد عمودي أيضا خلافا لما سبق، لأنها جبلية أساسا إذ يهيمن عليها

جبل (أو جبال) درن أي الأطلس الكبير الذي يقابله في الجنوب الأطلس الصغير، فتصبح بلاد السوس الأقصى بينهما بمثابة الوادي الواسع المغلق رغم أهميتها الكبيرة اقتصاديا.

ويمثل جبل درن كتلة تضاريسية ضخمة من حيث الامتداد والارتفاع، فيها قمم عالية مثل "طبقال" أعلى نقطة في بلاد المغرب (4165م)، وتتسم بالوعورة مثلما يتجلى من وصف تينملل التي انتقل إليها ابن تومرت في سنة 518هـ / 1124م وبقي فيها، لكنها تتضمن أيضا أماكن منفسحة في الداخل. وهي بيئة يتوفر فيها عنصر الماء بقدر لا بأس به من العيون والتساقطات (أمطار وثلوج)، وتجري فيها أودية (مثل وادي تانسيفت) تؤلف شبكة تسيل مياهها نحو المحيط في النهاية. ومع هذه المياه يذكر الخصب الذي له بعد طبيعي آخر غير مسألة الماء يتمثل في نوعية التربة. وكل هذه الأشياء تشكل الأساس لغطاء نباتي طبيعي يبدو هاما ولتواجد أنواع من الحيوانات البرية.

هذا الإطار أو هذه البيئة، بما تتضمنه من تضاريس من شأنها أن توفر المناعة وبما يتوفر فيها من أسباب للعيش سواء عن طريق الصيد أو الرعي أو الفلح زيادة على وجود المعادن أحيانا وعلى المناخ الملائم، هذه البيئة تسمح مبدئيا للناس بالعيش فيها في استقرار وبكثافة هامة. وفعلا يذكر أنها كانت آهلة منذ القديم؛ سكانها كثيرون؛ وهم متأصلون أو متجذرون هناك بدرجة تفوق دون شك ما كان عليه سكان السهول والهضاب.

ويتمثل عمران هذه المنطقة في القرى أساسا مع وجود بعض المدن غير الكبيرة في الأطراف والمنخفضات بالخصوص مثل أغمات وريكة وتارودانت. وتذكر أيضا في هذا الصدد مع شيء من التركيز على المعمار القلاع والحصون في الأماكن المرتفعة مثل حصن تينملل (دوما) الذي يقدّمه الإدريسي كمثال على هذه الظاهرة .

ويتعاطى المصامدة الأنشطة الفلاحية خاصة من تربية ماشية ورعي وغراسة أشجار مثمرة وزراعات. وإلى جانب الفلاحة هنالك نشاط صناعي هام هو أوضح في بلاد السوس. أما تجاريا فزيادة على التبادل الداخلي وعلى إمكانية وجود نوع من الاكتفاء الذاتي المحلي الذي يقوم على تنوع المنتوجات، فإن المنطقة ليست منقطعة عن محيطها رغم موقعها وتضاريسها إذ كانت تقصد من أجل محاصيلها وموادها حسب المصادر.

وينتظم السكان عموما في إطار قبائل وعشائر تتقاسم المجال. لكن ليس لدينا معطيات كثيرة ومفصلة عن هذه المجموعات لا من حيث علاقات النسب بينها وتفرعها الداخلي ولا من حيث توزيعها الجغرافي.

ونفس الغموض تقريبا يوجد على مستوى البنى ما فوق القبلية والحياة السياسية التي كانت دون شك لهؤلاء الناس قبل المرابطين، إذ يذكر ابن خلدون متحدثا عن الجبال وأهلها بأنها قد "تعددت فيها الممالك والعمالات بتعدد شعوبهم وقبائلهم وافترقت أسماؤهم بافتراق أحيائهم". لكن ما نعرفه قليل وهو يتعلق بالأطراف خاصة.

وعلى مستوى الانتماء الديني والمذهبي والوضع الثقافي يذكر الاعتناق المبكر للإسلام من قبل قسم على الأقل من السكان منذ القرن الأول الهجري ودخول عدد من المصامدة إلى الأندلس وبقاؤهم فيها.

وكانت المنطقة مذهبيا "بين" نظام برغواطة من جهة ونفوذ العلويين الأدارسة وربما دعوتهم من جهة ثانية، ومذهب شيعي آخر هو

المذهب الموسوي وكذلك توجّه حشوي يوجد معه في السوس الأقصى حسب المصادر من جهة ثالثة، وربما تأثيرات خوارج سجلماسة الصفرية الذين يصل نفوذهم إلى درعة من جهة رابعة.

وعلى الصعيد اللغوي والعلمي يمكن للبيئة التي نشأ فيها محمد بن تومرت بما فيها من أسماء وممارسات ومكتسبات وصلنا خبرها أن تلقي بعض الضوء على الوضع الذي كان قائما. ولقد ساهم هذا الرجل، أي محمد بن تومرت الذي انطلق ماديا ومعنويا من هذه البيئة وهذا الوسط وكان له مسار متميز، ساهم في تطوير الوضع المذكور على المستوى الثقافي وغيره أيضا بعد أن تغيّر هو بالطبع فأضاف ملمحا آخر جديدا هاما جدا لقومه نحته شيئا فشيئا من خلال الحركة التي بعثها. فهو قد طلب العلم في موطنه الأصلي ثم خرج إلى الفضاء الإسلامي الواسع في المغرب والأندلس ثم في المشرق فحجّ والتقى الرجال ودرس واطلع وصار عالما بالعقيدة والفقه ومدرسا وآمر بالمعروف ونهى عن المنكر في طريق العودة بالخصوص.

ولقد لجأ ابن تومرت إلى بيئته ووسطه الأصلي في نهاية المطاف بعد ان بدأت تحدث ضدّه ردود فعل رسمية مناوئة، فاشتمل عليه قومه وبقي بينهم باستمرار، إلا أنه حرص على المواصلة هناك بل طوّر أمره بسرعة. فبعد أن اتخذ رابطة للعبادة والتدريس بإيجليزان وارغن وأقبل عليه الطلبة، سرعان ما ذكر المهدي ودعا إليه فبويع على أنه هو (الإمام المعصوم المهدي المعلوم).

واهتم ابن تومرت في حركته الجديدة المناهضة للحكام المرابطين والفقهاء وغيرهم والرامية إلى صنع واقع جديد بالتعليم والتكوين اهتماما خاصا. ويعدّ هذا الأمر من الملامح البارزة لها. ولا بدّ أن هذا الاهتمام قد نتج عنه تحسن على المستوى اللغوي والمعرفي وحتى الذهني لدى الموحّدين. ولقد شمل التطوير ميدان العبادة أيضا وذلك باعتبار طبيعة الحركة دوما، إذ سنّ ابن تومرت لأصحابه أشياء كان عليهم القيام بها بانتظام. كما تطور الجانب التنظيمي الجماعي من خلال تمييز فئات وإيجاد أصناف وهيئات ووضعها في ترتيب مضبوط ودائم أو تراتب قار واستعراضها، فزادت الهيكلة والتأطير والانضباط والطاعة.وتطور أيضا البعد النفسي والسياسي الديني (أو الإيديولوجي). فالمصامدة الموحّدون لم يعودوا أولئك البربر الجبليّين الموجودين في مكان قصي هامشي ضمن دار الإسلام؛ ثم أولئك المحكومين الخاضعين للمرابطين الذين يعتبرونهم حشما ويتخذون منهم الحشم؛ بل صاروا من تتوفر لديهم العقيدة الإسلامية الصحيحة أو الحق في نظرهم، عقيدة التوحيد، والذين يأتون مباشرة في سياق الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين بعد فترة طويلة خاوية عرفها التاريخ الإسلامي. بينما كل المسلمين الآخرين هم على غير ذلك وبالتالي يعتبرون كفارا. والموحّدون هم أصحاب أو أتباع المهدي الشخصية المقدسة المتفردة التي لها دور سياسي وديني تاريخي شامل يتمثل في مقاومة الظلم وأهله بحد السيف والتغلب عليه وإحلال العدل محله على نطاق كل بلاد الإسلام على الأقل. فهنالك إذن إعلاء من شأن الذات التي أسند إليها دور وحدد لها هدف على حساب الآخرين الذين هم مستهدفون هكذا للإصلاح أو الاستباحة.

وهذا الأمر يشبه ما عرفته صنهاجة اللثام في إطار حركة "دعوة للحق" ومن قبلهم كتامة في إطار حركة الداعي أبي عبد الله الشيعي... الخ، وهو يدعم مبدئيا روح الجماعة والشخصية الجماعية.

وتمكنت الحركة التي بعثها ابن تومرت ونشط في إطارها المصامدة وتطوروا من التغلب على دولة المرابطين. وكان ذلك في سنة 541هـ / 1146-1147م أي 27 عاما تقريبا بعد البيعة للمهدي في 515هـ / 1121-1122م وحوالي 17 عاما بعد وفاة هذا الأخير في 524هـ / 1130م. ممّا يدلّ على طول مرحلة التكوين وعلى ثبات أصحاب المهدي على النهج المرسوم ودورهم في إقامة الدولة الموحّديّة الجديدة.

ولقد قامت هذه الدولة على أنقاض الدولة السابقة وعلى الرقعة ذاتها تقريبا التي كانت لها في البداية وهي المغرب الأقصى في الأول، واتخذت من مراكش مدينة آل تاشفين عاصمة لها.

لكن ما لبثت العديد من المناطق والكثير من الجماعات أن انتقضت على الحكم الجديد، فكان لزاما على الموحّدين أن يستأنفوا المواجهات (معها) وتسنى لهم التغلب (عليها) وثبت سلطانهم بعد ذلك.

وإلى جانب المغرب الأقصى، امتد المجال الموحّدي منذ زمن مبكر ودون صعوبات تذكر إلى معظم الأندلس الإسلامية أيضا.

ثم كانت الخطوة التالية نحو بلاد بني حماد في المغرب الأوسط 547هـ / 1152م، فأمكن الاستيلاء عليها وضمها بسهولة هي الأخرى، وتمّ هكذا الخروج عن المجال الموروث عن المرابطين أو تجاوزه.

واستكمل الموحّدون امتدادهم داخل بلاد المغرب بضمّ إفريقية في سنة 555هـ / 1160م. فحققوا هكذا إنجازا غير مسبوق إسلاميا جعلهم أهلا للتسمية بالموحّدين على المستوى السياسي أيضا: كل الغرب الإسلامي عمليا ضمن دولة واحدة مستقلة ممركزة عاصمتها مراكش، بعد الأوضاع التي عرفها هذا الفضاء في الفترة السابقة والتي درسناها في الفصلين المتقدمين.

وكان هذا الإنجاز هو قصارى ما وصل إليه الموحّدون في المجال السياسي. ولقد تواصل التوحيد عدة عقود، إلى أواخر الربع الأول من القرن السابع الهجري، ولو مع الاضطراب المحلي الشديد أحيانا. وقد أثر هذا الأمر على الوضع الاجتماعي والاقتصادي وغيره للموحدين، كما أثّر على أوضاع المجموعات الأخرى فضلا عن تأثيره الاقتصادي العام.

2 - الأثر الاجتماعي على الموحّدين والمجموعات الأخرى :

- بالنسبة للموحدين: "وجد" المصامدة وكومية ومن معهم أو الموحّدون الأصليون أنفسهم (هكذا) أصحاب دولة شاسعة وملك كبير (وهم أهل الجبال الجنوبية القصية خاصة الذين لم يكونوا يغادرون معاقلهم في السابق إلا بشكل محدود عكس الرحل)، فصار لزاما عليهم الانتشار بشكل دائم في كل الرقعة التي تغلبوا عليها ليحفظوا سلطانهم وينتفعوا به.

لكن العديد من هؤلاء الناس مكثوا رغم ذلك في موطنهم الأصلي بالنسبة للمصامدة. هذا الموطن الذي بقي في أيديهم وبقيت صلتهم به قائمة دون قطيعة مادية أو سياسية حتى النهاية، لقربه وخصوصيته وحاجتهم إليه وصعوبة أن يعوّضهم غيرهم فيه (ربما عكس مجال الملثمين ومجالات بني هلال وبني سليم من بعض الجوانب على الأقل).

والمعروف أن العاصمة مراكش التي يقيم فيها قسم من كبراء الدولة الجديدة (وغيرهم) توجد في مجال الموحّدين الأصلي، فهي تقوم في سفح جبل درن تقريبا على أرض مصمودية مما يحافظ على الروابط قوية.

وكان الموحّدون (حتى من غير المصامدة) يذهبون إلى هذا الموطن وإلى مركزه (القديم) بالتحديد من مراكش وغيرها بصفة رسمية وجماعية أيضا، وذلك في إطار زيارة قبر الإمام المهدي المدفون بتينملل وربما قبور الخلفاء الأول أيضا الذين يجاورونه هناك. وتتم هذه الزيارة من حين إلى آخر لاعتبارات عقائدية وربما غيرها كذلك متصلة بشخصية هؤلاء الناس وطبيعة دولتهم.

كما أنّ المصامدة سيتخذون من موطنهم الأصلي المذكور ملجأ لهم يلوذون به عند الحاجة أو يعودون إليه في النصف الثاني من عمر الدولة ثم بعد زوالها وانتهاء الدور التاريخي.

ولقد حمل الانتشار الواسع الجديد الذي يحدث للمصامدة لأول مرة بهذا الشكل منذ الفتح الإسلامي، حمل الموحّدين إلى كل أرجاء الغرب الإسلامي تقريبا ليتمركزوا في أماكن معينة منها أو ليقوموا بأعمال أو مهام عبرها. فهم يذكرون على مستوى التمركز في كل من طرابلس وقابس ونفزاوة والجريد وقفصة والمهدية وتونس... وكذلك في قسنطينة وبجاية وتلسمان، زيادة على المغرب الأقصى وعلى الأندلس.

وكان خروجهم إلى هذه البلاد نظاميا أساسا أي بناء على أوامر عليا يتلقونها ومن أجل خطط يتولونها أو مهام يقومون بها وبمقابل مادي يحصلون عليه. لكن ربما وجد الخروج التلقائي أيضا الذي ييسّره قرب الجبل وغلبة القوم وسلطانهم.

وكانت وظيفة الموحّدين في مجالهم الجديد سياسية وعسكرية أساسا، فمنهم البيت الخلافي. وهو بيت عبد المؤمن بن علي الكومي من قبيلة كومية وليس بيت محمد بن تومرت من قبيلة هرغة المصمودية. ابن تومرت الذي كان حصورا لا يأتي النساء حسبَ المصادر، فلم يتزوج ولم يتسرَّ وبالتالي لم يكن له خلف، إنما كان عنده إخوة بقوا على قيد الحياة بعده وربما حاولوا التحرك في وقت ما ضدّ الخليفة عبد المؤمن لكن أمرهم اكتشف وقتلوا في النهاية.

ولقد اتسع بيت عبد المؤمن وأسندت إلى أفراده الذين لقبوا رسميا بالسادة (جمع سيد) الولايات منذ زمن مبكر وطيلة العهد الموحّدي فيما بعد، متمثلة في الوزارة أحيانا وفي الإدارة الجهوية في معظم الأوقات.

ويوجد حول الخليفة في مركز الدولة وإلى جانب الولاة من أبنائه وذويه وغيرهم في الجهات شيوخ من الموحّدين للاضطلاع بالمهام السياسية والإدارية أو للقيادة العسكرية أو ضمن دور الحاشية. وكان لهؤلاء الشيوخ أسر لها شأن كبير أحيانا. وأبرز مثال على ذلك أسرة أبي حفص عمر اينتي التي تولّى أفرادها المناصب والمهام والتي ستؤسس لنفسها ملكا بإفريقية.

وإلى جانب الوظيفة السياسية وكقاعدة لها، هنالك الوظيفة العسكرية التي تمارس باستمرار ضمن القوات الموجودة في المركز وكذلك الحاميات المرابطة في الأنحاء أو بصفة ظرفية مع من يستدعي من موطنه بمناسبة الحملات الكبيرة. ورغم وجود أصناف أخرى من الجند في الدولة كما هو معروف، فإن الموحّدين يمثلون العمود الفقري للجيوش ويذكرون في كل العمليات تقريبا.

ويقدّر عبد الواحد المراكشي الذي عاش في ظل دولة بني عبد المؤمن (بالخصوص) وعرف دواليبها من الداخل بحكم انتمائه إليها وموقعه منها، يقدّر عدد من يقيم بمراكش من الأجناد الموحّدين وغيرهم بعشرة آلاف نفس، وهو يسمّى هؤلاء الموحّدين "بالجموع" بينما يطلق اسم

"العموم" على من بقي من هؤلاء الناس في موطنه الأصلي. وجهويا، أوضح مثال على العساكر الموجودة حول الولاة من انتخبهم الشيخ أبو محمد عبد الواحد ليبقوا معه بإفريقية في 603 هـ / 1206-1207م.

وتتصل بهاتين الوظيفتين مرتبة اقتصادية واجتماعية سامية قوامها الجرايات الهامة المنتظمة والسهام (وهي نوع من الإقطاع) والأملاك، زيادة على الغنائم من حين إلى آخر وعلى ما صار لهؤلاء الناس من عبيد دون شك ومن موالٍ وصنائع وما عندهم من نفوذ وجاه. وتظهر بعض هذه الأشياء مثلا من خلال القول المنسوب إلى المنصور (580-595هـ / 1184- 1190م) في حديثه عن الغزّ ضمن الوصية التي تركها :"وهؤلاء الأغزاز أمرنا لهم بهذه البركة يأخذونها فاتركوها على ما رتّبنا وربطنا لأن الموحّدين لهم سهام يرجعون إليها وليس للأغزاز سهام".

يبدو الموحّدون إذن في مقام هو غير مقام الرعية بل في مقام أصحاب المملكة، هكذا على الأقل يلوح الأمر للمراكشي المعاصر والمطلع.

هذا عن الفترة الأولى من تاريخ الدولة الموحّدية أي حتى العقد الثالث من القرن السابع للهجرة. أما بعد ذلك، أي في الفترة الثانية التي تتواصل حتى نهاية الدولة، فهنالك أشياء ستستمر وأخرى ستزول لتحلّ محلّها أشياء جديدة كما سنرى، وذلك بسبب الانقسام والصراع بين الموحّدين المصامدة من جهة وبني عبد المؤمن من جهة أخرى وكذلك بين هؤلاء الأخيرين ذاتهم.

وإذا كانت هذه هي أوضاع العنصر الجديد الفاعل في الغرب الإسلامي في ذلك الوقت، فما هي أوضاع العناصر والمجموعات الأخرى التي كان لها الشأن الكبير سابقا وكذلك غيرها ؟ ما مدى تأثر هذه المجموعات بما حدث أي بالصراعات الأولى التأسيسية وما نتج عنها ؟

- بالنسبة للمجموعات الأخرى : فيما يخص الأعداد والعناصر وعلى المستوى العام جغرافيا وزمنيا، كما أنّ الموحّدين لم يأتوا من خارج بلاد المغرب، فإن العناصر الأخرى أيضا الموجودة خلال الفترة كانت موجودة عموما في هذه البلاد في السابق ما عدا ربما الغزّ وأعداد من الصقليين والأندلسيين. فليس هنالك إذنْ دفق هام جديد داخل، كما أنه لا يوجد خروج ذو بال.

وإذا أردنا الإحاطة، فمن الجنوب الغربي كانت صلة الدولة الجديدة بالصحراء مختلفة عن صلة الدولة السابقة بها. وربما نقص التواصل البشري مع هذا الفضاء رغم التعبئة إلى القتال المذكورة في المصادر والتي جلبت أعدادا من الناس من حبش غانة وعمرة الصحاري، وربما أيضا مساهمة بعض الملثمين الصحراويين في حركة بني غانية كما سنرى. أما تحرك عدد من صنهاجة اللثام الذين كانوا في بلاد المغرب نحو الجنوب أي في الاتجاه الآخر، فلا يبدو ثابتا تماما أو واسعا.

أما من الجنوب الشرقي، فلقد وصلت أعداد من الغزّ قادمة من مصر يقودها قراقوش وإبراهيم بن قراتكين. وكان ذلك في السبعينات تقريبا من القرن السادس للهجرة في تزامن مع قيام نظام الأيوبيين هناك الذي ينتمي إليه هؤلاء الناس والذي كان له دور في قدومهم. لكنّ عنصر الأغزاز في حد ذاته لا يعدّ غريبا عن البلاد، إذ تذكر مجموعة منهم فيها في فترة حكم بني باديس بإفريقية. على أن أهمية الغز لا تكمن في أعدادهم التي لم تكن واسعة بل في انتمائهم العرقي الجديد نسبيا، فهم من الأتراك، وفي اختصاصهم المهني الخطير على الحكام والمفيد لهم في نفس الوقت باعتبارهم رماة

مهرة. ومن هنا استبقاؤهم بل استمالتهم وانتدابهم في الجند ونقلهم إلى المغرب الأقصى وإجزال العطاء لهم وتغلغلهم بالتالي في البلاد والمجتمع والدولة.

ومن الشمال (الغربي) نجد أن الموحّدين الذين دخلوا الأندلس ابتداء من أواسط القرن السادس الهجري وكذلك أعقابهم فيها قد عادوا، ولو بصفة غير شاملة، إلى بلاد المغرب بعد انهيار سلطانهم هناك في العقد الثالث من القرن السابع نتيجة الثورة بهم بعد أن تأزمت أوضاع دولتهم التي أضعفها الانقسام والصراع. وربما الجديد في هذه الفترة هو أن الانهيار (المذكور) لم يصب سلطان الموحّدين فقط في شبه الجزيرة بل سلطان المسلمين ذاتهم، ففقدوا مواقع عديدة بل قواعد أساسية كانت لهم مثل قرطبة وإشبيلية (بعد طليطلة وسرقسطة...)، فنتج عن ذلك انحسار سكاني أيضا أو هجرة نحو الجنوب الشرقي، وهنالك من ترك العدوة الأندلسية إلى بلاد المغرب. ولعل ما عرفه ابن الأبار وكذلك أسلاف عبد الرحمن بن خلدون الذين حلّوا بإفريقية من أشهر الأمثلة على ذلك.

والملاحظ أن نفس الظاهرة تقريبا كانت قد عرفتها صقلية في القرن 5هـ / 11م ثم زادت استفحالا في زمن الموحّدين. وكل ذلك في إطار فقدان المواقع الإسلامية المتقدمة نحو الشمال على النطاق العام من أرمينية وآسيا الصغرى إلى جزيرة كريت إلى صقلية إلى الأندلس. ويعتبر هذا التطور مرحلة هامة ضمن التراجع المتزامن مع التعرض للغزو في الداخل.

وإذا كانت الأعداد لم تتغير كثيرا على ما يبدو نتيجة لدخول أو خروج مكثفين ولا أيضا بسبب موتان واسع ناتج عن مجاعة أو وباء أو غيرهما لا يذكران في ما نعلم في المصادر ما عدا ما ينتج عن الصراعات؛ وإذا كانت التركيبة الإثنية من جهتها لم تشهد تغيرا يذكر، فإن الانتشار والمراتب قد عرفت على العكس من ذلك تحولات هامة.

لقد تركز الصراع ضد قبائل المرابطين في المرحلة التأسيسية للدولة التي عرفت في المغرب الأقصى وأطرافه الشرقية أعمالا عسكرية كثيرة تفوق ما تم خوضه في تلك المرحلة في كل من المغرب الأوسط الحمّادي وإفريقية والأندلس؛ أعمال هي في حجم الملك المقام هناك الذي يدافع عنه أصحابه، بينما يصر الطرف الموحّدي الجديد على تقويضه أو على افتكاكه. وكان ذلك ضد قبيلة لمتونة خاصة، قبيلة أمراء المسلمين من بني تاشفين حيث نلاحظ وجود اللمتونيين في مختلف العساكر والمعارك أو معظمها وصمودهم واستماتتهم. وتكون فرص التعرض للضرر على قدر ذلك بطبيعة الحال. بينما يذكر عن مسوفة الاختلاف مع الحكام والانحياز إلى الموحّدين.

ولقد أثر هذا الصراع في أعداد اللمتونيين بالتأكيد فضلا عن تأثيره على انتشارهم الجغرافي ومواقعهم، فصاروا حشما بدورهم. ومما يذكر في هذا الصدد ما حدث في جهة تلسمان حيث استباح عبد المؤمن أهل تاكررت (القريبة منها) لما كان أكثرهم من هؤلاء الناس، وكذلك ما حدث بمراكش في النهاية.

وإذا كانت مسوفة قد ذكر عنها ما تقدم وأتته فعلا بالتأكيد، فإن ذلك لم يمنع البعض من أبناء هذه القبيلة البارزين، ونعني بهم بني غانية الميورقيين، من أن يقودوا حركة مناهضة قوية في الفترة الوسطى من التاريخ الموحّدي ضمت فيمن ضمت أناسا من صنهاجة اللثام قاومت الموحّدين بالكلمة والسيف مدة طويلة من 580 / 1184م أو 581 / 1186م إلى 633هـ / 1236م.

أرادت هذه الحركة أن تفتك البلاد من بني عبد المؤمن وأفلحت في ذلك أحيانا. وتركز نشاطها بإفريقية بالخصوص والنصف الشرقي من بلاد المغرب عموما، أي النصف الذي لم يحكمه المرابطون سابقا أيام دولتهم ولم تنتشر فيه قبائلهم. فأوصل بنو غانية هكذا (أو الموحّدون إن شئنا باعتبار امتداد سلطانهم) إلى هذه البلاد ولو بتأخير زمني وبشكل متقطع صنهاجة اللثام ونفوذهم بعد زوال دولة هؤلاء الناس غربا وتغير أحوال قبائلهم هناك. فكأن الملثمين قد شملوا كل بلاد المغرب هم أيضا وجودا وحكما تبعا لذلك؛ لكن بطريقة خاصة طريفة. غير أن هذا الشمول لا يبدو أنه قد أثر سكانيا في المناطق الشرقية باعتبار الحجم المحدود للأعداد دون شك وعدم استقرار التمركز والنفوذ بسبب المقاومة وإفلاحها في النهاية.

ولعله من باب الطرافة أو الرمز أن بنات يحي بن غانية قد انتهى بهنّ المطاف في الأخير بتونس عند الغريم الحفصي أبي زكرياء يحي، وأنهن أقمن باستمرار في هذه المدينة التي يحمل أحد شوارعها الآن ما يذكّر بهنّ (شارع باب بنات).

هذا عن صنهاجة اللثام غربا ثم شرقا أيضا. وأثناء نفس الفترة التي حكم خلالها هؤلاء الناس النصف الغربي من الغرب الإسلامي بل قبل ذلك بمدة، كان النصف الشرقي بدوره كما نعرف تحت حكم صنهاجة؛ صنهاجة بني زيري أو بني باديس وبني حمّاد هذه المرّة وهم من فرع وطلكاتة.

كانت مواطن هذا الفرع في منطقة أشير على ما يبدو في المغرب الأوسط غربي بلاد كتامة. لكنهم عرفوا الانتشار في ظل الفاطميين في ارتباط بالدور الذي أوكله إليهم هؤلاء. ولقد زاد هذا الانتشار اتساعا على المستوى الجغرافي والعددي بعد رحيل الخلفاء العبيديين إلى مصر وتسلم الحكم منهم والقيام به.

ولقد صارت بلاد كتامة مثلا مركزا لهم، لبني حمّاد منهم بالتحديد، وأسسوا فيها عاصمتهم الثانية بجاية بعد القلعة (التي كانت قد بقيت في منطقة أشير تقريبا). ودام هذا الوضع عموما زهاء القرنين من الزمن، لكن العرب حدّوا منه في الأثناء أي منذ أواسط الفترة وخاصة بإفريقية.

لم يقاوم صنهاجة بني حماد الموحّدين بشدة، ولم تتضرر أعدادهم كثيرا نتيجة لذلك. لكن انتشار هؤلاء الناس لا شك أنه قد تأثر، زيادة على فقدانهم المرتبة التي كانت لهم. أما بإفريقية فلم يبق لصنهاجة نفس الشأن بعد وصول العرب وقيام المتغلبين في المدن والجهات وقدوم النرمان. فلقد تغير الانتشار وزالت المرتبة ما عدا بمدينة تونس التي كان بها بنو خراسان. ووجد الموحّدون الأمير الحسن بن علي مقيما بالجزائر تحت سلطان ابن عمه الحمّادي بعد فترة قضاها هذا الأمير بالمعلقة بقرطاج عند صاحبها العربي، وذلك إثر نزوله عن مدينة المهدية لفائدة النرمان في سنة 543هـ / 1148م.

وفيما يخص أصحاب الكيانات المدينية الأخرى بإفريقية، فلقد أزيلوا عن مراتبهم هم أيضا ومنهم من نقل إلى المغرب الأقصى.

وبصرف النظر عمّا تقدم، لعلّ أهمّ شيء حصل في النصف الشرقي من بلاد المغرب على المستوى السكاني خلال هذه الفترة وشمل أيضا بقية الغرب الإسلامي فتحول هكذا إلى أمر عام هو ما عرفه العرب الهلاليون والسليميون.

أدى وصول الموحّدين إلى بلاد بني حماد ثم إلى إفريقية وبلاد طرابلس وكذلك إلى أرض برقة إلى حصول الاتصال بينهم وبين عرب بني هلال وبني سليم (الموجودين في بلاد المغرب) في مختلف مجموعاتهم تقريبا.

ونتج عن ضم أغلب هذه المناطق التي هي مواطن للعرب إلى الدولة الموحّدية الجديدة (التي امتدت حتى الشرق من طرابلس) أن صار معظم هؤلاء الناس وجلّ مواطنهم ضمن مجال الدولة المذكورة ومن مكوناتها الهامة والمؤثرة. ويعني ذلك حصول تغيير في ظروف العيش بالنسبة للعرب. فهنالك الآن سلطة عليا قوية فوقهم أعلى من سلطة القبيلة وأعظم منها؛ بعد السيادة الكاملة عمليا على الأقل لهذا الهيكل في الفترة المنقضية باعتبار نوع العلاقة سابقا مع الدولة الفاطمية وكذلك مع الكيانات الأخرى القائمة في البلاد. سلطة قهرية تريد أن تسيطر وأن تتحكم ومن شأنها مبدئيا أن تتصرف في الناس وفق حاجياتها ومشاريعها. ولقد صار من الضروري في الوقت الحاضر التعامل مع هذه السلطة؛ مما قد يؤسس للعلاقات في الفترة القادمة بين العرب والدولة أو الدول في بلاد المغرب بشكل أكبر مما حصل حتى الآن.

وهي سلطة على الجميع أو الكل من جهة أخرى، موحدة إذن، وينتج عن ذلك نوع من التوحيد للعرب أيضا بهذه الطريقة بعد أن كان هؤلاء الناس يفتقرون إلى ذلك تقريبا في السابق. فكيف كانت ردود الفعل لدى بني هلال وبني سليم إزاء هذه التغييرات باعتبار طبيعتهم وأوضاعهم وتراثهم من جهة وطبيعة الدولة الجديدة وكذلك نوعية مجالها امتدادا وتركيبة ومركزا وقضايا من جهة أخرى؟ ماذا طرأ على حياة هؤلاء الناس على المدى المتوسط والبعيد نتيجة للظرفية الناشئة وللردود الحاصلة وذلك من حيث الانتشار داخل الفضاء العام الذي كان لهم في السابق وربما خارجه أيضا وكذلك من حيث الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وغيرها؟

كانت ردود الفعل بين الإقبال والإدبار في الأول وخاصة الأمر الثاني كما يظهر من حملة عبد المؤمن بن علي على المغرب الأوسط في سنة 547-548هـ / 1152-1153م ثم من حملته على إفريقية في سنة 554-555هـ / 1159-1160م اللتين ختمتا بمعركتين كبيرتين ضد العرب هزم فيهما هؤلاء الناس هزيمة شديدة.

المعركة الأولى كانت بسطيف بعد أن اجتمع العرب المذكورون للمواجهة وربما حاولوا الاعتراض أو الاتباع عقب ضمّ بلاد بني حماد. والمعركة الثانية جدّت قرب القيروان إثر ضم إفريقية عندما أراد العرب التملص مما وافقوا عليه في البداية من السير إلى الغرب في أعداد معينة للبقاء هناك وفق إرادة الخليفة.

ثم تبلورت المواقف بشكل أكبر فيما بعد، وظهر "صفّ" عربي موالٍ للموحّدين مساند لهم، "وصفّ" آخر أو شق غير خاضع لهؤلاء الناس، ممتنع عليهم ومحارب لهم. ولقد أثر ذلك على التحركات والانتشار والمكانة. فهنالك تحركات جديدة انضافت إلى ما كان يقتضيه نمط العيش وإلى ما كان يتولد عن الصراعات السابقة. والانتشار عرف البقاء على عين المكان لكن أيضا التغيير الكامل أحيانا دنواً من مركز السلطة مثلا أو بعدا عنه. والمكانة شهدت التقريب والتنفيع والتسليط ولكن أيضا الإقصاء والمقاومة.

- الصف الموالي كان فيه زغبة وأوف بني سليم خاصة، ويذكر هؤلاء إلى جانب الموحّدين في الصراعات ضدّ العرب أيضا. وبالنسبة لزغبة مثلا كان المقابل هو نوع من الإقطاع في المغرب الأوسط...

لكن يبدو أن معظم المجموعات كانت علاقتها بالموحّدين يغلب عليها عدم الخضوع وعدم الانصياع بل العداء والصراع أحيانا، سواء في سياق أعمال الغز أو حركة بني غانية أو بصرف

النظر عن ذلك. هذه المجموعات يقع التصادم معها من حين إلى آخر إذن، لكن هنالك أيضا سعي دائم في نفس الوقت إلى استقطابها وجلبها باستعمال وسائل مختلفة؛ وعند استجابتها أو التمكن منها قد يتم التصرف في انتشارها بنقلها إلى خارج المجال المعتاد للهلاليين والسلميين (لكن دائما في إطار الفضاء الموحّدي بالطبع) أي إلى النصف الغربي من بلاد المغرب حيث مركز السلطة وكذلك إلى الأندلس للتوطين في هذه البلاد والمراقبة والاستعمال العسكري والسياسي. وفي هذا النقل الذي يمثل الجزء الثاني أو الثالث والأخير من "التغريبة الهلالية" بمواصفات تختلف إلى حدّ ما عمّا سلف، هنالك سعي أيضا إلى التخفيف من حضور العرب شرقا وإلى إضعاف سيطرتهم هناك. ولقد وجدت سياسة موحدية واضحة في هذا المجال ظهرت ملامحها باكرا وتواصلت فيما بعد لعدة عقود. والقبائل المنقولة هي من الأقوى والأخطر. والتوطين كان يتم في بسائط المغرب الأقصى من هضاب وسهول وبدرجة أقلّ في الأندلس.

ونتيجة لهذه السياسية ولهذه العلاقات، ظهرت منذ النصف الثاني من القرن السادس الهجري خريطة جديدة لانتشار العرب الهلاليين والسليميين بل للعرب جملة في بلاد المغرب ومن ورائها الغرب الإسلامي بأكمله. خريطة تتضمن خاصة إدخال هؤلاء الناس إلى المغرب الأقصى فضلا عن غربي الأوسط والأندلس بعد أن كان وجودهم هناك محدودا أو منعدما.

ويعني هذا الأمر تعريبا أوسع للمناطق الغربية على المستوى البشري واللغوي من جهة، وتجانسا اجتماعيا وثقافيا أكبر بالتالي بين أقطار بلاد المغرب بل بين مختلف الأقطار العربية الإسلامية تقريبا من جهة أخرى.

لكن باعتبار أنّ بني هلال قد أنزلوا في بسائط المغرب الأقصى، وأنّ الجبال الهامة والآهلة في تلك البلاد لم تعرف هذه الظاهرة، فربما برز تمايز جديد هناك بين أهل السهول والهضاب من ناحية وأهل المرتفعات والأوعار من ناحية أخرى.

وإلى جانب المجموعات المرابطية أو الصنهاجية الجنوبية وكذلك الصنهاجية الشمالية والعربية التي كان لها الحكم سابقا أو كانت في وضعية استقلال وهيمنة ثم تراجعت عموما، هنالك مجموعتان كبيرتان عرفتا التغيير هما أيضا من حيث الانتشار والمنزلة لكن في اتجاه إيجابي بالنسبة إليهما هذه المرة، إذ عرفتا الصعود المادي من الجنوب إلى الشمال والارتقاء السياسي والاجتماعي بالوصول إلى الحكم؛ هاتان المجموعتان هما بنو عبد الواد من جهة وبنو مرين من جهة أخرى الذين برزوا على حساب الموحّدين وكان أمرهم من السمات البارزة للفترة المدروسة في أواخرها، وقد وضع هذا الأمر كذلك حدا للفترة المذكورة ورسم ملامح المرحلة اللاحقة.

وينتمي بنو عبد الواد وبنو مرين إلى زناتة من البربر البتر (إلى الجيل الثالث منهم بالتحديد حسب ابن خلدون)، وكانوا يحيون في جنوب المغرب الأوسط منذ زمن بعيد. ويقوم عيشهم على تربية الماشية والرعي والتنقل أو التقلب في البلاد. وكانوا قبائل ذات عدد لها بيوت رئاسة وعندها خصال حربية وطاقات عسكرية هامة. ولقد تميز بنو عبد الواد على بني مرين بالتعاون مع الموحّدين في الفترات الأولى.

ولقد استفادت هاتان المجموعتان من الظروف الجديدة التي عرفتها الدولة الموحّدية في أوائل القرن السابع للهجرة، فأخذتا في التغلب على المدن والأرياف في الشمال والتمركز فيها

والاستقرار داخلها (بعد حياة الترحل في الصحراء) وممارسة الحكم وجمع الجباية. وكان كل ذلك على حساب دولة الموحّدين التي لم تقدر على المجابهة واضمحلت في النهاية.

هذه هي الخطوط العريضة للأوضاع الاجتماعية من حيث أعداد السكان وعناصرهم أو مجموعاتهم وانتشار هذه المجموعات ومراتبها. ويمكن أن يضاف إلى ذلك ما يتعلق بالأسرة والفئات أو الأصناف عموما كالفقهاء وأهل الذمة. وقد أثرت هذه الأوضاع التي كانت بين التواصل والتحول على الاقتصاد، بل إن هنالك تفاعلاً بين مختلف الأبعاد.

3 - الأثر الاقتصادي :

إن الوضع الاقتصادي على المستوى العام وكذلك الجزئي أو الخاص يؤثر فيه مبدئيا التوحيد القطري والشامل من جهة، وما تعرفه الفترات والجهات في الأثناء من سلم وأمن أو من صراعات واضطرابات من جهة أخرى. وربما انضافت إلى ذلك درجة تقدّم عمر الدولة كما يقول ابن خلدون خاصة، وسياسة الحكام في المجال الاقتصادي والجبائي المتصلة بهذا الأمر، وأيضا الظرفية العامة المحيطة والعلاقات الخارجية.

وبصرف النظر عن زمن التأسيس للوضع السياسي والاجتماعي الموحّدي الجديد الذي كان طويلا والذي يتبع الفصل السابق، يمكن تمييز فترتين بالنسبة للدولة الموحّدية: فترة ما قبل ظهور أزمة الحكم لدى الموحّدين في العقد الثالث (وربما الثاني) من القرن السابع للهجرة، ثم الفترة التي افتتحتها هذه الأزمة.

تميزت الفترة الأولى في المغرب الأقصى خاصة (وجملة المجال عموما ما عدا إفريقية وشرقي الأوسط منذ سنة 580 أو 581هـ / 1184-1186م) بوحدة البلاد وتماسكها وتوفر الأمن فيها؛ فليس هنالك تقريبا حركات مناهضة ذات بال أو جهات منفصلة. كما تميزت بقوة الخلافة وتوفرها على طاقات عسكرية هامة؛ وبوجود بعض المراكز الأساسية للحكم يتنقل بينها الخلفاء، وأيضا بحركة معمارية وعمرانية نشيطة؛ وجباية منظمة وموحدة على ما يبدو وربما مستقرة وغير ثقيلة.

أما الفترة الثانية فإنها عرفت الانقسام والصراع والاضطراب والضعف في المغرب الأقصى مع زوال النفوذ الموحّدي بسرعة عن الأندلس وإفريقية ثم عن المغرب الأوسط. فلقد حصل ضرر مادي ومعنوي للدولة منذ هزيمة العقاب في سنة 609هـ / 1212م ولم يتم التدارك بعد ذلك بل حدث الانقسام بين بني عبد المؤمن ذاتهم وبينهم وبين الموحّدين الأصليين (أو أبنائهم وأحفادهم على الأصح)، "فتعدد" الخلفاء وتعاقبوا بسرعة. وقد بويعوا ببادرة منهم أو بتقديم من غيرهم قد يتلوه خلع وقتل. وكان لكل خليفة أنصار من الموحّدين المصامدة أو من البربر الآخرين أو العرب أو النصارى. وجدّت صراعات دامية مسرحها المغرب الأقصى ومواجهات طال أمدها مدارها مراكش. وانهار في خضم ذلك النفوذ الموحّدي بالأندلس. وانفصلت إفريقية وظهر فيها نظام الحفصيين. وبرز نظام بني عبد الواد في الأوسط ونظام بني مرين في الأقصى. ولقد تكفل هذا الأخير بمواصلة الحرب ضدّ الموحّدين بعد أن تجاوز هؤلاء أزمتهم الداخلية وتغلب عليهم في النهاية. وخلال هذه الفترة وبفعل كثرة الأطراف وصراعها نقص الأمن أو انتفى؛ وتأثرت الجباية دون شك وكذلك التوجهات الاقتصادية لدى الحكام. ولا بدّ أن ذلك قد أثر في الحياة الاقتصادية بصفة سلبية مثلما أثرت فيها ظروف الفترة الأولى بشكل إيجابي.

- الاقتصاد على مستوى القطاعات :

الزراعة: هنالك ازدياد في المساحات المزروعة والمغروسة وبالتالي في الإنتاج الجملي مواصلة لما شهده المغرب الأقصى خاصة في زمن المرابطين قبل الفترة الانتقالية وتطويرا له.

ومن بين هذه المساحات أراض مروية ذات مردود ثابت مبدئيا. ويذكر في هذا المجال توفير المياه في أماكن معينة لم تكن توجد فيها بالشكل المطلوب على الأقل في السابق وذلك استنباطا أو تحويلا واستعمالها في ري أراض جديدة (أيضا) يتم إحياؤها أو استصلاحها بإقامة الزراعات وربما الغراسات خاصة فيها. وتذكر مشاريع كبيرة عديدة في هذا الصدد هي بين الصبغة الرسمية والطابع الخاص باعتبار أمر الخلفاء بها من جهة، لكن أيضا اللبس الموجود بين أملاك الخليفة كشخص وأملاك الدولة من جهة أخرى.

وتتوزع هذه المشاريع على عهود الخلفاء الموحّدين الأربعة الأوائل، وتهم المغرب الأقصى أساسا. فقد سيقت المياه (مثلا) على مسافات ذات بال إلى المدن الأساسية في المعطيات التي لدينا، وأقيمت لها الصهاريج الكبيرة هناك لتجتمع فيها قبل تصريفها في الجداول نحو الأراضي للري.

ولقد شملت الزراعة والغراسة في العهد الموحّدي النباتات والأشجار المألوفة بأنواعها دون شك من حبوب وبقول وتوابل ونباتات للصناعة والزينة من جهة وأشجار مثمرة من جهة أخرى. لكن هنالك تطوير يبدو ثابتا لغابات الزياتين حول مراكش ومكناس مثلا، في اتصال بالتحول المتزايد المذكور سابقا من زيت الارقان إلى زيت الزيتون إنتاجا واستهلاكا في المغرب الأقصى.

على أن التوسع في الأنشطة والزيادة في الإنتاج اللذيْن حفزتهما الظروف الجديدة لا يعنيان عدم وجود أزمات أحيانا ولو على مستوى التزويد. وهنالك مناسبات وأماكن تبرز فيها المصادر وفرة المنتوجات ولكن كذلك قلتها أحيانا.

هذه المناسبات هي الحملات العسكرية الكبيرة التي يحتاج فيها إلى كميات ضخمة من المواد الغذائية والعلوفات للعساكر والدواب في أماكن معينة وأوقات محددة. ويتم الاستعداد عادة لهذا الأمر باكرا فتجمع المواد المطلوبة في محطات توجد على الطريق للتزود منها في المنطلق أو فيما بعد. وإذا لم تكن الأشياء المجموعة في المستوى المطلوب ارتفعت الأسعار واضطربت الحملة وربما انقطعت وتعرض العمال للمحاسبة والعقاب.

كل هذا عن الفترة الموحّدية الأولى (مغربيا) مع استثناء إفريقية وشرقي المغرب الأوسط حيث عرفت هذه البلاد الانتعاش والتطور بعد ضمها إلى دولة الموحّدين، لكن ما لبثت الشوائب أن عادت إليها مع حركة بني غانية ومن جرّتهم في سياقها من عرب وغزّ وما واجهها به الموحّدون من مقاومة...

وفي الفترة الموحّدية الثانية تحولت الشوائب المذكورة إلى المغرب الأقصى. ويعدّ الوضع في مجال الصناعة مشابها لما عرفه القطاع الزراعي.

الصناعة : انتفعت هي أيضا من الظروف الجديدة في الفترة الموحّدية الأولى وعرفت المواصلة والتطوير. ولعل ما شهده قطاع بناء السفن وصناعة الأسلحة ينبئ عن ذلك. إذ يذكر مثلا أنّ عبد المؤمن بن علي قد أنشأ في مراسي بلاد المغرب وحدها 200 قطعة في سنة 557هـ / 1162م، وأنه كان يضرب له كل يوم 10 قناطير من الأسلحة.

وتقدم، من جهة أخرى، المعطيات الكمية

الطريفة أو النادرة التي وصلتنا عن الصناعات (وغيرها) بمدينة فاس في أواخر القرن السادس الهجري فكرة عن تنوع الاختصاصات وحجم الوحدات الصناعية وهيكلتها ومواضعها وما يمكن أن يوجد منها في المدن. لكن يجب الإشارة إلى أن هذه المدينة العريقة كانت تحتل، على ما يبدو، المرتبة الأولى بين المدن في المغرب الأقصى وجملة بلاد المغرب على المستوى الاقتصادي بعد أفول نجم القيروان ورغم تطور مراكش ورباط الفتح- سلا. والمعطيات المذكورة تساهم في تأكيد ذلك، إذ كانت فاس تتوفر على :

- 472 رحى داخل الأسوار غير ما بخارجها؛
- و 47 داراً لصناعة الصابون؛
- و 86 داراً للدباغة؛
- و 116 داراً للصباغة؛
- و 3064 داراً معدة للحياكة؛
- و 400 بيت متخذة لصناعة الورق؛
- و 188 معملاً للفخار خارج الأسوار؛
- و 11 موضعاً لعمل الزجاج؛
- و 12 داراً لصناعة النحاس والحديد؛
- و داراً أو دارين لسك الدنانير.

هذه المعطيات لها دلالة على التجارة أيضا ولو محليا، لأن ما يصنع يباع عادة ومن يصنع يبيع.

التجارة : انتفعت التجارة الداخلية دون شك من الأمن الذي أعاده الموحّدون إلى المجال المرابطي السابق المغربي والأندلسي بعد إقامة دولتهم عليه ومن الأمن الذي أوجدوه إيجادا ولو بدرجة اقل وإلى أمد غير بعيد في النصف الشرقي من بلاد المغرب. كما أنها انتفعت، على ما يبدو، من التوحيد المجالي الواسع الذي أنجز وكذلك من إلغاء الأداءات التي كان آل تاشفين قد وضعوها على المبادلات (وغيرها) في الطور الثاني من دولتهم. وأيضا من الحرص الذي أبداه عبد المؤمن وبنوه الأوائل على العناية بالأسواق وحماية التجّار.

أما في خصوص التجارة الخارجية فلقد تراجعت على ما يبدو المبادلات مع بلاد السودان عما كانت عليه زمن المرابطين وذلك بسبب نوعية العلاقة مع أهل الصحراء ونقصان الأمن في هذا الفضاء والمزاحمة والتضييق اللذين وجدهما التجار المغاربة في بلاد غانة؛ وكذلك للتحول النسبي لخطوط التجارة الصحراوية التي كانت تصل إلى جنوب المغرب الأقصى نحو الشرق والجنوب أو ابتعادها عن بلاد المغرب الحقيقية بسبب الأمن ولتغيّر في مراكز التعدين أيضاً.

وكان التزويد بالذهب منقوصا تبعا لذلك؛ وهو أمر قد يعكسه ضرب العملة.

أما الشرق الإسلامي الذي تجمعه بالمغرب علاقات هيكلية قديمة متعددة الجوانب، فإن المبادلات معه موجودة إلا أنها تواجه صعوبات هي الأخرى تساهم العوامل الطبيعية والاجتماعية والسياسية في وضعها من صحراء وبحر وقبائل بدوية موجودة في الطريق ودول قائمة على اختلافها (الموحّدية والأيوبية والإفرنجية الشامية...).

والواجهة الأخرى الكبيرة الثالثة للتجارة الخارجية ببلاد المغرب هي، كالعادة، أوروبا الغربية ممثلة في المدن الإيطالية بالخصوص خلال هذه الفترة وأساسا جنوة وبيزا وخاصة الأولى. هذه التجارة يتولاها الأجانب بالدرجة الأولى الذين بدؤوا يبسطون نفوذهم على البحر المتوسط أو قطعوا شوطا مهما في هذا الاتجاه. وتحكمها اتفاقيات مع الدولة الموحّدية التي باتت تسيطر على كل سواحل بلاد المغرب تقريبا، فلا بدّ من التعامل معها إذنْ.

اتفاقيات تخضع لميزان القوى أو الظرفية السياسية والعسكرية وتراعي المصالح وتحدد أماكن الاتجار وشروطه على المستوى الجبائي وغيره، وهي تجمع بين القدم والتواصل العام من جهة والتقطع والتقلب من جهة أخرى.

هذا عن الفترة الأولى بالخصوص اقتصاديا مع تميز خاص للمغرب الأقصى في هذا المجال. وفي الجملة بلغ التوحيد السياسي والاجتماعي العام ذروته في النصف الأول من العهد الموحَدي، وزاد النشاط الاقتصادي تطورا، لكن ما لبث كل ذلك أن تراجع في النصف الثاني من العهد المذكور.

وعموما، أي بالنسبة لكل المنطقة المغربية في جملة الفترة المدروسة، شهدت بلاد المغرب فيما بين أواسط القرن الخامس وأواسط القرن السابع الهجري تقاطع مسارين تصاعديين مختلفين عن بعضهما البعض، بل متضادين من حيث نقطة الانطلاق والاتجاه والطبيعة. أحدهما يمضي من الشرق إلى الغرب ويتمثل في المدّ الهلالي والسليمي ذي الطابع الديمغرافي والاجتماعي والاقتصادي القاعدي بالخصوص؛ والآخر من الغرب إلى الشرق، ويتمثل في البناء الدولي المرابطي ثم الموحَدي ذي الطبيعة السياسية والاجتماعية الفوقية أساسا.

في النصف الأول من الفترة ومنذ البدايات "تقدم" كل من المسارين المذكورين في الاتجاه الخاص به نحو الآخر، فكان التلاقي تقريبا أو التجاور اللصيق لمدة لا بأس بها في المناطق الوسطى للمغرب الأوسط. ثم استؤنف التقدم فيما بعد وحصل التداخل الكامل والتراكب في النصف الثاني من الفترة. فوصل المد "الأول" إلى أقصى الغرب "حمله" إلى هناك النظام الموحّدي الجديد. ووصل هذا النظام الأخير بدوره إلى شرقي بلاد المغرب بعد أن يسّر له المهمة في ذلك المدّ المذكور منذ المرحلة السابقة.

وبينما تواصل الأمر الأول ورسخ، لم يصمد الأمر الثاني لعوامل تتعلق بطبيعة كل من الأمرين المذكورين وبالوضع المحلي وغيره، منها حكم الجغرافيا السياسية (وصعوبة المحافظة على مجالات يتجاوز اتساعها حدا معينا على ما يبدو)، وقيام المجتمع على الهياكل والوحدات القبلية بالدرجة الأولى بما تعنيه هذه الهياكل من التفاف داخلي وتوفر على طاقات عسكرية هامة، وأهمية أو هيمنة البداوة ونمط عيش الرحل، ونوعية الاقتصاد... هذا من جهة، ومن جهة أخرى طبيعة أنظمة الحكم من حيث انتماءات أصحابها ومقوماتهم الأخرى والعلاقات بينهم وكذلك القوات العسكرية والموارد المالية التي لديهم والمؤسسات ونوع الممارسة السياسية والصلة بالأطراف الأخرى (غلبة وقهر أو احتواء وتنفيع).

والوضع الذي أفضى إليه هذا التطور هو ما تذكره المصادر بالنسبة للنصف الثاني من القرن السابع الهجري وأوائل القرن الثامن. أي الوضع الذي ولد فيه عبد الرحمن بن خلدون ونشأ؛ ثم "وصفه" هذا العلم ذو الانتماءات "المهمة" في نصوصه فيما بعد سواء في تعريفه بنفسه وبرحلته أو في تناوله المفصل للدول المغربية الجديدة الثلاث أو في التنظير الذي تضمنته المقدمة. وهو وضع يتماشى مع التطور العام الذي كانت تشهده بلاد الإسلام والساحة الدولية عموما. فالفترة المدروسة لم تعكس التطور المذكور محليا رغم موقعها منه وما عرفته أو بسبب ذلك.

أ.د علي عبد القادر

جامعة تونس

المصادر والمراجع

أولاً - المصــادر :

- ابن الأثير، عزّ الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم، (ت. 630 هـ / 1233م) : الكامل في التاريخ، بيروت، 1966.
- ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد، (ت. 614هـ / 1217م) : رحلة ابن جبير، بيروت، 1988.
- ابن حزم، أبو محمّد علي بن أحمد بن سعيد، (ت. 456هـ / 1064م) : جمهرة أنساب العرب، مصر، 1982.
- ابن حوقل، أبو القاسم محمّد بن عليّ النصيبي، (توفي في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) : كتاب صورة الأرض، بيروت، (د.ت).
- ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمّد، (ت.808هـ / 1406م) : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، 1992.
- ابن خلكان، أبو العبّاس شمس الدين أحمد بن محمد، (ت.681 هـ / 1282م) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، بيروت، (د.ت).
- ابن صاحب الصلاة، أبو مروان عبد الملك بن محمّد الباجي، (عاش في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي) : المنّ بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم أئمّة وجعلهم الوارثين، بيروت، 1964.
- ابن عذاري المراكشي، أبو العباس أحمد بن محمّد، (توفي بعد سنة 712هـ / 1313م) : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، بيروت، 1980 و1985.
- ابن القطان المراكشي الكتامي، أو محمّد حسن بن علي، (عاش في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي) : نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، بيروت، 1990.
- أبو عبيد البكري، عبد الله بن عبد العزيز، (ت.487هـ / 1094م) : كتاب المسالك والممالك، ليبيا- تونس، 1992.
- الإدريسي، أبو عبد الله محمّد بن محمّد، (ت. حوالي 560 هـ / 1165 م) : كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بيروت، 1989.
- البيذق، أبو بكر الصنهاجي، (توفي في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي) : أخبار المهدي وابتداء دولة الموحّدين، باريس، 1928.
- التّجاني، ابو محمّد عبد الله بن محمّد بن أحمد ، (توفي في أوائل القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي) : رحلة التجاني، ليبيا - تونس، 1981.
- الدبّاغ، أو زيد عبد الرحمن بن محمّد الأنصاري الأسيدي، (ت. 696هـ / 1296م) : معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تونس، 1993.
- رسائل موحّدية من إنشاء كتّاب الدولة المؤمنية، تحقيق إ. ليفي- بروفنسال، الرباط، 1941.
- عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبّوس بن زيري، (توفي في أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي) : التبيان عن

الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة، القاهرة، 1955.
- عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي، (عاش في النصف الثاني من القرن السادس الهجري والنصف الأوّل من القرن السابع / الثاني عشر والثالث عشر للميلاد) : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، القاهرة، 1994.
- عياض، القاضي أبو الفضل عياض بن موسى، (ت، 544هـ / 1149م) : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، بيروت - طرابلس، (د.ت).
- الغبريني، أبو العباس أحمد بن أحمد، (ت. 704هـ / 1304م) : عنوان الدراية فيمن عرف في المائة السابعة ببجاية، الجزائر، 1970.
- المازري، أبو عبد الله محمد بن علي، (ت. 536هـ / 1141م) : فتاوى المازري، تونس، 1994.
- المقري التلمساني، أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد، (ت.1041هـ / 1631م) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، بيروت، 1988.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، (ت. 733هـ / 1333م) : نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة، 1983.
- مؤلف مجهول : كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشره وعلّق عليه سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية، 1958.
- مؤلف مجهول : كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب أصحاب المهدي ابن تومرت، مقتطف منه نشره إ. ليفي - بروفنسال ضمن مؤلفه : Documents inédits d'histoire almohade, Paris, 1928.
- مؤلف مجهول : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، حققه سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء، 1979.

ثانياً - المراجع العربية :

- بوتشيش، إبراهيم القادري : تاريخ الغرب الإسلامي، قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، بيروت، 1994.
- بوتشيش، إبراهيم القادري : مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، بيروت، 1998.
- دندش، عصمت عبد اللطيف : أضواء جديدة على المرابطين، بيروت، 1991.
- حركات، إبراهيم : النشاط الاقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط، إفريقيا الشرق، 1991.
- علام ، عبد الله : الدولة الموحّدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، القاهرة، 1971.
- موسى، عز الدين أحمد : النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، بيروت، 1983.

ثالثاً - المراجع الأجنبية :

- BEL A. : Les Benou Ghàniya, derniers représentants de l'Empire almoravide et leur lutte contre l'Empire almohade, Paris, 1903.
- HOPKINS J.F.P. : Medieval Muslim Government in Barbary until the sixth century of the Hijra, London, 1958.
- HUICI-MIRANDA A. : Historia política del Imperio almohade, Tetwan, 1956.
- IDRIS H.R. : La Berbérie orientale

sous les Zirides, Paris, 1962.

- LE TOURNEAU R. : The Almohad Movement in North Africa in the twelfth and thirteenth centuries, Princeton, 1969.
- MARCAIS G. : Les Arabes en Berbérie du XIe au XIVe siècle, Constantine- Paris, 1913.
- MAS-LATRIE (Le comte de) : Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des Chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen-âge, Paris, 1866.

6 - مدينة مراكش : العمارة والفنون المدنية والعسكرية

مراكش المدينة الحمراء، إنها واحة في ثوب مدينة، عاشت في خضم الأحداث، وتعاقبت عليها أيدي الحكام المتصارعين، فشيدوا المعالم العمرانية وهدموا وأزالوا وأضافوا، وكل عهد حاول أن يطمس آثار سالفه، ويشيد لكي تبقى بصماته وآثاره... اندرس الكثير منها، واحتضنت مراكش بعضها فحافظت على طابعها التقليدي وعلى أصالتها وعراقتها.

مراكش مدينة عريقة وحاضرة فن، تشهد معالمها العمرانية التاريخية على ازدهارها وعظمتها، وهي "لا تزال تحتفظ بروح العصور الوسطى بكافة مظاهرها وذلك من خلال دروبها الضيقة التي تتناسب مع المباني البسيطة الارتفاع المفعمة بأحاسيس الماضي" كما أنها، في ذات الوقت، قطب الجاذبية للأقاليم الصحراوية، فهي المحطة والسوق النهائية للقوافل القادمة من الجنوب، وهي في نفس الوقت قطب الجاذبية لسكان جبال الأطلس فالمدينة سوقهم الكبرى، كما تقوم الزراعة بدورها في حياة المدينة. وموضع مراكش يجمع بين منظر النخيل الباسق المتعالي ومن ورائه منظر الجبال والثلوج يكسوها برداء أبيض، فيؤلف كل ذلك إطارا جميلا للمدينة تزيده الأسوار التي تحيط بالمدينة القديمة رونقاً وجمالاً.

أولاً - تأسيس مدينة مراكش :

استقر المرابطون بمدينة أغمات بعد الاستيلاء عليها سنة 449هـ / 1057م، واتخذوها مركزاً لإدارة دولتهم. وأغمات مدينة يرجع تاريخ تأسيسها إلى العصور القديمة. وقد وصفها الإدريسي، فذكر أنها عبارة عن مدينتين هما أغمات وريكة وأغمات إيلان، وهي إلى الشرق من المدينة السابقة وبينهما ستة أميال.

وقد اشتغل أهلها بالزراعة والتجارة فكانوا " يدخلون إلى بلاد السودان بأعداد الجمال الحاملة لقناطير الأموال من النحاس الأحمر والملون والأكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر وصنوف النظم من الزجاج والأصداف وضروب من الأفاويه والعطر وآلات الحديد المصنوع... ولم يكن في دولة الملثمين أحد أكثر أموالاً ولا أوسع منهم أحوالاً".

اختلفت الروايات التاريخية في تأريخ تأسيس مدينة مراكش، كما اختلفت في أول من اختطها. فصاحب الحلل الموشية ذكر في روايته أن الأمير أبا بكر بن عمر "لما خرج من الصحراء باللمتونيين، واحتلوا بأغمات وريكة، وكثر الخلق بها، وضيقوا على أهلها، وكانوا على حال صعبة، شكا أشياخ وريكة وهيلانة، إلى الأمير أبي بكر بن عمر، ما يلحقهم في ذلك من العناء، والمشقة، وأنهوه إليه المرة بعد المرة، إلى أن قال لهم: عينوا لنا موضعا نبني فيه مدينة إن شاء الله".

أشار عليه هؤلاء الأشياخ بالموضع الذي بنيت فيه مدينة مراكش فيما بعد. وكان هذا الموضع "خلاء، لا أنيس به، إلا الغزلان والنعام، ولا ينبت بها إلا السدر والحنظل، وكان ذلك سنة اثنتين وستين وأربعمائة، فانتقلوا إلى تلك الرحبة...

وشرع الناس في بناء الدور من غير تسوير عليها، فبينما الأمير أبو بكر بن عمر، قد نزل بها، وأخذ في بناء الديار، إذ وفد عليه رسول من قبيلة لمتونه بالصحراء، ويعلمونه أن جدالة أغارت عليهم، وكانت بينهم فتنة دائمة، فاستخلف ابن عمه يوسف ابن تاشفين على المغرب، ودخل إلى الصحراء لإصراخهم، ولأخذ ثأرهم من عدوهم."

هذه الرواية يؤيدها ابن عذاري المراكشي إذ ذكر أنه " في سنة اثنتين وستين وأربعمائة في الثالث والعشرين لرجب ابتدي بأساس مراكش وذلك قصر الحجر، وشرع الناس في بناء الدور دون سور، وفي ذلك اليوم بعينه كان ركوب الأمير أبي بكر بن عمر وإخوته، وجميع محلته مع أشياخ المصامدة والفعلة والبنائين وغيرهم، فابتدأ في الأساس بمشاركة الأشياخ وحسب عونهم، فأعانوا على البناء بالمال والرجال".

ويذكر ابن عذاري أنّ يوسف بن تاشفين أكمل العمل الذي بدأه الأمير أبو بكر بن عمر، فإنه لما توجه الأخير إلى الصحراء ولي يوسف " مكانه وترك معه الثلث من لمتونة إخوانه فاشتغل ببناء مراكش وتحصينها" .

هناك رواية أخرى أوردها ابن أبي زرع نسب فيها تأسيس مدينة مراكش إلى الأمير يوسف بن تاشفين وذكر فيها أنه لما "دخلت سنة أربع وخمسين وأربعمئة (1062م)، فيها تقوّى أمر يوسف بن تاشفين بالمغرب وكبر صيته، وفيها اشترى موضع تأسيس مدينة مراكش ممن كان يملكه من المصامدة، فسكن الموضع بخيام الشعر، وبنى فيه مسجدا للصلاة وقصبة صغيرة لاختزان أمواله وسلاحه، ولم يبن على ذلك سورا، وكان رحمه الله لما شرع في بناء المسجد يحتزم ويعمل في الطين والبناء بيده مع الخدمة تواضعا منه وتورّعا."

وقد ناقش أحد الباحثين الروايتين ورأى "أن الرواية الأولى - وهي رواية ابن عذاري وصاحب الحلل الموشية هي الأصح، لأنها مثل غيرها من الروايات التي أوردها، مستمدة من أوثق المصادر المعاصرة للمرابطين، على عكس صاحب القرطاس الذي كثيرا ما استسلم لخياله وملأ كتابه بالأخطاء التاريخية والجغرافية مما جعل المؤرخين القدامى والمحدثين ينتقدون رواياته ويتهمونه بالكذب والاختلاق. كما استند العبادي على صمت المؤرخ والجغرافي الأندلسي البكري صاحب كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب والذي انتهى من تأليفه سنة 460هـ / 1067م، فلم يشر ولم يذكر شيئا على الإطلاق عن مدينة مراكش، واعتبر العبادى هذا الصمت "تأييدا لرواية كل من ابن عذاري والحلل الموشية التي تقول بأن بناء مراكش لم يبدأ إلا في سنة 460هـ. أي بعد أن فرغ البكري من كتابه بسنتين.

فلو أن رواية القرطاس صحيحة، وهي التي تقول بأن بناء مراكش كان سنة 454هـ / 1062م وعلى يد يوسف بن تاشفين، لما فات البكري أن يشير إلى ذلك".

وهناك من الباحثين من يحاول التوفيق بين الروايتين ويعتقد أن تاريخ التأسيس سنة 454هـ / 1062م وهو" الأرجح لاتفاقه مع سير الأحداث، فأبو بكر بن عمر حين اتجه إلى الصحراء كان ذلك في سنة 452هـ / 1060م، ويبدو أن شكوى أهل أغمات بدأت قبل هذا التاريخ مما استلزم معه البحث عن مكان، وما أن شرع في التخطيط له حتى جاء للأمير أبي بكر شكوى أهل الصحراء، ومن هنا ترك يوسف بن تاشفين مكانه وطلب منه مواصلة المشروع ... وكان يكاتب الأمير أبا بكر بكل ما يصنع فيشكر، إذن محاولات البحث والتخطيط كانت

سنة 452هـ / 1060م، سنة انتقال أبي بكر إلى الصحراء، ثم بدأ تنفيذ المشروع سنة 454هـ / 1062م، وهي السنة التي أشار إليها ابن أبي زرع وابن خلدون وغيرهما."

وعلى ذلك يمكن اعتبار تاريخ تأسيس مدينة مراكش هو 454هـ / 1062م وأن الذي "بناها يوسف بن تاشفين المتولي سلطان الملثمين."

وقد عرفت المدينة باسم الموضع الذي شيدت فيه وهو مراكش "ومعناه بلغة المصامدة أمش مسرعا. وكان ذلك الموضع مكمنا للصوص فكان المارون يقولون تلك الكلمة فعرف الموضع بها". بينما يذكر صاحب المعجب بأنها "سميت بعبد أسود كان يستوطنها يخيف الطريق اسمه مراكش". والقول الأخير لا يمكن الأخذ به إذ لا يعقل أن تسمّى العاصمة التي أسسها الأمير الورع يوسف بن تاشفين باسم قاطع طريق يخيف الناس، ولكن يمكن القول إن اسم مراكش أخذ من اسم الموضع الذي بنيت فيه والذي كان في السابق مكمنا للصوص على حدّ قول ابن خلكان- وربما كان ذلك قبل قيام دولة المرابطين الذين اتخذوا مدينة أغمات عاصمة لهم وهي القريبة من موضع مراكش- إضافة إلى كونه خلاء لا أنيس به حسب وصف صاحب الحلل الموشية، فكان الناس يقولون: (مراكش)؛ أي إمش مسرعا فاشتهرت به.

ويعود اختيار يوسف بن تاشفين لذلك الموضع لبناء عاصمته لعدة أسباب منها: أنها في "موضع متوسط في بلاد المغرب كالقيروان في إفريقية، ومراكش تحت جبال المصامدة الذين هم أشد أهل المغرب قوة وأمنعهم معقلا، فاختط هناك مدينة مراكش ليقوى على قمع أهل تلك الجبال وإن همّوا بفتنة". وهي معتدلة المناخ إذ "هي في مرج فسيح، وحولها جبال على فراسخ منها وبالقرب منها جبل لا يزال عليه الثلج وهو الذي يعدل مزاجها وحرها. "وهو جبل درن (الأطلس الكبير)، وعلى وصف الإدريسي له بأنه لا يوجد جبل "مثله في الأرض إلا القليل في السمو والخصب وطول المسافة واتصال العمارات" ويصفه صاحب أنس الفقير بشيء من المبالغة بأنه "الجبل العظيم الذي ليس على وجه الأرض مثله في الارتفاع والمياه والخصب. وقد دخلت أكثره وكأن العالم الأرضي كله منحصر فيه وهو من عجائب الدنيا وأعظمه قبلي مراكش".

ومن أسباب اختيار موضع مراكش مناخه الصحراوي الذي تعود عليه المرابطون، كما أنهم "وجدوا في فحصها من المسرح الخصيب للجمال، والدواب، ما غبطهم بها". يضاف إلى ذلك بأن موضعها كان "على طريق القوافل التجارية المقبلة من الصحراء والذاهبة إليها". ويمكن القول إن اختيار هذا الموضع لبناء مدينة مراكش كان لأسباب طبيعية وإستراتيجية واقتصادية.

شرع يوسف بن تاشفين في بناء مدينة مراكش وابتدأ ببناء مسجد للصلاة وقصبة صغيرة، وأخذ الناس في تشييد ديارهم. "وقد بنيت مراكش بحسب تصاميم لمهندسين ممتازين ومن طرف صناع ماهرين، في وسط إقليم عظيم. "وكان معظم البناء" بالطين والطوابي المقامة بالتراب. ولم يكن بالموضع عيون أو أنهار في وسطها، وإنما جلب الماء إليها لسقاية البساتين عن طريق حفر الخطاطير، "والخطارة عبارة عن قناة تحفر تحت سطح الأرض تصل بين مورد جوفي للمياه عند قدم الجبل وبين منطقة استغلال هذه المياه التي تبعد بضعة كيلومترات عن هذا المورد." وقد قام عبيد الله بن يونس المهندس بحفر تلك الخطاطير واستخراج المياه لسقاية البساتين، وكان قد "جاء

إلى مراكش في صدر بنائها، وليس بها إلا بستان واحد لأبي الفضل مولى أمير المسلمين المتقدم ذكره (يوسف بن تاشفين) فقصد إلى أعلى الأرض مما يلي البستان فاحتفر فيه بئرا مربعة كبيرة التربيع. ثم احتفر منها ساقية متصلة الحفر على وجه الأرض. ومرّ يحفر بتدريج من أرفع إلى أخفض متدرجا إلى أسفله بميزان حتى وصل الماء إلى البستان، وهو منسكب على وجه الأرض، يصب فيه. فهو جار مع الأيام... فاستحسن ذلك أمير المسلمين من فعل عبيد الله بن يونس المهندس، وأعطاه مالا وأثوابا وأكرم مثواه مدة بقائه عنده. ثم إن الناس نظروا إلى ذلك، ولم يزالوا يحفرون الأرض ويستخرجون مياها إلى البساتين حتى كثرت البساتين والجنات واتصلت بذلك عمارات مراكش وحسن قطرها ومنظرها."

أما بالنسبة لمياه الشرب لأهل المدينة فكانت من الآبار. "ومياها كلها عذبة، وآبارهم قريبة معينة، وكان علي بن يوسف قد جلب إلى مراكش ماء من عين. بينها وبين المدينة أميال، ولم يستتم ذلك، فلما تغلب المصامدة على الملك وصار لهم وبأيديهم، تمموا جلب ذلك الماء إلى داخل المدينة".

وقد شهدت مدينة مراكش إنشاء مجموعة من المنشآت وبالأخص المساجد العديدة ذات الأبراج العالية، والأسوار القوية حول المدن، والقلاع المنيعة (القصبات)، والقصور الشاسعة، وكانوا يراعون في جميع منشآتهم العناصر الضرورية قبل عناصر الفخامة والجمال."ويبدو أن ذلك يعود إلى أن "الدولة المرابطية قد قامت كحركة إصلاح دينية على أكتاف الملثمين الذين يمثلون أقصى مظاهر البدواة، وعلى أساس المذهب المالكي الذي يدعو إلى إحياء السنن النبوية، والعودة بالمجتمع الإسلامي إلى نقائه الأول، فإنه لم يكن من الغريب أن يتجه المرابطون في حياتهم العامة اتجاها تقشفيًا، وأن يظهر ذلك بشكل واضح في عمائرهم الدينية والمدنية التي لم يصلنا منها إلا القليل النادر، الأمر الذي لا يفسر إلا ظاهرة البساطة والزهد، مما لم يسمح بتأصيل البنيان." إضافة إلى أن تلك المنشآت قد تعرضت للإزالة أو التحوير في العهود اللاحقة.

وفي العهد المرابطي ارتبط تاريخ الأندلس بتاريخ المغرب، إذ هبّ المرابطون للدفاع عن عروبة وإسلام الأندلس، وانعكس ذلك الارتباط أيضا على ازدهار الحركة العلمية بمراكش، إذ رغب يوسف بن تاشفين صفوة مختارة من علماء الأندلس وأدبائها على العيش بجواره بمراكش، وسار خليفته على نهجه في تشجيع العلم والعلماء حتى أضحت مدينة مراكش مدينة علمية شهيرة. و"امتزج الفن المغربي بالأندلسي واتجه المرابطون نحو هندسة المساجد وعززوا القلاع والحصون وازدهرت الصناعة التقليدية والأساليب المعمارية ووفد على المغرب صناع قرطبيون منذ عهد علي بن يوسف بن تاشفين ساهموا في طبع العمارة والمساجد والقصور والحمامات وغيرها بفن جديد."

دخلت مدينة مراكش في سنة 541هـ / 1156م في مرحلة جديدة من تاريخها، وذلك بسيطرة الموحّدين عليها وانتهى حكم المرابطين. وقد شغف الموحّدون بالبناء وإقامة المنشآت العمرانية، فازدانت مدينة مراكش بمجموعة من المساجد لعلّ أهمها مسجد الكتبية الذي لا يزال من أهم المعالم بها، ويمتاز بضخامة بنائه وسعته وبمنارته المربعة الشكل المغربية الطراز، وهي "تتكون من ستة طوابق يحتوي كل واحد منها على قاعات متراكبة تفنن المعماريون في تنويع أشكال أقبائها. وكان بمثابة بروج صغيرة، وهو مغطى بقبة مضلعة، وفي آخره منارة تنتهي بثلاث كرات من

النحاس المذهب."ويصل ارتفاع هذه المنارة إلى 67.5 مترا وعرض كل ضلع منها 12.5 متراً. ولا زالت مراكش تفخر بهذه التحفة المعمارية الجميلة.

وحرص الموحّدون على إقامة المنشآت المدنية من قصور وحمامات وقناطر وفنادق وبرك وبيمارستانات ودور، إضافة إلى المنشآت العسكرية من أسوار وقلاع وأبواب في مدينة مراكش؛ لكونها عاصمة لدولتهم التي تمتدّ من برقة شرقا إلى الأندلس غربا. وتوافد الناس للعيش بمراكش فضاقت بهم، فاضطر الأمير أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (558-580هـ / 1162-1184م). إلى توسيع رقعة مدينة مراكش، فأمر بذلك في سنة 579هـ/1183م، وكلف ابنه يعقوب المنصور (580-595هـ / 1184م- 1183م) بالإشراف على ذلك العمل، فكُتب له استكمال تنفيذ المشروع بعد وفاة أبيه. ويقال إنه زاد في قبلة المدينة "مدينة أخرى تقارب الأولى في دورها، وكانت بحائر عظيمة فبناها قصورا وجامعا وأسواقا وفنادق، وجلب التجار إلى قيسارية عظيمة لم يبق في مدن الأرض أعظم منها. "وكانت هذه الزيادة هي ضاحية الصالحة التي بناها" على رقعة مستطيلة تمتد في جنوب مراكش، ما بين باب أغمات شرقا وباب الشريعة غربا، وكان البدء في إنشائها في مستهلّ شهر رجب سنة 581هـ (28 سبتمبر 1185م) وحشد لبنائها رهط من المهندسين والعرفاء، وآلاف من العمال والبنائين والفنانين، من المغرب وإفريقية والأندلس، وجمعت لها سائر الآلات اللازمة، ورتب لها الحفاظ والنظار... واستمر العمل في بنائها نحو أربعة أعوام، حيث كملت في شهر ربيع الأول 584هـ / مايو 1188م. وبدت في أجمل هيئة، وأضحت عروس الحاضرة المراكشية بما أسبغ عليها من ضروب التنسيق والإتقان والفخامة".

ثانياً - الفنون والعمارة (العسكرية والمدنية) في مراكش:

العمارة العسكرية :

1. **أسوار مدينة مراكش :** عندما أسس يوسف بن تاشفين مدينة مراكش لم يقم بتسويرها إذ أنه لم يكن يخشى أي تهديد لمدينته، إذ كان يعتمد في الدفاع عنها على قوة جيشه، فهنا "تقوم الشجاعة والإقدام مقام الأسوار". كما أن المرابطين كانوا "يكرهون أن تكون المدن مسورة، وذلك لطبيعة نشأتهم الصحراوية الطلقة، حتى أن يوسف ابن تاشفين لما فتح مدينة فاس، خرب السور الذي بين عدوتيها (أي عدوة الأندلسيين وعدوة القرويين) وقال إنما أسوارنا سيوفنا وعدلنا". وعلى ذلك فإن المرابطين لم يفكروا في إحاطة مدينة مراكش إلا بعد أن ظهر خطر الموحّدين في عهد الأمير علي بن يوسف بن تاشفين.

اختلفت الروايات التاريخية في السنة التي شرع فيها في تسوير مدينة مراكش وإن كانت تتفق في مشيدها وهو الأمير علي بن يوسف. فصاحب الحلل الموشية يذكر أنه "لما كان في سنة عشرين وخمسمائة، شرع أمير المسلمين علي بن يوسف ابن تاشفين في تسوير حضرة مراكش، وبناء جامعها ومنارها، وجمع الصناع والفعلة على ذلك، فجمع كل ما صنع من الدور في ثمانية أشهر، على عظم ساحتها، واتساع دورها. يذكر أنه أنفق في بناء السور وحده سبعين ألف دينار من الذهب، وكان الذي أشار بتسوير مراكش القاضي أبو الوليد بن رشد"والذي أفتى له بالتحصين على نفسه وعلى الناس الساكنين معه. ويبدو أن ازدياد خطر الموحّدين أدى إلى الاستعجال في "بناء سور يحدق بمراكش... فكمل في أقرب وقت وأعجله."

وقد اعتنى الأمير علي بن يوسف بهذا السور فكان "في غاية الجمال والقوة مبني بالطين المدكوك بالجير والرمل الغليظ الممزوج بالحصى". وقد راعى المرابطون في بناء الأسوار أن تكون متعددة الزوايا ومتعرجة لتعيق حركة المهاجمين وتساعد المدافعين في الدفاع عن مدنهم.

وبعد استيلاء الموحّدين على مدينة مراكش وزوال الدولة المرابطية، اهتم الموحّدون بأسوار المدينة وتدعيمها وإنشاء القلاع والحصون في كل من المغرب والأندلس للدفاع عن دار الإسلام. وقد وصف الوزان مراكش في أوائل القرن العاشر الهجري / أوائل السادس عشر الميلادي بقوله: "فهذه المدينة قصبة كبيرة كأنها مدينة، ذات أسوار سميكة متينة فتحت فيها أبواب في غاية الحسن".

2. أبواب مدينة مراكش : تعددت الأبواب التي بسور مراكش ومن أشهرها وأهمها:

باب أغمات : وهو من أقدم أبواب مدينة مراكش، وقد أطلق عليه هذا الاسم لأنه يؤدي إلى مدينة أغمات عاصمة المرابطين قبل بناء مدينة مراكش. وهو يفتح في الناحية الشرقية من سور المدينة.

باب هيلانة : وهو من الأبواب القديمة، وعرف بهذا الاسم لأن قبيلة هيلانة من المصامدة كانت تستعمل هذا الباب للدخول والخروج من وإلى مراكش. ويعرف الآن باسم باب إيلان، ويوجد في الناحية الشرقية من السور.

باب دكالة : وهو مسامتٌ لبلاد دكالة فعرف باسمها، وقد ذكره ابن عذاري في أحداث سنة 521هـ / 1126م، وهو يفتح في الجهة الشمالية الغربية من سور المدينة.

باب فاس : وهو مسامتٌ لمدينة فاس فعرف باسمها، وأطلق عليه في آخر مدة ملوك السعديين اسم باب الخميس، ولازال يحمل هذا الاسم حتى الآن.

باب الشريعة : وهو من أبواب مراكش القديمة، فقد ذكره البيذق "في مذكراته بهذا الاسم منذ استيلاء الموحّدين على المدينة سنة 541هـ / 1146م. وقد أعيد بناء هذا الباب حوالي سنة 589هـ / 1183م في عهد الخليفة الموحّدي أبي يعقوب المنصور. "وقد عرف بباب الشريعة لإقامة الحدود به. وكلمة "الشريعة، كانت تطلق في المغرب على ساحة تقع خارج المدينة وتقام فيها سوق أسبوعية". وعرف هذا الباب أيضا باسم الرب.

باب الدبغ (الدباغين) : وقد عرف بهذا الاسم لتركز حرفة دباغة الجلود به، ويقوم الدباغون بطرح الجلود خارجه لتجفّ حتى الوقت الحاضر.

باب أكناو أو باب القصبة : أسسه يعقوب المنصور في سنة 591هـ / 1194م، وهو يعدّ من أجمل أبواب مدينة مراكش،وفيه تظهر عظمة الفن الموحّدي، وهو "باب تذكاري ويعدّ لمهابته وجماله من أهم المداخل لما يحمله من زخارف في تناسق وانسجام مهيب. فلقد مكنت الحجارة المرصوفة بدقة في هذا الجزء الوحيد من القلعة من نقش زخرفة عريضة تحيط القوس الحدودي نصف الدائري أو المكسور. وثمة ظلة كانت تتوج كما يبدو هذه الأفاريز المقوسة وهذه الأطر المكتوبة، وهذه الحنيات ذات الفقرات. ويبدو لنا من هذه الأبواب الضخمة التي ترمز إلى جلال السلطان الذي تنتسب إليه، من الأعمال الأكثر تعبيرا عن الفن الموحّدي البالغ الجمال."

وهناك العديد من الأبواب منها "باب القصيبة، باب يغلي، وباب أحمر وكان أغلق باب الرخا قرب باب الرب وباب العرايس بين باب دكالة

وباب الرب أما باب تاغزوت أي الغزو فقد كان من أبوابها قبل أن تضاف الزاوية العباسية إليها ويصير داخل المدينة".

3. الحصون والقلاع : من المعلوم أن المرابطين في بداية تأسيس دولتهم لم يهتموا بتشييد الحصون والقلاع، وكان اعتمادهم على سيوفهم وشجاعتهم، إذ كانوا سادة المغرب في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري / النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي، فلذلك أهملوا التحصين وبناء القلاع، إلاّ أنّ الحال قد تغير بعد جواز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس التي كانت أهم المراكز فيها "مدنا وحصونا، والكل مسور ومحصن فاضطر المرابطون هناك إلى إقامة التحصينات بدورهم، كما فطنوا إليها في المغرب أيضا" .

وقد أقام المرابطون مجموعة من الحصون في أماكن متفرقة من المغرب لمراقبة القبائل المتفرقة، وازدادت أهمية إقامة هذه الحصون بعد انشغال المرابطين بالجهاد في الأندلس واضطرار جيوشهم للجواز إليها وبقائها مدة من الزمن فيها.

ومع بداية حركة الموحّدين المناوئة للمرابطين واشتداد قوتها، بدأ المغرب يشهد زيادة في إقامة الحصون والقلاع وخاصة في عهد الأمير علي بن يوسف بن تاشفين الذي زاد "هذه الحصون والقلاع وشحنها بالمقاتلين لمراقبة تحركات الموحّدين" · إلاّ أنه لم يبق أي أثر للحصون التي شيدها المرابطون في مدينة مراكش.

وفي عهد الدولة الموحّدية تم الاهتمام بالحصون والقلاع، "وكان منهم يعقوب المنصور الشهير اعتنى بمراكش... ولما عزم على المسير إلى الأندلس بقصد الجهاد أوصى إلى نوابه ووكلائه ببناء قصبة مراكش" التي لا تزال قائمة بما فيها المسجد ومنارته. وكانت الحصون "تشيد من الحجارة والطوب ذات جدران سميكة." ويظهر في عمارة هذه الحصون "الأسلوب المغربي حيث استبدلت الأبراج الدائرة بأبراج مربعة، كما أضيفت أبراج على جانبي المبنى" .

وعلى العموم فإنّ المعمار الحربي في عهد المرابطين والموحّدين قد تطور تطورا كبيرا سواء في المغرب أو الأندلس، وقد أثر أسلوبهم "في تطور المعمار الحربي الأوروبي، فأفاد منها في تجديد أساليبه كما أفاد من الأشكال والأوضاع التي نقلها من المشرق بفضل الحروب الصليبية" .

العمارة المدنية :

1. المدارس : اهتم المرابطون بإنشاء المنشآت التعليمية، وهم "أول من أسس المدارس بالمغرب". كما أنّ الموحّدين اهتموا بتشييدها في كافة أرجاء دولتهم وخاصة في عهد يعقوب المنصور الموحّدي الذي قام ببناء "المدارس في بلاد إفريقية والمغرب والأندلس". إلا أن هذه المدارس التي شيدت في العهد الموحّدي "لم يبق لها أثر، إذ من المحتمل أن المرينيين هدموها، وأقاموا مكانها مدارس تحمل أسماء ملوكهم وطابعهم الخاص"، وهذا ما فعله الموحّدون بمدارس المرابطين الذين سبقوهم.

وكانت المدارس والمعاهد التي أنشئت في مراكش في عهد الموحّدين "ترمي بالأخص إلى تخريج الجند البارعين أكثر مما ترمي إلى تخريج العلماء، بيد أن العناية في هذه المؤسسات لم تكن تقتصر على تربية الأجسام وتدريبها على فنون الحرب وحمل السلاح، بل كانت تشمل تثقيف العقول، وتزويدها بالمعارف الضرورية، وتعاليم المهدي الدينية، ثم كانت تنشأ معاهد خاصة

بالعلماء، وتميز طوائفهم وفقا لمختلف الدرجات والكفايات، ويمنحون مختلف الهبات والصلات."

كما اهتم الموحّدون بإنشاء "المدارس الحربية لكي تحفظ الروح العسكرية بين الموحّدين، وتعاون على إخراج القادة الأكفاء، والمحاربين البواسل... وكانت تقام بجوار مراكش بركة، وضعت فيها القوارب والأفلاك وسفن الحرب الصغيرة، وفيها يتعلم الطلاب التجديف، وقيادة السفن، وكل ما تتطلبه من فنون ومهارة" .

ويزوّدنا الوزّان بوصف لإحدى مدارس قصبة مراكش، فيذكر بأن "في القصبة مدرسة في غاية الحسن، أو على الأصح مؤسسة معدة للدراسة وسكن مختلف الطلبة، وتحتوي على ثلاثين حجرة، وقاعة في الطبقة الأرضية كانت تعطى فيها الدروس فيما سبق. وكان كل طالب مقبول في هذه المدرسة ينفق عليه ويكسى مرة في السنة، ويتقاضى الأساتذة مرتبا قدره مائة أو مائتا مثقال حسب نوع الدروس المطلوبين بإلقائها. ولم يكن يقبل في هذه المدرسة إلا من يعرف مبادئ العلوم معرفة تامة. وهذه البناية مزخرفة بالفسيفساء البديعة، وحيث لا توجد فسيفساء تغطى الجدران الداخلية بزليج من الطين المشوي اللماع المقطع على شكل أوراق رقيقة أو بمواد أخرى بدل الفسيفساء، وذلك على الأخص في قاعة الدروس والممرات المسقوفة. وفناء المدرسة المكشوف كله مفروش بالزليج اللماع المستعمل في إسبانيا. وفي وسط المدرسة فسقية (خصة) منحوتة من المرمر الأبيض في غاية الجمال، لكنها منخفضة على عادة الأفارقة.وكان بالمدرسة قديما حسبما سمعت عدد كثير من الطلبة". إلا أن عددهم قل في الفترة التي قام بها الوزان برحلته بداية القرن العاشر الهجري / بداية القرن السادس عشر الميلادي، فلا يتجاوز عددهم خمسة طلاب مع أستاذ واحد.

ويمدنا الوزان بمعلومات عن إحدى مدارس مراكش والتي لم تعد تؤدي دورها أثناء رحلته بل تحولت إلى قصر، فيذكر بأن هناك قصرًا جميلاً "كان يستعمل مدرسة لأبناء الملك وأبناء أسرته، ترى فيه قاعة مربعة في غاية الحسن، يحيط بها ممر مع نوافذ رائعة ذات زجاج ملون. وحول القاعة خزانات كثيرة مصنوعة من الخشب المزخرف بنقوش مذهبة، طليت مختلف أجزائها بطلاء الذهب وباللازوردي الرفيع".

2. البيمارستانات (المستشفيات) : عرف المشرق الإسلامي بناء البيمارستانات في فترة سابقة لبنائها في منطقة المغرب، "ويبدو أن الموحّدين هم أول من اهتدى إلى إنشائها بالمغرب نقلا عن المشرق".

ويذكر صاحب الأنيس المطرب أن المنصور يعقوب بن يوسف "بنى البيمارستان للمرضى والمجانين... وأجرى الإنفاق على أهل البيمارستان والجذمان والعميان في جميع عمله."

نجد وصفا لهذا البيمارستان في كتاب عبد الواحد المراكشي "المعجب" بين فيه عظمة هذا البناء، وطريقة الإيواء، وما يلاقيه المرضى من عناية فيقول :"وبنى بمدينة مراكش بيمارستاناً ما أظن أن في الدنيا مثله، وذلك أنه تخير ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه، فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح، وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المشمومات والمأكولات، وأجرى فيه مياها كثيرة تدور على جميع البيوت، زيادة على أربع برك في وسطه، إحداها رخام أبيض، ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره

بما يزيد على الوصف ويأتي فوق النعت، وأجرى له ثلاثين دينارا في كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة، خارجا عما جلب إليه من الأدوية، وأقام فيه من الصيادلة لعمل والأشربة والأدهان والأكحال، وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم، من جهاز الصيف والشتاء، فإذا نقه المريض، فإن كان فقيرا أمر له عند خروجه بمال يعيش به، ريثما يستقل، وإن كان غنيا دفع إليه ماله وتركه وسببه، ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء، بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج". وكان المنصور أثناء وجوده بمراكش يعود المرضى ويسأل عن أحوالهم عقب صلاة كل جمعة.

ويذكر صاحب الاستبصار أن الأمير أبا يوسف "وضع دار الفرج في شرقي الجامع المكرم، وهو مارستان المرضى، يدخله العليل فيعاين ما أعد فيه من المنازه والمياه والرياحين والأطعمة الشهية والأشربة المفوهة ويستطعمها ويسيغها فتنعشه من حينه بقدرة الله تعالى". وكان ذلك سنة 585هـ / 1189م ويتم الإنفاق على هذا البيمارستان من خزانة الدولة وكذلك مرتبات الأطباء والممرضين.

3. **الفنادق والقيساريات :** ارتبط إنشاء الفنادق والقيساريات بنشاط الحركة التجارية. ولمّا كانت مدينة مراكش مركزا تجاريا يربط المناطق الشمالية بالمناطق التي تقع ما وراء الصحراء فقد انعكس ذلك على إنشاء المرافق التجارية في عهد الدولتين المرابطية الموحّدية، إذ "كانت أكبر مدن المغرب الأقصى، وعظمت تجارتها وتنافس الناس في البناء فيها، وبنيت فيها الفنادق والحمامات، وفيها قيسارية عظيمة البنيان". وقد وصفها صاحب الاستبصار، فذكر بأن المنصور الموحّدي قام بتوسيع مدينة مراكش فبنى "قصورا وجامعا وأسواقا وفنادق، وجلب التجار إلى قيسارية عظيمة لم يبق في مدن الأرض أعظم منها، وأمر بعمارتها أول سنة 585هـ / 1189م". وقد تعرضت هذه القيسارية للنهب والحرق سنة 607هـ / 1209م. وكانت مباني القيسريات تشيد "على مساحة مستطيلة يتوسطها طريق ممتد تقع الحوانيت على جانبه، وتشيد عادة في الحي التجاري الذي يقع بالقرب من الجامع."

وما من شك في أن الفنادق في مراكش قد ساعدت على إيجاد مأوى للتجار الغرباء وأمكنة لتخزين وعرض بضائعهم، فساهمت في ازدهار الحركة التجارية. وكانت بعض الفنادق تسمى باسم السلعة التي اشتهرت بالبيع فيها، كما استخدمها بعض الناس للإقامة. وكانت الفنادق تحتوي على مدخل كبير يؤدي إلى سقيفة ثم إلى ساحة كبيرة تستعمل لخزن البضائع، ويحيط بها بواكي وحجرات للنوم، وأغلب الفنادق تتكون من دورين أو ثلاثة أدوار، وعادة ما تستعمل حجرات الدور الأول وما فوقه للنوم.

4. **الحمامات :** أشاد الكثير من المؤرخين والرحالة العرب بمدينة مراكش، فالرحالة الوزان ذكر أن بها "مدارس وحمامات." والحميري في الروض المعطار ذكر بأنه "فيها الفنادق والحمامات."

وكانت الحمامات تختلف في أحجامها فمنها الصغير والكبير. وبمقارنة حمامات مراكش بحمامات مدينة فاس فيمكن أن نقول إنّ كل حمام يحتوي على: غرف خاصة لخلع الملابس وحفظها، وعلى ثلاث قاعات، الأولى القاعة الباردة، والثانية القاعة الفاترة، والثالثة القاعة الساخنة (التعريق) وهذا أشبه بنظام الاستحمام في الحمامات الرومانية. وقد تتنوع الحمامات، فمنها ما يكون خاصا للرجال وبعضها يكون خاصا بالنساء وإن كان

بعضها يستعمل للرجال والنساء ولكن في أوقات مختلفة.

ويتم تسخين الماء بالزبل الذي يتم شراؤه من الاصطبلات ويتم تجفيفه ثم يستعمل كالحطب في تسخين القاعات والماء، وهناك مدلكون وحلاقون في الحمامات.

5. القصور والدور: اتسم عهد الدولة المرابطية بالزهد والتقشف، فانعكس ذلك على منشآتهم السكنية، وكان ذلك "مانعا لهم من تشييد القصور الفخمة". وللأسف فقد اندرست كل القصور المرابطية التي أشار إليها المؤرخون. فصاحب الاستبصار أشار إلى دار الأمة، التي بناها يوسف بن تاشفين، وأشار الإدريسي إلى القصر الذي بناه الأمير علي بن يوسف بن تاشفين - والذي قطع الحجر لبنائه من جبل صغير قريب من مراكش يسمى إيجليز - "وهو المعروف بدار الحجر وليس في مراكش حجر البتة إلا ما كان من هذا الجبل. وإنما بناؤها بالطين والطوب والطوابي المقامة من التراب". ولعل مواد البناء هذه التي لا تستطيع مقاومة العوامل الطبيعية، إضافة إلى تعرض هذه القصور للتخريب على يد الموحدين، من الأسباب التي جعلت المدينة تفقد هذه القصور. فقصر علي بن يوسف هدم في عهد عبد المؤمن الموحّدي لبناء جامع الكتبية. وفقدت القصور الكثيرة التي بها والتي كانت خاصة "لكثير من الأمراء والقواد وخدام الدولة".

ورغم كثرة المباني التي شيدت في الفترة المرابطية في مدينة مراكش "فإنها لم تحتفظ بأي جانب تذكاري سوى القبة الصغيرة العجيبة التي هي الآن معزولة، رغم الاعتناء بها منذ إظهارها للوجود بإزالة كوم الأتربة التي كانت تغطيها بالكامل. ويبدو أن تلك القبة قد سلمت بصورة مدهشة قياسا ببقية الموقع الذي شيده علي بن يوسف بن تاشفين الذي كان معروفا بتقديره الأشياء الجميلة فضلا عن نجاحه في إقامة بعض الصروح ذات القيمة المعمارية" والتي فيها محاكاة للمآثر الأندلسية. وكان علي قد ابتعد عن الزهد الذي اتسم به أبوه. "ولقد استعمل البناء في تشيد تلك القبة فكرة نظام القباب المضلعة، ولم يقتصر على هذا بل قام بإثراء هذه الفكرة وبشكل كبير بالمقرنصات علاوة على الزخرفة الجصية. ومن ناحية أخرى فإن جميع العقود التي تدعم القبة زخرفت بزخرفة نباتية. ولعله من اليسير التخيل من خلال هذا المثال دون غيره درجة الثراء التي كان عليها هذا القصر".

تأثرت عمارة القصور المرابطية - رغم عدم غنائها بالزخرفة - بالأساليب المعمارية الأندلسية، إذ "وفد على المغرب صناع قرطبيون من عهد علي بن يوسف بن تاشفين الذين ساهموا في طبع العمارة والمساجد والقصور والحمامات وغيرها بفن جديد".

اهتم الموحّدون بالتشييد والبناء، فشيدوا مباني تميزت بالضخامة، ومن بينها القصور الكبيرة، وخاصة في عهد يعقوب بن يوسف الذي زاد في عمارة مدينة مراكش فكبرها وفخمها. إلا "أن معلوماتنا عن العمارة المدنية المغربية عادة ما لا تتعدى الروايات التاريخية، وخاصة ما يتعلق منها بالدور والقصور... التي كثيرا ما كانت تكون هدفا لأعمال التخريب من جانب العامة، أو الإهمال والهدم من جانب الحكومات المستجدة".

ونجد وصفا عاما لقصور مراكش في مخطوط العمري "مسالك الأبصار..."، فكان كل قصر "من قصورها مستقل بالديار والبساتين والحمام والإصطبلات والمياه وغير ذلك، حتى يغلق

الرئيس منهم بابه على جميع خوله وأقاربه وما يحتاج إليه، ولا يخرج له أمر خارج داره ولا يشتري شيئا من السوق لمأكل، ولا يقري أولاده في مكتب، ويخرج هو من بابه راكبا؛ ولا تقع عليه العين راجلا، وفيها قصور عظيمة".

وتشير المصادر التاريخية إلى بعض القصور في مدينة مراكش، ومنها القصر الذي بناه يعقوب المنصور للوزير والطبيب أبي بكر بن زهر (بضم الزاي وسكون الهاء)، ذلك أن الأخير أنشد شعرا يتشوق فيه إلى ولد صغير له تركه في إشبيلية سمعه المنصور، فأرسل" المهندسين إلى إشبيلية، يعني من غير علم من ابن زهر، وأمرهم أن يحيطوا علما ببيوت ابن زهر وحارته، ثم يبنوا مثلها بحضرة مراكش، ففعلوا ما أمرهم به في أقرب مدة وفرشها بمثل فرشه، وجعل فيها مثل آلاته ثم أمر بنقل عيال ابن زهر وأولاده وحشمه وأسبابه إلى تلك الدار." ولما دخل ابن زهر وجد ولده يلعب فسر بذلك، وهذا يدل على مهارة المهندسين والفنيين الذين أشرفوا على بناء القصر والحارة. وهناك العديد من القصور التي شيدت في مراكش في هذه الفترة، ففي القصبة" أحد عشر أو اثنا عشر قصرا حصينا في غاية الجودة، بناء وزخرفة من تشييد المنصور".

وكان كل قصر مخصص لطائفة معينة، فقصر كان يقيم به الرماة، وآخر لسكن رئيس اصطبلات الملك، ومنها ما كان يستعمل مدرسة لأبناء الملك وأبناء أسرته. ورغم أن تلك القصور تعوزها "المتانة والضخامة اللتان تميزت بهما قصور الخلافة القرطبية - كما تدل على ذلك بقاياها المحدودة - فقد كانت تبعث الحياة في صحونها حدائق تدور ببرك تنعكس على صفحاتها ذوات أعمدة ممشوقة، كما كانت تسهم في تجلية قاعاتها أزر ذوات أشرطة مطلية باللون الحمر وزخارف جصية مختلفة الألوان، وإذا كنا لا نعرف شيئا عن السقوف التي كانت تغطيها، ففي مقدورنا أن نتصورها - بغير مبالغة في التخيل - ذوات رقائق خشبية مدهونة بألوان شتى براقة". إلا أن تلك القصور التي كانت تدل على عظمة مراكش في عهد المنصور، هجرت في بداية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، وأصبح الكثير منها خرابا "يعشش فيها الحمام والبوم والغربان وما شابهها".

لقد تمازجت الخبرات الأندلسية مع المغربية في بناء قصور مراكش في عهد حكام الموحَدين، "ووكلوا بها هِمما طامحة لم ترض بالدون ولم تقتصر على النزر التافه، فصارى ما انتهت إليه همهم جلب المرمر لها من عمل المرية بالأندلس". إلا أن هذه المعالم قد تعرضت للتخريب في دولة بني مرين الذين اتخذوا مدينة فاس عاصمة لهم وترامت هممهم إلى مساجلة حكام الموحّدين في اختطاط القصور بها، فكانوا ينقلون المرمر من قصور مراكش الموحّدية ويستعملونها في مبانيهم الجديدة.

ومن أهم القصور التي تحتضنها مدينة مراكش، قصر البديع، ويعدّ من أهم معالمها البارزة. وينسب بناء هذا القصر إلى أحمد المنصور الذهبي (986هـ - 1012هـ / 1578م- 1603م) "الذي سما أمله إلى ما شاهده بالقسطنطينية من التألق في مبانيهم فأمر بتأسيسه وجمع له أهل الهندسة والصناع من أقطار المغرب وجلب الرخام من بلاد الروم، ورسمه للمعلمين على شكل لم يتقدم". وذلك في أعقاب انتصاره على الجيش البرتغالي سنة 986هـ / 1578م في معركة وادي المخازن. واستمر العمل في بنائه مدة 16عاما (986-1002هـ/1578-1594م) رغم استجلاب الصناع والفنيين وخاصة

صناع مدينة فاس المهرة بل وهناك فنيون من أوروبا شاركوا في بنائه واستوردت مواد البناء من تمبكتو وأوروبا والهند والبرازيل.

تدلّ المصادر والروايات التاريخية على أنّ قصر البديع كان جنة على أرض مراكش، فلقد كانت المميزات الأولى للقصر السعدي هذا العدد من القباب التي تحمل أسماء جميلة وأوصافاً دالة. فهنا قبة الخمسينية، وقبة الزجاج (أو قبة الذهب)، وقبة النصر، وقبة التيجان، والقبة الخضراء، والحمراء والبيضاء، والقبة العظمى التي أمر العاهل باختطاطها لاستقبال الوفود المتتالية من الممالك القاصية من المشارق والمغارب، إنها عشرون... كما امتاز بطائفة من الصهاريج المختلفة المقاييس والمساحات، وقد شيدت على أرض ارتفعت على أصول الأشجار حتى يستفاد من مائها لسقي الحقول المترامية تحتها".

وكان قصر البديع يمثل مدينة متكاملة داخل مراكش، فقد كان يحتوي على قصر إقامة السلطان، ومساجد ومطابخ وحمامات وحجرات ودار القضاء ودار لصك العملة ومخازن وسجون وقلعة لاستقبال الوفود القادمة من الخارج.

وتنوعت التأثيرات الفنية على طراز القصر، إذ "يتجلى الأثر الموريسكي في بناء القصر، وهو العنصر البارز، كذلك يلاحظ تأثير جزئي لبعض فنون الشرق، كما في أشكال التوريق الصينية، بما في ذلك الأوراق الطويلة والمسننة والقرنفل، إلى جانب بعض الزخارف المستمدة من الفن السوري".

بعد وفاة المنصور السعدي تعرض قصر البديع إلى التخريب والدمار على يد بنيه نتيجة للصراع على السلطة، إضافة إلى ما تعرضت إليه مراكش من مجاعات وأوبئة انعكست آثارها على القصر والمعيشة في مراكش، "وقد خرب مولاي إسماعيل العلوي هذا القصر العظيم الذي طالما استقبل كبار السفراء والمبعوثين، وكان موضوع وصف رائع من لدى كبار الشعراء، وكان تخريبه منه 1119هـ / 1710م... وقد نالت عدة مراكز من المغرب قطعا من هذا الأثر المحطم".

أما بالنسبة للبيوت فيمكن القول إن الطابع العام في تنظيمها: "باب يؤدي إلى دهليز يتناسب مع حجم البيت ومن الدهليز إلى صحن البيت حوله الغرف، وقد تكون الدار أرضية أو ذات طابقين، وإن كانت الدار كبيرة فقد يكون لها أمام الغرف أروقة تدفع عنها حر الشمس ومطر الشتاء"، وهو الطابع العام للبيوت العربية الإسلامية.

6. المنشآت المائية : اهتمّ المرابطون بجلب المياه إلى مدينة مراكش، وقد مرّ بنا كيف استخرج عبيد الله بن يونس المهندس الماء الذي تسقى به بساتين مراكش، بصنعة هندسية عجيبة؛ عن طريق السواقي التي تنساب طبيعيا، في عهد الأمير يوسف بن تاشفين. وقام ابنه الأمير علي بتشييد الكثير من القناطر سواء في الأندلس أو المغرب، ولعلّ أشهرها تلك التي شيدها بمراكش وهي قنطرة نهر تانسيفت والتي وصفها المؤرخ والجغرافي الإدريسي بأنها: "قنطرة عجيبة البناء متقنة الصنع، بعد أن جلب إلى عملها صناع الأندلس وجملا من أهل المعرفة بالبناء. فشيدوها وأتقنوا بنيانها حتى كملت".

ولقد استفاد علي بن يوسف بالخبرات الأندلسية والمغربية في بناء قنطرة تانسيفت، والتي بلغ "طولها 400 متر... وتعتمد على واحد وعشرين قوسا مبنية بالآجر والجير". لكنها لم تلبث إلا أعواما يسيرة إذ أتى عليها سيل فهدمها.

اعتنى الموحّدون بالمنشآت المائية في مراكش وخاصة في عهد يعقوب المنصور الذي قام

بتجديد قنطرة نهر تانسيفت سنة 566هـ / 1170م. وأنشأ بالضاحية التي ألحقها بمراكش "الصهريج الكبير، والصهريج في مصطلح أهل المغرب البركة، وهي بركة عظيمة عليها سور وباب، يصب فيها النهر الثاني الداخل إلى مراكش، وفيها توزع بقياس معلوم على قصور الناس ثم ينحدر بقية الماء في نهر يشق المدينة من جهة أخرى في وسط الأسواق وما بعد، وفيها بركة تصب فيها المياه".

وممّا يدل على الاهتمام بالمنشآت المائية في مراكش كثرة بساتينها التي أنشأت في العهدين المرابطي والموحّدي، حتى وصفت بأنها أكثر بلاد المغرب جنات وبساتين وأعنابا وفواكه وجميع الثمرات.

الفنون الزخرفية :

1. **الزخرفة المعمارية :** كان لسيطرة المرابطين على الأندلس أثره الكبير في تمازج الفن المغربي مع الفن الأندلسي، وزاد ذلك في عهد الموحّدين، مما نتج عنه؛ الطراز المغربي الأندلسي.

كانت عناصر الزخرفة المعمارية على عهد المرابطين والموحّدين تتكون من: "الأقواس المختلفة من مدورة ومذببة ومتجاوزة ومفصصة، وإن كان العقد المغربي المفضل هو الحدوي المتجاوز الذي ظل إلى الآن سمة للمحاريب المغربية. ولقد تطور القوس المفصص على عهد الموحّدين فأعطى أشكالا متنوعة، من المسنن (المكشكش) وذي الأسنان المدورة والمستقيمة كما انتشرت القبوات الغنية بالمقرنصات المتنوعة".

استعمل المرابطون في زخرفة الجدران الجص، كما استخدموه "في زخرفة المحاريب وأضفوا عليها من الجمال ثوبا قشيبا فزينوها بزخارف حفرت في الجص، وقد عرفت هذه الطريقة في بلاد المغرب باسم (نقش حديدة) الأمر الذي يدلّ على أن النقش على الجص كان يؤدى بآلة من الحديد، كما أنهم استعملوا أيضا طريقة أخرى في زخرفة الجص كانت مألوفة في العراق في القرن الثالث الهجري في الطراز الثالث من طرز سامراء وهي استعمال قوالب Moulds مرسوم عليها زخارف يضغط بها على الجص، وهو لا يزال لينا، وهذه الطريقة تجعل زخرفة المساحات الواسعة ميسورة في أسرع وقت وبأقل نفقة".

اعتبر الموحّدون في أيامهم الأولى الزخرفة ترفا لا مبرر له، وكانوا "يؤثرون التقشف في كل شيء، ولعلّ خير ما يدل على ذلك أن فقهاء مدينة فاس قد اضطروا أن يستروا النقوش والزخارف التي كانت تزين محراب مسجد القرويين عندما علموا بقدوم زعيم الموحّدين عبد المؤمن بن علي لزيارة المسجد وخافوا من انتقاده". على أنّ هذا التحفظ في الزخرفة ما لبث أن زال، ونلاحظ ذلك في زخرفة مئذنة جامع الكتبية وباب أكناو في مراكش .على أن الموحّدين اتجهوا "إلى تفضيل أسلوب معماري أبسط نسبيا عما كان قبلهم، كما فضلوا الزخارف النباتية التي سادت بلاد الشرق الإسلامي على الزخارف الأندلسية المفرطة في تفريعات أوراقها وأزهارها".

كان قوام الزخارف في العهدين المرابطي والموحّدي الزخارف الهندسية والنباتية، وكانت ورقة الأكانتس من العناصر الرئيسية في الزخارف النباتية. وبمقارنة الزخرفة النباتية المرابطية مع نظيرتها الموحّدية يلاحظ "أن الواحدة منها تختلف عن الأخرى اختلافا نسبيا. فالزخرفة النباتية المرابطية التي هي أقل تنوعا من تلك التي ترجع إلى العصر الأموي، ومقتصرة على أشكال أقل عددا، هي كجميع أنواع الزخرفة الخاصة بنفس

العهد كثيفة وصغيرة جدا حتى تكاد تصبح مختلطة المعالم. أما الزخارف النباتية الموحدية، فهي أكثر بساطة وأكثر عرضا نتيجة الزهد الموحدي، وتتضمن مساحات فارغة حتى تكاد توحي أحيانا بشيء من الفقر. "إذ يلاحظ على التوريق الموحدي "أن سعفة الأكانتوس تفقد عادة تفصيلاتها الداخلية وتكون عادة مجردة الشكل وربما كان ذلك بتأثير الفاطميين في مصر أو المشرق".

استخدمت في زخرفة المعالم العمرانية في مدينة مراكش المقرنصات، ولعل من أبرزها والتي لاتزال قائمة إلى اليوم المقرنصات الموجودة في مئذنة جامع الكتبية، والذي تجمل أيضا "بخمس قباب مقرنصة تسلسلت على طول بلاط المحراب". على أن زخرفة المقرنصات لم تقتصر على القباب بل اتخذ منه الفنانون في المغرب والأندلس "وسيلة لتزيين فتحات الأبواب والنوافذ وزوايا المداخل وبواطن العقود والمحاريب وكل مكان في البناء يصلح لقبولها، وهكذا لعبت هذه الزخرفة دورا واضحا في عمائر العصر الأندلسي المغربي سواء في بلاد المغرب أو في بلاد الأندلس".

كما استخدمت الفسيفساء في زخرفة الجدران، ومن أمثلة ذلك محراب جامع القصبة الغني" بتطعيمه بالفسيفساء التي تكون أشكالا هندسية استمدت أصولها من الزخرفة المصرية العربية في عهدها الأول". كما ترك لنا الوزان وصفا لإحدى مدارس القصبة فيذكر أنها "مزخرفة بالفسيفساء البديعة، وحيث لا توجد فسيفساء تغطي الجدران الداخلية بزليج من الطين المشوي اللماع المقطع على شكل أوراق رقيقة أو بمواد أخرى بدل الفسيفساء".

والحقيقة أن السيادة في العهدين المرابطي والموحدي كانت للفن الأندلسي، "إذ انتقلت الأساليب الأندلسية إلى مراكش القرن السادس الهجري (12م) وشيدت العمائر الغنية بالزخارف الجصية والحجرية في مراكش ورباط وتلمسان".

2. **النحت على الخشب** : ارتبط فن النحت على الخشب مع فن العمارة، إذ " كان الاستخدام الأساسي للخشب في العالم الإسلامي معماري، وكانت الروعة والتنوع للزخرفة الخشبية من أجل إرضاء الذوق العام. والخشب مادة عملية تسمح باستغلال بقاياه مهما كانت صغيرة من طرف فنيين مهرة، ومنها تمت صناعة نماذج فنية مبهرة تؤدي غرضا وظيفيا."فقد استخدم الخشب في صناعة الأسقف والنوافذ والأبواب والمنابر والمقصورات وكراسي المصاحف إضافة إلى استخدامه كمادة زخرفية لأنه سهل التشكيل. ومن المعلوم أنه في بداية العصر الإسلامي "بقيت الأساليب الهلينستية والساسانية متبعة في الحفر على الخشب ."وبعد حركة الفتوح العربية الإسلامية واستقرار العرب المسلمين في الأراضي المفتوحة اتجهوا إلى الفتح الثاني وهو الفتح العلمي الصناعي، فابتكر الفنانون العرب المسلمون" في ختام القرن الثامن الميلادي أسلوبا زخرفيا يناسب طريقة الحفر الجديدة - وهي طريقة الحفر المائل أو المشطوف - التي يغلب أن يكون أول ظهورها على الخشب". وحدث تطور كبير في الأساليب الفنية في المشرق الإسلامي في الفترتين العباسية والفاطمية. وبالنسبة لبلاد المغرب " فإنّ الأساليب الفنية القديمة ظلت قائمة في فجر الإسلام ولم تفقد صلتها بالفن الروماني ولم تتأثر بالطراز الأموي إلا تأثرا بسيطا، كما لم تتأثر بالطراز العباسي إلا تأثرا بطيئا لا يكاد يظهر قبل القرن العاشر. وازدهرت في الأندلس إلى القرن الحادي عشر أساليب فنية وثيقة الصلة بالطراز الأموي حتى يمكن اعتبارها طرازا أمويا غربيا. ثم

أتيح للأندلس والمغرب أن يتحدا تحت حكم دولة المرابطين"، فظهر ما عرف باسم الطراز المغربي الأندلسي.

ومن أهم الأعمال الخشبية المنحوتة في مراكش والتي تعود للفترة المرابطية منبر جامع الكتبية الذي يعدَ من أجمل المنابر في العالم الإسلامي. وقد تضاربت الآراء في نسبة هذا المنبر، فهناك من نسبه إلى المرابطين وهناك من نسبه إلى الموحّدين. "وقد تبين أنه من عمل المرابطين. وقد وقف المستشرق المأسوف عليه سوفاجيه J. Sauvaget على نقش كتابي في نهايته العبارة التالية (اللهم أعن الأمير[علي بن يوسف] بن تاشفين ومن بعده ولي عهده) مما يحدد تاريخا بين سنتي 1139م و1142م (534-537هـ) وهذا ما تؤكده السكة، وينحصر في الفترة الممتدة بين تولية تاشفين وموت أبيه علي ... وقد اشتهر المنبر منذ القدم بأنه من أجلّ المنابر شأنا في بلاد الإسلام بعد منبر المسجد الجامع بقرطبة، ولعله اتخذ مثلا له". وقد صنع هذا المنبر بمدينة قرطبة بالأندلس من "عود وصندل أحمر وأصفر، وصفائحه من الذهب والفضة". ويمتاز بكثرة الزخرفة والحشوات "ذات الرسوم النباتية الدقيقة والأشكال المختلفة ... فإننا نرى في حشوات منبر الكتبية نجوما مثمنة الأطراف، كما نرى أن معظم الحشوات مثلثة الجوانب كل منها على شكل حرف M . وكانت سدايب الخشب التي تحبس الحشوات مرصعة بالعاج والأخشاب النفيسة المتعددة الألوان. وعلى هذا المنبر كتابات بالخط الكوفي البسيط حينا والمورق حينا آخر. وتبدو الثروة الزخرفية في رسوم الحشوات وقوامها المراوح النخيلية ذوات العروق الدقيقة، ولكنها مختلفة في كل حشوة عنها في الحشوات الأخرى. ومما يلفت النظر في هذه الرسوم وغيرها من رسوم الحشوات الخشبية في ذلك العصر أنها تنطلق في حرية فلا تتقيد بتقابل أو تناظر، ولكنها لا تصل بسبب هذا إلى التنافر أو الشذوذ". وتطعيم منبر الكتبية بالعاج زاده جمالا وهو يعدّ "أول مثال للمنابر المطعمة بهذه المادة". إضافة إلى ذلك فقد استخدمت الكتابة كعنصر زخرفي، "فهناك تكوين ذو سعة عظيمة يشغل اللوحة الخلفية للمنبر (ظهره) حيث يظهر النقش الكتابي بين زخارف بنائية طبيعية في مجال الترصيع ويضمها صف من عقود متداخلة وملتفة... كما تدخل في لوحة أخرى عقود صغيرة متشابكة تختلط فيها الخطوط".

أما أهم المآثر الموحّدية المصنوعة من الخشب في عهد الموحّدين فمنبر ومقصورة جامع القصبة. يذكر صاحب الحلل الموشية بأن عبد المؤمن لما بنى المسجد الجامع زوده بمقصورة "من الخشب لها ستة أضلاع، تسع أكثر من ألف رجل، وكان المتولي لصنعة خروجها رجل من أهل مالقة، يقال له الحاج يعيش...وكيفية هذه المقصورة أنها وضعت على حركات هندسية ترفع بها لخروجه (عبد المؤمن)، وتخفض لدخوله، وذلك أنه صنع على يمين المحراب باب داخله المنبر، وعن يساره باب داخله دار فيها حركات المقصورة". ولم نتمكن من الحصول على وصف لزخرفة هذه المقصورة، فقد ركزت المصادر التاريخية التي أشارت إليها على الحركات الميكانيكية التي تظهر بها وتختفي.

أما بالنسبة لمنبر جامع القصبة فقد بلغ حدا من الروعة والجمال، إذ "تزين جوانبه أشكال متعددة الأضلاع متشابك بعضها ببعض، وتضم داخلها حشوات تكون أشكالا هندسية... أما الحشوات فغنية بزخارفها وتفريعاتها النباتية المزهرة، وهي محفورة

بإحكام وتفصيل دقيق ... وزاد في فخامة هذا المنبر تطعيمه بالعظم والخشب الثمين".

3. صناعة الخزف والفخار : لم تعرف مراكش صناعة الأواني الخزفية ذات البريق المعدني، إذ "كانت الصدارة للأندلس في إنتاج الخزف في غربي العالم الإسلامي، فقد كانت سائر بلاد المغرب تستورد منها أنواع الخزف الجميل، أما ما كان ينتجه الخزفيون في الجزائر ومراكش فكان خزفا شعبيا للاستعمال العادي".

ويبدو أنّ مدينة مراكش لم تنل شهرة في هذه الصناعة في العهدين المرابطي الموحدي، إذ "تمثل الفترة الواقعة بين القرنين 11 و13م / 5 و7هـ أكثر الفترات غموضا في تاريخ الأواني الفخارية بالغرب الإسلامي". وهذا الغموض جعلنا لا نعرف غير القليل عن الخزف المغربي في هذه المدة؛ فقد ظهرت بعض القطع من الأواني الفخارية لبعضها آذان على هيئة أجنحة منبسطة، زخرفت قطع منها بالنقوش الهندسية والنباتية.

كما استعمل الخزف في تكسية وزخرفة بعض المباني المعمارية، ومثال ذلك الخزف المموّه المحلى برسم هندسي المثبت في إفريز الطابق الأول من مئذنة جامع الكتبية بمدينة مراكش.

ويمكن القول إن الخزف والفخار المنتجيْن في الفترتين المرابطية والموحدية كانا للاستعمال المحلي، إذ كانت الصدارة للأندلس وخاصة مدينة بطرنة قرب بلنسية.

أما بالنسبة لصناعة الزجاج فمن المعلوم أن صناعته قد " ازدهرت في مصر وسوريا وإيران وبلاد الرافدين. وعندما فتح العرب المسلمون هذه البلاد أثناء القرن السابع الميلادي استمرت صناعته، وليس هناك ما يدل على انقطاعها خلال تلك الأحداث". ولم يكن للمغرب باع فيما يتعلق "بالخزف والزجاج، فلم يصلنا منه من عهد المرابطين والموحدين إلا نماذج قليلة، وإن كان لهذا النوع من الصناعة الازدهار في الأندلس، أما المغرب فلم تكن لصناعته في هاتين المادتين أهمية، وما وصلنا منها يدل على صناعة بدائية إلى حد ما".

4. فنون الكتاب : بعد جمع القرآن الكريم أراد العرب المسلمون أن يحافظوا على المصاحف فظهر التجليد وأخذ في التطور حتى أصبح فنا خاصا برع فيه العرب المسلمون. وقد ازداد الاهتمام بالفنون الزخرفية للكتب وخاصة زخرفة المصحف الشريف التي " قوبلت في أول الأمر بمعارضة من بعض رجال الدين، ولكن هذه المعارضة قد خفت وطأتها بالتدريج، واقتحمت الزخرفة هذا الكتاب السماوي فأثبتت وجودها في فواصل الآيات وفواصل السور. ولكن المعارضة ظلت قوية عنيدة مدة من الزمن فيما يختص بزخارف الصفحات الأولى التي تسبق النص القرآني والتي تأتي في نهايته، لأنّ تلك الزخارف - على عكس زخارف الفواصل - لا هدف لها إلا الجمال الفني فحسب، وتغلبت الروح الفنية أخيرا ووصلت زخارف هذه الصفحات إلى قمة نضوجها في المصاحف التي ترجع إلى القرنين الثامن والتاسع بعد الهجرة". وكان قوام هذه الزخرفة، الزخارف الهندسية التي فاقت في الاستعمال الزخارف النباتية، وكانت أغلب الألوان المستخدمة فيها الأزرق والذهبي.

وقد ازدهرت حركة الوراقة والتجليد في مدينة مراكش، وكان بها "من دكاكين الكتبيين مائتا دكان لبائعي الكتب المخطوطة؛ كانت بجوار جامع الكتبيين؛ متصلة بأسفل منارته العالية". وقد تطور فن التجليد في القرن السابع الهجري، إذ عثر على غلاف مصحف بين مجموعة مخطوطات بجامع الكتبية بمراكش ويعود تاريخه إلى سنة 654هـ /

1206م. "وأبرز ما في هذا الغلاف أمران : أولا أن لوح الخشب فيه قد استبدل بالورق السميك (الكرتون) وبدأت هذه الطريقة تشق طريقها في فن التجليد حتى اليوم، وثانيا الطريقة التي اتبعت في تذهيبه إذ كانت ... تقوم على لصق صفائح رقيقة من الذهب على الجلد بواسطة آلة ساخنة، وهذا المثال هو أقدم غلاف أستخدم فيه التذهيب بهذه الطريقة. أما زخارفه فأهم ما فيها العناصر الهندسية التي تكثر فيها النجمة ذات الثمانية رءوس ومن هنا أطلق المغاربة على هذا الزخرف اسم المثمن". والغلاف "مغطى بجلد يميل إلى السمرة. ويزدان متنه بأشرطة متشابكة تكون أشكالا هندسية مختلفة، منها نجمة ثمانية تتوسط الغلاف ملئت هذه الأشكال بخطوط دقيقة مكونة مربعات متداخلة على هيئة النسيج. وقد كان هذا التشبيك الزخرفي محببا لدى المغاربة، وكانوا يطلقون عليه اسم المثمن لأن مدار تكونه نجمة ذات ثمانية رؤوس."واستخدم الفنانون المسلمون في تجليد الكتب طريقة التثقيب وطريقة قطع الجلد إلى رقائق ولصقها بأشكال جميلة على الغلاف، إضافة إلى تثبيت صفائح رقيقة من الذهب على الجلد بواسطة آلة ساخنة.

وقد تداخلت فنون تجليد الكتب مع الفنون الزخرفية الخشبية في تجليد وصنع حافظة وكرسي لمصحف الخليفة عثمان بن عفان. فقد نوّه الكثير من المؤرخين (المراكشي، المعجب / المقري، نفح الطيب / ابن صاحب الصلاة، المنّ بالإمامة وغيرهم) "بالصندوق الذي أمر عبد المؤمن بصنعه في مراكش لتحفظ فيه نسخة القرآن القديمة المشتملة على أربع ورقات بخط الخليفة عثمان وكانت لا تزال محفوظة بين ذخائر جامع قرطبة، وتستخرج أيام الجمع ليتلى منها في بيت الصلاة ما تيسر من الآيات." وقد أورد ابن صاحب الصلاة وصفا له يدلّ على اهتمام الموحدين به، فيذكر بأن"على مصحف عثمان كلة حمراء تصونه، والمصحف المكرم منظم حول حفظه بالجوهر النفيس، والياقوت الأحمر، والأصفر، والأخضر الغريب، والزمرد الأخضر النفيس العجيب، وقد جلبت أحجار الياقوت والزمرد والجوهر إلى الخليفة الأول الرضي الخليفة المهدي، ثم لابنه أمير المؤمنين ...". أما المقري فقد نقل عن أبي بكر بن طفيل - الذي شاهد المصحف - اهتمام الموحدين به والمبالغة في تعظيمه، فذكر أنهم "شرعوا في انتخاب كسوته، وأخذوا في اختيار حليته، وتأنقوا في استعمال أحفظته، وبالغوا في استجادة أصونته، فحشروا له الصناع المتقنين [والمهرة المتفننين] مما كان بحضرتهم العلية وسائر بلادهم القريبة والقصية، فاجتمع لذلك حذاق كل صناعة، ومهرة كل طائفة من المهندسين والصواغين والنظامين والجلائين والنقاشين والمرصعين والنجارين والزواقين والمجلدين وعرفاء البناءين...". وقد صنع لهذا المصحف "محمل غريب الصنعة، بديع الشكل والصبغة... مغشى كله بضروب من الترصيع، وفنون النقش البديع، في قطع الأبنوس والخشب الرفيع... مدار بصنعة قد أجريت في صفائح الذهب... وصنع لذلك المحمل كرسي يحمله عند الانتقال، ويشاركه في كثير من الأحوال، مرصع مثله ترصيع غريب...". ويذكر المراكشي صاحب المعجب أن أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن قد استلم من صاحب صقلية - نظير هدنة- "ذخائر لم يكن عند ملك مثلها. مما اشتهر منها حجر ياقوت يسمى الحافر، جعلوه فيما كللوا به المصحف، لا قيمة له، على قدر استدارة حافر الفرس، هو في المصحف...مع أحجار نفيسة". وكان أمراء الموحدين يحملون هذا المصحف "بين أيديهم أنى توجهوا، على ناقة حمراء عليها من الحلي

النفيس وثياب الديباج الفاخرة ما يعادل أموالا طائلة وقد جعلوا تحته بردعة من الديباج الأخضر يجعلونه عليها وعن يمينه ويساره عصيان، عليهما لواءان أخضران، وموضع الأسنة منهما شبه تفاحتين وخلف الناقة بغل محلى أيضا عليه مصحف آخر يقال إنه بخط ابن تومرت، دون مصحف عثمان في الجرم، محلى بفضة مموهة بالذهب. هذا كله كان بين الخليفة منهم".

وقد استفاد الأوربيون من التقنيات المستعملة في فن التجليد عند العرب المسلمين في المغرب والأندلس "وانتقلت طريقة التذهيب إلى أوروبا، وشاع استخدامها من القرن الخامس عشر، وكذلك كان بالبندقية مركز هام للتجليد، وكان القائمون بالعمل فيه صناعا مسلمين، وإليهم يرجع الفضل في إحياء طرق التجليد الإسلامية واستمرارها في أوروبا، وبلوغها شأوا كبيرا في العصور الحديثة".

وختاما يمكن القول إن اتصال المغرب بالأندلس وبقاءهما لفترة تحت حكم واحد أدّيا إلى تداخل "الأساليب الفنية العربية الموجودة بشمال إفريقيا مع الطراز الأندلسي العربي، ولقد نتج عن هذا الامتزاج فن مختلف عن الفنون الإسلامية المعاصرة".

لقد حافظت مدينة مراكش على تاريخها وأصالتها رغم ما تعرضت له في كثير من الأوقات من دمار على أيدي المتصارعين على الحكم، ومن أوبئة ومجاعات. فهي كما وصفها صاحب الرحلة المراكشية في سنة 1351هـ / 1932م بقوله: "هي مدينة لم تزل من حيث أسست دار فقه وعلم وصلاح، وهي قاعدة بلاد المغرب وقطرها ومركزها وقطبها فسيحة الأرجاء، صحية الهواء، بسيطة الساحة، مستطيلة المساحة، كثيرة المساجد، عظيمة المشاهد... هي قاهرة المغرب الآن وأكبر عواصمه وحواضره من حيث اتساع مساحتها، وكثرة عدد سكانها، واستفحال العمران بها... إن القطر المغربي بجميع حواضره وبواديه ينتسب إليها ويطلق عليه في الخارج اسم مراكش من باب تسمية الشيء بأكبر وأشهر أجزائه".

سعيد علي بن حامد

جامعة الفاتح

المصادر والمراجع

أولاً - المصــادر :

- الإدريــسي، أبــو عبــد الله محمــد بــن محمــد (ت.560هـ / 1164م) : المغـرب العربـي مـن كتاب نزهة المشتاق، حققه محمد حاج صادق. منشورات .O.P.U، باريس، 1983.
- ابن الأثير، علي ابن أحمد (ت. 630هـ / 1232م): الكامل في التاريخ، بيروت، 1966.
- ابن خلدون، عبد الرحمن (ت.808هـ / 1406م): العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، 1968.
- ابـن خلكـان، شـمس الـدين أحمـد (ت.681هـ / 1281م) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمـان، حققه إحسان عباس، المجلد السابع، دار صاد، بيروت، 1978.
- ابـن سـعيد، علــي بــن موســى (ت.685هـ / 1286م) : كتــاب الجغرافيــا، حققــه إســماعيل العربي، 1973.
- ابن صـاحب الـصلاة، عبد الملك (ت. 594هـ / 1198م) : تــاريخ المـــن بالإمامـــة علـــى المستضعفين بـأن جعلهم الـوارثين، تحقيق عبد الهادي التازي، القسم الثاني، بيروت، 1964.
- ابـن قنفـذ، أحمـد الخطيـب : أنـس الفقير وعـز الحقيـر، اعتنــى بنـشره محمـد الفاسـي، أدولـف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965.
- ابن قنفذ، أحمد الخطيب : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق محمد الشاذلي النيفر، عبـد المجيـد التركـي، الـدار التونـسية للنـشر، تونس، 1968.
- البيدق، أبو بكر بن علي الصنهاجي (القرن 6هـ/ 12م) : كتاب أخبار المهدي بن تومرت، تحقيق عبد الحميد حاجيات، الجزائر، 1974.
- الحميـري، محمـد بن عبـد المـنعم (ت. 626هـ / 1228م) : الـروض المعطـار فـي خبـر الأقطـار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1984.
- الحموي، يـاقوت (ت 626هـ / 1228م) : معجم البلدان، بيروت، 1977.
- الزركشي، محمد بن إبراهيم : دولة عبد المؤمن ابن علي، تحقيق محمد ماضور، تونس، 1965.
- المراكشي، ابن عذاري (ت 712هـ / 1312م) : البيان المغرب في أخبار الأنـدلس والمغرب، دار الثقافة، بيروت، 1967.
- المراكشي، عبد الواحد (ت. 581هـ / 1185) : المعجب فـي تلخـيص أخبـار المغـرب، ضـبطه وصـححه محمـد سـعيد العريـان، محمـد العربـي العلمي، القاهرة، 1949.
- المقـري، أحـمـــد بـن محمـد (ت. 1041هـ / 1631م) : نفـح الطيـب مـن غـصن الأنـدلس الرطيب، حققه محمد محيـي الدين عبد الحميد، بيروت، (د.ت).
- المؤقت، محمد بن محمد بن عبد الله : الرحلة المراكـشية أو مـرآة المـساوئ الوقتيـة، الـدار البيضاء، (د.ت).
- مؤلـف مجهـول (القـرن 8هـ / 14م) : الحلـل الموشـية فـي ذكـر الأخبـار المراكـشية، حققـه سهيل زكار، عبد القـادر زمامـه، الـدار البيـضاء، (د.ت).
- مؤلـف مجهـول : كتـاب الاستبـصار فـي عجائـب

الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء، (د.ت).

- الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد (ت.1315هـ / 1897م) : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء، 1954.
- النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت. 733هـ / 1332م) : تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق د.مصطفى أبو ضيف أحمد، الدار البيضاء، 1985.
- الوزان. الحسن بن محمد (ت. 939هـ / 1532م) : وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي، محمد الأخضر، بيروت، 1983.

ثانياً - المراجع العربية والمعرّبة :

- أشباخ، يوسف : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين، ترجمة محمد عبد الله عنان، القاهرة، 1985.
- بالباس، ليوبولدو توريس : الفن المرابطي والموحّدي، ترجمة سيد غازي، الإسكندرية، 1976.
- بروفنسال، ليفي : الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة السيد محمود عبد العزيز سالم، محمد صلاح الدين حلمي، الإسكندرية، 1990.
- بنعبد الله ، عبد العزيز : مظاهر الحضارة المغربية، الدار البيضاء، 1957.
- البهنسي، عفيف : الفن الإسلامي، دمشق، 1986.
- التازي، عبد الهادي : قصر البديع بمراكش، الرباط، 1977.
- تورنو، روجي لي : حركة الموحّدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، ترجمة أمين الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، 1982.
- جامعة الدول العربية - المؤتمر الخامس للآثار في البلاد العربية، تقرير عن النشاط الأثري بالمملكة المغربية، منشورات الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، القاهرة، 1969.
- جوليان، شارل أندري : تاريخ إفريقيا الشمالية، الجزء الثاني، تعريب محمد مزالي، البشير بن سلامة، تونس، 1983.
- حامد، سعيد علي- مراكش مدينة التاريخ والأصالة، مجلة آثار العرب، العدد الرابع، مارس 1992م. طرابلس - ليبيا.
- حركات، إبراهيم : المغرب عبر التاريخ. الدار البيضاء، 1984.
- حسن، حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، القاهرة، 1967.
- حسن، حسن علي : الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، القاهرة، 1980.
- حميد، عبد العزيز وآخرون : الفنون الزخرفية العربية الإسلامية، بغداد، 1982.
- ديماند، س : الفن الإسلامي، ترجمة أحمد عيسى، القاهرة، 1958.
- زكي، محمد حسن : فنون الإسلام، بيروت، 1981.
- العبادي، أحمد مختار : في تاريخ المغرب والأندلس، بيروت، (د.ت).
- عبد الحميد، سعد زغلول : العمارة والفنون في دولة الإسلام، الإسكندرية، 1986.
- علام، عبد الله علي : الدولة الموحّدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، مصر، 1971.

- علام، نعمت إسماعيل : فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية، القاهرة، 1977.
- عنان، محمد عبد الله : عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القاهرة، 1964.
- عوض، حسان : جغرافيا المدن المغربية، الرباط، 1964.
- فكري، أحمد : في العمارة والتحف الفنية، نشر ضمن كتاب أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية، القاهرة، 1970.
- القصيري، اعتماد : فن التجليد عند المسلمين، بغداد، 1979.
- كونل، أرنست : الفن الإسلامي، ترجمة أحمد موسى، القاهرة، 1961.
- مرزوق، محمد عبد العزيز : الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس، بيروت، (د.ت).
- المنوني، محمد : حضارة الموحّدين، الدار البيضاء، 1987.
- المنوني، محمد : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحّدين، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1977.
- موسى، عز الدين أحمد : النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، بيروت، القاهرة، 1983.

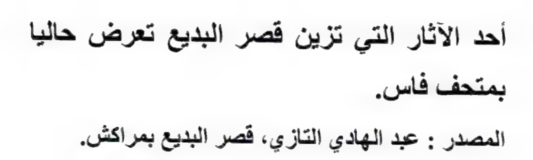
ثالثاً ـ المراجع الأجنبية :

- Harthan, John : Book Binding, Victoria and Albert Museum, London, 1961.
- Hill, Derek & Lucien Golvin : Islamic Architecture in North Africa, Faber and Faber Limited, the Alden Press Oxford, G.B., 1976.
- Marçais, Georges : L'Art Musulman, Paris, 1962.
- Pinder-Wilson, Ralph-Glass, : The arts of Islam, The Council of Great Britain, England, 1976.
- Scarce, Jennifer - Wood, : The Arts of Islam, England, 1976.



جانب من قصر البديع





أحد الآثار التي تزين قصر البديع تعرض حاليا بمتحف فاس.

المصدر : عبد الهادي التازي، قصر البديع بمراكش.



المصدر : كتاب الوزان، وصف إفريقيا



أحد أبواب مراكش

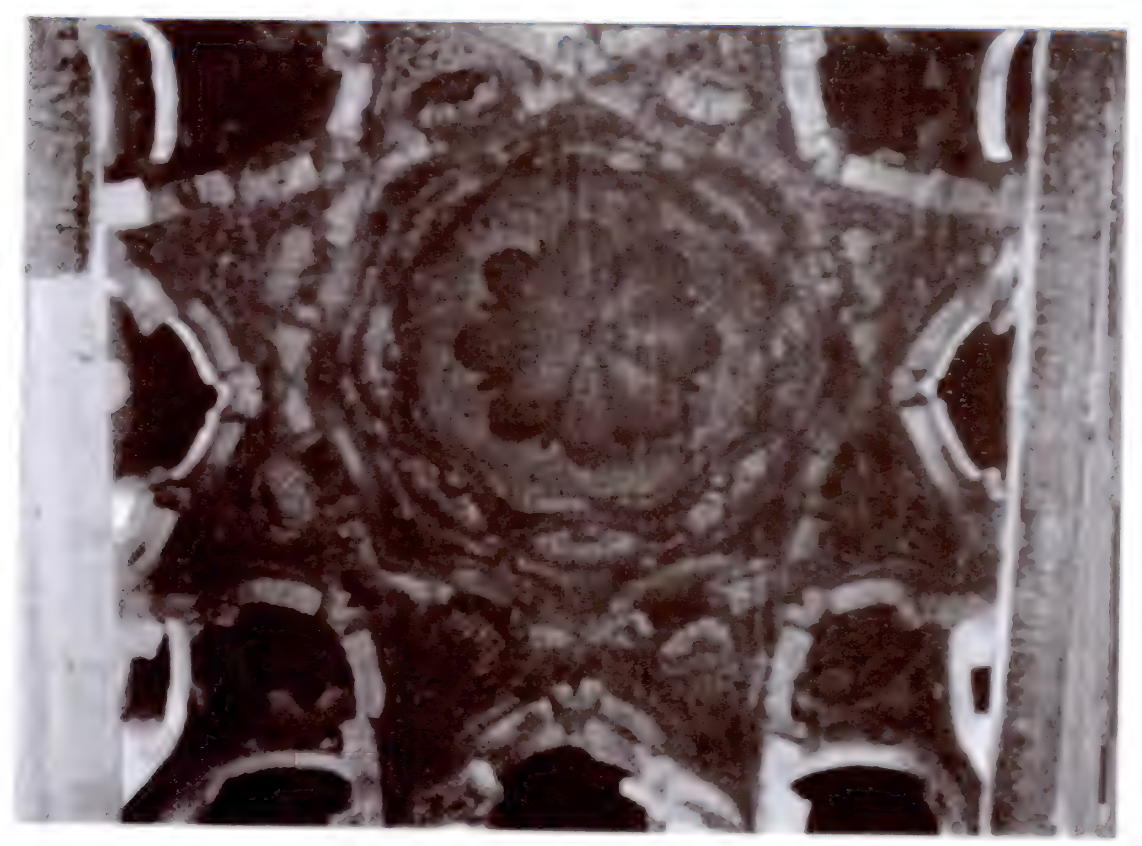


جانب من سور مراكش



منظر لمراكش عام 1641 حسب لوحة (أدريان ماثام) المحفوظة في أمستردام.

المصدر: د. عبد الهادي التازي، قصر البديع بمراكش.



قبة المرابطين بمراكش، وتبدو الزخارف التي تزين القبة من الداخل.
المصدر : هيل، جولفين - العمارة الإسلامية في شمال إفريقيا.



قبة المرابطين بمراكش، وتظهر زخارف القبة والعقود التي تحملها.
المصدر : هيل، جولفين - العمارة الإسلامية في شمال إفريقيا.



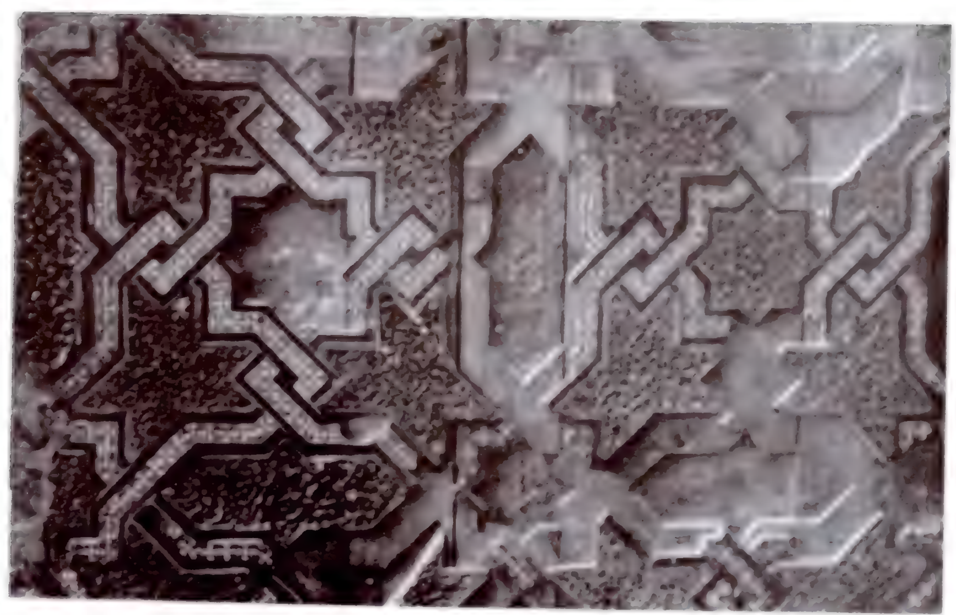
الجانب الغربي من منارة جامع الكُتُبيّة بمراكش التي شيدها الموحّدون وتبدو فيها الزخارف المتنوعة.

المصدر : هيل، جولفين - العمارة الإسلامية في شمال إفريقيا.



منبر جامع الكُتُبيّة الذي صنع قرطبة يعرض حاليا في قصر الباهية بمراكش.

المصدر : هيل، جولفين - العمارة الإسلامية في شمال إفريقيا.



الزخارف الرائعة بمنبر جامع الكُتُبيّة.

المصدر : هيل، جولفين - العمارة الإسلامية في شمال إفريقيا.



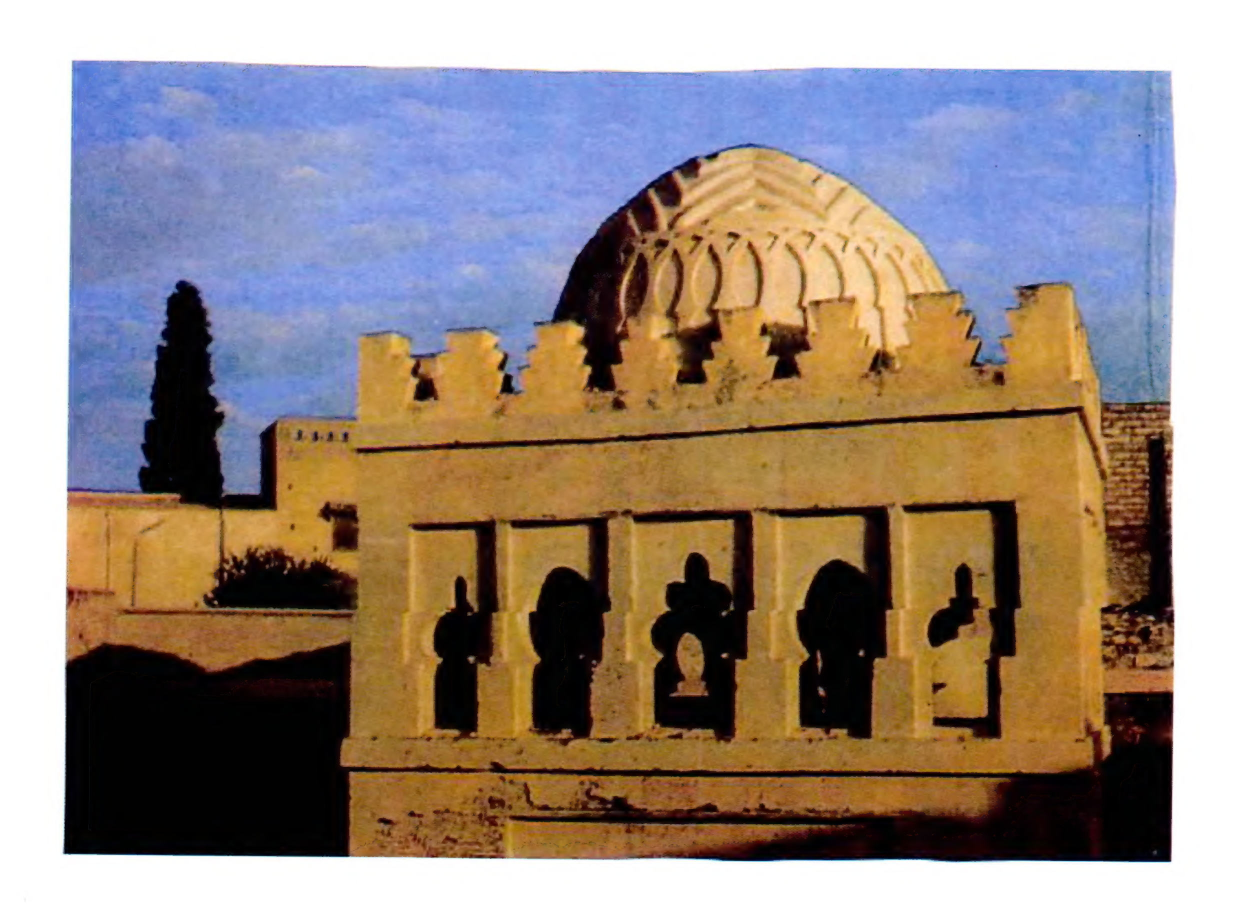
باب أكناو بمراكش

وهو يمثل العمارة الحربية، وتبدو فيه الزخارف المتعددة التي تعطيه مهابة وجمالا.

المصدر : هيل، جولفين - العمارة الإسلامية في شمال إفريقيا



جانب من باب أكناو بمراكش
وتظهر التفصيلات الزخرفية والإطار الذي به كتابة كوفية مورقة.
المصدر : هيل، جولفين - العمارة الإسلامية في شمال إفريقيا



قبة المرابطين، وهى جزء من قصر قد تهدم .
وتبدو الزخارف التي تكسو القبة، والنوافذ المتنوعة العقود.

المصدر : هيل، جولفين، العمارة الإسلامية في شمال إفريقيا .

الفهرس

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع	الصفحة

الفصل الخامس ـ المغرب والأندلس